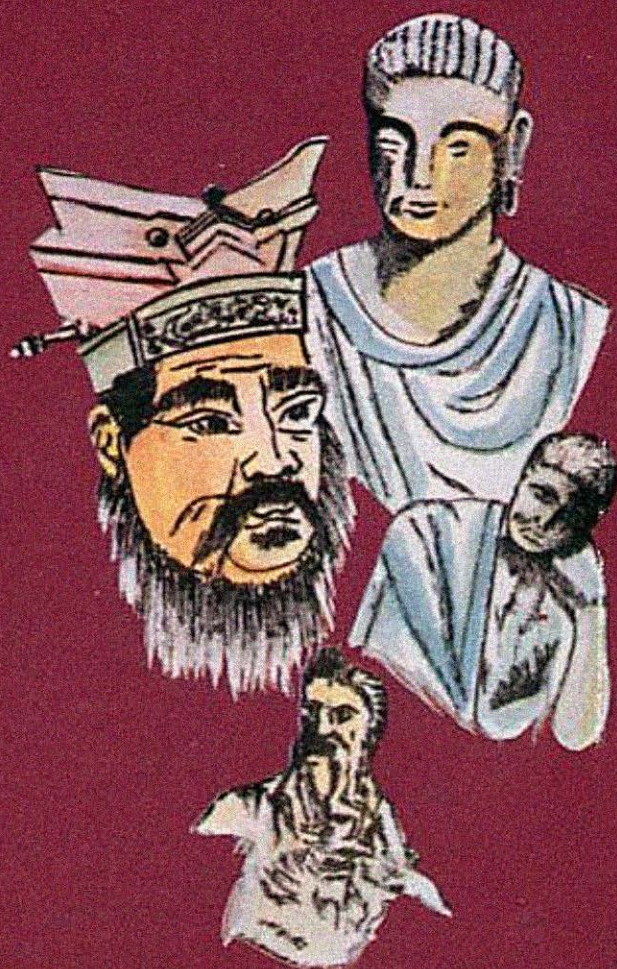


تاریخ المعتقدات والأفكار الدينية

تأليف
میر سیال بیاد

ترجمة
عبد الحمید صادی عباس

الجزء الأول



علي مولا

دار الفکر

تاريخ
المعتقدات والأفكار الدينية

عنوان الكتاب بالفرنسية

HISTOIRE DES CROYANCES
ET DES IDEÉS RELIGIEUSES

MIRCEA ELIADE

تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية الجزء الأول

ترجمته
عبد الحميد عيسى
الحامدي

تأليف
ميرزا آلي

منه البنية - تصورات مسخر دينية لله في العصور الحجرية - أطول فترة - اكتشاف الزراعة - العصر الحجري القديم والحديث - ديانات ما قبل التاريخ - أفكار دينية وأزمات سياسية في مصر القديمة - ميثاقية - معابد مراكش اعتقالية - ديانات الجاهليين والكنعانيين - عندما كان إسرائيل طفلاً - ديانات الهندو آريين - الآلهة الغريبة الهند قبل برونزا - زوس وديانة الإغريقية - الأديسبيره والديانات - إسرائيل يوزيس - زرادشت والديانة الإيرانية - ديانة إسرائيل في عصر الملوك والديانة - دوتنوس والسعادة المستمرة .



حقوق الطبع محفوظة

لدار دمشق

طبعة أولى

١٩٨٦ - ١٩٨٧

طبع في مطابع الشام

١٩٨٦/١٠/٣٠٠٠



دمشق - شارع بورسعيد - هاتف ٢١١٠٤٨ - ٢١١٠٢٢

مقدمة المترجم

كنت أتمنى أن يتصدى لترجمة هذا الكتاب من هو أكثر اختصاصاً مني في هذا الموضوع الهام ومن هو أكثر قدرة على نقله الى اللغة العربية بجلاء وبيان أوضح ، ومن تدرس في ميدان الترجمة ولا سيما في مثل هذه البحوث التي تحفل بمصطلحات خاصة و متميزة . ومع ذلك فأنني عندما تسنت لي قراءة هذا الكتاب الصادر حديثا (١٩٨٣) شعرت بفراغ المكتبة العربية من مثل هذه الدراسة الشمولية في تاريخ الأفكار والمعتقدات الدينية كما تخيلت مدى الفائدة من نقل هذا الكتاب ليطلع القارئ العربي الذي لم يقيض له أن يقرأه في اللغة التي كتب بها على آفاق من المعرفة حجبتها عنه أنواع قديمة جدا من الاضطهاد وكبت حرية الفكر التي ضربت جذورها العميقة في ثقافة وحياة مجتمعا . وبحيث غدا الفكر العربي منذ زمن طويل فكرا لا تاريخيا يفتقد الحد الأدنى من الموضوعية ويجمد على أفكار سلفية منسلخة عن عصرها تقدس الماضي وتستخدمه حولا جاهزة لمشاكل الحاضر والمستقبل ولا سيما في نطاق البحث المتعلق بالمقدس والمحرم كما رسمت خيوطها خاصة في عصور الانحطاط وبالقطيعة مع كل موضوعية أو منهجية علمية ...

منذ أكثر من ألف سنة أدرك شيخ المعرفة أبو العلاء بثناب بصيرته ما في بعض الأمور والممارسات الدينية لدى الشعوب من أوهام وأباطيل فعبّر بكلمات موجزة ضمن أبيات قليلة من الشعر وبنظرة شمولية عن ارتبابه في بعض الأفكار والطقوس ، ولكن هذا بقي في نطاقه المؤتم حسب منطق الفكر السائد وبقي القارئ العربي مؤطراً بترائه المصوب في قوالب وتفسيرات خاصة ، أغلق باب الاجتهاد فيها وفقد الفكر ضمنها كل استقلاله وحرية ، وهكذا منذ المهدي الى اللحد يتلقى كلمات ومفاهيم ، وحكايات وأساطير وخيالات وطرق تعامل مع الأشياء وكأنها حقائق أزلية لا مجال فيها لاستعمال العقل أو التفكير ، لأن مهمة المنطق والعقل حصرت في التذكير وليس في الاستكشاف أو محاولة الفهم . .

إن ثقل الماضي على الحاضر أمر لا مرأ فيه ، كما أنه لا مرأ في أن الحاضر ما هو الا تراكم للماضي ، ولكن اللجوء الى المثل الأعلى القديم وفي كل مجالات الحياة ان هو الا محاولة للتعويض الخيالي عن بؤس الحاضر وإيثار للبعد عن منطق الحياة المتجددة وعن رسالة الفكر التي تعلو عن كونها مجرد أشادة بالماضي السحيق كنموذج متفرد وعن المديح لكل موروث بأشخاصه ورموزه مهما كانت تلك الرموز بعيدة عن الواقع ومنطق العصر ومهما كانت الاستحالة قائمة في توافق أفكار أولئك الأشخاص مع منهج العصر ومقوماته .

لقد منع الدين الاسلامي التشخيص ، وربما كان ذلك اعلاء منه للفكر وللعقل الذي به وحده يمكن الاندماج الواعي الأصيل في حضارة العصر الذي نعيشه . ومنذ وقف باب الاجتهاد وحصره بأراء قامت بدور باهر في عصرها حصلت هوة كبرى حالت وتحول دون مواكبة العصر . ودون دراسة التراث ومنعكساته على الحياة بما يتلاءم مع معطيات الحضارة ومكتشفاتها . ولهذا لا بد في سبيل التطور المنشود من إفساح المجال للفكر ليحقق رسالته ويعالج الأمور بنظرة شمولية تحاول الافادة من معطيات العلم في العصر الحديث وتحاول أن تقيم ما يمكن إقامة من الروابط بين عالم الفكر وعالم الواقع . والخروج من عالم الاسطورة الى عالم العقل ومن ميدان الغموض والتبرير الى نطاق التمييز والوضوح .

لقد قيض للغرب في حضارته الحديثة وبعد طول معاناة أن يخضع كل شيء للبحث والاستقصاء والنقد . وأصبحنا نعيش حالة على هذه الحضارة التي تتحكم في كل مجال حياتنا ومع ذلك لم نستطع أن نأخذ منها خيراً ما فيها ألا وهو إخضاع كل شيء للبحث والاستقصاء والنقد والاصلاح . وعلى سبيل المثال ما زلنا نخاف البحث في أمور الدين الذي نعتبره موضوعاً مثالياً ، معطى من عند الله يحوطه التقديس ولا يمكن دراسة معتقداته وتاريخه كعلم انساني حتى ولو تعلق الأمر بأفكار وآراء أشخاص تاريخيين وفي فترات متقطعة ومتباعدة وكأن مجرد التعرض لآراء هؤلاء ولو في شؤون الحياة من مأكّل وملبس وزواج واقتصاد الخ .. هو تقويض لبنيان المجتمع وخيانة عظمى توجب الاعدام ..

لقد رفض الفكر الغربي منذ بداية العصر الحديث كل منهج قبلي وكل معطى سابق واكتشف زيف كثير من المسلمات السابقة .. وبذلك جعل طريق معرفته الوحيد مبني على التجربة ، مستبعداً كل معرفة ما وراثية ومؤمناً بالمعرفة الانسانية وحدها ، ولم يشن هذا الفكر عن مسيرته محاولات الكثيرين للدفاع عن المعرفة الالهية عن طريق الحدس او العقل البديهي . وبذلك جعل الطبيعة مصدر معرفته والميدان الخصب لتقرير ما يعتبره الحقيقة وبهذا وحده بنى فكره الحضاري ونشأ وتطور الى ما نشاهده الآن ، وبهذا أيضاً كشف سطحية وزيف الكثير من المعطيات التي كانت تعتبر مقدسة في حياة الشعوب ، وكل ذلك ضمن مناهج علمية تستهدي بالحقيقة وحدها دون تهيب أو خوف من آراء وتيارات تستسلم بدعة الى خرافات وأساطير وقيم قديمة عفى عليها الزمن ، وبدون أن تترك ميداناً من ميادين المعرفة الانسانية المترابطة بمعزل عن البحث والاستقصاء .

ومن هنا تأتي - في رأينا - أهمية مثل هذا الكتاب الذي تصدينا لترجمته رغم ما نشعر به من قصور في هذا الميدان ولأنه الكتاب الأول الذي نمارس فيه الترجمة . وإذ نأمل لهذا المؤلف أن يصل الى أكبر عدد من القراء العرب نرجو أن يغفروا ما قد يصادفونه من هنات ، ويكفينا أننا من واقع ايماننا برسالة الفكر

وخدمة المجتمع كان اقدامنا على هذه الترجمة التي بذلنا فيها الجهد لتأتي بقدر
الامكان واضحة مفهومة معبرة عن منهج المؤلف وقصده .

المترجم
المحامي : عبد الهادي عباس

مقدمة المؤلف

إن كل مظهر للمقدس هو بالنسبة لمؤرخ الأديان ذو محصلة ، فكل طقس ، وكل اسطورة وكل معتقد أو صورة الهية يعكس تجربة المقدس ، ومن ثم فهو يدخل مفاهيم التكون ، والمعنى والحقيقة . وكما أشرت في مناسبة أخرى ، «من الصعب أن نتصور كيف يمكن للنفس البشرية أن تتحرك دون الاقتناع بوجود شيء حقيقي لا يمكن انقاصه في هذا العالم ، ومن الصعب التصور كيف يمكن للشعور أن يبدو بدون أن يضفي دلالة لاندفاعات ولتجارب الانسان . ان الشعور بعالم حقيقي وذي معنى مرتبط صميمياً باكتشاف المقدس . وبتجربة المقدس ، أدركت النفس البشرية الفارق بين ما يتكشف كما لو أنه حقيقي ، قوي وغني وذي معنى ، وبين ما هو مجرد عن هذه الخصائص ، أي المد العمائي والخطير للأشياء ، وظهوراتها واختفاءاتها الطارئة الفارغة من المعنى» [كتاب الحنين الى الأصول ، ١٩٦٩ ص ٧] . وباختصار ، فإن «المقدس» هو عنصر في بنية الشعور ، وليس مرحلة في تاريخ هذا الشعور . وعلى المستويات الأكثر قدماً من الثقافة فإن العيش بصفة كائن بشري هو في ذاته عمل ديني ، لأن التغذية ، والحياة الجنسية والعمل لها جميعها قيمة مرتبطة بالأسرار . ويعبارة أخرى ، ان تكون - أو بالأحرى ، أن تصبح - انسانا يعني أن تكون «متديناً» .

لقد ناقشت جدلية المقدس وتشكله في مؤلفات سابقة ، منذ رسالة في تاريخ الأديان (١٩٤٩) حتى الكتاب الصغير المكرس لديانات الاستراليين (١٩٧٢) . والكتاب الحاضر قد بني وأقيم على منظور مختلف . فمن جهة ، حللت فيه مظاهر المقدس في نظام تسلسل تاريخي (ولكن يقتضي عدم الخلط بين «عصر» المفهوم الديني مع تاريخ أول وثيقة تثبته) ، ومن جهة أخرى - وفي المعيار الذي يسمح به التوثيق - أكدت بإصرار على الازمات في عمقها ، وبخاصة على الفترات الخلاقة لمختلف التقاليد وباختصار لقد حاولت أن أوضح الاسهامات الرئيسية في تاريخ الأفكار والمعتقدات الدينية .

كل مظهر للمقدس هام بالنسبة لمؤرخ الأديان ، ولكن ليس أقل وضوحا من ذلك ، أن بنية الاله أنو Anu ، على سبيل المثال ، أو نسب الآلهة والنشكونية المنقولة في الاينو مايلتش ، أو ملحمة جلجامش ، تكشف الابداعية والأصولية الدينية لشعوب ميزوبوتاميا (ما بين النهرين) ولحسن الحظ أكثر من الطقوس الرسولية ضد لاماشتو Lama shtu أو ميشولوجيا الاله نوسكو Nusku . وتتجلى أحيانا أهمية الابداع الديني بتقييماته المثالية . فقد وصلتنا معلومات قليلة جدا حول أسرار ايلوزيس وحول الاورفية الأكثر قدما ، مع ذلك فإن التخيل الذي فرضته على النخبة الاوروية منذ أكثر من عشرين قرناً يشكل واقعاً دينياً ذي دلالة عليا لم تتحقق من نتائجها بعد . وبالتأكيد ، ان التلقين المساري الايلوزي والطقوس الاورفية السرية ، الممجة من قبل بعض المؤلفين المتأخرين ، تعكس جميعها الغنوص (العرفان) المؤسطر والتوفيقية الاغريقية - الشرقية . غير ان هذا المفهوم للأسرار وللاروفية هو الذي أثر فعلا على هرمسية القرون الوسطى ، والنهضة الايطالية والتقاليد «المتسرة» للقرن الثامن عشر وللرومانسية ، وان الأسرار وأورفية الكتاب ، وصوفيات اللاهوتيين الاسكندرانيين هي التي ألهمت دائماً الشعر الأوروبي الحديث ، لريلكه و ت . س - اليوت وبيير إيمانويل .

ويمكن مناقشة صحة المعيار المختار لتأطير المساهمات الكبرى في تاريخ الأفكار الدينية . ومع ذلك ، فإن تطور العديد من الديانات يؤكد ، لأنه بفضل

أزمات في الأساس وابداعات ناجمة عنها توصلت التقاليد الدينية لأن تجدد نفسها . ويكفي تذكر حالة الهند ، حيث أن التوتر واليأس المتفجران بانخفاض القيمة الدينية للاضحية البراهمانية آثارا سلسلة من الابداعات المتألقة (الابوينشاد ، صياغة تقنيات اليوغا ، رسالة غوتا ما بودا ، الورع الصوفي . . الخ) ومشكلا كل واحد منها بالفعل حلاً متميزاً وجريئاً للأزمة ذاتها (انظر الفصل ٩ ، ١٢ ، ١٨ ، ١٩) .

لقد تأملت خلال سنوات في وضع مؤلف قصير ومفهوم ، يمكن قراءته في عدة أيام . غير أن تواصل القراءة يكشف بامتياز الوحدة الاساسية للمظاهر الدينية وفي ذات الوقت التجدد الذي لا يمكن نفاذه لعباراتها ، وان قارئ مثل هذا الكتاب سيوضع بحضرة الاناشيد القيدية للبراهمانيين والابوينشاد ، وخلال ساعات بعد أن يكون قد ألقى نظرة على الأفكار والمعتقدات لأناس العصور الحجرية الأولى ، ولشعوب ما بين الرافدين ومصر ، سيكتشف سنقارا ، والثاثرية وميلاريا ، والاسلام ، وجواشيم دي فلور أو باراسيلز ، وبعد أن يتأمل بزوغ زارادشت ، وغوتامابودا والثاوية ، وحول الاسرار الهيللنسية وانطلاقة المسيحية والغنوصية ، والكيمياء أو ميثلوجيا الغرال ، سيلتقي بالمتنورين والرومانسيين الألمان ، هيجل ، وماكس موللر ، وفرويد ، وجونغ وبونهور ، وبعد قليل من الوقت يكتشف كيتنرالكوتل وفيراكوشا ، والاثني عشر الفارز وغريغوار بالاماس ، والقبالين الأول ، وابن سينا وعزاي .

ويا للعجب ! إن هذا الكتاب القصير والمفهوم لم يكتب بعد وفي هذه الوهلة أقنعت نفسي بتقديم كتاب بثلاثة أجزاء ، وبأمل اختصاره حسب الظروف بكتاب واحد بحوالي ٤٠٠ صفحة ، وقد اخترت هذه العبارة التوفيقية بخاصة ، لسببين : فمن جهة ، لقد بدا لي مناسباً ذكر عدد من النصوص الهامة وغير المعروفة بما فيه الكفاية ، ومن جهة أخرى أردت أن أضع بتصريف الدارس المراجع النقدية الجاهزة الى حد ما . وعليه اختصرت الملاحظات والحواشي الى أدنى حد في أسفل الصفحات ، وجمعت في القسم الأخير من كل جزء المراجع والتعليق على بعض المظاهر التي وردت أو أشير إليها باختصار زائد . وبهذه الطريقة ،

يمكن قراءة الكتاب بشكل متصل ، متجنباً التوقف حيال مناقشة المصادر وعرض المسائل . ان بنية هذا الكتاب (تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية) تطلبت أداة نقدية معقدة ، وبالنتيجة ، قسمت الفصول الى فقرات ، مزودة برقم وعنوان صغير . ويستطيع الدارس الرجوع اذا رغب الى المراجع المذكورة في القسم الاخير من كل جزء . لقد حاولت وضع ، الجوهرى من المراجع ، تحت كل عنوان صغير دون أن تغيب عني الأعمال التي لا أشارك في توجهها المبدئي . وما عدا بعض الاستثناءات النادرة ، لم أذكر المؤلفات المنشورة في اللغات السكندينية أو السلافية أو البلقانية . ولكي تسهل القراءة اختصرت ترجمة الاسماء والمصطلحات الشرعية .

وباستثناء بعض الفصول ، فان هذا الكتاب يستجمع دروس تاريخ الأديان التي أعطيها ، منذ ١٩٣٣ الى ١٩٣٨ في جامعة بوخارست ، وفي مدرسة الدراسات العليا في ١٩٤٦ وفي ٤٨ وحتى ١٩٥٦ في جامعة شيكاغو . انني أنتمي الى هذا الصنف من مؤرخي الأديان الذين مهما كان «تخصصهم» يجهدون أنفسهم لمتابعة النجاحات المحرزة في النطاقات المجاورة ولا يترددون عن تغذية الدارسين حول مختلف المسائل المطروحة من قبل نظامهم وأمل ، في الواقع ، ان تدخل كل دراسة تاريخية بعض المؤلفات مع التاريخ الشامل ؛ وبالنتيجة ، ان التخصص الاكثر «تضييقاً» لا يستثني العالم من الالتزام بإقامة بحوثه في منظور التاريخ العالمي . وأشاطر كذلك القناعة لأولئك الذين يفكرون ان دراسة دانتى او شكسبير ، لابل دوستوفسكي أو بروس ، هي موضحة بمعرفة الكاليدازا Kalidasa ، والنوكو Nok أو Singepéleruim . وليس هنالك مسألة عن موسوعية - مزيفة ، عابثة ، واجمالا ، قاحلة . أنه يتعلق ببساطة بعدم الغفلة عن الوحدة العميقة وغير المنظورة لتاريخ النفس البشرية .

ان الشعور بهذه الوحدة للتاريخ الروحي للبشرية هو اكتشاف حديث ، وما زال غير متمثل بما فيه الكفاية . وستحقق من أهميته بالنسبة لمستقبل نظامنا في الفصل الأخير من الجزء الثالث . وفي هذا الفصل الأخير ، نناقش الأزمات المثارة من قبل أسياذ الانقسامية - منذ ماركس ونيشه حتى فرويد - والمساهمات المقدمة

من قبل الاناسة /الانثروبولوجيا/ وتاريخ الأديان ، والفينومينولوجيا ، والتأويلية الجديدة ، التي لن تحسب الابداع الديني والوحيد وانما لها الهام للعالم الغربي الحديث . انه يتعلق بمرحلة كلية لالغاء صفة القداسة . وان العملية تقدم فائدة ملحوظة بالنسبة لمؤرخ الاديان : انها توضح ، في الواقع ، التغطية الكاملة «للمقدس» وبدقة أكثر تطابقه مع «المدنس» ..

انني خلال خمسين سنة من العمل ، تلقيت الكثير من معلمي ، وزملائي وطلابي ، ولكل هؤلاء ، أموات واحياء احفظ أسمى اعتراف بالاخلاص . وأكرر الشكر أيضا لمدام ميشيل فرومانتو ، وجان لوك . وبنيون بفليو وجان - لوك بيدور بايو الذين تحملوا مشقة مراجعة النص لهذا الجزء الأول . ككل كتاباتي الأخرى منذ ١٩٥٠ ، فان هذا الكتاب ما كان يصل الى نتيجة لولا حضور ، ومودة ، وتفاني زوجتي . ومع السرور والتقدير ، أسجل اسمها على أول صفحة من ما سيكون على الأرجح آخر مساهمة مني في نظام عزيز علينا .

م . أ

جامعة شيكاغو ايلول ١٩٧٥

الفصل الأول

من البداية

تصرفات سحر - دينية لأهالي العصور الحجرية

١ - أدوات لصنع الأدوات - / استخدام النار

لن نناقش هنا مسألة (التحول إلى بشر L'hominisation) رغم أهميتها لفهم الظاهرة الدينية . ويكفي التذكير بأن الوضع المنتصب للانسان سبق أن ميّز الانتقال من طور الاوليات . فلا يمكنه البقاء واقفاً الا في حالة اليقظة . وبفضل وضع الانتصاب تنظم الفراغ في بنية متعذرة البلوغ لاسلاف الانسان : في أربعة اتجاهات أفقية موضوعة أبداً من محور مركزي // فوق // - // تحت // ويعبارات أخرى فإن الفراغ قد أنتظم حول جسم بشري ، وكأنه متجه للامام ، والخلف واليمين واليسار والأعلى والأسفل . إنه بدءاً من هذه التجربة الأصلية شعر أنه /ملقى/ في وسط امتداد ، هو حسب ظاهرة غير محدود ، ومجهول ، ومهدّد -

تنبعث منه مختلف وسائل التوجه ، إذ لا يمكن العيش طويلاً في المتاهة المثارة بعدم التوجه . هذه التجربة الموجهة حول /مركز/ تفسر أهمية التقسيمات والتوزيعات المثالية للأقاليم والتجمعات والمساكن ولرموزها الكونية /١/ .

وهناك فرق حاسم أيضاً بالنسبة لطريقة وجود الأوليات يبرز باستعمال الأدوات . فالإنسان الأول لم يستخدم الاداة فقط وإنما كان مؤهلاً لصنعها . صحيح أن بعض أنواع القردة تستعمل أشياء كما لو أنها أدوات ، بل وتعرف حالات لها تصنع فيها مثل هذه الأدوات ، إلا أن الإنسان الأول صنع أكثر من هذا لقد /صنع أدوات ليصنع بها أدوات/ . ومن جهة أخرى فإن استعماله للأدوات كان أكثر تعقيداً ، فهو يحتفظ بها قريبة منه ، جاهزة لاستخدامها مستقبلاً .

وباختصار فإن استعمال الأدوات غير محدد في وضع خاص أو ظرف معين كما هو لدى القردة . ويقتضي التأكيد على أن الأدوات لا تطيل أعضاء الجسد . أن أقدم الحجارة المعروفة قد صنعت لهدف وظيفة لم تكن مسبقاً ماثلة في تكوين جسد الإنسان ، وبصورة خاصة تلك المتعلقة بالقطع «عمل مختلف عن التمزيق بالأسنان أو الخدش بالظافر» /٢/ . إن التقدم البطيء جداً في التكنولوجيا لا يستدعي تطوراً مماثلاً في الذكاء . فمن المعلوم أن الانطلاقة المذهلة للتكنولوجيا في القرنين الأخيرين لم تترجم بتطور مماثل في ذكاء الإنسان الغربي . ومن جهة أخرى ، وكما لاحظنا «إن كل تجديد كان يلزم خطر موت جماعي» كما يقول /اندرية فارانياك/ . إن مقاومة التجديد التكنولوجي قد ضمن استمرارية حياة أهل العصور الحجرية .

إن تأهيل النار بمعنى امكانية انتاجها والاحتفاظ بها ونقلها يمكن من القول بأنه مُميز الفصل بين إنسان العصور الحجرية عن أسلافه من الحيوانات . وأقدم الوثائق التي تدل على استعمال النار هي وثائق ، تشو- كو- تيين التي تعود لحوالي ستمائة ألف سنة قبل المسيح ، غير أنه من المرجح أن /التأهيل/ للنار كان قد وجد قبل ذلك وفي أماكن مختلفة .

لقد توجب التذكير ببعض هذه الوقائع المعلومة جيداً كي لا نضل في قراءتنا للتحليلات التي سترد ، بأن انسان ما قبل التاريخ قد تصرف فيما سلف ككائن متمتع بذكاء وخيال . أما بالنسبة لنشاط اللاشعور - أحلام ، رؤى خيالات تصورات الخ . . . فيحتمل أنها لم تتميز لديه الا بحدتها واتساعها عما يوجد لدى معاصرنا . غير أنه يجب الفهم لمصطلحات الحدة والاتساع في معانيها الأكثر قوة والأكثر مأساوية . وذلك لأن الانسان هو الحصيـلة النهائية لقرار متخذ منذ بدء الزمان وهو : أن يقتل لكي يستطيع العيش .

وفي الواقع ، ان البشريات (أجناس الانسان les hominiens) قد نجحوا في تجاوز اسلافهم بأن أصبحوا أكلة لحوم . فخلال زهاء مليونين من السنوات عاش أسلاف أناس العصور الحجرية على الصيد ، وان الثمار والجذور والرخويات الخ ، التي كانت تجنبها النساء والأولاد كانت غير كافية لضمان بقاء النوع . ان الصيد حدد تقسيم العمل تبعاً للجنس ، مدعماً بهذه الطريقة (التحول البشري l'hominisation) ؛ لأنه لدى الحيوانات الضارية ، وفي كل عالم الحيوان لا يوجد مثل هذا التفريق .

غير أن المطاردة المستمرة وأمانة الفريسة قد انتهيا بانشاء منظومة من العلاقات الخاصة suigenris بين الصياد والحيوانات المقتولة ، وسنعود لهذه المسألة إلا أننا نعيد للذاكرة هنا بأن «التضامن الصوفي» بين الصياد وضحاياه قد تكشف بفعل القتل ذاته ؛ فالدم المراق هو من كل جوانبه مماثل لدم الانسان . وفي اللحظة الأخيرة إن «التضامن الصوفي» مع الفريسة يكشف القناع عن القرابة بين المجتمعات الانسانية وعالم الحيوان . فقتل الحيوان المصاد أو فيما بعد ، الحيوان المدجن يماثل «التضحية» وتكون الضحايا فيها قابلة للتداول /٣/ ولنحدد بدقة ، أن كل هذه المفاهيم قد تكونت أثناء المظاهر الأخيرة من عملية التحول لبشر (l'hominisation) . وانها ما زالت ناشطة - محورة ، ومقومة من جديد ، ومموهة - منذ ألاف السنين بعد انقضاء حضارات العصور الحجرية .

٢ - /كثافة/ وثائق عصور ما قبل التاريخ

إذا كان أهل العصور الحجرية قد اعتبروا /كبشر كاملين/ ، فيستتبع ذلك أنهم قد امتلكوا معتقدات ومارسوا بعض الشعائر ، لأنه ، وكما ذكرنا ، ان تجربة المقدس تشكل عنصراً في بنية الشعور . وبعبارات أخرى ، إذا عرضنا مسألة /التدين/ أو عدم التدين لأناس العصور الحجرية ، فإنه يقتضى لناصري/ عدم التدين/ تقديم الأدلة المدعمة لفرضيتهم . ومن المرجح أن افترض /عدم التدين/ لأناس العصر الحجري - قد طرح في عهود التطورية ، عندما اكتشفت المشابهات مع الرئسيات . الا أنه يتعلق بسوء فهم ، لأن ما يحسب في هذه الحالة ، ليس هو البنية التشريحية - العظمية لأناس العصر الحجري «المماثلة بالتأكيد ، للبنية التشريحية العظمية للرئسيات» وانما أعمالهم ؛ وان هذه الأعمال تثبت النشاط لذكاء لا يمكننا تعريفه سوى بأنه /انسانى/ .

غير أنه إذا كان من المتفق عليه اليوم ، حول واقعة أن أناس العصر الحجري كان لديهم دين ، فإن من الصعب ، إذا لم يكن عملياً من المستحيل ، تحديد ماهية محتوى هذا الدين . ومع ذلك لم يجد الباحثون من سلاحهم ، فبقي عدد من الوثائق الشاهدة على حياة أناس العصور الحجرية ، وما زال يؤمل النجاح باكتشاف معانيها الدينية . وبعبارة أخرى أنه يؤمل أن تكون هذه الوثائق قابلة لتشكيل لغة ، تماماً كما ، بفضل عبقرية فرويد ، ان الابداعات المعتبرة حتى ذلك الحين وكأنها لغو أو غير ذات معنى عن اللاشعور - أحلام ، أحلام اليقظة ، خيالات - الخ - قد كشفت وجود لغة قيمة جداً لمعرفة الانسان .

في الواقع ، إن /الوثائق/ متعددة جداً ، غير أنها مبهمة وقليلة التنوع : تعظمت بشرية وبصورة خاصة ، جاجم ، ادوات حجرية ، اصباغ (بالدرجة الاولى مغرة Ocre) أحمر (حجر يخضب به) وصباغ أحمر ، - ومختلف الأشياء التي وجدت في المقابر . ولم تتم سوى بدءاً من العصر الحجري المتأخر حيازة صور

ورسومات على الصخور ، وحصيات ملساء مرسومة وغنايل صغيرة من العظام والحجارة ، وفي بعض الحالات - مقابر ، وأعمال فنية - وفي الحدود التي ستفحصها فيها ، فاننا على الأقل متأكدون من مفهومها /الديني/ .

ولكن غالبية /الوثائق/ قبل الفترة الأوريغنيائية l'Aurignacien (ثلاثين ألف قبل المسيح) ، أي الادوات لا تكشف شيئاً خارج قيمتها الاستعمالية .

وعلى الغالب ، فإنه من غير المعقول أن تكون هذه الادوات غير مثقلة ببعض القداسة وأن لا توحى ببعض المشاهد الميثولوجية . ان الاكتشافات التكنولوجية الأولية - تحويل الحجر الى اداة للفتك والدفاع وصناعة النار - لم تضمن فحسب استمرارية الحياة والتطور للجنس البشري ، بل أنها أيضاً انتجت عالماً من القيم الاسطورية - الدينية ، وانها أثارت وغذت الخيال المبدع ، ويكفي تفحص دور الأدوات في الحياة الدينية والميثولوجية للبدائيين الباقين أيضاً في مرحلة الصيد والقنص من التطور .

إن القيمة (السحر - دينية) لسلح - من خشب أو من حجر أو من معدن - ما زالت تعيش أيضاً لدى الشعوب الزراعية الأوروبية ، وليس في فولكلورهم فحسب . ولا نود هنا تقييم ما يتعلق بالحجارة والصخور والحصى ، حيث سيجد القارئ أمثلة عديدة في فصل خاص بها من هذا الكتاب .

إن (السيطرة على المسافة) المكتسبة بصورة خاصة بفضل السلاح القاذف ، هي التي اثارت عقائد لا عد لها من الاساطير والخرافات ، ولنعيد الى الذاكرة الميثولوجيات المصاغة حول الحراب التي تغوص في قبة السماء وتسمح بالصعود الى السماء ، أو الأسهم التي تطير عبر الغيوم مختربة الشياطين ، أو مشكلة سلسلة حتى السماء الخ . . . لقد توجب على الأقل تذكر بعض المعتقدات والميثولوجيات للأدوات ، وفي المقام الأول منها الأسلحة ، كي نستطيع بشكل أفضل تقييم كل ما لم تستطع الحجارة المصنوعة من العصور الحجرية ان تصلنا به . ان عدم شفافية الدلالة لهذه الوثائق من عهد ما قبل التاريخ لا تشكل تفرداً . فكل وثيقة ، حتى

المعاصرة هي (غير شفافة روحياً) وقد يمر وقت طويل دون التوصل الى حل رموزها بادخالها في منظومة من الدلالات . إن أداة ، مما قبل التاريخ ، أو معاصرة لا يمكن لها أن تكشف سوى مقصدها التقني ؛ وكل ما فكر به منتجها أو مالكوها وكل ما شعروا به أو تخيلوه أو أملوا بعلاقتهم معها فيه ، يفوتنا . ومع ذلك يجب على الأقل محاولة /تصور/ القيم غير المادية لأدوات ما قبل التاريخ . وإذا لم نفعل ، فإن هذه الكثافة الاستدلالية يمكنها أن تفرض علينا معرفة مغلوبة وبشكل كامل لتاريخ الثقافة . اننا نخاطر ، مثلاً ، بخلط مظهر عقيدة مع التاريخ الذي تأكدت فيه بوضوح لأول مرة /٤/ . ففي عصر المعادن ، عندما المحت بعض التقاليد ، إلى أسرار المهنة ، ذات العلاقة مع العمل في المناجم ، والتعدين وصناعة الأسلحة ، سيكون طائشاً الاعتقاد أنه يتعلق باختراع لا سابقة له ، لأن هذه التقاليد تمتد ، أقله في جزء منها ، تراثاً من العصر الحجري .

فلزهاء مليونين من السنوات ، عاش أناس العصر الحجري ، على الصيد البري ، والبحري وعلى الجمع . غير أن الدلالات الأولية للحفريات المتعلقة بالعالم الديني لصياد من العصر الحجري ، ترجع للفن الجداري في الكهوف (ثلاثين ألف قبل المسيح) . وإن ما هو أكثر من هذا ، اذا تفحصنا المعتقدات والمعطيات الدينية للشعوب التي تعيش على الصيد المعاصرة ، فإنه يعاد النظر في عدم الامكانية الشبه كاملة للبرهان على وجود أو غياب المعتقدات المماثلة لدى أناس العصر الحجري .

إن الصيادين البدائيين يعتبرون الحيوانات مشابهة للبشر ولكنها ماهرة بقدرات فوق طبيعية ؛ وهم يعتقدون أن الانسان يمكن له أن يتحول الى حيوان وبالعكس ، وإن أرواح الموتى يمكنها الدخول في الحيوانات ، وفي النهاية يوجد علاقات سرية بين شخص وحيوان فردي . أما بالنسبة للكائنات المافوق الطبيعية المؤكدة في ديانات الصيادين ، فإنه يميز المرافقون أو (الأرواح الحارسة) ، والآلهة من نوع كائن أعلى رب للوحوش الكاسرة ، والحامي في آن واحد للطريدة وللصيادين ، والأرواح الدغل وأرواح أنواع الحيوان المختلفة .

وإضافة لذلك ، فإن العديد من التصرفات الدينية هي مميزة لحضارات الصيادين : اماتة لحيوان تشكل شعيرة ، الأمر الذي يقتضي الاعتقاد بأن رب الحيوانات المتوحشة يسهر على أن لا يقتل الصياد الا ما هو بحاجة إليه لغذائه ، وان الغذاء لا يجوز أن يبدد ، والعظام ، وبصورة خاصة الجمجمة لها قيمة شعائرية معتبرة (على الأرجح للاعتقاد بأنها تضم /الروح/ أو /الحياة/ للحيوان ، وانه بدءاً من الهيكل العظمي سيعمل رب الحيوانات على انبات لحم جديد عليها) ؛ وانه من أجل هذا تعرض الجمجمة والعظام الطويلة على الأغصان أو على المرتفعات ؛ ولدى بعض الشعوب ، ترسل روح الحيوان المقتول نحو /وطنه الروحي/ [«الاحتفال بالذب» لدى شعوب des Ainous و des Gilyaks] ؛ وتوجد كذلك العادة بتقديم قطعة من كل حيوان مقتول للكائنات العليا [البغمية les pygmés النيجريتيو les Négritos في الفيليين الخ] أو الجمجمة والعظام الطويلة (السامويد Samoyèds الخ .) ، ولدى بعض التجمعات السكانية في السودان يُلطخ الرجل بالدم جوانب مغارته بعد أن يصطاد طريدته الأولى .

كم من هذه المعتقدات وهذه الحفلات يمكن لها أن تتماهى في وثائق الحفريات التي هي تحت تصرفنا ؟؟ والأكثر تقدماً الجماجم والعظام الطويلة .

لن نصر كثيراً على غنى وتعقيد الايديولوجيا الدينية للشعوب الصيادية - وعلى عدم الامكانية الشبه كاملة لاثبات أو انكار وجودها لدى اناس العصور الحجرية . فكما كررنا مراراً عديدة : المعتقدات والافكار ليست أبداً قابلة لاجراء حفريات فيها . ولقد فضل بعض العلماء أن لا يقول شيئاً حول الأفكار والمعتقدات لأناس العصور الحجرية ، وبدلاً من إعادة تكوينها بمساعدة المقارنات مع حضارات الشعوب التي تعيش على الصيد . هذه الوضعية الميدية جذرياً ليست بدون خطر . فترك جزء ضخم من تاريخ الروح الانسانية على صفحة بيضاء يخاطر

بتشجيع الفكرة القائلة انه خلال كل هذا الزمن كان نشاط النفس محدوداً بالحفاظ على التكنولوجيا ونقلها . وعليه ، فإن مثل هذا الرأي ، ليس مغلوطاً فحسب بل هو تعيس بالنسبة لمعرفة الانسان . إن الانسان الصانع Homo Faber كان كذلك

الانسان العاقل sapiens والمتدين religiosus . وبما أنه لا يمكن إعادة تكوين معتقداته وممارساته الدينية ، فعلى الأقل يمكن الإشارة الى بعض المشابهات القابلة للايضاح بصورة غير مباشرة .

٣ - المعاني الرمزية للمدفن

إن الوثائق الأكثر قدماً والأكثر عدداً ، هي بوضوح ، عظام الموتى . فبدءاً من الفترة المoustérien (٧٠,٠٠٠ - ٥٠,٠٠٠) ق.م . يمكن الكلام بشيء من اليقين عن المقابر . الا انه قد وجدت جماجم وفكوك سفلى في مراكز أكثر قدماً ، مثلاً في شو- كو- تين [في اور eur تعود الى ما يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ - ٤٠٠,٠٠٠ ق.م . وقد طرح وجودها العديد من المسائل . وطالما انه لا يتعلق بالمقابر ، فإن حفظ هذه الجماجم يمكن أن يفسر بأسباب دينية . ان القس برويل l'abbé Breuil ووليام شميدت William Schmidt قد أعادا التذكير بالعرف المثبت لدى الاستراليين والشعوب البدائية الأخرى /٦/ . بحفظ جماجم اقربائهم الموتى وحملها معهم في تجوالهم . ومع أنه من المؤكد أن الفرضية غير مقبولة من أكثرية العلماء . وقد فسرت هذه الاعمال أيضاً كدليل لأكل لحم البشر الشعائري أو العادي . هكذا فسّر أ.س بلان A.C.Blanc قطع جمجمة النياندر تاليان néander thalien : التي وجدت في مغارة مونت سيركو : فالانسان ، كان قد ضرب على رأسه بضربة كسرت له الجبين اليمين ، ومن ثم جرى توسيع الثقب القذالي لاستخراج النخاع ولأكله شعائرياً ، ولكن هذا التفسير لم يقبل بشكل عام . إن الاعتقاد بحياة ثانية يبدو أنه قد برهن على وجوده منذ العصور الموعلة في القدم باستعمال الصباغ الأحمر البديل الشعائري للدم والذي هو رمز الحياة . ان عادة رش الجثث بالتراب الامغرب كانت منتشرة عالمياً وفي الزمان والمكان من شو- كو- تين حتى الشواطىء الغربية لأوروبا ، وفي افريقيا حتى رأس الرجاء الصالح ، وفي استراليا وتاسمانيا ، وفي أميركا حتى أرض النار ، أما بالنسبة للمعنى الديني للمقابر ، فقد عورض بقوة .

ولا يمكن الشك أن لحد الموتى يجب أن يكون له تبرير ، ولكن ما هو هذا التبرير بديلاً لا يجب أن ننسى أن (الطرح المجرد والبسيط للجساد في الحفر ، والتقطيع ، وإطعام الطيور ، والحرب العاجل من المسكن تاركاً الجسد فيه ، لا يعني مطلقاً غياب الأفكار عن عودة الحياة)^(٨) . وبالأولى فإن الاعتقاد بعودة الحياة قد تأكد بالمقابر ؛ ومن جهة أخرى لم يعرف العناء الذي يحصل لكي يدفن الجسد . ان هذه العودة للحياة يمكن لها أن تكون روحية محضة ، بمعنى أنها مدركة كوجود مسبق للنفس ، وهو اعتقاد مؤكد بظهور الموتى في الأحلام . غير أنه يمكن كذلك تفسير بعض المدافن . كاحتياط ضد عود مفاجيء للميت ؛ في هذه الحالات كانت الجثث تطوى وربما تحزم . ومن جهة أخرى لا يستبعد أن وضعية الطي للميت بعيدة عن افشاء الخوف من (الجثث الحية) - خوف مؤكد لدى بعض الشعوب ، وتعني على العكس الأمل بولادة جديدة ؛ لأنه تعرف حالات عديدة من الدفن مقصودة بوضعية جنينية .

من بين أفضل الأمثلة للقبور ذات الدلالة السحر - دينية ، نشير الى قبر تشيك تاش Teshik Tash في الأوزبكستان «ولد محاط بحلقة من قرون الماعز البري» وقبر كنيسة القديسين في كوريزا Correza «في الحفرة حيث كان الجسم ملقى وجدت عدة أدوات من الصوان وقطع من المغر الاحمر»^(٩) وقبر دولا فيراسي ، في دورودونيا «عدد من القبور ذات الاكيات مع مستودعات للأدوات من الصوان» ونضيف لذلك مقبرة مغارة مونت كارمل مع عشرة قبور . جرى نقاش ايضا حول رسمية ودلالة تقدمات من الأطعمة أو الأشياء المودعة في القبور ، وان المثال المألوف كثيرا هو مثال جمجمة نسوية لماز دازيل du mas- d'Azil ذات عيون مستعارة موضوعة على فك وقرن غزال الرنة .^(١٠) .

وفي العصر الحجري الأعلى يبدو ان ممارسة الدفن قد تعممت . الأجسام المرشوشة بالمغر الاحمر مدفونة في حفر حيث وجد معها عدد من أدوات الزينة ((أصداق - أقراط - عقود) . ومن الراجح أن الجماجم وعظام الحيوانات المكتشفة بجانب القبور هي بقايا وجبة شعائرية ان لم تكن تقدمات . ويقدر لوروا

غورشان Loroï Gowrchan أن «المتنولات الجنائزية أي الأدوات الشخصية للمتوفين ، هي مجال جدل كبير» . ان المسألة هامة ؛ فوجود أشياء كهذه لا يعني فقط الايمان باستمرار حياة فحسب ، وانما أيضا القناعة بأن الميت سيتابع نشاطه المميز في العالم الآخر . ان أفكارا مشابهة قد تأكدت بغزارة ، وعلى مستويات مختلفة من الثقافة . وعلى كل حال فان الباحث نفسه يعترف برسمية القبر الأوريكناس aurigacienne في ليغوريا Ligurié حيث أن الهيكل العظمي مصحوب بأربع من هذه الأشياء الغامضة المسماة عصي القيادة (Baton de commendement) وعليه فان بعض القبور على الأقل تشير بطريقة لا يمكن جحدها إلى أن العقيدة في استمرارية بعد الموت ذات فاعلية خاصة .

وباختصار ، يمكن الاستنتاج بأن القبور تؤكد الاعتقاد بحياة أخرى سبقت الإشارة إليها باستعمال المغر الأحمر . . وثمة بعض التأكيدات الإضافية : مدافن موجهة نحو الشرق ، مشيرة للنية بتثبيت مصير الروح على مسار الشمس ، حيث الأمل بعودة الولادة ، أو من تجدد الوجود في عالم آخر ، عقيدة في استمرارية النشاط المميز وبعض الشعائر الجنائزية معينة بالتقدمات لأشياء من الزينة وبقايا وجبات الطعام .

ويكفي تفحص الدفن لدى شعب قديم معاصر لنرى مدى غنى وعمق الرمز الديني المطبق في حفلة تبدو على درجة من البساطة ، ولقد أعطى ريشيل دولماتوف Reichel - Dolmatoff وصفاً مفصلاً الى حد ما ، عن دفن مشابه في عام ١٩٦٦ عند هنود «كوجي» وهي قبيلة تنطق بلغة شيبشا chibcha ، تسكن في سيرا نيفادا من سانتا مارتا في كولومبيا^(١٢) فبعد التوصل لاختيار مكان الحفرة ، ينفذ الشامان مجموعة من الاشارات الطقوسية ويعلن : «هنا قرية الموت ؛ هنا البيت الاحتفالي للميت ؛ هنا الرحم ؛ سأفتح الباب . إن البيت مغلق وسأفتحه» . وبعد هذا يعلن : «لقد فتح البيت» ثم يدل الرجال على المكان الذي يتوجب حفر الحفرة فيه ، ثم ينسحب . وقد غطيت الميتة بقماش ناعم أبيض ، والأب هو الذي يخييط الكفن . خلال كل هذا الوقت تدمم الأم والجدلة بأغنية

بطيئة وبدون كلمات تقريبا ، وفي عمق القبر توضع حجارة صغيرة خضراء ، وأصداف ، وقوقعة سلطعون . ثم يحاول الشامان بعد هذا عبثا رفع الجسد ، معطياً الانطباع بأنه ثقيل جداً ، ولا ينجح برفعه الا في المرة التاسعة . ويوضع الجسد والرأس باتجاه الشرق (ويغلق البيت) أي تملأ الحفرة ، وتجري حركات طقوسية أخرى حول القبر ، وأخيراً ينسحب الجميع ، وقد دامت الحفلة زهاء ساعتين .

وكما لاحظ (ريشيل دالماتوف) ، فإن حفاراً في المستقبل ، لن يجد عند حفرة القبر ، سوى هيكل عظمي مع رأسه المتجه للشرق وبعض الحجارة والصدف ، أما الشعائر وبصورة خاصة المعتقد الديني المطبق ، فلن يمكن الحصول على شيء منها استناداً لهذه البقايا^(١٣) . ومن جهة أخرى ، فإن رموز الحفلة ستبقى غير مدركة حتى للمراقب الأجنبي المعاصر الجاهل لدين الكوجي Koji ، ولأنه - كما كتب دالماتوف - يقتضي تحرير محضر للمقبرة باعتبارها (قرية الموتى) وبيت الاحتفال لهم ، وإن تحرير المحضر للحفر سيكون بصفتها /بيتا/ و/رحا/ وهذا ما يفسر الوضعية الجنينية L'position Foetale للجسد النائم على جانبه الأيمن «المتبوع» بمحضر من التقدّمات بما في ذلك الأطعمة من أجل الميت، وبشعيرة (الفتح) و (الغلق) للميت الرحيم . وإن التطهير الشعائري النهائي بالخنثق المحصن يكمل الحملة .

من جهة أخرى فإن /الكوجي/ يماثلون العالم - رحم الأم الكونية - بكل قرية ، وكل منزل للطقوس ، وكل مسكن وكل قبر . فعندما يرفع /الشامان/ الجثة تسع مرات فإنه يرمز بذلك لعودة الجسد الى حالته الرحمة ، مجتازاً في اتجاه معاكس الأشهر التسع للحمل . وباعتبار أن القبر مشابه للعالم ، فإن التقدّمات الجنائزية تأخذ معنى كونياً . وإضافة لذلك ، فإن التقدّمات (أغذية للميت) لها أيضاً معنى جنسي sexual «في الأساطير ، والأحلام وقواعد الزواج ، و/فعل الأكل/ يرمز عند الكوجي للفعل الجنسي» . وبالتيجة يكون بذرة /semence/ تخصب الأم . والاصداف مكلفة برمز تقليدي على شيء من التعقيد ، فليس هو

جنسي فقط : انها تمثل الأعضاء الحية للعائلة ، في حين أن قوقعة السرطان ترمز لزوج الميتة ، لأنها اذا لم توجد في القبر ، فان الفتاة ، ما تكاد تصل للعالم الآخر /حتى ستطلب زوجاً/ الأمر الذي يستدعي موت شاب من القبيلة . . .

ونوقف هنا التحليل للرمزية الدينية التي يتضمنها دفن /كوجي/ . ولكنه يقتضي أن نشير الى أنه - مع الاعتماد على مستوى الحفريات فقط ، ان مثل هذا الرمز لا يمكن ادراكه - كما هو الأمر في قبر يعود للقرون الحجرية . تلك هي الطريقة الخاصة للوثائق الحفرية التي تحدد وتفقر /الرسائل/ القابلة للنقل . ولا يجوز مطلقاً فقدان رأى هذا الواقع عندما نواجه بفقر وكثافة مصادرها .

٤ - الاختلاف حول مستودعات العظام ، القديمة

ان مستودعات عظام دبية المغاور ، المكتشفة في جبال الألب ، والمناطق المجاورة ، يشكل (الوثائق) الأكثر عدداً ، ولكن الأكثر تناقضاً أيضاً ، فيما يتعلق بالافكار الدينية للعصور الجليدية المتأخرة . ففي مغارة دراشتيلوش Drachanloch (سويسرا) ، وجد اميل بشلر Emile Bachlar مستودعات من العظام ، وبصورة خاصة جماجم وعظام طويلة ، وقد كانت مجمعة وموضوعة اما على طول الجدار واما في الأوكار الطبيعية في الصخور ، وإما في نوع من التجويف في الحجارة . ومن سنة ١٩٢٣ الى ١٩٢٥ اكتشف بشلر مغارة أخرى هي Wildenmannslach ووجد فيها عدداً من جماجم الدبية المنزوعة أفكاكها السفلى ، مع عظام طويلة موضوعة بينها . وقد حصلت اكتشافات مماثلة من قبل رجال آخرين يقومون بدراسة ما قبل التاريخ في مغارات في جبال /الألب/ وأكثر هذه الاكتشافات أهمية في Draclenloekil وفي Styrie وفي petesshochle في فرانكونيا حيث اكتشف ك . كويرمان K. Korman جماجم لدبية في أوكار على ارتفاع ١٠,٢٠م من سطح الأرض ، وكذلك فإن K. Ebranberg وجد في عام ١٩٥٠ في الألب

النمسوية (Salzofenhohle) ثلاثة جماجم لدبية مقيمة في أوكار طبيعية في الحائط ومشاركة بعظام طويلة متجهة من الشرق الى الغرب .

وبما أن هذه المستودعات بدت غير مفهومة ، فقد عكف العلماء على استنباط معانيها . فالعالم Al. Gahs قارنها بالتقدمات من البواكير المقدمة من قبل عدد من الناس القدامى الى كائن أعلى . ان التقدمة ترتب بدقة في عرضها على مصاطب وهي مؤلفة من الجماجم والعظام الطويلة للحيوان الذي تم اصطياده، وكان يقدم منه للآلهة النخاع والمخ ، أي الأجزاء الأكثر تقديرا من قبل الصياد ، وقد قبل مثل هذا التفسير من عدد آخر من العلماء . . Wilhelh sehmi و W. K oppers فبالنسبة لهؤلاء العلماء ، كان ذلك الدليل الذي اعتقد صيادو الدبية في مغاور العصر الجليدي الأخير معه بوجود كائن أعلى أو سيد للوحوش الكاسرة ، وهنالك باحثون آخرون قارنوا مستودعات الجماجم بشعيرة الدب كما هو أو كما كان حتى القرن التاسع عشر ، والمطبق في النصف الشمالي من الكرة الأرضية ، وهذه الشعيرة تقتضي الحفاظ على الجمجمة والعظام الطويلة للدب المصاد كي يتمكن رب الوحوش الكاسرة من احيائها في السنة التالية . لقد رأى كارل مولي Karl meuli . في ذلك مجرد شكل معين من (دفن الحيوانات) معتبراً أنها أقدم شعيرة من شعائر الصيد ، وهذه الشعيرة ؛ في رأي هذا العالم السويسري ، تبرز علاقة مباشرة بين الصياد والطريدة ، فالأول كان يدفن بقايا الحيوان بهدف إعادة احيائه . ولم يكن هنالك ادخال لأي كائن الهي .

كل هذه التفسيرات وضعت موضع الدرس من قبل الباحث F. Df. Kobz الذي رأى أن كثيرا من مستودعات الجماجم انما هي حصيلة صدفة ، ومن قبل الدبية نفسها الدائرة بين العظام والكاشطة لها . وقد أفصح Leroi- Gotlehan موافقته التامة على هذا النقد الجذري . فالجماجم المغلقة في صناديقها من الحجارة المجمعة بالقرب من الجدران ، أو المعلقة في الأوكار والمحاطة بعظام طويلة تفسر بعوامل جيولوجية وأهمال الدبية ذاتها . وقد يبدو هذا النقد لمفهوم المستودعات مقنعا ، يضاف الى ذلك أن التنقييات الأولى للمغاور كانت تركت

كثيرا مما يرغب به ، مع ذلك سيكون مثيرا ان نفس النموذج من (المستودع) قد يوجد في عدد من المغاور ، وحتى في الأوكار الموضوعة على علو أكثر من متر ، ومن جهة أخرى فان Lc roi- Gourlun يقر بأن «هناك تحريكات من قبل الانسان تبدو واضحة في بعض الحالات» . على كل حال ، ان تفسير المستودعات كتقدمات لكائنات عليا قد أهمل ، حتى من أنصار و- شميدت و- كوبر . وفي دراسة حديثة عن الأضحيات لدى البشر القدامى توصل جوهانز مارينجر Johanes maringer للنتائج التالية : أ- على مستوى الباليوليتيك القدامى (تورالبا Toraulba شو- كو- تين Chou- Kou- tin لوهرنجن Lehingen) فان الأضحيات لم تتأكد (٢) ان وثائق الباليوليتيك الوسطى (دراشلوش Drachenloch وبيتر شول Peter ehalle الخ) تخضع لتفسير مختلف ولكن خاصيتها الدينية (أضحيات لكائنات ما وراثية) هي غير واضحة . (٣) ليس سوى في عصور الباليوليتيك المتأخرة (ويلندورف Willendarf ، وميردوف meirdof ، ستيلمور Stellmoor مونتسبان montespuin الخ) يمكن التكلم (انما مع كثير أو قليل من اليقين) عن الأضحيات^(١٥) .

وكما يتوجب الانتظار في هذا ، فان الباحث المذكور قد جوه ان بغياب وثائق غير ممكن دحضها وإن بكثافة علم دلالة الوثائق التي تبدو رسميتها مؤكدة . إن النشاط الروحاني للانسان الحجري القديم - كما هو الأمر بالنسبة للبدائيين في عصرنا - قد ترك آثارا هشة جداً . ولكي لا نعطي سوى مثال واحد يمكن استحضار حجج ودلائل (لوروا - كوربان) وكولي ضد استنتاجهما الخاص : فأعمال الجيولوجيا ومعطيات الديبة في المغاور تكفي لتفسير المستودعات الشعائرية . أما بالنسبة لكثافة الدلائل لمستودعات العظام التي لا مجال للشك في هدفها الشعائري ، فان ثمة متوازيات موجودة لدى صيادي القطب الشمالي المعاصرين . فالمستودع في ذاته ليس سوى تعبير عن قصيدة سحرية - دينية ، وان المعاني الخاصة لهذا التصرف تبدو مقبولة لدينا بفضل معلومات توصلت من قبل أعضاء المجتمعات المتتالية . فيعرف حسب الظرف ، ما اذا كانت الجماجم والعظام الطويلة تمثل تقدمات لكائن أعلى أو لرب الوحوش الكاسرة ، أو انها على

العكس ، قد حفظت بأمل أن تغدو مكسوة باللحم . وحتى إن هذه العقيدة الأخيرة هي قابلة لتفسيرات مختلفة : فالحيوان سيعاود الولادة بفضل رب الوحوش الكاسرة ، أو بفضل الروح المستكنة في العظام ، أو أخيراً بفضل العمل الذي آمن فيه الصائد «قبراً» . (لكي يجنب العظام مغبة اقتراسها من قبل الكلاب) .

ويجب أن يؤخذ في الحسبان دوماً تعدد التفسيرات الممكنة لوثيقة يكون مدلولها السحري والديني محتملاً ، إلا أنه يجب من جهة أخرى ، عدم النسيان بأنه مهما كانت الفوارق بين الصيادين في القطب الشمالي والعصر الحجري ، فانهم جميعاً يتقاسمون ذات الاقتصاد ، وبوضوح بارز ذات الفكرة الدينية المميزة لحضارات الصيد . وبالتالي فإن مقارنة وثائق ما قبل التاريخ مع الوقائع الآتية هي مبررة .

لقد عرض بأن يفسر من هذا المنظور الاكتشاف الحاصل في سيليزيا لجمجمة متحجرة لدب أسمر صغير ، يرجع لمستوى عهد الأدريناسيان l'Aurignacien القديم ، في حين أن أنيابه وأسنانه كانت منشورة ، أو مصقولة ، وكانت الأضراس في حالة ممتازة . لقد أعاد و . كوبر الى الذاكرة أن (عيد الدب) عند الكيلياك les Kiliak في جزيرة ساخالين وعند الاينو Lo Ainois في جزيرة Yesa قبل ذبح الدب الصغير ، تقطع الانياب والقواطع بنوع من المناشير ، وذلك لكي لا يستطيع جرح أحد من المشاركين في الاحتفال^(١٦) . في حين يثقب الأطفال بالسهم ، أثناء الحفلة ذاتها ، الذئب الموثق ، وقد فسرت في ذات المعنى بعض الصور المنتشرة في مغارة الأخوة الثلاثة ، والتي تظهر دببة مضروبة بسهم وحجارة ، وتبدو وهي تتقيأ فيضاً من الدم^(١٧) . غير أن مشاهد مماثلة قابلة لتفسيرات مختلفة .

إن الأهمية لفكرة دينية قديمة مقررة كذلك بقدرتها على (استمرارية العيش) في العصور التالية . وهكذا ، فالاعتقاد بأن الحيوان يمكن أن تعاد ولادته بدءاً من عظامه يصادف في عدد ملحوظ من الثقافات^(١٨) . وتلك هي الحجة التي من أجلها يمنع كسر عظام الحيوانات التي ستكسى باللحم . ان ذلك يتعلق بفكرة

خاصة بحضارات الصيادين والرعاة ، ولكنها عاشت في أديان وميتولوجيات أكثر تعقيداً . ان هنالك مثلاً معروفاً جداً ، هو تيوس تور desbous Thoe المذبوحة والمجمعة مساء ، ولكن الاله يجيئها في الصباح بدءاً من عظامها . وكذلك فان رؤيا حزقيال الشهيرة (٣٧ ، ١ - ٨) : ان النبي قد نقل في واد مليء بالعظام ، وباطاعته لأمر السيد كلم هذه العظام قائلاً : « أيتها العظام المتييسة ، اصغي لكلام الخالد ، هكذا تكلم الرب ، الخالد ، لهذه العظام : سأدخل فيك وستحيين . . وكانت رعدة ثم ضجة مرّة ، فتقربت العظام من بعضها البعض ، نظرت ، وها هي قد تشكل عليها عضلات ولحم » .

٥ - الرسوم الصخرية : صور أم رموز

إن الوثائق التصويرية الأكثر أهمية والأكثر عدداً، تجهزت باكتشاف المغاور المزوّقة décorées ، فهذه الكنوز من فن العصر الحجري paléolithique منتشرة في أقاليم ضيقة نسبياً ، بين الأورال والاطلنطيق ، وان مواداً من فن الأمتعة وجدت في جزء كبير من أوروبا الغربية والوسطى ، وفي روسيا حتى الدون . غير أن الفن الجداري محدود في اسبانيا وفرنسا وإيطاليا في الجنوب (مع استثناء مغارة ذات رسوم في الأورال اكتشفت في سنة ١٩٦١) . . . إن ما يذهل بدنياً هو الوحدة المدهشة للمحتوى الفني : المعنى الظاهر للصورة لا يبدو أنه تغير من ٣٠,٠٠٠ - الى ٩,٠٠٠ - قبل عصرنا وبقي نفسه في آستوري aux Asturie وعلى الدون / ٢٠ / .

وحسب رأي Leroi-Courban إنه يتعلق بالانتشار عن طريق احتكاك النظام الايديولوجي ذاته ، وبصورة خاصة ذلك الذي يميّز (دين المغاور) وحيث أن الرسوم توجد بعيدة لحد ما عن المدخل ، فإن الباحثين قد اتفقوا على اعتبار المغاور كنوع من المقابر . ومن جهة أخرى فإن الكثير من هذه المغاور كان غير قابل

للسكن وإن صعوبات المرور دُعِمت خاصيتها الدينية . للوصول أمام الجدران المزينة لا بد من اجتياز مئات الأمتار ، كما هو الشأن في مغارة نيز Niaux أو الأخوة الثلاثة Trois frere وإن مغارة Gabrerets تشكل متاهة حقيقية وتتطلب ساعات عدة لزيارتها . في لاسكو Lascaue أضيف للرواق الأسفل - حيث توجد أمهات أعمال الفن للعصر الحجري الباليوليتيكي - النزول بواسطة سلم من جبل عبر بئر بعمق ٦,٣٠ متراً . ان المقصد من هذه الأعمال المرسومة أو المنقوشة يبدو من غير المشكوك فيه ، ولكي يجري تفسيرها أعاد أكثر الباحثين الى الذاكرة موازياتها العرقية .

إن بعض المقارنات كانت غير مقنعة ، بصورة خاصة عندما جرى الاجتهاد لاكمال الوثائق الحجرية كي تتشابه بشكل متقدم مع مماثل عرقي . الا أن ايضاحات كهذه الغير عقلانية لا تخرج سوى باحثيها وليس الطريقة التي ادعوا استعمالها .

لقد فسرت الدببة ، والأسود والحيوانات الأخرى المتوحشة التي اخترقتها النبال ، أو القوالب الطينية الموجودة في مغارة مونتسبان montespans الممثلة لأسود ودب مخرق بثقب دائري وعميق ، فسرت كدلائل على /سحر الصيد/ . وهذه الفرضية محتملة ولكن يمكن تفسير بعض هذه الأعمال كإعادة تحيين لصيد بدئي .

وقد يكون مرجحاً ان الشعائر كانت موضع احتفال أو تبريك في المناطق الأكثر عمقاً لمقابر ، وربما قبل غزوة صيد أو بمناسبة ما يمكن تسميته بالتلقين أو المسارة Initiation .

وقد فُسر مشهد في مغارة (الأخوة الثلاثة) وكأنه يمثل راقصاً مقنعاً بهيئة ثور وحشي ولاعباً بأداة يمكن أن يكون ناي . ان التفسير يبدو معقولاً طالما أنه يعرف في فن للعصر الحجري paleolitique زهاء ٥٥ صورة لرجال يلبسون جلوداً ، وفي حالة رقص في عدد من المرات . ومن جهة أخرى يتعلق بتقدمة شعائرية خاصة معروفة لدى شعوب تعيش على الصيد في عصرنا .

إن القس برويل l'Abbé Breuil قد جعل /الساحر الأكبر/ لمغارة /الأخوة الثلاثة/ مشهوراً بصورته المثبتة على جدار بمقاس ٧٥ سنتيمتر ارتفاعاً . ورسم /برويل/ يظهره مع رأس غزال حاملاً قروناً كبيرة ، ولكن مع وجه بومة ، وآذان ذئب ولحية شاموا . ان يديه تنتهيان كأقدام الدب وله ذنب حصان طويل . ولا يوجد سوى الاعضاء السفلى والجنس ، ووضع كراقص يدل أنه يتعلق بوجه بشري . الا أن الصور الحديثة لم تظهر كل العناصر التي سبق /لبرويل/ أن وصفها بدقة /٢٥/. ومن الممكن أن تكون بعض التفاصيل قد تضررت منذ اكتشاف النقش (مثلاً ، قرن الايل الثاني) الا أنه من غير المستبعد أن /برويل/ قد نفذ مشروع الصورة croquis بشكل سيء . وهذا ما نراه في الصور الحالية /للساحر الكبير/ التي تبدو أقل تأثيراً ، ومع ذلك يمكن له أن يفسر (كرب للحيوانات) أو كساحر يشخصه . ومن جهة أخرى ، وعلى صفيحة من الاردوز المنقوش ، نميز رجلاً مغلفاً بجلد غزال ، مع ذنب حصان ، ومصمم بقرون غزال .

كذلك فإنه قد اشتهر أيضاً ، وربما لا يقل مفارقة ، التركيب الشهير المكتشف حديثاً في لاسكو Lascaux في رواق أسفل من المغارة وبممر صعب للغاية . حيث يمكن رؤية ثور وحشي مجروح ، موجهاً قرونه صوب رجل يبدو ميتاً مضطجعا على التراب ؛ وسلاحه نوع من الحربة المزودة بكلاية ومستندة على بطن الحيوان ؛ أو بقرب الرجل الذي ينتهي رأسه بشكل منقار ، طائر على غصن . وقد فسر هذا المشهد بشكل عام وكأنه معلن لحادث صيد . الا أنه في عام ١٩٥٠ طرح هورت كشنر Horst Kischner رأياً آخر في التفسير وهو أنه رأى في ذلك محضراً (شامانيا) :- فالرجل ليس ميتاً وإنما هو في رعدة extatiae أمام الثور المضحى به بينما ان روحه ستذهب للأخرة . أما العصفور على الغصن فهو حافز متخصص بالشامانية السيبيرية ، وسيكون الروح الحامية للميت .

وحسب رأي كيشنر فإن المشهد كان مشروعاً ليصل منه الشامان للنشوة والوجد بالقرب من الآلهة وليطلب اليها التقديس ، أي نجاح الصيد . وان

الكاتب نفسه يعتبر أن /عصي القيادة/ السرية هي مطارق طبل . وإذا كان مثل هذا التفسير مقبولاَ فإن ذلك يعني أن سحرة العصور الحجرية استعملوا طبولاً يمكن مقارنتها بطبول الشامانيين السيريين /٢٦/ .

إن تفسير كيشنر المشار اليه قد جوبه بمعارضة ، ولا نرى صلاحية لنا في محاكمته . مع ذلك فإن وجود بعض النماذج /للشامانية/ في العصر الحجري يبدو مؤكداً . ومن جهة أخرى فإن التجربة الوجدية بصفاتها وبكونها عنصراً أصولياً مكونة من الشرط البشري ؛ فلا يمكن تصور عهد لم يكن للانسان فيه أحلام ، وأحلام يقظة ، وإن لم يقع في رعدة ، بفقدان الوعي الذي فُسِّر وشرح كسفر الروح للماوراء ، أي الآخرة .

إن ما تغيّر وتحول مع مختلف أشكال الثقافة والدين ، هو التفسير والتقييم للتجربة الوجدية extatique . فطالما أن العالم الروحي للعصور الحجرية القديمة كان محكوماً بعلاقات نظام /صوفي/ بين الانسان والحيوان ، فليس من الصعب كشف سر الوظائف المختصة بالوجد .

وكذلك وصفت بعلاقة مع الشامانية الرسوم المسماة (بأشعة X) ، أي مظهره الهيكل العظمي والأعضاء الداخلية للحيوان . هذه الرسوم المثبتة في فرنسا خلال الفترة الماجدالينية Le mag dalan'en (١٣٠٠٠ - ٦٠٠٠ ق.م) وفي النروج بين (٦٠٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م) وتوجد في سيبيريا الشرقية لدى الأسكيمو وفي أمريكا لدى الاودجيبوا o'djbwa ، وكذلك أيضا في الهند وماليزيا وفي غينيا الجديدة وأستراليا في الشمال الغربي^(٢٧) . إنه فن مميز لثقافات الصيادين ، ولكن الايديولوجيا الدينية التي تغمره إنما هي شامانية . وفي الواقع ، لا يوجد سوى (الشامان) الذي بفضل رؤاه الما فوق الطبيعية ، مؤهل «لرؤية هيكله العظمي الخاص»^(٢٨) . وبعبارات أخرى ، إنه مؤهل لأن يخترق برؤاه حتى منبع الحياة الحيوانية ، والعنصر العظمي . وإن تعلق هذا بتجربة أساسية لنوع من «الصوفية» ، قد ثبت أمره بين أمور غيرها ، وبواقع متوفر أيضاً في البوذية التبتية .

٦ - الوجود النسوي

إن اكتشاف صور نسائية في العصر الجليدي الأخير قد طرح مسائل استمر الجدل حولها . وإن توزيعها ممتد من جنوب غرب فرنسا حتى بوتيكال في سيبيريا ، ومن إيطاليا في الشمال حتى الرين . . . وإن التماثيل الصغيرة من ٥ - ٢٥ سم ارتفاع ، المنحوتة في الصخر وعلى العظم والعاج قد سميت بشكل مغلوطة بالفينوسات des Venus ، والأكثر شهرة منها كان فينوسات ليسبوج de Lespages ويلندوروف في النمسا و/دوردوغم لوسيل/ . مع ذلك وبفضل الحفريات ، بصورة خاصة ، كانت القطع المكتشفة في /غاغارينو/ و/ميزين/ وأوكرانيا أكثر ايضاحا وارشادا . انها متولدة على مستويات السكن ، وبالنتيجة فهي ذات علاقة بالدين الأهلي . ففي Gagarino وجدت بالقرب من جدران السكن ، ستة وجوه منقوشة على عظم مهموت mahmouh . وهي مفصلة مع بطن بنسبة مبالغ فيها والرأس مجرد عن الملامح ، وإن القطع المكتشفة في (ميزين) مقولبة بقوة ، فبعضها يمكن أن يفسر كأشكال نسائية مختصرة لعناصر هندسية (هذا النموذج غالبا ما شوهد في أوروبا الوسطى) ، وغيرها ، يمثل بوضوح بارز جدا الطيور . إن التماثيل الصغيرة مزينة بمختلف الرسوم الهندسية من بينها الصليب المعقوف svastika لتشرح ظرفية وظيفتها الدينية ، وقد ذكر /هانكار Hancar) ان بعض قبائل الصيادين في آسيا الجنوبية نحتوا تماثيل صغيرة تشبيهية من خشب ، تسمى دزولي Dzuli . وفي القبائل حيث أن الدزولات les dzuli فيها هي نسوية ، فإن هذه (الأصنام) تمثل الجسد الاسطوري الذي يفترض تحدر كل الاعضاء منه : انها تحمي العائلات والمساكن ، وعند العودة من أعمال الصيد الكبرى يقدم اليها تقدمات من الحبوب والدهن .

وأكثر دلالة هو اكتشاف /جيرازيموف/ في سيبيريا . وهو يتعلق بقرية (مالتا mal'ta التي تظهر بيوتها مستطيلة وكانت مقسمة الى قسمين : الأيمن منها مخصص للرجال «لم يوجد فيها سوى الأشياء للاستعمال الذكوري» واليسر مخصص

للنساء ؛ والتماثيل النسوية وجدت حصرا في هذا القسم ، أقرانها في الحارة الذكورية يمثلون طيوراً ، ولكن بعضها قد فسرت كأعضاء تذكير .

ومن المستحيل تحديد الوظيفة الدينية لهذه التماثيل ، ويمكن الافتراض بأنها تمثل الى حد ما القداسة النسوية ، وبالنتيجة القدرات السحرية - الدينية للأمهات . ان الغموض المشكل بطريقة الوجود النوعي للنساء لعب دورا هاما في العديد من الأديان ، بدائية كانت أم تاريخية . وان ميزة /لوروا كورهان/ أنه استطاع إلقاء الضوء على الوظيفة المركزية لقطبية الذكورة - الأنوثة في جملة الفن /الباليوليتيكي/ ، رسوم نقوش صخرية ، تماثيل ألواح حجرية . لقد استطاع إضافة لذلك إظهار الوحدة لهذه اللغة الرمزية ، بدءاً من اقليم فرنسا حتى سيبيريا . انه باستعماله للتحليل الطبوغرافي والاحصائي توصل لنتيجة أن الاشكال (أنواع ، وجوه الخ) والعلامات signes قابلة للتبادل ، فمثلا إن صورة الثور تملك ذات القيمة - (مؤنث) - مما (للجروح) والعلامات الأخرى الهندسية ، لقد لاحظ أيضا أنه يوجد اقتران بالقيم الذكورية الانثوية ، على سبيل المثال : ثور (مؤنث) وحصان (مذكر) . بتحليلها على ضوء هذه الرمزية ، تتكشف المغارة عن كونها عالماً منظماً مثقلاً بالمعاني .

ولا يوجد أدنى شك لدى /كورهان/ في أن المغارة هي مقبرة وأن صفائح الحجارة أو التماثيل الصغيرة تكون المقابر النموذجية ولها نفس البنيان الرمزي الذي للمغاور المزينة . مع ذلك فإن هذا الباحث قد قبل أن التركيب الذي ظن أنه أعاد تكوينه ، لم يعلمنا لغة دين العصر الحجري . إن منهجه منعه من الاعتراف (بالاحداث) المثارة في بعض الرسوم الصخرية . في /المشهد/ الشهير /للاسكو/ المفسر من قبل باحثين آخرين كحادث صيد أو مشهد (شاماني) ، لا يرى /لوروا كورهان/ سوى عصفور عائد / لجماعة طبوغرافية/ والتي «تماثل رمزيا لانسان أو كركدن ، هم بحق جيرانه على الجدار» . ما عدا إكمال الرموز لقيمة جنسية مختلفة «والتي ربما تعبر عن الأهمية الدينية المعطاة لهذه التكاملية» ، فان كل ما استطاع (لوروا كورهان) تقديمه «هو أن التمثيلات تغطي نظاما معقدا جدا وغنيا ، وأنه أكثر غنى وأكثر تعقيدا مما لم يسبق تصوره حتى ذلك الحين» .

ان نظرية لوروا كورهان قد انتقدت من وجهات نظر مختلفة ، فقد انتقدت بصورة خاصة من عدم واقعية قراءة الأشكال والعلامات ، وفي الواقع أنها لم تقيم الشعائر المصنوعة في المغاور على شكل رمزي^(٣١) . ومهما يكن من أمر ، فان انجازه هام ، وأنه قد أظهر الوحدة الشكلية النموذجية والأيدولوجية لفن العصر الحجري ، وقد وضع في الضوء التكاملية للقيم الدينية الموهبة تحت علامة /الذكورة/ و/ الأنوثة/ . ان رمزية مشابهة تميز مدينة مالتا mal'ta مع قسميها المتميزين المعنيين للجنسين . إن الأنظمة المدخلة لتكاملية المبدئين الجنسيين والكونيات تنتشر أيضا في المجتمعات البدائية وسنصادفها كذلك في الديانات القديمة . ومن الراجح أن هذا المبدأ من التكاملية كان ماثراً في آن واحد من أجل تنظيم العالم ومن أجل تفسير سر خلقه وتجده الدوري .

٧ - شعائر /فكر/ وتصور لدى صيادي العصور الحجرية

إن المكتشفات الحديثة لعلم الحفريات paléontologie تشترك فيما بينها في أنها ترجع دوما لما هو أكثر بعداً في زمن /بدايات/ الانسان والثقافة . فالانسان يظهر أكثر قدماً ونشاطه النفسي - العقلي أكثر تعقيداً مما كان يُعتقد منذ بضع عشرات من السنين . ومنذ وقت قريب استطاع /الكسندر مارشان/ البرهان عن وجود نسق رمزي بملاحظات زمنية ، في العصر الحجري الأعلى ، مبني على ملاحظة المظاهر القمرية . هذه الملاحظات التي دل عليها الباحث باسم (time factored) أي مجتمعة دون انقطاع على فترة طويلة ، تسمح بافتراض ان بعض الحفلات الفصلية أو الدورية كانت مثبتة لزمن طويل مسبقاً ، كما يحصل في أيامنا لدى (السيبريين) و/هنود امريكا/ الشمالية . إن هذا /النسق/ من الملاحظات اعتمد منذ أكثر من ٢٥,٠٠٠ /سنة من قبل أناس العصر الحجري المبكر (L'Aurignacien الأوريغناسيان) حتى الماجداليان magdilenien المتأخر . وحسب رأي مارشاك ، فان الكتابة والحساب والتقويم Calendrier بمعنى الكلمة

التي أخذت تظهر في الحضارات الأولى ، ترجع ، على الأرجح ، الى رمزية تغرق (النسق) من ملاحظات مستعملة أثناء العصر الحجري القديم (الباليوليك) (٣٢) .

وكيفما كان التقييم للنظرية العامة /المارشاك/ حول تطور الحضارة ، يبقى ان الدورة القمرية كانت قد حلت ، وأعيد التذكير بها ، واستعملت لغايات عملية منذ ١٥,٠٠٠ سنة قبل اكتشاف الزراعة . فمنذ فهم بشكل أفضل الدور البارز للقمر في الميثولوجيات القديمة وبخاصة الواقع الذي أدخله الرمز القمري في /نسق/ واحد للحقائق المتنوعة ما للمرأة ، والحياة ، والنبات ، والأفمى والخصب والموت و(عودة الحياة) الخ (٣٣) .

وبتفسير التعرجات المنقوشة على الأشياء ، أو المرسومة على جدران المغاور ، استنتج /مارشاك/ ان هذه الرسوم تشكل /نسقاً/ ، لأنها تمثل ميراثاً وتوضيح مقصداً . وان هذا البنيان سبق تأكيده في الرسوم المنقوشة على عظم مكتشف في /بيش دي لازيه/ pech de l'Azé في /دوردونيا/ Dordogne / ويعود لمستوى حقبة الأشولين Achuleane (حوالي ١٣٥٠٠٠ سنة ق .م) أي على الأقل ١٠٠,٠٠٠ سنة قبل التعرجات المشار اليها العائدة للعصر الحجري الأعلى . وأكثر من هذا ، فان التعرجات (les méandres) قد رسمت حول صور حيوانات وعليها ، مشيرة لبعض الشعائر (عمل فردي بالمشاركة) كما يذكر مارشاك . ومن الصعوبة بمكان تحديد معناها بدقة ، الا أنه بدءاً من ظرف ما (على سبيل المثال رسم بيتسفلدر بادن) فان التعرجات قد مثلت بزوايا متداخلة ومترافقة بأسماء . وفي هذه الحالة فان الرمز المائي aquatique واضح جدا . الا أنه حسب رأي الباحث ، لا يتعلق بصورة للماء فقط ؛ فالخطوط الغير ممكن حصرها والمتروكة بسبب الأصابع والأدوات المختلفة تدل على عمل فردي من مشاركة تلعب الرمزية والميثولوجيا المائية فيها دورها (٣٤) . .

من تحليلات كهذه تستخلص الوظيفة الشعائرية للعلامات والأشكال العائدة للعصور الحجرية ، ويبدو واضحاً الآن ان هذه الصور والرموز تنعكس على بعض التواريخ ، أي على أحداث لها علاقتها مع الفصول ومع عادات

الطريدة ، والجنس ، والموت والسلطات الخفية لبعض الكائنات الماورائية ولبعض الشخصيات (المختصة بالمقدسات) . ويمكن اعتبار التقدمات الحجرية كقانون يعني في آن واحد القيمة الرمزية (سحرية - دينية) للصور ولوظائفها في الاحتفالات المتعلقة بتواريخ مختلفة . بالتأكيد لا نعلم مطلقا المحتوى الدقيق لهذه التواريخ أو القصص إن صح التعبير ، ولكن الانساق les systemes / التي تحاط بها مختلف الرموز تجيز لنا على الأقل اكتشاف أهميتها في الممارسات السحر - دينية للعصر الحجري .

إضافة لذلك فإن العديد من هذه النماذج قد تقاسمتها مجتمعات الصيادين .

وكما لاحظنا سابقا ، فانه من المباح إعادة تكوين بعض المظاهر لديانات ما قبل التاريخ بمراقبة الشعائر والمعتقدات الخاصة بالصيادين البدائيين لعصرنا ، ولا يتعلق فقط بمتوازيات للدراسات البشرية ethnographique وهي طريقة ، قد طبقت بنجاح قل أو كثر ، من قبل كل الباحثين باستثناء /لوروا غورهان/ و/لامين اميرير/ Lamr'ng- Emerair^(٣٥) . ولكن مع الأخذ في الحسبان لكل الفروق التي تفصل بين ثقافة ما قبل التاريخ عن ثقافة بدائية ، يمكن على الأقل تسجيل بعض التصورات الأساسية . لأن عدداً من الحضارات القديمة ، القائمة على الصيد ، والصيد البحري ، والجمع تعيش حالياً على هامش المسكونة في (أرض النار ، في أفريقيا ، وعند الهوكتوت ، والبوشمان المدارية الخ) . فرغم التأثيرات للحضارات الزراعية المجاورة (على الأقل في بعض الحالات) فإن البنى الأصلية لم تتزحزح حتى القرن التاسع عشر . هذه الحضارات المتخلفة لها مرحلة مشابهة للعصر الحجري الأعلى ، وتشكل ، نوعاً ما ، حفريات حية .^(٣٦) وبالتأكيد ليست المسألة هي في نقل أناس الحجر القديم للممارسات الدينية والميثولوجيات /البدائيين/ . ولكن ، وكما لاحظنا سابقاً ، فإن الوجد من النموذج /الشاماني/ يبدو مؤكداً في وجوده لدى أناس العصر الحجري . وهذا يقتضي من جهة ، الاعتقاد في وجود روح قابلة لأن تترك الجسد وتسافر بحرية في العالم ، ومن جهة أخرى الاقتناع بأنه ، في سفر كهذا ، تستطيع الروح أن تلتقي بعض الكائنات الأعلى من الانسان ، وأن تطلب اليها المساعدة أو التبريك . إن

النشوة أو الوجد الشاماني يقتضي إضافة لذلك امكانية / التملك / deposeder أي الدخول في الاجساد البشرية ، وكذلك أن تُمتلك (Etre Possédé) من قبل روح ميت أو حيوان ، أو أيضاً من قبل روح أو إله .

ولكي نتذكر مثلاً آخر ، فان فصل الأجناس (٤٦) سمح بافتراض وجود شعائر سرية محجوزة للرجال ومكرسة قبل بعوث الصيد . إن شعائر مماثلة تكون الحصاة المخصصة لمجموعات البالغين ، مشابهة لمجتمعات الرجال (Mamer bude) والأسرار تكشف لليافعين عن طريق الطقوس المسارية (initiateqnes) . وقد اعتقد بعض الباحثين أنه وجد الدليل على مسارة (تلقين) كهذا في مغارة (مونتسيان) غير أن هذا التفسير قوبل بمعارضة . ومع ذلك فان قدم الشعائر المسارية لا ريب فيه ، والمشابهات بين عدد من الحفلات المثبتة في نهايات المسكونة / استراليا/ وأمريكا الجنوبية والشمالية ، ٣٧ تشهد على تقليد مشترك قائم منذ العصر الحجري .

ففيما يتعلق بالرقص الدائري (مهما كان تفسير آثاره المتروكة من أقدام الشباب على الأرض الغضارية للمغارة ، لا يشك (كورت ساش Curtsachs) في أن هذه الآثار الشعائرية معروفة تماماً لأناس العصور الحجرية^(٣٨) وعليه ، فان الرقص الدائري منتشر جدا في كل من (اوراسيا ، وأوروبا الشرقية ، ومالينيزيا وعند هنود كاليفورنيا الخ) وهو مطبق في كل مكان من قبل الصيادين إن لأجل طمأنة روح الحيوان المفترس ، وإن لضمان تكاثر الطرائد^(٣٩) وفي الحاليتين ، فإن استمراره مع الايديولوجيا الدينية لصيادي العصر الحجري واضحة ، إضافة لذلك فان التضامن / الصوفي / بين جماعات الصيادين والطريدة يدعنا نفترض عددا من (أسرار المهنة) المحصورة بالرجال ؛ وعليه ، فإن / أسراراً / مماثلة توصل لليافعين عن طريق المسارات الدينية des initiations .

ان الرقص الدائري يوضح بشكل مدهش استمرار الشعائر والمعتقدات مما قبل التاريخ في الثقافات القديمة المعاصرة . وقد صادفنا أمثلة أخرى . وهنا نعيد الى الذاكرة أن بعض الصور الحجرية في هوجار Hoggar وتاسيلي Tasili يمكن أن

تكون الغازها قد حلت بفضل أسطورة مسارية الرعاية بولز Peuls ، أسطورة منقولة من قبل أحد المتعلمين من مالي للمختصة بالدراسات الافريقية جيرمين ديتيرين Germaine Dieterlen التي نشرتها^(٤٠) . ومن جانبه فإن هـ . فون سيكارد في مفكرة مخصصة (لليوي) a Luwe ، قد توصل لاستنتاج ان هذه الاله الافريقي يمثل أقدم عقيدة دينية للصيادين الاور - افريقيين Euro africais لعصر يضع له العالم السويدي تاريخا لما قبل ٨٠٠٠ سنة ق . م .^(٤١) .

وبالجملة يبدو معقولا التأكيد أن عددا من الاساطير كان مألوفاً لدى شعوب العصر الحجري ، وفي المكان الأول أساطير المنشأ origine (أصل الانسان ، الطريدة الموت الخ . .) ومثال واحد على ذلك هو أن أسطورة متعلقة بنشأة الكون تخرج mettre en scène الحياة الأولية ، والخالق ، انساني الشكل ، أو تحت شكل حيوان مائي نازلا لقاع المحيط لكي يجمع المادة الضرورية لخلق العالم . ان الانتشار الكبير لهذه النشكونية cosmogonie وتركيبها القديم يشير لتقليد موروث من أعلى ما قبل التاريخ^(٤٢) . وبذات الأمر فان الاساطير والخرافات والشعائر ذات العلاقة مع ارتفاع السماء والطيوان السحري (الأجنحة ، رئيس الطيور المقترسة - عقاب - نسر) . هي مؤكدة عالميا في كافة القارات بدءاً من استراليا وأمريكا الجنوبية حتى القطب الشمالي^(٤٣) . وعليه فان هذه الاساطير المدعمة بتجارب حلمية ووجدية والخاصة بالشامانية وقدمها ليس موضع شك كذلك فان الاساطير والرموز لقوس قزح وانعكاساته الأرضية منتشرة جدا ، وهو يعتبر الجسر وصلة الوصل الممتازة مع العالم الآخر . كذلك أجاز افتراض (نسق) متعلق بعلم الكونيات cosmologie مصاغ بدءاً من التجربة الأساسية لمركز العالم centre de monde الذي نظم الفضاء من حوله . وقد سبق لـ و . غيرت W. Gaerte أن جمع في عام ١٩١٤ عدداً كبيراً من العلامات والصور العائدة لما قبل التاريخ والقبالة لتفسيرها كجبال كوزمية ، وسرات Nombrils للأرض والأنهر النموذجية paradignatiquents شاطرة العالم في اتجاهات أربع^(٤٤) .

أما بالنسبة لاساطير أصل الحيوانات والعلاقات الدينية بين الصياد والطريدة ورب الوحوش الكاسرة ، فمن المرجح انها دونت بغزارة في قوانين مرموز لها في

مرجع دراسة الفن للعصور الحجرية . كذلك من الصعب أن نتخيل مجتمعا من الصيادين مجردا من أساطير حول أصل النار ، في حين أن الكثير من هذه الأساطير تبرز النشاط الجنسي . وأخيرا ، يجب أن يؤخذ دوما في الحسبان التجربة البدئية لعداسة السماء والظواهر السماوية والفضائية . انها واحدة من التجارب النادرة التي تظهر عفويا / العظمة / والسمو . اضافة لذلك فان الصعودات الوجدية للشامان ، ورمز الطيران والتجربة الخيالية للارتفاع بصفته تحررا من الثقل ، كل ذلك يؤدي الى تكريس الفضاء السماوي كمنبع ومستقر ممتاز للكائنات الما فوق بشرية : آلهة ، أرواح ، أبطال محضرين . الا أن مما له أهميته ذات الدلالة هي (الكشوفات) revelations من الليل والظلمات ، وقتل الطريدة ، وموت عضو من العائلة ، والكوارث الكونية وحوادث أزمات الحماس ، من جنون أو وحشية قتل البشر من أفراد القبيلة .

لقد لعب دور حاسم بتقييم سحري - ديني للغة . ففيما سلف كان يمكن لبعض الاشارات أن تدل على التجلي لقوة مقدسة أو سر كوني . ومن المرجح ان اشارات الوجوه البشرية لفن ما قبل التاريخ كانت مثقلة لا بالمعاني فحسب وانما أيضا بالقوة . ان الدلالات الدينية لاشارات التجلي كانت معروفة أيضا من قبل بعض المجتمعات البدائية حوالي نهاية القرن التاسع عشر . وبالأولى فان الابتكار الصوتي أمكن له تكوين مصدر لا ينضب من السلطات السحر - دينية . حتى قبل اللغة الملفوظة ، كان الصوت الانساني قادرا لنقل معلومات ، وأوامر ورغبات ، وكذلك لاثارة عالم خيالي ، بنبراته الحادة وبتجديداته الصوتية ، ويكفي التفكير بال مخلوقات الخرافية السابقة للميثولوجيات والسابقة للشعر ، ولكنها رسمية أيضا موقوتة بممارسات أولية للشامانيين في تجهزهم لاسفارهم الوجدية ، أو بواسطة التكرار لمقاطع mandus أثناء بعض التأملات اليوجية مطبقة في آن واحد ايقاع التنفس (přaṇāyama) وتصويرية المقاطع الصوفية) .

وبمقدار إحكام صنعتها ، فان اللغة قد ضاعفت الوسائل السحر - دينية . والكلام الملفوظ يثير قوة ، من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل الغاؤها ، ان

معتقدات مماثلة ما زالت تعيش في عدد من الثقافات البدائية والشعبية . ونجدها كذلك في الوظيفة الشعائرية لتعابير سحرية للمديح ، والهجاء ، وفي المثالب واللعنة ، في المجتمعات الأكثر تعقيدا . ان التجربة المثيرة للكلام بصفته قوة سحر - دينية قادت أحيانا الى القناعة بأن اللغة جديرة بضمان النتائج المتحصلة من العمل الشعائري .

وباختصار يجب أن يؤخذ في الحسبان ، الفرق بين مختلف نماذج الشخصية . فأحد الصيادين قد يتميز بشجاعته وجرأته ، وآخر بتوتر أعصابه وبيانتشائه الوجدي أو وعدته الخ . . هذه الفوارق المميزة تستدعي بعض الاختلاف في تقييم وشرح التجارب الدينية . وفي نهاية المطاف ورغم بعض الأفكار الرئيسية الشائعة فان التراث الديني للعصر الحجري قد سبق له أن قدم صورة معقدة لدرجة كبيرة .

حواشي الفصل الأول

- ١ - رغم أن الانسان لم يعد يهتم كثيراً بقيمتها / الوجودية / فإن تجربة الفضاء أو الحيز l'opaco الموجه ما زالت مألوفة للانسان في المجتمعات الحديثة .
- ٢ - Karl. Narr . (Appoche to the social life of Ear liet mann) . ص ٦٠٦ .
- ٣ - هذه الفكرة القديمة جدا ، كانت تعيش في مجتمعات البحر المتوسط القديمة : فليست الحيوانات فقط قد عوض بها عن الضحايا البشرية والعادة التي كانت منتشرة عالميا ، وانما كان يضحى بالبشر مكان الحيوانات (انظر والتر بوركت (Walter Burkest) - المرجع ص ٣٤ .
- ٤ - تطبيقات لهذه الطريقة بدقة سيتوصل إلى تاريخ القصص الجرمنية من ١٨١٢ - ١٨٢٢ بواسطة الاخوة Grims .
- ٥ - ٦ - ر . مارينكر g. maringer - آلهة رجال عما قبل التاريخ ص ١٨ .
- ٧ - ان لوروا - غورهان لم يقتنع أن الانسان قد قتل واقترب (كتاب ديانا شعوب ما قبل التاريخ ص ٤٤) .
- ٨ - ذات المرجع ، ص ٥٤ .
- ٩ - المكتشفات الحفرية الحديثة برهنت على أن حجر الدم Heneatile كانت مستخرجة من منجم في /سويسرلاند/ منذ ٢٩,٠٠٠ سنة ، ويوجد ٤٣,٠٠٠ سنة في روديسيا . ان استخراج /الليماتيت/ من هذه المناجم في افريقيا قد امتد خلال ألف السنين . واكتشاف استجار مشابه بالقرب من بحيرة بالاتون في هنغاريا نحو ٢٤,٠٠٠ ق.م يعزز الامكانيات التقنية للانسان القديم واتساع معاملاته .
- ١٠ - حسب لوروا غورهان (يتعلق بكوب حطام مطبخي يتركز عليه رفات بشرية غالبا ما يكون مخربا أو منقولا من مكانه / ص ٥٧ .

- ١١ - يشار الى أن علماء آخرون يقدرون أن عدد / الوثائق / الرسمية المكتشفة في العثور هي أكثر من هذا بكثير .
- ١٢ - ريشيل - دولماتوف ص ٥٥٥ .
- ١٣ - في الواقع ، كان تقريبا غير معلوم قبل ملاحظات ريشيل دولماتوف .
- ١٤ - هذه العادة منتشرة جدا ، وهي تعيش ايضا في اوروبا الشرقية ، حيث أن الموتى من الشباب يزوجون شجرة صنوبر .
- ١٥ - ج - مارينجر - اسم المرجع - ص ٢٧ (آلهة رجال ما قبل التاريخ) .
- ١٦ - يتعلق بشعيرة هامة جدا ، روح الذئب قد أرسلت كرسالة من الأشخاص من قبل الآلهة الحامية بهدف ضمان نجاح الصيد في المستقبل .
- ١٧ - مارينجر (المرجع السابق) .
- ١٨ - م . الياد . الشامانية والتقنية القديمة للوجود .
- ٢٠ - لوروا - غورهان .
- ٢١ - ذات المؤلف اعتمد تاريخ تسلسل الاحداث ومظاهر أعمال الفن الحجري والتميز في ، خمسة أدوار بدءاً من عصر gréfigurative (٥٠,٠٠٠ ق م) يتبعه العصر البدائي (٣٠,٠٠٠ ق م) حيث ظهرت صور نموذجية بدقة والفترة القديمة حوالي (٢٠,٠٠٠ - ١٥٠٠٠) المميزة بدقة ، لصناعات فنية والفترة التقليدية naydelenc حوالي ١٥,٠٠٠ - ١٠,٠٠٠ مع واقعية الاشكال x النافرة ، لكي تنتهي وتحمي في الفترة المتأخرة حوالي (١٠,٠٠٠ ق م) .
- في الفترة المتأخرة حوالي (١٠,٠٠٠ ق م) .
- ٢٢ - Casteret و Begonen اعادة تكوين كل شعيرة بدءاً من قالب الطين لدب مونتسبان .
- ٢٣ - Charet شرح انطباعات الاقدام البشرية في المغارة تدليل لمسارة أطفال ، وقد قبلت الفرضية من عدد من الباحثين .
- ٢٤ - Ucko و Rosen feld .
- ٢٥ - وجدت عصي طبول من العظم في جزيرة oleny في بحيرة Barons في نخباً يعود لحوالي (٥٠٠ ق م) .
- ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - مراجع حول الشامانية .
- ٣١ - U, Ko و Rosafeld ص ١٩٥ .
- ٣٢ - جذور الحضارة - مارشان ص ٨١ .
- ٣٣ - م - الياد تاريخ الاديان فصل .
- ٣٤ - يقدر مارشان أن تقليد التعرجات لا تفسر بسحر الصيد أو الرمز الجنسي فجملة حبة الماء - المطر - الغيوم ، العاصفة توجد في العهد النيوليتي في استراليا وافريقيا والأمريكتين .

٣٥ - ما جذب انتقاد Uika أن هذا الكاتب بعد أن أعاد الى الذاكرة بعض الأمثلة حيث أن المقارنة الايتيوغرافية أعضاء بعض مظاهر المجتمعات لها قبل التاريخ ، قدم تحليلاً للفن الباليوليتيكي على ضوء الوقائع الاسترالية والأفريقية .

٣٦ - يذكر أن مفهوم (الحفريات الحية) قد استعمل بنجاح في عدد من فروع البيولوجيا وعلى الأخص في السوسيوولوجيا . ان سكان الكهوف الذي يسكنونها اليوم ينتمون الى جماعة خاصة fame (حيوان) منذ زمن طويل نص «انهم حفريات حقيقية حية ويمثلون غالباً مراحل قديمة جداً من تاريخ الحياة ثلاثي وحتى ثنائي» وان المغاور المحتفظة هكذا بجماعات قديمة هامة جداً اذا شيئا معرفة جماعات الزونورفيك البدائية الغير قابلين للمحر .

٣٧ - م . ابياد - نشأة الأساطير .

٣٨ - ٣٩ - تاريخ الرقص العالمي - كورث ساش . .

٤٠ - ٤١ - المراجع المذكورة .

٤٢ - انظر الشرح المقارنة لكل هذه المتغيرات في كتاب المؤلف من زالموسكي حتى جينكزخان .

٤٣ - انظر الشرح المقارن في كتاب المؤلف أساطير وأحلام وغرائب . والشامانية . والديانات الاسترالية .

٤٤ - W. Gderto - والأمثلة التي ذكرها تعود الى ثقافات ما قبل التاريخ الأقرب .

٤٥ - عند بعض القبائل الاسترالية في الشمال ، اما الشعيرة الرئيسة لادخال فتاة في الدين تتطلب احضارها منفردة ، امام المجموعة ويعرض انها راشدة او بعبارة اخرى مهياة لتحمل المقتضيات الخاصة بالنساء أو اظهار بعض الاشياء الشعائرية والمتعلقة باشارة لموضوع أو حيوان وعندها يكون اعلان حضور مقدسي . . .

الفصل الثاني

أطول ثورة : اكتشاف الزراعة

العصر الحجري القديم الأوسط Mesolithi Que

العصر الحجري الجديد Neolithique e

٨ - فردوس مفقود :

إن نهاية العصر الجليدي ، حوالي ٨٠٠٠ سنة ق .م قد غيرت الاقليم ومظهر الطبيعة بطريقة جذرية ، وبالنتيجة زراعة وحيوانات أوروبا في شمالي الألب . وإن انحسار الثلوج والجليد استدعى هجرة الحيوانات نحو الاقاليم الشمالية . فأخذت الغابات تحل تدريجيا محل السهوب القطبية . وسيتبع الصيادون الطريدة ، وبصورة خاصة قطعان الرنة ، ولكن ندرة الحيوان أجبرهم على الاستقرار في سواحل البحيرات وعلى الشطآن والعيش على الصيد البحري . إن الثقافات الجديدة التي تكونت خلال الألف الأخيرة من السنين قد عرفت تحت

مصطلح العصر الحجري القديم الأوسط Mésolithique . وهي في أوروبا الغربية أكثر فقراً من الابداعات الكبرى للعصر الحجري الأعلى ، وعلى العكس ، ففي آسيا من الجنوب الغربي وبصورة خاصة في فلسطين ، فإن (الميزوليتيك) يشكل عصراً محورياً : انه عصر تدجين الحيوانات الأولى وبدايات الزراعة .

اننا نعرف القليل عن الممارسات الدينية للصيادين الذين لحقوا بقطعان الرنة في شمال أوروبا . ففي مستودع الطين لمستنقع في (ستلمور) بالقرب من (هامبورغ) وجد الباحث أ . روست A . Rust بقايا اثني عشر رنة بكاملها ، غائصة مع الحجارة في القفص الصدري أو في البطن . وقد فسر (روست) وباحثون آخرون هذا العمل كتقدمة من البكوريات للآلهة ، وعلى الأرجح إلى رب الوحوش الكاسرة . غير ان بوهلاوزن H . Pohlhausen قد أعاد إلى الذاكرة أن الاسكيمو يحفظون المؤونة من اللحم في الماء المتجمد للبحيرات والأنهر^(١) ، ومع ذلك ، - كما اعترف بوهلاوزن نفسه فإن هذه الايضاحات التجريبية لا تستبعد المقاصد الدينية لبعض المستودعات . وفي الواقع ان التضحية بالاغراق قد ثبتت بشكل واسع ، وعلى عصور مختلفة من أوروبا الشمالية حتى الهند^(٢) .

إن بحيرة (ستيلمور) كانت معتبرة ، على الأرجح (مكاناً مقدساً) من قبل صيادي الميزوليتيك وقد التقط (روست) من المستقر عدداً من الأشياء : سهاماً من خشب ، أدوات من عظم ، فؤوساً مقدودة في قرون الأيل (الرنة) ، وبالتأكيد انها تمثل تقدمات . كما هي الحالة لموضوعات عصر البرونز ولعصر الحديد التي وجدت في بعض البحيرات والغدران من أوروبا الغربية .

بالتأكيد ، ان أكثر من خمسة آلاف سنة تفصل المجموعتين من هذه الأشياء ، ولكن استمرارية هذا النموذج من الممارسة الدينية ليست موضع شك . ففي النبع المسمى (سانت - سوفور) أو القديس المنقذ في (غابه كومبين Forêt de Compigne) اكتشفت حجارة من الصوان تعود للعصر (النيوليتي) (مكسرة قصداً بعلامة نذر Ex - Voto) ، وأشياء من زمن الغالين والغالو - رومان Gaulois et des Gallo - Romains ، ومن القرون الوسطى حتى يومنا^(٣) . ويجب أن يؤخذ

في الحسبان أيضاً واقعة أن الممارسة في هذه الحالة الأخيرة ، قد استمرت رغم التأثير الثقافي لروما الامبراطورية وعلى الأخص ، رغم التحريمات المكررة من قبل الكنيسة . واطافة لفائدة هذا المثال الجوهرية فإن له قيمة نموذجية : إنه يعزز باعجاب استمرارية الأمكنة المقدسة وبعض الممارسات الدينية .

كذلك فإن (روست) قد اكتشف في المرقد الميزوليتيكي في (ستيلمور) إناء من خشب الصنوبر مع جمجمة غزال رنة موضوعة في القمة . وحسب رأي (مارينجر) فإن هذا الاناء الشعائري يدل على الأرجح على وجبات طعام شعائرية : كان لحم الرنة يؤكل ، وكانت رؤوسها تقدم لكائن الهي . وغير بعيد عن (اهرنبرغ هوفنباخ) ؛ في محطة نيوزيلتيكية تعود الى ١٠,٠٠٠ سنة ق . م اكتشف (روست) في قاع المستنقع جذع شجرة صفصاف بطول ٣,٥ م منحوتة بخشونة : ويميز فيها الرأس ، وعنق متطاوّل وخطوط كبيرة مشققة ، وهي حسب رأي الباحث . مكتشفها - تمثل الأيدي . وقد غرس هذا (التمثال) في المستنقع ، الا انه لا يوجد حوله لا عظام ولا أشياء من أي نوع . إنه يتعلق بالتأكيد بصورة كائن مما فوق الطبيعة مهما استحال تحديد بنيته بدقة^(٤) .

والى جانب فقر هذه الوثائق القليلة لدى صيادي الرنة ، فإن الفن الصخري لاسبانيا الشمالية يهيء لمؤرخ الأديان مادة هامة . ان الرسم الصخري من الباليوليتيك الأعلى قد تحول ، في (الشرق الإسباني) إلى فن هندسي صلب وشكلي : فالجدران الصخرية (لسيرا مورينا) مغطاة بصور أشكال بشرية وحيوانية (بصورة خاصة ما عرّجيلي وغزلان) مختصرة ببعض خطوط ، وعلامات مختلفة (شرائط متموجة ، دوائر ، نقاط شمس) . وقد اوضح الباحث (هوغو اوبرماير) ان هذه الصور البشرية تتقارب من الرسوم المميزة للحصى المرسومة في (الازيليين L , Azilien)^(٥) . وطالما ان هذه الحضارة متفرعة عن اسبانيا فإن التقدمات البشرية المسجلة على الجدران الصخرية وعلى الحصى يجب ان يكون لها مدلولات مشابهة . لقد جرى تفسيرها كرموز قضيبية (ذكورية) وكعناصر لكتابة أو اشارات سحرية . ويبدو اكثر اقناعاً مقارنتها مع التجوروكا Tjuruga الاوسترالية . ومعروف ان هذه الاشياء الشعائرية ، والتي هي غالبا

ما تكون من الحجارة ومزينة بمختلف الرسوم الهندسية ، تمثل الأجسام الاسطورية للاجداد . ان (التجورونكات) Les Tjurenga لا نجاة في مغارات أو مدفونة في بعض أمكنة مقدسة ، ولا توصل إلى الشباب إلا بنهاية فترة تلقيهم أو مسارتهم في الدين . وعند (الآراند) Les Aranda يتوجه الأب إلى ابنه بهذه الكلمات : «ها هو جسدك الخاص الذي خرجت منه بولادة جديدة» أو : «ان هذا هو جسدك الخاص . انه الجسد الذي كنته ، أثناء وجودك السابق ، الذي سحت فيه . ثم تنزل في المغارة المقدسة لترتاح فيها^(٧)» .

في حالة ما اذا كان للحصوات المرسومة بمغارة (ماز دازيل Mas d. Azil) ، كما يبدو مرجحاً ، وظيفة مشابهة لوظيفة (التجوروكا) ، فإنه من المستحيل معرفة ما اذا كان صانعوها قد تشاطروا الأفكار المتشابهة التي توجد لدى الاستراليين . ومع ذلك ، لا يمكن الشك في وجود المعنى الديني للحصيات الأذيلية Azilien ففي مغارة (بيرسيك Birsek) ، في سويسرا وجد ١٣٣ حصاة مرسومة ، وكلها مكسرة تقريباً . ويبدو من المقبول انها قد كسرت من قبل اعداء أو من قبل محتلين من خارج المغارة . وفي الحالتين قد اتبع ذلك إبطال القوة السحرية - الدينية الماثلة في هذه الأشياء . ومن المحتمل ان المغاور والأمكنة المزينة برسوم حجرية من الشرق الاسباني كانت تشكل أمكنة مقدسة . أما بالنسبة للشموس والعلامات الهندسية الأخرى التي ترافق التصويرات البشرية ، فإن معانيها مازالت غامضة^(٧) .

وليس لدينا أية وسيلة كي نحدد بدقة أصل وتطور المعتقد بالاجداد في ما قبل التاريخ . ويتفحص هذا تبعاً للمتوازيات الانتوغرافية ، فإن هذه المعضلة الدينية ، تكون قابلة لمقارنة وجودها مع العقيدة بالكائنات الماوراء طبيعية أو ارباب الوحوش الكاسرة . فلا يعرف لماذا ان فكرة الاجداد الاسطوريين لا تشكل جزءاً من نظام ديني للباليو ليتيك : انها متضامنة بمتولوجيا ، الأصول - أصل العالم - أصل الطريدة . . الانسان ، الموت ، الميزة لحضارات الصيادين ، اضافة لذلك انها تتعلق بفكرة دينية واسعة الانتشار وخصبة ميتولوجياً ، لأنها قائمة في كافة الأديان ، حتى الأكثر تعقيداً منها (باستثناء بوذية هينايانا) . قد يحصل ان

فكرة دينية قديمة تتفتح بطريقة غير منتظرة في بعض العصور وتبعاً لبعض الظروف الخاصة . وإذا كان صحيحاً أن الفكرة بالجد الاسطوري وعبادة الاجداد تسودان الميزوليتيك الأوروبي ، فمن المرجح - كما يعتقد مارينجر - أن الأهمية لهذا التعقيد الديني يفسر بتذكر العصر الجليدي ، عندما كان الاجداد القدامى يعيشون في نوع من (فردوس الصيادين) .

وفي الواقع ، أن الاستراليين يعتبرون أن اجدادهم الاسطوريين قد عاشوا في العصر الذهبي ، في جنة أرضية ، حيث تكثر الطريدة ، وحيث أن مفاهيم الخير والشر كانت عملياً غير معلومة^(٨) وأن هذا العالم الفردوسي هو الذي جهد الاستراليون لإعادة أحيائه خلال بعض الأعياد ، عندما يعلقون مسرى القوانين والمحظورات .

٩- العمل ، التكنولوجيا والعوالم الخيالية

كما قلنا ، في الشرق الأوسط ، وبصورة خاصة في فلسطين يسجل (الميزوليتيك) عصراً خلافاً محتفظاً تماماً بصفته ، كصلة بين نموذجين من الحضارات ، حضارة الصيد والجمع والحضارة المبنية على زراعة الحبوب . أن الصيادين في العصر الحجري الأعلى ، في فلسطين ، يبدو أنهم قد سكنوا المغاور لفترة طويلة . ولكن هؤلاء هم بصورة خاصة حملة الثقافة النطوفية^(٩) الذين اختاروا وجوداً مستقراً صرفاً . لقد سكنوا المغاور كما سكنوا منازل في الهواء الطلق (كما هو الحال في عينان Einan ، حيث ظهر للوجود قرية صغيرة مؤلفة من أكواخ دائرية مجهزة بمواقد) . أن النطوفيين قد اكتشفوا الأهمية الغذائية للحبوب البرية التي حصدها بمناجل من حجر وقد استخرجوا الحبوب في جرن ومدقة^(١٠) لقد كان هذا خطوة إلى الأمام نحو الزراعة . أن تدجين الحيوانات قد بدأ أيضاً أثناء (الميزوليتيك) (رغم كونه لم يعمم إلا مع بداية النيوليتيك) : الخروف في (زاوي شومي - شانيدر) ؛ نحو ٨٠٠٠ ق م . والتيس في جرش .

الأردن حوالي ٧٠٠٠ ق. م. والخنزير حوالي ٦٥٠٠ ق. م. والكلب في (ستان كار) Stan Carvr ، في انكلترا حوالي ٧٥٠٠ ق. م.^(١١) .

ان النتائج الفورية لاستخدام النجيليات النباتية والقرنية ظهر مع انتشار السكان وغو التجارة وهي مظاهر مميزة للنطوفيين .

وخلافاً للتخطيط الهندسي المميز لرسوم ولصور عهود (الميزوليتيك) الأوروبية ، فان فن النطوفيين هو فن طبيعي : فقد صنعوا تماثيل صغيرة للحيوانات وصور صغيرة للبشر ، أحياناً في وضع جنسي^(١٢) . وان الرمز الجنسي لمداقات يد الجرن المنحوتة على شكل قضيب الذكر واضحة بما لا يدع مجالاً للشك حول معانيها السحر - دينية .

إن النموذجين من مقبرة نطوفية - أ) دفن الجسم بكامله في وضع منحني ، ب) طمر الجماجم ، كانا معروفين من عهد (الباليوليتيك) الحجري وامتدت في (النيوليتيك). وبشأن الهياكل العظمية المكتشفة في (عينان Einan)^(١٣) فقد افترض ان ضحية بشرية قد ضحي بها بمناسبة الدفن ولكن مدلولها الشعائري مجهول . أما بالنسبة إلى مستودعات الجماجم ، فقد جرت مقارنة الوثائق النطوفية مع المستودعات المكتشفة في (اوفنت Offent وبافير Baviere ومغارة هوهلنستن Hohlennten وفي ويرتنبورغ : كل هذه الجماجم كانت تعود لأفراد ربما ذبحوا من قبل صيادي الرؤوس أو من قبل أكلة لحرم البشر^(١٤) . وفي الحالة الأولى كما في الحالة الأخرى ، يمكن استخلاص تصرف سحر - ديني ، باعتبار ان الرأس (النخاع ، كان معتبراً المركز للروح .

منذ وقت طويل وبفضل الأحلام والتجارب الوجدية وما قبل الوجدية ، عرف وجود عنصر مستقل عن الجسم ، اشارت إليه اللغات الحديثة بمصطلحات (الروح) (النفس) (النفخة) الحياة ، المضاعف Double الخ . . . هذا العنصر الروحاني يمكن تسميته باعتباره أنه متداخل في عدد من الخيالات الرؤوية الخ ، كان ماثلاً في الجسم بكامله ؛ وكان يشكل بنوع ما المضاعف له (Son Double) . ولكن تحديد (الروح) في الدماغ كان له اعتبارات ذات شأن^(١٥) : فمن جهة

اعتقد بإمكانية تمثل العنصر (الروحي) للضحية باستهلاك دماغه ؛ ومن جهة اخرى ، غدت الجمجمة كمنبع للقوة موضع طقس Culte .

واضافة لذلك في الزراعة ، اتخذت اختراعات اخرى مكانها أثناء (الميزوليتيك) وأكثرها أهمية كان القوس وصناعة الحبال ، والشباك وصنارة الصيد للسماك والمراكب المؤهلة لسفريات طويلة ، وكبقية الاختراعات المسبقة (أدوات من الحجر ، بعض الموضوعات المصنعة من العظام وقرون الأيائل ، ثياب وخيام مصنوعة من الجلد الخ . . .) كذلك التي ستم خلال (النيوليتيك) (بالمكان الأول الأنية) فكل هذه المكتشفات أثارت ميتولوجيات وأساطير وأحياناً أقامت مغطيات طقوسية . ان القيمة التجريبية لهذه الاختراعات واضحة جداً ، وأقل من ذلك النشاط التخيلي المثار بالعلاقة الصميمة مع مختلف أشكال المادة . بالتعامل مع الصوان أو الابرّة البدائية ، وبالوصل لجلود الحيوانات أو الواح الخشب ، وبتحضير صنارة الصيد أو حربة السهم ، وبصقل تماثيل صغير من الطين ؛ يكشف الخيال عن مشابهاة لا يشك فيها بين مختلف مستويات الواقع ؛ والأدوات والأشياء جميعها مثقلة بما لا يحصى من الرموز ، وعالم العمل - العالم الصغير Lemicro - Univers الذي يثير انتباه الصانع أثناء الساعات الطويلة - يغدو مركزاً سرياً ومقدساً غنياً بالمعاني والدلالات .

ان العالم الخيالي المخلوق والذي يثرى باستمرار بالصلة الصميمة مع المادة ، لا يكفي لتلمسه في المتبكرات التصورية ، أو الهندسية بمختلف ثقافات ما قبل التاريخ . الا انه مقبول بالنسبة لنا في تجارب خيالنا الخاص . ان هذه الاستمرارية بصورة خاصة على مستوى النشاط الخيالي هي التي اجازت لنا ان (نعرف) بوجود اشخاص احياء في تلك العصور السحيقة في بعدها . ولكنه خلافاً لانسان المجتمعات الحديثة ، فإن النشاط الخيالي لانسان ما قبل التاريخ كان مجهزاً بقاعدة ميتولوجية . ان عدداً من أشكال ما وراء الطبيعة والفصول الميتولوجية التي سنصادفها في التقاليد الدينية التالية ، تمثل برجحان كبير مكتشفات العصور الحجرية .

١٠ - تراث الصيادين الباليوليتيك .

ان النجاحات المتحققة اثناء (الميزوليتيك) وضعت نهاية للوحدة الثقافية لأهل (الباليوليتيك) وأطلقت الفوارق والتباينات التي ستصبح منذئذ الميزة الأساسية للحضارات . ان بقايا مجتمعات الصيادين الباليوليتيكية بدأت تخترق في المناطق الهامشية أو المقبولة بصعوبة : كالصحراء ، والغابات الكبيرة والجبال . ولكن هذه العملية من التباين وعزلة المجتمعات الباليوليتيكية ، لا يستدعي فقدان المعطيات والروحانية الخاصة بالصياد . فالصيد كوسيلة لاستمرار البقاء امتد في المجتمعات الزراعية .

ومن الراجح أن عددا من الصيادين ، الذين رفضوا المشاركة بفعالية في اقتصاد المزارعين ، استخدموا كمدافعين عن القرى ؛ في البدء ضد الحيوانات المتوحشة التي كانت تمزق المستقرين وتلغ الحقول المزروعة ، وبعدئذ ضد العصابات من النهابين ، كذلك من الراجح أن التنظيمات الحربية الأولى كانت تشكل بدءاً من هذه المجموعات من الصيادين المدافعين عن القرى . وكما سنرى بعد قليل فإن المحاربين ، والفاتحين والارستقراطيين المحاربين مدحوا رمزية وايدولوجيا الصياد النموذجي .

ومن جهة أخرى فإن الأضحيات الدموية ، المخترعة أيضا من قبل المزارعين كما هي مخترعة من قبل الرعاة ، تعيد في آخر المطاف ، إمارة الطريدة من قبل الصياد . ان تقدمه ، اختلطت مع الطريقة البشرية (أو على الأقل الذكورية) أثناء مليون أو مليوني سنة في الوجود ، لا يمكن حذفها بسهولة

علة ألوف من السنين بعد انتصار الاقتصاد الزراعي ، وتعاد الرؤية العالمية (x)laweltanschauny للصياد البدائي من جديد لتشعر بوجودها في التاريخ . وفي الواقع ، ان الغزوات والحروب الهندو-أوروبية والتركو-منغولية ستكون مشروعات تحت علامة الصياد . آكل اللحوم بامتياز . ان اعضاء الأخوة confréries العسكرية mämerbeunde الهندو-أوروبية والفرسان البلو في آسيا الوسطى سيعتبرون في نظر

السكان المستقرين الذين هاجمهم كأكلة اللحوم التي تصيد ، وتختق وتفترس ، أكلة العشب في السهوب أو قطعان المزارعين ، وإن العديد من القبائل الهندو - اوروبية والتركو - منغولية كان لديهم رموز للحيوانات المفترسة (في المكان الأول منها الذئب) وكانوا يعتبرون أخلاف جد أسطوري حيواني . وإن المبادعات العسكرية للهندو اوروبيين استوجبت تحولا شعائريا بذئب : المحارب المثالي المتملك لمعطيات آكل اللحوم .

من جهة أخرى ، فإن المطاردة ، وامانة حيوان متوحش أصهبت تصبح النموذج الأسطوري لغلبة اقليم ولبناء دولة ^(١٦) . عند الاشوريين ، والاييرانيين والتركو - منغول تشابه تقنيات الصيد مع الحرب للدرجة أنها تتوحد . وفي كل مكان من العالم الاوروي الاسيوي ، ومنذ ظهور الاشوريين حتى بداية العصر الحديث كان الصيد يشكل في آن واحد التعليم الأمثل والرياضة المفضلة للأقيال والكبراء والارستقراطية العسكرية . ومن جهة أخرى فإن الاحترام الخرافي لوجود صياد بالنسبة للمزارعين المستقرين ما زال معتمدا ايضا لدى عدد من السكان البدائيين ^(١٧) . ان مئات ألوف السنين التي تعاش في نوع من التكافل الصوفي مع عالم الحيوان قد تركت آثارا لا تمحى . وأكثر من ذلك ، ان الوجد التهتكبي قابل لتحجين المعطى الديني لأناس العصر الحجري الأوائل ، عندما كانت الطريدة تفترس نيئة ؛ الأمر الذي وصل لليونان ، عند عبدة ديونيزوس (١٢٤ ع م) أو أيضاً ، في بداية القرن العشرين لدى الايساوا les Aissaoua في مراكش

١١ - تدجين النباتات الغذائية - أساطير المنشأ

منذ عام ١٩٦٠ أصبح معروفا أن القرى قد سبقت في اكتشاف الزراعة . وهذا ما كان دعاه الباحث غوردون تشايلد Gordon Child (الثورة النيوليتيكية) وهذا ما تم تدريجيا ما بين ٩٠٠٠ ق م و ٧٠٠٠ ق م ، ومعروف أيضا أنه خلافا لما كان يظن حتى وقت قصير ، ان حضارة التدجين والتأهيل للحيوانات قد سبقت صناعة الآنية . ان

الزراعة ، بمعنى الكلمة ، أي زراعة الحبوب ، قد تطورت في آسيا من الجنوب الغربي وفي أميركا الوسطى . وزراعة الخضار التي تتطلب إعادة الجني النباتي للدرنات والجنذور أو الساق الأرضية ، يبدو أنها حصلت على أصلها في السهول الرطبة الاستوائية من أمريكا وآسيا الجنوب شرق .

وما زالت غير معلومة جيداً قدمية الزراعة البقولية وعلاقتها مع زراعة الحبوب . ان بعض علماء الاجناس ميالون لاعتبار زراعة البقوليات كأنها أكثر قدماً من زراعة الحبوب ، وبعضهم ، على العكس ، يقدرون انها تمثل تقليداً مضعفاً للزراعة . ان واحدة من الاشارات النادرة المتحققة قد قدمت من قبل الحفريات الجارية في أمريكا الجنوبية . ففي حقول (رانشوبيلودو) في فنزويلا وفي /موميل/ في كولومبيا ، اكتشفت بهايا آثار (المانيهوت = manioc) نبات يستخرج من جذره نشويات) فوق مستوى زراعة الذرة الصفراء ، الأمر الذي يعني سبق زراعة البقوليات^(١٨) . ومنذ وقت قريب ظهر في تايلاند دليل جديد عن قدم البقوليات : ففي (مغارة الأشباح) جرى نبش حمص مجنى ، وفول وجنذور نباتات استوائية . وأظهر التحليل باشعاع الكربون radiocarbon تواريخ لها تعود لما حوالي ٩٠٠٠ سنة ق . م ، من غير المفيد التأكيد على أهمية اكتشاف الزراعة بالنسبة لتاريخ الحضارة ، فعندما أصبح الانسان منتجاً لغذائه توجب عليه تعديل معطيات أجداده . وقبل كل شيء ، توجب عليه اتقان تقنية بحساب الزمن ، الذي سبق اكتشافه في (الباليوليثيك) ولم يعد يكفيه ضمان دقة بعض التواريخ المستقبلية بمساعدة تقويم (روزنامة) قمرية متخلفة . فمنذئذ ، كان المزارع ملزماً لأن يُعد مشروعاته لعدة أشهر قبل تطبيقها ، وملزماً بانفاذها ، في نظام دقيق ، ومجموعة من النشاطات المعقدة بهدف الوصول الى نتيجة متباعدة ، وعلى الأخص في البداية ، فلا شيء مؤكد : المحصول ، اضافة لذلك فان جني النباتات فرض تقسيماً للعمل مختلف التوجيه عما في السابق ، لأن المسؤولية الأساسية في ضمان وسائل العيش أصبحت منذئذ تعود على النساء .

ان نتائج اكتشاف الزراعة لم تكن قليلة الاعتبار بالنسبة للتاريخ الديني للبشرية ، ان تدجين النباتات قد أوجب حالة وجودية لم تكن مقبولة سابقاً ؛ انها بالنتيجة حثت على (انشاءات) ، اختراعات ، وتغير أو قلب للقيم التي غيرت العالم الروحي للانسان ما

قبل النيوليتيك تغييرا جذريا . وسنحلل قريبا هذه (الثورة الدينية) المتعشة بانتصار زراعة الحبوب . وهنا ، نعيد الى الذاكرة الأساطير التي تشرح المصدر لنموذجين من الزراعة . فبتلقينا الكيفية التي فسر بها المزارعون ظهور النباتات الغذائية لم نعرف في نفس الوقت التبرير الديني لتصرفاتهم . ان الأكثرية من أساطير المنشأ قد جمعت من لدن الشعوب البدائية المبتكرين سواء زراعة البقوليات وسواء زراعة الحبوب (ان أساطير من هذا النوع أكثر ندرة ، وأحيانا أعيد تفسيرها في الثقافات المتطورة) . ان ثمة موضوعا متشرا لحد ما يوضح أن الدرنات والأشجار المثمرة الغذائية (جوز الهند والموز .. الخ) قد تولدت من آلهة مضحى بها . والمثل الأكثر شهرة يأتي من (ثيران) واحدة من جزر غينيا الجديدة : فمن جسم ممزق ومدفون لفئة نصف الهة تدعى (هانويل) نبتت نباتات غير معهودة حتى ذلك الحين ، وفي المكان الأول الدرنات . ان هذا القاتل الأول primordial قد غيّر جذريا الشرط الانساني ، لأنه أدخل الجنس والموت ، وأقام المؤسسات الدينية والاجتماعية التي ما زالت قائمة . ان الموت العنيف للفئة (هانويل) ليس موتا (خلاقا) فقط ، انه أجاز للربة لتكون باستمرار حاضرة في الحياة البشرية ، وحتى في الموت . بتغذيتها من النباتات الناتجة عن جسمها ذاته ، تتغذى ، في الحقيقة ، مادة الالهية ذاتها .

لن نؤكد على الأهمية لهذه الأسطورة عن الأصل بالنسبة للحياة الدينية ولثقافة الباليوتيك المزارعين : وانما يكفي القول أن كل النشاطات المسؤولة (حفلات البلوغ ، التضحية بالحيوانات ، أو التضحية البشرية ، أكل لحم الانسان ، الحفلات الجنائزية الخ..) انما تشكل بكل معنى الكلمة احياء لذكرى القتل الأول (٢٠) .

وان مما انه دلالة . ان المزارع يشرك القتل بالعمل ، العمل المسالم بامتياز ، الذي يضمن له الوجود ؛ بينما انه في مجتمع الصيادين تناط مسؤولية المذبحة بآخر ، (بأجنبي) يعرف الصياد : بأنه يخاف انتقام الحيوان المصايد (وبدقة أكثر انتقام روحه) أو أنه سيحاكم أمام رب الحيوانات المفترسة أما بالنسبة لمزارعي العصر الحجري ، palocultivateurs فان اسطورة القتل الأول تبرر بكل تأكيد بشعائر دعوية مثل الأضحية البشرية وأكل لحم الانسان ، الا انه من الصعب التحديد بدقة لمفهومه الديني الاصيلي .

ان موضوعاً اسطورياً مشابهاً يشرح أصل النباتات الغذائية - الدرنات كما هو الشأن في الحبوب - كما لو أن هذا الأصل جاء من فضلات (براز excreptions) أو شحم آلهة من جد اسطوري . وعندما اكتشف المنتفعون الأصل المثير للتقزز لهذه الأغذية قتلوا الفاعل ؛ الا انهم اتباعا لنصائحه ، قطعوا جسده ودفنوا الأجزاء المقطعة . فالنباتات الغذائية وعناصر أخرى من الزراعة (أدوات زراعية ، دودة الحرير الخ) نبتت خارج الجنة^(٢١) .

ان معنى هذه الاساطير واضح : النباتات الغذائية مقدسة لأنها مشتقة من جسم الهي (لأن البراز والسخم تشكل أيضاً جزءاً من المادة الالهية) . بالتغذية يأكل الانسان في اللحظة الاخيرة كائناً الهياً . ان النبات الغذائي ليس (معطى) في الدنيا كما هو بالنسبة للحيوان . انه الحصيد لحادث مأساوي بدائي ، وبهذه الحالة : حصيد قتل . وسنرى بعدئذ النتائج لهذه الديانة الغذائية .

ان عالم الأجناس الألماني (أودجنسن A degensen اعتبر أن أسطورة (هاينويل : هي خاصة مميزة لمزارع العصر المتجمد الزارع للدرنات .

اما بالنسبة للأساطير المتعلقة بأصل زراعة الحبوب ، فإنه يبرز على المسرح طيرانا أوليا : فالحبوب توجد ، ولكن في السماء ، وهي محروسة بغيرة من قبل الالهة ؛ فصعد بطل محضر civilisateur للسماء وسرق بعضاً من الحبوب ومنحها للبشرية . وقد اسمى (جنسن) هذين النوعين من الميثولوجيا (هاينويل وبروميثيه) وربطهما تباعاً بحضارة مزارعي العصر الحجري (Vegeclure) وبالمزارعين بمعنى الكلمة ، مزارعي الحبوب^(٢٢) . ان التمييز هو ، بكل تأكيد ، حقيقي . ومع ذلك فيما يتعلق بنموذجي أساطير الأصل ، فانها أقل صلابة مما فكر به (جنسن) لأن العديد من الأساطير يوضح ظهور الحبوب بدءاً من كائن بدائي مضحى به imole ، قربانا . ويضاف لذلك ، في ديانات المزارعين أن أصل الحبوب هو الهي أيضاً ، وان منح الحبوب للبشر هو أحياناً موضوع بعلاقة التزاوج بين اله السماء (أو الفضاء) والأرض الأم ، أو مع مأساة اسطورية مثيرة لقران جنسي ، موت وقيامة .

١٢ - المرأة والنبات ، الفضاء المقدس والتجدد الدوري للعالم

ان أولى بل وربما أكثر النتائج أهمية من اكتشاف الزراعة ، يثير أزمة في قيم الصيادين الباليوليتك : فالعلاقات بالنظام الديني مع عالم الحيوان تضاعفت بواسطة ما يدعى التضامن الصوفي بين الانسان والنبات . فاذا كان العظم والدم حتى ذلك الحين يمثلان الجوهر والقداسة للحياة ، فانه من بعد ذلك أصبح المنى sperme والدم المجسدين لها . إضافة لذلك ، فان المرأة والقداسة النسوية مرفعان للصف الأول . وبما أن النساء قد لعبن دورا حاسما في تأهيل النباتات ، فقد أصبحن المالكات للحقول المزروعة ، الأمر الذي يرفع وضعهن الاجتماعي ويخلق مؤسسات مميزة مثل la matrilocation حيث أن الزوج كان ملزما بسكنى بيت زوجته .

ان خصوبة الأرض هي أيضا متضامنة بالخصوبة النسوية ، وبالنتيجة فان النسوة أصبحن مسؤولات عن وفرة المحاصيل ، لأنهن يعرفن سر الخلق . انه يتعلق بسر ديني ، لأنه يحكم أصل الحياة ، الغذاء والموت . فالخلق مُثلُ بالمرأة مؤخرا ، وبعد اكتشاف المحراث أصبح العمل الزراعي يمثل بالعمل الجنسي^(٢٣) . ولكنه خلال ألوف السنين ، فان الأرض الأم قد ولدت وحدها بتوالد عذري = (بدون إخصاب) . ان ذكرى هذا السر عاشت أيضا في الميثولوجيا الأولية (فهيرا) Hira جبلت لوحدها . وأولدت Héphaïstais هيفيستس لأريس (Arés) ، وتركت تترجم في العديد من الأساطير والعديد من المعتقدات الشعبية عن ولادة رجال من الأرض ، والولادة على الثرى . وايداع المولود الجديد على الأرض الخ . . إن الانسان المتولد من الأرض ، عند موته سيعود لأمه «ازحف نحو الأرض أمك» . هكذا هف الشاعر القيدي . [ريغ - قيدا ١٨ - ١٠] .

من المؤكد ، أن القداسة النسوية والأمومة لم تكن مجهولة عند (الباليوليتك) ولكن اكتشاف الزراعة اغنى قوتها بشكل محسوس . ان قداسة الحياة الجنسية وفي الدرجة الأولى الجنسية النسوية ، تختلط مع اللغز العجيب للخلق . ان الحبل بدون لقاح part

henogénese والقران بين الآلهة والبشر Le hierogamas وطقس التهتك الشعائري L'orgie توضح ، على مستويات مختلفة ، الخاصية الدينية للجنس ، ان رمزا معقداً ، من تكوين بشري كوني An thropocosmique يشرك المرأة والجنس مع الايقاعات القمرية ومع الأرض الممثلة بالرحم وبما يجب أن يسمى سر النبات . انه سر يتطلب (الموت) للبذور بهدف أن تضمن لها ولادة جديدة ، وبأعجوبة أكبر ، انه سترجم بتكاثر مدهش . ان تشبيه الوجود البشري ، بالحياة النباتية يفسر بصور واستعارات أو مجازات لمأساة نباتية (الحياة هي كوردة الحقول .. الخ) ان هذه الصور الكثيرة قد غذت الشعر والتأمل الفلسفي خلال الألف من السنين ، وبقيت صحيحة كذلك بالنسبة للانسان المعاصر .

كل هذه القيم الدينية الانشائية لاكتشاف الزراعة قد تمفصلت وتلاحقت بوضوح وتباعاً عبر الزمن . ومع ذلك فقد ذكرناها منذ الآن كي نبرز الصفة المميزة لابداعات ميزوليتيكية ونيوليتيكية . اننا سنصادف باستمرار الأفكار الدينية ، والميثولوجيات والسيناريوهات الشعائرية المتضامنة حول (سر) الحياة النباتي . لأن النشأة الدينية أثرت ، ليس بواسطة العامل التجريبي للزراعة ، وانما بواسطة سر الولادة ، والموت وإعادة الولادة ، التماهية في إيقاع النبات ، فالازمات التي توقع المحصول في الخطر (فيضانات ، جفاف الخ ..) سترجم ، كي تكون مفهومة ومقبولة ومسيطر عليها ، بمآسي ميثولوجية . وان هذه الميثولوجيات والسيناريوهات الشعائرية المتعلقة بها ستسود خلال ألاف السنين حضارة الشرق الأدنى . والنغمة الاسطورية للآلهة التي تموت وتعود الى الحياة تصنف بين الأكثر أهمية منها . ففي بعض الحالات ستولد هذه السيناريوهات العتيقة ابداعات دينية جديدة (على سبيل المثال ايلوزيس ، والأسرار اليونانية الشرقية .. الخ) .

إن الثقافات الزراعية أبدعت ما يمكن أن نسميه ديناً كونياً religion cosmique ، طالما أن النشاط الديني مركز حول سر مركزي : التجديد الدوري للعالم . وان الكون قد فهم كمؤسسة يجب لها أن تكون مجلدة دورياً ، وبعبارة أخرى ، كل عام . «ان الحقيقة المطلقة هي أن التجدد والخلود قابلان للاكتساب من قبل بعض المتميزين بشرط توفر نوع من ثمرة أو نبع بالقرب من شجرة . والشجرة الكونية يفترض لها أن توجد في

مركز العالم وتربط الاقطار الكونية الثلاثة لأنها تغرز جذورها في جهنم l'Enfer ورأسها يلامس السماء. (٢٦) ، (axi mundi)

طلما أن العالم يجب له أن يتجدد دوريا ، فإن نشأة الكون cosmogonie ستكون مكررة شعائريا بمناسبة كل سنة جديدة وهذا السيناريو الأسطوري - الشعائري تؤكد في الشرق الأدنى وعند الهنود- إيرانيين . الا أنه يوجد أيضا في مجتمعات المزارعين البدائيين الذين يصلون أو يمددون بنوع ما المفاهيم الدينية (للينوليتك) .

ان الفكرة الرئيسية - تجديد العالم بواسطة التكرار لنشأة الكون - هي بالتأكيد أكثر قدما أي ما قبل الزراعة . فهي توجد مع التغيرات التي لا يمكن تجنبها ، لدى الاستراليين ، كما توجد لدى عدد من القبائل في أمريكا الشمالية (٢٧) . فلدى مزارعي العصر الحجري paleocultivateurs ، والمزارعين يقتضي السيناريو الاسطوري الشعائري للسنة الجديدة رجوع الموتى ، ومثل هذه الاحتفالات ما زالت حية في اليونان التقليدية ، ولدى الجرمن ، وفي اليابان .. الخ .

ان التجربة للزمن الكوني ، وبصورة خاصة في الأعمال الزراعية ، انتهى بفرض فكرة الزمن الدوري والدورة الكونية . وبما أن العالم والوجود البشري مقومان بمصطلحات من حياة النبات ، فإن الدورة الكونية قد أدركت كتكرار لا نهائي للايقاع نفسه : ولادة ، موت ، عودة للحياة ..

ففي الهند قبل القيدية، سيتمثل هذا المفهوم في مبدأين متضامين : هي دوائر يوغا (Yuga) التي تتكرر الى ما لا نهاية ، والقائمة على ارتحال الأرواح . من جهة أخرى ، فإن الأفكار العتيقة المصاغة حول التجديد الدوري للعالم ، ستعتمد ، وستفسر ، وستدخل في العديد من الأنظمة الدينية للشرق الأوسط . ان علوم الكون والعقائد المتعلقة بالعالم الآخر وانتظار مجيء المسيح messianisme التي ستسود خلال مئات الألوف من السنين في الشرق وفي عالم البحر المتوسط ، تمد جذورها في مفاهيم (النيلوليتك) .

كذلك فان التقسيمات الدينية للحيز أو المكان ، أي بدئياً ، المسكن ، والقرية ، هامة جدا . ان وجودا مستقرا ينظم بشكل آخر العالم خلافا للحياة البدوية . فالعالم الحقيقي بالنسبة للمزارع ، هو الحيز الذي يعيش ضمنه : البيت ، القرية ، الحقول المزروعة . ان مركز العالم هو المكان المكرس بالشعائر والصلوات ، لأنه هنا يتحقق الاتصال مع كائنات ما فوق الطبيعة . ان الدلالات الدينية التي نعت بها أناس (النيوليتك) في الشرق الأوسط ييوتهم وقراهم مجهولة ، ومن المعروف فقط ، بدءاً من فترة ما ، أنهم كانوا بنوا مذابح ومقابر . ولكنه في الصين يمكن إعادة بناء الرمز للبيت (النيوليتي) حيث يوجد استمرار أو تشابه مع بعض نماذج المساكن في اسيا الشمالية والتييت . ففي الثقافة النيوليتكية ليانغ - شو yang - chao كان يوجد انشاءات دائرية صغيرة (بحوالي ٥ متر لقطرها) مع عواميد حاملة لسقف وممتدة حول ثقب مركزي يستخدم للموقد . ومن الممكن أن يكون السقف مجهزاً بثقب من أجل الدخان فوق الموقد . ان هذا المنزل كان من مواد قاسية ، وهو ذات بناء خيمة yourte المغول في أيامنا^(٢٨) . وعليه فقد عرف الرمز الكوني الذي يرتديه اليورت layoute وخيام شعوب الشمال الاسيوي : فالسقاء مدركة كخيمة لا نهائية مسندة بعمود مركزي ، ثقب الخيمة او الفتحة العليا لتصريف الدخان ممثلة بعمود الدنيا أو ثقب السقاء أو النجمة القطبية وهذه الفتحة تسمى أيضا نافذة السقاء ، وعليه فانهم يعتبرون فتحة السقف لمنازلهم (نعمة السقاء) أو (باب السقاء) .

إن الرمزية لكونية المسكن قد تأكدت لدى العديد من المجتمعات البدائية ، فبطريقة ظاهرة قليلا أو كثيرا ، يعتبر البيت صورة عالمية imaga mundi باعتبار أنه يوجد له أمثلة على كافة المستويات من الثقافة ، ولا يعرف لماذا أن (النيوليتكيين) الأوائل للشرق الأوسط قد كانوا استثناء ، على الأكثر إذ أنه في هذا الاقليم ستعرف الرمزية الكونية للهندسة التزيينية أغنى التطور . ان فصل المساكن بين الجنسين (عادة سبق أن تأكدت من أيام الباليوليتك) كان لها على الأرجح معنى كونيا . وان التقسيمات ، التي تقيم الدليل عليها قرى المزارعين ، تتبع بصورة عاما تقسيما ثنائياً ، هو في ذات الوقت تصنيفي وشعائري : سقاء وأرض ، مذكر ومؤنث الخ . . الا أنه أيضا الى صنفين متعارضين شعائرياً . وعليه وكما سنرى في مناسبات عديدة ، فان المعارك الشعائرية بين مجموعتين

متعارضتين تلعب دوراً هاماً ، على الأخص في مشاهد السنة الجديدة التي تقتضي التكرار لمعركة أسطورية ، كما هو الشأن في بلاد ما بين النهرين ، أو ببساطة ، المواجهة بين مبدئين كونيين صيف / شتاء ، ليل / نهار ، حياة / موت . وإن المعنى العميق هو نفسه : المواجهة ، فالألعاب والمعارك توقظ وتثير ، أو تزيد القوى الخلاقة للحياة^(٣٠) . ان هذا المفهوم (البيوكوزمولوجي) - الحياتي الكوني - والذي هو معد - على وجه الاحتمال - من قبل الزراع النيوليتيك ، وسيعرف مع مجرى الزمن العديد من إعادة التفسير ، بله التغيير ، انه يمكن الاعتراف به بصعوبة ، وعلى سبيل المثال ، في بعض نماذج الثنائية الدينية .

اننا لا ندعي بأننا قد أحصينا كل الابداعات الدينية المثارة باكتشاف الزراعة ، وبكفينا أن نظهر المصدر المشترك في النيوليتيك لبعض الأفكار التي ستعرف تفتحها أحيانا منذ آلاف السنين المتأخرة . ولننصف الى ذلك ان انتشار التدين بتركيبه الزراعي كان له كتيبة ، بالرغم مما لا يمكن أن يحصى من التغيرات والتجديدات ، تأسيس نوع من الوحدة الأساسية التي ، حتى يومنا تقرب بين المجتمعات الفلاحية المتباعدة جداً بين بعضها والبعض الآخر ، كالتى توجد في حوض المتوسط ، وفي الهند ، وفي الصين ... » .

١٣ - أديان نيوليتيك الشرق الأدنى

يمكن القول إنه ، منذ النيوليتيك حتى عصر الحديد ، يختلط تاريخ الافكار الدينية مع تاريخ الحضارة ، فكل اكتشاف تقني ، وكل تجديد اقتصادي واجتماعي ، هو على ما يبدو مزدوج بمعنى وبقيمة دينية . وعندما سنشير في الصفحات التالية الى بعض التجديدات / للنيوليتيك / فإنه يجب الأخذ في الحسبان أيضاً اصداؤها الدينية . ومع ذلك وبهدف أن لا نقطع وحدة الموضوع لنعرضها دوماً بشكل بارز .

وهكذا على سبيل المثال ، فإن كل المظاهر لثقافة / جرش / ستستحق تفسيراً دينياً . انها ربما كانت اقدم مدينة في العالم (٦٧٧٠ - ٦٨٥٠ ق.م)^(٣١) . ومع

أنها لم تعرف الحزف ، مع ذلك فإن التحصينات ، والبرج الضخم والابنية العامة الواسعة - التي واحد منها على الأقل ، يبدو أنه انشئ بهدف احتفالات شعائرية - تدل على تقدم اجتماعي وتنظيم اقتصادي يستهلان لدول المدن Cités-état المقبلة من بلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) . لقد اكتشف كارستان وكاتلين كينون Garstang et Kathlen Kenon بضعة أبنية ذات بنية شبه عامة وقد اسمياها المعابد (temples) ، وكنيسة صغيرة عائلية . ومن بين الوثائق الدينية الواضحة ، هنالك تمثالان نسويان ، وغيرها ممثلة لحيوانات تدل على عبادة الخصوبة . ولقد أعطى بعض الباحثين معنى خاصاً لبقايا الصور من الجص المكتشفة من قبل /فارتان/ في السنوات الثلاثين الأخيرة : انها تمثل ذكراً ملتحيًا وامرأة وولداً . العيون معلّمة بأصداف .

واعتقد /كارتان/ وجود امكانية لمائلة هذه البقايا بأقدم ثلاثي الهي معروف ، مقدمة على الأرجح ، ميتولوجيا مشابهة لتلك التي ستسود بعدئذ في الشرق الأوسط ، إلا أن هذا التفسير قد جوبه بمعارضة أيضاً^(٣٢) .

إن الأموات كانوا يدفنون تحت أرضية البيوت ، وان بعض الجماجم المنبوشة من /كاتلين كينون/ تمثل إعداداً متفرداً : فالأجزاء السفلى مقولة بالجص ، والعيون ممثلة بأصداف لدرجة امكانية مقارنتها بصور حقيقية . وان هذا يتعلق ، بالتأكيد ، بطقس عبادة الجماجم^(٣٤) . غير أنه سيقال أيضاً بأن ذلك محاولة للحفاظ على ذكرى الفرد حياً .

ويوجد طقس الجماجم في /تل رماد/ (في سورية بالقرب من دمشق) حيث كشفت الحفريات عن قلنسوات حجمية des calottes crâniennes مع الجبهة مصوّرة بلون أحمر والوجه مقولب^(٣٥) . وفي سورية (تل رماد وجبيل) وبدقة أكثر لمستويات تعود للألف الخامسة ق . م ، ظهرت بعض التماثيل البشرية الصغيرة من فخار ، وان ما اكتشف /في جبيل/ من هذه التماثيل هو ثنائي الجنس^(٣٦) . وبعض التماثيل الصغيرة النسوية ، الموجودة في فلسطين والتي يعود تاريخها لحوالي ٤٥٠٠ ق . م تمثل الربة الأم تحت مظهر مرعب وشيطاني .

ان عقيدة الخصب وعقيدة الموتى تظهران متضامتين . وفي الواقع ، إن ثقافات (هاسيلار) و(ساتال هيويوك) (٧٠٠٠ ق. م) في الأناضول واللتان سبقتا - وعلى الأرجح أثرتا - على الثقافة الماقبل الخزفية pré Céramique لجرش ، تشيران الى وجود عقائد مماثلة . فعقيدة الجماجم Culte des cranes قد تأكدت على نطاق واسع في (سيلار) و(ساتال هيويون) . والهياكل العظمية كانت مدفونة تحت أرضيات المنازل مصحوبة بهدايا جنائزية : مجوهرات ، حجارة نصف ثمينة ، أسلحة منسوجات أقداح من خشب الخ^(٣٨) . وقد وجد في الأربعين مقبرة التي حفرت حتى عام ١٩١٥ العديد من التماثيل من الحجارة والطين . ان الآلهة الرئيسية هي الربة ، ممثلة تحت ثلاث مظاهر : فتاة شابة ، أم ولود لطفل أو «ثور» وعجوز (مترافقة أحيانا بطائر صيد) . الآلهة الذكورية تبدو تحت شكل ولد أو يافع - الابن أو عشيق الربة - وبالعكس له لحيه ، وحيثا يكون ممثلاً حيوانا مقدسا ، الثور . ان تنوع الرسوم على الجدران أمر مدهش ، حيث لا توجد مقبرتان متشابهتان . بروزات الربة تصل أحيانا لارتفاع مترين ، مقبولة بالخص ، أو الخشب أو الطين ورؤوس الثيران تجليات الآله كانت مثبتة على الجدران . والتصوير الجنسي غائب ، ولكن الصدر النسوي وقرن الثور - رمزي الحياة - هما مختلطان أحيانا . ان مقبرة تعود لحوالي (٦٢٠٠ ق. م) تضم أربعة جماجم لرجال متوضعة تحت رؤوس الثيران المثبتة على الجدران . وأحد الجدران مزين برسوم ممثلة لحدآت ذات أرجل بشرية تهاجم رجلا مقطوعي الرؤوس . انها ، بالتأكيد ، تتعلق بخليط أسطورة شعائرية هامة ولكن معناها غائب عنا .

في هاسيلار وعلى مستوى ٥٧٠٠ ق. م تظهر الربة جالسة على جلد فهد ، أو واقفة ممسكة فهداً صغيراً ، وتظهر لوحدها واقفة ، جالسة ، مقرفصة مضطجعة ، أو مصحوبة بطفل . وأحيانا تكون عارية أو مجهزة بغطاء لعضو الجنس (cache- sex) وهنا أيضا تكون ممثلة إما بشابة أو متقدمة في السن .

وعلى مستوى ما يقرب من (٥٤٣٥ - ٥٢٠٠ ق. م) فان الصور الصغيرة للربة مع ولد أو مصحوبة بحيوان ، تماما كالتماثيل الذكورية تتوزع ، على العكس المظاهر الاخيرة لثقافة هاسيلار وهي مميزة بخزف بديع مزين بكثير من

الرسوم الهندسية^(٣٩) . ان الثقافة المسماة ثقافة (تل حلف)^(٤٠) . ظهرت بعد تبدد الثقافات الاناضولية ، وقد عرفت النحاس وبدت كأنها اختراع شعب نازل من الشمال ، ربما البقايا من (هاسيلار) و(ساتال هيويون) . إن التعقيدات الدينية لتل حلف لا تختلف كثيرا عن الثقافات التي وصلت إلينا حتى الآن . فالموتى كانوا يدفنون مصحوبين بهدايا ، من بينها تماثيل من الطين . والثور الوحشي كان يمجّد في أكثر من تجلي للخصب الذكوري . ان صور الثيران والتيوس ورؤوس الكباش والفأس المزدوجة كان لها جميعها بالتأكيد دور شعائري ذي علاقة مع رب العاصفة ، الهام جدا في كل ديانات الشرق الأدنى القديم . مع ذلك لم توجد تماثيل صغيرة ذكورية ، في حين أن صور الربة كثيرة مترافقة بحمام مع أئداء مبالغ فيها ، وهي ممثلة أحيانا كثيرة في وضع القرفصاء ، من الصعب عدم معرفة الصورة المثل للربة - الأم^(٤١) .

ان الثقافة (الحليفية) قد تخربت أو انقرضت حوالي ٤٤٠٠ - ٤٣٠٠ ق . م . وأثناء ذلك كانت الثقافة العبيدية d'obeid المتأصلة في العراق الوسيط ، تنتشر في كل (الميزوبوتاميا) . لقد كانت تأكدت في الوراق أو (ورك السومرية) و(ايريش السامية) حوالي ٤٣٢٥ ق . م . - ان أية ثقافة أخرى من قبل التاريخ ، لم تمارس تأثيرا مماثلاً . ان النجاح في صنع المعادن هو محل اعتبار (فؤوس من نحاس ، مختلف الأشياء من الذهب ، وان الثروة قد تراكمت عن طريق الزراعة والتجارة ، وهنالك رأس رجل قريب من الرأس الطبيعي ، ورؤوس حيوانات من الرخام ، وكلها تحمل معنى دينيا مؤكدا ، ان بعض الاختام من نموذج (غاورا) Gawra يمثل مختلف مشاهد العقيدة (أشخاص حول مذبح ، مزين بجماجم ثيران ، رقصات شعائرية ، حيوانات رمزية شعارية الخ) . الوجوه البشرية مخططة بكثرة ، والاتجاه الغير تصويري يميز من جانب آخر كل ثقافة (العوبيد) d'obeid . فالمقابر مرسومة على تعويذات ليست النسخة لأبنية خاصة ، إلا أنها تمثل نوعاً من صورة نموذجية للمعبد .

وهنالك تماثيل صغيرة بشرية من الحجارة بشعورها وهي تمثل على الأرجح الكهنة . وفي الواقع ، ان التجديد الأكثر دلالة لعصر (العوبيد) هو بالفعل ظهور

المعابد الفخمة^(٤٢) وان واحداً من أكثرها تميزاً هو المعبد الأبيض من ١٧,٥×٢٢,٣ م مقام على مصطبة من ٧٠ م طولاً و٦٦ م عرضاً وبارتفاع ١٣ م . وإن هذه المصطبة تجسد بقايا المقابر القديمة وتشكل زاقورة Ziqqurit و(جبلا) مقدساً كنا أشرنا سابقاً لرمزه .

١٤ - البناء الروحي لanas العصر الحجري الحديث / النيوليتك/

في صدد موضوعنا سيكون من غير المجدي تتبع انتشار الزراعة ، ومؤخراً التعدين ، عبر ايجيه L'Egée والبحر المتوسط الشرقي ، وفي اليونان ، وفي البلقان وأقاليم الدانوب وبقية أوروبا ، كذلك من غير المجدي تتبع انتشارها نحو الهند والصين وآسيا جنوب شرق . ولنعد الى الذاكرة فقط انه ، في البدء تدخلت الزراعة ببطء في بعض الأقاليم من أوروبا ، فمن جهة أن أقليم ما قبل المتجمد سمح للمجتمعات الميزوليتيكية في أوروبا الوسطى والغربية لأن تستمر بمنتجات الصيد والقتنص ، ومن جهة أخرى ، توجبت ممارسة زراعة الحبوب في منطقة معتدلة ومغطاة بالغابات . ان التجمعات الزراعية الأولى تطورت على طول مجاري المياه وعلى أطراف الغابات الكبرى . مع ذلك ، فان انتشار الزراعة النيوليتيكية ، المبتدئة في الشرق الأدنى (٨٠٠٠ ق .م) أثار تطوراً لا مناص منه . ورغم مقاومة بعض السكان ، وعلى الأخص بعد تبلور الرعوية ، فان انتشار زراعة النباتات الغذائية تقرب من استراليا ومن /باتاغونيا/ عندما أشعر بآثار الاستعمار الاوروبي والثورة الصناعية .

لقد نقل انتشار زراعة الحبوب الشعائر ، والأساطير والأفكار الدينية المميزة . الا أنه لا يتعلق بسيرورة آلية . حتى باختصارها ، كما أوجزنا ، الى وثائق أثرية - وبعبارة أخرى ، ومع تجاهلنا الدلالات الدينية ، وفي المقام الأول منها الأساطير والشعائر - نلاحظ الفوارق ، التي تكون أحيانا هامة جداً بين الزراعات النيوليتيكية الأوروبية ومنابعها الشرقية .

فمن المؤكد - مثلاً - ان عبادة الثور المثبتة بالعديد من الصور في أقاليم الدانوب أتت من الشرق الأدنى . ومع ذلك ليس لدينا دليل عن تضحية بالثور ، كما ابتدع في (كريت) أو في الثقافات النيوليتيكية في الهندس . وبذات الأمر فان أصنام الآلهة ، او مجموعة الايقونات التصويرية للربة أم الطفل ، هي أصنام عامة جدا في الشرق ، وهي نادرة في أقاليم الدانوب . حيث لم يوجد أبدا تماثيل في القبور من هذا النوع .

ان بعض المكتشفات الحديثة قد أبرزت بجلاء أصولية الثقافات القديمة لأوروبا جنوب - شرق ، أي الخليط الذي اسماه (ماريجا جينبوتاس) حضارة اوروبا القديمة . وفي الواقع ، إن حضارة تضم زراعة القمح والشعير وتدجين الأغنام والقطعان والخنازير ، تظهر بالتوازي حوالي ٧٠٠٠ سنة ق . م أو قبل ذلك على شطآن اليونان وإيطاليا وفي كريت والأناضول الوسطى وفي سورية وفلسطين وفي الهلال الخصيب . وعليه ، وعلى أساس التواريخ (بالراديوكاربون) باشعاع الفحم ، لا نستطيع الجزم ان هذه العقدة الزراعية قد ظهرت في اليونان متأخرة أكثر عما في الهلال الخصيب وسورية وسيليسيا وفي فلسطين .

ومازال مجهول أيضاً ماذا كان «الاغراء الأساس لهذه الزراعة»^(٤٣) إلا انه لا يوجد دليل اثري مشير إلى مدد من المهاجرين الواصلين من آسيا الوسطى للاستحواز على النباتات المزروعة والحيوانات المستأنسة^(٤٤) .

ومهما يكن من أمر أصلها ، فإن الحضارة الأوروبية القديمة قد تطورت باتجاه أصلي Originalه مئزها أيضاً عن ثقافات الشرق الأدنى عما هو عن اوروبا الوسطى والشمالية . ففيما بين ٥٣٠٠ - ٦٥٠٠ سنة ق . م كان هناك مجال لفورة ثقافية في شبه الجزيرة البلقانية وفي الأناضول الوسطى . ان عدداً كبيراً من الأشياء (اختتام مع رموز ideogramme ووجوه أو صور حيوانية وبشرية ، آتية على هيئة حيوانية ، صور اقنعة الهية) تدل كلها على نشاطات عقائدية . حوالي وسط الألف الرابعة تكاثرت القرية المحمية بخنادق أو جدران ، وباستطاعتها استيعاب

حتى ألف من السكان^(٤٥) . ان كمية من المذابح والمقابر ، وموضوعات شعائرية متعددة ، تشهد كلها على وجود دين منظم جداً . ففي المحطة الاينوليتيكية Enéolitique لكاسيوريل Casioarele على بعد ٦٠ كيلو متراً من جنوبي بوخارست ، ظهر معبد رسمت جدرانه الداخلية بلوليبات رائعة ، باللون الأحمر والأخضر على أساس أبيض - اصفر . ولم توجد تماثيل ولكن اسطوانة بطول مترين واخرى أصغر منها تشير لشعيرة عمود مقدس رامي لقطب الدنيا Laxis Mundis^(٤٦) . وفوق هذا المعبد كان يوجد معبد آخر ، ومنذ وقت قريب جداً ، وجد نموذج من الطين المشوى لمقبرة . ويمثل نموذجا Lamaquette عقدة معمارية ذات انطباع مؤثر : اربعة معابد تستقر على قاعدة مرتفعة .

وقد اكتشفت عدة نماذج من المعابد في شبه جزيرة البلقان . وبإضافتها إلى ما لا يعد من الوثائق (تماثيل - اقنعة - رموز مختلفة غير مصورة الخ) يستدل على غنى وتعقيد ديانة بقي مضمونها مجهولاً^(٤٨) .

سيكون من العبث احصاء كل الوثائق النيوليتيكية الخاضعة لتفسير ديني . الا أننا سنعمد إلى الإشارة إليها أثناء بحثنا لما قبل التاريخ الديني لبعض المناطق الصغيرة في (حوض المتوسط - الهند - الصين - اسيا جنوب شرق - اميركا الوسطى) . ولنقل منذ الآن ، بالرجوع إلى الوثائق الأثرية وحدها ، وبدون الأضواء المستمدة من النصوص أو التقاليد لبعض المجتمعات الزراعية ، تقاليد ما زالت حية حتى مطلع هذا القرن ، إن الديانات (النيوليتيكية) تخاطر بالظهور مبسطة ورتيبة . ولكن الوثائق الأثرية تقدم لنا رؤية مجزأة ، وذات قيمة مقتطعة ، من الحياة ، والفكر الديني . ونأتي لنرى ما تكشفه الوثائق الدينية للثقافات النيوليتيكية الأولى : عبادة الموتى ، والخصوبة المرموز إليها بتمائيل الربات ، وإله العاصفة) مع تجلياته الثور ، أعلى الجمجمة) ، معتقدات وطقوس كلها ذات علاقة مع سر النبات . وإن التمثيل للمرأة - الحقل - النبات - Femne - glèbee - Plante مشابهة للولادة - إعادة الولادة (السر الديني Lnitiation) ؛ وراجع جداً ، الأمل بوجود دتال وبعلم كوني ملائم للرمز (مركز الدنيا) والفضاء المسكون كصورة للعالم Imago mundi ويكفي ملاحظة مجتمع معاصر من المزارعين البدائيين لتقييم

التركيب والغنى' لديانة مصاغة حول أفكار الخصوبة تحت الأرض Ohtonréme ودورة الحياة والموت قبل الوجود^(٤٩) .

من جهة أخرى ، فإنه منذ أن أتت النصوص الأولى لتنضم إلى الوثائق الأثرية للشرق الأدنى ، يلاحظ إلى أي مدى تكشف فيض من المعاني ليست معقدة وعميقة فحسب ، وإنما كانت موضوع تأمل وإعادة تفسير وأحيانا بطريقة تغدو غامضة ، ولدرجة كبيرة غير معقولة . ففي بعض الحالات ، تمثل النصوص الأولى التي أمكن الوصول إليها ، الذكرى التقريبية لابتداعات دينية لا يمكن تذكرها ، وأصبحت غير مستعملة أو شبه مهملة . ويقتض عدم اغفال أن الروحية الكبرى لعصر النيوليتيك ليست (شفافة) ، من خلال الوثائق التي يتصرفنا . ان الامكانات الاستدلالية للوثائق الاثرية محدودة ، والنصوص الأولى تفصح عن رؤية للكون متأثرة بقوة بالأفكار الدينية المتضامنة مع التعدين ، وحضارة سكنى المدن ، والملكية ويجهاز كهنوتي Sacerdotal منظم .

الا انه اذا كان البنيان الروحي لعصر النيوليتيك^(٥٠) غير ممكن . الامساك به بجملته فإن قطعاً متناثرة قد صانته في تقاليد المجتمعات الفلاحية . ان استمرارية الاماكن المقدسة وبعض الشعائر الزراعية والجنائزية ليست أكثر من دلالة على ذلك . ففي مصر القرن العشرين تحزم الحزمة الشعائرية بذات الطريقة التي ترى على الآثار القديمة ، والتي كانت فيما سلف تكون عادة موروثه مما قبل التاريخ . ولدى عرب البتراء ، ان آخر حزمة تدفن تحت اسم (العجوز Levi'eux) اي ذات الاسم التي كانت تحمله في مصر الفرعونية . ان الحبوب المسلوقة التي تقدم في الجنائزات واعياد الموتى في رومانيا والبلقان تسمى (كوليفا) . وان الاسم (كوليفا) والتقدمة تأكدت في اليونان القديمة ، ولكن العرف هو بالتأكيد أكثر قدما (يعتقد وجوده في قبور ديبيلون) . ولقد اظهر (ليوبولد شميث) ان بعض المشاهد الاسطورية الشعائرية ، التي ما زالت قائمة عند فلاحي اوربا الوسطى والجنوب الشرقي في بداية القرن العشرين ، حافظت على اجزاء ميتولوجية وشعائرية منقرضة ، في اليونان القديمة ، قبل (هومير) . ومن غير المفيد المتابعة ، ولكننا نشير فقط الى ان مثل هذه الشعائر قد تدعمت خلال (٤٠٠٠ - ٥٠٠٠) سنة حيث

ان الالف الى الف وخمسمائة سنة الأخيرة تحت يقظة دينين موحدين معروفين بفعاليتها ، المسيحية والاسلام .

١٥ - نص ديني للتعدين : ميتولوجيا عصر الحديد

تلت ميتولوجيا المعادن ، ميتولوجيا الحجر المصقول ، وإن اغناها وأكثرها تميزاً أقيم حول الحديد . فمن المعلوم ان (البدايين) كما هم أيضاً أهل ما قبل التاريخ قد استعملوا الحديد النيزكي Meteorique وقتاً طويلاً قبل تعلمهم استعمال المعادن الحديدية السطحية . فقد عاجلوا بعض الركاز للمعادن الأولية كحجارة ، أي انهم اعتبروها كمواد خام من أجل صناعة الأدوات . فعندما طلب (كورتيز Cortez) من رؤساء الأزتيك معرفة من أين يستخرجون سكاكينهم - أشاروا إلى السماء . وفي الواقع ، ان الحفريات لم تكشف عن أية إشارة لحديد أرضي في طبقات الحديد مما قبل التاريخ للعالم الجديد^(٥٢) .

ان شعوب العصور الحجرية الشرقية قد شاطرت - على ما يحتمل ، في أفكار مشابهة . فالكلمة السومرية آن - بار AN - BAR التي هي اقدم لفظ يدل على الحديد قد كتبت باشارات (سماء) (ونار) . وقد ترجمت بشكل عام (معدن سماوي) أو (معدن نجم) ، وخلال زمن طويل لم يعرف المصريون سوى الحديد النيزكي . وذات الوضع بالنسبة للحثيين ، فإن نصاً من القرن الرابع عشر يشير إلى ان الملوك الحثيين استعملوا (الحديد الأسود من السماء)^(٥٣) . غير ان المعدن كان نادراً (وكان أيضاً ثميناً كالذهب) واستعماله كان أكثر ما يكون طقوسياً . وقد توجب اكتشاف اذابة المعادن الخام لاقامة مرحلة جديدة من تاريخ الإنسانية . وعلى خلاف النحاس والبرونز ، فان صناعة تعدين الحديد غدت بسرعة صناعة . فما ان اكتشف سر اذابة اكسيد الحديد المغناطيسي (Mnagnetite) أو حجر الدم Hematite ، حتى لم يعد ثمة صعوبة بانتاج كميات كبيرة من المعدن ، لأن المناجم كانت غنية وسهلة الاستثارة . ولكن معالجة المعدن الأرضي لم تكن ذات المعالجة

للمعدن النيزكي ، وهي تختلف أيضاً عن اذابة النحاس والبرونز . وبعد اكتشاف الافران فقط ، وبصورة خاصة بعد تطبيق تقنية التصليب أو الدرفلة) للمعدن وتحويله من أحمر لأبيض ، نال الحديد وضعه السائد . وإن صناعة التعدين للحديد الأرضي هي التي جعلت هذا المعدن قابلاً للاستعمال على مدى الأيام .

لقد كان لهذا الفعل نتائج دينية هامة . فإلى جانب القداسة السماوية ، المنبعثة من النيازك ، أصبحنا الآن بحضور القداسة الأرضية التي تتوازعها المناجم والمعادن . فالمعادن تنبت في جوف الأرض^(٥٤) . والمغاور والمناجم مشبهة برحم الأرض الأم . والمعادن المستخرجة من المناجم هي بنوع ما(أجنة) ، إنها تنمو ببطء ، كما لو كانت تخضع لايقاع زمني آخر غير ما لحياة الاعضاء النباتية والحيوانية - انها على الأقل لا تنمو ، أنها تنضج في الظلمات الأرضية . وإن استخراجها من جوف الأرض الأم هو اذن عملية مبتكرة قبل أوانها ، ولو ترك لها الوقت لتنمو(أي الايقاع الجيولوجي للزمن) . فإن المعادن ستصبح معادن ناضجة كاملة .

إن المعدنين - عمال المناجم ، في أي مكان في العالم اخترعوا شعائر تحمل حالة من الطهارة : صيام ، تأمل ، صلوات وأعمال طقوسية . وإن الشعائر موجهة بطبيعة العملية المقصودة ، لتدخل في بقعة مقدسة مشهورة بعدم جواز انتهاكها ، وتدخل في تماس مع قداسة لا تساهم في الشمول الديني المعهود ، قداسة أكثر حمقاً وأكثر خطراً أيضاً . والشعور بالمخاطرة فيها يقع في نطاق لا يعود لحق الانسان: لعالم تحت الأرض مع أسراره من الحمل البطيء التعديني الذي يجري في احشاء الأرض - الأم . ان كل ميتولوجيات المعادن والجبال ، وكل الجنيات التي لا حصر لها ، وكل العبقريات والجنيات الصغيرة Elfes وكل الاشباح والأرواح ، هي تجليات متعددة للوجود المقدس الذي يواجهه عند الدخول في المستويات الجيولوجية للحياة .

وإن المعادن المثقلة بهذه القداسة المظلمة قد توجهت صوب الافران . وعندئذ بدأت العملية الأكثر صعوبة والأكثر مغامرة . فاستعاض الصانع عن

الأرض الأم لكي يسرع ويبدأ خلق (التنامي) . ان الأفران هي نوع من رحم جديد مصنع يكمل فيه المعدن جنينته . ومن هنا العدد اللامتناهي من الاحتياطات ، تابوهات Tabous وشعائر ترافق عملية الصهر^(٥٥) .

ان رجل التعدين ، مثله مثل الحداد ، ومثل ما قبله الخزاف ، هو (سيد النار) . فهو عن طريق النار يهيئ مرور المادة من حالة لأخرى . أما بالنسبة للمعدن فإنه يسرع (نحو) المعادن . إنه يجعلها ناضجة خلال فترة قصيرة بمعجزة ان الحديد يظهر بأنه (يصنع بسرعة) ولكن أيضاً بأن يصنع شيئاً آخر مما كان قد وجد في الطبيعة . وهذا هو السبب الذي من أجله كان السباكون والحدادون في المجتمعات القديمة مشهورين بكونهم (معلمو النيران) Lesmaitres de fer ، وانهم إلى جانب الشامان ، اطباء وسحرة . الا ان الصفة المتساوية الحدين للمعدن - المثقلة بقوى هي في آن واحد مقدسة (وشيطانية) - قد نقلت إلى المعدنين والحدادين : فهؤلاء كانوا يُقدرون عالياً ، ولكنهم موضع خوف ، متجنبين ، أو حتى محقرين^(٥٦) .

في العديد من الميثولوجيات ، يصنع الحدادون الالهيون السلاح للآلهة ، ضامنين لها النصر بذلك ضد الغيلان أو الكائنات الكريهة الأخرى . ففي الاسطورة الكنعانية صنع ركوشار وهاريس / Koshar Na - Haris (المستقيم والمخادع) لبعل الدبوسين اللذين قتل بهما (يام) رب البحار والمياه الجوفية في الأرض (- ٤٩ ع) .

وفي الترجمة المصرية للأسطورة أن بتاح Ptah (الاله - الخزاف) صنع الاسلحة التي مكنت حوريس من الانتصار على (سيت) . كذلك فإن الحداد الالهي تقاستر Tvastr قدم الأسلحة (لمايندرا) اثناء معركتها مع (فرترا) و (هيفستوس) (حداد) أو صنع الصاعقة التي سينتصر (زوس) بها ضد (تيفون) (- ٨٤ م) . ولكن التعاون بين الحداد الالهي والآلهة لا يقتصر على لقائه في المعركة الحاسمة من أجل السيادة على العالم . ان الحداد هو أيضاً مهندس وصانع للآلهة ، يدير البنيان من قصر بعل ، وينظم المقابر للآلهة الأخرى . وازضافة لذلك

فإن هذا الآله الحداد له علاقات بالموسيقى والغناء تماماً كما في عدد من المجتمعات حيث ان الحدادين وصانعي القدور هم أيضاً موسيقيون وشعراء ومطربون وسحرة^(٥٧). وعلى مستوى ثقافات مختلفة (علاقة قديمة جداً) يبدو أن هناك علاقة صميمية بين صناعة الحدادة ، والتقنيات المسترة (شامانية - سحر - شفاء) وصناعة الغناء والرقص والشعر .

ان كل هذه الأفكار والمعتقدات المفصلة حول مهنة العاملين في المناجم والمعدنين والحدادين ، اغنت بشكل ملحوظ ميتولوجيا الإنسان الصانع الموروثة من العصر الحجري . ان الرغبة بالمساعدة في تصنيع المادة كان لها نتائج هامة ، في قمتها المسؤولية بتغيير الطبيعة . فالإنسان يستعوض عن الزمن ، وما كان يتطلبه من دهور Des Eons لما ينضج في أعماق الأرض يقدر الصناعي على إمكانية الحصول عليه خلال اسابيع لأن الفرن يحل محل الرحم الأرضي .

ولألوف السنين بعدئذ ، لن يفكر الكيميائيون بخلاف هذا ، ان شخصية من قصة (بن جونسون) (الكيميائي) تعلن : «ان القصدير والمعادن الأخرى ستصبح من الذهب اذا توفر لها الزمن لتصبح كذلك» . ويضيف كيميائي اخر : «إن هذا هو ما يحققه فننا^(٥٨)» . ان الصراع من أجل (تصنيع أو تطوير الزمن) - التي ستعرف نجاحها الكبير مع (المنتجات التركيبية) المتحصلة نتيجة الكيمياء العضوية ، هي مرحلة حاسمة في «التحضير التركيبي للحياة» ، (التقزيم ، الذي هو حلم الكيميائيين القديم) . هذا الصراع للتعويض عن الزمن ، والذي يميز الإنسان في المجتمعات التكنولوجية الحديثة كان مرتبطاً فيما سلف بعصر الحديد وستقيم فيما سيأتي معانيه الدينية .

حواشي الفصل الثاني

- ١ - Die elt .. ck : - A . Runt
- ٢ - Anlos الخ .
- ٣ - N . Elad - رسالة في تاريخ الأديان ص ١٧٤
- ٤ - A . Runt المرجع السابق .
- ٥ - حضارة الصيادين والقناصين هكذا سميت تبعاً لمحطة ماس داز يل Onas d z il مغارة في جبال البرينية - الفرنسية .
- ٦ - تاريخ الديانات الاسترالية - الياد - ص ١٠٠ يلاحظ انه حسب «معتقدات الاستراليين ان الجدد يوجد في ان واحد في الجسد الاسطوري Latynsmga وفي الرجل الذي تقمص فيه ، ويضاف لذلك انه يوجد أكثر من هذا تحت الأرض وتحت شمل (ولد الروح) ص ٦٠ .
- ٧ - يذكر ان الاستراليين كذلك عدد من القبائل في جنوب اميركا يعتقدون ان اجدادهم الاسطوريين قد مسخوا في نجوم أو انهم صعدوا للسماء ليسكنوا في الشمس والنجوم .
- ٨ - الديانات الاسترالية - الياد
- ٩ - اشتقاق من وادي النطف حيث عرف هذا الشعب العائد للميزوليتيك لأول مرة .
- ١٠ - عما نوبل عناتي Anati فلسطين قبل اليهود ص ٤٩ .
- ١١ - كل هذه التواريخ امكن الحصول عليها بفصل (اشعاع الكربون) . وحول تدجين الحيوان - . Mlller ص ٢٧٠ - وحاليا اكتشف في وادي النيل الأعلى خليط مما قبل النيوليتيك من الأطعمة المنشأة من الحبوب تعود الى ١٣٠٠٠ ق م .
- ١٢ - على سبيل المثال التمثال الذي وجد في Aimgalrhesi عين سقارة .
- ١٣ - أحد القبور يعتبر كأقدم اثر ميكاليتيك في العالم - أناتي ، ص ١٧٢
- ١٤ - أناتي - ص ١٧٤ وماريخر - آلهة رجال ما قبل التاريخ ص ١٨٣

- ١٥ - ليس فقط بالنسبة للمعتقدات المقسمة خلال ما قبل التاريخ . ان اليونان قد حجموا الروح أو بعدئذ مع Lospene , Alereon في الرأس .
- ١٦ - في افريقيا وغيرها (الصيد الطقوس ، يتم بمناسبة تعميد أو تنصيب رئيس جديد .
- ١٧ - كلمة دوليستونج (تعني رؤية عالمية) نظرة ميتافيزيكية للعالم مرتبطة بمفهوم الحياة وقد اشتهر بها الفلاسفة الألمان الرومنسيون (قاموس - المنهل)
- ١٧ - ثم مثل مميز : ان Les Des an a delu colonbie يعتبرون حيادين رغم ان ٧٥٪ من طعامهم يأتي من السمك والخضار ، ولكن في نظرهم ، أن حياة الصياد وحدها هي الجديرة بأن تعاش
- ١٨ - دافيد ر . هاريس - النظام الزراعي واصل الزراعة .
- ١٩ - Na Ilia Solhais - الحرم .
- ٢٠ - م - الياد - مظاهر اسطورية .
- ٢١ - ر . في مكان آخر Atsnhnik Jochika (براز الربة وأهل الزراعة) .
- ٢٢ - Ad . E . Jen jen - أساطير وطقوس الشعوب البدائية ص ١٨٨ .
- ٢٣ - انظر الأمثلة في رسالة تاريخ الأديان - م الياد ص ٢١٨
- ٢٣ - انظر الأمثلة في رسالة تاريخ الأديان - م الياد ص ٢١٨
- ٢٤ - ٢٥ - المرجع السابقة .
- ٢٦ - هذه هي العبارة الكثيرة الانتشار L: axn, mnndi : ولكنه من المرجع ان رمز محور AXe الكونية تسبق - أو أنها مستقلة عن الحضارات الزراعية لأنها توجد في بعض الثقافات القطبية .
- ٢٧ - انظر الأمثلة في مظاهر الأساطير - الياد - الاستراليون لا يعرفون نشأة الكون ولكن تكوين العالم من قبل كائنات فوق بشرية مشابهة لخلقها .
- ٢٨ - تزيينات فكرية دينية في الشرق الأقصى ص ١٦٨ - R . Stein .
- ٢٩ - م - الياد الشامانية
- ٣٠ - فلسطين قبل اليهود - مرجع سابق .
- ٣١ - ٣٢ - K . Keyon اكتشافات قديمة في الأرض المقدسة .
- ٣٤ - حفريات جرش ص ٤٤ .
- ٣٥ - حفريات كوتينيون ملخصة من قبل Amvin ص ٥٩
- ٣٦ - حفريات تل الرماد - دونالد - جيسن
- ٣٧ - التماثيل الصغيرة Munhata وسارها كولان . اكتشافات كانفين .
- ٣٨ - الحضارات المبكرة للشرق الأوسط Jims mellad .
- ٣٩ - القرى النيو ليتية ص ٥١٤ Hachiha
- ٤٠ - اسم موقع تل حلف - الدرياسية في الجزيرة السورية

- ٤١ - مولر كارب ص ٥٩ من أجل الرمز الديني للتماثيل وأسباب الايقونات الصورية
- ٤٢ - Mulles Karp ص ٦١ فجر ما بين النهرين - المعبد الأبيض ص ٤٠
- ٤٣ - اوروبا القديمة Menija Gimbetes ص ٥ .
- ٤٤ - فيما سلف كان للقطيع الخنازير ونوع من القمح كان لها أجداد أصلية في أوروبا
- ٤٥ - بالمقارنة بتجمعات السكان كما هو الشأن في البحيرات السويسرية تظهر كمزارع صغيرة
- ٤٦ - الاسطواناتان فارغتان من الداخل مما يدل على انها قوالب جذع شجرة ورمز Axri mndé يمثل الشجرة الكونية لعمود كوني التواريخ باشعة الكربون ما بين ٤٠٣٥ - ٣٦٣٠ -
- ٤٧ - (نموذج عن مقبرة مكتشفة في Cas cionel .
- ٤٨ - تبعاً لرأي Gimbtas (ان الحضارة الأوروبية القديمة) هي قد طبقت أيضاً الكتابة حوالي ٥٣٠٠ أي ٢٠٠٠ قبل سومر ص ١٢ . وتدمير الحضارة بدأ بعد ٣٥٠٠ بعد غزو شعوب السهوب البونية
- ٤٩ - ان تحليلاً مقارناً للايقونات والرمزية للبواعث التزيينية المكتشفة على الآنية وعلى الموضوعات الأخرى من البرونز ، قابلة أحياناً للتوسع بحساسية لمعرفة دين ما قبل التاريخ ، ولكن هذا قد توضع بدءاً من الخزف المرسوم وعلى الأخص في عصر المعادن .
- ٥٠ - يرجع بوضوح إلى النيوليتيك الأثري للشرق الأوسط وأوروبا
- ٥١ - م . الياد - حدادون وكيميائيون ص ٢٠
- ٥٢ - R . Fangas - التعدين لدى الشعوب القديمة ص ٤١
- ٥٣ - T . A R Kard - الانسان والمعادن ص ١٢٩
- ٥٤ - حدادون كيميائيون - مرجع سابق ص ٤٦
- ٥٥ - مرجع سابق - جارادون وليمانيون - بعض الشعوب الافريقية تقسم المعادن إلى ذكور داناس وفي العين القديمة . ميز /يو/ الكبير بن المعادن الذكورية والانثوية . . وفي افريقيا .
- العمل في اذابة المعادن يمثل بالفعل الجنسي ص ٦٢
- ٥٦ - عن الحالة المزدوجة للحدادين - مرجع سابق - الياد ص ٨٨
- ٥٨ - حدادون كيميائيون - م الياد - ص ٤٠ - انظر أيضاً الفعل عن الكيمياء القريبة وحول التطبيقات الدينية للتقدم العلمي في آخر هذا الكتاب .

الفصل الثالث

أديان شعوب ما بين النهرين

١٦ - «التاريخ يبدأ من سومر»

كما هو معلوم أن هذا هو عنوان لكتاب س. ن. كرامر S.N. KRAMER فقد أظهر هذا المستشرق الأميركي البارز أن اوليات المعلومات المتعلقة بعدد من المؤسسات ، ومن التقنية والمفاهيم الدينية قد حفظت في النصوص السومرية . وإنها تتعلق بالوثائق الأولى المكتوبة والتي يعود أصلها للآلف الثالثة . ولكن هذه الوثائق تعكس ، بالتأكيد ، عقائد دينية أكثر قدماً .

إن الأصل والتاريخ القديم للحضارة السومرية غير معروفين بشكل جيد . فيفترض أن شعباً يتكلم السومرية ، وهي لغة غير سامية ، ولا يمكن أيضاًها بأية عائلة لغوية أخرى معروفة ، نزل من الاقاليم الشمالية واستقر في أسفل ما بين

النهرين Basse mésopotamie ، وراجع جداً ، أن السومريين اخضعوا السكان الأصليين الذين نجهل مكوناتهم الإثنية athnique «ثقافياً كانوا يشاطرون في الحضارة المسماة عوبيد» . وخلال زمن غير طويل ، فإن جماعات من الرّحل الآتين من الصحراء السورية ، والذين يتكلمون لغة سامية ، الأكاديون بدءوا يتغلغلون في الأقاليم شمالي سومر ، متسللين فيها بموجات غامضة في المدن السومرية ، وحوالي وسط الألف الثالثة ، وبقيادة رئيس أصبح خرافياً /سارغون/ فرض الأكاديون سيادتهم في المدن السومرية . مع ذلك وحتى قبل الفتح كانوا قد انتظموا في اتحاد سومري - أكادي تنامى بقوة بعد توحيد البلدين .

ومنذ ٣٠ أو ٤٠ سنة تكلم العلماء أيضاً عن ثقافة واحدة /البابلية/ المحصلة لذويان هاتين الأرومتين العرقيتين . ومن المتفق عليه اليوم ، أن تدرس منفصلة المعطيات السومرية والأكادية لأنه ، رغم واقع أن المحتلين تمثلوا ثقافة المغلوبين ، فإن العبقرية الخلاقة ، للشعبين كانت مختلفة .

وتلمس هذه الفوارق بصورة خاصة في الميدان الديني ، فمنذ العصور القديمة كانت العلاقة المميزة للكائنات الدينية ، تاج أو قلنسوة ذات قرون . وفي سومر كما في الشرق الأوسط كله ، تأكد الرمز الديني للثور منذ النيوليتيك ، وقد نُقل بدون انقطاع ، وبعبارة أخرى ، إن النموذج الإلهي كان معروفاً بالقوة وبالعظمة المكانية ، مثل السماء المكفهرة حيث يقصف الرعد (لأن الرعد كان ممثلاً بخوار الثور) . إن التكوين السامي /الساوي/ للكائنات الإلهية قد اعتمد بالعلاقة المحددة التي تتقدم معتقداتهم والتي كانت مثلت ، في الأصل ، كوكيا . وتبعاً لمفردات اللغة ، فإن الدلالة الخاصة لهذا التحديد هي (سما) . وبالنتيجة ، فإن كل الوهية كانت متخيلة ككائن سماوي ، ومن أجل هذا فإن الأرباب والرباب كانت تشع نوراً قوياً جداً .

إن النصوص السومرية الأولى تعكس عمل التصنيف والتنظيم المقدم من الكهنة . فيوجد بدياً ثالث كبار الآلهة ، يتلوه ثالث الآلهة الكوكبية . وكان

يوضع زيادة عن ذلك ، قوائم معتبرة للآلهة من كل نوع ، والتي غالباً ما نجهلها ما عدا أسماؤها .

إن الدين السومري ، في فجر تاريخه كان يبدو آنتز / قديماً / . ومن المؤكد إن النصوص المكتشفة حتى عصرنا الحاضر . المجزأة جداً هي ذات تفسير متفرد بصعوبته . مع ذلك ، وحتى بالاستناد على هذه المعلومات الغامضة ، يطرح ان بعض التقاليد الدينية كانت على وشك اضاءة معانيها الأولى . وقد كشفت هذه الحالة حتماً في ثلوث الآلهة الكبرى ، المشكل من آن ، وإنليل وإنكي . وكما يدل عليه اسمه (آن = سماء) فهو الآله الأول الأوري Ouranian . ويجب أن يكون الآله الأعلى بامتياز ، والأكثر أهمية في مجمع الآلهة . ولكن /آن/ مثل آنتز تزامن إله قادر . والأكثر فاعلية والاكثر حضوراً هما /إنليل/ رب الفضاء (المسمى أيضاً /الجليل الكبير/ و /إنكى/ ، /رب الأرض/ ، آله (الاساسات) الذي كان قد اعتبر خطأ كاله للمياه لأن الأرض في المفهوم السومري كانت معتبرة قائمة على المحيط .

وحتى وقتنا لم يكتشف أي نص كوني بمعنى الكلمة ، ولكن بعض الاشارات تجيز لنا إعادة تكوين الفترات الحاسمة في الخلق كما فهمها السومريون . فالرهبه /نامو/ (التي يكتب اسمها باشارات تدل على (البحر الأول) ممثلاً (كالأم التي تحضن السماء والأرض) . والجد الذي أولد كل الآلهة . إن نغمة المياه الأولية ، المتخيلة كمجموعة كونية والهيبة في آن واحد ، هي نغمة مألوفة لحد ما في التكوينات القديمة . وفي هذه الحالة أيضاً ، فإن الكتلة المائية متماهية بالأم الأصلية التي ، أولدت بحمل ذاتي Parthénogénèse ، الزوج الأول lepremiercouple ، السماء /آن/ والأرض /كي/ مجسداً مبادئ الذكورة والانوثة ، وهذا الزوج الأول كان مرتبطاً ، وعلى أهبة الاختلاط في زواج إلهي بشري مختلط lehieros gamos ، ومن قرانها ولد /إنليل/ آله الجو .

إن فقرة أخرى ترشدنا إلى أن هذا الأخير فارق أهله : فرفع الرب /آن/ السماء إلى الأعلى ، وحمل /إنليل/ والدته الأرض معه هذا وإن النغمة النشكونية لفصل السماء عن الأرض منتشرة أيضاً ولحد كبير ، ونجدها في الواقع على

مستويات مختلفة من الثقافة . إلا أن من المرجح أن النصوص المسجلة في الشرق الأوسط وفي حوض المتوسط ، تشتق ، في مرحلتها الأخيرة من التقليد السومري .

إن بعض النصوص تثير الكمال ونعيم البدايات : « الأيام القديمة عندما كان كل شيء تاماً . . . الخ . . . »^(٢) . مع ذلك فإن الفردوس الحقيقي يبدو أنه (ديلمون) Dilmun ، بلاد حيث لا يوجد لا مرض ولا موت . هنالك (لا أسد يفترس ، ولا ذئب يختطف حملاً) . . . ولا مريض في عينيه رمد . . أو عنده مرض في عينيه . ولا ساهر ليل لا يعود إلى زوجته . . . »^(٣) . مع ذلك ، إن هذا الكمال ، كان في جملة سكناً . لأن الآله / انكي / رب / الديلمون / كان نائماً قرب زوجته ، التي مازالت عذراء ، كما أن الأرض ذاتها كانت عذراء ، ومع أن اتصال / انكي / (بالربة نين جور ساج) Nin-gur-sag ثم بالفتاة التي علقت هذه بها ، وأخيراً بأبنية هذه الأبنية - فلأن ذلك يتعلق بنسب آلهة يتوجب له أن يكتمل في هذه البلاد الفردوسية . ولكن حادثاً ، في ظاهره لا معنى له ، أفسح المجال لأول مأساة الهية . يأكل الرب بعض النباتات التي ستكون مخلوقة : وعليه لقد توجب أن يحدد مصيرها ، أي أن يثبت لها قالبها التكويني ووظيفتها . إن نين - جور - ساج زوجته الخارجة عن طورها بهذه الإشارة الغير معقولة ، أعلنت أنها لن تنظر أبداً / ونكي / / بنظرة الحياة / حتى مماته . وفي الواقع ، إن آلاماً غير معروفة أحزنت الآله ، وإن هزاله المتزايد أنبأ بموته الوشيك . أخيراً فإن زوجته دوماً هي التي تشفيه^(٤) .

ذلك هو ما يمكن النجاح بإعادة تركيبه ، فهذه الاسطورة تشوهت من التصحيح الذي لم يمكن معرفة مقاصده . إن الترجمة الفردوسية المكتملة بنسب الآلهة ، والمنتهاية بمأساة ، تظهر المتأخرة والعقاب لآله خالق متبوع بضعفه البالغ الذي يفضي به إلى الموت .

بالتأكيد أنه يتعلق بخطيئة قدرية طالما أن / انكي / ليس معنياً وفقاً للمبدأ الذي يتجسد به . وهذه الخطيئة خاطرت لتصنع البنيان ذاته في أزمة من خلقه

هو . وإن نصوصاً أخرى نقلت لنا انتحابات الآلهة عندما سقطت ضحية المصير . وسرى فيما بعد الاخطار التي واجهها /اينانا/ باجتياز حدود سيادته . وإن ما يفاجئ في مأساة /انكي/ ليس هو طبيعة موت الآلهة وإغما النص الميثولوجي الذي تعلنه هذه المأساة .

١٧ - الانسان أمام آلهته .

يوجد أربع قصص على الأقل تفسر أساس الانسان . وانها مختلفة ، مما يوجب افتراض تعددية التقاليد . فثمة اسطورة تقص ان الكائنات البشرية الأولى نبتت من الأرض مثل الاعشاب . وتبعاً لترجمة أخرى ، فإن الانسان قد صنع من الطين من قبل بعض الصناعات الآلهة ، ثم أن الربة /نامو/ صنعت له القلب و/انكي/ اعطاه الحياة . وتعين نصوص أخرى الربة /ارورو Aruru/ كخالقة للكائنات البشرية . وأخيراً وحسب الترجمة الرابعة ، إن الانسان قد صنع من إلهين مذبحين لهذه الغاية (Lagma) وهذه الترجمة الأخيرة ستؤخذ وتشرح في القصيدة النشكونية /اينوما ايليتش/ [٢١ ع] .

كل هذه البواعث قد تأكدت ، مع العديد من المتغيرات ، في العالم كله تقريباً ، تبعاً لاثنتين من الترجمات السومرية ، إن الانسان الأول تقاسم نوعاً ما الوجود الإلهي : النفخة الحية من /إينكي/ أو الدم من الآلهة Lagma الأمر الذي يعني أنه لم توجد مسافة غير ممكنة العبور بين طريقة التكوين من الآلهة والشرط الانساني ، صحيح إن الإنسان خلق لخدمة الآلهة ، الذين قبل الكل كانت بهم حاجة لأن يتغذوا ويرتدوا الثياب^(٥) . وإن الديانة كانت مفهومة كخدمة للآلهة . مع ذلك إذا كان البشر خداماً للآلهة ، فهم ليسوا عبيداً لها . إن الأضحية تعني بصورة خاصة تقدمة وتكریم . أما بالنسبة للاعياد الكبرى الجماعية للمدينة المحتفل بها بمناسبة السنة الجديدة ، أو بمناسبة تشييد معبد ، فإن لها تركيباً كونياً .

ويؤكد (رايموند جستين Raymand Jastin على واقعة ان مفهوم الإثم والعنصر التفكيرى وفكرة كبش المحرقة لم تتأكد في النصوص^(٦) . وهذا يعني أن البشر ليسوا خدام الآلهة فحسب وإنما ممثليهم أيضاً وبالنتيجة أقرانهم . وطالما أن الآلهة مسؤولة عن النظام الكوني ، فإن على الأشخاص أن يتبعوا أوامرهم ، لأنها ستعكس على الأحكام وعلى المقررات التي تضمن بشكل حسن أيضاً عمل العالم والمجتمع البشرى^(٧) . إن المقررات تؤسس أي تحدد مصير كل كائن ، وبكل شكل من أشكال الحياة ، ولكل مشروع إلهي أو بشرى . إن تحديد (المقررات) استكمل بعمل (نامتار Nam-tar) ، الذي ينشئ ويعلن القرار المتخذ . وبمناسبة كل عام جديد ، تثبت الآلهة القدر للأثني عشر شهراً التالية . بالتأكيد إن هذا يتعلق بفكرة قديمة موجودة في الشرق الأوسط ، ولكن العبارة الأولى التي صيغت بدقة إنما هي سومرية وتبرز عمل التعميق والانتظام المنجز من قبل علماء اللاهوت .

إن النظام الكوني يضطرب باستمرار /بسبب الأفعى الكبيرة Le Grand Serpent/ البدئية ، التي تهدد بعودة العالم للعناء عن طريق الجرائم والآثام وأخطاء البشر الذين ينشدون التكفير عنهم والتطهير بمساعدة الشعائر المتنوعة . ولكن العالم يتجدد دورياً ، يخلق من جديد بواسطة عيد العام الجديد Nouvel An (الاسم السومري لهذا العيد à-ki-til) الذي يعني «قوة تعمل على إعادة إحياء العالم» . تيل til تعني عاش ، وعاود الحياة ، وشفى . فكل دورة للقانون الخالد رجوع مطلوب^(٨) .

وأن المشاهد الاسطورية الشعائرية للسنة الجديدة والمتشابهة إلى حد كبير قد تأكدت في ثقافات عديدة . وستكون لدينا فرصة لتحليل العيد البابلي [٢٢ع] akitu . إن السيناريو يقتضي الزواج المختلط hi éros gamos بين آلهتين سيدتين للمدينة ، ممثلتين بتمثاليهما أو بالملك - الذي تلقى لقب الزوج من الربة عيناانا Inana وتجمد بديموزي Dumuzi^(٩) - وعبد للمعبد unehiérodoule . إن هذا الزواج المختلط hieros gamos كان يحين الصلة بين الآلهة والبشر ، صلة عابرة ، بالتأكيد ولكن لها نتائج معتبرة . لأن الطاقة الالهية تنفتح مباشرة على المدينة.

وبعبارة أخرى ، على (الأرض) - فتقدسها وتضمن لها الوفرة والسعادة بالنسبة للسنة التي بدأت .

وأكثر أهمية أيضاً من عيد العام الجديد كان بناء المعابد ، الذي كان أيضاً إعادة تكرار للنشكونية لأن المعبد - قصر الآله - يمثل الصورة الكلية *l'image mundi* العالمية خير تمثيل . إن الفكرة قديمة جداً وقد انتشرت بكثرة (سنجدها في أساطير بعل) [٥٠] . وحسب التقليد السومري ، بعد خلق الانسان أنشأ أحد الالهة خمسة مدن ، لقد انشأها (في امكنة طاهرة واعطاها اسماءها وعينها مراكز للعبادة^(١١)) . ورغبت الالهة بعدئذ أن توصل إلى الملوك مخطط المدن والمقابر . فرأى الملك (جودا Gudea) في المنام الربة نيدابا Nidaba التي أرته لوحة رسمت عليها النجوم المقدسة والها كشف له مخطط المعبد^(١٢) ، ويمكن القول أن نماذج المعبد والمدينة هي /سماوية/ *trana cendantand* ، لأنها سبق لها الوجود في السماء . فالمدن البابلية كان له نماذجها في الافلاك : سيبار Sippar في السرطان ، ينوي في الدب الأكبر اشور ، في الجوزاء الخ . .^(١٣) . وهذا المفهوم هو مفهوم عام في الشرق القديم .

إن تأسيس المملكة كان بوضوح (نازلاً من السماء) ، في ذات الوقت مع شعاراتها التاج والعرش^(١٤) . وبعد الطوفان اقيمت للمرة الثانية على الأرض . إن العقيدة في سبق الوجود السماوي (للأعمال) وفي المؤسسات كان له أهميته بالنسبة (للانطولوجية) علم الكائن - القديمة ، وسيعرف تعبيره الشهير في *L'agma* الافلاطونية للافكار . ولقد تأكد للمرة الأولى في الوثائق السومرية ، ولكن أصوله تمتد على الأرجح في ما قبل التاريخ . وفي الواقع أن نظرية النماذج السماوية تمتد وتتطور مع المفهوم القديم ، وقد انتشرت عالمياً ، وتبعاً لها ، فإن أفعال الانسان ليست سوى التكرار لتصرفات كشفت من قبل كائنات إلهية

١٨ - أول اسطورة عن الطوفان :

لقد توجب ان ترد الملكية مجدداً من السماء بعد الطوفان ، لأن الكارثة الطوفانية ، تعادل (نهاية العالم) . وفي الواقع إن كائنا بشريا أوحداً يدعى

زيسودرا Zisudra في النص السومري واوتنا بيشتيم Utnapishtim في النص الأكادي ، قد نجا . ولكن خلافاً لنوح لم يسمح له مطلقاً بسكنى الأرض الجديدة التي كانت غمرت بالمياه . على جانب قل أو كثر من الألوهية ، ولكنه على كل حال متمتع بالخلود ، فإن (الناجي) قد نقل لبلادالديلمون Dilemon (زيسودرا) أو إلى (مصب الأنهار) (اوتنا بيشتم) ولم يصل من النص السومري إلينا سوى بعض المقاطع : فرغم التحفظات أو مقاومة بعض أعضاء المجمع الإلهي (البانتيون) فإن كبار الآلهة قرروا افناء البشرية بالطوفان . . . وآثار بعضهم مزايا الملك (زيسودرا) - «طاهر - متواضع - تقي» . وقد اعلم (زيسودرا) بالقرار الصادر عن (آن وانليل) أعلم بهذا القرار من قبل حاميه . . . وهنا ينقطع النص بفراغ طويل - ويبدو من الراجح ان زيسودرا تلقى تعليمات دقيقة تتعلق ببناء السفينة . وبعد سبعة أيام وسبع ليال ، ظهرت الشمس مجدداً ، فخر (زيسودرا) ساجداً أمام إله الشمس (اوتو) وفي آخر القطعة المحفوظة . . . ان (آن/وانليل) منحه (حياة إله) و (نفخة الخلود) الإلهية واقراه في البلاد الخرافية من (ديلمون) (١٤) .

وسنجد ترجمة الطوفان في ملحمة جلجامش ، هذا العمل الشهير ، الذي حفظ بدرجة جيدة ، وهو يوضح بشكل أفضل التشابهات مع القصة البابلية . ومن الراجح ان هذا يتصل بمصدر مشترك قديم جداً . وكما هو معلوم منذ تجميعات ، ر . أندرية R . Andree وهـ . اوزبر H . Usener وجـ جـ فريزر J . G . Fruzer إن اسطورة الطوفان هي تقريبا ممتشرة عالمياً ؛ وقد تأكدت في كل القارات (مع كونها نادرة جداً في إفريقيا) وعلى مستويات مختلفة من الثقافة . ان العديد من رواياتها المختلفة تبدو حصيلة الانتشار ، بدءاً من (ميزوبوتاميا) ما بين النهرين وبالتالي من الهند . ومن الممكن أيضاً ان كارثة أو عدة كوارث طوفانية قد أخذت مكانها في القصص الخرافية . غير انه سيكون من الغباء تفسير اسطورة منتشرة هذا الانتشار لم نجد آثارها الجيولوجية . ان الأغلبية من الأساطير الطوفانية تبدو أنها تشكل جزءاً من ايقاع كوني - نوعاً ما : فالعالم القديم ، المسكون ببشرية منحلة غرق في الماء ، وبعد فترة من الزمن ، طفا (عالم جديد) من المتاهة المائية

Du Chaos Aquatique Cosmique

في عدد كبير من القصص المختلفة ، ان الطوفان هو حصيلة الآثام أو (الخطأ الشعائري ، للبشرية . وأحيانا ينتج بكل بساطة عن رغبة كائن إلهي في ان يضع نهاية للبشرية . وانه لمن الشاق العسير التحديد بدقة لسبب الطوفان في تقاليد ما بين النهرين . إن بعض الاشارات تفهم بأن الآلهة اتخذت هذا القرار بسبب المذنبين . وفي تقليد آخر ان غضب(ينليل) قد اثير بسبب الضخب الذي لا يحتمل من الناس^(١٦) . مع ذلك ، اذا تفحصنا الأساطير في بعض الثقافات الأخرى ، التي تنبئ بطوفان قريب ، نلاحظ ان الأسباب الرئيسية ترد في آن واحد في ذنوب البشر وفي عجز العالم . فبالواقع البسيط الموجود ، أي ان الكون حي فهو ينتج ويفسد تدريجياً وينتهي إلى التلف ، وهذا هو السبب الذي من أجله يجب عودة الخلق . وبعبارة أخرى إن الطوفان يحقق على المقياس الكوني الكبير Macro Cosmique ماينجز رمزياً أثناء عيد السنة الجديدة : (نهاية العالم) وبشرية مؤثمة ، لتجعل ممكناً خلقاً جديداً^(١٧) .

١٩ - السقوط للجحيم : عينانا وديموزي :

ان ثالث الآلهة الكوكبية كان يضم نانا - سوين (القمر) ، و ، اوتو Utu (الشمس) وعينانا Inanna ، ربة النجم فينوس والحب . وان آلهتي القمر والشمس سيعرفان أوج مجدهما في العصر البابلي - أما عينانا المماثلة (ishtar) لعشتار الأكادية وفيما بعد عشتارت Ashtarté ، فإنها ستمتع بفعلية (Actualité) طقوسية وميتولوجية لم تصل إلى مثلها ربة أخرى في الشرق الأدنى . في عظمتها ، كانت عينانا - اشتار في آن واحد ربة الحب والحرب أي إنها تحكم الحياة والموت ، وللدلالة على كمال قدراتها يقال انها خنثى (Ishtar Basbata) = Hermaphrodite . لقد رسمت شخصيتها فيها سلف تماماً في العهد السومري وان اسطورتها المركزية تشكل واحدة من أكثر دلالات خلائق العالم القديم . هذه الاسطورة تفتح بتاريخ حب : إن (عينانا) الربة الوصية أو حامية ايريك Erech تزوج من الراعي (ديموزي)^(١٨) والذي يصبح بهذا ملك المدينة . وتبرز عينانا

عاليا كل هيامها وسعادتها : « انني امشي في سرور ... سيدي جدير بحضن مقدس ». وغالبا ما تتوقع المصير المساوي الذي ينتظر زوجها : « آه يا حبيبي ... يا رجل قلبي ... لقد قدتك . أنت ... صوب قدر غاشم ... لقد لامس فمي فمك ... لقد ضغطت بشفتي على رأسك ... ولهذا أدنت بمصير غاشم^(١٨) ... ». هذا (المصير الغاشم) قد أصر اليوم الذي قررت فيه الطاعة عينانا ان تنزل إلى الجحيم لكي تخلف شقيقتها البكر (ايريشكيجال) Ereshkijal . ان ملكة (المملكة الكبرى في الأعلى) ، عينانا أملت ان تحكم أيضاً في العالم السفلي . لقد نجحت في الدخول إلى قصر (ايريشكيجال) ولكنها ما أن اجتازت الأبواب السبعة (حتى جردها البواب من ثيابها وحليها . فوصلت (عينانا) عارية تماما - أي مجردة من كل سلطة - في حضرة أختها . فثبتت (ايريشكيجال) نظرة الموت عليها ، وأصبح جسمها خامداً . وفي خلال ثلاثة أيام ، أعلمت صديقتها الوفية (ننشوبور) مراعية التعليمات التي كانت أعطتها لها عينانا قبل سفرها ، أعلمت الالهين (اينليل /و/ نالنين/ ولكنها تنصلا ، ثم قالا : إن الدخول في نطاق - أرض الموتى - المحكومة بقرارات لا يمكن انتهاكها ، (ارتكبت عينانا أشياء ممنوعة) . ومع ذلك وجد (انليل) حلاً : فقد خلق رسولين ارسلهما للجحيم ، مجهزين (بغذاء الحياة) و (ماء الحياة) ، وبالحيلة توصلنا لاعادة احياء (الجثة المعلقة على وتد) وتهيأت عينانا للصعود وعندها أمسك بها قضاة جهنم السبعة . (الانوناك) Les Annunak قائلين : «من هو الذي نزل للجحيم وصعد بدون خسارة ؟ ؟ فاذا أرادت (عينانا) الصعود من الجحيم فعليها واجب تقديم من يحل محلها^(١٩) » .

عادت (عينانا) إلى الأرض مخفورة بقطيع من الشياطين ، (الغالا) Les (Galla) : وكان على هؤلاء اعادتها اذا لم تقدم لهم كائنا إلهيا آخر . ولقد أراد الشياطين بدنيا سرقة نينشوبور Ninshubur ، ولكن (عينانا) منعتهم . فتوجهوا جميعاً بعدئذ نحن مدن اوما Umma وباد تيبيرا Bad - Tibira .

وقد انسحب الحياة المرعوبين من الخوف وقررت الربة الشفوقة البحث عنهم في كل مكان . واخيراً وصلوا إلى ايرك Erech . ومع الدهشة والسخط اكتشفت

(عينانا) أن (ديموزي) بدلاً من ان ينتحب ، كان جالساً على عرشه بشيابه الفخمة ، راضياً بكونه ، كما قيل ، الملك الوحيد للمدينة . (فحدقت بعينها - عين الموت - عليه . وتلفظت بكلام ضده . . وهتفت بلعنه واشارت للشياطين هذا هو . . . احملاه (٢٠) .

فاستجار ديموزي بصهره - اله الشمس - اوتو أن يمسخه افعى ، وهرب نحو مسكن (أخته) جيشتينانا Geshtinana ، ثم نحو حظيرة للخراف . وهناك قبض عليه الشياطين ، فعذبوه وقادوه للجحيم . . . ويلي هذا فراغ في النص يمنع من تكملة القصة . . . «حسب كل احتمال ، فإن ايرشكيجال التي أشفقت على دموع ديموزي ، ألانت من مصيره المحزن فقررت ان هذا لن يبقى سوى نصف السنة في العالم السفلي ، وان اخته (جيشتينانا) ستحل محله خلال النصف الآخر . . . (كرامر ص ١٤٤) .

ان نفس الأسطورة مع بعض الاختلاف في المعاني ترد في النص الأكادي ، عن نزول عشتار إلى الجحيم . وقبل طباعة وترجمة النصوص السومرية كان من الممكن الاعتقاد بأن الربة قد توجهت نحو (أرض اللا عودة) بعد (موت) تموز Tamuz وبدقة من أجل اعادته . ان بعض العناصر ، الغائبة في النص السومري بدت مشجعة لمثل هذا التفسير : وفي المحل الأول ، ان النتائج المأساوية لأسر (عشتار) المشار إليها في النص الأكادي : توقف كامل للإنتاج الانساني والحيواني بعد اختفاء الربة .

ويمكن فهم هذه الكارثة كما لو انها تشكل تنمة لانقطاع الزواج المختلط Hieros gamos بين الهة الحب والخصب وبين تموز ، زوجها الحبيب . إن الكارثة كانت علاقات كونية . وفي النص الاكادي ، ان الآلهة المدعورة من الزوال الفجائي للحياة استمرت بالتدخل لتحرير (اشارت) .

ان مما يدهش في النص السومري ، هو القرار (النفساني Psy ehologique ، أي البشري لادانة (دموزي) : كل شيء يبدو واضحاً بغضب (عينانا) عند رؤيتها

لزوجها مستقراً بابهة على عرشها . ان هذا التفسير الرومانسي يبدو انه يغطي على فكرة أكثر قدماً : الموت - شعائرياً ، اذن قابل للاعادة - يتبع لا محالة كل عمل من خلق أو من ولادة . ان ملوك سومر ، شأنهم شأن ملوك الأكاديين فيما بعد ، جسدوا ديموزي في الزواج المختلط Hieras gamos مع (عينانا^(٢١)) . وهذا يستدعى قليلاً أو كثيراً ، قبول (الموت) الشعائري للملك . وفي هذه الحالة يجب الافتراض انه خلف التاريخ المنقول في النص السومري (سر) منشأ من عينانا ، بهدف ضمان دورة الخصب الشامل . وقد يمكن الظن بوجود تورية لهذا (السر) في الجواب المزري ، لجلقماش ، عندما دعتة (عشتار) ليصبح زوجها : لقد ذكرها بأنها هي التي قررت (المناحات) السنوية من أجل (تموز)^(٢٢) . ولكن هذه المناحات كانت شعائرية : كان يندب فيها سقوط الاله الشاب للجحيم في الثامن عشر من تموز (حزيران - تموز) مع تمام العلم بأنه (سيصعد) ستة أشهر بعد ذلك .

ان عبادة تموز امتدت تقريباً إلى الشرق الأدنى وفي القرن الرابع (ب م) أنب حزقيال (٧ : ١٤) نساء أورشليم اللواتي كن يندبن حتى على أبواب المعابد ، تموز المنتهى باغتلاء الوجه المأساوي والراثي للآلهة الشباب الذين يموتون ويبعثون سنوياً . الا انه من الراجح ان نموذج المحنذي السومري كانت له بنية أكثر تعقيداً : فالملوك الذين يحسدونه ، وبالنسبة يقاسمونه مصيره ، كانوا يكرمونه سنوياً إعادة خلق العالم . وعليه ، ولكي يمكن ان يخلق من جديد ، فإنه يتوجب على العالم ان يمحق ، فالعماء قبل النشكونية ادخل أيضاً / الموت ، الشعائري للملك ، نزوله للجحيم . ان النموذجين الكونيين - حياة / موت ، عماء / كون جذب / خصوبة - كانت تشكل ، باختصار الفترتين لحالة أو سيرورة واحدة . وان هذا السر المدرك ، بعد اكتشاف الزراعة ، يصبح المبدأ لشرح موحد للعالم ، وللحياة والوجود البشري ، انه يصعد المأساة النباتية ، لأنها تحكم كذلك ايقاعات الكونية ، والمصير البشري والعلاقات مع الآلهة . ان الاسطورة تقص خيبة ربة الحب والخصب للغلبة على عرش / ايريشكيغال / ، أي لالغاء الموت . وبالنسبة فإن البشر ، كذلك بعض الآلهة ، توجب عليهم قبول التناوب حياة / موت . فدديموزي - تموز غاب ليعاود الظهور بعد ستة أشهر . وهذا التناوب -

الحضور والغياب الدوري للاله - كان قابلاً لتكوين /أسرار/ هامة ، خلاص
البشر ، مصيرهم المحتوم . ان دور ديموزي - تموز المجسد شعائرياً من قبل الملوك
السومريين الاكاديين كان معتبراً ، لأنه حقق التقارب بين النماذج الالهية
البشرية . وفيما بعد فكل كائن بشري يستطيع أن يأمل بالتمتع بهذا الامتياز
المحجوز للملوك .

٢٠ - التركيب السومري - الأكادي:

إن غالبية مدن المعابد السومرية قد جمعت تحت حكم /لوجالزاجيني/
Lugalzaggisi ملك /أوما/ ، حوالي ٢٣٧٥ ق.م ، وهذا هو المظهر الأول
للفكرة الامبراطورية المعروفة . وبعد جيل تكرر المشروع بنجاح أكثر ، من قبل
(صارغون) sargon ملك أكاد . ولكن الحضارة السومرية احتفظت بكل
مقوماتها ، فقد عني التغيير ملوك مدن - المعابد لوحدهم : لقد اعترف بهم
كدفاعي جزية للفتاح الأكادي . وقد انهارت امبراطورية (صارغون) بعد قرن من
الزمان نتيجة هجمات (الغوتيان) Gutiens «البرابرة» الذين كانوا يتنقلون كبدو
رحل في إقليم أعلى الدجلة . ومنذئذ فان تاريخ (ميزوبوتاميا) - ما بين النهرين -
بدا بأنه سيتكرر . لقد تحطمت الوحدة بين سومر وأكاد من قبل البرابرة من
الخارج وبدورهم ، فان هؤلاء الآخرون يقبلون نتيجة ثورات داخلية .

وهكذا فان سيادة /الغوتيان/ لم تدم سوى قرن وحل محلها لقرن آخر
(٢٩٥٠ - ١٩٥٠) ملوك الأسرة الثالثة لأور . وانه خلال هذه الفترة وصلت
الحضارة السومرية لأوجها . ولكن هذا كان المظهر الأخير للقوة السياسية لسومر .
وقد انهارت الامبراطورية بعد أن تمزقت من قبل العيلامين في الشرق والعموريين
في الغرب الذين جاءوا من الصحراء العربية السورية . وخلال أكثر من قرنين
بقيت ميزوبوتاميا مقسمة لعدة دول . وليس سوى حوالي ١٣٠٠ ان همورابي
الملك العموري في بابل نجح في فرض وحدتها . فقد ثبت مركز الامبراطورية

في الشمال الأقصى ، في المدينة التي كان ملكها ، ان الاسرة المالكة المؤسسة من قبل حمورابي الذي ظهر قويا جدا ، قد حكمت أقل من قرن . فنزل برابرة آخرون من الشمال / القسيط/ Leskassite وبدؤوا بتمزيق العمورين . وأخيرا حوالي ١٥٢٥ ق .م انتصروا وبقوا أسياد ميزوبوتاميا لأربعة قرون .

إن المرور من مدن - المعابد الى مدن - الدول والى الامبراطورية يمثل ظاهرة ذات أهمية كبرى بالنسبة لتاريخ الشرق الأدنى^(٢٣) . وما يهنا هنا هو التذكير بأن السومرية ، - مع أنه توقف الكلام بها نحو ٢٠٠٠ ق .م - فانها قد حافظت على وظيفتها كلغة طقسية وبالجملة لغة علم خلال خمسة قرون أيضا . ان لغات أخرى طقسية عرفت مصيراً مشابهاً : السنسكريتية ، العبرية ، اللاتينية ، السلافية القديمة . الخ . وان الرجعية الدينية السومرية استطلت في البنى الأكادية ، فبقي الثالث الأعلى ذاته : أنو - انليل - إيا = «انكى» . وان الثالث النجمي استعار في جزء منه الأسماء السامية للآلهة المتتابعة : القمر / سين / المشتق من السومرية / سوين / - الشمس - شمس ، النجمة فينوس - عشتار = عينانا . وان العالم السفلي يستمر محكوما من / ايرشيجال / وزوجها / نيرجال / . وان التغيرات النادرة ، المفروضة باحتياجات الامبراطورية - مثل تحول الأولوية الدينية الى بابل وابدال اينليل بمردوك marduk - (احتاجت الى قرون من الزمن لتحقيقها)^(٢٤) . أما بالنسبة للمعبد ، «فلم يتغير شيء هام في النظام العام [...] منذ الطور السومري ، ان لم يكن الاتساع وعدد الأبنية»^(٢٥) .

مع ذلك ، فان معطيات العبقرية الدينية السامية ، أضيفت الى البنى السابقة ، وتشير بدنيا الى الالهين (الوطنيين) - ماردوك البابلي ، وبعدئذ آشور الآشوري - اللذين رفعا الى مصاف الآلهة العالميين . كذلك الأمر فإن الأهمية المكتسبة في العبادة لها دلالتها بالصلوات الشخصية ومزامير التوبة . إن واحدة من أجل الصلوات البابلية موجهة الى كافة الآلهة ، حتى تلك التي يقبلها المصلي بخشوع ولا يعرفها . . «أواه ! سيدي . . كبيرة هي ذنوبي . . أيها الاله الذي لا أعرفه ، كبيرة هي آثامي . . أيتها الرببة التي لا أعرفها ، كبيرة هي ذنوبي . . الانسان لا يعلم شيئا . . إنه لا يعلم فيما اذا كان يخالف الشريعة/ القانون/ أو ما

إذا فعل الخير .. أواه .. يا سيدي ، لا تلفظ خادمك .. إن ذنوبي سبعة بسبعة .. أبعد ذنوبي عني ..»^(٢٦) . وفي مزامير التوبة يقر المصلي بأنه مذنب ويعترف بذنوبه بصوت عال . ان الاعتراف مصحوب بإشارة طقسية *lutirgique* محددة : ركوع ، سجود وتسطيع الأنف . إن الآلهة الكبرى - انو - انليل - ايا - فقدوا تباعاً التفوق في عبادتهم .. وأخذ المؤمنون يتوجهون بالأكثر إلى مردوك وإلى الآلهة الكوكبية عشتار وبصورة خاصة الشمس . ومع الزمن أصبح هذا الأخير الإله العالمي بامتياز . وهناك دعاء يعلن ان الإله الشمسي مقدس في أي مكان ، حتى لدى الأجانب . شمس يدافع عن العدالة ، يعاقب المسيء ، يكافئ العادل^(٢٧) . (إن الصفة النومينية *Numineus* للآلهة تنتمي : انهم يلهمون الخوف المقدس ، وبصورة خاصة بنورانيتهم المرعبة ، وان النور اعتبر كتابع ممتاز للالوهية ، وفي المعيار الذي يقتسم فيه الملك الشرط الإلهي هو بذاته مشع *Raynnant*^(٢٨) .

وثمة ابداع آخر للفكر الديني الأكادي هو العرافة أو التنجيم ، ويلاحظ أن تعدد الممارسات السحرية وتطور الأنظمة السرية (وعلى الأخص التنجيم) ، أصبح شعبياً في كل العالم الآسيوي وعالم البحر المتوسط .

وباختصار ، فإن المعطى السامي يتميز بالأهمية المناطة بالعنصر الشخصي في التجربة الدينية وبتمجيد بعض الآلهة إلى مستوى عال . ان هذا التركيب الجديد المتعالي الميزوبوتامي غالباً ما يمثل رؤية مأساوية للوجود البشري .

٢١ - خلق العالم

إن القصيدة النشكونية المعروفة تحت اسم /اينوما ايليش/ - حسب الاستهلال : عندما في العلى .. - تشكل مع ملحمة جلقامش الابداع الأكثر أهمية للدين الأكادي . وهي لا مثيل لها في العظمة ، وفي التوتر المأساوي ، وفي

الجهد لوصول أنساب الآلهة ، والنشكونية ، وخلق الانسان في الأدب السومري . إن اينوما ايليتش تروى بتفصيل أصول العالم لكي تمجد مردوك . ورغم اعادة تفسيرها ، فإن الترجمات لها قديمة . بدثيا ، ان الصورة الأولى لشمولية مائية غير مميزة ، وفيها يميز أول زوجين أبسو Apsu وتيامات Tiamat «مصادر أخرى تحدد بدقة أن تيامات تمثل البحر وأبسو الكتلة المائية الحلوة التي تطفو الأرض عليها» . وكما هو الشأن لآلهة أصلية أخرى فان /تيامات/ تحمل بذات الوقت كامرأة وكمزوجة الجنس bisexuel . ومن خلط المياه الحلوة والمياه المالحة تولدت أزواج الهية أخرى . ويجهل تقريبا كل شيء عن الزوجين الثانيتين ، /لاكهمو/ و/لاكهامو/ (حسب أحد التقاليد ، قد ضحي بهما من أجل خلق الانسان) . أما بالنسبة لثالث زوجين /آنشار/ و/كيشار/ فان اسميهما يعني بالسومرية (مجموعة العناصر العليا) ومجموعة العناصر السفلى .

الزمن يمضي (تمتد الأيام ، وتتعدد السنين)^(٢٩) . من هذا الزواج المختلط hierosgomos لهاتين المجموعتين المتكاملتين ولد اله الساء /آنو/ الذي ولد بدوره نوديمود = إيا^(٣٠) ويلعب وصراخ هذه الآلهة الشابة ، تعكرت راحة /ابسو/ . فشكا هذا الى /تيامات/ «ان سلوكهم غير محتمل لدي ، ومن اليوم لا أستطيع أن أرتاح ، وفي الليل لا أستطيع النوم . فأريد إبادتهم بهدف وضع حد لضجيجهم وصخبهم . وليسود السكون بالنسبة لنا ، و/أخيرا/ نستطيع النوم» (١ - ٣٧ - ٣٩) . في هذه الأبيات من الملحمة يمكن استخلاص حنين «المادة» (أي طريقة التكون التي تناسب الجمود أو القصور الذاتي وعدم شعور المادة) للسكون الأولي ، ومقاومتها ضد كل حركة ، كشرط مسبق للنشكونية . وتأخذ «تيامات» بقذف الشتائم ضد زوجها ، وتطلق صرخة ألم [. . .] : «ماذا ! نحن ذاتنا سندمر ما خلقناه ! صحيح أن سلوكهم مزعج ولكن يجب أن نصبر بسرور» (١ - ٤١ - ٤٦) . ولكن ابسولم يقتنع . وعندما تبلغت الآلهة الصغيرة قرارأجداها (وجهت ، سكنت هدأت (١ - ٥٨) ولكن /ايا/ اله الحكمة و/كلي العلم/ أخذ زمام المبادرة فرسم دائرة سحرية تحيط بالآلهة تقيها وتحرسها ، وألف رقية سحرية نؤم بها /أبسو/ بسبات عميق . ورفع عنه بريقه والبسته وبعد أن قيده قتله وهو

نائم . وأصبح /ايا/ الاله غير المنازع للمياه والتي كانت سابقاً تخص أبسو . «في غرفة الاقدار ، معبد النهاذج» (١ - ٧٩) - جعل /ايا/ جثة أبسو مسكناً له مقاما يبنى عليه هياكله وعلى أبسو أقام ايا مع زوجته ، وعلى أبسو ولد مردوك من زوجته /دامكيئا/ . ان النص يمجّد العظمة الكبرى والحكمة والقوة الشاملة لهذا المولود الأخير للآلهة . انه عندئذ عاود /آنو/ معركته ضد أجداده . لقد استخدم الرياح الأربعة ، وخلق الظلمات ليزعج تيامات (١ - ١٠٨) جاء أبناء الآلهة الى أمهم تيامات وهم يضمرون السوء قالوا : عندما قتل أبسو أين كنت ، هل حميته ؟ لقد بقيت جانبا - دون كلمة (I - ١١٣ - ١١٤) .

سرت تيامات . تحرك في داخلها حب الانتقام . راحت تعد العدة . ولدت تيامات حيات مرعبة . أسنانها حادة - عوضاً عن الدم ملأت جلدتها بالسم . خلقت الثعابين والأسود والكلاب المسعورة والعقارب على صورة بشر . خلقت أحد عشر نوعاً من هذه الحيوانات - الأسلحة وأمرت عليها الاله /كينجو/ رئيس مجمع الآلهة . علقت على صدره ألواح القدر وجعلته المقدم في مجلس الآلهة . وإزاء هذه التجهيزات فقد الآلهة الشباب الشجاعة . فلا آنو ولا أيا تجاسرا على مواجهة /كينجو/ . ولا أحد سوى مردوك الذي قبل النزال للمعركة ولكن على

شرط أن يرسم أولاً الاله الأعلى ، وهذا ما سارع الآلهة بالموافقة عليه وأعلن أنه مقسم الأقدار ومطلق التصرف . ان المعركة بين الجيشين تقرر في المبارزة بين تيامات ومردوك (وكما فتحت تيامات فمها لابتلاعه «٩٧ ١٧») فإن مردوك قذف الرياح العاتية التي هبت في داخلها ، فلم تستطع أن تطبق فمها ، وانتفخ بطنها ، فتحت شديها ذاك رمى قلبها بنبيله ، فانشق قلبها وراح مردوك يجهز عليها ، ورمى بجثتها الهائلة على الأرض وانتصب فوقها . وحاول مساعدو تيامات أن ينجوا ولكن مردوك «أوثقهم وكسر أسلحتهم» وقيد بعدئذ كينجو بالسلاسل ، وانتزع من صدره ألواح القدر المغتصبة وختمها مردوك بخاتمة ، وعلقها على صدره (اللوحة ٤) وأخيراً عاد الى تيامات ففصل جمجمتها وقطع شرايين القلب وأوردته وجعل الرياح تحمل الدم ، تنثره في زوايا الأرض . شطر

جسدها شطرين ، اعلاهما ثبته في السماء ، منه خلق السماء والأسفل ثبته في الأرض منه خلق الأرض وفي السماء ثبت ثالثاً مقدساً أنو وانليل وايا .

وجه مردوك الى السماء جواباً من قصر /ابسو/ وثبت مسيرة النجوم . واللوح الخامس من الملحمة يقرر تنظيم العالم النجمي وتحديد الوقت وتشكيل الأرض بدءاً من أعضاء تيامات «من عينيهاسالت دجلة والفرات ، من خصلة من ذنبها ، خلق الرابطة بين السماء والأرض . وسلط القمر على الليل وجعله زينة في الليل به يعرف الناس موعد الأيام في بدء الشهر يطل القمر الخ» وأخيراً قرر مردوك خلق الانسان لكي يخدم الآلهة . . (٨ - VI) لقد انتظرت الآلهة المقيّدة دوماً العقاب واقترح /ايا/ : الاله الذي أذنب الاله الذي ثار ، أسفك دمه ومن دمه تخلق الانسان . وبسؤالهم من منكم أوغر صدر تيامات ؟ وأثار الحرب وحرصها على العصيان . أشاروا جميعهم لأسم واحد . . كنجو- كنجو هو الذي ثار . فقطعت شراينه وسال الدم ومن الدم خلق /ايا/ الانسان /٣٠ - ٧١ - ٣١/ خلقه ليعبد الآلهة يخدمها وهكذا حرر مردوك الآلهة من العبودية . . وتروي الملحمة تعيين مردوك ثلاث مئة اله للسماء لحكمها وثلاثمائة لحكم الأرض . وان الآلهة تعبيرا عن شكرهم تنادوا لبناء مسكن له لبناء هيكل وفرح مردوك وفي السنة الأولى صنعوا اللبنة وفي الثانية بنوا هيكلأ أقاموه على جسد أبسو وأسماء مردوك /بابل/ ليكون مسكنا لثالوث - مردوك وانليل وايا .

باستعمالنا لكل النغمات الأسطورية التقليدية ، فان (الايнома ايليتش) تقدم /كوزمولوجيا/ غامضة للغاية ، وانثروبولوجيا متشائمة . فلأجل تمجيد البطل الشاب (ماردوك) فان الآلهة الاولى (عصر البدء) وفي المكان الأول /تيامات/ كانوا مثقلين بقيم /شيطانية/ . ان تيامات ليست المجموعة العمائية البدائية التي تسبق كل نشكونية cosmogonie لقد انتهت لتكشف بأنها صانعة الغيلان التي لا حصر لها ، إن /ابداعيتها/ سلبية تماما . ذلك هو ما تثيره /الايнома ايليتش/ فالتقدم الخلاق تعرض في وقت مبكر جداً للخطر برغبة /ابسو/ اعدام الآلهة الشباب ، أي باختصار لوقف خلق الكون في بذرته

. engorme

(إن واحدا في /العالم/ كان موجودا عندئذ ، طالما أن الآلهة كانت تكاثرت وتملتكت /مساكن/ ؛ ولكنه كان يتعلق بطريق للتكون شكلية بحتة . ان مقتل /أبسو/ فتح السلسلة (لقتلة خالقين) . لأن /ايا/ لم يأخذ مكانه فحسب ، ولكنه صمّم أول تنظيم في الكتلة المائية «في هذا المكان بنى محل اقامته [...] وحدد المعابد» . ان النشكونية ، هي حصيلة نزاع بين مجموعتين من الآلهة ، ولكن مجموعة (تيامات) تتضمن مخلوقات الغيلانية والشيطنانية وبعبارات أخرى /البدئية/ Primordialité بحالتها التي ظهرت كمصدر /للمخلوقات السلبية/ . ومن سلخ تيامات شكل مردوك السماء والأرض . ان النعمة التي تأكدت في تقاليد أخرى قابلة لتفسيرات مختلفة . فالعالم ، المشكل من جسد آلهة أصلية ، يشاطر مادتها ، ولكن بعد /شيطنة/ تيامات ، هل يمكن التكلم عن مادة الهية ؟

ان الكوزموس (الكون) ينقسم اذن ، لطبيعة مزدوجة : /مادة/ متناقضة ، ان لم تكن شيطانية بكل صراحة ، و/شكل/ الهية ، لأنه صنعة مردوك . ان القبة السماوية مشكلة من نصف جسد تيامات ، ولكن النجوم والأفلاك تصبح (مقرات) او صور للآلهة . وان الأرض ذاتها تضم النصف الثاني من تيامات ، وأعضائها المختلفة ، ولكنها تقدست بالمدن والمعابد . وبنتيجة الحساب ، فان العالم يظهر حصيلة خلط من (اولية) عمائية وشيطانية من جهة ، وابداعية ، حضور وحكمة الهية ، من الجهة الأخرى ، وهذه قد تكون الصيغة النشكونية الأكثر تعقيداً التي توصل اليها التفكير والتأمل /الميزوبوتامي/ اللذان جمعا في تركيب جريء كل مقومات مجتمع الهية والتي غدا بعضها غير مفهوم وغير قابل للاستفادة منه .

أما بالنسبة لخلق الانسان ، فانه مدد التقليد السومري (الانسان خلق لخدمة الآلهة) وبصورة خاصة فان النص الذي يشرح الأصل بدءاً من الالهين /لاغما/ Lagma المضحي بهما ، ولكنه يضم الى هذا العنصر الثقيل : كينجو ، بالرغم من أنه كان واحداً من أوائل الآلهة ، وقد أصبح الشيطان العتيق L'archidemon رئيس قطيع الغيلان والشياطين التي خلقتها تيامات . فالانسان اذن مشكل من

مادة شيطانية دم كينجو . ان الخلاف مع النصوص السومرية هو ذي دلالة . ويمكن التكلم عن تشاؤمية مأساوية ، لأن الانسان يبدو قد أدين مسبقاً بأصل تكوينه الخاص . ان أمله الوحيد هو أنه صنعة إيا ؛ انه يملك اذن (شكلاً) مخلوقاً من قبل إله ، من هذه الوجهة النظر ، يوجد تناظر بين خلق الانسان وأصل العالم . وفي الحالتين ، فان المادة الأولى مشكلة من المادة والجوهر للوهية أولية ساقطة مشيطة ومعرضة للموت من قبل الآلهة الشباب المنتصرين .

٢٢ - قداسة الملك / الميزوبوتامي /

في بابل كانت الاينوما ايليتش تتلى في المعبد ، اليوم الرابع من عيد أول العام ..

هذا العيد المسمى (زاكموك Zagmuk) (بدء السنة) في السومرية و / أكيكو / Akitu في الأكادية كان يحدث خلال الاثني عشر يوماً من شهر نيسان Nisan . وكان يشتمل على عدد من الترانيم والتي نذكر أكثرها أهمية : (١) يوم التكفير من أجل الملك المناسب لأسر مردوك (٢) تحرير ماردوك (٣) معارك شعائرية وتطواف انتصاري تحت قيادة ملك ؛ في بيت أكيكو Bit Akitu (فترة عيد العام الجديد حيث تقام الوليمة) ٤ - الزواج المختلط le hirsos gamas للملك مع عبدة المعبد ممثلة الربة . ٥ - تحديد الاقدار من قبل الآلهة .

إن أول احتفال من هذا السيناريو الاسطوري - الشعائري - التمجيد للملك وأسر ماردوك - يرمز الى ارتداد العالم للعلماء الما قبل كوني . في مقبرة ماردوك كان الكاهن الاكبر يجرد الملك من شاراته (الصولجان ، والخاتم ، والسيف والتاج ، يضربه على وجهه . ثم يتلفظ الملك ، وهو راکع ، بتصريح عن براءته : « لم اذنب ، يا رب البلاد ، ولم أكن مهملاً تجاه الوهيتك » . وكان الكاهن الاكبر يجب باسم ماردوك : (لا تخف ... ان ماردوك سيسمع دعاءك .. وسينمي مملكتك) (٣٢) .

خلال هذا الوقت ، كان الشعب يبحث عن ماردوك ، معتقداً انه سجين في الجبل» وهذه صيغة تشير /لموت/ الالهة . وكما رأينا في شأن - (عينانا - عشتار) إن هذا الموت لم يكن نهائياً ، وغالباً ما كان يتوجب على الربة افتدائه من العالم السفلي . كذلك ، فإن ماردوك كان مكرباً للنزول (بعيداً عن الشمس والنور)^(٣٣) . أخيراً كان قد تحرر وتجمعت الالهة (أي جمعت تماثيلها) من أجل تحديد الاقدار . (إن هذا المشهد يتناسب ، في الاينوما ايليش مع ترفيع ماردوك لاله اسمى) . وقد قاد الملك الطواف حتى بيت اكيو ، وهو بناء قائم خارج المدينة . وان الطواف يمثل جيش الالهة المتجه ضد تيامات . وحسب تسجيل (لسنحارب) يمكن الافتراض بأنه كان يقلد ايمائاً المعركة الاولى ، فالملك كان يشخص ، آشور ، (الاله الذي كان قد حل محل ماردوك)^(٣٤) وان الزيجة المختلطة Hierosgamos كانت تحصل بعد العودة من مأدبة بيت اكيو . ان الفعل الاخير كان يتركب في تحديد المصير لكل شهر من السنة . بتجديدها ، كانت تخلق السنة شعائرياً ، اي كان يضمن الحظ ، والخصب والوفرة للعالم الجديد الذي ولد .

إن (الاكيتو) l'Akitn يمثل الترجمة الميزوبوتامية لسيناريو اسطوري شعائري منتشر جداً ، وبصورة خاصة عيد العام الجديد المعتبر كترار للنشكونية^(٣٥) فطالما ان التجدد الدوري للكون يشكل الأمل الكبير للمجتمعات التقليدية ، فإننا نستشير لأعياد العام الجديد . ولنحدد بدقة منذ الآن ان عدداً من مشاهد (اكيتو) تتلاقى - وبالتحديد في الشرق الادنى - وفي مصر ولدى الحثيين وفي اوغاريت وايران وعند المانديين mandeén وهكذا ، على سبيل المثال ، فإن (العماء) الذي حُيّن شعائرياً في الأيام الاخيرة من السنة ، قد ، عني به الافراط التهتكى من نموذج الساتورناليا Saturnalia ، وبقلب كل النظام الاجتماعي باطفاء النيران وعودة الموتى (المثلة بالاقنعة) . وان المعارك بين مجموعتين صورتين تأكدت في مصر ، وعند الحثيين وفي اوغاريت . ان العرف بشييت المصائر لاثني عشر شهراً تحصل خلال الاثني عشر يوماً الكبس توجد كذلك في الشرق الاوسط وفي اوروبا الشرقية .

ان دور الملك في الاكيتوم غير معروف بما فيه الكفاية . وان تكريمه يتلاءم مع تراجع العالم /للعلماء/ ولأسر مردوك في الجبل . فالملك يشخص الاله في المعركة ضد (تيامات) وفي الزواج المختلط Hieros gamos . مع خادمة المعبد ولكن التطابق مع الاله لا يشار اليه دوماً : فكما رأينا أثناء (تكريمه) كان الملك يتوجه الى مردوك . مع ذلك ، فإن قداسة الملك الميزوبوتامي قد تأكدت على نطاق واسع . وقد اشرنا للزواج المقدس للملك السومري ، ممثلاً (ديموزي) مع الربة (عينانا) ! هذا الزواج المختلط كان يجري اثناء عيد رأس السنة الجديدة (١٩ ع) . بالنسبة للسومريين ، كانت الملكية مشتهرة بانها نازلة من السماء ، وكان لها اصل الهي ، وهذا المفهوم استمر قائماً حتى انهيار الحضارة الاشورية - البابلية .

ان قداسة الملك كانت قد اعلنت بطرق عديدة . فكان يدعى (ملك البلاد) (اي العالم) او (اقطار العالم الاربعة) ، القاب موقوفة اصلياً على الآلهة^(٣٨) . وتغماً كما هو لدى الآلهة ، فإن نوراً فوق الطبيعي ، كان يشع حول رأسه^(٣٩) . وسبق قبل ولادته ان قدرت الآلهة له السيادة . ان الملك ، وهو يعرف تماماً ذريته الارضية ، كان معتبراً (كابن الاله) اني (اعلن ان حمورابي حمل سين Sin وليبيتشتار بانليل) هذا النسب المزدوج جعله الوسيط الممتاز بين الآلهة والبشر . الملك يمثل الشعب امام الآلهة وهو الذي يغفر ذنوب رعاياه . وعليه احياناً ان يتحمل الموت من أجل جرائم شعبه ، وتلك هي الحجة التي كان لدى الآشوريين من أجلها (بديل للملك)^(٤٠) . وتعلن النصوص ان الملك عاش في علاقة حميمة مع الآلهة في الجنة الاسطورية حيث توجد شجرة وماء الحياة^(٤١) ، (في الواقع ، انه هو ومن يليه الذين يأكلون الاطعمة المقدمة يومياً لتمثيل الآلهة ، والملك هو المبعوث من قبل الله ، وهو راعي الشعب المسمى من الله ، بهدف ضمان العدالة والسلام على الأرض . وأما بالنسبة لأنو وانليل فقد دعيا (ليبيتشتار) Lipitishhtar لحكم البلاد بهدف اقامة العدل في البلاد [...] ؛ عندئذ ، انا لبيتشتار الراعي الطيب لنيبور Nippur [...] اقامت العدل في سومر وفي أكاد اتفاقاً مع كلام انليل^(٤٢) .

ويمكن القول ان الملك كان يتوازع النموذج الالهي ولكن دون ان يصبح الهاً . انه يمثل الاله ، الامر الذي اقتضى في مراحل قديمة من الثقافة ، ان يكون بنوع ما ممثلاً لصورته . . . على كل حال ، وبوصفه وسيطاً بين عالم البشر وعالم الالهة فإن الملك (الميزوبوتامي) كان ينجز في شخصه ذاته ، اتحاداً شعائرياً بين الوضعين في الوجود ، الهي وبشري . . وانه بفضل هذه الطبيعة المزدوجة كان الملك يعتبر ، على الاقل مجازياً ، خالقاً للحياة والخصب . الا انه ليس الها ، عضواً جديداً في البانتيون (كما كان فرعون مصر ٢٧٠ ع) . ان المؤمنين لم يكونوا يتوجهون اليه بصلواتهم ، بل على العكس ، انهم كانوا يدعون الالهة ليباركهم لان الملوك رغم علاقتهم الصميمية مع العالم الالهي ، ورغم الزواج المختلط hieros gamos مع بعض الربات ، لم يتوصلوا لتحويل الشرط البشري . وفي نهاية المطاف ، لقد بقوا خاضعين للموت . ولا ننسى انه حتى ملك اوردوك الاسطوري جلقامش قد اخفق في مشروعه الهادف لاكتساب الخلود .

٢٣ - جلقامش في بحثه عن الخلود .

إن ملحمة جلقامش - هي بالتأكيد ، الأكثر شهرة ، والاكثر ابداعاً شعبياً بابلياً . فالبطل جلقامش ، ملك اوروك سبق ان كان مشهوراً في العصر القديم ، وقد وجدت الترجمة السومرية لكثير من مشاهد حياته الاسطورية . الا انه بالرغم من هذه السوابق ، فإن ملحمة جلقامش هي عمل عبقرية سامية . لقد الفت بالاكادية ، وبدءاً من مشاهد منعزلة مختلفة ، فإنها واحدة من اكثر القصص المثيرة في البحث عن الخلود ، او بدقة اكثر ، في الفشل النهائي لمشروع بدا انه حصل على كل خطوط النجاح . ان هذه القصة الشعرية Saga ، التي تبدأ مع الافراط الجنسي erotique لبطل مزدوج بطاغية ، تكشف في آخر لحظة عدم تلاؤم الفضائل البطولية الصرفة لان تفارق جذرياً الشرط البشري .

وعلى الأغلب ، فإن جلقامش كان بنسبته ثلثي اله ، ابناً للربة Ninsin (نينسين) واحد الفانين^(٤٤) . في البداية يمجّد النص علمه بكل شيء ويمجّد

الانشاءات العظيمة التي كانت هي مشاريعه . ولكن بعد ذلك مباشرة ، يمثل لنا كطاغية يفترع النساء والشابات ويعذب الرجال بالاشغال الشاقة . لقد دعا اهالي البلاد الالهة ، وهذه استجابت لهم لتخلق كائناً بقامة عملاقة ، قادر على مواجهة جلقامش ، وهذا الكائن النصف متوحش الذي تلقى اسم (انكيدو) يعيش مع الوحوش الكاسرة بسلام كلاهما يشرب من ذات الينابيع . لقد علم جلقامش بوجوده بدثياً في المنام ، وبعدئذٍ من صياد كان قد رآه . وارسل عاهرة لكي تسحره بمفاتنها ولتقوده الى اوروك Uruk . وكما هو مقدر من الالهة ، فإن البطلين تصارعاً منذ ان التقيا . خرج جلقامش منتصراً ولكنه اتخذ انكيدو وصديقاً وجعل منه رفيقه . وفي آخر المطاف فإن مخطط الالهة لم يحبط ، فمنتد ، اخذ جلقامش يسرف في تبديد حيويته في مغامرات بطولية .

توجه مصحوباً بانكيدو ، صوب غابة الارز البعيدة جداً والاسطورية المحروسة بكائن غولي وكلبي القدرة هيووا Huwawa ، فخرّبها البطلان ، بعد ان قطعاً ارزتها المقدسة . في دخولهما الى اوروك ، ميز جلقامش من قبل (عشتار) الربة التي دعتة للزواج منها ، ولكنه رفض بوقاحة فدعت (عشتار) المهانة والدها (أنو) ليخلق الثور السماوي بغاية تدمير جلقامش ومدينته . وبدأ أنو بالرفض ، إلا أنه رضخ عندما هددته (عشتار) بأن تخرج الموتى من الجحيم . انفض ثور السماء على اوروك واسقط خواره رجال الملك بالثبات . نجح انكيدو بالأمساك بالثور من ذنبه ، وجلقامش غرس سيفه في عنقه . طار صواب عشتار فصعدت على اسوار المدينة ولعنت الملك . سكراناً بالنصر ، انتزع انكيدو فخذ (الثور السماوي) وطرحها امام الربة ، مجللاً اياها بالشتائم . هذه هي المرحلة الخامسة في مجرى حياة البطلين ، غير ان هذا ايضاً هو الاستهلال للمأساة . ففي ذات الليلة يحلم انكيدو انه قد ادين من قبل الالهة . وفي الغد سقط مريضاً ومات بعد اثني عشر يوماً . ان تغييراً غير متوقع جعل جلقامش غير معروف ، خلال سبعة ايام بلياليها وهو يبكي صديقه ويرفض ان يدفن . وليس الا مع علامة تحلل الجسم ان قبل جلقامش دفنه . لقد كان يظن ان نواحه سيعيد انكيدو الى الحياة لقد كفّن انكيدو بكل أسى . فترك الملك المدينة وتاه في الصحراء وهو ينتحب : «الا اموت انا ايضاً

كانكيديو؟؟ (لوح × عود ٨٠٩١) . . . لقد اربعته فكرة الموت . ان الاكتشافات البطولية لم تجلب له العزاء مطلقاً . فمنذئذ كان همه الاوحد هو النجاة من المصير البشري ، وان ينال الخلود - لقد علم ان اوتنابشتيم الشهير الناجي من الطوفان ، ؛ يعيش دوماً ، (فقرر) - الذهاب . للبحث عنه . ان سفره يذخر بتجارب من نوع مساري . فقد وصل الى جبال موشو Meishu ، ووجد الباب الذي تمر الشمس منه يومياً . كان الباب محروساً بزوج من الأشخاص العقارب التي يكفي منظرها لمجئ الموت (٩ - ١١ - ٧) . لقد أفلج الخوف البطل الذي لا يقهر فسجد بتواضع ولكن الرجال العقارب تعرفوا على الجزء الالهى في جلقامش فسمحوا له بالدخول في النفق . وبعد اثني عشر يوماً من السير في الظلمات اجتاز جلقامش الجانب الاخر من الجبال الى حديقة غناء .

وبعد مسافة ، على شاطئ البحر، التقى حورية البحر (سيدوري) وسألها اين يوجد اوتنابشتيم . وحاولت سيدوري اقناعه بتغيير رأيه : «عندما صنعت الالهة البشر ، وضعت الموت لهم واحتفظت بالحياة لها . انت يا جلقامش ، املاً بطنك ، واستسلم للفرح والمرور ليلاً نهاراً . اجعل لك في كل يوم عيداً . وارقص ليلاً نهاراً ارقص والعب ^(٤٦) .

ولكن جلقامش الح في طلبه وعندئذ تتوجه سيدوري صوب بحار اوتنابشتيم ، الموجود في جوارها . فيجتازان مياه الموت ويصلان الى الشاطئ حيث يعيش (اوتنابشتيم) . ويسأله جلقامش كيف حصل على الخلود ويتعلم هكذا تاريخ الطوفان وقرار الالهة بأن يجعلوا من اوتنابشتيم وزوجته اقارب لهم ، واسكانهما في مدخل الانهار . غير ان اوتنابشتيم يسأل جلقامش «بالنسبة لك، من هو من الالهة سيضمك لجماعته لكي تحصل على الحياة التي تبحث عنها؟» (٩ - ١٩٨) . غالباً ان تمتة خطابه غير متوقعة : «اذهب ، وحاول ان لا تنام خلال ستة ايام وسبع ليال» (٨ - ١٩٩) بالتأكيد . ان ذلك يتعلق بأكبر تجربة مسارة (لتلقين السر) ؛ الانتصار على النوم ، والبقاء في حالة يقظة ، يعادل تحولاً عن الشرط البشري ^(٤٧) . هل يجب العلم ان توتنابشتيم ، عارفاً ان الالهة لن تمنحه

الخلود ، فاقترح على جلقامش الانتصار عليه بواسطة مساره؟؟ . لقد بقي للبطل الانتصار في بعض الامتحانات : المسيرة في النفق . محاولة سيدوري ، اجتياز حياة الموت . . . لقد كانت لحد ما تجارب من نوع بطولي . غير انها هذه المرة ، كانت تتعلق بتجربة من نوع (روحي) . ذلك لأن قوة استثنائية وحيدة من التركيز ، تستطيع ان تجعل كائناً بشرياً مؤهلاً ليقى (متيقظاً) ستة ايام وسبع ليال ، ولكن جلقامش ينام على الفور . ويهتف بتهكم : «انظروا الانسان القوي الذي يرغب بالخلود : ان النوم ، كريح عاتيه - تجلله» (٢٠٤-٢٠٣) لقد نام دفعة واحدة ستة ايام وسبعة ليال ، وعندما ايقظه اوتنابشتيم لامله جلقامش لا يقاظه له ، كأنه جاء لينام . لقد عاد على الاغلب لصوابه ، وابتدأ مجدداً بالنعيب (ماذا اصنع يا اوتنابشتيم) ؟ اين اذهب ؟ ان شيطاناً قد تملك جسدي ؛ في الغرفة التي نمت فيها يسكن الموت . وحيثما اذهب فالموت هنالك بالمرصاد» (٣٤-٣٨) .

واخذ جلقامش يستعد الآن لمعاودة السفر ولكنه في اللحظة الاخيرة وبناء على اقتراح زوجة اوتنابشتيم يكشف له هذا الاخير (سر الالهة) المكان الذي توجد فيه النبتة التي تعيد الشباب . فينزل جلقامش الى قاع البحر ، ويقطفها^(٤٨) ، ويأخذ طريقة بالعودة وهو سعيد جداً . وبعد بضعة ايام من المسير ، يرى نبع ماء عذب فيعجل بالاستحمام . فتخرج حية من الماء وقد جذبتها رائحة النبتة فتحملها وتنزع جلدها .^(٤٩) . وبأسى يندب جلقامش حظه العاثر امام (اورشاناوي) . وفي هذا المشهد يمكن استقراء اخفاق تجربة جديدة للمسارة . فالبطل لم يعرف كيف يستفيد من هبة غير مأمولة وباختصار لقد خائنته الحكمة . ان النص يكمل بطريقة معقدة . بوصوله إلى اوروك يدعو اورشاناوي ليصعد على أسوار المدينة ويتأمل الابنية^(٥٠) . لثد رؤيت في ملحمة جلقامش ابانة مأساوية للشرط الانساني معرفة بحتمية الموت . مع ذلك فإن هذا المؤلف الرئيسي من الادب العالمي يجعلنا نفهم انه بدون معونة الالهة ، فإن بعض الكائنات ستكون قابلة لتحصل على الخلود ، شريطة الخروج منتصرة من مجموعة تجارب (مسارية) . ان تاريخ جلقامش منظوراً اليه من هذا المنظور سيكون دوماً القصة المأساوية لمسارة مفقودة .

مما يؤسف له ، اننا نجهل النص الشعائري للمسارة الميزوبوتامية مع افتراض وجودها . والمعنى المساري للبحث عن الخلود يمكن تكشفه في البنية الخاصة المميزة للتجارب التي تحملها جلقامش . وتقدم الروايات الارثرية romans Ar thurien حالة مشابهة : فالرموز والبواعث المسارية تفيض ، الا انه من المستحيل تقرير ما اذا كانت متضامنة بسيناريو شعائري ، او تمثل ذكريات الميتولوجيا السلتيّة ، أو الغنوصية الهرطقية ، او فيما اذا كانت ببساطة الحصيلة لنشاط خيالي . وعلى الاقل في حالة القصص الارثرية نعرف التقاليد المسارية التي سبقت كتابتها ، بينما اننا نجهل ما قبل تاريخ السيناريو الظرفي المساري المدخل في مغامرات جلقامش .

لقد اكدنا بحق على واقعة ، ان الفكر الديني الاكادي يشدد على الانسان . وفي بساط البحث الاخير ، تغدو قصة جلقامش نمودجية ، انها تعلن عرضية الشرط الانساني ، والاستحالة - حتى بالنسبة للبطل - ان يكتسب الخلود . فالانسان قد خلق للموت ، وتم خلقه لخدمة الآلهة فقط . ان هذه الانترولوجيا المتشائمة كانت قد صيغت في الايتوما اليتيش . ونجدها في نصوص دينية هامة اخرى . ان الحوار بين (سيد وعبد) يبدو الحصيلة لعدمية مثقلة بمصاعب : ان السيد لا يعرف حتى ماذا يريد . انه منحصر بعيشة كل جهد بشري : «اصعد على كومات الخرابات القديمة وتنزه طولاً وعرضاً . انظر جماجم بشر الامس ولتلك التي في عصرنا : من هو السيء بينها ، ومن هو المحسن المحب للبشر؟»^(٥١) .

وهناك نص شهير آخر من الحوار حول الشقاء البشري الذي سمي سفر الجامعة البابلي (Eccl'esiste babylonie) وهو ايضاً اكثر يأساً : «هل ان الاسد المتشامخ ؛ الذي يتغذى بخير اللحم ، يقدم تقدمته من اللبان بهدف تهدئة حزن ربه؟ ... (بالنسبة لي) هل اهمت القربان ؟ [كلا] . لقد صليت للآلهة ، ولقد قدمت الاضاحي المفروضة للربات ...» .

هذا الصالح ، منذ طفولته ، وهو يفرغ الجهد ليعرف فكرة الاله ؛ بتواضع وشفقة بحث عن الربة ، غالباً (ما حملني الاله الفقر بدلاً عن الغنى) (سطر ٧١) وعلى العكس فإن الجاحد ، الكافر . . . هو الذي جمع الثروة (سطر ٢٣٦) . . . (الجمهور يمدح كلام رجل رفيع الشأن ، خبير في الجريمة ، ولكنه يزدري الكائن المتواضع الذي لم ينتهك . . . » . (ان فاعل الشر ينصف . وان الرجل العادل يطرد . ان اللص هو الذي يتلقى الذهب . . بينما الضعيف يعاني الجوع . . .

ان قوة المسىء تدعم . . ولكن الشريف يحطم وان الضعيف يضرب (سطر ٥٢/٢٦٧) هذا اليأس يبرز ليس من تأمل حول عبثية الوجود البشري . وانما من تجربة الظلم العام : ان المسيئين يتصرفون والصلوات ليس لها من نتائج ، فالآلهة تبدو غير مبالية بالشؤون البشرية . منذ الالفين ، انفجرت في مكان آخر ازمات روحية مماثلة (مصر اسرائيل ، الهند ، ايران ، اليونان) مع نتائج مختلفة ، لأن الاجوبة على هذا النموذج من التجربة العدمية قد اعطيت تبعاً للعبقريّة الدينية النوعية لكل ثقافة . ولكنها في الادب الحكيم Sapientielle الرافدي ، لا تبدو الآلهة دوماً غير مبالية . ان هنالك نصاً يبرر الآلام الطبيعية والنفسية لبريء يمثّل (ايوب) . انه الم حقيقي لأن اية آلهة لا تبدو انها تساعد . ان العديد من العاهات حلت به ليصبح «غارقاً بغائطه ذاته . لقد سبق ان نذب كميّ من قبل خاصته عندما كشفت له سلسلة من الاحلام ان مردوك سينقذه . وكما في رعشة وجدية رأى بنفسه الاله يصرع شياطين المرض وينقذه من بينها ، وبالتالي فإن آلام الجسد تزول كما لو اقتلع نباتاً . . . واخيراً تعاوده صحته . ويرجع الرجل العادل بفضل مردوك مجتازاً شعائرياً الابواب الاثني عشر لمعبده في بابل .

وفي آخر المطاف ، وبالتشديد على الانسان ، تبرز الفكرة الدينية الاكادية حدود الامكانيات البشرية . والمسافة بين البشر والآلهة تبدو غير ممكنة العبور ، وعلى الاغلب ان الانسان ليس معزولاً في وحدته الخاصة . بدتياً انه يشاطر في عنصر روحي مما يمكن اعتباره كإلهي : هو (روح = esprit) = ilu (لغويا اله Dig)^(٥٤) . وبالتالي ، إنه بواسطة الشعائر والصلوات ، يأمل بالحصول على

مباركة الالهة . وبصورة خاصة ، يعلم ، انه يشكل جزءاً من عالم موحد بالمشابهات : انه يعيش في مدينة تشكل صورة للعالم Imagomundi حيث المعابد والزيفورات تمثل (مراكز للدنيا) وبالنتيجة تضمن الاتصال بين السماء والالهة . بابل كانت (باب - ايل في) = باب الالهة لانه هنا ، نزلت الالهة على الأرض . ان عدداً من المدن والمعابد كانت تسمى (صلة بين السماء والأرض) . وبعبارة اخرى ، ان الانسان لا يعيش في عالم مغلق ، منفصلاً عن الالهة ومعزولاً تماماً عن الايقاعات الكونية . اضافة لذلك ، ان نظاماً معقداً من المراسلة بين السماء والأرض جعل ممكناً في آن واحد ، فهم الحقائق الأرضية و(تأثيرها) عن طريق مثلها Protootype البدئية السماوية المتتابعة . وعلى سبيل المثال : طالما ان كل كوكب كان يناسبه معدن ولون ، فإن كل ما كان ملون كان يوجد تحت (تأثير) كوكب . ولكن كل كوكب كان ينتمي لاله كان بالفعل ذاته ، (مثلاً) ، بالمعدن المتابع^(٥٦) وبالنتيجة ، فإن العديد من تقنيات التأليه ، التي يعود اكثرها للعصر الاكادي كانت تسمح بمعرفة المستقبل . وكان يظن اذن بان بعض المصاعب يمكن تجنبها . ان مختلف التقنيات والعديد البارز من الوثائق المكتوبة التي وصلت الينا ، تثبت الاحترام الذي كانت تتمتع به العرافة Lamantique في كل طبقات المجتمع . ان الطريقة الاكثر رفعة كانت تفحص احشاء الضحية ، والاقفل كلفة تقتضي اهراق بعض الزيت على الماء ، وبالعكس ، وتفسير الاشارات التي يمكن قراءتها في الاشكال الناتجة عن السائلين . وان التنجيم الذي تطور فيما بعد اكثر من التقنيات الاخرى ، قد مورس على الاخص في اوساط الملوك . اما بالنسبة لتفسير الاحلام ! فقد اكملت ، منذ بدء الالف الثانية ، بوسائل من التعزيم لاستطلاع التنبؤات المحزنة^(٥٧) .

كل التقنيات التنبؤية تابعت اكتشاف (العلاقات) التي كانت تحل طلاسما حسب عدد من القواعد التقليدية . ان العالم كان يكتشف اذن مجهزاً ببنيات Structures ومحكوم بالقوانين . بحل رموز (العلامات Lesignes) ، تم التوصل لمعرفة المستقبل ، وبعبارة اخرى لقد جرى تطويع الزمن ، لأنه جرى التنبؤ باحداث ستتحقق فقط بعد احدى الفترات الزمنية . ان الانتباه المعطى

(للعلامات) توصل لاكتشافات ذات قيمة علمية حقيقية . فالبعض من هذه الاكتشافات اخذت واكملت فيما بعد من قبل الاغريق . ولكن العلم البابلي بقي «علماً تقليدياً» ، وبهذا المعنى فإن المعرفة العلمية حافظت على بنية شمولية totalitaire . . اي مدخلة افتراضات كونية واخلاقية ووجودية^(٥٨) .

حوالي ١٥٠٠ ق.م بدا العصر الابداعي للفكر الميزوبوتامي مغلقاً تماماً . وخلال القرون العشرة التالية ظهر النشاط العقلي مصادراً بالتبحر واعمال التقييش او الجمع . ولكن اشعاع الثقافة الرافدية ، المؤكدة منذ الازمنة الاكثر قدماً استمر ونما . افكار ومعتقدات وتقنيات من اصل ميزوبوتامي تحول من البحر المتوسط الغربي الى الهندكوش . وما له دلالة ، ان الاكتشافات البابلية المهياة لتصبح شعبية وتدخل قليلاً او كثيراً او مباشرة رسائل سماوية ارضية ، او الاصغر والاكبر Macrocome-microcosme .

حواشي الفصل الثالث

- ١ - انظر كرامر ، من ألواح سومر ص ٧٧ .
- ٢ - انظر ترجمة جديدة للقصيدة (جلقامش انكيدو والجحيم) في جيورجيو ص ٧٦ - ٨٠ .
- ٣ - ترجمة موريس لامبير ولادة العالم ص ١٠٦ .
- ٤ - اتبعنا التفسير المعطى من قبل .. جستين (الدين السومري) .
- ٥ - حول العقيدة ، انظر كرامر ، السومريين .
- ٦ - جستين ، ص ١١٤ مزامير التوبة ظهرت في الآداب المتأخرة ، ولكن التأثير السامي مئامي الخ .
- ٧ - حول le me لمختلف المهن ، تعابير ومؤسسات . ر كرامر . والمصطلح me قد ترجم به كائن (etre) أو (قوة الهية) وقد فسر (كمثولية الهية) في المادة الحية والميتة ، لا تتغير ، دائمة وانما غير شخصية لا يملكها سوى الآلهة . (J. van Dijk) .
- ٨ - جستين ص ١٨١ .
- ٩ - كرامر - (شعيرة الزواج المقدس لديموزي - اينانا) .
- ١٠ - النص مترجم من قبل كرامر .
- ١١ - Burrwo - بعض الكوزمولوجيا في بابل . ص ٦٥ .
- ١٢ - انظر قائمة الملوك السومريين - مترجمة من قبل كرامر .
- ١٤ - كرامر ذات المربع مترجمة من قبل كرامر .
- ١٥ - حول الرمزية المدخلة في بعض الأساطير الطوفانية انظر م . ايلياذ تاريخ الاوريان
- ١٦ - سنرى (فقرة ٢١) انه (الضحية) دوما والصخب هذه المرة من قبل الآلهة الشباب منعهم من النوم الذي جعل ابسو يقرر ابادتهم .

- ١٧ - مظاهر الاساطير - حسب الترجمة المحفوظة للمحمة اترازيس . ان ايا قرر بعد الطوفان انقاذ الرجال السبعة والنساء السبعة ص ٢٥٩ - ٦٠
- ١٨ - حسب ترجمة أخرى ، كان من المفضل في البدء المزارع انكيمدو ، ولكن أخاه ، اله الشمس اوتو قد غيّر رأيه . ر . . كرامر . الزواج المقدس . «شعيرة الزواج المقدس ديموز - انانا» .
- ١٩ - ترجمة - جان بروتو .
- ٢٠ - ترجمة Bottero ص ١٩ . في قول آخر ان الخوف الذي يد شرح اشارة اينانا . مثل الشياطين خافوا منها وهددوا بسحبها . (مزعورة ، تركتهم) قالت لهم قيّدوا رجله الخ .
- ٢١ - كرامر - الزواج المقدس .
- ٢٢ - لوح - ترجم بوتيرو (تموز ، زوجة الأول ، انه انت الذي خلق له صرفا شاملا/ ص ٨٣
- ٢٣ - ان مؤسسات جديدة (مثل الجيش الممتن والبيروقراطية) قد تأكدتا لأول مرة مع الزمن ثم تبنيهما من حكومات اخرى .
- ٢٤ - Jean Nougayral - الدين البابلي .
- ٢٥ - ذات المرجع .
- ٢٦ - ترجمة ستيفن في Anet .
- ٢٧ - انظر الترجمة في Anet .
- ٢٨ - ليو اوبنهايم ميثروبوتاميا القديمة ص ١٧٦ .
- ٢٩ - لوحة ١ - ١٣ ترجمة بول غاليري .
- ٣٠ - من الثالث السومري الكبير يفقد اينليل ، أخذ محله ماردوك ابن ايا .
- ٣١ - نضيف انه يوجد تقاليد موازية تتعلق بالكوزمولوجيا وخلق الانسان .
- ٣٢ - نصوص ذكرها هـ - فرانكفورت - ممالك وآلهة . ص ٣٢٠ .
- ٣٣ - الكتاب الكلاسيكيون تكلموا من قبل بعل = ماردوك في بابل ، من الراجع أن الذيقورات لمعبد ايتمينانكن مقبرة القبر الموقت للاله .
- ٣٤ - بعض اشارات يفهم منها انه كانت تمثل ايماء المعارك بين مجموعتين صورييتين .
- ٣٥ - تماما مثل الاينوما ايليتش ماردوك حدد القوانين الحاكمة للعالم الذي تركه الياد اسطورة العود الابدي .
- ٣٦ - الياد اسطورة العود الابدي
- ٣٧ - ذات المرجع .
- ٣٨ - فرانكفورت ذات المرجع المللات

- ٣٩ - هذا النور يسمى ميلامو meloñu في الاكاديمية يعادل Ravenna لدى الايرانيين
- ٤٠ - gabat الخاصة الدينية للملكية الاشورية البابلية .
- ٤١ - انه الملك بصفته بستانيا يعتني بشجرة الحياة .
- ٤٢ - مدخل لقانون حمورابي آنيث ص ١٦٤ .
- ٤٣ - استهلاك لقانون ليبتشيتار - آنت ص ١٥٩ .
- ٤٤ - ٤٥ - كاهن كبير لمدينة ادروك حسب التقليد السومري .
- ٤٦ - لوحة ١٠ ترجمة جان نوغيزول .
- ٤٧ - الياد - ولادة صوفية .
- ٤٨ - يمكن التساؤل لماذا لم يأكلها فور حصوله عليها ولكن جلقامش احتفظ بها لما بعد .
- ٤٩ - انه يتعلق بنغم فولكلوري معروف : خلع الأفعى جلدها يعني تجدد حياتها .
- ٥٠ - اللوحة ١٢ مكتوبة بالسومرية أضيفت بعدئذ العلامات المشار اليها ولا علاقة لها مباشرة مع القصة التي لخصناها .
- ٥١ - ر . ه - بيفر . آنيث ص ٤٣٨ .
- ٥٢ - حوار حول آلام الانسان ترجمة آنيث
- ٥٣ - حوار حول آلام الانسان ترجمة آنيث
- ٥٢ - ذلك هو العنصر الأكثر أهمية للمسؤولية . فالآخرون هم (استارو) قدره ، ولامانو ، فرديته وتشابه غماله وسيدو - يقارن - بعبقريته .
- ٥٢ - الياد اسطورة الابدية .
- ٥٩ - الذهب كان يتعلق باكليل والفضة بأنو والبرونز بايا وعندما حل شمس محل اينكل اصبح معلم الذهب .
- ٥٨ - مثلا الطبيب والكيميائي في الصين .

الفصل الرابع

أفكار دينية وأزمات سياسية في مصر القديمة

٢٥ - الاعجوبة التي لا تنسى - الإيمان الأول:

إن ولادة الحضارة المصرية لم تكف عن إثارة دهشة المؤرخين . فخلال الألفين اللتين سبقتا التكوين لمملكة موحدة ، استمرت الثقافة النيوليتيكية بالتطور ، ولكن بدون تغييرات عميقة . مع ذلك فإن الاحتكاكات مع الحضارة السومرية في الألف الرابعة أثارت تحولا حقيقياً . فقد استعارت مصر الخاتم الاسطواني وفن البناء من القرميد ، وتقنية صناعة الزوارق ، وعددا من الأشياء الفنية وبصورة خاصة الكتابة التي ظهرت فجأة ، بدون مقدمات في بداية حكم الأسرة الاولى حوالي ٣٠٠٠ ق . م^(١) .

ولكن سرعان ما ابتكرت الحضارة المصرية نموذجا مميزا يظهر في كل مبتكراتها . بالتأكيد ان الجغرافيا ذاتها قد فرضت تطورا مختلفاً عما هو خاص بالثقافات السومرية -

الأكادية - وخلافا لميزو بوتاميا (ما بين الرافدين) المعرضة بل القابلة للعطب بالغزوات من كل جانب ، فان مصر - ويقول أكثر دقة - وادي النيل - كان معزولاً ومحمياً بالصحراء والبحر الأحمر والبحر المتوسط . وحتى غزوة الهكسوس (١٦٧٤ م) فان مصر لم تعرف الخطر القادم من الخارج . ومن جهة أخرى فان قابلية النيل للملاحة سمحت للملك أن يحكم البلاد بواسطة ادارة متمركزة أكثر فأكثر . اضافة لذلك ، فان مصر لم تعرف المدن الكبرى من الطراز الميزوبوتامي . ويمكن القول بأن البلاد كانت مؤلفة من كتلة زراعية موجهة بممثلي اله مجسد ، الفرعون .

ولكن الدين ، وبصورة خاصة عقيدة dogme ألوهية الفرعون ، أديا منذ البدء لقبولية البنية الحضارية المصرية . فحسب التقليد ، إن توحيد البلد وبناء الدولة كانا من صنع الملك الأول المعروف باسم /مينا/ . لقد جاء مينا من الجنوب وبني العاصمة الجديدة الموحدة لمصر في /مفيس/ بالقرب من مدينة القاهرة الحالية . وهناك لأول مرة احتفل بحفلة التتويج . وتبعاً ، وخلال أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، كان الفراعنة يتوجون في مفيس ، ومن الراجح جداً ، ان الحفلة الرئيسية كانت تكراراً لتلك التي استعملها /مينا/ أول مرة . وما كان هذا إحياء للصنيع الباهر /مينا/ وانما كان التجديد للمصدر الخلاق القائم في الحدث الأصلي .^(٢)

ان تأسيس الدولة الموحدة يتساوى مع التشكونية ، وان الفرعون ، الاله المجسد dieu - incarné أوجد عالماً جديداً وحضارة معقدة الى ما لا حد له ، وهي أعلى من تلك الحضارة التي كانت للقرى النيوليتيكية . إن الأمر الأساسي كان ضمان استمرار هذا العمل المحدث تبعاً لنموذج الهي ، ويقول آخر ، لتجنب الأزمات القابلة لأن تهز مرتكزات العالم الجديد . إن الوهية الفرعون تشكل الضمانة المثل . فطالما أن الفرعون كان خالداً فان موته لا يعنى سوى صعوده للسماء . وان استمرار - إله - مجسد في إله مجسد آخر ، هو بالنتيجة استمرار للنظام الكوني والاجتماعي وضماناً له .

من الملاحظ أن أكثر الابداعات الاجتماعية - السياسية والثقافية أهمية حصلت في عصر الاسر الحاكمة الأولى ، وان هذه الابداعات هي التي ثبتت القوالب للخمسة عشر قرناً التالية . فبعد الاسرة الخامسة (٢٥٠٠ - ٢٣٠٠ ق م) لا يكاد يوجد شيء

ذى أهمية مضاف الى الذمة الثقافية . ان هذا الجمود هو الذي يميز الحضارة المصرية . ولكنه قد يوجد في الأساطير والحين لماضي مجتمعات تقليدية أخرى مصدر ديني .

ان ثبات الاشكال الموروثة وتكرار الاشارات والانتصارات المصنوعة منذ فجر الزمن ، كلها نتيجة منطقية لتبولوجيات تعتبر النظام الكوني عملاً الهياً ممتازاً ، وترى في كل تغير خطر انتكاس للعاء au chaos وبالتالي انتصاراً للقوى الشيطانية .

ان الاتجاه الذي عينه العلماء الاوروبيون /كجمود/ كان قد أجهد نفسه ليبقى على الابداع الأول دون مساس ، لأنه كان تاماً من كل وجهات النظر - الكوزمولوجية والدينية والاجتماعية والأخلاقية . وان الصور المتتالية لنشأة الكون مثارة في مختلف التقاليد الميتولوجية . وفي الواقع ، إن الأساطير ترجع حصراً الى حوادث لها محلها في زمن اسطوري للبدايات . ان هذه الفترة المسماة /تيب زيبى / Tep Zepi = المرة الأولى دامت منذ ظهور الاله الخالق فوق المياه الأولية وحتى تنصيب /حورس/ . فكل ما يوجد ، عناصر طبيعية - شأنها شأن الحقائق الدينية والثقافية (مخططات المعابد ، تقويم ، كتابة شعائر ، تعاليم ملكية الخ) .

يجب أن تكون حقيقتها وقرارها من فعل الذين ابدعوها أثناء فترة البداية . وبالتأكيد فان المرة الأولى تشكل العصر الذهبي للكمال المطلق «قبل أن يظهر الكلب la rage ، أو الضجة ، أو النزاع ، أو الاضطراب» . فلا الموت ولا المرض كانا موجودين أثناء العهد الممتاز المعين (زمن رع او اوزيريس أو حوريس)^(٣) ولفترة ما ، وتبعاً لتدخل البشر ، ظهرت الفوضى التي وضعت حداً للعصر الذهبي . لكن العصر الأسطوري (للمرة الأولى) لم يتنظم من بين رفات ماضى قلب نهائياً وبما أن هذه الفترة تشكل حصيلة النماذج التي يجب احتداؤها ، فهي ستجدد باستمرار وربما يمكن القول إن الشعائر تابعت هزم القوى الشيطانية ، مستهدفة إعادة احياء الكمال الأصلي .

٢٦ - أصول الآلهة والنشكونيات

كما في كل الأديان التقليدية ، فان النشكونية ، وأساطير الأصول (أصل الانسان ، الملكية المؤسسات الاجتماعية ، الشعائر .. الخ) كانت تشكل الأساس في العلم

المقدس . وطبيعي انه كان يوجد العديد من الأساطير النشكونية واضحة في المقدمة ،
الآلهة المختلفة ، ومؤقلمة بدء الخليقة في عدد من المراكز الدينية . إن الموضوعات الرئيسية
تصنف بين الأكثر قدما : انبثاق من أكمة ، من زهرة لوتس ، أو من بيضة فوق المياه
الأولية . أما بالنسبة للآلهة الخالقة ، فإن كل مدينة هامة تقيم نفسها في المستوى الأول ،
ان تغيرات الأسر الحاكمة كان في الكثير من المرات يتبعه تغيير العاصمة . ومن حدث
كهذا يلزم علماء لاهوت للمدينة الجديدة لادخال عدد من التقاليد المتعلقة بنشأة الكون
مماثلين ربهم المحلي والرئيسي بخالق للعالم . وعندما كانت توجد علاقة بآلهة أخرى
خالقة ، فإن التمثيل كان يسط بمشابهتهم النبوية .

غير أن علماء اللاهوت قد أعلوا زيادة على ذلك ، تركيبات جريئة ، بتمثيل
أنظمة دينية غير متجانسة ومشركين صورا الهية مضادة . (٤) .

ان علم نشأة الكون المصري ، كما هو الشأن في تقاليد أخرى يبدأ مع الانبثاق
لثلة أو أكمة في المياه الأولية . فظهور هذا المكان الأول ، فوق المساحة المائية الشاسعة
الأبعاد ، يعني انبثاق الأرض ، ولكن أيضا النور ، والحياة والشعور . (٥) . في
/هيليوبوليس/ سعى المكان (ثلة الرمل) التي تشكل قسماً من معبد الشمس الذي تهاهى
با/الثلة الأولية/ . ان هيروموبوليس اشتهرت ببجيرتها حيث تطفو اللوتس الكونية .
ولكن أمكنة أخرى تتمتع بذات الامتياز (٦) .

وفي الواقع ، ان كل مدينة ، وكل معبد كان يعتبر كمركز للعالم ، والمكان
الذي بدأ فيه الخلق

وان الثلة الاساسية تغدو احياناً الجبل الكوني التي تسلق عليها الفرعون
لمقابلة الاله الشمس .

ان بعض النصوص تتكلم عن البيضة الأولية التي كانت تحتوي /طائر
النور/ وعن اللوتس الأصلي الحامل للطفل الشمس ، أو أخيراً الحية البدائية أول
وآخر صورة للاله /آتوم/ . (وفي الواقع أن الفصل ١٧٦ من كتاب الموتى يعلن

أنه عندما سيعود العالم لحالة العناء ، فإن آتوم هو الاله الأعلى والمستور ، بينما ع الشمس ، هو الاله الظاهر بامتياز . ان مراحل الخليقة - نشأة الكون ، أنساب آلهة - خلق الكائنات الحية الخ - قد مثلت بشكل مختلف . فحسب التيولوجيا الشمسية لهيليوبوليس ، مدينة قائمة على طرف الدلتا ، ان الاله رع - آتوم - خبري^(٨) خلق أول زوج إلهي ، شو ، (الفضاء) و /تفنوت/ ، قريبي الاله /جيب/ الأرض والربة /توت/ السماء . وان الخالق كَوْن الخليقة إما باستمنائه en se masturbant أو بتقشيعه (تمخيطة) en expectorant . ان هذه العبارات عفوية بجلافة ، ولكن معانيها واضحة : إن الألوهية تولدت من المادة ذاتها للرب الأعلى ، وكل شيء كما في التقليد السومري (١٦ع) ، فالسما والأرض كانتا متحدتين في زواج مختلط Hierogamos لا ينفصم ، حتى اللحظة التي انفصلا فيها من قبل /شو/ اله الفضاء . من اتحادهما أتى إلى العالم أوزيريس وإيزيس و/سيت/ ، ونفتيس/ ابطال المسرحية الأولى ، في مأساة محزنة والتي ستطالعنا لزمن طويل .

في /هيرمو بوليس/ في مصر الوسطى أقام الفقهاء نظرية معقدة حول (الاغدواد) L'ogdouade رهط الارباب الثمانية، الذين انضم إليهم /بتاح/ . ففي البحيرة الأولية من هرمو بوليس طفت نبتة /لوتس/ حيث خرج منها (الطفل المقدس ، الوريث الكامل المتولد من الاوغدواد/ بذرة الهية من كل الآلهة الأولى السابقة) «ذلك الذي عقد بذور الآلهة والبشر^(١١)» .

إلا أنه في /ممفيس/ عاصمة الفراعنة للأسرة المالكة الأولى ، صيغت حول الإله /بتاح/ الديانة الأكثر منهجية . ان النص الرئيسي لما سمي (التيولوجيا الممفيسية) قد نقش على حجر في عهد الفرعون «شباباك Chabak» (٧٠٠ ق . م تقريباً) . ولكن النص الأصلي كان قد دون قبل ذلك بزهاء ألفي سنة . ومن المدهش ان أقدم نشكونية مصرية عرفت حتى الوقت الراهن هي كذلك الأكثر فلسفة . لأن بتاح خلق بروحه (قلبه) وبلغظه (لسانه) . «إن الذي أظهر نفسه كالقلب (= نفس) هو الذي أظهر نفسه كاللسان (= كلمة) ، فتحت مظهر آتوم ،

هو بتاح القديم جداً . . . » (فتاح) معلن أكبر اله ، وآتوم معتبر فقط كصانع لأول زوج couple الهي . ان بتاح (هو الذي جعل الآلهة توجد) . وتباعاً فإن الآلهة دخلت في أجسادها المريئة ، بدخولها (في كل نوع من النبات ، وكل نوع من الحجارة ، في كل نوع من طين ، في كل نوع ينبت على الأرض وبها جميعها تستطيع ان تظهر نفسها) .

وباختصار ، فإن نسب الآلهة ، والنشكونية قد أنجز بالقدرة الابداعية بفكر وكلام اله واحد . انه يتعلق بالتأكيد ، بالتعبير الأكثر سمواً من التفكير الميتافيزيكي المصري . وكما لاحظ (جون ويلسون) - فإنه من بدء التاريخ المصري نجد نظرية يمكن ان تقترب من علم اللاهوت المسيحي للكلمة (اللوغوس) .

إن الاساطير حول أصل الانسان تبدو متواضعة بمقارنتها بنسب الآلهة والنشكونية فالبشر /erme/ ولدوا من دموع /erme/ اله الشمس ، رع . وفي نص مؤلف حوالي / ٢٠٠٠ ق . م ، في مرحلة الازمة ، جاء فيه : «ان البشر قطيع الاله كانوا بخير . فصنع (الاله الشمس) السماء والأرض ، على شرفهم صنع الهواء لإحياء انوفهم ، لأنهم صورهم ses images وناجحين من لحمه . انه يشع في السماء ، لقد صنع النبات من أجلهم والحيوانات والطيور والأسماك لأجل غذائهم . . . (١٢)

مع ذلك ، فإن رع اكتشف ان البشر قد تأمروا ضده ، فقرر ابادتهم . فكلف /هاتور/ بالمذبحة . ولكن بما ان الربة كانت هددت بافناء العرق البشري بالجملة فإن رع لجأ إلى ذريعة ، ونجح في اسكارها . . . (١٣) . ان عصيان البشر ونتائجه كان له مكانه اثناء العصر الاسطوري ، بناء عليه ، فإن /البشر/ كانوا أوائل السكان في مصر ، لأن مصر كانت البلد الأول الذي تكون ، اذن هي مركز الدنيا (١٤) ، والمصريون كانوا السكان الوحيديين بملء الحق ، وهذا ما يفسر المنع على الأجانب من ولوج المقابر ، الصور الكونية الصغرى micro cosmiques للبلاد (١٥) . ان بعض النصوص المتأخرة تعكس الاتجاه نحو الشمولية . فالآلهة (حورس ، سخمت) تحمي لا المصريين فحسب ، وانما أيضاً الفلسطينيين

والنوبيين والليبيين^(١٦) . مع ذلك فإن التاريخ الاسطوري للبشر الأول لا يلعب دوراً هاماً . في العصر العجائبي وللمرة الأولى كانت الفترتان الحاسمتان هما النشكونية ومجيء الفرعون .

٢٧ - مسؤوليات إله متجسد .

كما لاحظ /هنري فرانكفورت/^(١٧) ، فإن النشكونية هي الحدث الأكثر أهمية ، لأنها تقدم التغيير الحقيقي الوحيد : انبثاق العالم . منذئذ . التغييرات المدخلة وحدها في ايقاعات الحياة الكونية مزودة بدلالة . غير انه في هذه الحالة ، يتعلق بفترات متتالية مصاغة بدورات مختلفة وضامنة لدوريتها : حركات النجوم ، دورة الفصول مظاهر القمر ، ايقاع النبات ، المد والجزر للنيل الخ . . . وعليه ، فإن هذه الدورية حقا للايقاعات الكونية هي التي تشكل الكمال المنشأ في أزمنة (المرة الأولى) . ان الفوضى ادخلت تغييراً لا فائدة فيه ، بل هو ضار ، في الدورة المتتالية لتغيرات منظمة تماما .

وطالما ان النظام الاجتماعي يمثل مظهراً من النظام الكوني ، فإن الملكية معنية بالوجود منذ بداية العالم . فالخالق كان الملك الأول^(١٨) . وقد نقل هذه الوظيفة وخلق الفرعون الاول . هذه الوصاية تكرر الملكية كمؤسسة الهية . وفي الواقع أن اشارات الفرعون هي مقررات في ذات التعابير كذلك التي استعملت لتقرير اشارات الاله رع أو التجليات الشمسية . ونشير هنا لمثلين : ان ابداع /رع/ قد لخص أحيانا بصيغة دقيقة : «لقد وضع النظام (مات)» بدلاً من العماء . وفي ذات المصطلحات يجري الكلام عن /توت عنخ آمون/ عندما أعاد النظام بعد /هرطقة/ اخناتون (ر . ٣٢ ع) أو بيبي ٢ Pepi II : «لقد وضع النظام /مات/ محل الكذب (الفوضى)» . كذلك فإن فعل /فاي/ (لمع - أضاء) . استعمل بلا مبالاة لوصف انبثاق الشمس في فترة الخلق أو في كل فجر ، وظهور فرعون في حفلة التتويج ، وفي الاعياد ، أو في مجلس خاص^(١٩) .

الفرعون هو التجسيد لمات ، وهذا التعبير يترجم بـ (الحقيقة) ولكن المعنى العام هو (النظام الجيد) وبالتالي (الحق) و (العدالة) . ان الـ (مات) ينتمي للخلقية الأصلية : انه يعكس ، اذن الكمال للعصر الذهبي . وطالما انه يشكل البناء نفسه للكون وللحياة ، فإن الـ (مات) يمكن أن يكون قد عرف من كل فرد على حدة . في نصوص عن الأصل وعن العصور المختلفة ، نجد اعلانات كهذه : «حث قلبك لمعرفة الـ /مات/» «انني أعمل لكي تعرف الشيء عن المات في قلبك ؛ هل تستطيع ان تفعل ما هو صحيح من أجلك» أو : «كنت رجلاً أحب الـ (مات) وأكره الخطيئة . لأنني كنت أعلم ان الخطيئة ممقوتة من الله» . وفي الواقع ، ان الاله هو الذي يمنح المعرفة الضرورية . ان اميراً معيناً «كواحد عرف الحقيقة (مات) وان الله علمه» . مقدم الصلاة لرع يهتف «هل يمكن ان تمنحني من الـ (مات) في قلبي»^(٢٠) .

فيما يخص التجسيد لـ(المات) ؛ فإن الفرعون يكون النموذج المثالي بالنسبة لكل رعاياه . وكما يعتبر الوزير ريكهمير Rethmir : «إنه لإله ذلك الذي يجعلنا نعيش بأفعاله»^(٢١) . ان عمل الفرعون يضمن استقرار الكون والدولة وبالنتيجة استمرارية الحياة . وفي الواقع فإن الشكونية تمارس كل صباح ، عندما (يدفع) الاله الشمسي الافعى (ابوفيس) ، دون ان ينجح مع ذلك في اتلافها ؛ لأن العماء (= الظلمات) يمثل الكمونية (افتراضية العقل) . أنها إذن غير قابلة للتلف . ان الفاعلية أو النشاط السياسي للفرعون يعيد قدرة رع : هو أيضاً (يدفع) الافعى ، وبعبارة اخرى ، إنه يسهر لكن لا يرجع العالم إلى العماء . عندما يظهر اعداء على الحدود ، فإنهم يمثلون بالافعى Apaphis ، وان نصر الفرعون يحقق النصر لرع . هذا الاتجاه لتفسير الحياة والتاريخ في عبارات ذوات قوالب مثالية ومقولات) مميز وخاص بالثقافات التقليدية^(٢٢) . الفرعون بالتأكيد هو الصانع الوحيد لاحداث التاريخ المتفردة ، فعندما بنى رمسيس الثالث قبره ، اعداد وضع أسماء المدن المغلوبة ، التي كانت مكتوبة على المعبد الجنائزي لرمسيس الثاني . حتى في عصر الامبراطورية القديمة ، فإن الليبيين الذين (ظهروا كضحايا لحروب يبيي الثاني حملوا ذات الاسماء الفردية التي تظهر على صخور معبد سامورى

لقرنين سالفين^(٢٣) . انه من المستحيل معرفة الملامح الفردية للفراعنة كما رسموا على الآثار وفي النصوص . وفي العديد من التفصيلات المميزة . كالشجاعة والمباذلة ، مثلاً ، لتحتمس الثالث اثناء معركة ميبدو ، وقد تعرف أ . د . بوك A.de Buck على العناصر المتفق عليها لصورة ملك مثالي . ويلاحظ ذات الاتجاه نحو اللاشخصي في تمثيل الآلهة . وباستثناء اوزيريس وايزيس فإن الآلهة الأخرى رغم اشكالهم ووظائفهم المتميزة فإنهم مطلوبون في الترانيم والصلوات بذات العبارات تقريباً .

ومن حيث المبدأ ، فإن الطقس يجب ان يحتفل به من قبل الفرعون ، ولكنه كان يوكل وظائفه الى الكهنة في مختلف المعابد . ومباشرة أو بصورة غير مباشرة كان الدفاع اهداف الشعائر إذن الاستقرار (للخليقة الأصلية) . وفي كل عام جديد كانت النشكونية تتكرر بطريقة أكثر غموضاً من النصر اليومي /لرع/ ، لأنه كان يتعلق بدورة مؤقتة أكثر اتساعاً . ان تنصيب الفرعون كان يعيد المشاهد لاشارة مينا : توحيد البلدين . واجمالاً كان يكرر شعائرياً بناء الدولة (٢٥ ع) . ان حفلة التقديس كانت تجري بمناسبة عيد سيد sed ، المكمل ثلاثين سنة بعد التنصيب ومتابعا تجديد الطاقة الالهية للملك^(٢٦) . أما بالنسبة للأعياد الدورية لبعض الآلهة (حورس ، مين ، انوبيس الخ) فلا نعلم عنها الكثير . ولقد كان الكهنة يحملون على اكتافهم في الطواف تمثال الاله أو الزوررق المقدس . والطواف يقتضي الاغاني ، والموسيقى ، والرقص ويجري وسط هتافات المؤمنين .

ان العيد الكبير لـ (مين) هو واحد من أكثرها شعبية في كل مصر ، وقد عرفناه بشكل جيد بالعمل الذي ادخل بعدئذ في الطقوس الملكية . لقد كان اساساً عيد حصاد الموسم ، وكان الملك والملكة وثور ابيض يشاركون في الطواف . فالملك يقص ضمة من الشوك ويقدمها للثور ، غير ان بقية الشعائر كانت غامضة^(٢٧) . وكان الفرعون يرأس الحفلات لبناء وتدشين المعابد ، ولسوء الحظ لا نعرف سوى بعض الإشارات الرمزية في الخندق المفتوح على موقع معبد

المستقبل ، ويدخل الملك (ودائع التأسيس) (قرميدة مقولة من قبل الملك وبعض خلق الذهب الخ) وللتدشين كان يكرس الاثر برفع يده اليمنى .

ان العبادة اليومية كانت توجه إلى تمثال الاله المحفوظ في الناووس ، وما ان تتم حتى يقترب التطهير الشعائري فيتقدم الموظف المسؤول عن الناووس ويكسر الختم من الطين ويفتح الباب . كان يخرساجداً أمام التمثال ، معلنا انه دخل إلى السماء (الناووس) كي يتأمل الاله . وكان التمثال يطهر على اثر ذلك (بالنظرون) - كربونات الصوديوم - /ليفتح فم/ الاله . و اخيراً يغلق الموظف المكلف الباب ويلصق المزلاج وينسحب القهقري^(٢٨) .

ان المعلومات المتعلقة بالشعيرة الجنائزية هي أكثر غزارة بشكل ملموس . فالموت والآخرة شغلا المصريين أكثر من الشعوب الأخرى في الشرق الأدنى . وبالنسبة للفرعون ، كان الموت يشكل نقطة البدء لسفره السايوي (ولخلوده) . ومن جهة أخرى ، كان الموت يدخل مباشرة واحداً من أكثر الآلهة المصرية شعبية : اوزيريس .

٢٨ - صعود الفرعون للسماء .

في المقياس الذي يمكن معه إعادة البناء للمعتقدات ، فإن أكثر هذه المعتقدات قدما المناسبة مع الوجود بعد الموت post - morten كانت تماثل تقليدين تأكداً بشكل واسع في العالم : إقامة الموتى إن تحت الأرض وإن سايوية ، كانت بدقة أكثر كوكبية . فبعد الموت ، كانت الأرواح تنضم للنجوم وتشاطرها ابديتها . ان السماء باعتبارها متخيلة كربة أم ، فإن الموت يعادل ولادة جديدة ، وبعبارة أخرى إعادة ولادة في عالم الكواكب . ان امومة السماء ، ادخلت الفكر بأن على الميت ان يولد ثانية : بعد ولادته السايوية كان يرضع من قبل الربة - الأم (مثلة تحت شكل بقرة)^(٢٩) .

إن الأقلمة التحت ارضية للعالم الآخر كانت عقيدة سائدة في الثقافات النيوليتية ففيها سلف وفي عصر ما قبل الاسر الحاكمة (بداية الألف الرابعة) ، توضحت بعض التقاليد الدينية المتضامنة مع الزراعة في العقدة الاسطورية الشعائرية الأوزيرية . وعليه فإن اوزيريس ، الاله المصري الوحيد الذي تحمّل موتاً عنيفاً ، كان حاضراً أيضاً في العقيدة الملكية ، وستفحص فيما بعد النتائج لهذا اللقاء بين اله يموت والتبولوجيا الشمسية التي تفسر وتقيم الخلود للفرعون .

إن نصوص الاهرامات تفصح بصورة تكاد تكون مصرية عن المفاهيم المتعلقة بما بعد موت الملك . post - mortem . ورغم جهود الفقهاء فإن المبدأ غير منهج بشكل كامل . ويكشف بعض التعارض بين المفاهيم المتوازية والمتعاكسة أحياناً . ان جلّ الصيغ تردد بقوة إن الفرعون ، ابن أنوم (- رع) المحدث من قبل الاله الكبير قبل خلق العالم لا يمكن ان يموت ، غير ان نصوصاً أخرى تؤكد للملك ان جسده لن يعرف الفساد . وبالتأكيد ان ذلك يتعلق بايديولوجيتين ، دينيتين متميزتين ، ايضاً ، غير متكاملتين بما فيه الكفاية^(٣٠) .

مع ذلك فإن غالبية العبارات ترجع للسفر السماوي للفرعون . إنه يطير تحت شكل طائر - حدأة - بلشون ، إوزة متوحشة (pyr. ٤٧ - ٣/ ٨٩٠ ٩١٣/ ١٠٤٨) جُعل (٣٦١/ أو جراحة ٨٩٠ - ٩١ الخ) . الرياح ، والغيوم والآلهة يجب ان تأتي لمساعدته . أحياناً يصعد الملك للسما متسلقاً سلماً (٣٦٥ - ٣٩٠ - ٩٧١ ٢٠٨) . واثناء صعوده ، فهو اله من جوهر مختلف تماماً عن الجنس البشري (٦٥٠ - ٨٠٩)^(٣١)

مهما يكن من امر ، قبل وصوله إلى الإقامة السماوية ، في الشرق المسمى (حقول التقديمات) فإن على الفرعون تحمل بعض التجارب . فالدخول كان ممنوعاً بسبب بحيرة (ذات محيط متعرج) . وكان لمن يمر سلطة القاضي . ولكي يقبل في القارب كان يتوجب عليه اتمام كافة التطهيرات الشعائرية (٥١٩ pge - ١١٨٦) وعلى الأخص الاجابة على سؤال من بنية مسارية ، أي أن يجيب بعبارات مقبولة stereotype كانت تستخدم كلمات للمرور . أحياناً كان الملك يرجع إلى

الدفاع (pge ١١ - ٨٩) أو إلى السحر /٩٢ع/ أو حتى إلى التهديد . انه يسترحم
الآلهة (وبصورة خاصة رع ، تحوت ، وحوريس) أو يطلب إلى الـجـمـيـزـيـن اللتين
تشرق الشمس من بينهما كل يوم ان تمرراه إلى حقول الازهار^(٣٣) .

بوصوله إلى السماء يستقبل الفرعون بانتصار من قبل الاله - الشمس ، وان
مبعوثين يتسارعون إلى أربعة أقطار العالم يعلنوا انتصاره على الموت . ان الملك يمدد
في السماء وجوده الارضي : يجلس على العرش ويتلقى ولاءات رعاياه ويستمر في
اصدار أحكامه واعطاء الأوامر^(٣٣) .

وطالما انه الوحيد المتمتع بالخلود الشمسي ، فإن الفرعون يحاط بعدد من
رعاياه ، وبالدرجة الأولى أفراد عائلته وكبار الموظفين^(٣٤) وان هؤلاء وقد ماثلوا
النجوم يدعون /المجدين/ . حسب قول فاندير /ص ٨٠/ «إن الفقرات
الكوكبية لنصوص الأهرام مستعارة من قصيدة ذات صفة استثنائية : نجد فيها
الصورة البسيطة والعفوية لشعب بدائي يتحرك بارتياح في الغموض ...»

وكما أشرنا ، فإن مذهب الخلاص لنصوص الأهرام ليس متماسكا دائما .
فبالتشابه مع (رع) تؤكدمتيولوجيا اللاهوت الشمسي على النموذج المتميز
للفرعون : فهذا لن يخضع لولاية قضاء اوزيريس ، ملك الأموات . «تفتح
مكانك في السماء بين نجومها ، لأنك نجم ... تنظر من فوق اوزيريس ...
تقود الفانين وانت بعيد عنهم ، انك لست منهم» (pge ٢٥١ .) (رع - اتوم
لا تستسلم لأوزيريس ، الذي لن يحاكم قلبك وليس له سلطة على قلبك ...
اوزيريس ، لن يُستولى عليك من قبله .. وابنك (حوريس) لن يستولى عليه
منه .) (pge ١٤٥ - ٤٦ ترجمة ويل ص ١١٦) . حتى ان بعض النصوص
الأخرى تبدو عدوانية ، انها تذكر بأن اوزيريس هو اله ميت ، لأنه اغتيل والقي
في الماء . مع ذلك ، فإن بعض الفقرات تشير إلى تطابق الفرعون مع
اوزيريس . وتوجد عبارات كالأتيه : «كما ان اوزيريس يحيا ، فإن هذا الملك
أوناس U n u s يحيا ، كما ان اوزيريس لم يميت ابداً ، كذلك فإن الملك أوناس لن
يموت ابداً» (pge - ١٦٧) .

لكي نوضح معنى مثل هذه العبارات يجب ان نذكر باختصار الاساطير والوظيفة الدينية لأوزيريس . ولنذكر بدئياً ان النص اكثر اكتمالاً للاسطورة الاوزيرية هو ذلك المنقول من قبل بلوتارك (القرن ٢ ب . م) في قصة اوزيريس وأوزيريد . اذ كما لاحظنا بمعرض التشكونية (٢٦ع) . فإن النصوص المصرية ترجع إلى مشاهد منعزلة فقط وبالرغم من بعض التفكك والتناقضات القابلة للتفسير بالتوترات والتلفيقات التي سبقت انتصار اوزيريس النهائي ، فإن اسطوره المركزية قد اعيد بناؤها بسهولة . وتبعاً لكافة التقاليد ، فلقد كان ملكاً خرافياً ، مشهوراً بالحوية والعدالة وبها حكم مصر . إن (سيت) شقيقه نصب له فخاً وتوصل إلى اغتياله . وان زوجته (ايزيس) ساحرة كبرى ، نجحت بأن تجعل نفسها تخصب (تلقح) من اوزيريس الميت . وبعد ان كفنت الجسد التجأت إلى الدلتا ، وهناك متخفية في أجمات البايروس انجبت ولداً (حوريس) . بعد أن أصبح حوريس كبيراً أعلم بحقوقه تجاه آلهة الاليناد Les dieux des L'enneade وقتل خاله .

في البدء نجح (سيت) باقتلاع عينه (pyr ١٤٦٣) ولكن الصراع استمر ، وأخيراً انتصر حوريس فاسترد عينه وقدمها إلى اوزيريس . وهكذا عاد اوزيريس للحياة (pyr - ٦٠٩) . وحكمت الآلهة على سيت بأن يحمل ضحيته الخاصة (٣٥) (مثلاً تحول سيت إلى الزورق الذي نقل اوزيريس إلى النيل) . ولكنه ، مثل أبوفيس ، فإن سيت لا يمكن ان يفنى نهائياً ، لأنه هو ايضاً يجسد قوة لا يمكن انقاصها . وبعد النصر ينزل حوريس لبلاد الموتى ويعلن الخبر السار : فيتوج ملكاً معترفاً به كخليفة شرعي لوالده . وهكذا كان (استيقاظ) اوزيريس : حسب النصوص (وضع روحه في الحركة) .

ذلك هو بصورة خاصة ، الفصل الأخير من مأساة توضح النموذج المتميز للكانن اوزيريس . لقد وجده حوريس في حالة من الحذر الغير واعى ، ونجح

في اعادة احيائه . «اوزيريس ! انظر ، اوزيريس ! انتبه - انهض ...
استيقظ . احياء» (pyr . ٢٥٨)

ان اوزيريس لم يظهر متحركاً مطلقاً .. فهو يبدو دوماً فاقد القدرة وسليباً^(٣٦) . بعد تنويمه ، أي بعد ان تم وضع نهاية لفترة الازمة (العماء chaus) فإن حوريس احياء : «اوزيريس ؛ لقد سافرت ، ولكنك عدت ، لقد نمت ولكنك استيقظت : لقد مت ولكنك عشت من جديد» (pyr . ١٠٠٤) . في هذه الأثناء عاد اوزيريس للحياة (كشخص روحي = روح) وقوة وحيوية . انه هو الذي سيضمن منذ الآن الخصوبة النباتية وكل قوى اعادة الانتاج . لقد وصف كما لو انه الأرض بكاملها ، أو مقارناً بالمحيط الذي يلف العالم . وفيما سلف حوالي ٢٧٠٠ ق . م كان اوزيريس يرمز لينابيع الخصب والنمو^(٣٧) . وبعبارة اخرى ان اوزيريس الملك المغدور (= الفرعون الميت) يضمن سعادة العرش المدار من قبل ابنه حوريس (ممثلاً بالفرعون الذي سينصب) .

تتكشف بخطوطها الكبرى العلاقات بين رع والفرعون والزوج اوزيريس - حوريس . ان الشمس وقبور الملوك كانت تشكل المنبعين الاساسيين للقداسة . وحسب اللاهوت الشمسي ، كان الفرعون ابن رع ، ولكن بما أنه يخلف الملك الميت (= اوزيريس) ؛ فإن الفرعون الحاكم كان ايضاً حوريس . ان التوتر بين هذين الاتجاهين للروح الدينية المصرية (الشمسية والأوزيرية)^(٣٨) يبدو في وظيفته الملكية . فكما رأينا ان الحضارة المصرية هي النتيجة للاتحادين مصر السفلى ومصر العليا في عرش واحد . وفي البدء اعتبر رع كملك للعصر الذهبي ، ولكنه منذ الامبراطورية الوسطى (١٧٣٠ - ٢٠٤٠ ق . م) تقريباً ، تحول هذا الدور لأوزيريس .

في الايديولوجيا الملكية انتهت الصيغة الايزورية لتفرض نفسها ، لان توالد اوزيريس - حوريس حفظ استمرارية الاسرة المالكة ، وضمن السعادة للبلاد ، علاوة على ذلك . ولكونه كمنيع للخصوبة الشاملة ، فإن اوزيريس قد جعل حكم ابنه وحليفته مزدهراً .

ان نصاً يعود للامبراطورية الوسطى يعبر بشكل رائع عن تمجيد اوزيريس بصفته مصدرراً وأساساً لكل خليقة : «سواء أعشت أم مت ، فأنا اوزيريس ، . . أدخل فيك وأعاهد الظهور من خلالك : افنى فيك ، وأنمو فيك . . . ان الارباب تعيش في لأنني اعيش وأنمو في القمح الذي يسندها . انني اغطي الأرض ؛ لأمت أو أعيش . فأنا الشعير . . لا يفنى مطلقاً . لقد اخترقت النظام ، انني انبثق في النظام» (٣٩) .

انه يتعلق بتقييم جريء للموت ، يرتفع منذئذ كنوع من التحول الممجد للوجود للجسد . إن الموت يكمل المسيرة من دائرة اللامعنى نحو دائرة المعنى . ان القبر هو المكان الذي يكتمل فيه تحول الانسان (ساخ) لأن الموت يصبح (أخ) (روحاً مقلوبة) . وما يهنا هنا ، هو واقعة أن اوزيريس يصبح بنجاح النموذج المثالي ، ليس بالنسبة للملوك فحسب ، وإنما بالنسبة لكل فرد . من المؤكد ، ان ديانتته كانت شعبية آنثذ في ظل الامبراطورية القديمة ؛ وهذا مايفسر وجود اوزيريس في نصوص الاهرام ، رغماً عن ، مقاومة اللاهوتيين في هليوبوليس . ولكن أول أزمة عنيفة ، والتي سنشير إليها فيما سيلي ، قد وضعت نهاية للعصر الكلاسيكي للحضارة المصرية . فما أن أعيد النظام حتى وجدنا اوزيريس في قلب المشكلات الاخلاقية والآمال الدينية . وهذا هو البداية لتطور كان قد وصف وكأنه (دقطة لأوزيريس) comme democratisation d'osiris .

وفي الواقع ، وإلى جانب الفراعنة ، يعلم الكثيرون مساهمتهم الشعائرية في مأساة وتأليه اوزيريس . ان النصوص المسجلة منذ عهد قريب من على جدران الكهوف المخفية في الاهرام العليا للفراعنة ، قد أعيد جمعها الآن داخل نواويس الاشراف والاشخاص المجردين من الامتيازات . وان اوزيريس أصبح نموذج كل من يريد ان يقهر الموت . ان نصاً من أحد النواويس (١٧ - ٢٧٦) يعلن : « أنت الآن ابن ملك ، أمير ، وقلبك (روحك ، سيكون معك مهما طال الزمن) . باتباع مثال اوزيريس ، وبمساعدهته فإن الموتى تنجح في التحول إلى (أرواح) أي إلى كائنات روحية متكاملة جداً ، وبالتالي غير قابلة للفناء . ان اوزيريس المقتول والمقطع قد اعيد (تكوينه) من قبل ايزيس واعيد للحياة من قبل حوريس . بهذه

الطريقة أحيا طريقة جديدة للوجود : في كل شبح لاقوة له ، أصبح (شخصاً) يعلم ، أصبح كائناً روحياً ، بناء عليه ، ملقناً بالسر .

ومن الراجع ان الاسرار الهلنستية لايزيس واوزيريس قد تطورت من أفكار مماثلة . ان اوزيريس يستعيد من رع وظيفة قاضي الأموات ؛ ويصبح سيد العدالة ، المستقرة في قصر أو على أكمة أولية ، أي في (مركز الدنيا) . مع ذلك وكما سنرى فإن التوتر رع - اوزيريس سيجد حلاً خلال الامبراطورية الوسطى والامبراطورية الجديدة .

٣٠ - الاغناء : فوضى ، قنوط و (دقرطة) حياة ماوراء القبر .

كان يبيي الثاني الفرعون الأخير في الأسرة السادسة . وبعد قليل من الزمن من وفاته حوالي (٢٢٠٠ ق . م) كانت مصر قد تزعزعت بعنف بسبب الحرب الأهلية ، وانهارت الدولة . وإن ضعف السلطة المركزية شجع اطماع مؤسسي السلالات ، وخلال وقت قصير اكتسحت الفوضى البلاد . ولفترة ما ، كانت مصر قد قسمت إلى مملكتين ، مملكة الشمال وعاصمتها هيرا كليوبوليس ، ومملكة الجنوب وعاصمتها طيبة . وقد انتهت الحرب الأهلية بانتصار الطيبين ونجح الملوك الآخرون للأسرة التاسعة في إعادة توحيد البلاد . إن عصر الفوضى ، المسمى من قبل المؤرخين العصر الأول المتوسط أخذ نهايته في ٢٠٥٠ ق م مع مجيء الأسرة الثانية عشرة . وإن إعادة احياء السلطة المركزية تميز ببداية نهضة حقيقية .

خلال العصر المتوسط حصلت (دقرطة) الوجود بعد الموت : كتب النبلاء على نواويسهم بل أعاد النبلاء كتابة النصوص من الأهرام ، المخصصة حصراً للفرعون . وكان هذا أيضاً العصر الوحيد من التاريخ المصري الذي اهتم فيه الفرعون بالضعف وحتى بقابليته للموت .

بفضل عدد من النصوص الأدبية ذات الفائدة الكبرى ، يمكننا تتبع التحولات العميقة التي كان لها محلها أثناء الأزمة . والنصوص الأكثر أهمية تعرف تحت العناوين التالية : تعليمات من أهل الملك ميري كاري meri - Ka - ré ، نبؤات النبي ابو وير Ipu - Wer ، غناء عازف القيثارة ، خصام انسان متعب مع روحه . ان مؤلفي هذه النصوص يندبون المصائب المثارة نتيجة انهيار السلطة التقليدية ، وبصورة خاصة المظالم والجرائم التي تنبت عن الشك واليأس ، المؤدي للاتحار . غير ان هذه الوثائق تدل في ذات الوقت على وجود تغير في النظام الداخلي . على الأقل ان بعض أصحاب المقامات أو الموظفين أخذوا يتساءلون حول مسؤوليتهم في الكارثة ولا يترددون عن الاعتراف بأنهم مذنبون .

إن أحد الأنبياء ابو- ويرا مثل أمام الفرعون لكي يقيم له حجوم أو نسبة المصائب : (هاهي البلاد مجردة عن الملكية من قبل بعض الأفراد غير المسؤولين!... هاهم الرجال يعلنون العصيان ضد الأفعى الملكية) اورايوس Uraeus - شعار الفراعنة - التي غمرت البلدين بالسلام... ان المقر الملكي يمكن أن يجتث في ساعة... إن المقاطعات والمعابد لا تدفع الرسوم مطلقاً بسبب الحرب الأهلية . إن مقابر الأهرام قد نهبت بوحشية . «إن الملك غدا محمولاً من الفقراء .. انظر ، ذلك الذي دفن مثل (حداة مقدسة) انه يرقد الآن على عربة بسيطة ، ان كنز الهرم هو فارغ الآن ..» . مع ذلك وبالتتابع الذي تكلم فيه فإن النبي (ابو- وير) غدا أكثر جرأة وانتهى إلى لوم الفرعون بسبب الفوضى العامة . لأن على الملك أن يكون راعي شعبه ، وربما قلده الموت بحكمة ، «السلطة والعدالة هما معك ، ولكن الفوضى التي اقمته في كل مكان من البلاد مرتبطة بضجة المنازعات . انظر كل واحد ينقض على جاره ، ان الناس ينفذون ما أمرتهم به . ان هذا يظهر ان تصرفاتك قد خلقت هذه الحالة وانك قد نطقت بالكاذب» (٤٢) .

إن واحداً من ملوك العصر ذاته ألف أطروحة لأجل ولده ميكايري mei - ka - re . انه يعترف بتواضع بذنوبه : «مصر تتصارع حتى في مدينة الأموات وانا أفعل الشيء نفسه» إن آلام البلاد «كان وجودها بسبب تصرفاتي وقد عرفت

(الأم الذي صنعتته) فقط بعد أن صنعتته ! . وهو يأمر ولده (لأن يعمل بعدل mat) لزمن طويل كي يعيش على الأرض «لاتثق في طول السنين ، لأن القضاة الذين سيحاكمونك بعد الموت ، يعتبرون الحياة كساعة . . . لا يوجد سوى أعمال الانسان التي تبقى معه . . . بالنتيجة (لاتفعل شراً) . فبدلاً من ان ترفع نصباً من الحجر «اعمل للدرجة ان يستمر نصبك بالحب» «أحب كل الناس !» لأن الآلهة تتحقق من العدالة أكثر من التقديمات . آسي من يبكي ولا تضغط على الأرملة . . . لاتطرد انساناً من ملك والده . . . لاتعاقب بظلم لاتقتل أبداً . . . (٤٣)

إن بعض النزعات لتخريب الآثار روعت المصريين : خرب الناس قبور الأجداد ، طرحوا الأجساد وحملوا الحجارة من أجل قبورهم الخاصة . وكما لاحظ ابو- وير «إن عدداً من الموتى قد دفنوا في النهر . فالنهر أصبح قبراً . . . ونصح الملك ابنه (ميري كاري) : «لاتضر بأثر أحد . لاتبن قصرك من الخرائب» . ان اغنية عازف القيثارة تثير أمر نهب وتخريب المقابر ، ولكن لأسباب مختلفة جداً . ان الآلهة التي عاشت سابقاً (الملوك) تستريح في اهراماتها ، وان الموتى الاعتباريين (الاشراف) المدفونين في اهراماتهم - لم تعد توجد محلات اقامتهم ! انظر ماذا فعل بهم . . الجدران كسرت ، وبيوتهم لم تعد توجد ، كما لو أنهم لم يكونوا موجودين فيما سلف غير أنه بالنسبة لمؤلف القصيدة فان هذه الجرائم لا تفعل سوى اعادة التأكيد على السر المغلق الذي لا يمكن اختراقه حول الموت . . «لا أحد يعود من هنالك ، ليستطيع أن يصف لنا حالتهم وليقل لنا عن حاجتهم ، لكي يطمئن قلوبنا حتى الوقت الذي سنمضي نحن أيضا فيه باتجاه المكان الذي مضوا اليه . . . ويستتج عازف القيثارة بالنتيجة «اتبع رغبتك . . . طالما أنت على قيد الحياة . . . لا تدع قلبك يذبل» (١٤) .

ان نكبة كافة المؤسسات التقليدية تترجم في ذات الوقت بالشك والتشاؤم وبتجميد التمتع الذي لم يصل لاختفاء عمق اليأس . ان اغماء الملكية الالهية يقود قديراً لانخفاض القيمة الدينية للموت . واذا كان الفرعون لا يعتبر بعد كاله

متجسد ، فان كل شيء يصبح موضع تساؤل ، وفي الدرجة الاولى ، معنى الحياة ، واذن حقيقة بعد الوجود لما وراء القبر ان اغنية /عازف القيثارة /تعيد الى الذاكرة أزمات يأس أخرى - في اسرائيل وفي اليونان وفي الهند القديمة - أزمات مثارة بانهياب القيم التقليدية .

بالتأكيد ان النص الأكثر اثارة هو (الخصام حول الانتحار) انه حوار بين انسان مثقل باليأس وبين روحه (با = ba) فيجهد الرجل لاقناع روحه بملاءمة الانتحار «لن سأتكلم اليوم» ان الاخوة أشقياء ، ورفاق الأمس لا يتحابون . . ان القلوب جشعة : كل واحد يقبض الأموال من جاره . . لا يوجد عادلون . ان البلاد قد تركت الى عمال الجور . . ان الخطيئة التي تجول على الأرض لا نهاية لها . انه وهو واقع وسط هذه المصائب ، يظهر له الموت اكثر من مرغوب فيه : انه يغمره بسعادة بالغة منسية أو نادرا ما عرفت «الموت هو عندي اليوم مثل الشفاء بالنسبة لمريض . . مثل عطر المر . . مثل عبير زهر اللوتس . . مثل رائحة الحقول بعد المطر . . مثل الرغبة الحارة لشخص للعودة الى بيته بعد طول سنين من الأسر . .) وتذكره روحه بدثيا بان الانتحار يمنعه من الدفن والخدمات الجنائزية ، وتجهد بالتالي لاقناعه بنسيان همومه وذلك بالبحث عن اللذائذ الحسية ، وأخيرا تؤكد له الروح بأنها ستبقى بجانبه حتى في حالة التقرير باعطاء الموت^(٤٥) .

إن المؤلفات الأدبية للعصر المتوسط استمرت بأن تقرأ ويعاد نسخها لزمن طويل بعد إعادة احياء الوحدة السياسية في ظل فراعنة الامبراطورية الوسطى (١٧٣٠ - ٢٠٤٠ ق . م) . ان هذه النصوص كانت تمثل أكثر من شهادات لا مثيل لها عن الأزمة الكبرى ، انها توضح اضافة لذلك اتجاه الروح الدينية المصرية التي لم تتوقف عن الفيضان منذئذ . وان ذلك يتعلق بتيار فكري من الصعب وصفه باختصار ، ولكن المميز الرئيسي ، هو الأهمية المعطاة للشخص البشري بكونه مثل حي لنموذج مثالي هو شخص الفرعون .

إن الامبراطورية الوسطى كانت قد حكمت من قبل مجموعة من الملوك العظام يتمون جميعهم تقريباً إلى الأسرة الثانية عشرة وتحت حكمهم عرفت مصر عهداً من التوسع الاقتصادي والاحترام الدولي الكبير^(٤٦) . ان الأسماء المختارة من الفراعنة عند تنويعهم تترجم ارادتهم بأن يحكموا بعدل / مات/ تجاه الأشخاص والآلهة^(٤٧) . وأثناء حكم الاسرة الثانية عشرة تسنم آمون العرش ، وهو واحد من ثمانية أرباب عبدوا في هيرموبوليس تسنمه في درجة عليا تحت لقب آمون- رع (مؤسس الأسرة كان يدعى امينومهاث Amenomhat «آمون هو في الرأس» . إن الاله المستور (فقرة ٢٦ م) قد تمهى بالشمس الاله الذي يظهر بامتياز . ويفضل / التشميس/ Solarisation غدا آمون الاله الشامل للامبراطورية الجديدة . ومن المفارقة ، ان هذه الامبراطورية - الوحيدة التي تستحق غالباً هذا الاسم - كانت النتيجة المتأخرة ، ولكن الحتمية لازمة ثانية انفجرت بعد انطفاء الاسرة الثانية عشرة . إن عدداً كبيراً من الملوك قد تابع بسرعة إلى حين غزوة الهكسوس في ١٦٧٤ ق . م . وان أسباب تردي الدولة ظلت مجهولة لجيلين قبل غزوة الهكسوس . غير ان المصريين على كل حال لم يستطيعوا المقاومة لوقت طويل ضد غزوة هؤلاء المحاربين الأشداء مستعملي الحصان والعربة والقوس ... وتاريخ الهكسوس غير معروف جيداً^(٤٨) مع ذلك فإن اندفاعهم صوب مصر كان بالتأكيد النتيجة لهجرات هزت الشرق الأوسط في القرن السابع عشر .

بعد النصر استقر الفاتحون في الدلتا . من عاصمتهم «أفارس» حكموا بواسطة امراء الاقطاع القسم الأكبر من مصر السفلى . وان الهكسوس حملوا معهم بعض الآلهة السورية ، بعل وتشوب في المقام الأول والتي وحدوها بـ(سيت) Seth .

إن الترقية لأرفع درجة لقاتل اوزيريس تشكل ، بالتأكيد ، اهانة قاسية . مع ذلك يجب ان يحدد بدقة ان عبادة /سيت/ كانت قد طبقت سابقاً في الدلتا في زمن الأسرة الرابعة .

ان غزوة الهكسوس بالنسبة للمصريين مثلت كارثة يصعب استيعابها . وان الثقة بوضعهم المتميز المحدث سلفاً من قبل الآلهة ، قد انتهك بقسوة . وازدواج ذلك فبينما ان الدلتا كانت مستعمرة من الاسيويين ، فإن الفاتحين الموزعين في حقولهم المحضة ، كان يتجاهلون باحتقار ، الحضارة المصرية . غير ان المصريين تفهموا الدرس وبنجاح تعلموا معالجة أسلحة الغزاة ، وبعد قرن من الكارثة (حوالي ١٦٠٠ ق .م) أعلنت طيبة ، حيث كان يحكم فرعون من الأسرة السابعة عشر ، حرب التحرير . ان النصر النهائي^(٤٩) يتوافق مع مجيء الأسرة الثامنة عشرة (١٥٦٢ - ١٣٠٨ ق.م) وبناء الامبراطورية الجديدة .

ان التحرير قد ترجم بنمو الوطنية وكره الأجنبي Pa Xénophobie وقد توجب على الأقل مرور قرن من الزمن لتهدئة العطش للثأر ضد الهكسوس ففي البدء أخذ الملوك يلجأون لغزوات تأديبية ، إلا أنه في ١٤٧٠ ق . م افتتح تحتموس الثالث مجموعة الحملات الحربية بغزوة ضد المواقع القديمة القوية للهكسوس . ان الشعور بعدم الأمان المتولد بالاحتلال الأجنبي كان بطيء الزوال . وانه لكي يجعل مصر غير قابلة للعطب تجاه الضغوط الخارجية ، تصدى تحتموس الثالث لسلسلة من الغزوات التي وصلت للامبراطورية : ومن الراجح ان الكبت ، والحرمان من الحقوق الذي تحملها المصريون خلال الـ ٢٢ سنة الأولى من حكمه قد أثارت اطماعه العسكرية . ولأنه خلال كل هذه الفترة كان الملك الحقيقي عمته وحماته /حتشبوت/ الملكة الموهوبة والتي كانت بشكل خاص تفضل التوسع الثقافي والتجاري على الحروب والفتح . إلا انه بعد خمسة عشر يوماً من سقوط /حتشبوت/ كان تحتموس في طريقه لفلسطين وسورية - لكي يخضع /العصاة/ . وبعد قليل من الزمن ، انتصر في مجيدو Mejido ولحسن الحظ بالنسبة لمستقبل الامبراطورية فإن تحتموس بدا كريماً مع المغلوبين .

كانت تلك نهاية العزلة المصرية ، ولكن أيضاً انحدار الثقافة التقليدية المصرية . ورغم المدة القصيرة نسبياً للامبراطورية ، فإن اثارها كانت غير قابلة للانعكاس . ويتبع سياستها الدولية ، أن مصر انفتحت بنجاح على ثقافة عالمية . فبعد قرن من انتصار مجيدو ، تأكد الحضور الكثيف للأسريين في كل مكان حتى في الادارة وفي المقرات الملكية .

إن العديد من الآلهة الأجنبية ، لم يسمع لها فحسب ، وإنما تمثلت بالآلهة الوطنية . وأكثر من هذا فإن الآلهة المصرية بدىء بعبادتها في البلدان الأجنبية وآمون - رع أصبح رباً عالمياً ...

ان / تشميس / آمون سهّل في آن واحد المعرفة الدينية ورفعت آلهة شمسياً للصف الأول . ولأن الشمس كانت الاله الوحيد المقبول عالمياً^(٥١) ، فإن أجمل الترينيمات إلى آمون - رع الممجدة له كخالق عام وعالمي ، قد أُلّفت في بداية العهد الامبراطوري ، ومن جهة أخرى ، فإن عبادة الاله الشمسي بصفته الرب السامي بامتياز قد هيأت بعض الوحدة الدينية : إن سيادة مذهب إلهي واحد فرض بنجاح ، من وادي النيل حتى سورية ، وفي الأناضول ، وفي مصر ، وجد هذا اللاهوت الشمسي ذو الاتجاه الشمالي ، مطبقاً حتى أوقضاء وقدرأ في توترات النظام السياسي . أثناء الاسرة الثامنة عشر كانت معابد آمون - رع قد تنامت بشكل ملحوظ وكان مردودها متكاثراً . وكنتيجة لاحتلال الهكسوس وعلى الأخص لتحرير مصر من قبل فرعون طيبة ، فإن الآلهة قد جرّت لتوجيه اعمال الدولة بطريقة أكثر مباشرة . وهذا يعني ان الآلهة وبالدرجة الأولى آمون - رع - أوصلو آراءهم بواسطة هيئة كهنوتية . وقد كسب الكاهن الأكبر لآمون سلطة هامة اذ كان يجلس مباشرة بعد الفرعون . ان مصر كانت على اهبة ان تصبح ثيوقراطية هذا ومن جهة أخرى لم ينقص الصراع من أجل السلطة بين الكاهن الأكبر والفراغة . ان هذا القسيس الحاد للتراتبية الكهنوتية هو الذي صلب التوتر بين مختلف الاتجاهات اللاهوتية في خصومات هي أحياناً غير قابلة للإصلاح .

٣٢ - اختناون أو الإصلاح المفقود :

إن ما أسمى بثورة العمارنة (١٣٥٠ - ١٣٧٥) أي اعلاء آتون ، القرص الشمسي كاله واحد أعلى ، يفسر في جزء منه بارادة الفرعون امنحوت الرابع كي يتخلص من الكاهن الأكبر . وفي الواقع فإنه بعد قليل من الزمن بعد التصيب ، جرد الملك الشاب كاهن آمون الأكبر من ادارة أموال الاله وهكذا سحب منه مصدر سلطته ، وتباعاً غير

الفرعون اسمه (آمون الراخي) إلى AKE - en - Aton (الذي يخدم آتون) وترك العاصمة طيبة (مدينة آمون) وبنى مدينة أخرى على مسافة ٥٠٠ كم للشمال واسماها اخيتاتون (حاليا تل العمارنة) حيث رفع القصور ومعابد آتون . وخلافاً لمقابر آمون فإن مقابر آتون لم تكن مغطاة ، فيمكن بذلك عبادة الشمس بكل مجدها . وليس هذا هو التجديد الوحيد لاختاتون . ففي الفنون التصويرية ، شجع النموذج المسمى منذئذ (الطبيعية) للعمارنة ؛ وللمرة الأولى فإن اللغة الشعبية دخلت في التسجيلات الملكية والقرارات الرسمية أو اضافة لذلك ، فإن الفرعون تراجع عن التقاليدية Conventionnalisme القاسية المفروضة بالمراسيم etiquette وترك العفوية تحكم العلاقات مع أعضاء أسرته وحاشيته . إن كل هذه التجديدات بالقيمة الدينية التي اعطاها (اختاتون) للحقيقة (مات) ، اذن ، لكل ما هو طبيعي ينسجم مع إيقاعات الحياة . لأن هذا الفرعون الشحيح والمسوخ تقريبا ، والذي توجب عليه ان يموت وهو صغير السن جداً ، قد اكتشف المعنى الديني السرور في العيش ، والسعادة بالتمتع بالابداع الذي لا ينضب لآتون ، وفي المحل الأول النور الالهي . ولكي يفرض اختاتون اصلاحه أبعد آمون وكل الآلهة الأخرى^(٥٢) لمصلحة آتون ، الرب الأعلى المشبه بقرص الشمس ، المنبع الشامل للحياة : مثلث مع أشعتها المنتهية بأيدي تحمل للمؤمنين رمز الحياة (انخ) Ankh .

ان الجوهري في لاهوت اختاتون يوجد في ترينيتين موجهتين إلى (آتون) وهما الشيء الوحيد الذي احتفظ به ، انها ، بالتأكيد ، تتعلق بواحدة من أكثر العبارات الدينية المصرية نبلا «الشمس هي بدء الحياة» . اشعتها (تعاقد كل البلدان) رغم كونك بعيدة جداً ، فإن اشعتك على الأرض ، مع كونك على وجوه البشر فإن آثارك غير مرئية^(٥٣) . إن آتون هو (خالق النطقة في المرأة) ، وهو الذي يحمي الجنين ويسهر على الولادة وعلى نمو الولد - وكما أنه من جهة أخرى يعطى النفس إلى الفرخ الصغير ويحميه بالتالي . «كم هي عديدة أعمالك !! انها محجوبة عن البشر . أيها الاله الأوحيد ما عداك لا يوجد أبد آخر»^(٥٤) . إن آتون هو الذي خلق كل البلدان ، والرجال والنساء ، ووضع كل واحد في مكانه الخاص ، أخذنا العناية بحاجاته . (العالم يستمر بك) : «لكل واحد غذاؤه» .

لقد قورنت هذه الترنيمة حقاً بترنيمة المزمور /١٠٤/. وقد حصل كلام حول الخاصية التوحيدية لاصلاح اخناتون . إن أصالة وأهمية هذا (الفرد الأول في التاريخ) كما وصفه (بريستد) هي متضادة أيضاً ، إلا إنه لا شك في حيته الدينية . فالصلاة التي وجدت في ناووسه تتضمن هذه السطور «سأتشقى النفس الحلو من فمك . كل يوم سأأمل جمالك . . . اعطني يدك ، المشحونتين بروحك ، كي اتلقاك ولكي أعيش بها نادى باسمي على طول الأزلية : فهو لن يهمل نداءك مطلقاً» . . بعد ثلاثة وثلاثين قرناً ما زالت هذه الصلاة محافظة على قوتها المثيرة .

خلال حكم (اخناتون) وتأكيداً بسبب سليلته السياسية والعسكرية ، فإن مصر إضاعت الامبراطورية الآسيوية . ان خليفته توت عنخ آمون (١٣٥٧ - ١٣٤٩ ق . م) استعاد العلاقات مع الكاهن الأكبر لآمون في الجزء الأكبر منها . وبعد زمن قصير مات آخر فرعون في الأسرة الثامنة عشرة الطويلة والمجيدة .

وتبعاً لرأي عام لدى العلماء فإن زوال الأسرة ١٨ يشير أيضاً لنهاية العبقريّة المصرية الابداعية . ففصلاً يخص الابداعات الدينية ، يمكن التساؤل عما اذا كان شحها وقتلتها حتى اقامة أسرار ايزيس واوزيريس لتفسر بعظمة وفاعلية التأليفات المركزة اثناء الامبراطورية الجديدة^(٥٥) . لأن هذه التأليفات من احدى وجهات النظر ، تمثل قمة الفكر الديني المصري : انها تشكل نموذجاً مصاغاً بشكل تام ، والذي لا يشجع سوى التجديدات الانشائية .

ولكي نتحقق بشكل أفضل من أهمية هذه التأليفات اللاهوتية نرجع قليلاً الى التوحيد الآتوني . فيجب بدتياً التأكيد على ان العبارة المستعملة من قبل اخناتون في صلاته - «الاله الأحد - لا اله الا هو» - كانت مطابقة قبل ذلك ، قبل ألف عام من العمارنة ، الآمون ، ورع وآتوم ولآلهة اخرى . وازضافة لذلك وكما لاحظ جون ويلس Jhon Vihon ، كان يوجد على الأقل إلهان ، (ربان) ؛ لأن اخناتون كان نفسه معبوداً كما لو انه اله معبود . وان صلوات المؤمنين (أي الجماعة المحصورة بالمنوظفين واعيان القصر) كانت توجه ليس لآتون ، وانما مباشرة لآخناتون . ويعلم الفرعون في صلاته الشهيرة أن آتون هو الهه الخاص : «انت في قلبي ولا

أحد آخر لا يعرفك باستثناء ولدك (اختاتون) وإنك كشفت الأسرار في تصميماتك وقدرتك). وهذا مايفسر زوال (الأتونية) بشكل خاطف تقريبا بعد موت اختاتون . وفي آخر المطاف ، كانت تقوى محدودة للأسرة الملكية ورجال البلاط .

يضاف الى ذلك أن آتون كان معروفاً ومعبوداً لزمن طويل قبل اصلاح العمارنة . ففي كتاب / ما هو في الآخرة (Ce qui est dans l'au-delà) كان رع يسمى «سيد القرص (آتون)» . وفي نصوص أخرى من الأسرة ١٨ / ان آمون / الاله المستور/ مجهول ، بينما يوصف رع بالاله ذو (الوجه المحجب) والذي سيستتر في العالم الآخر ، وبعبارة أخرى ، ان الصفة السرية والغير قابلة للرؤية لرع هما مظهران معلنان ومتممان لآتون ، الاله الظاهر بالكمال في قرص الشمس»^(٥) .

٣٣ - تأليف نهائي : اتحاد رع - اوزيريس :

إن علماء لاهوت الامبراطورية الجديدة يؤكدون على تكامل المتعارضين ، بل المتعادين في صلاة رع la Litanie de Rê يدعى الاله الشمس (الواحد - الجامع الكل) ؛ وهو يمثل تحت شكل مومياء أوزيريس حاملا التاج لمصر العليا . وبعبارات أخرى ان اوزيريس قد تدخل بروح رع^(٥٩) . ان التوحيد بين الالهين تكامل في شخص الفرعون الميت : بعد العملية الاوزيرية يعود الملك للحياة ، ويبعث كرع الشاب ، لأن مسيرة الشمس تمثل النموذج المثالي لمصير الانسان : مرور من نموذج ليكون في آخر ، من الحياة الى الموت ، وبالتالي الى ولادة جديدة . ان نزول رع في العالم تحت الأرضي يعني في ذات الوقت موته وبعثه . أحد النصوص يعلن «رع الذي سيستقر في أوزيريس وأوزيريس الذي سيستقر في رع» . وان العديد من الاشارات^(٦٠) الميثولوجية تبرز المظهر المزدوج لرع : شمسي وأوزيرى . بنزوله في العالم ، يصبح الملك الموازي للشثائي اوزيريس - رع .

وطبقاً لأحد النصوص المذكورة أعلاه ، فإن رع سيختفي في العالم الآخر . ان العديد من موحيات الصلاة Litanie (٢٠ - ٣٠) تبرز الصفة المائتة لرع وتشابه الاله الشمسي مع المحيط البدئي . ولكن اتحاد الاضداد قد عبّر عنه بصورة خاصة بالتضامن المستور بين رع وأوزيريس ، أو بين حورس وسيت . ونعيد هنا التعبير الموفق لراندل كلارك Rundle Klark : «رع بصفته الها مفارقاً ، واوزيريس بصفته اليها منبثقا ، يشكلان المظاهر المتكاملة للألوهية» . وفي آخر المطاف فانه يتعلق بذات السر ، وبصورة خاصة بتعددية الأشكال الصادرة عن الاله الواحد^(٦٢) . وتبعاً لأنساب الالهة وللتشكونية الفاعلة من قبل آتوم (٢٦ ع) فإن الألوهية هي في الان ذاته واحدة ومتعددة ، وان الابداع يتكون في تعدد أسمائه وأشكاله .

ان اشتراك واتحاد الالهة عمليات مألوفة للفكر الديني المصري منذ العصور القديمة جدا . الأمر الذي يشكل الأصولية للاهوت الامبراطورية الجديدة وهذا هو ، من جهة الموضوعة لفعله مزدوجة جعل اوزيريس رع osirisation de rê وتشميس اوزيريس ، ومن وجهة اخرى ، الاعتقاد الراسخ بأن هذه الفعلية المزدوجة تكشف المعنى السري للوجود البشري ، وبدقة التكامل بين الحياة والموت^(٦٣) وحسب بعض وجهات النظر ، فان هذا التركيب اللاهوتي يؤكد انتصار اوزيريس ، باعطائه معنى جديدا ، ان انتصار الاله المغدور كان شاملاً فيما سلف في بداية الامبراطورية الوسطى . ومنذ الأسرة ١٨ أصبح اوزيريس قاض الموتى . ان الفصلين من مأساة ما وراء القبر - الدعوى ووزن القلب - تجري امام اوزيريس . ومشار اليها في نصوص النواويس ، فالدعوى ووزن الروح تتجه لتذوب في كتاب الأموات .^(٦٤)

إن هذه النصوص الجنائزية ، حررت إبان الامبراطورية الجديدة ، ولكنها تحتوي على مواد أكثر تقدماً ، وهي ستمتع بشعبية غير متساوية حتى نهاية الحضارة المصرية . وان كتاب الموتى هو الدليل الممتاز للروح في الآخرة . والصلوات والعبارات السحرية التي يشتمل عليها تهدف لتسهيل سفر الروح ، وعلى الأخص ، لتضمن لها النجاح في الامتحانات (الدعوى) و/وزن القلب / .

من بين العناصر القديمة لكتاب الموتى ، نبرز الخطر من موت ثان (فصل ٤٤ - ١٣٥ - ٦ - ١٧٥ - ٦) . وأهمية الحفاظ على الذاكرة (فصل ٩٠) وتذكر اسمه (فصل ٢٥) ؛ انها معتقدات تأكدت على نطاق واسع لدى البدائيين ، ولكن حتى في اليونان وفي الهند القديمة .

ان الكتاب يعكس مع ذلك التركيبات اللاهوتية للامبراطورية الجديدة . ان صلاة لرع فصل ١٥ / تصف الرحلة اليومية للشمس ، فعندما تدخل في العالم السفلي للأرض تنشر الفرح . ان الموتى «يفرحون عندما تشع هنالك من أجل الاله الأكبر اوزيريس سيد الابدية» . وليس بأقل من ذلك . دلالة هورغبة الميت بالتوحد مع الوهية : رع ، حوريس ، اوزيريس ، انوبيس تباح الخ . . ان هذا لا ينحصر أبدا باستعمال الصيغ السحرية . وفي الواقع ، ان معرفة الاسم لاله تعادل الحصول على بعض من قوة عليا . ان القيمة السحرية للاسم^(٦٥) وبصورة عامة ، الكلمة كانت معروفة على التأكيد منذما قبل التاريخ . وبالنسبة للمصريين . كان السحر سلاحاً مخلوقاً من قبل الآلهة من أجل الدفاع للانسان . وفي عصر الامبراطورية الاولى تشخص السحر باله رافق رع في قاربه ، بصفته تابع للاله الشمسي . وفي آخر الحساب ، فان السفر الليلي لرع في عالم ما تحت الأرض ، هو نزول خطر ، مزروع بالعديد من العقبات رديشكل المثال النموذجي لسفر كل ميت نحو مكان التقاضي .^(٦٦) .

إن أحد الفصول الهامة من كتاب الموتى (الفصل ١٢٥) مكرس لمحاكمة الروح ، في الغرفة الكبيرة المسماة (الثنائي مات)^(٦٧) . يحمل قلب الميت على كفة الميزان ، وعلى الكفة الأخرى توجد ريشة ، أو عين ترمزان لمات . وأثناء العملية ، يتلو الميت ، صلاة ، متضرعاً لقلبه ان لا يشهد ضده ، ويعدنذ ، يجب أن يتلفظ باعلان البراءة خلافاً للأصول المعينة أي (اعتراف سلمي) .

لم أرتكب الجور ضد البشر
لم أجدف ضد الالهة
لم أفقر فقيراً

لم أقتل
لم أسبب ألماً لأحد
لم أنقص مداخيل المعابد من الأغذية

انني تقي . . انني طاهر . . انني طاهر . . ان الميث يخاطب اثنين وأربعين
الها الذين تتشكل منهم المحكمة : «السلام عليكم ، أيها الالهة الحاضرون . انني
عرفتكم ، عرفت اسمكم . لن أقع مطلقاً تحت ضرباتكم . لن تقولوا انني
سيء ، لهذا الاله الذي تتجمعون تبعاً له . ستقولون ان مات سيرجعني لحضرة
السيد العالمي ، لأنني قمت بشعائر مات في مصر . ثم يتلفظ بمديحه
الخاص : (لقد أرضيت الاله لأنه يجب أن يرى اقامة شعائره ، لقد أعطيت الخبز
للجائع والماء للعطشان ، والثياب للعاري وقارباً لمن ليس عنده . . انقذوني
اذن ، ارحموني اذن ، لا تضعوا تقريراً ضدي بحضرة الاله الكبير) وأخيراً يتجه
صوب اوزيريس : «أيها الاله الذي يجلس عالياً على سنده . . ألا تستطيع حمايتي
ضد هؤلاء المراسلين (المخبرين) الذين يذرعون الشقاء ويثيرون الاحقاد . . لأنني
أقمت شعائر مات لأجل سيد مات . . انني طاهر» ويخضع الميث علاوة على ذلك
لاستجواب عن نظام المسارة . فيجب عليه اثبات أنه يعرف الأسماء السرية
لمختلف أجزاء الباب والعتبة لحارس باب القاعدة وللآلهة (٦٩) .

بالتفكير حول سر الموت ، حققت العبقريّة المصريّة آخر تأليف ديني ،
الوحيد الذي دعم سيادتها حتى نهاية الحضارة المصريّة ، انه يتعلق تأكيداً ، بابداع
قابل لشروح وتطبيقات متعددة .

ان المعنى العميق للثنائي رع - اوزيريس أو لاستمرارية تحولات حياة - موت
لم يكن بالضرورة مقبولا لدى المؤرخين المقتنعين بعصمة الصيغ السحرية ، ومع
ذلك فان هذه الاخيرة كانت تعكس ذات المعرفة الروحية المتعلقة بالعالم الآخر .
وبتطوير المفهوم القديم للموت كتحويل روحي ، فان فقهاء اللاهوت للامبراطورية
الجديدة قد وحدوا النماذج بهذا / السر / في آن واحد مع المعجزات اليومية لرع
وفي المأساة البدئية لاوزيريس ، وبهذه الطريقة ، صاغوا في نموذج واحد ما ظهر

خالداً وما هو كلي الاحترام بامتياز - ان المسيرة الشمسية - التي ما كانت سوى مشهد مأساوي ، ولكنها في نهاية المطاف جريمة - قتل اوزيريس - وان هذا هو ما سيظهر بالتعريف آني وغير ذي معنى : الوجود البشري .

في هذه الصياغة لهذه المأساة (السوتيريولوجية) فان دور اوزيريس كان اساسيا ، فبفضله ، كل فانٍ يستطيع الأمل منذ الآن (بمصير ملكي) في العالم الآخر . وفي آخر المطاف ، فان الفرعون كان النموذج العالمي .

ان التوتر بين امتياز حكمة مسارية وأعمال طيبة ، قد حل بطريقة يمكن لها أحيانا أن تفهم ، لأنه اذا كانت العدالة مضمونة دوماً فان /الحكمة المسارية/ تستطيع أن تتناقض مع حيازة العبارات السحرية . ان الكل يتعلق بالمنظور الذي وضع فيه بالنسبة الى جملة العالم الآخر . غير أنها صيغت بطيش في كتاب الأموات وفي الكتب الأخرى المماثلة . وهذه النصوص جلبت الانتباه بعدد من القراءات المنشأة على مستويات مختلفة . فالقراءة السحرية كانت بالتأكيد الأكثر سهولة : انها لم تدخل سوى الايمان في القدرة الكلية للكلمة . وفي المعيار الذي بفضل متعلقات العالم الآخر الجديدة ، يصبح «المصير الملكي» . مقبولا بشكل شامل . ان التقدير والاحترام للسحر لم يتوقف عن التزايد . وان عصر الحضارة المصرية ستسوده المعتقدات والعبارات السحرية^(٧٠) . ومن المناسب التذكر مع ذلك أن بتاح في اللاهوت الممفيسي (٢٦ ع) خلق الآلهة والعالم بقوة الكلمة . .

حواشي الفصل الرابع

- ١ - ولادة حضارة في الشرق الأدنى Frankfort ص ١٠٠ .
- ٢ - ٣ - ولادة حضارة في الشرق الأدنى H. Frankfort ص ٥٠ .
- ٤ - لم تكن الاساطير تروى بطريقة مستمرة ومتداخلة ، وذلك بهدف تكوين (ترجمات قانونية) كما يقال وبالنتيجة ، كان هنالك الزام لاعادة تكوينها بدءاً من المشاهد والاشارات الموجودة في المجموعات القديمة وعلى الأخص في نصوص الاهرام (٢٥٠٠ - ٢٣٠٠ ق م) في نصوص ساركوفاج (٢٠٠٠ - ٢٣٠٠ ق م) وفي كتاب للأموات .
- ٥ - Rnde Clark - ص ٣٦ .
- ٦ - النصوص ذكرها فرانكفورت في المرجع السابق الملكية ص ٢٠٦ .
- ٧ - ولادة العالم - Seoneron etyoy .
- ٨ - يتعلق بثلاثة أشكال للشمس Krépri الشكس المشرقة - Rê الشمس في السميت وآتوم الشمس في الغروب .
- ٩ - ان دور الفاصل لم يكن محصوراً بشو .
- ١٠ - ١١ - عدد من المراجع اشار اليها المؤلف .
- ١٢ - التعاليم لأجل Méri Karel . انظر شرح Merenz - وبصورة خاصة فرانكفورت .
- ١٣ - النص مترجم من قبل ويلسن . Anet - والتقاليد الكنعانية تعرف أسطورة مشابهة .
- ١٤ - الأمثلة التي ذكرها merenz وتتعلق بمفهوم خاص بالخضارات التقليدية .
- ١٥ - قطع مترجمة من قبل yoyde .
- ١٦ - ١٧ - فرانكفورت - مصر القديمة .
- ١٨ - في كتاب الأموات يعلن الاله «أنا آتوم ، عندما كنت وحيداً في نوم المحيط الأولى . انا رع في مظهره الأول عندما بدأ حكم ما أبدعه» وثمة تحشية تضيف الايضاح التالي : «هذا يعني

أن رع بدأ يظهر كملك ، مثل الذي كان يوجد قبل أن يرفع شو السماء فوق الأرض (مصر القديمة - فرانكفورت ص ٥٤ - ٥٥) .

١٩ - ٢٠ - المرجع السابق ص ٥٤ و ١٦٧ - ١٦٠ .

٢١ - ٢٢ - انظر الأساطير عن العودة الخالدة فصل ١/ .

٢٣ - ملكية وآلهة - فرانكفورت .

٢٤ - المقارنة بين مين min و/سوبك/ عند فرانكفورت في كتابه الديانة المصرية القديمة ، تبين الأهمية للرؤية السكونية للعالم مفسرة كحركة ايقاعية داخل شمولية ثابتة . وقد عرض فرانكفورت شرحاً عبقرياً لمظاهر الآلهة بشكل حيوانات : فينما لدى البشر توازن الملامح الفردية والبنية المورفولوجية للوجه ، فان الحيوانات لا تتغير ، فهي تعطي دوما نوعها . وهكذا بنظر المصريين ان الحياة الحيوانية تبدو فوق البشرية طالما تشاطرها الحياة الكونية للعالم ص ١٣/ ١٤ .

٢٥ - ٢٦ - ذات المرجع .. ٢١٥ - ٢٢٠ .

٢٧ - حسب رأي غاردنر : كانت المهمة تتضمن أيضاً اتحاداً احتفالياً للزوجين الملكيين .

٢٨ - أ- مورتيل - شعيرة القصيدة الالهية اليومية في مصر ص ١٦٤ .

٢٩ - هذه الفكرة حققت الاتحاد المحرم للفرعون الميت المسمى الثور الذي أخصب أمه - فرانكفورت ص ٢٤٤ .

٣٠ - بعض النصوص تعلم انه يجب ضم عظام الملك ويتوجب استخراج أعضائه من اللفائف لضمان صعوده وأوضح فاندنر انه يتعلق بعقيدة اسطورية اوزيرية .

٣١ - ذات المرجع . ص ٧٨ .

٣٢ - ذات المرجع . ص ٧٢ - فاندنر - ويريستد يذكر تفصيلاً ان حقل الورد وحقل التقديمات ص ١٦ - ومثل هذه التجارب معروفة في العديد من التقاليد القديمة . انها تفترض مسارة مقدسة تقتضي بعض الشعائر والتعليمات /ميثولوجية وجغرافية الخ/ وان بعض الاشارات التي توجد في نصوص الاهرام تشكل أقدم الوثائق المكتوبة المتعلقة بالحصول على قدر أو مصير متميز بفضل بعض المعلومات السرية . انه يتعلق بالتأكيد بارث لا يمكن تذكره تنقاسمه أيضاً الثقافات النيولوتية قبل الأسر الحاكمة . في ايدولوجيا الملكية المصرية هذه الاشارات التكريسية تشكل رفات القديسين غير مفيدة ، وفي الواقع بكونه ابن الأمة واله مجسد فان الفرعون لم يكن به حاجة لتجارب مسارية للحصول على حق الدخول للجنة السماوية .

٣٤ - أي أولئك الذين دفنوا بقرب القبور الملكية .

٣٥ - حسب رواية مختلفة يؤكد عليها بلوتارك ، فان سيت يمزق جثة اوزيريس لأربعة عشر قطعة ويبعثرها . ولكن ايزيس تجدها (ما عدا عضو التذكير الجنسي ، الذي ابتلعه سمكة) ، وقد

كفتتها على حالها ذاتها وهذا ما يفسر بالفعل ان عددا من المقابر كان يشاع انها تضم قبر اوزيريس (انظر A. Brma ص ٦١٥) .

٣٦ - في النص ل (١٠ - ١١) فقط بدأت الاسرة الحاكمة التكلم عن اسمه (انظر . راندل كلارك ص ١٠٠) .

٣٨ - من بعض وجهة النظر يمكن التكلم عن التلاحم بين اله ميت واله قابل للموت رع - ذلك لأن الشمس أيضا /تموت/ كل مساء ولكنها تولد مجددا في فجر اليوم التالي .

٣٩ - نصوص تقديسية ترجمة راندل ص ٣٣٠ .

٤٠ - فرانكفورت في كتابه ديانة مصر القديمة ص ٩٦٠ ويذكر بانه بوضع الميت في تابوته ، نضعه بين يدي أمه ربة السماء نوت (لقد أعطيت لأملك فوت باسمها في التابوت - نصوص الاهرام ٦١٦ . ونص آخر يقارن نت بفراش ينام الميت عليه بانتظار ان يستيقظ في حياة جديدة . ان الجوانب الأربع للتابوت قد تشخصت اضافة لايزيس ب نفيس - حوريس - ثوت والخشبة مثلت نجيب اله الأرض والغطاء بربة السماء ، وهكذا فان الميت كان محاطا في تابوته بشخصيات الكون بأسره .

٤١ - عندما نزل حوريس الى العالم الآخر واعاد اوزيريس للحياة منحه سلطة المعرفة . ان اوزيريس كان ضحية سهلة لأنه لم يكن يعلم انه لم يكن يعرف حقيقة طبيعة سيت (انظر النصوص مترجمة ومفسرة من قبل كلارك ص ١١٤) . ٤٢/٤٣/٤٤/٤٥ / ويلسون - Anet ص ٤١٤ اظهزت .

٤٦ - نتيجة بقدر ما هي موضع تقدير اذا أخذنا بالحسبان واقعة الحكام لمختلف الأقاليم فقد حافظوا تماما على سيادتهم المحلية .

٤٧ - انظر الأمثلة التي ذكرها ويلسن - وصحيح ان المصريين كانوا يعتبرون أيضا كالكائنات الوحيدة التي هي في الحقيقة بشرية . أما الاجانب فكانوا يمثلون بالحيوانات وفي بعض الحالات كان من الممكن التضحية بهم .

٤٨ - المصدر الاشتقاقي للعبارة هو مصري هيكان - كهاسوت (حكم بلاداً أجنبية) واغلبية الاسماء المعروفة هي من أصل سامي ولكنه وجدت أيضا بكلمات حورية . الهيكوس غير المذكورين في أي وثيقة مصرية معاصرة . توجد اشارة لمدينتهم المحصنة «تائيس» في نص الأسرة ١٩ وفي قصة شعبية محررة حوالي ذات التاريخ ، وكما يتوجب الانتظار فان الفاتحية /البرابرة في نظر المصريين/ تمثلوا بالحية ابو فيس رمز الهاء .

٤٩ - لا توجد وثيقة رسمية تسجل طرد الهكسوس - الشهادة الوحيدة هي السيرة الذاتية - المختصرة لمحارب متواضع في حرب التحرير . ان النص ترجم من قبل بريستو . (الحضارة المصرية القديمة) .

- ٥٠ - لاسباب كنا أشرنا اليها اننا فقرة (٢٠ع)
- ٥٢ - من حيث المبدأ ، لأنه حفظ /رع/ و/مات/ .
- ٥٣ - عندما تنام الأرض في الظلمات المشابهة للموت . أثناء الليل تجوب الوحوش الكاسرة والافاعي وعندئذ (يغوص العالم في الصمت) . اختناون استدعى ، مع تفصيلات ، الرطوبة الاخاذة ، المجوبة الصباح ، السعادة المقتسمة بالاشجار والزهور والطيور والاسماك .
- ٥٤ - «لقد خلقت الأرض . . عندما كنت لوحداك ، صنعت السماء البعيدة لكي تقع هنالك عاليا ولترى كل ما صنعت» .
- ٥٥ - نعني بكل وضوح النخبة الدينية التي كان مقبولا بالنسبة لها المعاني العميقة لهذه الابداعات .
- ٥٦ - ٥٨ - ويلسون - وبيانكوف - انخ آمون ص ٢١٠ - ٢١٢ .
- ٦٢ - في نصوص الاهرام . . اتوم جعل الالهة تصدر عن ذاته . وتحت شكله الاول كأفعى . فان أتوم توحد أيضا مع اوزيريس (الأمر الذي يعني انه هو أيضا يمكن أن يموت ، وكنتيجة مع مورس .
- ٦٣ - عمل مشابه ، مع انه يهدف لأهداف أخرى فقد جرى في الهند بدءاً من عصر البراهمان .
- ٦٤ - انظر محاكمة الموتى في مصر القديمة (يوبون ص ٦٢) . وتشير الى ان محاكمة الموتى ومفهوم العدالة المساوية وتحصل بعد موت الجميع (ملوك وأفراد) وقد تأكدت بدءاً من الاسرة الرابعة Ganyates ص ٦٤ .
- ٦٥ - فيها سيتبع كان دور العبارات السحرية يصح عاليا بصورة خاصة في الأوساط الشعبية .
- ٦٦ - بعض الكتب الجنائزية - كتاب الابواب - كتاب من هم في الآخرة - وكلها تصف ممالك الموتى التي يطوف عليها رع بقاربه خلال الاثني عشر ساعة من الليل .
- ٦٩ - في عصر الامبراطورية القديمة كان الفرعون يتحمل استجوابا مسارياً .
- ٧٠ - انظر الجزء الثاني من هذا الكتاب .

الفصل الخامس

الميغاليث^(١) ، معابد ، مراكز احتفالية : الغرب ، البحر
الأبيض المتوسط وادي الاندس

٣٤ - الحجارة والموز :

إن الانشاءات الميغاليثية في اوروبا الغربية والشمالية ابهرت الباحثين منذ قرن من الزمن . وفي الواقع لا يمكن اعادة رؤية صورة فوتوغرافية جيدة لمرصوفات الكرنك ، أو الحجارة العملاقة ، بدون التنقيب عن موضوعها ومعانيها . وفي الواقع يبقى المرء مندهلاً امام المهارة التكنولوجية لهؤلاء المزارعين من عصر الحجر المصقول . كيف نجحوا بنصب كتل من ٣٠٠ طناً بشكل عمودي ورفعوا مناخذ من ١٠٠ طن؟؟

وبالتالي فإن مثل هذه الآثار لم تكن معزولة . انها تشكل جزءاً من كل

* الميغاليث (حجر غير منحوت مستخدم في الآثار الراقية لما قبل التاريخ .

ميغاليثي معقد ، ممتداً من شاطئ البحر المتوسط الاسباني ، مغطياً البرتغال ، ونصف فرنسا ، والشطآن الغربية لانكلترا ، وممتداً في ايرلندا ، والدانمارك والشطآن الجنوبية للسويد . وبالتأكيد ، إن هنالك متغيرات مورفولوجية لها دلالاتها . ولكن جيلين مما قبل التاريخ جهدا لكي يبرهنا عن استمرارية كل الثقافات الميغاليثية بدءاً من مركز قائم في لوس ميلار Los millares من مقاطعة الميريا d'ameria .

إن العقدة الميغاليثية تشتمل على ثلاثة اصناف من الانشاءات :

آ - المنير lemenhir «من بريتونا السفلي» ، (مين = men = حجر وهير = طويل) وهو حجر كبير يرتفع احياناً لدرجة ٢٠ متراً ومغروسة عمودياً في الأرض .

ب - الكروملش leCromlech (من كروم = Crom = دائرة - منحني وليش = lech = محل) ويدل على مجموعة من المنير موضوعة بشكل دائرة ، او نصف دائرة ، (وأكثرها اثرية) هو الكروملش لستونيهنج Stotonehenge بالقرب من ساليزبوري ، وحياناً تكون مجموعة المنير مرصوفة بمجموعة صفوف متوازية كما للكرنك Carnac في بريتانيا^(٢)

ج - الدولن leDolman (دول = dol = طاولة ، ومين = حجر) وهي منشأة من بلاطة واسعة جداً مدعومة بعدد من الحجارة المرفوعة، مترافقة بطريقة تشكل نوعاً من السور او الغرفة . وفي الاصل كان الدولن مغطى بأكمة . ان الدولن يشكل مدافن بكل معنى الكلمة . بعدئذ - وفي بعض المناطق - اوروبا الغربية مغطى ببلاطات كبيرة . ويوجد احجار دولن عملاقة ، مثل تلك التي في سوتو Soto قريباً من اشبيلية بطول ٢١ م . ولها واجهة بارزة فوق المدخل ، كتلة من الغرانيت من ٣,٤٠ م ارتفاع و ٣,١٠ م عرض وبسماكة ٠,٧٢ م وهي تزن زهاء ٢١ طناً . وفي لوس ميلار تم نبش مقبرة كبيرة بحوالي مائة ممر مسقوف . وان اكثر القبور موضوعة تحت تلأل ضخمة . وبعض المقابر تضم حتى مائة ميت ممثلة عدة اجيال من ذات الجنس . وحياناً يوجد لغرف الدفن عمود مركزي ، وعلى الجوانب يميز ايضاً بقايا رسوم . ان الدولن توجد على

طول الاطلانطيق، بصورة خاصة في بريتانيا ، وحتى البلاد الواطئة . وفي
ايرلندا لغرف الجناثر المرتفعة نسبياً ، جدران مزينة بتمائيل منحوتة .

بالتأكيد انها تتعلق بعقيدة هامة جداً للموتى . وفي حين ان مساكن
الفلاحين لعصر النيوليثيك ، الذين اشادوا هذه الآثار كانت متواضعة جداً ومؤقتة
(وفي الواقع لا تكاد تترك أثراً) ، كانت مقرات الموتى مشادة بالحجارة . ومن
الواضح أنه اريد بها بناء اعمال مقاومة ومتينة ، جديرة بقهر الزمن . ولقد عرفت
العقدة لرمزية الليتيك والتكافؤات الدينية للحجارة والصخور^(٣) .

ان الصخرة العالية ، والبلاطة الكبيرة dalle وكتلة الغرانيت تظهر ، الأجل
اللانهاثي ، والثبات ، وعدم قابلية الفساد ، وفي آخر الحساب نموذجية للوجود
مستقلة عن مصير موقت .

بالتأمل بهذه الآثار الميغاليثية العملاقة للفلاحين الاول ، في اوروبا الغربية
لابدأن نعيد الى الذاكرة اسطورة اندونيسية : في البدء ، عندما كانت السماء قريبة
جداً من الأرض ، كرم الآله الزوجين الاولين بعطاياه التي علقها بطرف جبل .
وفي ذات يوم ارسل لهما حجراً ، ولكن الاجداد ، مندهشين وساخطين
رفضوها . وبعد بعض الوقت ادلى الآله مجدداً بالحبل ، وفي هذه المرة مع موزة
فقبلت من الاجداد مباشرة . عندئذ سمع هؤلاء الاجداد صوت الخالق : طالما
انكم اخترتم الموزة ، فإن حياتكم ستكون كحياة الثمرة . ولو انكم اخترتم
الحجرة ، لكانت حياتكم تتمتع بوجود كوجود الصخر دائم وخالد^(٤) .

لقد رأينا (١٢ ع) ان اكتشاف الزراعة غير جذرياً مفهوم الوجود البشري :
فقد تكشف ايضاً سريع العطب وموقت مثل حياة النبات : ولادة ، حياة ،
موت ، بعث . ويمكن تفسير الآثار الميغاليثية كجواب على الاسطورة
الاندونيسية : فطالما أن حياة البشر هي مشابهة لحياة الحبوب ، فإن القوة والخلود
تصبحان قابلتين للاكتساب عبر الموت . ان الاموات يعودون لحضن الأرض
الام ، مع امل المشاركة بمصير البذور ، ولكنهم بالاضافة لذلك ، ؛ متشاركين

اسطورياً ، بكتل الصخر ، وبالتيجة يصبحون اقوياء وغير قابليين للفناء مثل الصخور الكبرى .

وفي الواقع ان الاعتقاد الميغاليثي للموتى يبدو انه قديم ، ليس القناعة بعودة حياة الروح فحسب ، وانما القناعة بصورة خاصة بقوة الاجداد والامل بأنهم سيحمون ويساعدون الاحياء . ان مثل هذه القناعة تتميز جذرياً عن المفاهيم المثبتة لدى شعوب اخرى من العصور القديمة (ما بين الرافدين - الحثيين - العبرانيين اليونان الخ . . .) والذين كان الموت بالنسبة لهم ظلالاً فقيرة بائسة وعديمة القدرة . وبأكثر من هذا : فبينما بالنسبة لبناء الميغاليت ، من ايرلندا حتى مالطة والجزر الايجية ، كان التشارك او (وحدة الشعور) الشعائري مع الاجداد يشكل مفتاح عقد القبة لنشاطهم الديني ، كان في ثقافات ما قبل التاريخ لاوروبا الوسطى ، كما هو الشأن في الشرق الاوسط القديم ، يعتبران الفصل بين الموتى والاحياء مقرر حصرأ وبدقة .

ان العقيدة الميغاليتية للموتى أدخلت ، اضافة لذلك مختلف الحفلات (طوافات رقص الخ . . .) والتقدمات (اغذية - سمك) واضاحي متممة قرب الانصباب ، ووقعات طعام شعائرية على القبور . ان العديد من المهير كانت مقامة باستقلال عن المقابر . ومن الراجح جداً ، ان هذه الحجارة كانت تشكل نوعاً من البديل لاجساد ستتمصصها ارواح الموتى^(٥) وفي اخر الحساب ، ان (بديلاً) من الحجر كان جسماً مبنياً للابدية . وحياناً وجد منهيرات مزينة بصور بشرية ، وبعبارة اخرى ، انها المقر لاجساد أموات . وكذلك فإن الوجوه النموذجية المرسومة على جوانب الدولن كما هو الشأن على الاصنام الصغيرة المستخرجة من القبور الميغاليتية لاسبانيا ، كانت تمثل الاجداد على الارجح . وفي بعض الحالات يمكن فك رموز عقيدة موازية : ان روح الجد قادرة لان تترك القبر من وقت لآخر^(٦) . ان الحجارة المثقوبة التي تسد بعض القبور الميغاليتية والتي هي من جهة اخرى مدعوة (ثقوب الارواح) تسمح بالتواصل مع الاحياء .

ويجب ان يؤخذ في الحسبان ايضاً المعنى الجنسي للمنهيرات ، لأنها تأكدت

عالمياً ، وعلى مستويات ثقافية مختلفة . . . ان ارميا في مراثيه (٢ - ٢٧) يذكر اولئك «الذين يقولون للخشب : انت ابي ؛ والى الحجر : انت اولدتي»^(٧).

إن العقيدة بالفضائل المخصصة للمنهر كانت أيضاً مشتركة بين الفلاحين الاوروبيين في بداية هذا القرن . ففي فرنسا ، ولأجل الحصول على الاولاد ، كانت النساء الشابات يمارسن الانزلاق - «بأن يتركن انفسهن ينزلن على طول حجرة» ، والدلك ، «بأن يجلسن على حجارة المونوليث ، او ان يفركن البطن ببعض الصخور الكبيرة»^(٨).

ان هذه الوظيفة الجنسية لا يجوز ان تفسر بالرمز القضيبى للمنهر رغم ان مثل هذه الرمزية تأكدت في بعض الثقافات . ان الفكرة الاولى والاساسية كانت (تحويل) الاجداد لحجارة ، ان بواسطة منهر (بديلاً عن الجسد) وان بإدخال في ذات البنية للمنشأ ، عنصراً أساسياً للموت : الهيكل العظمي ، الرماد ، (الروح) . ففي الحالتين كان الموت (يحى الحجر) ، انه يسكن جسماً جديداً ، معدنياً ، واذن فهو لا يفسد . وبالنسبة فإن المنهر او القبر الميغاليثي كان يشكل مستودعاً لا يستنفذ من القوة والحياة . وبفضل القائها في بنيات الاحجار الجنائزية . فإن الموتى كانوا يصبحون السادة للخصوبة والوفرة . وفي لغة الاسطورة الاندونيسية ، نجحوا بتملك الحجر والموزة معاً .

٣٥ - مراكز احتفالية وانشاءات ميغاليثية :

إن بعض العقد الميغاليثية ، مثل الكرنك Carnac او مثل الأشدون Ashdown ، في برکشائر Berkshire (تضم ٨٠٠ ميغاليث متوازي الاضلاع من ٢٥٠ م و ٥٠٠ م للضلع) كانت بكل تأكيد تشكل مراكز احتفالية هامة . وكانت الاعياد تشتمل على اصاحي ، ويفترض ايضا رقصات وطوافات . وفي الواقع ، ان الوف الاشخاص كانوا يستطيعون المسيرة بطواف في الشارع الواسع للكرنك . ومن الراجح ان أكثر الاعياد كانت ذات علاقة مع ديانة الموتى .

وكأنصاب انكليزية اخرى مشابهة^(٩) فإن الكروملش Cromlech hgyhw و Stonehenge العائد لستوننج كان قائماً وسط حقل من الشواهد الجنائزية .

إن هذا المركز الاحتفالي الشهير كان يؤلف (على الاقل في شكله البدائي)^(١٠) مقبرة مشادة بهدف ضمان العلاقات بين الاجداد . ومن وجهة نظر البنيان يمكن تقريب (ستوننج) من العقد الميغاليثية المنشأة او المطورة ، في ثقافات اخرى ، بدءاً من مكان مقدس : معابد او مدن . ولدينا واقعة ذات التقييم للساحة المقدسة ، بكونها (مركزاً للعالم) ، مكاناً متميزاً ، حيث يتم التواصل مع السماء ومع العالم تحت الأرض ، اي مع الآلهة والربات الجهنمية (التي تعيش تحت الأرض Chtoniennes) ومع ارواح الموتى .

في بعض مناطق من فرنسا ، وفي شبه جزيرة ايبيريا ، وامكنه اخرى اكتشفت الخطوط لعبادة الربة ، الآلهة الحامية للموتى . ومع ذلك ، فإنه لا يوجد في اي مكان اخر ، كما وجد في مالطا من بيان استعراضي لهندسة ميغاليثية معبرة عن عبادة الموتى وتمجيد الربة الكبيرة . فقد اظهرت الحفريات القليل من المساكن ، الا انه قد اكتشف حتى الآن سبعة عشر معبداً ، ويظن بان عددها أكبر من ذلك ، الامر الذي يؤكد رأي بعض العلماء من انه في العصر النيوليتي كانت مالطا المنعزل المقدس *isola sacra* . ان المصاطب الواسعة الاهليلجية التي تمتد امام او بين المقابر كانت تستخدم بالتأكيد من أجل الطوافات وتوقيع الرقص بالالحن الشعائرية . ان جوانب المعابد مزينة بحلزونيّات مدهشة . في الجانب الاسفل حفر العديد من المقابر في الحجارة ممثلة نساء نائمات . ولكن الاكتشاف الاكثر تعبيراً هو التمثال الضخم لامرأة - هو بكل تأكيد ربه جالسة -

إن الحفريات كشفت طقساً مجهزاً باضحيات حيوانية وتقدمات غذائية وازاقة خمر وشعائر حضانة وعرافة ، مشيرة لوجود هيئة كهنوتية هامة ومنظمة جداً . ان عبادة الموتى كانت تلعب على الأرجح الدور المركزي . وفي المقبرة الشهيرة هال سالفينين Hal Salfini المسماة الآن هيوجيه l'Hypogés والمحتوية على مجموعة غرف منحوتة في الصخور الكبرى ، استخرجت عظيمات لنحو من

٧٠٠٠ شخص . وفي الهيبوج هذ وجدت تماثيل لنساء نائمات ، توحى بشعيرة الحضانة . وكما هو الامر في آثار ميغاليثية اخرى ، فإن الغرف الداخلية لها جوانب او جدران داخلية منحوتة ومرسومة . وان هذه الاقسام الواسعة كانت استخدمت من أجل بعض الحفلات الدينية الموقوفة للكهنة وللمسارين inités ، لأنها كانت منفصلة بحواجز نموذجية^(١٢) .

وبما ان (الهيبوج) كانت في ذات الوقت المقبرة والكنيسة ، فقد امكن اكتشاف مقابر في المعابد . ان البنية المنحنية الاضلاع للمقابر المالطية تبدو متفردة ، وان علماء الآثار قد وصفوها كأن (لها شكل الملكات) ، الا انه حسب رأي (زونتز Zuntz) ، هذه البنية تذكر أكثر بشكل الرحم . وكما ان المعابد كانت مغطاة بسقف ، والغرف الخاصة محرومة من الشبائيك ومظلمة لدرجة كبيرة ، فإن الدخول في مقبرة كان يعادل الدخول في احشاء الارض - اي في رحم ربة الجحيم . غير ان القبور المنحوتة في الصخر كان لها ايضاً شكل الرحم . ويقال ان الميت قد اعيد وضعه في جوف الأرض من أجل حياة جديدة . «ان المعابد تمثل ذات النموذج على درجة أكبر . فالاحياء الذين يدخلون المعبد يدخلون في جسد الربة» . وفي الواقع - يستنتج (زونتز) - ان هذه الآثار تشكل المسرح (لعبادة الاسرار في المعنى الدقيق للكلمة)^(١٣) .

ويضاف الى ذلك انه على جدران الدولن والمنهر في ايبيريا واوروبا الغربية ، وجدت ايضاً اشارات ورموز سحرية - دينية اخرى ، على سبيل المثال ، صورة شمس مشعة ، واسارة الفأس (الخاصة بالهة العاصفة) والافعى رمز الحياة المترابطة بصورة الاجداد ، الغزال الخ . . . وتأكيداً ان هذه الصور اكتشفت في اقاليم مختلفة وتعود لثقافات عصور مختلفة ، الا ان لها شيء مشترك هو واقع كونها متضامنة بذات العقد الميغاليثية . ان هذا ما يمكن له ان يفسر اما بتنوع الافكار الدينية الموزعة بين مختلف الشعوب (الميغاليثية) واما بواقع ان عبادة الاجداد رغم اهميتها الملحوظة كانت مترابطة او متشاركة بعقد دينية اخرى .

هنالك ايضاً ايضاحان ، فقد فسر علماء الآثار الثقافات الميغاليثية بتأثيرات مستعمرين وصلوا من البحر المتوسط الشرقي ، حيث تأكدت في الواقع المقابر الجماعية انئذ منذ الألف الثالثة^(١٤). فبانشارهم صوب الغرب ستتحول انشاءات الدولن (غرف ، قبور) لهندسة ضخمة وخرافية . وحسب رأي (جلين دانييل Glym Daniel) فإن هذا التحول كان له مكانه في مالطا ، وفي شبه الجزيرة الايبيرية وجنوب فرنسا . والكاتب نفسه يقارن انتشار الهندسة الميغاليثية بالاستعمار اليوناني والفينيقي في البحر المتوسط او بانتشار الاسلام في اسبانيا . «فلقد كان ديناً قوياً ، من الهام ايجي ، ذلك الذي الزمهم لبناء قبورهم - معابدهم Tombs Temple - مع مثل هذا العناء ولحفظ صورة ربهم الوقائية والجنائزية. ان صورة الربة والفأس والقرون والرموز الاخرى تسير بنا من الحوض الباريزي ، من جافرميز Gavermis ومن انجهلوروجو في كريت ومن بحر ايجي حتى طروادة . وبعيد عن الشك ، ان اعتقاداً صلباً يمتد بأصوله للبحر المتوسط الشرقي . قد قوبل وألهم بناء المقابر الميغاليثية آنئذ والذين انتشروا عبر اوروبا الغربية»^(١٥) . غير ان الدين لم يكن السبب الاول في هجراتهم ، ان الدين لم يكن سوى «العزاء لنفيهم في اقصى الغرب وشمال اوروبا» . لقد فتش المهاجرون عن بلاد جديدة لكي يعيشوا أو عن معادن من أجل تجارتهم^(١٦) .

وفي آخر كتاب لغوردن تشايلد تكلم عن (دين ميغاليثي) انتشر بواسطة المستكشفين والمستعمرين من البحر المتوسط . وما ان قبلت الفكرة بانشاء مقابر ميغاليثية حتى تبنتها مختلف المجتمعات ، بدون الأضرار بمنشآتهم المميزة ، على ما يبدو . ان كل قبر كان يعود على الارجح لنبيل اولرئيس الاسرة ، وكان التعب او العناء مقدماً من رفاقه . «ان قبراً ميغاليثياً يجب مقارنته بكنيسة اكثر مما هو بقصر وان شاغليه اقرب الى القديسين السلتيين مما هو الى البارونات النورمان»^(١٧) ان المبشرين بالدين الميغاليثي ، الدين الممتاز للربة الأم ، جذبوا لجماعاتهم عدداً

كبيراً من المزارعين ، وفي الواقع ، ان الدولن والكروملش هما قائمان في الاقاليم الاكثر تناسباً مع المزارع النيوليتيكي^(١٨) .

ان تفسيرات مماثلة للعقدة الميغاليثية قد طرحت من قبل عدد من دارسي ما قبل التاريخ المميزين^(١٩) مع ذلك فإن هذه التفسيرات اصبحت غير ذات قيمة باكتشاف التاريخ بمساعدة النشاط الاشعاعي للفحم^(٢٠) . فقد اصبحت من الممكن اظهار ان المقابر الميغاليثية (غرف - مقابر) لبريتانيا قد بنيت قبل ٤٠٠٠ ق.م. وانه في انكلترا والداغارك كانت قد بنيت قبور من الحجارة قبل ٣٠٠٠ ق.م^(٢١) . اما بالنسبة لعقدة stonhenge العملاقة، فيظن بانها معاصرة لثقافة ويسيكس Wessex ، المرتبطة بالحضارة الماسينية mycenéné . وعليه فإن التحليلات المبنية على الاساليب الراهنة تثبت ان (ستوننج) قد اكملت قبل ميسين Mycine ، وان اخر تصحيح لها يؤرخ ١٩٠٠ - ٢١٠٠ ق.م^(٢٢) ، وكذلك في مالطا ، فإن العصر الممثل بمعابد تاكسيان Taxien ومقبرة هال سافلين قد اتمتا وانتهتا قبل ٢٠٠٠ ق.م ، وبالنتيجة لا يمكن تفسير البعض من هذه الخطوط المميزة بتأثير العصر البرونزي المتوسط Minoean^(٢٣) ، فيجب الاستنتاج اذن بان العقدة الميغاليثية الاوروبية تسبق المعطى الايجي . واننا في معرض مجموعة من الابداعات الاصلية والمحلية . ومع ذلك فإن جوهر دراسة الاحداث التاريخية القديمة ، والبرهنة على اصول الشعوب الغربية لم يقدم التفسير للآثار الميغاليثية .

وقد جرى نقاش واسع حول الأفكار المتعلقة بـ Stonehenge ، الا انه ، رغم بعض المعطيات المعتمدة ، فإن الوظيفة الدينية والرمزية لهذا الأثر متعارضة . زيادة على ذلك ، ويعكس الفرضيات المغامرة (على سبيل المثال : فرضيات سيرجرافتون Sir Grafton واليوت سميث Elidct Smth التي تفترض ان كل الانشاءات الميغاليثية هي من نبع واحد ، مصر الفرعونية) ، فإن الباحثين لا يجرؤون مطلقاً على مماشاة هذه المسألة في مجملها . وعليه فإن هذا الخوف ، مؤسف ، لأن الميغاليثية/ تشكل موضوعاً نموذجياً للدراسة ، بل ربما كان نموذجاً وحيداً . وفي الواقع ، ان بحثنا مقارنا سيكون أهلاً لأن يوضح في أي معيار يجري التحليل لمجموعة ثقافات ميغاليثية استمرت مزدهرة

في القرن التاسع عشر ويمكن لها ان تعطي المعقولة للمفاهيم الدينية التي يشترك فيها الباحثون في آثار ما قبل التاريخ .

٣٧ - عراقه وما قبل التاريخ :

يعاد التذكير بأن أحجار الميغاليت من أصل ما قبل التاريخ في خارج حوض المتوسط وأوروبا الغربية والشمالية ، قد توزعت على نطاق غير محدود في المغرب ، فلسطين ، الحبشة ، ديكان آسام ، سيلان تيب و كوريا أما بالنسبة للثقافات الميغاليثية التي ما زالت حية مع مطلع القرن العشرين ، فإن الأكثر بروزاً منها قد تأكد في أندونيسيا وماليزيا .

ان (Robest Heine - Gebdoen) روبرت هيد جيلدين الذي كرس شطراً من حياته للدراسة هذه المسألة ، يقدر ان المجموعتين من الثقافات الميغاليثية - تلك التي تعود لما قبل التاريخ . والثقافات على المستوى العرقي للشعوب هامتضامتين تاريخياً ، اذ إنه حسب رأيه ، ان العقدة الميغاليثية كان عليها ان تنتشر بدءاً من مركز واحد ، من المرجح انه البحر المتوسط الشرقي .

سنعود فيما بعد لفرضية (هين - جيلدين) أما هنا فيحسن ان نذكر نتائجها حول المعتقدات الخاصة بالمجتمعات الميغاليثية الحية . ان الميغاليثات Les mégalithes هي ذات علاقة ببعض الأفكار المتعلقة بالوجود بعد الموت . ففي أكثريتها ، نشأت في أثناء الحفلات المعينة للدفاع عن الروح في مسيرتها إلى الآخرة ، ولكنها تضمن أيضاً بعد وجود Post-existence أبدي لأولئك الذين يقيمونها أثناء حياتهم لأولئك الذين من أجلهم ترفع الانصاب بعد الموت . وازافة لذلك فإن (الميغاليثات) تشكل الصلة الممتازة بين الأحياء والأموات ، إنها معنية بادامة الفضائل السحرية للأشخاص الذين اشادوها ، أو لمن شيدت من أجلهم ضامنة هكذا الخصب للأشخاص ، والقطعان والمحاصيل . وفي كل الثقافات الميغاليثية المزدهرة أيضاً ، فإن عبادة الاجداد تلعب دوراً هاماً (٢٥) .

إن الآثار كانت تستخدم مقرأً لأرواح الموتى عندما تعود لزيارة القرية ، ولكنها كانت مستعملة أيضاً من قبل الأحياء . إن المكان الذي توجد فيه الميغاليثات هو في آن واحد المكان الطقوسي الممتاز (المقصود: توقيع الرقص الاحتفالي والاضاحي الخ ..) والمركز للنشاط الاجتماعي . في عبادة الموتى من طراز الميغاليث تلعب سلسلة الأنساب دوراً هاماً ، وحسب رأي هين - جيلدن ، فإنه من الراجح تلاوة - انساب الأجداد شعائرياً ، أي بناء القرى وبعض العائلات .

ويقتضي الإشارة لهذه الواقعة : ان الانسان يأمل أن يذكر اسمه بتوسط الحجر . وبعبارة أخرى فإن الصلة مع الأجداد مضمونة بالذكرى لاسمائهم وأعمالهم ، ذكرى مجملة في الميغاليث .

وكما يقال ، فإن /هين - جيلدن/ يستند على استمرارية الحضارات الميغاليثية ، منذ الألف الخامسة حتى المجتمعات البدائية المعاصرة . مع ذلك فهو يرفض النظرية المما قبل مصرية التي قال بها غيره . وإضافة لذلك ، انه ينكر وجود /دين ميغاليث ، بسبب بسيط هو ان المعتقدات والمفاهيم (الميغاليثية) قد تأكدت علاقتها بعدد كبير من الأشكال الدينية بدائية - كانت أم عليا . لقد قارن هذا العالم النمساوي العقدة الميغاليثية ببعض الحركات (الأسطورية) على سبيل المثال التانترية Tantrisme ، التي يمكن ان تكون حيادية مطلقة ، هندية كانت أم بودية . وهو ينكر أيضاً وجود (دائرة ثقافية ميغاليثية) مشكله تبعاً لرأي بعض الباحثين ، بأساطير متخصصة ، ومؤسسات اجتماعية أو اقتصادية مميزة ، وفي الواقع ، إن افكاراً وتطبيقات ميغاليثية قد تأكدت لدى شعوب تتوزع خلافاً كبرى من الأشكال الاجتماعية والبنى الاقتصادية والمؤسسات الثقافية^(٢٦) .

ان تحليل العقدة الميغاليثية المنجز من قبل (جيلدين) ما زال يحفظ بقيمته . ولكن فرضياته حول وحدة الثقافات الميغاليثية العريقة في قدمها والحديثة ، هي اليوم محل خلاف ، أو ببساطة هي مهمة من قبل العدد الكبير من الباحثين . ان مسألة الاستمرارية للعقدة الميغاليثية هي موضع اعتبار ويجب ان تبقى مفتوحة . لأنه وكما اوضح ، حديثاً ، أحد الباحثين ، انه يتعلق بـ (أكبر لغز لما قبل التاريخ) . وعلى كل حال ومهما كانت الفرضية المعتمدة - استمرارية أو تباعد - لا يمكن الكلام عن ثقافة

ميغاليثية واحدة . وبرأينا يقتضي ملاحظة انه ، في الديانات الميغاليثية ، قد قدرت أو قومت ، قداسة الحجارة بصورة خاصة بعلاقتها مع الوجود التالي ، مع بذل الجهود لبناء طريقة خاصة للوجود بعد الموت ، /بالانطوفاني L,Ontophanie/ الخاصة بالحجارة . إن السحر أو الاغراء الممارس بالكتل الصخرية في الثقافات الميغاليثية ، أمر واضح ، الا انه يتعلق باغراء مثار برغبة تحويل القبور الجماعية لأثار خاصة وغير قابلة للتخريب . ويفضل الانشاءات الميغاليثية ، فإن الموتى يتمتعون بقوة استثنائية ؛ ومع ذلك ، وطالما ان الاتصال مع الاجداد مضمون شعائريا ، فإن هذه القوة لا يمكن لها أن تكون موزعة من قبل الاحياء . بالتأكيد ، يوجد أشكال أخرى لعبادة الأجداد . وهذا ما يميز الديانات الميغاليثية ، وذلك هو الفعل الذي تمسكت به الأفكار عن الخلود والاستمرارية بين الحياة والموت عبر التمجيد للاجداد المشبهين أو المشاركين مع الحجارة . ومع ذلك نضيف إن هذه الأفكار الدينية لم تتحقق بوضوح ولم يعبر عنها تماما سوى ببعض الابداعات المتميزة فقط .

٣٨- المدن الهندية الأولى :

ان البحوث الحديثة جداً حول ما قبل التاريخ للحضارة الهندية قد فتحت آفاقاً لم تكن متوقعة منذ عشرات السنين . لقد طرحت أيضاً مسائل لم تجد حتى الآن حلولاً مقنعة . ان التنقيب عن المدينتين - القلعتين هارابا Harappa وموهنجور - دارو Mohenjo-Daro اظهر حضارة مدينية Urbaine متقدمة ، هي تجارية وثيوقراطية في آن واحد . إن القصص التاريخية متعارضة ، ولكنه يبدو محققاً إن حضارة الأندوس كانت مكتملة التطور حوالي ٢٥٠٠ ق.م وان ما أذهل القائم بأولى الحفريات ، هو وحدة الشكل أو انتظام وركود هذه الحضارة . إن أي تغيير ، أو أي تجديد لم يلاحظ في عشرات الوف السنين من تاريخ الحضارة (الهاربينية) Harappin . وان المدينتين - القلعتين كانتا على الأرجح العاصمتين لامبراطورية . وان الانتظام والاستمرارية الثقافية لا يمكن ان تفسرا الا بافتراض نظام قائم على نوع من السلطة الدينية^(٢٧) .

واليوم يعرف ان هذه الثقافة قد امتدت إلى ما بعد وادي (الاندوس) وانها في كل مكان كانت تمثل نفس الرتبة أو الانتظام . وكانت التكنولوجيا (الهاربينية) قد لوحظت من قبل /غوردن تشايلد /Gardon Child / وكانت مساوية للتكنولوجيا المصرية والميزوبوتامية . ومع ذلك فإن اكثرية المنتجات تفتقد الخيال . «معتبراً ان شعوب الهارابا لم تركز على أشياء هذا العالم»^(٢٨) .

أما بالنسبة لمنبع أو أصل هذه الحضارة المدنية الأولى المتطورة في الهند ، فقد اتفق على البحث عنها في /بلوخستان/ . وحسب رأي العالم (فيرسير في Fairservis) ، فإن أجداد الهاربين قد كانوا تحدروا من المزارعين من ما قبل الأرين من ايران . ان بعض مظاهر ثقافة ما قبل الهاربين بدأت تعرف بشكل أحسن بفضل الحفريات المنجزة في بلوخستان الشمالية . ومن الملاحظ أن التجمعات الأولى الهامة قد بنيت بالقرب من منشآت لها وظيفة احتمالية . ففي العقلة الأثرية الهامة المحفورة في إقليم نهر بورالي

Porali والمعروفة تحت اسم (اديث شابر كومف) (Edith chabr comph) اكتشف تل بارتفاع من ٧ - ١٢ متراً وعدد من انشاءات محاطة بسور . وفي القمة كان البناء مصنوعاً بشكل زاقورة ، توصلها عدة درجات نحو المصطبة . ان المنشآت من الحجارة تبدو كأنها قد سكنت قليلاً وافراديا ، وهذا ما يدل على الوظيفة الاحتفالية للبناء بكامنة . والمظهر الثاني لذات العقدة ، يتميز ببروز دوائر كبرى من الحجارة لأكثر من مائة بناء باتساع من ٣ - ٨ أمتار وبممرات من صخور بيضاء . وهذه الأبنية تبدو أيضاً انها قد استخدمت لاهداف دينية فقط^(٢٩) .

ان /فيرسير في Firervis ، يقرب هذه المحلات المقدسة ، وبصورة عامة الأبنية المكتشفة في وادي /كيثا/ (المثلة للمظاهر الماقبل هاربية للسند بلوخستان) من موهنجو دارو ، وهاربا المدينتين اللتين قدر أنها قد بنيتا أصلاً بهدف احتفالات طقوسية . ان هذه الفرضية قد جوبهت ايضاً بمعارضة ، ومع انه لا يشك بالوظيفة الدينية للقلعة ، فإن المصطبة تتضمن انشاءات متميزة ، كذلك في المدينتين . وما يهم موضوعنا هنا ، ان التناقض ليس بذى فائدة كبرى ، وذلك لأن الأصل الطقوسي للتجمعات الما قبل هاربينية (اذن المدن) قد تأكد من جهة ،

ومن جهة أخرى قد اتفق العلماء اليوم على رؤيتهم لعقد احتفالية في اقدم المراكز .

ان /بول ويزلى Paul Wheatley قد برهن بوضوح عن القصد وعن الوظيفة الدينية للمدن الأولى في الصين وما بين النهرين ومصر واميركا الوسطى الخ^(٣٠) . فأقدم المدن قد بنيت حول معابد أو مزارات Sanctuaires أي بوضوح في فسحة مقدسة (لوسط العالم) الذي قدر انه يمكن من الاتصال بين السماء والأرض والمناطق التي هي تحت الأرض^(٣١) . وإذا أمكن اظهار ان المدينتين العاصمتين للأندوس تتميزان بوضوح عن نموذجها المسبق لما قبل (الهاربين) ومدن قديمة أخرى ، فإنه يجب اعتبار (هارابا) وموهنجودارو كالمثلين الأولين لدنيوية بنية مدنية وعنصر حديث بامتياز .

ومما تجدر الاشارة اليه الآن ، هو التنوع المورفولوجي للحضارة المقدسة وللمركز الطقوسي . ففي الثقافات الميغاليثية للبحر المتوسط واوروبا الغربية ، كان المركز الاحتفالي ، المتضامن مع عبادة الموتى مكرساً بالدولن والمنهر ، ونادراً بالمزارات ، وفيما يتعلق بالتجمعات فإنها لم تتجاوز علاقات القرى^(٣٢) . وكما رأينا فإن المدن الميغاليثية (الحقيقية) كانت مبنية من أجل الاموات : انها كانت مدافن ..

٣٩ - مفاهيم دينية ما قبل تاريخية وموازيتها في الهندوسية :

ان الديانة (الهارابية) اي العائدة للحضارة المدنية الاولى في الهند ، هامة ايضاً بسبب آخر ، وهو علاقتها مع الهندوسية بصورة خاصة . ورغم شك بعض الباحثين ، فإن الحياة الدينية للموهنجو- دارو والهارابا مقبولة لدينا ، اقله في خطوطها الكبرى ، وهكذا ، على سبيل المثال ، فإن العدد الكبير من التماثيل الصغيرة والرسوم المسجلة على الاختام تدل على عبادة ربه ام . اضافة لذلك وكما سلف للسير جون مارشال Jhon Marshall ان اعترف به ، فإن صورة ذكورية itsy phallique جالسة في وضع

يوجي ومحاطة بوحوش كاسرة ، تمثل الها كبيراً ، على الأرجح انه مثال محتذى prototype لشيفا . وقد لفت الانتباه (فير سيرفيس) على العدد الكبير من مشاهد العبادة او الاضحيات المرسومة على الاختام . واكثرها شهرة يظهر صورة جالسة (او راقصة ؟) على مصطبة بين مساعدين راكعين وكل منها مصحوب بأفعى كوبرا . وان اختتاماً أخرى تبرز شخصية غير قابلة للحركة ، مثل جلقامش ، وغرين ، أو إله له قرون ، مع افخاذ وذنب ثور ، مذكراً بانكيدو الميزوبوتامي ؛ واخيراً ، مختلف الارواح لأشجار ، تقدم اليها الاضاحي ، وطوافات الافراد الحاملين للاعلام الخ . . (٣٤) وفي المشاهد المرسومة على بعض المباخر المكتشفة في هارابا اعتقد فانس Vats بإمكانية مضاهاتها بارواح الموتى وهي تنهياً لعبور نهر (٣٥) .

ومنذ سيرجون مارشال ابرز العلماء الخصائص الهندوسية ، لديانة الهارين . وازضافة للامثلة التي سبقت الاشارة اليها - الربة الكبرى ، وسابق - لشيفا - Un Proto-Sliva في وضع يوجي ، والقيمة الشعائرية للأشجار ، والافاعي ، واللينغام - du lingam - اضافة لهذه الامثلة يمكن ان نذكر «الحوض الكبير» le grand Bath لموهنجو - دارو الذي يذكر بالاحواض لمعابد الهندوس في ايامنا وشجرة بيبال Pipal ، واستعمال العمامة (الغير معروفة في النصوص الفيدية ، والمؤكدة فقط بعد عصر البراهمانا) . وتزيينات الانوف ، ومشط العلاج الخ . . (٣٦) . ان السيورة التاريخية التي حققت النقلة لجزء من التراث الهارابي واستغراقه في الهندوسية لم تعرف بما فيه الكفاية . ولقد ناقش الباحثون ايضاً اسباب الانحطاط والخراب النهائي للمدينتين العاصمتين . وقد تزرعوا بالفيضانات المدمرة لنهر الهندوس وبتأثير جفاف التربة والتحركات الزلزالية (٣٧) ، واخيراً غزو الفاتحين الآريين . وبوجه الاحتمال فإن اسباب السقوط كانت متعددة . وفي كافة الاحوال حوالي ١٧٥٠ ق.م كانت حضارة الهندوس محتضرة . وان الهندو - آريين اعطوها طلبة الرحمة فقط . (٤٤ع) . الا انه يجب التأكيد من جهة أخرى ، بأن اجتياح القبائل الآرية كان له مكانه الفعال خلال عدة قرون ومن جهة أخرى استمرت في الجنوب ، في الاقليم الذي عرف في زمن آخر باسم سوراتسترا Saurashtra استمرت ثقافة مشتقة من عقدة نووية هارابية في تطورها ، بعد الضغط الآري (٣٨) .

منذ عشرين عاماً ، كتبنا حول خراب الثقافة الاندوسية : «ان انهيار حضارة مدينية لا يعادل الاستئصال البسيط والصرف للثقافة» ، وانما ببساطة الى تراجعها الى اشكال زراعية بدائية larvaire شعبية . (وهذه ظاهرة تحققت بشكل واسع في اوروبا خلال وبعد الغزوات البربرية الكبرى) . ولكنه ، سرعان ما طُغمت اريئة aryansisation البنجاب لحركة من التركيب الذي يجب ان يصبح يوماً الهندوسية . ان العدد البارز من العناصر الهارية المؤكدة في الهندوسية لا يمكن تفسيرها الا باحتكاك بدأ باكراً بين الفاتحين الهندو- اوروبيين ، وبين ممثلي ثقافة الاندوس . وان هؤلاء الممثلين لم يكونوا بالضرورة منشئي ثقافة الاندوس او اخلافهم المباشرين : انهم قد يكونوا التابعين ، بالاشعاع لبعض الاشكال الثقافية الهارية ، التي احتفظوا بها في الاقاليم المنحرفة عن المركز ، والناتجة من الموجات الآرية الاولى وان هذا ما يفسر الواقع التالي بمظهر ، الغريب : فعبداء الربة الكبرى ، وشيفا وعضو التذكير والاشجار والزهد واليوغا الخ . . . كل ذلك يظهر لأول مرة في الهند كتعبير ديني لحضارة مدينية رفيعة ، هي حضارة الاندوس- في حين ان اكثرية هذه العناصر الدينية هي ، في هند القرون الوسطى والحديثة ، مميزة للورع الشعبي . بالتأكيد لقد وجد منذ العصر الهارياتي تركيب بين روحانية سكان البلد الاصليين وبين روحانية الاسياد منشئة الحضارة المدينية ، الا انه يجب الافتراض ان ليس هذا التركيب فحسب هو الذي حفظ ، وانما ايضاً المعطى الخاص والحصري تقريباً للمعلمين : ولا يمكن ان تفسر بغير هذا تلك الاهمية المتصورة التي اخذها البراهمان بعد العصر الفيدي . ومن الراجح جداً ، ان كل هذه المفاهيم الدينية الهارية - التي تتعارض بقوة مع الهندية الاوروبية - انها قد حفظت ، مع الانكفاء المحتوم ، بصورة خاصة في الطبقات الشعبية ، التي على هامش المجتمع والحضارة ، المعلمين الجدد ذوي اللغة الآرية : من هنا قد عملت بموجات متتابعة خلال التأليفات الخارجية التي توصلت لتكوين الهندوسية» (٣٩) .

ومنذ عام ١٩٥٢ تجمع عدد من الادلة على الاستمرارية . وأكثر من هذا فإن نجاحات مماثلة ، قد تأكدت من جهة اخرى ، وعلى الاخص في كريت وفي ايجة واليونان القارية . وفي الواقع إن الثقافة والدين الهيلينيين هما الحصيصة للتكافل Symbiose بين النحيزة substrat المتوسطية (البحر المتوسط) والفاتحين الهندو اوروبيين

النازلين من الشمال . وكما في الهند ، فإن الافكار والمعتقدات الدينية للسكان الاصليين يمكن قبولها على الأخص عبر الشهادات الاثرية ، بينما أن أقدم النصوص ، وبالمكان الأول ، هومير وهزود ، تعكس في جزء منها تقاليد الفاتحين الآريين . ويحسن أن نشير بدقة مع ذلك إلى أن هومير وهزود كانا يحتلان آنئذ المظاهر الأولى للتركيب الهيليني .

٤٠ - كريت - مغارات مقدسة - متاحات ربات .

تأكدت الثقافة النيوليتيكية في كريت منذ الألف الخامسة ، وأخذت حوالها منتصف الألف الثالثة ، وقد كانت الجزيرة استعمرت من قبل المهاجرين القادمين من الجنوب والشرق . وإن القادمين الجدد علموا التقنيات المعدنية للنحاس والبرونز . لقد اسمى السير ارثر ترايفان Sir Artheur Evan ثقافتهم الثقافة المينونية Minoenne تبعاً للملك الخرافي مينس Minos وقد قسمها إلى مراحل ثلاثة^(٤١) . مينونية قديمة (حوالي نهاية الألف الثالثة) ومينونية متوسطة منذ تشييد قصور كنصوص Cnosoos وماليا Mallia (٢٠٠٠ حتى ١٥٨٠ ق م) والمينونية الحديثة (١٥٨٠ ق م - ١١٥٠) . وخلال المينونية الوسطى استعمل /الكريتيون/ كتابة هيروغليفية ، اتبعت حوالي ١٧٠٠ ق م بكتابة خطية (الحرف : أ) ؛ والاثنتين لم تفك رموزهما حتى الآن . وانه اثناء هذه الفترة (ما بين ٢٠٠٠ - ١٩٠٠ ق م) تسرب الاغريق الأول المانيين les minyens ، تسربوا في اليونان القارية . انهم يمثلون الطليعة لجماعات هندو- اوروية ، جاؤوا بموجات متتالية ليستقروا في هيلاد Hellade ، وفي الجزر وعلى شاطئ آسيا الصغرى . ان الصورة الأولى للمينونيين الاخيرين (١٥٨٠ - ١٤٥٠ ق م) تشكل الأوج للحضارة المينونية Minoenne . ان هذا هو العصر الذي بنى فيه الغزاة المتكلمون بالآرية ميسين Mycène في البيلوبونيز Pe'loponése وأقاموا علاقات مع كريت . وبعد فترة قصيرة من الزمن (١٤٥٠ - ١٤٠٠ ق م) فان الميسينيين Les Mycéniens (أو اشيين Acheéens) قد استقروا في كنوسوس Conossos وادخلوا الكتابة المسماة حرف : ب . وان الصورة الأخيرة للمينونيين المتأخرين المسماة عصر الميسينيين

des Doriens Perioe mycanény (١٤٠٠ - ١١٥٠ ق . م) اكتملت بغزوة الدوريان
حوالي (١٥٠ ق . م) ومع التدمير النهائي للحضارة الكريتية .

الى أن تم حل رموز الخط : ب من قبل فانتريس Ventris في ١٩٥٢ ، فإن
الوثائق الوحيدة عن الثقافة والدين المينويين كانت تأتي من الحفريات الأثرية . وما
زالت أيضاً هي الأكثر أهمية . ان الشهادات الأولى للصكوك ذات الأغراض
الدينية قد اكتشفت في المغاور . وفي كريت ، كما هو الشأن في كل مكان في
البحر المتوسط ، فإن المغاور قد استخدمت لزمن طويل ، كمساكن ، ولكنها
أيضاً ، وبصورة خاصة منذ عصر النيولوثيك ، استخدمت كمقابر (عادة امتدت
حتى العصور الحديثة) . مع ذلك فإن عدداً كبيراً من المغاور كانت كرسى
لمختلف الآلهة المحلية . ان عدداً من الشعائر ، والأساطير والحرافات ، المرتبطة
بهذه الكهوف ذات الاحترام ، قد أدخلت بعدئذ في التقاليد الدينية للاغريق ،
وهكذا فإن واحدة من أشهرها ، بل أكثرها شهرة مغارة امينزوس Amenisos
بالقرب من كنوسوس كانت موقوفة لإيليزيا Eilaithya ربة الولادات لما قبل
الهيلينية .

وثمة مغارة أخرى ، على جبل ديكتية Dicta^(٤٢) كانت مشهورة بأنها حمت الطفل
زيوس : فهناك أتى الى الدنيا سيد الأولب المقبل ، وصرخات الوليد الجديد غطيت
بالجلبة الناتجة عن تصادم دروع الكورتييس Courétes . ان الرقص المسلح للكوريت كان
يشكل على الأرجح حفلة تلقين يحتفل بها من قبل الشباب . وذلك لأن بعض المغاور
كانت تستخدم لجمعيات الأخوة confréries من أجل طقوسهم السرية أو على سبيل
المثال ، مغارة الايدا de Lyda حيث كان يتجمع الداكتل Des Dactyles كشخص
ميثولوجي لجمعية معلمي التعدين ،

وكما هو معلوم ، فإن المغاور قد لعبت دوراً دينياً منذ الباليوليثيك . وان المتاهة
Labyrinth استعادت وضخمت هذا الدور : إن الولوج في مغارة أو متاهة ، كان يماثل
سقوطاً في جهنم ، ويعبرة أخرى يماثل موتاً طقوسياً من نموذج مساري (متعلق
بالمسارة) . ان ميثولوجيا المتاهة الشهيرة لمينوس Minos غامضة ومجزأة ، ولكن المشاهد

الأكثر مأساوية تتعلق بمسارة . ان المعنى الأصلي لهذا السيناريو الأسطوري الشعائري كان على الأرجح قد أهمل قبل الأدلة الكتابية الأولى . فقصة تيزيه Thésée ، وبصورة خاصة ، دخوله المتاهة ، ومعركته المظفرة ضد المينوثور Minotaure استطالعا فيا بعد (ر . فقرة ٩٤) . ولكنه من المناسب التذكير منذ الآن بالوظيفة الطقوسية للمتاهة بصفتها تجربة أو ممارسة مسارية .

إن حفريات / كنوسوس / لم تكشف أي أثر للعمل الاسطوري لديدال Dédale . مع ذلك ، فإن المتاهة ، تظهر على النقود الكريتية للعصر الكلاسيكي ، وان المتاهات مشار إليها كذات علاقة بمدن أخرى . وبالنسبة لعلم الاشتقاق اللغوي فقد فسرت الكلمة وكأنها تدل على (منزل الفأس المزدوجة) ، وتعبير آخر ، تشير الى القصر الملكي لكنوسوس . غير أن الكلمة القديمة اشيني achen بالنسبة للفأس كانت ييليكس Pelekys (ر . الكلمة الميزوبوتامية) Pilakka . من الراجح جدا أن العبارة تشتق من الاسيانية لابرا / لورا / = لابرا (حجر - مغارة) . فالمتاهة كانت تدل اذن على مقلع حجارة تحت الأرض ، مصنوع بيد الانسان . وفي الواقع ، وحتى يومنا هذا ، تدعى أيضاً «متاهة» ، مغارة اميرلوزا Ampelousa بالقرب من / غورتين / Gortyne^(٤٣) . وانا اذ ثبت هنا الدور القديم الشعائري للمغاور ، سنعود للتأكيد على هذا الدور ، لأنه سيوضح بشكل مذهش استمرارية بعض الأفكار الدينية والحفلات المسارية منذ ما قبل التاريخ وحتى العصور الحديثة (ق . ٤٢ع) إن التماثيل النسوية الصغيرة تتكاثر خلال عصر النيوليتيك : انها تتميز بتنورتها على شكل جرس تاركة الأثداء عارية ، والذراعان مرتفعان في اشارة من التعبد ، وهذه التماثيل النسوية وان كانت تمثل نلورا ex-vote أو أصناماً (idoles) فانها تدل على رفعة دينية للمرأة ، وبصورة خاصة ، على أولوية الربة . ان الوثائق المتتالية تؤكد وتثبت هذه الأولوية . واذا بحث ذلك على ضوء مشاهد الطوافات واعيد القصور ومشاهد الاضاحي ، فان الشخصية النسوية كانت تلعب دوراً بارزاً^(٤٤) . ان الربات قد ظهرت محجبات أو عاريت جزئياً ضاغطات أثداءها أو رافعات الأذرع بعلامات التعبد .^(٤٥) وان صوراً أخرى تمثلها (كربة للوحوش الكاسرة) Potnia theron ان خاتماً من كنوسوس يبرز سيلة الجبال محنية صولجانها نحو معبود ذكر وهو يغطي عينيه.^(٤٦) وعلى الحجارة المحفورة تشاهد الربة مسبوقة بأسد . أو ممسكة كلبة أو كبشاً .

أو واقفة بين حيوانين . الخ . . وكما سنرى فإن /سيدة الوحوش الكاسرة/ ما زالت تعيش في الميثولوجيا والديانة الاغريقية (ر . ف . ٩٢ع) .

لقد كان يحتفل بالطقوس على رؤوس الجبال كما في كنائس القصور أو في سور المساكن الخاصة . وفي كل مكان توجد الرباط داخل النشاط الديني . وفي بداية المينوين الأوسط (٢١٠٠ - ١٩٠٠ ق م) تأكدت المعابد الأولى على الأمكنة العالية ، وفي البدء كانت مجرد أسوار متواضعة ومن ثم بعد ذلك أبنية صغيرة . في معابد بتسوبا Petsofa ، وكذلك على جبل جوكتاس Jonktas في طبقة سميكة من الرماد ، اكتشف عدد من التماثيل من العطين المشوي ، بشرية وحيوانية . وان الباحث /نيلسون/ يظن أنهم كانوا يعبدون آلهة الطبيعة ، بالقاء التماثيل الصغيرة المنذرة في النيران الملتهبة بشكل دوري^(٤٧) . وأكثر تعقيداً ، وبما يشكل لغزاً أيضاً ، تلك العبادة المسماة زراعية أو المتعلقة بالنبات . فمن أصل زراعي ، أدخلت هذه الطقوس ، بطريقة رمزية على الأقل ، في مهمة متعلقة بالبلاط . الا أنها كانت موضع احتفال - بصورة خاصة في الحلقات المقدسة . ويتفحص الرسوم وبيروقات الانية على المحفورات الحجرية ، يبدو أن هذه الطقوس كانت تتضمن بصورة خاصة رقصات ، وطوافات وموضوعات مقدسة وتطهيرات . .

لقد كانت الأشجار تلعب دوراً مركزياً . والوثائق الايقونية تظهر مختلف الاشخاص على أهبة لمس الأوراق ، أو لعبادة ربة النبات أو تنفيذ رقصات شعائرية . وان بعض المشاهد تشير الى الخاصية الخارقة ، بل الوجدية للشعيرة : امرأة عارية تمسك بشغف جذع شجرة ، ومحتفل بالقداس ، يتأمل مشيحاً برأسه بينما أن رفيقته تظهر وهي تنلب على قبر . وفي الحقيقة قد لوحظ^(٤٨) في مشاهد مماثلة ، ليس المناسبة السنوية للنبات فحسب ، وانما أيضاً التجربة الدينية المثارة بالاكشاف التضامني الاسطوري بين الانسان والنبات (ف ١٢ و ١٤ع) .

حسب رأي بيكار picard «لا يوجد لدينا دليل حتى الآن ، عن وجود اله ذكر بالغ» ان الربة هي محروسة أحيانا من قبل قندلفت (حارس) مسلح ، ولكن دوره غامض ، مع ذلك ، فان بعض آلهة النبات كانت بالتأكيد معروفة لأن الاساطير الاغريقية تصر على عادة تعدد الأزواج التي كان لها مكانها في كريت : تعدد الأزواج مميز للديانات الزراعية .

وقد جرب بيرسون persoun إعادة تكوين المشهد الطقوسي للموت وإعادة البعث الدوري للنبات ، وذلك على أساس تمثيلات ايغنوغرافية . وأعتقد هذا العالم السويدي بأنه يستطيع إقامة المشاهد المختلفة للعقيدة في الفصول الزراعية الدورية : الربيع عيد تجلي ربة الطبيعة وإقامة شعائرها من قبل المحتفلين . والصيف : تجلي اله النبات الخ . . والشتاء منادب طقوسية ومشاهد تظهر سفر الآلهة الخ ، (٥١) . ان بعض التفسيرات مذهشة الى حد كبير ، ولكن إعادة تركيب المشهد المتكامل جوبت بمعارضة الكثيرين من الباحثين .

وان ما يبدو مؤكداً ، هو أن أكثرية الوثائق الايقونية كان لها دلالتها الدينية ، وان العقيدة كانت مركزة على أسرار الحياة والموت والبعث ، متضمنة بالنتيجة شعائر مسارية ومراثي جنائزية واحتمالات جنسية ووجدية . وكما أشار اليه فرانسيس فيان Francis vian بحق : «سيكون من الخطأ الاستنتاج ، تبعاً لضيق الأمكنة ثم أن الدين كان يأخذ مكانه القليل في المساكن المترفة ، ففي الواقع ان القصر في مجموعه مقدس ، لأنه هو المقر للربة السيلة والملك الكاهن الذي يستخلم كشفيع بينها وبين البشر . ان سطوح الرقص المحاطة بدكات (مقاعد) والباحات الداخلية حيث تنصب المذابح ، والمخازن ذاتها ، هي مستغرات دينية . ان العرض كان يشكل موضوعاً للاحترام ، وكما تثبت العقنقاوات الرمزية griffons symboliquif في كنوسوس وبيلوس . وحتى انه يمكن أن تكون موقوفة للتجلي الشعائري لربة القصر بأكثر مما هو للملك» (٢٢) .

وتجدر الإشارة الى وظيفة القصر كمركز احتفالي . ان /المباريات/ المقدسة ، للثور بدون إمامته ، كان يحتفل بها في الأفنية ذات المقاعد المسماة /مسارح القصور/ . وان الرسوم في /كنوسوس/ تظهر لنا لاعبين من الجنسين يتطايرون فوق الثور ، ورغم شكوك /نيلسون/ فان المعنى الديني للبهلوانية غير قابل للشك . فاجتياز الثور في المسيرة يشكل (تجربة مسارية ممتازة)^(٥٣) . ومن المرجح جداً ، ان خرافة رفاق /تيزيه/ سبع شباب وسبعة شابات هي تقدمات الى المينوتور يعكس الذكرى لمثل هذه التجربة المسارية . ويكل أسف فأننا نجهل ميتولوجيا الثور الالهي ودوره في العقيدة ومن المرجح أن الموضوع الشعائري الكريتي بصورة خاصة المسمى (قرون التكريس) (النذر) يمثل النموذج الجبهي للثور . ان كلية وجوده تؤكد الأهمية لوظيفته الدينية : القرون كانت تستخدم لتكريس الأشياء الموضوعة في الداخل .

إن المعنى الديني والرمزي لبعض الموضوعات الطقوسية قد انتقلت وقد عارضها بعضهم . . فالقأس المزودة أو القأس المجنحة (الرومانية) كانت مستعملة بلا ريب في الاضاحي وهي تصادف على مصطبة متسعة خارج (القمة) . ففي آسيا الوسطى ، اضافة الى كونها رمز الصاعقة . فانها صولجان إله العاصفة . ولكنه حتى في عصر الباليوليتيك وجدت أيضا في العراق في /تل الارياشين/ بالقرب من ربة عارية . وفي كريت أيضا رؤيت القأس المجنحة في أيدي نساء كاهنات أو رؤيت - أو موضوعة على رؤوسهن . ومع الأخذ بعين الاعتبار لحددها المزودج فان /إيفان/ فسرها كصولجان مرمز لاتحاد مبادئ متكاملة . ذكر وانثى .

ان الاسطوانات والأعمدة كانت تتقاسم على الأرجح الرمزية الكونية /للقطب الكوني/ التي سبق أن تأكد منذ ما قبل التاريخ (فقرة ١٢ ع) . وان الاسطوانات الصغيرة التي تعلوها عصافير هي قابلة لتفسيرات مختلفة ، طالما أن العصفور يمكن أن يمثل الروح كما يمثل الصعود للربة . وفي كل الأحوال فان الاسطوانات والأعمدة تحمل محل الربة (لأنه هكذا نراها أحياناً ، مثلها بدنياً ، متلاصقة بأسود أو عنقاوات مرتبطة شعائرياً)^(٥٤) .

إن عبادة الموتى كانت تلعب دوراً بارزاً ، فكانت الأجساد تدخل من الأعلى إلى غرف عميقة كمستودعات تحفظ فيها عظام الموتى . وكما سبق ممارسته في آسيا الوسطى والبحر المتوسط فإن الموتى كانوا يفادون بإراقة خمر تحت الأرض . وكان يمكن للأحياء النزول الى بعض الغرف المزودة بمقاعد من أجل العبادة . ومن الراجح أن المهمة الجنائزية كانت تجري تحت (رعاية الربة (ف) . (٣٥ع) . وفي الواقع أن قبر الملك الكاهن لکنوسوس المنحوت في الصخر يتضمن قبواً بأعمدة ، دهن سقفه باللون الأزرق المثلثة لقبة السماء ، وأقيم في القسم الأعلى معبد مائل المعابد البلاطية (الخاصة ببلاط) الربة الأم^(٥٥) .

إن الوثائق الأكثر قيمة ، والأكثر غموضاً في لغزها حول الديانة الكريتية ، مكونة من صفيحتين مزيتتين لناووس ، اكتشف في /هاجيا تريادا/ فهذه ، الوثيقة ، تعكس ، بالتأكيد ، الأفكار الدينية في عصرها (القرن الثالث عشر الثاني عشر ق .م) عندما كان الميسنيون lesmycénieus قد استقروا في كريت . مع ذلك ، وفي المقياس الذي تكون المشاهد المرسومة على الصفيحتين قابلة لتفسير متماسك ، فإنها تثير معتقدات وعادات مبنوية وشرقية . على إحدى الصفيحتين . فعلى إحدى الصفيحتين مثلت التضحية بثور ، تتقدم نحوه بطواف ثلاث كاهنات . ومن الجانب الآخر للتضحية المذبوحة قد رسمت أضحية دموية قبالة شجرة مقدسة . وعلى الصفيحة الثانية ، يشاهد عملية انجاز لاراقة الخمر الجنائزية : كاهنة تفرغ السائل الأحمر من باطية cratère في طنجرة كبيرة . والمشهد الأخير هو الأكثر غموضاً : الميت بثوبه الطويل ، يساعد بالتقدمة الجنائزية أمام قبره : وثلاثة مضحين ذكور يقدمون له زورقاً صغيراً وعجلين صغيرين^(٥٦) .

إن عدداً من العلماء ، وقد حكموا على الأمر بظاهره اعتبروا أن الميت قد اعتبر إلهاً وأنه قد عُبد . وهذه الفرضية قد تكون مقبولة . وفي هذه الحالة سيتعلق الأمر بأحد المتميزين ، كالمملك الكاهن لکنوسوس ، أو بعض أبطال الاغريق (هرقل - اخيل - مينلاس) . ومع ذلك يبدو مؤكداً أن المشاهد لا تستدعي تأليه الميت ، وإنما إتمام حفلة المسارة . حفلة من نموذج ديني (ذي أسرار) يمكن لها أن تتضمن له وجوداً تالياً سعيداً . وفي الواقع ، ان ديودور الصقلي (القرن الأول

ق . م) كان قد لاحظ تشابه الدين الكريتي مع الديانات (ذات الأسرار) . وعليه فان هذا النموذج من الدين سيصبح محصورا فيما بعد بالاغريق الذين يسمون /دوريين (doriciens) ولن يستمر في العيش الا في المجتمعات المغلقة ، التيازيس les thisses (كلمة ربما مما قبل الهيلينية)^(٥٧) .

إن التقليد الموصوف من قبل تيودور ذو فائدة كبرى : لأنه يدل على حدود عملية تمثل الأفكار الدينية الشرقية والبحر المتوسط ، من قبل الفاتحين الآريين .

٤٢ - استمرارية التركيبات الدينية الماقبل الهيلينية :

إن حل رموز الخط /ب/ قد برهن على أن الاغريق حوالي ١٤٠٠ ق . م كتبوا وتكلموا عن كنوسوس ، ويتبع هذا أن الغزاة الميسينيين قد لعبوا دورا حاسما لا في تخريب الحضارة المينونية فحسب ، وانما أيضا في فترتها الأخيرة ، وبعبارة أخرى ، فان الحضارة الكريية ، في مظهرها الأخير احتوت اليونان القارية . واذا أخذنا في الحسبان واقع أنه ، قبل غزو الميسينيين ، كانت التأثيرات المصرية وآسيا الوسطى قد توصلت الى تركيب اسوي - متوسطي ، يقاس به قدم وتعقيد المظهر الثقافي الاغريقي . إن الهيلينية تمد جذورها في مصر وآسيا ، ولكن تقدم الغزاة هي التي ستتبع الأعجوبة الاغريقية . فالألواح المكتشفة في كنوسوس ، وفي بيلوس وفي ميسن تسمى الآلهة الهوميرية بأسمائهم التقليدية : زوس - هيرا ، اتينا - بوزويدون ديونيزوس الا أن مما يؤسف له أن المعلومات الميثولوجية والعقائدية متواضعة جداً: انها تجعل من تسمية زوس ديكتاتوس ومن ديدالوس /عبيداً للاله/ ومن /عبد آثينا/ أسماء الكاهنات الخ . . . وما له دلالة شهرة /كريت/ في الميثولوجيا وديانة الاغريق الكلاسيكية . ففي كريت ولد زوس وفيها مات ، وديونيزوس ، وابولون ، وهرقل كلهم كانت طفولتهم فيها ، وفيها أيضا أحببت ديميتر Déméter ايازون Iasion ، وتلقى مينوس شرائعه ومع رادمانتيس ، أصبح قاضياً في الجحيم . ومن كريت دائماً ، وفي أوج العصر

الكلاسيكي أرسل المطهرون البررة^(٥٩) . فهذه الجزيرة كانت تتمتع بتقدير ومزايا أسطورية منذ البدء : بالنسبة لليونان الكلاسيكية ، كانت كريت المينونية تشاطرها معجزات /الأصول/ .

ومما لا مجال للشك فيه أن التقاليد الدينية لليونان قد تغيرت بالتعايش مع السكان المحليين في كريت كما حصل من جهة أخرى في /ايجه/ . ولقد لاحظ /نيلسون/ أنه من بين أربع مراكز دينية في اليونان الكلاسيكية - دلفي دوينوس ، وايلوزيس ، واوليمبي كانت الثلاثة الأولى منها موروثه من الميسينين de mycenienes . وإن استمرارية بعض التركيبات الدينية المينونية توضحت بشكل ملائم ، وقد أمكن إظهار امتداد المعبد المينوي - الميسيني في المعابد الاغريقية ، وتواصل الطقس الكريتي للموقد مع طقس القصور الميسينية . إن صورة بشييه - فراشة psyché- papillon كانت مألوفة للمينونيين . وإن أصول عبادة ديمتر تأكدت في كريت ، وإن أقدم معبد في ايلوزيس يرجع بتاريخه للعصور الميسينية «بعض المعالجات الهندسية أو غيرها ، لمعابد الاسرار الكلاسيكية ، تبدو مشتقة لحد قل أو كثر من التزيينات المتحققة في كريت^(٦٠) .

وكما في الهند ما قبل الآرية ، فإن طقوس وشعائر الربات ذات العلاقة بالاخصاب والموت وخلود الروح هي التي استمرت بصورة خاصة . وفي بعض الحالات تتأكد الاستمرارية مما قبل التاريخ حتى العصور الحديثة . ولكي لا نبرز سوى مثل واحد ، نشير الى أن مغارة سكويينو SK oteino (واحدة من أجمل وأكبر ما في كريت) بعمق ٦٠ م تحتوي على أربع طوابق ، وفي نهاية الطابق الثاني يوجد «صنمان للعبادة» منتصبين فوق وأمام مذبح من الحجارة : امرأة و(تمثال نصفي امرد بحاله ابتسام تهكمي) . وأمام هذين التمثالين بقايا من آنية يصل ارتفاعها لعدة أمتار . . . وغيرها ينتشر على أرض الطابق الثالث تحت الأرض . . . وحسب التسلسل التاريخي تتابعت بدون انقطاع من بداية الألف الثانية ق . م حتى نهاية العصر الروماني^(٦١) .

إن قداسة المغارة ما زالت قائمة حتى يومنا هذا . وبالقرب منها ترتفع كنيسة صغيرة بيضاء موقوفة للقديس باراسيف paraséve وفي مدخل المغارة يتجمع في ٢٦ تموز «كل أهالي وادي أبو سيليبي Aposelemi ، ومن اقليم /كيرسوهيوس/ : يجري الرقص على مصطبتين تحت القبة ، ويحصل الشرب والغناء بأغاني الحب بشكل شعائري أيضاً ثم يتلو ذلك الصلاة في الكنيسة المجاورة» (٦٢) .

وتؤكد الاستمرارية بمعرض تعبيرات خاصة للتدين الكريتي القديم . وقد أكد السير ارثر ايفان Arthur Evans على وجود التضامن بين عبادة الشجرة وتمجيد الحجارة المقدسة . ويوجد تضامن مماثل في طقس /اثينا بارتيнос/ في آثينا : عمود متحد بالشجرة المقدسة (الزيتونة) والبوم ، الطائر الشعائري للربة . وقد أوضح /ايفان/ إضافة على ذلك ، بأن استمرارية حياة طقس العمود حتى العصر الحديث ، وعلى سبيل المثال ، إن العمود المقدس /لتيكيوا/ بالقرب من /سكوبلج/ skoplje هو استجابة للاسطوانة الميمنية المحترمة من قبل المسيحيين والمسلمين . إن العقيدة بأن النياييع المقدسة مشاركات للربات ، توجد في اليونان الكلاسيكية ، حيث كانت النياييع تعبد بصفتها نيريدات Néréides ، وقد استمرت حتى أيامنا هذه : فالجنيات ما زالت تسمى نيريدات Nérades .

وسيكون من غير المفيد ضرب الكثير من الأمثلة . ونعيد الى الذاكرة أن زيادة مماثلة لاستمرارية البنى الدينية القديمة يميز كل الثقافات (الشعبية) في أوروبا الغربية والبحر المتوسط حتى سهول الغانج والصين (ف . ٤١٠ع) . ويكفي أن نشير هنا الى أن واقع هذه العقيدة الدينية - آلهة ربة الخصب والموت ، والشعائر والمعتقدات المتعلقة بتعميد وخلود الروح - لم تدخل في الدين الهوميري . وبالرغم من التكافل synbiose مع ما لا يحصى من التقاليد الما قبل الهيلينية ، فإن الفاتحين الاريين قد نجحوا بفرض معبدهم وبدعم (نموذجهم الديني) المتميز والخاص بهم (الفصل ١٠ - ١١) .

حواشي الفصل الخامس

- ١ - ان المنهر الكائن قرب Locmariaqwer يقيس أكثر من ٢٠ متراً ارتفاعاً ، في بريطانيا بعض المنهيرات متشاركة بمقابر .
- ٢ - صفوف الكرنك تحتوي ٢٩٥ منبر موضوعة على أرض بطول ٣٩٠٠ م .
- ٣ - انظر فقرة ٧٤ من هذا الكتاب .
- ٤ - الاعتقاد بالخلود - فريزر ص ١٩٣ .
- ٥ - Hand Kirilen - عن المنهر .
- ٦ - لقد فسرت بعض المنهيرات في بريطانيا، المقامة أمام غاليري من الدولن، بالعقيدة المصرية التي تبعاً لها ان أرواح الموتى ، المسوخة بالطيور ، كانت تترك القبور لتذهب وتستريح على تلة في ضوء الشمس «ويندو أن عقيدة مماثلة كانت منتشرة في كل حوض المتوسط وفي أوروبا الغربية» - ر . مارينجر - انسان ما قبل التاريخ وألته ص ٢٥٤ . وقد فسر Corl Jchnchlat في ذات المعنى الأعمدة المرسومة المقبرة Haya Trila (فقرة ٤١ ع) التي علقت عليها طيور ومع ذلك - ر . تعد كيرشبر في كتابه الثقافات الميغالينية في اسيا الجنوبية الشمالية ... المنهر المستخدمة سياجا لأرواح أو مقراً .
- ٧ - مع ذلك حتى ان أطروحة يهودية متحمسة مثل Dentorononono تستعمل أيضا المسخ الانطولوجي للحجارة عندما يعلن الحقيقة المغلقة للالهة من حيث هو المتبع الوحيد للخليقة : «هل نسيت الصخرة التي وضعتك في العالم ، ألا تذكر أن الله الذي أولدك» ٣٢ - ١٨ .
- ٨ - ر . بعض الأمثلة التي ذكرت في المرجع ..
- ٩ - على سبيل المثال Arlor low- Avrbury, Woodhenge (مارينجر) ص ٢٥١ .
- ١٠ - لأن ستونينج لم تبنى لمرة واحدة ، فالمعلوم الآن ان العمل في الأصل تعرض لعدد من الاصلاحات .

- ١١ - غونتر دونتر ص ٤ .
- ١٢ - J. D. Fmans مالطة ص ١٣٨ .
- ١٤ - المقابر الجماعية المينونية هي إما مغاور طبيعية واما حفر دائرية تسمى tholo .
- ١٥ - ١٦ - Damiel ص ١٣٦ .
- ١٧ - إن الباحث غوردون تشايلد في كتابه المجتمعات الأوربية لما قبل التاريخ يقرب القبور الميغائية من الكنائس الصغيرة المبنية من قبل القديسين الغولوا والاييرلنديين في ذات الأقاليم من الجذر البريطانية .
- ١٨ - ١٩ - ذات المرجع - وستيوارت Piggat اعتبر الاثار الميغائية مشتقة من البحر المتوسط الشمالي ، وقارنها بالكنائس المسيحية أو بالمقابر الجماعية المشاركة بطقوس الربة الأم والتي انتشرت في الغرب عن طريق المبشرين ومكتشفى وتجار المعادن .
- ٢٠ - انظر أطروحة واضحة نشرت من قبل collin renfrvc وفي الانكليزية tree- ringculibnation of radiocercon - ان الثورتين الفحم la dendrcrnoloyis غيرنا جذريا تسلسل الأحداث التاريخية لما قبل التاريخ الأوروبي .
- ٢١ - يذكر في مصر ، ان الاهرامات الأولى من الحجر قد رفعت حوالي ٢٧٠٠ ق م وصحيح أن هذه الاهرامات كانت لها سابقات من القرميد ، ولكن الواقع يبقى أنه قبل ٣٠٠٠ ق م لم تكن تعرف أي أثر مصري من الحجارة مقارن بالميغاليث في أوروبا الغربية (ر . Ronfrem ص ١٢٨) .
- ٢٢ - المرجع السابق .
- ٢٣ - المرجع السابق وان زونتر Zuntz يظن غالبا بتأثير مصري أو سومري .
- ٢٤ - في الواقع طالما أن البناء التقني لـ stonohenge يبدو مدخلا أيضا وخليفة مرتب للنجوم ، فانه من الراجح أن الأعياد الرئيسية كانت على علاقة مع تغيرات الفصول كما هو عند الهوبي وعند الشبروكس (المرجع السابق) .
- ٢٥ - R. fleine Celden بحوث عما قبل التاريخ في نيزرلاند ص ١٤٩ .
- ٢٦ - R. Fleine Celden عن الميغاليث في نيزرلاند ص ١٦٤ .
- ٢٧ - م . ريبار - اليوجا ص ٣٦٨ .
- ٢٨ - B et A. Allchin - ولادة الحضارة الهندية .
- ٢٩ - W. A Furinermin جذور الهند القديمة ص ١٩٥ وحول العلاقات لهذه المظاهر بالثقافة لما قبل الهاربينية والميغاليث في الهند الشمالية ص ٣٧٥ .
- ٣٠ - Thipinot of the four guards. Paul Whenthly .
- ٣١ - م - الياد - مركز العالم .

- ٣٢ - المدن الأولى المنشأة في هذه الأقاليم كانت هي أيضا (مدن مقدسة) أي مركز العالم انظر (وارنر مولر) .
- ٣٣ - سيرجون مارشال - موهنجودارد .
- ٣٤ - Faurevio - ص ٢٠٤ .
- ٣٥ - Allachin - ص ٣١٢ .
- ٣٦ - ٣٧ - انظر المناقشات لهذه الفرضيات - عند هويلر .
- ٤٠ - ٤١ - عن هذا العصر انظر R. W. Hunthionp - كريت ما قبل التاريخ .
- ٤٣ - انظر ، كريت والانسانية P. Fowr ص ٤٧ .
- ٤٤ - بيكارد Picard ص ٧١ .
- ٤٥ - ايفان - قصر مينوس ص ٢٧٧ . والربات يمثلن أحيانا بأعمدة اسطوانية (نيلسون) .
- ٤٦ - ولكن نيلسون يعتبر أن هذه الاستعارة متأخرة - وهاتشيسون يعتبرها مينسية .
- ٤٧ - نيلسون - أساطير ومعتقدات ص ٧٥ .
- ٥٠ - التماثيل الصغيرة المذكرة تمثل المتعبدين .
- ٥٢ - F. Krans تاريخ الاديان كذلك فان Evans كان يسمى ملك كنوسوس - ملك كاهن .
- ٥٣ - ريغان دافرن .
- ٥٤ - بيكار ص ٧٧ .
- ٥٥ - ايفان قصر مينوس ص ٩٦٢ ويذكر /بيكارد/ بالتقليد المنقول من قبل ديودور والذي تبعا له كان مينوس مكفنا في قبر - قبر يرتبط فيه معبد خاص لأفروديت الورثية للربة الابجية ص ١٧٣ .
- ٥٦ - ر . الايضاحات عند Pariboni ويقول بيكارد أن الرحلة البحرية خارج القبر قد تركت آثارها في المفهوم الاغريقي (الجزر السعيدة) وانظر هزيود الماء دايا .
- ٥٨ - نشير هنا الى أن التأثيرات كانت تمارس بالتساوي في اتجاهات دايا .
- ٥٨ - نشير هنا الى أن التأثيرات كانت تمارس بالتساوي في اتجاهات مضادة .
- ٦٠ - بيكارد ص ١٤٢ .
- ٦١ - بيكارد ص ١٤٢ .
- ٦٢ - P. Fonr عادات كريتية وانسانية ص ٤٠ .
- ٦٣ - العديد من المغاور موقوفة للقديسين في حانة كنيسة مقامة في المغاور .

الفصل السادس

ديانات الحثيين والكنعانيين

٤٣ - تكافل اناتولي ، وتوافقية حثية :

أشرنا للاستمرارية الدينية المدهشة في الأناضول منذ الألف السابعة حتى غرس المسيحية ، «لا يوجد ، في الواقع ، حل صحيح للاستمرارية بين التماثيل الصغيرة المشوهة لألوهة ذكورية منتصبية على ثور كتلك التي وجدت أمثلة عليها في ساتال هويوك Çatal Höyük ، على مستوى VI (حوالي ٦٠٠٠ ق م) ، وبين صور اله العاصفة من العصر الحثي وتماثيل جوبيتر دولشينوس Jupiter Dolichenus ، الذي كان يعبد جنود الكتائب الرومانية ، ولا بين الربة ذات الفهود لساتال هويوك ، والربة هبات Hapat الحثية وسييل la Cybéll من العصر الكلاسيكي»^(١) .

إن هذه الاستمرارية ، أقله في جزء منها ، هي النتيجة لإلهام مدهش بالنسبة للتوفيقية الدينية . فالعرق الهندو - اوروبي المعين في نتاج المؤرخين الحديث تحت اسم الحثيين ، ساد اناتوليا خلال الألف الثانية (المملكة القديمة ١٧٤٠ - ١٤٦٠ ق.م) والامبراطورية ١٤٦٠ ق.م حوالي ١٢٠٠ ق.م) . وباخضاع هؤلاء الحثيين - أقدم سكان اناضوليين عرفت لغتهم - دشن الغزاة الآريون عملية من التكافل الثقافي الذي امتد زمناً طويلاً بعد انهيار ابداعاتهم السياسية . فبعد زمن قصير من تغلغلهم في اناضوليا ، تحمل الحثيون التأثيرات البابلية . وبعد ذلك بزمان طويل ، وبخاصة أثناء الامبراطورية ، تمثلوا جوهر ثقافة الحوريين Hurrite ، وهم شعب من غير الهندو أوروبي كان مقيماً في الأقاليم الشمالية من ميزوبوتاميا (ما بين النهرين) وسورية ، وبالنتيجة ، وفي مجمع الآلهة للحثيين ، فإن الآلهة ذات الأرومة السومرية الأكادية تقاربت من الآلهة الأناضولية والحورية . إن غالبية الأساطير والشعائر الحثية المعروفة حتى وقتنا الحاضر ، لها موازياتها ، بل نماذجها ، في التقاليد الدينية الحثية والحورية . وإن التراث الهندو - أوروبي يبدو مع ذلك الأقل دلالة ، ورغم التباين في المصادر فإن الابداعات العبقريّة الحثية - بالدرجة الأولى في الفن الديني - لا تخلو من الأصولية .

فالآلهة كانت تتميز بقوتها المربعة والمنيرة التي كانت تصدر عنها [انظر : الاشراق الالهى] ميلامو melammu (ف . ٢٠ ع). ان مجمع الآلهة كان رحباً واسعاً ، ولكن بعض الآلهة مجهل عنها كل شيء ما عدا اسمها . كل مدينة هامة كانت تشكل المقر الرئيسي للوهة أسطورية ، محاطة ، بالتأكيد ، بشخصيات ربانية أخرى . وكلما هو الشأن في كل مكان في الشرق الأدنى القديم ، فإن الآلهة كانت تقيم في المعابد ، وإن الكهنة وأعوانهم كانوا مكلفين بغسلها ، وباكسائها ، وبتغذيتها والتسرية عنها بالرقص والموسيقى . من وقت لآخر كانت الآلهة تترك معابدها وتساfer ، وأحياناً ، كان غيابها يطلب لتفسير خيبة بعض الاسترحامات .

كان مجمع الآلهة مدركاً كأسرة كبيرة يرأسها الزوج الأول سيدا البلاد الحثية : رب العاصفة وربة كبيرة . ورب العاصفة كان معروفاً بصورة خاصة تحت

اسمه الحوري / تشوب Teshup وهو اسم سنفضل استعماله . وزوجته كانت تدعى في اللغة الحورية هبات Hapat . حيوانات الزوجين المقدسة - الثور ، ولأجل هبات الاسد (أو الفهد) - كانت تؤكد على الاستمرارية منذ ما قبل التاريخ (ف . ١٣ع) . والربة الأكثر شهرة كانت معروفة باسم الربة «الشمسية» لأرينا d'Arinna (في اللغة الحيثية وروسيا) Wurusema .

وفي الواقع انها كانت تجسيدا لذات الربة الأم^(٢) باعتبار انها كانت تمجد /كمملكة للبلاد/ ملكة الأرض والسماء ، حامية ملوك وملكات الحثيين الخ . . ومن الراجع أن تشميسها solarisation يمثل عملاً تمجيدياً يتم عندما تصبح ربة آرينا سيدة المملكة الحثية .

ان رمز الفكرة البابلية (عشتار) كانت مستعملة لتدل على عدد من الربات المحلية ، والتي تجهل أسماؤها الاناضولية . والاسم الحوري كان شانشكا Shanshka ولكنه يجب أن يؤخذ في الحسبان ، ان عشتار البابلية ، ربة الحب والحرب كانت معروفة في الاناضول ، وبالنتيجة ، وفي عدد من الحالات تكون في معرض توفيقية - أناضولية - بابلية . فالاله - الشمس ابن تيشوب ، كان معتبراً ، كشمس ذاته Shamsh ، ومدافعاً عن الحق والعدالة . وليس بأقل شعبية منه كان تليينو Telepino ، وهو أيضا ابن تيشوب ، الذي تجعله الأسطورة دونه بقليل .

وفما يتعلق بالحياة الدينية ، فان المصادر لا ترشدنا سوى على العقيدة الدينية حصراً . فالصلوات التي حفظتها النصوص تعود للأسر المالكة . وبعبارة أخرى اننا نجهل المعتقدات والشعائر الشعبية . مع ذلك ، لا مجال للشك في الدور المنتقل لربات الخصب واله العاصفة . ان الاعياد الفصلية ، وبصورة خاصة عيد السنة الجديدة ، كانت موضع احتفال من قبل الملك ، ممثل الفاتحين الآريين ، الا أن حفلات مماثلة كانت قد مورست في البلاد منذ عصر النيولوليتيك .

إن / السحر الاسود/ كان ممنوعاً بموجب قانون الشرائع Code de Lois وكان المجرمون يعاقبون بالاعدام . وانه لمن المؤكد أن بعض الممارسات الموهلة في القدم ، كانت بصورة غير مباشرة تتمتع بشهرة خارقة في الاوساط الشعبية ، وعلى العكس ، فان السحر الابيض كان مباحاً ويمارس كثيراً كما يدل على ذلك العديد من النصوص المكتشفة حديثاً ، وهذا السحر كان يتضمن على الأخص شعائر تطهير وابعاد المرض .

ان احترام الملك ودوره الديني كانا بارزين . فالملكية هبة من الآلهة . «إلي . . انا الملك . . أوكل إله العاصفة واله الشمس ، أوكلا إلي البلاد وبيتي . . لقد منحتني الآلهة - أنا الملك - كثيراً من السنوات . . هذه السنوات لا حد لها . .» (٣) . فالملك حبيب اله كبير . . (مع ذلك فان «التزول الالهى» الخيالي من النموذج الميزوبوتامي ، لم يتأكد) . رفاهية الملك تطابقت مع رفاهية الشعب بكامله ، فالملك هو ممثل الآلهة على الأرض ، ومن جهة أخرى فهو يمثل الشعب امام مجمع الآلهة .

لم يوجد حتى الآن نص يصف احتفال التكريس ، ولكنه عرف أن الملك كان يدهن بالزيت ، وهو مرتد لباساً خاصاً ومتوج ؛ ثم يتلقى اسماً ملكياً . لقد كان الملك أيضاً كاهناً كبيراً ، وكان وحده ، أو مع الملكة ، يفتتح الأعياد الأكثر أهمية في السنة . وقد كان الملوك بعد موتهم يؤلهون . وعند الكلام عن موت ملك كان يقال ، لقد أصبح إلهاً . وكان تمثاله يوضع في المعبد وكان الملوك الحاكمون يقدمون إليه تقدماتهم . وحسباً تذكر النصوص ، فإن الملك كان معتبراً ، خلال حياته ، كأنه التجسيد لأسلافه المؤلهين .

٤٤ - الرب الذي غاب :

إن أصولية الفكرة الدينية (الختية) يمكن اكتشافها بصورة خاصة ، في إعادة تفسير بعض الأساطير الهامة . وثمة نص ، من أكثرها أهمية ، يدور حول الرب

الذي غاب . ففي الترجمة المعروفة أكثر من غيرها أن بطل الرواية هو تيليپينو Telipinu . وثمة نصوص أخرى تعطي هذا الدور لوالد ، اله العاصفة ، واله الشمس أو لبعض الربات . ان السريرة - كالأسم تيليپينو- هي حثية . فالنصوص الحثية تألفت بعلاقة مع مختلف الشعائر ، وبعبارة أخرى ، إن تلاوة الاسطورة كانت تلعب دوراً أساسياً في ممارسة الطقس .

إن بداية الحكاية مفقودة ، وغير معلوم سبب قرار/تيليپينو/لأن يختفي . ربما لأن البشر قد أغاظوه . . ولكن نتائج اختفائه شعر بها مباشرة . فالنيران اطفئت في مواقدنا ، والآلهة والبشر شعروا بالإرهاق والضنى ؛ والشاة أجهضت حملها والبقرة عجلها ، «والشعير والقمح لم ينضجا بعد» والحيوانات والبشر كفت عن التزاوج ، والمراعي أصبحت هشيماً ، والينابيع استنزفت . (قد يكون هذا أول ترجمة أدبية للباعث الميتولوجي الشهير - «gaste pags» والذي غدا شهيراً بروايات الغرال du Graal عندئذ أرسل الآلهة - الشمس - أرسل رسله - بدثيا النسر ، ويلييه رب العاصفة نفسه - من أجل البحث عن (تيليپينو) ، ولكن بدون جدوى . وأخيراً ، أرسلت الربة الأم ، النحلة ، وهذه وجدت الآلهة نائماً في أجمة ، وقد أيقظته بلسعتها له . لقد أثار (تيليپينو) مثل هذه الكوارث في البلاد وهو غاضب ، وقد أسرع الآلهة التي تملكها الخوف لتهدئته بالسحر . وعن طريق حفلات وأشكال سحرية تظهر توليپينو من السعار ومن الشر^(٧) . وبعد أن عاد إلى روعه ، رجع أخيراً لعند الآلهة - وعادت الحياة لتجدد ايقاعاتها

إن تيليپينو اله ولكنه بإغتياظه قد أخفى نفسه ، بمعنى انه غاب عن العالم المجاور . إنه لا ينتمي إلى صنف آلهة النبات ، التي تموت وتبعث دورياً ! مع ذلك فإن غيابها كان له ذات النتائج المفجعة على كل المستويات الحياة الكونية . من جهة أخرى فإن الغياب والقيامة تعني على السواء * هبوطاً في الجحيم وعودة للأرض (ر . ديونيتروس فقرة ١٢٢ع) غير ان مما يميز (تيليپينو) عن آلهة النبات ، واقعة أن اكتشافه واعادة شفائه عن طريق النحلة يثقل الحالة : فشعائر التطهير هي التي تتوصل لتهدئته .

إن الخط المميز (لتيليينو) هو سعاره الشيطاني ، الذي هدد بخراب البلاد بأسرها . انه يتعلق بهيجان طائش وغير عقلاني لإله الخصب ضد خليفته الخاصة ، الحياة بكل أشكالها . وان مفاهيم مماثلة من التناقض الوجداني الالهي تصادف في أماكن أخرى ، وستكون جاهزة في الهندوسية بصورة خاصة (شيفا . وكالي) . وفي الواقع ان دور (تيليينو) قد تحول أيضاً لآلهة العاصفة والشمس وبعض الربات - إذن - وبشكل واسع ، إلى آلهة تحكم مختلف قطاعات الحياة الكونية - وهذا ما يؤكد ان هذه الاسطورة ترجع إلى مأساة أكثر تعقيداً من تلك التي للنبات ؛ انها توضح في الواقع ، السر الغير مفهوم لاتلاف الخليقة من قبل من خلقها .

٤٥ - الانتصار على التنين :

بمناسبة عيد السنة الجديدة (بوروللي purulli) كانت تتلى شعائريا اسطورة المعركة بين إله العاصفة والتنين (بوليانكا polianka) ^(٨) . ففي أول لقاء ، يُغلب إله العاصفة ، فينشد المساعدة من آلهة أخرى ، وتجهز الربة اينارا وليمة وتدعو التنين . ومسبقاً طلبت مؤازرة فان هوباشيا hupashial . وقد قبل هذا شريطة أن تنام معه وقبلت الربة . أكل التنين وشرب بشراهة حتى لم يستطع العودة إلى وكره ، فربطه هوباشيا بحبل . وعندها تحرك إله العاصفة ، وقتل التنين بدون معركة . إن هذه الصيغة للأسطورة تكتمل على حداث معروف جداً في حكايات الجنّيات : هوباشيا يأتي ليسكن منزل (اينارا) ولكنه لم يحترم توجيه الربة بأن لا ينظر من النافذة أثناء غيابها . فقد رأى زوجته وأولاده وتضرع إلى اينارا لتدعه يذهب إلى بيته وتتمة النص غير معروفة ويظن ان هوباشيا قد قتل وتقدم الصيغة الثانية هذا الايضاح : إن التنين غلب إله العاصفة وأخذ منه قلبه وعينه . وعندئذ تزوج الإله ابنة رجل فقير وأولدها ولداً ، وعندما كبر هذا الولد قرر الزواج من ابنة التنين . إن الابن الشاب ، وقد تعلّم من والده ، ما كاد

يدخل منزل الزوجة حتى طالب بقلب وعيني اله العاصفة فحصل عليها .
وبحيازة اله العاصفة لقواه نازل التنين مجدداً (بالقرب من البحر) فنجح في
التغلب عليه ، الا أنه ، بزواجه من ابنته ، كان الزوج قد التزم بأن يكون قانونياً
مع التنين ، فطلب من أبيه أن يعفو عنه . «عندئذ قتل إله العاصفة التنين وابنه
نفسه»^(٩) .

إن المعركة بين اله العاصفة وبين التنين تشكل مسألة اسطورة شعائرية
معلومة جداً . وان أول خيبة للاله واخصاءه تجد موازيات لها في المعركة بين
زوس والجبار تيفون (العاصفة) : فهذا ينجح بأن يقطع له أوتار يديه ورجليه
ويرفعه على كتفيه وينقله إلى مغارة في (سيليسيا) . ونجى تيفون الأوتار في فروة
دب ، ولكن هرمس Hermes وإيجيان Egipan يختلسانها . فيستعيد زوس قوته
ويجندل الجبار^(١٠) . ان الباعث لسرقة عضو معروف لحد كبير . ولكن التنين في
الصيغة الحثية ليس الوحش المرعب الذي يصادف في عدد من الأساطير النشكونية
أو المعارك من أجل السيادة على العالم . (تيامات - لوفيانان ، تيفون الخ) . لقد
سبق ان مثل بعض الخيوط المميزة للتنانين في القصص الفولكلورية : ايللوانكا
Illuyanka ينقصه الذكاء وهو شره لقوم^(١١) .

إن اله العاصفة المقهور في أول مرة (مسألة مؤكدة في أمكنة أخرى) ينتهي
إلى النصر ، ليس بفضل شجاعته وانما بمساعدة كائن بشري (أو ابنة من كائنة
فانية) . صحيح انه في النصين ، يشار إلى ان الشخص البشري متصل بقوة ذات
أصل الهى : انه العشيق للربة اينارا ، أو الابن لاله العاصفة . ففي الحالتين ،
ومع اختلاف الاسباب ، يحرم المساعد من قبل صانعه ذاته من شبه الوهيته .
فهو باشيا بعد ان نام مع اينارا لم يكن له حق بالعودة لاسرته ، بمعنى ، المجتمع
البشري . لأنه ، وقد شارك في الشرط الالهى ، يمكنه ان يحوله إلى غيره من
البشر .

ورغم هذه (الصيغة الشعبية) Folklorisation الجزئية فإن اسطورة ايللوانكا
لعبت دوراً مركزياً : فقد تليت شعائرياً في نطاق عيد السنة الجديدة . وان بعض

النصوص تصور معركة شعائرية بين مجموعتين متقابلتين^(١٢) مماثلة لاحتفال بابلي بأكيتو . ان المعنى (الكوني) للاسطورة واضح في صراع مردوك ضد تيامات ، وقد أبدل بالمنافسة من أجل سيادة العالم (زوس ، تيفون) . وان نصر الاله يؤكد ثبات ورفاهية البلاد . ويمكن الاستنتاج ان الاسطورة قبل صبغها بالشعبية كانت تمثل حكم التنين كفترة (عمائية) تضع منابع الحياة ذاتها بخطر (التنين يرمز ايضاً للافتراضية والظلام كما للجذب وتعليق المعايير وإلى الموت)

٤٦ - كوماربي والسيادة :

وبما له فائدة استثنائية ذلك الذي يسمى (نسب الآلهة) الحوري - الحثي . أي تعاقب الحوادث الاسطورية التي لها كبطل قصة (كوماربي) «أب الآلهة» . إن المشهد الأولي - «الملكية السماوية» - تفسر تتابع الآلهة الأول. ففي البدء كان آلالو Alalu ملكاً ، وان آنو Anu ، الأكثر أهمية من بين الآلهة سجد أمامه وقام بخدمته . ولكن آنو هاجمه بعد تسع سنوات وغلبه . عندئذ التجأ (الالو) إلى العالم السفلي ، وأصبح (كوماربي) الخادم للملك الجديد . وفي السنوات التسع الماضية ، هاجم كوماربي بدوره (آنو) وقد بادر هذا إلى الهرب ، بطيرانه نحو السماء ، الا أن كوماربي لحق به ، وأمسك برجليه وطرحه ارضاً بعد ان قضم أعضائه التناسلية . وبما انه قد ضحك وسر من اكتشافه ، فقد أعلمه آنو بأنه كان ملقحاً . فبصق كوماربي مابقي في فمه ، ولكن جزءاً من الرجولة تسرب في جسمه وأصبح حاملاً بثلاثة آلهة . . . بقية النص مبتورة بشكل كبير . . . ولكنه يظن بأن أولاد (آنو) مع تيشوب ، اله العاصفة ، اعلنوا الحرب على كوماربي واسقطوه عن عرشه .

والمشهد الثاني غناء أوللي كومي chant d'ullikumi التي تروي بتفصيل جهود كوماربي من أجل استعادة الملكية المختطفة من قبل تيشوب وبغاية خلق خصم

قادر على قهر تيشوب لفتح من منيه صخرة ، وكان من نتاج هذا القران (ايللوكومي) وهو انساني الشكل من الحجر . وموضوع على كتف العملاق اوبللوري Upelluri الذي ، يغوص نصف جسده في البحر ويسند السماء والأرض (وهذا هو المشابه الحوري لأطلس) ، وان اولليوكومي ينمو بسرعة حتى أدرك السماء . عندئذ توجه تيشوب صوب البحر وجابه الحجر العملاق الا أنه غلب إن النص يظهر فراغات كبرى . . . مع ذلك يمكن اعادة تكوين تنالي الاحداث . يهدد ايللوكومي بتدمير البشرية جميعها ، وتجتمع الآلهة مذعورة وتقرر استدعاء ايا Ea ، ويبدأ هذا بلقاء انليل Enlil وبعدئذ اوبللوري ويسألهم عما اذا كانوا قد علموا بأن عملاقاً من صخر قد قرر الفتك بتيشوب . وضاع جواب اينليل . أما بالنسبة لأبيللوري ، فإنه يقدم تفصيلاً ذي نتيجة كبرى . «عندما رفعت السماء والأرض علي ، لم أكن أفقه شيئاً . وعندما فصلت السماء عن الأرض بسكين ، لم أكن أفقه شيئاً أكثر . والآن فإن كنتي الأيمن يؤلني ، ولكنني أجهل من يكون هذا الاله » . عندئذ يطلب آيا Ea إلى الآلهة القدامى ، فتح مخازن الآباء والأجداد القديمة ، وجلب السكين التي كانت قد فصلت السماء عن الأرض بها . ونشرت أرجل (ايللوكومي) وبهذا غدا عاجزاً ، ولكن الصخر يتباهى دوماً بأن الملكية السماوية قد اسندت إليه من قبل والده كوماري . . . وأخيراً جندله تيشوب أرضاً .

هذه الاسطورة متميزة لعدة اعتبارات ، بدتيا من أجل بعض العناصر القديمة التي تشتمل عليها : عملية تخصيب كوماري بابتلاعه العضو الذكوري للاله الذي جاء لاسقاطه عن عرشه ، والقران الجنسي بين كائن الهي وكتلة صخرية ، كان من نتيجة ذلك تولد غول بشكل انساني معدني ؛ والعلاقات بين هذا الحجر البركاني الجبار والأطلسي الحوري ايبوللوري .

ان المشهد الأول يمكن تفسيره كتورية على ثنائية جنس كوماري ، وهو الخط المميز للآلهة الأولى (ر . على سبيل المثال تيامات - ذورفان) . وفي هذه الحالة فإن تيشوب الذي حصل نهائياً على السيادة ، هو ابن الاله السماوي (آنو) من آلهة خشي^(١٥) . أما بالنسبة لاختصاص صخرة من قبل كائن فوق البشر ، فإنه يوجد له

اسطورة مشابهة في فريجيا Phrygia : باباس papas (= زوس) يلقح صخرة تدعى أجدوس Agdos ، وهذه تحمل بغول خنثى هي أجديتيس Agditis . ولكن الآلهة تخصي أجديتي بتحويلها هكذا إلى الربة سيبيل Cybèle . (انظر بوزانياس Pausanias ، ٧ ، ١٧ : ١٠ - ١٢)

إن الاساطير التي تروي ولادة أشخاص من الحجارة كثيرة جداً ونصادفها من آسيا الوسطى حتى الشرق الأقصى وفي بولنيزيا . انه يتعلق ، على الأرجح ، بنص اسطوري للمواطنة الأصلية Antochtonie للبشر الأول، الذين تولدوا من قبل ربة كبرى جهنمية chtonienne . وبعض الآلهة (على سبيل المثال ميثرا Mithra) ، هم كذلك قد صوروا بأنهم متحدرون من صخرة تماماً كالشمس الذي يشع ضوءها كل صباح من فوق الجبال . غير انه لا يمكن رد هذه النغمة الاسطورية إلى تجل شمس^(١٦) . ويمكن القول بأن الأبوة المولدة le petra genérix تدعم قداسة الأرض - الأم مع الفضائل الكريمة التي يفترض انها كانت قد بللت الحجارة . وكما رأينا (ف ٣٤ ع) . ان قداسة الصخر لم تكن معجدة في أي مكان سوى في الديانات (الميفاليتية) . وليس من باب الصدفة اذا كان اولليكومي قد وضع على كتف العملاق الذي يسند السماء ؛ فإن حجر الديوريت يتهاً ليصبح هو أيضاً عموداً عالمياً Columna universalis . مع ذلك فإن هذا الباعث ، الخاص بالديانات الميفاليتية ، قد ادخل في نص كامل أكثر سعة : الصراع من أجل وراثة السيادة الالهية .

٤٧ - النزاعات بين اجيال الآلهة .

منذ الترجمة الأولى للنص الحوري / الحثي ، لوحظ التشابه مع نسب الآلهة theogonie الفينيقي من جهة ، وكما كان مثل من قبل فيلون الجبيلي Philon de Byblos ومع التقليد المنقول من قبل هزيود Hésiode من جهة أخرى . فحسب فيليون^(١٧) إن الاله الأعلى كان ايليون Eliun (هيسيتوس Hysitos في اليونانية

الأعلى) المماثل في الميثولوجيا الحورية/ الحثية لآلالو Alalu . من قرانه مع بروس Bruth أتى للعالم اورانوس ouranos (المنظر لآنو، وجي Ge(Gai'a) . وبدورهما أنجب هذان الأخيران أربعة أبناء ، أولهم ، ايل El (أو كرونوس) المنظر لكوماربي وعلى أثر خصومة مع زوجته حاول أورانوس تدمير ذريته ، ولكن (ايل) صنع منشاراً (أو حربة) وطرد والده وأصبح الحاكم^(١٨) . وأخيراً أتى بعل (الممثل للجيل الرابع والمنظر لتيشوب ولزوس) فنال السلطة . بحظ استثنائي أي نالها بدون معركة .

حتى اكتشاف الأدب الأوغاريتي ، كانت صحة هذا التقليد المنقول من قبل فيلون موضع شك . ولكن توارث أجيال الهية قد تأكد في الميثولوجيا الكنعانية (ف ٤٩ ع) . وفي الواقع ان هنريود (ف ٨٣ ع) تكلم عن ثلاثة أجيال فقط ممثلة باورانوس ، كرونوس وزوس - فعاود تأكيد النص الذي أورده (فيلون) «سانشونياتون» Sanchoniaton لأن هذا النص يذكر ، قبل اورانوس (= انو) حكم ايلون Elyun (= آلالو) . ومن الراجع ان النص الفينيقي لاسطورة السيادة الالهية مشتق من الاسطورة الحورية أو أنها متأثرة بها بقوة . أما بالنسبة لهزيود فيمكن الافتراض انه استعمل ذات التقليد المعروف في اليونان سواء بتوسط الفينيقيين ، أو سواء مباشرة من الحثيين .

ويقتضي الإشارة إلى الصفة الخاصة ، والتوفيقية معاً لهذه الاسطورة ، وليس فقط في صيغتها الحورية الحثية (حيث يوجد اضافة لذلك عدد من العناصر السومرية الاكادية)^(١٩) . ان الاينو ايليتش تبرز بوضوح :

- ١ - سلسلة من الأجيال الالهية .
- ٢ - المعركة بين الآلهة (الشباب) ضد المسنين
- ٣ - انتصار مردوك الذي تسلم هكذا السيادة

الا انه في الاسطورة الميزو بوتامية ، تكتمل المعركة الظافرة بحدث نشكوني ، وبدقة أكثر بخلق للعالم كما عرفه البشر . ان هذه الاسطورة تحاط في

سلسلة من النشكونيات التي تقتضي معركة بين اله وتنين ، ومتبوعة بتمزيق الخصم المقهور . وفي انساب الآلهة لهزيود فإن الفعل النشكوني - فصل السماء (اورانوس) عن الأرض (جيا) باخصاء اورانوس - كان له مكانه في بداية المأساة ، وقد اطلق ، في الواقع ، الصراع من أجل السيادة . ذات الحال في الاسطورة الحورية/ الحثية : الحدث الكوني أي فصل السماء عن الأرض ، له محله لزمن طويل سابق ، في عصر الالهة القدامى .

وإجمالاً فإن كل الأساطير التي تحكي عن النزاعات بين الأجيال المتعاقبة للآلهة من أجل السيطرة على السيادة العالمية ، تبرر ، من جهة ، الوضع الممجّد لآخر إله منتصر ، ومن جهة أخرى تفسر البنية الحاضرة للعالم والشرط الراهن للبشرية .

٤٨ - مجمع آلهة كنعاني : اوغاريت .

قبل ٣٠٠٠ سنة ق . م بقليل أطلت على الحياة حضارة جديدة من العصر البرونزي القديم ، وذلك في فلسطين : وهي تميز الإقامة الأولى للساميين . وحسب التوراة يمكن تسميتهم (الكنعانيين) ؛ غير أن هذه التسمية اتفاقية^(٢٠) . فقد استقر الغزاة ومارسوا الزراعة وطوروا حضارة مدنية . وخلال قرون عديدة تدخل مهاجرون جدد فيما بينهم في الأقاليم ، وقد تضاعفت المبادلات مع البلدان المجاورة وبصورة خاصة ، مصر . وحوالي ٢٢٠٠ ق . م تخربت حضارة البرونز القديمة من جراء غزو شعب سامي جديد ، العموريون ، المحاربون نصف الرحل ، والزراع بالتناوب ، ولكن الرعاة بصورة خاصة . إن هذه النهاية لحضارة تشكل مع ذلك البداية لعصر جديد . ان غزو سورية وفلسطين من قبل العموريين (مارتو marto في السومرية وأمورو Amuru في الأكادية) ليس سوى مشهد من تحرك أكثر اتساعاً تأكد حوالي ذات العصر في ميزوبوتاميا ومصر . انها غزوات من قبل رُحّل ، عنيفة و (متوحشة)^(٢١) ومتدفقة موجة بعد أخرى ، من

الصحراء السورية ، مفتونة وحانقة في آن واحد بثروة وغنى المدن والأراضي الزراعية . ولكنها بغزوها تتبنى طراز حياة السكان الأصليين ثم تتحضر . وبعد فترة من الزمن فإن اخلافهم سيصبحون ملزمين بالدفاع ضد الغزوات المسلحة لشعوب (بربرية) اخرى متجولة على طرف الأراضي الزراعية . ان العملية ستكرر في القرون الأخيرة للألفين الثانية ، عندما بدأ الاسرائيليون يتسربون في أرض كنعان .

ان التوتر والتكافل بين ديانات الخصب والزراعة المزدهرة على الشاطئ السوري - الفلسطيني ، وان الايديولوجيا الدينية للرعاة الرحل المحكومة بالآلهة السماوية والكواكب ، ستعرف اتساعاً جديداً مع استقرار العبرانيين في أرض كنعان . ويمكن القول ان هذا التوتر المتوصل في العديد من المرات إلى التكافل ، سيرتفع إلى مستوى نموذج مثالي ؛ لأنه هنا ، في فلسطين ، اصطدم نوع جديد من تجربة دينية بتقاليد قديمة ومحترمة للتدين الكوني

حتى عام ١٩٢٩ ، كانت المعلومات حول الدين السوري - الكنعاني واردة عن طريق العهد القديم ، ومن قبل بعض المؤلفين الاغريق (بصورة خاصة فيلون من بنت جبيل = بيبيلوس في القرن الأول والثاني ق . م وبواسطة بعض التسجيلات الفينيقية . وكذلك ايضاً عن طريق لوسيان الساموزي Lucien de Samosaze في القرن الثاني ق . م ونومار البانوبالوس Nommar de Panopalas من القرن الخامس) . ولكن العهد القديم يعكس الجدال ضد الوثنيين ، واما المصادر الأخرى فهي اما مجتزأة جداً واما متأخرة . ومنذ عام ١٩٢٩ اكتشف عدد كبير من النصوص الميتولوجية ، وذلك عن طريق حفريات رأس شمرة ، اوغاريت القديمة والمدينة - المرفأ على الشاطئ الشمالي لسورية . انها تتعلق بنصوص محررة في القرون (١٢ - ١٤) ق . م وهي تتضمن مفاهيم اسطورية دينية أكثر قدماً . إن الوثائق التي حلت رموزها والتي ترجمت حتى الآن هي غير كافية ايضاً لكي تعطى نظرة مفهومة للدين والميتولوجيا الاوغارية . ان فراغات سيئة تقطع الروايات ؛ فبدايات ونهايات الأعمدة كانت قد تكسرت ، وحتى انه لم يتفق على

ترتيب المشاهد الميتولوجية . ورغم هذه الحالة المتيسرة ، فإن الأدب الاوغاريتي ذو قيمة كبرى . مع ذلك يجب الأخذ في الحسبان واقع أن الدين الاوغاريتي لم يكن مطلقاً هو دين كل الكنعانيين .

ان فائدة الوثائق الاوغاريتية تتحصل بصورة خاصة من واقع انها تبرز مظاهر مرور من بعض الايديولوجيا الدينية إلى ايديولوجيا أخرى . إيل El هو رئيس مجمع الآلهة وان اسمه يعني (اله) في السامية ، ولكنه عند الساميين الغربيين اله شخصي . وهو يسمى (القوي) (الثور) «أب الآلهة والبشر»^(٢٢) (ملك) (أب السنوات) . انه (مقدس) . (رحيم) حكيم جداً) . وقد مثل على مسلة من القرن الرابع عشر ، جالساً على العرش ، معظماً ، ملتحمياً ، مرتدياً ثوباً طويلاً ، مع التاج المحاط بقرون^(٢٣) . وحتى الآن لم يوجد أي نص متعلق بالنشكونية^(٢٤) . مع ذلك ، فإن خلق النجوم بالزيجات المشتركة par hiérogammie يمكن تفسيره كعكس للمفاهيم النشكونية الكنعانية . وفي الواقع ان النص = ٥٢ (ولادة الآلهة الرحيمة والجميلة) تصف (ايل) ملقحاً امرأته عشيرة Asherat وعناة Anat . نجمة الصبح ونجمة المساء^(٢٥) . عشيرة نفسها حبلت من ايل وهي تسمى ام الآلهة (٥١ =) ، لقد ولدت سبعين ولداً ألهيا . وباستثناء بعل ، كل الآلهة تحدت من القران الأول ، ايل - عشيرة .

رغم الصفات التي تظهره كإله قوي ، وسيد حقيقي للأرض ، ورغم واقعة ان اسمه في اللوائح القربانية هو مذكور دائماً في المقدمة ، فإن (ايل) كان يظهر في الأساطير كأحد الضعفاء طبيعياً ، فهو غامض ، هرم منقاد . وبعض الآلهة تعامله باحتقار . وأخيراً فإن زوجتيه عشيرة وعناة قد اختطفتا منه حيث خطفها بعل . وعليه يجب الاستنتاج ان الصفات التمجيدية تعكس وضعاً سابقاً . عندما كان ايل فعلاً هو سيد مجمع الآلهة . ان ابدال اله قديم خالق ومدير كوني بإله شاب ، أكثر حيوية وتخصصاً في الخصوبة الكونية ، هو ظاهرة شائعة إلى حد كبير . ففي العديد من الحالات غدا الخالق إلها مفارقاً deus otiosus وتباعد تباعاً عن خليقته . واحياناً يكون التبديل نتيجة منازعة بين أجيال الهية أو بين ممثليها . وفي المعيار الذي يمكن فيه إعادة تكوين النصوص الأساسية للميتولوجيا

الاوغاريتية ، يمكن القول بأن النصوص تبرز ترقية بعل إلى الصف الأعلى ولكنها ترقية خاصة بالقوة والدهاء وانها غير خالية من بعض الغموض .

ان بعل هو الاله الوحيد ، الذي مع احتسابه تماماً بين ابناء ايل (باعتبار ان هذا هو أب كل الآلهة) يدعى (ابن داكان) . وهذا الاله ، الذي يعني اسمه (حبة ، بذرة) كان معبوداً في الألف الثالثة في الأقاليم العليا والوسطى للفرات^(٢٦) ومع ذلك فإن (داكان) لم يلعب أي دور في النصوص الميتولوجية الاوغاريتية حيث ان بعل هو بطل الرواية الأول . إن اسمه العام بعل (سيد) أصبح اسمه الشخصي ، وان له لقب ايضاً (حدو) أي حداد Hadad . وهو يسمى راكب الغيوم (أمير ، سيد الأرض) . وان إحدى صفاته (العليان Alyan - القوي ، السيد ، والملك) (الملك القدوس المؤمن المهيمن) . انه مصدر ومبدأ الخصب ، ولكنه محارب ايضاً . كذلك فإن اخته وزوجته عناة هي في آن واحد ربة الحب والحرب . وإلى جانبهما فإن الأشخاص الأكثر أهمية ميتولوجية هم (يام = أمير البحر) ويحكم الأنهر و (موت Mot) - (الموت) الذي ينافس الاله الشاب على السلطة العليا . وفي الواقع ، إن جزءاً كبيراً من الميتولوجيا الاوغاريتية قد خصص لنزاع ايل وبعل ولمعارك بعل مع يام وموت ليفرض ويدعم سيادته .

٤٩ - بعل يزيل سيادة وانتصار التنين :

حسب نص مبتور جداً^(٢٧) فإن بعل وشركاءه هاجموا (ايل) مباغته في قصره على جبل سابان وبنجحوا في تقييده وجرحه . وفي الظاهر (ان شيئاً ما) سقط على الأرض الأمر الذي يمكن تفسيره كعملية اخصاء لأب الآلهة . وهذه الفرضية مقبولة ، ليس لأنه في النزاعات المشابهة من أجل السيادة ، اورانوس والاله الحوري / الحثي قد اخصيا ، ولكن ايضاً ، رغم الكراهية التي اظهرها تجاه بعل ، فإن ايل لم يحاول ابداً إعادة وضعه الأعلى ، حتى عندما يعلم بأن بعل سيقتل من قبل (موت)^(٢٨) . ولأنه في الشرق القديم ، كان إخصاء كهذا يجرّد

الضحية من السيادة . زد على ذلك وباستثناء النص ٥٦ = حيث يثبت ايل رجولته في احتوائه الآلهة الأجرام السماوية ، فإن الوثائق الأوغاريتية تجعل منه عنيفاً ، وهذا يفسر حالته الخضوعية والمترددة ، وايضاً واقعة ان بعل قد خطف زوجته .

باغتصاب بعل عرش ايل على قمة (سابان) أجبره ايضاً لأن يلتجئ على طرف العالم «على مصب الينابيع في حفر المتاهات ، والذي سيصبح محل اقامته منذئذ»^(٢٩) . لقد انتحب ايل واستغاث بأعوانه . وكان يام Yam أول من استجاب له واعطاه لكي يشرب شراباً قوياً ، فباركه ايل ومنحه اسماً جديداً واعلنه خليفة له . وعهد اليه اضافة إلى ذلك تشييد قصر . ولكنه حرصه ايضاً على طرد بعل عن عرشه .

إن النص الذي يصف المعركة بين يام وبعل قد قطع بفراغات . . . ومع ان يام يبدو الآن ملكاً ، فإن ايل يوجد مع أكثرية الآلهة على جبل ، هو بالتأكيد جبل سابان . وطالما ان بعل كان قد شتم (يام) معلناً انه كان رفعه لمركزه بازدهاء وعجب ، وأنه سيدمره ، فقد أرسل يام رسله وطلب إلى بعل الاستسلام .

لقد كانت الآلهة خائفة خجلى فوبخهم بعل قائلاً ، (ارفعوا رؤوسكم يا آلهة من فوق ركبكم ، وأنا نفسي سأخيف رسل يام)^(٣٠) . وربما أن ايل اعاد استقبال الرسل وأعلن أن بعل هو عبدهم وأنه سيدفع ضريبة ليام . وكما أن بعل سيبدو على الأرجح مهدداً فإن ايل يضيف بأن الرسل يستطيعون معاملته بدون صعوبة ، مع ذلك وبمساعدة عناة فإن بعل تجهز لمواجهة يام . و «تبعاً للوحة أخرى ، فإن يام طرد بعل عن عرشه وإن عناة هي التي ستغلبه»^(٣١) . ولقد حمل آله الحداد الالهي المعروف بلقب كوشار - واز - هينز Koshar - Was - Hains (المستقيم والذكي) دبوسين سحريين ، اللذين لهما خاصية الانطلاق مثل السهام من يد من يستعملها . وأصاب أول دبوس يام في كتفه إلا أنه لم يسقط ، وضربه ثاني دبوس في جبهته، وبذلك انسحق أمير البحر على الأرض ، فأجهز عليه بعل وطلبت الربة ازتات Athztrt منه تقطيعه ونثر جيفته^(٣٢) .

إن /يام/ يمثل في آن واحد /كإله/ و/كشیطان/ . انه الابن المدلل من قبل إيل . وباعتباره إلهاً ، فهو يتقبل الاضحيات كبقية أعضاء مجمع الآلهة . من جهة أخرى فهو غول مائي تنين بسبعة رؤوس (أمير البحر) ، المبدأ والتجلي للمياه تحت الأرض . ان معنى المعركة متعدد ، فمن جهة ، وعلى مستوى الصورة الفصولية والزراعية ، فان انتصار بعل يدل على انتصارات المطر ، ضد /البحر/ والمياه الجوفية للأرض ، وان الايقاع المطري الممثل للمعنى الكوني ، يعوض لا نهائية العناء وجذب /البحر/ والفيضانات المدمرة . فبانتصار بعل تنتصر الثقة في النظام وفي استقرار الفصول . ومن جهة أخرى فان المعركة ضد التنين المائي تبرز تأرجح اله شاب باعتباره بطلاً . ومن ثم سيداً جديداً لمجمع الآلهة ، وأخيراً يمكن في هذا المشهد حل رموز انتقام الأول البديء (يام) ، ضد المعتدي الذي أخصى والده /إيل/ وأسقطه عن عرشه^(٣٣) .

لمثل هذه المعارك النموذجية ، أي القابلة لأن تتكرر بما لا نهاية له . سيعاود /يام/ الظهور في النصوص . ورغم أنه قد قتل من قبل بعل . وزيادة على ذلك فليس هو الوحيد الذي عليه أن يتمتع /بوجود دوري/ . وكما سنرى فان بعل و/موت/ يتشاطران كينونة متماثلة .

٥٠ - قصر بعل .

يهدف الاحتفال بالنصر ضد /التنين/ تولم /عناة/ وليمة على شرف بعل ، وبعدئذ تغلق الربة أبواب القصر ، وبثورة جنونية تملكها لقتل البشر ، تشرع بقتل الحرس والجنود والشيوخ ، وفي الدم الذي وصل للركب تتوشح بأيدي ورؤوس الضحايا . ان هذا المشهد بالغ الدلالة .^(٣٤) وله موازياته في مصر ، وبصورة خاصة في الميثولوجيا والصور الايقونية للربة الهندية دورجا Durga^(٣٥) . ان المذبحة وأكل لحم الانسان هي خطوط مميزة لربات الخصب القديمة . من هذه الوجهة النظر ، فان أسطورة عناء يمكن تصنيفها بين العناصر العامة للحضارة

الزراعية القديمة التي كانت تمتد من البحر المتوسط شرق حتى سهل الغانج . وفي مشهد آخر ، تهدد عناة والدها / ايل / بأن يجلل بالدم شعره وذقنه . وعندما وجدت جسد بعل بدون حياة بدأت بالانتحاب وهي (تلتهم لحمه بدون سكين وتشرب دمه بدون كأس) . (٣٦) . وبسبب سلوك عناة الوحشي والدموي - كما هو الأمر بالنسبة لربات أخرى للحب والحرب - كانت مزودة بأعوان ذكور وبالتالي كانت معتبرة كخشي . وان النص بعد فراغ جديد ، يظهر بعل مرسلًا لها رسلاً مع هدايا ، وهو يعلمها ان الحرب كانت كريمة لديه ، فلتلقى /عناة/ السلاح اذن ولتقدم تقدمات من أجل السلام وخصب الحقول . لقد أعلمها بأنه سيخلق الصاعقة والرعد لكي تتعرف الآلهة والبشر عن اقتراب المطر . وتؤكد له عناة أنها ستتبع تعليماته ، ونصائحه .

مع ذلك ورغم كونه ملكاً / فإن بعل / لم يكن عنده لا قصر ولا معبد ، في حين أن الآلهة الأخرى تملك ذلك . وبعبارة أخرى أنه لا يجوز معبداً كافياً لاعلان سيادته . وتحكي مجموعة من المشاهد قصة إشادة المعبد . وهذه القصص لا تخلو من تناقضات . وفي الواقع ، ومع أنه أزاح ايل عن عرشه ، فان بعل كان بحاجة لاجازة منه ، فأرسل عشيرة لترافع في قضيته . وتمجد / أم الآلهة / العمل الذي اعتبراً من الآن «سيعطي بعل غزارة في المطر» . فيقبل ايل وبعل يكلف /كوشار واز هازير/ بأن يبني له القصر . وفي البدء يرفض بعل أن يزود مقره بالنوافذ ، خوفاً من أن يدخل يام منها . ولكنه مع ذلك ينتهي بالموافقة (٣٧)

إن تشييد معبد - قصر بعد انتصار الاله ضد التنين ، يعلن عن ترقية للصف الأول . فالآلهة تشييد المعبد - القصر على شرف ماردوك بعد فشل /تيامات/ وخلق العالم (ف / ٢١ع) . ولكن الرمزية التشكونية بارزة في أسطورة بعل ، ان بناء القصر - المعبد بصفته صورة كونية im ago mundi يتفق لحد ما مع تشكونه . وفي الواقع ، انه بانتصاره ضد العماء المائي ، وتنظيمه لايقاع المطر ، كوّن بعل العالم كما هو الآن (٣٨) .

عندما اكتمل القصر ، استعد /بعل/ لمواجهة موت = الموت ، وهذا الأخير كان ربا هاماً جداً . وكان ، كما هو هو معلوم ، ابن إيل ويحكم العالم السفلي ، ولكنه يمثل المثل الوحيد المعروف في الشرق الاوسط لتشخيص الموت (والذي هو تأليه أيضا) . فأرسل بعل إليه رسلاً ليعلن بأنه منذ الان هو الملك الوحيد للآلهة والبشر (بغاية أن تتمكن الآلهة من السمنة ، وأن يتمكن البشر واحياء الأرض من الشيع) . وقد أمر بعل رسله بالتوجه نحو الجبلين المميزين لأطراف الكون ، ولرفعهما والنزول الى ما تحت الأرض . وجد الرسل (موت) جالساً على عرشه في الطين ، في بقعة مغطاة بالخضرة ، ولكنهم تحاشوا الاقتراب منه كثيراً ، ولو أنهم فعلوا عكس ذلك فانه كان سيلتهمهم بفمه الكبير جدا . وكما أضاف بعل بقوله لهم ، لا تنسوا أبدا انه هو المسؤول عن الأموات بسبب الحرارة الملتهبة .

وقد رد /موت/ الرسل منذراً بعل بالمجيء لملاقاته ، لأن بعل كما أوضح لهم قتل /يام/ وأن دوره الان أن يسقط في الجحيم ، (٣٩) . وان ما يكفي ليحير بعل ويشير سخطه «تحية /موت/ ابن إيل التي أوصلها اليه عن طريق رسله - وقوله انني عبدك وتابعك للأبد» . ويصرح /موت/ مبهجاً ، ما أن يصل بعل الى الجحيم مرة واحدة حتى يفقد قوته وينهار . فأمره بأن يأخذ معه أبناءه وموكبه من الرياح والغيوم والأمطار - وقبل بعل بذلك . . ولكنه قبل أن ينزل الى الجحيم جامع عجلة فحملت بولد . فألبسه بعل ثوبه وأرسله لاييل . ويقال أنه في فترة الخطر الجسيم ، استعداد بعل شكله الأول ، كثور كوني ؛ وأنه في ذات الوقت ضمن وجود خليفة له ، في حالة عدم عودته إلى الأرض من غير المعلوم كيف مات بعل ، وما إذا كان قد غلب في المعركة أو أنه ببساطة قد جندل أرضاً - لمجرد الحضور المرعب /لموت/ . إن فائدة الأسطورة الاوغاريتية تتحصل من واقعة أن بعل ، الرب الشاب للعاصفة والخصب ، والذي هو في ذلك الوقت رئيس لمجمع الآلهة ، ينزل الى الجحيم ويهلك مثل /تموز/ وبقية آلهة الزراعة . فلا (بعل -

حداد) ولا (حداد) Adad المعبود في ميزوبوتاميا ولا الحوري / تيشوب / قد عرف أحدهم مصيراً مشابهاً. (إلا أنه وبتاريخ متأخر غاب مردوك هو أيضاً، وسنوياً منعزلاً في الجبل). ويظن أن في هذا النزول إلى الجحيم ، إرادة بتكليف بعل بمزايا متعددة ومتكاملة : بطل منتصر ضد / العماء / المائي ، وانطلاقاً من هنا إله ومدير كوني لا بل / نشكوني / ؛ إله العاصفة ، والخصب الزراعي «ويذكر بأنه ابن داجان (البذرة)» ولكنه أيضاً إله سيد مقرر له أن يمد سيادته على العالم كله (وإذن على الجحيم) .

وفي كل الأحوال ، وبعد هذا المشروع الأخير ، فإن العلاقات بين إيل وبعل قد تغيرت . وإضافة لذلك ، فإن بنية وإيقاعات العالم حصلت على شكلها الحالي . وعندما يعاود النص بعد فراغ جديد ، فإن مبعوثين يمحلان إلى إيل أنهما وجدا جسمان بعل . فيجلس إيل على الأرض ، وهو يمزق ثيابه ، ويضرب على بطنه ويخرج وجهه، وباختصار، فإنه يعلن الحداد الشعائري كما كان قد مورس في أوغاريت . «أخذ يصرخ ، ان بعل قد مات ! فماذا سيحصل لأعداد البشر الكثيرة ؟ وفجأة يبدو إيل متحرراً من إحساسه ورغبته بالانتقام . انه يسلك مسلك إله مدير للكون وقد تأكد بنفسه أن الحياة العالمية قد وضعت في حالة خطر بموت بعل . ويطلب إيل من زوجته ان تسمي أحد أبنائها ملكاً ، مكان بعل . فتعيّن عشيرة آذار Athar (الرهيب) ولكنه عندما يصعد على العرش يكتشف انه ليس كبيراً بما فيه الكفاية لاشغاله ويعرف أنه لا يستطيع أن يكون ملكاً .

في هذه الفترة تذهب عناية للبحث عن الجسد ، وعندما تجده ، ترفعه على كتفها وتتجه نحو الشمال ، ويدفنها له تضحي بعدد كبير من القطعان من أجل المأدبة الكبرى الجنائزية. وبعد بعض الوقت تلتقي عناية بموت. فتمسك له «بحرية (سكين) تقطعه ، وبمذراة تنسفه ، وبالنار تشويه ، وبالمطحنة تطحنه وفي الحقول تنثره ، والطيور تأكله»^(٤١) .

إن عناية تنفذ نوعاً من القتل الشعائري ، بمعاملتها لموت كحزمة من الحبوب ، وبصورة عامة ، فإن هذا الموت متخصص بالآلهة وأرواح النبات^(٤٢) .

ويمكن التساؤل فيما اذا كان هذا بالفعل بسبب هذا القتل من نوع زراعي ، ان موت سيعود بعدئذ للحياة .

ومهما يكن من أمر ، فان اماتة (موت) ليست بدون علاقات مع مصير بعل . فإيل يحكم بأن بعل حي وان (السمن كان يمطر من السماء والعسل يسيل في مجاري ضيقة) وهذا ما يذكر بالصور التوراتية- (سفر حزقيال ٣٢: ١٤ وأيوب ٢٠ - ١٧) . لقد انفجر من الضحك وأعلن بأنه سيجلس ويرتاح، لأن (بعل، بعل المنتصر هو حي * فأمر الأرض موجود . ولكن وكما أن (يام) يعود للحياة ، فإن /موت/ عاود الظهور بعد سبع سنوات ، ولقد تحسر أيضاً من انتزاع بعل للسيادة منه ، فعاد الخصمان صراعهما ، ولقد تواجهها ، وتضاربا بالرؤوس والأرجل كثيران وحشية ، وتعاضا كالأفاعي ، الى أن تخرجها على الأرض ، وبعل فوق موت ، الا أن شاباش Shapash ، ربة الشمس ، تنصح /موت/ بواسطة /إيل/ بأنه من غير المجدي متابعة الصراع ، ويرضخ موت ويعترف بسيادة بعل . وبعد بضعة مشاهد مفهومة جزئياً فقط ، تعلم عناة بأن بعل سيكون ملكاً للأبد ، مفتتحاً عهداً من السلام ، عندما «سيكون للثور صوت غزال وللحداة صوت عصفور» .

٥٢ - رؤى دينية كنعانية .

لقد اعتقد بعض الباحثين أنهم عرفوا في هذه الاسطورة انعكاس الموت وإعادة الترميم السنوي للنبات . الا أن الصيف في سورية وفلسطين لا يحمل /الموت/ للحياة النباتية ، وانما على العكس ، هو فصل الفواكه . فليست الحرارة المحترقة هي التي تخيف المزارع ، ولكن الجفاف المتماهي . فيبدو اذن أكثر معقولة ان انتصار /موت/ ينعكس على دورة سبع سنوات من الجفاف ، التي يوجد لها أصداء في العهد القديم (تكوين ٤١ - ١١ صموئيل ٢٤ - ١٢) (٤٤) . ولكن الفائدة من الاسطورة تتجاوز علاقاتها الظرفية مع ارتفاع النبات . وفي

الواقع ان هذه الحوادث المثيرة للعواطف والاستعراضية أحياناً ، تكشف لنا طريقة خاصة من الوجود الإلهي ، وبصورة خاصة طريقة الوجود التي تستوجب خيبة و/موتاً/ وفراقاً بجنائز /بعل/ او بتقطيع /موت/ متبوعاً بإعادة الترميم الدوري قل أو كثر . إن هذا النموذج من الوجود الذي هو في آن واحد متقطع ودوري ، يذكر بنموذجية الآلهة الحاكمة لدورة النبات . انه يتعلق مع ذلك ، بخليقة دينية جديدة ترمي لتنمية المظاهر السلبية للحياة في نموذج موحد للايقاعات المضادة .

وفي آخر المطاف ، فإن معارك بعل ، هزائمه وانتصاراته ، تضمن له السيادة في السماء وعلى الأرض ، ولكن (يام) يستمر بالحكم على /البحر/ و/موت/ يبقى سيداً أعلى للعالم التحت أرضي للموتى . ان الأساطير توضح أولوية بعل ، ومن هنا الخلود والمعايير التي تدير الكون (كوزموس) والمجتمع البشري . بهذا الواقع ذاته فان (المظاهر السلبية) المثلة /بيام/ و/موت/ تجدد دليلها . ان الواقعة بأن /موت/ هو ابن /إيل/ وعلى الأخص أن بعل لم ينجح بإبادته ، تعلن طبيعية الموت ، وتظهر في التحليل الأخير وكانها الشرط اللازم Sineqnon للحياة^(٤٥) .

ومن الراجح أن الاسطورة التي تروي المعركة بين بعل ويام كانت تتلى أثناء العام الجديد ، ونزاع بعل - موت بمناسبة المحاصيل ، ولكن أي نص معلوم حتى الآن لم يذكر هذه الوقائع . وبذات الأمر يمكن إدراك أن الملك ، الذي يعلم أنه كان يلعب دوراً هاماً في العبادة ، كان يمثل بعل في هذه السيناريوهات الاسطورية الشعائرية ، ولكن الدليل هو أيضاً موضع خلاف . ان الأضحيات كانت تعتبر كأطعمة مقدمة للآلهة . وأن النموذج للتضحية يبدو مشابهاً لما هو في العهد القديم : انه كان يستوجب المذبحة ، والتضحية أو التقدمة لسلام أو لتناول القربان والتضحية التكفيرية .

وقد كان للكهنة ذات الاسم في العبرية (Kohn = كوهن) ، وإلى جانب الكهنة كان يوجد الكاهنات (Khant) والقديسون qadecim من الأشخاص

المكرسين . «في التوراة يدل هذا المصطلح على العهر المقدس ، ولكن النصوص الأوغاريتية لا تدل على شيء مشابه» وأخيراً يشار إلى الكهنة المتنبيين أو الأنبياء والعرافين . وأن المعابد كانت مزودة بمذابح ومزينة بصور الآلهة والرموز الدينية . وخارج الأضحيات التي ستعرض فيما بعد الأنبياء على الغضب . ولكنه لا يجب أن ننسى أن الفراغات الوثائقية تسمح لنا فقط بتقدير تقريبي للحياة الدينية الكنعانية . اننا لانحوز أية صلاة ، ومعلوم ان الحياة عطاء إلهي ولكننا نجهل أسطورة خلق الانسان .

إن رؤية مماثلة لم تكن حصراً كنعانية . ولكن أهميتها ودلالاتها قد ارتفع شأنها بالعمل الذي جابه الاسرائيليين بدخولهم في أرض كنعان ، ومع هذا النموذج من القداسة الكونية ، مثيراً نشاطاً معقداً ، وبالرغم من الافراطات التهتكية الغير مجردة من العظمة . وبما أن العقيدة في قدسية الحياة كانت مشتركة مع الاسرائيليين ، فإن هنالك مسألة طرحت نفسها منذ البدء : كيف يحافظ على عقيدة مماثلة بدون اكتمالها بالفكر الديني الكنعاني ؟ إن هذا الفكر الادبيولوجي أدخل، كما سنرى، لاهوتا مميزاً مركزاً على نموذجية متقطعة ودائرة للاله الاساسي (بعل) رمز الحياة بكاملها . وعليه فإن يهوه لم يشاطر بهذه الطريقة في التكون . (وايل كذلك ، ولكن إيل تحمل تحولات أخرى مشينة) . وإضافة لذلك ، ورغم أن عبادته استوجبت بعض الأضاحي ، فإن يهوه لم يدع نفسه يُعارض بالتصرفات الشعائرية ، لقد طلب التحول الداخلي للمؤمن عبر الطاعة والايمان (ف ١١٤ع) .

وكما سنرى (ف ٦٠ع) فإن الكثير من العناصر الدينية الكنعانية قد تمثلها الاسرائيليون «ولكن هذه الاستعارات نفسها كانت مظهراً للنزاع : فبعل قد حورب بسلاحه الخاص . وإذا اعتبرنا أن كل الجماعات الغربية ، حتى الغير سامية مثل الحوريين وبعدئذ الفلسطينيين Ispilistins قد نسوا جميعهم دينهم الخاص ، بعد فترة قصيرة من وصولهم الى كنعان ، فسيحكم انه فوق العادة انسانيا كون هذا الصراع بين يهوه وبعل قد تمدد لزمان طويل ، وأنه رغم التسويات وعبر الكثير من انعدام الوفاء ، انتهت بانتصار اليهودية .» (٦٧)

حواشي الفصل السادس

- ١ - Manrice vierir (ديانات أناتوليا القديمة) ص ٢٥٧ .
- ٢ - في صلاة جميلة ، تتقمص الملكة الربة - (Anet ص ٣٩) وذلك على الأغلب الشهادة الوحيدة بهذا المعنى ، في الشعائر ولائحة التقديمات وأسماء الرتبين مذكورة إحداها بعد الأخرى . وهذا ما يمكن أن يفسر الأهمية المتحصلة ، في ظل الملوك الحثيين ، بواسطة التعميد الشهيدين للربة الأم .
- ٣ - شعيرة لأجل ترميم قصر جديد ترجمة غوتر Anot ص ٧٣٥ .
- ٤ - غورني .. المملكة الحثية ص ١١٥ .
- ٥ - لقد أضفنا الهلالين للدلالة على أثر يتعلق بعدد من الحالات بأساطير حثية أو حورية مترجمة ومتبناة في اللغة الحثية .
- ٦ - نستعمل ترجمة غروتر وغيرها مما ذكر الصفحة ١٥٦ .
- ٧ - شعائر مماثلة من التهذئة تمت بواسطة الكاهن .
- ٨ - illuy amnka موت - حية ، وأيضا اسم علم .
- ٩ - ١٠ - ١١ - ترجمة غوتر - ص ١٠ أبولو وزوس .
- ١٢ - نصوص مترجمة من قبل /كاستر/ .
- ١٣ - المقصود ترجمات حثية ونصوص حورية منجزة حوالي ١٣٠٠ ق . م ونسب الآلهة الحوري يعكس التوفيقية مع التقاليد السومرية في الشمال السوري القديم .
- ١٤ - الترجمة الأولى اقترحوا (الركب ، genous) . والعبارتان هي تورية بالنسبة للعضو الجنسي المذكور .

١٥- تبعاً لبعض المقاطع الميتولوجية ، يبدو أن الآلهة التي كانت توجد في الداخل من كوماري ، قد تناقشوا معه لمعرفة من أية فتحة من جسمه يجب أن يخرجوا . (Gutermook ص ١٥٧ - ٥٨) .

١٦- في الواقع أن أول معركة لميترا وهي ما تكاد تخرج من الصخرة كانت مع الشمس : ومتنصرة رفعت لها تاجها المشع ولكن بعد وقت قصير ، فإن الآلهين كرموا صداقتها بالشد على أيدي بعضهما البعض .

١٧- بعض المقاطع من تاريخ الفينيقين قد حفظت من قبل Fuseleino وفيلون يؤكد أنه يلخص كتابات المثقف الفينيقي الذي عاش قبل حرب طروادة .

١٨- ليس سوى بعد ٣٢ سنة حيث نجح ايل في امضاء اورانوس . والعمالان اخفاء أب والاستيلاء على السلطة المتضامنة في الاساطير الحورية/ الحثية والاغريقية .
لاإظ - أسماء الآلهة أنو عشثار وربما الالو . وان الها الا لا يمثل في قائمة كواحد من أجداد اتو- غوتربروك ص ١٦٠ .

٢٠- كنعان لم يشر إليها في النصوص قبل وسط الألف الثانية - التاريخ القديم لاسرائيل R. devanx . وانهم لم يعرفوا القمح ولا المساكن .. نص اشار اليه R. de Vanx .

٢٢- العنوان ab - أب هو نعت شائع جداً كذلك ab admo أب الانسانية .

٢٣- شيشعر- نصوص رأس شمرة .

٢٤- في الكتابات السامية الغربية إل يدعى أيضا (خالق الأرض) .

٢٥- هذه الاسطورة نموذج شعبية مصاغة في بداية دورة جديدة من سبع سنوات ، الأمر الذي يثبت أنه في تاريخ قديم ، كان إل أيضا معتبراً . كخالق الخصب الأرضي ، تقديراً عيد بعدئذ لبعل انظر /كوردون/ الميتولوجيا الكنعانية . ص ١٨٥٠ الخ .

٢٦- في ذات الأقاليم تأكد أيضاً اسم /عناة/ . ومن الممكن أن بعل ابن داكأن قد أدخل من قبل العموريين ، انظر اولونبرغ ص ١٥١ ، في هذه الحالة سيكون لصيقاً لبعل - حداد محلي ، لأنه لا يمكن فهم الدين القديم الكنعاني بدون هذا الاله السامي الشهير للعاصفة ، والمنطلق من الخصب . انظر أيضاً (كردس) الاسطورة الكنعانية واليهود .

٢٧- يتعلق باللوحة ٧١ - AB المعلنة لأول مرة من قبل شيفر وترجمة اولدنبرغ ص ١٨٥ - ١٨٩ وقد شرح النص من قبل كاسينو كمقر لها لمهاجمة بعل وسقوط إيل عن عرشه .

٢٨- يخاطب عشيرة (أعطني واحداً من أبنائك لكي أجعل منه ملكاً) .

٢٩- باعتبار أن الجبل هو رمز سماوي وان إضاعته تعادل بالنسبة للاله السيد السقوط .

٣٠- درايفر - للأديان الكنعانية .

٣١- (ألم اسحق يام حبيب ايل المفضل ؟ ألم أفني الاله الكبير ، ألم اكتم تانان = التين ؟ لقد

كمتمته لقد دمرت الأفعلى المعلقة القوية برؤوسها السبعة ، ترجمة اولدنبرغ ص ١٩٨ . . هذا النص يشير بتورية الى أول انتصار ليام ضد بعل المتبوع بسقوطه (في هذه الحالة بفضل عناة) وهذا ما يماثل نصاً ميثولوجياً معروفاً جداً : خيبة وأسر انتصاري لاله ضد وحش مائي .

٣٣- عن هذا القصد انظر اولدنبرغ ص ٣٨٩ .

٣٤- الدم باعتباره أصل الحياة ، طرح رؤية شعيرة في هذه المذبحة كههدف للمرور من جذب الصيف السوري المتأخر الى خصب الفصل الجديد .

٣٥- كما نقلته الاسطورة المصرية ، فانها لا تمثل مرحلة بدائية انظر فقرة ٢٦ ع ان التقريب مع دورغا الذي أكد عليه maruir - سبق أن حصل للهيكل والتردوستال ص ٧٤ .

٣٦- نص دُون من قبل Viallenal (مشهد جديد لاسطورية اوغاريتية) بعلص ١٨٢ .

٣٧- ان النوافذ يمكن أن ترمز للفتحة في الغيوم التي من خلالها يرسل بعل الأمطار . كان معبده في أوغاريت مزود بكوة - نافذة - بحيث أن المطر كان يسقط على وجه الاله ممثلاً في مسلة (شيفر) . ولكن رمزية ووظيفة النوافذ هي أكثر تعقيداً .

٣٨- R. Fisher يتكلم عن إبداع (غودجي بعلي) المميز عن خلق نموذج ايل . ابداع اوغاريت ص ٣٢٠ .

٣٩- ٤٠- ٤١- Dhine ص ١٢١ - ٢٥ - ١١١ .

٤٢- افترض بعضهم أن /موت/ روح المحصول ولكن آثاره الجنائزية واضحة : انه يسكن العالم الأرضي والصحراء .

٤٣/٤٤- Driver الميثولوجيا الكنعانية .

٤٥- لا نجد سوى في الميثولوجيا البوذية الها كبيراً آخر للموت mara الذي يدين بقوته اللامحدودة فعلاً للحب الأعمى للحياة من جهة البشر، ولكنه بكل وضوح ، في المنظور الهندي قبل الأوبانيشاد فان دورة الحياة الحتمية موت ورجوع للحياة تشكل العقبة الكبرى في طريق التحرر . انظر ما سيللي في هذا الكتاب .

٤٦- R. ov vani - التاريخ القديم لاسرائيل ص ١٤٧ - ٧٤٨

الفصل السابع

«عندما كان اسرائيل طفلاً» ..

٥٣ - الفصلين الأولين من التكوين :

ديانة اسرائيل هي ديانة الكتاب بامتياز . فتلک المدونة المختصة بالكتاب المقدس هي مشكلة من نصوص العصر والتوجهات المختلفة الممثلة بالتأكيد ، لتقاليد شفوية قديمة جدا ، ولكنها معاد تفسيرها ، ومصححة ومسجلة خلال عدة قرون وفي أوساط مختلفة^(١) . إن المؤلفين المحدثون يبدأون تاريخ ديانة اسرائيل بإبراهيم . وعليه ، وتبعاً للتقاليد فإنه هو الذي اختير من قبل الرب ليصبح جد الشعب الاسرائيلي وليأخذ ملك كنعان . غير أن الاحدى عشر فصلاً من التكوين تروي الأحداث الخرافية التي سبقت اختيار ابراهيم منذ الخليفة حتى الطوفان و برج بابل . ان تحرير هذه الفصول ، كما هو معلوم ، أكثر حداثة من كثير من

نصوص الأسفار الخمسة الأخرى pentateuque . ومن جهة أخرى ، فإن بعض الكتاب ، ومن هم أكثرهم اعتباراً ، أكدوا بأن التشكونية cosmogonie وأساطير الأصل (خلق الانسان أصل الموت الخ . .) قد لعب دوراً ثانوياً في الوعي الديني لاسرائيل . وجمالاً ، فإن العبرانيين قد اهتموا بالأولى «بالتاريخ المقدس» ، أي بعلاقتهم مع إله أكثر من اهتمامهم بتاريخ الأصول الراوي للأحداث الأسطورية والخرافية البدئية .

ويمكن لهذا أن يكون صحيحاً من بداية بعض العصور ، وعلى الأخص بالنسبة لبعض النخبة الدينية . إلا أنه لا يوجد حجة للاستنتاج بأن أجداد الاسرائيليين كانوا غير مباليين بالمسائل التي استهوت كل المجتمعات القديمة ، وبخاصة التشكونية ، وخلق الانسان أو أصل الموت وبعض المشاهد الأخرى العظيمة . ولأيماننا أيضاً ، بعد ٢٥٠٠ سنة من /الاصلاحات/ ، فإن الأحداث المقررة في الفصول الأولى من التكوين تستمر في تغذية الخيال والفكر الديني لورثة ابراهيم . واتباعاً للتقليد السالف نبدأ الموضوع مع الفصول الأولى من التكوين . إن التاريخ المتأخر لتدوينها لا يشكل مطلقاً أية صعوبة ، لأن المحتوى قديم ؛ وهو في الواقع يعكس المفاهيم الأكثر قدماً من قصة ابراهيم .

إن سفر التكوين يفتح بهذا المدخل الشهير : «في البدء ، خلق الرب Elohim السماء والأرض . وكانت الأرض خالية وخاوية ، والظلمات تغطي الغمر L abime وروح الله ترفرف planait على المياه» [١ - : ١ - ٢] .

إن الصورة للمحيط الأولي الذي يرفرف فوقه إله خالق ، هي صورة قديمة جداً^(٢) . مع ذلك فإن فكرة الاله الطائر فوق الهوة المائية (الغمر) لم تتأكد في النشكونيات الميزوبوتامية ، مع أن الأسطورة المروية في /الايونما ايليتش/ كانت على الأغلب مألوفة لدى كاتب النص التوراتي : «في الواقع ، أن المحيط الأولي يشار اليه بالعبرية teha'm ، وهو تعبير متوافق اشتقاقاً مع البابلي (تيامات) . * وان الخلق بمعنى الكلمة ، يعني تنظيم العماء (tôhu wâ bôhîn) قد حصل بقدرة كلمة

* - التهمة الأرض المتصوبة إلى البحر وكأنها مصدر من تهامة (لسان العرب)

الآله . لقد قال : ليكون نور ، وكان النور (١ + ٣) والمراحل المتتابعة من الخلق تمت دائماً بكلمة إلهية . فالـ (لعماء) المائي ليس مشخصاً (ر . تيامات) ، وبالنتيجة ، إنه لم /يُغلب/ في معركة نشكونية . هذه القصة التوراتية تمثل بنيناً متميزاً : ١ - خلق عن طريق الكلمة (٣) ٢ - لعالم طيب ٣ - حياة/ حيوانية ونباتية/ جيدة وقد باركها الرب . وأخيراً توج العمل الكوني بخلق الانسان . وفي سادس وآخر يوم قال الرب : (لنصنع الانسان على صورتنا ، كمثالنا ، ولتسلط على أسماك البحر وطيور السماء والقطعان الخ . . (١ - ٢٦) . وبدون أي عمل باهر استعراضي (من نموذج مردوك - تيامات)^(٤) . وبدون أي عنصر تشاؤمي في النشكونية أو البشرية (العالم المشكل بدءاً من كائن أولي /شيطاني/ - تيامات - ، الانسان مقولب من دم سيد - شيطان كينجو) Kingu . ان العالم هو «طيب» والانسان هو صورة للاله imago dei ، انه يقطن ، كخالقه ومثاله ، في الجنة . مع ذلك ، وكما أن سفر التكوين لا يتأخر بالإشارة اليه ، فان الحياة صعبة ، رغم كونها مباركة من قبل الرب ، وان البشر لن يسكنوا الجنة بعد . الا أن كل هذا كان النتيجة لسلسلة من أخطاء وذنوب الأجداد . إنهم هم الذين حوروا شرط الانسان . وان الآله لا يتحمل أية مسؤولية في هذا الفساد لأول وخير صنعة له وكما هو الأمر بالنسبة للفكر الهندي الماقبل الاوبانيشاد فإن الانسان وبعبارة أدق ، الجنس البشري ، هو نتيجة أفعاله الخاصة . والقصة اليهوية الأخرى (٢ : ٥) هي أكثر قدماً وتختلف بوضوح عن نص كهنوتي نلخصه باختصار . فلا يوجد هنالك مسألة في خلق السماء والأرض ، وانما عن صحراء حولها الرب /يهوه/ لأرض خصبة بمياه ارتفعت من الثرى . ولقد قولب يهوه الانسان (âdâm) من الصلصال واحياه بالنفخ . (نسمة الحياة في أنفه) ثم ان يهوه «غرس حديقة في عدن» وأنبتها كل أنواع الأشجار الممتازة (٢ : ٨) وأقام الانسان في الحديقة (لكي يزرعها ويحرسها) (٢ - ١٥) . وبعدئذ عجن يهوه الحيوانات والطيور ، دائماً من الأرض ، وقادها الى آدم الذي أعطاها اسماء^(٥) . أخيراً ، وبعد أن ألقى عليه النوم ، أخذ يهوه أحد أضلاعه وصنع امرأة تلقت اسم (حواء بالعبرية Hawah كلمة مرتبطة اشتقاقاً بعبارة تعنى الحياة .

وقد لاحظ شراح الكتاب المقدس أن القصة اليهودية ، ببساطة أكثر تقاوم ليس (العماء) المائي لعالم (الأشكال) ، وإنما الصحراء والجفاف للحياة وللنبات ، ويبدو من المعقول اذن ، ان هذه الاسطورة حول الأصل قد تولدت في اقليم صحراوي . أما بالنسبة لخلق الرجل الأول من الغضار ، فإن الفكرة كانت معلومة وقد رأينا هذا في سومر [ف ١٧ع] . وثمة أساطير مشابهة قد تأكدت تقريباً في أمكنة عديدة من العالم ، بدءاً من مصر القديمة واليونان حتى الشعوب البدائية / . فالفكرة الاساسية تبدو نفسها : الانسان تشكل من مادة أولية (أرض ، خشب ، عظم) وانه أعطي الحياة بنفس الخالق . وفي العديد من الحالات ، ان شكله هو ذات شكل خالقه . ويقول آخر ، كما سبق ولاحظنا في معرض أسطورة سومرية ، إن الانسان /بشكله/ و/بحياته/ يشاطر بنوع ما شرط الخالق . ولا ينتمي الى المادة سوى جسده . وان خلق المرأة من ضلع استل من آدم يمكن تفسيره كدليل على خثوية الرجل الأول .

إن المفاهيم المماثلة تأكد في تقاليد أخرى ، بما في ذلك تلك التقاليد المنقولة من قبل بعض الميديراشيم midrashim . وان أسطورة الخثى تبرز معتقداً منتشراً جداً : كمال البشرية المتماهية في الجد الأسطوري تستوجب وحدة وهي في ذات الوقت جماعية . وسنعالج أهمية الخثى في معرض مناقشتنا لبعض النظرات الغنوصية والهرمسية . ولنتأكد بدقة أن الخثى البشرية لها كمثال الثنائية الجنسية الالهية ، وهو مفهوم تتقاسمه ثقافات عديدة . (٧) .

٥٢ - الفردوس المفقود - قايين وهابيل :

إن جنة عدن ، مع نهرها الذي كان ينشطر الى أربعة فروع ، وكان يحمل الحياة الى أقاليم الأرض الأربعة ، مع أشجارها التي كان على آدم حراستها واستثمارها ، تذكر بالصورة الميزوبوتامية . ومن الراجح في هذه الحالة أيضاً ، ان القصة التوراتية تستعمل نوعاً من التقليد البابلي . غير أن أسطورة الجنة

الأصلية ، المسكونة كانتا معروفتين في ما وراء الفرات والبحر المتوسط . وككل الجنائن / توجد جنة عدن^(٩) في مركز الدنيا ، هنالك حيث يبرز النهر ذو الأربعة أذرع . وفي وسط الحديقة كانت ترتفع شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر (٢ : ٩) . ووجهه (يهوه) هذا الأمر الى الانسان : «تستطيع أن تأكل من كل أشجار الجنة . ولكن من شجرة معرفة الخير والشر ، لن تأكل أبدا لأن اليوم الذي ستأكل فيه منها ستموت فيه حتماً» (٢ : ١٦ - ١٧) وقد انطلقت فكرة من هذا المنع كانت غير معروفة : القيمة الوجودية للمعرفة ، وبعبارات أخرى ، إن العلم يستطيع التغيير الجذري لبنية الوجود البشري .

مع ذلك ، فقد نجحت الحية في إغراء حواء «فقال الحية للمرأة لن تموتا ، انما الله عالم أنكما في يوم تأكلان منه تفتح أعينكما وتصيران كآلهة عارفي الخير والشر» (٣ : ٤ - ٥) . وهذا المشهد الغامض ، أفسح المجال لتفسيرات لا حصر لها ، وان خلفيته تذكر برمز أسطوري معروف جدا : الربة العارية ، والشجرة العجيبة وحارسها ، الأفعى . الا أنه من جهة أخرى ، أو بدلا عن بطل ينتصر ويتزعم رمز الحياة (ثمرة سحرية ، نبع الشباب ، كنز الخ ..) فإن القصة التوراتية تمثل آدم ، ضحية ساذجة لخديعة أفعى . وإجمالا هنالك صلة بتخليد مفقود ، كمشكلة جلقامش (ف : ٢٣ ع) . لأنه ، ما أن يصبح كلي المعرفة مساويا (للآلهة) حتى يتمكن آدم من اكتشاف شجرة الحياة «التي لم يحدثه يهوه عنها» ويصبح خالداً . ان النص واضح وصريح «وقال الرب الاله هوذا آدم قد صار كواحد منا يعرف الخير والشر ، والآن لعله يمد يده فيأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل فيحيا الى الدهر» (٣ : ٢٢) «فأخرجه الرب الاله من جنة عدن ليحرث الأرض التي أخذ منها» (٣ : ٢٤) وهكذا قضى عليه بأن يعمل ليعيش .

ولكي نعود للسيناريو المثار حالاً - الربة العارية والشجرة العجيبة المحروسة من قبل تنين - فان الحية في التكوين قد نجحت جدا في نهاية المطاف ، في دورها كحارس وكرمز للحياة أو الفتوة . ولكن هذه الاسطورة القديمة قد حورت جذريا من قبل كاتب القصص التوراتية . فالسقوط المساري لأدم قد أعيد تفسيره

كعقاب برر على نطاق واسع : معصية خذلت طموحه الشيطاني برغبة. التشبه
بإله . وقد كان هذا هو أكبر ذنب يمكن لمخلوق أن يرتكبه ضد خالقه . لقد كانت
تلك هي (الخطيئة الأصلية) وهي فكرة ضخمة بالتأثير بالنسبة للاهوت العبري
واللاهوت المسيحي .

إن رؤية كهذه الرؤية عن السقوط لا يمكن لها أن تفرض نفسها الا في دين
مركز على القدرة الكلية وعلى غير الرب . وكما نقلت إلينا ، فإن القصة التوراتية
تدل على السلطة المتنامية للتوحيد اليهودي^(٩) .

وحسب محوري الفصول ٤ - ٧ من التكوين ، فإن هذه الخطيئة الأولى لم
تؤد الى فقدان الجنة وتبدل الشرط البشري فحسب ، وانما غدت بنوع ما المنبع
لكل الآلام التي تكبل البشرية . فقد ولدت حواء قايين الذي كان /يزرع
الأرض/ وقابيل /راعي القطيع الصغير/ . وعندما قدم الأخوان أضحية الشكر -
قايين من منتجات الأرض ، وقابيل المواليد الأولى من قطيعه - قبل يهوه تقدمه هذا
الأخير ولم يقبل تقدمه قايين . وبثورة من غضب (انقض قايين على أخيه وقتله)
(٤ : ٨) . عندئذ نطق يهوه «والآن فملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها
لتقبل دماء أخيك من يدك . وإذا حرثت الأرض فلا تعطيك قوتها أيضا . تائهاً
شارداً تكون في الأرض» (٤ : ١١ - ١٢) .

ويمكن في هذا المشهد قراءة التعارض بين مزارعين ورعاة وضمناً لتمجيد لهؤلاء
الأخيرين ، مع ذلك إذا كان اسم قابيل يعني (راع) فإن قايين يعني (حداد) .
وإن نزاعهما يعكس الحالة المتناقضة للحداد في بعض المجتمعات الرعوية ، حيث
كان ، إما مزدري به ، وإما محترماً ، ولكنه مرهوب الجانب دوماً^(١٠) . وكما رأينا
(ف ١٥ع) ، فإن الحداد كان معتبراً /كسيد للنار/ ويمتلك سلطات سحرية
هائلة . وفي كل الأحوال ، إن التقليد المحفوظ في القصة التوراتية يعكس تصور
الوجود (البسيط والظاهر) للرعاة - الرحل والمقاومة ضد حياة الاستقرار للمزارعين
وسكان المدن . إن قايين (أصبح بان لمدينة) - «وعرف قايين امرأته فحملت
وولدت أخنوخ . ثم بنى قرية فسمها باسم ابنه أخنوخ» [٤-١٧] وأن واحداً من

أخلافه هو (توبل - قاين) «الأول صيقل لجميع المصنوعات النحاسية والحديدية» [٤ - ٢٢] . فأول قتل لإنسان تم إذن من قبل من يجسد بنوع ما رمز التكنولوجيا والحضارة المدنية . وضمناً فإن كل التقنيات متهمة (بالسحر) .

٥٥ - قبل وبعد الطوفان :

سيكون من غير المفيد تلخيص حبل النسب من قاين وشيت الولد الثالث لأدم . واتباع التقليد المثبت في ميزوبوتاميا ومصر والهند ، والذي بحسبه يصل الأجداد الأول لسن اسطوري ، فإن آدم سيلد (شيت) في سن (١٣٠) سنة ويموت عن عمر مقداره (٨٠٠) سنة بعدئذ (٥ : ٣ ع) . كل أخلاف شيت وقاين تمتعوا بوجود من ٨٠٠ - ٩٠٠ سنة . وثمة مشهد مثير يميز هذا العصر الماقبل الطوفان : قران بعض الكائنات السماوية (ابن الرب) مع بنات من البشر اللواتي انجين لهم أبناء «أبطال العصر السابق» - «ولما ابتدأ الناس يكثرُونَ على وجه الأرض وولد لهم بنات ، رأى بنو الله بنات الناس أنهن حسنات فأتخذوا لهم نساء من جميع من اختاروا . فقال الرب لا تحل روحي على الانسان أبداً لأنه جسد وتكون أيامه مئة وعشرين سنة» (٦ : ٤) وكان على الأرض جبابرة في تلك الأيام وأيضاً بعد أن دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً أولئك الجبابرة المذكورون منذ الدهر (٦ - ٥) . إنه يتعلق على الراجح جداً ، بملائكة مخلوعين (angesdechus)

إن تاريخهم سيروي بشكل موسع في كتاب متأخر (اينوش ٦ - ١١) الأمر الذي لايعني بالضرورة سوى أن الاسطورة كانت معروفة سابقاً . وفي الواقع ، توجد معتقدات مماثلة في اليونان القديمة والهند : أن عصر (الأبطال) ، أشخاص أنصاف - آلهة semi - divins انقضى نشاطهم فعلاً قبل بداية العصور الراهنة «في فجر التاريخ» . أي في الفترة التي كانت فيها المؤسسات المتميزة بكل ثقافة على أهبة الانشاء . ومن أجل العودة للقصة التوراتية ، فإنه على أثر هذه القرانات بين

الملائكة الهابطة وبنات البشر الفانين ، قرر الاله تحديد عمر الإنسان حتى ١٢٠ سنة . ومهما كان الأصل لهذه القصص الاسطورية «قايين وقابيل ، الأباطرة لما قبل الطوفان ، نزول أبناء الآلهة ، ولادة الأبطال» . فإن مماله دلالتة ، أن المؤلفين أثبتوها في النص الأخير من التكوين ، وذلك رغم بعض الخيوط الانسانية الشكل التي أرهقت يهوه

إن الحدث الأكثر اعتباراً لهذا العصر كان الطوفان . «ورأى الرب أن شر الناس قد كثر على الأرض وإن كل تصور أفكار قلوبهم إنما هو شر في جميع الأيام ، فندم الرب أنه عمل الانسان على الأرض وتأسف في قلبه . فقال الرب أمحو الانسان الذي خلقت عن وجه الأرض ، الانسان مع البهائم والذبابات وطيير السماء لأنني ندمت على خلقي لهم . أما نوح فنال حظوة في عيني الرب . . وهؤلاء مواليد نوح . كان نوح رجلاً براً كاملاً في أجياله وسلك نوح مع الله» (٦ : ٥ - ١٠) وأولاد نوح مع زوجاتهم كانوا (سام ، وحام ، ويافت ، هم وحدهم انقذوا لأن نوح كما ذكر النص كان طيباً مع الله ، وياتباع تعليمات يهوه الدقيقة صنع نوح الفلك L'arche وملاه بنماذج ممثلة لكل أنواع الحيوانات «وفي السنة ستمائة من حياة نوح ، الشهر الثاني ، اليوم السابع عشر من الشهر ، هذا اليوم سالت كافة الينابيع من الغمر الكبير du grand abime وسدود السماء فتحت . . . المطر سقط على الأرض خلال أربعين يوماً وأربعين ليلة (٧ : ١١ - ١٢) وعندما انسحبت المياه توقف الفلك على قمة جبل أراوات فخرج نوح وتقدم بأضحية «فتنسم الرب رائحة الرضى وقال الرب في نفسه لأعيد لعن الأرض أيضاً بسبب الانسان بما أن تصور قلب الانسان شرير منذ حدثته ولا أعود أهلك كل حي كما صنعت (٨ - ٢١) وأقام عهداً مع نوح وذريته ، وعلامة هذا العهد كان قوس قزح : «أنتم فاغثوا وأكثروا وتوالدوا في الأرض ، وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً ، هاأنا مقيم عهدي معكم ومع نسلكم من بعدكم ، ومع كل ذي نفس حية . . » وقال الله هذه علامة العهد الذي أنا جاعله بيني وبينكم . . تلك قوس جعلتها في الغمام فتكون علامة عهد بيني وبين الأرض» . (٩ : - ٩ - ١٣)

إن القصة التوراتية تظهر العديد من العناصر المشتركة مع الطوفان المروي في ملحمة جلجامش . ومن الممكن أن يكون الكاتب قد عرف النص الميزبوتامي ، أو أن ما يبدو أيضاً أكثر رجحاناً ، أنه استعمل مصدراً قديماً محفوظاً منذ أوقات لا يمكن تذكرها في الشرق الأوسط . إن أساطير الطوفان هي كما لاحظنا سابقاً (ف١٨ ع) منتشرة جداً وهي تتوازع أساساً الرمزية نفسها : الضرورة للتدمير جذرياً لعالم ولبشرية فاسدة ، وذلك بهدف إعادة خلقها ، أي إعادة الاستقامة الأولية لها .

غير أن هذا العلم الكوني الدوري يبدو أنه سبق أن تحور في النصوص السومرية والأكادية . فمؤلف القصة التوراتية يستعيد ويمدد إعادة تفسير الكارثة الطوفانية : إنه يرفعها إلى مصاف مشهد من التاريخ المقدس . إن يهوه يعاقب فساد الإنسان ولا يتألم لضحايا كارثة أرضية Cataclysm «كما فعل الآلهة في النص البابلي .- ملحمة جلجامش اللوحة (١٠ : ٢٥ - ١١٦ - ٣٧ - ١٣٦) . إن الأهمية التي ينيطها بالنقاء الأخلاقي وبالطاعة ، تستبق (القانون أو الشريعة) التي ستكشف لموسى . وكالعديد من الأحداث الخرافية الأخرى ، فإن الطوفان قد جرى فيما بعد ، أو باستمرار إعادة تفسيره وإعادة تقييمه من منظورات مختلفة . إن أبناء نوح أصبحوا أجداد بشرية جديدة . وفي ذلك الزمن كان العالم كله يتكلم لغة واحدة . ولكن قرر البشر في أحد الأيام بناء برج تخرق قمته السماوات . «وقالوا تعالوا نبني لنا مدينة وبرجاً . رأسه إلى السماء ونقيم لنا اسماً كي لا نتبدد على وجه الأرض كلها» [١١ - ٤] . لقد كان هذا آخر صنيع شيطاني . وقد نزل (يهوه) ليرى المدينة والبرج» وعرف منذ الآن فصاعداً «أن أي مشروع لن يصبح غير قابل التحقيق بالنسبة لهم» . . « فنزل الرب ينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونها . وقال الرب هوذا هم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة ، وهذا مأخذوا يفعلونه . والآن لا يكفون عما هموا به حتى يصنعونه . هلم نهبط ونبلبل هنالك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض» (١١ - ٥ - ٦) . عندئذ بلبل لسانهم ولم يعد البشر يتفاهمون مطلقاً ، بعضهم على الآخر ، وعلى أثر ذلك شتتهم يهوه «على كل وجه الأرض وانعطفوا عن بناء المدينة» (١١ - ٧ - ٨) التي عرفت منذ ذلك الوقت باسم بابل .

ففي هذه الحالة نجد الصلة بنص اسطوري قديم أعيد تفسيره من المنظور اليهوي . إنه يتعلق بدثياً بالتقليد القديم الذي تبعاً له ارتفعت بعض الكائنات المتمتعة بامتيازات (أجداد ، أبطال ، ملوك اسطوريون ، شامان) ارتفعت الى السماء بواسطة شجرة ، أو رمح ، أو جبل ، أو بسلسلة من الأسهم . ولكن الصعود الى السماء / مادياً in concreto / قد انقطع بنهاية العصر الاسطوري الأولي ^(١) . فبعض الأساطير تقرر سقوط المشاريع اللاحقة للتسلق إلى السماء بمساعدة مختلف الصقالات échafoudages . ومن المستحيل معرفة ما إذا كان محور القصة التوراتية يعرف هذه العقائد العريقة في نفسها . وفي كل الأحوال كانت مألوفة مع الزيقرات Ziqqurat البابلية التي كانت تحتل رمزاً مشابهاً . وفي الواقع أن الزيقرورة كانت معتبرة وكان لها قاعدتها في سرة nombrile الأرض ورأسها في السماء .

وكان الملك أو الكاهن بتسلقه لطوابق زيقرورة منها يصل شعائرياً (أي رمزياً) للسماء . وعليه ، وبالنسبة لمحرر القصة التوراتية ، فإن هذه العقيدة ، التي فهمها بدقة كانت في آن واحد بغاية التبسيط والارجاس . انها كانت إذن جذرياً مجددة التفسير ووثيقة أكثر منزوعة القداسة والاسطورية .

وتحسن الإشارة لهذا الواقع وهو : رغم العمل الطويل والمعقد من الاختيار ، وحذف وتقييم مواد قديمة جداً موروثه أو مستعارة ، فإن المحررين المتأخرين لسفر التكوين قد حافظوا على كل ميتولوجيا من نموذج تقليدي . إنها تبدأ مع النشكونية وخلق الانسان ، وتستدعي الوجود الفردوسي للأجداد ، تقص مأساة (السقوط) مع نتائجه القدرية (الموت) - الالتزام بالعمل من أجل العيش الخ) تذكر بالانحطاط الأصلي الفاحش للانسانية الأولى التي أوجبت الطوفان ، وتستنتج مع مشهد خرافي أخير : ضياع الوحدة اللغوية والتشتت للبشرية الثانية ، مما بعد الطوفان ، كنتيجة لمشروع (شيطاني) جديد . وكما في الثقافات القديمة والتقليدية ، فإن هذه الميثولوجيا تشكل بالجملة (تاريخاً مقدساً) : إنها تفسر أصل العالم وبذات الوقت الشرط البشري الراهن . وتأكيذاً أن (هذا التاريخ المقدس) أصبح بالنسبة للعبرانيين نموذجياً بعد ابراهيم وبصورة خاصة مع

موسى ، ولكن هذا لم يبلغ أبداً البنية والوظيفة الميثولوجية للفصول الاحدى عشر الأولى من سفر التكوين .

إن عدداً من الباحثين أصر على واقعة ان الدين الاسرائيلي (لم يخترع) أية اسطورة . مع ذلك إذا كانت عبارة (اخترع inventer) قد أدركت وكأنها تدل على خلق روحي spirittuelle فإن العمل بالانتقاء والنقد للتقاليد الميثولوجية والتي لا يمكن تذكرها ، يعادل انبعاث (اسطورة) جديدة .

٥٦ - دين الآباء (البطارقة):

إن الفصل الثاني من سفر التكوين ، يدخلنا في عالم ديني جديد . يقول يهوه لابراهيم : «وقال الرب لابرام انطلق من ارضك وعشيرتك وبيت ابيك إلى الأرض التي أريك ، وأنا أجعلك أمة كبيرة ، وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة . وأبارك مباركيك وشاأتمك العنه ويتبارك به جميع عشائر الأرض» . ١٢- ١- ١٣ . وهذا النص بشكله المائل هو على التأكيد قد دون بعد قرون من الحدث الذي يرويه . ولكن المفهوم الديني المضمّر في اختيار ابراهيم يمتد لمعتقدات وعادات مألوفة في الشرق الأدنى من الألف الثانية . ان ما يميز القصة التوراتية هو الرسالة الشخصية من الرب ونتائجها .

فبدون ان يدعى بادیء ذي بدء يتكشف الاله لكائن بشري ، ويقدم إليه مجموعة مطالب متبوعة بوعود سخية . وحسب التقليد ، فإن ابراهيم يطيعه ، كما سيطيعه فيما بعد عندما يطلب الرب إليه التضحية بابنه اسحق . إننا هنا نواجه بنموذج جديد للتجربة الدينية : الايمان الابراهيمي ، كما فهم بعد موسى والذي سيصبح ، مع الزمن ، التجربة الدينية المميزة لليهودية والمسيحية .

لقد ترك ابراهيم أور ، للخالدين des chaldéens اذن ، ووصل الى حران ، في الشمال الغربي لما بين الرافدين (موزوبوتاميا) . ثم سافر بعدئذ صوب

الجنوب . وأقام لبعض الوقت في سيشيم . وبالتالي قاد قافلته بين فلسطين ومصر [تكوين ١٣: ١-٣] .

إن تاريخ ابراهيم ومغامرات ابنه اسحق ، وحفيديه يعقوب ويوسف تشكل المرحلة المسماة مرحلة الآباء (البطاركة) Patriarches . وخلال زمن طويل اعتبر النقد الآباء كأشخاص خرافيين . ولكن منذ نصف قرن ، وبصورة خاصة ، بفضل الاكتشافات الأثرية ، أصبح لدى بعض الباحثين ميل للقبول ، أقله في جزء منها ، تاريخية التقاليد البطريكية ، وهذا لا يعني ، قطعاً ، ان الفصول ١١ - ٥٠ من التكوين تشكل «وثائق تاريخية» .

بالنسبة لموضوعنا يقتضي على الأقل معرفة ما إذا كان اجداد العبريين ، عابيرو les Apiru مربي حمير وتجار قوافل^(١٣) أم رعاة قطعان صغيرة وفي طريق الاستقرار^(١٤) . ويكفي التذكير بأنه يوجد عدد من المشابهات بين الاعراف البطريكية والمؤسسات الاجتماعية والقانونية للشرق الأدنى . وقد اتفق عل ان العديد من التقاليد الميتولوجية كان قد عرف وطبق من قبل الآباء (البطاركة) خلال اقامتهم في (ميزوبوتاميا) . أما بالنسبة لديانة الاباطرة فإنها تتميز بعبادة اله الأب^(١٥) . وان هذا قد دعي ، وأنه يظهر ، مثل (اله ابي ، ابوك ابوه) «وقال لهما أرى وجه أبيكما ليس كما كان أمس فما قبل ولكن اله أبي لم يزل معي» [تكوين ٣١: ٥] . وبعض العبارات الأخرى تتضمن اسماً علماً ، مسبوقة احياناً بكلمة أب «اله ابراهيم واله ناحور واله ابيهما يحكم بيننا وحلف يعقوب بمهابة أبيه اسحق (٣١-٥٣) . اله ابيك ابراهيم : (٢٦: ٣٢٤) اله اسحق (٢٨: ١٣) . اله ابي ، ابوك اسحق (٣٢: ١٠ الخ) أو «اله ابراهيم ، اسحاق يعقوب» [٣٢: ٢٤ الخ] . هذه العبارات لها ما يوازيها في الشرق القديم^(١٦) . فرب (الأب) هو بدئياً إله الجد المباشر الذي يعترف به الابناء . ويكشفه نفسه للجد ، يكون قد شهد بالقرابة . إنه اله البدو الرحل الذي لم يرتبط بمعبود ، وانما بجمع من الرجال يرافقهم ويحميهم . انه يرتبط تجاه المؤمنين به بعهود^(١٧) . وبعض اسما أخرى، يمكن انها اكثر قدماً ايضاً هي باهاديشاك Pahadyishak التي ترجمت «رعب اسحاق» ولكنها تعني على الاكثر (اقارب اسحاق) و(آب هيريا اكلاك abhir ya'agallz) (قوي) ، أو حامى يعقوب (تكوين ٣١: ٤٢-٥٣) ويدخلهم في ارض كنعان ، إن هؤلاء الآباء قد جوهوا

بعبادة الاله /إيل/ وان (رب الأب) انتهى بالتماهي به . ان هذا التمثيل يترك مجالاً للافتراض بأنه كان يوجد بعض التشابه البنيوي بين نموذجي الآلهة . وعلى كل حال ، ما أن توحد /إيل/ حتى حصل رب الأب على البعد الكوني الذي لم يستطع الحصول عليه بصفته اله اسرة وقبيلة . وان هذا هو المثل الأول المؤكد تاريخياً بتركيب قد اغنى الارث البطريكي (الأبوي) وهو لن يكون الوحيد .

ان العديد من الفقرات تصف ، باختصار زائد ، الممارسات الدينية (للآباء) . فالبعض من هذه الفقرات غالباً ما يعكس حالة متأخرة . ومن الملائم اذن مقارنة الملف التوراتي مع الممارسات المميزة للثقافات الرعوية القديمة ، وفي الدرجة الأولى تلك العائدة للعرب قبل الاسلام .

فحسب سفر التكوين ، إن الآباء كانوا يقدمون الاضاحي ، ويرفعون المذابح وينصبون الحجارة ويمسحونها بالزيت . ومن المرجح تطبيقهم للذبيحة (Zabab) الدموية حصراً ، من نموذج فصحي Pascal ويدون كهنة ، و(حسب بعضهم) يدون مذبح : وفكل ناخر كان يذبح ضحية المتخذة من القطيع ، بذاته ، ولم تكن تحرق ، وانما كانت تؤكل من قبلهم مجتمعين ، المضحي واسرته^(١٩) .

ومن الصعب تحديد المعنى الأصلي للحجارة المنصوبة (مذبح - مصطبة massebah) لأن نصوصها الدينية تختلف . فالحجر يمكن ان يشهد على اتفاق مبرم (سفر التكوين ٣٠ : ٥٢/٥١/٤٥) ويستخدم كقبر (٢٠ : ٣٥) أو يدل على تجلي ، كما في مشهد يعقوب . فقد نام هذا واضعاً رأسه على حجر ؛ فرأى سلماً يصل اعلاه للسماء ، وهناك (وقف يهوه امامه) ووعد بهذه البلاد . ومع استيقاظه ، نصب يعقوب الحجر الذي نام عليه ، ودعاه مكان (بيت ايل Beith-el) «بيت الاله» [تكوين ٢٨ : ١٠-٢٢] إن الحجارة المنصوبة كانت تلعب دوراً في الدين الكنعاني ولكن هذه العادة كانت توجد عند العرب قبل الاسلام^(١٩) . ولذلك يكون من الواضح انها كانت موزعة بالتساوي من قبل اجداد الاسرائيليين^(٢٠) .

مع ذلك فإن الشعيرتين اللتين لعبتا دورا بارزا في التاريخ الديني لاسرائيل هما أضحية العهد وأضحية اسحق (تكوين ١٥: ٩) «فقال له خذ لي عجلة ثنية وعنزة ثنية وكبشا ثنيا الخ» وأولى الاضحيتين كما يلاحظ من نص الآية . . . قد حددت مباشرة من قبل رب ابراهيم . وهي تقتضي القسمة بعجلة وعنزة وكبش . . . وهذه شعيرة لها مثيلاتها في امكنة أخرى (على سبيل المثال : لدى الحثيين (ف ٤٣ع) . ولكن العنصر الخامس قد تشكل بتجلي ليلي : (فلما غابت الشمس وخيم الظلام ، اذا بتنور دخان ومشعل نار سائر بين تلك القطعان الخ الخ . . .

فالمسألة ليست مسألة عقد . لأن الرب لم يعرض على ابراهيم أي التزام : ولم يرتبط أحد سواه . وهذه الشعيرة التي لا يوجد لها مثيل آخر في العهد القديم ، قد طبقت حتى زمن (ارميا) yérémie «أحد انبياء اليهود التالين الذي اشتهر بمراثيه المعبرة سفاً من التوراة» . ان العديد من الباحثين يعارضون بأنها كانت معلومة في عصر الآباء . وبالتأكيد ان الاضحية تمثلت في نص يهوى ، ولكن اعادة التفسير اللاهوتي لم ينجح في حذف صفتها البدائية .

في سفر التكوين ، اضحية وحيدة ، وصفت بالتفصيل : هي اضحية اسحق (٢٢: ١-١٩) . طلب الرب إليه ان يقدم ابنه محرقة (Olah) ، وقد هيا ابراهيم نفسه للتضحية به ، عندما تم ابدال اسحق بكبش . ان هذا المشهد قد افسح مجالاً لمعارضات لا حصر لها . فقد لوحظ بين ملاحظات اخرى (ان النص محرقة holocauste قد ردد ست مرات) . وعليه فإن ، هذا النموذج من التضحية يبدو انه مستعار من الكنعانيين بعد الاستقرار النهائي للقبائل^(٢١) وقد جرى الحديث ايضا عن «التوصيف بمثالية الماضي» . مع ذلك ، لا يسوغ ان ينسى أن سفر التكوين يشتمل على العديد من التواريخ القنرة والمقرزة . «والتي تظهر ان المؤلفين كانوا مهتمين بالدرجة الأولى بالنقل الأمين للتقاليد اكثر من اهتمامهم باعطائها القيم المثل»^(٢٢) . ومهما يكن من أمر أصله ،

فإن المشهد يوضح بقوة لا مثيل لها في العهد القديم المعنى العميق للدين ،
(الابراهمي) . إن ابراهيم لم يتهياً للتضحية بابنه بهدف نتيجة محددة ، كما فعل ميخا
Mesha ملك المؤابيين ، بتضحيته بابنه البكر لتقوية الانتصار (ملوك ١٨ ، ٣ : ٢٧) . أو
yephthé الذي التزم تجاه يهوه بأن يقدم له محرقة الشخص الأول الذي يصادفه أولاً
بعد عودته منتصراً ، بدون ان يتصور ان هذا سيكون ابنته الوحيدة (القضاة
١١ ، ٣٠ : ٢) انه لا يتعلق بالتضحية بالابن البكر ، الشعيرة التي لم تعرف الا بعد فترة
متأخرة جداً والتي لم تصبح ابدأ شائعة لدى الاسرائيليين . ان ابراهيم شعر بأنه مرتبط
بربه بالايمان . وانه لم يفهم ابدأ معنى للتصرف الذي طلبه منه الرب ، بينما ان اولئك
الذين كانوا يقدمون باكورتهم لألهتهم يضعون في اعتبارهم تماماً المعنى والقوة السحرية -
الدينية الشعيرة .

ومن جهة أخرى فإن ابراهيم لم يشك ابدأ بالقداسة ، وبالكهال والقدرة الكلية لربه .
وبالنتيجة ، اذا كان التصرف المعين له كل مظاهر قتل الولد ، فإن ذلك كان يسبب عدم
قدرة الادراك البشري : ان الرب وحده كان يعرف المعنى والقيمة لحركة ، هي بالنسبة
للآخرين كافة ، لا تتميز مطلقاً عن الجريمة .

وان ما يهمننا هنا في حالة خاصة من جدلية المقدس : ليس ان (المحرم) قد تحول
إلى (مقدس) فحسب ، مع احتفاظه ببنية الأولى «ان حجراً مقدساً لا ينقطع عن كونه
حجراً» ولكن (القداسة) ليست مدركة بالعقل : ان قتل الولد لم يتحول إلى شعيرة هادفة
لنتيجة معينة (كما كانت الأمور تجري عند اولئك الذين كانوا يضجون بأواثل ما يتولد
لديهم) . ولم يتم ابراهيم الشعيرة (لأنه لم يرم لأي هدف ولم يعرف معنى هذا
التصرف) ؛ ومن جهة أخرى فإن ايمانه طمأنه إلى انه لم يرتكب جرماً . وقد قيل بأن
ابراهيم لم يشك ابدأ بقداسة حركته ؛ ولكنها كانت (متضادة) وبالنتيجة غير قابلة
للفهم .

ان التأمل حول هذا العجز عن معرفة (المقدس) (طالما ان «المقدس» قد وجد
بتمامه مع «المحرم») وستكون له نتائج ذات أهمية بارزة وبالتأمل بمثال ابراهيم ، في فترة

متأخرة جداً في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، لمس بعض المفكرين المسيحيين الخاصية المتناقضة ، وبعبارة أخرى ، «الغير قابلة للفهم» من ايمانهم . فكيركجارد Kierkegaard كان تحلى عن خطيئته بأمل انها ، في حالة غير ممكنة التصور ، سترد إليه . وعندما اكد (ليون شيسستوف) أن الايمان الصحيح يقضي بقناعة واحدة : «بالنسبة للرب كل شيء ممكن» ، ولم يفعل سوى أن يترجم باختصار ، تجربة ابراهيم .

٥٨ - موسى والخروج من مصر

إن بدايات الدين الاسرائيلي ، قد رويت في الفصول ٤٦-٥٠ ق سفر التكوين ، وفي سفر الخروج وفي كتاب العدد . انها تتعلق بمجموعة احداث ، أغلبها مثار مباشرة من قبل الرب . ولنعيد إلى الذاكرة اكثرها اهمية : اقامة يعقوب وأولاده في مصر ؛ والاضطهاد المثار ضدهم بعد بضعة قرون من الزمن من قبل فرعون مصر الذي أمر باستئصال المواليد الأول للاسرائيليين ، والتغيرات الفجائية لموسى (بأعجوبة انقذ من المذبحة وربي في قصر الفرعون) وبعد ان قتل الجندي المصري الذي وجه ضربات لأحد اخوته ، وبصورة خاصة هربه في صحراء مدين ، وظهور العليقة المتوهجة (اول لقاءه مع يهوه) والبعثة المهمة التي كلفه بها الرب ، لاجراج شعبه من مصر وكشف اسم الله ، والجروح العشرة الماثرة من يهوه ليجبر فرعون بالموافقة ؛ ورحيل الاسرائيليين واجتيازهم بحر القصب حيث اغرقت المياه عربات وجنود المصريين الذين لحقوا بهم ، والتجلي على قمة سيناء ، والعهد المقرر من يهوه مع شعبه ، متبوعاً بتعليمات تتعلق بمحتوى الكشف والعبادة ؛ وأخيراً التيه اربعين عاماً من المسير في الصحراء ، وموت موسى والمعركة مع كنعان بقيادة إشعيا .

منذ اكثر من قرن من الزمن ، افرغ النقد جهده ، لفصل العناصر المحتملة وبالنسبة (التاريخية) لهذه القصص التوراتية عن الكتلة المتراكمة من الزيارات والرسويات (الاسطورية) و(الفولكلورية) ، وقد استعملت ايضاً الوثائق الفلسفية والحفريات

والمعلقة بالتاريخ السياسي ، والثقافي والديني للمصريين ، والكنعانيين والشعوب الأخرى في الشرق الأدنى ، وبمعمونة امثال هذه الوثائق حصل الأمل بانارة وتحديد ، بل وربما اعادة تكوين التاريخ لمختلف الجماعات العبرانية ، بدءاً من اقامة يعقوب في مصر (القرن ١٨-١٧ ق.م) حتى الاحداث التي يوجد صداها في تقاليد سفر الخروج والدخول في ارض كنعان ، حوادث يجلدها عدد من الباحثين في القرن ١٢ ق.م^(٢٤) .

إن الوثائق اللائوتورائية Extra-biblique قد ساعدت ، بالتأكيد ، في ادخال ، أقله في جزء منه ، الخروج وغلبة الكنعانيين في نص تاريخي . ولقد طرحت على سبيل المثال ، تواريخ دقيقة لحد ما بالنسبة للخروج من مصر على اساس المعلومات المتعلقة بالحياة العسكرية والسياسية لبعض الفراعنة الممتين للأسرة الثانية . التاسعة عشرة ، فقد تشابهت مراحل التدخل في كنعان ، مع الاخذ في الحسبان نتائج الحفريات ، بالدرجة الأولى بتاريخ خراب بعض المدن الكنعانية . الا ان العديد من هذه العلاقات المتبادلة والاتفاقات التاريخية قد جوهت بمعارضة .

ولا يتوجب علينا اتخاذ موقف من الجدل حيث أن القليل من الاختصاصيين اتفقوا بشأنه . ويكفي التذكير بأن النجاح لم يتم ، كما كان يؤمل ، لاقامة تغطية تاريخية لبعض الأحداث ذات الأهمية الأولى بالنسبة للديانة الاسرائيلية ، الأمر الذي ، من جهة أخرى ، لم يثبت مطلقاً عدم تاريخيتها . . ولكن الأحداث والأشخاص التاريخية قد احتذيت لحد ما تبعاً لأصناف نمودجية ، حتى أنه في الكثير من الحالات لم يكن من الممكن الامساك بحقيقتها وواقعيتها الأصلية . وأنه لا موجب للشك بواقعية شخصية عرفت تحت الاسم (موسى) ولكن سيرته الذاتية والخيوط المميزة لشخصيته تفوتنا . إن حياته بالواقع البسيط الذي أصبح فيه كارزمية Charismatique وخرافيا ، تبدأ بانقاذه الاعجازي في سلة من البايروس موضوعة بين قصب النيل وتحتذي نمودج عدد من /الأبطال/ [تيسيه ، بيرسيه ، سرجون ، الاكادي ، روميلوس ، سيروس الخ] .

إن اسم /موسى/ كما هي أسماء أعضاء آخرين من أسرته ، هو اسم مصري ، يحتوي العنصر msy «مولود - ابن ، وهو قابل للمقارنة بأحموسس أو رمسيس (Ra - mces = ابن - رع) . واسم أحد أبناء ليفى ، ميراري ، هو المصري ، رمري ، (المحبوب جداً) . وبينحاس حفيد هارون هوب - ن . هيس (العبد) . ومن غير المستبعد أن الشاب موسى عرف /الاصلاح الديني/ لاختاتون (١٣٧٥ - ١٣٥٠) . هذا الاصلاح الذي أبدل عقيدة /أمون/ /بالتوحيد/ الشمسي لأتون . ومن الملاحظ التشابه بين الديانتين^(٢٥) : آتون نفسه ، أعلن /الآله الأواحد/ مثل يهوه ، فهو الآله (الذي خلق كل ما هو موجود) ، وأخيراً فإن الأهمية المعطاة باصلاح إختاتون للتعليمات قابلة للمقارنة بدور التوراة في اليهودية . ومن جهة أخرى ، فإن المجتمع الشاذ الذي تربى فيه موسى ، بعد مرور جيلين من حظر اصلاح /إختاتون/ لم يستطع أن يجتذبه . ان العالمية والتوفيقية الدينية (على الأخص بين ديانات مصرية وكنعانية) وبعض الممارسات الجنسية (ختان الجنسين) ، و/عبادة/ الحيوانات كلها شكلت مزيداً من الكراهية بالنسبة لبعض من نشأ وتربى في ظل /ديانة الآباء/ . أما بالنسبة للخروج من مصر ، فيبدو على التأكيد ، أنه يعكس حدثاً تاريخياً . مع ذلك ، لا يتعلق بخروج شعب بكامله ، وإنما جماعة فقط ، وبدقة جماعة من أولئك الذين /قادهم/ موسى وجماعات أخرى كانوا قد بدأوا الدخول بشكل أو بآخر ، بطريقة سلمية في أرض كنعان . وفيما بعد ، فإن الخروج قد طالبت به مجموعة القبائل الاسرائيلية كمشهد لتاريخها المقدس . وان ما يهم بالنسبة لموضوعنا ، هو أن الخروج من مصر قد وضع بعلاقة مع احتفال عيد الفصح ، وبعبارة أخرى ، ان أضحية قديمة مخصصة بالرعاة الرحل ، ومورست منذ ألوف السنين من قبل أجداد الاسرائيليين قد اعيد تقييمها وأدخلت في التاريخ المقدس / لليهودية . ان شعيرة متضامنة مع التدين الكوني (عيد رعوي في الربيع) قد اعتمدت كذكرى لحدث تاريخي . وان تحول البنيات الدينية من نموذج كوني لحدث من التاريخ المقدس هو أمر مميز للتوحيد اليهودي ، وستأخذ به المسيحية وتستمر عليه .

بينما كان موسى يقوم برعاية اغنام (تيرو) حميه وكاهن مدين ، ساق الغنم الى ما وراء الصحراء ، الى جبل حوريب ، وهناك رأى (شعلة نار تنبثق من وسط عليقة وسمع صوتاً يناديه باسمه . وبعد بضع لحظات ، عرفه الله بنفسه بأنه «رب أبيك ، رب ابراهيم ، رب اسحق ، رب يعقوب» [خروج ٣ : ٦] مع ذلك ، ستر موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر الى الله . وقبل الأمر بالذهاب لايجاد أبناء اسرائيل وليقول لهم : «إن رب آبائكم أرسلني نحوكم ، ولكن اذا طلبوا ما هو اسمه فيماذا أجيبهم ؟» (٣ : ١٣) عندها قال له الرب : أنا هو الكائن je suis celui qui suis . وقال له كذا قل لبني اسرائيل ، الكائن أرسلني اليكم . (٣ : ١٤ ع)

لقد جرى نقاش كثير حول هذا الاسم^(٢٦) . وإن جواب الرب غامض للدرجة كبيرة : لقد أجرى تورية ليكونته ، وانما بدون أن يكشف شخصيته . وكل ما يمكن قوله أن الاسم الالهي يوحى ، اذا استعملنا عبارة حديثة ، جملة أو كلية totalite الكائن والوجود . وقد يكون يهوه أعلن أنه رب ابراهيم والآباء الآخرين ، وهذه الهوية قد قبلت اليوم من كل أولئك الذين ادعوا الارث الابراهيمي . وفي الواقع يمكن كشف بعض الاستمرارية بين رب الأب والرب الذي تجلى لموسى . وكما لاحظنا «يوجد بدتيا الواقع الذي ولدت فيه اليهوديه ضمن وسط من الرعاة وتطورت ونمت في الصحراء . ان العودة لليهودية الصرفة ستبدو ماثلة كعودة لحالة الصحراء : وسيكون هذا (المثل الأعلى البدوي ، للأنباء)^(٢٧) . وتماثلاً مثل رب الأب . فإن يهوه لم ولن يرتبط بمكان متميز ، وعلاوة على ذلك ، فإن له علاقة متفردة مع موسى بصفته رئيس مجموعة .

غير أن للفوارق دلالتها . ففي حين كان رب الأب مغفلاً anoyne ، فإن يهوه اسم علم أوضح سره وعظمته . إن العلاقات بين الاله والمؤمنين قد تغيرت : فلم يعد الكلام مطلقاً عن (رب الأب) وانما عن /شعب يهوه/ . وان فكرة الاختيار الالهي الماثلة

في العهود المقطوعة لابراهيم (تكوين ١٢ : ١ - ٣) تتحقق : يهوه يدعو ذرية البطارقة (الآباء) «شعبي» انهم ، حسب تعبير ر . دي فو R. de Vaux «ملكيته الشخصية» . ويتبعنا عملية تمثل رب الأب لإيل فإن يهوه أيضاً قد تماثل به . وقد استعار من إيل البنية الكونية وأخذ منه لقب الملك ومن ديانة إيل ، أخذت اليهودية أيضاً فكرة اللطف الالهي cour divine الذي صنعته «البنيني ايلوهيم ، les beñe élohim»^(٢٨) . ومن جهة أخرى ، فإن الصفة الحرية ليهوه تحدد دور الاله الأب كحامي المؤمنين بامتياز .

إن جوهر الكشف قد تركز في الوصايا العشر Decalogue (خروج ٢٠ : ٣ - ٣٤ و٧/ع ٢١) . وهذا النص في شكله الحالي لا يمكن أن يعود في تاريخه لعصر موسى ، غير أن أهم الأوامر فيه تعكس بالتأكيد الروحية اليهودية البدائية . إن أول مادة من الوصايا العشر (لا يكن لك آلهة أخرى غيري) ، تبرهن انها لا تتعلق بالتوحيد في المعنى الوثيق للكلمة . فوجود آلهة أخرى غير محدود . ففي أغنية النصر المرددة بعد عبور البحر يهتف موسى : «من مثلك في الآلهة يا رب . من مثلك جليل القدس مهيب التسابيح صانع المعجزات (خروج ١٥ : ١١) . ولكن الايمان مطلوب لأن يهوه /اله غيور/ (خروج ٢٠ - ٥) [لا تسجد لمن ولا تعبدن لأنني أنا الرب الهك اله غيور أفتقد ذنوب الآباء في البنين الى الجيل الثالث والرابع من مبغضي] «٢٠ - ٥» ان المعركة ضد الآلهة المزيفة قد بدأت مباشرة بعد الخروج من الصحراء في (بعل بيور) . فهناك دعت بنات المؤابيين الاسرائيليين للتضحية لألهتهن . «وأقام اسرائيل بشطيم وأخذ الشعب يفجرون مع نبات مؤاب» فدعون الشعب الى ذبائح آلهتهن فأكل الشعب وسجدوا لألهتهن . وتعلق اسرائيل (ببعل بور) فاشتد غضب الرب على اسرائيل « [سفر العدد ١ - ٤] . وباظهار غضب يهوه على اسرائيل ابتدأت المعركة في بعل بيور وهي ما زالت قائمة .

وإن معنى الأمر الثاني (لا تصنع أية صورة . . .) ليس من السهل إدراك دلالة . إنه يتعلق بمنع عبادة الأصنام . فكان معلوماً أن الصور المألوفة في عبادات الوثنيين لم تكن سوى دعاء للآلوهية . وعلى الأرجح ، فإن الفكرة المستكنة في هذا الأمر تستوجب تحريم تمثيل بشيء طقوسي . وكما أنه لم يكن له /اسم/ فإن يهوه يجب أن لا يكون له /صورة/ . ان الرب يمكن من رؤيته بعض المميزين بصورة مباشرة ، وبالنسبة لبقية

البشر ، فانه يظهر عبر أفعاله . وخلافاً لبقية الآلهة في الشرق الأدنى ، التي كانت تظهر في آن واحد تحت شكل بشري وحيواني أو كوني ، فان يهوه قد أدرك استثناء بشكل بشري . وانما يوجد أيضاً عودة للتجليات الكونية لأن العالم بكامله هو خليقته .

إن تجسيم يهوه له مظهر مزدوج . فمن جهة يظهر مزايا وعيوب بشرية خاصة : شفقة وحقد ، سرور وحزن تسامح وانتقام . «مع ذلك لا يظهر عيوب وضعف الآلهة السومرية ، ولا يقبل أن يكون هزأة كبعض آلهة الأوليمب»^(٢٩) . ومن جهة أخرى ، فان يهوه لا يعكس أبداً ، مثل أكثرية الآلهة ، الوضع البشري : فليس له عائلة ، وانما مجرد بلاط سماوي . فيهوه واحد . أيتوجب رؤية أثر بشري في واقعة أنه يطلب من المؤمنين به طاعة مطلقة ، كطاغية شرقي ؟؟ انه يتعلق بالأولى برغبة لا انسانية من كمال وطهارة مطلقين . ان عدم التسامح والتعصب المميزين للأنبياء ومبعوثي الأديان التوحيدية الثلاثة يجدان نموذجهما وتبريرهما في مثال يهوه .

كذلك فان عنف يهوه قد فجرّ البنى البشرية . فغيظه يبدو أحيانا غير معقول لدرجة أنه أمكن القول بشيطانية يهوه .

من المؤكد ، أن بعضاً من الملامح السلبية قد تصلبت بعد فترة من احتلال أراضي الكنعانيين . ولكن هذه الملامح السلبية تعود للبنية الاصلية ليهوه . وفي الواقع ، انه يتعلق بعبارة جديدة ، وإن أكثرها تأثيراً ، الربوبية المختلفة تماماً عن خليقته ، و«كالآخر المتميز» . ان ترابط /الصفات/ المتضادة ، وعدم عقلانية بعض أفعاله ، تميز يهوه عن كل (مثال للكمال) على المستوى البشري .

من هذه الوجهة النظر ، فإن يهوه يشبه بعض الآلهة الهندوسية ، انه يشبه «شيفا» على سبيل المثال أو كالي دورغا Kali - Durga ، وانما مع فارق ملحوظ : هذه الآلهة الهندية تقع ما وراء الأخلاق ، وبطريقة تكوينها تشكل نموذجاً مثالياً لا يتردد المؤمنون بها من احتذائه . وعلى العكس فإن يهوه يعطي الأهمية الكبرى للمبادئ الأخلاقية . وإلى الأخلاق العملية : على الأقل إن خمسة أوامر من الوصايا العشر تعكس ذلك .

حسب القصة التوراتية ، فانه بعد ثلاثة أشهر من الخروج من مصر في صحراء سيناء ، حصل التجلي . « جبل سيناء برمته كان مجللاً بالدخان ، لأن يهوه كان قد نزل عليه تحت شكل نار . فالدخان ارتفع كما لو أنه من أتون وكل الجبل ارتعد بعنف ، لقد كان هنالك صوت البوق آخذاً في الاشتداد جداً وموسى يتكلم والله يجيء بالصوت [الخروج - ١٩ - ١٨ - ١٩] . عندئذ ظهر يهوه للاسرائيليين الذين بقوا في أسفل الجبل وأبرم معهم عهداً وإيملاءً بنصوص العهد ، الذي افتتح بالوصايا العشر وتضمن عدداً من المقررات المتعلقة بالعبادات (خروج ٢٠ : ٢٢ - ٢٦ - ٢٤ - ٢٦) (٣٠) . وبعدئذ ، كان لموسى لقاء آخر مع يهوه ، وتلقى منه (لوحى العهد لوحان من حجر كتبت باصبع الاله) [٣١ : ١٨] . وهنالك نص آخر ٣٤ : [١ ، ٢٨] . وقد لاحظ ميندهال Mendelhall (٣١) ان الشكل الانشائي لقانون العهد يذكر بمعاهدات الملوك الحثيين للسنة الألفين مع اتباعهم في آسيا الوسطى . ولكن المشابهات بين الصيغتين رغم واقعيتهما لا تبدو حاسمة .

لا يعلم شيء دقيق عن العقيدة المتبعة من قبل الاسرائيليين خلال السنوات الأربعين التي مرت في التيه (الصحراء) . وان سفر الخروج (٢٦ ، ٣٨ : ٨ - ٣٨) يصف بالتفصيل معبد الصحراء : إنه يتكون في خيمة اللقاء التي تستظل تابوت العهد الذي هو صندوق من خشب يحتوي - حسب تقليد متأخر - لوائح الشريعة (سفر تثنية الاشتراع Donteromono ١٠ - : (٥) الخ . ومن الراجح جداً ، أن هذا التقليد يعكس حالة واقعية . إن الخيمات أو الهودج العقائدية ، التي كانت تحمل بها الأصنام من الحجارة مؤكدة لدى العرب قبل الاسلام . وان النصوص لا تذكر التابوت Parehe والخيمة مجتمعتين ، الا أنه من المرجح أن كل ذلك كما كان عند العرب حيث كانت الخيمة تجل أو تغطي التابوت . وكما حصل في مرة أخرى فإن رب الأب يهوه قد قاد شعبه . إن التابوت كان يرمز لهذا الحضور الغير مرئي ، ولكنه يستحيل معرفة محتواه .

وتبعاً للتقليد ، فإن موسى مات في وهاد مؤاب بمواجهة (جرش) فقد أراه يهوه بلاد كنعان : «لقد أريتها لك بعينيك ولكنك لن تجتازها» [تثنية الاشتراع ٣٤ - ٤ والاعداد ٢٧ : ١٢ - ١٤] . إن هذا الموت يتناسب أيضاً مع الشخصية الأسطورية والنموزجية لموسى . وكل ما يمكن قوله عن الشخصية المعروفة بهذا

الاسم ، انه قد تميز باللقاءات المأساوية والمكررة ، مع يهوه . فالكشف الذي كان موسى فيه الوسيط ، جعل منه في آن واحد نبياً وجلياً (شطحوياً) extatique ووسيط وحي oraculaire وساحراً ونموذج اللاوي (كاهن المعبد) ورئيساً لدياً charismatique بامتياز ، نجح في تحويل جماعة من القبائل الى نواة أمة وهو شعب اسرائيل .

٦٠ - الدين في ظل القضية : المظهر الأول للتوفيقية

من المتفق عليه تسمية عصر القضية بالفترة التي تمتد بين ١٢٠٠ ق . م عندما دخلت جماعة موسى بلاد كنعان بقيادة يوشع حتى ١٠٢٠ ق . م عندما أعلن شاؤول ملكاً . ان القضية كانوا رؤساء عسكريين مستشارين وقضاة حكم وانه خلال هذه الفترة ، قبلت بعض القبائل اليهودية . وبصورة خاصة على اثر بعض الانتصارات الملوية ، ان يهوه يتدخل مباشرة في المعركة . لقد أكد ليوشع : «لا تخافهم لقد أسلمتهم لقوتك . (سفر يشوع : ٨-١٠) . وفي الواقع ، فإن يهوه أطلق من السماء حجارة .. «وفيا هم منهزمون من وجه اسرائيل وهم في منهبط بيت حورون رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء الى عزيقة فهلكوا وكان الذين هلكوا بحجارة البرد أكثر من الذين قتلهم بنو اسرائيل بالسيف» (يوشع - ١٠ : ١١) . بعد النصر ضد /يايين/ Yabin ، ملك الكنعانيين ، أنشد ديورا وباراك Deboretbarak الغضب الالهي : «يهوه ، عندما خرجت من سير Ser [...] اضطربت الأرض وارتعدت السماوات ونضخت الغمام ماء» (قضاة ، ٥ : ٤) واجمالا فان يهوه تبدى أكثر قوة من آلهة الكنعانيين . واكتملت الحرب باسمه أنها حرب مقدسة^(٣٢) : فالرجال تقدسوا (qidde's) وعليهم أن يحترمو الطهارة الشعائرية . أما بالنسبة للسلب (الغنيمة) فهو «محرم» أي أنه بكامله يتلف ، تقدمه في محرقة يهوه .

ولكنه بممارسة نموذج جديد من الوجود ، فإن اليهودية قد تطورت وتغيرت . ويلاحظ بدياً ردة ضد القيم المجدلة من قبل كل المجتمعات الرعوية . فقانون الضيافة

قانون مقدس عند كل البدو الرحل ، ولكنه انتهك بخيانة من يائيل Yael التي دعت لخيمتها الرئيس الكنعاني / سيزل/ الذي هرب بعد فشله ، وقتلته أثناء نومه (قضاة ٤ : ١٧) . والمعبد المتنقل منذ عهد موسى سقط بعدم الاستعمال . والآن مورست العبادة في المعابد والمستقرات المقدسة . ، ولكن ، وكما أنه يتوجب الانتظار ، فإن المواجهة بصورة خاصة مع الدين الكنعاني سيكون لها نتائج بارزة . ومن جهة أخرى فإن هذه المواجهة تتمدد حتى القرن السابع قبل المسيح . على اثر الاتحاد يهوه - ايل ، فإن المعابد الما قبل اليهودية عائدة لعبادة ايل ، كذلك فإن عدداً من المعابد الكنعانية ، أوقفت ليهوه^(٣٣) . وأكثر إثارة للدهشة ذلك الخلط الذي حصل في عصر القضاة ، بين يهوه ويعل : فيصافد أسماء مؤلفة مع بعل حتى في العائلات المشهورة بعقيدتها اليهودية . فجدعون الشهير يسمى أيضا يور بعل Yorubbaal (معركتبعل) (قضاة ٦ : ٣٢) . وان هذا ما يدعو للافتراض بأن الكلمة بعل (سيد) كانت مفهومة كعت أوصفة يهوه ، أو أن بعل كان معجداً الى جانب يهوه^(٣٤) . في البدء ، يمكن أن يكون بعل قد قبل «كاله مزدرع» اختصاصي ممتاز للخصب . ولم يمض وقت طويل حتى مورست عبادته وأصبح الدليل المثالي للردة .

ان النموذج التضحيي الكنعاني قد تم تبنيه في شطر كبير منه ، وكان الشكل الأكثر بساطة للتضحية يجري في تقديمها على مكان مخصص لكافة التقدّمات ، كما كان يحصل في إراقة الزيت أو الماء ..

إن التقدّمات كانت تعتبر كأغذية للآلهة (قضاة ٦ : ١٩) ولكن الاسرائيليين بدأوا الآن بممارسة المحرقة التي فسروها كقربان مقدم ليهوه . وقد استعاروا إضافة لذلك ، عدداً من الممارسات الكنعانية ذات العلاقة بالزراعة ، وحتى بعض الطقوس التهتكية . ان عملية التمثل تتكشف بشكل خارج عن الحد في ظل الملكية عندما سمع الحديث عن الختان المقدس للجنسين .

إن المعابد قد بنيت طبقاً للنماذج الكنعانية ، فهي تحتوي على مذبح masebah (حجارة منصوبة) وعلى عشيرة (asherah) (آنية من الخشب ترمز للربة الكنعانية بذات الاسم) وآنية للاراقة . وبين الأشياء الطقوسية ، يشار إلى أكثرها

أهمية : التيرافيم teraphim (صورة أو أفعنة) والايفود ephode (هي في الأصل ثوب موضوع على الصورة) . وحول المعابد التي يقوم عليها حراسها ينتظم التشخيص الشعائري . وهو بالدرجة الأولى يتعلق بالكهنة واللاويين : فهم يقدمون الاضاحي ويسبرون إرادة يهوه عن طريق القرعة والايفود . وإلى جانب الكهنة واللاويين يوجد متنبئون أو متبصرون (رؤاة) Röeh ولكنه لا يعرف الكثير عن مهمتهم . إن الرائي لم يكونوا مرتبطين بالمعابد مثل الأنبياء (nâbûm) وإن النموذج الأكثر تألقاً هو بالاعوم Balaam : (سفر الاعداد : ٢٢ - ٢٤) انه يرى يهوه في المنام أو في حالة اليقظة ، ويجب أن يرى الاسرائيليين لكي يدعوا لهم . وإن هذا النموذج من الوجد قد تأكد في مجتمعات بدورحل أخرى (مثلاً - الكاهن عند العرب)^(٣٦) . إن وظيفة (النبى) Nabi كانت الأكثر أهمية وسنعود لهذه الوظيفة فيما سيأتي (ف . ١١٦ ع) . ونشير هنا فقط إلى أن النبوة الوجدية الاسرائيلية تغوص جذورها في الديانة الكنعانية^(٣٧) وفي الواقع ، أن عبادة البعل تتطلب انبياء (الملوك ١ - ١٨ : ١٩ والملوك ٢ - ١٠ - ١٩) إلا أنه يتعلق بنموذج للتجربة الوجدية الشائعة لحد ما في الشرق الأدنى القديم ما عدا مصر . إن السومريين كانوا يعرفون (الرجل الذي يخترق السماء) وتلك اشارة تدل على سفر وجدي قابل للمقارنة بالشامان . ففي حفريات ماري Mari ، تتكلم نصوص تعود إلى القرن الثامن عشر عن (الأبيلوم apilium الذي يجيب ، وعن الملهم mulhuem والمهتم muhhitum ، رجال أو نساء يتلقون الوحي الالهي في الحلم أو في رؤاهم . وإن هؤلاء المستجيبون والمهمون muhhim àpilum يناظرون الأنبياء nabéim . وهم كأنبياء اسرائيل يستعملون جملاً من الموحيات أكثر إيجازاً ويرسلون رسائلهم للملوك ، حتى ولو تعلقت بأخبار سيئة أو انتقادات ضد بعض الملوك^(٣٨) .

وفيا سبق في القرون الأولى من الغزو والاستعمار يلاحظ تأثير كنعاني هو في آن واحد ، عميق ومتعدد الاشكال . وفي الواقع ، لقد أخذ عن الكنعانيين النظام الشعائري ، والمزارات المقدسة والمعابد ، وإن الطبقة الكهنوتية تنظمت طبقاً للنماذج الكنعانية ، وأخيراً ، فإن الأنبياء ، الذين لم يتأخروا عن معاودة

العمل ضد سيادة الكهنة وضد التوفيقية مع طقوس الخصب ، هم ، أنفسهم أيضا ، حصيلة التأثير الكنعاني . ومع ذلك ، فإن الأنبياء يظهرون بأنهم اليهوديين الأكثر نقاء . وقد كان لديهم حق ، من بعض وجهات النظر ، ولكن اليهودية التي أعلنوها كانت قد تمثلت العناصر الأكثر إبداعاً للدين والثقافة الكنعانيتين ، اللتين مورستا بفضاظة من قبل الأنبياء .

حواشي الفصل السابع

- ١ - ان المسائل المطروحة في مصادر وكتابة الاسفار الخمسة من كتاب التوراة هي محل اعتبار ويكفي التذكير هنا بأن المصادر قد عينت بعبارة : ييبوية Yahuiti ، لأن هذا المصدر الأكثر قدما (القرنين ١٠ و ١١). يسمى الاله ييهو ايلوهيت ولفترة غير بعيدة يستعمل اسم (يلوهيم) (رب) كهنوتي و(أكثر حداثة : عمل الكهنة . . وتصر على العبادة والشرعة) وسفر التثنية . . والمعتمد هنا في هذا الكتاب بالدرجة الأولى توراة أورشليم ، ان لم يكن هنالك دليل مخالف .
- ٢ - في العديد من التقاليد ، ان الخالق قد تخيل بشكل طائر ، إلا أنه يتوجب تصليب الرمز الأصلي : الروح الالهي تفارق الكتلة المائية ، انه حر لأن يتحرك ، وبالنتيجة يطير كعصفور. ولنتذكر أن الطائر هو احدى الصور القديمة للنفس .
- ٣ - ونضيف أن الكلمة الخالقة للآلهة قد تأكدت في تقاليد أخرى ، ليس في اللاهوت المصري فحسب ، وانما أيضا لدى البولنيزيين (م - الياد - الأساطير ص ٤٤)
- ٤ - ولكنه يوجد نصوص أخرى تثير الانتصار ضد غول افعواني يسمى تنين Tannin أو رحاب أو ليفياتان والذي يذكر بالتقاليد الميزوبوتامية والكنعانية (انظر على سبيل المثال المزامير) .
- ٥ - انه يتعلق بخط مميز لعلوم الكائن القديمة (الانطولوجيا القديمة . فالحيوانات والنباتات بدأت في الوجود حقيقة بدءاً من الفترة التي أعطيت لها أسماء (انظر على سبيل المثال القبيلة الاسترالية في كتاب الاساطير لالياد . . أحلام وغوامض ص ٢٥٥) .
- ٦ - ولننصف إلى هذا تبعاً لتقاليد متعددة بوفاة الروح ترجع لحضرة خالقها السماوي ، وان الجسم يرجع للأرض ، ولكن هذه الثنائية الانتروبولوجية قدرفضت من قبل كتاب الأنجيل ، وكما هو من أكثرية معاصريهم في الشرق

الايوسط . وليس الا في وقت متأخر قد طرحت مفاهيم انتروبولوجية جديد أكثر جرأة .

٧ - ثنائية الجنس الالهي واحدة من صيغ متعددة من الكلية التي تعني باتحاد ، أزواج ، متعارفة : نسوي - ذكوري ، مرأي - غير مرئي ، سماء - أرض ، ضوء - ظلام ، وأيضاً ، طيبة - خبث ، خلق - تدمير الخ . . والتأمل لهذه الأزواج المتعارضة ، قاد في أديان مختلفة إلى نتائج جريئة تتعلق أيضاً بالشروط الظاهرة التناقض للألوهة أكثر مما بإعادة التقييم للشروط البشري .

٨ - جنة عدن - إن الكلمة متقاربة في العبرية من كلمة لذينة eden . وعبرة فردوس باللغة الأجنبية paradi هي من مصدر إيراني (بيرى - دايزا) وهي متأخرة جداً . . وان صوراً موازية مألوفة بصورة خاصة في الشرق الأدنى والعالم الإيجي ، تمثل ربة كبيرة بالقرب من شجرة الحياة ومن نبع متجدد الحياة ، أو شجرة الحياة محروسة من قبل غيلان وعنقاوات .

٩ - يضاف لهذا بأن أسطورة /السقوط/ لم تكن مفهومة دوماً تبعاً لتفسير توراتي . على الأخص بدءاً من العصر الهلنستي وحتى العصور الاشتراكية ، وأن إيماءات غير محصورة قد جرت لأحياء ميثولوجيا أولية أكثر جرأة وأكثر أصالة بمئات المرات .

١٠ - م . اليادحدادون وكيمايون ص ٨٨

١١ - حتى يومنا هذا فإن الشامان يتعاطى هذا السفر السهاوي (بالروح) أي في رعشة وجدو .

١٢ - بالتأكيد (يلون) هو مفارقة تاريخية Onachronisme . هنا وفي كل المقاطع التي سبق ذكرها . لأن هذا الاسم قد تكشف مؤخراً لموسى .

١٣ - كما يثبت البرايت abright في عنة أعمال . انظر في مكان آخر يهوه والآلهة الكنعانيين .

١٤ - ١٥ - المرجع - abright والحصاد وأثر ذكرها .

١٦ - في القرن ١٩ ق م اتخذ الآشوريون في قبوسية كشهود (إله أبي) أو (أبوك ، أبوه الخ)

١٧ - ديفو ص ٢٦١ (نص العهد يرد بشكل مألوف في التكوين ويظهر تحت أشكال مختلفة : عهد بالذرية ، بالأرض أو بالأثنين معاً)

١٨ - القصص البطيركية تسير لأساء مؤلفة من العنصر el ايل متبوعاً باسم . . .

راشكوني ١٦ : ١٣ ٢١ - ٣٣ - ٣١ - ١٣ . الخ .

١٩ - R.de vaux ص ٢٧١ «في الجزيرة العربية الوسطى ، كانت الضحية تذبح على حجر منصوب رمز

الحضور الالهي ، وكان الدم يراق على الحجر أو ينثر في حفرة محفورة على قدم هذا الحجر :

ومثل هذه الضحايا كانت تقدم على الأخص في الأعياد التي كان العرب الرحل يحتفلون بها في الشهر

الأول من الربيع لضمان الخصب ونمو القطيع . ومن المراجع أن أجداد اسرائيل ، الرعاة نصف الرحل

كانوا يحتفلون فيما سلف بعيد مشابه .

٢٠ - إن القصص (الأبوية) البطيركية تتكلم عن بعض الأشجار المقدسة : على سبيل المثال بلوطة مورقة chène de morcène (١٢ : ٦) بلوط حرا (١٣ - ١٨) هذه الأشجار للآباء التي غدا تقليديها مزعجاً ، قد حرمت فيها بعد عندما أدينت ، أمكنة عبادة الكنعانيين المستقرين (على التلال) تحت كل شجرة خضراء .. (التينة : ١٢ : ٢)

٢١ - R. de Vaux ص ٢٧٠ (العبارات الأولى في النصوص القديمة بالتأكيد تعود في تاريخها لعهد القضاة)

٢٢ - H. Ruvikg - الديانة في اسرائيل ص ٢٧ . وفي الواقع أن النص يعطينا القليل عن اشباع حول الدين المطبق من قبل بعض أبناء يعقوب ، ولكننا لاندكر الكثير من التاريخ الذي يشير لهم وعلى سبيل المثال قصة سيمون ولفي في سيعشين تكويني ٣٤ ويهوذا وثامار تكويني ٣٨ وندكر قصة سيمون ولفي حسب التكوين ٣٤ : وهي تروى : أن دينة بنت يعقوب التي ضاجعها عنوة شكيم بن حود ثم تزوجا ودخل بالدين واختن هو وجماعته ودفع المهر وظن الأمر متهياً ولكن أولاد يعقوب أغاروا على المدينة وأحرقوها وقتلوا شكيم ونهبوا المدينة الخ .. وقصة تamar (الفصل ٣٨) التي مات زوجها ولم يتزوجها شقيقه ، ثم كيف احتالت لصبغة بغي على يهوذا فضايجها وحملت منه توأمين .. الخ .

٢٣ - إن أعمالاً بسيطة مثل الجروح العشر أن اجتياز بحر القصب لا يمكن اعتبارها كأحداث تاريخية . وعلى العكس فإن تفسير حادث تاريخي للنصوص التوراتية سيكتشف عن متعة لاحد لها . لقد ميز التحليل العديد من التأليف المنشأة في عصور ومنظورات لاهوتية مختلفة . إضافة لذلك لقد وحدت الانطباع بعدد من الأنواع الأدبية وإن الظاهرة التاريخية لمشهد أصبحت خاضعة للعناية عندما يكتشف أن الكاتب قد استعمل كليشيات بعض أنواع من الأدب ، قصة - أمثال . الخ .

٢٥ - انظر على سبيل المثال . Albright من عصر الحجارة - الى المسيحية ص ٢١٨ - المرحلة التوراتية من ابراهيم لعنرا .

٢٦ - ٢٧ - انظر المراجع المتعددة التي سجلها Ringgen ص ٤٣ وفوهرر .. الخ

٢٨ - ولكنه لايلو دقيقاً إن ايل أعطى لطفة وشفقة ليهوه الذي كان بدايئاً وآلهاً متوحشاً وعنيفاً . وفي النص القديم على الأرجح من الخروج ٣٤ - ٤٦ يبرز يهوه نفسه كإله للرحمة أو التسامح ص ٤٢٨ -

٢٩ - دين اسرائيل R. de Vanx

٢٩ - Fohrer ص ٧٨

٣٠ - من غير المفيد التأكيد بأن كل هذه النصوص قد حررت أدامليت بعدئذ .

٣١ - كان C. E. Mendohall قد قبل مع غيره الفرضية التي تشير لعلاقة الكنعانيين الخ .

٣٢ - تعبير محرم Rérem يشتق من جذر يعني مقدس . والظاهرة اعتبرت من قبل رنغيرن - نموذج اسرئيلي . ولكن lodis يشير لأمثلة أخرى وليس لدى الساميين فقط

- ٣٣ - انظر قائمة بهذه المعابد في Fohrer ص ١١١ - ١١٣
- ٣٤ - Ringgreu ص ٥٦
- ٣٦ - بيد رسون (الدور الذي يلعبه أشخاص ملهمون بين الاسرائيليين والعرب .. الخ .
- ٣٧ - A. Hidar - مشاركة عبادة الأنبياء بين الساميين القدامى
- ٣٨ - Lim llen .. وغيره .. يذكرون أمثلة أخرى من البابليين والآشوريين

الفصل الثامن

ديانة الهندو- اوروبيين الآلهة القيدية

٦١- ما قبل التاريخ الهندو- الأوروبيين .

إن غزوة الهندو- أوروبيين في التاريخ متميزة بتخريبات مرعبة . فبين ٢٣٠٠ و ١٩٠٠ ق م ، في اليونان وآسيا الوسطى وميزوبوتاميا ، نهب و احرقت مدن عديدة ، وهذا ما حصل لطروادة حوالي ٢٣٠٠ ق م وييدي سلطان وترسوس وثلاثمائة مدينة وتجمعات في أناتوليا . وتشير الوثائق إلى تجمعات عرقية تسمى الحثيين واللويين والميتانيين . ولكن عناصر ايرانية قد تأكدت هي أيضاً في جيوش أخرى للغزاة . إن تبعر الشعوب الهندو- أوروبية كان قد بدأ قبل عدة قرون ، وامتد خلال ألفي عام . فنحو ١٢٠٠ ق م تغلغل الآريون في سهل الهند

الغانجي ، والايرانيون كانوا قد توضعوا بثبات في فارس ، وان اليونان والجزر كانت هندية - ومتأورة Inda- europheanisées .

وبعد بضعة قرون امتدت الهندو- أوروبية في الهند وفي شبه جزيرة ايطاليا ، ولشبه جزيرة البلقان والاقاليم الكارباتية - الدانوبية وأوروبا الوسطى ، الشمالية والغربية - بدءاً من الفيستولا حتى بحر البلطيق وإلى الاطلنطي وإن هذه العملية المتميزة - هجرة ، غزو أقاليم جديدة ، احتلال ، المتوقعة بتمثل للسكان لم ينقطع إلا في القرن التاسع عشر من عصرنا . ولا يعرف مثل آخر مشابه للتوسع اللغوي والثقافي .

ومنذ أكثر من قرن اهتم العلماء وبذلوا ما في وسعهم لاعطاء هوية للوطن الأصلي للهندو- أوروبيين ، ولحل رموز ما قبل تاريخهم ولتوضيح مظاهر هجراتهم . لقد جرى البحث عن الوطن الأصلي في شمالي ووسط أوروبا ، وفي سهوب روسيا وفي آسيا الوسطى وAnatolie ، الخ وقد اتفق اليوم على تعيين المقر الأصلي للهندو أوروبيين في أقاليم شمالي البحر الأسود ، بين جبال الكاربات والقوقاز^(١) . ففي شمالي البحر الأسود نمت ما بين الألف الخامسة والثالثة ، الثقافة المسماة التومولي Tumuli (بالكورجانية Kurgan) وحوالي ٤٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ ق . م يلاحظ امتدادها الغربي حتى تيزا Tiza . خلال الألف التالية ، تسرب ممثلوا الثقافة (الكوجان) في أوروبا الوسطى ، وفي شبه جزيرة البلقان وفي ترانسكوكازيا Transcaucasie وفي اناتوليا Anatolie ، ولشمالي ايران (حوالي ٣٥٠٠ - ٣٠٠٠ ق م) ؛ وفي الألف الثالثة أدركوا الشمال الأوروبي ، والمنطقة الايجية (اليونان وشطآن اناضوليا) والبحر المتوسط الشرقي . وحسب رأي الباحث ماريجيا جيمبوتا Marigia Gimbutas ، فإن الشعوب التي نطقت وحملت ثقافة (التومولي) لا يمكن أن تكون سوى شعوب ما قبل هندو- أوروبية وفي المظاهر الاخيرة للشعوب ، الهندو- أوروبي .

ومهما يكن من امر ، فمن المؤكد أن أصول الثقافة الهندو- أوروبية تغوص في العصر الحجري الجديد النيوليتيك وربما حتى الميزوليتيك . ومن جهة أخرى ،

فمن المؤكد أيضاً انها خلال عصر تشكلها ، كانت هذه الثقافة قد تأثرت بالحضارات الأعلى للشرق الأدنى . إن استعمال العربية والمعدن^(٢) قد انتقلت بواسطة ثقافة من اناضوليا [الثقافة المسماة (كورو- آراكساس Kuro- Araxas)] . وفي الألف الرابعة . تبدو معارة لشعوب اقليم البلقان - والبحر المتوسط تماثيل تظهر ربة جالسة مصنوعة من الطين أو الرخام أو المرمر . وإن الكلمات العامة تظهر ان الهندو أوروبيين كانوا قد مارسوا الزراعة ، ودجنوا القطعان (ولكن أيضاً ، الخنزير وعلى الأرجح الغنم) . وقد عرفوا الحصان المتوحش أو المدجن . ومع انها لم تستطيع التنازل أبداً عن المنتجات الزراعية ، فإن الشعوب الهندو-أوروبية قد طورت إلى الافضل اقتصاداً رعوياً . إن البداوة الرعوية ، والبنية الأبوية للأسرة والولع بالغزوات والتنظيم العسكري بهدف الغزو ، كل ذلك يشكل خطوطاً مميزة للمجتمعات الهندو-أوروبية . وقد لوحظ أن هناك فارق اجتماعي جذري ، ولحد كبير يبرز ، التباين بين التومولي Timuli (مقابر منشأة بشكل بيت ومزخرفة بمظاهر غنى) وبين المقابر الأكثر فقراً . ومن المرجح جداً ان التيمولي (كورجان) كانت مخصصة لجثث الرؤساء

والذي يعني هنا ، هو أن نحدد في أي مقياس شجعت وسهلت هذه الطريقة من الحياة - بداوة رعوية ، منظمة بصرامة ، وبهدف الحروب والغزوات - انبثاق القيم الدينية المميزة . من الواضح أن خلق المجتمعات الزراعية لايتلاءم أبداً مع التساميات الدينية لمجتمع رعوي . ومن جهة أخرى فإنه لا يوجد أبداً مجتمع رعوي مستقل تماماً بالاقتصاد وبالدين عن المزارعين . وأكثر من هذا ، إن الهندو أوروبيين في هجراتهم وغزواتهم اخضعوا وتمثلوا باستمرار الشعوب الزراعية المستقرة . وبعبارة أخرى ، فإن الهندو اوروبيين سرعان ما كانوا ، في تاريخهم ، يعترفون بالتوتر الروحي المثار بتكامل التوجهات الدينية المتنافرة بل المتضادة .

٦٢ - أول مجمع للآلهة والمفردات الدينية الشائعة :

يمكن اعادة تكوين بعض بُنى Structures الديانة الهندو-أوروبية العامة . فيوجد بدئياً ، دلالات موجزة ولكنها قيمة ، معطاة بالألفاظ الدينية . فمنذ بداية

الدراسات ، تم التعرف على الجذر الهندوأوروبي (المختصر منذئذ) : ديفوس Deiws (سما) في المصطلحات الدالة على الله (dieu) [في اللاتينية deus وفي السنسكريتية deva ، وفي الايرانية div ، وفي الليتوانية diewas ، وفي الجرمنية القديمة tivar] وفي الأساء للآلهة الأساسيين : دايوس Dyaus (زوس Zous) جوبتر . ففكرة الآله تبدو متضامنة مع القداسة السماوية ، أي النور ، والمفارقة أو التصاعد والسمو ، وبتوسيع الفكرة للسيادة والابداعية ، في معناها المباشر : نشكونية وابوة . قرب السماء هو بامتياز الأب : ر . الهندي ديوسبتيار Dy auspitar ، الاغريقي زوس الأب ، والايليري دياتورا ، واللاتيني جوبتر والسينري زوس - بابايوس ، والترافي - الفريجي زوس - بابوس^(٣) .

وبما أن الظواهر السماوية والجوية تلعب دوراً أساسياً ، فإنه من غير المفاجيء ان عدداً من الآلهة قد عيّن باسم الرعد : في الالمانية طهور - دونار Thors-Donar . وفي السلتيه تارانيس Tarani . . وفي السلافية القديم Perum بيروم . . الخ . . . ومن الراجح في العصر الهندو - أوروبي ان آله السماء - آله أعلى لأنه خالق العالم ومدير الكون - قد تخلى أمام آلهة العاصفة : الظاهرة شائعة جداً في تاريخ الاديان . كذلك الأمر ، فإن النار المثارة بالصاعقة هي معتبرة ذات أصل سماوي . إن عبادة النار عنصر مميز للاديان الهندو - أوروبية . ثم إن اسم الآلهة القيدي الهام أجني Agni يوجد في اللاتينية ignis يغنيز والليتوانية اوغنيز ugnis والسلافية القديمة ogni^(٤) . ويمكن الافتراض أيضاً بأن الآلهة الشمس كان يحتل مكاناً مرموقاً منذ ما قبل التاريخ (ر . في القيدية سوريا Sūrya وفي اليونانية هليوس Helios ، وفي الجرمنية القديمة سانيل Sanil . وفي السلافية القديمة سالنس Salence وكلها تدل على الشمس) . ولكن الآلهة الشمسية قد عرفت تاريخاً متحركاً لحد ما ، لدى مختلف الشعوب الهندو - أوروبية ، وبخاصة بسبب الاحتكاك مع ديانات الشرق الادنى^(٥) . أما بالنسبة للأرض (GHĒM جيم) فقد كانت معتبرة كطاقة حياتية مقابلة للسماء ، ولكن الفكرة الدينية للأرض الأم هي أكثر حداثة بين الهندو أوروبيين وتصادف في منطقة (Zone) محددة . ويوجد عنصر كوني آخر ، الريح ، المعبود في الليتوانية ويجوباتيس wejopatis «سيد

الريح» وفي الايرانية فايو Vayu وفي الهندية فايو Vayu ، ولكنه في حالة هذين الأخيرين ، يتعلق بأكثر من التجليات الكونية : انهما يمثلان ، بصورة خاصة الايراني فايو ، الملامح الاساسية للالهة العليا . إن الهندو-أوروبيين قد أقاموا ميتولوجيا وتيولوجيا متميزتين . فقد قدموا اضحيان ، وعرفوا القيمة السحر-دينية للكلمة وللغناء (Kan) . لقد نالوا مفاهيم وشعائر سمحت لهم بتكريس الفضاء واضفاء الصفة الكونية cosmiser على الأقاليم التي كانوا يستقرون فيها (هذا المشهد الاسطوري الشعائري قد تأكد في الهند القديمة ، وفي روما ولدى ألسلت). مما سمح لهم اضافة لذلك ، باعادة تجديد العالم دورياً (بمعركة شعائرية بين مجموعتين من المحتفلين ، شعيرة استمرت ملامح لها في ايران وفي الهند) .

إن الآلهة كانت معتبرة كما لو أنها حاضرة في الاعياد ، بالقرب من البشر ، وكانت اضاحيها تحرق . ولم يرفع الهندو-أوروبيين معابد : ومن الراجح جداً ، إن العقيدة كانت يحتفل بها في مكان مكرّس ومغلق تحت السماء الحرة . وثمة علامة أخرى مميزة : النقل الشفهي للتقليد ، ومنذ اللقاء مع الحضارات في الشرق الادنى ، تحريم استعمال الكتابة .

ولكنه ، كما توجب انتظار ، رؤية العديد من القرون التي تفصل الهجرات الهندو أوروبية الأولى (حثيين ، هندو اوروبيين ، اغريق ايتاليك) عن الهجرات الاخيرة(جرمن بالطوسلاف)، فإن التراث المشترك لم يكن دائماً قابلاً للاعتراف به في اللغة ، ولا في التيولوجيات والميثولوجيات للعصر التاريخي . ويجب أن يؤخذ في الحسبان ، من جهة ، مختلف الاحتكاكات الثقافية المحققة خلال الهجرات ، ولا يسوغ أن ينسى ، من جهة أخرى ، أن أي تقليد ديني لم يتحدد إلى ما لا نهاية بدون تغييرات ، متحصلة إما بإبداعات روحية جديدة ، وإما باستعارة تكافل أو الغاء .

إن مفردات اللغة تعكس هذه العملية من الافتراق والتجديد المبتدئ على الأرجح منذ ما قبل التاريخ . وإن المثل الأكثر دلالة في معناه هو الغياب لمصطلح مميز ، في الهندو أوروبية الشائعة ، الدال على (المقدس) . ومن جهة أخرى ، فإنه

يوجد لدينا في الايرانية واللاتينية والاغريقية مصطلحات : قديمة Spenta yaozdata (ر . أيضاً haih Weih) ؛ في اللاتينية . Sacer sanctus ؛ وفي الاغريقية (hagios hdgios) . «إن دراسة كل واحد من الأزواج المؤكدة بقود لأن يطرح ، في ما قبل التاريخ ، مفهوماً ذي وجهين : ايجابي «ما هو مكلف بحضور إلهي ، وسلبي «ما هو محرم على الاحتكاك بالبشر»^(٧) . كذلك ، وتبعاً لرأي بينيفينست Benvenite ، فإنه لم يوجد مصطلح مشترك ليدل على «الأضحية» . ولكن هذا الغياب «له ما يعارضه في مختلف اللغات ، وغالباً داخل كل منها ، العديد من الدلالات المناسبة لمختلف اشكال العمل التضحي : اراقه (في السنسكريتية juhati في الاغريقية Spendo) ارتباط لفظي رسمي (في اللاتينية Uoueo وفي الجرمنية Eùkhomai) ، قارب النجاة (في اللاتينية daps) ، تدخين (في الاغريقية thũo) ، شعيرة النور (في اللاتينية lustru)^(٨) . أما بالنسبة (للصلاة) فإن اللفظ قد تشكل بدئياً من جذرين مختلفين . وباختصار ، ومما قبل التاريخ المشترك ، فإن مختلف الشعوب الهندو اوروبية كانت تميزت بالاتجاه لاستمرارية إعادة تفسير تقاليدھا الدينية . وإن هذه العملية قد تكثفت خلال الهجرات .

٦٣ - مذهب التثليث الهندو اوروبي

إن قطعاً متناثرة من مختلف الميثولوجيات الهندو أوروبية تشكل مصدراً هاماً . فبالأكد ان هذه القطع هي من عصور مختلفة وقد انتقلت اليها بوئات متنافرة وبقيم غير متساوية : ترانيم ، ونصوص شعائرية وقصائد ملحمة ، وتعليقات لاهوتية ، وخرافات شعبية ، وصور تاريخية وتقاليد متأخرة مسجلة من قبل كتاب مسيحيين بعد اعتناق شعوب اوروبا الوسطى والشمالية للديانة المسيحية . ومهما يكن من أمر فإن كل هذه الوثائق ثمينة ، لأنها تحفظ أو تعكس (حتى بشكلها المشوه) عدداً من المفاهيم الدينية الأصلية .

إن المبالغات والاختفاء في (الميثولوجيا المقارنة) كما فهمها ماكس مولر وتابعيه ، لا يمكن لها أن تحول دون استعمال هذه المواد . فيكفي عدم اغفال قيمتها الوثائقية . إن اسطورة مؤكدة في (الريغ فيدا) لا يمكن لها أن تكون أكثر حداثة عن الألفين ق.م ، في حين أن التقاليد المحفوظة من قبل تيت - ليف بالملحمة الايرلندية أو بالسنوري سنورلوزن Snorristurluson ، هي من وجهة نظر السرد التاريخي أكثر حداثة وبشكل ملحوظ . ولكن إذا كان لمثل هذه التقاليد أن تتوافق في كل نقطة مع الاسطورة الفيدية ، يكون من الصعب الشك بخاصيتها الهندو أوروبية الشائعة ، بخاصة إذا كانت مثل هذه الاعادة للتسجيل غير معزولة ، وإنما جرى التعبير عنها في منظومة .

وهذا ما برهن عليه (جورج دوميزيل G. Dumézel) في مجموعة مؤلفات جددت جذرياً الدراسة المقارنة للميثولوجيات والأديان الهندو أوروبية ، ولا مجال هنا لتلخيصها وإنما يكفي القول بأن بحوث هذا العالم الفرنسي قد كشفت بنية أساسية للمجتمع وللأيدولوجيا الهندو أوروبية . فتقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات - كهنة ، محاربين ، مزارعين - كان يناسبه ايديولوجيا دينية ثلاثية الوظيفة : وظيفة السيادة السحرية والقانونية ، وظيفة آلهة القوة الحربية ، وأخيراً تلك الألوهية للخصب والرخاء الاقتصادي . إن هذا التقسيم الثلاثي للآلهة والمجتمع يلمس بشكل أفضل لدى الهندو - ايرانية . وفي الواقع أن في الهند القديمة ، يتناسب مع الطبقات الاجتماعية للبراهمان (الكهنة - مقدمون الاضاحي) وطبقة الكساتريا Ksatrya (المحاربون ، حماة الجماعة ، وطبقة المنتجين Vaisya) . يتناسب الآلهة فارونا وميترا ، والتوأمين نازاتيا أو (الاسفينس les Asvins)

إن الآلهة نفسها توجد مذكورة في ذات النظام ، ففي المعاهدة المبرمة من قبل ملك حثي ، نحو ١٣٨٠ ق . م مع رئيس اسلاف الهنود (ميتاني Mitani) في آسيا الوسطى : ميترا فارونا [متفيرا اورافانا] ، اندارا ، النازاتيا الاتنين . كذلك الأمر ، فإن الاستاق l'Avesta تميز الكهنة (اتاهرا - فان) ، والمحاربين (مقاتلين في العربات رازي - ستار) ومربوا الحيوانات المزارعون (فاستريو - فسويان) ؛ ومع

الفارق عما هو في ايران ، فإن هذا التقسيم الاجتماعي لم يتصلب في نظام للطوائف . وحسب هيرودوت (IV ، ٥ - ٦) فإن السيث les seythes الايرانيين كانوا هم أيضاً يعرفون ، التقسيم لثلاث طبقات ، وان التقليد استمر حتى القرن التاسع عشر لدى أوسيت القوقاز les Ossetes du Caucase ، الأخلاف المتحدرين مباشرة من السيث des Sythes .

لقد كان (السلت) يوزعون المجتمع إلى كهنة قضاة (druides درويد) وإلى ارستقراطية عسكرية (فليت flaith تعني لغوياً سلطة) المماثلة إلى الكساترا Ksatra في السنسكريتية) وإلى البوإيريج bo airig رجال أحرار (airig مالكو الابقار (B^oO) . وحسب رأي (دوميزيل) يمكن الإشارة إلى تقسيم اجتماعي مماثل في التقاليد الأسطورية ، ولكنها السحيقة في تاريخها ، من بناء روما : الملك رومولوس ، المحمي من قبل جوبيتر ؛ الاتروسكي لوكومون ، الاختصاصي بالحزب ؛ وتاتيوس والسابينيين الذين جلبوا النساء والثروات . إن الثلاثي في الكابيتول - جوبيتر - ومارس - وكورينوس - يشكلون بنوع ما النموذج الالهي «الساوي» للمجتمع الروماني . وأخيراً ، فإن تثليثاً مشابهاً يسود ديانة الميثولوجيا السكندينية : الآله الأعلى (اوتان) ، و (طهور) البطل و (فراير) سيد الخصب .

ان تقسيم الوظيفة الأولى إلى قسمين أو اتجاهين متكاملين - سيادة سحرية وسيادة قانونية - متألفة بوضوح بالزوج فارونا وميترا . فبالنسبة لقدامى الهنود ، ميترا وهو في الواقع ، الآله الأعلى . «تحت مظهره يدرك ، مضى ، منظم ، هادى ، يقظ كهنتي - وقارونا السيد تحت مظهره المنقضى ، مظلم ، ملهم ، عنيف ، مرعب ، محارب»^(١٠) . وإن ذات اللوحة وجدت في روما بصورة خاصة مع نفس التناقضات ونفس التناوبات : انه ، من جانب ، تعارض بين - شباب يركضون عراة عبر المدينة ويضربون المارات بسوط من جلد الماعز لتخصيهم - وبين الكهنة بامتياز ، (les Flamines) وهذه هي من جانب آخر ، البنى والمعطيات المختلفة للملكين الأولين : روميلوس ، الذي اسس عبادتي جوبيتر الرهيب ، ونوما (Numa) الذي يؤسس معبداً (للفايدس بوبليكا Fides publica) ويبشر بورع خاص جداً لهذه الربة التي حفظت الايمان الصحيح

ويسجل المواعظ . ان التعارض - رمولوس - نوما يغطي في مبادئه التعارض لو بيركس - فلامين ومن جهة أخرى ، انه يتناسب من كل الوجوه مع تناقض قطبيه : قارونار - مترا .

إن (دوميزيل) في معرض تحليله للمظهرين من السيادة الالهية لدى الهنود ولدى الرومان ، اشار بحذق للفوارق . ففي الهند الفيدية كما في روما ، عرفت ذات البنية الهندو اوروبية ولكن الساحتين الايديولوجيتين غير متجانستين «فالرومان يفكرون تاريخيا ، في حين ان الهنود يفكرون اسطوريا . الرومان يفكرون وطنيا والهنود يفكرون كونيا» . وان الفكر التجريبي ، النسبي والسياسي والقانوني للرومان ، يقابله الفكر الفلسفي ، المطلق ، الدوغمائي الأخلاقي والأسطوري للهنود^(١١) . وقد وصفت فوارق مشابهة «للميادين الايديولوجية» لدى شعوب هندو اوروبية اخرى .

وكما قلنا سابقاً ، فإن الوثائق التي نحوزها تشكل العبارات المميزة الخاصة لمختلف الشعوب الآرية عبر التاريخ . واجمالاً ، ليس سوى البنية العامة للايديولوجيا الهندو اوروبية التي يمكن الامساك بها ، وليس الفكرة والممارسات الدينية للجماعات الأصلية . ولكن هذه البنية تعلمنا عن نموذج التجربة والايحاء الديني الخاص للهندو اوروبيين . وانها تسمح لنا ، اضافة لذلك ، بالتحقق من ابداعية مميزة لكل واحد من الشعوب الآرية .

وكما امكن توقعه ، فإن أكبر تنوع مورفولوجي قد تأكد على مستوى الوظيفة الثالثة ، لأن العبارات الدينية ذات العلاقة بالوفرة والسلام والخصب ، مرتبطة بالضرورة بالجغرافيا . وبالاقتصاد والحالة التاريخية لكل جماعة . أما بالنسبة للوظيفة الثانية فإن القوة الطبيعية ، وبصورة خاصة استعمال القوة في المعارك ، قد اوضح (جورج ديموزيل) عدداً من التوافقات بين الهند (سابقاً لدى الهنود اوروبيين) وروما والعالم الجرمانى . وهكذا فإن التجربة المسارية بامتياز تكونت على أكبر احتمال في معركة المحارب الشاب ضد ثلاثة خصوم أو ضد غول ثلاثي الرؤوس (مثلاً بدمية .. ؟) وفي الواقع ، ان سيناريو مماثل ، أمكن حل رموزه

في التاريخ لمعركة مظفرة لبطل ايرلندي كوشولين Cuchulain ضد ثلاث اخوة ، ومعركة هوراس ضد الأخوة الثلاثة كورياس ، وكذلك في اساطير (اندرا) والبطل الايراني تاريتونا Tharetaona ، فكل منهم يقتل غولاً بثلاثة رؤوس . ان النصر يرفع لدى كوشولين وهوراس «رعباً» [باللغة السلتية Furae = Fery] خطراً بالنسبة للمجتمع والذي يطلب أن يكون شعائرياً معزماً عليه . اضافة لذلك ، فإن القصة الاسطورية (للاثام الثلاثة) تجد مثيلات لها ، في اسكندينايا ، في اشارة البطل ستار كاذروس Star catherus ، وفي اليونان ، في ميتولوجيا هرقل^(١٢) . ومن الراجح جداً ، ان هذه النصوص الاسطورية - الشعائرية لم تستنزف ميتولوجيا وتقنية المحارب من العصر الهندو اوروبي . الا انه من المهم ملاحظة انها قد حفظت في طرفي الشتات ، الهند وايرلندا .

وبمقدار ما يمكن الحكم فيه ، فإن الإيديولوجيا الثلاثية كانت تشكل نموذجاً متماسكاً ولكنه قابل للتكيف ، وقد اكملت بشكل مختلف بالعديد من الأشكال الإلهية ، ومن الأفكار والممارسات الدينية . وسيكون لدينا فرصة للتحقيق في عددها وأهميتها بدراسة منفصلة لمختلف الديانات الهندو اوروبية . ومن الحق الاعتقاد بأن الايديولوجيا بالتليث مع أنها انطلقت في العصر الشائع فإنها كانت استبعدت أو أعادت التفسير جذرياً لمفاهيم مقدسة وعلى سبيل المثال مفهوم اله السماء ، خالق وسيد وآب . ان اقضاء داسبوتار لمصلحة فارونا ، التي نجد ملاحظتها في (الريغ فيدا) ، تبدو انها تعكس أو تحدد عملية أكثر قدماً .

٦٤ - الآريون في الهند :

كانت القبائل الهندو - ايرانية تعرف ، في عصرها المشترك ، بعبارة ذات مدلول «رجل ، شريف» airya في اللغة الأفستيقية ، (Avestique) وفي السنسكريتية ârya . وقد كان الآريون بدواً تغلغلهم في الهند من الشمال - الغربي ، في بداية الألفين ، وبعد أربع أو خمس قرون احتلوا اقليم (الانهر

السبعة) Saptā Sindhavah^(١٣) - أي حوض الهندوس الأعلى ، البنجاب . وكما لاحظنا (ف/ ٣٩ ع) فإنه ممكن ان يكون الغزاة قد غزوا بعض المدن الهارابية Harappiennes . وان النصوص الفيدية تذكر المعارك ضد الداسا Les dâsa أو الداسيوو Dasyu ، وفيها يمكن التعرف على المتممين أو المبقين على قيد الحياة لحضارة الهندوس . لقد وصفوا بأن لهم جلد أسود (بدون أنف) وان لغتهم بربرية ويعتقدون عبادة عضو الذكر (Sismadeva) . وهم أغنياء بالقطعان ويسكنون تجمعات محصنة (بور Pur) . وان هذه (التحصينات) هي التي كان غزاها اندار Indra - الملقب بواراندار Purandura «مدمر الحصون» - ودمرها بالمثلثات . لقد حصلت المعارك قبل تأليف الأناشيد لأن ذكرها تأسّطت كثيراً .

وان (الريغ فيدا) le Rigveda تذكر أيضاً ان شعباً معاديا آخر : باني Les Pani نهب الابقار ونبت العبادة الفيدية . ومن الراجح ان هاروبيا Haryûpiya هو بعينه (هارابا) . وازضافة لذلك ، فإن النصوص الفيدية تشير لخرائب (ارمار آرماكا) المسكونه من قبل السحرة ، الأمر الذي يظهر ان الآريين قد شاركوا في المدن المدمرة للسكان القدامى من الاقليم^(١٤) .

مع ذلك فإن التكافل مع أهل البلاد الأصليين يبدأ متأخراً ، واذا كان في الكتب المتأخرة من الريغ فيدا ان كلمة/ داسا/ تعني (عبد) مشيرة إلى مصير الداسا المغلوبين ، ولاعضاء آخرين من السكان الخاضعين الذين يبدوون بشكل مناسب انهم قد ادخلوا في المجتمع الآري ؛ فإن الرئيس داسا Dâsa على سبيل المثال هو شخص محمود لأنه حمى البراهمان les Brahman (ريغ فيدا ٧٧ - ١١١ ٣٢ ٤٦) . ان التزاوج مع السكان الأصليين قد ترك آثاره في اللغة . وان السنسكريتية تمتلك سلسلة من الاصوات Phonèmes وبصورة خاصة الحروف الصامتة المخية الدماغية les Consomes cérébrales التي لانجدها في أي اصطلاح تعبيرى idiomه هندو- اوروبي ، ولا ايراني . ومن الراجح جداً ، ان هذه الحروف الصامتة تعكس لفظ أهالي البلاد الأصليين الذين اكرهوا على تعلم لغة اسيادهم . كذلك الأمر ، فإن المفردات الفيدية تحتفظ بعدد كبير من الكلمات الما قبل الآرية Ân aryes . وما هو أكثر من ذلك ان بعض الاساطير هي من

مصدر وطني^(١٥) . وان هذه العملية من التكافل العرقي raciale والثقافي والديني المؤكد منذ العصور القديمة ، سيتوسع أولاً بأول حسب تقدم الآريين مستقبلاً صوب السهل الغانجي .

إن الهنود القديين قد مارسوا الزراعة ، ولكن اقتصادهم كان رعوياً ، بصورة خاصة وكانت الماشية تقوم مقام النقد ؛ وكان اللبن ومشتقاته يستهلك ، وكذلك أيضاً لحوم البقرات . وكان للحصان تقدير رفيع المستوى ، ولكنه كان يحافظ عليه حصراً للحرب ، وللغزوات وللشعائر الملكية (ف / ٧٣ع) . ولم يكن لدى الآريين مدن ، وكانوا يجهلون الكتابة . ورغم بساطة ثقافتهم فإن النجارين وحدادي البرونز كانوا يتمتعون باحترام كبير^(١٦) . وقد بدى باستعمال الحديد حوالي ١٠٥٠ ق . م فقط .

لقد كانت القبائل تقاد وتوجه من قبل رؤساء عسكريين راجا Râja وسلطة هؤلاء المليكين Roitelets كانت تتوازن بمجالس شعبية (سابها وساميتي) Sabhâetsamti . ونحو نهاية العصر الفيدي ، كان قد اكتمل تنظيم المجتمع في أربع طبقات . ان العبارة (فارنا) الدالة على الطبقات الاجتماعية ، يعنى اللون : اشارة على التعدد العرقي الذي كان اساس المجتمع الهندي .

إن الأناشيد لا تكشف سوى بعض مظاهر الحياة في العصر الفيدي . وان التصوير كان موجزاً : فالآريون يحبون الموسيقى والرقص : وهم يعزفون على الناي والمزهر والقيثارة . انهم مولعون بالمشروبات المسكرة سوما وسورا Soma et Surâ والسورا لا معنى ديني لها . وكانت لعبة النرد شعبية جداً ، إن أنشودة كاملة في الريح قيدا (١٠ ، ٣٤) مكرسة لهذه اللعبة . وان عدداً من الأناشيد تشير الى نزاعات بين مختلف القبائل الآرية . وأكثرها شهرة قبيلة بها راتا Bharata وكانت قد انتصرت في ظل ملكها سوداس Sudas على عشر امراء متحدين ، ولكن المعطيات التاريخية للريح قيدا فقيرة جداً . بعض اسماء القبائل الفيدية - مثلاً اسم بها راتا - تعاود ظهورها في الأدب المتأخر . وان الماها بها راتا Mahâbharata ، المؤلفة على الأقل بعد خمسة أو ستة قرون من العصر الفيدي ، تروي الحرب

الكبرى بن الكورو Les Kuru وابناء عمومتهم الباندافا les Pândava وحسب التقليد المحفوظ لدى (البوراننا) ، فإن هذه الحرب يمكن ان تكون قد حصلت حوالي ١٤٠٠ ق . م في المادهياديزا Ma dhya desia ، في وسط شبه الجزيرة ، الأمر الذي يدل على تدخل الآريين لما بعد الغانج . وفي الوقت الذي حررت فيه الاطروحة اللاهوتية الكبرى المسماة (ساتاباتا براهمانا) ما بين ١٠٠٠ - ٨٠٠ ق . م

فإن مقاطعتي كوزالا وفيديها كانتا قد اصبحتا آرييتين ، ومن جانبها فإن (الراماياتا) تظهر ان التأثير الآري كان قد امتد نحو الجنوب .

وكما ان خصوم الآريين قد تحولوا اسطوريا ، ومسخوا (شياطين) و (سحرة) فإن المعارك الناشئة خلال غزو الاقليم كانت قد تحولت صورها ، وبدقة أكثر قد تمثلت بمعارك ندار ضد فرترا وكائنات شيطانية اخرى .

وسنناقش فيما بعد التطبيقات الكونية لمثل هذه المعارك النموذجية (ف ٦٨ ع). أماهنا فنشير الى أن احتلال اقليم جديد كان سيصبح شرعياً باقامة مذبج (جاراتياتيا) موقوف على أغني Agni «يقال بأنه قد استقر عندما بنى مذبج ، وان كل الذين بنوا مذبج النار قد استقروا» [ستابازا ٨٠ ، ١١ - ٤] غير ان اقامة مذبج موقوف على (أغني ليس شيئاً آخر سوى التقليد الطقوسي للخلقة ، وبعبارة أخرى ، فإن الإقليم الممثل هو بادىء ذي بدء متحول من العماء إلى نشكوني وبفعل الشعائر يتلقى شكله ويصبح حقيقة .

وكما سنرى ، فإن مجمع الآلهة الشيدي محكوم بالآلهة . إن بعض الربات المعروفة باسمها تلعب دوراً يكاد أن يكون متلاشياً : الغامضة آديتي Aditi ، أم الآلهة ؛ وأوزاس Usas (ربة العجر) و(باتري) التي كرست لها الإنشودة الجميلة في الريغ فيدا (١٠ - ٥ : ١٢٧) . وأكثر من هذا دلالة هو أذن الوضع السائد للربة الكبرى في الهندوسية : إنها تبرز ، تأكيداً ، انتصار التدين الما قبل براهمانية ، وأيضاً المقدرة الخلاقة لروح الهندية . وبالتأكيد ، يجب أن يؤخذ في الحسبان واقعة أن النصوص الفيديّة تمثل النموذج الديني لنخبة كهنوتية كانت استخدمت

أرستقراطية عسكرية ، وباقي المجتمع - أي الأكثرية - الفيسيا والسودرا - تقاسمت على الأرجح أفكاراً ومعتقدات مماثلة لتلك التي ستوجد ، بعد ألفي سنة في الهندوسية^(١٨) . إن الأناشيد لاتعكس الديانة الفيدي في مجملها ، وقد تألفت من أجل اجتماع مشغول مسبقاً بالخيرات الأرضية في المقام الأول صحة ، طول العمر ، تكاثر الأولاد ، وفرة الماشية ، الثروات^(١٩) . ومن المعقول إذن التفكير بأن بعض المفاهيم الدينية التي ستصبح شعبية بعدئذ ، كانت قد صيغت في العصر الفيدي .

إن القدرة الخلاقة للروح الهندية التي سنشير إليها ، تبدو بصورة خاصة في عملية التكافل والتمثل وإعادة التقييم الذي يؤدي إلى جعل الهند آرية ، وبعدئذ ألى جعلها هندوسية . لأن هذه العملية تحقق ذاتها . في حوار مع النموذج الديني الذي أحياه البراهمان على قاعدة (الكشف) الفيدي (سروتى Sruti) . وفي آخر المطاف ، أن الوحدة الدينية والثقافية للهند كانت النتيجة لسلسلة من التركيبات المنجزة تحت دلالة الشعراء الفلاسفة والطقوسيين من العصر الفيدي

٦٥ - فارونا إله أولي : ديفا زآزورا :

إن الأناشيد لاتمثل الشكل الأكثر قدماً للديانة الفيدي ، فدايوس Dyaus ، الاله الهندو-أوروبي للسماء ، سبق اختفاؤه من العقيدة . ويدل اسمه الآن على السماء أو النهار . وإن اللفظ يدل على تشخيص لقداسة أورانية انتهت بالدلالة على ظاهرة طبيعية . إنه يتعلق بعملية مألوفة لدرجة مافي التاريخ الآلهة السماوية : إنها تمحي أمام آلهة أخرى وتصبح (dii Otiosi) . مفارقة . وليس سوى في المعيار الذي أجل فيه بصفته إلهاً أعلى ، أن نجح إله سماوي بالحفاظ على ميزته الأساسية . مع ذلك فإن الشعراء الفيديين يتذكرون أيضاً عن «السماء التي تعرف كل شيء» (آذار قافيد- ١ ، ٤٣٢) ويدعون «السماء الأب» ، ديوسبيتار Dyuspitar (ذات المرجع ٤ ، ٤ ، ٣) أو بصورة خاصة دايوس Dyaus هو مائل في الزوج

الأولي ، ديافا بريزيفي ، Dyāvāprithivi (السماء والأرض) (رينغ فيدا ، ١ - ١٦٠).

وسرعان مأخذ فارونا مكان دايوس وأصبح الاله السيد بامتياز . ولاتعرف بشكل جيد المراحل التي سبقت ترقيته لصف ملك عالمي سامراج samraj (ر . ف ٧ - ٢٨٢) وفارونا يعرف بصورة خاصة بلقب آزوراس asura ، لقب محاز من جهة أخرى من قبل آلهة أخرى ، على سبيل المثال آغني (أ . ف ١ - ١٠ - الخ) . وعليه فإن الآزورات les Asuraa كانوا يشكلون العائلة الالهية الأكثر قدماً (أ . ف ١٠٠ ، ٣) إن النصوص الفيدية تشير للنزاع الذي تواجه فيه الآلهة devas مع الالهة Asuras . وأن هذا النزاع سيروى على شكل واسع وسيفسر ، في العصر مابعد الفيدي ، في البراهماناس les Brahmanas وهي بحوث مخصصة لسر الأضحية . وفي الواقع إن نصر الآلهة قد تقرر عندما ترك آغني بناء على دعوة من أندرا ، عندما ترك الآزوراس الذين لم يكونوا يملكون الأضحية (ر . ف ١٠ ، ١٤٤ ، ٧٠ ، ٥٠) وبعد وقت قصير رفع الديفاس الكلام التضحيوي (فاك Vac) إلى الآزوراس . وعندئذ دعا أندرا فارونا ليمر في مملكته (ر . ف ٧ - ٥) . إن نصر الديفاس على الآزوراس قد تمثل بانتصار أندرا على الدايوس الذين كانوا مستقرين في الظلمات الأكثر عمقاً . (٤ ، ٩٩ ، ٨ ، ر . ف وأ - ف ٩ ، ٢ ن الخ) هذا النزاع الاسطوري يعكس معركة (آلهة الشباب) الذين يقودهم أندرا ضد مجموعة آلهة بدئين ، إن واقعة شهرة الآزوراس بأنهم سحرة بامتياز (٩ ، ٤ ، ٣ - ٨٧٠) وأنهم تمثلوا بسورا suras ، هذه الواقعة لاتعني بالضرورة أنهم يمثلون الآلهة للسكان الوطنيين الأصليين لما قبل الآرية . ففي الفيدا يستعمل لقب آزورا كصفة لأي إله كان ، حتى لدايوس وأندرا (وهذا الأخير سمي سيد الآزوراس) (أ . ف ٤ ، ٣٨٣) . وبعبارة أخرى فإن مصطلح آزورا يوحى بالسلطات ، أو القوى المقدسة المميزة لمركز أولي ، وعلى الأخص ذلك الذي وجد قبل التنظيم الحالي للعالم . إن الآلهة (الشباب Divas) ، لم يتوانوا عن انتزاع هذه السلطات المقدسة ، وهذا هو السبب الذي من أجله يتمتعون بلقب آزورا . وتقتضي الإشارة إلى أن (زمن الآزوراس) يسبق العصر الحالي ، المحكوم من

الديفاس . وفي الهند ، كما في عدد من الديانات القديمة والتقليدية ، يفسر المرور من عصر بدئي للعصر الحالي بمصطلحات نشكونية cosmogonique أي مرور من (حالة) عمائية chaotique إلى عالم منظم cosmos . وسنجد هذه الخلفية الكونية في المعركة الاسطورية لأندرا ضد التنين الأولي فرترا Vrtra (ف - ٦٨ ع) . وعليه ، فإن فارونا بكونه إلهاً بدئياً ، الأزورا بامتياز ، فقد توحد بفرترا وهذا التوحد قد جعل من الممكن وجود سلسلة كاملة من تأملات باطنية سرية حول سر ثنائية الوحدة الالهية .

٦٦ - فارونا - ملك كوني و(ساحر) : «رتا» و«مايا» :

إن النصوص الفيدية تقدم فارونا بصفته إلهاً أعلى : إنه يحكم على العالم ، الآلهة Devas والبشر . ولقد «مطَّ» الأرض كجزار يصنع الجلد ، لتكون سجادة للشمس . إنه وضع الحليب في الأبقار ، والذكاء في القلوب ، والنار في المياه ، والشمس في السماء ، والسوما على الجبل (ر . ف ١ - ٢ - ٧٨٥) . إنه كمدير كوني cosmo Crate يحوز بعض الأتباع من الآلهة السواوية : إنه فيزفا دارساتا Visivadarsata «قابل لأن يرى في كل مكان» (ر . ف ١ - ٢ - ٧٨٥) . كلي العلم (أ ف ، ٤ - ١٦ - ٢ - ٧) ولا يغلب (ر . ف . ١٦ - ٢ - ٧) . «إنه ذو ألف عين» (ر . ف - ٧ - ٣٤ - ١٠) . تعبير اسطوري للنجوم . باعتباره (يرى كل شيء) وأي ذنب لاتفوته رؤيته مهما أخفي . فالبشر يشعرون كعبيد في حضرته (١ - ٢٥ ، ر - ف) ، (سيد مرعب ، حقيقي) سيد العلاقات له السلطة السحرية يربط ضحاياه عن بعد ، ولكن لتحريرهم أيضاً . إن العديد من الأناشيد والطقوس يقوم موضوعها على حماية أو تحرير الانسان من شباك فارونا^(٢١) . وقد مثل ، بحبل في يده ، وكل مايربط في الحفلات للبدء بالعقد يسمى (فارونين) Varunien .

بالرغم من هذه المزايا الاستعراضية ، فإن فارونا كان في انحدار في العصر الفيدي . إنه بعيد عن التمتع بشعبية (أندرا) مثلاً . ولكنه مرتبط بمعنيين دينيين

سيكون لهما مصير استثنائي : (رتا) و(مايا) . إن الحكمة رتا . هي اسم المفعول من فعل تكييف أو تآلف وتدل على نظام للعالم ، هو في آن واحد كوني وطقوسي وأخلاقي^(٢٢) . لا يوجد نشيد موجه إلى رتا ولكن الإشارة إلى المصطلح مألوفة جداً (أكثر من ٣٠٠ مرة في الريح فيدا) . فيشار إلى أن الخليفة قد صنعت بالتوافق مع (رتا) ويردد بأن الآلهة تعمل حسب الـ(رتا) وأن الرتا يدير بشكل حسن الايقاعات الكونية وكذلك السلوك الأخلاقي . إن ذات المبدأ يحكم أيضاً العبادة . وإن مقر رتا هو في أعلى سماء أو في مذبح النار .

وعليه فإن فارونا رقي في بيت رتا وهو يعلن أنه يحب الـ (رتا) ويشهد من أجل الـ (رتا) . إنه يدعى ملك الرتا . ويقال بأن هذا العنصر العالمي المتوحد بالحقيقة قد أسس فيها . إن من يخالف القانون مسؤول تجاه فارونا وإن فارونا هو وحده دائماً الذي يعيد /إقامة النظام المتضرر بالخطيئة ، وبالذنب أو الجهل . إن المجرم يأمل الغفران بواسطة الأضاحي « التي هي من جهة أخرى ، معينة من قبل فارونا نفسه » . كل هذا يوضح بنية إلهه للإدارة الكونية . ومع مرور الزمن أصبح فارونا إلهاً عالمياً مفارقاً *dius otiosus* مستمر الحياة وبصورة خاصة في العلوم الشعائرية وفي الفولكلور الديني . مع ذلك فإن علاقاته مع فكرة النظام العالمي تكفي لتضمن له مكاناً هاماً في تاريخ الروحانية الهندية^(٢٣) .

ومن النظرة الأولى يبدو متناقضاً ، وإن حارس الرتا هو في ذات الوقت مرتبط صميمياً بمايا . إن المشاركة هي على الأغلب قابلة للفهم إذا أخذنا في الحسبان واقعة أن الخليفة الكونية (لفيرون) لها مظهر سحري أيضاً . ومن المتفق عليه ، اشتقاق العبارة مايا من الجذر *may* (غير) . وفي الريح فيدا أن مايا تعني (التغيير المدمر أو المنكر المنافي للأواليات الحسنة ، والتغيير الشيطاني والمخادع ، وأيضاً فساد الفساد)^(٢٤) . وبعبارات أخرى يوجد مايات سيئة ومايات حسنة ، في الحالة الأولى ، تتعلق بالجيل وبالسحر . وبخاصة أنواع السحر المتعلق بالتحول لنموذج شيطاني مثل تلك التي للأفعى فرتر التي هي الماين *mayin* أي الساحر . وبامتياز أن مايا من هذا النوع تفسد النظام الكوني ، وعلى سبيل المثال تعيق مسير الشمس أو تمسك المياه حبيسة الخ .

أما بالنسبة للمايات الحسنة فإنها على نوعين :

١- مايات المعركة ، ومايات (ضد - مايا) المستعملة من قبل أندرا عندما يتبارى ضد الكائنات الشيطانية^(٢٥) .

٢- المايا الخالقة لأشكال وكائنات والمتميزة عن الآلهة العليا . وفي الدرجة الأولى عن فارونا . فهذه المايا الكوزمولوجية يمكن اعتبارها كمعادلة لـ (رتا) . وفي الواقع ، أن العديد من المشاهد تمثل تعاقب الليل والنهار ومسيرة الشمس وسقوط المطر وعناصر أخرى مدخلة إلى رتا كنتيجة للمايا الخالقة .

في الريح فيدا إذن ، وحوالي ١٥٠٠ سنة قبل الفيدانتا الكلاسيكية حيث عرف المعنى الأول للمايا «التغيير المراد» أي الفساد - خلق أو تدمير - وفساد الفساد . وليلاحظ منذ الآن أن أصل المفهوم الفلسفي للمايات تورية كونية . عدم حقيقة ، غير كائن - توجد في آن واحد في فكرة «التغيير» وفي فساد العنصر الكوني ، إذن تغيير سحري أو شيطاني ، وفي الفكرة للقوة الابداعية لفارونا ، الذي بواسطة ماياه يعاود بناء النظام الكوني . ومن هنا نعرف لماذا أن (مايا) قد وصلت لتعني الخيال الكوني *l'illusion cosmique* ، لأن هذا ، منذ البدء يتعلق بمفهوم مختلط بله متناقض : ليس مجرد فساد شيطاني للنظام الكوني ، وإنما ابداعية إلهية أيضاً . وفيما بعد فإن الكون ذاته سيصبح ، بالنسبة للفيدانتا ، تحولاً وهمياً ، وبعبارة أخرى نظاماً من التغيرات مجرداً عن الحقيقة .

وللعودة إلى فارونا ، نؤكد أن طريقة تكونه - ملك رهيب ، ساحر ومعلم الأنشطة - يميز تقارباً مفاجئاً مع التنين فرترا . ومع الظن بالتقارب الاشتقاقي اللغوي لأسميهما^(٢٦) ، يحسن أن نشير إلى أن الاثنين يوجدان بعلاقة مع المياه ، وفي المكان الأول مع المياه الحبيسة) . «فارونا الكبير خبأ البحر» (ر . ق ٩ ٧٣ ، ٣) . الليل (الغير ظاهر)^(٢٧) المياه (بالامكانية ، البذور) «المفارقة» و «عدم العمل» (المميزة للآلهة العليا) ولها علاقة متضامنة أسطورية وفلسفية في آن واحد ، مع العلاقات من كل نوع ، من جهة ، ومع التنين فرترا من جهة أخرى ، الذي كما سنرى ، كان قد (حبس) و (أوقف) أو (قيد) المياه .

وأكثر من هذا أن (فيرونا) قد تمثل بالأفعى آهي Ahi وبفترتا^(٢٨) . وفي الأتھارفا فيدا (١٢ - ٥٧ - ٣١) قد نُعت بحية سامة . إلا أن فارونا بصورة خاصة في الماھابھاراتا ، قد تھامى بالأفاعي . لقد دعي «سيد البحر» و«ملك الناغاس Nagas» ، أو المحيط هو «محل إقامة الناغاس»^(٢٩)

٦٧ - أفاعي وآلهة . ميترا ، آريمان ، أديتين .

إن هذا الغموض وهذا التضاد لفارونا ، هام جداً من وجهات نظر متعددة ، ولكن الصفة النموذجية بصورة خاصة لتوحيد الأضداد هي مايجب إن يلتفت الانتباه . إنها تشكل في الواقع واحدة من المميزات للفكر الديني الهندي ، ومن زمن طويل قبل أن تصبح موضوعاً للفلسفة النسقية . إن التنافر والوحدة بين الأضداد ليست خاصة بفيرونا فقط . إن الريغ فيدا (١ ، ١٧٩) سبق أن وصفت آغني بالأفعى الغاضب . وتؤكد (آيتاريا براهمانا) (٣-٣٦) إن الأفعى آهي بودھنيا هي بطريقة غير مريئة (باروكسينا) أكثر مما هي آغني بطريقة مريئة (براتيانا) . وبعبارات أخرى ، إن الأفعى هي إمكانية للنار ، في حين أن الظلمات هي النور الغير ظاهر ، وفي الفاجاساني سامھيتا (ف ، ٣٣) أن آهي بودھنيا والشمس (آجا إيكاباد) هما متوحدين . فعندما تشرق الشمس في الفجر «تتحرر من الليل . . تماماً مثل آهي يحرق نفسه من جلده» (سات . بر . ٢ ، ٣ ، ١٧ و ٦) . كذلك الأمر فإن الاله سوما Soma «تماماً مثل آهي ، يزحف خارج جلده القديم» (ر . ف ١٠ ، ٨٦ ، ٤٤) .

إن الساتاباثا براهمانا توحده بفترتا (٣ ، ٤ ، ٣ ، ١٣ الخ) . ويؤكد بأن الأديتياس les Aditgas كانت في الأصل أفاعي . بتغييرها لجلودها القديمة الأمر الذي يعني أنها اكتسبت الخلود («أنا قهرت الموت») - أصبحت آلهة ، ديفاس (بانكافيسما . بر ٢٥ ، ١٥ . ٤) . وأخيراً تعلن الساتافا براهما (١٣) ، «إن علم الأفاعي (ساربا - فيديا) هو (الفيدا)»^(٣٠) . وبعبارات أخرى ، إن المبدأ

الآلهي هو بتناقض متوحد مع « علم » الذي ، في البداية على الأقل ، كانت له صفة « شيطانية » .

بكل تأكيد ، إن تمثيل الآلهة بأفاعي يمدد لحد ما الفكرة المثبتة في البراهي ناريكا أو بانيشاد (١ ، ٣ ، ١) ، بأن الديفاس والأزوراس هم أبناء براجاباتي ، وأن الأزوراس هم الأبقار من هؤلاء الأبناء . إن الاسقاط العام للصور المتضادة يشكل واحداً من التعابير المفضلة لايضاح الوحدة الكلية الأولية . وسنجد مثلاً استعراضياً بدراسة الشروح اليتولوجية للمعركة الأسطورية الشهيرة بين «أندرا» و «فرترا» .

أما بالنسبة الى ميترا mitra ، فان دوره ثانوي عندما انعزل عن /فارونا/ . فقد كرس له نشيد واحد في الفيدا [ر . ف ٣ - ٥٩] . ولكنه يشاطر مع فارونا ملحقات السيادة ، بتجسيده للمظهر المسالم ، العطوف ، والقانوني والكهنوتي . وكما يدل عليه اسمه ، (العقد) مجسداً ، تماماً مثل ميترا mithra في الاستباق avestique . إنه يسهل المعاهدات بين البشر ويجعلهم يلتزمون بتعهداتهم . ان الشمس هي عينه [ت . ب . ٣ - ٥١ ، ١] انه كلي الرؤية لا يفوته شيء . ان أهميته في النشاط والفكر الديني تظهر بصورة خاصة عندما يستدعى مجتمعاً مع فارونا الذي هو في آن واحد الضد والمكمل . ان الثنائي - ميترا - فارونا ، الذي كان فيما سلف في عصر أكثر قدما ، يلعب دوراً بارزاً بصفته تعبيراً ممتازاً عن السيادة الالهية ، قد استعمل بعدئذ كتعبير نموذجي من أجل كل نوع من الازواج المتضادة والمتعارضات المتكاملة .

ان لميترا شركاء ، اريمان وبهاكا ، أولهما يحمي مجتمع الآريين : فهو يدير على الأخص الأعمال القانونية التي تقيم الضيافة وتهتم بالزواجات . وبهاجا Bhaga ، الذي يعني اسمه /جزء/ ، وهو يضمن توزيع الثروات .

إن أريمان وبهاجا مجتمعين مع ميترا وفارونا (وأحيانا مع آلهة أخرى) يشكلون جماعة الاديتاس des Adityas أو أبناء الربة (آديتي ج) Aditi الغير مرتبطة

- أي الحرة . وقد سبق أن نوقشت باستفاضة بنية هذه الربة منذ ماكس مولر .
فالنصوص تماهيا بالأرض أو حتى بالعالم ، انها تمثل الامتداد ، والعرض ،
والحرية^(٣١) . ومن الراجح جدا أن آديتي كانت ربة كبيرة أما والتي ، بدون أن
تنسى تماما ، نقلت صفاتها ووظائفها لأبنائها les Adityas .

٦٨ - اندرا ، بطل ، وخالق العالم :

ان اندرا هو الاله الأكثر شعبية في الريف فيدا . وقد وجه اليه حوالي ٢٥٠
نشيد . ومع المقارنة لـ ١٠ موجهة الى فارونا و٣٥ الى ميترا وللاديتاس مجتمعين ،
فهو البطل بامتياز ، ونموذج مثالي للمحاربين ، وخصم عنيد للدازيوس . ان
انصاره الماروت maruts تعكس ، على مستوى أسطوري المجتمعات الهندو -
ايرانية للمحاربين الشباب /ماريا/ . ولكن /اندرا/ هو أيضا خالق العالم
dimiurge ومخصب ، وتشخيص للحياة المفرطة للحياة ، وللطاقة الكونية
والبيولوجية ، لا يعرف التعب متم لسوما/ النموذج القديم للقوى التناسلية ،
لقد أطلق العواصف الهوجاء وأراق الأمطار وقاد كل البشرية .^(٣٢) .

إن الأسطورة المركزية لاندرا ، والتي هي إضافة لذلك الأكثر أهمية من
أساطير الريف فيدا ، تروي قصة معركته المظفرة ضد (فرترا) التنين الجبار الذي
حبس المياه في /حفرة الجبل/ . ومدعما بسوما فان اندرا جندل التنين
فرترا أرضاً .

وبواسطة مدفعه الصاعقة ، السلاح الذي كان قد حدد forge من قبل تفاسير
Tvastr شق رأسها وحرر المياه التي سالت نحو البحر (كابقار خائفة) . [ر . ف ٥ -
١٣] إن معركة ضد إله غول افعواني أو بحري تشكل ، كما نعلم ، لازمة
أسطورية منتشرة جداً . ويمكن أن نعيد الى الذاكرة المعركة بين رع وأبوفيس وبين
الاله السومري نيفورتا وأساج ، ومردوك وتيامات والاله الحثي للعاصفة والأفعى
ايلويانكا . وزوس وتيفون والبطل الايراني ترايتونا والتنين ذي الرؤوس الثلاثة .

وفي بعض الحالات (ماردوك - ثيامات ، مثلاً)، يشكل نصر الاله الشرط المسبق لعلم الكون . وفي حالات أخرى ، الرهان هو افتتاح لون جديد ، أو الإقامة لسيادة جديدة (زوس - تيفون - بعل - يام) وبالأجمال ، فانه باماتته غول افعواني - رمز ضمور العماء ولكن أيضا الوطني - يتكون وضع جديد ، أو وضع تأسيسي ، إن خطأ مميزاً ، وشائعاً في كل هذه الاساطير ، هو الخوف ، أو خيبة أولى للبطل ، فماردوك ورع ترددا قبل المعركة ، وفي الشوط الأول توصلت الأفعى (ايلليانكا) لبر عضو من الاله ، ونجح تيفون بقطع واستئصال عرقوبي زوس . وحسب السائباثا براهمانا (١ - ٢٦ - ٣ - ١٧) هرب اندرا عند مشاهدته لفرترا ، هرب لأبعد ما يمكن وقد وصفته ماركينديا بورانا كمريض من الخوف وتمنت له السلام (٣٣) .

وسيكون من غير المجدي الوقوف عند تفسيرات الطبيعيين لهذه الاسطورة : لقد رأينا في الانتصار ضد فرترا ، سواء أطلقت المياه بالعاصفة ، سواء بتحرير مياه الجبال ، (أولدنبرج) وسواء بانتصار الشمس ضد البرد الذي كان /حبس/ المياه بتجميدها (هيل براندت) . لقد رأينا أن عناصر طبيعية ، هي بالتأكيد ، ماثلة طالما أن الأسطورة متعددة القيمة ، ان انتصار اندرا يعادل ، بين انتصارات اخرى ، انتصار الحياة ضد الحرب والموت ، نتيجة لعدم تحرك المياه من قبل فرترا . ولكن بنية الاسطورة هي هي بنية كونية . ففي الريغ فيدا (١/٣٣/٤) قيل انه ، بنصره ، خلق الاله الشمس والسماء والفجر . وحسب أنشودة أخرى (١٠ - ١١٣ - ٤ - ٥) فإن اندرا ، منذ ولادته فصل السماء والأرض ، وثبت القبة السماوية وباطلاقه الصاعقة (فارجرا) - مزق فرترا الذي كان يحبس المياه في الظلمات . وعليه فان السماء والأرض هما آباء الآلهة . (١ - ١٨٥ - ٦) واندرا هو الأكثر شباهاً (٣ - ٣٨ - ١) وأيضاً هو آخر اله يولد ، لأنه وضع نهاية لزواج السماء بالأرض . «بقوته نشر هذين العالمين ، السماء والأرض ، وجعل الشمس تشع» (٨ - ٦٣) . وبعد هذا العمل لخلق العالم فإن أندرا عين فارونا كمدير للكون وحارس درثا (الذي بقي مختبئاً في العالم السفلي) [١ - ٦٢ . ر. ف.] .

وكما سنرى (ف ٧٥ع) يوجد أيضا نماذج أخرى لعلوم الكونيات الهندية تفسر خلق العالم بدءاً من مادة أولية ، وهذه ليست حالة الأسطورة التي لخصناها ، لأنه ، هنا ، نموذج واحد من /العالم/ كان يوجد مسبقاً . وفي الواقع ان الأرض والسماء كانتا مكونتين وقد حملتا بالآلهة . واندرام لم يفعل سوى فصل الآباء الكونيين وبتفجيره لفرترام وضع حداً للجمود بله الضمور المرموز اليه بطريقة الكينونة للتنين^(٣٤) . وحسب بعض التقاليد ، فان «الصانع» للآلهة تفاسر Tvastri ، الذي لم يكن دوره واضحاً في الريخ فيدا ، كان قد أنشأ لنفسه بيتاً وخلق /فرترام/ كنوع من سقف ولكن أيضاً جداراً من أجل هذا المسكن . وفي داخل المسكن ، المحاط بفرترام ، كانت توجد السماء والأرض والمياه^(٣٥) . وقد جعل اندرام هذه العوالم تنبثق بكسره مقاومة ومعاندة فرترام . وبعبارة أخرى ، ان العالم والحياة لم يمكن لهما أن يتولدا الا بإماتته كائن أول عديم الشكل . وفي ظل ما لا حصر له من المتغيرات ، تنتشر هذه الأسطورة كثيراً ، وفي الهند ذاتها سنجدتها في تقطيع بوروسا Purusa من قبل الآلهة وفي تضحية براجباتي . ومع ذلك فان اندرام لم يكمل الأضحية ، وانما بصفته محارباً قتل الضد النموذجي ، التنين الأول ، التجسيد /للمقاومة/ و/العناد/ .

إن الأسطورة متعددة ، القيم فإلى جانب مدلولها الكوني يوجد متكافئات طبيعية وتاريخية . وان معركة اندرام كانت تستخدم كنموذج للمعارك التي استمر الآريون يعتمدونها ضد الدازيوس Dasyus (المسماة من جهة أخرى فراتاني) . «فمن ينتصر في معركة يقتل فرترام فعلاً» . ومن الراجح ، أن المعركة في العصر القديم بين أندرام وفرترام كانت تشكل السيناريو الأسطوري الشعائري لأعياد السنة الجديدة التي تضمن تجدد نسل العالم^(٣٦) . واذا كان هذا الاله هو في آن واحد بطل لا يتعب ، وخالق العالم ، وتحلى القوى الجنسية والخصب العالمي ، فان هذا التكوين بالعنف يشيء الحياة وينميها ويمجدها. إلا أنه سرعان ما يستعمل التأمل الهندي هذه الأسطورة كتجميع للوحدة - الثنائية - الالهية ، وبالنتيجة كمثال تأويلي hermeneutique للنصوص ، والهادف لكشف الحقيقة الكلية .

٦٩ - آغني الكاهن : نار التضحية ، النور ، العقل

إن الدور الثقافي للنار /الأهلية/ المنزلية كان هاما فيما سبق العصر الهندو-أوروبي . وهو يتعلق ، تأكيدا ، بعرف يعود لما قبل التاريخ ، وقد تأكد من جهة أخرى على نطاق واسع في عدد من المجتمعات البدائية . إن الاله /آغني/ يمثل في الفيدا قداسة النار بامتياز ، ولكنه لا يدع نفسه محصورا بهذه التجليات الكونية والشعائرية . فهو ابن دايوس (ر . ف ٢٦ ، ١٠) تماما كشبيهه الايراني آتار الذي هو ابن لآهورا ماذا (الينساق ١٢/ع) ولقد ولد في السماء ونزل منها على شكل نور ، ولكنه وجد كذلك في الماء ، وفي الخشب ، وفي النباتات . وزيادة على ذلك توحد بالشمس .

إن آغني وصف ، في آن واحد ، بتجلياته النارية وبنعوته الالهية المميزة له . ويذكر ان «شعره من لهب» و«فكه من ذهب» والضجة والرعب الذي ينتجه . «عندما تنقض على الأشجار كثور هائج ، فإن ذيلك أسود» [ر . ف ١ - ٥٨ - ٤] . إنه الرسول بين السماء والأرض وعن طريقه تصل التقدّمات للآلهة . ولكن آغني هو بصورة خاصة النموذج القديم للكاهن ، ويسمى المضحّي أو الكاهن - (بورهيता) . لهذا فإن الأناشيد المكرّسة له وضعت في بداية الرّيح - فيدا النشيد الأول الذي يفتح بهذه العبارة : «آغني لآغني ، الكاهن ، رب الأضحية ، الكاهن المنذور للخدمة الذي يغمرنا بالهبّات» [ترجمة جان فارينا] . انه شاب خالد الشباب «الرب الذي لا يشيخ» [ر . ف ٢ - ٥٢] لأنه يعاود الولادة مع كل نار جديدة . بكونه سيد البيت (غريها سباتي) فان آغني يطرد الظلمات ، ويبعد الشياطين ، ويكافح ضد الأمراض والرقية . ولهذا السبب فان علاقات البشر مع آغني هي أكثر صميمية مما هي مع الآلهة الأخرى . «انه هو الذي يوزع بعدل الأموال المرغوبة» [١ - ٥٨ ٣] انه يدعى بثقة : «أوصلنا يا آغني للثروة بالطريق الصحيح ، قنا الاخطاء التي تضل . قنا من الأمراض . . أحمنا دوما يا آغني ، بواسطة حراسك الذين لا يتعبون . . لا تتركنا للأشرار للمخرب للقاتل ولا لسيء الحظ» [ترجمة فارين ١ - ١١٨٧ - ٥] (٣٧) .

ومع كونه كلي الحضور في الحياة الدينية - لأن نار التضحية تلعب دوراً بارزاً - فإن آغني لا يمتلك ميتولوجيا قابلة للتحديد . ومن بين الأساطير النادرة التي تخصه مباشرة ، فإن أكثرها شهرة هي /ماتا ريزفان/ الذي حمل النار من السماء^(٣٨) وفي ميدان علم الكون ، فإن دوره كما يبدو مشوش ولكنه هام . فمن جهة سمي (جنين المياه) (أبو نجار باه) [٣ - ١ - ١٢ - ١٣] وهو يستدعي منبثقاً من رحم المياه ، الامهات [١٠ - ٩١ - ٦] . ومن جهة أخرى يعتبر انه قد اخترق المياه الأولية ، وانه أخصبها . وهذا يتعلق ، تأكيداً ، بمفهوم كوني قديم : الخلق عن طريق قران عنصر ناري igné (نار ، حرارة ، ضوء ، مني رجولي) مع مبدأ مائي (مياه ، كمون = امكان فعل سوما) . ستوجد بعض الصفات لآغني (حرارة ، لون ذهبي لأنه ينسب اليه جسم من ذهب [ر . ف : ٤ ، ٣ ، ١ - ١٠ - ٩٢] - قدرات منوية spermatiques وخلاقة) في التعليمات التشكونية المثارة حول هيرانيا جاربها (الجنين الذهبي) وبراجباتي (ف ٧٥ ع) .

وتبرز الاناشيد القدرات الروحية لآغني : انه رزي Rsi موهوب ذكاء خارقاً وبصيرة . وللتأكد من مقياس أمثال هذه التعليمات بشكل سليم ، يجب أن يؤخذ في الحسبان الصور العديدة والرموز المكتشفة (بالتخيل الابداعي) والتأملات حول موضوع النار ، واللهيب والحرارة . ان كل هذا كان قد شكل من جهة أخرى تراثاً انتقل مما قبل التاريخ . ان العبقرية الهندية لم تفعل سوى اعداد وتوضيح وتنسيق هذه المكتشفات السحيقة في قدمها . وستوجد في التأملات الفلسفية الأخرى بعض هذه الصور الأولية ذات العلاقة مع النار ، كالمفهوم للعبة الهية خالقة (لايلا) Ila على سبيل المثال ، المفسرة بدءاً من /لعبة/ النيران المدمرة . اما بالنسبة لتمثل نار (نور) - ذكاء ، فهو منتشر على نطاق عالمي .^(٣٩) .

وهذا ما يدعو للحكم بشكل أفضل على أهمية «آغني» في الديانة والروحية الهندية : فلقد أثار ما لا يحصى من التأملات والافكار الكوزمو بيولوجية أو سهل التركيبات الرامية لارجاع مخططات متعددة ومختلفة الى مبدأ أساسي واحد . وبالتأكيد ، ليس آغني هو الاله الهندي الوحيد الذي يتغذى من أمثال هذه الأحلام والتخيلات ، ولكن يقع في الصف الأول من بينها . ففيما سلف في العصر

الفيدي كان قد توحد في (تيجا) (طاقة نارية) وعظمة ، وفاعلية وسمو وقدرة فوق الطبيعة» الخ . . وفي الأناشيد يدعى كي يبارك هذه السلطة^(٤٠) [ر . ف ٩/٨٩/٤] ولكن سلسلة التوحيدات - والتمثلات - والتضامانات هي عمليات مميزة وخاصة بالفكر الهندي وهي فيه أكثر اتساعاً . إن آغنى ، أو واحد آخر من أمثاله ، الشمس ، قد أدخل في عملية التفلسف الرامية لتوحيد الضوء في اثنان وفي المنى الذكوري Semenvirile . بفضل الشعائر والتنسكات المتبوعة بزيادة /الحرارة الداخلية/ إن آغنى مرتبط أيضاً بالتقييم الديني الحرارة التنسك /تاباز/ والممارسات اليومية ، رغم أن ذلك هو أحياناً بصورة غير مباشرة .

٧٠- الاله سوما وشراب من لا يموت

مع ال ١٢٠ نشيد المكرسة لسوما فإنه كان يظهر كالثالث في مجمع الآلهة الفيدي . . إن كتاباً كاملاً من الريغفيدا (التاسع) مخصص لسوما باقامانا : «السوما على أهبة الصفاء» أيضاً وبأكثر مما هو في حالة آغنى ، من العسير فصل الحقيقة الشعائرية - النبات والري - عن اله يحمل بنفسه هذا الاسم . إن أساطيره يمكن إهمالها . وأكثرها أهمية يقص عن الأصل السواوي /لسوما/ : عقاب (طائر من السماء) يندفع «مع سرعة الفكر ويفتصب معقل البرونز» [ر . ف ٨- ١٠٠] . ويقبض الطير على النبتة ويعيدها إلى الأرض . ولكن غموا السوما مفروض أن يكون في الجبال^(٤١) وهذا ما يشكل تناقضاً كما يبدو ، لأن القمم تنتمي إلى العالم المتصاعد ، فهي اذن ممثلة بالسماء . ومن جهة أخرى ، فإن نصوصاً أخرى تؤكد على أن /السوما/ ينبت في /رحم الأرض على الجبال [ر . ف ١٠ - ٣١] أي في مركز العالم حيث أن المرور بين الأرض والسماء هنالك قد جعل ممكناً^(٤٢) .

إن سوما لا يحوز سوى صفات معتادة تطلق على الآلهة بصورة عامة : فهو بصير ، ذكي ، عاقل ، متتصر كريم الخ . . انه معتبر الصديق والحامي لآلهة أخرى ، وفي الدرجة الأولى هو صديق إندرا . ويدعى أيضاً الملك سوما ، وذلك

بلا ريب بسبب أهميته الشعائرية ، ان توحده مع القمر ، غير معروف في الاستاق avesta ، ولم يتأكد الا في العصر ما بعد الفيدي . ان كثيراً من التفاصيل هي على علاقة مع عصر النبات قد وصفت في آن واحد في مصطلحات كونية وبيولوجية : الضجة المخنوقة بالرحى السفلى المشبهة بالرعد ، وصوف المصفاة يمثل الغيوم ، والعصير هو المطر الذي ينبت النبات الخ . . إن عملية العصر قد شبهت أيضاً بالقران الجنسي . ولكن كل هذه الرموز للخصب البيو - كوزمية ترتبط في لحظتها الأخيرة بالقيمة الاسطورية لسوما .

إن النصوص تصر على الحفلات التي تسبق وتصاحب شراء النبات ، وعلى الأخص تحضير المشروب . ومنذ (الريغ فيدا) كانت أضحية سوما هي الأكثر شعبية «روح ومركز التضحية» (جوندا) . ومهما كان النبات المستعمل في العصور الأولى من قبل الهندو - آريين ، فمن المؤكد أنه بعدئذ قد أبدل بأنواع نباتية أخرى . ان السوما هاوما هو الصيغة الهندو - ايرانية لمشروب عدم الموت - أمارتا ، وقد استعير عنه ، على الأرجح ، بالشراب الهندو - ارويي ، مادهو ، [نبذ العسل] .

إن كل فضائل /سوما/ متكافلة بالتجربة الوجدية (النشوية) الحاصلة نتيجة شربها «لقد شربنا السوما ، - كما نقرأ في نشيد شهير (٨ - ٤٨) ، لقد أصبحنا خالدين ، بوصولنا للنور ، وجدنا الآلهة . ماذا يستطيع أن ينقل الاحاد لنا الآن ، أو ماذا يستطيع أن يفعل الخبث لفانٍ أيها الخالد؟؟ (فقرة ٣) . اننا نتضرع لسوما ليمد في عمرنا ، لأنه (حارس أجسادنا) وان المتاعب - الغباء والأمراض قد أخذت في الهرب» . ان السوما تنعش الفكر ، وتعيد نشاط الشجاعة للمحارب ، وتزيد الحيوية الجنسية ، وتشفي الأمراض . ان شربها من قبل الكهنة والآلهة معاً ، يقرب الأرض من السماء ، ويقوي ويمد في «أجل الحياة» ، ويضمن الخصب . وفي الواقع ان التجربة الوجدية تكشف في ذات الوقت عن الكمال الحيوي ، وعن معنى الحرية بلا حدود ، وعن امتلاك قوى طبيعية وروحية لا يتسرب اليها الشك . من هنا الشعور بالمشايعة مع الآلهة ، بل الانتماء إلى عالم الألوهية ، واليقين بعدم الموت . أي بحياة كاملة في الدرجة الأولى ممتدة الى ما

لأنهاية له . من هو الذي يتكلم في النشيد الشهير /س/ ١١٩ ، الاله أو النشوية التي جاءت من احتساء الشراب المقدس؟؟ «ان القبائل الخمس (البشرية) لم تظهر لي جديرة حتى بالقاء نظرة - ألم أشرب السوما اذن؟» ان صاحب الشخصية يعدد مفاخره : «لقد سدت السماء بقامتي ، سدت الأرض الواسعة . . سأخرب هذه الأرض بضربات كبرى . . لقد رسمت أحد جناحي في السماء والآخر رسمته هنا تحت . . انني كبير ، كبير . . . لقد اندفعت حتى الغيوم ، - ألم أشرب السوما إذن؟» /ترجمة رينو/ (٤٣) .

لن يُتوقف ابداً على المتابعات وعلى التعويضات للنبات الأصلي في العبادة . فهذا هو الدور الذي لُعب عن طريق هذه التجارب السومية في الفكر الهندي وهو دور هام . ومن الراجح جداً ان مثل هذه التجارب كانت محددة للكهنة وإلى عدد من المضحين .

ولكنه كان لها رجع صدى معتبر بفضل الاناشيد التي مجدتها ، وبصورة خاصة التفسيرات التي أثّرت ، ان الكشف لوجود كامل وطوباوي ، بمشاركة الالهة ، قد استمر بمصاحبة الروحية الهندية لزمان طويل بعد اختفاء المشروب الأصلي . وقد جرى البحث للحصول على وجود من هذا النوع بمساعدة وسائل أخرى : الزهد أو التقشف ، أو الافراط في التهتك ، أو التأمل ، أو تقنيات اليوجا ، أو الورع الاسطوري وكما سنرى (ف ٧٩ ع) فإن الهند القديمة عرفت العديد من النماذج الوجدية .

واضافة لذلك ، فإن البحث عن الحرية المطلقة قد أفسحت المجال لمجموعة من الطرق و(الفيلوزفيا) التي تنفذ في نهاية المطاف على المنظورات الجديدة ، التي لم تكن موضع شك في العصر الفيدي . وفي كل هذه التطورات الخارجية لعب الاله سوما دورا لا يكاد يمحي ؛ إنه المبدأ الكوني والتضحوي الذي يعنيه والذي انتهى بجذب انتباه رجال اللاهوت والميتافيزيكيين .

٧١ - إلهان كبيران من العصر الفيدي : رودراشيفا وفيشنو

تذكر النصوص الفيدية اضافة لذلك عدداً من الآلهة ، وأغلبية هذه الآلهة ستفقد تبعاً أهميتها وستنتهي إلى النسيان ، في حين ان بعضها ستكسب فيما بعد وضعاً لا مثيل له . من بين الأول نذكر ربة الفجر اوزاس Usas ابنة السماء (دايوس) ؛ وفايو ، Vayu اله الريح ومشابهاته ، (النفخ) و(الروح الكوزمية) ؛ وبارجانيا Parajnya اله العاصفة والفصل المطر ؛ وسوريا Surya وسافيتر Savitr ، الهان شمسيان ، وبوزان Pusan ، اله الراعي القديم وانما على أهبه الاختفاء (ليس له عبادة تقريباً) ، وحارس الطرق ودليل الموتى ، الذي قورن بهرمس ؛ والتوأمان اسفين Acvins (او نازاتيا) ، ابن دايوس ، بطل عدد من الأساطير والخرافات التي ضمنت لها مكاناً مرموقاً (ماريا marya) الذين فسّرهم سيتج ويكندر stigvrkander كنموذج اسطوري «لجمعية من الرجال» من نوع هندو - أوروبي .

وإن الصنف الثاني مثل بروداراشفيا وفيشنو. انها يشغلان مكاناً متواضعاً في النصوص الفيدية ، ولكنها في العهد الكلاسيكي يصبحان الهان كبيران . ان فيشنا يبدو في الريغ فيدا كاله محسن تجاه البشر (١-١٨٦، ١٠) ، صديق وحليف لاندر ، يساعده في معركته ضد فرثرا ، ماداً على اثر ذلك الفضاء بين السماء والأرض (٦، ٦٩، ٥) . لقد اجتاز الفضاء في ثلاث قشحات ، مدركاً في الثالثة ، قصر الآلهة (١، ١٥٥، ٦) . ان هذه الاسطورة تستوحى وتبرر شعيرة في البراهمانا : فيشنو قماهي بالاضحية [ساتاباتابر ١٤٠٠، ١، ١٦، والمضحى ، محتذياً شعائرياً خطواته الثلاث ومتمثلاً بالاله ويدرك السماء [١-٩/٣-٩] إن فيشنو يبدو مرمزاً في آن واحد لامتداد الفضاء الغير محدد «الذي يجعل من الممكن تنظيم الكون» ؛ وللطاقة الخيرة والكلية القدرة التي تبجل الحياة ، والقطب الكوني الذي يسند العالم . ان الريغ فيدا [٧-٩٩-٢] تؤكد أنه يسند الجزء الأعلى من الكون^(٤٤) . وتصر البراهمانا على علاقاته مع براجاباتي المؤكدة منذ العصر

الفيدى . ولكنه مؤخراً ، وفي الاوبانيشاد فقط من الصنف الثانى (المعاصرة للبهاجافاد جيتا ، أى حوالى القرن الرابع ق.م) ، وإن فيشنوقد عبد كاله أعلى من بنية توحيدية . وسنؤكد فيما بعد على هذه العملية ، المميزة من جهة أخرى للابداعية الدينية الهندية .

تشكليا morphologiquement ، يمثل رودرا ألوهة من نوع معاكس . فليس له اصدقاء بين الآلهة ، ولا يحب البشرية ، التى يربعها بغضبه الشيطانى ، ويبيدها بالامراض والكوارث .

ان رودرا يحمل شعراً مجدولاً [ر.ف ١-١١٤، ١، ٥] ولونه اسمر غامق (٢-٣٣-٥) : بطنه اسود وظهره أحمر . وهو مسلح بقوس وسهام ويرتدى جلد حيوان ويسكن الجبال ، محل اقامته المفضلة ، انه شريك عدد من الكائنات الشيطانية .

ويعبر الأدب التالى للفيدية ايضاً عن الطباع الشريرة للاله . ان رودرا يقيم فى الغابات والاجات ويسمى «سيد الحيوانات المتوحشة» [ر.ف ١٢-٧، ٣] ويحمي أولئك الذين يبقون خارج المجتمع الأري . وفي حين ان الآلهة تسكن فى الشرق ، فإن رودرا يسكن فى الشمال (الهملايا) . انه مستثنى من اضحية السوما ويتلقى فقط تقدمات من الأطعمة التى تلقى على الأرض (بالى) أو بقايا التقدمات والمشروبات التضحية المعطوبة . [ساتا . بر . ٣٥، ٧١] . إن صفاته تتراكم : فيدعى شيفا (المحسن) وهارا (المُخرب) وشامكارا (الشافى) ومادها ديفا (الاله الكبير) .- وحسب النصوص الفيدية والبراهمانية ، فإن رودرا شيفا يبدو كتجلي للقوى الشيطانية (أو على الأقل المتضادة) الساكنة فى الأمكنة المتوحشة والمهجورة، إنه يرمز لكل ماهو عمائى، خطر غير مرئى؛ وهو يُشعر بالخوف، ولكن سحره الغامض يمكن توجيهه ايضاً نحو الأهداف الخيرة [أنه «طبيب الاطباء»] . ولقد جرى نقاش مطول حول الأصل والبنية الأولى لرودرا شيفا ، فاعتبر من قبل بعضهم كاله للموت وكذلك للخصب ، مثقل بعناصر ما قبل آرية ، معبود الطبقة الغامضة من النساك المتقشفين قراتيا . ان المحطات التى

تحول بها رودرا شيفا الفيدي إلى اله أعلى كما يظهر في القاتفاتارا او بانيشاد ،
تفوتنا معرفتها . ويبدو ، مؤكداً ، انه خلال مجرى الزمن ، مثل رودراشيفا -
كأكثرية الآلهة الأخرى - عدداً من عناصر التدين الشعبي الآري أو ما قبل
الآري . ولكنه ، من جهة أخرى ، سيكون من غير التبصر الاعتقاد بأن
النصوص الفيدي قد نقلت إلينا (البنية الأولى) لرودراشيفا . ويجب التذكر دوماً
بأن الأناشيد الفيدي والاطروحات البراهمانية قد ألّفت لأجل نخبة من
الارستقراطية والكهنة ، وان جزءاً كبيراً من الحياة الدينية للمجتمع الآري كان
بدقة مجهولاً . ومع ذلك فإن ترقية (شيفا) إلى صف اله أعلى للهندوسية لا يمكن
تفسيره بأصله ، سواء أكان مما قبل الآرية أو شعيباً . انه يتعلق بإبداع سنحاول
بحث اصوليته في تحليلنا للجدلية الدينية الهندية ، كما تبدو في إعادة التفسير
وإعادة التقييم المستمرين للأساطير ، وطقوس الأشكال الإلهية .

حواشي الفصل الثامن

- ١ - المفردات العامة لبعض الحيوانات (ذئب ، دب ، وزه ، سلمون النهر ، زنبور نحلة) واشجار - سندر رزان - بلوط - صفصاف .
- ٢ - عبارات النحاس والفأس سومريه واستعيرت قبل فصل مجموعات لغوية اوروبية جرمنة ايطالية - سلنية - ايرلية - يونان وسلاف .
- ٣ - المقطع اللغوي اليوناني theas لا يرد في ذات المجموعة - انه يشتق من جذر كلمة تشير للروح (نفس الميت) - في الليتورية deusin - وفي السلافية القديمة dush بمعنى نفس أو dusa : روح ، وعليه يمكن الافتراض ان ثيوس اله . متطور بدءاً من فكرة الأموات المؤلمين .
- ٤ - في ايران ، اسم اله النار آتار Atas ولكنه يوجد اشارات في لغة اكثر قدماً للديانة كانت تسمي النار آغني Agni وليس آتار .
- ٥ - اضافة لذلك فإن القداسة المثلة بالشمس قد سمحت في ازمان السنسكريتية . اليونانية - الشرفية . لاعادة احياء لاهوتي وفلسفي الدرجة يمكن معها القول ان الاله الشمس كان آخر تجلي كوني يغيب ، امام اتساع التوحيد اليهودي المسيحي .
- ٦ - يضاف ، انه مؤخراً ، ان الانسان بكونه كائناً ارضياً كان مقابلاً في الغرب للكائنات السماوية ، بيتا في المشرق نجد مفهوم الانسان مخلوقاً جذرياً (m'nu) مقابلاً للحيوانات (رنيوز ص ٢٦٤)
- ٨ - ص ٢،٣ ايربك هامب يأتي غالباً لاعادة تركيب العبارة العامة لأجل التضحية .
- ٩ - التجمع الجدلي الأصلي - الحثي - السلافي - البلطقي - الدرمني (الجرمني ؟) يؤكد اشكالاً متقاربة مع الحثية المايطية (صل) بينا الايراني ، السلتي اليوناني يمثل عبارات مشتقة من الجذر (صل) ، (رغب)
- ١٠ - ميترا - فارونا - ج - لوميزيل ص ٨٣١

١١- سيفرفيوس ص ١٩٠

١٢- هذه الذنوب الثلاثة ترتكب بعودة ثلاثة وظائف ، وعليه فهي تقع في نطاقات النظام الديني ، المحارب المثالي عن الخصب ، الأمر الذي يقرر الفرضية ذات الوظائف الثلاثة . ولننصف إلى ذلك بأن توحيد باعث هندو- اوروبي عام في ميتولوجيا هرقل هو ذي علاقة بايديولوجيا التثليث لأنها اليونان كانت غير معتمدة كنتيجة للتوفيقية من الثقافة الهمجية

١٣- الاسم معروف ايضاً في الاستاق باسم Haptahindu

١٤- ب. ور Alehri في مولد الحضارة الهندية ص ١٥٥ ، ان تحول الاعداء الأرضيين لشياطين (اشباح) و(سحرة هو عنصر شائع - رم- الياد . اسطورة العودة الابدية

١٥- م الياد- اليوجا ص ٣٤٨

١٦- من المعلوم وجود اكمال لهذا الوصف للثقافة المادية الموازية ، للقيم السحرية- الدينية للآلات واساطيرها

١٧- كوماراسوامي ، ص ٢٢- من اسطورة العودة لآلياد .

١٨- انظر لويس رينو- ديانات الهند القديمة

١٩- وهذا مما يذكر بحالة الدين الاغريقي في العصر الهومييري : فالقصائد كانت توجه إلى نخبة عسكرية مهمة قليلاً او غير مهمة باسرار الخصب الكونية وبسبب الوجود للروح ، اسرار مع ذلك قد حكمت النشاط الديني لزوجاتهم ولرعاياهم .

٢١- صور ورموزها ١٢٤- بيترسون ، قد شرح اسمه بدءاً من الجذر الهندو اوروبي lier

٢٢- «لرؤية المكان البارز الذي يأخذه هذا المفهوم ذاته تقريباً تحت ذات اللفظ حتى لدى ما قبل الهنود في الميزوبوتامي وسورية كما هو لدى الايرانيين من كلمة divus فقد تأكد انها شكلت فيما سلف الاساس لأفكار وشروح للهندو ايرانيين الهندية (ريغويل ص ١٤)

٢٣- في اللغة التقليدية مصطلح (رتا) سيوضع مكانه المصطلح (دهارما) الذي سنرى فيما بعد عظمة مصيره في الريغ فيدا وهامان ودهارمان قد ذكرا على التوالي ٩٦ و ٥٤ مرة

٢٤- دوميزيل ص ١٤٢

٢٥- «لقد نصر الماييون بواسطة مايا» تلك هي اللازمة لعدد من النصوص ... بين (انواع السحر) لاندرنا يضاف في الدرجة الأولى قدرته بالتحول والتغيير .

٢٦- ٢٧- بعض المشاهد من الريغ فيدا ترى في فيرنا الغير ظاهر المعمر والخالد

٢٨- انظر المراجع المذكورة ص ٣٩١

٢٩- ماها باراتا ١١- ٢١- ٤/٢٥ في مشاهد اخرى يعتبر قارونا بين الأكثر قوة واستمرارية وقد ذكر مع الافاعي الاسطورية المؤكدة سابقاً في المصادر الفيديا- جوهنسون- قارونا ودراتاشية ص ٢٦

- ٣٠ - حول هذا النص ر. - اليا د . م ميستوفيليس ص ١٠٨٠
- ٣١ - ر. ح كوندن ، قوى وآلهة ص ٧٥
- ٣٢ - يدعى ساهاسراموسكا (ذي الألف خصية) [٤٦- ٧٧- ٧٠ ر. ف] انه سيد الحقول وسيد الأرض ، محصب الحقول والحيوانات والنساء .
- ٣٣ - وفي الواقع ارسلت إليه رسلا اقاموا ما بينها من صداقة واعتراف ، مع ذلك انتهك اندرا العقد بقتله فترتا بحيلة ومكر وهذا هو ذنبه الكبير وثمة خط آخر يميز للأسطورة الهندية : فبعد الموت يرتعد اندرا من الخوف فيطير فوق حدود الارض ويختفي في زهر لوتس «مرتدياً شكلاً دقيقاً جداً»
- ٣٤ - يصادف اندرا فترتا (غير مجزا ، غير يقظ نائم - غارق في ثباته (ر. ف ١٧ ، ٢٩ ٣)
- ٣٥ - انه على الاخص نورمان رو - براون - الذي حاول اعادة تركيب هذا المفهوم الكوني
- ٣٦ - يرى Huiper في كتابه الأريين القدامى ص ٢١١ - المناظرات الخطابية في الهند الفيديا كانت تكرر كذلك الصراع الأولي هذه ضد القوى المقاومة . ويقارن الشاعر باندرا (أنا قاتل اعدائي بدون جراح صحيح وسليم مثل اندرا) هوبو - (ر. ق ١٢ - ١٤٦ - ٢١)
- ٣٧ - بسبب دوره في تحريق الجثث سمي (مفترس اللحوم ويقارن احيانا بالكلب وابن آوى وهذا هو مظهره الوحيد التعيس)
- ٣٨ - ولكنه في نصوص اخرى Agni ذاته هو رسول (موتاستاف)
- ٣٩ - ان التأمل الديني حول النار للتضحية يلعب دوراً في الزرادشتية (ر فقرة ١٠٤)
- ٤٠ - G. Gonda - قوة وآلهة ص ٥٨
- ٤١ - لقبه many avatar يدل على اسم جبل كما لو انه مفاجئة لسوما . وان التقليد الايراني يؤقلم النبات laoma في الجبال (باسنا ٤٠ - ياست ١٧:٩ الخ)
- ٤٢ - في نصوص ١١ yajurveda تجرى عادة تورية لتضحية سوما بالآلهة ، وميترا وحده رفض المشاركة فيها ولكنه اقتنع اخيراً . وقد يمكن حل الرموز في هذا المشهد لاثارة اسطورة عن الأصل : خلق مشروب (الخلود) بتضحية كائن أولي . هذا الميت الأول اكتمل بالآلهة بمالانهاية له وهو متكرر في المصير الشعائري لنبات السوما .
- ٤٣ - النشيد يبدو انه يتوجب ان يكون في فهم الاله Agni الذي في اثناء الاضحية سيد عمان قبل الشاعر ليعبر عن الآثار التي سيحققها من شرابه للسائل الالهي
- ٤٤ - انظر G. Gondes الفيشنوية ص ١٠ الاناء التضحيوي Yupa يعود إليه . أو ان Yupa هو اجابة لقطب الكون

الفصل التاسع

الهند قبل غوتاما بوذا : من الأضحية الكونية إلى التماثل الأعلى
اتمان - براهمان

٧٢ - علم تشكل (مورفولوجيا) الشعائر الفيدية :

إن العقيدة الفيدية لم تعرف المعبد مطلقاً ؛ وكانت الشعائر تتم إما في منزل المضحى ، وإما في أرض مجاورة معشبة ، وكانت تقام عليها النيران الثلاثة . وكانت التقديمات النباتية ، اللبن ، الزبدة ، الحبوب ، والكعك . وكان يضحي أيضاً بالماعز ، والبقرة والثور والكبش والحصان . إلا أنه منذ عصر الريغفيدا ، فإن (السوما) كانت تعتبر الأضحية الأكثر أهمية .

إن الشعائر يمكن أن تصنف إلى صنفين : منزلية (جرليا grhya) ورسمية (سروتا Srouta) وكانت الأولى تنجز من قبل رب البيت (جرباتي grhapati)

وتتحقق بالتقليد (سروتي تعني الذكرى) . وعلى العكس من هذا فإن الشعائر الرسمية كانت تنجز عادة من قبل المحتفلين بالقداس^(١) . وكانت سلطة هؤلاء تبني على الكشف المباشر (رسمي : سروتي) عن الحقيقة الخالدة . ومن بين الشعائر الخاصة ، خارج تغذية النار المنزلية ، والأعياد الزراعية ، كانت الأسرار هي الأكثر أهمية ، أو (النذور : سامكارا) ذات العلاقة بالحمل وولادة الأولاد ، وبالحاق شاب ذكر (أونيياما) بمعلمه البراهماني ، والزواج والخطوبات . وكانت ذلك يتعلق بحفلات بسيطة : قربانات ، وتقدمات نباتية ، وبالنسبة للأسرار ، حركات شعائرية مصحوبة بصور ويدمدومات من قبل سيد البيت .

من بين الأسرار كانت الأوبانايانا ، هي بالتأكيد ، الأكثر أهمية . وهذه الشعيرة كانت تشكل المكافئ لمسارات initiations عند بلوغ سن الرشد المميزة للمجتمعات القديمة . إن (الأذارفافيدا ١١ - ٣ - ٥) التي أثبتت الأوبانايانا لأول مرة ، تؤكد أن المعلم يحول الولد إلى جنين ويحتفظ به ثلاث ليال في بطنه . . . وهي تقدم الايضاحات التالية : المعلم كان يحمل concait الولد في اللحظة التي يضع فيها يده على كتفه ، وفي اليوم الثالث ، سيولد هذا الولد في شرط البراهمان .

وتصف الأذرفافيدا (١٩ ، ١٧) الذي أنجز الأوبانايانا (بمولود لمرتين) (دفيدجا dvi - ja) ، وإنه هنا ظهر لأول مرة هذا المصطلح الموعود بنصيب متميز . والولادة الثانية هي بوضوح ، نظام روحي ، وأن النصوص التالية تؤكد على هذه النقطة الرئيسية . وحسب قوانين مانو Loisde mann (٢ - ١٤٤) . . إن الذي يوصل كلام الفيدا (أي البراهمان) للرضيع (الملقن) يجب أن يعتبر كأب وأم له : مولد ومعلم البراهمان ، وهذا الأخير هو الأب الحقيقي (١١ ، ١٤٦) ، فالولادة الحقيقية^(٣) وبعبارة أخرى الولادة للخلود ، تعطى بصيغة سافيتري (١١ - ١٤٨) . أثناء كل فترة الدراسات على المعلم ، يكون التلميذ (براهما كارين) ملزماً باتباع بعض القواعد : أن يتسول الطعام من أجل معلمه ومن أجله هو ، وأن يحافظ على الطهارة ، الخ .

إن الشعائر الرسمية تشكل أنظمة طقوسية ، على جانب كبير من التعقيد والرتابة . وإن الوصف المفضل لنظام وحيد منها يتطلب بضع مئات من الصفحات . وعليه يكون من العبث محاولة تلخيص الأضحيات (سروتا) . والأكثر بساطة هو (الأغنيهورتا) L'agnihorta (القربان بالنار) الذي يجري في الفجر وعند الغسق ويقتضي تقدمة من اللبن (لأغني) . وإضافة لذلك توجد شعائر ذات علاقة بالايقاعات الكونية : الأضحيات المساء والمطر والقمر الجديد ، حفلات فصلية (كاتور ماسيا) وشعائر للبواكير (أغرايانا) . ولكن الأضاحي الأساسية ، الميزة للعقيدة الفيدية ، هي أضاحي (السوما) . وتجري (الأغنيوتوما) = (مديح أغني) مرة في السنة ، في فصل الربيع . وتتكون ، خارج العمليات الأولية ، في ثلاثة أيام من التسبيح (أوبازاد) . ومن بين العمليات الأولية ، أكثرها أهمية (الديكسالسا diksala) ، الذي يقدر المضحى بجعله يولد من جديد . وستفحص فيما بعد هذه الشعيرة المسارية . وتعرض السوما في الصباح ، والظهر والمساء ، وفي عصير الظهر توزع إكراميات (داكسينا daksina) : ٧ - ٢١ - ٦٠ أو ١٠٠ بقرة وفي بعض الاحوال كل أموال المضحى . كل الآلهة مدعوون وهم يشاركون في العيد ، بدئياً منفردين ثم مجتمعين^(٤) . وقد عرفت أضاحيات أخرى (لسوما) : بعضها لايتجاوز ليلة واحدة ، والآخر يدوم على الأقل ١٢ يوماً ، وفي كثير من المرات لسنة ونظرياً إثني عشرة سنة . وزيادة على ذلك يوجد نماذج شعائرية أدخلت في مهمات (سوما) أو على سبيل المثال الماهافرتا (المراعاة الكبرى) التي تتركب من موسيقى ورقص وإشارات مأساوية ، ومحاورات ومشاهد داعرة وكان يحصل إتصالات جنسية .. الخ) . ويدوم (شرب النصر) Vajapca من سبعة عشر يوماً حتى سنة ويشكل مشهداً اسطورياً شعائرياً : سباق خيول مقرونة لـ ١٧ عربية (صعود للشمس) يتم من قبل المضحى وزوجته التي تتسلق إحتفالياً العمود المقدس الخ . . . وإن التكريس الملكي (راجازاديا) كان يجسد أيضاً بنظام إحتفالي سومي . وفي هذه الحالة أيضاً تصادف مشاهد متحركة (صورة مشروع غزوة من قبل الملك على قطيع من البقر ؛ ملك يلعب النرد مع كاهن ويربح) .. الخ . . إلا أن الشعيرة ترمي في أساسها لاعادة الحياة الأسطورية للملك . (ف ٧٤ع) . وهناك نموذج إحتفالي آخر ، كان يشارك ،

رغم كونه إختيارياً في قداس السوما : هي الأغنيكاينا «تنزيد ، قرميد من أجل المذبح ، للنار» . وتؤكد النصوص أنه كان يجري في زمن آخر خمس أضحيان من بينها رجل ، وإن رؤوس الأضحيان كانت تحفى أو توضع في أول مدماك من القرميد . وقد كانت التمهيدات لذلك تستمر سنة . وكان المذبح ينشأ من (١٠٨٠٠) قرميدة منضدة في خمسة مداميك ، تمثل أحياناً شكل طير ، رمز صعود المضحي أسطورياً للسماء . إن الأغنيكاينا قد أفسح المجال إلى تأملات نشكونية كانت حاسمة بالنسبة للفكر الهندي . وإن القربان (و) (الذبيحة) برجل كانت تعيد تضحية براجاباتي ، وإن بناء المذبح كان يرمز لخلق العالم (ف . ٧٥)

٧٣ - الأضحيان المثلى : «سفاميدها ، وبيروساميدها» :

إن الشعيرة الفيدية الأكثر أهمية والأكثر شهرة هي (أضحية الحصان) أسفاميدها Asva,mdha ولم يكن من الممكن إنجازها إلا من قبل ملك مظفر ، والذي كان يكتسب هكذا تقديره (ملكاً عالمياً) ، وكانت نتائج الأضحية تشع على المملكة بآثرها ، وفي الواقع كان يفترض بالأسفاميدها التطهر من القذارات ، وضمان الخصب والرخاء في كل البلاد . وكانت الحفلات التمهيدية تتدرج على مدار السنة ، وكان حصان السباق خلالها يترك طليقاً مع مائة حصان آخر ويسهر أربعمئة شاب كي لا يقترب من أناث الخيول . وكانت الشعيرة ، بمعنى الكلمة ، تستمر ثلاثة أيام . وفي اليوم الثاني ، بعد بضعة إحتفالات خاصة «تعرض أناث الخيول على الحصان ، ويقرن إلى عربة ، ويقوده الأمير إلى مستنقع . . الخ» ويجري ذبح العديد من الخيول . وفي النهاية فإن حصان السباق ، الذي يجسد منذئذ الإله برجاباتي يكون جاهزاً لأن يضحي به نفسه ، ويخنى . وكانت الملكات الأربعة وكل منهن مصحوبة بمائة وصيفة يطفن حول جيافته وتتمدد الزوجة الرئيسية إلى جانبه ، وهي مغطاة بمعطف وتمثل الإتصال الجنسي . خلال هذا الوقت ، يتبادل الكهنة والنساء التسليلات الداعرة . وحين تقف الملكة ، يقطع الحصان والأضحيان الأخرى . وفي اليوم الثالث تجرى شعائر أخرى ، وأخيراً

توزع الإكراميات (داكسينا) على الكهنة ، الذين يتلقون على ذلك الملكات الأربعة ووصيفاتهن .

إن الحصان القربان ، تأكيداً ، هو من أصل هندو-أوروبي ، وتوجد آثار له عند الجرمن ، والایرانیین والإغریق واللاتین والأرمن - والماساجیت والدالمات . ولكن هذا المشهد الأسطوري الشعائري لم يحصل سوى في الهند على كل معتبر في الحياة الدينية وفي التعاليم اللاهوتية . ومن الراجع أن الأسفاميدها كانت ، في الأصل عيداً ربيعياً ، وبدقة أكثر ، شعيرة يحتفل بها بمناسبة العام الجديد . إن تركيبها تتضمن عناصر نشكونية : فمن جهة ، أن الحصان موحد بالكون cosmos (= براجاباتي) وإن التضحية به ترمز (أي تعيد إنتاج) فعل الخلق . ومن جهة أخرى ، فإن النصوص الريغفدية والبراهمانية تشير إلى العلاقات بين الحصان والمياه . وعليه ، فإن المياه ، في الهند تمثل الجوهر النشكوني بامتياز . ولكن الشعيرة المعقدة تشكل أيضاً (سراً) من نموذج باطني . «وفي الواقع أن الأسفاميدها هي الكل ، وأن من هو براهماني ولا يعرف شيئاً عن الأسفاميدها ، فإنه لا يعرف شيئاً من لاشيء ، وهو ليس براهمان ويستحق أن ينهب» [ساتف . . با . ۱۳ - ۱۷ ۲ ۴] . إن الأضحية مخصصة لتجديد الكون بكامله ، وفي ذات الوقت لإعادة بنیان الطبقات الاجتماعية وكل الإرشادات الربانية في نصائها المثالي^(۵) .

إن الحصان ، ممثلاً بالقوة الملكية (كاسترا) يتوحد إضافة لذلك مع ياما Yama وآديتيا (الشمس) وسوما (أي مع رب الأرباب العليا) وهو بنوع ما نائب للملك . ويجب أن يؤخذ في الحسبان مثل هذه القواعد من التمثل والنيابة عندما يحلل مشهد موازي البوروساها Purus, maha؛ وفي الواقع إن الأضحية بالإنسان تتبع من قرب الأسفاميدها . فزيادة عن الأضحيات الحيوانية ، كان يضحي ببراهمان أو بواحد من الكزاتريا Ksatrya يشتري بثمان من ألف بقرة ومائة حصان . وكان هو أيضاً يترك حراً خلال عام ، وما أن كان يقتل حتى تنام الملكة بقرب جثته . إن البوروساها كانت مشهورة بالحصول على كل ما لا يمكن الوصول إليه بالأسفاميدها .

ويرد التساؤل عما إذا كانت مثل هذه الأضحية قد مورست دائماً . إن البوروساميدها قد وصفت في عدة (ستروتا سوترا plusieurs srautssiatras ، ولكن (السنيكياتا) و (الفيثانا) وحدهما وصفتا أمانة الضحية . وفي الأطروحات الشعائرية الأخرى ، كان يفرج عن الرجل في آخر لحظة ، ويضحى بدلاً عنه بحيوان . وماله دلالة البالغة أنه أثناء البوروساميدها كانت تتلى الأنشودة النشكونية الشهيرة بيروسيكتا [ر . ف ١٠ ، ٩٠] . وإن توحيد الأضحية مع بيروزا براجاباتي يؤدي لتوحيد المضحى ببراجاباتي . ولقد أمكن إظهار أن السيناريو الأسطوري الشعائري للـ بوروساميدها قد وجد موازياً صارخاً له في التقاليد الجرمنية^(٦) بأوثان Othin الجريح برمخ والمشنوق على شجرة العالم خلال تسعة أيام ، «يضحي بنفسه لذاته» بهدف الحصول على الحكمة وتطويع السحر (هافامال ، ١٣٨) . وحسب رأي آدم دي بريم Adam Breme الذي كان قد كتب في القرن الحادي عشر ، أن هذه الأضحية قد أعيد إجراؤها في (أوبسالا) كل تسع سنوات بشنق عشر رجال وضحايا حيوانية أخرى . إن هذا الموازي الهندو-أوروبي يجعل الفرضية بأن البوروسيميدها كانت منجزة أدبياً ، فرضية ممكنة القبول . إلا أن التضحية بضحايا بشرية ، في الهند ، حيث الممارسة والنظرية للأضحية كانتا باستمرار يعاد تقييمهما ، إنتهى بإبراز ماورائية من نوع إفتدائي Soteriologique .

٧٤ - بنية مسارية للشعائر : التكريس (ديكسا) رسامة

الملك (راجا سويا) .

لكي تفهم هذه العملية بشكل أفضل ، يقتضي إيضاح الإفتراضات المسارية الشعائرية (سروتا) . هذه المسارية تشرك (الموت) و (البعث) للرضيع ، أي ولادته على طريقة من التكون الأسمى . يحصل على (الموت) الشعائري

(بالتضحية) أو *par un regressus ad uterum* بانكفاء رحمي رمزي . وإن المعادلة لهاتين الطريقتين تدخل تمثل (الموت التضحيوي) بـ (ولادة) . وكما تصرح به الستابانا براهمانا (١١ ، ٢ ، ١١) «يولد الانسان ثلاث مرات : أول مرة من أبويه ، وثاني مرة عندما يضحي . . . وثالث مرة عندما يموت ويوضع على النار ، وهناك من عليها يأتي من جديد للوجود» . وفي الحقيقة . يتعلق بالعديد من (الميتات) لأنه في كل (مرتين يولد) يطبق أثناء حياته ، عدداً من التضحيات (سروتا)

إن التكريس (ديكسا) ، يشكل الأولوية التي لا بد منها لكل تضحية (سومية) إلا أنها تطبق كذلك في مناسبات أخرى^(٧) . ويجدر التذكير بأن المضحي على أهبة تلقي الديكسا سبق له أن ولد مرتين بفضل (أوبانياه) عندما تحملت الإنكفاء إلى الرحم المساري . . . وعليه فإن ذات العودة إلى الشرط الجنيني كان لها مكانها أثناء الديكسا . «وكان الكهنة يحولون إلى جنين ذلك الذي يعطونه الديكسا» . فقد كان يرش الماء عليه ، والماء هو البذرة الرجولية . . . وكان يدخل في عنبر خاص : وهذا العنبر الخاص هو الرحم لمن يعمل الديكسا . وكان يغطي بثوب . والثوب هو الساياء أو الغشاوة التي تغلف الجنين *amnios* . . وكانت قبضته تغلقان ؛ وفي الواقع ، أن للجنين قبضتين مغلقتان طالما هو في الرحم» . الخ . [إيتاريا براهمانا ٣٠] . إن النصوص الموازية تشير للخاصية الجنينية وللتوليدية للشعيرة . «الديكستيا (من يطبق الديكسا) هو مني *semence* [ميترايانا - سامهيتا ٣ - ١ ، ٦] ؛ «الديكستيا هو جنين ، ثيابه هي المشيمة . . . الخ . . [تيتريا - سوما ، ١ - ٣٢] . إن منطق هذا الإنكفاء الرحمي معاد ومكرر باستمرار : «الانسان في حقيقته غير مولود ، إنه يولد بالتضحية» [ميت - سام ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨] . هذه الولادة الجديدة من نظام اسطوري ، والتي تتكرر في كل أضحية ، تجعل من الممكن تمثيل المضحي بالآلهة . «نقدر للمضحي أن يولد حقيقة في العالم الساموي» [سارت - بر - ١٢ ، ١ ، ٣] «من يتم تكريسه (مسارته) يقترب من الآلهة ويصبح واحداً منهم» [٣ ، ١ ، ٢ ، ١٨] . وذات الأطروحة تؤكد على أن المضحي الذي على أهبة أن يولد من جديد لا بد أن يرتفع

إلى الجهات الأربع من الفضاء . . وأن يُخضع العالم [٧١ ، ٧ ، ٢ ، ١١] .
ولكن الديكسا هو كذلك موحد بالموت . «فعندما يكرس المضحى ، فإنه يموت
للمرة الثانية»^(٩) [جيم - أريزاد براه ٣ ، ١١ ، ٣]

وحسب بعض المصادر الأخرى ، فإن (الديكستيا) هي «القربان» [تيت
سامهيتا ٤٠ ، ١ ، ١٥] لأن «الضحية هي في الحقيقة نفس المضحى» . [أيت -
برال ٢ ، ٢] . وإجمالاً فإن المسار له هو القربان ذاته» [أيت - برال - ٣ ، ٦٦]
المقدم للآلهة^(١٠) [أيت - برال ٣ ، ٦ ، ٣ ، ١] وقد أعطي المثال من قبل الآلهة :
«يا أغني ضحي بجسدك الخاص [ف . ٣ ، ٣] لأنه «بالتضحية قدم الآلهة الفداء»
[١٠ - ٨٠ - ١٦] . إن موتاً شعائرياً هو إذن الشرط المسبب للوصول إلى قرب
الآلهة والحصول في ذات الوقت على وجود ذي قيمة في هذا العالم . في العصر
الفيدي ، «إن التآليه» العابر والمتحصل من جهة أخرى بالتضحية لم ينقص قيمة
الحياة والوجود البشري بل على العكس ، لقد كان بتضاعفات شعائرية من هذا
النوع يصل للسماء بالقرب من الآلهة ، إن المضحى ، كذلك المجتمع برمته ،
والطبيعة ، كانوا مباركين ومتجددين . وقد لوحظت إية نتائج تحصلت على أثر
تضحية أسفاميدها . (ر . حاشية ٥) . ومن الراجح أن التجديد الكوني وتدعيم
السلطة الملكية كانا يشكلان أيضاً لهدف من الأضحيات البشرية المطبقة في
الأوبسالا uppsala الوثنية . ولكن كل هذا كان يحصل عليه بالشعائر التي ،
بتطلعها لتكرار عودة الخلق ، كانت تقتضي في ذات الوقت (الموت) ، والحمل
الجنيني وإعادة ولادة المضحى .

إن سيامة الملك الهندي /راجاسونيا/ Rajausnuya ، كانت تشتمل
على سيناريو مشابه ، فكانت الاحتفالات تجري مع السنة الجديدة . وكان الدهن
أو المسح onction يسبق الديسكا بسنة ويتلوه عادة بسنة أخرى من احتفالات
الختام . وإن الراجاسويا هي بالتأكيد الخلاصة لمجموعة من الاحتفالات السنوية
المعينة لإعادة بعث العالم . وكان للملك دور مركزي لأنه ، تماماً كالمضحى
(سروتا) . انه يجسد الكون (كوزموس) لحد ما . وإن المظاهر المختلفة للشعيرة
كانت تتم تباعاً ، انكفاء الملك المقبل للحالة الجنينية والحمل به géstation لسنه

وإعادة ولادته الأسطورية بصفته مديراً كونياً متوحداً في آن واحد مع برآجاتي ومع الكون . وكان الدور الجنيني للحاكم المقبل يتناسب مع عملية نضج العالم ، ومن الراجح جداً ، انه كان أصلاً على علاقة مع نضج المحاصيل . وكانت الصورة الثانية أو المظهر الثاني للشعائر يكمل تشكيل جسد جديد للعاهل : جسد رمزي ، يتم الحصول عليه إما تبعاً لزوج أسطوري للملك مع طبقة البراهمان أو مع الشعب (زوج يسوغ له أن يولد من رحمهما) . وإما تبعاً لقران الحياة الذكورية مع الحياة الأنثوية ، أو من قران أو اتحاد الذهب - يعني النار والماء .

وكان المظهر الثالث يشكل من مجموعة شعائر يحصل الملك بفضلها على السيادة على العوالم الثلاث ، وبعبارة أخرى ، كان يجسم الكون ، كذلك كان يتوطد في ذات الوقت تماماً كمدير كوني . وعندما كان الملك يرفع ذراعه ، فإن هذه الإشارة كان لها معنى كونياً : انها ترمز لرفع قطب الكون ، وعندما يتلقى المسح أو الدهان فان الملك كان يبقى جالساً على العرش ، مرفوع الذراعين : إنه يجسد القطب الكوني المثبت في سرة الأرض - أي أن العرش هو مركز الكون - ويلامس السماء . وإن رش المياه يتصل بالمياه المتساقطة من السماء ، على طول القطب الكوني - الممثل بالملك - بغاية تخصيص الأرض . وهكذا يجري الملك خطوة نحو النقاط الأربع الأساسية ويصعد رمزياً الى السمات Ze'nith ، وتبعاً لهذه الشعائر ، فان الملك ينال السيادة على الجهات الأربع للفضاء وعلى الفصول ، وبعبارة أخرى يخضع مجمل العالم الفسيح - الموقت - .

وقد كنا لاحظنا الصلة الوثيقة بين الموت والبعث الشعائريين من جهة ، ونشأة الكون وتجدد العالم من جهة أخرى . إن كل هذه الأفكار متلاحمة بالأساطير الشكونية والتي سنحاول بحثها فيما سيلي . وهي ستعلن وتصاغ من قبل المؤلفين البراهمانيين ، في المنظور الخاص بهم ، وبخاصة ، التمجيد الذي لا حد له للتضحية .

تبرز الأناشيد القيدية ، مباشرة أو بتورية فقط ، مجموعة نشكُونيات . وهي تتعلق بأساطير منتشرة جداً ، ومؤكدة على مستويات مختلفة من الثقافة . وسيكون عبثاً التفتيش عن الأصل لكل واحدة من هذه النشكُونيات ، وحتى أن ما يمكن افتراض نقله من قبل الآريين تجد موازياتها في ثقافات أكثر قدماً ، أو أكثر (بدائية) . ان الكوزمولوجيات ، كما هو الشأن في الأفكار والمعتقدات الدينية الأخرى . تمثل في كل مكان في العالم القديم ، ارثاً منقولاً منذ ما قبل التاريخ . وما يهم في موضوعنا ، هو التفسيرات والتقييمات الهندية لبعض الأساطير المتعلقة بنشأة الكون . ونذكر بأن قدم نظرية (نشكُونية) لا يسوغ أن يعتبر تبعاً للوثائق الأولى التي تقدمها . إن إحدى الأساطير الأكثر قدماً والأكثر انتشاراً (الغطس النشكُوني) أصبحت شعبية في الهند منذ زمن متأخر ، وعلى الأخص في الملحمة وفي /البورانا/ - les puranas .

أساساً ، إن أربعة نماذج من النشكُونية تبدو أنها أغرت الشعراء وعلماء اللاهوت القديدين ويمكن الإشارة إليها كما يلي :

- ١ - خلق عن طريق تخصيب المياه الأصلية .
- ٢ - الخلق بتقطيع جبار أولي Purusa .
- ٣ - الخلق بدءاً من واحد - كلية Unité — totalité ، كائن ولا كائن في ذات الوقت .
- ٤ - الخلق بفصل السماء عن الأرض .

ففي الانشودة الشهيرة للريغ فيدا [١٠ - ١٢١] ان الاله المتخيل مثل هيرانيا غاربا Hiranya garbha («الجنين الذهبي») يرفرف من فوق المياه ، وباختراقها يخصب المياه التي تولد له النار آغنى Agni (فقرة ٧) . وتوحد

الانتهار فافيدا [١٠ - ٧ - ٢٨] الجنين الذهبي مع العمود الكوني سكامها . وتضع الريح فيداً [١٠ - ٨٢ - ٥] البذرة الأولى التي تلقتها المياه في علاقة مع الصانع العالمي (فيزفا كارمان) Visiva karman ، ولكن صورة الجنين لا تتفق مع هذه الشخصية الالهية المتعددة الصفات بامتياز . في هذه الأمثلة ، يهمن الفوارق لأسطورية أصولية كانت تمثل الجنين الذهبي كبذرة الاله الخالق الهاتمة على المياه الأولية^(١٢) .

إن التعبير الثاني عن النشكونية قد فسر جذرياً في منظور طقوسي ، وهو يوجد أيضاً في نشيد شهير (بوروساسوكتا purusasūkta [ر . ف ١٠ - ٩٠] . فالجبار الأولي بيروزا «الرجل» قد صُور في آن واحد كجمع كوني (فقرة ١ - ٤) وكائن خنثى . وفي الواقع (فقرة ٥) ان بيروزا حمل الطاقة النسوية الخلاقة (فراج) وبالتالي تولد بها .^(١٣) . ان الخلق بمعنى الكلمة هو نتيجة تضحية كونية cosmique . وإن الآلهة قد ضحت (بالانسان) : من جسده المقطع انبثقت الحيوانات ، والعناصر الطقوسية والطبقات الاجتماعية ، والأرض ، والسماء الآلهة . «فمه أصبح البراهمان ، والمحارب كان نتاج يديه ، وفخذه كانا الصانع ، ومن اقدمه ولد الخادم» [فقرة ١٢] إن السماء انبثقت من رأسه ، والأرض من اقدمه ، والقمر من ضميره ، والشمس من نظرتة ، واندرا وأغني من فمه ، والريح من نفخته الخ . . (فقرة ١٣ - ١٤) وقد ذكرت الوظيفة المثالية لهذه التضحية في الفقرة الأخيرة^(١٤) : «ان الآلهة تضحي الأضحية بالتضحية» . وبعبارة أخرى ، ان بيروسا ، كان في آن واحد ذبيحة قربانية وألوهية التضحية . إن النشيد يذكر بوضوح أن «بيروسا» يسبق الخلق ويتجاوزه ، مع أن الكوزموس والحياة والبشر تستمد من جسده الخاص ، وبعبارات أخرى ، ان بيروسا هو في آن واحد متعالي ومائل . إنها طريقة تكوّن متناقضة ولكنها خاصة بالآلهة النشكونية الهندية [ر . براجاباتي] . إن الأسطورة التي نجد موازيات لها في الصين (بان - كو) ولدى الجرمن القدامي (يمير) Ymir وفي ميزوبوتاميا (تيامات) تشير بوضوح لنشكونية من نموذج قديم : الخلق بتضحية كائن إلهي بشري . إن البيرو ساسوكاتا le Purusaśukata أثار تأملات لا حصر لها . ولكنه في حين أن الأسطورة في المجتمعات القديمة تستخدم كنموذج مثالي لكل نوع من الخلق ،

كذلك فإن هذا النشيد قد تلي في أحد الطقوس التي تلت ولادة ابن ، وفي الاحتفالات لانشاء المعبد (المنشأ من جهة أخرى على شاكلة بيروسا) وفي الشعائر التطهيرية للتجديد^(١٤) .

في النشيد الأكثر شهرة من (الريغ فيدا [١٠ - ١٢٩] برزت النشكونية كما وراثية . لقد كان الشاعر يتساءل كيف يمكن للكائن أن يخرج من اللاكائن ، طالما ، أنه في البدء ، لم يكن يوجد لا غير الكائن ولا الكائن . [فقرة ١ - ١] «لم يكن يوجد في ذلك الحين لا موت ولا لا موت : أي «لا بشر ولا آلهة» ، لم يكن يوجد سوى المبدأ الحياي المسمى (واحد Un) . . «الواحد كان يتنفس من اندفاعه الخاص دون أن يكون له نفس» وخارجاً عن هذا لا يوجد شيء آخر (فقرة ٢) . «فمن الأصل ، كانت الظلمات مخبئة في الظلمات» ، ولكن الحرارة «الثارا بالتقشف تابا tapas» أولدت «الواحد l'un» «الموجود بالقوة abhû» - يعني (جنين) - «مغطى بالخواء» (ويمكن أن يفهم ذلك ، محاطا بالمياه الأولية) . من هذه البذرة «الموجودة بالقوة» تكونت الرغبة (كما Kâma) . وان هذه الرغبة ذاتها هي التي كانت «البذرة الأولى» (ريتا retas ، للوعي مانا - manas) ، وهذا كله تخريج مدعش يقدم أطروحات أساسية للفكر الفلسفي الهندي . إن الشعراء بتأملهم قد (عرفوا اكتشاف مكان الكائن في اللاكائن) (فقرة ٤) . وان البذرة الأولى ، انقسمت أيضاً في أعلى وفي أدنى ، في مبدأ ذكوري ومبدأ أنثوي [ر . ف ٤ ، ٧٢] ولكن لغز (الخلق الثانوي) يدوم ، أي من الخلق الظاهري . إن الآلهة قد ولدت بعدئذ (فقرة ٤) وعليه فهي ليست صانعة خلق الكون إذن . ويستنتج الشاعر حول نقطة من التساؤل : «هل الذي يحرس هذا (العالم) من أعلى عليين يعرفه وحده (أي يعرف أصل «الخليقة الثانية») - بأقل مما لا يعرفه أبداً؟» .

إن النشيد يمثل أعلى نقطة تم التوصل إليها بالتعليم القيدي . فالحقيقة المقررة لكائن أعلى لا يمكن معرفتها - «الواحد»^(١٥) «هو» - مفارق للآلهة كما هو مفارق للخليقة ، وهي ستطور في الأوبانيشاد وفي بعض الأنظمة الفلسفية . وكما /البوروسا/ في الريغ فيدا [١٠ - ٩٠] فإن الواحد يتقدم العالم ، ويخلق الكون

بانبثاق من ذات كينونته ، دون أن يفقد تساميه مطلقاً . ولنأخذ هذه الفكرة الرئيسية بالنسبة للتعليم الهندي التالي : إن الشعور هو بذات المقدار كالعالم هما حصيلة رغبة خلاقة (كاما) . وهنا نتعرف على بدور فلسفة السمخيا - يوجا والبوذية .

أما بالنسبة لرابع نص عن نشكونية - فصل السماء عن الأرض ، أو تقطيع فرثا من قبل اندرا - فإن هذه الأسطورة تتقارب مع البيروساسوكتا purusasukta : انها تتعلق بالقسمة العنيفة لكلية totalité بهدف خلق أو تجديد العالم . ان النص قديم جداً ، وهو قابل لاعادة التفسيرات والتطبيقات المدهشة . وكما رأينا (ف ٦٨ ع) ، فإن عمل اندرا الخلاق الذي أصعق وقطع التنين البدئي . يستخدم نموذجاً لأعمال مختلفة أيضاً عن إنشاء منزل أو عن مبارزة خطابية .

ويذكر أخيراً الخلق عن طريق كائن إلهي (الصانع العالمي) /فيزفاكارما/ [ر.ف ١٠ - ٨١] الذي صنع العالم كمثال او حداد أو نجار ، غير أن هذا العمل الأسطوري الشهير في ديانات أخرى ، موصول من قبل الشعراء القديين بالنص ، الذي أصبح شهيراً بالبيروزاسوكتا ، لخلق الأضحية .

إن تعدد النشكونيات يتوافق مع تعددية التقاليد المتعلقة بنشأة وأصل الانسان . وحسب الريغ - فيدا ، فإن الآلهة كانت حملت بالزوج البدئي السماء والأرض ، أو أنها انبثقتا من الكتلة المائية الأصلية او من اللاكائن وعلى كل حال ، قد أتت للوجود بعد خلق العالم . ان نشيداً متأخراً من الريغ - فيدا [١٠-٢-٦٣] يروي أن الآلهة ولدت من الربة آديتي Aditi ومن المياه والأرض . ولكن لم يكن كل الآلهة خالدين . ان الريغ - فيدا تنص على انها تلقت هذه المنحة من سانيتري Saintri [٤-٢-٥٤] او من أغني [٤، ٧-٤] او من شرب السوما [٩-١٠٦-٨] . وان اندرا حصل على الخلود بالزهد (Tapas) ثابا [١٠-١١٧-١] . وان الآتهارفا - فيدا تعلن ان كل الآلهة الأخرى قد اكتسبت الخلود بذات الطريقة [٩، ٥-١٩-١٧] ٧ وحسب البراهمان فإن بعض الآلهة أصبح خالداً بانجازه لبعض الأضحيات .

ان البشر ايضاً تحدروا من الزوجين الأولين سماً - ارض وان جدهم الاسطوري هو مانو Manu ابن الاله فيفاسفا أول مضح وأول رجل [ز.ف ١٠ ٧٣٦]. وثمة نص آخر يوحد الآباء الاسطوريين في ابناء فيفاسفا ، ياما واختم يامي [١٠-١٠]. واخيراً وكما رأينا ، فإن البوروزا سوكتا [١٠، ٩٠، ١٢] تفسر أصل البشر (أي الطبقات الاجتماعية الاربعة) بدءاً من اعضاء جبار أولي مضحى به . في البدء ، كان البشر يستطيعون هم ايضاً ان يصبحوا خالدين بالتضحية ، ولكن الآلهة قررت ان هذا الخلود سيكون روحياً صرفاً ، او مقبولاً للبشر بعد الموت فقط (سوئابانا ١٠-٣٤-١). ويوجد تفسيرات اسطورية اخرى عن اصل الموت . ففي الماها بهارتا ، إن الموت قد ادخل من قبل براهما بهدف عزاء أو مواساة الأرض المثقلة بكتلة بشرية كانت تهدد بجعلها تنزحل الى المحيط .

إن بعض هذه الاساطير المتعلقة بولادة الآلهة والبشر ، وضياح او اكتساب الخلود ، تتواجد لدى شعوب هندو- اوروبية اخرى . ومن جهة اخرى ، فإن اساطير مشابهة قد تأكدت في عدد من الثقافات التقليدية . ومع ذلك ، ففي الهند فقط ، اثارت هذه الاساطير تقنيات تضحوية ، وطرائق تأملية وتلقينات حاسمة ليقظة وعي ديني جديد ايضاً .

٧٦- مبدأ التضحية في البراهمانا :

إن البوروساسوكتا هي نقطة البدء والتحقيق المبدئي لنظرية الاضحية المثارة في البراهمانا (حوالي ١٠٠٠ - ٨٠٠ ق.م) . فالكل مثل بوروزا سلم نفسه للآلهة وتركها تضحي بها بهدف ان يخلق العالم ، وان براجباتي سيعرف الفناء المهلك بعد العمل الكوني . وكما تظهره البراهمانا ، فإن براجباتي وكأنه ابداع من التأمل الواعي ولكن بنيته قديمة . ان (سبد الخالقين) هذا يقترب من كبار الآلهة الكونية . وهو يشبه بحد ما الواحد ، L'um في الريح فيدا [١٢٩ - ١] والقيسفا كارمان ، ولكنه بصورة خاصة ، امتداد لبوروزا . ومن جهة اخرى فإن توحيد

بوروزا - براجاباتي ، قد تأكد بالنصوص : «بوروزا هو براجاباتي ، بوروزا هو السنة» (ج.ب. ١١-٥٦ وستاباتا ٤-١١، ٥). وفي البدء كان براجاباتي الوحدة الشاملة ، غير ظاهر ، وظهوره روحي بحث . ولكن الرغبة (كما) دفعته لأن بتكاثر ، ولأن يعاود تكونه [سا.من. ٤-١١] . انه يحمي نفسه بدرجة قصوى من النسك «تابا - لغة حرارة» ويخلق بالانبثاق^(١٦) ، وتمكن معرفته بالتعريق ، كما في بعض النشكونيات البدائية ، أو بالبت المنوي . لقد أبدع بدتياً البراهمان ، أي المعرفة المثلثة (فيداس) وبعدئذ خلق المياه بالكلمة ، ومن رغبته بإعادة التعريف بنفسه بالمياه فقد اخترقها ، ونشأت بيضة في صدفة أصبحت الأرض ، وبعدئذ خلق الآلهة لتسكن السماورات والأزورات Asura بهدف إعمار الأرض [١٠ - ١ - ١٦] .

وفكر براجاباتي : «في الحقيقة ، لقد خلقت واحداً متديلاً من ذاتي ، انه السنة» [ذات المرجع ١١، ١٣٦] . ولهذا يقال : «براجاباتي هو السنة» . وباعطائه ذاته الخاصة (أتمان ، للآلهة ، خلق متديلاً آخر منه ، هو الاضحية ، ولأجل هذا يقول الناس : «الاضحية هو براجاباتي» . وازضافة لذلك يؤكد بأن تمفصلات (بارفام) الجسد الكوني لبراجاباتي هي الفصول الخمسة من السنة والدعائم الخمسة لمذبح النار [سات.بر. ٦-١-٢] .

إن هذه المماثلة الثلاثية لبراجاباتي مع الكون ، الازمنة الدورية (السنة) ومذبح النار ، تشكل تجديد النظرية البراهمانية الكبير للأضحية . انها تتميز انعطاف المفهوم الذي كان يشكل الطقوسية القيدية ، ويمهد لاكتشافات تحققت من قبل مؤلفي الاوبانيشاد . والفكرة الرئيسية هي انه ، بالخلق / بالتحمية / و / بالبت / المتجددين ، ينمحق براجاباتي - وينتهي باستنزاف ذاته . ان المصطلحين - المفتاحين - تابا (حرارة تنكسية) وفيزريج Visrij (بت مبعثر) - يمكن ان يكون لهما مفاهيم جنسية غير مباشرة أو مضمرة ، لأن التنسك والجنس متصلان بصميمية في الفكر الهندي الديني . وان الاسطورة وصورها تترجمان النشكونية بعبارات بيولوجية ، وان الطريقة الخاصة بتكوينها تجعل العالم والحياة يغنيان بأجلهما ذاته . ان استفاد براجاباتي - ، عبر عنه بصور أخاذاة : (فبعد أن أبدع الكائنات الحية ،

انخلعت مفاصله . وعليه ، فإن براجباتي هو بالتأكيد السنة ، ومفاصله هي الليل والنهار (أي الصبح والغسق ، والقمر البدر ، والقمر الجديد ، ويدايات الفصول ، ولقد كان غير قادر لأن يعاود صعوده بمفاصله المسترخية : فأشفته الآلهة بواسطة شعائر الاكينهوترا (agnihotra) وذلك بتثبيت مفاصله» [ساسر، ابر . ١-٦-٣٥-٣٦] . وبعبارات اخرى فإن اعادة التكوين واعادة تفصل الجسم الكوني لبراجباتي قد انجز بالتضحية أي بناء مذبح قرباني لتمجيد الأغنيكا يانا Agnicagna [ف. ٧٢] . وان الكتاب نفسه [١٠-٤-٢٢] يؤكد بأن «براجباتي هو السنة ، وهو مشكل من ٧٢٠ يوماً وليلة ، ولأجل هذا فإن المذبح يضم ٣٦٠ حجرة للسور و ٣٦٠ قرميذة» . «ما أن تصبح أوصال براجباتي منخلعة حتى يتوجب عندها بناء مذبح النار» . والكهنة ترمم براجباتي (تجمعه / سنسكري / وذلك بوضعها الطبقات من القرמיד التي تشكل المذبح . واجملاً ، فإن كل قربان يعيد العمل الأول للخلق ويضمن استمرارية العالم للعام الجديد .

ذلك هو المعنى الأصولي للقربان أو التضحية في البراهمان : اعادة خلق الكون (المخلوع المفاصل) / المستنفذ / بالزمن الدوري (السنة) . فعبر التضحية - أي النشاط المدعوم من الكهنة - يستمر العالم حياً ، ومتنامياً وخصباً ايضاً . وان هذا هو تطبيق جديد لفكرة موعلة في قدمها يتطلبها التكرار السنوي (أو الدوري) للنشكونية . وهذا هو ايضاً التحقيق لمفخرة البراهمان المقتنعون بالأهمية الحاسمة للشعائر . لأن «الشمس لن تشرق ابداً اذا لم يقدم الكاهن «ضحية في الفجر» [١٥ و ٢ - سائر - بره] .

إن الآلهة الفيديّة في البراهمانا مجهولة أو تابعة للقوى السحرية وخالقة للأضحية . ويذكر ، ان الآلهة في البدء كانت فانية [تريت . سام ٤-١٢] وانها اصبحت خالدة ومؤلهة بالتضحية [٤-٧/٤] الخ . . . ومنذئذ تركز الكل في القوة الغامضة للشعيرة : الأصل وجوهر الآلهة ، والقوة المقدسة ، والعلم ، والطية في هذه الدنيا وعدم الموت في الآخرة . غير ان الأضحية يجب ان تنجز تماماً وبإيمان ، إن أقل شك حول فاعليتها يمكن ان يكون له نتائج مؤلة . ويهدف ابراز هذا المبدأ الشعائري ، الذي هو في آن واحد نشكوني وتجلي وفدائي فإن مؤلفي البراهمانا

أكثرها من الأساطير أو أجزاء الأساطير أو صنعوا منها مجدداً بدءاً من اشتقاق خيالي إلى تورية ذكية للغز .

٧٧ - الاخروية : تقمص نفسي براجاباتي بالاضحية :

وبعد فترة وجيزة ، ظهرت فكرة جديدة للوجود : التضحية لا تجدد قوى براجاباتي وتضمن استمرارية العالم فحسب ، وانما هي مؤهلة لخلق كائن روحي غير قابل للفناء ، «الشخص» - أتمان ، وليس للأضحية هدف نشكوني وحيد ووظيفة اخروية فحسب ، ولكنها تجعل ممكناً الحصول على طريقة جديدة للتكون .
بناء مذهب النار / أغنيكانيا / يتقمص المضحى براجاباتي ، وبدقة أكثر ، فإن براجاباتي والمضحى يتطابقان في العمل الشعائري ذاته : المذهب هو براجاباتي وبذات الوقت يصبح المضحى هذا المذهب . وبالقوة السحرية للشعيرة ، يتكون المضحى ، جسداً جديداً : يرتفع للسماء ، أو يولد مرة ثانية [ساتر. بر. ٧ ، ٣ - ١ - ١٢] ويحصل على الخلود (١٠ - ٤ - ٦ - ٨) . وهذا يعني انه بعد الموت سيعود للحياة ، والى عدم الموت ، أنه نوع من الوجود يتجاوز الزمن ، والمهم - وهذا هو هدف الشعيرة - ان تكون كاملاً (سارقا) تاماً ، وان تحافظ على هذا الشرط بعد الموت ^(١٩) .

إن المضحى بارجاعه سوية (سامدها ، وسنسكري) براجاباتي ، ينجز ذات العملية من التكامل والتوحيد على شخصه الخاص ، وبعبارة أخرى انه يصبح « كاملاً » ، وكما ان الاله يستعيد شخصه (اتمان) ، بالتضحية ، فإن المضحى يكون ذاته (اتمان) كذلك (كوزيتاكي - براهمانا ٣ - ٨) . ان / صنع / الاتمان ، يشابه الى حد ما ، معاودة التوحيد لبراجاباتي ، المبعثر ، والمستنفذ بالعمل النشكوني . ان مجموعة الأعمال الشعائرية (كارما) ، عندما تستكمل وتتقن ، تشكل الشخص (الأتمان) ، وهذا يعني انه عبر النشاط الشعائري ، تتجمع وتتوحد الوظائف النفسية - الفيزيولوجية للمضحى ، وان تجمعها هذا يشكل

(الأتمان) (ساترا . بر . ا . ١١) وان المضحى بفضل / اتمان / يصبح خالداً ، إن الآلهة ، هي ايضاً كسبت الخلود بالاضحية ، محصلة براهمان (سات . بر ا ، ٢ - ٦٣) . وبالنتيجة ، فان براهمان و آتمان هما بشكل مضمّر متوحدان ، منذ عصر البراهمانا / ٢٠ / . وهذا ما قد تأكد بسلسلة من التقمصات . فبراجباتي مثله مثل مذبح النار ، هما مثالان في الريح قيذاً : فمقاطع الحروف / للريح / مشبهة ، بقرميدات المذبح . ولكن بما ان براهمان هو ممثل ايضاً بـ ٤٣٢٠٠٠ مقطع من الريح ، فإنه ينتج عن ذلك انه ايضاً موحد ببراجباتي وفي آخر المطاف بالمضحى ، أي بأ / اتمان / (٢١) .

واذا كان براجاتي (براهمان) و آتمان هما متماثلين ، فإن ذلك لكونهما نتيجة النشاط نفسه : (اعادة تكوين) ، توحيد ، ومع ان المعادن مختلفة : قرميد المذبح لأجل براجاتي - براهمان ، والوظائف العضوية والنفسية العقلية لأجل الاتمان . ولكنه يقتضي الاشارة الى ان هذه هي اسطورة نشكونية والتي تشكل في آخر المطاف النموذج المثالي (لبناء) الأتمان . وان مختلف التقنيات اليوجية تطبق ذات المبدأ : « تركيز » و « توحيد » لأوضاع جسدية ، وانفاس ، ونشاط نفسي - عقلي .

ان اكتشاف الهوية بين الهو (اتمان le soi atman) وبراهمان سيجري استثماره بدون كلل وسيقوم بأشكال مختلفة في الأوبانيشاد . (و . ٨٠ ع) ويكفي ان نضيف هنا ، بأن براهمان في البراهمانا يدل على عملية من التضحية الكونية ، وبالتوسع ، على القدرة الخفية التي تمسك العالم ، ولكن براهمان سبق ان اعتبر بل وسمي صراحة في الفيدا بأنه الغير قابل للفناء والثابت الذي لا يتغير ، والاساس ، والمبدأ لكل وجود . وماله دلالة ان براهمان في عدة اناشيد من الآتهارقا فيدا (١٠ - ٧ - ٨ الخ) قد شبه بسكامبها (skambha) (التي تعني لغوياً ، دعامة ، مستند عمود) ، وبعبارات اخرى ، فان براهمان هو الغروند Grunde الذي يسند العالم ، وهو في آن واحد قطب كوني وأساس انطولوجي ، « في السكامبها انه كل ما هو محاز بالنفس (اتمانفا) ، إنه كل ما يتنفس » (آتهارقا فيدا ٧ ، ٨ ، ٢) . « من يعرف البراهمان في الانسان يعرف الكائن الأعلى

(باراميستين paramistin الرب) والذي يعرف الكائن الأعلى يعرف السكامبها « (التهارفا فيدا ، ١٠ ٨٠ - ٤٣) . ويلمس الجهد لعزل الحقيقة الكلية : براهما ، عُرِّف ، كعمود الكون ، والسند ، والقاعدة ، والعبارة براتيستها paratistha ، التي تعبر عن كل هذه المعاني ، قد سبق استعمالها على نطاق واسع في النصوص القيدية . فالبراهماني شبه ببراهمان لأنه يعرف بنية وأصل الكون ، ولأنه يعرف الكلمة التي تعبر عن كل هذا . لأن الكلمة فاك $\text{Logos} = \text{Vac}$ يمكنها ان تحول شخصاً إلى براهماني (ر. ف ١٢٥ - ٥) « ولادة براهماني هو تجسيد خالد لدهارما » (مانو ١ - ٩٨) ٢٣٠

إن سلسلة خاصة من المؤلفات المسماة آريانياكا les Aranyaka (تعني لغويا متعلق بالغابة) ، تسمح لنا بتتبع النقلة من نموذج تضخوي (كارما - كاندا ، للبراهمانا إلى أولية المعرفة الماوارء طبيعية (جنانا - كاندا) المعلن عنها بالابوانيشاد . ان الارانيكات les Aranyaka كانت تعلم في السر ، بعيداً عن القرى ، وفي الغابة . ان تعاليمها تركز الاشارة على الهو le Soi ، صاحب الاضحية ، وليس على الحقيقة الملموسة للشعائر ، وبحسب (الآريانياكا) ، ان الآلهة مخبئة في الانسان ، وبعبارة أخرى فإن العلاقة المتبادلة بين الاكبر والاصغر macrocosme-microcosms التي هي اساس التعليم القيدي ، تكشف الآن التشابه بين الآلهة الكونية وتلك الماثلة في الجسد البشري (ايتاريا اريناكا ١ - ٣ - ٧ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠) ، وبالنسبة فإن استبطان الأضحية (٧٨ ٥ ع) يسمح بتوجيه القرابين في آن واحد إلى الآلهة في الباطن والآلهة في الخارج ، وان الهدف الكلي هو الاتحاد (سمهيتا) بين المستويات المختلفة للألوهيات - الكونية والأعضاء والوظائف النفس - طبيعية للانسان .

وبعد عدد من المطابقات والتقمصات ، نصل الى نتيجة ان (وعي الذات) (برانجنائمان) هو ذات الشيء الوحيد مما للشمس (ايت . آ - ٣ - ٣٢ - وساند . آ - ٨ ، ٣ - ٧) ، وهذه معادلة جريئة ، سيعاد اعلانها وستعاد صياغتها من قبل مؤلفي الأوبانيشاد .

٧٨ - (تابا) : تقنية وجدلية انواع التقشف :

لقد أشرنا مراراً الى التقشف - تابا - لأنه لا يمكن الاطناب في الكلام حول الآلهة والأساطير أو الشعائر الهندية الأكثر اهمية بدون ذكر هذه (التحمية) ، الشعائرية ، وهذه الحرارة أو السخونة المتحصلة عن طريق التقشفات . إن عبارة تابا من الجذر تاب : حمي غلي ، وهي مؤكدة بدقة في الريح قيدا (مثلاً ٨ - ٦٥٩ - ١٠ ١٣٦ . الخ) . وإن هذا يتعلق بتقليد هندو - اوروبي ، لأن « الحرارة القصوى » أو « الغضب » (في اللغات أوروبية - ' Wut ' néos ' fery ' ferre cole're) في نص مواز ، يلعب دوراً في الشعائر من النوع البطولي (٢٤) .

يضاف إلى ذلك ان (التحمية) بمختلف التقنيات النفس - فيزيولوجية ، بل بتغذية مفلفة بافراط ، قد تأكدت لدى رجال - الطب والسحرة في الثقافات البدائية (٢٢) . وإن الحصول على القوة السحر - دينية تصاحبت بحرارة داخلية قوية ، وإن هذه « القوة » ذاتها يعبر عنها بمصطلحات تعني « الحرارة » و« الحريق » « شدة الحرارة الخ .. » .

لقد أعدنا التذكير بهذه الوقائع لنبرز الأقدمية والانتشار الملحوظ للتقشفات من نوع تابا . وإن هذا لا يشرك البتة أصلاً غير آري للتقشف الهندي . إن الهندو - اوروبيين ، وبخاصة الهنود الفيديين ، قد ورثوا تقنيات ما قبل تاريخية وقد قيّموها بشكل مختلف . ونؤكد هنا على أنه لم تصل التحمية الطقوسية في أي مكان آخر إلى المضمون الذي ستعرفه (التابا) في الهند ، منذ العصور الموعلة في القدم وحتى عصرنا .

إن التحمية التنسكية تجد نموذجها أو مثيلها ، في الصور والرموز والأساطير ذات العلاقة بالحرارة التي تنضج المحاصيل وتحضن البيض ضامنة تفقسه ، مع التحريض الجنسي وبصورة خاصة اضطرام الانتعاظ أو هزة الجماع ، ومع النار المشتعلة باحتكاك قضيين من الخشب .

ان /التابا/ « خالقة » على عدة مستويات : نشكونية ، دينية وميتافيزيقية
وكما رأينا فان براجاباتي ، خلق العالم متحمياً بالتابا وان النضوب الذي تلى ذلك
قابل للتمثيل بالتعب الجنسي (ف . ٧٦ ع) . وعلى مستوى الطقس أو الشعيرة
فإن التابا تجعل من الممكن عودة الولادة ، اي العبور من هذه الدنيا الراهنة إلى
عالم الآلهة ، ومن محيط الدناسة إلى محيط القداسة . واطافة لذلك فإن التنسك
يساعد محب التأمل (المتصوف) لأن (يحضن) اسرار المعرفة الباطنية فتكشف له
الحقائق العميقة . « إن أغنى قدم للتابي « حرارة الرأس بجعله بصيراً ، بعيد
النظر » -

وان التنسك يغير جذرياً ، لمن يمارسه ، طريقة التكوين ، ويمنحه « قوة »
فوق بشرية يمكن ان تصبح مريعة وفي بعض الأحيان « شيطانية » ٢٦ . وإن
اوليات الاضاحي الاكثر اهمية هي حفلة المسارة ، التدريب البراهماني
Brahmacaris وهما تستوجبان التابا .

والتابا ، تتم اساسا ، بالصوم ، والسهر قرب النار ، أو الوقوف تحت
الشمس ، ونادراً جداً بشرب مواد مسكرة . بيد ان « التحمية » تحصل بحسب
النفس ، وهذا ما يفتح الطريق الى مماثلة جريئة للشعائر القيدية مع تطبيقات
اليوجا . وهذا التماثل غدا ممكنا ، بصورة خاصة ، بالتأملات البراهمانية حول
القربان .

فمنذ زمن مبكر ، مثلت الاضحية با (التابا) وأعلن ان الآلهة حصلت على
الخلود ليس بالأضحية فحسب (ف ٧٦ غ) وانما بالنسك ايضاً . واذا كانت
السوما تقدم للآلهة في العقيدة القيدية ، مع السمن الذائب ، والنار المقدسة ،
ففي التطبيق التنسكي تقدم لها « تضحية باطنية » والتي تبدل فيها الوظائف
الفيزيولوجية بالاراقة وبالموضوعات الشعائرية . فالتنفس مطابق ، على الغالب ،
« لاراقة غير منقطعة » (٢٧) . ويحكى عن البرانا غنيهوترا prânâ gñihotra أي
« القربان للنار (المكتمل) بالتنفس » . (فيكها ناسمارا سوترا ٢ - ١٨) ان مفهوم
هذه « التضحية الباطنية » تجديد غني بنتائجه ، انه يسمح للمتسكين والصوفيين

حتى لأكثرهم غرابة ، أن يبقوا على ذات الحالة ، في حضن البراهمانية ، ومن ثم في الهندوسية . ومن جهة أخرى فإن (التضحية الباطنية) ستارس من قبل البراهمانيين « ساكني الغابة » أي من قبل الذين يعيشون كنسك (ساميازي) دون ان يتركوا هويتهم الاجتماعية « اسياذ البيت » . (٢٨) .

وأجماً فإن التابا قد ادجت في سلسلة من المطابقات المنجزة على مستويات مختلفة . فمن جهة - وطبقاً للاتجاه المميز للروح الهندية - فإن البنات والظواهر الكونية قد تمثلت باعضاء ووظائف الجسم البشري ، وازافة لذلك ، بعناصر الاضحية (جذع نار ، قربان ، ادوات شعائرية ، صيغ ترتيلية الخ . . .) ومن جهة اخرى فإن التنسك - الذي كان قد طبق (منذ ما قبل التاريخ) كنموذج متكامل من تطابقات (الاصغر - الاكبر) . (الصغير ممثل بالريح . الخ) هذا التنسك مماثل بالتضحية . وبعض اشكاله ، على سبيل المثال ، حبس التنفس ، هو نفسه معتبر اسمى من التضحية ، وقد اعلن عن نتائجه بأنها اسمى من الأضحية ، وبأن ثماره اكثر قيمة من ثمارها . ولكن كل هذا المطابقات والمماثلات تبدو صالحة ، بمعنى انها غدت « حقيقة » وفعالة دينياً ، فقط اذا ، فهمت الجدلية التي ابرزتها .

وفي آخر المطاف ، يهنا ان نذكر عددا من الانظمة التي هي من جهة متماثلة ، ومن جهة اخرى مصنفة في سلسلة تراتبية متغيرة . ان الأضحية قد مثلت بالتنسك ، ولكنه بدءاً من فترة ما فإن ما يعتبر اكثر هو عقل المبدأ الذي يبرر امثال هذه المماثلات . وبعد فترة متأخرة ، مع الاوبانيشاد ، فإن الادراك ، لمعرفة (جنانا) سترتفع لمنزلة مرموقة ، وان النظام التضحوي مع اللاهوت الاسطوري الذي طبقه ، سيفقد الأولوية الدينية . بيد ان هذا النظام المبني على سيادة المعرفة لن ينجح مطلقاً في دعم هذه السيادة ، اقله بالنسبة لبعض اقسام المجتمع . فاليجيون ، على سبيل المثال ، يعطون اهمية حاسمة لتنسك ولتجربة حالات « صوفية » ، وبعض « الوجديين » أو انصار الورع من نوع ألوهي « بهاكطي » سيرفضون ، كلا أو جزءاً ، الشعائرية البراهمانية كما سيرفضون التعليم الماورائي للأوبانيشاد ، كما يرفضون التنسك (تابا) والتقنية اليوجية .

ان هذه الجدلية القابلة لأن تكشف مالا يحصى من التطابقات والتمثيلات والاتصالات على مستويات مختلفة من التجربة البشرية (فيزيولوجيا ، بسيكولوجيا ، نشاط شعائري ، ترميز « تجربة صوفية » الخ ..) ، كانت قيد العمل منذ العصر القيدي ، ان لم يكن مما قبل التاريخ الهندو- اوروبي . ولكنها ستكون مدعوة لأن تلعب دوراً بارزاً في العصور التالية . وكما سنرى ، فان الجدلية للتطابق ستكشف عن امكانياتها « الخلاقة » وبصورة خاصة في فترات الازمات الدينية والميتافيزيكية ، أي عندما ينتهي نظام تقليدي بضياح صحته ويإنهار عالم قيمه .

٧٩- نساك وشطحيون : موني ، فراتيا .

اذا كانت أعمال التقوى الشعائرية تشكل جزءاً لا يتجزأ من العبادة القيدية ، فيجب عدم اغفال انواع أخرى من التنسكات والشطحيات لم يشر اليها الا لماماً في النصوص القديمة . وأن العديد من هذه التنسكات والشطحيات كانت تعيش على هامش المجتمع الآري ، بدون ان تعتبر مطلقاً (هرطقية) . بيد أنه كان يوجد أخرى مما أمكن اعتبارها (غريبة) ، مع انه من غير الممكن عمليا التقرير فيما اذا كانت تنتمي الى طبقات بلدية اصيلة او أنها تعكس المفاهيم الدينية لبعض قبائل آرية فقط ، كانت قد تطورت على هامش التقليد القيدي .

وهكذا فان نشيدا من الريغ فيدا (١٠ - ١٣٦) سيتكلم عن ناسك (muni) ذي شعر طويل (Keseir) يرتدي (الزبل الاسمر) « مزنر بالريح » (أي عاريا) وفيه (تدخل الآلهة) ، انه يهتف : « في سكر من الوجد صعدنا على الرياح . أما انتم أيها القانون ، فلا تستطيعون مشاهدة سوى جسدنا » .

ان الموني Le muni يطير عبر الرياح ، انه حصان عنصر الريح (فاتا) وصديق فايو (رب الريح) . انه يسكن في المحيطين المحيط في المشرق والمحيط

في الغيب (ستر . ٥ فيدا ١١ - ٦٥ الخ) . « يمضي على خطى الابسارات de Apsaras ، والجاندهارفات des Gandharvat والحيوانات المتوحشة ، ويعرف افكارها » [(ستر . ٦) . انه « يشرب مع رودرا Rudra بكأس من السم »] ستر [٧] وان هذا مثال نموذجي من وجد : نفس موني تترك الجسد ، وتنحدر الى فكر الكائنات النصف إلهية والحيوانات المتوحشة ، وتسكن « المحيطين » . وهذه الاشارات لحصان الريح وللآلهة التي تتجسدها تدل على تقنية شامانية .

وتستدعي الفيدا كذلك تجارب أخرى ما فوق الاعتيادية ، ذات العلاقة مع الشخصيات الأسطورية (ايكافايتا ، براهماكارين ، فينا ، الخ) التي تمثل على الأرجح النماذج المؤهبة لبعض النساك والسحرة . لأن الانسان - الاله يبقى باعنا سائداً في التاريخ الروحي للهند . ان ايكافايتا هو ، على الأرجح ، النموذج القديم تلك الجماعة السرية ، الفراتيا ، التي أريد أن يرى فيها نساك سيفايتس ، و« صوفيون » ورواد ، وويوجيون او ممثلو شعوب غير آرية . ان سفرأ كاملاً من الاتهارفا [السفر ١٥] قد كُرس لهؤلاء ، ولكن النص غامض ، ومع ذلك يستخلص منه ان الفراتيات lesvratya يمارسون التنسك (يبقون واقفين لمدة سنة الخ ...) ويعرفون نظاماً من النفثات souffles (ممثلة لمختلف الأقاليم الكونية) [أق ١٥ - ١٤ - ١٧] . ويمثلون اجسادهم بالعالم الاكبر macrocosm [١٨ - ١] . وان هذه الأخوية confrérie كانت ، مع ذلك ، هامة ، لأن اضحية خاصة اقرايتا ستوما ، كانت قد اقيمت لدمج اعضائها في المجتمع البراهماني /٢٩/ . واثناء الفراثيا ستوما ، كانت شخصيات أخرى حاضرة ، وكان الاساسيان فيها ، ماجادها un magadha الذي يقوم بدور المغني ، وعاهرة [انها - فيدا - ١٥ - ٢] . وبمناسبة شعيرة متعلقة بمدار الشمس (ماهافاترا) كانت العاهرة تضاجع شعائريا الماجادها او براهما ، كاران ٣٠ .

والبراهما كاران هو ايضاً معروف كشخصية على درجة كونية . مطلع على السر ، مرتد جلد ظبي اسود ، مع ذقن طويلة ، يسافر من المحيط الشرقي الى المحيط الشمالي و« يخلق العوالم » ، وهو يمجّد «كجنين في رحم الخلود» ،

ومرتديا اللون الأحمر ، يطبق التابا [آت - ٥ - ١١ - ٥ - ٦ - ٧] . الا انه ، وكما يحصل غالباً في الهند ، فإن « ممثله » الأرضي ، البراهما كاران (الذي أول نذر له هو الطهارة) ، كان يقترن شعائرياً مع العاهرة .

ولقد كان الاقتران الجنسي يلعب دوراً في بعض الشعائر القيدية (الاسفاميدها) ويقتضي التمييز بين القران الزوجي المعتبر مشتركاً hierogqmie ، والقران الجنسي من نوع تهتكى الهادف اما للخصب العالمي ، واما لخلق « دفاع سحري »^(٣٢) . وفي الحالتين ، هو مع ذلك مسألة شعائر ، ويمكن القول (تقديسات) ، منجزة بهدف اعادة تقديس الشخصية الانسانية او الحياة . وبعد فترة متأخرة من الزمن ، ستعد التانترية tantrisme تقنية كاملة متطلعة الى تحول الجنسية لسر مقدس .

أما بالنسبة لمختلف طبقات النساك ، والسحرة والصوفيين الذين كانوا يعيشون على هامش المجتمع الآري ، والتي انتهت اكثريتها للاندماج في الهندوسية ، فاننا لا نعلم عنها سوى القليل . ان المصادر الاكثر غني متأخرة ، الأمر الذي ، من جهة اخرى ، لا ينقص مطلقاً فوائدها لأنها تعكس بالتأكيد وضعاً اكثر قدماً . وهكذا ، فإن الـ « فيكها - ناسا سهارتا سوترا ، Vaikhāṇasamārta tsutra تقدم قائمة طويلة بالنساك والرهبان ، الذين يتميز بعضهم بشعرهم الطويل وثيابهم الممزقة أو بالاكْتفاء بقشرة شجرة ، وآخرون يعيشون عراة ، يتغذون ببول الابقار وبالروث ويسكنون المقابر الخ . . . وآخرون ايضاً يمارسون اليوجا أو شكلا من ما قبل التانترية proto - tantrisme^(٣٣) .

وباختصار نقول ، انه منذ العصور الموعلة في القدم تأكدت اشكال مختلفة من التنسك ، والتجارب الوجدية والتقنيات السحر - دينية ، ويمكن التعرف على التنسكات من نموذج / كلاسيكي / وبعض البواعث المتطبعة بالشامانية ، الى جانب تجارب وجدية خاصة بالعديد من ثقافات اخرى وبعض ممارسات يوجية قاسية . ان التنافر والتعقيد في التصرفات ، وان التقنيات والعقائد المتعلقة بالخلاص والمدافع عنها من قبل اولئك الذين تركوا الدنيا لم تتوقف عن النمو في

العصور التالية . وبايجاز ، يمكن القول بأن الطرائق الوجدية تبرز وتحدد التجربة الممجة باحتساء السوما أو مواد أخرى مسكرة ، مقدمة بعض اشكال الورع الاسطوري ، في حين ان التقشفات والانظمة التنسكية تهيء لاعداد تقنيات يوجية .

ويجب ان نضيف على هذا انه بدءاً من عصر الاوبانيشاد ، انتشرت العادة بالتخلي عن الحياة الاجتماعية والاقامة في الغابة ، بهدف القدرة على التكريس للتأمل بالكلية . وقد غدت هذه العادة منذ زمن طويل مثلاً يحتذى وهي ما زالت متبعة في الهند الحديثة . بيد انه من الراجح ان العزلة في (الغابة) من قبل اشخاص لم يكونوا لا (صوفيين وجديين) ولا نساك او يوجيين بالنذر ، قد شكلت ، في بدايتها ، تجديداً مدهشاً . وفي الأساس ، ان ترك الحياة الاجتماعية كشف ازمة عميقة في الدين التقليدي . ومن الراجح جداً أن هذه الازمة كانت قد ثارت على اثر تعليقات براهمانية حول التضحية .

٨٠ - الأوبانيشاد والبحث عن الريشي (القديسين) : كيف يمكن

للمرء الخلاص من ثمرة افعاله الخاصة :

ان الالهة القيدية في البراهمانا قد انقصت قيمتها جذريا لمصلحة براجاباتي . وقد مدد واكمل كتاب الاوبانيشاد هذه العملية . بيد انهم قد ذهبوا بعيداً : فهم لم يترددوا عن انقاص قيمة الأضحية الكلية القدرة . وان بعض النصوص الاوبانيشادية تؤكد انه ، بدون التأمل حول « الاتمان » ، فان الأضحية غير كاملة [ميترى اوبانيشاد ١ - ٢] وتؤكد الشاندوجيا Chandogya [٨ - ١ - ٦] كما انه تماماً « كما يتلف العالم المكتسب بالأعمال » كارمان » كذلك سيتلف العالم المتحصل بالتضحية . وحسب الميترى آب le maitri up [١ - ٢ ، ٩ - ١٠] فإن

اولئك الذين يبنون اوهاماً على أهمية الأضحية سيندمون ، لأنهم ، بعد ان تمتعوا ، في السماوات بالمكان المرموق المكتسب باعمالهم الطيبة ، سيعودون الى الأرض او سيسقطون في العالم السفلي . فلا الآلهة ، ولا الشعائر ، لن تحتسب بالنسبة لقديس رشي rshi حقيقى . ان مثله الأعلى مصاغ باعجاب في الصلاة المنقولة بالاوبانيشاد الأكثر قدما البرهادارا نياكا la Brhadara nyaka [١ - ٣ - ٢٨] : « من اللاكينونة (أزات) قدنى الى الكينونة / سات / ، ومن الظلمة قدنى الى النور ، ومن الفناء قدنى الى الخلود » .

ان الأزمة الروحية التي تفجرت في الاوبانيشادات تبدو مثارة بالتأمل حول قوى الأضحية . وقد رأينا ، تماماً كما ان براجاباتي قد اعيد تكوينه وتقمص شخصه / أتمان / ، بفضل الأضحية ، كذلك فإن المضحي كان قد وُحِد بالأعمال الشعائرية / كارمان / ، وظائفه النفس - فيزيولوجية وبنى ذاته (ف . ٧٧ ع) .

وفي البراهمانا تعنى عبارة (كارمان) النشاط الشعائري ونتائجه الطيبة « لأن المضحي يعود الى عالم الآلهة بعد موته » . ولكنه بالتأمل حول العملية الشعائرية « للسبب ومفعوله » ، كان لا مفر من اكتشاف ان كل عمل ، بالفعل البسيط الذي تحصلت نتيجة عنه ، يندمج في سلسلة لا محدودة من الاسباب والنتائج . وما ان عرف قانون السببية العالمية في الكارمانا ، حتى كان اليقين المبني على الآثار الملائمة للأضحية قد انهار . ولأن الوجود التالي للروح في السماء كان الوصول من النشاط الشعائري للمضحي ، ولكن أين « تحققت » منتجات كل هذه الأعمال الأخرى ، المنجزة اثناء الحياة بكاملها؟؟ ان الوجود التالي والطوباوي ، المكافئ من نشاط شعائري صحيح ، يجب له ان يحصل كل نهاية . ولكن ماذا يحصل للروح الغير متجسدة عندئذ؟ على أي حال لا يمكن لها ان تزول نهائياً . لقد بقي لها عدد غير محدود من الأعمال المنجزة اثناء الحياة ، وهذه الأعمال شكلت كمية من « الاسباب » التي يتوجب لها ان تحصل على « آثار » ، وبعبارة اخرى ، يتوجب لها ان تحقق في وجود جديد ، هنا على الأرض ، او في عالم آخر . وان النتيجة تفرض نفسها من ذاتها : فبعد ان تمتعت بوجود سابق طوباوي او تعيش في عالم خارج - ارضي ، كانت

الروح مكرهة لأن تعاود تجسدها . وهذا هو قانون انتقال الروح (تقمص)
سامسارا samsara ، الذي ؛ ما ان اكتشف حتى ساد الفكر الديني والفلسفي
الهندي التقليدي وكذلك الهرطقي (البوذية والجانية) . ان عبارة (سامسارا)
تظهر فقط في الأوبانشاد . اما اصل النظرية فهو غير معلوم . وقد جرت عبثا
محاولة لتفسير العقيدة التقمص استنادا على عناصر سابقة للآرية . ومهما يكن من
أمر ، فإن هذا الاكتشاف قد فرض نظرة تشاؤمية للوجود . ان المثل الأعلى
للإنسان القيدي - ليعيش ١٠٠ سنة الخ - يظهر باطلاً . ففي ذاتها ، لا تمثل الحياة
بالضرورة « الشر » شريطة استعمالها كوسيلة للخلاص من علاقات كارمان .

ان الهدف الوحيد الجدير بانسان حكيم هو الحصول على الخلاص ، موكشا
moksha - وهي عبارة أخرى ، مع مماثلاتها (موكتي الخ) تصنف بين الكلمات -
المفاتيح للفكر الهندي .

بما ان كل عمل (كارمان) ديني او دينيوي يؤكد او يديم التقمص
/سمسارا/ ، فإن الخلاص لا يمكن الحصول عليه لا بالأضحية ، ولا بالعلاقات
الصميمية مع الآلهة ، ولا حتى بالتنسك او الاحسان . ان الريشي richi في
رهبانيتهم كانوا يفتشون عن وسائل أخرى كي يتحرروا . وان اكتشافا هاما قد تم
بالتأمل حول القيمة المتعلقة بالخلاص للمعرفة التي سبق تمجيدها في الفيدا
والبراهمانا . بديهي ان مؤلفي البراهمانا كانوا قد رجعوا للمعرفة (الباطنية)
لمطابقات مضمرة في العملية الشعائرية . فالجهل بالاسرار التضحية كما تقول
البراهمانا ، كان قد أذان البشر (بموت ثاني) ولكن الريشي ذهبوا بعيداً ، فأحلوا
(المعرفة الباطنية) من نصوصها الشعائرية واللاهوتية ، وأصبح العرفان الروحي
(الغنوص gnosis) هو القادر للامساك بالحقيقة المطلقة ، برفعه النقاب عن البنى
العميقة للحقيقة . ومثل هذا العرفان ينتهي ، باتلاف الجهالة (افيديا) لغويا ،
والتي تبدو وكأنها تصيب البشر (الغير مسارين ، بالبراهمانا » . إنه يتعلق ،
تأكيداً ، بجهل نظام ما وراء الطبيعة لأنه يرد للحقيقة الشاملة وليس الى الحقائق
التجريبية المتعلقة بالتجربة اليومية .

وفي هذا المعنى من (جهالة نظام ما وراء الطبيعة) طرحت عبارة (أفيديا) في المفردات الفلسفية الهندية . إن (الأفيديا) كانت تكتم الحقيقة الشاملة ، وإن « الحكمة - غنوص » كشفت الحقيقة ، إذن ، الواقع . ومن احدى وجهات النظر كانت هذه المعرفة خلاقة : خلقت البنى والدينامية للوجود البشري . ويفضل الافيدبا عاش البشر وجوداً غير مسؤول ، جاهلين نتائج اعمالهم (كارمان) . وبعد بحوث مشوقة وترددات ، فإن / الريشى / ، مستنيرين باشراقات فجائية ، قد طابقوا في الأفيدبا (العلة الأولى) « كارمان ، وبالنتيجة ، الأصل لدينامية التقمص . فالدائرة قد اكتملت : الأفيدبا « الجهالة » « ابدعت » او دعمت قانون « السبب والنتيجة » كارمان ، والذي بدوره حكم السلسلة المتواترة للتقمصات (سمسارا) . ولحسن الحظ فإن الخلاص (موكشا) من هذه الدائرة المأساوية كان ممكنا بصورة خاصة بفضل العرفان = غنوص (جنانا ، فيديا) . وكما سنرى ، فإن جماعات او مدارس أخرى أعلنت اضافة لذلك الفضائل التحريرية لتقنيات اليوجا والورع الاسطوري . ولقد دأب الفكر الهندي منذ زمن مبكر على مماثلة « الطرق » (مارجا) المختلفة المؤدية الى الخلاص . وقد توصل الجهد فيما بعد بعدة قرون الى التركيب الشهير المعلن في البهاجافاد رجيता Bhagavad — Geta (القرن الرابع ق.م) . الا انه يقتضي الاشارة منذ الآن ان اكتشاف المتتالية المصيرية (افيديا - كارمان - سامسارا ، واكتشاف دوائها ، الخلاص (موكشا) بواسطة « الغنوص » ، المعرفة لنظام ما وراء الطبيعة (جنانا ، فيديا) ، اكتشاف منجز ، رغم كونه غير مبرمج بشكل كامل ، في عصور الاوبانيشاد ، ويشكل جوهر الفلسفة الهندية التالية ، وإن التطورات الاكثر أهمية هي المتعلقة بوسائل الخلاص ، ويتناقض ، « الشخص » (او « الوكيل ») المعني بالتمتع بهذا الخلاص .

٨١ - المطابقة « اتمان » - براهمان وتجربة « النور الداخلي »

لقد عمدنا الى الاختصار ، بهدف ان ندرك بدثيا قصد واصولية الريشي . ففي الادبانيشادات الأكثر قدما ،^(٣٤) يميز بين مجموعة خطوات . مع ذلك لا يجب

الاعتماد كثيراً على هذه المفارقات ، لأن نظام التمثيلات والتطابقات المسبقة السيادة في البراهمانات ، تبقى صالحة ايضاً في الأوبانيشادات . ان المشكلة المركزية هي ، بشكل واضح او مضمّر ، ماثلة في كل نص . إنه يتعلق بادراك وفهم الكائن الأول / الواحد / الكل ، L'u,n/tout ، الذي هو وحده ولذاته يفسر العالم والحياة ومصير الانسان . ومنذ الريغ فيداً جرت مماثلة في أل تاد ايكام Le tad elq. - الواحد (حيادي) - وذلك في النشيد الشهير ١٠ ، ١٢٩ . وإن البراهمانات اسمته براجاباتي او براهمان . ألا انه في هذه المصنفات المدرسية ، كان الكائن الأول في علاقة مع الأضحية الكونية والقداسة الشعائرية . وإن الريشي Le rishis قد بذلوا كل ما في وسعهم لضبطه بواسطة تأمل موجه بالعرفان / غنوص) ٣٥

ان الكائن الأول هو بكل وضوح ، لا يمكن تصوره ، وهو غير محدود ، وهو أزلي ، انه في آن واحد ، الكل والأحد « خالق » و (رب) العالم ، وقد ماثله بعضهم حتى مع الكون univers وبعضهم الآخر بحث عنه في الشخص (بيروزا Purvsa) المائل في الشمس ، والقمر والكلمة الخ وبحث عنه غيرهم في اللا محدود الذي يسند العالم ، والحياة ، والضمير ومن بين اسماء الكائن الأول الذي وضع منذ البدء كان براهمان . وفي مقطع شهير من الشاندوجيا آب [٣ - ١٤] ، وصف براهمان كما لو انه « العالم بكامله » وغالباً هو من طبيعة روحية ، « الحياة جسده ، والنور شكله ، والفضاء روحه » ، انه يشتمل في ذاته على كل التصرفات والرغبات ، والروائح والمذاقات الخ بيد أنه في ذات الوقت « اثماني في القلب ، أصغر من حبة شعير ، ان لم يكن من حبة خردل » ومع ذلك هو « اكبر من الأرض ، بكثير ، واكبر من الفضاء ، واكبر من هذه العوالم » . « محتوي كل الأعمال ، وكل الرغبات [.] محتوي هذا العالم بكامله [.] هذا هو اثماني mon atman في القلب ، هذا هو براهمان . . . وبالوفاة سادخل فيه » ٣٦ . إن يجنافالكيا yajnanalkya تتكلم عنه ايضاً عن « ذلك الذي يسكن في الأرض ، ولكن الأرض لم تعرفه ، والذي جسمه ، هو الأرض ويراقب الأرض من الداخل » . وتماثله مع الـ « اتمان ،

المراقب الداخلي والخالد » [برهاداران ياكأ أب . Brhadaranyka up ٣ - ٧
[٣٢ .

وتما كما هو بوروزا Purusha في الريح فيدا [١٠ - ٩٠] ، فإن براهمان
يكشف عن ذاته في آن واحد علة وجود (« هذا العالم ») ومفارق له ، متميز عن
الكوزموس ومع ذلك كلي الحضور في الحقائق الكونية . وإضافة لذلك ، بصفته
أتمان ، فهو يسكن قلب الانسان ، الأمر الذي يقتضي الهوية أو التطابق بين
الذات الحقيقية والكائن العالمي . وفي الواقع ، ان أتمان (من يعلم » يتحد في
الموت ببراهمان ، وان أرواح الآخرين الغير مستنيرة ، ستسلك قانون التقمص
/سامسارا/ . وتميز عدة نظريات حول الوجود - السابق بدون عودة على الأرض
ـ وحسب بعض هذه النظريات ، إن الذين عرفوا الرمزية الباطنية « للنيران
الخمسة »^(٣٧) يجتازون مختلف الأقاليم الكونية وحتى « عالم النور » . وانهم هنا
يلتقون « شخصا روحيا » (بوروزا ماناساه أي « متولد من الروح ») وهذا
الشخص يقودهم حتى عوالم براهمان ، حيث سيعيشون زمنا طويلاً ولن يعودوا
أبداً . ان هذه النظرية ، وقد تحولت ، سيعاد أخذها من قبل المدارس التنسكية
المختلفة . ولكنه حسب تفسيرات أخرى ؛ فإن اتحاد أتمان ، بعد الموت ، مع
الكائن العالمي (براهمان) يشكل لحد ما (خلوداً غير شخصي » : فا « الهو »
يمتزج في مصدره الأصلي ، براهمان .

ويقتضي التحديد بدقة أن التأملات حول مطابقة أتمان - براهمان تشكل
« تمرينا روحيا » وليس « سلسلة » من « المعقولات » . أن ادراك المرء لذاته الخاصة
يتوافق بتجربة من « نور داخلي » (أناته - جيوتيف) . وان النور هو الصورة
بامتياز لأتمان كما هو لبراهمان . وبالتأكيد ، انه يتعلق ، بتقليد قديم لأنه منذ
العصور القيدية ، كانت الشمس وكان النور معتبرين كتجليات للكائن وللروح ،
ولللخلود وللخلق . وحسب الريح فيدا [١ - ١١٥ - ١] ، ان الشمس هي الحياة
أو الأتمان - الذات - لكل شيء^(٣٨) إن الذين شربوا السوما يصبحون خالدين ،
ويصلون الى النور ويجدون الآلهة (ر . ق ٨ - ٤٨ - ٣) وعليه ، تقول [الشاندوجا
او بانيشاد ٧ - ١٣ - ٧] « ان النور الذي يشع خارج هذه السماء ، وخارج كل

شيء ، في أعلى عليين من العوالم والتي لا يوجد بعدها ما هو أعلى ، هو في الحقيقة ذات النور الذي يشع داخل الانسان (انتاه بوروزا)^(٣٩) . إن [البرها دارنيكا ، وبانيشاد ٤٠ - ٣ - ٧] تطابق ، هي ايضا الأتمان بالشخص الذي يوجد في قلب الانسان على شكل « نور فيم القلب » . « هذا الكائن ، الصافي ، المرتفع من جسده والمدرّك النور الأعلى ، يبدو تحت شكله الخاص . انه هو الأتمان . إنه الخالد ، الذي لا يخاف إنه براهمان » [الشانديوجا - ادب . ٧ - ٤ - ٣]^(٤٠) .

٨٢ - النموذجان لبراهمان - وسر « الأتمان » ، الاسير « في المادة :

الهوية اتمان - براهمان ، المدرّكة تجريبيا في « النور الداخلي » تساعد الريشي لفك رموز سر الخلق وبذات الحين بطريقة تكونه الخاص . لأنه يعلم ان الانسان هو أسير الكارمان وعلى الأغلب حائز لذات خالدة ، فإنه يكشف في براهمان حالة مماثلة . وبعبارة أخرى ، انه يتعرف في براهمان على طريقتين للتكون هما بحسب ظاهرها متنافرتين : « مطلق ونسبي » ، « روحي ومادي » ، « شخصي ، ولا شخصي » الخ . وفي البريهاد ، ريكافا ، وبانيشاد [٢ - ٣ - ١٠] ، ان براهمان قد ضبط تحت شكلين : مادي (وقابل للفناء) وخالد . وان الاوبانيشادات المتوسطة^(٤١) تطور بطريقة منهجية اكثر هذا الاتجاه - الذي سبق أن تأكد في الريغ فيدا - بارجاع الكلية الكونية والوعي إلى مبدأ واحد . فالكاتا أوبانيشاد [بصورة خاصة ٣ - ١١] ، تحضر علم كائن (انطولوجيا) كوني أصولي جداً : الروح العالمية « بوروزا » كائنة في القمة ، ومن تحتها ، « غير الظاهر » (أفاكتا) ، الذي يبدو مشاركاً في « الروحي » كما هو مشارك في « المادي » ، وفي الأدنى ايضا ، ان الذات الكبرى (ماهان آتما) ، الروح الظاهرة في المادة ، متبوعة ، على مستويات متدنية تباعاً ، بأشكال أخرى من وعي ، باعضاء الحواس ، الخ . وبحسب السفيتا شغاترا ، ادبا . [٥ - ١] في

الأزلي واللا نهائي براهمان توجد ، مخبئة ، المعرفة [التي تضمن الخلود] والجهالة ، الممثلة للفناء .

ان هذا النموذج الجديد من المطابقات يقتضي اعادة تفسير الماثلة القديمة بين العالم الكبير والعالم الصغير ، وفي هذه المرة ، هنا ، يتعلق ، بالنسبة للريشي ، بأن يدرك (حالته الوجودية) بتأمله حول البنية المتناقضة للبراهمان . وان التفكير يتتابع على مستويين متوازيين . فمن جهة ، نثبت ان ليس فحسب ، المشاعر والادراك الحسي تشكّلان قسماً من صنف الظواهر « الطبيعية » وانما النشاط النفسي - العقلي ايضاً . (هذا الاكتشاف الملخص في الميثري او بانيشاد سيتار بصورة خاصة في فلسفتي « السمخيا واليوجا) . ومن جهة أخرى سيمدد الاتجاه (المؤكد عليه في الريغفيدا ١٠ - ٩ - ٣) . ليرى في الروح والطبيعة صنفين للكائن الأولي ، والكل / الواحد^(٤٢) ، وبالنتيجة فإن الكون والحياة تمثلان النشاط المتزواج لهذين النوعين من الكائن الأولي . وفي الاساس ، إن الانقاذ يتكون في معرفة هذا السر ، وما ان يتكشف مرة هذا المظهر المتناقض للواحد / الكل ، حتى يتم النجاح بالتخلص من دوالب العملية الكونية . ومن منظورات مختلفة يمكن اعتبار هذه العملية الكونية كلعبة (ليلا) الهية ، وكوهم (مايا) يرجع الى عدم علم أو إلى « تجربة » تهدف لاجبار الانسان لأن يبحث عن الحرية المطلقة (موكسا)^(٤٣) . ان ما يهم قبل كل شيء ، هو ، ان اقتران الوجود المتناقض للنموذجين المتضادين في الكائن الأولي ، يسمح باعطاء معنى للوجود الانساني (ليس اقل تناقضاً ، لأنه محكوم بقانون الكارمان ، مع كونه (محتويًا اتمان) وازضافة لذلك يجعل الخلاص ممكناً . وفي الواقع ، بفهمنا المشابهة بين براهمان وظهوره ، والخلق المادي ، والأتمان المتخذ في شبكة التقمص . بفهمنا هذه المشابهة نكتشف الخاصية العرضية والغير دائمة للتعاقب المرعب : « افيديا - كارمان - سمسارا .

من المؤكد - إن الاوبانيشادات الوسيطة تستثمر بشكل مختلف هذه الاكتشافات الجديدة . فالنموذجان لبراهمان يفسران احياناً وكأنهما - يمثلان الها شخصياً ، أعلى من المادة (طريقة تكوُّنه غير شخصية) ، وانه في هذا المعنى يمكن

فهم الكاتا أوبانيشاد [١١، ٣ - ١١] التي تطرح المبدأ الشخصي ، بيروشا Purusha ، فوق قوالبه « اللاشخصية » (أفاكتا ، لغونا « غير- ظاهر »)^(٤٤) . ان السفيتا شعاعاتا Svitassatara هي ايضاً اكثر دلالة ، لأنها تشرك التأملات حول الكائن المطلق (براهمان) بالورع من أجل إله شخصي ، رودرا شيفا . ان « الثلاثي براهمان » [١ - ١٢] ، اله منبثق في كل الطبيعة وكل اشكال الحياة ، أما بالنسبة للطبيعة [براكستي] فإنها مايا الرب (رودرا شيفا) « سحر » خلاق يكبل كل الكائنات الفردية [٩٠٤ - ١٠] . وبالنتيجة ، فإن الخلق الكوني ، يمكن ان يدرك ، اما كصدور إلهي ، واما كلعبة (ليلا) تترك فيها البشرية العمياء بجهالتها ، عرضة لتقع في المصيدة . وان الخلاص يمكن الحصول عليه بالسمخيا وباليوجا ، أي بالمعرفة الفلسفية والتقنية النفس - فيزيولوجية للتأمل [٦ - ١٣]^(٤٥) . وتجدد الاشارة الى ان ترقية التطبيقات اليوجية لصنف من طرق الخلاص ، إلى جانب العرفان (غنوص) طريقة مألوفة في الأوبانيشادات القديمة . فالكاتا او بانيشاد تبرز هي ايضاً ، تطبيق اليوجا الى جانب التأمل من نوع عرفاني (غنوصي) [١٣ - ١٣] . وإن بعض التقنيات اليوجية معروفة بطريقة اكثر دقة في السفيتا شعاعاتا ، والماندوكيا وبصورة خاصة الميتري اوبانيشاد .

ومن هنا يظهر كم هي متطورة الابحاث والاكتشافات المسجلة في الاوبانيشادات الأولى . وهناك اجبار من جهة ، لفصل المبدأ الروحي (اتمان) عن الحياة العضوية والنفسية - العقلية . ديناميات أعيد « تقييما » تبعاً باحتوائها في غرائز الطبيعة (براكريني) . وليس سوى الذات المطهرة بالتجارب النفسعقلية التي كانت قد تمائلت مع براهما ، وبالنتيجة ، يمكن لها ان تعتبر خالدة . وقد بذل الجهد من جهة أخرى لحل رموز ، ولتحليل العلاقات بين الكائن الكلي (براهمان) وبين الطبيعة ، وان التقنيات التنسكية وطرائق التأمل ، المتابعة لانحلال ذات التجربة النفسعقلية ، ستقام وتتمفصل في اطروحات اليوجا ، الأولى .

وان التحليل الحاد لشكل التكوين للذات (اتمان - بوروشا) والبنى
والديناميات للطبيعة (براكريتي) ، تشكل كلها الموضوعية لفلسفة السمخيا
(Samkhya) .

حواشي الفصل التاسع

- ١ - كان عدد المختلفين تغيراً والاكثر اهمية بينهم هو الـ /هوتر/ أو الذي يريق السائل وقد اصبح فيما بعد الراوي بامتياز وكانت تترتب عليه مسؤولية الاضحية ، ثم أبدل بمغذى النيران . والبراهمان يمثل السلطة المقدسة كما يدل عليه اسمه «حيادي» والحارس الصامت للعقيدة . يجلس في وسط البهو وهو طيب . حقيقي للاضحية لا يتدخل الا اذا ارتكبت اخطاء ، وعندها يكمل الترتيبات الضرورية . والبراهمان يتلقى نصف التقدّمات وهذا ما يبرر اهميته .
- ٢ - ان جزئاً من التقدّمات الذي يلقي في النار كان يتحول عن طريق أغنى للالهة . وكانت البقايا تستهلك من قبل المضحّي وجميعهم يشاطرون هكذا بغذاء الهى .
- ٣ - يتعلق بمفهوم ما قبل هندي وقد اعتمد من قبل البوذيين ، ويترك اسم العائلة يصبح الرضع ابنا لبوذا .
- ٤ - هنالك طقس آخر برافرجيا ادخل متأخراً في الاغيستوما ولكنه كان يشكل على الأرجح حفلة مستقلة هدفها تدعيم الشمس بعد فصل الامطار .
- ٥ - اثناء الاضحية تيلوكاهن «ليستطيع البراهمان الولادة مطهر» . يستطيع الامير الولادة بعظمة ملكية ، بطل . محارب باسهام قوى بالعربات التي لا تقهر . ولادة البقرة حلوة - وتوليد الثور قويا والحصان سريعاً ويخصب المرأة وينصر الجندي وينصح الشاب ليستطيع هذا المضي ان يكون له ولد قوي وليعطنا بارمانيا في كل وقت المطر المرغوب . ومن أجلنا لينمو القمح غزيراً الخ .
- ٦ - جيمس سوفييه - الاضحية الالهية . . . وقد ذكر كل المشاهد المتعلقة بالمصادر الجريئة والسنسكريير المتعلقة بالتضحيات البشرية .
- ٧ - الولادات الاسطورية - غوندا - ص ١١٥ . ويبدو ان الريغ فيدا جهلت الديكا ، ولكن لا

يجب نسيان ان هذه النصوص الشعائرية لا تمثل الدين القيدي في مجمله . والحفلة تأكدت في الاتفاقيدا .

٨ - كل هذه الشعائر المسارية لها بشكل طبيعي نموذج اسطوري : انه اندرا الذي ، لكي يتجنب ولادة الغول المرعب نتيجة القران بين الحكمة فاك والاضحية ياخبا قد حول نفسه الى جنين ودخل في رحم فاك .

٩ - انظر النصوص المذكورة من قبل / غوندا/ .

١٠ - ان المضحى (يطرح بذاته تحت شكل بذرة) ممتلاً بحبات رمل ، في النار المنزلية بهدف ضمان اعادة ولادته هنا على الأرض ، ويطرح في المذبح القرباني بهدف اعادة ولادته في السماء - كومار سواء .

١١ - الهند الملكية المحافظة ح . هيدرمان ص ١٧

١٢ - صورة الجنين الذهبي - في الهند التقليدية ، والبيضة الكونية - المحتضنة بالمياه (الابدبايشار)

١٣ - فيراج - نوع من (الساكتي) تزوجت بيروزا

١٤ - النصوص عرضها / غوندا/ ص ٢٧

١٥ - في الريح فيدا يلاحظ مسبقا اتجاه لاختصار مقدوية الآلهة مبدأ الهى (ليس سوى واحد والشعراء الملهمون اسموه المتعهدد . [١ - ١٦٤ - ٤٦]

١٦ - المصطلح المستعمل uinj من جذر Ovi - snj - تشير للتشتت في كل الاتجاهات .

١٧ - تؤكد نصوص اخرى ان السماء خرجت من رأسه والفضاء من صدره والأرض من قدمية - بتأثير التضحية ولكنها تؤكد تشابه التكوين لهذين الالهين .

١٨ - معلوم ان مفاهيم مشابهة تميز الثقافات القديمة وبالدرجة الأولى منها - ثقافات الزراع الأوائل .

١٩ - غوندا - ديانات الهند ص ٢٣٦

٢٠ - ليليان سلهون - اللحظة والسبب ص ٧٤

٢١ - ان نصاً آخر من ساتابات براهمان يصف بوروز / الذهبي / في قلب الانسان مثل حبة رز ، مضيفاً مع ذلك انها اكبر من السماء والأرض والاثير وكل الاشياء « انها النفس هي ذاتي وبالموت احصل على هذه الذاتية » والنص هام جداً ، لأنه من جهة بوروزا مائل براهان (حيادي) ومن جهة اخرى ان المعادلة (اتمان - براهمان قد ضمنت اذن .

٢٣/ ٢٤ - انظر - اليوجا - الياد ص ١٢٥

٢٥ - انظر - اشامانية - الياد ص ٣٦٩

٢٦ - ان العبارة sonti تدل بالسنسكريفية على الهدوء ، وسلام الروح وغياب الانفعال ، وتحمل

الآلام وهو مشتق من الجذر sam الذي كان يتوجب اصلا مع اطفاء (النار ، الغضب ، الحمى) ، وفي آخر المطاف (الحرارة / المثارة بالقوى الشيطانية .

٢٧ - في الواقع « طالما هو يتكلم ، فإن الانسان لا يستطيع التنفس ، وعندئذ يقدم كلامه لتنفسه . وهذه هي التضحيتان المستمرتان والخالدتان في اليقظة والمنام ، يقدمهما « الانسان بدون انقطاع . وكل التضحيات الاخرى لها غاية وتساهم بطبيعة الفعل « كارمان » . ان القدماء بمعرفتهم لهذه التضحية لم يكونوا يقدمون الاغنيهورتا . ويرأي بعضهم ان التضحية الحقيقية تقع في القرابين بالصغير « ان من يقدم الاغنيهورتا بدون ان يعرف فإن ذلك مثل الذي [.....] يجعل التضحية في الرماذ .

٢٨ - وضعهم الديني عكس في الاطروحات ارياناكا

٢٩ - الفراتيا كانوا يرتدون عمامة ، وكانوا يلبسون السواد ويطرحون على اكتافهم جلدي كبش احدهما اسود والاخر ابيض ، وكعلامة كان لديهم قضيب حاد الطرف ، وزينة حول العنق وقوس متدلي . ان عربة يجرها حصان وبغل كانت تخدمهم في مكان الاضحية .

٣٠/٣٣ - المراجع متعددة مشار اليها في كتاب اليوجا - لألياد . ص ١١١

٣٤ - أي ان الابانيشادات في النشر وجميعها حررت بين ٨٠٠ ٥٠٠ ق.م

٣٥ - مع ذلك لا يجب ان ننسى ان (الريش) في الهويانيشاد هم خلفاء العرافين والشعراء الفلاسفة للعصر الفيدي ومن بعض وجهات النظر يمكن القول ان الاستقراءات المركزية للابانيشاد وجدت سابقاً تحت شكل غير نظامي في الفيدا . وهكذا مثلاً فإن المعادلة - (روح = اله / حقيقة = ضوء الخ غوندا ص ٤٠

٣٨ - الضوء خلق مسبق - منه القوة السابقة للخلاقة - ساتنيتا [٧ - ٢٧]

٣٩ - الشاندوجيا اوبانيشاد تذكر بيتين من الشعر الريغيفيدية فيها يجري الكلام عن التأمل والضوء الذي يشع في العلاء في السماء « وتضيف بالتأمل بهذا الضوء العالي جداً بما وراء الظلمات نصل للشمس ، بين الالهة . ان تعقل المطابقة بين الضوء الباطني والضوء عبر الكوني قد تراقق بعنصرين معروفين من الفيزيولوجيا المناسبة (التحمية للجسد واستماع الاصوات الاسطورية)

٤٠ - ذات الشيء في المونداكا [٦ - ١٠١] فإن البراهمان هوندر صاف للانوار .

٤١ - الاكثر أهمية هي كاتا ، برازنا ميتري ماندوكيا - تاري كتابها صعب التحقيقات منه وعلى الارجح حوالي ٥٠٠ - ٥٠٠ ق.م

٤٢ - قد وضع هذا مبدأ في المقدمة من قبل /غوندا/ - الفلسفة الهندية ص ١٣١

٤٣ - كل هذه الشروح ستصبح شعبية فيما بعد .

٤٤ - ٤٥ - ان الصفة المميزة للسافيتاسفاترا هي مع ذلك التفاني من أجل شيفا .

الفصل العاشر

زوس والديانة الأغريقية

٨٣ - نسب الآلهة وصراعات بين أجيال الهية :

إن اسم (زوس) Zeus ذاته يفصح عن طبيعته : إنه ، إله سماوي ، هندو-أوروبي بامتياز (ف - ٦٢ع) . وقد استطاع تيوقريط (١٧٤٣) أن يكتب أيضاً بأن زوس يشع تارة ويسقط مطراً تارة أخرى . وحسب هومر «ان النصيب الذي حصل عليه زوس هو السماء اللامتناهية ، بصفاتها وغيومها معاً» [اللياذة ١٥ - ١٩٢] . إن عدداً من ألقابه يشير الى بنيته كاله للفضاء : ombsios et Hyettios «مطر» . وUrios (الذي يرسل الرياح الطيبة) ، وAttiapios (الذي يعصف ، وBronton (الذي يرعد) الخ . . بيد أن زوس هو أكثر بكثير من تشخيص للسماء كعنصر كوني . إن صفته (الأورانية Uranien) تحققت عن طريق سيادته وعن زيجاته التي لا يمكن حصرها مع مختلف الربّات المحليّات .

مع ذلك ويمعزل عن الاسم والسيادة (المكتسبة من جهة أخرى بمعارك شرسة) ، فإن زوس لايشبه الآلهة الهندو - اوروية القديمة في السماء ، مثل دايوس Dayus القيدي فهو ليس خالقاً للكون فحسب ، وإنما هو لا ينتمي حتى الى مجموعة الآلهة الاغريقية الأولية .

وفي الواقع ، وحسب هزيود ، لم يكن يوجد في البدء سوى العماء Chaos حيث انبثى جايا Gaia (الأرض) «ذات الأحضان الواسعة» وايروس Eros . وبعدئذ ولدت جايا كائناً مساوياً لها ذاتها قادراً ليغطيها بكاملها ، أورانوس (السماء) المرصعة بالنجوم . ولقد وصف هزيود اورانوس «كله شره للحب ، حاملاً معه الليل ، تقرب من الأرض واحتضنها» [تيوج . ١٧٦] من هذا الزواج الكوني hierogamie^(١) أتى للعالم جيل ثانٍ إلهي ، هي الأورائيدات des ouranides : التيتان الستة . (الأول اوقيانوس والآخر كرونوس) ومن بين التيتانات الستة رباً Rheia وتيميز Themis ومنيموزين mne mosyne والسيكلوبات trois cyclopes ذات العين الوحيدة والثلاثمائة ذراع .

خصب لا حد له ، مخيف أحياناً ، كان يميز العصور الأولية . غير أن اورانوس كان يكره أبناءه «منذ اليوم الأول» فأخفاهم في جسد جايا . وصنعت الربة المرفقة مشذباً كبيراً وتوجهت بالقول لأولادها : «يا أولادي المتولدين مني ، ومن مجنون [...] لنقاصص على الاهانة ، الجريمة للأب الذي هو أبوكم ، حيث أنه أول من صمم أعمالاً مخزية» . ولكن الأولاد المرتعبين خيفة «لم ينبس أحدهم ببنت شفة» ما عدا كرونوس الذي أخذ المهمة على عاتقه . وعندما اقترب أورانوس «مغموراً من اختراقه جسد الأرض» [اشيل - نوك ف . ٤٤] . خصاه كرونوس بمنجله . ومن الدم الذي سال على (جايا) أتى الى العالم الايرينيات الثلاثة Iestrois Erinyes ربات الانتقام ، والجبابرة ، وحوريات شجر الدردار . ومن أجزاء اورانوس الجنسية الملقاة في البحر والمحاطة بزبد أبيض ولدت أفروديت [تيو . ١٨٨] .

إن المشهد يمثل ترجمة مثيرة ، بصورة خاصة ، للأسطورة القديمة جداً عن انفصال السماء عن الأرض . وكما كنا لاحظنا (ف . ٤٧ع) انها تتعلق بأسطورة منتشرة على شكل واسع ومؤكد عليها في مستويات مختلفة من الثقافة . إن اخضاء اورانوس وضع حداً لانسال غير منقطع^(٢) . وفي آخر المطاف /عابث/ لا طائل تحته ، حيث أخفى الأب المواليد الجديدة في الأرض . ان قطع عضو اله من مديري الكون ، من قبل ولده ، الذي يغدو بدا خليفته ، يشكل قصة سائدة في أنساب الآلهة الحورية والحيشية والكنعانية [ف - ٤٦ع] . ومن الراجح أن هزيود كان قد عرف هذه التقاليد الشرقية^(٣) ، لأن عائلته الالهية قد تركزت حول نزاع بين أجيال الآلهة والصراع من أجل السيادة العالمية . وفي الواقع ، أن كرونوس بعد أن جعل والده عديم القدرة ، استقر في مكانه وتزوج شقيقته ريا Rheia وتولد له منها خمس أولاد : هستيا وديميتر وهيرا وهادس وبوزيدون ، ولكن وبما انه بفضل جايا وأورانوس ، كان يعلم أنه قدر عليه أن «يرزح يوماً تحت ضربات ابنه الخاص» [تيو . ٤٦٣] ، فإن كرونوس ابتلع ابتداء منذ ولدوا . ولكن ريا المستشاة غضباً اتبعت عندئذ مشورة جايا وفي اليوم الذي وجب أن تلد فيه زوس ، انكفأت الى /كريت/ وأخبأت الولد في مغارة لا يمكن العثور عليها ، ثم لفت حجراً كبيراً بأقمطة وألقت به الى /كرونوس/ الذي ابتلعه .

وعندما كبر زوس أجبر كرونوس بأن يتقياً إخوته وأخواته . واعتق تباعاً الأخوة من أبيه الذين كان أورانوس قيدهم . وكدليل للعرفان قدم له هؤلاء الرعد والصاعقة . ويحصل زوس على هذه الأسلحة أصبح في مكنته منذئذ «قيادة الفانين والخالدين معا» [تيو . ٤٩٣ - ٥٠٦] الا انه توجب بدئياً اخضاع كرونوس والتيتان . فتتابعت الحرب سجالاً لعشر سنوات عندما ذهب زوس والآلهة الشباب يبحثون حسب نصيحة جايا لهم عن ذات الثلاثمائة ذراع الحبيسة من قبل اورانوس في اعماق الأرض . وبعد زمن قصير جُندل التيتان ودفنوا في التارتار تحت حراسة (مئات - الايدي) [تيو . ٦٤٧ - ٧٢٠] .

إن وصف التيتانوماشي le Titanomachie [٧٠٠ - م] يعطي انطباعاً عن تراجع على مستوى ما قبل نشكوني . فانتصار زوس ضد التيتان - تجسيد للقوة التي لا

قياس لها وللعنف - المعادل من حيث النتيجة تنظيمياً جديداً للكون . ومعنى آخر ، ان زوس خلق العالم من جديد [ف . ٦٨ع] . وهذا الخلق كان مع ذلك مهدداً بالخطر مرتين . وفي نص اعتبر لزمن طويل كنص محرف (نحو ٨٢٠ - ٨٨٠) ، ولكن المحرر الأخير للتيجوني la Theogonie قد برهن على رسميته ، في هذا النص ان كائنا غوليا تيفون Tyfon ، ابن لجايا وتارتار قد ثار ضد زوس . « من اكتافه خرج مائة رأس ثعبان ، وحيثان مرعبة راشقة ألجنة حالكة السواد ، وعيونا [.] تسيل منها اشعة من نار » الخ . . . [تيو ٨٢٤٠] - فضرب زوس هذا الكائن بصواعقه ، وقذف به في التارتار ، واخيراً وحسب الجيجانتوماشي la gigantomashe ، المشهد الغير معرف من قبل هوميرو وهزيود ، والمذكور لأول مرة من قبل بندار (بنمنس ١ - ٦٧) ان العمالقة Geants المتولدة من جيّا المخصبة بدم اورانوس ، قد اثيروا ضد زوس واخوته . ويؤكد ابولودور Apo llodor ان جيا قد ولدت العمالقة للثأر من التيتان وانها بعد هزيمة العمالقة انجبت تيفون . [ب . ١ - ٦ - ١٠٣]

ان مكائد جيا ضد سيادة زوس ، تفشي غيظ ألوهية أولية تجاه العمل النشكوني أو بعث نظام جديد (ر . القصة الميزوبوتامية ق ٢١ع) . ومع ذلك ، فإنه بفضل جايا وأورانوس نجح زوس في المحافظة على سيادته ، بوضعه هكذا ، حداً نهائياً للوراثة العنيفة للعائلات الالهية .

٨٤ - انتصار زوس وسيادته .

في الواقع ان زوس ، بعد أن أهلك تيفون قسم السيادة على الأقاليم الكونية الثلاثة بالاقتراع . فعاد المحيط لبوزيدون ، وعاد الجحيم او عالم ما تحت الأرض الى هادس ، وعادت السماء لزوس ، وعادت الأرض والأوليمب لهم مجتمعين [اللياذة ١٥ ، ١٩٧] . وقد اتخذ زوس بعد ثذ سلسلة من الزيجات . فكانت زوجته الأولى ميتيس Métis (الفطنة) ولكنها عندما حملت بأتينا ابتلعها

زوس . وذلك لأنه كان اصغى لمشورة جيا وأورانوس ، عندما أنبأه بالولادة التالية « لولد بقلب عنيف كان ملك البشر والآلهة » [تيو . ٨٨٦] . واذن ، توطدت بفضل نصيحة الزوجين الأولين سيادة زوس بشكل نهائي . وازدواج ذلك فقد امتزج بشكل دائم بالفطنة (٧) أما بالنسبة لأتينا ، فإن ضربة فأس اخرجتها من جبهة والدها [تيو . ٩٢٤] . وتزوج زوس بعدئذ التيتانه تيميس Themis (الانصاف) وميموزين اورينونيه Mnémosyne Eurynoné (التي انجبت له ربات الفن التسعة) واخيراً تزوج هيرا [تيو ٥٠١] . ولكنه قبل ان يتزوج هيرا ، احب ديمتر Demeter التي علقت بيرسيفونة ، وليتو والدة التوام الالهى ابولون وارتميز [ت ٩١٠٠] . وقد كان له اضافة الى ذلك العديد من الصلات مع ربات اخرى ، واغلبهن من بنية محلية « ديا ، اوروبا ، سيميليه الخ » . ان هذا القرانات تعكس تعدد الزيجات المختلطة hierogames لآلهة العاصفة ، من آلهات الأرض . وان معنى هذه الزيجات المتعددة والمغامرات الايروسية هي دينية وسياسية معا .

ان زوس ، بامتلاكه للربات المحليات لما قبل الهيلينية ، والمقدسات منذ ازمنة موغلة في القدم ، قد حل محلهم ، وبعمله هذا طعم عملية التكافل والتوحيد الذي سيعيد للدين الاغريقي خاصيته المميزة .

ان انتصار زوس والأولمبيين لم يترجم بتبعثر الآلهة والمعتقدات القديمة ، ذات الأصل الماقبل الهليني في قسم منها . بل على العكس ، ان قسماً من التراث الموغل في قدمه انتهى ليندمج في النموذج الديني الأولمبي . وسنشير الى دور زوج أولي في مصير زوس . وسنقدم أمثلة أخرى ونكتفي بتذكر مشهد ولادة زوس وطفولته في كريت . انه بالتأكيد ، يتعلق بسيناريو اسطوري - شعائري ايجي مركز حول الولد الالهى ، ابن وحبيب ربة كبرى . وحسب التقليد الاغريقي فإن صراخات الوليد الجديد قد غطيت بالفرقة . التي صنعها الكوريت le Coretes بتصادم تروسهم « اسقاط اسطوري لجماعات مسارية ولشباب محتفلين برقصهم المسلح » . ان انشودة باليكاسترو palaikastro (القرن ٣ - ٤ ق . م) تمجد قفزات زوس ، الكوريت الأكبر (٩) « انه يتعلق على الارجح بشعيرة قديمة

للخصب » . وما هو اكثر من ذلك عقيدة زوس ايداوس Zeus idaios المجدة في مغارة بجبل ايدا وقد كان لها تركيب مسارة متعلقة بالاسرار^(١٠) وعليه ، فإن زوس لم يكن مطلقاً إلهاً للأسرار . وفي كريت أعلن فيما بعد عن قبر زوس ، فالإله الأولمبي الكبير كان اذن ممثلاً لأحد آلهة الأسرار التي تموت وتبعث .

ان التأثيرات الايجية تؤكد وجودها حتى في العصر الكلاسيكي ، وعلى سبيل المثال ، انها تميز في التماثيل المصورة لزوس شاباً وامرداً . ولكن ذلك يتعلق باستمرار حياة مقبولة ان لم تكن مشجعة بالعمليات الواسعة والتي لا يمكن نضوبها من التوفيقية » . ولأنه سبق لدى هوميرو ، أن استعاد زوس اعتبارات إله هندو-اوروبي حقيقي سام . فهو اكثر من اله (لسماء غير محدودة) انه « أب الأرباب والبشر » [الليازة ١ - ٥٤٤] وفي مقطع من (هيليداته ses helides يعلن أخيل : « زوس هو الاثير l'ether ، زوس هو الأرض ، زوس هو السماء . نعم ان زوس هو كل ما هو فوق كل شيء » . انه سيد العناصر الجوية ، انه يدير خصب الأرض وانه يدعى بصفته زوس اشتونيوس zeusehtonios عندما تبدأ اعمال الزراعة [هزيود - اعمال ٤٦٥] . وتحت اسم كيتزيوس Ktewios هو حامي المنزل ورمز الوفرة . انه يسهر على حقوق وواجبات الاسرة ويضمن احترام الشرائع ، وبصفته بوليوس polieus . يحمي المدينة ، ومن زمن اكثر قدما كان الها للطهارة زوس كازارزيوس zeus katharsios ، وكذلك إله العرافة وبخاصة في دودون ، وايير ، حيث كان يتم التنبؤ بواسطة « ورق الشجرة الالهي لبلوطة زوس الكبيرة » . [الأوديسة ١٤ ، ٣٢٧ - ٢٩٦١٩] وهكذا ورغم واقعة كونه ليس خالقاً للكون ، ولا خالقاً للحياة ولا للانسان ، فإن زوس يرتفع لمرتبة رئيس لامراء فيه للآلهة وسيد مطلق ، للعالم . ان اكثرية المعابد المكرسة لزوس تثبت خاصيته اليونانية pall-he'llenique^(١٢) . وان الاعتقاد بقدرته الكلية اشتهرت باعجاب بالمشهد الشهير من الليازة [٨ - ١٧] حيث اطلق زوس هذا التحدي الذي تحدى به الاولمبيين : « علقوا في السماء إذن ، حبلاً من ذهب وتعلقوا به جميعكم . أرباب وريبات : فلن تسحبوا زوس من السماء إلى الأرض ، السيد الاسمي ، مهما بذلتم من جهود . ولكن اذا آردت أنا ، بحرية اسحبها ، ان الأرض والبحر

في آن واحد سأسحبها معكم ، بعد ذلك سأربط الحبل بقمة الأوليمب ، والكل من أجل عنائكم ، سيطير على هوى الرياح . فطالما هو صحيح ، فلا حمله على الآلهة كما على البشر » .

ان التعبير الاسطوري (الحبل الذهب ، قد افسح مجالاً لا يحصى من التفسيرات منذ افلاطون ، عبر بزيديو دينيس pseudo Denys الاريوباجيت L' areopagyte وحتى القرن الثامن عشر /١٣/ . وما يعيننا هنا انه تبعاً لقصيدة اورفيه تسمى La theogonie rhapsquedio يطلب زوس من الربة الأولية نيز nyse [الليل] عن كيفية اقامتها « لسلطتها المتكبرة على الخالدين » وعلى الأخص كيف نظمت الكونcosmos بهدف ان « الكل يكون واحداً ويكون الأجزاء المتميزة ؟ » . فأرشده الليل عن أسس علم الأكوان ، وحدثه ايضاً عن الحبل الذهبي الذي يجب ان يربطه بالاثير^{١٤} . انه يتعلق ، بالتأكيد ، بنص متأخر ، ولكن التقليد الذي يقرره هو تقليد قديم . ان الالياة [١٤ - ٢٥٨] تبرز الليل كربة قادرة : زوس نفسه يتحاشى اغضاها . ومما له دلالة ان الاعلان الشهير لكلية القدرة لزوس يقرب المواجهة الماثرة من قبل السيد الأعلى لألوهة اولية . وتكرر التوجهات الكوزمولوجية لليل بنوع ما اعلان جيا Gaia واورانوس الذي وضع حداً نهائياً . للنزاعات من أجل السيادة .

وكما سبق ولاحظنا فإن بعض الآلهة الأولية قد استمرت بالحياة بانتصار الأوليمبيين . فبدتياً . ان الليل ، الذي ذكرنا بقوته واحترامه ، تم (بونتوس ، pontos (البحر الغير مخصب) ، وسيتيز steyse الذي ساهم بالمعركة ضد التيتان ، وهيكايتة المكرمة من قبل زوس والأوليمبيين الآخرين . أوقيانوس okeqnus الوليد الأول بين ابناء جيا واورانوس . كل واحد منهم كان يلعب دوراً - متواضعاً غامضاً ، هامشياً - في اقتصاد العالم . وعندما شعر زوس بسلطته الموطدة نهائياً ، حرر اباه كرونوس من سجنه تحت الأرض ونصبه ملكاً في بلاد خرافية - جزر السعداء في اقصى الغرب .

٨٥ - اساطير العروق الأولى - بروميتيه - باندورا :

لن يعرف « تاريخ » كرونوس مطلقاً . انه بالتأكيد إله قديم ، بدون عقيدة ، تقريباً ، وتشكل اسطورته الوحيدة الهامة مشهداً من التيوماش La theomachie مع ذلك ، فإن كرونوس مرتبط بعلاقة مع العرق البشري الأول « العرق الذهبي » la raced'or وهذه الاشارة هامة : انها تكشف لنا البدايات والمظهر الأول للعلاقات بين البشر والآلهة . وحسب هزيود « ان للآلهة والفانين اصل واحد » [الأعمال - ١ - ٨] لأن البشر ولدوا من الأرض (gegeneis) تماماً كما أن الآلهة الأولى قد تولدوا من جيا . وباختصار ، ان العالم والآلهة اتوا الى الوجود بانشطار بدئي متبوعاً بعملية انسال . وكما انه كان يوجد مجموعة أجيال الهية ، كذلك كان يوجد خمسة عروق من البشر : عروق الذهب والفضة والبرونز وعرق الابطال وعرق الحديد [الأعمال - ١٠٩] .

وعليه فإن العرق الأول كان يعيش تحت حكم كرونوس [تيو ٣٠٠] أي قبل زوس . هذه البشرية من العصر الذهبي ، هي ذكورية حصراً ، سكنت بالقرب من الآلهة « اشقائها الأقوياء » . وكان البشر « يعيشون كآلهة ، قلوبهم متحررة من الهموم ، وبمنجاة من الآلام والاحزان » [تيو . ١ - ٥٠] . لم يكونوا يعملون ، لأن الأرض كانت تقدم لهم كل ما هم بحاجة اليه . حياتهم كانت تمضي بالرقص والاعياد والمسرات من كل نوع . ولم يكونوا يعرفون لا الامراض ولا الشيخوخة ، وعندما كانوا يموتون كانوا كما لو أنهم مستغرقون في نومهم [الأعمال ١٣٠٠] .

غير ان هذا العصر الفردوسي - الذي نجد موازياته في عدد من التقاليد - اخذ نهايته ، بسقوط كرونوس .

ويروي هزيود بعدئذ ان بشر العصر الذهبي (قد تذرثوا بالارض) ، فانتخب الآلهة عرقاً أقل نبلاً ، هو بشر عصر الفضة . وهؤلاء بسبب ذنوبهم

وايضاً لأنهم لم يشاؤا ان يضحوا للآلهة ، وهم رجال عنيون محبون للحرب والذين انتهوا نتيجة القتال فيما بينهم حتى الاخير . فخلق زوس جنساً جديداً ، الابطال ، الذين اصبحوا مشهورين بفضل معاركهم العظيمة ، أمام طيبة وطروادة . كثيرون منهم ذاقوا طعم الموت ، ولكن الآخرين استقروا بواسطة زوس على اطراف الأرض في «جزر السعداء» وقد نصب كرونوس نفسه ملكاً عليهم [الأعمال - ١٤ - ١٦٩] . ولم يتكلم هزيود عن خامس وآخر عرق ، هو عرق الحديد ، ولكنه أسف لأنه قدر له ان يولد في هذا العصر [الأعمال - ١٧٦] .

ان التقاليد المعروفة من قبل هزيود تطرح العديد من المسائل ، ولكنها جميعها لا تعنى موضوعنا هنا . وان اسطورة (كمال) البدايات) والنعيم الأولي ، المصاغة بعد حادث او ذنب هي اسطورة منتشرة . والمفارقة التي صنعها هزيود تؤكد ان التدهور يتم تباعاً ، في اربع محطات ، وهذا ما يذكركنا بالمذهب الهندي لليوغا yugas الاربعة . بيد انه مع الكلام عن الوانها - ابيض - احمر - أصفر - أسود - فإن اليوغاسي ليست مشاركة بالمعادن . بل بالعكس ، توجد المعادن بصفاتها كعلامات مميزة لعصور تاريخية في حلم نبوختنصر [سفر دانيال ٢ : ٣٢ - ٣٣] . وفي بعض النصوص الايرانية المتأخرة ، ولكنه ، يتعلق في الحالة الأولى بعائلات ملكية وفي الحالة الثانية بتوارث امبراطوريات مطروح في المستقبل .

وقد اوجب هزيود ادخال عنصر الابطال بين جنس البرونز وجنس الحديد ، لأن ذكرى الاسطورة من العصر الخرافي البطولي كانت قوية جداً ولا يمكنه ان ينساها . ان عصر الابطال يقطع ، بطريقة غير قابلة للتفسير ، عملية التدرج العنيف المنطلق مع ظهور عصر الفضة . مع ذلك ، فإن المصير المتميز للابطال يمويه بشكل اخروية بشكل سيء : لا يموتون وانما يتمتعون بوجود ناعمي في جزر السعداء الاليزيوم l'Elyzium حيث يحكم كروفوس الآن . وبعبارة اخرى ان الابطال يستعيدون ، في معيارما ، الوجود البشري للعصر الذهبي تحت حكم كرونوس . ان هذه النظرية المتعلقة بالآخرة ستتشر فيما بعد بشكل واسع وبصورة خاصة تحت تأثير الأورفية . فالجنة l'Elysee لن تكون ابداً الامتياز المحجوز

للآلهة ، وانما ستصبح قابلة لامكانية الحصول عليها من قبل ارواح الاتقياء
والمسارين Initi es انه يتعلق بعملية مألوفة في تاريخ الاديان [مصر . الهند . . . و
٣٠* الخ] .

ويجدر ان نضيف أن اسطورة العصور المتتابعة لا تمثل الرأي الشامل المتعلق
بأصل البشر . وفي الواقع ، ان مسألة دراسة المجتمعات البشرية لا تبدو أنها
شغلت اليونانيين : كانوا على الاكثر ، مهتمين بالأصل لبعض تجمع اثني ،
المدينة ، ولأسرة . ان عدداً من العائلات كانت تعتبر متحدرة من ابطال ، كانوا
بدورهم متحدرين نتيجة قران بين آلهة وفانين . وبعض الشعوب (الميرميدون)
Les mermidons متحدرة من النمل ، وبعضها من شجر الدردار . وبعد
الطوفان ، اعاد دكاليون اسكان الأرض بـ «عظام أمه» أي بـ «الحجارة» .
واخيراً . وحسب تقليد متأخر (القرن ١٧) . فإن بروميتهه promethee صنع البشر
من الصلصال

ولأسباب مجهولة ، فإن الآلهة والبشر قرروا ان ينفصلوا عن بعضهم حيناً
في ميكونية mokone (تيو . . . ٥٣٥) . لقد قدم البشر الأضحية الأولى بهدف
ان يثبتوا بطريقة نهائية علاقاتهم مع الآلهة . وبهذه المناسبة تدخل بروميتهه لأول
مرة / ١٠ / . فقد ضحى بثور وقسمه قطعتين . ولكن ، وكما انه اراد حماية
البشر ، وبذات الوقت خداع زوس ، غطى بروميتهه العظام ثانية بطبقة من
الدهن ، كما غطى المعدة والاحشاء واللحم بهذا الدهن . وقد اختار زوس من
اجل الآلهة ، منجذباً بالدهن ، الحصاة الاكثر فقراً ، تاركاً للبشر اللحم
والاحشاء . ويؤكد هزيود انه من أجل هذا ، ومنذئذ يحرق البشر العظام كتقدمة
للآلهة الخالدة [تيو ٥٥٦ ٠٠٠]

لقد كان لهذه القسمة المتميزة نتيجتان مرموقتان بالنسبة للبشرية . فمن جهة
كانت اعلاء لنظام أكل اللحوم ، بصفته كعمل ديني غموضي ، وتكريم أعلى
مقدم للآلهة ، الا انه في آخر المطاف قد ادخل ترك التغذية النباتية التي كانت
تمارس خلال العصر الذهبي . من جهة اخرى ، ان حيلة بروميتهه ، اثار زوس

ضد البشرية ، فسحب منهم استعمال النار . ١٧ ولكن المحتال بروميتيه استعاد النار من السماء باخفائها في تجويف سوط [تيو ٥٦٧ . ٥٢] . وقرر زوس الخارج عن طوره ان يعاقب البشر وحاميهم معا . ف قيد بروميتيه وسلط نسرا عليه ينهش يوميا « كبده الخالد » الذي يعاود تكوينه ليلاً [تيو . ٥٢٠] . وفي احد الأيام اعتق من قبل هرقل ، ابن زوس ، كي يسمو مجد البطل ايضا .

أما بالنسبة للبشر ، فإن زوس أرسل لهم المرأة (هذه المصيبة) [تيو ٥٨٥] تحت شكل باندورا (الممثلة لكل الآلهة) « احبولة عميقة وبدون بداية مقدرة للبشرية » بهذا يعبر هزيود « لأنه من هذه خرج جنس الطبقة المحترقة الملعونة من النساء ، كارثة مرعبة مستقرة وسط البشر الفانين » ١٨ .

٨٦ - نتائج الاضحية الأولية .

واجمالاً . وبعيد عن ان يكون بروميتيه محسناً للبشرية ، فإنه هو المسؤول عن سقوطها الحالي . وفي ميكونه mekone رتب الفصل النهائي بين البشر والآلهة . وباختلاسه للنار فيما بعد اغضب زوس وحرص على تدخل باندورا ، أي ظهور المرأة ، وبالنتيجة ، انتشار كل انواع الهموم والاضطرابات والآلام . وتفسر اسطورة بروميتيه عند هزيود اقتحام الشرفي العالم ، وفي آخر المطاف ، فإن الشر يمثل انتقام زوس/ ١٩ / . غير ان هذه الرؤية المتشائمة للتاريخ البشري المدان نجدية احد التيتان لم تفرض نفسها بشكل نهائي . فبالنسبة لأخيل ، Echyle الذي يبدل مسألة التقدم لاسطورة العصر الذهبي الأولى ، ان بروميتيه هو اكبر بطل حضاري ، ان بروميتيه يؤكد « ان البشر الأوائل كانوا يعيشون » تحت الأرض ، في قاع المغاور المغلقة عن الشمس « انهم لم يكونوا يعلمون حتى دورة الفصول ، ولا تدجين الحيوان ولا الزراعة ، وان بروميتيه هو الذي لقنهم كل الصناعات وكل العلوم [بروميتيه مقيدا ٤٤٢ س ق] . انه هو الذي اعطاهم النار ٢٠ واعتقهم من الخوف من الموت [ذات المرجع ٢٤٨] . ان زوس غيرة من كونه ليس صانع هذه

الأمر للإنسان فقد أراد إبادتها من أجل أن يخلق غيرها [٢٩٣ ذات المرجع] وبروميتيه وحده جرؤ لمعارضة مخطط سيد العالم . ومن أجل تفسير غضب زوس وعناد بروميتيه اعار اخيل بندار الذي اضاف تفصيلاً مأوساياً : لقد حاز بروميتيه على سلاح رهيب ، وبصورة خاصة السر الذي اوصلته له والدته تيميز themes وهذا السر كان يتعلق بالسقوط المحتم لزوس ٢١ في مستقبل قريب او بعيد [٥٢٢ - ٧٦٤] وقد اعلن التيفان بتشدق ان زوس ليس امامه سوى امكانية واحدة لتجنب هذه الكارثة : ان يعتقه من اصفاده [٧٦٦ - ٧٠] وكما ان الجزئين الأخيرين من الثلاثية المأساوية بروميتيد Prometuide لم يحافظ عليهما ، فإننا لا نعلم كيف ان الخصومة بين الزوجيين الإلهيين قد تحققت بالتوفيق بينهما . الا انه في القرن الخامس ، في آثينا ، كان لبروميتيه عيد السنوي ، وكان اضافة الى ذلك مشاركا لهيفسيوس Hephysios وآثينا . . ومن جهة اخرى يمكن ، تحت تأثير بعض الحركات الروحية التي شغفت النخبة المثقفة اضافة الى جمهور الشعب ، كان هنالك اصرار منذ زمن على حكمة وطنية زوس . فلم يندم السيد الأعلى فحسب ، بوضعه كرونوس ملكا في الاليزيه وانما عفا عن التيتان . ويعلن بندار ان « زوس الخالد قد اعتق التيتان » [المقطع ٤ - ٢٩١] وفي بروميتيه طليقاً ، تشكلت الجوقة من قبل التيتان المحررين من اصفادهم « (٢٢) » .

إن اقتسام أول ضحية تضحية في ميكونيه mekone قد ترجمت ، من جهة بالانقطاع بين الآلهة والبشر ، ومن جهة اخرى بالادانة لبروميتيه . مع ذلك فإن سخط زوس يبدو حاداً جداً ، لأن هذه القسمة الشعائرية كما برهن على ذلك كارل مولي karl moli ، تناسب الاضاحي المقدمة للآلهة السماوية من قبل الصيادين البدائيين في سيبيريا ومن قبل الشعوب الرعوية في آسيا الوسطى . وفي الواقع ، فإن هذه تقدم الى الكائنات العليا ، العظام ورأس الحيوان . وبعبارات أخرى ، ان ما كان يعتبر تكريماً ممتازاً لإله سماوي في مرحلة قديمة من الثقافة ، قد غدا في حركة بروميتيه جرم قدح في الذات الملكية ، ضد زوس ، الاله الأعلى . ومن غير المعلوم في أية فترة حصل هذا الانعطاف بالمعنى الشعائري الأصولي . ويبدو ، على الأغلب ، ان حنق زوس كان قد اثير ليس بالقسمة بذاتها ، وانما

بالفعل الذي دبره بواسطة بروميتيه ، وبعبارة أخرى بواسطة تيتان ، عضو من (الجيل القديم) الالهي الذي فضلاً عن ذلك ، كان قد أخذ جانب البشر ضد الاوليمبيين . ان مثال بروميتيه كان يمكن له ان يحصل على نتائج مزعجة ، فالبشر المشجعين بهذا النجاح الأول امكنهم المزايدة على التيتان . ولكن زوس لم يتسامح مع بشرية قوية ومتكبرة . وعلى البشران لا ينسوا ابدأ طريقة وجودهم الأولية والموقنة . وعليهم بالنتيجة حفظ مسافة حدودهم .

وفي الواقع ، وبعد زمن متأخر ، قدم دوكاليون ابن بروميتيه وهو الوحيد الناجي من الطوفان الذي اثاره زوس ، قدم اليه اضحية شبيهة بالاضحية التي قدمت في ميكونيه وقد رضي . « استقبل زوس الطلب من دوكاليون مع التقدير ، ولكن الاسطورة تشير الى انه رضى ضمن المقياس الدقيق بحيث تبقى المسافة قائمة » .^(٢٤) منذئذ تكرر الاضحية الأكثر شيوعاً (لا تيزيا la thysia) هذا النموذج الاسطوري : قسم من الضحية ، متضمناً الشحم ، يحرق على المذبح ، والقسم الآخر يستهلك من قبل اولئك الذين يقدمون الضحية مجتمعين مع رفاقهم^{ك٢٥} . وللآلهة ايضاً حضورها : انها تتغذى من الاضحيات [الايادة ١ - ٤٢٣ - ٢٤ - ٨ - ٥٤٨ - ٥٢ الخ] أو من دخانها المثار من الشحم ت[الايادوه ٦٦ - ٦٧ - الخ] .

إن الانقطاع الحاصل في ميكونيه ، قد أعيد تحقيقه ، نوعاً ما ، بفضل وبدقة دوكاليون . وان اولاد بروميتيه اقاموا الآلهة في الشروط التي تناسب زوس . « من جهة أخرى فان البشرية المعاصرة في القسمة المقدورة قد هلكوا في الطوفان » وان مما له دلالة ، ان بروميتيه ، بعد اخيل ، قد لعب دوراً متواضعاً ، ان لم يكن مطموساً . ومن الممكن ان النجاح حتى للبروميتيه DELE Promelheite قد ساهم في هذا الوضع . لأن اخيل اذا كان قد مجد العظمة الوحيدة لهذا البطل المحضر والحامي للبشر فإنه قد أبرز أيضاً طيبة زوس والقيمة الروحية للمصالحة النهائية ، المستعيلة بكونها نموذجاً مثالياً للحكمة البشرية . فبروميتيه لن يجد قوامه السامي - ضحية ابدية للطغيان - الامع الرومانسية الأوروبية .

ففي الهند تركب التأملات حول الاضحية نشكونية مميزة وتفتح الطريق لمتافيزيك وتقنيات يوجية (ف . ٧٦*) . وعند العبرانيين تشرح وتقوم الاضاحي الدموية باستمرار ، حتى بعد نقد الانبياء ، اما في المسيحية ، فإنها ستتشكل بدءاً من التضحية الاختيارية للمسيح . أما الأورفية والفيثاغورية فإنها باصرارهما على الفضائل من نموذج نباتي اعادتا الاعتراف ضمناً (بالخطيئة) المرتكبة من قبل البشر لقبولهم قسمة ميكونية . مع ذلك ، فإن عقاب بروميتيه لم يلعب سوى دور ثانوي في التأملات حول عدالة زوس . وعليه فإن مسألة (العدالة) الالهية مع رديفها / القدر / الانساني قد شغلت الفكر الاغريقي منذ هومر .

٨٧ - الانسان والقدر - معنى (الفرع بالحياة) :

ان الدين الاغريقي - منظوراً اليه في المنظور اليهودي المسيحي - يبدو انه تشكل تحت علامة من التشاؤم : الوجود بتعريفه زائل ومثقل بالهموم . وقد قارن هومر الانسان بـ « اوراق تذروها الريح على الأرض » [الباذة - ٦ - ١٤٦] .

وقد اعيد استعمال المقارنة من قبل الشاعر ميميرم الكولوفوني (القرن السابع) mimmerem le clofone ففي احصائه الطويل للآلام ، فقر ، امراض ، احزان ، شيخوخة الخ . . . وجد « لا يوجد انسان لم يرسل اليه زوس ألوف الآلام » . وبالنسبة لمعاصر سيمونريد Semonride ان البشر « مخلوقات ليوم » يعيشون كالقطيع « غير عارفين على أية طريق سيقود الاله كل واحد منهم الى مصيره »^(٣٦) . ان احدى الامهات دعت ابولون ان يثيب تقواها بأن يمنح ولديها منحة كبرى من قوته ، فقبل الاله ، وعلى التواختق الولدان دون عذاب (هيرودوت ١ - ٣١ - ٥٠) . وأعلن تينوجي كما أعلن بندار وسوفوكل ، أن أحسن مصير بالنسبة للبشرية ، سيكون عدم الولادة ، واذا ولد المرء مرة ان يموت بالسرعة الممكنة .^(٣٧)

ان الموت - على الأغلب ، لن يحل شيئاً ، لأنه لا يوصل الى الفناء الشامل والنهائي ، وبالنسبة لمعاصري هومير ، ان الموت كان وجوداً متأخراً منقوصاً ومذلاً في الظلمات تحت الأرض من هاديس المسكونة بالظلمات الصفراء المجردة من القوة والذكرى . (اخيل ، الذي نجح او ليس في استحضار شبحه يعلن بأنه سيفضل ان يكون على الأرض عبداً لرجل عادي « من ان يكون ملكاً على كافة الموتى »^(٢٨) . من جهة اخرى ، ان الخير المنجز على الأرض لم يثاب عليه ، وان الشر يعاقب عليه . ان المدانين الوحيدين بالعذابات الأبدية كانوا ايكيسون ، تانتال ، سيزيف ، لأنهم كانوا قد شتموا زوس بشخصه .

واذا كان مينيلاس menelas . لم يسقط الى الهادس ، وانما نقل الى الأليزيه ، فإن ذلك لكونه ، بزواجه من هيلين ، أصبح صهر زوس ، وحسب التقليد المنقول من قبل هزيرود [ف . ٨٥*] . فإن ابطالا آخرين يتمتعون بذات المصير . ولكن ذلك يتعلق بكائنات ذات امتيازات .

ان هذا المفهوم التشاؤمي طرح قدريا عندما وعى الاغريق عرضية الشرط البشري . فمن جهة ، ليس الانسان بالمعنى الدقيق ، المخلوق من الوهية (فكرة مشتركة في عدد من الاديان القديمة وبالاديان التوحيدية الثلاثة) ، وبالنتيجة ، لا يتجاسر ان يأمل في ان تستطيع صلواته اقامة صميمية مع الآلهة . ومن جهة اخرى ، هو يعلم ان حياته قد سبق تقريرها بالقدر ، la maira ou l'aisa ، « المصير » او « النصيب » الذي انيط به - أي ، اجمالاً ، الزمن الممنوح له حتى موته .^(٢٩) . وبالنتيجة فإن الموت كان مقرراً منذ لحظة الولادة ، وان مدة الحياة مرموز لها بالخيط الذي نسجته الآلهة ٣٠ . مع ذلك فإن بعض العبارات مثل « MOIRUDES » [اوزيه ٣ - ٢١] أو « OISADE ZEUS » [اليازدة ٧ (٣٢٢ - ٥٢)] تجعل من المفهوم ان زوس نفسه يحدد الاقدار . ومن حيث المبدأ انه يستطيع تغيير المصير كما استعد ليفعل في حالة ولده سار بدون sarpedon [اليازدة ١٦ - ٤٣٣] - [في الفترة التي وصلت فيه حياة هذا الى حدها . ولكن هيرا جعلته يلاحظ ان اشارات مماثلة سيكون لها كنتيجة الغاء قوانين الكون - أي العدالة (١dike) - واعطاها زوس الحق بهذا .

ان هذا المثل يظهر ان زوس ذاته كان يعلم سمو العدالة ، ومن جهة فإن /ديك/ العدالة/ ليست سوى المظهر الحسي في المجتمع البشري ، للنظام الشامل ، وبعبارة اخرى للقانون الالهي (تيميز themi . ان هزيود يؤكد ان زوس قد كافأ البشر بالعدالة ، ويهدف ان لا يتصرفوا كحيوانات متوحشة . فالواجب الأول للانسان ان يكون عادلاً وان يثبت انه شريف (تيميه time) تجاه الآلهة ، وبخاصة ان يقدم لها الاضحيات . من المؤكد ان معنى العبارة Dke عدالة ، قد تطورت عبر القرون التي تفصل هومير عن اوريديس ، وهذا الاخير لم يتردد في ان يكتب : « اذا كانت الآلهة تفعل كل ما هو قبيح (أو : دون) فليست هي بالآلهة ! » [فقرة ٢٩٢ من البيروفون] . وقبل اوريبيديس كان اخيل قد أعلن ان زوس لا يعاقب الأبرياء (اغاممنون ٧٥٠] . ولكنه سبق في الالبازة ان اعترف بزوس حاميا /لديك/ طالما انه هو الذي راعى المواثيق وحمى الغرباء ، والضيوف والمبتهلين^(٣١) ، والخلاصة ، ان الآلهة لا تضرب البشر بلا سبب ، مهما طال الوقت الذي لا ينتهك فيه القانون الحدود المقررة بطريقتهم في الوجود . الا انه من الصعب ان لا تنتهك الحدود المفروضة ، لأن المثل الأعلى للانسان هو « السمو » (ARETE) . وعلى ذلك فإن السمو المفرط يخاطر بآثاره الفخر اللامحدود والوقاحة التي حصلت لأجاكس Ajax ، عندما فاخر بافلاته من الموت رغماً عن الآلهة ولكنه كان عرضة للفتك به من قبل بوزيدون [افرنسية ٤ - ٤٩٩ - ٥١١] ان الوقاحة (hy Bris تثير جنونا آيناً (ATE) يعمي الضحية ويقودها للكارثة ،^(٣٢) . وهذا يعيد الى القول بأن الوقاحة (LYBRIS) وصلتها ، الجنون الموقت ATE . هما الوسيطتان اللتان تتحقق بهما في بعض الحالات (ابطال ملوك مغامرون الخ . .) الموارد LA MOIRA أي نصيب الحياة الممنوحة منذ ولادة هؤلاء الفانين الطماعين او ببساطة المخدوعين بالمثل الأعلى «للسمو» .

وفي آخر المطاف ، لا يتصرف الانسان الا في حدوده الخاصة ، هذه الحدود المعنية له بشرطه البشري ، وبخاصة بنصية sa moira ، ان الحكمة تبدأ مع الشعور بالنهاية ، وبالوقتية لكل حياة بشرية . انه يقتضى اذن ، الافادة من كل ما يستطيع ان يقدمه الحاضر : شباب صحة افراح طبيعية ، او مناسبات لانماء

الفضائل . وهذا هو درس هومير : عش بالكلية Vivretoutalement ، ولكن بشرف ، في الحاضر . من المؤكد ان هذا المثل الأعلى المنبثق من اليأس ، قد عرف تحولات ، وستفحص فيما بعد اكثرها اهمية ، ولكن الوعي بالحدود المقدرة سلفاً ، والوعي بسرعة عطب الوجود لم تمنح ابداً . وبعيداً عن كبح القوى الخلاقة للعبقريّة الدينية الاغريقية ، قادت هذه النظرية المأساوية الى اعادة تقييم متناقض للشرط الانساني . فطالما ان الالهة اجبرته على ان لا ينتهك حدوده ، فإن الانسان قد انتهى ليحقق الكمال وبالتالي القداسة للشرط الانساني . وبعبارة اخرى ، انه اعاد اكتشاف واكمال المعنى الديني (فرح العيش ، وقيمة شعائرية اسار التجربة الايروسية ، وجمال الجسد البشري ، والوظيفة الدينية لكل استمتاع جماعي منظم - مواكب ، العاب ، رقص ، اغاني ، مباريات رياضية ، مشاهد مسارح الخ . ان المعنى الديني لكمال الجسد الانساني - الجمال الطبيعي ، انسجام الحركات ، الهدوء الصفاء - اهتم القانون الغني . وان تجسيد الالهة اليونانية بالشكل البشري ، كما فهمت في الاساطير وفيما بعد ، اصبحت متقدمة بعنف من قبل الفلاسفة ، وستجد معناها الديني في التمثال الالهي . ومن التناقض ان يعلن دين عدم امكانية ردم المسافة بين العالم الالهي وعالم الفانين ، ثم يجعل من كمال الجسم البشري التمثيل الاكثر جمالاً للالهة .

ولكن هذا هو بصورة خاصة التقييم الديني للحاضر الذي تقتضي الاشارة اليه . فالواقع البسيط للوجود ، وللعيش في الزمن ، يمكن له ان يلائم مسافة دينية . وهذه المسافة غير واضحة دائماً . طالما ان القداسة هي بنوع ما (محوّة) في المباشر وفي (الطبيعي) واليومي . ان « فرح العيش » المكتشف من قبل الاغريق ليس متعة من نموذج دنيوي : انه يكشف السعادة بالوجود ، والمساهمة - حتى بطريقة هاربة - بعفوية الحياة وعظمة الكون . وكالعديد غيرهم من قبل ومن بعد ، فإن الاغريق قد تعلموا بأن اكثر وسيلة ثقة للخلاص من الزمن ، هي باستثمار الثروات للحظة المعاشة ، التي تبدو للوهلة الأولى غير قابلة للشك .

ان تقديس النهاية البشرية وتفاهة « الوجود العادي » يشكل ظاهرة مألوفة نسبياً في تاريخ الاديان . ولكنها في الصين بصورة خاصة وفي اليابان من الألف

الأولى حتى عصرنا كان اصفاء القداسة على الحدود ، والظروف « - مهما كانت طبيعتها - قد مس بالسمو وأثره بعمق في الثقافات المتتالية . وتماها كما هو في اليونان القديمة قد ترجم هذا التحول من « المعطى الطبيعي » بانبثاق جمالية خاصة (٣٣) ...

حواشي الفصل العاشر

- ١ - ولكن Taia فيما سبق حملت لوحدها الجبال والبحر العقيم والحوريات .
- ٢ - ان اخطاء اورانوس توضع مع كونها طريقة وحشية ، الاتجاه من الالهة الخالقة لأن تتراجع للسما وتصبح آلهة حيادية بعد ان اكملت مهمتها الكونية .
- ٣ - عائلة هزيود الالهية - m.Wat.
- ٤ - عائلة هزيود الالهية - m. Wat.
- ٥ - يذكر ابومودور (١-٦-م) ان قبران يغلب رنحج تيغون في سرقة كعبي زوس وهذا يعيد إلى الذاكرة مشهداً من اسطورة حثية : معركة اله العاصفة والحوت اللوياني (ف - ٤٥) .
- ٦ - بل يمكن ايضاً تفسير غضب رجبيا ، كانعكاس ضد عنف وقسوة زوس .
- ٧ - على المستوى الميثولوجي يفسر هذا المشهد التحول الخارجي لزوس والمصدر / لحكمته /
- ٨ - ٩ - حول زوس الكريتي انظر : شارل بيكارد (الاديان قبل الهيلينية ص ١٧٠)
- ١٠ - اوريبيديس فقرات من / الاعمال /
- ١١ - في البحر المتوسط الشرقي ستسمح هذه العملية بادخال الارث الروماني الهيليني والايرواني في الكنيسة الامبراطورية البيزنطية وبعدئذ تحفظات واستنتاجات بيزانطية . . . وبعدئذ عشانية
- ١٢ - لقد عبد في كل مكان في اليونان ، وبخاصة فوق قمم الجبال الاكثر ارتفاعاً وبصورة خاصة في الأوليمب وفي اثينا وحتى في كريت واسيا الوسطى وفي الغرب .
- ١٣ - حول ترجمة هذا الحبل انظر دراسة الياد . (جبال وألعاب)
- ١٥ - يمكن ان يبدو متساقطاً ان الاله المتوحش الذي ابتلع ابنائه منذ ولدوا قد حكم دوما حسب هزيود في العصر الفرودي للبشرية ، ولكنه يجب ان لا ينسى ان كرونوس في انساب الالهة

يعكس تأثيرات شرقية قوية وانه من المدهش ان الالهة مثلوا (كاشقاء اقوياء) للبشر . إن قولي هذا والرأي العام يبرز الفرق الجذري لنظام الانطولوجيا بين الالهة والبشر ، ولنؤكد ان التمييز الاساسي كان يوجد سابقاً في العصر الذهبي . فالبشر كانوا يتمتعون بالسعادة وبصداقة الالهة ولكن ليس بالخلود . ومن جهة أخرى فإن الالهة كانوا ينتمون إلى الجيل الثاني الالهي أي التيتان . وبعبارة أخرى فإن بنیان الكون وطرائق الوجود لم تكن بعد قد تحدت بدقة .

١٧ - هذا ما ابطل مكاسب انفسهم ، لأنهم مكرهون لالتهام الشحم وفي عدم القدرة للتضحية الإلهية ، فإن البشر اعادوا ادخال شرط الحيوانات المتوحشة .

١٨ - عبثاً حكم بروتيديد شقيقه أن لايقبل شيئاً من زوس ولكن الأحق بروبييمتيه استقبل بانديورا وتزوجته . وبعد قليل من الوقت فتحت الجرة السرية حيث انطلقت كل الشرور التي انتشرت في العالم وعندما اعدت بانديورا الغطاء كان الأمل وحده ما زال باقياً في قعر الجرة ولاحظ (لوفيك) « ان هذا بحق هو ما أراد زوس الغاضب حصره أبدياً بالانسان (بالعمل الشاق) ولهذا أدخل الأمل في الاناء الذي يغذي الجهود العابثة للفانين » - آلهة اليونان الكبرى ص ٥٤٠ .

١٩ - هزيود هو مصنف ، فمنذ اليوم الذي رؤى فيه زوس رؤي مخدوعاً من قبل بروتييه ومنذ ذلك اليوم يحضر الموم المؤلة .

٢٠ - لم يعدها لهم ، كما عند هزيود ، يحمله لها من السماء « وأخيل ترك مشهداً يتوافق مع نغمة المأساة والذي سيمكن له انقاص الاحترام للبطل » - اسطورة بروتييه ص ١٢٠

٢١ - حول مصدر وتطور هذا الباعث أنظر (سيشان) ص ٤٢

٢٢ - حول مصدر وتطور هذا الباعث أنظر (سيشان) ص ٤٢

٢٣ - K.meuli

٢٤ - رودرهات (الأساطير اليونانية بالنسبة للاضحية) ص ١٤ . من جهة أخرى فإن زوس لم يحب معاشره دوكاليون ارسل هرمس لمعرفة ماذا يريد .

٢٥ - المشابه الاكثر قرباً هو الذبيحة Zebah للعبرانيين (ق ٥٧٠)

٢٦ - الشعراء الايونيون يبدون مرعوبين بالتعاسة والامراض والشيخوخة ، التعزيات الوحيدة الممكنة لهم - الحرب والنصر - والتمتع الناتج عن الثروة .

٢٧ - بذار ١٥٧ - سوفوكل - اوديب - تيوموني ٤٢٥ - ٢٨ .

٢٨ - الاوديسة (١١ - ٤٩٩ - ٩١) كلام أصبح شهيراً ولكنه سيحدث بوقت متأخر الانتقاد القاسي من سقراط - أفلاطون الجمهورية (٣٨٦ - ٣٨٧) .

٢٩ - المعنى لعبارتي موارد ais'a و moira تغير منذ هومير ، هذه القوى الشيطانية تقريباً التي تدفع

- البشر إلى انعدام العقل ، قد تشخصت بعدئذ واصبحت ثلاث ربات *les br'us maitruis* ظهرت لأول مرة عند هزيود وهن بنات زوس وتيمس
- ٣٠- في البدء كان الغزل قد صنع من الآلهة أو الشيطان واما بواسطة *maru'e* . ولكنه في النهاية ، كما في تقاليد أخرى هندو- اوروبية ولكنها شرقية ايضاً فإن الغزل للمقدر عليهم أصبح التابع للنساجين أو *de mai'sai* وانظر : (نسج المصير لأحدهم) ربطه . وبعبارة أخرى تعني عدم التحرك من مركز يستحيل تغييره .
- ٣١- عدالة زوس - ص ٦٠ - وهو نموذج الملك بصفته مسؤولاً عن اتباعه وهو الحامي بقوة لحقوق وعادات تقليدية وبعبارة أخرى هو ملزم لاستعمال *al Dik* .
- ٣٠- عندما قال هيرودوت (١ - ٣٠) قال لسومون : (أعلم ان الآلهة خاضعة للجسد ولعدم الاستقرار) وقد انتقد بصورة خاصة عدم الذكاء لأولئك الذين نسوا الشرط الانساني وتركوا العنان لأنفسهم لاساءة الاستعمال بواسطة *L'hybris* .
- ٣٣- انظر ما سيلي من هذا الكتاب ..

الفصل الحادي عشر

الأوليمبيون والأبطال

٨٨ - الاله الكبير المخلوع والحداد - الساحر : بوزيدون وهيلفيستوس

إن بوزيدون Poséidon هو اله قديم كبير ، وقد أضاع سيادته العالمية الأصلية ، لعدد من الأسباب^(١) . وفي كل مكان توجد آثار عظمتها السابقة ، ويبدو ذلك من اسمه الذي فسره أحد العلماء بأنه يعني «زوج الأرض» posis Das . في اليازة [١٥ - ٢٠٤] أن زوس أكبر منه ، ولكن هزيود يعكس بالتأكيد تقليدا أكثر قدما مظهراً زوس وكأنه الأصغر سنا [تيو . ٤٥٦] . على كل حال ، فإن بوزيدون وحده تجاسر بالاحتجاج ضد سوء استعمال زوس لسلطته ، مذكراً إياه بأن ميدانه الخاص محدد في السماء^(٢) . ويمكن أن يكتشف في هذا التفصيل ، الذكرى عن مقاومة إله سيد قديم ضد صعود اله أكثر قوة وأكثر غنى .

ان بوزيدون بحصوله على السيادة على البحار ، نتيجة اقتسام العالم ، أصبح إلهاً هو ميريا حقاً ، ومع التسليم بأهمية البحر بالنسبة للمهليينيين ، فقد كان واثقاً بأنه لن يفقد أبداً نشاطه الديني ، مع ذلك ، فان بنيته الأولية قد تغيرت جذرياً ، وان الأثر الأسطوري - الديني الشمالي الذي كان قد جاء به الى اليونان كان قد تبعثر بالكلية تقريباً أو أنه قد أعيد تفسيره .

وفي الواقع ان الشعب الهندو - اوروبي الذي عبد بوزيدون لم يكن يعرف البحر قبل الوصول الى اليونان الشرقية . وان العديد من الملامح المميزة لبوزيدون ليس لها شيء مما يرى في البحر . فهو اله الخيول Hippios ، وفي العديد من الأمكنة ، وبخاصة في أركاديا كان يعبد تحت شكل متعلق بالخيول . ففي اركاديا التقى بوزيدون بديميتر Déméter وهو هائم في بحثه عن بيرسيفون perséphoné . ولكي تهرب الربة منه مسخت نفسها الى فرس ، ولكن بوزيدون المتحول الى شكل حصان نجح في احتواءها . ومن قرانها تولدت فتاة وفرس السباق آريون Arion [انثيماتوس في بوزاكايناس ٨ - ٢٥ ، ٩] . ان العدد الكبير من مغامراته الغرامية يقرب بوزيدون من زوس . مظهراً بنيته الأصولية «زوجاً للأرض» و«مزعزع التراب» . وحسب هزيود ، فقد تزوج ميدوزا méduse ، والتي هي أيضاً ربة قديمة للأرض وثمة تقليد آخر يقرر بأن أنتيوس Antuios هو ناتج من قرانه مع جي Ge .

هذه العلاقات مع الحصان تشير لأهمية هذا الحيوان بالنسبة للغزاة الهندو - اوروبيين . فبوزيدون قد مثل كخالق ، وكالأب أو موزع الأحصنة ، وعليه ، فإن الحصان هو في علاقة مع العالم السفلي ، وهذا ما يوضح مجدداً صفة «سيد الأرض» من إله . ان قوته البدئية كذلك قد أشير إليها بأشكال جبارة أو غولية من أبنائه : أوريون ، بوليفيم ، تريتون ، أنتيوس ، الهاربي . الخ . بصفته زوج الأرض Pasis Das ، النفس الذكورية للخصب الساكن في الأرض كما فهمه ويليام ويتز ، Willamowitz ، فإن الاله المصطحب من قبل الهندو - اوروبيين يمكن له أن يقارن بالالهة العليا والمخصبة «أسياد الأرض» ، لديانات البحر المتوسط والشرقية^(٣) ان بوزيدون وقد أصبح حصراً إلهاً بحرياً ، لم يستطع أن

يحافظ من صفاته الاصلية الا على تلك التي ارتبطت بالبحر : القوة الطاشنة والسيادة على مصائر البحارة .

وهيفستوس Héphaistos يتمتع بمركز وحيد في الديانة والميثولوجيا الاغريقية . فقد كانت ولادته متفردة : حسب هزيود . حملت به هيرا «بدون اتصال حب ، بغضب وتحد لزوجها»^(٤) . إضافة لذلك فان هيفستوس يتميز من كل الاولمبيين ببشاعته وعجزه . إنه أعرج من الرجلين وأهوج أو مجنون وبحاجة لمن يسنده كي يعيش ، وهذه العاهة هي نتيجة لسقوطه على جزيرة ليمنوس Lemnos : فزوس كان قذف به من أعلى الأولمب لأنه كان قد تعصب مع والدته هيرا [اليازة ١ - ٥٩ - ٩] . وحسب نص آخر ، أن هيراً هي التي رمت به الى البحر ، أثناء ولادته ، خجلت من تشوّه [اليازة ١٨ - ٣٩٤] . وقد التقطه اثنان من النيريدس Nereids ، وتيتيس Thétis ، وايرينوميه Euryomé في مغارة عميقة وسط المحيط . وهناك خلال تسع سنوات أجرى هيفيستوس تدريبه كحداد وصانع . ولقد لوحظت المشابهات مع لازمة «الولد المضطهد» ومع ذلك «المولود الجديد التعيس» : في الحالتين ، يخرج الولد منتصراً من محنته . انه يتعلق ، بالتأكيد بتجربة مساره^(٥) قابلة للمقارنة بالسرعة العظيمة في أمواج ديونيزوس أو تيزيه^(٦) . ولكن هذه المسارة من نوع سحري وشاماني هي التي تفسر تشوّه هيفستوس . وقد قربت الباحثة ماري ديلكور العراقيب المقطوعة أو الأرجل الملتوية لهيفستوس من التعذيات المسارية لشامان المستقبل^(٧) . وكأرباب سحريين آخرين ، فإن هيفستوس قد اشترى علمه بالحديد والصناعة بتشوّهه الطبيعي . وان أعماله هي الأعمال الرئيسية للفن والعجائب السحرية في آن واحد . وقد صنع الى جانب القلائد والاساور والزهيرات الترس العجيب لأخيل [اليا . ٣٦٩] وكذلك صنع الكلاب الذهبية والفضية التي تلازم باب قصر الالسيومور Alcyoneur [اوديسة ٧ - ٩٢] والمقرات المتألقة للآلهة ، والأناس الآلية التي منها أكثرها شهرة الركائز ذات الثلاثين رجل من الذهب والتي تتحرك من ذاتها «الخادمين من الذهب» [اليازة ١٨ - ٤١٧] . المشابهة لصبايا تنهادى في مشيتها . وبناء على طلب زوس صنع من الغضار باندورا وأحيائها . ولكن

هيفستوس هو بصورة خاصة معلم حازم ، قيد آلهة وربات إضافة للتيتان بروجميه وذلك بما صنعه من عروش ، وسلاسل وشبكات . . وقد قدم لهيرا عرشا من ذهب وصلاته غير مرئية ، وما ان جلست عليه هيرا مرة ، حتى أخذت هذه الوصلات الربة أسيرة . وحيث ان أي اله لم يستطع تخليصها ، استدعي ديونيزوس الذي نجح باسكار هيفستوس وسحبه الى الأوليمب حيث أطلق والدته نهائيا . [بوزانياس ١ - ٢٠ - ٢] ان العمل الباهر الأكثر شهرة هو أيضا الأكثر سخرية : حبس هيفستوس آريس Arés وزوجته افروديت ، في شبكة غير مرئية ، ودعى الاوليمبيين لمراقبة قرانها الأثم [اوديسة ٨ - ٢٦٦] . وانفجر الآلهة من الضحك ، ولكنهم في ذات الوقت كانوا خائفين أمام هذا العمل الذي بدا صانعه ساحرا كبيرا أكثر من اعتباره صانعاً كبيراً .

إن هيفستوس إلهاً ساحرا هو في ذات الحين رازم ومفكك ، وبالنتيجة إنه إله مؤلد «هو الذي خلص زوس من أتينا» . هذا ولا يوجد مكان آخر كان فيه قيمة مماثلة للسحر والاتقان التكنولوجي كما هي في ميتولوجيا هيفستوس . فبعض من الآلهة العليا (فارونا ، زوس) هم معلمو روابط ، ولكن القدرة على الحل والربط مقسمة بصور أخرى إلهية أو شيطانية (على سبيل المثال في الهند فرترا ، ياما ، نيتري) . ان العقد ، والشبكات ، والأحبال ، والخبوخ ، تصنف بين التعبيرات المصورة للقوة - السحر - دينية التي لا بد منها للمكانية قيادة ، أو حكم ، أو إيقاع قصاص ، أو شل أو ضرب بالموت ، تعبيرات حاذقة ، وجميلة بتناقض ، لقدرة رهبة ، وغير محدودة ، وفوق الطبيعة^(٨) . ان ميتولوجيا هيفستوس تشرك المصدر للقوة السحرية المشابهة (لأسرار المهنة) للمعدنين والحدادين والصناع ، وباختصار للاتقان التكنولوجي والصناعي . ولكن كل التقنيات لها مصدرها ومستندها في «صفة النار» وهو احترام موزع بين الشامان والسحرة ، قبل أن يصبح «السر» للخزافين والمعدنين والحدادين .

ان الأصول لهيفستوس مجهولة ، ولم يحالف النجاح تفسيرها لا بالارث الما قبل الهيليني ، ولا بالتقاليد الهندو - اوروبية . وان تكوينه القديم واضح . وأكثر

من إله للنار أمكن له أن يكون سيد الأعمال المتطلبة (صناعة على النار) ، وبعبارة أخرى ، شكلاً مميزاً .

٨٩ - أبولون : المتضادات المتوافقة .

يمكن أن يبدو متناقضاً ، أن الإله المعتبر أكثر كمالاً لتجسيد العبقرية الهيلينية ، ليس له اشتقاق أغريقي . ومن التناقض أيضاً واقع أن أكثر مفاخره الأسطورية شهرة لا تشهد بفضائل انتهت لتسميتها «أبولونية» : الصفاء ، طاعة القانون والنظام ، الإيقاع الإلهي . فكثير من الأحيان يمتلك الإله الرغبة بالانتقام ، والحسد ، بل الحقد والضعف . غير أن هذه النواقص تضع سريعاً خاصيتها البشرية وتنتهي بكشف واحدة من الحدود الكثيرة للألوهية ، كما كانت قد فهمت من قبل الأغريق .

أن الذي ، أنار بعد زوس بجذرية أكثر المسافة اللانهاية التي تفصل الإنسان عن الآلهة عرف المصير للأخير بين الفانين : فقد رفض له حتى الحق بأن يولد . وقد فتشت التيتانة ليتو Léto الحبل بأعمال زوس ، عبثاً عن مكان تلد فيه .

ولم يجرؤ بلد على قبولها خوفاً من هيرا التي حرضت إضافة لذلك بيتون Python ، تين دلفي ، لأن يتعقب ليتو وأخيراً ، قبلتها جزيرة ديلوس Delos وقد ولدت التيتانة توأمين ارتميس وأبولون . وكانت أول إشارة من الطفل معاقبة بيتون . وحسب نص آخر ، أكثر قدماً ، توجه أبولون صوب دلفي ، مقره المقبل . وبما أن الطريق كان مقطوعاً من قبل تين انثى ، بيتون ، فقد قتلها الإله بضربة سهم^(٩) وهذه مفخرة يمكن تبريرها ، تماماً كما يمكن تبرير قتل الجبار تيتياس Tityas ، الذي حاول اغتصاب أمه . ولكن أبولون قتل ، كذلك بضربات سهام ، الأبناء السبعة لينوبه Niobé (بينما قتلت ارتميس البنات السبعة) لأن الأم المتعجرفة قد شتمت ليتو Léto متفاخرة بذريتها الكثيرة . وقد قتل حبيته المفضلة

(كورونيس) التي خانته مع أحد الفانين^(١١) . وقتل ايضاً ، وانما بعدم انتباه ، صديقه المفضل هايكتوس .

هذه الميتولوجيا العنيفة ، التي اهتمت ، خلال عدة قرون ، الأدب والفنون التشكيلية ، لها موازيتها في تاريخ دخول ابولون بلاد الاغريق . وباختصار إن هذا تاريخ له بديله ، قل أو أكثر شراسة . للآلهة المحلية الما قبل الهيلينية وهي عملية تميز من جهة أخرى الديانة الاغريقية في مجملها . ففي بلاد شرسة ، كان الاله مشتركاً بـ بتوس Ptoos بصفة ابولون بتوس Appolon Ptoos ، ولكنه حوالي القرن الرابع ، أصبح بتوس ابنه أو حفيده . وفي طيبة أبدل بأسمينيوس isménios . ولكن المثال الاكثر شهرة هو اقامته في دلفي Delphes ، بعد ان قتل سيد المكان المقدس ، الا بيتون le Python . وقد كان لهذه المفخرة الاسطورية أهمية بارزة ، وليس من أجل ابولون فحسب . ان انتصار اله بطل ضد التين يرمز في آن واحد إلى (الأهلية المحلية) وإلى السيادة البدئية للقوى الأرضية ، انها واحدة من الاساطير الاكثر انتشاراً (ف ٤٥٠ع) . وما هو خاص بأبولون ، انه من جهة ، العمل الذي توجب عليه ان يكفر به عن هذا القتل حيث أصبح هكذا في دلفي . وعليه ، فبصفته ابولون بيتيني appolon pytheen ، قد حصل على تقديره الما قبل هيليني . وان العملية كانت قد اكتملت حوالي القرن الثامن .

أما بالنسبة إلى «أصله» فقد أعيد البحث عنه في الأقاليم الشمالية من اوراسيا l'Eurasie ، أو آسيا الوسطى . والفرضية الأولى تستند بصورة خاصة على علاقات الاله مع الهيبوربورين les Hyperboreens ، الذين كان يعتبرهم الاغريق سكان لبلاد «ما وراء بورية Borée» أي ما وراء ريج الشمال . وحسب الاسطورة الدلفية^(١٢) كان زوس قد قرر ان أبولون سيقم في دلفي وسيقدم القوانين للهيلينيين . ولكن الاله الشاب طار على عربة تجرها طيور البجع ، حتى بلاد الهيبوربورين ، حيث بقي سنة كاملة . مع ذلك ، وكما ان الدلفيين لم ينقطعوا عن دعوته مع الرقص والغناء ، فقد عاد الاله . ومنذئذ أمضى الاشهر الثلاثة من الشتاء بين الهيبوربورين ورجع في بداية فصل الصيف . واثناء غيابه ، حكم ديونيزوس في دلفي بصفته معلم الوحي الالهي .

وحسب بNDAR «لا أحد يستطيع اكتشاف ، لا برا ولا بحرا ، الطريق العجيب الذي يوصل صوب العباب الهيربوريين» [بيت ١٠-٢٩] . وبعبارة أخرى ، فإن البلاد وسكانها ينتمون للجغرافيا الاسطورية . انها سلاله مقدسه ، خالية من الأمراض والهرم . ويؤكد بNDAR ان هؤلاء (الهيربوريين) يمكن ان يعيشوا الف سنة ؛ انهم لا يعرفون لا العمل ولا الحروب ويمضون وقتهم بالرقص والعزف على القيثارة والناي . وتروى الباشيليد Bacchylide [٣ ص ٥٨] انه من أجل مكافأة «احسانهم» نقل ابولون كريسوس Cressus وبناته إلى عند الهيربوريين . انه يتعلق اذن بمكان فردوسي يمكن مقارنته بجزر السعداء حيث تؤمها ارواح الابطال .

ويقدم هيرودوت [١٧-٣٢-٣٥] المعلومات المعطاة من قبل الديليين les Déliens المتعلقة بالتقدمات التي كان تلقاها ابولون من الهيربوريين : بعض موضوعات مغلفة بقش القمح كانت اودعت لدى اشخاص من بلد مجاور ، والذين نقلوها بدورهم إلى البلاد الاكثر قربا وهكذا دواليك حتى ديلوس Delos . وسيكون من العبث البحث عن تذكارات تاريخي آني في هذا التقليد ، الذي ، بين غيره ، وضع في بلاد الهيربوريين الزيتون ، الشجرة ذات المنشأ من البحر المتوسط بامتياز .

وعلى الغالب فإن الأقاليم الشمالية - منذ تراقيا حتى بلاد السيس Seythes والاسيدون Issedons - كان لها مكان مرموق في التقاليد الخرافية المتصلة بأبولون . ان بعض حواريه الخرافيين (اباريس ، آريستوس) كانوا «هيربوريين» وكان اورفيه Orphee دائما على علاقة مع تراقيا Thrace . الا انه يتعلق بدب اصغر septentrion الذي ، بصفته قد اكتشف واستظهر تباعا ، حافظ على هالة اسطورية . وان هذا الدب الاصغر الخيالي هو الذي أثار وغذى الابداعية الاسطورية .

وبفضل المصدر الآسيوي لأبولون زُعم بأن اكبر اماكن عبادته توجد في آسيا ، يانارا في لسيا ، وديديم في كاري ، وكلاروس في ايوني الخ .

وكالعديد من الآلهة الاوليمبية الأخرى ، يظهر قادماً جديداً في أمكنته المقدسة في اليونان القارية . وزيادة على ذلك ، وعلى نقش حثي مكتشف بالقرب من قرية اناضولية ، أمكن قراءة الأسم ابولوناس Apulunas «رب الأبواب» تماماً كما كان أبولون الأغريق التقليدي ، كما يذكر بذلك نيلسون Nilsson^(١٣) .

ولكن «تكوين» إله ليس هاما الا في المقياس الذي يساعد على فهم العبقرية الدينية للمؤمنين به . وكالشعب الاغريقي نفسه ، فإن آلهته هي الحصيلة لتركيب ضخم . بفضل هذه العملية الكبيرة من المواجهة ، والتكافل ، والتركيب والائتلاف ، نجحت الأشكال الإلهية الاغريقية في كشف كل إمكاناتها .

٩٠ - وسطاء الوحي والطهارة .

ما كاد أبولون يولد ، حتى صرخ : «لأعطى قيثارتي وقوسي الموتى ، سأعلن للبشرية ارادة زوس التي لا مرد لها» [انشودة هومييرية ١٣٢] وفي الأومينيدات لأخيل les Euménides d'Esehyle يطمئن الفوريس les Furies انه «لم ينزل الوحي على رجل ، وامرأة أو مدينة . اذا لم يكن ذلك بأمر من زوس» [٦١٦ - ٦١٩] . هذا التمجيد «لأب الأولمبيين» يفسر علاقات ابولون بأفكار النظام والقانون .

وفي العصر الكلاسيكي ، يمثل بامتياز المظهر القانوني للدين . ويسميه افلاطون «المفسر الوطني» Potrios exegeas [الجمهورية ٤ - ٤٢٧] . انه يوصل مشوراته بواسطة العرافين إلى دلفي ، وإلى آثينا واسبارطة . بواسطة مفسريه ، فهؤلاء ينقلون ويشرحون الاجراءات المقررة من قبل الاله المتعلقة بطقوس المعابد ، وبخاصة ، التطهيرات التي أصبحت ضرورية بالتضحيات البشرية . لأنه اذا كان ابولون قد غدا الاله الذي يبعد الشر (apotropaia) والمظهر بامتياز (Katharsios) فذلك لأنه ذاته أوجب ان يكون مطهراً بعد قتل بيتون Python . فكل جرم قتل بشرية كان ينتج لطخة عمل شر ويهدد الجماعات برمتها . وقد

ساهم أبولون بشكل بارز في جعل الأعراف القديمة المتعلقة بالتضحيات البشرية أكثر إنسانية^(١٤) . انه هو الذي نجح في ان يبريء أوريسست من جرم قتل الأم بيد ابنها [ر. اخيل les Eumenites]

لقد كان لدلفي في ما قبل التاريخ مكانها في نقل الوحي ، وقبل أبولون . وكيفما كان اشتقاقها اللغوي ، فإن الاغريق كانوا يصلون إسم دلفي بـ «الرحم matrice»^(١٥) . فالتجويف الغامض كان فماً ، حنكا stomios الذي يدل ايضاً على المهبل Vagin . ان الأومفالوس l'Omphalos لدلفي كان قد تأكد أيضاً منذ عصور ما قبل الهيلينية ، رمزاً للرحم ، لقد كان محملاً بمعنى توليدي^(١٦) . ولكنه كان بصورة خاصة «مركزاً للعالم» . وحسب الأسطورة ، تلاقى نسران مطلقان من قبل زوس إلى طرفي الدنيا ، على الاومفالوس . وإن هذا المكان المحترم الموحي ، والذي كانت تظهر له ، منذ أزمنة قديمة ، قداسة وقدرات الارض الأم ، قد تلقى توجهها دينيا جديداً تحت سلطة وحكم أبولون .

لقد كان الوحي ينجز من قبل بيثية la Pythie ومن قبل النبي الذي كان يساعد في المشورة . وفي البدء كانت المشاورات تجري مرة في السنة (في ذكرى الاله السنوية) وبعدئذ مرة في الشهر ، واخيراً عدة مرات ، باستثناء اشهر الشتاء عندما يكون أبولون غائبا . وكانت العملية تقتضي التضحية سلفاً بمعزة . واجمالاً فإن المشاورين كانوا يطرحون الاسئلة بشكل متقطع : لمعرفة ما اذا كان من المفضل فعل هذا الشيء أو ذاك . وكانت بيثية la Pythie تعطي الأجوبة مقترعة بحبوب الفول البيضاء أو السوداء^(١٧) .

وفي الحالات الأكثر حرجاً كانت العرافة الملهمه من قبل أبولون تتنبأ في قبو المعبد . لقد حصل كلام عن (الهديان البيثي) ولكنه لا يوجد ما يشير إلى الخلجات المستيرية أو الامتلاك من نوع ديونيسي وقد كان افلاطون قارن هديان بيتي (mancisa) بالالهام الشعري اللازم لربات الشعر muse والنقل العشقي لأفروديت . وبحسب رأي بلوتارك : «ان الاله يسره بأن يضع في العرافة Pythie الرؤى والضوء الذي ينير (المستقبل) القادم ؛ وانه في هذا يوجد الحماس»^(١٨) .

وعلى الآثار المصورة تبدو (البيثي) هادئة ، صافية ، مركزة كالاله الذي يوحى إليها . فبأية الوسائل حصلت هذه العرافة على تلك «الحالة الثانوية» ؟ . لقد بقى ذلك سراً . ان العرافة المختارة من بين الفلاحات في دلفي ، كانت تتنبأ بتاريخ محدد . وان اوراق الغار التي كانت تلوكلها ، والتبخيرات بالغار ، ومياه نبع كاسوتي Cassotis التي كانت تشربها ، ليس لها اية خاصية مسكرة ولا تفسر حالة التشنج . وبحسب التقليد ، فإن ركيزتها التنبؤية كانت تقع فوق فوهة (charma) ينبثق منها ابخرة ذات فضائل خارقة للطبيعة . مع ذلك لم تكشف الحفريات لا أخاديد في التربة ، ولا الكهف الذي كانت تنزل فيه العرافة (ولكن يمكن القبول انه قد زال على اثر هزات زلزالية) . وقد استنتج ، بعد فترة قصيرة ، أنها كلها محتمة . الفوهة (شازما) ذات الأبخرة ، ونزول العرافة في الرواق الاديتون l'adyton - ستكون صورة اسطورية راهنة^(١٩) . وربما ان الاديتون كان قد وجد ، وكما اظهرته ماري ديكلور [ص ٢٢٧] ، فإن الأقدمية والبنية الأرضية لدلفي ، أدخلتا «هبوطاً» شعائريا إلى الأقاليم تحت ارضية . وبما أنه لم يوجد أي «سبب طبيعي» يمكن له ان يستدعي الاختلاج Transe ، فقد افترض الاله الذاتي للعرافة أو الاله من مسافة من قبل النبي . وفي الواقع ، لا نعرف شيئاً .

٩١ - من «الرؤية» إلى المعرفة.

إن الوجد الأبولوجي ، مع كونه مثار احيانا بالالهام أي «الامتلاك» من قبل الاله ، فإنه لم يدخل مع ذلك المشاركة المنجزة بالحماس الديونيزيس l'enthousiasmos dionysiaque [ف - ١٢٤ع) . إن المأخوذون بالنشوة ، الملهمين أو الممتلكين من قبل ابولون ، كانوا معروفين بخاصة بسبب قواهم الالهية والتنبؤية . (على العكس من ذلك ، المسارون في اسرار ديونيزوس ، الباخيون ، لم يقوموا أبداً بتجربة قدرتهم التنبؤية ، ولقد لوحظت الخاصية «الشامانية» لبعض الشخصيات النصف اسطورية ، المشهورة كعبدة لأبولون بامتياز . فالهيبيروريين

آباريس ، الكاهن لأبولون كان موهوبا بقوى ايجائية وسحرية . وقد كتب هيرودد [٦-٣٦] «ان سهمه الشهير طاف بكل الأرض دون ان يتناول أي غذاء» ، ولكنه منذ هيراكليس (فقرة ٥١) جرى التأكيد ان آباريس طار على سهم ، وعليه ، فإن السهم ، الذي يلعب بعض الدور في ميتولوجيا ودين السيبيين des Seythes هو حاضر في الحفلات الشامانية السيرية^(٢٠) . وانه ايضا السلاح الفاخر لأبولون . وهنالك خرافات مماثلة - متضمنة اختلاجات وجدية قابلة لتكون متمزجة بالموت بيلوكاسيون bilocation ، مسوحات ، سقوط في الجحيم الخ . . وكانت تشر بعلاقة مع أشخاص خرافيين آخرين : آريستياس Arist'cas de Procomère البروكوميزي ، وهرموتيموس الكلاروميني Hermotimus de Orphée chaizoméne وابيمينيد الكريتي Epiménide de Crete ، أما بالنسبة لأورفيه Orphée «النبي» الشهير لأبولون ، فإن اسطورته كانت تفيض بمفاخر شامانية [ر. البحث عنه فيما سيلي] .

فما كان يعرفه الاغريق منذ هومر ، هو ان أبولون قد كان بالتأكيد اكثر بكثير من إله - معلم للوجديات . ويمكن مع ذلك اكتشاف استمرارية لها دلالتها بين الدعوتين (الشامانية) و(الابولونية) . فالشامانيون كانوا معنيين باكتشاف ما هو مستور وبمعرفة المستقبل ؛ والرؤى ، الاعطيات الممتازة من ابولون ، تثيب المؤمنين بالاله بذات التقديرات . وتما كما في بعض التقاليد الشامانية السيرية ، فإن «الرؤى» الممنوحة من ابولون تثير الذكاء وتدعو الى التأمل ، وفي آخر المطاف ، تقود إلى «الحكمة» . وقد كان والتر اوتو Walter otta لاحظ ان الحصول على المعارف السرية (مشاركة دوما أو مرتبطة باثارة للنفس)^(٢١) وان هذا بصورة خاصة ، صحيح بالنسبة للوجد الشاماني . كما ان هذا يفسر الأهمية الرئيسة للموسيقا والشعر في التقليدين .

ان الشامانيين يعدون لوجدهم بالغناء ويقرع الطبل ؛ وان اكثر الشعر الملحمي قدما في اسيا الوسطى وبولونيزيا كان له كنموذج مغامرات الشامانيين في اسفارهم الوجدية . ان الشعار الرئيس لأبولون هو القيثارة ، وبالعزف عليها يفتن

الآلهة والحيوانات الكاسرة وحتى الحجارة [اوريبيدس - ابولونيات رودس - ٥٧٩-٧٤٠] .

ثم إن القوس ، الشعار الثاني لأبولون يشكل ايضاً جزءاً من الملحقات الشامانية : ولكن استعمالها الشعائري يتجاوز الدائرة الشامانية ، وأما رمز القوس ، فهو منتشر عالمياً . فأبولون هو «الذي يقذف من بعيد» : مع ذلك فإن النعت ذاته يطبق على راما ، وعلى بوذا ، وعلى ابطال آخرين وشخصيات اسطورية . ولكن العبقريّة الاغريقية قد اعادت بوضوح تقييم هذا المذهب العتيق ، تماماً كما غيرت التقنيات والرمز الشامانية . وبفضل ابولون ، كشفت رمزية القوس ورامي السهام اوضاعاً روحية اخرى : سيادة المسافة ، واذن الانفصال من «المباشر» ، ومن لزوجة المحسوس ؛ والسكون والصفاء الذي يقتضي كل جهد من التركيز العقلي . واجمالاً ، فإن ابولون ، يمثل تجلياً جديداً ، والتعبير لمعرفة دينية للعالم والوجود البشري ذي الخاصية الاغريقية التي لا يمكن اعادة ترادها .

ولقد أكد هيراقليط Heraclite ان «الايقاع هو نتيجة لتوتر بين اضداد ، تماماً كالقوس والقيثارة» . وفي ابولون ، تبدو الاضداد في أوجها ، مدخلة في مظهر جديد ، اكثر اتساعاً واكثر تعقيداً . ان مصالحته مع ديونيزوس تشكل جزءاً من ذات عملية التكامل التي رسمته معلماً للتطهيرات على اثر قتل بيتون Python . وقد كشف أبولون للبشر الطريق الذي يقود أو يوصل من الرؤية التنبؤية إلى الفكر . وان العنصر الشيطاني . المدخل في كل معرفة هو معزّم عليه .

هذا وان الدرس الابولوني بامتياز مشروح في الصيغة الشهيرة لدلفي : «اعرف نفسك» إن الذكاء والعلم ، والحكمة معتبرة كمنهج إلهية ، ممنوحة من الآلهة وفي الدرجة الأولى من قبل ابولون . وان الرصانة الأبولوجية أصبحت بالنسبة للانسان الاغريقي الشعار للكمال الروحي ، وبالتالي للنفس . ولكن مما له دلالة ان اكتشاف النفس اكمل سلسلة طويلة من المنازعات متبوعة بمصالحات ، وبسيادة التقنيات الوجدية والايحائية .

إن هرمس ابن زوس والحورية مايا هو الأقل اوليمبية من الآلهة . وهو مازال يحتفظ ببعض شعاراته المميزة لألوهيات ما قبل الهومييرية : إنه يمثل أيضاً تحت مظهر قضيبى ، وهو يملك «قضيباً سحرياً» والصولجان ، وطاقيّة الاخفاء ، ولكي يحصن ضد سحر سيرسيه Circe ، قدم لأوليس العشب السحرية مولى moly [الأوديسة ١٠ ، ٣٠٢-٦٠] . واكثر من ذلك ان هرمس يجب الاختلاط بالناس . وكما يعبر عنه زوس ، فإن «مهمته الاثيرة جداً هي أن يكون رفيق الانسان [الاليازة ٢٤-٣٣٤] . ولكنه يتصرف في علاقاته مع البشر كاله ، وكمعلم صانع . وهو واهب الاموال بامتياز [الأوديسة ٨ - ٣٣٥] : يقال عن كل حظ يحصل انه هبة هرمس . ولكنه من جهة اخرى التجسد لكل ما تقتضيه الخديعة وما يدخل الغش . فما كاد يولد حتى سرق قطعان شقيقه ، ابولون ، ومن أجل هذا أصبح الرفيق والحامي للصوص . ان اوريبيدس يدعوه «سيد اولئك الذين يجعلون مهماتهم اثناء الليل» [روس ٢١٦]

ولكنه اذا كان يرتب السرقات والمغامرات الظرفية الليلية فهو ليس بأقل من ذلك حامياً للقطعان وللمسافرين المتأخرين على الطرقات ، «لا يوجد اله آخر يبزل مثلما يبزل من عناية بالقطعان وتناميها» ، كما كتب بوازانياس [٢ ، ٣-٤] . فهو اله الطرقات ، ومن قطع الحجارة «هيرميون Hermaion» التي توجد على جوانب الطرقات قد تلقى اسمه : كل مسافر كان يلقي حجراً على الكومة (٢٢) . ومن المرجح اصلاً ان هرمز كان الها حامياً للرعاة الرّحل ، ويمكن ان يكون سيداً للحيوانات . ولكن الاغارقة فسروا في معنى اكثر عمقاً صفات ومزايا هرمز . فهو يحكم الطرقات لأنه يمشي بسرعة (له خفان من ذهب) ولا يتوه مطلقاً في الليل لأنه يعرف الطريق ، ولأجل هذا هو سيد للصوص ودليل وحامي القطعان في آن واحد ، وذلك هو السبب الذي أصبح بموجبه سفيراً للآلهة .

وعلى الأرجح ان ذات الصفات جعلت من هرمز صلفاً : فهو يقود الموتى في الآخرة لأنه يعرف الطريق ويعلم كيف يتوجه في الظلمات ، الا أنه ليس الها للأموات ، مع ان الأموات يقولون بأن هرمز قبض ارواحهم . انه مفوض بالتجول دون عقاب في المستويات الكونية الثلاثة . فاذا رافق الارواح في الجحيم ، فإنه يعود بهم دوماً إلى الأرض ، كما حصل ذلك مع بيرسفونة ، ومع اوريديس أو في البيرسس [٦٢٦] لأخيل ، ومع روح الملك الكبير . ان علاقات هرمز مع ارواح الموتى تفسر ايضاً بقدراته النفسية . وان دهائه ، وذكائه العملي وقدرته على الاختراع (هو الذي اكتشف النار) ، وقدرته على ان يصبح غير مرئي وان يسافر حيث شاء في لمح البصر ، كل هذا استدعى فيما سلف التقدير باحترام لحكمته وبخاصة مهارته في العلوم السرية التي ستصبح فيما بعد ، في العصر الهيليني ، صفات هرمز المميزة . فالذي يتوجه في الظلمات ، ويقود ارواح الموتى ويجول بسرعة الضوء - مرثياً كان أم غير مرثي - يعكس آخر المطاف نموذجاً للروح : ليس الذكاء والحيلة فحسب ، وانما ايضاً العرفان (غنوص) والسحر .

بعد أن حلل و . أوتو W.Otto بوضوح مزايا هرمز اعترف بأن «عالمه ليس عالماً بطولياً» واستنتج انه اذا «كان عالمه غير نبيل [...] فإنه بعيد عن ان يكون فظاً ومبتذلاً»^(٢٥) . وهذا صحيح ، ولكنه غير كاف . لأن ما يميز صورة هرمز في العصر الكلاسيكي سابقاً ، انما هي علاقاته مع عالم البشر ، عالم بالتعريف «مفتوح» وهو بشكل دائم على أهبة ان يعمل ، أي ان يكون معدلاً ومتجاوزاً . إن صفاته الأولى - خديعة ، قدرة على الابتكار - سيادة على الظلمات ، فائدة لنشاط البشر ، صلف - ستعاد تفسيراتها باستمرار وتنتهي لتجعل من هرمز صورة كثيرة التعقيد ، وبشكل دائم : بطل محض ومعلم علم وصورة مثالية للمعارف gnosos السرية في آن واحد .

وهرمز هو واحد من الآلهة الأوليمبية النادرة الذين لم يفقدوا صفاتهم الدينية بعد ازمة الدين «التقليدي» ولم يزولوا بعد انتصار المسيحية . وسيعرف شهرة جديدة ممثلاً بتوت Thot وميركوريوس mercurios في العصر الهيليني ، وبصفته

هرمس العظيم مثلث الحكمة Trismégiste سيستمر في البقاء عبر الكيمياء والهرمسية حتى القرن الثامن عشر . وقد سبق لفلاسفة الاغريق أن رأوا في هرمس الكلمة logos والتشخيص للفكر ، وسيعتبر كمالك لكل المعارف وفي المكان الأول منها الحكمة السرية ، وهذا ما سيجعله «رئيس كافة السحرة» المنتصر ضد قوى الظلام ، لأنه «يعرف كل شيء ويستطيع ان يفعل كل شيء»^(٢٤) .

ان مشهد الأوديسة مع العشب العجيب moly سيكون باستمرار معبراً عنه بالرمز allegorise من قبل الإغريق ، كما هو من قبل الكتاب المسيحيين . وسيرى في هذا النبات الذي ينقذ أوليس من مصير رفاقه الممسوخين خنازير من قبل سيريه Ciré ، الروح أو النفس التي تتعارض مع الغريزة ، أو الثقافة التي تظهر الروح . وان هرمز المماثل من قبل فلاسفة الاغريق باللوغوس Logos ، سيدعو مقارنا من قبل الآباء بالمسيح ، ويانتظار المطابقات التي لا حصر لها والمماثلات المنجزة من قبل كيميائي عصر النهضة .

٩٣ - الربتان : هيرا وأرتميس .

إن الوضعية المتميزة لهيرا ترجع اكثر ما ترجع لهومير ، الذي ابرز واقعة كونها زوجة لزوس وكانت هيرا أصوليا ربة آرغوس ، ومن هنا انتشرت عبادتها في كل اليونان . ويفسر ويليام ويتز Willam witz اسمها كما لو انه الشكل الانثوي للبطل Héros ، وله معنى ديسبوانا despoina «سيدتنا»^(٢٥) . ومن الصعب الجزم فيما اذا كان الأخيون قد اصطحبوا معهم الربة أو اسمها فقط . فقد كانوا على الأرجح متأثرين جداً بقوة وعظمة سيدة الأرغوس واعتبروها الزوجة لربهم الرئيسي^(٢٦) . وقد يكون ذلك السبب الذي من أجله أصبحت هيرا الرمز والسيدة لمؤسسة الزواج . ان خيانات زوس التي لا حصر لها اثارت غيبتها واستدعت حصول مشاحنات رويت لفترة طويلة من قبل الشعراء ومجبري الاساطير .

ان زوس يتصرف مع هيرا كما لم يتجاسر عليه ابداً رئيس آخيني نحو زوجته : انه يوسعها ضرباً ، حتى انه شنفها في إحدى المرات وربط وزنا ثقيلاً برجلها ، وهذا تعذيب طبق بعد زمن متأخر على العبيد^(٢٧) .

وحسب هزيود [تيج . . ٢٣-٢٤] اولدت هيرا لزوس ثلاثة اولاد : هيبه Hébé وأريس Arés وإيليسيا Eileishya وحملت لوحدها هيفيستوس [الباء ٦٢٦] .

ان التوالد العذري le parthénogénèse (أو الاخصاب بدون تلقيح) ، اي التلقيح الذاتي يشير الى أن الربات الأكثر اوليمبية تحتفظ بخاصيتها المتوسطة والأسبوية المميزة .

ومن الصعب التحديد بدقة للمعنى الأصولي للتقليد الذي كانت هيرا بحسبه تعود لتجد سنويا عذريتها في استحمامها في نبع كاناثوس Kanathos^(٢٨) . فهل يتعلق هذا برمز متضامن مع المفهوم البطيركي للزواج (اذ من المعلوم ، تمتع العذرية باحترام في المجتمعات من النمط البطيركي) ؟ . ومهما يكن من أمر ، فإن الاغريق قد حولوا جذريا ربة أرغوس . ويمكن مع ذلك فك رموز بعض صفاتها الأصولية . ان هيرا مثلها مثل اكرثية الربات الايجية والآسيائية ، كانت الهة الخصوبة الشاملة ، وليس مجرد الزواج . ومع ان الفرضية عن 'هيرا - أرض ام ، كانت قد طرحت من قبل بعض العلماء ، الا انه من الصعب تفسير خلاف ذلك الواقع الذي جرى فيه الكلام عن زواج مختلط Hierosgamos مع زوس (الاسطوري أو المعاد تركيبه في الشعائر) في العديد من الأمكنة (بلاطية Platée ، وأوبية Eubée ، وأثينا Athènes ، وساموس Samos الخ) . انها الصورة النموذجية للاتحاد بين الهه مخصص للعاصفة وللأرض الأم . واضافة إلى ذلك فإن هيرا كانت معبودة في أرغوس كربة «للنير» déesse de joug ، الغنية بالثيران . واخيراً كانت معتبرة كام للغيلان المرعبة ، مثل هيدر الليرن l'Hydre de Lerne . وعليه ، فإن ولادة الغيلان تميز الربات الأرضية ، وفي الواقع ، وكما رأينا (ف. ٤٨٣) ؛ حسب هزيود أن أم التيفون كانت «الأرض Gê» . غير ان كل هذه الصفات والتقديرية المحلية الوطنية قد أهملت تبعاً ، ومنذ هومير تكشف هيرا بما بقيت عليه حتى النهاية : ربة الزواج بامتياز .

إن اسم (ارتميز) المؤكد عليه تحت شكل ارتيميز Artimis في مخطوط من ليديا يدل على أصله الشرقي . والصفة القديمة للربة واضحة : انها قبل كل شيء وبامتياز سيدة الوحوش الكاسرة . (بوتنياثيرون Poniatheon) كما وصفت في الالليازة [٢٠-٤٧٠] ؛ بمعنى انها المولعة بالصيد وحامية الحيوانات في آن واحد . وهو مريدعوها ايضا اغروثيرا Agrotera (ذات الحيوانات) وايخيل يدعوها «سيدة الجبال المتوحشة» . فهي تحب ان تصيد ، بصورة خاصة ، اثناء الليل .

والأسد والذئب حيواناتها المفضلة والشعائرية ؛ وهذا ما يذكر بالناذج البدئية الآسيائية . ويروى هومير [اليا . ٧-٥٤٣] كيف ان ارتيميز علّمت سكامندريوس Scamandrius فن صيد كل انواع الطرائد . ولكنها تحتد غيظاً عندما يمزق عقابان ويفترسان عكرشة (انثى ارنب hase) مازالت تحمل صغارها [اخيل - انما ممنون ١٣٣] .

ان ارتيميز هي الربة العذراء بامتياز ، مما يمكن معه أن يفهم أصوليا كما لو كانت حرة من نير الأمومة . ولكن الاغريق رؤوا في عذريتها الدائمة لا مبالاة تجاه الحب . ان الانشودة الهومييرية لأفردويت [ثا . . . ١٧] تعترف بعجز الربة . وفي مأساة يوريبيدس [هيوليت (١٣٠١)] تصرح ارتيميس نفسها بكل وضوح عن كراهيتها لأفردويت .

وهي على الأغلب تمثل عناصر متعددة لربة أم . ففي اركاديا ، اقدم مكان لعبادتها كانت مشاركة مع ديميتير وبيرسفونة . ويؤكد هيرودوت [٢-١٥٦] بأن أخيل كان يعتبر ارتيميز كابنة لديمتر ، بمعنى انها كانت لوحدها مع بيرسفونة . ان بعض الكتاب الإغريق اكد انها كانت تدعى بريتومارتي Britomartis في كريت ،^(٢٩) الأمر الذي يدل على علاقاتها مع الربة المينونية ménoéenne . ومن الراجع ان من بين اسمائها في لغات اخرى يذكر (كيبيل) Kybéle في فريجييا ، وما Ma في قبدوقية . ومن غير المعلوم متى وفي أي اقليم بدأت تعرف باسم آرتميز . ان الوظيفة الأمومية في ايفيز Ephése كانت ممثلة تشكليا وبطريقة سخرية تجعل مكانا للتردد بالاعتراف لها بالوهية اغريقية . وان ارتيميز كانت مقدسة

من قبل النساء بصفتها لوشيا Lochaia ربة الولادة . كذلك كانت كيروتروفوس Kurotrophos «الطيبة» ومعلمة الشباب . ويمكن فك رموز بعض هذه الشعائر المؤكد عليها في العصر التاريخي . بإنها ارث الحفلات المسارّة النسوية للمجتمعات الايجية من الألفين الثانية . ان الرقص على شرف ارتميز آلفية Artémis de l'Alphée ، كما هو من جهة اخرى الرقص للربة في كل مكان في البيلبونيز ، كانت له خاصية تهتكية . وكان هنالك مثل يقول : «في أي مكان لم ترقص ارتميز» ؟ وبعبارة اخرى ، أين لا يرقص الناس من أجل ارتميز ؟ (٣٠) .

تحت مظاهرها المتعددة ، واحيانا المتناقضة ، نتبين تعدد الاشكال الالهية القديمة ، المعاد تقيمها والمدخلة في بنية واسعة من قبل العبقرية الدينية الاغريقية . فالسيدة القديمة للجبال ومعلمة الحيوانات الكاسرة لما قبل التاريخ في البحر المتوسط مثلت باكراً الصفات والمزايا للربات الامهات . ولكن بدون اضاءة خصائصها الاكثر قدما والاكثر خصوصية : معلمة ، في آن واحد ، للصيادين وللحيوانات الكاسرة ، وللبنات الشابات . ومنذ هومر ، بدأت تتوضح صورتها الجانبية : ارتميز تدبير قداسة الحياة المتوحشة ، تعلم الخصب والأمومة ، ولكن لا تعلم الحب والزواج . لقد حافظت دوما على خاصية متناقضة ، مشهورة خاصة ، بترابط أمور متناقضة (على سبيل المثال - عذرية ، امومة) . ان الخيال الخلاق للشعراء ، ولبتكري الاساطير واللاهوتيين الاغريق ، كشف أن مثل هذا الترابط بين الاضداد يمكن ان يدل على أحد الاسرار الالهية .

٩٤ - الربتان : اثينا وأفروديت .

بالتأكيد ان أثينا هي أهم ربة اغريقية بعد هيرا . ولم يقيض لاسمها ان يشرح من قبل الاغريق . أما بالنسبة لأصلها ، فإن فرضية نيلسون Nilsson المقبولة من اكثرية العلماء تبدو مقنعة لحد ما : يمكن لأثينا أن تكون سيدة قصر ، وحامية قصور مدعّمة بامراء ميسنيين Mycéniens ، مع انها ربة منزلية ، على

علاقة مع المهن النسوية أو الذكورية ، في حضورها في القلعة اثناء فترة الحروب والأسلاب أناط بها النعوت والمزايا لربة محاربة . انها تخرج من رأس زوس متمنقة بسلاحه ، مستلة رمحه ومطلقة زمجرتها في الحرب . ان عدداً من القابها توضح صفتها الحديدية : البطلة (برماشو) القوية (ستينياس) المحاربة (آريا) الخ ...

مع ذلك ، وكما تظهره عدة مشاهد من الاليازة ، فإن آثينا عدوة عنيدة لأريس التي تسحقه في معركة الآلهة الشهيرة من النشيد ٢١ [اليازة : ٣٩٠] (٣١) .

وعلى العكس ، انها معجبة بهرقل ، النموذج الحقيقي للبطل . انها تساعد في تجاربه المافوق بشرية وفي النهاية تقوده للسواء [بوزانياس ٣ - ١٩ - ١١ الخ] وهي تقدر باعجاب ايضاً تايدوس Tydeus وكانت تود ان تجعله خالداً ، ولكنها عندما رأت البطل ، مجروحاً بجرح خطير ، كسرت جمجمة عدوه وابتلعت دماغه - وابتعدت الربة منزعة (٣٢) . انها هي دوما ، التي بحضورها ، تأخذ بيد أخيل ويدها على سيفه جاهزاً للرد بالحديد على شتائم اغامنون [اليازة ١ - ١٩٤] .

حتى في ملحمة مؤلفة من أجل حفل كان مجد أعمال السلاح ، تتكشف آثينا ايضاً كربة حديدية . ولأن الحرب هي نشاط ذكوري بامتياز تشارك هي بها . لأنه ، كما قالت هي ذاتها : «في كل الأشياء يميل قلبي نحو الذكر ما عدا الزواج» [اخيل الاومنيادات ٧٣٦] .

ان النشيد الهومييري لأفروديت [١ - ٩] يعترف بأن ربة الحب لا سلطة لها على آثينا . وان هومر وهزيود يسميانها فالاس «الابنة» ، وفي آثينا ، هي «العذراء» (بارتينوس Parthenos) . ولكن هذا هو نوع آخر من ربة عذراء غير اترتميز : لاتتحاشى الرجال ، ولا تقابلهم من مسافة ، إن آثينا ترتبط بصداقة مع اوليس وتحميه ، وتقدر عالياً قوة شخصيته وحكمته : انه الرجل «ذي الآراء العديدة» والوحيد الذي يقارن بزوس [اليازة ٢ ، ١٦٩ - ٤٠٧ ، ٦٣٦] . وفي نسب الآلهة les Thegonie [٨٩٦] يقدرها هزيود «مساوية لأبيها بقوته وحكمته

النيرة». ان آثينا هي الوحيدة بين الاولمبيين التي لا والدتها. وان النشيد الهوميري [١ - ٩] يذكر باختصار أن زوس حمل بها من رأسه الخاص ، غير ان هزيود هو الذي روى الاسطورة بكاملها : ابتلع زوس متيس Metis ، ربة الذكاء ، التي كانت حاملاً آنذ ، وأتت آثينا للدنيا بخروجها عبر جمجمة أبيها . وقد لوحظ في هذه المشاهد اضافة متأخرة فالاسطورة الأصلية كانت اشارت بساطة لظهور آثينا في قمة جبل الأوليمب . ولكن اوتو Otto ، يشير ، لعنوان صحيح ، للصفة القديمة «المتوحشة» لقصة الابتلاع (٣٣) .

ومهما يكن من أمر أصلها ، فإن اسطورة الولادة العجيبة لآثينا تبرز وتؤكد علاقاتها الصميمية جداً بزوس . «انحني بالكلية صوب الأب» . بهذا تعترف في الاومونيدات [٧٣٦] . وفي الأوديسة [١٣ - ٢٩٧] تسر الى اوليس : «من بين كل الآلهة افتخر بعقلي (métis) وكياستي» .

وفي الواقع ان العقل العملي هو صفتها الأكثر تميزاً ، فآثينا ليست معلمة للحرف النسوية الممتازة ، كالغزل والنسيج ، فقط . انها بصورة خاصة ، «متعددة الفنون» ملهمة ومعلمة لكل انواع الأعمال المتخصصة . فمنها تعلم الحداد صنع سكة المحراث ، وصانعوا الفخار يدعونها : «تعالى إلينا يا آثينا ، ضعي يدك فوق افراننا» (٣٤) . انها هي مردفة الخيول ، وهي التي اخترعت «خطام الفروسية» وهي التي علمت استعمال العربات . وعندما يتعلق الأمر بالابحار ، وهو النطاق المحكوم بقانون بوزيدون ، فإن آثينا تكشف العقدة ، وفي ذات الوقت الوحيدة بعقلها العملي . بدئياً تتدخل في العمليات التقنية المتعددة في انشاء السفينة . ولكنها تساعد أيضاً ربان السفينة في قيادة زورقه بشكل سليم (٣٥) .

ومن النادر مصادفة مثال عما يمكن تسميته قداسة الاختراع التقني وميثولوجيا الذكاء . إن آلهة أخرى تبرز الأشكال التي لا حصر لها من قدسية الحياة ، ومن الخصب والموت والمؤسسات الاجتماعية الخ . . . ان آثينا تكشف الصفة «المقدسة» ، أو الأصل «الالهي» لبعض المهن والإلهامات المطبقة للذكاء ، والفطنة . التقنية ، والاختراع العملي وكذلك ايضاً المهارة للذات والصفاء في التجارب ،

والثقة في الترابط . واذن في عقلانية ، العالم . ويفهم كيف ان معلمة الذكاء
التطبيقي Metis ستصبح في عصر الفلاسفة الرمز للعلم الالهي والحكمة
البشرية .

وان افروديت تمثل أبداعاً ليس أقل بروزاً للعبقريّة الاغريقية ، ومع انها تقع
على مستوى مختلف تماماً . فان الربة هي بالتأكيد من مصدر شرقي ، كما يشير الى
ذلك بتأكيد التقليد [هيدروت ١ - ١٠٥ - بوزانياس -] [١٤ - ٧] .

ففي الالياذة ، ان أفروديت تحمي الطرواديين، وازضافة لذلك فهي تمثل
مشابهات مع الآلهات من نوع عشتار . مع ذلك فإن قبرص ، هي المركز لألوف
التركيبات الايجي - اسيانية التي بدأت تحدد بدقة صورتها المميزة [الأوديسة ٨ -
٣٦٢] . ان عملية الهللية Hell'enisation متقدمة إلى حد ما في الالياذة [٥ -
٣٦٥] حيث أن هومر يعلنها كاتبة لزوس وديونيّه Dion'e وتزوج من هيغستوس^(٣٦)
أما هزيود فقد احتفظ بنص أكثر قدماً عن ولادتها : الربة تولدت من بذرة مزبدة
(ophros) خارجة من الأجزاء التناسلية لأورانوس الملقاة في البحر . وعليه فإن
قصة خصي اله كبير ، هي كما رأينا [و . ٤٦] من مصدر شرقي .

وفي عبادتها تميز بعض العناصر الآسيوية (على سبيل المثال ، عبيد المعبد
Ieshierodules) إلى جانب عناصر من البحر المتوسط (الحمامة) . من جهة
اخرى ، فإن النشيد الهومييري لأفروديت [٦٩ -] يمثلها كمعلمة حقيقية للحيوانات
الكاسرة «خلفها كان يمشي متملقاً الذئب الغبراء والأسود ذات الوبر الرمادي
والدبية والفهود السريعة النهمة للظباء» . ولكن سمة جديدة مميزة اضيفت
لأفروديت : ان الربة ، «تلقي الرغبة في صدورهم ؛ وحينئذ يمشون ليتزاوجوا
في ظلام الوديان الصغيرة» . ان افروديت تلقي الشهوة أكثر مما تلقيها بين البشر
والآلهة . لقد «شهدت حتى عقل زوس» ؛ فهي التي «جعلته يقترن بسهولة مع
نساء الفانين ، بدون علم هيرا» [٤٠ - ٣٦ - المرجع] . وهكذا فإن النشيد
الهومييري يطابق في الدافع الجنسي عنصر الوحدة للأنواع الثلاثة من الوجود :
حيواني ، بشري والهي . ومن جهة اخرى بابرار الخاصية التي يتعدز انقاصها ،

واللا معقولة للشبق ، يؤكد النشيد المغامرات الغرامية لزوس (التي ستصبح من جهة اخرى مكررة من قبل الالهة ، والابطال والبشر ، واجمالا ، يتعلق ذلك بتبرير ديني للفعل الجنسي ، لأنه مثار من قبل افروديت ، حتى الافراطات والافعال الجنسية الفاضحة ، يتوجب الاعتراف لها بأصل ديني وباعتبار أنها تحكم على المستويات الثلاث الكونية ، فإن افروديت هي في آن واحد ، سماوية (Asteria) وبحرية [andyomene = خارجة من البحر^(٣٧)] . وأرضية : تحت خطاها تغطي الطرقات بالورود ، وانها هي «العله الأولى» للخصب النباتي [آخيل - دانيد - ف ٢٤٠] . بيد أن افروديت لن تصبح مطلقا ربة الخصب بامتياز . انها تمجد وتدافع عن الحب الطبيعي والقران الجسدي . وفي هذا المعنى ، يمكن القول ، انه بفضل افروديت ، وجد الاغريق الخاصية المقدسة للدافع الجنسي الأصلي . ان المنابع الروحية الثرة للحب ستحكم من قبل وجوه الهية اخرى ، وفي المكان الأول ، من قبل ايروس . وعلى ذلك ، يكون حقا ان هذه الجنسية الغير عقلانية (والغير ممكن السيطرة عليها) والجامعة هي التي تستثمر من قبل الكتاب والفنانين التشكيليين ؛ لدرجة ان «مفاتيح افروديت» في العصر الهيليني أصبحت الكليشيات الأدبية ، وجرت المحاولة للرؤية في هذا التفتح الفني تحت علامة افروديت إبطال صفة القداسة الجذرية للحب الطبيعي . وفي الواقع ، ان ذلك يتعلق بتمويه ، لا يمكن احتداؤه ، غنى بالدلالات ، كما نجده في عدد من ابداعات اخرى للعبقرية الاغريقية : فتحت مظهر الوهية طائش يتستر واحد من الينابيع الاكثر عمقا للتجربة الدينية : كشف الجنسية بصفتها تصعيداً وسراً ، وسنصادف اشكالا اخرى من هذا النوع من التستر ، في تحليلنا لعملية ابطال صفة القداسة في العالم الحديث (القسم الأخير من هذا الكتاب) .

٩٥ - الأبطال :

ميز الشاعر بندار بين ثلاثة اصناف من الكائنات : آلهة ، أبطال ، بشر [الأولبيين ٢] . وبالنسبة لمؤرخ الأديان ، فإن صنف الأبطال يطرح بالنتيجة عددا

من المسائل : ما هو المصدر والبنية الانطولوجية للابطال الاغريق ، وفي أي مقياس ، هم قابلون للمقارنة مع نماذج أخرى من المتوسطين بين الآلهة والبشر ؟ ، بحسب عقيدة القدماء قدر العالم ١ . رود E . Rohde أن الابطال «هم بدقة نسباً للآلهة من جهة وللشرفاء من جهة أخرى . وفي الواقع ، انهم ليسوا شيئاً آخر سوى أرواح البشر الموتى التي تقيم داخل الأرض ، وتعيش هنالك بخلود كالآلهة والتي تتقرب من هذه بالقوة»^(٣٨) . وكالآلهة ، كان الابطال يكرمون بأضحيات ، ولكن الاسماء والاجراءات لهذه الأصناف كانت متباينة . وعلى العكس فإن المؤلف /غوترمان/ يعتمد الأصل الالهي للابطال : تماماً كالشياطين ، يتحد الابطال مع الآلهة (حسب الأوقات) أو (بصورة خاصة) بمعنى كائنات الهية متخصصة بوظائف محددة .

وفي سنة ١٩٢١ عرض (ب - ر - فارفل) نظرية تسوية ، تمتعت أيضاً ببعض التقدير ، وحسب رأي هذا الكاتب ، فإنه ليس للابطال جميعهم ذات الأصل ؛ وقد ميز من بينهم ستة أصناف : أبطال من مصدر إلهي أو شعائري أو أشخاص عاشوا حقيقة (محاربون أو رجال دين) وأبطال مخترعون من قبل الشعراء أو القصاص الخ . . . وأخيراً وفي كتاب غني وممتع [Gli eroi greci] صادر سنة ١٩٥٨ وصف مؤلفه أربربيليش A . Brelich «البنية المورفولوجية» للابطال هكذا : انهم شخصيات لموتهم مكان خاص ولهم علاقات صميمية بالمعركة ، أو المصارعة ، أو العرافة ، أو الطب أو مسارة للبلوغ ، أو الأسرار ، وهم يبنون المدن ولعبادتهم صفة مدنية ، انهم اجداد لمجموعات متحدة بالدم و «الممثلين لنموذج محتذى» لبعض النشاطات البشرية الأساسية . والابطال اضافة لذلك يميزون بسمات خاصة لا بل غولية ، وبتصرفات شاذة تفصح عن طبيعتهم الفوق بشرية^(٣٩) .

وفي عبارة موجزة يمكن القول إن الابطال اليونان يتقاسمون نموذجاً وجودياً «أعلى» من الانسان ولكنه ليس الها خاصاً Sui generis وهم يؤثرون في عصر بدئي وبدقة ذلك الذي يتلو النشكونية وانتصار زوس (ف ٨٣ - ٨٤) . ان نشاطهم يتحول بعد ظهور البشر ، ولكن في عصر البدايات عندما لم تكن البنى قد تثبتت

والمفاهيم قد اقيمت بما فيه الكفاية . وإن طرازهم الخاص كائن مشوه الصفة الغير مكتملة والمتضادة منذ عصر «الأصول» .

إن ولادة وطفولة الأبطال تتميز عن المؤلف . فهم يتحدرون من الآلهة : ولكنهم يشتهرون بالحصول على «ابوة مزدوجة» (هكذا هرقل - مولود من زوس وامغتريون ؛ وتيزيه من بوزيدون وايجييه) أو ان ولادتهم غير نظامية (ايجيس ثمرة التحريم من تيسست مع ابنته الخاصة) . إنهم أهملوا بعض الوقت بعد ولادتهم (اوديب ، بيرسيه ، زيوس الخ) . وتغذوا بلبن الحيوانات^(٤٠) ، وامضوا شبابهم بالسفر في بلدان متباعدة وتفردوا بمغامرات لا حصر لها (بصورة خاصة امجاد رياضية وحرية) . واحتفلوا باعياد الهية بين الأكثر شهرة منها أعراس بيليه ، وتيتيس ونيوليه وجازون الخ ...

ويتميز الابطال بشكل خاص بهم من الابداعية ، يمكن مقارنتها بابداعية الأبطال المحضرين للمجتمعات القديمة . تماما كالأجداد الاسطوريين الاستراليين ، يغيرون المشهد الطبيعي ومعنيون بأن يكونوا من «أهل البلاد» (السكان الأول لبعض الأقاليم) واجداد الاعراق ، والشعوب او العائلات (الأرجيون يتحدرون من أرجوس والاركاديون من آركوس الخ ...) فقد اخترعوا - بمعنى «اسسوا ، كشفوا ، عدداً من المؤسسات الانسانية : قوانين المدينة ، وقواعد الحياة المدنية ، الزواج الاحادي ، التعدين ، الغناء ، الكتابة .. التعبئة الخ .. وهم أول من اخترع بعض المهن . انهم مؤسسو المدن بامتياز ، والشخصيات التاريخية الذين بنوا مستعمرات اصبحوا بعد موتهم ابطالاً^(٤١) وزيادة على ذلك فإن الابطال أحيوا الألعاب الرياضية ، وان واحدة من الاشكال المميزة لطقوسهم هي مسابقة المصارعة . وحسب أحد التقاليد ، كانت الألعاب الأربعة الكبرى مما قبل الهيلينية مكرسة للابطال قبل ان تعود لزوس (ان طقس المصارعة الأوليمبية ، على سبيل المثال ، كان يحتفل به على شرف بيلويس pelops ، وهذا ما يفسر اعتبار المصارعين المنتصرين ابطالاً ومشهورين^(٤٢) . ان بعض الابطال (أخيل تيسيه الخ) مشاركون في شعائر المسارة للمراهقين ، وعبادة الابطال تتم في المؤلف من قبل المراهقين les epeles^(٤٣) .

ان عدداً من مشاهد القصائد (الساغا) لتيزيه ، هي في الواقع تجاربه المسارية : وهكذا امتدادها الشعائري في البحر ، تجربة موازية لسفر في الآخرة ، وبدقة في القصر تحت البحر للنيريدات ، الجنيات المفتخرات courolrophoe . وهكذا فإن دخول تيزيه في المناهة ومعركته مع الغول (minotaure) هو نص نموذجي للمسارات البطولية ، وهكذا ، عملية اختطاف آريان ، فهي واحدة من مجموعة تجليات افروديت ، اكمل فيها تيزيه مسارته بواسطة تعدد الزيجات . وحسب رأي احد الباحثين هـ . جين مير) فإن الاحتفالات التي كانت تشكل التيزيا les theseia ستكون مستمدة من شعائر قديمة ، والتي كانت في عصر سابق تميز عودة المراهقين الى المدينة بعد اقامتهم المسارية في الريف^(٤٣) . كذلك الأمر ، فإن بعض الفترات من خرافة آخيل تركت لتروى كتجارب مسارية : كان ربي من قبل الصنتورات les centoures ، أي أنه اعطي السر في الريف من قبل معلمين مقنعين masques أو متظاهرين تحت مظاهر حيوانية ، ولقد تحمل المرور في النار وفي الماء ، وهي تجارب تقليدية للمسارة ، وحتى انه عاش بعض الوقت بين الفتيات ، مرتديا ثياب فتاة ، متبعاً عادة مميزة لبعض المسارات القديمة من التطهير^(٤٤) .

والابطال مشاركون في الاسرار ايضاً : فتريبوليم Tripoleme له مزار ، وايمولب Eumolpe له قبر ، في ايلوزيس (بوزانيا ١ - ٣٨ - ١٦ - ٤٣٨) . واطافة لذلك ، فإن عبادة الابطال متضامنة مع وساطات الوحي des oracles ، وعلى الاخص شعائر الحضان (الرخم) incubation التي ترمي للاشفاء ، (كالشاس ، امغياروس ، موبسوس الخ) . بعض الابطال لهم اذن علاقات بالطب (وفي المكان الأول اسكلييوس)^{٤٥} .

وثمة سمة مميزة للابطال هي موتهم . فبعضهم نقل استثناء الى جزر السعداء (على سبيل المثال مينيلاس) ، وفي الجزيرة الاسطورية لوسيه ، واخيل على الاوليمب) . أو يختفون تحت الارض (تروفونيوس ، امفياروس) ، ولكن الاكثرية الساحقة تتحمل موتاً عنيفاً في الحرب (على سبيل المثال ، الابطال الذين تكلم عنهم هزيود ، المتساقطين أمام طيبة وطروادة) ، في معارك منفردة ، أو

بخيانه (اغامنون قتل من قبل كليتمستر ، ولايوس من قبل أوديب الخ) . وفي العديد من المرات يكون موتهم مأساوياً بصورة خاصة : اورفيه ، وبانتيه قطعوا اجزاء صغيرة ، وآكتيه مزق من قبل الكلاب ، وغلوكوس وديوميد وهيوليت مزقوا بواسطة الخيول ، أو انهم افترسوا او صعقوا من قبل زوس (اسكليپوس ، سالمونوس ، ليكاون الخ) أو عضتهم افعى (اربيت سوبوس الخ) ^{٤٦} .

ومع ذلك ، فإن موتهم هو الذي أضفى وأعلن شرطهم الأعلى من الانسان . انهم لو لم يكونوا فانيين لكانوا كالألهة ، والابطال يتميزون عن البشر بواقعة انهم يستمرون في العمل بعد موتهم ، فجثث الابطال مثقلة بقوى كبرى سحر - دينية ، ورفاتهم ونصبهم تؤثر على الأحياء خلال قرون طويلة . وفي معنى آخر يمكن القول ان الابطال يقتربون من شرط الألوهية بفضل موتهم : انهم يتمتعون بوجود تال غير محدود والذي ليس هو بدئي وليس هو روحي صرف وانما يتركب في استمرار حياة خاصة sui generis ، باعتبار أنه يتعلق ببقايا او برموز من اجسادهم .

وفي الواقع ، وخلافاً للعرف العام ، فإن جثث الابطال هي مدفونة في داخل المدينة ، وهي مقبولة حتى في المعابد (بيلوس في معبد زوس في الأوليمب ، ونيوبتوليم في معبد ابولون في دلفي) . ان قبورهم وانصابهم تشكل المركز لعبادة البطولة : اضاحي مترافقة بمنادب شعائرية ، طقوس حداد ، « جوقات مأساوية » ، (الاضحيات المنذورة للابطال كانت مماثلة لتلك المقدمة للآلهة الجهنمية ، وتتميز عن الاضحيات المقدسة للأوليمبيين - وكانت الاضحيات تذبح واعناقها نحو السماء بالنسبة للأوليمبيين ، ومنخفضة نحو الأرض بالنسبة للآلهة الجحيم والابطال ، وكان من المتوجب ان تكون الاضحية بيضاء بالنسبة للأوليمبيين ، وسوداء بالنسبة للابطال وآلهة الجحيم ، وكانت الضحية تحرق بكاملها ولا يسوغ لأي شخص حي ان يأكل منها ، وان نموذج المذبح الأوليمبي كان المعبد الكلاسيكي ، فوق الأرض ، وحيانا على شيء من الارتفاع ، بالنسبة للابطال وآلهة الجحيم ، وموقد في الاسفل ، ومغارة تحت الأرض او (اديتون adyton) الذي ربما كان يمثل قبراً ، وكانت اضاحي الأوليمبيين تقدم في صباحات مشمسة ، أما اضاحي الابطال وآلهة الارض في الليل أو وسط الليل ^(٤٧) .

ان كل هذه الوقائع تبرز القيمة الدينية (للموت) البطولي ولجشت
الابطال . فب وفاة البطل يصبح عبقرية ، حاميا يحمى المدينة ضد الغزوات
والامراض وكل انواع الكوارث . ففي الماراتون يرى تيزيه يقاتل على رأس
الاثينيين [بلوتارك - ٣٥ - ٥] وهناك امثلة كثيرة اخرى ، ولكن البطل يتمتع
ايضاً بخلود من نوع روحي ، وبدقة بالفخار واستمرارية اسمه . انه يصبح ،
هكذا ، لانقاذ اسمائهم من النسيان النهائي ولتابعة الحياة في ذاكرة البشر . ان
اضفاء البطولة على اشخاص حقيقيين - ملوك اسبارطة ، على المحاربين الذين
سقطوا في الماراتون او في بلاتيه - تفسر باجسادهم الاستثنائية ، التي تفصلهم عن
بقايا الأموات وتضعهم في صنف الأبطال (٤٨٠) .

لقد نقلت الينا اليونان الكلاسيكية ، وبخاصة العصر الهيليني ، نظرة
« رقيقة المستوى » عن الابطال . وفي الحقيقة ان طبيعتهم استثنائية ومتناقضة ،
بل زائفة وضالة .

فالابطال يبدون انهم خيرون واشرار في آن واحد ، وهم يستجمعون
الصفات المتناقضة . انهم غير محترمين (اشيل) ومع ذلك انتهوا بالاغتيال ، انهم
يتميزون بقوتهم وجمالهم ولكن ايضا بسماتهم الشنيعة (قائمة عملاق ، هرقل ،
اخيل ، اوريسيت بيلوس - ولكن ايضا ادنى بكثير من الوسط ٤٩) . . قابلون
للمسخ حيوانات . . . بعضهم خنثى (سيكروب) او يغيرون جنسهم (تيريزيا)
او يتنكرون بامرأة (هرقل) . وازافة لذلك فإن الابطال متميزون بالعديد من
انواع الشذوذ (خلو من الرأس ، او تعدد الرؤوس ، هرقل يتمتع بثلاثة صفوف
من الاسنان) . انهم على الاخص عرجان ، عوران ، أو عميان . ومرات كثيرة ،
يسقط الابطال ضحايا الجنون (اوريسيت بيليروفون حتى الشاذ هرقل ، عندما
ذبح الابناء الذين اعطاهم له ميجار (mégare) . أما بالنسبة لسلوكهم الجنسي فهو
حاد وطائش : فهرقل خصب في ليلة واحدة البنات الخمسين ليتسيبيوس
Thespios ، وتيزيه ، اشتهر بالعديد من سطواته (هيلين آريان الخ) وأخيل
اغوى ستراتونسي . ان الابطال يرتكبون المحرمات مع بناتهم أو امهاتهم ،

ويذبحون بغيرة او بغضب ، او في مرات عديدة بدون سبب ويقتلون حتى آبائهم او امهاتهم او اقربائهم .

ان كل هذه السمات المتناقضة والشنيعة ، وهذه الصفات الطائشة ، تذكر بليوننة ازمان « الأصول » عندما لم يكن قد خلق بعد « عالم البشر » . . ففي هذا العصر الأولي ، كانت القوضى والتعسفات من كل نوع (أي كل ما سيهجر بعد وقت متأخر ، كشناعة ، او ذنب او جرم) تستدعي مباشرة او بصورة غير مباشرة العمل الخلاق . مع ذلك فإنه بعيد خلقها - مؤسسات - قوانين - تقنيات فنون الخ . . . نشأ عالم البشر حيث ستحرم الجرائم والتجاوزات . وبعد الابطال ، في « عالم البشر » سيغلق نهائياً الزمن الخلاق للاساطير .

ان افراط الابطال لم يعرف حدوداً . فقد تجاسروا على اغتصاب حتى الربيات (اريون وأكتيون هاجما ارميز ، واكسيون هاجم هيرا الخ) ، ولم يترددوا ابداً امام العمل المدنس للقدسيات (اجاكس اعتدى على كاساندر قرب مذبح أتينا) واخيل صرع تروالوس في معبد ابولون) . ان هذه المخازي وتدنيس المقدسات تشير الى (نوع من الهجانة) لا حد لها ، وهي سمة مميزة للطبيعة البطولية [ف ٨٧ع] . ان الابطال يواجهون الالهة كما لو أنهم متساوين معهم ، ولكن هجانتهم هي دائمة وبقسوة ، عرضة للعقاب من قبل الأولمبيين . ولا يوجد سوى هرقل الذي يظهر ان هجانه غير معرضة للعقاب (عندما يهدد مهاجمة الالهين هيلوس واوكينوس) . ولكن هرقل هو البطل الكامل (البطل الاله) كما يسميه بندار [النيمين ٢٢] ، وفي الواقع ، انه الوحيد الذي لا يعرف لا قبره ولا رفاقه ، لقد انتصر على الخلود بانتحاره المؤله على المحرقة ، لقد تبنته هيرا وأصبح الها ، مقيماً بين الالهة الأخرى على الأولمب . ويمكن القول بأن هرقل قد حصل على شرطه الالهي تبعاً لسلسلة من التجارب المسارية التي خرج منها منتصراً ، ويعكس جلقامش [ف . ٢٣ع] وبعض ابطال الاغريق ، الذين رغم هجانتهم الغير محدوده فشلوا في جهودهم بالوصول للخلود .

ان صوراً مشابهة للابطال الاغريق تصادف ايضا في أديان اخرى . ولكن
ليس سوى في اليونان ، ان البنية الدينية للبطل عرفت تعبيراً على مثل هذا
الكمال ، وانه ليس سوى في اليونان تمتع الابطال باحترام ديني مرموق وغزوا
الخيال والتفكير ، واثاروا الابداعية الأدبية والفنية /٥٠/

حواشي الفصل الحادي عشر

- ١ - في بيلوس في عهد الاخيين ، كان بوزيدون يتمتع بوضعية دينية صرفة أعلى من وضعية زوس .
- ٢ - تذكر الاليادة في اول نشيد ان بوزيدون تأمر مع الآلهة على تقييد شقيقة .
- ٣ - L. palumer - ساسينين ومينوس ص ١٢٧
- ٤ - teagomie - ٩٢٧ ابولدور - وفي الاليادة (١ - ٥٧٨) فإن هينتوس يؤكد قرابته بزوس .
- ٥ - ماري ديلكور - هيتسنوس واسطورة الساحر ص ٤٢
- ٦ - في النزول في عرض البحر ، فإن تيزيه حصل على الخاتم والعرش السحري - من صنع هيفستوس الذي سمح بالدخول والخروج من المتاهة .
- ٧ - عنصر آخر مميز للتقاليد الشامانية والحدادين - السحرة : هيفتوس تعلم منه في مغارة الموت . أو القرن تحت الارض .
- ٨ - ر- ح الياد . - الآلهة الموصل - ورموز العقد . ص ١٢٠ .
- ٩ - الانشودة الهوميرية لابلون ٣٠٠ ابو لورود . ص ٤
- ١٠ - لقد انقذ الطفل الذي ستضعه اسكيلوس . وهذا الاخير اصبح طبيباً شهيراً وممثل التعليم الذي به اعادت ارميس للحياة هيوليت - وهذه الاعجوبة تعارض القوانين المثبتة من قبل زوس ملك الآلهة . وابولون ثار بذبحه للسيلكوبوس الذين صنعوا الصاعقة . مذنب بجرم تجاه قبيلته (السيكلوب بصفتهم تيتان مثل ليوتو) وقد طرد ابولون خلال عام من بين الفانين ، وعمل كعبد من اجل آدميتوس .
- ١١ - ماري ديلكو - اعجوبة دلفي ص ٢١٥
- ١٢ - اقدم مراجعة توجد في قصيدة آلسيه حوال (٦٠٠ ق.م لمضت من قبل خطيب متأخر هيميريوس في القرن السادس ق.م .

١٣ - مارتان نيلسون - فوللكوروديانته الاغريق - ٧٩٥
١٤ - ورد النص في المحاوراة من الجمهورية رقم ٤٢٧ على لسان سقراط - ولم يبق علينا
كشارعين شيء ، ولكن بقي لابلو إله دلفي ان يسن اشرف الشرائع واعظمها
واسماها ... ويقوى ... في حال تأسيس دولة لا نقبل شرفاً ، اذا عقلنا ، الاشرح اله
البلاد ، لأن هذا الاله هو المفسر الاوحد لجميع الناس في مواضع كهذه ، جالساً في نقطة
الكون المركزية (الجمهورية - افلاطون) .

١٤ - ١٥ كانت العادة تتطلب ان الفاعل ، حتى ولو بغير إرادته يقتل بواسطة الاسرة ، وكان
هذا الاجراء هو الوحيد الممكن لاطفاء روح الضحية وابعاد القزارة الناتجة عن الجرم .
قانون دراكون أدخل سلطة الدولة مكان الانتقام : ومحكمة المدينة . اصبحت هي التي
تفصل في الحرم وتسلم المجرم بعدئذ لعائلة الضحية .
١٥ - الافعى الانثى delphyne ولدت من الأرض وتركت المكان لافعى ذكر .
١٦ - نقوش من قبل De l'out .
١٧ - التنبؤ القديم البسيط في ظاهره ، كان له نموذج محترم : زوس كان اختار من بين المقدر
لهم .

١٨ - بلوتارك - Pythie - ٧ .
١٩ - الشهادات الأولى المتعلقة بالهوة ترجع الى القرن الأول ق . م .
٢٠ - مراجع متعددة اشار اليها المؤلف .
٢١ - ر.ز اوتو - الهوميرية .
٢٢ - هذه المادة مؤكدة ايضاً عند عدد من الشعوب ذات العلاقة بالاسفار .
٢٤ - انظر المصادر المذكورة من قبل هوغوراهز - اساطير اليونان واسرار المسيحية من (١٣ -
(٢١
٢٥ - ٢٦ المراجع المشار اليها .

٢٧ - اليازة ١ - ٥٦٧ - ٥٨٧ - ١٨ x ٧ في المعيار الذي نستطيع ان نقرأ في مشاهد كهذه
ذكرى الحقائق التاريخية ، ويتعلق بالتأكيد بعصر قديم جداً سابق لمجيء الأخينين في
الارخبيل وما له دلالة هو الفعل الذي استطاع فيه هومر وانصاره التسلية بمثل هذه
الترهات .

٢٨ - بوزانيان ٢ - ٣٦ - ٢ - الذي يذكر ايضاً العبادات السرية لهر في ارغوس وهو ما يبدو
استثنائياً (لروز) ص ١٢٠ .

٢٩ - صحيح ان آريس كان مكروها من كل الالهة التي تسميه مجنوننا لأنه لا يعلم (ما هو الصحيح) (الاليازة ٧ - ٧٦١) - وزوس نفسه اعترف ان أي اوليمي ليس مكروها ايضا لأنه لا يفكر الا بالحروب والمعارك .

٣٢ - ابولودور ص ٢١ - ٨٧ - ٣

٣٣ - الالهة الهوميرية ص ٥١ - هومر لم - يجرتورية لهذه الاسطورة كما مرت من جهة اخرى بكتمان تاريخ كرونوس ولكنها تدعو اتينا ابنة الأب .

٣٤ - الهجاء الهومري -

٣٥ - m, Deteeme (ستينة اتينا)

٣٦ - ليس سوى بعد وقت متأخر اصبح اريس اله الحرب زوجها (الادوديسة ٨ - ٢٦٦ - ٣٦٦ - انه حببها .

٣٧ - الصدفة رمز في آن واحد مائي وجنسي ويشكل جزءاً منها هيراتها . مقس اخقفص

٣٨ - ياريس تغذي بحليب دبة - وهيفستوس عن طريق غزالة الخ ... وهذا الباعث المساري منتشر جداً (ف . ١٠٥ ع)

٤٢ - مثل فليفوريد في الالعب الاوليمية ويسايناس [٤٩٦]

٤٣ -

٤٤ - ولادات اسطورية H leun,qis ص ٢٢٩

٤٥ - ٤٦ - انظر الوثائق عند ص ١٠٦

٤٩ - اليونان وألهتهم - والياد . ص ١٨

٥٠ - السلافات المتأخرة للبطل سيتم تحليلها في آخر قسم من هذا الكتاب .

الفصل الثاني عشر

اسرار ايلوزيس*

٩٦- الاسطورة : بيرسفونة في مقر نفوس الاموات.

« ان مؤلف نشيد ديمتر كان قد هتف ، سعيد من الناس من هوجي على الأرض التي رأت هذه الأسرار ، ولكن من لم يتلق السر ولم يساهم بالشعائر ، فليس له بعد الموت ، شيء من الطيبات هنالك في ظلمات مستقره » [ر . ٤٨ - ٤٨٢] .

* ايلوزيس - بلدة من الآتيك : (مقاطعة من اليونان القديمة إلى الشمال الشرقي من البيلوبونيز إلى الشمال الغربي من آثينا التي كان يوجد فيها معبد cere s ديمتر حيث كانت تقام احتفالات سرية شهيرة .

ان النشيد الهومييري لديميتر يقص في آن واحد الأسطورة المركزية للربتين ،
وتأسيس اسرار ايلوزيس . فقد اختطف بلوتون = (هادس) إله مقر نفوس
الأموات ، اختطف كوريه = (بيرسفونه) ابنة ديمتر بينما كانت تقطف الزهور في
سهل نيز Nyse . واستمرت ديمتر تبحث عنها تسعة أيام ، لم تذق خلالها طعام
الآلهة (الرحيق) l' ambroisi . واخيرا ، يعلنها هليوس Helios بالحقيقة : زوس
هو الذي قرر تزويج كورية koré من شقيقه بلوتون ، ولم تعد ديمتر المثقلة بالحزن
والمستشاط غضباً من ملك الآلهة ، لم تعد الى الأوليمب ، وتحت مظهر امرأة
عجوز ، توجهت صوب ايلوزيس وجلست بالقرب من بثر العذارى . وبناء على
استئلة بنات الملك سيليه Céleé ، اعلنت الربة ان اسمها كان دوسو Doso وأنها
جاءت هرباً من اللصوص الذين جروها بالقوة من كريت . لقد قبلت الدعوة
لتغذية الوليد الأخير للملكة ميتانير Métanaire . ولكنها بدخولها القصر ، جلست
الربة على مقعد وبقيت صامته لفترة طويلة ، ماسكة بالحجاب امام وجهها .
واخيراً نجحت احدى الخادومات ايامبيه Iambé بأن تجعلها تضحك بدعاباتها
الثقيلة . . وقد رفضت ديمتر تناول كأس الخمر الأحمر المقدم اليها من ميتانير
وطلبت Cyreom ، الخليط المصنوع من برغل الشعير ، والماء ونعنع الحقل . ان
ديمتر لم ترضع ديموفون Démophon ولكنها دلكته بالرحيق (طعام الآلهة
Ambroisi ، واثناء الليل اخبأته كجمرة في النار . وأخذ الطفل يشبه اكثر فأكثر
الها : وفي الواقع ، ان ديمتر قد ارادت ان تجعله خالداً وشاباً للأبد . ولكن
ميتانير اكتشفت في احدى الليالي ان ولدها في النار وبدأت تنتحب فصرخت
ديمتر « أيها الناس ، الجهلة ، الغافلون الذين لا تعرفون ان تروا قدركم لساعة
ولا تعاستكم » . ومنذئذ لن يستطيع ديموفون ان ينجو من الموت . عندئذ
انكشفت الربة بكل تألقها وعظمتها ، وانطلق من جسدها نور مبهر . فطلبت ان
يقام لها (معبد كبير) وتحت مذبج ، حيث انها بذاتها ستلقن شعائرها للبشر ، ثم
تركت القصر بعدئذ .

وما أن بني المعبد حتى انكفأت ديمتر للداخل كاملة برغبة ابنتها . وعندئذ
اثارت جفافاً مرعباً ، اجتاحت الأرض . وعبثاً ارسل زوس رسله راجياً منها العودة

لما بين الآلهة ، وقد اجابت ديمتر انها لن تضع قدمها على الأولمب ، ولن تترك العشب ينمو قبل ان ترى ابتتها ، وكان زوس مكرها على الطلب من بلوتون لأن يأتي بيرسفونة وخضع سيد الجحيم للأمر . ومع ذلك نجح في ان يدخل في فم بيرسفونة بذرة من حبة الرمان واكرهاها على ابتلاعها ، الأمر الذي حدد العودة السنوية لبيرسفونة ، خلال اربعة أشهر ، بالقرب من زوجها ^(١) ، وبعد ان وجدت ديمتر ابتتها رضىت بعودة الانضمام للآلهة ، وعادت الأرض باعجوبة لتغطي بالخضرة . الا انها قبل ان ترجع إلى الأولمب كشفت الربة شعائرها وعلمت اسرارها الى ترييتوليم ، وديوكليس وايمولويس وسيليه « الشعائر العليا التي لا يمكن انتهاكها او اختراقها او تحويرها : احترام الربات قوي يوقف الصوت » [٤١٨ - ترجمة ح - هيوبرت]

ان النشيد الهوميري يقرر نموذجين من المسارة ، وبدقة اكثر ، إن النص يفسر بناء اسرار ايلويزيس في آن واحد باجتماع الربتين وكأثر لسقوط التخليد لديموفون . ويمكن مقارنة تاريخ ديموفون بالأساطير القديمة الراوية للخطيئة المأساوية التي ، في احدى فترات التاريخ الأولي ، الغت امكانية تخليد الانسان . الا انه في هذه الحالة ، لا يتعلق بالخطأ أو /بذنب/ احد الأجداد الاسطوري ، المضيع ، بالنسبة له ولذريته ، شرطه الأول للخلود ، فديموفون لم يكن شخصية بدئية ، لقد كان المولد الأخير للملك . ويمكن تفسير قرار ديمتر بتخليده كما لو انها رغبة « بتبني » ولد « الذي قد يعزيها عن فقدان بيرسفونة » وفي ذات الوقت كما لو انه انتقام ضد زوس والأولمبيين . لقد كانت ديمتر على أهبة تحويل انسان لاله . ولقد كان للربات هذه القدرة بمنح الخلود للبشرية ، والنار ، أو شواء الحدث neophte كانت تحتسب من بين الوسائل الاكثر انتشاراً . ان ديمتر وقد فاجأتها ميثاير لم تخف احباطها تجاه غباء الانسان . ولكن النشيد لا يدع أية اشارة لظرفية التعميم لهذه التقنية من الخلود ، أي لبناء مسارة قابلة لتحويل البشر إلى آلهة بواسطة النار .

وقد كشفت ديمتر هويتها بعد خيبتها بتخليد ديموفون فأمرت بأن يبنى لها معبد ، ولم تعلم الشعائر السرية الا بعد ان وجدت ابتتها . ان المسارة من نوع

صوفي تميزت بوضوح عن تلك التي قطعتها ميتانير . فالملتقن بأسرار ايلوزيس لم يحصل على الخلود . وان ناراً كبرى اضاءت بعض الوقت معبد ايلوزيس . ولكن مع انه تعرف بعض امثلة من تحريق الموتى ، فقد يمكن ترجيح ان النار كانت تلعب دوراً مباشراً في المسارات .

ان القليل الذي نعرفه عن الحفلات السرية يدل على ان السر المركزي كان يدخل حضور ربتين . وبالمسارة كان الشرط البشري يتحول ، واغما في معنى آخر غير معنى التحول المحبط لديموفون . وتصر النصوص النادرة القديمة التي تنعكس مباشرة على الاسرار على السعادة الاخرية Postmortem للمسارين . كما ان العبارة : « سعيد من البشر . . . » من نشيد ديميتير يرجع كلاً لزاماً . فقد هتف بندار « سعيد من رأى هذا قبل ان يمضي تحت الأرض ! » . « انه يعرف نهاية الحياة ! » وانه يعرف ايضاً البداية ! . . . » [ترينوا فقرة ١٠] . « أيها السعداء ثلاث مرات ، الذين انتم من الفانين ، بعد ان تأملتم هذه الاسرار ، ستذهبون لعند هادس ، انتم وحدكم ستستطيعون العيش هنالك ، وبالنسبة للآخرين كل شيء سيكون عذاباً ومعاناة » [سوفوكليس ٧١٩ - ديندورف ٣٤٨ - ديدو] . وبعبارات أخرى وعلى اثر الاشياء التي رؤيت في ايلوزيس فإن روح الملقن بالاسرار ستمتع بعد الموت بوجود سعيد . انها لن تصبح ابداً الظل التعيس والمتساقط ، دون ذاكرة او حيوية ، ومرتاعة بالابطال الهوميرية .

ان نشيد ديميتير لم يفعل شيئاً سوى الاشارة للزراعة ، مؤكداً ان تربيتوليم هو أول ملقن بالاسرار . وعليه ، وطبقاً للتقليد ، فإن ديميتير قد ارسلت تربيتوليم ليعلم الزراعة للاغريق . وقد فسر بعض الكتاب الجفاف الرهيب كنتيجة لسقوط بيرسفونة في مقر الأموات ، وهي ربة النبات . ولكن النشيد يؤكد بأن الجذب قد اثر من قبل ديميتير بعد زمن طويل ، وبالذقة عندما انزوت في معبدها الذي اشيد لها في ايلوزيس . ويمكن الافتراض مع والتر اوتو Walter otto بأن الاسطورة الأصلية تكلمت عن زوال النبات ، ولكن ليس القمح ، لأنه قبل اختطاف بيرسفونة لم يكن قد عرف القمح بعد . ان العديد من النصوص والآثار المصورة تؤكد ان القمح قد انتج من قبل ديميتير بعد مأساة بيرسفونة . وعليه يمكن اذن حل

الرموز هنا لاسطورة قديمة تفسر خلق الحبوب بموت ربة الالهة (ف ١١ ع) . ولكن بيرسفونة بمشاطرتها في شرط الخالدين الأولمبيين ، لا يمكن لها ان « تموت » مثل الآلهات من طراز ديماء dema او كالهة النبات . ان السيناريو الاسطوري - الشعائري القديم ، الممدد والمطور باسرار ايلوزيس ، قد أعلن عن تضامن النظام الاسطوري بين الزيجة المشتركة ، والموت العنيف ، والزراعة والأمل بوجود سعيد فيما بعد القبر ^(٢) وفي آخر المطاف ، فإن الخطف - بمعنى الموت الرمزي - لبيرسفونة كان له نتائج بارزة بالنسبة للبشر . فمنذئذ سكنت موقتا ربة اوليمبية محسنة مملكة الموتى . ولقد حذفت المسافة التي لا يمكن اجتيازها بين الهادس والأوليمب . وكانت كوسيطه بين العالمين الالهيين تستطيع منذئذ التدخل في مصير الفانين . وباستعمال عبارة اثيرة لدى اللاهوت المسيحي يمكن القول felix culpa « الخطيئة السعيدة » !* تماما كالتخليد المصاغ لديموفون الذي استدعى التجلي المبهر لديميتر وبناء الاسرار .

٩٧ - المسارات : حفلات عامة وشعائر سرية .

حسب التقليد ، فإن أوائل سكان اوليزيس كانوا من تراقيا Thraea : ومن احدث الحفريات الاثرية امكن اعادة تكوين الجزء الأكبر من تاريخ المعبد . وايلوزيس تبدو أنها قد استعمرت حوالي ١٥٨٠ - ١٥٠٠ ق.م . ولكن المعبد الأول (غرفة مع عمودين داخليين يحملان السقف) قد انشيء في القرن الخامس عشر ، وفي القرن الخامس عشر ايضاً انعشت الأسرار .

* Felix culpa - كلما نقلت من عظة للقديس اوغسطين في نشيد ينشد في السبت المقدس .
وسانت اوغسطين يشير بهذا تورية لسقوط الآباء الأول الذي قدره المخلص وخلص منه الابناء .
(معجم اللاروس)

وقد احتفل بالأسرار في ايلوزيس خلال ما يقرب من ألفي عام ، ومن الراجح جداً ان بعض الحفلات قد تحولت خلال مجرى الزمان . فالصياغات وإعادة الصياغات المنجزة منذ عصر ريزيسترات Risitrat تدل على الاندفاع والتقدير المتنامي للعقيدة . ان الجوار وحماية آثينا قد اسهمتا بالتأكيد في اقامة الاسرار حتى في مركز الحياة الدينية الماقبل هيليني . وتنعكس الشهادات الأدبية والتصويرية ، خاصة في المراحل الأولى من المسارة ، التي لم تكن تتطلب السر ، وهكذا استطاع الفنانون تمثيل مشاهد ايلوزيسية على الأواني والنقوش الضئيلة البروز . وقد اشار ارسيتوفان في (الضفادع ٣٢٤) لبعض المشاهد من المسارة . وهذه قد لاءمت عدة درجات .

ويجري التمييز بين الاسرار الصغيرة وطقوس الاسرار الكبيرة leste`lete والتجربة النهائية l'épopteia وان الاسرار الحقيقية deste`lete للتليتيته والأوبوتيا lépoptia لم تغش أبدا .

الاسرار الصغيرة كانت يحتفل بها عادة مرة واحدة في السنة ، في فصل الربيع ، خلال اشهر انتيستريون Anthestriون . وكانت الاحتفالات تجري في اغرا agra ، مدينة صغيرة تابعة لاثينا وتشتمل هذه الاحتفالات على مجموعة من الشعائر (صيام تطهير / ضحايا ، وتتم تحت ادارة معلم الاسرار mgstagogue . ومن الراجح ان بعض مشاهد اسطورة الربتين كان يعاد اجراؤها من قبل التائقين للمسارة ، كذلك ، مرة في السنة في شهر Boedromion (ايلول - تشرين) كان يحتفل بالاسرار الكبرى . وقد كانت الحفلات تدور خلال ثمانية أيام ، و« كل من لهم ايدي نظيفة » ويتكلمون اليونانية ، ومن بينهم النساء والعبيد ، لهم حق المشاركة فيها ، بالتأكيد اذا كانوا قد اكملوا الشعائر الأولية في الربيع في أغرا .

في اليوم الأول ، كان يجري العيد في اليزينيون اثينا Eleusiniony ، Athènes . حيث كانت الأشياء المقدسة تنقل في المساء احتفاليا من ايلوزيس ، وفي اليوم الثاني يتجه الطواف صوب البحر . وكان كل تائق للمسارة ، مصحوباً بوصييه يحمل معه خنوصاً (خنزيراً صغيراً) فيغسله بالأمواج ويضحى به مع

العودة لأثينا وفي اليوم التالي ، وبحضور ممثلين عن الشعب الأثيني والمدن الأخرى ، يقوم الآرخون بازيلوس l'Archon Bawsileus وزوجته بانفاذ الضحية الكبرى . وكان اليوم الخامس يميز ذروة الاحتفالات العامة . تطواف ضخمة ينطلق مع الفجر ، من أثينا وكان المهتدون الجدد neophyte وأوصياؤهم وعدد من الاثينيين يرافقون الكاهنات اللواتي يحملن الاشياء المقدسة leshiera . وحوالي نهاية بعد الظهر يكون التطواف قد اجتاز جسراً على الكيفيسوس kephisios ، حيث كان يطلق رجال مقنعون الشتائم ضد المواطنين الأكثر أهمية^(٤) ومع قدوم المساء ، كان حملة المشاعل المتقدة والحجاج يخترقون الساحة الخارجية للمعبد . وكان قسم من الليل مكرس للرقصات والأغاني على شرف الرباب وفي اليوم التالي كان المرشحون يصومون ويقدمون الاضاحي ، أما بالنسبة للشعائر المقدسة (telété) فقد وصلت اليها كافتراضات . وكانت الحفلات التي تجري امام وداخل مكان اجراء (التيليتيه) المسمى (تيليتيديون) تتعلق على الأرجح بأسطورة الربتين . ومعلوم أن متلقي الأسرار mystes والمشاعل في ايديهم ، كانوا يحتدون جولة ديمتر وهي تفتش عن ابنتها كوريه Kore ، على ضوء المشاعل الموقدة .

وسنذكر الجهود الجارية من أجل اختراق سر التيليتيه destéletes . ونضيف ان بعض الحفلات كانت تقتضي اللوغومينا deslogomena ، تعبيرات مختصرة ، طقسية ودعائية لم نتعرف عليها ، ولكن أهميتها كانت معتبرة ، وهذا هو السبب الذي من أجله كانت المسارة محظورة على من لا يتكلم اليونانية . ولا نكاد نعرف شيئاً عن الشعائر المنجزة خلال اليوم الثاني المنقضي في ايلوزيس . ومن الراجح انه خلال الليل كان هنالك مجال لزروة العمل من المسارة ، النبوة القصوى lepoteia ، المقبولة فقط من اولئك الذين كانوا تلقوا المسارة منذ سنة ، وكان اليوم التالي مكرساً بصورة خاصة للشعائر والذبائح من أجل الموتى وفي الصباح - تاسع وآخر يوم من الاحتفال - كان متلقو لاسرار mystes يعودون الى أثينا .

٩٨ - هل يمكن معرفة الأسرار ؟

في جهود العلماء الرامية لمعرفة سر التيليتيه والايوبيتا ، استعمل هؤلاء العلماء ليس أوهام الكتاب القدامى فحسب ، بل وايضاً بعض المعلومات المنقولة

من قبل المنافحين عن النصرانية lesapologistes المسيحيين ، فتعليمات هؤلاء الاخيرين يجب لها ان تدرس ببصيرة ، ومع ذلك ، لا يمكن تجاهلها . ومنذ فوكارت Foucart كثيراً ما جرى التمسك بمقطع من التيمستيوني Themistion ، ذكره بلوتارك وحفظ من قبل ستوبيه Stobee ، والذي قورنت فيه تجارب الروح ، مباشرة بعد الموت بتجارب الملقن بالاسرار الكبرى : في البدء ، يتوه هذا في الظلمات ، ويعاني كل انواع الرعب ، ثم ، وفجأة ، يصطدم بنور خارق ويكتشف مستقرات طاهرة ومروجاً ، ويسمع اصواتاً ويشاهد رقصات . وينضم الملقن بالاسرار ، والتاج على رأسه الى (رجال طاهرين وقديسين) . وهو يتأمل الغير ملقنين المتكومين في الوحل والضباب ، والمقيمين في تعاستهم بالخوف من الموت وبخية املهم من السعادة في الآخرة (ستوبيه ١٧ - ص ١٠٧ مينيك) . وقد قدر فوكار ان الشعائر dromena كانت تتطلب بالتماثل مسيرة في الظلمات ، وظهورات مختلفة مرعبة ودخول مخابىء للمريد في مرج منور . غير ان الشهادة من تيمتيوس Themiotios متأخرة وهي تعكس مفاهيم اورفيه على الأكثر . وان التنقيبات في معبد ديميتير والتيليستريون telestesion قد اظهرت أنه لم يكن يوجد هنالك غرف تحت الأرض ليستطيع متلقوا الاسرار النزول اليها شعائرياً للجحيم . /٧/ .

وقد جرت كذلك اعادة تكوين الشعيرة المسارية بدءاً من العبارة السرية سنتيا lesynthema أو كلمة النظام للمريدين ، المنقولة من قبل كليمنت السكندراي clementd alexndrea «لقد صمت وشربت السيسیون Cyseon» اخذت السفط ، وبعد ان عاجلتها بيدي ، وضعتها في السلة ثم ، أعدت اخذ السلة ، واعدت وضعها في السفط ، « إن بعض الكتاب يقدررون أن الموضوعتين الأوليتين وحدهما تنتميان الى الصيغة الأولوزينية . انها ترجع في الواقع ، على مشاهد معروفة جداً . صيام ديميتير وشرب السيسیون Cyseon . وان الباقي من العبارة السرية سنتيا هو لغز غامض . وقد اعتقد عدد من العلماء بإمكانية تشابه محتوى السفط والسلة : سيكون هذا اما ترجمة للرحم matrice ، واما لعضو الذكر phallus ، وإما أفعى واما فطائر (gateaux) بشكل الاعضاء الجنسية . وإن أية

فرضية هي غير مقنعة . وقد يمكن أن تكون الأوعية محتوية على اشياء رفاتية objet relique من العصور القديمة ، متكافلة برمزية جنسية مميزة للثقافات الزراعية . الا ان ديميتير كانت قد كشفت في ايلوزيس بعداً دينياً آخر غير ما اظهرته في ديانتها للعامه . ومن جهة اخرى ، فإنه من الصعب القبول بأن شعيرة مماثلة كانت قد تمت ايضا بواسطة الاطفال الذين على أهبة ان يتلقوا المسارة . ومن جهة اخرى ، اذا فسرنا الشعيرة التي اشارت اليها (السنتيا) بالرمز لولادة او عودة الولادة تلقينياً ، فإن المسارة يتوجب لها ان تتم في تلك الفترة . وفي هذه الحالة ، يفهم بشكل سيء المعنى ، والضرورة والتجربة النهائية ، الايبوتيا . وعلى كل حال فإن الشهادات المتعلقة بالمقدسات hiero المستورة في الآنية تدل على تمثيلها الاحتفالي وليس على استعماله . وعليه يكون من الراجح . بأن السنتيا تنعكس على احتفالات مؤكدة بعد زمن متأخر جداً ، في العصر الهلنستيك على شرف ديميتير [مينولاس ص ٣٠٠ وماسنية ٣٥] وقد افترض ان متلقي الاسرار (المريدن) كانوا يشاركون في وجبة مختصة بالاسرار المقدسة ، وهذا امر مقبول . وفي هذه الحالة ، فإن الوجبة كانت تحصل في البداية ،

بعد شرب السيوم أي قيل التيليتيه téleté بمعنى الكلمة . وثمة شعيرة أخرى قد كانت تراجعت بدءاً من اشارة بروكلوس proclus (تياوس ، ٢٩٣ س) : كان المريدون ينظرون صوب السماء ويهتفون (امطر ! pleus وينظرون إلى الأرض ويهتفون « أحمل conçois وهيوليت يؤكد [فلسفة ٥ - ٧ - ٣٤] أن هاتين الكلمتين كانتا تشكلان السر الاكبر من بين الاسرار ، انه يتعلق بالتأكيد بعبارة شعائرية مرتبطة بالزواج المختلط hieros gamos المميز لعبادات الزراعة ، ولكنها اذا كانت قد قيلت في ايلوزيس ، فإنها لم تكن سرية ، لأن الكلمات ذاتها كانت تصور في نقش على بثر بالقرب من باب (ديبيلون) في آثينا .

ان معلومات جرابه لحد ما قد نقلت الينا من قبل الاسقف استيريوس Asterios فقد عاش حوالي عام ٤٤٠ في وقت أصبحت المسيحية فيه الدين الرسمي للامبراطورية . وما يرد قوله هنا ان الاسقف لم يعد يخاف تكذيبات

الكتاب الوثنيين . ان استيروس تكلم عن عمر تحت الأرض مغموس في الظلمة ، حيث كان يوجد مكان للقاء احتفالي بين الهيروفانت Le hierophante (الكاهن الذي كان يرأس اسرار ايلوزيس) وبين الكاهنة وتكلم عن المشاعر التي تطفأ وعن « الجمهور الواسع الذي يعتقد ان خلاصه يرتبط بما يفعله الاثنان في الظلمات »^(٨) ولكنه لم تكتشف أية غرفة تحت الأرض في التيلستريون ، مع ان الحفريات قد وصلت الى الصحن من كل الجهات . ومن الراجح ان الاسقف استيريوس يرجع إلى الاسرار المنجزة ، في العصر الهلنستي ، في الأوليزيون في الاسكندرية . وعلى كل حال اذا كان الزواج المختلط قد وجد حقيقة ، فإنه يفهم بشكل سيء أن كليمنت - بعد ان تكلم عن ايلزويس - قد دل على المسيح وكأنه « الهيروفانت الحقيقي » .

وفي القرن الثالث افرغ هيبوليت في الملف خبرين آخرين [فيلوزوفومينا ٧ - ٣٨ - ٤١] فقد أكد بأنه كان يجري اظهار سنبله من القمح « في احتفال صامت » للايبوت lauxepotes ويضيف هيبوليت إنه « أثناء الليل وفي نار متقدة لتكريس الاسرار الكبرى التي لا يمكن التعبير عنها ، يصرخ الهيروفانت : « القديسة بريمو حملت بطفل قديس ، بريموس ! » ، أي : القوية أولدت قويا » . ان التقديم الرسمي لحبة قمح يبدو موضع شك ، لأن متلقي الاسرار كانوا معنيين بأن يحملوا معهم سنابل من القمح . وبأكثر من هذا ان سنابل القمح توجد منقوشة على العديد من آثار ايلوزيس ذاتها . وبالتأكيد ان ديمتر كانت ربة القمح وان تربيتولم كان حاضراً في السيناريو الاسطوري - الشعائري لايلوزيس غير انه من الصعب الاعتقاد بأن الكشف لسنبله طرية كان يشكل واحداً من الاسرار الكبرى epopiteia ، الا اذا قبلنا تفسير (والتراتوتو) W - otto ، الذي يتكلم عن معجزة مميزة لاسرار ايلوزيس : « سنبله القمح التي تنمو وتنضج بفجائية خارقة للطبيعة مكونة جزءاً من اسرار ديمتر تماماً كالدالية النامية خلال بضع ساعات والتي تشكل جزءاً من اعياد ديونيزوس » ، ومع ذلك يؤكد هيبوليت ان السنبله المقطوعة المعبرة من قبل الفريجين Phrygiens هي ايضا كسر مستعار بعد زمن من قبل الاثنيين .

* - المحتفلين بالامبوتيا

ومن الممكن اذن ، ان يكون الكاتب المسيحي قد اسقط على ايلوزيس ما عرفه من أسرار آتيس Attis (اله حسب قول هيبوليت كان يدعي من قبل الفريجيين) سنبله القمح الطرية) .

أما بالنسبة إلى لفظتي بريمو وبريموس فإنها على الأرجح من مصدر تراقي thrace فبريمو تعنى بصورة خاصة ملكة الأموات : وبالنتيجة ، فإن اسمها يمكن ان يطبق على كوريه Koré وعلى هيكايتيه Nékaté كما يطبق على ديمتر . وحسب كيرني Kerenyi ، فإن الكاهن الأكبر الهيورانت (كان يعلن ان ربة الموت قد حملت بطفل في النار^(٩)) وفي كل الأحوال ، يعرف أن الرؤية النهائية l'epopteia ، كانت تنجز في نورمبر . وان عدداً من الكتاب القدامى قد تكلموا عن النار التي كانت تشتعل في المبنى الصغير Anakton والتي يتصاعد لهبها ودخانها من فتحة في السقف ، ويظهر أنها لمسافة بعيدة . وتذكر ورقة بايروس من عهد هادريان ان هرقل كان يتوجه الى كبير الكهنة قائلاً : (تلقت السرمند زمن طويل - أو سلفاً [رأيت] النار ورأيت كوريه [كيرنيه ص ٩٣ - ٨٤] وحسب قول البولودور الآتيي ، عندما كان الهيروفونت يدعو كورية ، كان يطرق على صنج gong من البرونز ، ويفهم من النص ان مملكة الموت كانت تنفجر . [و . اوتو ص ٢٧]

٩٩ - « اسرار » و « خفايا » .

يمكن القبول بأن ظهور برسفونه ولقاءها مع والدتها كان يشكل المشهد المركزي للابوتييا l'epopteia ، وان التجربة الدينية الحاسمة كانت تثار حقاً بحضور الربات . ولا تعرف كيف كان يتحقق هذا الاجتماع وما سيتم بعدئذ . كذلك فإننا نجهل لماذا ان رؤية كهذه كانت معنية بتغيير جذري للحالة التالية للملقنين بالاسرار . الا أنه لا يمكن الشك بأن المريد (الايبوت) l'épopte كان يرى (سراً الهيا) ما يجعله اليفا للربات ، ولقد كان إلى حد ما « متبنى adapte » من قبل الآلهة الايلوزينية^(١٠) .

إن المسارة كانت تكشف ، في آن واحد ، القربى مع العالم الالهي والاتصال بين الحياة والموت . انها ، أفكار ، بكل تأكيد ، كانت موزعة بين كل الأديان القديمة ذات النمط الزراعي ، ولكنها مبعدة من قبل الدين الأولمبي . وان الكشف للاتصال السري بين الحياة والموت كان يصلح المرید مع حتمية موته الخاص .

إن الملقنين باسرار ايلوزيس لم يكونوا يشكلون « كنيسة » ولا تجمعاً سرياً يمكن مقارنته بخفايا العصر الهيلنستي . وبالعودة اليهم ، فإن الملقنين والمریدين استمروا بالمشاركة بالطقوس العامة . وفي الواقع ، ليس سوى بعد الموت ، أن المسارين كانوا يتواجدون سوية ، منفصلين عن الجماعة من غير المسارين . من هذه الوجهة النظر يمكن اعتبار الاسرار الایلوزينية بعد بيزيسترات pisistrate ، كنظام ديني أكمل الديانة الأولمبية والطقوس العامة ، بدون ان يعارض مطلقاً المسارات الدينية التقليدية للمدينة . ان المساهمة الأساسية لایلوزيس كانت من نظام تحليلي soteriologique ومن أجل هذا فإن الاسرار قد تمت الموافقة عليها وتم تبنيها من قبل إثنين .

لقد كانت ديمتر الأكثر شعبية بين الربات المحترمت في كل الأقاليم والمستعمرات اليونانية . وكانت أيضاً أكثرها قدماً . وحسب علم الهيئة morphologiquement فإنها كانت امتداداً للربات الكبرى للعصر الحجري - النيوليتيك . ان الأقدمين قد عرفوا اضافة لذلك اسراراً أخرى لديمتر ، وكان أكثرها شهرة اسرار اندانيا Andania وليكوسورا lykosura . ونضيف ان ساموتراس samothrace . مركز مساريّ بالنسبة البلدان الشمالية - تراقيا ، مقدونيا ايير - كانت مشهوراً بالنسبة لاسرار الكابير Les mystères des kabires وانه منذ القرن الخامس كان يحتفل في آثينا باسرار الاله التراقي - الفيجي سابازيوس Sabazios أول العبادات الشرقية التي اخترقت الغرب . وبعبارة أخرى فإن اسرار ايلوزيس بالرغم من تقديرها الذي لا مثيل له ، فإنها لم تكن تشكل ابداعاً وحيداً للعبقريّة الدينية الاغريقية : لقد دخلت في نظام أكثر اتساعاً ، لم نعلمه جيداً ، بكل

أسف . ولأن هذه الأسرار ، من جهة أخرى ، مثل تلك التي من العصر الهيلينستي ، تفترض مسارات يتوجب لها البقاء مكتومة .

ان القيمة الدينية ، وبصورة عامة القيمة الثقافية لسرها غير كافيتين للدراسة ، فكل الاكتشافات الكبرى والاختراعات - زراعية ، تعدينية ، تقنيات مختلفة ، فنون الخ - كانت في البدء تتطلب الكتمان : وليس سوى الملقنين بأسرار المهنة كانوا معنيين بالحفاظ على نجاح العملية . ومع الزمن فإن المسارة بالخليل الكيمياوية لبعض التقنيات القديمة تصبح مقبولة في الجماعة كلها . ومع ذلك ، فإن الصياغات المتتالية ، لم تفقد تماماً خاصتها المقدسة . . ان مثال الزراعة هو تعليمي بصورة خاصة : بضعة ألوف من السنين بعد انتشارها في أوروبا ، كانت الزراعة محافظة على بنية شعائرية ، ولكن (أسرار المهنة) أي الحفلات المعنية لضمان وفرة المحصول ، كانت آنئذ مقبولة عالمياً بواسطة «مسارة» ابتدائية . ويمكن القبول بأن أسرار ايلوزيس كانت متضامنة مع سر زراعي ، ومن الراجح أن قداسة الفعل الجنسي ، والخصوبة النباتية والتغذية قد قولبت ؛ أقله في شطر منها ، السيناريو المساري . وفي هذه الحالة ، يجب الافتراض بأنه تعلق بقداسات قد نسي نصفها ، وانها فقدت معانيها الأولى . واذا جعلت المسارة الايلورزيسية ممكناً مثل هذه التجارب «البدئية» التي كشفت السر والقداسة للغذاء ، وللعمل الجنسي ، والتناسل والموت الشعائري - فإن ايلوزيس قد استحققت بحق ، شهرتها «كمكان مقدس» ومصدر «للمعجزات» ومع ذلك فإنه من الصعب الاعتقاد ان المسارة العليا كانت محدودة بسوابق الأسرار المقدسة القديمة . لقد كشفت ايلوزيس بالتأكيد مدى دينياً جديداً . والأسرار كانت قد اشتهرت بصورة خاصة بالنسبة لبعض «الكشوفات» المتعلقة بالربتين .

وعليه فإن مثل هذه (الكشوفات) تعرض «السر» كشرط . ولا يمكن اجراء خلافه بمناسبة مختلف المسارات المؤكدة في المجتمعات القديمة . ان ما يجعل (سر) ايلوزيس متفرداً ، انما هو الفعل الذي غدا نموذجاً مثالياً بالنسبة لعبادات الأسرار . وان القيمة الدينية للسر ستجد في العصر الهيلينستي . كما أن اسطرة الأسرار المسارية وتفسيرها سيثجعان بالتالي تأملات لا حصر لها ، والتي ستنتهي

بقولية الطراز لعصر بكامله . «إن السر ذاته يرفع قيمة ما يراد تعلمه» كما كتب بلوتارك [حول حياة وشعر هوميروس^(٩٢)] وإن الطب كما هو الشأن في الفلسفة كذلك قد انتشرا بالحياة على (اسرار تلقينية) والتي يقارنها بعض الكتاب بأسرار ايلوزيس . إن احدى الكليشيات الأكثر استعمالاً في عهد الفيثاغورين - الجدد والافلاطونيين - الجدد ، كانت فعلاً الكتابة (الغامضة) لكبار الفلاسفة ، التي لم يكشف المعلمون الفكرة عن نظريتهم فيها الا للمساكين بها . initie .

ان هذا التيار من الأفكار قد وجد مستنده الأفضل في «سر» ايلوزيس . وان أكثرية الانتقادات الحديثة تنيط الكثير من الأهمية للتفسيرات المجازية أو السرية المطروحة من قبل عدد من كتاب العصور القديمة المتأخرة . مع ذلك ، وبالرغم من مفارقتها التاريخية . فإن مثل هذه الشروحات لم تفقد فائدتها الفلسفية والدينية . انها تمدد ، في الواقع ، جهود الكتاب القدامى بهدف تفسير اسرار ايلوزيس بدون انتهاك سرها .

وفي نهاية المطاف ، وإلى جانب الدور المركزي الذي لعبته اسرار ايلوزيس في تاريخ التدين الاغريقي ، فإنها قدمت بصورة غير مباشرة ، معطيات ذات دلالة لتاريخ الثقافة الأوروبية وبصورة خاصة التفسيرات لسر التلقين . إن تقديرها الوحيد انتهى ليصنع من ايلوزيس رمزاً للتدين الوثني . وإن حريق المعبد ومحو الأسرار يميز النهاية الرسمية لعبادة الأصنام (الوثنية) ، الأمر الذي ، من جهة أخرى ، لا يستدعى ابداء زوال الوثنية ، وانما احتجاجها فقط . وأما بالنسبة /لسر/ ايلوزيس ، فإنه قد استمر يثير خيال الباحثين .

حواشي الفصل الثاني عشر

- ١ - يتعلق بلازمة اسطورية منتشرة على نطاق واسع : ان من يذوق أطعمة الآخرة لا يمكن ان يرجع إلى بين الأحياء .
- ٢ - عندما اراد ايزوقراط في القرن الرابع عشرق . م يمدح مزايا الاثينيين ، اعاد الى الذاكرة انه في بلادهم ان ديمتر منحت هباتها الأكثر أهمية - «الزراعة» ، التي بها استطاع الانسان الارتفاع فوق مستوى الحيوانات» والمسارة التي تجلب الأمل تجاه «نهاية الحياة وكل الأزلية» (بانيجريك ٢٨) .
- ٣ - ولكن ارسطو (نيقما : ٣ - ١ - ١٧) يذكر بأن «ستل خاطر بفقدان حياته لأن الاثينيين كانوا يفكرون انه كشف بعض اسرار في مآسية (وذكر - Isarchers) اينجين - سيسفى . بريتسريس» .
- ٤ - ان دلالة هذه gephgnismoi متناقضة : ان المثقفين اصروا بصورة خاصة على الوظيفة الحوارية التبشيرية للعبارة Obscène .
- ٥ - سينيكا - هرقل ٣٦٤ - ٣٦٣ .
- ٦ - فوكارت - اسرار ص ٣٩٤ في فيدون ٩٩ يدعم افلاطون أن القصاصات للصيادين في هاوس والصورة لمرح العادلين قد ادخلت من قبل اورفيه الذي استلهم عادات جنائزية مصرية .
- ٧ - هذا لاسيتنى حضور رمزية جنائزية لأنه كان يوجد مغارة تدل على مدخل الآخرة ومن الراجع ان امومغالوس قد ذهب إلى هنالك .
- ٨ - Engamnie - من أجل القديس الشهداء مجلد ٤٠
- ٩ - وتعرف حالات اخرى مشابهة : مثل ان ديونيزوس أو اسكليوس ومن في محرقة جنائزية لكورونس واستخرج من حقبة والدته بواسطة ابو لونه .

١٠ - Gutnie في اليونان وألتههم ص ٢٩١ - ٢٩٣ يعيد الى الذاكرة مشهداً من Axió ehns حوار منسوب خطأ لأفلاطون : يطمئن سقراط اكسيوتوس انه لا يجب الخوف من الموت بل بالعكس فطالما انه ملقن باسرار ايلوزيس فقد أصبح قريباً للآلهة . ويعتبر كونتري هذا النص كما لو انه بينه عن التبني الالهي ولكن عبارة جييمتر تشير أكثر للايمان : «أنت الذي هو من المؤمنين بالربات) . الأمر الذي لا يحصر فكرة القرابة الروحية) .

١١ - ر . كاليان - افلوطن ٧١

١٢ - ر . الجزء الثاني من هذا الكتاب .

الفصل الثالث عشر

ذرادشت والديانة الايرانية

١٠٠ - الألغاز :

إن دراسة الديانة الايرانية تفيض بالمفاجآت بل بالاحباطات . ويقرب الموضوع مع الفائدة الأكثر حيوية ، لأنه من المعروف سلفاً المساهمة الايرانية في التكوين الديني للغرب . فإذا كان مفهوم الزمان الخطي الذي حل محل مفهوم الزمان الدوري ، اذا كان هذا المفهوم مألوفاً لدى العبريين ، فإن عدداً من أفكار دينية أخرى قد اكتشفت وهي معادة التقييم أو ممنةجة في ايران . ولنتذكر فقط أكثرها اعتباراً : النطق المبين لعدد من الأنظمة الثنائية «ثنائية كونية ، اخلاقية ، دينية» اسطورة المخلص ؛ الاعداد لأخروية «متفائلة» معلنة الانتصار النهائي للخير وللسلام العالمي ؛ ومبدأ بعث الأجساد ؛ ومن الراجع جداً بعض الاساطير

الغنوصية: واخيراً ، لاهوت ماجوس Magus المعاد ترتيبه خلال النهضة ، من قبل الافلاطونية المحدثه الايطالية بأكثر مما هو من قبل بارا سيلز Paraceles أو جون دي Jahon Dee .

ومع ذلك فما ان يقترب القارئ غير المتخصص من المصادر ، حتى يصبح خائب الظن ومعاكساً . إن ثلاثة ارباع الابستاق القديمة Avesta مفقودة . ومن بين النصوص التي حوفظ عليها الجاثاس فقط Les gathas ، وهي بوجه الاحتمال مؤلفة من قبل زرادشت وقابلة لأن تفتن الغير متخصص . ولكن فهم هذه القصائد اللغزية غير مضمون بعد . إن ما بقي من الابستاق الحالية وبخاصة الكتب الفهلوية Pehlenis المحررة بين القرن الثالث والتاسع من عصرنا ، تتميز بجفافها ورتابتها المحزنة وبسطحياتها . إن قراء الفيدا والأوبانشاد حتى قراء أبراهمانا ولا بد ان يكونوا مخفقين .

وربما ، لأن الأفكار التي يتوصل لحل رموزها أحيانا في الجاثاز ، والتي توجد مرتبة ومنهجة ، في الكتابات التالية ، هي مشوقة أو مثيرة للاهتمام . غير أنها مشوشة في ركام من النصوص والشروح الشعائرية . باستثناء الجاثاس - التي تشكل قراءتها ، بالرغم من غموضها ، دوما تعويضا - قلما تبهر بقوة الكلمة وبأصولية الصور ، وبكشف دلالة عميقة وغير متوقعة .

وفيا يتعلق بالمساهمة الشخصية لزرادشت في الاختراع أو إعادة التقييم لهذه المفاهيم الدينية ، فإن آراء الايرانيين متباعدة وتتجه لتستبعد باتفاق الطرفين . . . وهي تتعلق اساسا بمنظورين تاريخيين : في الأول يعتبر زاردشت كشخصية تاريخية ، مصلح لديانة أخلاقية تقليدية ، أي تلك التي تقاسمتها الشعوب الهندو- ايرانية ، في الألفين الثانية ق . م ، وفي المنظور الثاني ، فإن دين زرادشت يمثل فقط مظهراً من دين ايراني المزدية التي لها في مركزها عبادة اهورا مزدا . وحسب المؤلفين المشاركين لهذا الوضع المنهجي ، ليس هنالك (اصلاح) منجز من (النبي) زرادشت فحسب ، وانما حتى تاريخية هذه الشخصية هي موضع شك .

وكما سنرى ، فإن المسألة التاريخية لزراشت لا يقتضي ان تشكل عقبة . فقد كان طبيعيا ان الشخصية التاريخية زراشت تحولت لنموذج مثالي للمؤمنين المشكلين (للدين المجوسي) . وبعد عدة أجيال ، فإن الذاكرة الثقافية لم تتوصل أبداً لحفظ الصورة الرسمية لشخصية خارقة ؛ وقد انتهت لتصبح نموذجاً يحثدى أي أن تعرب وحدها عن فضائل ارشادها الرباني ، المشهور بأحداث عقائدية مميزة للنموذج الذي تجسده . ان هذا صحيح ليس بالنسبة لجوتاما بوذا أو يسوع المسيح ، وإنما أيضاً بالنسبة لشخصيات أقل أهمية ، مثل /ماركوكرا جفيك/ او /ديودونية دي غوزون/ . ولكنه يحصل ان الجاتاس Gathas المعتمدة من قبل أكثرية العلماء كمؤلف لزراشت ، تشتمل على بعض التفاصيل للسيرة الذاتية التي تؤكد تاريخية مؤلفها . واخيراً ، انهم الوحيدون ، الذين عاشوا بعملية جعلتهم اسطوريين فاعلين في كل التقليد المجوسي ، بفضل ادخالهم في الأناشيد المؤلفة من قبل زراشت .

ومن المناسب استعمال بعض هذه التفاصيل للسيرة الذاتية من أجل أول تلخيص لحياة زراشت ولنشاطه الديني وستقدم فيما بعد التصحيحات والمداخل التي تبدو مفروضة كنتيجة للبحوث المتأخرة .

وقد طرح تحديد نشاط زراشت بين ١٠٠٠ - ٦٠٠ ق . م . واذا قبل التقليد المزددي ، الذي يتكلم عن «٢٥٨ سنة قبل الاسكندر» . يمكن تثبيت حياة زراشت ما بين ٦٢٨ و ٥٥١ ق . م^(١) . إن التواريخ الأكثر قدماً قد عرضت مع الأخذ في الحسبان للخاصية القديمة للغة الجاتاس ، وبخاصة مشابهاً مع الفيدا . ان التحليل لفقهاء اللغة يسمح بالاستنتاج ان النبي قد عاش في الشرق من ايران ، وعلى الأرجح في خورازمي أو باكثريان^(٢) .

حسب التقليد ، كان ذاوتر zaoter [يخت ٣٣ : ١٦] ، أي كاهن مضحي ومرتل (في السنسكريتية هوتار Hotar) ، وجاتها زاته Sengathas تسجل في تقليد قديم هندو- اوروبي من شعر مقدس . وكان ينتمي إلى قبيلة سبتياما («الهجمة مشعة») مدرب خيول ؛ وكان أبوه يدعى بوري ساسبا Paurasaspa («الحصان

مبرقش». . وكان زرادشت متزوجاً ويعرف اسم اثنين من اولاده ، والابنة بوريسستا ، الأكثر شبابا [ياسنا ٥٣ : ٣] . لقد كان فقيراً . وعندما طلب في بجاتها ، شهيرة ، مساعدة وحماية آهور مازدا ، هتف : «اعرف ، أيها الحكيم ، لماذا أنا عاجز : ان هذا من أجل ما شيتي القليلة ولأنه ليس لدي سوى القليل من الرجال» [ياسنا ٤٦ : ٢] .

إن الجماعة التي خاطبها برسالته كانت مشكلة من رعاة مستقرين لهم رؤساؤهم ، يسمون كافي Kavi ، وكهان يدعون كارابان Karapan «مدمدين» واوزيغ Usig «مضحين» . ان هؤلاء هم الكهنة حراس الديانة التقليدية الايرانية التي لم يتردد زرادشت عن مهاجمتهم باسم آهورا مزدا . ان ردة الفعل لم تتأخر مما أضطر النبي معه للهرب . «صوب أي بلد يهرب ؟ لقد هتف . أين اهرب ، وأين اذهب ؟ لقد ابعدونني عن عائلتي وعن قبيلتي ؛ لا القرية ولا الرؤساء الخبثاء للبلاد مناسبين لي . . .» [ياسنا . ٤٦ : ١] . لقد التجأ بالقرب من فيشتاسبا رئيس قبيلة فريانا ، والذي نجح باقناعه فأصبح صديقه وحاميه [يا . ٤٦ : ١٤ : ١٥ : ١٦] . مع ذلك فإن المقاومة لم تضعف وزرادشت أخذ يبلغ علنا في الجاهاز بعض خصومه الشخصيين : بندافا الذي «هودوما العقبة الرئيسية» [يا . ٤٩ : ١ - ٢] و «الأمير الصغير فيا» الذي على جسر الشتاء شتم زرادشت سييما رافضا المحطة ، له وحيواناته المرتجفة من البرد بوصولها لعنده» [يا . ٥١ : ١٢] .

ويمكن تبين الرموز في الجاهاز لبعض الدلالات المتعلقة بالنشاط الرسولي لزرادشت . فالنبي محاط بجمع من اصدقائه ومريديه ، الملقبين «الفقراء» (دريغو dergu) و «الاصدقاء» (فرايا) و «العارفين» (فيدفا) و «الأنصار» (اورقاتها^(٣)) . إنه يحرض رفاقه «ليبعدو بقوة السلاح» الاعداد «الخبثاء» [يا . ٣١ : ١٨] . هذه المجموعة الزرادشتية تعارضها «جمعيات أشخاص» لها شعار آيسما Ae'sma «الرعب» . وقد امكن اظهار التماثل لهذه الجمعيات السرية الايرانية مع مجموعات الشباب المحاربين الهنود ، الماروت lesmaruts ، الذين وصف رئيسهم اندرا بـ أو هريغو adadhregu ، أي ليس - دهريغو («الذي ليس هو فقير^(٤)») . ان زرادشت

قد هاجم بعنف اولئك الذين يضحون بالأبقار (يا . ٣٢ : ١٢ ، ١٤ ، ٤٤ : ٢٠ ، ٤٨ : ١٠) في وعليه فمن مثل هذه الشعائر الدموية كانت تميز عقيدة المجتمعات البشرية .

١٠١ - حياة زرادشت - التاريخ والاسطورة :

إن هذه الاشارات القليلة في عددها والتلميحية ، بعيدة عن أن تشكل العناصر لسيرة ذاتية ، وقد حاول مارجان مولير اظهار انه حتى المراجع النادرة لشخصيات ولأحداث حقيقية في مظهرها لا تعكس بالضرورة حقائق تاريخية : فيشتاسب ، على سبيل المثال ، يمثل نموذج الملقن بالاسرار . وربما ان تاريخية زرادشت تنبع ليس فحسب من اشارات لشخصيات واحداث ملموسة (الأمير الصغير فابيا الذي «على شاطئ الشتاء» رفض ان يحط عنده الخ . . .) وانما ايضا من الخاصية «الصادقة» والمشوبة العاطفة للجاثاس . وقد نصدم ، اضافة لذلك ، بالحدة والتوتر الوجودي الذي يسأل زرادشت فيه ربه : يطلب إليه أن يرشده لمعرفة الأسرار النشكونية ، وان يكشف له الحجاب عن مستقبله ، وايضا عن المصير لبعض القتلة وكل الخبثاء . إن كل فقرة من اليشنا ٤٤ الشهيرة تبتدىء بذات الصيغة : «هذا ما أطلبه منك - مولاي - أجبني جيداً !» . لقد اراد زرادشت معرفة «من عين طريقهم للشمس والنجوم [٣]» من الذي أثبت الأرض في الأدنى وسماء الغيوم التي لا تسقط ؟» [٤] ، وهذه الأسئلة المتعلقة بالخلق تتابع بايقاع أكثر سرعة . ولكنه يريد أن يعرف أيضاً من أي نوع هي روحه «هلا أتت من الخير وهل ستستلب ؟» [٨] وكيف نتخلص من الشر ؟ [١٣] و «كيف أسلم الشر لأيدي العدالة» [١٤] انه يطلب لن يمنح اشارات مرئية [١٦] وبصورة خاصة ان يتحد مع اهورا مازدا وان يكون «نطقه فعلاً» [١٧] . غير انه يضيف : «هل سأحصل كأجر ، بعدالة (أرتا) arta على عشرة أفراس مزودة بحصان ، وعلى جبل ، مما وعدت بها ، أيها الحكيم ؟» [١٨] . انه لا ينسى ان يسأل الرب عن العقاب الفوري لمن «لا يعطي الأجرة لمن يستحقها» لانه سبق ان «أعلم بالقصاص الذي ينتظره في النهاية» [١٩] .

إن عقاب الخبثاء ، ومكافأة الاتقياء لازم زرادشت . ففي نشيد آخر يطلب «أي عقاب منصوص عليه لمن يزود الخبثاء والاشرار (بالقوة والسلطة) [يا . ٣١ : ١٥] ويهتف في مكان آخر : «متى أعلم اذا كان لديك سلطة أيها الحكيم (مازدا) مع العدالة (آرتا) على كل واحد من اولئك الذين يهددونني بالخراب ؟» [يا . ٤٨ : ٩] . انه نافذ الصبر أمام افلات اعضاء (المجتمعات البشري) ، الذين يستمرون بتضحية الابقار لتغذية الهاوما ، من القصاص : «متى تضرب هذه الرائحة الكريهة من السائل ، الدم ؟» [٤٨ - ١٠] . انه يأمل بأن يستطيع اعادة تجديد هذا الوجود [يا . ٣٠ : ٩] ويطلب من اهورا مزدا عما اذا كان العادل سيغلب الخبيث منذ الآن [يا . ٤٨ : ٢] . أحيانا يظن بأنه متردد ، مرتبك ، متواضع ، راغب في معرفة ملموسة أكثر لارادة الرب : «بماذا تأمر ؟ ماذا تريد كمديح ، كعبادة ؟» [يا . ٤٣ : ١٢] .

سيكون من الصعب التثبت من وجود العديد من التفصيلات الملموسة في الجزء الأكثر احتراماً من الأفيستا اذا لم تكن هذه تمثل ذكريات شخص تاريخي . صحيح ان العناصر الميتولوجية تسود في السير الذاتية الاسطورية الأخرى للبني ، ولكن ، وكما ذكرنا ، انه يتعلق بعملية معروفة جداً : التحول من شخصية تاريخية هامة الى نموذج مثالي . فنشيد (نخت) يمجّد مولد النبي في عبارات مسيحية : «ميلاده وأثناء نموه ، كان الماء وكان النبات مغتبطاً ، لولادته وأثناء نموه ازداد الماء ونما النبات» [١٣ : ٩٣] . وهو يعلن : «منذ الآن ، سينتشر الدين المزددي الجيد على كل القارات السبع» [١٣ : ٩٥^{٥٠}] .

إن النصوص المتأخرة تؤكد مطولاً على سبق الوجود السماوي لزرادشت . لقد ولد في «وسط التاريخ» وفي «وسط الكون» . عندما تلقت والدته الكدفا رنا le Xvarenah من زرادشت ، جللت بنور كبير . «ثلاثة ليال مستمرة ، كانت أرجاء المنزل تبدو وكأنها نارية»^(٦) . أما بالنسبة لمادة جسده المخلوقة في السماء ، فسقطت مع المطر وعملت على تفتح النباتات التي تأكلها العجلتان العائدتان لاقارب النبي : ومر الجوهر في اللبن الذي شرب منه ابواه ممتزجاً مع الهاوما : ولأول مرة

اقترن والداه علقت به أمه^(٧) . قبل ولادته جهد عبثاً ، اهرمان والشياطين les dev لأن يجعلوه يهلك . ولمدة ثلاثة أيام قبل ان يأتي للعالم ، انبرت القرية بوهج حتى أن السبيتاميد les Sputamides اعتقدوا بوجود حريق ، وهجروا القرية . وبعد عودتهم وجدوا طفلاً مجللاً بالنور . وحسب النصوص التقليدية ان زرادشت جاء للعالم ضاحكاً . ما كاد يولد حتى هوجم من قبل الشياطين (daeva) = les deu ولكنه جعلها تهرب بتلفظه بالعبارة المقدسة للمجوسية . لقد خرج منتصراً من أربعة تجارب ، فخاصيته المسارية واضحة (لقد طرح على محرقة في وكر للذئاب الخ^(٨)) .

ومن غير المجدي المتابعة . فالتجارب ، والانتصارات والمحن والمعجزات تتابع السيناريو المثالي للمخلص على أهبة تأليهه . ونعيد التذكير بالتأكيد المكرر للباعثين المميزين للمزدية : النور المافوق الطبيعي والمعركة ضد الشياطين . فالتجربة للنور الصوفي و«الرؤية» الوجدية تأكدتا كذلك في الهند القديمة : حيث سيكون لهما مستقبل كبير . أما بالنسبة للمعركة ضد الشياطين ، أي ضد قوى الشر ، فإنها تشكل ، كما سنرى ، الواجب الأساسي لكل مزدي .

١٠٢ - أهنالك وجد شاماني ؟

من أجل العودة للرسالة الأصلية لزرادشت ، يطرح سؤال نفسه منذ البداية : هل يتوجب البحث عنه في (الجاتاس) فقط ، أو هل أنه مسموح استعمال النصوص الأقسية المتأخرة ؟ ؟ . اننا لا نملك أية وسيلة لاثبات أن (الجاتاس) قد نقلت لنا الفقة الشامل لزرادشت . وزيادة على ذلك ، فإن عدداً من النصوص الأخرى ، وحتى المتأخر منها لحد ما ، تنعكس مباشرة ، مطورة لها تماماً ، على مفاهيم جاتسية . وكما هو معلوم ، فإن انبثاق فكرة دينية ، مؤكدة لأول مرة في نصوص متأخرة ، لا تستدعي بالضرورة أنها تتعلق بمفهوم جديد . .

إن الأمر الجوهري هو شرح غمط التجربة الدينية المميزة لزرادشت . وقد اعتقد نيرج nyberg ان باستطاعته تقريبها من الوجد المميز لشاماني وسط آسيا . وقد رفضت هذه الفرضية من قبل أكثرية العلماء ، ولكن ويدنغرين widengren قد مثلها مؤخراً بعبارات أكثر اعتدالاً وأكثر اقناعاً^(٩) . فهو يذكر بالتقاليد التي بحسبها كان فيشتاسبا Vishtaspa قد استعمل الحشيش للحصول على الوجد (بينما كان جسده يبقى نائماً ، كانت الروح تسافر للفردوس . اضافة لذلك ، ففي النص الآفستى ان زرادشت نفسه كان مشهوراً عنه « باستسلامه للوجد » . انه كان يتلقى نبؤاته برعشة ، انه كان يسمع كلام « آهورا مزدا »^(١٠) . ومن جهة اخرى ، فالراجع ان الأغنية كانت تلعب دوراً هاماً في العقيدة ، إذا تفهمنا اسم اللجنة Paradis = Garodemana وكأنها تدل على معنى (بيت الغناء) ومعلوم أن بعض الشامانيين يصلون للنشوة بالغناء المطول ؛ ويضاف إلى ذلك أنه لا يجب أن يعتبر كشامانية « أي نموذج شعائري مرتبط بالأغاني وعلاوة على هذا ، فقد أمكن اظهار العناصر الما قبل الشامانية للسيناريو المقام حول جسر سنقات Pont de Cinvat (ف / ١١٠ *) ، وكذلك البنية الشامانية لسفر ادرا فيراف Adra Viraf للسماء وللجحيم^(١١) . مع ذلك فإن الاشارات النادرة لمسارة شامانية متميزة - مستوحاة تجزئة الجسد وتجديد الأعماء - تصادف حصراً في النصوص المتأخرة ويمكن لها ان تعكس تأثيرات أجنبية (وسط اسبوية) أو مشتقة من توليفة هيلينية ، وبصورة خاصة ديانات الأسرار^(١٢) . ويمكن القبول بأن زرادشت كان متألقاً مع التقنيات الشامانية الهندو - إيرانية (المعروفة آنئذ من قبل السيخ seythe وهنود العصر الفيدي) ولا نرى لماذا يرتاب في النص الموضح لوجد فيشتاسبا عن طريق الحشيش . ولكن الوجديات والرؤى المؤكدة في الجاهاس وفي الآفستا من جهة أخرى لا تمثل بنية شامانية . ان الكلام المهيّج الرؤي لزرادشت يقربه من نماذج أخرى دينية . وبأكثر من هذا فإن العلاقات بين النبي والرب ، والرسالة التي لا تتوقف عن أن تعلن ، لا تفشي نصاً «شامانيا» . فمهما كان الوسط الديني الذي نمت فيه الزرادشتية ، ودور الوجد في إيمانه . وفي مريديه الأوائل ، فإن الوجد الشاماني لا يلعب دوراً مركزياً في المجوسية . وسنرى ان «التجربة الصوفية المجوسية» هي النتيجة لتطبيق شعائري مضاء بالأمل الاخروي .

١٠٣ - كشف اهورا مزدا : الانسان حرفي اختياره للخير والشر .

تلقي زرادشت الكشف عن الديانة الجديدة مباشرة من اهورا مزدا . وبقبوله له احتذى العمل البدئي للرب - اختيار الخير [سينا ٣٢ : ٢] - ولم يطلب شيئاً آخر للمؤمنين به . إن الجوهري في الاصلاح الزرادشتي يتكون في اقتداءً بالاله Imitatio dei . فالانسان مُحْطَر رسمياً باتباع مثال اهورامازدا ، ولكنه حرفي اختياره . انه لا يشعر بأنه عبد أو أنه خادم للاله (كما يقول مثلاً المؤمنون بقارونا أو بيهوه أو الله) . ففي الجاهتاس يشغل اهورا مزدا المكان الأول . انه طيب وقدوس spenta ، ولقد ابدع العالم بالفكر [سينا ١٠ ٧٠ ، ١١] . الأمر الذي يماثل الابداع من العدم .

وزرادشت يصرح بمعرفته لأهورا مزدا بالفكر « كالأول والآخر » [يس . ٣١ : ١] أي منذ البداية والنهاية ، والرب مترافق بخفر من كائنات ألهية (الاميشا سبنتا) : العدالة (آشا) ، الفكرة الطيبة (فوهوماناه) ، الورع (آرمتي) المملكة ، القوة (كشازرا) التكامل والخلود [آميريتا ، هورفاتا] . ان زرادشت يدعو ويمجد هذه الجواهر مجتمعة مع اهورا مزدا ، كما في هذا (الدعا) الجاهتا gatha : «أيها السيد الحكيم الكلي القدرة ، الورع العادل ، المسعد للأحياء ، للفكرة الطيبة ، للعرش اصنع إلي : كن رحيماً بي بديلاً عن مساعدة أي كان » [يا . ٣٣] .

إن أهورا مزدا هو أب لعدد من الجواهر Entités (آشا ، فوهوماناه ، آرمتي) ولواحدة من النفسين التوأمين سبنتا مينو (النفس المحسنة) . ولكن هذا يقتضي انه وَلَدَ كذلك التوأم الآخر انغرامينو (النفس المدمرة) . من الأصل ، وأكد في جاتها شهيرة (يس . ٣٠) ، ها تان النفسان اختارتا ، احدهما الخير والحياة ، واحدهما الشر والموت . سبنتا مينو يعلن للنفس المدمرة في « بداية الوجود » : « لا افكارنا ، ولا نظرياتنا ، ولا قوانا العقلية ، ولا

اختياراتنا ، ولا اقوالنا ، ولا افعالنا ، ولا مشاعرنا ، ولا ارواحنا ليست على وفاق « [يا . ٤٥ : ٢] الأمر الذي يظهر ان النفسين مختلفتان - احدهما قديسة ، والأخرى خبيثة - وعلى الاكثر باختيارهما ليس بطبيعتهما .

وتيولوجيا زرادشت ليست ثنائية ، في المعنى الدقيق للعبارة ، وطالما أن أهورا مزدا ليس مواجهها « بضد للاله » ، فإن المعارضة توضحت ، في الأصل ، بين النفسين .

من جهة اخرى ، فإن الوحدة بين أهورا مزدا والروح المقدسة مضمرة مراراً (يس - ٤٣ - ٣) الخ . وجمالاً فإن الخير والشر ، القديس والشيطان المخرب تفيض عن أهورا مزدا ، ولكن بما أن انغرامينو قد اختار بحرية طريقته في التكون وميله للشر ، فإن الرب الحكيم لا يمكن ان يكون معتبراً كمسؤول عن ظهور الشر . ومن جهة اخرى ، فإن أهورا مزدا في قدرته الكلية للعلم ، كان قد علم منذ البدء ما سيكون خيار النفس المدمرة ، ومع ذلك لم يمنعها ، وهذا ما يمكن ان يعني بأن الاله إما مفارق لكل نوع من المتضادات ، وأما ان وجود الشر يشكل الشرط المسبق لحرية الانسان .

ومن المعروف ان يبحث عما في ما قبل التاريخ عن لاهوت مماثل : في مختلف المنظومات الاسطورية - الشعائرية للانشطارات الثنائية والتعددية ، وفي التعاقبات والثنائيات ، وفي الزوجية المتضادة ، والتطابق المتعارض ، منظومات حللت في آن واحد الايقاعات الكونية والمظاهر السلبية للحقيقة ، وفي المكان الأول وجود الشر . ولكن زرادشت يقدم معنى دينيا واخلاقيا جديداً لهذه المعضلة الأزلية وذلك في بعض الأبيات من الجاتهااس حيث توجد البذور لما لا يحصى من الانبثاقات التالية التي اعطت للروحانية الايرانية ملامحها الخاصة .

والفصل البدئي بين الخير والشر هو نتيجة لاختيار مستعمل لأول مرة من قبل أهورا مزدا ومكرر من قبل النفسين التوأمين اللتين اختارتا على التوالي العدالة (أشا) والغش /دروغ/ . وبما ان الديفاس ارباب الدين التقليدي الايراني ، قد

اختاروا الغش ، فإن زرادشت يطلب الى المؤمنين به أن لا يقدموا لهم عبادة وفي المكان الأول ان لا يضحوا لهم بالبقریات .

ان الاحترام للثور يلعب دوراً مرموقاً في الديانة الزردية . ولقد رأينا في هذا الصنيع الانعكاس لتزاع بين المزارعين المستقرين وبين البدو الرحل . ولكن التناقض المعلن من قبل زرادشت يتجاوز بمشتملاته ، المستوى الاجتماعي . انه جزء من التقليد الديني الوطني الآري الذي اهمل . لقد وضع زرادشت بين الأثمين ييما yima ابن فيفها فانت « الذي من أجل ان يتملق شعبنا جعله يأكل قطعاً من الثور » [يس . ٣٢ : ٨] وزيادة على ذلك ، وكما سنرى ، فإن النبي قد طلب من أهورا مزدا متى سيدمر اولئك الذين يطبقون التضحية لها وما [٤٨ : ١٠] .

مع ذلك فإن بحوثاً حديثة اظهرت ان شعائر هاوما ، كما هو الأمر في عبادة ميثرا mithra لم تدان بتمامها من قبل المجوسية حتى ولا في الجاثاس^(١٤) . واكثر من هذا ، ان الاضاحي بالحيوانات قد طبقت بدون انقطاع ، على الأقل بالنسبة لمنفعة غير المتدينين^(١٥) فيبدو اذن ، ان زرادشت قد ارتفع بصورة خاصة ضد تجاوزات الطقوس التهتكية ، التي تتطلب مالا يحصى من الاضاحي الدموية والامتصاص المفرط للهاوما . اما بالنسبة لوصف « البقار Bauvier » المطبق على زرادشت ، فإنه لا يتعلق ابداً ، كما ذكرنا ، بواجب كل مجوسي بأن يدافع وبأن يعتني جيداً بالقطيع . ان العبارات المجازية (رعاة) و(قطعان) المؤكدة في كل مكان في الشرق الأدنى القديم والهند القديمة تعود الى الرؤساء ورعاياهم . ان القطيع تدل على الانسان الذي يشاطر في الدين الجديد ، وزرادشت هو البقار^(١٦) .

ان هذه الاصلاحات ، واعادة النظر تسمح بالفهم بشكل احسن لمشاركة المجوسية في التاريخ الديني لايران . وفي الواقع ، لا مجال للإنكار أن زرادشت رغماً عن اصلاحه قبل عدداً من المعتقدات والافكار الدينية التقليدية مع اعطائها قياً جديدة . وهكذا استعاد التقليد الهندو- اوروبي سفر الموتى ، مصرأ على أهمية

الدينونة ، فكل واحد سيحاكم حسب الخيار الذي انجزه على الأرض ، والعاقلون سيقبلون في الجنة « في منزل الغناء » اما بالنسبة للمذنبين ، فأنهم سيقون للأبد ضيوف منزل الشر (يس ٤٦٠ : ١١) ان الطريق نحو الآخرة يمر عبر جسر سيفتات وهناك يوجد مجال للفرز بين العاقلين والخبثاء ويعلن زرادشت ذاته المرور المقدر عندما سيقود أولئك الذين عبدوا أهورا مزدا : « معهم جميعاً سأعبر جسر الفرز » [يس . ٤٦ : ١٠]

١٠٤ - التغيير في وجه العالم .

لا يشك النبي ابداً في ان /الديفا/ سيادون ، وان العاقلين سينتصرون على الخبثاء . ولكن متى سيحين هذا الانتصار للخير الذي سيجدد العالم جذرياً ؟ انه يدعو أهورامزدا « اعلمي ما تعرفه أيها السيد : حتى قبل مجيء العقابات التي تضررها ، أيها الحكيم هل سيغلب العادل الخبيث ؟ لأنه في هذا ما يقتضيه صلاح الوجود » [يس ١٨ : ٢] فتغيير الوجود هو ما انتظره زرادشت : « اعطني هذه الآية : التغيير الشامل لهذا الوجود . وبهدف أن أصل الى السرور الأعظم في عبادتك وفي تمجيدك » [ي : ٣٤ : ٦] ولقد هتف « عرفني بالعلم الذي سيشفى الوجود ! » [ي . ٤٤ : ١٦] . ويصر : « أيها الحكيم ، أية مكافأة تعينها للفريقين ، بنارك الموقدة وبالمعدن المذاب ، اعط آية عنها للأرواح ، لتسبب الضرر للخبيث ، والخير للعادل » [ي ٥١ : ٩] .

ومن الراجح ان زرادشت قد أمل « بالتغيير » الوشيك الوقوع (فرازو- كيريتي) للعالم . وقد هتف « انستطيع ان نكون أولئك الذين يجددون هذا الوجود »^(١٧) [ي ٣٠ : ٩] وفي كثير من الأحيان عين نفسه لذاته ك (ساوزيان) Sausynat « المخلص » [ي ٤٨٠ : ٤٦٨ : ٣ الخ] وهذا المفهوم سيثير فيما بعد ميتولوجيا خرافية وقد كان التحكيم الالهي الأخروي بالنار والمعدن المذاب الذي أعلنه [ي : ٣٠ : ٣٢٧ : ٧] يهدف ايضاً لعقاب الخبثاء باكثر من

البعث للوجود . وكما حصل مراراً في التاريخ ، فإن انتظار الدينونة وتجديد الكون قد طرح بشكل متنام في اخرويات مستقبلية وقابلة أن تكون محسوبة مع اختلافات فيها ولكنه يهمننا الاشارة للشرح الجديد المعطى من قبل زرادشت لفكرة التجديد هذه . فكما رأينا (ف . ٢١ ع) وكما سنرى ايضا (ق ، ١٠٦ ع) . ان سيناريوهات مختلفة اسطورية ، شعائرية بالنسبة لتجديد العالم ، كانت معروفة في الشرق الادنى من قبل الهندو- ايرانيين ومن قبل شعوب اخرى . وان الشعائرية التي تكرر التشكونية ، كانت موضع احتفال بمناسبة العام الجديد . غير ان زرادشت انكر ورد هذا السيناريو القديم الذي كان ينشد التجدد السنوي للعالم واعلن « تغييراً » جذرياً ونهائياً ، منجزاً مرة واحدة وللجميع . وزيادة على ذلك فإن التجدد لن يتم الحصول عليه بانجاز شعائر تشكونية ، وانما بارادة اهورامزدا . وان هذا التجديد يقتضي الدينونة لكل كائن ويستدعي القصاص للخبثاء والمكافأة للعادلين (ف ١١٢ ع) . واذا كانت الجاهاز هي مؤلف زرادشت - لالغاء الايديولوجيا القديمة لدورة كونية مجددة فقد أعلن الاخروية العاجلة الوقوع والتي لا مرد لها ، والمقررة من قبل اهورا مزدا .

واجمالاً ، فإن نقطة الانطلاق في نبوة زرادشت هي الكشف عن القدرة الكلية ، وعن قداسة وطيبة اهورا مزدا . ان النبي تلقاها مباشرة من الرب ولكن هذا الكشف لم يؤسس ابدأً توحيداً ، وان ما اعلنه زرادشت ، باعطائه كنموذج لمريديه . انما هو اختيار الله والجواهر الالهية الاخرى . وباختيار اهورا مزدا فإن المزددي يختار الخير ضد الشر ، وحقيقة الدين ضد الديفاس (المزيفين) . وبالنتيجة فإن على كل مزددي ان يكافح ضد الشر ، وضد أية مسامحة تجاه القوى الشيطانية المتجسدة في الديفاس . وهذا التوتر لن يتأخر عن تصلبيه في ثنائية . فالعالم سيكون منقسماً بين أختيار واثرار ، وسينتهي بالتجمع لاسقاط على كافة المستويات الكونية والانتروبولوجية للمعارضة بين الفضائل واطدادها . ومعارضة اخرى قلما يشار اليها ، غير انه سيكون لها مستقبل كبير في التأمل الايراني : تلك التي هي بين الروحي والمادي ، وبين الأفكار والعالم المتعطي [ي . ٢٨ : ٢] لقد استرعت الانتباه كثيراً ، الخاصة الروحية ، والافكار الفلسفية لديانة

زرادشت^(١٨) . وان التحول لأكثر الآلهة الآرية أهمية في آميشا سبينتا (القدسين المباركين) ، المشكلين خفراً لأهورا مزدا ، وواقعة ان كل واحد من هذه الجواهر يناسب قيمة مجردة (النظام ، السلطة ، الورع ، الخ) مع ادارتهم لعنصر كوني (النار ، المعدن ، الأرض ، الخ) - يعنى في ذات الوقت خيالا ابداعياً وقدرة حادة في التفكير ، ان زرادشت باشراكه معه الأميشا سبينتا توصل الى تحديد الطريقة التي يتدخل بها اهورا مزدا في العالم - وأوضح كذلك كيف ان الرب ، عبر « ملائكته Archanges » يمكن مساعدة ودعم المؤمنين . ان الواقعة التي يدعو بها النبي ربه «حكيماً» ، والتي يمجدها أهمية «الحقيقة» ، التي يسميها باستمرار «الفكر الطيب» - تبرز جدة رسالته : ابرزت الوظيفة والقيمة الدينية «للحكمة» ، أي «العلم» ، المعرفة الثاقبة والمفيدة . انه لا يتعلق ، تأكيداً بعلم مجرد في المعنى الحديث للعبارة ، وانما الفكر «الخالق» الذي يكتشف ويبني في آن واحد مكونات العالم والكون من قيم مرتبطة بها . ومن هذه الوجهة النظر ، يمكن بها مقارنة الجهد التأملي لزرادشت بتأمل واكتشافات حكماء مثارة في الاوينايشاد ، والذين غيروا بها جذريا المفاهيم الفيدية للعالم وللوجود البشري [ق ٨٠٠ ع] .

ولكن التقريب مع الريشي les rishis في الاوينايشاد يصبح أيضاً أكثر إقناعاً عندما نلاحظ الخاصية المسارية والأخروية «للحكمة» المزدكية . بالتأكيد ، وبصفتها ديانة خاصة (كالفيدية والبراهمانية) . فإن المزدكية سمحت بالتطور الى بعد باطني ، والذي بدون أن يكون ممنوعاً ، لم يكن مع ذلك مقبولاً من كل المؤمنين . وكما تذكر اليسنا ٤٨ : ٣ «مبادئ سرية» . أن الصفة المسارية والأخروية واضحة في العبادة التي طرحها زرادشت مكان الشعائر الدموية والتقليدية المسعورة . ثم إن العبادة هي على درجة من الروحية بحيث أن العبارة ذاتها «التضحية» (يسنا) تعادل ، في الجاهل ، عبارة «فكرة»^(١٩) . وعندما تقرب أهورا مزدا «كفكرة طيبة» وطلب اليه : «الى من تريد أن أوجه عبادتي» ؟ . أجاب زرادشت : «إلى نارك !» وأضاف : «يجعل القربان لها من التمجيد ، أريد أن أفكر بمقدار ما أستطيع بالعدالة !» [ي ٤٣ : ٩] إن التضحية هي الفرصة ، وبدقة أكثر

«السند» لتأمل لاهوتي . وكيفما كانت التفسيرات المعطاة فيما بعد من قبل الكهنة ، فإن مما له دلالة ان مذهب النار أصبح وبقي ، المركز الديني للمزدية . وفيما يتعلق بالنار الأخروية كما فهمها زرادشت ، فإن مما لا شك فيه أن وظيفتها المقررة هي في أن تطهر و/تروحن/ - العالم . غير أن وظيفة العبادة هي أكثر اعتباراً . وتبعاً لشرح حديث^(٢٠) فإن الفاعل يكتسب بواسطة الشعيرة (يسنا) ، الشرط لماجا ode maga أي أنه يتمتع بتجربة وجدية تنتج «التنوير» (سيستي cisti) . وأثناء هذا التنوير ، يتوصل الكاهن المضحي لفصل جوهره الروحي (مينوك) عن طبيعته الجسدية (جينيك) . وبعبارة أخرى انه يفصل شرط الطهارة والبراءة الذي سبق «خلط» الجوهريين . وعليه ، فإن هذا «الخلط» كان موجوداً على أثر مهاجمة أهريمان . فإن المضحي يساهم في أحياء الوضع الأولي ، «لتغيير» (فرازو - كريتقي) العالم ، وهو عمل فدائي استعمل لأول مرة من قبل الكاهن - النموذجي زرادشت وحتى انه يمكن القول بأن المضحي يساهم انثذ بعالم متحول^(٢١) .

إن حالة الماجا يحصل عليها بصورة خاصة بأضحية الهاوما Haoma (شراب الخلود) الذي يشربه الكاهن أثناء الحفلة» . وعليه فإن «الهاوما» غني في الكزافرنه xvarnah ، سائل حلو ، ناري ومضيء ومنعش ومقوٍ للباه في أن واحد . إن أهورا مزدا هو المالك للکزافرنه بامتياز . ولكن هذه /الشعلة/ الالهية تنساب أيضاً من جبهة ميترا mithra [نحت - ١٠ - ١٢٧] وكضوء شمس ينبثق من رأس الأسياذ souverains^(٢٣) . مع ذلك ، فإن كل كائن بشري يملك الكزافرنه الخاصة به ، وفي يوم التغيير أي التجديد النهائي فإن النور الكبير البادي خروجه من جسم سيتلاً كل الوقت على هذه الأرض^(٢٤) . بشرب الهاوما شعائرياً ، فإن المضحي سيتجاوز شرطه البشري ، ويتقرب من أهورا مازدا ويسبق ماديا التجديد الشامل .

انه لمن الصعب التحديد بدقة فيما اذا كان هذا المفهوم الأخروي للعبادة مصاغ كله مسبقاً في عصر زرادشت ، الا أنه بالتأكيد كان مضمراً في وظيفة

الأضحية لدى الهندو- اوروبيين . وفي المنظور الذي كان خاصاً بهم ، يتقاسم مؤلفو البراهمانا مفهوماً مماثلاً : كان العالم يحدد دورياً بمعنى انه يعاد خلقه بالقدره الغير محدوده للأضحية . ولكن الوظيفة الاخرية للعبادة في المزدكية تجمع ، كما يقال ، الترقية المثلث للأضحية المتحققة من قبل البراهمان ، مع الغنوص (العرفان) المساري و«الاشراق» النبوي للاوبانيشاد . وفي ايران كما في الهند البراهمانية ، كانت التقنية التضحية والحكمة الاخرية مستثمرتين من قبل منتخب ديني ، وكانتا تشكلان تقليداً باطنياً . وفي المعيار الذي يناسب فيه عدد من المشاهد المتعلقة باستعمال الحشيش من قبل المؤمنين بزرادشت ، حالة واقعية^(٢٥) ، يمكن تقريبها من حالة الهند القديمة : هنالك أيضاً يصادف عدد من الوجدنين المستعملين لبعض المخدرات الى جانب النساك ، والرائين واليوجيين والمتأملين (ف . ٤٧٨ ع) ولكن الرعشات والوجدنيات المثارة بالمخدرات قد لعبت دوراً متواضعاً في الديانات الهندية ، وعلى ما يبدو ، فإن أقدم زرادشتية ، مع كونها غير منعكسة بشكل كامل في الجاهاز ، تبدو مقرة بالأولوية «للحكمة» و«للاشراق» الداخلي قرب نار تضحية .

وحسب التقليد ، فإن زرادشت قد قتل عن ٧٧ سنة من قبل الطوراني براتقاركش Brätvarkch في معبد للنار . وبعض المصادر المتأخرة تحدد أن القتلة كانوا محتبشين على شكل ذئاب^(٢٦) . وإن الخرافة تعبر بروعة عن دلالة القدر لزرادشت ، لأن «الذئاب» كانت أعضاء «المجتمعات البشرية» الآرية ، الذين وصفوا بالعار ، من قبل النبي بكل جرأة .

ولكن عملية الأسطورة قد تحدت خلال خمسة عشر قرناً على الأقل . وقد ذكرنا سابقاً بعض الأمثلة عن تأليه زرادشت في التقليد المزدكي (ف ١٠١ ع) وفي العالم الهلنستي ، مجد زرادست كالمالغ المثالي ، وإنه دوماً بصفته ماجوس Magus قد دعاه فلاسفة عصر النهضة الإيطالية . وأخيراً ، ستوجد انعكاسات أجل أسطورة له في (فاوست) جوته .

إن التعارض بين أهورا مزدا والديفاس كانت قد تحدت سابقاً في العصر الهندو- إيراني لأن الهند الفيدية كانت عارضت الديفاس بالآزوراس «ومع الفارق فإن القيم الدينية في الهند قد تطورت إلى هاتين المجموعتين في معنى مخالف لما هو في إيران : الديفاس أصبحوا «الآلهة الحقيقيين» بانتصارهم ضد الطبقة من الآلهة الأكثر قدماً (الآزوراس) الذين ، اعتبروا في النصوص الفيدية كوجودات شيطانية (ف ٦٥٠ ع) . وإن عملية مماثلة مع اتجاه معاكس حصلت في إيران : الآلهة القديمة (الديفاس) تشيطنوا . ومن الممكن التحديد في أي معنى قد أنجز هذا التحول : إنهم على الأخص الآلهة ذوي الوظيفة المحاربة - اندرا ، سورفا ، فايو- هم الذين أصبحوا ديفاس . إن أي واحد من آلهة الأزورا لم يتشيطن ، والذي توافق في إيران مع أزورا الكبير والهندي القديم ، فارونا ، أصبح أهورا مزدا .

إن زرادشت قد لعب بالتأكيد دوراً في هذا السياق . ولكن ترقية أهورا مزدا إلى وضع معظم لم يكن من صنيعة . إن أهورا مزدا ، معتبراً كإله أعلى ، أوبساسة كرب كبير بين أرباب كبيرة أخرى ، قد قدس في البلاد الإيرانية قبل زرادشت . ويوجد تحت هذا الاسم في منقوشات الملوك الأخمينيين .

ومنذ سنوات واجه العلماء تناقض حماسي حول موضوع زرادشتية داريوس وخلفائه . فصد زرادشتية الملوك الكبار يحتج بالدلائل التالية إلى جانب غيرها : إن زرادشت لم يذكر في أي نقش ، وأن مصطلحات واسماء هامة أيضاً مثل سبيتنا ، أنفرا مينو والاميذا - سبيتنا (ما عدا آرتا) هي مفقودة ، ومن جهة أخرى ، فإن ديانة الفرس في عصور الأخمينيين ، كما وضعت من قبل هيرودوت ، ليس لها شيء من الزرادشتية . ولمصلحة زرادشتية الأخمينيين يشار إلى اسم الرب الكبير أهورا مزدا الممجّد في النقوش ، وأيضاً لواقعة انه عندما ادخل التقويم الجديد في

عهد كسرى الأول (٤٦٥ - ٤٢٥) مع الجواهر الزرادشتية فإن اصلاحه لم يثر أي ضجة^(٢٧).

ومهما يكن من أمر ، فإن الأخمينيين ان لم يكونوا زرادشتيين ، وكان لاهوتهم من ذات المستوى الذي هو للجатаهاز : انه مغرق بعبارات مجردة يمكن مقارنتها بعبارات الجاتاهاز وهي «كلها مثقلة بالهموم الأخلاقية»^(٢٨) . وإضافة لذلك ، وكما يذكر مارجا موليه Marjamol'e لا يتوجب ان ينتظر من ملك أعمال وعبارات الكهنة ؛ إنه لا ينجز طقساً ، بل هو يكمل اعمالاً مادية ، وعليه ، فهذا هو فرازا Frasa تعبير يدل على كل «ما هو خير ، وما يشكل السعادة للانسان ، وما يسوغ للملك ان يمارس صلاحياته»^(٢٩) . في النقش الأول الذي أمر داريوس بنقشه في نقش - ١ - روستام Naqs - I - Rustam بالقرب من بيرسيبوليس ، مجد آهورا مزدا بصفته «رباً كبيراً خلق هذه الأرض ، وخلق السماء ، وخلق الانسان ، وخلق سعادة الانسان ، وجعل داريوس ملكاً ، هذا الرجل الوحيد ، ملك على الكثير ، هذا الرجل الوحيد سيد الكثير»^(٣٠) . ان النقش يؤكد على ابداعية آهورا مزدا وقيل تقريباً كنتيجة ، حول المسؤولية الدينية للملك . انه من أجل دعم خليفة آهورا مزدا وضممان «السعادة للانسان» أن داريوس قد جعل ملكاً .

ان هذه الوضعية الدينية المتميزة مبررة باسطورة انشاء الاسرة الملكية للأخمينيين . فحسب هيرودوت [١ - ١٠٧ - ١١٧] ، على اثر حلمين فسرهما الماچ Lesmages كنبوة سيئة بالنسبة لعرشه ، زوّج استياج Astyage ملك الميڊس Mèdes ابنته من رجل فارسي (اذن ، رجل من صنف ادنى) يسمى قمبيز ، وعندما انجبت للعالم طفلاً ، قورش ، فإن استياج أمر بقتله ، ولكن الولد انقذ وربى من قبل امرأة راعي بقر متراتات^(٣١) . وعاش قورش حتى سن المراهقة بين الرعاية الشباب ، ولكن خاصيته كأمر فضحته فاكشفت هويته . وفي آخر المطاف وبعد العديد من المغامرات انتصر على الميڊيين les mèdes وخلع جده عن العرش وأسس امبراطورية الأخمينيين .

ان اللازمة الاسطورية لبطل مطروح ومنفي تصادف لدى العديد من الشعوب . وفي هذا الشأن نستعيد هذه البواعث .

- أ - التجارب التي تحملها قورش ، مبتدئاً بعرضه ، المساوي لمسارة من نوع محارب .
- ب - رمزيا ، الملك المقبل هو - أو يصبح - ابن الاله ميترا (ابوه بالتبني يدعى «عطية ميترا» ؛
- ج - بعد انتصاره ضد ملك الميدين ، أسس قورش امبراطورية ، واسرة حاكمة جديدة .
- د - وهذا ما يعود بالقول انه ابدع علماً جديداً ودشن عهداً جديداً ، وبعبارات اخرى ، أتم نشكونية مصغرة .
- هـ - وحيث ان النشكونية كانت مكررة شعائرياً بمناسبة السنة الجديدة فقد كان من المسموح به افتراض ان السيناريو الاسطوري - الشعائري لإنشاء اسرة حاكمة كان قد أدخل في احتفالات النيروز Nawroz .

١٠٦ - الملك الايراني وعيد السنة الجديدة :

ان داريوس قد صمم وبني برسيوليس كعاصمة مقدسة موقوفة للاحتفالات بعيد السنة الجديدة النيروز^(٣٢) . وفي الواقع لم تكن عاصمة سياسية ، ولم يكن لها أية أهمية استراتيجية . وخلافاً لـ باسارغادي ، واصفهان وسوزا وبابل ، فإنها لم تذكر في أي مصدر غربي أو شرقي^(٣٣) . ان النيروز ، مثل كل سيناريو شعائري للسنة الجديدة ، كان يحدد العالم بال تكرار الرمزي للنشكونية .

وقد كان المفهوم مألوفاً للهندو - ايرانيين ، ومع ذلك فمن الراجح ، ان السيناريو قد تحمل ، في ظل حكم الأخمينيين ، تأثيرات ميزوبوتامية . وعلى كل حال فإن عيد السنة الجديدة كان يجري تحت رعاية آهورا - مزد ، ممثلاً كهنوتياً على عدة ابواب في بيرسيوليس .

ففي منطقة جغرافية معتبرة وبدءاً من إحدى الفترات التاريخية كانت النشكونية (كما هي كافة الأشكال الأخرى من «خلق» ومن «تأسيس» (تقتضي

المعركة المظفرة لاله أو بطل اسطوري ضد غول بحري أو تنين (على سبيل المثال اندرا - فرترا ، بعل - يام ، زوس - تيفون الخ) . وقد أمكن اظهار مخطط مسرحية (سيناريو) مشابه ، كان قد وجد لدى الهنود الفيديين وايران القديمة^(٣٥) ؛ ومع أن المصادر متأخرة في هذه الحالة الأخيرة وهي تظهر الأسطورة متأخرة بقوة . وفي الواقع ، إن معركة البطل تريتونا ضد التنين آذي داهاك التي اشارت إليها الأفشتا [نخت ٩ : ١٤٥ - ٥ - ٣٤ : ١٢١] قد رويت من قبل الفردوسي كصراع الملك فاريدون (فريتون تريتونا) ضد مغتصب أجنبي ، التنين ازدهاك ، الذي كان قد أسر وتزوج شقيقتي الملك الشرعي ، جمشيد (ديام كزايته) . ان فاريدون - مثل تريتونا - خرج منتصراً ، وقتل التنين وحرر (وتزوج بدوره) الأميرتين الأسيرتين . وعليه فإن التقاليد المتأخرة تؤكد انه في يوم السنة الجديدة يجب ان يكون الملك قد قهر ازدهاك^(٣٦) . إن الأبطال والملوك الايرانيين قد اشتهروا بقتل الحيتان (ر) . على سبيل المثال اسطورة ازدشير التي سنشير إليها . يضاف الى ذلك انه ، في ايران كما في أماكن ، أخرى ، توازن السياق في تاريخ النصوص والأشخاص الاسطورية بعملية معاكسة : الخصوم الحقيقيون للقومية أو الامبراطورية قد نُحِلُّو كغيلان . وبصورة خاصة كالتنانين^(٣٧) .

وان ما يهم الإشارة إليه هنا هو واقعة ان الملك الايراني كان مسؤولاً عن حفظ وتجديد العالم ، وبعبارة أخرى ، انه على المستوى الخاص به ، قد قاتل قوى الشر والموت وأسهم في انتصار الحياة ، والخصب والخير . ان زرادشت قد انتظر التجديد الشامل بواسطة الدين الجديد ، وفي آخر المطاف ، كان كل كاهن زرادشتي يعتقد بأنه سبق بتضحياته التغير الأخرى . وإن ما اتقه الملوك في البدء وسنويا ، كان الكهنة يأملون بتحقيقه سنويا - والساوشيان Saoshy ant سينجزه بطريقة نهائية بالتجدد النهائي . ونجهل فيما اذا كان قد وجد في أزمان الأخمينيين نزاع أو توتر سري بين الايديولوجيتين الدينيتين الملكية والكهنوتية فصدقة الملك فيشتاسبا بالنسبة للنبي كان من الممكن لها ان تشكل نموذجاً مثالياً . ولكن المواجهة تأكدت فيما بعد تحت حكم الساسانيين . وان الظاهرة قد عرفت في مكان آخر أيضاً ، فالأمير سيد هارتا أصبح البوذا ، ودينه بالخلاص حل محل دين البراهمان

إن انتشار الزرادشتية باتجاه الغرب جعلها تصطدم بأنواع أخرى من الديانات وتتحمل تأثيراتها . وحسبما يبدو فإن مزديّة الأخمينيين لم تبقى أبداً ثابتة لم تتغير . فكسرى ابن داريوس ، قد حرم في كل امبراطوريته عبادة الديفاس - الأمر الذي يقربه كثيراً من ديانة زرادشت . ولكنه بعد وقت متأخر ، وبدقة ، بدءاً من نقوش ارتاكسيركس الثاني (٣٥٩ - ٤٠٥) ظهر ميترا وأنا هيتا إلى جانب آهورا مزدا . وعلى ذلك ، سنرى توليفية مشابهة قد ظهرت في «الافيسا» المتأخرة ، حيث ان ذات الاسماء للآلهة قد ذكرت إلى جانب آهورا مازدا والأميشاسبيتا .

وتبقى مسألة المجوس des mages وعلاقاتهم مع الزرادشتين متعارضة ايضاً . فقد اعتبروا على سبيل المثال ، كقبيلة من أهل البلاد الأصليين من السحرة ومناجي الأرواح المسؤولين عن انحطاط الزرادشتية أو ، على العكس ، كالتلامذة الحقيقيين لزرادشت ومبعوثيه في ايران الغربية . ويبدو انهم كانوا ، في عصر الامبراطورية الميديّة (القرن السابع) طائفة هرطقية من الكهنة الميديين ، القابلين للمقارنة باللاويين والبراهمانيين^(٣٩) .

وقد مثلوا الطبقة الكهنوتية الممتازة تحت حكم الأخمينيين . وحسب معلومات هيرودوت ، كانوا يفسرون الأحلام [١ ، ١٠٧] ويجرون تنبؤات بتضحية احصنة بيضاء [٧ - ١١٣] وخلال التضحيات كانوا يرتلون «نسب الآلهة» [١ - ١٣٢] الأمر الذي يدل على أنهم كانوا الحفظة لنص الشعر الديني^(٤٠) . وعلى كل حال ، فإن المجوس كانوا قد أخذوا بعدد من الطقوس والعادات الزرادشتية وانتهوا باعتبارهم كتلامذة لزرادشت ؛ وفي الواقع ، ان زرادشت كان معتبراً من قبل بعض الكتاب الاغريق مجوسياً .

ان هيرودوت هو الذي نقل إلينا دائماً المعلومات الأكثر قيمة المتعلقة بايراني الشمال ، وفي المكان الأول السيت . فيوجد له السماء (بابايوس) ، ميثرا ، و

(هيلوس - ابولون) ، «آريس» اله الحرب ، وربة الأرض وافروديت اورانيا [١٧ ، ٥٩] . وينقل هيرودوت خرافة وطنية حول أهل قبائل السيت والسلطة الملكية [١٧ - ٥] . ان الاسطورة تفسر بالايديولوجيا الثلثية للهندو- اوروبيين ، واستمرت في الملحمة الشعبية لأوسيت القوقاز des Ossètes duCaucase وأخلاف السيث والآلين des Alains .

ويؤكد المؤرخ الاغريقي [٦ - ٥٩] ان السيث لم يكن لديهم لا معابد ، ولا مذابح ولا تماثيل . وربما كانوا يضحون سنوياً لآريس باحصنة وخراف وواحد بالمائة من اسرى الحرب ، وكان الاله يمثل بترس من حديد منصوب على تلة صناعية . أضحيات بشرية (واحدة من محظياتهم ، عدد من الخدم) واحصنة كانت تصاحب الملوك عند دفنهم [٦ ، ٧١] . واخيراً ، من المهم ملاحظة الخاصة (الشامانية) لبعض الشعائر : كان السيث يلقون حبواً من القنب على حجارة متقدة ، ويضيف هيرودت الذي لم يفهم انها كانت مسألة عمل ديني ، كان الدخان يجعلهم (سعداء جداً بحيث يدمدمون من السرور) [٦ - ٧٣] . وكان هذا يتعلق على الأرجح ، بتجربة وجدية يمكن ايجاد موازياتها في التقليد الزرادشتي (ف / ١٠٢ ع) .

١٠٨ - مظاهر المزدكية طقس الهاوما :

إن اليسنا - ذات الفصول السبعة المكتوبة نثراً والمؤلفة للجاتهاز ٣٥ - ٤٢ تعكس البداية المعقدة لعملية تكييف وتكامل . في المفردات اللغوية ، وبدئياً ، نلاحظ بعض التجديدات ذات الدلالات : الاميشاسبانتا مذكورة لأول مرة في مجموعة ونصادف فيها عبارة ياذاثا (آلهة) والتي ستظهر هامة في المزدكية المتأخرة . ويميز بعض الاتجاه لاعادة تقديس الحقائق الكونية . فالنار متطابقة مع النفس المقدسة ، سبيتامايو [يسنا ٣٦ : ٣] ؛ ومع الشمس ، تشارك النار بآهورا مازدا^(٤١) . والشمس هي الشكل المرئي للرب «الأكثر علواً من الأعلى» [يسنا

٣٦ : ٦] . وآشا ، الحقيقة ، هي كذلك مشاركة مع النور . ولقد لاحظنا في مكان آخر تقدم بزوغ آشا في اليسنا ذات - الفصول - السبعة : تدعى مع اهورا مزدا ويعلن اتحاد الرب مع الحقيقة «للأبد [يسنا ٤٠ : ٢ ، ٤١ - ٦] . آشا تعني الآن أكثر من حقيقة ، عدالة ، نظام ؛ انها تجسيد لبنية كونية وروحية معا^(٤٢) ويُسمى «الأكثر عظفا ، الحسن ، الخالد واقع من نور [يسنا ، ٣٧ : ٤] ان فوهوماناه ، الذي كان أهم زرادشت الجاتهاز ، قد دفع إلى موقع تابع .

وبما هو أكثر مفاجأة ايضاً : الكلام عن «الزوجات الطيبات» لأهورا (الخورانيث les Ahurunis) اللواتي هن المياه : «نمجد الخورانيث المياه» [يسنا ٣٨ : ٣]^(٤٣) . ويكسب هاوما مكانا هاما في العقيدة : «نعبد المعظم هاوما الذهبي ، نعبد هاوما المضيء الذي اغنى الحياة ، نمجد الهاوما الذي سيهرب الموت منه» [يسنا ٤٢ : ٥] ، إن عدداً من الكتاب قد فسر هذا التمجيد لهاوما كدليل لتوفيقية ، تالية لموت زرادشت ، بين رسالة النبي والديانة التقليدية . مع ذلك ، اذا كان صحيحا ان زرادشت قبل بالفعل عبادة هاوما مستنكرا تجاوزاته فقط ، فلا يوجد هناك مسألة توفيقية ، وانما ترقية رسمية لقيم «الديانة الكونية» القديمة للهندو - ايرانية .

ان الجاتها - لزرادشت وجاتها ذات السبعة - فصول تشكل جزءاً من الطقس السري اليسنا ، ويتكون جزء كبير منه في ابتهالات متكررة لكائنات إلهية . وان اليختات les Yashts هي ترنيمات موجهة ، بانفراد ، لمختلف الآلهة . انه يتعلق ببعض الارباب التي كان زرادشت قد تجاهلها كميترا ، على سبيل المثال ، ولكن ايضاً بشخصيات إلهية أو تجسيدات لحقائق دينية ، مثل الهاوما . ان الهوم - يخت le hom - yash [يخت ٢٠] يبرر عبادة الهاوما باسطورة جريئة للأصل : بينما كان زرادشت يقدر النار ويتلو الجاتهاش ، تقرب منه الهاوما ودعا لقطافه ولعصره . وبالسؤال منه ، علم النبي ان فيقاهقانت كان أول من عصر الهاوما وحصل كمكافأة على ولادة ابن ، الملك ييما Yema «الاکثر تدينا بين البشر» [يخت ٢٠ - ٤٥] .

سنعود لدلالة ولما قبل تاريخية هذا السيناريو الاسطوري - الشعائري : النسل المتحصل على أثر ، وبالقوة ، من تضحية (جزء ٢) . ويلاحظ ان ييما وشعيرة الهاوما قد مجَّد في المزدكية تلازماً مع الاصحاحي الدموية [نحت ١١ : ٤ - ٧] . ان مثل هذه الترقية للتراث الهندو- ايراني أثار بوضوح مقاومات قوية : وفي الواقع ، ان الاصحاحات الدموية كانت فيما بعد قد حذفت نهائياً ، وزالت الهاوما كشراب مسكر ، لكونها أبدلت بخليط من عصير نباتات وماء ولبن^(٤٤) .

١١١ - تمجيد الاله ميترا :

مما يثير الدهشة ايضاً ، ومما هو أكثر أهمية بالنسبة لتاريخ المزدكية ، المهرينخت Mihryach [ين - ١٠] ، النشيد الطويل على شرف ميترا . «يعلن آهورا مزدا ، عندما خلقت ميترا ذي المراعي الواسعة ، صنعته أيضاً جديراً بالاجلال والاكبار مثل ذاتي» [نحت ١٠ - ١] . وبعبارات اخرى ، كل عظمة ، وقوة وابداعية ميترا هي عمل الرب الحكيم . ويلاحظ في هذا الاستهلال جهد اللاهوت المزدكي الهادف لاعادة تثبيت القدرة الكلية لاله واحد أعلى . وفي الواقع ، ان الميهرياخت تروي وتؤكد ترقية ميترا للسمو الذي كان عائداً له قبل اصلاح زرادشت . وعندما ، في نهاية النشيد ، يجتمع الالهان ، يستعمل الكاتب صيغة ميترا - آهورا (نحت ١٠ : ١٤٥) كجواب معروف جداً لمخرج فيدي ميترا - قارونا^(٤٥) .

ومع ذلك ، فإن الاله الممجّد في الميرينخت لم يُعد ادخاله في المزدكية دون بعض التغييرات . ويمكن فك الرموز في النشيد حتى تختلف فترات نسب الهي سرى : سلسلة اعمال واشارات آهورا مزدا ترمي بحق لتمجيد وترقية ميترا . ونشير بدنيا الى قيمه المتعددة : ميترا هو ، بالتأكيد اله العقود ، والموعد بعبادته [نحت ١٠ : ٤ - ٦] فالؤمن يرتبط بأن لا يفسخ العقود مطلقاً . ولكنه أيضاً اله الحرب ويندو عنيفاً وقاسياً (يذبح الديفاس بثورة عنف والكفرة يقتلهم بدبوسة فاذرا ، خط يقربه من اندرا) ، انه كذلك اله شمسي ، يشارك بالنور [١٠ -

١٤٢] له الف اذن وعشرة آلاف عين [١٠ - ١٤١] أي انه كلي الرؤية ، وكلي الادراك مثل كل إله سيد ، الا انه اضافة إلى ذلك المتبصر الشامل الذي يضمن الخصب للحقول والقطعان [١٠ : ٦١] . ان الظاهرة شائعة في تاريخ الأديان : الوهية مثقلة بمزايا متعددة ، وأحياناً متناقضة ، بهدف الحصول على «كلية» هي ضرورية لترقيتها ، موقتاً أو بشكل دائم ، إلى مصاف آلهة كبيرة .

ان آهورا مزدا والأميشا سبيتا انشأوا له بيتاً فوق جبل هارا ، أي في العالم الروحاني الذي يوجد وراء القبة السماوية [١٠ : ٤٩ - ٥٢] ^(٤٦) . مع ذلك ، يشكو ميترا للرب انه ، مع كونه الحامي لكل الخلائق ، فإنه لم يعبد مع الصلوات ، كما هو الأمر بالنسبة للآلهة الأخرى [١٠ : ٤٥] ومن المحتمل ان يكون حصل على العبادة التي طلبها ، لأن تنمة النشيد تظهر متراً على عربة يجرها حصانان ابيضان [٦٢] ، أو مصحوباً براوشاواراشنو ، جائباً الأرض اثناء الليل ومستأصلاً الديفاس [٩٥ - ١٠١] ، أو ملاحقاً أولئك الذين لا يحترمون العقود [١٠٤ - ١١١] . وأيضاً عماله دلالة أكثر مراحل ارتفاع ميترا إلى صف اله اعلى . في البدء كرس آهورا مزدا هاوما بصفة كاهن لميترا وهو يعبد [٩٨] بمعنى انه يقدم له اضاحي ، بعدئذ يحرم آهورا مزدا الشعيرة الخاصة بعبادة ميترا [١١٩ - ١٢٢] ويجربها بذاته في الجنة ، في بيت الغناء [١٢٤] وبعد هذا الاحتفال يرجع متراً ثانية للأرض لمحاربة الديفاس في حين يبقى آهورا مزدا في بيت الغناء .

إن اجتماع آهورا مزدا وميترا يغلق الباب على مصيراً الديفاس . فميترا قد عبد كالنور الذي يضيء العالم كله [١٤٢ - ٤٤] . وينتهي النشيد بهذه الكلمات : «بالنبات برسوم Barsom نعبد ميترا وآهورا الجيدين [ربين] للحقيقة ، الخالصين أبدياً من الفساد : [نعبد] النجوم ، القمر والشمس . نعبد ميترا ، رب كل البلاد» [١٤٥] .

ان ميترا كان قد رفع في المزدية بصورة خاصة بصفة اله - بطل في صراعه ضد الديفاس والكفرة . وان واقعة ترك آهورا مزدا هذه الوظيفة له بكاملها يدل على بعض الاتجاه نحو المفارقة L'otiositas عند هذا الأخير ، ولكن بما ان المعركة

ضد قوى الشر هي الالتزام الاساسي للمزدية ، فإنه يمكن تفسير النشيد كما لو انه «اقرار» من ميترا ، اذن كنصر للرب .

١١٠ - آهورا مزدا والاضحية الأخروية :

إن عملية التوفيق بين الدين القديم الإلاني ورسالة زرادشت يمكن ملاحظتها في اناشيد اخرى . وهكذا ، على سبيل المثال في اليشت [٨] المكرس ليازاتاتيستريا (تشخيص للنجم سيربوس) ، ينتحب تيستريا لأنه لم ينجح بقهر الشيطان آباوز - الذي احتجز المياه وهدد بخراب كل الخليفة - لأن البشر تجاهلوه في شعائهم . عندئذ يكرم آهورا مزدا تيستريا وذلك بأن يقدم له اضحية (يسنا) ؛ وكنتيجة ، يخرج هذا منتصراً من المعركة ضد الديفا ، ويضمن الخصب للأرض . كذلك يضحي آهورا مزدا لأناهيتا ويرجوها «ان تمنحه هذا الاحسان : لأحث التقى زرادشت ليفكر ، ويتكلم ويعمل حسب الدين الجيد» [يخت ٥٠ : ١٧ - ١٩] . واضافة لذلك ، فإن الرب الحكيم ، يضحي لقاوي ويرجوه «ان يمنحه هذا الاحسان» ان يستطيع قتل خلائق أنغرا مينو [يخت ١٥ : ٣] . وكذلك فإنه من غير المتوقع اطلاقاً تصريح آهورا مزدا بأنه ، لولا المساعدة المقدمة من القرافات اشيز Des Fravashis - التي هي الأرواح لما قبل وجود البشرية - لكانت البشرية والحيوانات قد انقرضت ولكان العالم المادي عرضة للسقوط تحت سلطة الكذب [يخت ١٣ : ١٢] .

ولقد فهم Zehner هذه النصوص وكأنها مناقضة لمبدأ زرادشت ، يعني الازلال الذاتي للأهورا مزدا ، الذي لم يمجّد الكائنات التابعة فحسب . وانما يطلب منها المساعدة . وفي الواقع ، ان الأهمية الحاسمة المناطة بمساعدة القرافات تذكّر بنموذج إله مفارق Deus otosus عندما يبدو الخالق مثالاً من «اجهاد عقلي» أجبره لاستدعاء بعض الحيوانات وحتى خصمه^(٤٨) . ولكن الواقعة بأن آهورا مزدا يمجّد (ياز -) هذا الاله أو ذاك مقدما الاضحيات (يسنا) ، لا تقتضي

بالضرورة انه يضع نفسه في وضع تابع . إن اليخت تشير للقدرة الخلاقة للشعائر وللطقوس الدينية ، وتمثل أهورا مزدا في وظيفته الكهنوتية . فبتقديم أضحية يضاعف أهورا مزدا القوة السحرية الدينية للمرسل اليه الى عشرة أمثالها . وإن ما يستخلص من الأناشيد بصورة خاصة انما هو الأهمية الاستثنائية للأضحية ؛ وهذا مفهوم - هندي - إيراني تأكيداً ولكنه تطور وبخاصة ، في البراهمانا ، وسيصبح دائماً أكثر مركزية في المزدية .

وكما هو الأمر لدى الهنود - أوروبيين الآخرين ، فإن النار الشعائرية تلعب الدور الرئيسي ، وباسنا « وهي في الأساس أضحية من هاوما منجزة امام النار » ان الحفظ والتطهير ، واقامة النيران المقدسة اتخذت في المزدية نسباً كانت مجهولة لكل مزدي ، وإن العمل الديني الممتاز كان يقتضي اقامة نار ، أي تشييد معبد ووقف مداخيل وارادات عليه ، وتسمية كهنة فيه^(٥٠) ومع ان زرادشت كان ادان بعض الاضحيات الدموية ، فليس مؤكداً انه رفضها كلها . وعلى كل حال فإن الاضاحي من الحيوانات معروفة في الافستا [يسنا ١١ - ٤ تحت ٨ : ٥٨] . اضافة الى ذلك ، فهي مؤكدة بغزارة في عهد الاخمينيين وفي العصر الفارسي وفي عهد الساسانيين^(٥١) .

لقد رأينا [ف . ١٠٤ع] في أي معنى يعرف زرادشت نفسه كمخلص (ساوشيان) ويهتف : « ألا يمكن لنا أن نكون اولئك الذين سيجددون هذا الوجود » [يسنا : ٣ - ١٩] فهو قد أعاد تقييم السيناريو القديم بالتكرار الشعائري لنشأة الكون . وفي الزرادشتية تدعمت النية الأخروية للأضحية باستمرار ، وبدون ان تمحى ، على الغالب ، القيمة الكونية لها . ويمكن ان نميز عملية مشابهة لتأريخ الايقاعات والظواهر الكونية في اليهودية [ف . ٢٧ع] . ان المعركة ضد الغيلان . وبعض الرموز البطولية التقليدية قد فسرت بكونها فترات من مأساة اخروية مازدية ، يعني الصراع ضد الديفاس . وتوقع اعداد تجديد عالمي شامل . وبما ان العالم كان قد اعيد خلقة رمزياً وإن الزمان متجدد بطقس العام الجديد فقد تم التوصل لاقامة التجديد الاخروي في نطاق السيناريو ذاته . ان الأضحية المنجزة من قبل الكاهن الزرادشتي تسبق الأضحية النهائية التي سيتم بها مخلص

(ساوشيان) التجديد . وبالنسبة ، فإن الفاعل يتمهى بالساوشيان وضمينا
بزرادشت^(٥٢) .

وبعد فترة متأخرة ، التحمت مجدداً وسويا نيتا التضحية - الأخرى
والكونية ، وإن التقاليد المحفوظة في النصوص الفهلوية تشكل حالة من مجموعة
اضاحي انشأ بها أهور مزدا . الكون والانسان الأول ، وزدادشت .

إن التجديد الأخرى سيحصل خلال عيد السنة الجديدة ، وعندئذ يبعث
الأموات وسيحاكمون وفي نهاية الحساب يخلدون . ونذكر بأن التجديد الشامل ،
كالخلق الأولي تماماً ، سيكون النتيجة للتضحية . وتثير النصوص الفهلوية
بتفصيل واسع الاضحية النهائية التي ستنجز من قبل المخلص (ساوشيان)
ومساعديه أو هرامازد والاميشا سبيتا ، وعلى اثر ذلك سيبعث البشر ويصبحون
خالدين وسيكون العالم برمته قد تجدد جذريا .

وبلاحظ في أي معنى ، قد استعملت الزرادشتية القيم القديمة للتضحية :
زرادشت اعلن « حرباً مقدسة » ضد قوى الشر ، وكل مؤمن باختياره الدين
الجيد ، كان مدعوا لمحاربة الديفاس ونبذ عالم الشياطين ، وبعبارة أخرى ، كان
يساهم بعمل أهورامزدا وكباركهته في التطهير الشامل . إنه الوظيفة الافتدائية
للدين الجيد تدعمت تباعاً بتمجيد القوة الخلاقة للشعيرة . وبما إن الهدف الشامل
كان إعادة التجديد العالمي ، فقد قومت الوظيفة الأساسية ، الشكونية
للأضحية : وفي الواقع ، ليس لتجديد الأخرى [انقاذ] الانسانية فحسب وإنما
خلقها من جديد بانجاز بعث الاجساد . وهذا يستدعي خلقاً جديداً غير قابل
للفساد والفناء كما تنص على ذلك اليخت [١٩ : ٩٠] « العالم المادي لن ينطفئ
أبداً [. . . .] الكذب سينتهي » .

١١ - رحلة الروح بعد الموت .

إن الطقوس الجنائزية ، وميثولوجيات الموت ، والمفاهيم ذات العلاقة مع
الوجود التالي للروح ، تتغير ببطء ؛ بالرغم من الاصلاحات والاهتداءات ،

وهذا يعني ان عدداً من الارشادات المقدمة بالنصوص الاقستية والفهلوية ما زالت ذات قيمة ايضاً لعصر ما قبل الزرادشتية . ان الشعائر المؤكدة في ايران الغربية ، وبصورة خاصة تحريق الاجساد وتكفين الرماد في مرمدة Mrne جرة كان يوضع فيها رماد الأموات) ، قد انتشر مع الزرادشتية ، في مناطق اخرى . كذلك كانت هنالك عادة اكثر قدماً مميزة لسهوب اسيا الوسطى : عرض الاجساد في مكان محدد ، حيث كانت تفترس من قبل النسور والكلاب^(٥٥) وان ايراني الشرق كانوا يطبقون المناحات الشعائرية ويعاقبون انفسهم بالضرب الذي قد يصل حتى الانتحار . ولكن الزرادشتية منعت (البكاء والمناحات) وافصححت انها من اختراع انغرامينو .

أما بالنسبة لتجارب الروح بعد الموت فنجد بعض البواعث المألوفة : اجتياز جسر ، الصعود السماوي ، الحساب ولكن أيضاً نغمة اللقاء مع الذات الخاصة ؛ وهنالك قصيدة كانت تشكل جزءاً من هادوث ناسك [يخت ٢١ - ٢٢] تقص أن روح (أورفان) الشخص المستقيم تبقى بالقرب من جسده لمدة ثلاثة أيام . وحوالي نهاية الليلة الثالثة ترتفع ريح معطرة من الجنوب وتظهر «داينا» الموت وتحت شكل صبية جميلة متألقة ذات ذراعين بضتين ، متيقظة وذات مظهر جميل ، وبجسد مستقيم ، كبيرة ، وذات صدر بارز . . . لها خمسة عشر عاماً [حادوث ناسك ٩] وبإظهار هويتها ، تضيف الداينا : «محبوبة كما كنت ، لقد جعلتني محبوبة أكثر بأفكارك الحسنى ، وبكلماتك الحسنى ، وبأفعالك الحسنى ويدينك الجيد ؛ جميلة ، أعدتني أيضاً أكثر جمالاً ؛ مرغوبة ، ايضاً مرغوبة أكثر . . .» [ذات المرجع ١٤] . ثم ، بأربع خطوات تجتاز الروح الافلاك السماوية الثلاثة^(٥٧) وتصل «للأنوار التي لا بداية لها» [ذات المرجع ١٥] ، أي الفردوس . ان بعض الموتى يستفسر عن الطريقة التي اجتازها «من الوجود الجسماني إلى الوجود الروحاني ، من الوجود الملىء بالخطر إلى الوجود بدون خطر» [ذات المرجع ١٦] . ولكن اهورا مزدا يتدخل : «لا تسألها ، لأنك تذكرها بالطريق المرعب الخطر ، المتصل بالمفارقة ، التي مرت به والذي يتركب بفصل الجسد والشعور» [ذات المرجع ١٧] - اشارة لتجارب السفر المأساوية^(٥٨) . ويأمر

أهورا مزدا بأن يقدم لها من «سمن الربيع»^(٥٩) الذي هو بالنسبة للمستقيم «غذاؤه بعد الموت» [ذات المرجع ١٨] . وعلى العكس فإن روح الشرير تلتقي في ربح الشمال امرأة شرسة مخيفة وتصل الي منطقة الظلمات التي لا بداية لها ، حيث يقضي انغرا مينو باعطائها السم . [ذات المرجع ٢٠ - ٣٥] .

ويمكن تبين الملامح المميزة في هذا كالاتي : (١) تلاقي الروح دايناها ، أي ذاتها الخاصة^(٦٠) التي سبقت في وجودها («محبوبة قد كنت . . .») ولكنها في ذات الوقت النتيجة لنشاطها الديني على الأرض «لقد جعلت مني محبوبة أكثر . . .» (٢) الدانيا تظهر تحت شكل نسوي متأملة مع المحافظة التامة على مظهر محسوس (٣) انه يتعلق تأكيداً بمفهوم هندو- إيراني ، طالما يوجد في الكوشيتاني - او بانيشاد [١ ، ٣ - ٦] : روح من يرتبط على «طريق الآلهة» (ديقايانا) تستقبل ، بين آلهة أخرى ، من قبل مانازي (ال «العقل») وكاكشوشي («البصيرة») ، وتجتاز بعدئذ بحيرة ونهراً ، وتدخل في مدينة وتصل أمام براهمان الذي يسألها «من أنت ؟»^(٦١) .

لا توجد أية اشارة لجسر سينفات في الهادوكت ناسك . مع ان زرادشت يتكلم عنه كثيراً (ف . ١٠٣ع) . انه يتعلق بمفهوم هندو- إيراني ، معروف من قبل شعوب هندو- اوروبية أخرى ، ومؤكد من جهة أخرى في تاريخ الأديان . ان الوصف الكلاسيكي^(٦٢) يروي كيف أن الدانيا تصل مع كلابها وتقود روح المستقيم على جسر سينفات ، من فوق الهارا ، بيريزيتي ، الجبل الكوني (وفي الواقع ، ان الجسر - الذي يوجد في «وسط الدنيا» - يصل الأرض بالسماء) . ان الأرواح المستقبلية من قبل فوهوماناه ، تمر أمام آهورا مزدا والاميشا سينت . إن فصل الأخيار عن الأشرار يجري إما قبل الجسر ، وأما على مدخله . أما بالنسبة لدينونة الروح ، التي تكلمت عنها النصوص الفهلوية وحيث القضية هم ميثرا مساعدا من سراوشا ومن راشنو (مزوداً بميزان) ، غير معروفة في الجاتاهز . إنها من جهة أخرى زائدة في السيناريو : عبور الجسر ، قابل للمقارنة بتجربة مسارية ، يشكل في ذاته الدينونة لأن الجسر حسب مفهوم عام لحد ما ، يتسع تحت ارجل المستقيم ويصبح كحد موسى عندما يقترب منه كافر .

كذلك فإن الاساطير والمعتقدات الأخروية المتبلورة حول بيما قد اعطيت بشكل سطحي مساحة من الزرادشتية . ففي حين ان ياما في الهند كانت استوحت بصورة خاصة ميتولوجيا الموت الأولى ، فإن بيما في ايران أصبح الملك الأول والنموذج للحاكم الكامل . ويكفي التذكير هنا بأن التقليد الايراني يشرك الفردوس الأول مع حكم بيما : خلال الف عام لم يوجد الموت ولا الألم واستمر الناس شباباً - ٦٣ . ولكن عندما بدأ بيما يتحدث بالاكاذيب ، فإن الكزافرا الخاصة به هجرته ، وفي آخر المطاف فقد الخلود ايضاً (٦٤)

وهناك اسطورة اخروية ، مع انها مستقلة في أصولها ، فقد ادخلت في اللاهوت الزراوشتي في ميتولوجيا بيما : انبأ اهورا مزدا بيما أن شتاء لمدة ثلاث سنوات سيتلف كل حياة على الأرض وطلب منه انشاء مكان مسور قاراً وفيه سينقذ خيار البشر وبذوراً من كل نوع من انواع الحيوانات . وجرى تخيل القارا وكأنه مستقر تحت الأرض ، لأنه لا تضيئه لا الشمس ولا القمر ولا النجوم (٦٥) . وهو يتعلق بأخروية قديمة ، ربما هندواوروية (ر . ر . الشتاء فيمبول في تقليد جرمانى) لأنه لا يتناسب مطلقاً مع الرؤية الزرادشتية . وغالبا يعرف لماذا ادخل بيما في هذا السيناريو الاسطوري لنهاية العالم : كان الملك الخرافي للعصر الذهبي ، وفي الفارا كانت حفظت وبدقة اكثر كانت انقذت البذور لبشرية مقبلة ، مهياة لتعرف ، بعد الكارثة الأخروية ، الوجود الفردوسي للبدايات .

وثمة فكرة اخروية اخرى ، قد ضمت ، هي بعث الاجساد . وهذه العقيدة تبدو قديمة جداً ، ولكنها اعلنت بوضوح في نخت [١٩ - ١١ - ٨٨ و ١٣ : ١٢٩] الذي يتحدث عن « بعث الموتى » وعلاقته مع قدوم الحي فيفارت « أي المخلص ساوشيان ، اذن في التجديد النهائي ، الذي يتطلب من جهة اخرى الدينونة الشاملة . ان العديد من الأفكار والتي بعضها قديم جداً تتمفصل الآن في رؤية أخروية متعاضمة : فالعالم المتجدد جذريا وبشكل كامل يمثل ، في

واقعة ، خليفة جديدة لن تكون ملطخة بوسوسة الشياطين ، وإن بعث الموتى هو بالفعل إعادة خلق الاجساد ، ويعادل نشكونية بفضل التوازي - (الاصغر - الاكبر) . المفهوم القديم جداً والعام لدى عدة شعوب هندو - اوروبية ، ولكنه عرف تطوراً ملحوظاً في الهند وفي ايران وكما رأينا (ف ١٠٤) فإن التجديد النهائي ، المتخيل سابقاً في السر المحتفل به من قبل زرادشت قد افصح عنه في شعائر السنة الجديدة (النيروز) . ان التقليد ينتهي باقامته بحلول العام الجديد للأحداث الثلاثة الحاسمة من المأساة الكونية والبشرية : الخلق ، كشف « الديانة » التجديد الأخروي^(٦٦) ولكن بما ان السنة تمثل كلية الزمن الكوني ، فإن العشرة الأيام الاخيرة من كل سنة تتقدم بنوع ما الدراما الأخروية . انها الفترة الخرافية التي ترجع الأرواح فيها للأرض : إن نحنا [١٣ : ٤٩ - ٥٢] يستدعي الفرافاشي الذين يجولون بحرية اثناء العشرة أيام الاخيرة من السنة . وهذه العقيدة منتشرة عالمياً ، ولكن الزرادشتين كغيرهم من اللاهوتيين مما قبلهم وبعدهم ، أطروها في نظام اكثر اتساعاً : حسب التقليد الفهلوي ، اكمل اهورمازد خلق الانسان خلال هذه الأيام العشرة الاخيرة من السنة ، وبالنتيجة فإن الفرافاش وصلوا على الأرض في لحظة خلق الانسان ، ويرجعون في نهاية الزمن عند بعث الاجساد^{٦٨} .

ان النصوص المتأخرة تطور التوازي بين اعياد السنة الجديدة والتجديد الأخروي ، عندما سيكون هنالك بعث . فبمناسبة كل سنة جديدة تستلم ثياب جديدة ، وفي آخر الزمان سيعطى اهورمازد الى المبعوثين ثياباً فاخرة^(٦٩) . وكما رأينا (ف ١٠٤ ع) ، فإنه ، على اثر أضحية منجزة من قبل المخلص ، ساوشيان ، مساعداً اوغير مساعد من قبل اهورامزدا ، سيحصل التجديد الشامل وبعث الاجساد . وهذه الاضحية الاخروية تكرر بنوع ما الاضحية التشكونية، وذلك هو السبب الذي من اجله ، هو بوضوح « خالق » . ان البعث ، وقرينه عدم فناء الاجساد يمثل تطوراً جريئاً لفكرة زرادشت الأخروية ، وهو يتعلق ، باختصار ، بمفهوم جديد للخلود^{٧٠} .

حواشي الفصل الثالث عشر

١ - من المرجح جداً أن النص (٢٥٨ سنة قبل الاسكندر) ينعكس على غزوه بيرسيبوليس (٣٣ - ق.م) التي وضعت حداً للإمبراطورية الاخمينية . ان النجاح الأول لزرادشت ، اقناع الملك فيشتاسبا وكان ذلك عندما كان عمر النبي ٤٠ سنة . وان التسلسل التاريخي التقليدي (٢٥٨ سنة قبل الاسكندر ، مقبول من اكثرية الباعثين .

٢ - ر . دوشبسن - غوبلن ص ١٣٠ - ٤١٠

٣ - إن widegsen بعد ان اعاد ذكرى ماثلاث هندية من هذه الالفاظ ، اظهر انه يتعلق بمؤسسة هي على الأرجح قديمة ايضاً من المجتمع الهندو - اوروبي ص ٨٣٠

٤ - sky zikduder ٥٠

٥ - zidege ص ١٢٠ وGuillemis ص ١٨٥

٦ - زرادست مترجمة من قبل male عبادة اسطورة تشكونية ص ٢٨٤

٧ - ٨ نصوص ذكرها موليه دويدنفرين - ص ١٢٢

٩ - نصوص ذكرها موليه دويدنفرين - ص ٨٨

١٠ - الرعدة المثارة بالمخدرات كانت معروفة ايضاً في الهند القديمة - الشامانية - الياد ص ٣١٩

١١ - المراجع المذكورة - widger

١٢ - هكذا على سبيل المثال في الزاتوبرام ، هنالك سؤال عن المسارة لزرادشت بواسطة افستيك ايشاسبيتا ، بين تجارب اخرى « معدن مذاب كان يهرق على صدره وهنالك يبرد » ويقطع جسده بالسكاكين وتظهر احشاؤه . ويسيل الدم ، ولكنه يدخل بعد ثذ يده وبرااً - ص ٣٣٢ - وتلك هي انتصارات مميزة للشامانية .

١٣ - هذه الجواهر entite او رؤساء الملائكة Arangs كما يدعون ايضاً هم على علاقة مع بعض العناصر الكونية (الحديد ، المعدن ، الأرض الخ ...) .

- ١٤ - ١٥ - مؤلفات - موليه - آئاس زدهر . .
- ١٦ - ر. G.ecamero - زرادشت
- ١٧ - موليه - وضع في الضوء التجديد المباشر للعالم يعيد الاضاحي المنجزة من قبل الكهنة .
- ١٨ - هذا يتناسب من جهة أخرى مع الصورة التي صنعتها اليونان القديمة من زرادشت - فيلسوف وحسب (اديستوكسين كان زميله فيثاغورس) معلم مسارة وكاتب بحوث هرمسية وكيميائية .
- ٢٠ - meillet - ثلاثة مؤتمرات حول ابحاثها ص ٥٦ .
- ٢١ - ر. اعمار اونالي ، بالدرجة الأولى حالة الماها والغنوصية الإيرانية .
- ٢١ - ٢٢ - ٢٣ - اونالي - دغويوني - والمراجع الأخرى .
- ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ويدنفرين ص ٨٨ ومينازي - الانتروبولوجيا . ٣٥ - ٣٦ - دين اليونان .
- ٢٧ - غيللوم - تاريخ الاديان ص ٣٢٦ .
- ٢٨ - دومزيل - ولادة الكهانة ص ٦٢ .
- ٢٩ - موليه - عبادة - اساطير كونية ص ٣٥ - يلاحظ أنه في الطقوس ، الافرازا تعني ممتاز وليس لها قيمة دينية . . مع ذلك فإن القيمة الدينية هي مضمرة في الممتاز من التصرفات الملكية .
- ٣٠ - Kent - فارس القديمة - والعبارة يمكن الا تكون من مصدر me'd .
- ٣١ - حسب جوشين [٤] ان الراعي وجد الطفل موضوعاً على اهبه ان يرضع من كلبة (لترميز في اساطير كبار الابطال) وعليه يقرر هيردوت ان امرأة ميتراذت السماء سياكو أي (كلبة) في اللغة الميدي (الاسطورة الملكية ص ٢٢٦)
- ٣٢ - كيرياس - بريوليس ص ٢٦٥ - ٢٧٢ .
- ٣٣ - حتى كيرياس الذي عاش ٢٤ سنة في قصر الملك الكبير لم يذكر بيروبوليس مما يدل على القيمة الباطنية لهذه المدينة المقدسة .
- ٣٤ - ٣٥ - Gonali - ص ٢٣٣ - وايهندر ص ١٢٨
- ٣٧ - الياد - الرجوع المتكرر ص ٥١
- ٣٨ - vridengren - يقدر مع ذلك أن ميترا كان قد تمتع في فارس بعبادة غير مهمة وذلك خلال حكم دايروس .
- ٣٩ - ٤٠ - zuchmer و - wihsamur ص ١٣٩ .
- ٤١ - في السنين التالية ١١ - ١٣ - ٣٠ - ٣٧ - ١٣ - الشمس تدعى عين اهورامز والامر الذي يدل على اعادة تركيب فكرة هندو - ايرانية قديمة لأنه سبق في الريغ - قيدا (١ - ٥٠ - ٦) ان الشمس هي عين فارونا .

٤٢- ٤٣ - كما لاحظ ذهيز ص ٦٠ في النصوص المتأخرة المياه قد اهملت ، زوجة اهرؤا مزدا
ستصبح آرميتي الفكرة الطيبة للجاثهاز ، التي تطابقت بعدئذ مع الأرض ، ويتعلق بالتأكيد
في اسطورة من الدين الايراني التقليدي .

٤٤ - ص - ١٣١

٤٥ - اظهر G.dumezil . ان محل ميترا قد اتخذ في الجاثهاز من قبل قزهومانها .

٤٦ - يعرف معنى هذا الباعث الاسطوري : انشاء معبد في السماء من قبل اعضاء مجمع الالهة
يمجد الانتصار (العديد من المرات من نوع تشكوني - ماردوك الاله ويكرس ترفيته الى صف
اعلى (يعل) . وبالتأكيد ان هذا المشهد الاسطوري يترجم على الأرض باقامة معبد على
شرف الاله ص / ٥٠ / .

٤٧ - يتعلق في هذه الحالة مباحث تشكوني ثنائي معروف جداً في فولكوراوروبا الشرقية واسيا
الوسطى وسبيريا ولكنه تأكد ايضاً في الذرفانية - انظر - السيد - الاله والشيطان ص ٨٤
٤٩ - ٥٠ - ٥١ - الدين [ف -

١٠٣٠*]

٥٢ - moli - عبادة واسطورة كونية ص ١٣١ - ان الساوشيان هو المخلص النهائي ، متهايا
بزرادشت ، تبعاً لبعض التقاليد المتأخرة المتولدة من بذرة النبي المحفوظة بمعجزة في بحيرة .

٥٣ - ٥٣ - النصوص مترجمة من قبل موليه ص ٨٧ - ٩٠ - ١٢٦ .

٥٧ - انها كريات النجوم - للقمر والشمس المعنية في النص (فكرة حسنة) (قول حسن) فعل
حسن -

٥٨ - ورث معلومات كثيرة عن نصوص مكتشفة مؤخراً عن هذه التجارة .

٥٩ - حول سمن الربيع انظر widengren ص ١٢٦ .

٦٠ - ٦١ - ويكبر - فايو - ص ٤٧ يذكر ان datistan يدل على الفتاة ذات
الاسم (خازنة الأعمال الجيدة) تماماً ، حسب النص البوذي داهما بادا « ان الفضلاء
يستقبلون بأعمالهم الحسنى لو كانوا اقرباء اعزاء) السفر السماوي للميث هو في كل نقاطه
مشابه للصعود الوجودي للروح عبر المحيطات النجومية ، القمرية والشمسية قبل ان تصل
للجنة . صعود قصة مروية في كتاب متأخر .

٦٢ - اليسنا ومراجع اخرى .

٦٤ - ودميزيل - ص ٢٨٤ .

٦٥ - ٦٦ - موليه ص ١٢٠ - اسطورة - كونية .

٦٧ - الفرافاشي هي ارواح العادلين وفي ذات الوقت نماذجهم السماوية بكونهم ملائكة حراس) - للمؤمنين فإنهم يصارعون ضد تجسد الشر ، والمصادر المتأخرة تصورهم كفرسان مسلحين حامين للسماء ، والصورة المعقدة للفرافاشي تبدو عملية طويلة من التوفيقية الدينية

٦٨ - النصوص المذكورة من قبل موليه .

٧٠ - الخليقتين - (رومية ومادية - كذلك ان ميتولوجيا الانسان الأول ستناقش جميعها في الجزء الثاني .

الفصل الرابع عشر

ديانة اسرائيل في عصر الملوك والأنبياء

١١٣ - الملكية - اوج التوفيقية .

« عندما أصبح صموئيل شيخاً ، نصب ابناءه كقضاة في اسرائيل » .
ولكن اولاده لم يتبعوا خطاه ، وعندئذ اجتمع شيوخ اسرائيل كافة وأتى
صموئيل في الرامة وقالوا له : انك انت قد شخت وبنوك لا يسلكون في سبلك
فالآن أقم علينا ملكا يقض بيننا لجميع الأمم [صموئيل ١ - ٨ - ١ - ٥] .

لقد كانت الملكية اذن مؤسسة غريبة . بعض المعارضين لم يوفروا له
الانتقادات ، لأن يهوه في نظرهم وحده كان ملك اسرائيل . مع ذلك ، منذ
البداية ، كانت الملكية معتبرة كمسرة ليهوه . وبعد ان مسح شاوول من قبل
صموئيل ، تلقى (الروح من يهوه) [ص ١ - ١٠ - ٦] « فيحل عليك روح

الرب وتنبأ انت فيهم وتصير رجلاً آخر . لأن الملك كان المسوح من الاله oint=مسيه . [ص : ٢٤ - ٧ - ١١ - ٢٦ الخ] فقد كان يتبنى من قبل يهوه ويصبح نوعاً ما ابنه . « سأكون بالنسبة له ابا وسيكون بالنسبة لي ابنا » [١١ ص . ٧ - ١٤] . ولكن الملك لم يتولد من يهوه ، انه ليس سوى معترف به « يعترف بشرعيته » باعلان خاص ^{١/} . يهوه يمنحه السيادة الحالية [مزمور - ٨٧، ٧٢] ، الملك يستقر على عرشه الى جانب الاله [مز . ٧٢ : ٨ والاخبار ٢٨ - ٢٩١٥] ان الحاكم هو ممثل يهوه ، وبالنتيجة ينتمي الى المحيط الالهي . ولكن الوضعية الوحيدة ليهوه تجعل من غير الممكن « تأليه الملك » : انه بامتياز « الخادم » ليهوه [الكلمة طبقت ٦٠ مرة على داوود] .

ان حفلة التتويج تتضمن الى جانب شعائر اخرى المسح ، اعلان الملكية والتنصيب ^٣ . الملك بصفته ممثلاً ليهوه يجب ان يدعم النظام الكوني [مز . ٢ : ١٠ - ١٢] يفرض العدالة ، يدافع عن الضعفاء [مز ٧٢ : ١١] يؤمن الخصب للبلاد ، « انه سينزل مثل المطر على الكلاً . . وفرة من القمح على الأرض حتى رؤوس الجبال » [مز ٧٢ - ١١ : ٦] . لقد كانت تعرف الصور التقليدية لحكم « فردوسي » ، صور نشرها بتألق الانبياء المسيحيون « من جهة اخرى ، انتظار ملك مثالي ، المسيح ، متضامن بالفكرة الملكية) . ان الملكية فسرت كاتحاد جديد بين يهوه والاسرة الملكية لداوود ، تمديداً لتحالف سيناء . وفي هذا التقييم لمؤسسة غربية بصفته عملاً جديداً من التاريخ المقدس ، الذي يمكن من توضيح اصولية الايديولوجية الاسرائيلية ^٤ . فسليمان بنى المعبد في اورشليم بالقرب من قصر ملكي ، وأشرك بذلك طقس المعبد للملكية الوراثية . والمعبد اصبح محل اقامة يهوه بين الاسرائيليين . وثابوت التحالف ، الذي كان يرافق الجيوش حتى ذلك الوقت ، مركز في ظلام (قدس الاقداس) ديبير ، ومن معبده تشع قداسة يهوه على المدينة ونحو الأرض بكاملها [مز - ١٥ - ١ - ٢٤ : ٣ - ٤٦ . وعيو ٣١ : ٤ - ٨ الخ] . جبل صهيون - سيون الذي اقيم المعبد عليه هو مركز العالم ^٥ . ومعبد اورشليم يصبح المعبد القومي ، والعبادة الملكية تتطابق مع ديانة الدولة . ان المهمة تتكون على شعائر تشفعية استعطافية

واستغفار بالنسبة للمجموعة ، ولكنها تقتضى ايضاً صلوات عامة من اجل الملك ، ولأجل مجده ولأجل ممارسة عدالته التي تضمن « سلامة الشعب » والرخاء الشامل [مز - ٧٢ و ٢٠] ، وفي آخر المطاف يجد العمل الطقسي بنية العالم . وكما ان المعبد قد بني طبقاً لنموذج اجنبي ، فإن العقيدة استعارت الاشكال الكنعانية . ان التوفيقية توصلت لنسب مجهولة حتى ذلك الحين ، لأن الملكية شجعت دمج الافكار والتطبيقات الدينية المقتسمة من قبل طبقتي السكان الاسرائيليين والكنعانيين وزيادة على ذلك ، فان سليمان قبل عبادة زوجاته الاجنبيات واجاز انشاء معابد على شرف الهتهن [اعلان ١١ - ٦٠] .

ان الملوك كانوا يعتبرون كرؤساء لديانة الدولة . ولكننا لم نعرف الكثير عن وظيفتهم الكهنوتية . وعندما نقل الثابوت لأورشليم فإن داود اقتاده ككاهن : رقص امام الثابوت ، وقدم محرقات بحضور يهوه [.] وبارك الشعب باسم يهوه ساباته « ولما فرغ داود من اصعاد المحرقات وذبائح السلامة بارك الشعب باسم رب الجنود [١٧ ص ٦٠] وكان لما دخل تابوت الرب مدينة داودان ميكال بنت شاوول اشرفت من الطاق ورأت الملك داود الصغير يرقص امام الرب فازدرت في قلبها » [ملوك ، ٥٧ : ١٧] .

كذلك سليمان فإنه بارك المجمع عند تكريس المعبد [ملوك ٨٠٠١ : ١٤] ومز ١١٠ : ٤] واعلن الملك « كاهنا للأبد حسب أمر مبلشيسيدش ، ولكن الملوك في مناسبات اخرى كانوا معرضين للنقد لأنهم أقاموا شعائر موقوفة على الكهنة . ومن الراجح جداً ، ان الملك كان يلعب دوراً في حفلات الاستغفار للعام الجديد . ومن جهة اخرى فإن بعض المزامير تبدو مرتبطة بشعيرة موت وبعث رمزي للملك . ويمكن الافتراض اذن بوجود علاقة بين عيد السنة الجديدة متضمنة اعادة تمفصل رمزي للخلقة - وشعيرة / الموت / والبعث للملك (٩٩) .

عند موت سليمان ، قسم العرش الى قسمين : عرش الشمال أو اسرائيل وعرش الجنوب أو يهودية . وحيث ان الثابوت كان باقياً في القدس وان القبائل

الشمالية لم يكن لها عمر للمعبد المشترك فإن جيردبوم ، الملك الأول لاسرائيل ، اقام معبدين في بيتهيل وفي دان حيث كان يهوه معبوداً تحت شكل عجلين من ذهب [الملوك الأول ١٢ : ٢٨ - ٢٩] . ومن الممكن ان تماثيل بأشكال ثيران كانت قد استخدمت كمقعد للاله الغير منظور . انه يتعلق على الاكثر بتأثير كنعاني الذي انتهك منع الصور ، وهذا التجديد الملامس للردة عمق عدم الوفاق بين العرشين ^{/٧/} .

١١٤ - يهوه والخلق.

إن مجموعة كاملة من المزامير (مزامير التنصيب) تمجد يهوه بصفة كاملة . إنه «ملك كبير فوق كل الآلهة» [٩٥ : ٣] «يهوه يحكم ، الشعوب تتضطرب [...]» . الملك الذي يحب الدينونه ، هو أنت ، لقد أقمت الاستقامة ، القضاء والعدالة» [٩٩ : ١ و ٥] . ولكن فكرة الملكية الالهية لا تتطلب مؤسسة الملكية . إن المفهوم قديم جداً : الرب هو سيد العالم لأنه هو الذي خلقه . إن يهوه قد غلب الغول الأولي (رحاب ، ولوفياثان والتنين) رمز العماء . وبصفته مدبر كوني ، يقيم الاله في السماء ويظهر حضوره أو إرادته في العناصر الجوية - الضياء الرعد ، المطر . ولقد سبق أن ذكرنا صفاته المتناقضة (ف ٥٩ ع) ، صفته من «الكلية» معروفة جداً . يهوه يوزع الخير والشر ، هو يحمي ويميت ، إنه يرفع ويخفض [حوا - ٢ : ٦] . غضبه لا يرد «عنيف» ولكنه مسامح . يهوه هو القدوس (كلدوس) ، بامتياز ، الأمر الذي يعني ، أنه في آن واحد ، لا يدرك وخطير ، ويمنح السلام ^(٨) .

خالق العالم وملك العالم ، وهو أيضاً القاضي في خليقته . «في اللحظة التي أقرر فيها ، أفعل ، أنا عدالة مستقيمة» [مز ٧٥ : ٣] . يقضي باستقامة [مز ٩٦ : ١٠] عدالته هي في آن واحد أخلاقية كونية ، واجتماعية ، وتشكل المعيار الأساسي للكون ^(٩) يهوه هو «الاله الحي» وبعبارة أخرى أنه يتميز بشكل واضح

عن الاصنام التي لا تتكلم ، والتي يجب حملها لأنها لا تمشي [أرميا ١٠ : ٥] كم من الأشخاص «يشابهون العشب الذي ينبت» [مز ١٠ : ٥٠] والانسان هو ، هو أيضاً كائن حي (نفس) وذلك لأن الاله نفخ فيه النفس أو الروح (رواه) ولكن وجوده هو لمدة قصيرة . وإضافة لذلك ، بما أن الاله هو روح ، فالانسان هو لحم - بازار . إن هذا التعارض لا يقتضي الانخفاض الديني للجسد ، إنه يشير إلى آنية وصفة وقتية للوجود الانساني ، المتضادة مع القدرة الكلية والأزلية للاله . إنه يتميز غالباً عن بقية الخلائق ، لأنه شكل على صورة الإله ويحكم على الطبيعة وأن فناء الإنسان هو نتيجة الذنب الأصلي، وبصورة خاصة نتيجة رغبة آدم في أن يصبح ممثلاً للاله (ف . ٥٩ ع) . إن النصوص التوراتية تؤكد على تفاهة الشرط البشري . فالانسان أخرج من الغبار وسيعود إلى الغبار [تكوين ٣ : ١٩] . إن الحياة الطويلة هي أكبر مال له ، وكما في عدد من ثقافات تقليدية أخرى فإن الموت هو انحطاط : يحط بالانسان الى وجود متأخر ديموسي في القبر أو في (الشيول) . مكان مظلم وخيف في أعماق الأرض .

بما أن الموت هو بامتياز نفي فعله ، فإن يهوه لا يحكم على الـ شيول . وبالنتيجة فإن الموت محروم العلاقات مع الاله ، الأمر الذي يشكل ، بالنسبة للمؤمن التجربة الأكثر إزعاجاً . مع ذلك فإن يهوه أقوى من الموت : إنه رغب به ، إنه يستطيع أن ينتزع الانسان من قبره . وبعض المزامير تشير لهذه المعجزة : «لقد سحبت روحي من شيول ، وأعدت لي الحياة من بين أولئك الذين سقطوا في الحفرة» [٣٠ : ٤] . «كلا ! لن أموت ، سأحيا [. . .] ؛ لقد عاقبني . . ويهوه للموت لم يسلمني [١١٨ : ١٧] . هذه هي المراجعات الوحيدة لبعث الأموات قبل الأسر البابلي [٥٨ - ٥٣٨] عندما سيخضع جزء من السكان لتأثير الأخروية الايرانية [ر . الجزء الثاني] ١٠ .

إن الانسان «عبد» أو «خادم» ليهوه يجب أن يعيش في الخوف من ربه . فالطاعة هي العمل الديني الكامل . وبالعكس ، فإن المعصية هي الذنب ، الذي يسيء للأوامر ، مع ذلك فإن الشعور بالعرضية لا يحجب الثقة بيهوه ولا السعادة المتحصلة بالمباركة الالهية . ولكن العلاقات إله - إنسان لا تتجاوز هذه المرحلة من

الوحدة الصوفية للروح مع خالقها الغير معقولة بالنسبة للاهوت القديم .
بالاعتراف به كخالق وكسيد مطلق يصل الانسان عى الأقل لمعرفة بعض صفات
الاله .

وبما أن الشريعة (توراة) تعلن الارادة الإلهية بدقة ، فإن الجوهرى هو
اتباع التعليمات ، أي التلاؤم تبعاً للقانون أو العدالة (صدهك) ، والمثال الديني
للانسان هو ان يكون مستقيماً ، وان يعرف ويحترم الشريعة ، الأمر الإلهي . وكما
يذكر بها النبي ميخا [٦ : ٨] « لقد جعلناك تعلم أيها الانسان ، ما هو الخير ، ما
يطلبه يهوه منك : لا شيء آخر سوى اتمام العدالة ، لأن تحب برقة وان تمشي
بتواضع مع الهك » . ان الذنب يضيع البركات (براكهاه) . ولكن بما ان الذنب
يشكل جزءاً من الشرط البشري ، ولأن يهوه ، رغم شدته رحيم ، فإن العقاب لم
يكن ابداً نهائياً .

١١٥ - أيوب ، المستقيم يخضع للتجربة .

قدر أحد الشراح ان « تلاقي القوة والطيبة تلخص الحالة التي فهم العهد
القديم الاله بها » « ويمكن الشك ان كل قراء سفر أيوب يوافقون على هذا
الحكم . ان القصة هي من بساطة مأساوية : ^(١٢) إنها تتعلق ببلوى انسان
منصف ، كان يهوه فخوراً به . « قال الرب للشيطان ، من اين أقبلت ، فأجاب
الشيطان وقال للرب من الطواف في الأرض والتردد فيها » [سفر ايوب ١ - ١٠]
فقال الرب للشيطان هل املت بالك الى عبدي أيوب فإنه ليس له مثيل في
الأرض . انه رجل سليم مستقيم يتقي الله ويجنب الشر » [١ - ٨] . ولكن
الشيطان اعترض وقال : « ألم تكن سيجت حوله وحول بيته وحول كل شيء له
من كل جهة وقد باركت أعمال يديه فانتشرت امواله في الأرض ^(١١) ولكن ابسط
يدك وامسس جميع ماله فتنتظر الا يجدف عليك في وجهك » [ايوب : ١ - ١٢]

وعندئذ يسمح يهوه « للمتهم » ان يضع قيد التجربة اكثر خدمه اخلاصاً . فأضاع أيوب اولاده وثروته . وأرهق (بقرحة خبيثة ، من اخمص قدميه حتى قمة رأسه » فوضع نفسه بين الرماد . انه يتأوه ، لاعناً اليوم الذي ولد فيه ولكنه لم « يقل في الله جهلاً ، [ايوب ٢٢] ولم يثر ضد الله ، واقترب منه ثلاثة اصدقاء ، وفي حديث طويل ، حاولوا اقناعه بأن الفعل البسيط الذي يؤلمه - اذن الذي عوقب به - يثبت اجرامه . وبالنتيجة ، يجب ان يعترف ويقر بذنوبه . ولكن ايوب يرفض التفسير لتعاسته بمبدأ المكافأة ، انه يعلم ان الانسان « لا يبر تجاه الله » [١٩ : ٢] وان يهوه « يستأصل السليم والمنافق على السواء » [٩ : ٢٢] ومع ذلك بتوجهه لله يتجاسر ان يقول : « على علمك بأنني لست بمنافق وانه لا منقذ لي من يدك » [١٠ : ٧] . انه لا يعلم لماذا يحتاج الرب ضد مخلوقه الخاص [١٠ - ٨ - ٢٢] لأن أيوب لا يشك ابدأ بالخاصية الساخرة لكل وجود بشري : « ألم تواري وجهك وتعتدني عدوا لك ، انما تروع ورقة مثورة وترهق عصافه يابسة » [١٣ - ٢٤ - ٢٥] ولكنه لم يفلح ليحدد ماهية طبيعة جرمه : « كم من المعاصي والاطغاء قد ارتكبت ؟ اعلمني معصيتي ، وخطيئتي » [١٣ - ٢٣] .

أن أحد اصدقائه يدين هذه اللغة ، لأنه المخلوق بالتعريف ، هو مجرم : « ما الانسان حتى يزكو ، او مولود المرأة حتى يبر ، ها ان قديسيه لا يأتمنهم والسما غير ذكية في عينيه » [١٥ - ١٤ - ١٥] .

ولكن أيوب يردد ، انه يتعلق في حالته ، بقرار شخصي من يهوه ، والذي لم يعرف قصده [١٩ : ٦ - ٧] وعندما يتكلم معه صديق آخر عن عقاب المذنبين ، يذكره ايوب بأن المنافقين الذين لم يخدموا الله ، « يبقون على قيد الحياة » وينعمون [٢١ : ٧ - ١٦] . لو علم كيف سبب له الأذى ، لكان سيقم عليه دعوى وسيتكلم امامه عن سوء الأعمال التي بقيت دون عقاب - ولكن للسيد بعيد ، غائب ، وغير منظور [٢٣ : ٢٤] . وهذا بدقة لأنه لم يترك ايمانه وثقته بالله الذي أعلن أيوب انه « حاشى لي ان ابرركم . اني الى ان تفيض روحي لا أقلع عن سلامتي . قد تمسكت بتبريري فلا ارضيه لأن ضميري لا ينقم شيئاً من

ايامي « [٢٧ : ٥ - ٦] كثيراً ما صرخ أيوب والاله لم يجب « اليك اصرخ فما
تحييني وامامك اقف فما ترعاني ، قد اصبحت لي عدوا قاسياً بقوة يدك حملت
علي « [٣٠ : ٢١ - ٢٢]

وصديق رابع ايليهو « ما زال شابا » يتدخل بعنف . انه غضب على أيوب
لزعمه : « انني نقي ، بدون ذنب ، انني بلا خطيئة ، » ، واعلن ايليهو لأن « لا
جرم أن الله لا يأتي بالنفاق والقدير لا يأود القضاء » ، « ان الله عظيم وهو لا
يزدري أحداً ، عظيم القدرة والحكمة » [٣٦ : ٥] وبعد حديث ايليهو
الطويل^(١٤) ينطلق جواب يهوه بصفته الغير شخصية والرب يتكلم « فأجاب الرب
ايوب من العاصفة وقال من هذا الذي يلبس المشورة بأقوال ليست من العلم في
شيء [٣٨ - ١] وفي تجلي حقيقي ، ولكنه يتجاهل اسئلة ايوب ، يقصد يهوه
تذكيره بقدرته الكلية ، ويعمله الكوني ، ويتعقيد العالم ، وباختلاف لا نهاية له
لمظاهر الحياة . وبعد ان يثير الانشاءات الكونية الكبرى والقوانين التي تحكم
السموات والارض [٣٨ - ١] يتكلم معه عن الأسود والوعول ، وبعض
المخلوقات التي يضمن لها ، الحياة والتكاثر ، بعد أن صنعها ، كل واحدة منها مع
شكله الخاص ومع سلوكه المميز . ويخلص موبخاً له « اشدد حقوك وكن رجلاً ،
اني اسألك فأخبرني » [٤٠ - ٢] . ويحاول أيوب عبثاً ان يلوذ بالصمت : « لقد
تكلمت بصوت خفيض : بماذا اجيب سأضع يدي على فمي » [٤٠ - ٤] .

وفي حديث ثاني ، يصف له يهوه مطولاً حيوان البهوت والغول ،
لوفياتان ، وباجابته له يظهر أيوب انه فهم المعنى السري لدرس يهوه : ان الوجود
للعالم هو بذاته معجزة ، وطريقة كون الخالق تزهل المعرفة ، وقصد افعاله يبقى غير
ممکن معرفته « اعلم انك كلي القدرة . . . كنت الذي اخطأ نصائحك ، بمقاصد
مجردة من المعنى - كذلك ان تكلمت بدون عقل ، بالمعجزات التي تفوتني والتي
اجهلتها لم اكن اعرفك لا بالسمع والقول ولكن عيناى تراك
الآن . . . كذلك اسحب كلامي واندم . . . في الرماد والتراب » [٤٢ : ١ - ٦]
واخيرا يعترف ايوب بأنه سار باتجاه الرب . وفورا ينقذ الرب حاله ويضاعف كل
امواله ويعيش ايوب بعد هذا مائة واربعين عاما . [٤٢ : ٧ : ١٧] .

بعد ثلاثة آلاف سنة ، يستمر هذا السفر المليء بالألغاز والمضطرم والمغلق ، يستمر في استهواء الألباب . ان واقعة انسياق الاله للمراهنة مع الشيطان تعكّر الكثير من النفوس المتدنية بسذاجة فتضطرب حيال ذلك ، ومع هذا فإن أيوب قد فهم جيداً : اذا كان كل شيء يتبع الاله ، واذا كان الرب عصي على الفهم ، فإنه من غير الممكن ان يحاسب على افعاله ، ومن غير الممكن اذن ان يحاكم حالته تجاه الشيطان . ان الدرس السري ليهوه يتجاوز (حالة ايوب) .

انه يوجه الى كل اولئك الذين لا يصلون الى معرفة حضور - وانتصار الشرفي العالم - واجمالا ، بالنسبة للمؤمن ، ان كتاب ايوب هو (تفسير) للشر ولعدم العدالة ، وعدم الكمال وللارهاب . . حيث ان كل شيء قد أريد ويجري من قبل الرب ، فكل ما يحصل للمؤمن مثقل بالدلالة الدينية . . . ولكنه سيكون من العبث - وبذات الوقت من الكفر - الاعتقاد انه بدون معونة الله ، يكون الانسان مؤهلاً لفهم غموض انعدام العدالة او سر الظلم .

١١٦ - زمن الانبياء .

« وكان فيما سبق اذا أراد الرجل من اسرائيل أن يذهب ليسأل الله يقول هلم نذهب الى الرائي لأن الذي يقال له اليوم نبي كان يقال له من قبل راء » [صموئيل ١ - ٩ : ٩] وفي الواقع ان مؤسسة الرؤيا (روية) في فترة البداوة قد تحورت ، بعد الغزو ، تحت تأثير النبوات (نابيم) ، التي اوجدها الاسرائيليون في فلسطين . . . حوالي ١٠٠٠ ق.م كان لا يزال متواجداً « الراؤون » اليهوديون (مثل ناتان) والانبياء . وتباعاً اندمجت المؤسسات وكانت النتيجة النهائية النبوة الكلاسيكية للعهد القديم « وأقبل الى الأكمة فاذا بجماعة من الانبياء قد استقبلوه فحل عليه روح الله فتنبأ بينهم » [صموئيل ١ - ١٠ : ٥] . تماماً كالانبياء ، كان الرسل مشاركين في المعابد والعبادة ويتقاسمون التجارب الوجدية .

ان ايليا واليشاع بيرزان مرحلة الانتقال ، ولكن ارشادهما ونشاطهما الديني يعلنان آئذ النبوة التقليدية . فايليا ظهر في مملكة الشمال ، تحت حكم ملوك آشاب وآهاذياس (٨٧٤ - ٨٥٠ قم) . وقد تمرد ضد سياسة آشاب حيث أراد هذا تكريم الاسرائيليين والكنعانيين بأن منحها حقوقاً متساوية وشجع التوفيقية الدينية مع عبادة بعل او مالكارث ، عبادة محمية من قبل الملكة جيزابيل التي هي في اصلها من صور . وأعلن ايليا يهوه رباً وحيداً في اسرائيل . فيهوه وليس بعل ، من يسقط المطر ويضمن الخصب للبلاد . وفي المشهد الشهير في جبل الكرمل ، عندما يدخل المبارزة مع انبياء البعل لكي يضع نهاية لجذب السنوات الثلاث ، بيرهن ايليا عن عدم قدرة رب الكنعانيين لانارة المذبح التضحوى ، ويذهب ليأتي بالمطر^(١٥) . إضافة لذلك فإن ايليا ينفجر غاضباً ضد الملك آشاب الذي كان قتل واحداً من رعاياه كي يغتصب كرمه وتنبأ له بموت عنيف [ملوك : ٢١] إن شهرة ايليا بعد الوفاة تقربه من موسى . فقد جعلت الاسطورة يهوه يرفعه للسماء في عربة من نار [ملوك - ٢ : ٢] وخلافاً لايليا فإن اليشاع يجمع جمعاً من الانبياء حوله . ولكنه تماماً كما يشارك بنشاط في الحياة السياسية . يرسل وسطاء من الكهنة الى الملك ويرافقه بنفسه الى الحرب [ملوك ٢ - ٣ : ١١] والى جانب العرافين والرائين الجوالين يميز صنفان من الانبياء ، المجموعة الأولى مؤلفة من الانبياء الطقوسيين : انهم يسكنون بالقرب من المعابد ويساهمون بالطقوس مع الكهنة^(١٦) . وهؤلاء هم انبياء القصر ، المشاركين في المعابد الملكية . وفي العديد من المرات يتبأون للملك بالنصر المرغوب [ملوك ١ - ٢٢] . وهذا الصنف من الانبياء المتهنين ، وينسبة كبيرة تشمل ايضاً اولئك الذين كانوا يعتبرون في العهد القديم كالانبياء المزيفين .

واكثر اهمية في تاريخ الديانة الاسرائيلية هي المجموعة الثانية ، المشكلة من كبار الانبياء المختصين بالكتاب المقدس ، من عاموس حتى اشعيا الثاني . هؤلاء الاخيريون لم يعلنوا رسالتهم بصفة اعضاء لمهنة ، ولكنها معبر عنها بايماء خاص . انهم لا يمثلون بعض قبائل او بعض المعابد ولا الملوك ولكنهم يعرفون برسل الرب^(١٧) ان ارشادهم الرباني مقرر بدعوة مباشرة من يهوه . وكما يروى ارميا

« كلام يهوه لم يوجه بهذه العبارات : قبل انشائك في بطن امك ، عرفتك ، قبل ان تخرج من رحمها ، قد سترك كنيي للشعوب ، اقمتهك » [ارميا - ١ : ٤] . من جانبه فإن اشعيا رأى يوما وهو في المعبد « الرب جالسا على عرش مرتفع » محاطا بالسيرافيين وسمع صوته قائلا : « من أرسل ؟ ومن ينطلق لنا رسولا : فرد اشعيا : « ها أنا ذا فارسلني » فأملى عليه الرب ما يجب ان يقوله للشعب [اشعيا ٦ : ١ - ١٠] . ان الدعوة مسموعة رغم معارضة المستمعين . [هوشع ٩ : ٧ وحزقيال ١٢ : ٢١] . ولكنه قد يحصل ان ينقطع الارشاد بقوة [عامسو ٧ : ١٠] أو من قبل النبي نفسه عندما يقدر انه اخفق في مهمته [اشعيا ٨ : ١٦ - ١٨] .

ان كل الانبياء الكبار بصدق وحب قد اقتنعوا برسمية ارشادهم الرهباني وفاعلية رسالتهم . انهم لم يشكوا ابداً بأنهم يعلنون كلام الرب ذاته ، لأنهم شعروا ان يد يهوه او روحه (رواه) قد القيت عليهم^(١٨) . ان الامتلاك الالهي يظهر احيانا بالوجد ، مع ان التمجيد أو الرعدة لا تبدو حتمية . ؟^(١٩) ان بعض الأنبياء قد اهتموا ، حتى بالجنون (مثل هوشع ٧:٩) «ان النبي سفيه ورجل الروح مجنون» ولكنه لا يمكن الكلام عن مرض متعلق بعلم النفس المرضي psycho pathologique . إنه يتعلق بهزات مرضية مثارة بالوجود المرعب للرب وبثقل المهمة التي أتى النبي ليقوم بعبثها . وهذه الظاهرة معروفة جداً منذ «الأمراض السارية» للشامانيين حتى «جنون» كبار الصوفيين من كافة الأديان . وازضافة لذلك ، مثل «الاختصاصيين بالمقدس» في المجتمعات القديمة والتقليدية فإن الأنبياء وهم موهوبون بقدرات تنبؤية^(٢٠) ويظهرون قدرات خارقة من طبيعة سحرية ! يعيدون الحياة للموتى ، يطعمون الجموع بكمية قليلة من الطعام ، يشفون بعض المرضى الخ^(٢١) . ان العديد من الحركات المنجزة من قبل الأنبياء ، لها قيمتها الرمزية : ايليا يلقي عباءته على يوشع [ملوك ١ . ١٩ : ١٩ - ١٢] مصغيا لأمر يهوه ، ارميا يكسر جرة من الفخار لكي يوضح الخراب المقبل لاسرائيل [ارميا ١٩ : ١٠] يحمل نيراً لاقتناع الشعب لأن يخضع للملك بابل^(٢٢) .

ولكن مهما كانت استلها ماتهم (حلم ، رؤى ، شهود ، معرفة ، معجزة

الخ) فإن كلام يهوه كان دوما هو الذي يتلقاه الأنبياء . هذه الكشوفات المباشرة ، الشخصية ، كانت مفسرة بكل وضوح على ضوء اعتقادهم العميق ، ومنقولة حسب بعض النماذج التقليدية . ان انبياء ما قبل النبي لهم هذا مشترك بينهم وهو أنهم بخاصة الذين صرحوا بدينونة الرب ضد اسرائيل : يهوه سيرسل غزاة لا يرحمون لآبادتهم : الرب سيستعمل الامبراطوريات الكبرى الحربية كأداة لعقاب شعبه الخاص الذي خانته . فهل يمكن تكشف وعد بالأمل أيضاً في هذه الإدانة الرهيبة ؟ ؟ . لقد اعتقد بمعرفة نوع من التناوب المتغير في النبوة من العهد القديم ، والمعلومة جدا في الشرق الأدنى ، بين «أزمان البؤس» و «أزمان الخير» ، غير ان هذا المخطط يبدو انه ينطبق في كل الأمثلة المثارة^(٢٣) . وكما سنرى (و ١٨٠ع) فإن الأمل الوحيد يستمر في «بقية» شعب منتخب سيعيش بعد الكارثة . ومع هذه «البقية» سيعقد يهوه ميثاقاً جديداً .

١١٧ - عاموس الراعي : وهوشع الغير محبوب :

إن عاموس قد مارس تنبؤه تحت حكم جيريوم الثاني (٧٥٣ / ٤٦ - ٧٨٢ / ٨٠ ق م) . انه لم يكن نبيا ممتحناً : «لست نبيا ولا ابن نبي انما أنا راعي بقر وواخز حمير . فأخذني الرب من وراء الغنم وقال لي الرب انطلق وتنبأ لشعب اسرائيل» [عاموس ٧ : ١٤ - ١٥] إنه يعلن ان الرب سيحاكم الشعوب المجاورة - دمشق - غزة - فلسطين - صور - فينيقيا - التي اجرت جميعها ضد الأخلاق . وهذا ما يعني ان كل الدول توجد تحت السلطة القضائية ليهوه . مع ذلك فإن عاموس يتفجر غيظاً ضد اسرائيل بصورة خاصة ، مملكة الشمال ، وضد مظالمها الاجتماعية وعدم ايمانها الديني . ان الأغنياء «باعوا الصديق بالفضة . . . والمسكين بنعلين» [٢ : ٦ - ٧] . ولكن ثرواتهم ستباد [٤ : ٧ - ١١] . عبثا يضاعف هؤلاء المتخمون الاضاحي . ان عاموس يسمع ويردد كلام يهوه :

«اكره ، احتقر إعيادكم . إني اذا اصعدتم الى محرقاتكم وتقاد حكم لا أرتضى ولا التقت الى ذبائح السلامة من مسمناتكم» . [٥ : ٢١] هذا هو القانون والعدالة التي ينتظرها الرب من المؤمنين به [٥ - ٢٤ - ٢٥] .

من جهة اخرى ، فإن العبادة قد لوئت بادخال عناصر تهكية كنعانية . [٥ : ٢٦ - ٨ : ١٤] ان احترام الاشياء المقدسة خارج الأمكنة المقدسة هو غير مفيد: «هلموا الى بيت إيل واعصوا في الجلجال أكثروا من المعاصي وفي كل صباح قربوا ذبائحكم وفي كل ثلاثة ايام عشوركم» [٤ : ٤] . فليس سوى عودة للدين التي يمكن ان تنقذ : «اطلبوا الخير لا الشر لتحيا فيكون الرب اله الجنود معكم كما قلم . انفضوا الشر وأحبوا الخير واقيموا الحكم في الباب نفس الرب اله الجنود أن يرأف ببقية يوسف» [٤ : ١٤ - ١٥] (٢٤) .

وكعاموس فإن هوشع ، معاصره الأكثر شابا ، يعظ في مملكة الشمال . إن ارشاده ومعنى رسالته النبوية تبدوان مرتبطتين مع تقلبات زواجه . ولكن التفسير لعدد من الاشارات التي توجد في نص حديثه متضاد جداً . فتبعاً لأول قصة [١ : ٢ - ٩] «قولوا لاختوتكم شعبي ولاخواتكم مرحومة - حاكوا أمكم حاكموا فإنها ليست امرأتي ولا أنا رجلها . لتتزع زناها من وجهها وفسقها من بين ثدييها لثلا اجردها عريانه واردها كما كانت يوم ميلادها واجعلها كقفر وأصيرها كأرض قاحلة واميتها بالظماً . إني لا أرحم بنيتها لأنهم بنو زنى . لأن امهم زنت والتي حبلت بهم أنت بالمخازي» . ويأمره يهوه بالزواج من «امرأة محمولة على الزنى والتي حملت بأولاد الذين اعطاهم اسماء رمزية - (الغير محبوبة) ولا لغير من شعبي - وذلك بهدف الاعلان عنها ان يهوه لا يحب اسرائيل وان هذا ليس شعبه . وحسب القصة الثانية [٣ : ١ - ٥] يقول له يهوه بأن يعقد زواجاً آخرهذه المرة مع امرأة اخرى «ثم قال لي الرب انطلق أيضاً واحب امرأة اخرى محبوبة للخليل وهي فاسقة كما يحب الرب بني اسرائيل وهم يلتفتون الى آلهة أخرى ويحبون اقراص الزبيب . .» ومن الراجح ان الزوجة الأولى كانت امرأة قد ساهمت في شعائر كنعانية من الخصب . أما بالنسبة للثانية المختارة رغم ماضيها المخزي ، فإنها يجب ان تدل على الحالة المبتقظة ليهوه ، المهياً لمساخة اسرائيل .

على كل حال ، فإن اعلان هوشع محكوم بفظاظة رب أمام خيانة شعبه .
اسرائيل كانت زوجة يهوه ، ولكنها لم تكن وفيه له ، فقد اصبحت زانية ، وبعبارة
اخرى انها تركت لآلهة الكنعانيين للخصوبة اسرائيل تجهل ان الخصوبة
هي عطية من يهوه . فقالت : «أتريد أن اجرى وراء احبائي ، اولئك الذين
اعطوني خبزي ومائي ، ولبني وصوفي وكتابي وزيتي وشرابي ، انها لم تعرف
انني انا الذي اعطاها القمح والسلاف والزيت واكثر لها الفضة والذهب
فجعلوها لبعل» . [هوشع ٢ : ٧ - ١٠] فوجد من جديد ، الاثارة ، والنزاع
الذي لا يرحم بين بعل ويهوه : بين دين ذي بنية كونية والايمان باله واحد ، خالق
الدنيا وسيد التاريخ .

بدون كلل ، يهاجم يوشع التوفيقية بعل - يهوه «لقد تركوا ربهم ليزنوا .
انهم يضحون على قمة الجبال ، انهم يحرثون تقدماتهم على التلال تحت البلوط ،
واللبنى والبطم لأن ظلها أحسن ولذلك بناتكم يزني وكناتكم يفسقن» [٤ : ١١ -
١٣] . لقد نسي اسرائيل تاريخه «عندما كان اسرائيل طفلاً ، احبته ومن مصر
دعوت ابني . ولكن كلما دعوتهم أكثر كلما ابتعدوا عني ذابحين للبعليم ومقترين
للتماثيل» [١١ : ١ - ٢] ان الغضب المثار بجحود غير قابل للاصلاح يتفجر
والعقاب سيكون رهيباً : «فأكون لهم كليث ومثل نمر ارصدهم على الطريق .
أهجم عليهم كدبة تأكل واشق حجب قلوبهم وآكلهم هناك كاللبؤة ووحش
الصحراء يمزقهم» . [١٣ : ٧ - ٩] .

ان العبادة الخارجية لا تفيد شيئاً «فاني أردت رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله
أكثر من المحرقات» [٦ : ٦] . الأمكنة العليا ، حيث يحتفلون بحفلات توفيقية
ستدمر [١٠ - ٨] ان السلام الوحيد هو عودة مخلصه ليهوه . «ارجع يا اسرائيل
ليهوه الهك لأنك باثمك عثرت قولوا له : ارفع كل الاثم واقبل الخير . . .»
[١٤ : ٢ - ٣] ان هوشع قلق من واقعة ان سقوطهم لن يسمح للمذنبين «الرجوع
الى ربهم» [٥ : ١٤] مع ذلك فإن حب يهوه هو أكثر قوة من غضبه «لا أنفذ وعد
غضبي . . . لأنني انا الله لا انسان ، بينك أنا وفيك قدیس فلا أدخل المدينة»
[١١ : ٩] إنه يريد قيادة اسرائيل «للصحراء ويخاطب قلبها . . . هنالك سترد كما

في أيام شبابها ، كما في الأيام حيث صعدت من مصر . في ذلك اليوم ، استدعوني زوجها . . . سأخطبك الي للأبد : سأخطبك في العدل وفي الحق ، في الحنان والحب» [٢ : ١٦ - ٢١] . وستكون رجعة الى بدايات الزواج الصوفي بين يهوه واسرائيل . هذا الحب الزوجي يبين فيما سلف العقيدة بخلاص البشر : ان رحمة الرب لا تنتظر ايمان الانسان وانما تسبقها^(٢٥) . ويضاف لذلك ان الرمزية الزوجية ستكون مستعملة من قبل كبار الأنبياء بعد هوشع .

١١٨ - اشعيا : «بقية من اسرائيل» ستعود :

بالرغم من تشابه ارشادهم الرباني ، فإن كل واحد من كبار الأنبياء المختصين بالكتاب المقدس scripturaires يتميز بطريقة وجوده وبالأسلوب الذي به يحكم مصيره . إن اشعيا يعيش ويستمتع للرب في معبد اورشليم في ٧٤٦ أو ٧٤٠ . وزوجته كانت نبية كذلك وله زملاء تماماً كالانبياء المتهنين^(٢٦) . ولقد نطق بخطابه الأخير في سنة ٧٠١ .

في البداية ينتقد اشعيا بصورة خاصة الحالة الاجتماعية والأخلاقية لمملكتي يهودا واسرائيل ، وهو لا يتردد عن مهاجمة حتى الملك وكبار الاعيان [٣٠ : ١٢ - ١٥] . انه يعلن ان دينونة الرب لن توفر أحداً [٢ : ١٢ - ١٧ - ١١ - ٩] . وتتما كالسابقين له يصرح ان العبادة لا تكفي ابداً : «ماذا يهمني من اضحياتكم التي لا تعدو لا تحصى ؟ يقول يهوه . لقد شبت من محرقات الكباش وشحم العجول . ان ماء الثيران والتيوس تنفري» [١ : ١١] . الصلاة عبث لأن «ايدىكم ملطخة بالدماء» [١ : ١٥] . والايامن الصحيح يقتضي تطبيق العدالة وصنع الخير : «تعلموا صنع الخير ، ابحثوا عن الحق ، أغثوا الملهوف ، كونوا عادلين مع اليتيم» دافعوا عن الأرملة» [١ : ١٧] .

إن غزوة الأشوريين ضد سورية وفلسطين أدخلت عنصراً جديداً في نبؤة اشعيا . وان النبي يرى في هذه الاحداث العسكرية والسياسية الفظيعة تدخلا

من يهوه في التاريخ : فالأشوريون ليسوا سوى اداته . وبالنسبة لأشعيا ، ان ذلك يتعلق بانتقام الهي ، ويهوه على اهبة معاقبة الكفر الديني المنتشر بسبب الظلم الاجتماعي وبانهيار القيم الاخلاقية . وتلك هي الحجة التي من أجلها يقف موقف المعارض للسياسة الخارجية للملك . ان المحالفات والمناورات السياسية «فكرة كاذبة» وخرافات . فلا يوجد سوى أمل وحيد : الايمان والثقة بيهوه . «اذا لم تتمسكوا بي فلن تتمسكوا ابدًا» [٧ : ٩] . ان الايمان بيهوه . وليس بمصر هو الذي يمكن ان يُعين [٣١ : ١ - ٣] . ولكي يشجع الملك يذكر اشعيا «بآية للسيد» : «الفتاة الشابة حامل وستلد ولداً تسميه عمانوئيل» [٧ : ١٤] . وقبل ان يعرف الطفل نبذ الشر واختيار الخير ، سيضمن له يهوه العديد من المعجزات [٧ : ١٦] ان هذه المعجزة اثارت مالا يحصى من التفسيرات^(٢٧) . والانباء اللاهوتي المسيحي قد رأى في اسم الوليد (عمانوئيل) = (اله معنا) اعلاناً بولادة المسيح . على كل حال ان المعنى المسيحي واضح : ليهوه سيعث في جبل نسب داوود ملكاً عادلاً سيكون منتصراً وابناؤه سيحكمون للأبد .

عندما اجتاحت فلسطين ، أعلن اشعيا ان ملك آشور ليس أداة يهوه ، وانما مجرد طاغية جشع للسلطة . [١٠ : ٥ - ١٥] وبالنتيجة هو ايضاً سيدمر [١٤ : ٢٤ - ٢٥] . ويعود النبي بدون كلل الى قدرة وسيادة الرب ، ويعلن عن «يوم يهوه» عندما سيحكم الرب العالم [٢ : ١٢ - ١٧] . وانه لأجل هذا سيدين ليس غطرسة ملك آشور فحسب ، وانما ايضاً الذنوب الاجتماعية والسياسية لليهود - اذلال الفقراء [٣ : ١٢ - ١٥] البذخ [٣ : ١٦ - ٢١] والفجور [٥ : ١١ - ١٣] والظلم [٥ : ١ - ٧ : ٢٣] وسرقة الحقوق [٥ : ٨ - ١٠] ذنباً يعتبرها كأنها تصرفات عصاة ضد يهوه [١ : ٢ - ٣] . انه يدين كذلك الادارة السيئة [٢٨ : ١٤ - ٢٢] والكهنة والانباء الطقوسيين الذين يسخرون منه [٢٨ : ٧ - ١٣] .

ان اشعيا يعتقد بعصمة صهيون : الجبل المقدس كان وسيبقى محمياً من قبل يهوه ضد غزوات كل الاعداء [١٤ : ٢٤ - ٣٢] [١٧ : ٢ - ١٤ : ٢٩] [١ : ٨ - ويحافظ على الأمل «ببقية اسرائيل» التي «ستعود نحو الرب القوي» [١٠ : ٢٠ -

٢١[٢٨] . غير ان الاساسي في رسالته لم يتبع فلم يخف النبي احباطه . ان آخر خطاب له يتنبأ بدمار «السهول الضاحكة والكروم الخصبة» . على كل منزل مبتهج وعلى المدينة المتهللة سينمو الشوك والعليق ، لأن القصور قد اخلت ، والمدينة الصاخبة مقفرة» . [٣٢ : ٩ - ١٤] .

١١٩ - الوعد المعطى لارميا :

إن ارميا الذي هو من عائلة ذات أصل كهنوتي أعلن دعوته في ٦٢٦ ومارسها مع انقطاعات خلال اربعة عقود . وفي مقطع شهير ، يروي ظروف اختياره [١١ - ١] . متردداً حيال مهمته محتجاً بعمره الفتى : «لم اعرف حمل الكلام : انني ولد» [١ : ٦] . ولكن الرب يلمس فمه ويشجعه [١١ : ٩] . ان الخطابات الأولى لارميا قد حكمت بنغمة مأوساوية بصورة خاصة : الكارثة الوشيكة الحصول والمسيبة عن طريق شعب آت «من الشمال» : معهم سهم بقبضتهم وترس ، انهم برابرة ولا يرحمون . . . » [١٦ : ٢٢ - ٢٣] سيكون من العبث البحث عن النموذج التاريخي لهؤلاء الفرسان المتوحشين . «الشعب الآتي من الشمال» يصنف بين الصور الاسطورية للتدمير الشامل . لأن الغزو سيدمر البلاد نهائيا . «لقد رثيت الأرض : عماء ، السماوات : وقد غاب نورها» [٤ : ٢٣] . ان الرجعة للعماء سيكون القصاص الالهي بالنسبة لانعدام الايمان الديني) انها تعد ، على الأغلب ، خليفة جديدة ، المعاهدة الجديدة التي اعلنها ارميا بعدئذ . لأن يهوه رحيم والنبي ينقل دعوته : «ارجعوا يا أولاد العصاة ، أريد شفاء عصاياتكم !» [٣ : ٢٢ ، ٤ : ٢٥] .

في ٦٠٩ ، مات جوزيا وابنه يواكيم قد خلفه على العرش . وقد تكشف عن طاغية كرية ، فلم يتردد ارميا عن مهاجمته . وفي فناء المعبد صب غضبه ضد كل اولئك - الكهنة ، والانبياء والشعب - الذين ينساقون للخديعة بالسلامة الخادعة لنشاطهم الديني . [٧ : ١ - ١٥ ، ٢٦ : ٢٩] . «لا تثقوا بالكاذب ! إنه

هنا معبد يهوه : [٧ : ٥] . عبثا يسرع للمعبد اولئك الذين سرقوا وقتلوا وارتكبوا الزنى، انهم قد حوكموا سلفاً انهم احتموا ببعل قائلين : «ها نحن بأمان» وربما جاهزون، لأن «يتابعوا كل هذه الأرجاس» . لأن يهوه ليس أعمى [٧ : ٩ - ١١] ان الرب ذكرهم بمصير معبد سيلو المخرب من قبل الفلسطينيين «بالكاد اسكنه اسمي، انظروا ماذا فعلت به، بسبب انحراف شعبي اسرائيل» [٧ : ١٢] - [١٣] . ان ارميا قد أوقف وعلى الأرجح ، بدون حماية بعض كبار الأعيان حكم عليه بالموت [٢٦ : ١٥] . وخلال زمن طويل لم يعد لدى النبي الامكانية للكلام علانية^(٢٥) .

ان آخر محطة من نبؤة ارميا بدأت في ٥٩٥ عندما احتل نبوختنصر اورشليم ونفى قسماً من نخبة اليهود . بينما إن الملك الجديد صدقيا كان يحضر عصيانا بمساعدة مصر ، فإن ارميا أكره لتهدئة الشعب . فأوقف وحبس كخائن ، وأطلق سراحه بعدئذ من قبل البابليين . وبعد قليل من الزمن سافر الى مصر مع مجموعة من مواطنيه الذين كانوا استبعدوا [٣٧ - ٣٩] . ولقد وجه آخر خطاب له الى «كل اليهود المقيمين في مصر» [٤٤ : ١] . ويذكر يهوه عبر نبيه بكل الكوارث القائمة : «لقد رأيتم كل الشقاء الذي جلبته لأورشليم وفي كل مدن اليهودية : ها هي خربة اليوم، وبدون سكان» [٤٤ : ٢] . وعبثا ارسل الرب خدمه الانبياء فالشعب كان قد انحرف بسوء اعماله [٤٤ : ٤] واخيرا ، فإن يهوه يعلن ايضا خراب : (بقية يهودا) التي اقيمت في مصر ستكون هي ايضا مباداة [٤٤ : ١٢] .

إن واحدة من مميزات رسالة ارميا هي العدد الكبير من الاعترافات والتوريات لعواطف الشخصية^(٣٠) . انه يجروء على القول إلى الرب : «آه - هل ستكون بالنسبة لي كساقية خادعة للمياه المخيبة للأمل» [١٥ : ١٨] ومثل ايوب يطلب : «لماذا ان حظ المسيئين حسن ؟ ؟ لماذا كل المخادعين ينالون السعادة ؟ [١٢ : ١] . انه يريد ان يعرف طرق الرب»^(٣١) .

مع ذلك ، وبالرغم من الكوارث التي تنبأ بها ، والتي تتحقق ، فإن
ارميا لا يضيع ثقته بالغفران حتى في خلق جديد . وكخزاف يستطيع تدمير
ما عمله ، فإن يهوه يستطيع تدمير عمله ، ولكنه قدير لأن يفعل غيره بأحسن منه
[١٨ : ٦] . وفي الواقع ان الرب ، عبر نبيه يعلن عهداً جديداً «ها قد أتت
الأيام ، حيث سأبرم مع بيت اسرائيل (وبيت جودا) عهداً جديداً . . سأضع
قانوني في أعماق ذاتهم وسأكتبه على قلوبهم وعندئذ سأكون ربهم وسيصحبون
شعبي [٣١ : ٣١ - ٣٣] .

كان عاموس ينتظر الخلاص للبشر «بفعل حب جديد للرب ، الذي يجعل
من الممكن عودة اسرائيل «لأيام شبابها» . وإرميا جرؤ على الأمل بتجديد ولادة جذرية
للإنسان . لأنه «أنت تعلم يا يهوه ، طريق البشرية ليس بقدرتهم . . .» [١٠ - ٢٣] .
لأجل هذا فإن الرب يعد بإعادة التجديد القريب لشعبه «سأعطيهم قلباً آخر وطريقة
أخرى في العمل ، بشكل انهم لن يخافون دائماً ، من أجل أموالهم وأولادهم من
بعدهم . سأعقد معهم حلفاً أبدياً : لن انقطع عن متابعتهم لأصنع لهم الخير . . .»
[٣٢ : ٣٩ - ٤٠] . إن هذا يعادل إبداعاً جديداً للإنسان ، وهي فكرة سيكون لها
نتائج ملحوظة «بين غيرها ، في المفهوم المسيحي لمعاهدة جديدة كشفت في العهد
الجديد»^(٣٢) .

١٢٠ - سقوط اورشليم - بعثة حزقيال :

«لم يكن ملوك الأرض وجميع سكان المسكونة ليصدقوا أن الطاغية والعدو يدخلان
أبواب اورشليم» [المراثي : ٤ : ١٢] هكذا كتب مؤلف المراثي المجهول ، الشاهد على
سقوط اورشليم في سنة ٥٨٧ . «انظر يارب وتأمل من صنعت به هكذا . أتناكل النساء
ثمرتهن أطفال الحضنة . يقتل في مقدس السيد الكاهن والنبي» [٢ : ٢٠] . لقد كان
للكارثة نتائج حاسمة بالنسبة لتاريخ اسرائيل وبالنسبة لتطور اليهودية . ان سقوط
العاصمة الدينية والسياسية كان يعني زوال الدولة ونهاية الملكية الداودية . لقد احرق

المعبد ودمر ، وهذا ما أدى الى انقطاع الاضاحي ان القسم الأكبر من السكان قد نفى . وعليه فإن بابل كانت بلاداً غير طاهرة ، حيث لا يمكن إقامة العقيدة . ان مكان المعبد قد اتخذ مدرسة دينية أصبحت مع الزمن الكنيس . وكانت الجماعة تجتمع دورياً للصلوات والأناشيد والمواظ . ولكن خراب المعبد كان يذكر بزوال القومية . ومن أجل هذا فإن الصلاة من أجل إعادة مبعث الاستقلال القومي كان غير منفصل عن الصلاة من أجل إعادة بناء المعبد (٣٣) .

كان عدد الشاكنين بقوة يهوه كثيرون في أورشليم وفي المنفى ، وقد تبنا عبادة آلهة الغالبيين . وبعضهم شك حتى في وجود يهوه ، الا انه بالنسبة للآخرين ، كانت الكارثة تجربة عليا لغضب السيد ، التي تنبأ بها ، الأنبياء بدون انقطاع ولا كلل . كان هنالك ردة ساخطة ضد «الأنبياء المتفائلين» . وبالعكس ، فان كبار الأنبياء المختصين بالكتب المقدسة ربحو التقدير والاعجاب اللذين كانوا حرموا منها خلال حياتهم . مع ذلك ، فإن النخبة المنفية لبابل فتشت من جهة أخرى في النصوص الدينية عن السند القابل لانقاذ اسرائيل [ر . الجزء الثاني] .

وفي بابل مارس مهمته آخر كبار الأنبياء حزقيال الذي وصل إليها مع أول قافلة من المنفيين في سنة ٥٩٧ وحتى سنة ٥٧١ . وكان حزقيال كاهناً ، وهذا ما يفسر الأهمية التي أناطها بالتطهر الشعائري . وقد كانت «الذنوب» بالنسبة لحزقيال ، هي ، في الدرجة الأولى ، عبادة الأصنام ، وهي التي جعلت اسرائيل «غير طاهر» ، وان يهوه سينجز الخلاص لشعبه بتطهيره (بماء نقي) (٣٤) [٣٦ : ٢٥] . في البدء ، اعتبر حزقيال مهمته كعناء كنود ، ولكن لا مفر منه للهداية : كان يجب زوال آمال المنفيين اليهود الأول في عصمة اورشليم ، ويتبع هذا ، تشديد عزمهم بعد خراب المدينة المقدسة (٣٥) . وفي هذه المرحلة الأولى من نبؤته ، كان حزقيال يعلن النهاية القريبة لأورشليم ، كنتيجة لا يمكن فصلها عن عدم ايمان اسرائيل . ان تاريخاً رمزياً [فصل ٢٣] يقارن اسرائيل والسامرية (جودا) بالشقيقتين ، اللتين ، مع انهما محبوتان من قبل يهوه «قد زنتا في مصر منذ صباهن» وتابعتا عدم ايمانهم مع الأشوريين والبابليين .

ويرجع حزقيال باستمرار الى نعمة المرأة الغيروفية التي كان تأخر يهوه عن تركها لكونها من أصل اسمه [ر . فصل ٢٠] . ان المركز المتميز لاسرائيل لا يرجع الى قيمتها : ان اختيار يهوه هو الذي ميزها بين الشعوب الأخرى . ولكن ماله دلالة أكثر ان التفسير للكارثة التاريخية كأزمة في القران الزواجي بين الرب واسرائيل هو الفكرة بكلية الحضور ليهوه . ان حضور الرب غير متعارض مع أي حيز متميز وبالنتيجة ، لا يهم كثيراً أن يعبد المؤمن يهوه في وطنه أو في بلد أجنبي . ان ما يهم هو حياته الداخلية وسلوكه في أعين مقارنيه ، وأكثر من كل نبي آخر كان توجه حزقيال الى الفرد^(٣٦) .

بعد سقوط اورشليم بدأ عهد جديد في تنبؤ حزقيال ، متميز بالأمل في خلاص اسرائيل . فبالنسبة للرب لا يوجد مستحيل . وفي حالة وجد يرى حزقيال « وادياً مليئاً بالعظام » . بملامستها بالروح ، « تسترد الهياكل العظمية حياتها وتقف على أرجلها » . وهكذا سيفعل الرب مع بيت اسرائيل [٣٧ : ١ - ١٤] . وبعبارة أخرى ، مع انه مات ، فإن اسرائيل سيمكن له ان يبعث بمعجزة الهية . وفي وحي آخر [فصل ٣٦] . يعد يهوه بعودة المنفيين ، باعادة تكوين وتطهير الشعب . ولكنه بصورة خاصة يعلن الخلاص لاسرائيل : « وانضح عليكم ماء طهوراً فتطهرون من جميع نجاستكم . . واعطيكم قلباً جديداً ، واجعل في احشائكم روحاً جديداً . . . واجعل روحي في احشائكم واجعلكم تسلكون في رسومي وتحفظون احكامي وتعملون بها . واخلصكم من جميع من جميع نجاستكم وادعو الحنطة واكثرها ولا القى عليكم الجوع . . . » [٣٦ : ٢٥ - ٢٩] . وكما هو بالنسبة لارميا : انه يتعلق بميثاق جديد ، مقدماً ، في واقعه ، خلقاً جديداً . وبما ان تشتت اسرائيل كان قد اتهم القدرة الكلية وكرامة السيد ، فإن حزقيال يفسر ، هذه الحلقة الجديدة برغبة يهوه لتقديس « اسمه المقدس الذي دنسه بيت اسرائيل بين الأمم » [٣٦ : ٢١] . ان داوود ، الأمير والراعي « خادم » مثالي للرب ، سيحكم على اسرائيل الجديد [٣٧ : ٢٥] و[٣٤ : ٢٣] . وفي الفصل الأخير يصف حزقيال بتفصيل المبدع المقبل^(٣٧) « الذي يرى صورته في نشوته » والعبادة التي يجب ان يكرم بها في اسرائيل .

ان الانبياء لم يتشتوا في السنوات الأخيرة من النبي وفي عصر ما قبل النبي [جزء ٢] . ولكن رسالتهم تطورت لما يمكن تسميته « لاهوت السلام » الملخص من قبل ارميا . فمسموح منذ الآن اذن تفحص دور النبوة في التاريخ الديني لاسرائيل . ان ما يصدم بدنيا لدى الانبياء ، هو انتقادهم للديانة ، والعنف الذي يهاجمون به التوفيقية ، أي التأثيرات الكنعانية التي يسمونها « الزنى » . ولكن هذا « الزنى » الذي يتوقفون عن شن تجريحهم له ، يمثل واحداً من الاشكال الاكثر انتشاراً من التدين الكوني . ان التدين الكوني الخاص بالمزارعين كان قد مدد الجدلية الأولى للمقدس ، وبصورة خاصة الاعتقاد بأن الاله يتجسد ، او يظهر ، في الموضوعات والايقاعات الكونية . وعليه ، فإن مثل هذا الاعتقاد قد ابلغ عنه من قبل المؤمنين بيهوه كعبادة اصنام متميزة ، وهذا منذ الدخول الى فلسطين . ولكن التدين الكوني لم يهاجم مطلقاً هكذا وبوحشية . ان الانبياء نجحوا في ا فراغ الطبيعة من كل وجود الهي . فقطاعات كاملة من عالم الطبيعة - الامكنة العالية - الحجارة - النباتات - الاشجار - بعض المحاصيل - بعض الازهار - اعتبرت كغير طاهرة ، بما انها ملطخة بعبادة الآلهة الكنعانية للخصب^(٣٨) . ان الاقليم / الطاهر / والمقدس بامتياز هو الصحراء فقط ، لأن اسرائيل بقي هنالك امينا للرب ، ان البعد المقدس للنبات وبصورة عامة ، التجليات المفرطة الحيوية للطبيعة ، ستكتشف بعد زمن متأخر وفي اليهودية القروسطية .

ان العبادة ، بالدرجة الأولى ، الاضاحي الدموية ، كانت ايضاً قد انتقدت ، فلم تكن مغشوشة بالعناصر الكنعانية فحسب ، ولكن الكهنة والشعب اعتبروا النشاط الشعائري وكأنه الشكل الكامل للتعبد . وعليه ، أعلن الانبياء ، انه من العبث ، البحث عن يهوه في « معابدهم » ، فالرب يحتقر الاضاحي ، والاعياد والحفلات [ر. عاموس ٥ : ٤ - ٦ - ١٤ - ١١٥ - ٢١ - ٢٣] ان الانبياء ما قبل النبي لم يحددوا بدقة مطلقاً ماذا يجب ان يكون النشاط الطقوسي للمؤمن .

فالمسألة لم تطرح حتى ولا بعد الزمن الطويل الذي لم يعد فيه الشعب ليهوه . ان الانبياء لم يتبعوا ابدأ التعديل في العقيدة ، وانما تحول البشر^(٢٩) . وليس الا بعد سقوط اورشليم حيث أخذ حزقيال يعرض مهمة الهية معدلة .

ان ابطال صفة القداسة للطبيعة ، وعدم تقويم النشاط الطقوسي ، وباختصار النبذ العنيف والشامل للتدين الكوني ، وبخاصة الأهمية الحاسمة الممنوحة لاعادة الخلق او التجديد الروحي للفرد بالرجوع النهائي ليهوه، كانت جميعها جواب الانبياء على الازمات التاريخية التي كانت تهدد الوجود ذاته للمملكتين اليهوديتين . ان الخطر كان ملحوظا ومباشراً . وان الفرح بالعيش المتضامن مع كل ديني كوني ، لم يكن كفرة أو ردة فقط ، لقد كان ضللاً محكوماً عليه بالزوال في الكارثة الوطنية التي لا مفر منها . ان الاشكال التقليدية للتدين الكوني اي الاسرار ، الخصب ، التضامن الجدلي بين الحياة والموت ، كانت تقدم منذئذ ضمناً كاذباً . وفي الواقع ، ان التدين الكوني كان يشجع الوهم بأن الحياة لن تنقطع عن الاستمرار وبالتالي ان القومية والدولة يمكن ان تعاودا الحياة بالرغم من ثقل الازمات التاريخية . وبعبارة اخرى ، فإن الشعب وكبار الاعيان ، وايضاً الكهنة والانبياء المتفائلين ، كانوا جميعهم ميالين لتمثيل المحن بنظام تاريخي للكوارث الطبيعية [قحط - فيضان - اوبئة - حركات زلزالية الخ] . وعليه ان مثل هذه الكوارث ليست مطلقاً شاملة ولا نهائية . ولكن الانبياء مما قبل النفي كانوا يندرون ليس خراب البلاد وزوال الدولة فقط : بل لقد اندروا ايضا بخطر الابادة الشاملة للأمة .

ان الانبياء عاودوا العمل ضد التفاؤلية السياسية الرسمية ، وهاجموا الملكية الداودية من أجل تشجيع التوفيقية بدلاً من احياء اليهودية كعقيدة للدولة . ان المستقبل الذي كانوا اعلنوه ، كان في الواقع وشيك الوقوع ، ولم يتوقف الانبياء عن التنبؤ بهدف امكانية تحويل الحاضر بتغير المؤمنين داخلياً . ان فائدتهم العاطفية بالنسبة للسياسة المعاصرة كانت من نموذج ديني . وبالواقع ، ان مسيرة الاحداث كانت قابلة لاقحام الايمان الخالص للأمة وبالتالي « خلاصها » كامكانية وحيدة لاستمرارية حياة اسرائيل في التاريخ . ان تحقيق النبؤات المعلنة من قبل الانبياء

تؤكد رسالتهم ، وبدقة ان الاحداث التاريخية كانت من عمل يهوه . وبعبارة اخرى ان الاحداث التاريخية لبست معنى دينياً وتحولت الى ظهورات سلبية « الى غضب » من يهوه ومن هذه الطريقة كشفوا تعاضدهم الصميمي ، مؤكدين العبارة الملموسة لذات ارادة الهية وحيدة .

وهكذا ولأول مرة ، فإن الانبياء قوموا التاريخ . وان الاحداث التاريخية منذئذ لها قيمتها بذاتها ، بمقياس انها حددت بارادة الرب . ان الوقائع التاريخية تصبح هكذا او ضاعاً « للانسان تجاه الرب ، وبهذا تكتسب قيمة دينية بحيث انه لا شيء حتى هنا لا يمكن له طمأننتهم ، وأيضاً ، أيصح القول بأن العبريين كانوا اول من اكتشف دلالة التاريخ كتجلي للاله ؟ وهذا المفهوم ، كما يتوجب انتظاره قد أعيد اخذه وتوسيعه من قبل المسيحية . ولنؤكد مع ذلك ان اكتشاف التاريخ بصفته كشفاً الهيا لن يكون ابدأ بصورة مباشرة وبالكلية مقبولا من قبل الشعب اليهودي ، وان المفاهيم القديمة ستستمر في الحياة ايضا لزمن طويل .

حواشي الفصل الرابع عشر

- ١ - fohrer تاريخ ديانة الاسرائيليين ص ١٤٧
- ٢ - حتى في النصوص المنتصقة حمياً بالعرش مثل المزامير ، فإن يهوه وليس الملك ، الذي يحتل المركز الاساسي .
- ٣ - ل . النصوص المذكورة - من قبل Ringqres
- ٤ - van Rad - العهد القديم .
- ٥ - حول الأهمية بهذه الرمزية بالنسبة للمسيرة المتأخرة ، انظر الياد ، اسطورة العود الابدي
- ٦ - Ahlhram و - pohrer و - wideugres
- ٧ - ٨ يقتضى التذكير انه بينما كانت الملكية الوراثية للأسرة الداودية قد دعمت في الجنوب فإن الملكية كانت في الشمال هبة لدنية .
- ٩ - العدالة ، تقترب من مازارو البابلية والمات المصرية (رنجرين) ص ٤٩
- ١٠ - ولكن الفكرة بالبعث كانت معدة مسبقاً من مثل اللاهوت الكلي القدرة ليهوه وبعض المتعقدات وبعض الشعائر .
- ١ - A . Weiser - ٣٠٨
- ١٢ - تاريخ تأليف القصة غير ثابت ، مع ان النص كما يعرف يبدو سابقاً للنفي ، ولكن المحتوى يبدو أكثر قدماً .
- ١٣ - عدم امكانية فهم اجرامه يشكل اللازمة المركزية في تأوهات ايوب « ربما انني رفعت يدي على الفقير ، بينما في تعاسته كان يطلب العدالة ؟ ألم أبك عن كل اولئك الذين كانت الحياة قاسية عندهم ، المحرومين من الحنان هل - تعاملت مع الكذب - هل سلكت في الباطل وعجلت رجلي في المكيدة . هل كنت غير متأثر بحاجات الضعفاء وتركت الارملة تدبل ؟ هل اكلت خبزي لوحدي بدون مقاسمة الايتام .

- ١٤ - هذا الحديث يبدو كأنه تمرين في النص .
- ١٥ - المبارزة تشكل جزءاً من حرب دينية ، تماماً كإيزابيل قد أعطى أن يذبح أنبياء يهوه ، إلى بعد انتصاره طلب من الشعب أن يجس الـ ٤٥٠ نبياً التابعين لبعل . « فانزلهم بالقرب من سيشيم وذبحهم » ملوك ١٨١
- ١٦ - فوهرر تاريخ الدين الاسرائيلي ص ٢٣٧
- ١٧ - ١٩ - مراجع متعددة .
- ٢٠ - ايليا تنبأ بالموت المفاجيء للملك اوشوذيا (ملوك ٢ - ١ وهوشع) عرف اين يوجد الماء في الصحراء (ملوك ٢ - ٣ - ١٦ - ٧) ويعرف ان الملوك اعطوا امراً بقتله وهو يعرف الكلمات المعلنة من قبل ملك دمشق في غرفة نومه [ملوك ٢ - ٦ : ٣٢]
- ٢١ - ٢٣ - انظر الامثلة المؤكدة من قبل مؤهرر . ورنجرين .
- ٢٤ - ان كهنة احياء الخصب الفردوس الذين كتبوا السفر (٩ : ١١ - ١٥) يناقضون جذريا الادانة المكررة كثيراً مما يجعل الشك وارداً في صحتها .
- ٢٥ - انظر فوهرر - ص ٢٥٠ وحاشية ١٧ (مراجع) بتناقض ، فإن التصور الزواجي المستعمل من قبل هوشع هو تابع للطقوس الكنعانية في الخصب التي صار بها انظر رنجرين ص ٢٨٣ حتى مع ذلك ، اندريه نيهير . جوهر النبوة حول دلالة (وجودته) للرمزية القرآنية في الفكر الديني العبري . ان الترجمة للتجربة الصوفية في عبارات الاتحاد الجنسي ستؤخذ في الشروح اليهودية والمسيحية في نشيد الانشاد وبصورة خاصة في اللاهوت الصوفي ضد الاصلاح على العكس في صوفية ميستافا فإن القرآن الصوفي بين الروح والرب قد توضح بالحب الزناني بين رادها وكريشناص .
- ٢٦ - يقتضي التأكيد ان الـ ٢٩ فصل الأول من الكتاب الذي يحمل اسمه يعدله . البقية قد اقلت من قبل مختلف الكهنة والذين ليسوا سابقين عن القرن السادس . وبعض القطع دخلت معه زمن متأخر . في كتاب شعياً مثلاً - الرؤيا ص ٢٤ - ٢٥
- ٢٧ - انظر المراجع الرئيسية لـ ونجدن ص ٢٨٦
- ٢٨ - لقد سمي اشعيا ابنه الأول شير - ياشوب .
- ٢٩ - بناء على اوامر يهوه ، حبس نبؤاته عن الامم في كتاب وفي احد الايام اراد خادمه باروخ قراءة قطع في المعبد ، ولكنه اوقف واقتيد للملك الذي احرق الليفة . مع ذلك أمل ارميا كتاباً جديداً [فصل ٣٦]
- ٣٠ - انظر بصورة خاصة ١١ : ١٨ - ٢٣ ١٢ - ١ - ٦ . الخ .
- ٣١ - قون - راد . العهد القديم ص ٢٣

- ٣٢ - انتظار ملك مثالي تشكل جزءاً من ذات الأصل من معاهدة جديدة (سأعطيه الحضور وسيقترب مني) [٣٠ - ٢١]
- ٣٣ - كاتب المزمور ٥١ يدعو الرب ان يطهره ويحرره وفي ذات الوقت اعادة بناء القدس بأسوارها « عندئذ سترضى عن الاضاحي الحقه » ٢٠ - ٢١
- ٣٤ - ٣٥ - (نجرن وفوهرر . ص ٣٠٠ و ٣٠)
- ٣٦ - فوهرر - ص ٣١٩
- ٣٧ - الرؤية النشوية لحزقيال تشكل نقطة البدء للاهوت المعبد الذي سيعرف تطوراً هائلاً في اليهودية والمسيحية .
- ٣٨ - لذات السبب ، فإن المبعوثين المسيحيين في الهند لم يكونوا يقبلون في الكنائس سوى ارادهو ، التي لم تستعمل في حفلات الهندوس اي الاقل جمالا .
- ٣٩ - فوهرر . . . ص ٢٧٢
- ٤٠ - اليا واسطورة العودة الدائمة ص ١٢٢ حول السلام والزمن الخ .

الفصل الخامس عشر

ديونيزوس أو السعادة المستردة

١٢٢ - تجليات واحتجابات اله «مولود مرتين» :

بعد أكثر من قرن من البحوث ، يبقى أيضا ديونيزوس لغزاً .
بأصله ، بطريقة تكونه ، بنموذج التجربة الدينية التي يبدأها ، يفترق عن الآلهة
الاغريقية الكبرى . وبحسب الأسطورة هو ابن زوس من الأميرة سيميليه Sémélé
ابنة قدموس ملك طيبة . لقد غارت هيرا منها فنصبت لها شركاً - وطلبت سيميليه
من زوس أن تتأمله في شكله الحقيقي كإله سماوي . ولكن المتهورة ، قد صعقت
، بأن وضعت قبل الموعد . غير أن زوس خاط الطفل في فخذه ، وبعد بضعة
أشهر جاء ديونيزوس إلى الدنيا . فهو ، في الواقع «ولد مرتين» . ان العديد من
الأساطير المتعلقة بالأصول تجعل مؤسسي الأسر الملكية متحدرين من القران بين

الآلهة والنساء من الفانين . ولكن ديونيزوس قد ولد في المرة الثانية من زوس ولهذا فهو وحده اله .^(١) .

لقد حاول كريتشمر تفسير اسم سيميليه بالعبارة التراقية - الفريجية سيميلو التي تدل على الربة الأرض ، وهذا الاشتقاق للكلمة قد قبل من العلماء البارزين مثل نيلسون وويلوايتز . وسواء أكان هذا سليماً أم لا فإن الاشتقاق اللغوي لا يساعد أبداً . في فهم الأسطورة ، بدئياً ، يفهم بشكل غير سليم الزواج hierosgamos بين الاله السماوي والأرض الأم الذي يكتمل في احتراق هذه الأخيرة . ومن جهة أخرى ، وهذا أمر جوهري ، إن أقدم التقاليد الميتولوجية تصر على هذه الواقعة : الفانية^(٢) سيميليه حملت إلهاً . ان هذه الثنائية المتناقضة لديونيزوس هي التي كانت أثارت اهتمام الاغريق ، لأنها وحدها استطاعت أن تفسر تناقض طريقة تكوينه .

ان ديونيزوس المتولد من فانية ، لم يكن يملك حقاً في مجمع الآلهة الأوليمبية ، لقد نجح مع ذلك في أن يقبل في هذا المجمع ، وفي آخر المطاف أدخل فيه والدته سيميليه أيضاً . إن هومر كان قد عرفه ، كما تثبت ذلك إشارات عديدة ، ولكن لا الراوي المحترف للمحمته ، ولا المستمعون إليه كانوا مهتمين بهذا الاله (الغريب) المختلف عن آلهة الأوليمب . وربما كان هومر هو الذي نقل أقدم شهادة حول ديونيزوس ففي الالبازة [٧١ - ٤٠ - ١٤٨] ذكر إشارة لمشهد مشهور : البطل التراقي ليكورغ طارد مرضعات ديونيزوس «وكلهن ، بإشارة واحدة ، ألقين على الأرض أدوات تعبدهن» . في حين أن الاله «الذي تملكه الرعب يقفز في أمواج البحر ، فأخذته تيتيس بحضنها وهو مرتعب تماما : لقد تملكه الرعب عندزججيرة المحارب» ولكن ليكورغ «أغضب الآلهة» فجعله زوس أعمى ، ولم يعيش طويلا «لأنه أصبح عدواً لكل الآلهة الخالدة» .

ويمكن حل رمز هذا المشهد ، حيث توجد ملاحظة من قبل «انسان - ذئب» وغريق في البحر ، بتذكر السيناريو المساري القديم . مع ذلك ، وفي العصر الذي ذكره هومر ، فإن قصد ومعنى الأسطورة هما شيء آخر ، إنه يكشف معالم

خاصة لمصير ديونيزيوس : «اضطهاده من قبل شخصيات معادية» ، غير أن الأسطورة تشهد اضافة لذلك أن ديونيزوس قد اعترف به كعضو في العائلة الالهية ، لأن زوس ، والده ، لم يكن وحده ، وانما كل الالهة الأخرى قد شعروا بتجريحهم بحركة ليكورغ .

ان «الاضطهاد» يوضح بطريقة مأساوية المقاومة ضد طريقة التكون والرسالة الدينية لاله . بيرزيه ينتصب مع جيشه ضد ديونيزوس و«نساء البحر» اللواتي يرافقنه ، وحسب «نص قديم» يلقي الاله في لج بحيرة ليون [بلاتارن - ايزيس ٣٥] وسنجد نغمة الاضطهاد في تحليل عابدات باخوس لأوربيدس . وقد جرت محاولة لتفسير أمثال هذه المشاهد كذكريات مؤسطة للمقاومة المصادفة من قبل العبادة الديونيزية . وان النظرية المستترة تفترض أن ديونيزوس قد وصل متأخراً لليونان ، وأنه ضمنا ، إله «غريب» . ان الأكثرية من العلماء تعتبر أن ديونيزوس ، كإله تراقي thrace ، أدخل إلى اليونان اما مباشرة من تراقية ، وإما من فريجيا . ولكن والتر اوتو Walter Otto أصر على الصفة الموغلة في القدم والما قبل الهيلينية لديونيزوس ، وكحجة له في هذا القول واقعة اسمه دي - و - نو - سو - جو di- wo- nu- so jo الموجودة في نقش ميسيني . ومن جهة أخرى ، فليس بأقل من هذا حقيقة ان هيرودوت [٤٩/٢] كان قد اعتبر ديونيزوس كأنه «مدخل مؤخراً» . وفي الباقيات [٢/٧ - ١٩] تكلم بانتيه Penthé عن هذا «الاله الذي جاء متأخراً كيفما اتفق» .

وكيفما كان تاريخ دخول العبادة الديونوزيسية إلى اليونان ، فإن الأساطير والمقاطع الميثولوجية التي تشير الى المقاومة التي صادفتها . ذات دلالة أكثر عمقاً : إنها ترشدنا في آن واحد إلى التجربة الدينية الديونيزية وتدلنا على البنية المميزة للاله . لقد كان على ديونيزوس أن يثير مقاومة واضطهاداً ، لأن التجربة الدينية التي أثارهاهددت نموذج وجود وعالم قيم. لقد تعلق، بالتأكيد، بالسيادة، المهدة، للدين الأولمبي ومؤسسته. ولكن المقاومة قد افشت كذلك مأساة أكثر صميمية، والتي هي قد تأكدت على نطاق واسع في تاريخ الأديان : المقاومة ضد كل تجربة

دينية مطلقة ، والتي لا يمكن لها أن تتم الا بانكار البقية (مهما كان الاسم الذي يعطي لها : توازن ، شخصية ، شعور ، عقل الخ) .

إن والتر اوتو قد لمس بحق التضامن بين نغمة «الاضطهاد» لديونيزوس ونموذجية تعدد تجلياته . فديونيزوس اله يبدو فجأة ويغيب بعدئذ بطريقة خفية . ففي أعياد أجريونيادي شاليرونيـا Agrioniad chaeronéa ، كانت النساء تفتش عنه عبثاً وتعود بخبر ان الاله كان قد ذهب الى عند ربـات الشعر muses اللواتي أخفينه (اوتو - ديونيزوس ص ٧٩) لقد اختفى بغطسه في لج بحيرة ليرن ، أو في البحر ، وسيظهر - كما في عيد انتيستريا Anthestéria - في قارب على الأمواج . وان الاشارات ليقظته في سريره تدل على نفس النغمة الأسطورية . وهذه التجليات وهذه الاحتجابات الدورية تحل ديونيزوس بين آلهة النبات^(٥) . وفي الواقع ، انه يظهر بعض التضامن مع حياة النباتات ، اللبلاب ، والصنوبر أصبحتا تقريباً من رموزه ، وأعياده الأكثر شعبية تثبت في التقويم الزراعي . ولكن ديونيزوس هو على علاقة مع كلية الحياة ، كما تظهره علاقاته مع الماء والبذور والدم والمني ، والافراطات الحيوية المسترة بتجلياته الحيوانية (ثور ، أسد ، تيس)^(٦) . إن ظهوراته وغيابه الغير متوقعة تعكس بنوع ما ظهور واحتجاب الحياة ، أي تناوب الحياة والموت ، وفي آخر المطاف وحدتهما . ولكنه لا يتعلق أبداً بملاحظة «موضوعية» لهذه الظاهرة الكونية ، التي لا يمكن لتفاهتها أن تثير أية فكرة دينية ، ولا أن تنتج أية اسطورة . وبتجلياته واحتجاباته ، يكشف ديونيزوس السر ، والقداسة لتصرف الحياة والموت . انه كشف عن طبيعية دينية ، لأنه منجز بحضور الاله نفسه . ولأن هذه الظهورات والاختفاءات ليست دائماً على علاقة مع الفصول . فديونيزوس يظهر نفسه أثناء الشتاء ، ويغيب في ذات الاحتفال الربيعي حيث ينجز تجليه المظفر .

«اختفاء» ، «احتجاب» هما عبارتان ميثولوجيتان عن النزول الى الجحيم ، اذن عن (الموت) . وفي الواقع ، أظهر قبر ديونيزوس في دلفي ، وقد حُدث كذلك عن موته في آرغوس . من جهة أخرى ، عندما يستدعى ديونيزوس من

عمق البحر في شعائر أرجين [بلوتارك - داسيد ٣٥] ، فإنه ينهض من يلاذ الأموات . وحسب أنشودة أورفية (ن . ل ٣) عندما يكون ديونيزوس غائبا يعتبر أنه يوجد قرب بيرسفونة . وأخيراً ، فإن الأسطورة لزاعزوس - ديونيزوس - التي سنعود إليها - تقص قصة الموت العنيف لاله ، مقتول ، ممزق ومفترس من قبل التيتان .

هذه المظاهر ، المتعددة ، ولكن المتكاملة ، لديونيزوس مدركة أيضاً حسياً في طقوسه العامة ، رغم تطهيراتها الحتمية ، ورغم إعادة تفسيراتها .

١٢٣ - قدم بعض الأعياد العامة .

بدءاً من بيزيسترات Pisistrate ، كان يحتفل في آثينا بأربعة أعياد على شرف ديونيزوس^(٧) . «الديونيزيات في الحقول» ، التي كانت تجري في كانون أول ، وكانت أعياداً للقرية . وكان يتجول موكب بتطواف حاملاً عضو تذكير بحجم ضخيم ومترافقاً بالأناشيد والأغاني . وهذه حفلة قديمة جداً منتشرة بامتياز وبشكل واسع عبر العالم ، وإن الفالوفوري = Phallophoric (المتعلقة بالقضيب عضو التذكير) سبقت بالتأكيد العبادة الديوزونيسية . وشعائر أخرى كانت تقتضي مبارزات ومنازعات ، وبصورة خاصة عروضاً للأقنعة أو شخصيات متحركة بحيوانات . وهنا أيضاً سبقت شعائر ديونيزوس ، ولكنه معلوم كيف أن إله الخمر قد توصل لأن يأخذ رأس موكب الأقنعة .

ولم تردنا معلومات كافية حول اللينية les Lènes التي يحتفل بأعيادها . في منتصف الشتاء . ان هرقليط يؤكد في أحد أقواله بأن الكلمة ليناي Lénai والفعل «أجرى اللينامس faire le Lénai» كانت تستعمل كمعادلات «للباخيين baceh Aute» الشاربون و«أجرى الباشانت» faire le bacchant . وكان الإله يدعى مع المسابقة للداديشو daduchos . وحسب تفسير لبيت شعر لأريستوفان ، كان

الكاهن الايلوزينيان ، و«مشعل في يده يقول : ادعو الاله ؛ فيصرخ الحضور :
يا ابن سيميله ، اياكشو^(٨) واهب الغنى !» .

وكان يحتفل بأعياد الانثيستيري les Anthésteries في شباط - آذار تقريباً ،
و«الديونيزيات الكبار» الأقرب عهداً في آذار - نيسان . وقد اعتبر توسديد
[٢ ، ١٥ - ٤] الانثيستيري كأقدم عيد لديونيزوس . وكان أكثر الأعياد أهمية .
وكان أول يوم يسمى بيتواجيا pithoigia ، افتتاح براميل من تراب (بينوا) pithoi
كان يحفظ فيها الخمر منذ محصول الخريف . وكانت البراميل تنقل الى معبد
«ديونيزوس في المستنقع» لاجراء اراقات (تقدمات) للاله ، ومن ثم كان يذاق
الخمر الجديد ، واليوم الثاني (شويه) choés = «الجرار» كانت تجري مسابقة
للشاربين : كانوا يوصلون بجرة ملئت بالخمر ، وعند الاشارة التي تعطى كانوا
يبتلعون بأسرع ما يمكن محتواها . تماماً مثل بعض مسابقات «الديونيزيات في
الحقول» (على سبيل المثال ، الاسكولياسمو) التي كان الشباب فيها يبذلون
جهدهم بالبقاء أطول فترة من الزمن واقفين بتوازن على قربة مدهونة بالزيت) ،
هذه المباراة أيضاً كانت تأخذ محلها في السيناريو المعروف جداً من مسابقات
ومبارزات فروسية من كل نوع (رياضية ، خطابية الخ) متابعة تجديد
الحياة^(٩) . ولكن المرح والسكر يسبقان بنوع ما الحياة في الآخرة التي لا تشبه ابداً
العالم الهوميري الآخر التعيس .

وفي ذات اليوم من «الجرار = شويه» كان يتشكل موكب يمثل وصول الاله
الى المدينة - وكما كانت عودته منتظرة من البحر ، كان الموكب يتضمن زورقاً
محمولاً على أربع عجلات لعربة ، كان يوجد فيها ديونيزوس ماسكاً كرمه ،
وساتيران عاريان يعزفان على الناي .

وكان الطواف يصف صوراً مختلفة ، متنكرة - على الأرجح - وكان هنالك
ثور تضحوي يتقدمه عازف على الناي وحملة أكاليل ، وكان يتوجه صوب المعبد
الوحيد المفتوح هذا اليوم ، الليمينيون القديم . وهنالك كانت تجري حفلات

* - الساتير satyre = شخص خرافي نصفه انسان ونصفه ماعز .

مختلفة ، كانت البازيلينا (الملكة) تساهم فيها ، أي امرأة الارخونت ، الملك ، ولها أربعة سيدات شرف . بدءاً من تلك اللحظة التي كانت البازيلينا وريثة الملكات القديمات للمدينة ، معتبرة كزوجة لديونيزوس . فكانت تغطي العربة بالقرب منه ، ويتجه موكب جديد من نموذج زواجي نحو البوكوليون ، المقر الملكي القديم . ويؤكد أريستو أنه في /البوكوليون (لغويا : اصطلب البقر) كان يحصل اللقاء الجنسي بين الاله والملكة [السياسة الايتينية ٣ ، ٥] . وان اختيار البوكوليون يدل على أن التجلي الثوري taurine (من الثور) لديونيزوس كان مألوفاً أيضاً .

وقد جرت محاولة لتفسير هذا القران في معنى رمزي ، أو بافتراض أن الاله كان قد تجسد بالأرخونت ، ولكن و . أوتو W. otto يبرز بعنوان صحيح الأهمية لشهادة أريستو^(١٠) ان البازيلينا تستقبل الاله في بيت زوجها ، وريث الملوك - وديونيزوس يتمثل كملك . ومن الراجح أن هذا اللقاء يرمز للزواج بين الاله والمدينة بكاملها ، مع النتائج الكبيرة المتخيلة . غير أن هذا هو عمل مميز لديونيزوس ، ألوهية بتجليات وحشية ، تتطلب أن يُصرح لها علانية عن تفوقها . ولا تعرف أية عبادة يونانية أخرى حيث يبدو إله معيناً بالقران بالملكة .

غير أن الأيام الثلاثة للأنتيسيري ، وبخاصة الثاني ، وهو انتصار ديونيزوس ، هي أيام بؤس ، لأن أرواح الموتى تعود ومعها الكيرات les Kére ، حملة التأثيرات المؤذية من العالم السفلي . وكان اليوم الأخير من الأنتيسيري مكرساً لهم . فكان يقام الدعاء من أجل الموتى ، وكان يجري اعداد بانسبرمي panspermie ، حبوب مغلية من أنواع مختلفة ، يتوجب استهلاكها قبل الليل . وعندما يأتي الليل كان يُصرخ : «الكيرات الى الأبواب ، لقد انتهت الأنتيسيري» .

ان السيناريو الشعائري معروف جداً ، وقد تأكد تقريبا في كل مكان في الحضارات الزراعية . فالمتى وقوى العالم الآخر تدير الخصوبة والثروات ، وهي الموزعة لها . «كتب في أطروحة متعلقة بالطب ، من الموتى ، تأتينا الأغذية ،

ويأتينا النماء والبذور» ان ديونيزوس ، في كافة الحفلات المكرسة له يتكشف لها للخصوبة والموت معاً . وان هيراقليط (فقرة ١٥) قال فيها سلف أن «هاديس وديونيزوس [...] هما الواحد وذاته» .

وقد سلف أن أعدنا التذكير بالعلاقات بين ديونيزوس والمياه ، والرطوبة ونسج النبات . وكذلك يجب الإشارة للمعجزات التي تصاحب تجلياته ، أو تبشر بها : الماء الذي ينبجس من الصخر ، والأنهر التي تفيض باللبن والعسل . في تيوس Teos تدفق غديراً نبع من الخمر من يوم عيد الاحتفال به [ديودر الصقلي ٣- ٢٦٦] وفي ايليس Elis ، تركت ثلاث جفان فارغة أثناء الليل في غرفة مقفلة ، وقد وجدت في الصباح ملأى بالخمر [بوزانياس ٧١ - ٦٢ - ١١ - ١٢] . وتأكدت معجزات مماثلة في أمكنة أخرى . وأكثرها شهرة كانت «شجرات الكرمة بيوم واحد» ازهرت وانتجت العناقيد من العنب خلال بضع ساعات ؛ وقد حصلت المعجزة في أمكنة مختلفة لأن عدداً من الكتاب تكلم عنها^(١١) .

١٢٤ - اوربيدس والتهتك الديونيزي .

إن معجزات مماثلة هي مميزة لعبادة مسعورة ونشوية لديونيزوس ، والتي تعكس العنصر الأكثر اصولية ، ومن المحتمل الأكثر قدماً ، للآله . ولنا في عابدات باخوس le Bacchantes لاوريديس شهادة لا تقدر بثمن حول ما يمكن أن يكونه اللقاء بين العبقريّة الاغريقية والتهتك الديونيزي . فديونيزوس نفسه هو بطل الرواية الأولى لعابدات باخوس ، واقعة لاسابقة لها في المسرح اليوناني القديم . إن ديونيزوس وقد شعر بمرارة من أن عبادته مازالت مجهولة في اليونان ، وصل من آسيا مع مجموعة من المينادات Menades وتوقف في طيبة مكان ولادة أمه . ان بنات الملك قدموس الثلاثة انكرن ان تكون اختهن ، سيميلة ، محبوبة لزوس وانها حملت منه إلهاً . فأصابهن ديونيزوس بالجنون ، واندفعت خالاته مع نساء طيبة الاخريات نحو الجبال ، حيث احتفلن بالشعائر التهتكية .

وقد كان بانتيه Pentheé الذي ورث عرش جده قدموس حُرِّم الديانة ، وبالرغم من الآراء التي تلقاها عاند في التحريم . وقد أسر بانتيه ديونيزوس وحبسه عندما تنكر بهيئة محتفل بالقداس لديانته الخاصة ؛ إلا أنه فر باعجوبة ونجح حتى بإقناع (بانتيه) ، ليذهب ويتجسس على النساء خلال احتفالاتهن التهتكية . وما أن اكتشف بانتيه من قبل المينادات حتى مزقنه قطعاً ؛ وحتى أن والدته آجانيه حملت رأسه بانتصار معتقده أن هذا كان رأس أسد^(١٢) .

ومهما يكن قصد اوريبيدس عندما كتب عابدات باخوس في آخر حياته ، فإن هذا العمل الهام من المأساة الاغريقية يشكل في ذات الوقت أهم وثيقة حول الديانة الديونيزية . إن نغمة «المقاومة ، الاضطهاد والنصر» وجدت أكبر تألقها^(١٣) . فبانتيه يقف موقف المعارض لديونيزوس لأنه «غريب ، متنبئ ، ساحر [. . .] مع تعجيدات شعر أشقر جميل ومعطر ، وخطود كالورد ، وعيون فيها ملاحظة افروديت . وتحت ذريعة تعليم الممارسات العذبة والفتانة للإيفويه l'evocé أفسد الفتيات» [٢٣٣ -] . إن النساء مدعوات لترك منازلهن والاسراع ليلاً إلى الجبال راقصات على أصوات السناطير والنايات . وبانتيه كان خائفاً من تأثير الخمر بصورة خاصة لأن «مع النسوة ، منذ مثول رحيق العنب على المائدة ، لا يرجى خير من طقوسهن الصاخبة» ، [مسرحية عابدات باخوس ٢٦٠ - ٢٦٤] .

مع ذلك ، ليس الخمر هو الذي يستدعي نشوة الباخيات . فقد فاجأهن خادم ليانثيوس على السيثرون Citheron في الفجر ، ووصفهن بأنهن لابسات فراء الغزال متوجات باللبلاب ، متزنيات بالافاعي ، وكان بعضهن يحملن في احضانهن غزلاناً أو ذئاباً وليدة (٦٩٥) . والمعجزات الديونيزية المميزة كثيرة : الباخيات يضربن الصخور بمزراق باخوس فيخرج الماء والخمر ، وهن ينبشن التربة بأطراف أصابعهن فيحصلن على حليب مغلي ، وكان العسل ينقط من الصولجانات أو العصي المعروشة بالاغصان [٧٠٣] . وتابع الخادم قوله «بالتأكيد ، لو كنت هناك ورأيت هذه الأشياء لحاولت أثناء الصلاة التقرب من الاله الذي تزدرية الآن» [٧١٢ : ١٤] .

وقد فوجيء الخادم بوجود أجافيه Agavé ، فتخلص ورفقاه من التعرض للتمزيق ، وانقضت الباخيات عندئذ على الحيوانات التي كانت ترعى في البرية ، «وبدون وجود أي حديد في ايديهن» مزقتها قطعاً .

«تأثير ألوف الأيدي من الفتيات» مزقت ثيران قوية في رمشة عين . وانطلقت المينادات على السهول «لقد انتزعن الأطفال من البيوت» . ورغم ما حملنه على اكتافهن من اشياء كثيرة لم يقع شيء على الأرض ، لا من النحاس ولا الحديد ، رغم أنها غير مربوطة فوق اكتافهن وحملن النيران . بين خصلات شعرهن لكنها لم تحرقهن ، وسيطر الغضب على بعضنا لما أتت الباخيات من نهب وأعمال فاندفعنا صوب السلاح عندئذ بدا مشهد - أيها الملك - يثير الرعب رؤيته . فالحراب ذات الأسنة الحادة لم تسل دماءهن ، بينما كانت اولئك النسوة تقذفن بما في ايديهن من مخاصر . فتصبن الرجال بالجراح وترغمهم على الفرار - وما كان ذلك ليحدث دون مساعدة اله ما» [٧٥٤١ - ٦٣]

من غير المجدي الاشارة للمفارقة بين هذه الشعائر الليلية والوحشية ، والاعياد الديونوزية العامة التي تكلمنا عنها سابقاً [ف . ١٢٣] . فأوربيدرس يقدم لنا عبادة سرية ، مميزة للاسرار . وسأل بانتيوس : «ماهي هذه الاسرار حسب رأيك ؟ . فيجب ديونيزوس : لا يمكن افشاء اسرارها لغير الباخيين من بين البشر - ويسأل : وأي فائدة تقدمها للعابدين ؟ فيجب ديونيزوس : لا يليق بك ان تعرفها ، وان كانت جديرة بأن يعرفها غيرك» [٤٧٠ - ٢٧٤] .

إن السر كان مشكلاً بمساهمة الباخيين في التجلي الشامل لديونيزوس . إن الشعائر يحتفل بها ليلاً ، بعيداً عن المدن ، على الجبال وفي الغابات . فعبر الاضحية بالتمزيق (سباراغموس) وأكل اللحم نيئاً (اوموفاجيا) يحقق التشارك مع الاله . لأن الحيوانات التي تمزق وتفترس هي تجليات اوتجسيدات لديونيزوس . كل التجارب الأخرى - القوة الطبيعية الاستثنائية ، عدم التأثر أو الحصانة من النار والسلامة ، والمعجزات (ماء ، خمر لبن متدفق من تراب) التآلف مع الأفاعي وصغار الحيوانات الكاسرة - كلها جعلت ممكناً بالحماس التطابق مع الاله . إن

الوجد الديونيزي يعنى قبل كل شيء تجاوز الشرط الانساني ، واكتشاف الانعتاق الشامل ، والحصول على حرية ، وعلى عفوية لا يمكن للبشر الحصول عليها . ومن بين هذه الحريات مثلاً ، الانعتاق أيضاً من المحرمات ، من القوانين والتنظيمات ، من الالتزام بالأوامر الخلقية والاجتماعية ، وهذا ما يبدو أكيداً ؛ وهو ما يفسر في جزء منه اذعان النساء القاسي^(١٤) . ولكن التجربة الديونيزية كانت تمس مستويات أكثر عمقاً . فالباخيين الذين التهموا اللحوم النيئة يقيمون عادة رفضت منذ عشرات الألوف من السنين ؛ وان هيجانات ممائلة ، كانت كشفت مشاركة مع قوى حياتية وكونية لم يمكن تفسيرها الا كامتلاك الهي . أما أن يكون الامتلاك مختلطاً بالجنون . la mania فإن هذا ما يتوجب توقعه . فديونيزوس نفسه قد عرف «الجنون» والباقي لا يعمل سوى اقتسام التجارب والعشق الالهي ؛ وفي نهاية المطاف ، كانت هذه الوسائل هي الأكثر ضماناً للمشاركة معه .

لقد عرف الاغريق حالات اخرى من المانيا mania المثارة من قبل الآلهة . ففي مأساة هرقل ليوريدس ، جنون البطل هو من فعل هيرا ؛ وفي أجاكس لسوفوكل ، أتينا هي التي رتبت التيه . إن الكهنوتية في اليونان القديم «كوريبانثيسم corybanthisme» ، المقربة من قبل القدامى من التهتك الديونوزي ، كانت مانيا مثارة بامتلاك الكوريبانت les Corybantes = الكهنة ، وكانت الممارسة تصل إلى مسارة حقيقية . وإن ما يميز مع ذلك ديونيزوس وعبادته ، ليست هي الازمات البسيكوباتية (الامراض النفسية) وإنما واقعة أنها كانت مقومة بصفته تجربة دينية : إما كعقاب ، وإما كفضل من الله^(١٥) . وفي آخر المطاف ، إن فائدة المقارنات مع الطقوس أو الحركات الجماعية المتماثلة ظاهرياً - على سبيل المثال ، بعض الرقصات التشنجية Convulsives في القرون الوسطى ، أو أكل اللحم النيء شعائرياً للإيساوا des Aissâoua ، الأخوانية الصوفية في افريقيا الشمالية^(١٦) - تستقر بحق في واقعة أنها تكشف أصولية الديونيزية .

ومن النادر أن يؤثر آله في العصر التاريخي مكلف بهكذا تراث قديم : شعائر تتطلب اقنعة ، ومتعلقات قضيبية ، وتمزيق الاضحية ، وأكل اللحم النيء ، وأكل لحم البشر وجنون وحاس . إن ما هو أكثر جدارة بالملاحظة ، واقعة أنه مع الاحتفاظ تماماً بهذا الارث المستقر منذ ما قبل التاريخ ، فإن عبادة ديونيزوس ، ما أن ادخلت مرة في العالم النفسي للاغريق حتى استمرت بدون انقطاع في خلق قيم جديدة . بالتأكيد ، إن الهيجان المثار عن طريق التملك الالهي - الجنون - قد كان اثار اهتمام عدد من الباحثين ، وشجع في كثير من المرات السخرية والهزء . فهيرودوت [٤ - ٧٨ - ٨٠] يحكي مغامرة ملك سיתי seyteسكايلاس الذي ، «تلقن على موجب شعائر ديونيزوس باخيوس» في اوليا على بوريستين (الدينير) . أثناء حفلة التيلية réleté كان الممتلك من قبل الاله ، يفعل فعل (الباحي والمجنون) . ومن المحتمل جداً أن يكون هذا طواف ، يدع فيه المسارون انفسهم «تحت حكم الاله» ليؤخذون بهيجان ملحوظ من قبل الحضور ، بأكثر مما هو من قبل الممتلكين ذاتهم ، وكما لو أنه جنون فعلاً .

وقد عني هيرودوت نفسه بأن ينقل قصة رويت له في اولبيا . وديموستين في مقطع شهير (حول التاج ٢٥٩) ، مع كل محاولته الاستهزاء بخصمه ، إيشان Eschine ، يكشف لنا ، في الواقع ، بعض الشعائر لصغار التيازس من (الباحيين des Bacchein) التي احتفل بها ؛ في أثينا ، في القرن الرابع ، المؤمنون بسابازيوس ، اله تراقي مماثل لديونيزوس . (القدامي اعتبروه من جهة اخرى مثل ديونيزوس تراقي تحت اسمه البلدي)^(١٧) . ويرجع ديموستين إلى الشعائر المتبعة من قراءة «الكتب» (من المرجح نص مكتوب محتويا هيروالوجيا hieroi lojai) ؛ وهو يتكلم عن «نبريزر nébriser» (تورية لجلد الغزال ، النبريد la nébride ، وربما كان يتعلق باضحية مع أكل اللحم نيئاً) وعن «كراتيريزر cratériser» (الحوض الذي كان يخلط فيه الخمر والماء ، و «الشقاء الصوفي») ، وعن «التطهير» (كازارموس Catharmos) ؛ موجباً بصورة خاصة فرك الملقن بالسر بالغضار والطحين . وأخيراً ، كان الكاهن يرفع الملقن مقرصاً أو ممدداً على الأرض ، وكان هذا يردد عبارة : «لقد نجوت من الشر ووجدت الخير» . وكانت

الجماعة تهتف مهللة en ololygé ، وفي الصباح كان يجري طواف المريدين ، متوجين بالشمرة وأغصان الحور الأبيض . وكان ايشين Eschine يمشي في المقدمة ، مرقصاً أفاعي وهاتفاً :

«يفوية evoé ، اسرار سابازيوس» وراقصاً على الهتافات هيس de Hyés آئيس Attès - اتيس - هيس . وقد أشار ديموستين أيضاً لسلة بشكل منسف الليكنون liknon «المنسف الصوفي» ، السرير البدائي لديونيزوس الصغير .

وتحت شكل أو آخر ، يوجد دوماً في وسط الشعيرة الديونوزيسية تجربة وجدية لهيجان عنيف إلى حد ما : المانيا ، وهذا الجنون كان يشكل بنوع ما وسيلة اثبات التآليه للمريد . إن التجربة ، بالتأكيد ، كانت غير قابلة للنسيان ، لأنه كان يشترك فيها المبادهة الابداعية والحرية المسكرة للقوة الفوق بشرية وللعصمة الديونوزية . والمشاركة مع الاله كانت تفجر لبعض الوقت ، الشرط البشري ، ولكنها لم تكن تصل أبداً إلى تغييره . لا يوجد اشارة للخلود في الباخيات les Bacéchantes ، ولها في عمل متأخر عن الديونيزيات لنونوس . وهذا يكفي لتمييز ديونيزوس عن زالموكسي ، الذي يقارن به وأحياناً يختلط به منذ رود Rohde ؛ لأن هذا الاله للجيتز des Gètes «خلد» الملقنين في اسراره . ولكن الاغريق لم يتجاسروا بعد لردم المسافة اللانهائية التي ، تفصل ، في نظرهم الألوهية عن الشرط البشري .

١٢٥ - عندما أعاد الاغريق اكتشاف حضور الاله .

إن الخاصية المسارية ، وسر الباخيات الخاصات تبدو مؤكدة [ر . سابقاً الباخيات ٧٠ - ٧١] ^(١٨) . رغم أن جزءاً على الأقل من الحفلات (مثلاً ، الطوافات) كانت عامة . ومن الصعب التحديد بدقة متى ، وفي أية ظروف ، قد علت الشعائر السرية والمسارات الديونيزيسية الوظيفة المميزة لديانات الاسرار .

إن بعض العلماء البارزين [نيلسون ، فيستوجير] يعارضون وجود سر ديونيزي ، بحجة فقدان مراجع دقيقة للأمل الأخروي . ولكننا ، وبخاصة في العصر القديم ، نعرف بشكل سيء جداً الشعائر السرية ، إن لم نقل شيئاً عن دلالتها الباطنية (التي أوجب لها أن توجد ، طالما ان الدلالات الباطنية للشعائر السرية والمسارية قد تأكدت في كل مكان في العالم ، على مختلف المستويات من الثقافة) .

وأضافة لذلك ، لا يجب تحديد مورفولوجيا الأمل الأخروي بعبارات أصبحت مألوفة بالأورفية أو الاسرار من العصر الهيلنستي . إن احتجاب وتجلي ديونيزوس ، وهبوطاته لمستقرات الأموات (قابلة للمقارنة بموت يتبعه صعود) ، وعلى الأخص عبادة ديونيزوس - الطفل^(١٩) ، مع الشعائر المجددة «اليقظة» - تاركين جانباً النغمة الاسطورية - الشعائرية لديونيزوس - زاغروس ، التي سنصر عليها في ما سيأتي - وكل هذا يشير للإرادة ، والأمل بتجدد روحي . إن الطفل الالهي ، في كل مكان من العالم ، مكلف برمزية مسارية كاشفة لسر «البعث» من نوع صوفي . (بالنسبة للتجربة الدينية ، غير مهم قليلاً أو كثيراً أن مثل هذه الرمزية هي مفهومة أو غير مفهومة عقلياً) . ويعاد التذكير بأن عبادة سابازيوس المتطابقة بديونيزوس ، سبق أن قدمت البنية لسر («لقد تخلصت من الشر») . بالتأكيد إن الباطنيات لم يتكلمن عن الخلود ، مع ذلك ، فإن المشاركة ، حتى ولو مؤقتة ، مع الاله لم تكن دون نتيجة بالنسبة لشرط الوجود التالي لباخوس . إن حضور ديونيزوس في اسرار ايلوزيس يترك مجالاً للشك في الدلالة الاخروية أقله لبعض التجارب التهتكية .

ولكن هذا بخاصة ، بدءاً من ديونيزوس - زاغروس الذي تتحقق خاصيته السرية للعبادة . إن اسطورة تقطيع الولد ديونيزوس - زاغروس معلومة لدينا خاصة عبر الكتاب المسيحيين ؟ وكما توجب الانتظار ، فقد مثله بصورة بشرية ، غير كامل وذو نية عدوانية . ولكن فعلاً لأنهم تحرروا من المنع عن ، الكلام بصراحة عن أشياء مقدسة وسرية ، فإن الكتاب المسيحيين أوصلوا إلينا العديد

من التفصيلات القيمة . فقد ارسلت هيرا التيتان ، الذين جذبوا الطفل ديونيزوس - زاغروس ببعض اللعب (خشخيشات ds hochets ، كريبونديا مرآة ، لعبة الكعاب ، كرة ، دوامة معين رومب) وذبحوه وقطعوه قطعاً صغيرة . وطبخوا القطع في قدر ، وتبعاً لرأي بعضهم ، اكلوه . وان الربة - اثينا ، ريا ، أوديمتير - أنقذت القلب ووضعتة في صندوق صغير . وعلم زوس بالجريمة فرجم التيتان بصواعقه . ولم يشر الكتاب المسيحيون إلى قيامة ديونيزوس ، ولكن هذا المشهد كان معروفاً من القدماء . إن الابيقوري فيلوديم المعاصر لشيشرون ، يتكلم عن الولادات الثلاثة لديونيزوس «الأول من أمه ، الثانية من الفخذ ، والثالثة ، عندما جمعت ريا الاعضاء بعد تقطيعه من قبل الثيتان ، وعاد للحياة» (٢١) .

ويستنتج فيرميكوس ماثرنوس مضيفاً ، إنه في كريت (حيث جعل تاريخه بشرياً) كانت تعاد ذكرى الاغتيال بشعائرسنوية، وكانت تردد ما فعله الطفل وما تحمله في فترة موته : «في عمق الغابات ، بصيحات غريبة يصدرونها ويظهرون الجنون من روح غاضبة ومحاولين الاعتقاد بأن الجرم قد ارتكب بسبب الجنون و «يمزقون باسنانهم ثوراً حياً» . إن النعمة الاسطورية - الشعائرية للعاطفة الهوجاء لقيامة الولد ديونيزوس - زاغروس قد افسحت المجال إلى معارضات لاحصرها ولا نهاية ، وبخاصة بسبب تفسيراتها «الأورفية» . ونكتفي هنا بالتأكيد على أن المعلومات المنقولة من قبل الكتاب المسيحيين تعزرت بوثائق أكثر قدماً . إن الاسم زاغروس قد ذكر لأول مرة في قصيدة ملحمة من عصر طيبي thebain القميينوس Alemeonis [القرن الرابع] (٢٢) : يعني (صياد كبير) ، الأمر الذي يناسب الصفة الوحشية والتهتكية لديونيزوس . أما بالنسبة لجرم التيتان ؛ فإن بوزانياس [٨ - ٣٧ ، ٥] نقل إلينا معلومات هي ، بالرغم من شكوك ويلامويز Wilamowiz وعلماء آخرين ، تبقى معلومات قيمة : أونوماكريت Onomacrite ، الذي عاش في آثينا في القرن السادس ، في عصر بيزيستراتيد Pisistratides ، كان قد كتب قصيدة حول هذا الموضوع : «آخذاً اسم التيتان من هومير ، أسس اورجيات des orgia لديونيزوس ، جاعلاً من التيتان الصانعين لآلام الآله» .

وحسب الاسطورة إن التيتان كانوا تقربوا من الطفل الالهي وهم متكرين برش الجص على أجسامهم لكي لا تمكن معرفتهم . وعليه ، فإنه في اسرار سابازيوس sabazios التي يحتفل بها في آثينا ، كانت إحدى الشعائر المسارية تتكون برش المرشحين بغبار الجص^(٢٣) . إن الواقعتين اقتربتا منذ زمن قديم (ز . نونوس ، ديونيزوس . ٢٧ - ٢٢٨) . إنه يتعلق بشعيرة قديمة من المسارة ، معروفة جداً في المجتمعات « البدائية » : فالمبتدئين في الرهينة يفركون وجوههم بالغبار أو الرماد ، بهدف التشبه بالاشباح ؛ وبعبارة أخرى ، انهم يتحملون موتاً شعائرياً . أما بالنسبة « للألعاب الصوفية » فقد كانت معروفة منذ زمن طويل ؛ وإن لفافة بابيروس تعود للقرن الثالث ق.م وجدت في الغيوم (غوروب) وهي لسوء الحظ مقطوعة ، وهي تذكر الدوامه والروجب ، والكعاب والمرأة [اوف . فر . ٣١] .

إن المشهد الأكثر مأساوية للاسطورة - بصورة خاصة واقعة انه ، بعد أن تم تقطيع الولد ، القى التيتان اجزاءه في حلة ، حيث جعلوها تغلى وبعدئذ شووها - كان معروفاً مع كل التفصيلات في القرن الرابع ، وأكثر من هذا ، إن هذه التفاصيل كان يعاد التذكير بها وبالعلاقاتها مع (الاحتفال بالاسرار)^(٢٤) . وقد ذكر جان مير Jean maire بما هو في محله ، إن الطهو في قدر أو المرور بالنار تشكلان طقوساً مسارية مكسبة للخلود [ر . مشهد ديمتر وديموفون] أو المادة الشباب (بنات ييلياس يمزقن اباهن ويطبخنه في قدر)^(٢٥) . يضاف إلى ذلك أن الشعيرتين - تقطيع وطبخ أو مرور بالنار - تميز المسارات الشامانية .

فيمكن التعرف اذن في « جريمة التيتان » على سيناريو مساري قديم قد نسي معناه الاصولي . لأن التيتان يسلكون مسلك معلمي المسارة ، أي الذين « يقتلون » المبتدي بهدف ان يجعلوه يولد ثانية حسب طريقة عليا من الوجود (وفي مثالنا ، يمكن القول انهم منحوا الألوهية والخلود للطفل ديونيزوس) ، غير أن التيتان ، في ديانة أعلنت السيادة المطلقة لزوس ، لم يستطيعوا ان يلعبوا سوى دور شيطاني - وقد صعقوا وحسب بعض روايات مختلفة ؛ أن البشر خلقوا من رمادهم - وهذه الاسطورة لعبت دوراً بارزاً في الأورفية .

ان الخاصية المسارية للشعائر الديونيزية تركت لنفسها التنبؤ في دلفي كذلك، عندما كانت النساء تحتفل بولادة الاله . لأن العربة الدلفية « كانت تحتوي ديونيزوساً مقطعاً وعلى اهبة معاودة الولادة ، زاغروساً » كما يشير الى ذلك بلوتارك [الزيد ٣٥] ، وهذا الديونيزوس الطبيي « الذي عاود الولادة كزاغروس كان في ذات الوقت الديونيزوس الطبيي ابن زوس وسيميليه (٢٦) .

ويبدو ان ديودور الصقلي قد رجع إلى الاسرار الديونوزية عندما كتب ان « أورفيه قد نقل في حفلات الاسرار تقطيع ديونيزوس » [٥ - ٧٥ - ٤] ، وفي مقطع آخر مثل اورفيه كمصلح للاسرار الديونيزوسية : « ولهذا فإن المسارات اللازمة لديونيزوس تدعى اورفية » [٣ - ٦٥ - ٨] . ان النص المنقول من قبل ديودور ثمين في المعيار- الذي يقر فيه بوجود الاسرار الديونيزية . ولكنه من الراجح انه سبق في القرن الخامس لهذه الاسرار ان استعارت بعض العناصر « الاورفية » ، وفي الواقع ، ان أورفيه كان عنئذ معلناً « نبي ديونيزوس » ومؤسس كل المسارات » [انظر الفصل ١٩ جزء ٢] .



ان ديونيزوس اكثر من كل الالهة الاغريقية الاخرى ، يهر بتعدد وحدائه تجلياته ، وبحقيقة تحولاته ، انه في حركة دائمة ، ويتدخل في أي مكان ، وفي كل البلدان ولدى كل الشعوب ، وفي كل الاوساط الدينية ، وجاهز للمشاركة في الألوهيات المختلفة وحتى المتناقضة (ديمتر رابولون) . انه بالتأكيد الاله الاغريقي الوحيد ، الذي بتكشفه تحت مظاهر شتى ، بهر وجذب ايضاً الفلاحين كما بهر وجذب النخب المثقفة ، والسياسين والمتأملين المهتمين والنسك . السكر ، الايروسية الخصب الشامل ، ولكن ايضاً التجارب التي لا يمكن نسيانها والمثارة بالوصول الدوري للموتى ، أو بالمانيا (الجنون) ، والانغماس في الاشعور الحيواني أو بالوجد من الحماس - كل هذه المرحبات والكشوفات تنبع من مصدر واحد : حضور الاله . ان طريقته في التكون تفسر الوحدة المتناقضة للحياة والموت . ولهذا فإن ديونيزوس يشكل نموذجاً من الألوهية مختلفاً جذرياً عن الأوليمبيين ، هل كان اكثر قرباً من البشر من بقية الآلهة الأخرى ؟ ؟ على كل

حال ، يمكن التقرب منه ، وثم التوصل لتجسيده ، وان نشوة المانيا كانت قد اظهرت ان الشرط البشري هو مما يمكن تجاوزه .

ان هذه الشعائر كانت قابلة لتطورات غير متوقعة . فالغلو في المدح dilhjambe ، والمأساة ، والدراما الهجائية ، هي بطريقة مباشرة ، قلت او كثرت ، ابداعات ديونوزيسية . ومن المثير للاهتمام اتباع تحول شعيرة جماعية ، الديتيرمابوس Le dithyrambos (المدائح المغالية) المدخلة لهيجان وجدي ، في استعراض وانتهاء في نوع ادبي ، ولو ان بعض الطقوس العامة اصبحت استعراضات ، من جهة ، وجعل من ديونيوس رب المسرح ، فإن شعائر اخرى ، سرية ومسارية ، قد تطورت لاسرار - اقله بشكل غير مباشر - اورفيه مدينة للتقاليد الديونوزيسية . ان هذا الاله الشاب اكثر من أي اوليمي آخر لن يتوقف عن غمر المؤمنين به بتجليات جديدة ، ورسالات غير متوقعة وبآمال اخروية .

حواشي الفصل الخامس عشر

- ١ - بندار - هيرودوت ٢ - ادريدس - عابدات باخوس ٩٤
- ٢ - الاليازة ١٤ - ٣٢٣ ، تسميها « امرأة من طيبة » وهزيود في الشاب الالهة ٦ - ١٢ ليسميها امرأة فانية .
- ٣ - ر. جان مير - ديونيزوس ص ٧٦ حول ليكورغ والمسارات المراهقية .
- ٤ - المقصود بقطع من بيلوس (١٠ - ٥ - ٢
- ٥ - وقد جرت محاولة لأن ميرى في ديونيزوس رباً للشجر والحبوب والعنب وقد فسرت الاسطورة عن تقطيعه وكأنها تضيء (العاطفة / المشبوبة . للحبوب او تحضير الخمر التي سبق للصور الاسطورية ان عرفتها من قبل ديودور III ص ٦٢
- ٦ - انظر النصوص والمراجع لدى اوتو ص ١٦٢
- ٧ - واقعة ان عيدين من هذه الأعياد تحملان اسماء الاشهر التي تناسبها - تثبت قدمها وصفتها الما قبل الهيلينية .
- ٨ - تلك هي عبقرية الطوافات لأسرار ايلوزيس التي تمثلت بديونيزوس
- ٩ - نذكر هنا انه يتعلق بسيناريو قديم جداً ومنتشر عالمياً ، واحد من اكثر الموارث اهمية عما قبل التاريخ الذي يتمتع ايضاً بمكان متميز في كل شكل من التمتع .
- ١٠ - انه يتعلق بقران آخر غير هذا ، على سبيل المثال ، لبعل بابل (رفيقه الهيروديل عندما كان يوجد الاله في المعبد) . او الكاهنة التي يجب عليها ان تنام في معبد (بولون ، لكي تتلقى مباشرة من الاله الحكم التي يجب عليها كشفها من قبل وسيط الوحي .
- ١١ - سوفوكل - تيس - (قصة ٢٣٢) والمصادر الاخرى التي ذكرها اوتولس ٩٨ - ٩٦
- ١٢ - تعرف التلة اخرى عن (الجنون) المثار من قبل ديونيزوس عندما لم يكن . قد اعترف به كإله . نساء ارغوس نبات minyle اللواتي مزقن والتهمن واحداً من أبنائهن .

- ١٣ - في القرن الخامس - كانت طيبة قد أصبحت مركز العبادة ، لأنه كان هنالك ، ان ديونيزوس قد حمل بهووجد قبر سيمبله والدته . مع ذلك لم ينس المقاومة للأوقات الأولى وأحد دروس البافيات كان بالتأكيد هذا : انه لا يسوغ طرح اله لأنه اعتبر كالجديد .
- ١٤ - تيريزيا - منعت مع ذلك الاله : (ديونيزوس لم يلزم النساء لأن يكن طاهرات ، فالطهارة ترتبط بصفة ، وتلك هي بالطبيعة طاهرة ومستاهم في التهنكات دون ان تعد .
- ١٥ - نذكر بأن الذي يفصل الشامان عن المريض نفسيا هو انه نجح بأن يشفي نفسه وينتهي لأن يتمتع بشخصية اكثر قوة واكثر ابداعية من بقية الجماعة .
- ١٦ - ان رود Rohde قد كان قارن اتساع الدين الوجدي لديونيزوس مع حميا الرقصات التشنجية في القرون الوسطى وان R. Einles قد لفت الانتباه على (Aimauna) التي تطبق أكل اللحم النيء الشعائري المسمى fraina من فعل farana (مزق) المشابه صوفياً بالحيوانات الكاسرة التي تحمل اسماء « بنات آوى والفهود والاسود والقطط والكلاب » والمريدون يمزقون ويقرون ويفترسون البقرات والذئاب والكلابش والنعاج والماعز . ان اكل اللحوم النيئة كان يتبع برقص هيجاني من الابتهاج « لكي تتمتع بوحشية من النشوة وتتصل مع الآلهة (n. Armel)
- ١٧ - حسب التفسيرات القديمة - ان العبارة سابوا كانت مماثلة في اللغة الفريجية والاغريقية لباخوس .
- ١٨ - يعاد التذكير انه اثناء عيد الانتيزيرمات كانت بعض الشعائر تنجز منفردة من قبل النساء في اضيق سر .
- ١٩ - ان عبادة ديونيزوس - طفلاً قد عرفت في موبوتو وكرت وانتهت بانتشارها في اليونان .
- ٢٠ - فيرميكوس مارتيزنوس والمراجع الاخرى ص ٣٨٣
- ٢٢ - اوريد ٤٧٢ عاليان - زاغروس اسم خاص لديونيزوس
- ٢٣ - ديموشين / ٢٥٩ / عندما ساهموا باعياد ديونيزية فإن الاريوس عظوا وجوههم بالخصى . وقد ذكرت العلاقات بين الجص والتيتان ولكن هذه العقدة الاسطورية الشعائرية قد وقعت بخلط العبارتين .
- ٢٤ - المسألة التابعة لاريسطو (ديدور اريسطو ٧٠ - ٣١ - ٩٣) ، المناقشة بعد سلمدن (ريناش . في القرن الثالث كان ايفوريون يعلم نصوصا مشابهة .
- ٢٥ - جان لير . . . أمثله أخرى .
- ٢٦ - ديلكورت ص ١٥٥ ، بلوتارك ، بعد ان تكلم عن تمزيق اوزيريس وقيامته ، يتوجه الى صديقة Clea رئيسة المينادات في دلفي . « ليكن اوزيريس هو ذاته ديونيزوس الذي يمكن معرفته احسن من التي وجهت التبادات اللواتي اسرهن من قبل والدك والدتك بالاسرار الاوزيرية » .

٢٧ - le diphrymbol « دورة معنية بمناسبة التضحية بضحية لانتاج النشوة الجماعية مع مساعدة الحركات الايقاعية والهاثافات والزعيق الطقوسية في العصر [٦ - ٧] حيث تطورت وعنت في العالم الاغريقي الغنائية الكورالية - واستطاعت ان تتطور بنوع ادبي بالاهمية المتنامية للاجزاء المغناة L' ex anehos الارخوني ، وبادخال مقطوعات غنائية على النغمات المعتمدة قليلاً او كثيراً في مناسبة وشخص ديونيزوس » [جان ميرص ٢٣٨]

فهرس موضوعات الجزء الأول

المقدمة

الفصل الأول :

من البداية ... تصرفات سحر - دينية لأهالي العصور الحجرية .

- ١ - ادوات لصنع الادوات .. استخدام النار ٢ - « كثافة » الوثائق العظام ٥ -
- التصوير على الحجارة : أصور أم رموز ؟ - الحضور النسوي - ٧ - شعائر افكار ونجيلات
- لدى الصيادين من العصور الحجرية .

الفصل الثاني :

اطول ثورة : اكتشاف الزراعة - العصر الحجري القديم والجديد .

- ٨ - فردوس مفقود ٩ - عمل ، تكنولوجيا وعالم خيالي ١٠ - تراث الصيادين من
- العصر الحجري الجديد ١١ - تأهيل النباتات الغذائية : اساطير الأصل ١٢ - المرأة والبنات .
- الفضاء المقدس والتجديد الدوري للعالم . ١٣ - ديانات العصور الحجرية الجديدة . في
- الشرق الأدنى ١٤ - البناء الروحي للعصر الحجري . ١٥ - نصوص دينية عن التعدين :
- ميتولوجيا عصر الحديد .

الفصل الثالث :

ديانات ما بين النهرين

١٦ - التاريخ يبدأ في سومر - ١٧ - الانسان امام الالهة ١٨ - اول اسطورة عن الطوفان
١٩ - النزول الى الجحيم : اينانا وديموزي ٢٠ - التركيب السومري الاكادي ٢١ - خلق
العالم . ٢٢ - قداسة الملك الميتروبولامي ٢٣ - جلقامش يبحث عن الخلود ٢٤ - مصير الالهة .

الفصل الرابع :

افكار دينية وازمات سياسية في مصر القديمة :

٢٥ - المعجزة التي لا تنسى : « المرة الأولى » . ٢٦ - الوهية وتشكونية ٢٧ - مسؤوليات اله
متجسد - ٢٨ - صعود الفرعون للسماء ٢٩ - اوزيريس الاله المقتول - ٣٠ - الاغناء - فوضى -
قنوط - ودقرطة حياة ما وراء القبر ٣١ - لاهوت وسياسة التشميس ، ٣٢ - اخناتون والاصلاح
المفقود - ٣٣ - التركيب النهائي - : اشتراك - ٣٤ - اوزيرس

الفصل الخامس -

ميغاليت ، معابد - مراكز احتفالية - الغرب - البحر المتوسط وادي الهندوس .

٣٤ - الحجرة والموزة ٣٥ - مراكز احتفالية واشارات ميغاليتية ٣٦ - لغز الميغاليت . ٣٧ - عراقة
وما قبل التاريخ . ٣٨ - المدن الأولى في الهند ٣٩ - مفاهيم دينية ما قبل تاريخية وموازياتها في
الهندوسية ٤٠ - كريت : مغاور مقدسة - مناهات ربات . ٤١ - ملامح مميزة للدين المينوني
٤٢ - استمرارية البنى الدينية الما قبل الهيلينية .

الفصل السادس .

ديانات الحثيين والكنعانيين

٤٣ - تكافل اناضولي وتوفيقية حثية ٤٤ - الاله الذي غاب ٤٥ - الانتصار على التنين . ٤٦ -
كوماربي والسيادة . ٤٧ - النزاعات بين اجيال الهية ٤٨ - مجمع آلهة كنعاني : اوغاريت ٤٩ -
بعل يرفع سيادته وانتصار تنين . ٥٠ - قصر بعل ٥١ - بعل يواجه موت : موت وعودة للحياة
٥٢ - رؤية دينية كنعانية .

الفصل السابع .

عندما كان اسرائيل طفلا

٥٣ - الفصلان الأولان من التكوين : ٥٤ - الفردوس المفقود : قابيل وقابيل - ٥٥ - قبل وبعد الطوفان ٥٦ - ديانات الآباء البطارقة ٥٧ - ابراهيم (ابو الايمان) ٥٨ - موسى والخروج من مصر . ٥٩ - أنا هو ٦٠ - الديانة في ظل القضاة . المظهر الأول للتوفيقية .

الفصل الثامن

ديانات الهندو اوربيين - الآلهة الفيديّة

٦١ - ما قبل تاريخ الهندو - اوروية ٦٢ - اول مجمع للآلهة والمفردات الدينية العامة ٦٣ - ايديولوجيا التثليث الهندو اوروية ٦٤ - الأرييه في الهند ٦٥ - قارونا ألوهة اولية - الديفاس والأزواراس ٦٦ - فارونا : ملك عالمي وساحر . رتاومايا ٦٧ - افاعي وآلهة . ميترا اريامان ، اديتي ٦٨ - اندرا ، بطل وخالق ٦٩ - آغني ، كاهن الآلهة - نار تضحية - نور - ذكاء . ٧٠ - الاله سوما وشراب الخلود . ٧١ الهان كبيرن في العصر القيدي رددرا شيقا وفيشنو

الفصل التاسع

الهند قبل غوتافا بوذا من التضحية الكونية الى الهوية العليا - اتمان - براهمان ٧٢ - موروفولوجيا الشعائر الفيديّة ٧٣٠٠ - الاضحيات العليا . ازفاميدها وبوروساميدها ٧٤ - بنية مسارية للشعائر : التكريس (ديكسا ، تنصيب الملك (راجازويا) ٧٥ - تشكونية وميتافيزيك ٧٦ - مبدأ الاضحية في البراهمان ٧٧ - اخروية . تمّاهي براجباتي بالاضحية . ٧٨ - التابا : تقنية وجدلية التنسكات ٧٩ - تنسكات ووحديات : موني - فراتيا ٨٠ : الاوبانيشادات والبحث عن الريسن . كيف الخلاص من ثمار التصرفات الخاصة ؟ ٨١ - الهوية اتمان براهمان وتجربة النور الداخلي ٨٢ - نموذج براهمان وسر الاتمان الاسير في الغادة .

الفصل العاشر :

زوس والديانة الاغريقية

٨٣ - نسب الآلهة ونزاعات الاجيال الالهية ٨٤ - انتصار وسيادة زوس . ٨٥ - اسطورة العروق الأولى بروميثه - باندورا ٨٦ - نتائج الاضحية الأولى ٨٧ - الانسان والغد - دلالة الفرخ في الحياة .

الفصل الحادي عشر : الأولمبيون والابطال

٨٨ - الاله الكبير الساقط والحداد الساحر : بوزيدون وهيفيتوس ٨٩ - ابولون : المتضادات المتوافقة ٩٠ - وسطاء الوحي والتطهر ٩١ - من التبصر الى المعرفة ٩٢ - هرمز (رفيق الانسان) ٩٣ - الربات ، ١ - هيرا ، ارغميس ٩٧ - الربات ١١ - اتينا ، افروديت ٩٥ - الابطال

الفصل الثاني عشر - اسرار ايلوزيس

٩٦ - الاسطورة : بيرسفونة في الجحيم ٩٧ - المسارات : حفلات عامة وشعائر سرية ٩٨ - هل يمكن معرفة الاسرار ؟ ٩٩ - اسرار وخفايا .

الفصل الثالث عشر ذرادشت والديانة الايرانية

١٠٠ - الالغاز ١٠١ - حياة زرادشت - تاريخ واسطورة ١٠٢ - اوجد شاماني ؟ ١٠٣ - كشف مزدا : الانسان حر باختيار - الخير والشر ١٠٤ - تحول العالم ١٠٥ - ديانة الاضحيتين ١٠٦ - الملك الايراني وعيد السنة الحديدية - ١٠٧ مسألة المجوس - السيت ١٠٨ مظاهر جديدة للمذوبة : عبادة الهاوما ١٠٩ - تمجيد الاله ميترا ١١٠ - اهورامزدا والتضحية الأخروية ١١١ - سفر الروح بعد الموت ١١٢ - قيامة الاجساد .

الفصل الرابع عشر ديانة اسرائيل في عصر الملوك والانبياء

١١٣ - الملكية : اوج التوفيق ١١٤ - يهوه والخالق ١١٥ - ايوب - المستقيم يوضع موضع التجربة . ١١٦ - زمن الانبياء . ١١٧ - قاموس الراعي ، الغير محبوب ١١٨ - اشعيا : (بعثة من اسرائيل ستعود .) ١١٩ - الود المعطى لارميا ١٢٠ - سقوط اورشليم . بعثه حزقيال ١٢١ - تقويم ديني للارهاب التاريخي .

الفصل الخامس عشر ديونيزوس والسعادة المستردة

- ١٢٢ - تجليات واحتجابات اله (مولود مرتين) ١٢٣ - قدم بعض الاعياد العامة
١٢٤ - اوريبوس والتهتك الديونوزي ١٢٥ - عندما اكتشف الاغريق حضور اله .

من البداية - تصرفات سردينية للأهلالي العصور الحجرية - أطول فترة - أكتاف الزراعة - العصر الحجري القديم
والحديث - ديانات ما قبل التاريخ - أفكار دينية وأزمات سياسية في مصر القديمة - ميثاقية - معابد مراكز
الاحتفالية - ديانات الخشيين والكشانيين - عند ما كان إسرائيل طفلاً - ديانات الهندو أوروبية - الآلهة الغريبة
الهند قبل بونزا - زوس وديانة الإغريقية - الأديمبوره والذبحال - اسرار البونزييس - زرادشت والديانة
الديانية - ديانة إسرائيل في عصر الملوك والديباء - دونيزوس والسعادة المستردة .

تاریخ المعتقدات والأفكار الدينية

تأليف
میر سیال بیاد

ترجمة
عبد الحمید عیوب

الجزء الثاني



علي مولا

دار العلوم

تاريخ
المعتقدات والأفكار الدينية

عنوان الكتاب بالفرنسية

HISTOIRE DES CROYANCES
ET DES IDEES RELIGIEUSES

MIRCEA ELIADE

تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية

الجزء الثاني

ترجمة
عبد الحميد عيسى
المحامي

تأليف
ميرزا إيليا

من غوثا ما بوذا حتى انتصار المسيحية

ديانات الصين القديمة - البراهمان والهندوسية - بوذا ومعا صروه - الديانة الرومانية - السلت - الجرمان -
أورفية - فيثاغورس - التركيب الهندوسي - مجاز باليهودية - الهلينية - تركيبات برانية - ولادة المسيحية
غروب الألهة - الخ



حقوق الطبع محفوظة

لدار دمشق

طبعة أولى

١٩٨٦ - ١٩٨٧

طبع في مطابع الشام

١٩٨٦/١٠/٣٠٠٠

دمشق - شارع بورسعيد - هاتف ٢١١٠٤٨ - ٢١١٠٢٢



مقدمة الجزء الثاني

ان ظروفاً غير متوقعة أخرت طباعة الجزء الثاني من تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية . وقد اغتنمت فرصة التأخير لاكمال عرض المراجع لبعض الفصول ذاكراً الأعمال التي ظهرت في ١٩٧٧ وحتى بداية ١٩٧٨ . ان المراجع هي بأطوال مختلفة وقد اهتمت بمضاعفة المعلومات المتعلقة بالمسائل المألوفة أقل بالنسبة لغير المتخصصين (. . ديانات ما قبل التاريخ للصينيين والسلت ، والجرمن والتراس ، والكيمياء ، والرؤويات الغنوصيات . . .) ولكي لا أضخم كثيراً ملحقات هذا الجزء ، نقلت الى الجزء المقبل الأقسام حول ديانات التبت ، واليابان وآسيا الوسطى والشمالية ، وبالتيجة ، أوجب تقسيم الجزء الثالث إلى مجلدين ، كل منهما بما يقارب ٣٥٠ صفحة ؛ الأول ، من فيض الاسلام ورواج التانترية إلى جواشيم دي فلور والحركات الألفية للقرنين ١٢ و ١٣ ، وثاني مجلد ، من اكتشاف ديانات الأميركية القديمة حتى اللاهوتيات اللاحادية المعاصرة .

وبالمناسبة اعاود الشكر لاصدقائي وزملائي والأساتذة بول ريكور واندريه لاكوك والسيد جان لوك بايو الذي ارادوا بصدق قراءة واعادة النظر بمختلف الفصول من هذا

الجزء الثاني . وهذه المرة أيضاً ، فإن الكتاب لم يكن يقيض له أن يصل إلى هنا لولا حضور وعطف وتضحية زوجتي .

م . الياد

جامعة شيكاغو ١٩٧٨

الفصل السادس عشر

ديانات الصين القديمة

١٢٦ - المعتقدات الدينية في العصر الحجري .

بالنسبة لمؤرخ الثقافة ، كما هو بالنسبة لمؤرخ الأديان ، تشكل الصين موضوعاً متميزاً للأبحاث . وفي الواقع ان اكثر الوثائق الحفرية قلما ترجع إلى الألف الرابعة والخامسة ، وعلى الأقل في بعض الحالات يمكن تتبع استمرارية مختلف ثقافات ما قبل التاريخ وحتى انه يمكن التحديد بدقة لمعطياتها في انشاء الحضارة الصينية الكلاسيكية . من جهة أخرى ، وكما أن الشعب الصيني يتألف من العديد من المركبات الإثنية ، فإن ثقافته تشكل تركيباً معقداً وأصولياً يمكن أن يكشف فيه اسهام مصادر متعددة .

إن الثقافة الحجرية الأولى (نيوليثيك) هي ثقافة يانغ - شاو yang-chao ، حسب اسم القرية ، التي وجدت فيها ، في عام ١٩٢١ آنية من غضار مرسومة . وان ثقافة

نيوليتية ثانية مميزة في فخاريات أسو ، اكتشفت في عام ١٩٢٨ بالقرب من لونغ - شاو . غير أنه بعد ١٩٥٠ فقط ، امكن تصنيف كل الأوجه والصور الجانبية لثقافات نيو- ليتية ، بفضل العديد من الحفريات المنجزة في السنوات الثلاثين الأخيرة . وبواسطة تحديد التاريخ بالاشعاع الفحمي radiocarbone فإن التسلسل التاريخي قد تغير جذرياً . ففي بان - باو pan-p'o (في مقاطعة (شنسي) اكتشف أقدم مستقر عائد لثقافة يانغ - شاو ، وإن تحديد تاريخه باشعاع الكربون يدل على ٤١١٥ أو ٤٣٦٥ ق.م . إن المستقر كان مشغولاً ، في الألف الخامسة خلال ٦٠٠ سنة . ولكن بان - بولا تحتل ابداً المحطة الأولى من ثقافة اليانغ - شو^(١) . وحسب رأي بينغ - تي - هو ، المؤلف لآخر تركيبة حول ما قبل التاريخ الصيني ، إن الزراعة الممارسة في الألف الرابعة كانت اكتشافاً محلياً ، تماماً مثل تدجين بعض الحيوانات ، ومثل السيراميك وتعدين البرونز^(٢) . وعليه ، وأيضاً منذ عهد قريب ، جرى تفسير تطور الثقافات النيوليتية والعصر البرونزي الصيني بانتشار الزراعة والتعدين انطلاقاً من واحد أو أكثر من مراكز الشرق القديم . ولا موجب لنا للتحزب في هذا التضاد . ويبدو مؤكداً أن بعض التقنيات قد اخترعت أو حولت جذرياً في الصين . ويرجح كذلك أن صين ما قبل التاريخ قد تلقت عدداً من العناصر الثقافية من أصل غربي انتشرت عبر سيبيريا وسهوب آسيا الوسطى .

إن الوثائق الحفرية قابلة لترشدنا حول بعض المعتقدات الدينية ، غير أنه سيكون من العبث الاستنتاج إن هذه المعتقدات تمثل كل النمط الديني لشعوب ما قبل التاريخ . إن الميتولوجيا واللاهوت ، والبنية ، والمورفولوجيا (علم الهيئة) للشعائر تسمح بصعوبة بحل رموزها على أساس الحفريات فقط ، وهكذا ، وعلى سبيل المثال ، فإن الوثائق الدينية المعدلة باكتشاف الثقافة النيوليتية ليانغ - شاو ترجع بالكامل تقريباً إلى الأفكار والمعتقدات ذات العلاقة بالفضاء المقدس ومع الخصب والموت . ففي القرى ، يقع البيت المشترك في وسط الساحة محاطاً بمساكن صغيرة مدفونة لنصفها . وتوجيه القرية ، كذلك بنية المسكن ، مع موقعه المركزي وثقب الدخان ، كل ذلك يدل على كوزمولوجيا موزعة بين كثير من المجتمعات النيوليتية التقليدية (١٢٠٥ع) . وإن الاعتقاد باستمرار حياة الروح موضحة بالأدوات والأطعمة الموضوعة في المقابر . وإن الاطفال كانوا يدفنون

بالقرب من المساكن ، في جرار كبيرة مزودة بفتحة في قممها ، لكي تسمح للروح بالخروج والعودة^(٣) . وبعبارة أخرى ، ان الجرة الجنائزية كانت «البيت» للميت ، وهي فكرة جرى التعبير عنها كثيراً في عبادة الأجداد في العصر البرونزي و«عصر شانج» .

إن الآنية من الغضار المدهون بالأحمر والمزخرف بالاشارة الجنائزية هي هامة بشكل خاص^(٤) . فهناك ثلاثة زخارف ايقونية - المثلث ورقعة الشطرنج والكوري Cauris (نقد صدفى) - توجد حصراً على الآنية ذات الاستعمال الجنائزي . وعليه فإن هذه الزخارف متضامنة برمزية معقدة ، مشركة المفاهيم الجنسية ، من ولادة وتجديد واعادة ولادة . ويمكن افتراض ان هذا التزيين يشير للأمل باستمرار الحياة وبعودة الولادة في العالم الآخر .

ان رسماً متضمناً سمكتين ووجهين مجسمين يمثل على الأرجح كائناً عما فوق الطبيعة أو (مختص بالمقدس) ، ساحراً أو كاهناً^(٥) . ولكن تفسيره مازال غير مؤكد . فالسمكتان لهما بالتأكيد معنى هو في آن واحد جنسي اذ يتعلق بالتقويم (فصل الصيد يتناسب مع فترة خاصة من الدورة السنوية) . وتوزيع الوجوه الأربعة يمكن ان يوحي بصورة كوزمولوجية حسب رأي بين - تي - هو (ص ٢٧٥٠) . ان مجتمعات عصر يانغ - شاو كانت تتبع القواعد المرتبطة بالانتساب لخط الأم ، وعلى العكس فإن الفترة التالية ، فترة لينغ - شاو تشير إلى الانتقال إلى مجتمع أبوي مميز بسيادة عبادة الأجداد . وحسب رأي باحثين آخرين يفسر هو Ho بعض موضوعات من الحجارة ورسومها على الأواني المدهونة كرموز قضيبية .

وكما فعل كارلجرين Karligen الذي اشتق الرمز تسو الذي يدل على الجدد ، من رسم لقضيب فإن هو HO يرى في تعدد الصولجانات القضيبية الأهمية المتحصلة من عبادة الأجداد^(٦) . وإن «موت الجدد» الذي رأيناه ، يتضمن بالتأكيد رمزية جنسية . غير أن كارل هنتز Carl Hentz يفسر مختلف الموضوعات والرسوم «القضيبية» وكأنها تمثل «بيتاً للروح» وبعض السيراميك من يانغ - شاو يمثل نماذج لأكواخ صغيرة - هي في ذات الوقت جرار جنائزية - قابلة للمقارنة بالقطع المماثلة لما قبل التاريخ الأوروبية وبأكواخ

المغول . إن هذه «البوتيات» للروح التي تأكدت بشكل واسع في ما قبل التاريخ الصيني ، تشكل الرائد «للوحة الاجداد» للعصور التاريخية .

وإجمالاً ، فإن ثقافات يانغ - شاو ويونغ - شاو تكشف المعتقدات المميزة لحضارات أخرى نيوليتية : التضامن بين الحياة ، الخصب ، الموت ، والوجود التالي ، التي أظهرها مفهوم الدورة الكونية بالتقويم والتي تحينت بالشعائر ، وإن أهمية الأجداد بصفتها كمصدر للقوة السحر - دينية ، وسر تزاوج الاضداد (المؤكدة كذلك «بموت الأجداد») ، عقيدة سبقت بنوع ما فكرة الوحدة/ الكلية للحياة الكونية ، التي ستكون الفكرة السائدة في العصور التالية . وبحسن ان يضاف الى ذلك ان قسماً كبيراً من التراث النيوليتكي قد احتفظ به ، مع التحويرات التي لأبد منها ، في التقاليد والتطبيقات الدينية في القرى .

١٢٧ - الديانة في عصر البرونز - اله السماء والأجداد .

لقد وصلت الينا معلومات افضل وبشكل ملموس منذ الاسرة الملكية للشانغ (١٧٥١ - ١٢٨) ق.م . وهي تتناسب الى حد كبير مع معلومات ما قبل التاريخ وبداية التاريخ القديم للصين . إن عصر الشانغ يميز بتعدين البرونز وظهور مراكز مدنية ومدن - عواصم وظهور اريستوقراطية عسكرية ، ومؤسسة الملكية وبدايات الكتابة . وفيما يتعلق بالحياة الدينية ، فإن الوثائق غزيرة ، فبدنيا يوجد صور ايقونية غنية ، موضحة بصورة خاصة على آنية جميلة جداً وشعائرية من البرونز. ومن جهة أخرى فإن القبور الملكية ترشد إلى بعض التطبيقات الدينية ، ولكن ما يشكل مصدراً ثميناً للغاية إنما هو ، بصورة خاصة ، النقوش الكهنوتية المحفورة على عظام حيوانات واصداف السلحفاة^(٨) . وأخيراً فإن بعض المصنفات المتأخرة (على سبيل المثال كتاب الاناشيد *(livre des odes)* المسماة من قبل كارل جرين (نصوص شو الحرة)^(٩) تشتمل على كثير من المواد القديمة . ومع ذلك تضيف بأن هذه المصادر ترشدنا على بعض المظاهر من ديانة شانغ فقط ، وفي المقام الأول على المعتقدات والطقوس لقبيلة ملكية ، وتتماً كما في العصر النيوليتي ، بقيت الميتولوجيا واللاهوت في الشطر الأكبر منها مجهولة .

ان تفسير الوثائق الايقونية غير مضمون دائماً . وقد اتفق على الاعتراف ببعض المشابهة مع الموضوعات المثبتة على السيراميك المرسوم ليانغ شو^(١٠) ، وزيادة على ذلك ، مع الرمزية الدينية للعصور المتأخرة . إن هينتز (ص ٩٥) يفسر اقتران الرموز القطبية كموضحة للأفكار الدينية ذات العلاقة مع اعادة تجديد الزمن والتجديد الروحي . كذلك فإن رمزية الزيز cigale وقناع شاو- تين ، هامة جداً ، وهي توحى بالولادات واعادة الولادات : النور والحياة المنبثقة من الظلمات ومن الموت . كذلك فإن مما هو مميز أيضاً ، اتحاد الصور المتعكسة (الأفعى ذات الريش ، الأفعى والنسر الخ) ، وبعبارة أخرى إن جدلية الأضداد واتحاد المتعارضات لازمة مركزية بالنسبة للفلاسفة والصوفيين التاويين . ويمثل الآنية من البرونز جرار- بيوت . وأشكالها تشتق إما من السيراميك وإما من نماذج مسبقة من الخشب^(١٢) . وإن للفن الرائع من رسوم الحيوانات المكتشفة على آنية من البرونز على الأرجح ، نموذج من الحفريات على الخشب^(١٣) .

وتكشف النقوش الكهنوتية لنا مفهوما دينياً غائباً (أولا يمكن ادراكه ؟) في وثائق النيوليتيك ، وبخاصة على سيادة اله أعلى سهاوي تي Ti (سيد) او شانج تي (السيد في الأعلى) . إن تي يأمر بالايقاعات الكونية والمظاهر الطبيعية (المطر ، الريح ، الجذب الخ) . انه يمنح النصر للملك ويضمن وفرة المحاصيل أو على العكس ، يثير الكوارث ويبعث الأمراض والموت ، ويقدم إليه نوعان من الأضاحي : في معبد الأجداد وفي البرية ، ولكنه ، كما يحصل لألهة سماوية أخرى قديمة (ف ١٤٠ ع) فإن عبادته تدل على تحدرها من الأولوية الدينية . ق يتجلى بعيداً وهو أقل فاعلية من أجداد السلالة الملكية ويقدم إليه تضحيات أقل . ولكنه هو الوحيد المدعو عندما يتعلق الأمر بالخصب (المطر ، والحرب ، الشاغلان الاساسيان للحاكم) .

على كل حال ، إن مركز تي يبقى عالياً . وكل الآلهة الأخرى كما أن كل الأجداد الملكييون تابعون له . وأجداد الملك وحدهم مؤهلون للشفاعة عند تي ، ومن جهة أخرى ، فإن الملك وحده يستطيع الاتصال مع أجداده ، لأن الملك هو «الرجل الوحيد»^(١٤) . والملك يدعم سلطته بمساعدة أجداده ، والاعتقاد بقدرتهم السحر- دينية تضفي السيادة لاسرة شانغ الملكية . إن الأجداد بدورهم يتطلبون تقدمات من الحبوب

والدم ولحم الاضحيات التي تقدم إليهم^(١٥) . ومن غير المجدي ، الافتراض ، كما يعتقد بعض العلماء انه ، طالما ان عبادة الأجداد كانت هامة بالنسبة للاستقراطية الحاكمة ، كانت تطبق تدريجياً من قبل كل الطبقات الاجتماعية . ان العبادة كانت آتخذ قد تجذرت بقوة ، وغدت شعبية جداً في العصر النيوليتي ، وكما رأينا فإنها كانت تشكل جزءاً لا يتجزأ من النموذج الديني «المصاغ حول مفهوم الدورة الشركونية (anthropocosmique) للمزارعين القدماء . إن تفوق ورفعة الملك ، كان يفترض تحلر جله من تي ، الذي أوصل وظيفته السياسية بهذه العبادة التي تعود لزمن لا يمكن تحديده .

الملك يقوم بسلسلة من الاضحيات : للأجداد وإلى تي وللآلهة الأخرى أحياناً ، والخنمة الطقوسية تمتد على ٣٠٠ إلى ٣٦٠ يوماً ، وإن كلمة «أضحية» تعين «السنة» لأن الدورة السنوية مدركة كمهمة تامة . وهذا يؤكد على الأهمية الدينية للتقويم ، الذي يضمن العودة الطبيعية للفصول . في المقابر الملكية الكبرى بالقرب من (آنيان) ، وجد إلى جانب الهياكل العظمية للحيوانات ، العديد من الضحايا البشرية ، المضحي بها ، على الأرجح ، كي ترافق الملك في العالم الآخر . إن اختيار الضحايا (الأصحاب ، والخلم ، والكلاب والخيول) يدل على الأهمية المعتبرة للصيد (صيد شعائري ؟) بالنسبة للاستقراطية العسكرية والعشيرة الملكية^(١٧) . إن عدداً من المسائل المحفوظة في النقوش الكهنوتية تحمل على فرصة وحفظ النجالات لغزوات الملك .

وكانت المقابر ، كالمساكن تماماً ، تتوازع ذات الرمزية الكونية وتملاً ذات الوظيفة : كانت منازل للأموات . وإن معتقداً مماثلاً يمكن أن يفسر الأضحية البشرية . بدءاً من بانيان الانشاءات ، وبخاصة المعابد والقصور . فأرواح الضحايا كانت تضمن طهارة البناء ، ويمكن القول بأن الأثر الذي كان يرفع ، كان يخلم (جسداً جديداً) لروح الضحية^(١٨) .

غير أن الاضحيات البشرية كانت طبقت كذلك في أهداف أخرى ، لم ترد معلومات كافية عنها ، ويمكن الافتراض بأنه كان يقصد بها تجديد الزمن أو إعادة تجديد الأسرة الملكية .

رغم النواقص الكبيرة يمكن فك رموز السطور الكبرى للدين في عصر شانج .
فأهمية اله سايوي وعبادة الأجداد ليس موضع شك . وعقدة النموذج التضخمي
(المتضامن مع تقويم ديني) وتقنيات تنبؤية يفترض وجود طبقة من (المتخصصين
بالمقدسات) متنبئين ، كهنة أو شامانات . وأخيراً فإن الايقونات تكشف لنا تركيبات
رمزية هي كونية وكهنوتية في آن واحد ، وهي مازالت غير واضحة ، ولكنها تبدو مقدمة
للمفاهيم الدينية الرئيسية في الصين الكلاسيكية .

١٢٨ - الأسرة المثالية : التشو .

في سنة ١٠٢٨ ق.م غلب آخر ملك شانج من قبل دوق تشيو Tcheou ، وفي
اعلان شهير^(١٩) ، أثبت هذا تمرد ضد الملك بالأمر الذي كان تلقاه من رب سايوي لأن
ينهي حكماً فاسداً مكروهاً . وهذا هو أول اعلان للنظرية الشهيرة (وكالة السماء) .
وأصبح الدوق المتصر ملكاً للتشيو ، وأقام أطول اسرة ملكية في تاريخ الصين
(١٠٢٨ - ٢٥٦ ق.م) . ويكفي هنا التذكير بأنه في القرن الثامن وحتى الثالث قبل
المسيح ورغم الحروب وعدم الأمان العام ، تفتحت الحضارة الصينية التقليدية ووصل
الفكر الفلسفي إلى أوجه^(٢١) .

في بداية الأسرة الحاكمة ، تجلّى بلامح إله انساني الشكل وشخصي ، الاله
الساويو تين t'ien (سما) أو شانج تي (السيد في العلى) . إنه يقيم في الدب الأكبر
grande ourse في كبد السماء . وتبرز النصوص بنيته السايوية : يرى ، يراقب ويسمع
كل شيء ، إنه بصير ، وكلّي المعرفة ، وقراره لا راد له . تين ، وشانج تي مطلوبان في
المواثيق وفي العقود . وبعد زمن طويل كرم كونفوشيوس وفلاسفة اخرون من
الأخلاقيين واللاهوتيين من كافة المدارس كلية العلم وكلية الرؤية للسماء . ولكن
اله السماء بالنسبة للاهوتيين يفقد تبعاً طبيعته الدينية ، ليصبح المبدأ للنظام
الكوني الحافظ للقانون الأخلاقي . وهذه العملية من التجريد والتجذير لاله
أعلي أمر شائع في تاريخ الأديان (ر . براهمان - زوس - اله الفلاسفة في العصر
الهلنستي - في ايهود المسيحية - الاسلام) .

غير أن السماء (تتين) يبقى الحامي للأسرة الحاكمة . فالملك هو ابن (تتين) ووصي على عرش شانج - تي^(٢٢) ولأجل هذا ، فالملك وحده هو المكلف بتقديم الأضاحي له ، من حيث المبدأ . انه مسؤول عن الانتشار المألوف للايقاعات الكونية وفي حالة الكارثة - جفاف - طوفان - خوارق - نكبات . فإن الملك يخضع لطقوس تكفيرية . لأن كل اله سماوي يحكم (الفصول) ، وتبين له كذلك دور في العبادات الزراعية . كذلك ، على الملك ان يحضر خلال الفترات الأساسية من الدورة الزراعية (١٣٠٠ ع) .

إن عبادة الأجداد تحدد في شطر كبير منها التركيبات الموضوعية في عصر الشانج . (ولكننا لم نتلق معلومات سوى عن الشعائر المطبقة من قبل الارستقراطية) . ان الجرة - البيت قد ابدلت برف ، كان يضعه الابن في معبد الأجداد . وان احتفالات معقدة كانت تحصل اربع مرات في السنة ، وكان يجري تقديم اللحوم المطبوخة ، والحبوب ، والمشروبات وكان يتضرع لروح الأجداد . وهذه كانت مشخصة بعضو من العائلة ، حسب العادة واحد من احفاد الميت ، الذي كان يقاسم التقدّمات . ان احتفالات مشابهة شائعة كثيرة في آسيا وأمكنة أخرى ، وان شعيرة تبرز النائب عن الميت كانت على ماهو راجح مطبقة في عصور الشانج ، إن لم يكن في ما قبل التاريخ .

وللآلهة المحليين وعبادتها ، تاريخ طويل لم تردنا الايضاحات الكافية عنه ، فمعلوم ، انه قبل ان تمثل الأرض كام ، كانت معتبرة كقوة خلاقية كونية خشي أو ثنائية الجنس^(٢٤) . وحسب رأي مارسيل غرانيه marcel Granet ، إن صورة الأرض - للأم تظهر بدنياً (تحت مظهر حيادي لمكان مقدس) . وبعد مدة قصيرة (أدركت الأرض مستخلعة تحت ملامح قوة أمومية وارضاعية)^(٢٥) . في العصور القديمة ، كانت الأموات تدفن في الحظيرة الأهلية حيث كانت تحفظ البنور هنالك ، وعليه فإن حارسه البنور بقيت المرأة ، لزمن طويل . «ففي زمن التشيو ، لم تكن الحبوب المعينة لبنورها في الحقل الملكي تحفظ ابداً في غرفة ابن السماء ، وإنما في جناح الملكة» . وبعد وقت متأخر ، ومع ظهور العائلة الأبوية والسلطة الملكية فقط ، أصبح التراب الها . وفي عصر التشيو كان يوجد العديد من آلهة التراب Sol ، منظمة تراتبياً : آلهة تراب عائلية ، إله

القرية ، آلهة التراب الملكي والأمراء . وكان المذبح مكشوفاً ولكنه كان يتضمن رفاً من حجر وشجرة - بقايا عبادات أصلية مكرسة للأرض بصفاتها قوة كونية . ان عبادات الفلاحين ، المتمفصلة حول أزمت فصولية ، تمثل على الأرجح الأشكال الأولى لهذا الدين الكوني ، لأن الأرض كما سنرى (ف ١٣٠) لم تكن مدركة فقط كمصدر للخصب الزراعي بل قوة متممة للسماء ، وكانت تتكشف كجزء لا يتجزأ من الكلية الكونية .

ويقضي ان نضيف ان البنى الدينية التي ذكرناها لا تستغنى عن عصر التشيو (مواد من حفريات أثرية ، وبخاصة عدد كبير من النصوص) . وسنكمل الاطروحة بتقديم بعض الأساطير التشكونية والأفكار الميتافيزيكية الأساسية . ولنذكر هنا انه منذ فترة غير بعيدة اتفق الباحثون على إبراز العقدة الثقافية والدينية للصين القديمة ، وكما هي الحال في العديد من قوميات أخرى ، فإن الإثنية الصينية لم تكن متجانسة . وإضافة لذلك ، فلا لغة الصين ولا ثقافتها ولا دينها لم تشكل ، في البدء ، نماذج موحدة . وقد أوضح ويلفرايم إيرهارد Wolfram Eberhard اسهام عناصر إثنية متعلقة بوسط خارجي - تهاى ، تونغوز - شركو - موغول - تيبتي الخ . . . في التركيب الصيني^(٢٦) . وبالنسبة لمؤرخ الأديان ، فإن هذه الاسهامات ثمينة جداً : إنها تساعده ، مع غيرها ، لفهم الأثر الحاسم للشامانية الشمالية على الدين الصيني ، و«الأصل» لبعض التطبيقات التاوية .

لقد كان المؤرخون الصينيون الرسميون معنيين بالمسافة التي كانت تفصل ثقافتهم التقليدية عن معتقدات وتطبيقات البرابرة ، وعلى ذلك ، يصادف لمرات كثيرة بين هؤلاء البرابرة إثنيات تم تمثيلها كلياً أو جزئياً وانتهت ثقافتها لتكون جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الصينية . ولنذكر مثلاً وحيداً . التشو . فقد سبق لمملكته أن اقيمت حوالي ١١٠٠ ق.م ومع ذلك فإن هؤلاء التشو ، الذين تمثلوا ثقافة الشانغ كانوا من أصل منغولي وكانت ديانتهم مميزة بالشامانية وبتقنيات النشوة^(٢٧) . ان توحيد الصين تحت سلطة الهان وان كان قد حرص على تخريب ثقافة التشو فإنه سهل نشر معتقداتهم وممارساتهم الدينية عبر كل الصين . ومن الراجح أن عدداً من اساطيرهم المتعلقة بالعلوم الكونية وممارساتهم

الدينية قد تم تبنيها من قبل الثقافة الصينية ، أما بالنسبة لتقنياتهم الوجدية فهي توجد في بعض الأوساط التأوية .

١٢٩ اساس وتدبير العالم .

إن أية اسطورة متعلقة بنشأة الكون *strictosensu* لم يحافظ عليها . ولكنه يمكن كشف الآلهة الخالقة المتجسدة بالبشر والمتحولة للعنصر ، في التقليد التاريخي الرسمي وفي العديد من الأساطير الصينية . وهكذا يروى أن يان - كو متجسد بانسان أولي ، وقد ولد «في زمن حيث كانت السماء والأرض عماء مشابهة لبيضة» وعندما مات يان - كو «أصبح رأسه قمة جبل مقدس واصبحت عيناه الشمس والقمر وشحمه الانهار والبحار ، وشعره واهدا به الأشجار والنباتات الأخرى»^(٢٨)

ويعرف الأساس في هذه الاسطورة والذي يفسر الخلق بتضحية كائن أولي : تيامت (٢١٥) بوروشا (ب٧٥/) ، ايمير (ف١٧٣) . وثمة اشارة من شو كينج تثبت ان الصينيين القدامى كانوا يعرفون مسألة تشكونية اخرى ، مؤكدة لدى شعوب متعددة وعلى مستويات مختلفة من الثقافة : «الرب العظيم l'auguste seigneur هوانج - تي كلف تشاونغ - لي بتحطيم الاتصال بين الأرض والسماء وذلك بغاية ان توقفا هبوطات الآلهة»^(٢٩) . إن التفسير الصيني للأسطورة - بصورة خاصة الآلهة والأرواح التي كانت تنزل على الأرض لمضايقة البشر - هو تفسير ثانوي ، وإن اكثرية النصوص المتنوعة تمجد ، على العكس من ذلك ، الصفة الفردوسية للعصر الأولي ، عندما كانت المسافة القصوى بين الأرض والسماء تسمح للآلهة بالتنزل والاختلاط مع البشر ، وللبشر أن يصعدوا للسماء بتسلقهم جبلاً أو شجرة أو سلماً ، أو أيضاً بتركهم يحملون من قبل الطيور ، وعلى أثر حدث اسطوري (غلطة شعائرية) انشقت السماء بعنف عن الأرض ، فقطعت الشجرة ، وتسطح الجبل الذي كان يلامس السماء . مع ذلك فإن بعض الكائنات المتمتعة بامتيازات - شامانيون - صوفيون ابطال - اسيلاد - قادرون للارتقاء بنشوة إلى السماء معيدين هكذا الاتصال المتقطع^(٣٠) . ويوجد على طول التاريخ الصيني

ما يمكن أن يسمى بالحنين إلى الفردوس أي الرغبة بالعودة بواسطة الوجد إلى «حالة بدئية» : وهي الحالة المعاد تمثيلها بالوحلة/ الكلية ، الأصولية (هوين - ثوي) أو الزمن الذي يمكن فيه ملاقة الآلهة مباشرة .

وأخيراً وفي اسطورة ثالثة ، هنالك مسألة زوج أخ - أخت ، فوهي ونيوكوا ، كائنات بجسم تماسيح ، غالباً ما يمثلان في الايقونات. متشابكين بذنبيهما . وبعد حصول طوفان «أصلحت نيوكوا السماء الزرقاء بحجارة من خمسة ألوان ، وقطعت مقام سلحفاة كبيرة لتنصب اربعة اعمدة في الأقطاب الأربعة ، فقتلت التنين الأسود كونغ - كونغ لتنقذ العالم ، وجمعت رماد القصب لتوقف المياه الطامية^(٣١) . وهنالك نص آخر يقرر أنه بعد خلق السماء والأرض قولبت نيو - كوا البشر ومن طين أصفر صنعت (النبلاء) ومن الوحل (الناس الفقراء والتعساء)^(٣٢) .

ويمكن كذلك حل رموز النغمة التشكونية في التقليد المعطى طابعاً تاريخياً ليو الكبير *yu le grand* . ففي حكم الامبراطور الاسطوري ياو «لم يكن العالم بعد قد انتظم ، فالمياه الغزيرة كانت تسيل بطريقة غير منظمة وتغرق العالم» . وعلى العكس من والده الذي كان قد صنع سدوداً لتطويع المياه ، فإن يو «حفر الأرض وجعل المياه تسيل صوب البحار ، وطرده الافاعي والحيتان ودفعها إلى المستنقعات»^(٣٣) . وكل هذه البواعث - الأرض المغمورة بالماء ، وتكاثر الافاعي والحيتان - لها بنية تشكونية : يو يقوم بدور خالق وبطل محضّر . وبالنسبة للمتعلمين الصينيين ، ان تدبير الكون وبناء المؤسسات البشرية يعادل علم الكون . وإن العالم قد «خلق» عندما استقر الرب في الوسط واكمل تنظيم المجتمع ، بعد ترحيل قوى الشر إلى الأفق الاربعة .

ولكن مشكلة الأصل وانشاء العالم كان أشغل لا وتسو والتاوين الأمر الذي يقتضي قدم التأملات التشكونية . وفي الواقع ان لاوتسو وزملاءه اقتبسوا من التقاليد الميتولوجية القديمة ، وواقعة أن الجوهر من المفردات التاوية هوين توين ، واليانغ واليين ، والتاو - هي موزعة بين المدارس الأخرى ، وثبتت خاصيتها القديمة ومما قبل الصينية . وعليه ، وكما سنرى فإن أصل العالم حسب لاوتسو يأخذ في لغة ماوراء الطبيعة ، النغمة القديمة التشكونية للعلماء (هوين توين) المشابه من حيث مجموعه للبيضة^(٣٤) .

وفىما يتعلق ببنية وإيقاعات الكون ، يوجد وحدة تامة واستمرارية بين مختلف المفاهيم الرئيسية منذ الشانج حتى ثورة ١٩١١ . ان الصورة التقليدية للعالم هي صورة المركز المجتاز بقطب عمودي سمت - نظير Zenith- Nadir ومحاط بالجهات الأربع . والسماء دائرية (لها شكل بيضة ، والأرض مربعة ، والسماء تغطي الأرض كقبة . وعندما مثلت الأرض كصندوق مربع لعربة ، فإن عموداً مركزياً يسند القبة ، المدورة كالسماء . ولكل واحد من الأعداد الخمسة الكوزمولوجية - أربع اتجاهات ومركز - تناسب لونا ، وطعما ، وصوتا ورمزا خاصا . والصين تقع في مركز العالم ، والعاصمة توجد في وسط المملكة والقصر الملكي في وسط العاصمة .

ان تمثيل العاصمة ، واجمالاً ، كل مدينة بصفقتها (مركزا للعالم) لا يختلف مطلقاً عن المفاهيم التقليدية المتأصلة في الشرق الأدنى القديم ، والهند القديمة وفي ايران الخ^(٣٥) ويعبارة أخرى ، إن المدينة هي بامتياز (مركز للعالم) ، لأنها تجعل ممكنا الاتصال مع السماء والأقاليم تحت الأرض .

إن العاصمة الكاملة يجب لها أن تقع في مركز العالم ، هنالك حيث ترتفع شجرة عجائبية تسمى (الخشب المستصب) ، وهي توصل الأقاليم السفلى لأعلى سماء ، وعند الظهيرة لاشيء ، مما يقف مستقيماً ، بالقرب منها ، لا يستطيع اعطاء ظل^(٣٧) .

حسب التقليد ، يجب لكل عاصمة ان تحوز قصراً طقوسياً هو في ذات الوقت صورة كونية وتقوياً - وإن القصر الطقوسي (المينغ ثان) مبني على قاعدة مربعة (= الأرض) ومغطى بسقف من قش دائري (= السماء) . في كل سنة يلعب الملك تحت هذا السقف ، متخذاً مكانة من الجهة المطلوبة بالتقويم ، ويحتفل على التوالي بالفصول والشهور . إن الوان ثيابه والأطعمة التي يتناولها ، والحركات التي يقوم بها ، هي بتناسق تام مع مختلف فترات الدورة السنوية . وبنهاية الشهر الثالث من الصيف يستقر الملك في وسط (المينغ تان) كما لو أنه كان محور السنة^(٣٨) . والملك تماماً كالرموز الأخرى المركز الكون ، (الشجرة ، الجبل المقدس ، البرج ذو الطوابق التسعة الخ) يجسد بنوع ما قطب الكون l'aximundi ويحقق الصلة بين الأرض والسماء . إن الرمزية الفضائية الزمنية (لمراكز العالم) متشرة جداً ، وقد تأكلت في العديد من الثقافات القديمة كما هو أيضاً في

العديد من الحضارات المدنية^(٣٩). ويضاف إلى ذلك ، ان اكثر البيوت البدائية المتواضعة في الصين هي تماماً كالعاصمة أو القصر الملكي ، متمتعة بذات الرمز الكوني ، وتشكل في الواقع صورة كونية^(٤٠) .

١٣٠ - تناقضات ، تناوب ، واسترجاع منصب .

كما لاحظنا سابقاً ، إن الاعداد الخمسة الكوزمولوجية - الأفق الأربع والمركز - تشكل النموذج المثالي لتصنيف ولتشابه شامل في ذات الحين . فكل ما يوجد يتمي إلى صنف أو فئة محددة جداً وبالنسبة يتقاسم الصفات والفضائل الخاصة للحقائق المتجمعة في هذا الصنف . وعلى هذا فنحن اذن في معرض انبثاق جريء لنموذج من الموافقات بين الأكبر والأصغر macrocosme.microcosme أي النظريات العامة للمتشابهات التي لعبت دوراً بارزاً في كل الديانات التقليدية . إن أصولية الفكر الصيني توجد في واقعة أنه ادخل هذا المخطط للأكبر والأصغر في نموذج متسعاً جداً للتصنيف ، وبصورة خاصة لدورة المبادئ المتضادة ، وإنما المتكاملة ، والمعروفة تحت اسم اليانغ والين yang et yin . وان النماذج الجنورية المفصلية بدءاً من مختلف الأنواع للانشطار الثنائي أو التعددي ، ومن الازدواجية أو التناوب ، ومن ازدواج متضادة ، ومن توافق المتضادات ، تصادف في كل مكان من العالم ، وعلى كل المستويات من الثقافة^(٤١) . وتأتي أهمية الزوجين من الأضداد يانغ ويين من واقعة ، انها لم تخدم نظاماً للتصنيف الشامل فحسب ، ولكن من كونها اضافة إلى ذلك ، قد تطورت في علم كوني (كوزمولوجيا) ومنهج وصحت عدداً كبيراً من تقنيات الجسد ونظامات الروح من جهة ، وحثت على التأملات الفلسفية الأكثر فالأكثر دقة ومنهجية ، من جهة أخرى .

إن رمزية التناقض والتناوب ، كما رأينا (و ١٢٧ ع) قد اشتهرت كثيراً في الرسم الايقوني من البرونز لعصر شانغ . وان الرموز المتناقضة مجهزة بطريقة ليستخرج منها ما تتصل به ، على سبيل المثال ، إن البومة ، أو وجهاً آخر مرزماً للظلمات ملائمة لعيون شمسية ، في حين ان رموزاً أو شعارات من النور تكون معلمة بأشارة

«ليليلية»^(٤٢) . وحسب كارل هينتز فإن الرمز يانغ - ين قد تأكد بالأشياء الطقوسية الأكثر قدماً ولزمن طويل قبل النصوص الأولى المكتوبة^(٤٣) .

ويذكر مارسيل غرانيه marcel Granet ان كلمة ين في الشئ، كينغ تستدعي الفكرة لزمن بارد ومغطى ، وتطبق على ماهو داخلي في حين ان العبارة يانغ تومي بفكرة الشمس والحرارة، وعبارة أخرى ان يانغ وين يدلان على مظهرين محسوسين ومتضادين للزمن^(٤٤) . وفي موجز عن نبوءة يُحكى عن «زمن من نور» وعنى «زمن من ظلام» ومقدمة الأمثال الماثورة لتشو انغ تسو : «زمن امتلاء ، زمن تداعي زمن نقاء ، زمن تهدئة ، زمن حياة ، زمن موت [ر. غرانيه الفكر الصيني ص ١٣٢] . فالعالم يمثل اذن «كلية نظام دوري (تاو بين تونغ) مشكّل بتزاوج مظهرين متناوبين ومتكاملين» [ذات المرجع ص ١٢٧] . ففكرة التناوب تبدو محمولة على فكرة التعارض . وهذا ما تظهره بنية التقويم . وحسب رأي الفلاسفة ، في اثناء الشتاء : «اليانغ المخلوع بالين ، يتحمل ، في عمق الينابيع التحت الأرض ، تحت الأرض المتجمدة ، نوعاً من تجربة سنوية يخرج منها متعشاً ، وانه يهرب من سجنه في بداية الربيع ضارباً الأرض بكعبه : وانه عندئذ ينشق الجليد من ذاته وتستيقظ الينابيع» (ذات المرجع ص ١٣٥) ان الكون يتكشف اذن بأنه مكون بسلسلة من الأشكال المتضادة والمتناوبة بطريقة دورية .

ويوجد تناظر تام بين الايقاعات الكونية المحكومة بتفاعل اليانغ والين ، والتناوب المتكامل لنشاطات الجنسين . وبما أنه اعترف بطبيعة نسوية لكل ماهو «ين» وطبيعة ذكورية لكل ماهو «يانغ» فإن ايقاع الزواج hierogamie يكشف بعداً كونياً بأكثر مما هو ديني . إن التعارض الطقوسي بين الجنسين يفصح في الواقع في آن واحد عن التضاد المتكامل للصيغتين من حياة ولتناوب مبدئين كونيين ، اليانغ والين . ففي الأعياد الجماعية للربيع والخريف ، التي تشكل مفتاح القبة للعبادات الفلاحية القديمة ، تثار الجوقتان المتضادتان والمتقابلتان وجها لوجه ، بالشعر . «اليانغ يدعو ، الين يجيب ، الأولاد يدعون ، البنات تجيب» . وهاتان الصيغتان قابلتان للتداول ، وهما تدلان على الايقاع الكوني والاجتماعي معاً^(٤٥) . إن الجوقات المتضادة تتقابل كالظل والضوء . والحقل الذي يتم فيه التجمع يمثل كلية الفضاء ، تماماً كما يرمز الحضور

كلية جماعة بشرية وأشياء من الطبيعة [غرائية ص ١٤٣٠] . وفي زواج مختلط hiérogamie جماعي كانت تتوج الأفراح ، وهذا الطقس كان منتشرًا في كل العالم . وإن التناقض المقبول كقاعدة للحياة خلال ما تبقى من العام ، زال أو تصاعد ، في القران بين الأضداد .

«مظهر» بين ، «مظهر» يانغ ، هنا ، هو التاو ، كما كتب في رسالة صغيرة^(٤٦) . فالتحول المستمر للعالم بتناوب اليانغ والين ، يبرز كما يقال ، المظهر الخارجي للتاو Tao ولكنه ما أن نحاول تفهم البيئة الإنطولوجية للتاو ، حتى نصدم بصعوبات لا حصر لها . ولتذكر ان المعنى الأصلي للكلمة هو (طريق = ممر) كما يقال ، ومن هنا فإن معنى المذهب تاو «يثير قبل كل شيء الصورة لطريق يتبع» و «الفكرة لاتجاه سلوك ، ولقاعدة اخلاق» ولكن ايضاً «الفن بوضع السماء والأرض على اتصال ، والقوى المقدسة والبشر» ، والقوة السحرية والدينية للكهان ، وللساحر وللملك^(٤٧) . بالنسبة للفكر الفلسفي والديني الشائع ، إن التاو هو مبدأ النظام المنبثق في كل ميادين الواقع ، وهكذا يجري الكلام عن تاو سماوي وتاو أرضي (اللذان يتعارضان قليلاً كاليانغ والين) وتاو الانسان (أي مبادئ السلوك التي ، في حالة الملك ، تجعل وظيفته ممكنة ، كوسيط بين السماء والأرض) .

ان بعض هذه الدلالات تنفرع من المعنى القديم للوحدة/ الكلية الأصولية ، ويعبارة أخرى ، من معنى نشكوني . وإن تأملات لاوتسو حول أصل العالم مرتبطة بأسطورة نشكونية تحكي قصة الخلق بدءاً من كلية يمكن مقارنتها ببيضة . وفي الفصل ٤٢ من تاو- تو- كينغ قال : «التاو ولد واحداً ، الواحد ولد اثنين ، الاثنين ولد الثلاثة ، الثلاثة ولدت عشرة آلاف كائن - العشرة آلاف كائن حملوا الين على عاتقهم واحتضنوا اليانغ»^(٤٨) . ويبدو في أي معنى ، استعمل لاوتسو اسطورة تشكونية تقليدية مضيقاً إليها بعداً ميتافيزيكياً جديداً . «الواحد هو المكافئ للكل» . انه يرجع للكلية البدئية ، وهو المذهب المؤلف في العديد من الميتولوجيات . ويوضح التفسير ان اتحاد السماء والأرض (أي «اثنان») أولد كل مايوجد ، حسب سيناريو ميتولوجي معروف كذلك جيداً . ولكن بالنسبة للاوتسو «واحد» ، الوحدة الكلية البدئية ، تمثل فيما سلف مرحلة من «الخلق» ، لأنها تولدت بمبدأ غامض ولا يمكن ادراكه ، التاو .

وفي فقرة تشكونية أخرى (فصل ٢٥) ، يشار إلى التاو وكأنه «كائن حيادي وكامل ، ولد قبل السماء والأرض . . ويمكن اعتباره كالأم للعالم . . ولكنني أجهل اسمه ، إنني اسميه تاو وإذا أوجب اعطائه اسما فإنه سيكون : اللانهاية (تا)»^(٥٠) الكائن الحيادي والكامل» . وهذه الفقرة قد فسرت في القرن الثاني ق.م من قبل أحد المفسرين وكأنه : «الوحدة الخفية للسماء والأرض التي تشكل ، بطريقة عمائية (هوين - توين) الشرط لكتلة من الصخر الغير مصنع»^(٥١) . فالتاو هو اذن كلية بدئية ، حية وخالقة ، ولكن دون شكل ودون اسم . «الذي هو بدون اسم هو أصل السماء والأرض . والذي له اسم هو أم عشرة آلاف كائن» - كما كتب في فقرة تشكونية أخرى [فصل ١ - ٣٠ - ٧] . مع ذلك ، فإن الأم ، التي تمثل بداية التشكونية ، في هذه الفقرة ، تدل من جهة أخرى على التاو ذاته . «الوهية قال Val لا تموت : إنها الانثى الغامضة ، باب الأنثى الغامضة ، هاهو أصل السماء والأرض»^(٥٢) .

إن عدم امكانية وصف التاو قد جرى التعبير عنها كذلك بنعوت ومعاني أخرى تحدد ، مع التنوع في فروقها والوانها ، الصورة التشكونية الأولى . العلماء . ونذكر هنا أكثرها أهمية : الفراغ (هسو) ، العلم (وو) ، الكبير (تا) الواحد (اي)^(٥٣) . وسنعود إلى بعض هذه المصطلحات في تحليلنا لمذهب لاوتسو . ولكنه يحسن من الآن أن نذكر ان الفلاسفة التاويين ، كما هو الأمر بالنسبة للرهبان والباحثين المهتمين باطالة العمر وبخالود ، قد بحثوا باعادة ادخال هذا الشرط الفردي (ويصورة خاصة كمال الصفة والعفوية الأصلية . ويمكن اكتشاف الحالة البدئية في هذا الحنين وهذا تعبير جديد لسيناريوزراعي قديم ، كان يستدعي طقوسيا «التجميع» باتحاد جماعي «عمائي» للأولاد والبنات ، ممثلين اليانغ واليين . وان العنصر الاساسي ، الشائع في كل المدارس الطاوية ، كان التمجيد للشرط البشري البدئي الذي كان يوجد قبل انتصار الحضارة . وعلى ذلك ، لقد كان بحق ضد هذه «الرجعة للطبيعة» التي كان قد رفعها كل أولئك الذين ارادوا احياء مجتمع سليم ومتحضر ، محكوم بالضوابط وملهم بأمثلة من الملوك الخرافيين والأبطال المحضرين .

١٣١ - كونفوشيوس : قوة الطقوس .

يمكن القول ، إن كل اتجاهات الفكر الديني ، في الصين القديمة ، كان لها

قاسم مشترك عدد من الأفكار الأساسية . ونذكر بديئاً مفهوم التاو بصفته مبدأ ومنبعاً للحقيقة ، وفكرة التناوب المحكوم بإيقاع الين - اليانغ ، ونظرية التشابه بين الأخضر والأكبر ، وهذه النظرية الأخيرة كانت قد طبقت على كافة المستويات من الوجود والتنظيم البشري : التشريح ، الفيزيولوجيا ، علم النفس الفردي ، المؤسسات الاجتماعية ، المساكن والساحات المكرسة (مدينة ، قصر مذهب ، معبد بيت) . ولكن ، وفي حين أن البعض (في المقام الأول التاويين) كان يقدر أن وجوداً متشراً تحت إشارة التاو بانسجام كامل مع الإقاعات الكونية ، كان ممكناً في البداية فقط «أي في مرحلة تسبق التنظيم الاجتماعي ونهضة الثقافة» . فإن البعض الآخر كان يعتبر هذا النموذج من الوجود ممكن التحقيق بصورة خاصة في مجتمع صحيح ومتحضر .

ان الأكثر شهرة من بين هؤلاء الأخيرين ، والأكثر تأثيراً ، كان بالتأكيد كونفوشيوس (٥٥٩ - ٤٧٩ ق.م.)^(٥٤) . وكونفوشيوس باعتباره كان يعيش في مرحلة تاريخية من الفوضى والظلم ، ومتألماً من التعاسة والشقاء العلم ، قد أدرك ان الحل الوحيد كان اصلاحاً جذرياً للحكم ، المنجز من قبل رؤساء متورين والمطبق من قبل مسؤولين موظفين . ومع ذلك لم ينجح هو بالحصول على وظيفة هامة في الادارة ، وقد كرس حياته للتعليم ، وكان أول من مارس مهنة المعلم الخاص . وبالرغم من نجاحه تجاه عدد من تلاميذه ، فإن كونفوشيوس لم يكن أقل اقتناعاً ، قبل قليل من موته ، بالاخفاق التام لمهمته ، ولكن التلامذة نجحوا في نقل ما هو اساسي من تعليمه ، من جيل إلى جيل . وبعد ٢٥٠ سنة من وفاته ، قرر ملوك اسرة الهان [٢٢٠ - ٢٠٦ ق.م.] تكليف الكونفوشيوسيين بادارة الامبراطورية ، ومنذئذ قاد مذهب المعلم الخلقعات العامة خلال الفتي سنة .

بصريح العبارة ، ان كونفوشيوس ، ليس رئيساً دينياً^(٥٥) . فافكاره وبصورة خاصة ، افكار الكونفوشييين الجدد ، قد درست بصورة عامة في تاريخ الفلسفة . ولكن بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، أثر كونفوشيوس بعمق على الديانة الصينية ، وفي الواقع ، ان ذات المنبع لاصلاحه الاخلاقي والسياسي هو ديني . ومن جهة أخرى ، انه لم يطرح أية فكرة تقليدية هامة ، لا التاو ، ولا رب السماء ، ولا عبادة الأجداد . واكثر من هذا ، إنه مجد وقيم الوظيفة الدينية للطقوس والمعطيات العرفية ، المعتادة .

وبالنسبة لكونفوشيوس ، فإن تاو أقيم بقرار من السماء : «إذا طبق التاو ، فإن هذا بسبب قرار سماوي» [لوين يو ١٤ - ٣٨] . وإن يسلك الانسان في حياته حسب التاو ، فإنه يتلاءم مع ارادة السماء ، فكونفوشيوس يقر بأولوية السماء [تين] ولا يتعلق ذلك بالنسبة له ، بلإله مفارق ، إن (تين) مهتم بكل فرد على حدة ويساعده ليصبح أفضل . «السماء هي التي تتج الفضيلة (تو) في» [٢٢٠] - كما يعلن : «في سن الخمسين ، فهمت ارادة السماء» [١١ ، ٤] . وفي الواقع فإن المعلم اعتقد أنه مكلف برسالة من قبل السماء . وكغيره من بين أقرانه ، كان يقدر أن طريق السماء مضاء بطريقة مثالية بالأبطال المحضرين ، ياو وشون والملوك من اسرة تشيو ، وين ، و ، وو [٢٠] - [١٠] .

وقد صرح كونفوشيوس بلزوم اتمام الاضحيات وبقية الطقوس التقليدية ، لأنها تشكل جزءاً من الحياة «لإنسان سام» (شين - تزد) ، ولرجل شريف . والسماء تحب تلقى الاضحيات ، ولكنها تحب ايضا السلوك الاخلاقي ، وبخاصة الحكم الجيد . ان التأملات الميتافيزيكية والشيولوجية حول السماء والحياة بعد الموت غير مفيدة [٧ ، ١٢ - ٨ - ٩/٢] . والانسان الأعلى ، يجب أن يهتم ، بدنياً بالوجود الانساني المحسوس ، كما يعيش هنا ومنذ الآن . اما فيما يتعلق بالأرواح ، فإن كونفوشيوس لم ينكر وجودها ولكنه عارض في أهميتها . ومع احترامه لها أمر «احتفظوا بها بعيداً وهذه هي الحكمة» [٦ - ٨ - ١] . أما بالنسبة للانصراف إلى خدمتها «إذا لم تستطيعوا خدمة البشر ، فكيف تستطيعون خدمة الأرواح؟؟» [٢ - ٦] .

إن الاصلاح الاخلاقي والسياسي المعلن من قبل كونفوشيوس يشكل (تعلماً كاملاً) ؛ أي طريقة قادرة لتحويل الفرد العادي إلى «رجل أعلى» (شون - تزو) ، لا يهم من يستطيع أن يصبح «الانسان الحقيقي» بشرط أن يتعلم السلوك الاحتفالي بالتوافق مع (التاو) ، وبعبارة أخرى ، أن يطبق بدقة الشعائر والعادات (لي) . والتطبيق ، مع ذلك ، ليس من السهل اتقانه . انه لا يتعلق بشعائرية ، خارجية تماماً ، ولا بتمجيد انفعالي مثار عندما تكمل الشعيرة . فكل سلوك احتفالي صحيح يثير قوة سحر - دينية لا يمكن ردها^(٥٦) . ويستذكر كونفوشيوس الملك العاقل الشهير شون : «كان يجلس بكل بساطة ، بوقار ، واحترام ، وجهه نحو الجنوب (الوضعية الشعائرية للملك) - وكان هذا

كل شيء (أي : أن أعمال المملكة كانت تجري بتوافق مع النظام) [١٥ - ٤] . لأن الكوزموس (الكون) والمجتمع يداران من قبل القوى السحر - دينية نفسها الفعالة في الانسان «مع سلوك منضبط لا حاجة لاصدار الأوامر» [٨ : ٦] «الحكم حسب الفضيلة (تو) هو مثلاً لو كانت النجمة القطبية : تبقى في مكانها في حين ان كل النجوم الأخرى تدور في تمجيد حولها» [٢ - ١٠] .

إن الإشارة التي تتم طبق القاعدة تشكل تجلياً جديداً للانسجام الكوني . ومن الواضح ان من هو مؤهل لسلوك من هذا النوع ليس هو الفرد العادي الذي كانه قبل تعليمه ، فطريقته في الوجود تغيرت جذرياً ؛ وهي «انسان كامل» . إن تأديباً يتابع «تحول» الحركات والتصرفات إلى شعائر ، مع حفاظه على عفويتها ، له ، بالتأكيد هدف وبنية دينية^(٥٧) . ومن هذه الوجهة النظر يمكن مقارنة طريقة كونفوشيوس بالتعليمات والتقنيات بما كان لاوتسو والتاويون قد حسبوا ان في مكتهم استرجاع العفوية الأساسية . إن أصولية كونفوشيوس هي بمتابعتة (التحول) في طقوس عفوية لحركات وسلوكيات لا بد منها في مجتمع معقد ومترايب على مستوى عال .

وبالنسبة لكونفوشيوس ، إن النبالة والامتياز ليسا فطريين : انه يتم الحصول عليهما بالتربية . فيصبح الانسان نبيلًا بالتأديب وبعض المؤهلات الطبيعية [٥٤ - ٦ - ٥] وإن الطيبة ، والحكمة ، والشجاعة هي الفضائل المميزة للنبالة . وأسمى الارتياح هو انماء الفضائل الذاتية . «ان من هو طيب حقاً ، لن يكون تعيساً مطلقاً» [٩ - ٢٨] . مع ذلك فإن الدور الحقيقي لرجل نبيل هو أن يحكم [٧ - ٣٢] . وبالنسبة لكونفوشيوس كما هو بالنسبة لافلاطون ، فن الحكم هو الوسيلة لضمان السلام والسعادة لأكثر عدد . غير أننا «سنرى» ان فن الحكم ، شأنه شأن غيره من الصفات ، سلوك أو تصرف له دلالة ، وهو النتيجة لتعليم من نوع ديني . ولقد مجد «الأبطال المحضرين والملوك العظام من اسرة تشيو ، فكانوا امثله النموذجية» لقد علمت واعلموني اياه دون أن اضع فيه من عندي ، لقد كنت أميناً للقضاء وقد اجبتهم» [٧ - ١] . وقد استخلص بعضهم من هذا الاعلانات ، الحنين لعصر متطور بما لا يعوز . ومن ذلك ، ففي تقويم الوظيفة الشعائرية للسلوك العام ، دشّن كونفوشيوس طريقاً جديدة ، فقد أظهر الضرورة والامكانية ، لاهياء المحيط الديني لعمل دوري ولنشاط اجتماعي .

روى المؤرخ الكبير (سزو- ماتسين) في كتابه شي - كي («ذكريات تاريخية») سنة ١٠٠ ق.م انه عندما ذهب كونفوشيوس ليستعلم عن الشعائر بالقرب من لاوتان(اي لاوتسو) ، فإن هذا قال من جملة ما قال : «استبعد طبعك المتكبر، وكل الرغبات ، ومظهر المعجب بنفسه ، والحماس المتجاوز الحد . . ففي كل هذا لا ترجي فائدة لشخصك . . وهذا كل ما استطيع ان اقله لك» . وخرج كونفوشيوس واجماً . وأقر لاوتسوه انه عرف كل الحيوانات - طيور - اسماك - ذات الاربع - وعرف كل طباعها ، «ولكن التنين ، لم استطع معرفته : انه يرتفع للسماء على الغيم وعلى الريح ، لقد رأيت اليوم لاوتسو إنه مثل التنين»^(٥٨) .

هذا اللقاء ، هو بالتأكيد مزيف ، كما هي من جهة أخرى كافة التقاليد المسجلة من قبل سزو- ماتسين . ولكنه ، يوضح ببساطة ودعابة ، تنافر الطباع بين المفكرين الكبيرين الدينيين . ويضيف المؤرخ ، ذلك لأن «لاوتسو استثمر التاو والتو ، وحسب مذهبه ، يجب . التعود على العيش خفية وبشكل مغفل» . وعليه فإن العيش بعيداً عن الحياة العامة واحتقار الاجداد ، كان بالتأكيد ضد الفكرة المثالية (الانسان الاسمي) المقترح من قبل كونفوشيوس . إن «وجود لاوتسو خفية وغفلاً» ويفسر غياب كل إعلام رسمي يتعلق بشكله . وحسب التقليد .

كان لفترة من الزمن موثقاً في قصر تشيو ، ولكنه وقد ثبت عزمه بانهار البيت الملكي ، تنازل عن وظيفته وتوجه إلى الغرب . وعندما اجتاز عمر هيين - كو ، حرر ، بناء على طلب الحارس «كتاباً في قسمين عرض فيه افكاره حول التاو والتو» واشتمل على اكثر من خمسة آلاف كلمة ، ثم ذهب ولم يعد أحد يعرف ماذا حصل له . وبعد أن روى سزوم - ماشين كل ما تلقاه استنتج : «لن يقول أحد في العالم ، ما اذا كان هذا صحيح أم لا : إن لاوتسو كان حكيماً مستتراً» .

هذا وإن الكتاب المتضمن (أكثر من خمسة آلاف كلمة) هو تاو توكينج الشهير ، النص الأكثر عمقاً وأكثر تلغيزاً في كل الأدب الصيني . أما بالنسبة إلى مؤلفه وإلى تاريخ كتابته ، فإن الآراء متباعدة ومتضادة في ذلك^(٥٩) . وربما اتفق على أن واقع النص كما يمثل اليوم ، لا يمكن أن يكون قد كتب من قبل معاصر لكونفوشيوس ، وعلى الأرجح أنه يعود بتاريخه إلى القرن الثالث . إنه يتضمن حكماً ، وأمثالاً ترجع لمختلف المدارس الما قبل التاوية وعدداً من جوامع الكلم (أمثال) بأبيات من الشعر ترجع إلى القرن الرابع^(٦٠) ، ومع ذلك ، ورغم الخاصية اللامنهجية ، فإن التاتوكينج يعبر عن فكرة متماسكة وأصولية . «يجب اذن القبول بوجود فيلسوف ، إن لم يكن هو المؤلف المباشر ، فعلى الأقل المعلم الذي كان تأثيره حاسماً في الأصل . ولا يوجد أي محذور من الاستمرار بتسميته لاوتسو»^(٦١) .

ويشكل متناقض ، يشتمل التاتوكينج على عدد كبير من النصائح الموجهة إلى الحكام والرؤساء السياسيين والعسكريين . وتاماً ككونفوشيوس ، فإن لاوتسو يؤكد أن أعمال الدولة يمكن لها أن توجه بنجاح فقط ، إذا اتبع الأمير طريق التاو ، وبعبارة أخرى ، إذا طبق طريقة وو-وي (عدم العمل ، أو عدم الفعل) . لأن «التاوي يبقى دائماً بدون عمل ولا شيء لم يعمل» [١: ٣٧] -^(٦٢) . ولهذا فإن التاوي لا يتدخل مطلقاً في مجرى الأشياء . «إذا كان الأسياد والملوك قادرين للبقاء ، في احتذاء للتاو ، على هذه الوضعية من عدم التدخل ، فإن العشرة آلاف كائن لن يتخلفوا ابداً عن اتباع مثاله من ذاتهم» [٢: ٣٧] . كما أن التاوي الحقيقي «الأفضل (بين الأمراء) هو الذي يجهل وجوده» [١: ١٧] وبما أن التاو السهاوي يتصر بدون صراعات» [٦: ٧٣] فإن الوسائل الأكثر فعالية للحصول على السلطة هي عدم العمل (وو-وي) وعدم العنف^(٦٣) «إن السلس والضعيف يتغلب على القاسي والقوي [٣٦: ١٠ - ٤٠: ٢] «إن الضعيف هو وظيفة التاو» .

وإجمالاً ككونفوشيوس تماماً ، الذي كان طرح مثله الأعلى (بالإنسان الكامل) للحكام كما هو بالنسبة لأي فرد راغب بأن يشق ، فإن لاوتسو دعا الرؤساء السياسيين والعسكريين لأن يتلاءموا مع التاوية ، وبعبارة أخرى لاتباع ذات النموذج المثالي : ألا وهو التاو . غير أن هذا ، هو فقط الشبه الوحيد بين المعلمين . إن لاوتسو يتقصد ويرفض

النموذج الكونفوشيوسي أي أهمية الطقوس ، واحترام القيم الاجتماعية والعقلانية «لتنازل عن الاحسان ، لنطرح العدالة ، فإن الشعب سيجد الفضائل الحقيقية المألوفة» [٩٠١] .

بالنسبة للكونفوشيوسيين ، ان الاحسان والعدالة هما اسمى الفضائل ، ولكن لاوتسو اعتبرهما مع ذلك كأوضاع مصنعة ، اذن غير ذات فائدة وخطيرة . «عندما يهمل التاو ، يرجع الى الاحسان ، عندما يهمل الاحسان ، يرجع الى العدالة ، عندما تهمل العدالة يرجع للشعائر . . ان الشعائر ليست سوى غطاء رقيق من الشرعية والضمير والبداية للفوضى» . [٣٨ . ٩ - ١٤] كذلك فإن لاوتسو يدين القيم الاجتماعية ، لأنها مخادعة وضارة في آخر المطاف . أما بالنسبة للعلم الاستدلالي ، فإنه يدمر وحدة الكائن ويشجع الفوضى باعطائه قيمة مطلقة للمفاهيم النسبية^(٦٤) . «هذا فإن القديس ينصرف لعدم العمل وو- وي ويوزع الارشاد بدون كلام» [٢ : ١٠] . وفي آخر المطاف ، إن التاوي يتبع دوماً نموذجاً مثالياً : التاو : مع ذلك فإن التاو يدل على أن الحقيقة الكلية ، غامضة ولا يمكن ادراكها fons et erigo لكل خلق ، أساس كل وجود . وتحليل وظيفة الشكونية ، كنا اشرنا للخاصية الفائقة الوصف للتاو . وان اول سطر من التاو تو كينج يؤكد : «التاو الذي يمكن الكلام عنه تاو ، ليس التاو الدائم» [تشانغ ناو) ١ - ١] . هذا ما يعيد إلى القول بأن التاو الذي تكلم عنه لاوتسو ، النموذج للتاوية ، ليس هو التشانغ - تاو (تاو دائم أو سام)^(٦٥) . فهذا التاو المشكل بكلية الحقيقة ، يصعد كميّات الكائن ، وبالتالي فهو غير ممكن ادراكه بالمعرفة . فلا لاوتسو ولا تشوانغ تسو حاولا البرهان على وجوده ، حالة موزعة ، كما هو معلوم ، بعدد من الصوفيين . وبوضوح ، «فإن المظلم أكثر عمقاً من الظلمة ذاتها» ينعكس على التجربة التاوية الخاصة للوجد ، والتي سنعود إليها .

فلاوتسو يتكلم اذن عن (تاو) (ثاني) محتمل ، غير أن هذا ايضا لا يمكن ان يدرك . «اتعمق بالنظر ولا أرى شيئاً . . اتنصت واصغي ولا اسمع شيئاً . . لا أجد سوى وحدة غير متميزة . . متعلزة التميز ، لن تعلم لها تسمية» [فصل ١٤]^(٦٦) . غير

أن بعض الصور والمجازات تكشف بعض البنى ذات الدلالات . وكما أشرنا إليه آنفاً فإن التاو(الثاني)، يسمى «أم العالم» [فصل ٢٥ و ٥٢] . ويرمز إليه بالوهية «الفال Val» والانوثة الغامضة «التي لا تموت»^(٦٧) . إن صورة الوادي تستدعي فكرة الفراغ ، وبذات الموقف حوض المياه ، اذن الخصب ، والفراغ متشارك ، من جهة ، مع مفهوم الخصوبة والامومة ، ومن جهة أخرى ، غياب الصفات الحساسة (نوعية مميزة للتاو) . إن صورة الثلاثين شعاعاً التي تتقارب نحو فراغ الثقب - (ثقب في وسط البكرة أو الدولاب) توحى برمزية غنية ، وعلى الأخص : «فضيلة الرئيس الذي يجذب إليه كل الكائنات ، من الوحدة العليا التي تنظم حولها التعددية» ولكن التاوي ايضاً ، «عندما يكون فارغاً ، أي مطهراً من العواطف الجياشة ، ومن الرغبات ، فإنه مسكون كلياً بالتاو [كالتشارك ص ٥٥] .

وبالتلاؤم مع طريقة التاو «الثاني» ، فإن التلميذ المبتدئ يعاود انعاش وتقوية (كموناته) أو امكانيات فعله النسوية ، وفي الدرجة الأولى منها (الضعف) ، التواضع ، وعدم المقاومة . «اعرف الذكورية ، ولكن فضل الانوثة : ستصبح وادي الكون . لتكون وادي العالم ، وأن لا يتركك التاو الأعلى ، وستستطيع العودة لحالة الطفولة» [٢٨: ١-٢] من وجهة نظر ما ، يجبر التاوي بالحصول على طبيعة خشي ، المثل الأعلى القديم للكمال البشري^(٦٨) ، ولكن عملية التكامل للجنسين تسهل العودة لحالة الطفولة أي لبده الوجود الفردي ، وعلى ذلك فإن مثل هذه العودة تجعل من الممكن التجدد الدوري للحياة . ويفهم الآن بشكل افضل رغبة التاوي باعادة تملك الحالة البدائية ، تلك التي كانت توجد «في البداية» . وبالنسبة له ان الكمال الحيوي والعفوية والسعادة ، البالغة ، والغبطة قد اعطيت فقط في بداية خلق او تجلي جديد للحياة^(٦٩) .

ان نموذج عملية التكامل للاضداد هو دائماً التاو ، في وحدته الكلية يتوحد اليانغ والين . وعلى ذلك ، وكما رأينا منذ عصر ما قبل التاريخ ، فإن الزواج المشترك والجماعي للشباب والفتيات ، ممثلاً لليانغ والين ، كان يحقق دورياً الوحدة/ الكلية الكونية والاجتماعية . وفي هذه الحالة ايضاً تستلهم التاوية معطيات دينية قديمة . ويجب ان

نضيف أن وضع التاويين بالنسبة للنساء كان مضاداً جذرياً للفكرة السائدة في الصين
الاقطاعية .

ان الفكرة لما قبل الصينية للدورة الكونية تلعب دوراً هاماً في التاو توكينج . إن
التاو (يجري في أي مكان في الكون ، دون أن يتوقف مطلقاً) [فصل ٢٥] . وإن الحياة
والموت للكائنات يفسر أيضاً بتناوب اليانغ واليين : الأول ينشط الطاقات الحيوية ، ولكن
اليين يجلب الراحة . مع ذلك ، فإن القديس يحلم بالخلاص من الايقاع الشامل للحياة
والموت ، بتحقيقه الخواء في كينونته ذاتها ، انه يضع نفسه خارج الدورة . وكما يعلن
لاتسو «لا يوجد فيه (في القديس) محل من أجل الموت» [٥٠ : ١٣] . «ان من انعم عليه
بكمال التو To ، يمكن مقارنته بالوليد الجديد» [١ : ٥٥] . والتاويون يعرفون العديد من
التقنيات المؤهلة لتمديد الحياة إلى مالا نهاية ، وحتى الحصول على (خلود طبيعي) . وإن
البحث عن حياة طويلة يشكل جزءاً من البحث عن التاو . ولكن لاتسو لا يبدو أنه
اعتقد بالخلود الطبيعي ولا باستمرار حياة الشخصية البشرية . والتاو توكينج ليس واضحاً
حول هذه النقطة (٧٠) .

ومن أجل وضع المسألة في نصها الحقيقي ، نذكر بأن التقنية التاوية للوجد هي
من أصل دينية شامانية (٧١) . فمعروف أن روح الشامان اثناء الرعدة تترك الجسد وتساfer
في الأقاليم الكونية ، وعليه ، وحسب حكاية صغيرة مروية من قبل (تشوانغ تسو) وجد
كونفوشيوس يوماً لاتسو «فاقد الحركة تماماً وليس له مظهر كائن حي» . وبعد أن انتظر
بعض الوقت ، وجه إليه الكلام : «هل خائنتي عيني ، أو هل ان ذلك حقيقي . فمئذ
هنيهة ، كان جسديك أيها المعلم يشبه قطعة خشب جافة ، كنت تبدو كأنك تركت العالم
والبشر واستقرت في عزلة لا يمكن الوصول إليها» . وأجاب لوتان : «نعم ، لقد
مضيت ارتع بمصدر الأشياء كلها» [فصل ٢١] . وكما يلاحظ كالتنارك [ص ٨٢] فإن
عبارة «سفر لمصدر الأشياء» تلخص الجوهر في التجربة الصوفية التاوية . فهذا
السفر الوجداني يشكل عودة «لبداية» كل الأشياء ، وبالتخلص من الزمان والمكان ،
ستجد الروح الأزل مثلاً يصعد الحياة كما يصعد الموت . ويتعلق هذا باعادة تقييم
وتعميق الوجد الشاماني . فالشامان اثناء ارتعاشه : يطير في وسط العالم ، ويعيد احياء
العصر ، (الفردوسي) لما قبل السقوط ، أي عندما كان البشر يستطيعون الصعود إلى

السماء ويتحدثون مع الآلهة . ولكن سفر لاوتسو إلى مصدر الأشياء يشكل تجربة صوفية من نوع آخر ، لأنه يصعد الشرائط التي تميز الشرط البشري ، وبالتالي تغير جنريا النظام الانطولوجي .

لا يعرف سوى القليل عن حياة تشوانغ تسو ، المعلم الثاني الكبير للتاوية ، وعلى الأرجح إنه عاش في القرن الخامس ق.م ، وفي هذه الحالة ، فإن بعض أقواله الماثورة apherimes سابقة لاصدار (التاو توكينج) . ان تشوانج تسو ، مثل لاوتسو ، يرفض أيضاً الآراء الشائعة بأن العلم استدلالي discursive فالمعرفة الوحيدة الكاملة هي من نظام وجددي لأنها لا تدخل ثنائية الحقيقة . ولهذا السبب فإن تشوانغ تسو يماهي الحياة والموت : انهما النموذجان ، أو المظهران ، للحقيقة الشاملة^(٧٢) . وهذه النعمة للوحدة حياة موت معتمدة باستمرار من قبل المؤلفين التاويين^(٧٣) . وهنالك قصة صغيرة شهيرة توضح مفهوم تشوانغ تسو حول نسبية حالات الشعور . «في سالف الزمان ، أنا تشوانغ تسو ، حلمت انني كنت فراشة تتطاير ، وكنت أشعر بالسعادة ، لم أكن أعلم بأنني (تشيو) ، فجأة استيقظت وكنت أنا ذاتي تشيو الحقيقي . ولم أعلم فيما اذا كنت تشيو الحالم بأنه كان فراشة أو فراشة حاملة بأنها تشيو»^(٧٤) . وفي الواقع ، ان حالات الضمير ، داخل دورة التاو ، هي قابلة للتبادل .

ان القديس الذي أفرغ نفسه من كافة التجهيزات وغرق في الوحلة/ الكلية للتاو ، يعيش في وجد غير منقطع . وكما هو الحال بالنسبة لبعض اليوجيين فإن هذه الطريقة المضادة للوجود في العالم تترجم أحيانا بعبارات خارقة لكلية قدرة الهية . «الرجل الكامل هوروح نقية . لا يشعر بحرارة الدغل المحترق ولا ببرودة المياه الطامية ، وان الصاعقة التي تشق الجبال ، والعاصفة التي ترفع المحيط لن تخيفاه . إن هذه الغيوم اقرانه ، والشمس والقمر مطاياه . انه يهيم ماوراء البحار الاربع ، وتناوبات الحياة والموت لا تعنيه ، كذلك ايضا مفاهيم الخير والشر»^(٧٥) . وحسب بعض المؤلفين التاويين فإن هذه التجوالات الشطحوية هي في الحقيقة سفرات داخلية^(٧٦) . وكما يحصل لدى شعوب أخرى تحكمها الشامانية - على سبيل المثال لدى الترك - المغول - ولقد

اهتمت التجارب ومغامرات الشامان خلال سفره الشطحوي الشعراء ، فمجلدت في القصائد الملحمية .

١٣٣ - تقنيات الحياة المديدة .

ان اللغة الصينية تميز عادة التاوية الفلسفية (تاو- كيا ،- التي تعني لغة «مدرسة تاوية» عن التاوية الدينية أو الديانة التاوية (تاو- كياو ، التي تعني لغويًا مذهب تاوي»^(٧٨) .

وبعض المؤلفين يرى ان هذا التمييز صحيحاً وضرورياً ، وبالنسبة لهم ، ان تاوية لاوتسو وتشوانغ تسو هي (فلسفة نقية) تتعارض جذرياً مع بحث الخلود الطبيعي ، الهدف المركزي «للديانة التاوية»^(٧٩) وهناك جماعة أخرى من الباحثين تعتمد الوحدة الأساسية لكل الاشكال التاريخية للتاوية^(٨٠) . وفي الواقع ، إن «علماء ماوراء الطبيعة» والصوفيين مثلهم مثل انصار البحث عن الخلود الطبيعي ، يتوازعون ذات المفهوم المتناقض للتاوية ويتبعون ذات الهدف : ان يجمعوا في شخصهم التجليات للحقيقة الكلية «يانغ وين ، مادة وروح ، حياة وموت» غير أن التمييز بين «التاوية الفلسفية ، والديانة التاوية ، مفيد ويمكن المحافظة عليه» .

إن الهدف الكلي للأنصار كان الحصول على الخلود الطبيعي . وان رمز الفكرة بالنسبة للخالد (مصوراً) ، ومثالاً انساناً وجبلاً ، يوحى براهب ، ولكن الاشكال الأكثر قدماً كانت تمثل رجلاً راقصاً مصفقاً بذراعيه كالطائر . وإن المريد على أهبة الحصول على الخلود ، كان يغطي بربش طائر ، وأجنحة كانت تثبت في كتفيه^(٨١) . «اصعد للسماء في وضوح النهار» تلك كانت العبارة المكرسة للتمجيد النهائي للمعلم ، وان صنفًا كان يضم المريدين الذين كانوا يعيشون خلال عصور في نوع من الفردوس الأرضي : الجزائر الفاخرة أو الجبل المقدس كوين - لوين» .

وكانت ترجع من وقت لوقت إلى العالم من أجل ان تنقل الصيغ للخلود الطبيعي لبعض الحديثي القبول الجديرين بتلقيها ، وأخيراً الصنف الثالث ويشمل أولئك الذين

لن يصلوا للجنان الأرضية الا بعد موتهم . ولكن هذا الموت كان ظاهراً : كانوا يتركون في اللحد ، عصا ، أو نعال يعطونها مظهر أجسادهم . وهذا ماكان يدعى (تحرير الجثة) وكان الخالدون أحياناً بجماعهم متطورة إلى أبعد حد ، علامة على انهم اخترنوا في ادمغتهم كمية كبيرة من الطاقة يانغ .

ان عدداً من تقنيات الحياة المديدة بتصرف المريد . وان مبدأهم الأساسي يقتضي «تغذية القوة الحيوية» (يانغ - هزينغ) . وبما أنه يوجد تضامن كامل بين الأكبر macrocome والجسم البشري ، فإن القوى الحيوية تدخل وتخرج بواسطة الفتحات التسع للجسم ، فيقتضي اذن السهر عليها بحيوية . ويميز التاويون في الجسم ثلاثة أقسام تسمى حقول كبريت الزئبق champs de cinabres : الحقل (الأعلى) متوضع في الدماغ ، والثاني بالقرب من القلب والثالث تحت الرحم .

وللتطبيقات الغذائية هدف محدد ، تغذية الأعضاء بأغذية وبأعشاب طيبة تحتوي (الطاقات) التي هي خاصة بها . ولنذكر أن المناطق الداخلية للجسم هي مأهولة ليس بالآلهة والأرواح الحارسة فحسب ، وإنما أيضاً بكائنات شريرة : الديدان الثلاثة التي تستقر في الحقول الثلاثة لأكسيد الزئبق ، تفرس رجولة المريد . ولكي يتخلص منها فإن عليه أن يتنازل عن الغذاء العادي (حبوب ، لحم ، خمر الخ . .) وان يتغذى بالنباتات الطيبة والمواد المعدنية المؤهلة لقتل الشياطين الثلاثة^(٨٥) .

وبالتحرر من الشياطين الداخلية الثلاثة ، فإن المريد يبدأ بالتغذي من الندى أو النفخات الكونية ، إنه لا يتنشق مطلقاً هواء الجو لوحده ، وإنما أيضاً التصاعادات الشمسية ، والقمرية والكوكبية . وبحسب بعض القصص المؤكدة في القرن الثالث ق.م ، يتوجب استنشاق التصاعادات الشمسية عند الظهر (عندما يكون اليانغ في القمة) وتلك العائدة للقمر المحتوية (الين) في وسط الليل . ولكنه يجب بصورة خاصة اعادة الامساك بالنفخة ، وبواسطة رؤى داخلية ومتعلقة بفكرتها ، نصل إلى رؤية النفخة عيانا وإلى قيادتها عبر الحقول الثلاثة لأكسيد الزئبق ، وإذا أرجعنا النفخة الزمن المناسب لحد ١٠٠٠ زفرة ، يمكن الحصول على الخلود^(٨٦) .

وثمة اجراء خاص يدعى [التنفس الجنيني] تيه - سي ، يتعلق «بنفخة» داخلية في دائرة مغلقة مماثلة للجنين في البطن الأمومي^(٨٧) «بالرجوع الى الأساس ، بالعودة للأصل ، تطرد الشيخوخة ، ويعاد إلى حالة الجنين»^(٨٨) . و«التنفس الجنيني ، ليس كالبراناياما اليوجية (ف . ١٤٠ع) ، تمريناً أولياً للتأمل . ومع ذلك فإن هذه الممارسة تجعل من الممكن حصول تجربة وجدية . وحسب تاي بينغ شاين (القرن الثالث ق.م) يمكن الوصول ، ببصيره داخلية لادراك الآلهة المقيمة في الاعضاء الخمس . فهم ، من جهة أخرى ، أنفسهم الذين يسكنون العالم الأكبر macrocosme . وبالتفكير والتأمل يتمكن المريد من الدخول في اتصال معهم ويجعلهم يزورونه ويقوون جسده^(٨٩) .

وهناك طريقة أخرى للحصول على طول العمر ، تتطلب تقنية جنسية هي في آن واحد طقوسية ووسيلة للتأمل . ان التطبيقات المسماة «مخدع النوم» (فاتج شونغ) تعود الى زمن قديم جداً ، واهداف هذه الممارسات كانت زيادة الحيوية وضمان طول الحياة وانجاب الاولاد الذكور . ولكن التقنية التأوية ، (طريق اليين) للخالد يانغ - تشين (القرن الأول ب.م) وتتضمن (استعادة المنى semence من أجل وقاية الدماغ) . وفي الواقع ، انها تتعلق بنفس الفكرة عن راحة الضمير ataraxie المميزة للتأوية : تجنب تبديد الطاقة الحيوية ، فالعزل يجعل من الممكن للمني أن يسير صوب الجسد ويختلط بالتنفس ، وبعبارة اكثر دقة ، يجعل صعوده من الحقل الأدنى من اكسيد الزئبق الى الحقل الكائن في الرأس لاعادة تنشيط الدماغ : في العادة يستفيد القرينان من هذه الشعيرة . وهناك نص من القرن الخامس ق.م يؤكد على أنه «بالتأمل الكامل يستطيع الرجال والنساء تطبيق طريقة الخلود» . وبالتأمل ، على المشاركين «اضاعة الشعور بجسدهما والشعور بالعالم الخارجي» . وبالتالي ، وبعد تلاوة الصلوات على الرجل ان يفكر ملياً حول الكليتين والمرأة حول القلب . «هذه هي الطريقة لعدم الموت»^(٩٠) . ان الخالد جونغ تشينغ قد عرف تماماً طريقة (الاصلاح والقيادة) . «لقد امتاح الجوهر في الانوثة الغامضة ، وكان مبدؤه أن النفوس الحية التي تقيم في الوادي (فال) لا تموت ابداً ، لأن الحياة تتغذى بواسطتها كما يتغذى التنفس . ان شعره الأبيض سيصبح اسود ، وستتبت اسنانه التي سقطت . وقد كانت ممارساته مماثلة لممارسات لاوتسو . ويقال أيضاً أنه كان معلم لاوتسو»^(٩١) . ان بعض المريدين قد طبق طريقة معروفة باسم

«هاموية» : (الايمان بالهامية) [كالتنارك] وهذه الطريقة ادينت بأنها غير اورثودوكسية (أصولية) وطريقة ممارستها تقتضي امتصاص الطاقة الحيوية من النسوة اللواتي يجامعن : «هذه الطاقة ، المتأتية من مصادر الحياة ذاتها ، وهي تحقق طول عمر معتبر»^(٩٢) .

إن واحداً من الأهداف الرئيسية للتقنية الجنسية التاوية هو خلط المني مع التنفس في حقل اكسيد الزئبق الأدنى وتكوين «الجنين السري» هنالك تحت الجنين ، لجسد جديد لايفنى . وهذا الجنين المغذى بالتنفس فقط ينمو في «جسد طاهر» والذي يفصل في الموت الظاهري للمريد ، عن جسده وينضم للخالدين الآخرين . وعلى المريد بهدف (اصلاح الدماغ ، ان يمتص كمية كبرى من الين Yin ، وذلك هو السبب الذي من أجله كان يغير مراراً المشارك . وقد افسحت هذه الممارسة المجال فيما بعد لاتحاد (الانفاس) الجماعية ، وهي حفلة انتقدت مراراً كثيرة ، وبصورة خاصة من قبل البوذيين . غير أن مثل هذا التهتك كان طقوسياً وعلى نطاق ضيق ، ويرجع في واقعه للحفلات الزراعية مما قبل التاريخ (ف ١٣٠ ع) .

وفي الممارسات الجنسية التاوية يمكن اكتشاف بعض التأثير الهندي ، وبخاصة ما يسمى بالتانتارية (للبيد اليسرى) التي احييت طريقة يوجية للحصول على التوقف في آن واحد للقفز المنوي Emissionseminale وللتنفس^(٩٣) . وكما في التانتارية تماماً ، فإن اللغة الجنسية التاوية تنعكس كذلك عن عمليات عقلية وتجارب صوفية .

١٣٤ - التاويون والكيمياء .

إن بعض الطقوس وميتولوجيات المعدنين والسباكين والحدادين قد أعيد الأخذ بها وأعيد تفسيرها من قبل الكيميائيين . وإن المفاهيم القديمة بصدد نمو المعادن في بطن الأرض ، وتحول المعادن الطبيعي إلى ذهب ، والقمية الصوفية للذهب ، كذلك العقدة الشعائرية «حدادين» - اخوية مسارية - اسرار «مهنة» كلها توجد في تعليمات الكيميائيين .

إن الاختصاصيين ليسوا متفقين على الأصول للكيمياء الصينية ، وإن تواريخ النصوص الأولى المشيرة للعمليات الكيميائية مازالت موضع نقاش ، وفي الصين ، كما في غيرها ، تعرف الكيمياء بعقيدة مزدوجة : (١) تحويل المعادن إلى ذهب و (٢) القيمة الغذائية - السحرية لعمليات منجزة بهدف الوصول لهذه النتيجة . وقد تأكدت المراجع الدقيقة لهذين المعتقدين في الصين بدءاً من القرن الرابع ق.م . واتفق على اعتبار تسو- ين المعاصر لمنشيو ، وكأنه المؤسس للكيمياء^(٩٤) . وفي القرن الثاني ق.م كانت العلاقة بين تحضير الذهب الكيميائي والحصول على طول العمر - الخلود معروفة بوضوح من قبل ليو- آن ومن قبل مؤلفين آخرين^(٩٥) .

إن الكيمياء الصينية تتكون بصفاتها علماً مستقلاً باستعمال : (١) المبادئ الكونية التقليدية (٢) الاساطير ذات العلاقة من اكسير الخلود والقديسين الخالدين ، (٣) التقنيات المتبعة في اطالة العمر والنعيم والعفوية الروحية معاً . وإن هذه الاقائيم (العناصر) الثلاثة - مبادئ ، اساطير ، تقنيات ، كانت تنتمي لتراث ثقافي مما قبل التاريخ ، وسيكون من الخطأ الاعتقاد أن تاريخ الوثائق الأولى التي تؤكدنا ايضاً مدى عمرها . إن التضامن واضح ، بين (تحضير الذهب) والحصول على (شراب الخلود) و (استحضار الخالدين) : لوا- تيه يحضر امام الامبراطور وو ، ويؤكد له أنه يستطيع فعل هذه المعجزات الثلاث ولكنه لم ينجح سوى في ان يجسد الخالدين^(٩٦) . إن الراقي (الساحر) لي شاو- كيون يوعز للامبراطور وو من الأسرة الملكية هانا : «ضحى للقرن» وتستطيع ان تحضر كائنات (مما فوق الطبيعة) ، وعندما تكون قد احضرت الكائنات (فوق الطبيعية) فإن رماد اكسيد الزئبق يمكن له ان يتحول الى ذهب أصفر ، وعندما يكون الذهب الأصفر قد تم انتاجه ، يمكنك ان تصنع منه ادوات للشرب وللأكل ، وعندئذ سيكون لك عمر طويل مديد . وعندما يتمدد عمرك الطويل ، ستستطيع رؤية السعداء في جزيرة بونجلي التي تقع وسط البحار ، وعندما سترها ، وعندما تكون قد اقامت الاضاحي فونغ وشان ، وعندئذ لن تموت^(٩٧) .

إن البحث عن الاكسير كان مرتبطاً اذن بالبحث عن الجزر البعيدة والخفية ، حيث كان يعيش فيها الخالدون : ملاقاته الخالدين ، كانت هي التجاوز للشرط البشري والمشاركة بوجود غير زمني وفردوسي^(٩٨) .

ان البحث عن الذهب اقتضى ايضاً بحثاً عن الطبيعة الروحية ، والذهب كانت له خاصية امبريالية : كان يوجد في «مركز الأرض» وكان في علاقات صوفية مع الشو chue (الزرنج الأحمر أو الكبريتور realgare ou sulfure) ، ومع الزئبق الأصفر والحياة المستقبلية ، («الينابيع الصفراء») . هكذا ظهر في نص يعود ل ١٢٢ سنة ق.م. هوى - نان - نزو حيث نراه مؤكداً ايضاً لعقيدة في مسخ متسارع للمعادن^(٩٩) . فالكيميائي لا يفعل اذن سوى التسريع في نمو المعادن . وكمثله الغربي ، فإن الكيميائي الصيني يساهم في عمل الطبيعة بتعجيل ايقاع الزمن . إن الذهب والجلد من واقع كونهما يساهمان بمبدأ البانغ، يقيان الاجساد من الفساد ، ولذات السبب فإن الأواني من ذهب كيميائي تمّد في الحياة الى المالا نهاية ١٠٠٠ . وحسب نص محفوظ في لي هزين فإن شو (الألواح الكاملة للخالدين) ، فإن الكيميائي وي بويانغ نجح في تحضير «حييات الخلود» : وبابتلاعه هو وكلبه وواحد من تلامذته بعض هذه الحبوب ، تركوا هذه الأرض بلحمهم وعظمهم وذهبوا جميعاً للالتحاق بالخالدين الآخرين^(١٠١) .

ان التماثل التقليدي بين الاصغر والأكبر كان يقرب العناصر الخمسة لعلم الأكوان (ماء ، نار ، خشب ، هواء ، تراب) من اعضاء الجسم البشري : القلب لجوهر النار ، والكبد لجوهر الخشب والرئتين لجوهر الهواء ، والكليتين لجوهر الماء ، والمعدة لجوهر الارض . وان العالم الاصفر micra'come الذي هو الجسد البشري ، هو بدوره قد فسر بعبارات كيميائية : (نار القلب حمراء كأكسيد الزئبق وماء الكليتين اسود مثل الرصاص» الخ^(١٠١) . وبالنسبة فإن الانسان يملك في جسده الخاص ، كل العناصر التي تشكل الكون (كوزموس) وكل القوى الحيوية التي تضمن تجلده الدوري . ويقتضي تقوية بعض العناصر فقط . ومن هنا أهمية اكسيد الزئبق cinabre على الأقل للونه الأحمر (لون الدم مبدأ الحياة) ومن واقع أنه بوضعه في النار ، فإن اكسيد الزئبق يتج الزئبق . إنه يكشف اذن سر اعادة التجلد بواسطة الموت (لأن الاحتراق يرمز للموت) . ويتج من هذا ان اكسيد الزئبق يمكن له ان يضمن اعادة التجلد المتكرر للجسم البشري وفي آخر المطاف ، يستطيع ان يتج الخلود . ان الكيميائي الكبير كوهنغ (٢٨٣ - ٣٤٣) ق.م يكتب ان عشرة حبات من مزيج اكسيد الزئبق والعسل تتناول خلال سنة تعيد السواد للشعر الابيض وتنبث الاسنان الساقطة ، واذا توبعت العملية لأكثر من سنة يمكن الحصول على الخلود^(١٠٢) .

غير أن اكسيد الزئبق يمكن له أيضاً أن يتكون داخل الجسد البشري خاصة بواسطة تقطير المني في (حقل الزئبق) . وهناك اسم آخر لهذه الحقول من الزئبق ، المنطقة السرية للدماغ الموصول (بالغرفة المشابهة لمغارة) هي كوين - هوين . وعليه فإن الكوين هوين هو جبل خرافي من بحر الغرب محل لاقامة الخالدين . «ولكي يدخل اليه بالتأمل الصوفي ، يدخل في حالة عمائية ، هوين ، تشبه الحالة البدئية ، الفردوسية الغير مشعور بها في عالم غير مخلوق»^(١٠٤) .

ولنستعد هذين العنصرين : (١) التشابه بين الجبل الاسطوري ، كوين لوين ، والأمكنة السرية للدماغ والبطن . (٢) الدور المتوافق مع حالة (العماء) التي ما أن يتحقق مرة بالتأمل ، حتى تسمح بالدخول في حقول اكسيد الزئبق وتجعل من الممكن هكذا التحضير الكيميائي لجنين الخلود . ان جبل البحر الغربي ، مستقر الخالدين هو صورة تقليدية وقديمة جداً في عالم الأصغر من كون منمنم مصغر . وان جبل كوين لوين له طابقان : مخروط مستقيم يعلو مخروطاً مقلوباً^(١٠٥) . وبعبارة أخرى ، شكل مطرة للماء أو (قرع يقطن) ، تماماً مثل فرن الكيميائي والمنطقة السرية للدماغ . أما بالنسبة للحالة العمائية المتحققة بالتأمل والتي لا بد منها للعمل الكيميائي ، فيمكن مقارنتها بالمادة الأولية ، الكتلة المختلطة للكيمياء الغربية^(١٠٦) . فالمادة الأولية لايسوغ لها أن تفهم كبنية أولية للمادة فحسب ، وإنما ايضا كتجربة داخلية للكيميائي . وان ارجاع المادة لشرطها الأول من اللا تميزية المطلقة يناسب ، على مستوى التجربة الداخلية ، الانكفاء إلى طور قبل ولادي ، جنيني ، وعلى ذلك ، رأينا ، نغمة تجديد الشباب أو النشاط وطول العمر بالتراجع للرحم regressus ad uterum يشكل واحداً من أولى اهداف التأوية . وان الطريقة الأكثر استعمالاً هي التنفس الجنيني تيه - سي ولكن الكيميائي ينال ايضا هذا الرجوع لطور الجنين بواسطة اذابة العناصر في فرنه^(١٠٧) .

بدءاً من إحدى الفترات الزمنية ، كانت الكيمياء الخارجية وي - تان معتبرة كظاهرة وهي مقابلة للكيمياء الداخلية من نوع يوجي (نيتان) ومعلنة باطنية ، لوحدها . وإن النيتان تصبح باطنية لأن الاكسير هو معد في الجسد حتى للكيميائي بطرائق من «وظائف اعضاء بارعة» وبدون مساعدة مواد نباتية أو معدنية . ان المعادن النقية أو (ارواحها) متماهية في مختلف اجزاء الجسد ، وان العمليات الكيميائية بدلا من أن

تكون متحققة في المختبر ، تدور في الجسد وفي وعي المريد . وان الجسد يصبح البوتقة يدور وينوب فيها الزئبق (النقي) و (الرصاص النقي) كما هو المنى الرجولي ، كما هو النفس . وباختلاطها ، تحمل قوى اليانغ والين «الجنيين السري» («أكسير الحياة» و «الزهرة الصفراء») ، الكائن الخالد الذي سيتهي بهجر الجسد عن طريق البجمة . والصعود إلى السماء . ان النيتان يمكن اعتباره ك تقنية مشابهة (للتنفس الجيني) ، مع الفارق بأن العمليات موصوفة في اللغة الكيميائية الباطنية . ان التنفس قد شبه بالفعل الجنسي والعمل الكيميائي - والمرأة قد مثلت بالبوتقة^(١٠٨) .

وان العديد من الأفكار والتطبيقات التي سنشير إليها بعدئذ قد تأكدت في النصوص بدءاً من عصور شين وهان (٢٢١ - ٢٢٠ ق.م) الأمر الذي لا يعنى بالضرورة انها كانت مجهولة سابقاً . ولقد وضع انه من الملائم مناقشتها منذ الآن ، لأن تقنية الحياة المدبلة وفي بعض المعايير ، الكيمياء تشكل جزءاً لا يتجزأ من التاوية القديمة . غير أنه يجب ان نضيف ، بأن لاوتسو قد كان تأله في عصر الهان ، وان التاوية ، المنظمة في مؤسسة دينية مستقلة ، قد ترأست بعثة مسيحية وألهمت حركات ثورية . وهذه التطورات الغير متظرة لحد ما ، لن تدوم لفترة متأخرة [الفصل ٣٥ من هذا الكتاب] . وهنا يكفي التذكير ان لاوتسو كان فيما سلف معتبراً في نص يعود إلى ١٦٥ ق.م كظهور من العماء البدئي ممثلاً بـ pan-kou الكائن البشري الكوني cosmique (ف) (١٢٩) (١٠٩) .

أما بالنسبة للديانة التاوية (تاو كياو) فقد تأسست حوالي نهاية القرن الثاني ق م . من قبل تشانج رتاولينج ، فبعد ان حصل على اكسير الخلود ارتفع تشانج للسماء وحصل على لقب (المعلم السماوي) . وقد أقام في إقليم شيتشوان (ادارة تاوية) تجمعت فيها السلطات الرفيعة والروحية . وان نجاح المذهب يرجع بالأكثر لعبقريه مطبب لرئيسهم . وسنرى (فصل ٣٥) ان ذلك يتعلق بصنعه معجزة نفسية - جسدية مدعومة بوقعات من الطعام متخذة بطريقة مشتركة ، عندما كان يتم تقاسم فضائل التاو .

ان الحفلة التهتكية الشهرية «اتحاد الانفاس» كانت تتبع ذات الهدف . وعليه ، فإن أملاً مماثلاً لاعادة التجدد بواسطة التاو يميز حركة تاوية اخرى ، مذهب (السلام

الكثير). وقد سبق لمؤسس الحركة ان احضر للامبراطور في القرن الأول ق.م كتابا ذي رؤى اخروية . والكتاب ممل من قبل ارواح ، وكان يكشف الوسائل المؤهلة لاعادة تجديد عترة الهان الملكية . وقد اعلم هذا المصلح الملهم ولكن مسيحانيته استمرت تلازم المؤمنين . وفي ١٨٤ ق .م أعلن رئيس المذهب شانج شويه التجديد ، وأعلن (ان السماء الزرقاء) يجب ان تبدل «بالسماء الصفراء» (ولهذا السبب لبس المؤمنون عمام صفراء) . غير أن التمرد الذي أعلنه اخفق في وسط الاسرة المالكة . واخيرا خنق التمرد بواسطة الجحافل الامبراطورية ، ولكن الحميا المسيحانية امتدت خلال العصور الوسطى بكاملها . وان آخر رئيس «للعمام الصفراء» قد اعلم سنة ١١١٢ م .

حواشي الفصل السادس عشر

- ١ - ٢ - بينغ - تي - هو the Cradle of the East ص ١٦ و Ho ص ١٢١
- ٣ - هو Ho ص ٢٧٩ يصادف تطبيقات ومعتقدات مماثلة في بعض ثقافات الشرق الأدنى لما قبل التاريخ وفي أوروبا الشرقية .
- ٤ - ح - اندرسون - اطفال الأرض الصفراء ص ٣١٥
- ٥ - ٦ طبعة جيدة في كتاب Ho ص ١٥٤ و ٢٨٢
- ٧ - هينتر ص ٤٩ . سيوجد في هذه المؤلفات عدد كبير من الموازيت المختارة في الثقافات المشتركة ، تاريخيا او بشريا ، في الحضارة الصينية القديمة .
- ٨ - يتعلق بطريقة التنبؤ المنتشرة في آسيا الشمالية : تطرح المسألة وتسخر العظام أو الصدف ويشرح المتنبئون اشكال التشقق . ثم كان ينقش بجانب هذه التشققات السؤال والجواب .
- ٩ - برنارد كارلنجرين (اساطير ومعتقدات الصين القديمة)
- ١٠ - السلمندر والنمر والتين الخ . . مازالت قيد الاستعمال في الايقونات والفن الشعبي الصيني . وهي رموز كونية مؤكدة آتت منذ عصر النيوليتيك .
- ١١ - هينتر ص ١٤
- ١٢ - ١٣ - Fritzi بداية الحضارة الصينية ص ٣٢ - ٣٥
- ١٤ - العبارة : «أنا رجل وحيد ، أربما «أنا الرجل الأول» تأكلت في نقوش كهنوتية انظر - دافيد كيتلي .
- ١٥ - كما لاحظ كيتلي ص ٢٧٤ ان عبادة الاجداد ابرزت النسب الملكي باعتباره مصدراً للسلطة الدينية والسياسية . وان مبدأ وكالة السوء المعتبرة في العادة كاختراع للأسرة الملكية تشو ، تفرز جنودها لي لا صوت تشاج .
- ١٧ - لي تشي ص ٢١ - يلفت الكاتب الانتباه على البواعث الحيوانية (غر - غزال) في تزيينات الفازات

من البرونز (ص ١٣٣) وتضيف لذلك ان هذا ينطلق بحيوانات رمزية ، وتتصل برمزية كونية ومسارية معقدة .

١٨ - ١٩ - م - اليلاد - جنكيز خان ص ١٨٢

٢٠ - نذكر بعض التواريخ العلة : فترة التشيو الغربيين التي دامت حتى ٧٧١ ق.م تبعتها فترة التشيو الشرقيين ق ٧٧٠ - ٢٥٦ ق.م ومن ٤٠٠ - ٢٠٠ ق.م كان هنالك حروب لم تنقطع وهذا هو العهد المسمى عهد الملوك المحاربين الذي انتهى بتوحيد الصين حتى حكم الامبراطور هو وانغ - تي .

٢١ - أثناء هذه الفترة تم تحرير أو املاء الكتب الكلاسيكية وكما يلاحظ هينتر يشهد تحت حكم التشيو ابطال لهم صفة القداسة . والوظيفية الأولى للكتابة - تنظيم العلاقات اسماء - أرض - بشر قد ابدلت باشغال انساب وصور تاريخية وفي آخر المطاف - أصبحت الكتابة وسيلة للدعاية السياسية .

٢٢ - انظر شوكننج - ترجمة Legg ص ٤٢٨ : ان التشيو كانوا مشهورين انهم نزلوا من جواسطوري هيو لي امير ميليه ، وهو يمجذ في التشكنج (قصيدة ١٥٣) بصفاته اعطى القمح والشعير حسب اوامر الاله ، ويضاف الى ذلك ان الاصلحي البشرية المؤكدة في القبور الملكية لعصر الشانج ، قد انقرضت قلما تحت حكم التشيو .

٢٣ - ان صور الاشخاص ، مع الزراعين المرتفعين المحززة على اشياء من الغضار تمثل على الأرجح اجداداً أو كهنة لعبادة ذات علامة بالاسلاف . وهذا التشكل الايقوني قد تأكد في عصر النيوليتك وفي عصر الشانج ان مثلاً بارزاً من الفولكلور لعبارة عن الحد قد توضحت على صندوق من البرونز من اواسط عصر التشيو : على الغطاء قد مثلوا في نموذج سلج طيعي امرأة ورجلاً واقفين وجها لوجه .

٢٢ - اليلاد . الأمم الأرض والزواج الكونية - احلام واساطيره .

٢٦ - ٢٧ - انظر الثقافة الصينية جزين . smigorse دراسات في ديانة الشو .

٢٨ - نصوص مترجمة من قبل ماكس كالتنلوك (ولادة العالم في الصين ص ٤٥٦

٢٩) هنري ماسيرو الديانات الصينية ص ١٨٦ الخ .

٣٠ م . اليلاد . اساطير - احلام - اسرار ص ٨٠

٣٣ - هو القرن ٣ قبل المسيح - مترجمة من قبل كالتنلوك ص ٤٥٨

٣٤ ر . ن ج جيراردو اسطورة ومعنى في تلو تي تشينغ ص ٢٩٩

٣٥ م - اليلاد - اسطورة العودة الابدية ص ٣٠

٣٦ - بول ، ديلتي - الجهات الاربع ٣٠ ص .

٣٧ - مارسيل علزني . الفكر الصيني ص ٣٢٤

٣٨- غرانيت ص ١١٢ ويبدو واضحاً ان هذه المحطة الشعائرية في الوسط المنيع ثاب تناسب «فترة من التراجع خلالها كانت يتوجب على الرؤساء القدامى ان يتجاوزوا باعمق مايمكن بمنازلهم» الأيام الستة او الاثني عشر «كانت تستعمل بطقوس وملاحظات كانت تسمح تحليد غوترية الحيوانات ونجاح المحاصيل» الاثني عشر يوماً كانت تشكل تمثلاً مسبقاً للاثني عشر شهراً للسنة التي ستأتي - مفهوم قديم تأكد في الشرق الأوسط وامكنة أخرى .

٣٩- الياد مركز الدنيا- معابد مساكن ص ٦٨

٤٠- شين- تزيينات وافكار دينية .

٤١- م . الياد . ملاحظات حول الثانية الدينية . ازواج وتناقضات

٤٢- ٤٤ كارل هنتز- الفكر الصيني ص ١١٧ - ١٩٤

٤٥- غارنيه- رقصات وخرافات الصين القديمة ص ٤٣

٤٦- هو تو- ص ٣٢٠ وهذا اقدم تعريف علمي للتلو

٤٧- ماكس كليتهرك . لاونسود الطلوية ص ٣٠٠

٤٨- ماكس كليتهرك «ان هذا التلو هو الذي مثل المثل الأعلى لكونفوشيوس والذي اعلن ان من يسمع الكلام عن التلو صلباً يموت مساء بهلوه» .

٤٩- ترجمة كالتيهرك (ولادة الصين ص ٤٦٣) . وهذا المخطط للتلمي بسلسلة مستعمل لقرر بنا من طل المدارس الفلسفية من بتلينغ هو حتى الكونفوشين الجدد

٥٠- ٥١. ترجمة كالتيهرك ، لاونسو (٣٩) بالنسبة لثشوانغ تشو ، ايضا الشرط البيني لكمال الوحدة قد ضاع عندما تقيد الامبراطور هوين توين بهدف الحصول مثل كل البشر على وجه متمتع بسبع حضرات ولكن (العلماء) نأبىه سابع يوم بعد الثقب السابع .

٥٢- ٥٤ . اسم عائلته كان كونج kung (كونفوشيوس هي ترجمة لاثينية (k'un-fu-tzu) المعلم king

٥٥- ولكنه سرعان ما اغلق على كونفوشيوس الفضائل والصفات المميزة للابطال المحضرين .

٥٦- هذا المظهر وصف بتلاؤم من قبل هربرت فينغاريت - كونفوشيوس .

٥٧- يعرف جهد مماثل في التتريه والكابال وبعض تطبيقات Zen

٥٩- يميز على الأقل اربعة اوضاع ١ / لاونسو هو ذات الشخص لاونان من القرن الرابع ، الذي كان من الممكن ان يكون قد تلقى زيادة كونفوشيوس « لاونسو عاش اثناء الفترة المسماة الربيع والحريف ولكنه ليس مؤلف التاوتوكينج (٣) انه عاش في عصر الملكيات المتحاربة ٤٠٤ - ٤٢١ ق.م ولكنه لا يمكن ان تكون متيقنين انه كتب التاوتوكينج (٤) انه ليس شخصية تاريخية (انظر وينغ - نيت تان) طريق لاونسو ٣٠

٦٠ - ٦١ - ماكس كالتنارك - يصادف ذات الحالة في آداب أخرى تقليدية ، المؤلف المنسوب لبعض القصص أو المتأملين هو بصورة علمة قد اتم واغنى من قبل التلامذة بمعنى ما ، ان المؤلف قد اصبح شهيراً ، اصبح مجهولاً .

٦٢ - بدون اشارة مخالفة ، ثبت ترجمة ماكس كالتنارك ، الترجمة الانكليزية لـ وي - تسيت تان طريق لاوتسو وهي ثمينة بملاحظاتنا وشروحها . وترجمة ارتوالي الطريقة وثوتها) تتميز بصفاتها اللاوية ٦٣ - «الذي يتطلع الى القوة ويفكر بالحصول عليها بالعمل ، توقع فشله» [١: ٢٩] «الرئيس الممتاز للحرب ليس شرساً ، المحارب الجيد ليس عنيفاً ، إن من يتغلب على لعدو يشكل أحسن هو من لا يتخذ أبداً موقف الهجوم .. وهذا ما اسميه فضيلة اللا عنف . هذا ما اسميه المساواة في السماء» . (والمساواة بالنساء كانت المثل الأعلى للقلماء [٦٨: ٧-٢-١]

٦٤ - «في هذا العالم ، كل واحد يؤكد ان ماهو جميل هو جميل ، من هنا قد عين القبح ، وكل واحد يؤكد ان ماهو خير هو خير ومن هنا عين الشر» طول وقصر لا يوجد الا بالمقارنة ، الأعلى والأوطى متضامنان» [١: ٢]

٦٥ - «أو الأفضل ، الغوامض ، أو الأفضل ايضا المظلم أكثر عمقاً من الظلمة ذاتها لأنه ليس ثمة عبارة للتعلم بالسر» كالتنارك ص ٤٥

٦٦ - مشهد آخر يبرز التلو مثل (كائن غير مرئي ، غير متميز) الذي ينحى في احشائه الصور ، الكائنات الجواهر المخصبة والجواهر الروحية (فصل ٢١)

٦٧ - عبارة الانثى الغامضة (يستدعي الخصب السري للتو باعتباره ايضا ذو علاقة مع فكرة الوادي أو الحفرة في الجبل» (كالتنارك ص ٥٤)

٦٨ - انظر . م . الياد الخشي وميستوفيليس

٦٩ - مفهوم يتعلق بفكرة عامة موزعة بين كل المجتمعات التقليدية : الكمال يعود لبداية الدور (كوني أو تاريخي ، الانهيار بدئي به بالشعور به مؤخرأ .

٧٠ - كالتنارك ص ٨٤ ايلين ماري شيس ٣١ غارنية : الفكر الصيني ص ٥٠١

٧١ - ٧٢ نجد بعض الأمثلة المثيرة في الفصل ١٨

٧٣ - «أنا وهذه الجمجمة قال ليتسور لواحد من تلامذته (فعلم انه لا يوجد في الحقيقة حيلة) انها مجرد ذهب وعودة : الكائن الميت هنا ، هل أعلم اذا لم يكن كائن حي هنالك ؟

٧٥ - تشوانغ تسو . تشيو هو اسمه الشخصي

٧٦ - «بالتأمل الداخلي نجد مايرضينا بذاتنا» لي - تسو

٧٧ - كالتنارك ص ١٢٠ -وم . الياد الشلمانية ص ٣٥٠

٧٨ - حسب سيفين ، هذا التميز هو من خلق المؤرخين الرسميين الحديثين .

٧٩ - غراهام .. كتاب ليه تزو ص ١٠

- ٨٠- الأكثر أهمية هم ماسبيرو وغرانيت كالتهارك وشير .
- ٨١- حول العلاقة بين الأجنحة والزغب والطيوان السحري والتاية . انظر والتهارك وهو يعرف ان ريش الطائر هو واحد من الرموز الشائعة جداً «للطيوان الشلماطي»
- ٨٢- انه يتعلق بالصورة المثالية للاقاليم الفردوسية الخارجة عن الزمن والممكن الحصول عليها فقط من قبل المسارين . وحسب المؤرخ سملما . تبين فان عدة ملوك من القرن الرابع والثالث لرسلوا حملات للبحث عن هذه الجزر المافوق طبيعية .
- ٨٣- انظر . بعض الأمثلة في (التلوية) ماسبيرو ص ٨٢ - ٨٥
- ٨٤/٨٥- نذكر بان السينابر cyanabre اكسيد الزئبق) كان العنصر الاساسي لتحضير (اكسير الحية الدائمة)
- ٩٦- ماسبيرو (اجراءات التغذية ، المبدأ الحيوي في الديانة التلوية القديمة ص ٢٠٣
- ٨٧- ماسبيرو ص ١٩٨ يضاف الى ذلك ان (التنفس العين والصلد) للوجد كان يشبه بتنفس الحيوانات اثناء الرعي ، ويعرف ان العفوية واكتمال الحيوانية كانت تشكل بالنسبة للصينيين النموذج للممتاز للوجود في انسجام كامل مع الكون .
- ٨٨- ٨٩- مقدمة اطروحة ماسبيرو و. (على الباتيون التلوي يسكن الجسد البشري .
- ٩٠- ٩٤- ر. اليوجا جزء فصل ٣٢ وانظر هـ . دوزر بداية الكيمياء ص ٧٧
- ٩٦- ٩٧- ادوار شافان ذكريات تاريخية ص ٤٩٠ و ٤٦٥
- ٩٨- البحث عن الخالدين الساكنين في الجزر البعيدة اشغل الاباطرة الأول من اسرة تسين ٢١٩ ق.م
- ٩٩- فقرة مترجمة من قبل Dubs ص ٧١- ٧٢ ومن الممكن ان هذا النص ورد من مدرسة شويرين من المعلم ذاته ، المعاصر لمنشور القرن الرابع . . والعقيدة في التحول الطبيعي للمعادن قديمة جداً في الصين .
- ١٠٠- حدادون وكيميائيون- م الياد ص ٩٦
- ١٠١- ليونيل جيل -خلود الصينيين ص ٨٧. الخلود الجسدي كان من المعتاد الحصول عليه بامتصاص الاكسير المحضر في المخبر (فيلهام) ص ٩٣
- ١٠٢- نصوص الذكورة في جداولين وكيميائيين مرجع سابق ص ٩٩
- ١٠٣- جيمس ر. وار ص ٧٤ اكسيد الزئبق كشراب لطول العمر قد ذكر منذ زمن في القرن الأول ق.م في مجموعة قصص خرافية عن الخالدين التلويين- لي- سن بعد ان شرب السينابر خلال بضع سنوات اصبح احد المعلمين مماثلاً لمراق وأخيراً اصبح مؤهلاً لان يتحول من مكانه بالطيوان» الخ . كالتهارك ص ٢٧١
- ١٠٤- روف شتاين (حدائق من غنمة الشرق الأقصى) ص ٥٤
- ١٠٥- حول ماقبل تاريخية هذا الرمز . . كلرل هنتز ص ٣٣

١٠٦ - ١٠٧ - النصوص مثبتة في كتاب حدادون وكيميائيون - اليلاد . و (هذا الرجوع الى الرقم) ليس سوى التطوير لفهم اكثر قلما واكثر انتشارا ، متأكداً سابقاً على مستويات قديمة من الثقافة : الشفاء بالعودة الرمزية لأصول العالم ، اي باعادة التحقيق للنشكنية .. ان التالوين والكيميائيين الصينيين قد اخذوا وأكملوا هذه الطريقة التقليدية : بدلاً من الاحتفاظ بها لشفاء مختلف الامراض ، وقد طبقوها قبل كل شيء من اجل شفاء الانسان من ظلم الزمان أي الشيخوخة والموت .

١٠٨ - ١٠٩ . (لاوتسوطوى جسده . عينه اليسرى اصبحت القمر ، رأسه اصبحت جبل كوين هوين ، ذقنه اصبحت المذنبات عظلمه اصبحت الحيتان لحمه اصبحت ذات الاربع ، اعماله الافاعي ، بطنه اصبحت البحر الخ .. ترجمة (ماسيرو)

الفصل السابع عشر

البراهمانية والهندوسية ، الفلسفات الأولى ، وتقنيات الخلاص

١٣٥ - الكل هو عنه ...

إن اتساع البراهمانية ، ويعد بضعة قرون الهندوسية ، تلت عن قرب تأرين Organisation شبه القارة . ومن المرجح ان البراهمان وصلوا الى سيلان قبل ذلك في القرن ٤ ق.م . ومايين القرن الثاني ق.م والقرن السادس ق.م دخلت الهندوسية الى الهند الصينية ، سوماطرا ، وجافا ، وبالي ، وبالتأكيد ان دخول الهندوسية في الجنوب الشرقي لعبت جميعها على مايلو دوراً في اهتداء الهند الوسطى والشمالية . ان البراهمانيين بتنقلاتهم وجوبانهم في الأقاليم البعيدة ساهموا بقوة في التوحيد الديني والثقافي لكل شبه القارة . وفي بداية العهد المسيحاني ، نجح هؤلاء (المبعوثون) في ان يفرضوا على السكان الآريين وغير الآريين المحليين البنيان الاجتماعي ، والنموذج

الطقوسي ، ورؤية العالم الخاصة بالفيدا والبراهمانا . غير انهم اثبتوا في ذات الحين من التسامح والملاءمة ، في تمثل عدد كبير من العناصر الشعبية الهامشية والسكان الاصليين^(٢) .

ويفضل موافقات منجزة على عدة مستويات (ميثولوجية ، شعائرية ، لاهوتية الخ) تناقصت العقد الدينية الغير براهماتية الى مخرج مشترك ، وأخيراً امتصت من قبل الأصلية واستمر تمثل الآلهة المحلية والشعبية عن طريق الهندوسية كمظهر مازال قائماً^(٣) .

ان المرور من البراهماتية إلى الهندوسية غير محسوس ، وكما أشرنا إلى ذلك ، فإن بعض العناصر المميزة (هندوسية) كانت قبل ذلك ماثلة في قلب المجتمع الفيدي [ف ٦٤ ع] . ولكن بما انها لم تكن موضع اهتمام كتاب الأناشيد والبرهمنات ، فإن هذه العناصر (الشعبية) لم يقيض لها قليلاً أو كثيراً لأن ثبت في النصوص ، ومن جهة أخرى فإن العملية المؤكدة سابقاً في العصر الفيدي ، وبصورة خاصة تخفيض بعض كبار الآلهة وابدالها بصور أخرى (ف. ٦٦ ع) قد امتد حتى العصور الوسطى ، فإنندرا استمر بالمحافظة على شعبيته في الملحمة ، ولكنه لم يعد ابداً البطل والرئيس المفتخر لآلهة الأمس : ان الدهارما هو اكثر قوة منه ، وان النصوص المتأخرة تدل عليه وكأنه جبان ، وعلى العكس ، فإن قشنو وشيفا يحصلان على وضع استثنائي ، وتبدأ الآلهة النسوية دورها الاستعراضي .

ان التآيين organisation والهندوسة hindaisation لشبه الفارة قد انجز خلال الأزمات بعمق ويشهد على ذلك النسك والتأملات من عصر الأويانشاد ، وبصورة خاصة نبوءة غوتاما بوذا . وفي الواقع ، وبالنسبة للنخبة الدينية ، كان الأفق قد تغير جنزياً بعد الأويانشاد «كل شيء معاناة ، كل شيء مؤقت» . هذا ما أعلنه بوذا . وهذا ما يشكل لازمة لكل الفكر الديني قبل الاويانشادي . فالنظريات والتأملات كما هي ايضا طرائق التأمل والتقنيات المتعلقة بالخلاص soteriologique تجد مبررات وجودها في هذا الألم الشامل ، لأنه لا قيمة لها ، إلا في المعيار الذي تحرر فيه الانسان من «المعاناة» . ان التجربة البشرية ، من أية طبيعة كانت ، تولد الألم . وكما عبر عن ذلك مؤخرًا أحد المؤلفين ، «الجسد هو ألم ، لأنه مكان الألم ، والشعور ، وموضوعات الشعور

والاحساسات هي معاناة . لأنها توصل إلى الآلام ، والسرور ذاته معاناة ، لأنه متبوع بآلم^(٥) . إن ايدفاراً كريشنا مؤلف اقدم أطروحة ساخيا samkhya ، يؤكد على أنه في اساس هذه الفلسفة ، توجد رغبة الانسان بالتخلص من عذاب الآلام الثلاثة : التعاسة السالوية (مثارة من قبل الآلهة) والتعاسة الارضية (الناتجة عن الطبيعة) والتعاسة الداخلية أو العضوية^(٦) .

مع ذلك ، فإن اكتشاف الالم الشامل لم يصل للتشاؤم ، وإن اية فلسفة ، واية رسالة دينية هندية لم تسقطا في اليأس . ان الكشف (للآلم) مثل قانون الوجود يمكن له ، على العكس ، ان يكون معتبراً كشرط اساسي sine quanon وكاف للتحرر ، فهذه المعاناة الشاملة لها اذن ، من حيث الجوهر ، قيمة ايجابية منشطة . انها تذكر بدون كلل بالحكيم وبالناسك الذي بقيت له وسيلة وحيدة لأن يصل الى الحرية والقبطة : ان ينسحب من الدنيا ، وان يفصل عن الأموال والمطامع ، وان ينزل جنرلاً ، ومن جهة أخرى ، فان الانسان ليس هو وحده الذي يتآلم ، وإن الآلم هو ضرورة كونية . فالواقعة البسيطة للوجود في الزمان ، وللحصول على أجل ، تقتضي الآلم . وعلى خلاف الآلهة والحيوانات ، فإن لدى الانسان امكانية تجاوز شرطه بفاعلية . ان اليقين بوجود وسيلة للحصول على الخلاص - يقين شائع لدى كل الفلاسفة والصوفيين الهنود - لا يمكن أن يؤدي لليأس ولا التشاؤم . ان الآلم ، هو في الحقيقة شامل ، ولكن اذا عرفنا كيف نأخذ به لتحرر ، فإنه ليس نهائياً .

١٣٦ - طرائق لأجل «البقطة» القصوى .

«التحرر» من الآلم ، هدف كل الفلسفات والتجنيات القروسطية الهندية . فأي علم لا قيمة له اذا لم يرم «لسلام» الانسان . «خارج هذا [أي] . الخالد الذي يقيم في الذات» [لا شيء يستحق ان يعرف] . . [سفيتا - سفاترا او بانشاد . . ١ - ١٢] ^(٧) . ان «السلام» salut يقتضي التصاعد عن الشرط البشري . والأدب الهندي يستعمل على السواء صور الربط ، والتصفيد ، والأسر أو النسيان والسكر والرقاد والجهالة

، للدلالة على الشرط البشري ، وعلى العكس ، فإن صور التحرر من القيود وتمزيق الحجاب (أو رفع العصابة التي تغطي العيون) أو اليقظة والاستذكار الخ .. يعبر عن فقدان أي (مفارقة) الشرط البشري ، الحرية الخلاص (موكشا، موكي ، نيرفانا ، الخ) .

تحدث [الشاندوجيا ١٦ - ١٤ - ١٢] عن رجل مرسل بعيداً عن مدينته ، وعيونه معصوبة ، وملقى في مكان معزول . وقد أخذ الرجل يصرخ : «اقتادوني هنا ، وعيناي معصوبتان ، لقد تركت هنا ، وعيناي معصوبتان !!» . ورفع عندئذ أحدهم العصابة عن عينيه ودله على اتجاه مدينته . وبطلبه الاستعلام عن الطريق من قرية لأخرى ، نجح الرجل بالوصول الى بيته . ويضيف النص ، كذلك إن من له معلم قد يرينجح بالانعتاق من عصابات الجهل ويصل بالنهاية الى الكمال . وبعد خمسة عشر قرناً فسر سانكارا (٨٢٠ - ٧٨٨) بوضوح هذا المقطع من الشاندوجيا . وبالتأكيد ، ان هذا الميثافيزيكي الشهير (المختص بالفيدا) يفسر الخرافة من منظور منهجه الخاص ، وحلة الوجود المطلقة . ولكن تفسيره لم يفعل شيئاً سوى احياء وتأكيده المعنى الأصلي Originelle ويكتب سانكارا ، هكذا تقرأ الأشياء ، فمع الانسان المختطف من قبل اللصوص بعيداً من الكائن (بعيداً من الاثمان ، برامان) والمصاد بفخ جسده . إن اللصوص هي الافكار الخاطئة . («مزية ، قصور») . وان عينيه معصوبتان بعصابة من الوهم ، والانسان معلق بالرغبة التي يكابدها ، لأجل زوجته ، وابنه ، وصديقه وماشيتته .. الخ . «انني ابن أحدهم ، إنني سعيد أو تعيس ، انني ذكي أو جاهل ، انني بقي الخ .. كيف يجب أن أعيش ؟ اين يوجد طريق للهروب ؟ اين خلاصي ؟» . هكذا يفكر ، وهو مصاد في شبكة كريمة حتى اللحظة التي يلاقي فيها من هو شاعر بالكائن الحقيقي (برامان - اتمان) ، الذي انعتق من العبودية سعيداً ، وإضافة لذلك ممتلئاً باللطف من أجل الآخرين . انه يتعلم منه طريق المعرفة وعيشية العالم . وبهذه الطريقة ، فإن الانسان ، الذي كان أسيراً وأهامة الخاصة ، يتحرر من تبعيته لأشياء دنيوية . إنه يعرف آنئذ «كينونته الحقيقية» ذاته الحقيقية ، انه يعرف بأنه ليس هو المشرود على غير هدى الذي يظن أنه هو . بل على العكس ، انه يعرف ان ما اعتقد انه الكائن ، انه هذا هو ايضا . وهكذا ، فإن عينيه قد تحررتا من العصابة والوهم المخلوق

بالجهل ، وانه كالانسان الاسطورة العائد إلى منزله . أي واجداً الاثمان ممثلاً سروراً وصفاء^(٨) .

والميتري أو بانيشاد (٢ - ١٧) تقارن الذي مازال معلقاً بشرطه البشري بمن «هو مربوط بواسطة قيود ناتجة عن ثمار الخير والشر» أو بيفرق في الظلمات من «العشق» أو بضحية شعوة مضللة ، أو ضحية حلم مشتمل على استشباحات أو مودع في سجن ، أو «محمور بالكحول» («كحول الأخطاء») - وانه لهذا السبب لا يتذكر أبداً «الحالة الأكثر رفعة» . إن «المعاناة» التي تحدد الشرط البشري هي نتيجة الجهالة (آفيديا) . وكما تظهره الخرافة المفسرة من قبل سانكارا ، فإن الانسان يعاني من نتائج هذه الجهالة حتى اليوم الذي يكشف انه لم يكن الا بحسب الظاهر مورطاً في الدنيا . كذلك بالنسبة للسمخيا واليوجا ، فليس للذات La soi ماتفعله مع العالم (ف ١٣٩ع) .

ويمكن القول ، ان الفكر الديني الهندي ، بعد الاويانيشاد يطابق الانعتاق مع يقظة أو مع الوعي بحالة كانت موجودة منذ البدء ، ولكن لا يتوصل إلى تحقيقها . إن الجهالة - التي هي في الواقع - جهل الذات - يمكن تقريبها مع (نسيان) لذات حقيقية (اثمان ، بوروشا) . إن الغنوص أي العرفان ، (جانانا ، فيديا) بازائه للجهالة أو بتمزيقه حجاب المايا يجعل الخلاص ممكناً : «العلم» الحقيقي يعادل «اليقظة» . والبوذا هو «التيقظ» بامتياز .

١٣٧ - تاريخ الأفكار وتسلسل تاريخ النصوص .

باستثناء الأويانيشاد القديمة ، فإن كل النصوص الدينية والفلسفية الأخرى قد آلت بعد نبوءة بوذا . ويلاحظ احياناً تأثير بعض الأفكار المميزة للبوذية . ان عدداً من المؤلفات المحررة في القرون الأولى من التاريخ المسيحي تتابع ، بين أخرى ، نقد البوذية ، ومع ذلك ، لا يجوز المغالاة بأهمية تسلسل التاريخ . وبصورة عامة . ان كل اطروحة فلسفية^(٩) هندية تتضمن مفاهيم سابقة لتاريخ تحريرها ، وعلى الأغلب قديمة

جداً . وعندما نصادف في نص فلسفي شرحاً جديداً ، فإن هذا لا يعني انه لم يواجه سابقاً . وإذا أمكن هنا تثبيت (غالبا ، بشكل تقريبي) تاريخ تأليف بعض الكتابات ، وهذا فقط بدءاً من القرون الأولى من العصر المسيحي ، فإنه من غير الممكن تقريباً بناء التسلسل التاريخي للأفكار الفلسفية ذاتها^(١٠) . وإجمالاً ، فإن واقعة ان الكتابات الدينية والفلسفية ، المتضامنة مع التقليد البراهماتي ، كانت قد حررت بعد بوذا ببضعة قرون لا يعني القول انها تعكس المفاهيم المصاغة في العصر البوذي .

ان غوتاما ، خلال تدريبه ، كان قد التقى بعض ممثلي مختلف (المدارس) الفلسفية ، التي يمكن التعرف فيها على الاشكال الجينية للفيدانتا [أي مبدأ الاويانيشالات] والسمخيا واليوجا (ف ١٤٨ ع) . ولا يجدي هنا اعادة رسم المراحل التي تفصل هذه المخططات الأولية - المؤكدة في الاويانيشاد وفي الكتابات البوذية والجاينا- عن عباراتها النموذجية في العصر الكلاسيكي . ويكفي الدلالة على التحولات الأكثر أهمية ، والاشارة الى المتغيرات التي غيرت جذرياً التوجه الاصلي . غير أنه لا يجب نسيان ، ان كل الطرق وكل افكار الخلاص ، بعد عصر الاويانيشادات ، تنقسم لبوساً تصنيفياً عاما . ان التوالي sequence أفيديا - كارمان - سامسارا ، المعادلة الوجودية = ألم ، التفسير للجهل بكونه رقاد ، حلم ، سكر ، أسر ، - هذه المجموعة من المفاهيم ، ومن الرموز ومن الصور كانت باتفاق الآراء مقبولة . وقد اعلنت (الساتاباتا براهمانا): ان الانسان مولود في عالم مصنع بواسطة ذاته [٦ : ٢٢] . ويمكن القول ان (الدارسانا) الثلاثة المتضامنة بالبراهمانية - فيدانتا ، سمخيا ، يوجا ، كذلك البوذية ، تطبق بالاجمال لتفسير هذه البديهية وتلئين نتائجها .

١٣٨ - الفيدانتا مقابل المنهجية .

المصطلح فيدانتا (لغويا «نهاية فيدا») كانت تدل على الاويانيشادات ، وفي الواقع ان هذه قد وضعت بنهاية النصوص الفيدية . في البدء ، كانت الفيدانتا تدل على مجموعة المبادئ الماثلة في الاويانيشادات . ولم يصبح هذا المصطلح تسمية مميزة لنموذج فلسفي معارض للدراسات الأخرى ، وبصورة خاصة للسمخيا ، واليوجا الكلاسيكية ، الا

تباعاً وبعد فترة متأخرة (أول قرن بعد المسيح) . بتحليل المبادئ الأويانيشادية ، عرضنا سابقاً الأفكار الرئيسية للفيديانتا الما قبل منهجية . اما بالنسبة «لنوع الفلسفة» الفيديانتية بمعنى الكلمة ، فإنه من غير المعلوم أقدم تاريخ لها . إن أقدم مؤلف احتفظ به ، البراهما - سوتر ، المنسوب للريشي (الناسك) بادارايانا ، قد حرر على الأرجح في بداية عصرنا . ولكنه لم يكن ، تأكيداً ، الأول ، لأن بادارايانا يذكر أسماء وأفكار مؤلفين عديدين ممن سبقوه . وعلى سبيل المثال ، ومناقشته للعلاقات بين الأثمانات الفردية ، وبراهمانا ، فإن بادارايانا يتكلم عن ثلاث نظريات مختلفة ، ويذكر الأسماء لأكثر مشاهير مثليهم . وحسب النظرية الأولى ، ان آثمان وبراهمانا متماهيان ، وحسب الثانية ، إن آثمان وبراهمان ، مختلفين تماماً ومنفصلين حتى الخلاص ، وأخيراً حسب ثالث معلم فيديانتي ، فإن الأثمان هي من جوهر إلهي ولكنها غير متطابقة مع براهمان [بر - سوترا ١ - ٣ - ٢١] .

ومناقشة النظريات المعروفة حتى ذلك الحين ، فإن بادارايانا كان له على الأرجح هدف تركيب مبدأ معلمن براهمانا كأنه هو العلة المادية والفعالة لكل ما يوجد ، وفي ذات الوقت كأنه أساس الأثمانات الفردية ، مبدأ قبل ، مع ذلك ، ان المعتقن يستمرون بالوجود بشكل خالد ككائنات روحية مستقلة . وبكل أسف ان المعرفة لـ ٥٥٥ مثلاً وقولاً مأثوراً والتي تشكل البراهما - سوتر هي صعبة جداً بدون تفسير . ولأن هذه السوترات المختصرة واللغزية بشكل متفرد تخدم كمذكرة - مساعدة ، وان معانيها يجب ان تجلى من قبل معلم . ولكن التفسيرات الأولى قد أهملت ، وأخيراً ، تلاشت ، بعيد الشرح العبقري من قبل سانكارا حوالي عام ٨٠٠ من هذا العصر . ويعرف فقط أسماء بعض الكتب وعدد من النسخ^(١٢) .

مع ذلك ، ففي السفيتاشفاتارا ، وفي لاميتري اويانيشاد وفي بهاكافا وجيتا ، وفي الموكشاهاراما [الكتاب ١٢ من ماهابهاراتا] ، يوجد عدد كاف من الاشارات المتعلقة بالخطوط الكبرى للفكر الفيديانتي قبل سانكارا . إن مبادئ المايا تكسب أهمية على المستوى الأول . وانها بصورة خاصة العلاقات بين براهمات الابداع والمايا اللتين تثيران التأمل . ان المفهوم القديم للخليقة الكونية بصفتها مظهراً للقوة السحرية (مايا ، البراهمان ، يدع الخطوة امام الدور المتطور للمايا في تجربة كل فرد ، وبصورة خاصة

تجربة العماء . وفي آخر المطاف ، فإن مايا هي ممثلة بالجهالة (آفيديا) ومقارنة بالحلم . إن (الحقائق) المتعددة الاشكال للعالم الخارجي هي أيضاً خداعة كمضمون الأحلام . إن الميل (المؤكد سابقاً في الريغ فيدا ١٠ - ١٢٩) لجمع الحقيقة باله ، أي في الواحد / الكلي ، قد وصل إلى صيغ جريئة أكثر فاكثراً . فإذا كان الكائن هو الأزلي وحدة / كلية ، فليس الكون فحسب أي تعدد الموضوعات ، هو وهم (مايا) ، وإنما أيضاً تعددية للأرواح . ومنذ جيلين قبل سانكارا ، يؤكد المعلم الفيدانتي جودابادا أن العقيدة في تعددية الائمات الفردية قد احتوت من قبل المايا [ر. ماندوكايا - كاريكا ٢ ، ١٢ - و١٩] . وبالفعل ، لا يوجد سوى كائن وحيد براهمان ، وعندما يتأمل حكيم بطريقة يوجية ويدرك حكيم تجريبياً أئمته الخاص (يتيقظه) في النور والنعيم لحاضر خالد .

إن الهوية براهمان - اثنان تشكل - كما رأينا الاكشاف الأكثر أهمية للأوبانيشادات (ف ٨١٠ع) . إلا أنه بعد انتقادات الفقهاء البوذيين ، أكره المعلمون الفيدانتيون على بناء انطولوجيتهم بطريقة منهجية وضيقة وإجمالاً خلاصية . وفي هذا الجهد من إعادة التفكير بالتراث الأوبانيشادي وصياغته تبعاً لضرورات العصر ، فإن سانكارا بقي متفرداً لا مثيل له . ومع ذلك وبالرغم من جاذبية مؤلفه والتأثير الملحوظ لفكره في تاريخ الروحية الهندية ، فإن سانكارا لم يستنفذ الامكانيات الصوفية والفلسفية للفيدانتا . وخلال عدة قرون بعده ، فإن عدداً من المعلمين أحيوا انظمة موازية . ومن جهة أخرى ، ان الفيدانتا تتميز عن الدارسات الأخرى بواقعة انها لم تستنفذ ابداعيتها في عصر السوترات وشروحها الأولى كذلك . في حين انه يمكن القول ان المهم في (الانظمة الفلسفية) ساخيا ويوجا كان قد اعلن بين القرنين الرابع والسابع ، ان الفيدانتا عرفت تفتحها الحقيقي بدءاً من سانكارا .

١٣٩ - الروح حسب السمخيا - يوجا .

تماماً قبل الصياغة النموذجية (لفلسفة) السمخيا ، فإن لفظها المميز قد تأكد في الكاتبا او بانيشاد^(١٣) . أي في القرن الرابع ق.م وان السافيتاسفاتارا او بانيشاد التي

هي على الأرجح أكثر حداثة ، تتضمن عدداً من المراجع حول مبادئ سمخيا - يوجا وتستعمل المفردات التقنية الخاصة لهاتين الدارسانا . غير أن تاريخ مبادئ السمخيا غير معروف جيداً حتى ظهور أول أطروحة نموذجية ، هي ايشعاراكريشنا (على الأرجح في القرن الخامس ق.م) وعلى كل حال فإن المسألة تعني تاريخ الفلسفة الهندية أولاً .

ويكفي هنا القول بأن السمخيا - الما قبل النموذجية - كما امكن اعادة تكوينها على سبيل المثال ، تبعاً لبعض المقاطع من الموكشادهاما - قد أعلنت كمعرفة روحية ، غنوص ، انقاذية بامتياز ، إلى جانب اليوجا - كانتظام عملي غاية في الكمال . وباختصار فإن السمخيا تمتد الاويانيشاد ، مؤكدة على الدور الحاسم للمعرفة في الحصول على التحرر . إن أصولية معلمي السمخيا الأوائل تقوم في اقتناعهم بأن العلم الحقيقي يفترض تحليلاً صارماً للتكوينات والبنى وديناميكيات الطبيعة ، وللحياة والنشاط النفسي - الفعلي المكتمل بجهد مدعوم لاستخراج القلب النوعي للنفس (بيروشا) ، وحتى في العصر الكلاسيكي ، أي اعتباراً من كتابة المباحث النموذجية الأولى ، فإن السمخيات - كاريكا - ايزفاراكريشنا واليوجات - سوتراباتانجالي كانتا اطارين نظريين (دارسانا) قريين لحد ما . وثمة تمييز يمكن الاشارة اليه بفارقين أساسيين :

(١) فبينما ان السمخيا التقليدية كافرة athe ، فإن اليوغا مؤلفة theiste لأنها تتلمس وجود رب (ايسغارا) ، (٢) في حين ان الطريق الوحيد ، حسب السمخيا ، للحصول على الانعتاق هو المعرفة الميتافيزيكية ، فإن اليوجا تعطي أهمية بارزة لتقنيات التأمل . هذا وان الفوارق الأخرى ليست بذات قيمة . وبالتيجة ، فإن مبدأ سمخيا ، الذي اشرنا إليه باختصار يمكن له ان يعتبر كذلك صحيحاً بالنسبة للاطارات النظرية لليوغا - سوترا باتانجالي (١٥) .

وفي السمخيا واليوجا ، إن العالم هو حقيقة «وليس هو وهما ، كما هو الشأن ، على سبيل المثال في الفيدانتا» . ومع ذلك ، اذا كان العالم يوجد ويدوم ، فإن ذلك يعود للجهالة بالروح (بيروشا) . إن الاشكال التي لا تخصى من الكون ، كذلك عملياتها من ظهور وتطور ، لا توجد الا في المعيار حيث الروح ، الذات ، تجهل نفسها ، ويفعل هذه «الجهالة» تألم وتستعبد . وفي الوقت المحدد حيث ستجد آخر ذات الخلاص ، في هذا الوقت نفسه سيُمتص الخلق بمجمله في المادة الأولية (براكرتي) .

وتماما مثل اثنان الاويانيشادات ، فإن البيروشا هي غير قابلة للتفسير . فصفتها هي سلبية . الهو lesoi (هو الذي يرى) ساكسان ، لغويا . «شاهد» ، وهو منزل ، حيادي ، مجرد مراقب بسيط غير فعال» [سمخيا كاريكا ١٩] . ان استقلالية وعدم مبالاة الروح ، صفتان تقليديتان ترددان في النصوص باستمرار وان البيروشا بصفتها لا تقهر وبجدة عن الصفات ليس عندها عقل طالما انها بدون رغبات . والرغبات ليست ابدية ، وهي لا تنتمي اذن للروح ، ان الروح هي حرة ابدياً ، و «حالات الشعور» ، ومد الحياة النفس - عقلية غريبة عنها^(١٦) . وعليه فإن هذا المفهوم (للبيروشا) يثير على الفور الصعوبات . وفي الواقع ، اذا كانت الروح نقية ابدية ، وحيادية ، ومستقلة ولا تقهر ، فكيف يمكن لها ان تقبل بأن تترك لتتدنس في التجربة النفس - عقلية ؟ . وكيف يمكن لمثل هذه العلاقة ان تكون ممكنة ؟ . ستفحص ، مع كثير من الفائلة ، الحل المطروح لهذه المسألة من قبل السمخيا واليوجا عندما سنعرف بشكل أفضل العلاقات التي يمكن أن تتعامل بها الذات والطبيعة . وهنا نحدد بدقة أنه لا الأصل ولا السبب لهذه الوضعية المتناقضة أي هذه «العلاقة» الغريبة التي تصل البيروشا بالبراكرتي ، يشكلان الموضوع لجدل أصولي في السمخيا - يوجا .

ان السبب والأصل لهذه المشاركة للنفس والتجربة ، هما مظهران لمسألة اعتبرها معلوم السمخيا - يوجا غير قابلة للحل لأنها تتجاوز الطاقة الحالية للادراك البشري . وفي الواقع ، إن الانسان يعرف ويدرك بوسيلة «القوة العاقلة - بودهي» . ولكن هذه القوة العاقلة» نفسها ، ليست سوى حصيلة - مصفاة جداً ، وفي الحقيقة - من المادة الأولية (براكرتي) . إن ظاهرة القوة العاقلة - بودهي - بصفتها حصيلة من الطبيعة ، لا يمكن لها ان تحافظ على علاقات المعرفة الا مع ظواهر أخرى ، وفي أي حال لن تعرف الذات : لأنها لن تحافظ على علاقات من أي نوع من حقيقة تصور متعال . وان السبب ، وكذلك الأصل لهذه المشاركة المتناقضة للذات وللحياة (أي للمادة) هو وحده أداة لمعرفة غير مدخلة للمادة ابدأ ويمكن الوصول لمعرفتها . وعليه فإن مثل هذه المعرفة هي غير ممكنة في الشرط البشري الحالي .

ان السمخيا - يوجا تعرف ان سبب المعاناة هو الجهالة ، وبعبارة اخرى اختلاط أو فوضى النفس مع الفعالية - النفسية العقلية . ولكن اللحظة المحددة ، حيث هذه الجهالة بنظام ماوراء الطبيعة اظهرت عدم امكانية اقامتها ، وكذلك استحالة تثبيت تاريخ الخليقة . فإرادة إيجاد حل لهذه المسألة هو أمر عبث ، ويتعلق بمسألة معروضة بشكل سيء ، وحسب عرف براهماني قديم [سنكارا - فيدانتا سوتر ٣ ، ١٧٢] وحافظ عليه بوذا نفسه في العديد من المناسبات ، إن الصمت هو الجواب على سؤال مطروح بشكل سيء .

١٤٠ - معنى الخلق : مساعدة انعتاق الروح .

المادة ، براكرتر ، هي أيضاً حقيقة وهي أيضاً ابدية كالروح بيروشا ، ولكنها على خلاف بيروشا ، ديناميكية وخالقة . مع تجانس تام ، تملك هذه المادة الأولية ، ان صح القول ، ثلاثة «طرائق للتكون» تسمح لها بأن تظهر بثلاثة أنواع مختلفة تسمى (جوناس) gunas : (١) ساتفا (طريقة النورانية والذكاء) (٢) راجا (طريقة الطاقة المحركة والنشاط العقلي) (٣) ثاما (طريقة الخمول السكوني والغموض النفس - عقلي . فالجوناس له اذن خاصية مزدوجة : موضوعية من جهة ، لأنها تشكل ظواهر الكون الخارجية وشخصية ، من جهة أخرى ، لأنها تتحمل ، وتغذي وتشرط الحياة النفس - عقلية .

وما أن تخرج المادة عن حالتها البدئية من الاستقرار الكامل وتأخذ خصائص مشروطة بواسطة «غريزتها الغائية» (التي سنعود إليها) ، حتى تمثل هذه المادة براكرتي تحت شكل كتلة مولدة للطاقة تسمى ماهات «الكبير» . ومنجذبة باندفاع التطور (بارميناما) تمر البراكارتي = المادة ، من حالة الماهات (الكتلة) لحالة الأهامكارا التي تعني : كتلة موحدة مدركة محرومة ايضاً من التجربة (الشخصية) ولكنها متمتعة بشعور غامض لتكون أنا أو ذات ego «من هنا العبارة للأهامكارا ، أهام = الأنا» ، وانطلاقاً من هذه الكتلة المهيأة للادراك ، فإن عملية

التطور تتشعب في اتجاهين متعارضين ، أحدهما يقود لعالم الظواهر الموضوعية ،
والآخر لعالم الظواهر الذاتية (احساسات ونفس - عقلية) .

وبالنتيجة فإن العالم - موضوعي أو ذاتي - ليس سوى التحول من مرحلة
بدائية للطبيعة الالهام كارا ، عندما ، ولأول مرة ، انبثق في الكتلة المولدة
استشعاراً للأننا ego . وبعملية مزدوجة من التطور ، خلقت الأهامكارا عالمين :
داخلي وخارجي ، وهذان «العالمان» لهما فيما بينهما تواصلات انتقائية . وبذات
الأمر فإن جسد الانسان ، كذلك ، وظائفه الفسيولوجية ، واحساساته و«حالاته
من الشعور» وحتى «ذكاءه» كلها ابداعات لمادة واحدة : تلك التي أنتجها العالم
الطبيعي ومكوناته (ف. ٧٥) .

وثمة مجال للملاحظة الأهمية الرئيسية التي تنيطها السمخيا - يوجا ، ككل
الأنظمة الهندية تقريباً ، بمبدأ التفردية «بالشعور بالذات» . فتكوين العالم هو عمل
شبه نفسي والظواهر الموضوعية والنفس - فسيولوجية لها رحم مشترك ، وان الفرق
الوحيد الذي يفصل فيما بينها هو صيغة الغوناس والساتفا السائدة في الظواهر
النفس - فسيولوجية (عشق ، نشاط الحواس الخ) . في حين ان ظواهر الكون
المادي مشكلة بالمنتجات الأكثر فالأكثر ثقلاً والحاملة للتماما «الجزئيات les artomes ،
والاعضاء النباتية والحيوانية الخ»^(١٧) .

ومع هذا الأساس الفسيولوجي ، نفهم لماذا ان السمخيا - يوجا تعتبر أن
كل تجربة فيزيائية ، كأنها عملية (مادية) بسيطة . وان الاخلاق تستشعر منها :
فالطية ، على سبيل المثال ، ليست صفة للروح ، ولكنها (تطهير) للمادة البارعة
المثلة بالشعور . ان الغوناس تخصب كل العالم ، وتقيم جاذبية عضوية بين
الانسان والكون . وفي الواقع ، ان الفرق بين الكون والانسان ليس سوى فرق
في الدرجة وليس في الجوهر .

إن المادة بفضل «تطورها» المتقدم (باريناما) انتجت اشكالاً لا متناهية ،
وهي مؤتلفة أكثر فأكثر ومفترقة أكثر فأكثر . وتعتقد السمخيا ان خليقة على هذه

الدرجة من السعة ، وإن بناء من اشكال وعضويات و (أجهزة) معقدة الى هذه الدرجة تقتضي تبريراً ومعنى خارج ذاتها . وإن براكرتي اولية ، بدون شكل وثابتة ابديا يمكن أن يكون لها معنى ، ولكن العالم كما نراه ، يظهر على العكس عددا بارزا من البنى والأشكال المميزة . وإن العقد الموروفولوجية . للكون قد رفعت بالسمخيا لمصاف اثبات ميتافيزيكي ، لأن الحس السليم يعلمنا ان كل مركب يوجد في مقابل آخر . وهكذا على سبيل المثال ، ان السرير هو مجموعة مؤلفة من عدة اجزاء ، ولكن هذا التركيب المؤقت للأجزاء مصنوع من وجهة نظر الانسان [سمخيا - كاريكا ١٧] .

وهكذا ابرزت السمخيا - يوجا الخاصية الغائية للخليقة ، واذا لم يكن للخليقة في الواقع ، مهمة خدمة الروح فإنها ستكون محالا ، ومجردة من المعنى . ان كل مافي الطبيعة مركب ، وكله يجب له اذن ان يحصل على (مراقب) ، هو أحدهم ممن يمكن ان يستخدم لهذه المركبات . وهذا (المراقب) لن يكون النشاط العقلي ولا الحالات الشعورية «التي هي بذاتها ايضا الحصىلة المعقدة جدا للبراكرتي» . وان هذا هو أول دليل لوجود الروح : «المعرفة لوجود الروح بالتنظيم من أجل منفعة الغير»^(١٨) . ومع أن الذات بيروشا هي محجة بالأوهام وباختلاطات الخليقة الكونية ، فإن البراكرتي متحركة بهذه (الغريزة الغائية ، المتجهة بكليتها صوب الانعتاق من البيروشا . ولأنه «من براهمان حتى آخر قشة من العشب ، فإن الخلق هو من أجل منفعة الروح إلى أن تدرك المعرفة الأسمى» [سمخيا - سوترا ٣ : ٤٧]

١٤١ - دلالة الانعتاق .

اذا كانت فلسفة السمخيا - يوجا لم تفسر السبب ولا أصل المشاركة الغريبة المقامة بين الروح و (حالات الشعور) ، فهي على الأقل قد حاولت تفسير طبيعة مشاركتها . انها لا تتعلق أبداً بصلات حقيقية بالمعنى الأصلي للكلمة ، كما

توجد مثلاً بين الموضوعات الخارجية والاحساسات ، انما - وهذا ، بالنسبة للسمخيا - يوجا ، المفتاح لهذه الحالة المتناقضة - الجزء الأكثر لطافة ، والأكثر صفاء للحياة العقلية ، أي الذكاء (بودهي) تحت نموذجه من نقاوة (التنوير) ساتفا وله خاصيته المميزة : هي التعبير عن الروح . ومع ذلك فإن الذات Le soi ليست مفسدة بهذا الانعكاس ولم تفقد نموذجيتها الانطولوجية (خلود ، لا انفعالية الخ) . كذلك وكما ان الزهرة تنعكس صورتها في مرآة ، فإن العقل يعكس البيروشا [يوجا - سوترا ١ - ٤١] ولكن الجاهل وحده هو الذي يمكنه ان ينسب للمرآة خصائص الزهرة (شكل إبعاد لون) . فعندما يتحرك الموضوع ، تتحرك صورته في المرآة ، مع أن هذه تبقى غير متحركة .

من الأزل توجد الروح مساقاة في هذه العلاقة الوهمية مع التجربة النفس - عقلية ، أي مع الحياة والمادة . وهذا ما يرجع الى الجهل [ي . س . ٢ - ٢٤] . ومهما استطال الزمن ببقاء الأفديا ، فإن الوجود هنالك باق بفضل كارمان ، ومعها الألم . ان الجهل يتكون في الخلط بين ما لا يتحرك (ثابت) وأبدية بيروشا وتمدد الحياة النفس - عقلية . إن القول : أنا أتألم ، أنا أريد ، أنا أكره ، أنا أعرف ، والظن بأن هذه (الأنات) تتعلق بالروح ، هو عيش في الوهم وتمديد له . وهذا يعني أن كل فعل يأخذ منطلقه في الوهم هو ، إما استهلاك لامكانية فعل مخلوقة بعمل مسبق ، وإما إسقاط لقوة أخرى تطالب بدورها بتحقيقها ، واستهلاكها في الوجود الحاضر أو في وجود مقبل .

ذلك هو قانون الوجود : إنه نقل عبر الذات ، ككل قانون ، ولكن صحته وشموليته هي في الأصل من المعاناة التي أنشأها الوجود . وبالنسبة للسمخيا كما هو بالنسبة للأوبانيشاد ، لا يوجد سوى طريق واحد للحصول على الخلاص : هو معرفة الروح على نحو كاف ، وان المحطة الأولى في الحصول على هذه المعرفة المنقذة يقوم في الآتي : انكار الخواص عن الروح ، ويرجع هذا لانكار المعاناة بصفة انها تتعلق بنا ، واعتبارها كواقعة موضوعية ، خارج الروح ، أي مجردة عن القيمة ، بمعنى (ان كل «القيم» وكل «المعاني» هي مخلوقة بالعقل) . إن الألم يوجد

في المعيار الوحيد حيث ترتبط التجربة بالشخصية البشرية معتبرة كمتوحدة بالذات ، ولكن هذه العلاقة بكونها وهمية ، يمكن لها أن تحذف بسهولة . فعندما تكون الروح معروفة ومستعلية فإن القيم معدومة ، والألم لن يكون عندئذ المأ ، ولا ألم ، وانما مجرد واقعة بسيطة . ومنذ اللحظة التي ندرك فيها ان الذات حرة ، خالدة وغير فاعلة ، فإن كل ما يحصل لنا : ألم ، عواطف ، ارادة افكار الخ . . لا ينتمي اليها .

إن المعرفة هي يقظة ، بسيطة تكشف جوهر الذات . وهذه المعرفة لا يحصل عليها بالتجربة وانما بنوع من الكشف : يكشف الحقيقة الكلية في الحال . كيف ، ومنذئذ ، هل من الممكن ان الخلاص قد تحقق بتعاون ان براكرتي؟؟ . وتجب السمعيا على هذا التساؤل بالدليل الغائي : المادة تعمل غريزيا بهدف التحرر من بيروشا . وان العقل (بودهي) بصفته المظهر الأكثر رقة للبراكرتي يسهل عملية الخلاص باستخدامه تدرجاً بدئياً للكشف . وما ان يتحقق تحرك الكشف ، حتى ان ، العقل ، وكذلك كل العناصر الأخرى النفس - عقلية (اذن المادية) ، التي وصف بها البيروشا بدون حق ، جميعها تسحب ، وتنفصل عن النفس لكي تتمتع في المادة ، مشابهة في هذا «راقصة تمضي لسبيلها بعد ان اشبعت رغبة سيدها»^(١٩) . «لاشيء اكثر حساسية من ال براكرتي ، فمنذ قالت لنفسها : (لقد عرفت ، لا تظهر نفسها ابداً لعيون الروح» [سام .- كار . ٦١] . وتلك هي حالة «الناجي في الحياة» (جيفان - موكتا) : الحكيم مازال يعيش ، لأنه بقيت له البقية الكارمية ليستهلكها (غاما كدولاب الفاخوري يستمر في الدوران بسبب السرعة المكتسبة ، مع ان الاناء قد سبق واكمل : [سام . كار . ٦٧ ، وسام . سوترا ٣ ، ٨٢] ولكن عندما تترك الجسم في فترة الموت فالروح ، بيروشا ، تنعتق تماماً . [سام . كار . ٦٨] .

وبالفعل ، ان السمعيا - يوجا قد ادركت ان الروح لا يمكن لها ان تولد ولا أن تلتف : وانها ليست مسخرة ولا فاعلة «أي باحثة بنشاط عن الانعتاق» وانها ليست لا متعطشة للتحرر ولا منعتقة [جودا بادا ، ماندوكيا - كاريكا ٢ : ٣٢]

«نموذجها هو كما استخلصت هاتان الامكانياتان» [سمخيا - سوترا ١ - ١٦٠] ، الذات هي نقية ، ابدية وحررة ، لا يمكن لها ان تستعبد ، لأنها لن تقيم علاقات مع شيء آخر غير ذاتها . ولكن الانسان يعتقد ان البيروشا هي مستعبدة ويظن انه يمكن لها ان تنحدر . وتلك هي أوهاام حياتنا النفس - عقلية . فإذا كان الخلاص يظهر لنا كمأساة ، فذلك لأننا نضع أنفسنا من وجهة نظر بشرية . وفي الحقيقة ان الروح ليست سوى «متفرج» ، وكذلك الأمر فإن «الخلاص» (موكتي) ليس سوى استعادة الشعور بالحرية الأبدية . إن المعاناة تتلاشى من ذاتها منذ ان نعرف انها خارج الروح ، وانها لا تتعلق سوى «بالشخصية» الانسانية (ازميتا) .

ان السمخيا - يوجا ترجع التنوع اللامتناهي للظواهر الى مبدأ واحد ، المادة (براكرتي) وتشتق من رحم واحد العالم الطبيعي ، والحياة والشعور . وهذا المبدأ يلتبس مع ذلك تعددية الأرواح ، مع أن هذه بطبيعتها متطابقة في الأساس . ان السمخيا - يوجا توصل هكذا ما يبدو مختلفاً - الطبيعي ، والحيوي والعقلي - وتعزل ماهو - في الهند بصورة خاصة ، يبدو وحيداً وكلية : الروح . ان كل بيروشا هي في الواقع معزولة كلية ؛ لأن الذات لا يمكن لها أن تحصل على أي تماس ، لا مع العالم ، ولا مع الأرواح الأخرى . ان الكوزموس مسكون بهذه البيروشات الابدية ، الحرة والغير متحركة ، موندات (عناصر الوجود الاساسية) التي بينها أي اتصال هو غير ممكن . وباختصار انه يتعلق بمفهوم مأساوي ومتناقض للروح ، مفهوم كان من جهة اخرى قد هوجم ايضا بقوة من قبل الفقهاء البوذيين كذلك من قبل المعلمين الفيدياتين .

١٤٢ - اليوجا : تركيز على موضوع واحد .

ان المراجع الأولى الدقيقة لتقنيات اليوجا تظهر في البراهمانا و بصورة خاصة في الأوبانيشاد . غير أنه فيما سلف في الفيذا جرى التساؤل حول بعض النساك والوجديين ، الممارسين لعدد من التطبيقات الماقبل اليوجية ، والمتمتعين «بقدرات مذهشة» [ف . ٧٨ع] . وبما أنه منذ مدة قريبة كانت عبارة يوجا تدل

على كل ممارسة تنسكية وكل طريقة للتأمل ، فإن الممارسات اليوجية تصادف في كل مكان في الهند تقريبا ، وحتى في الأوساط البراهمانية كذلك لدى البوذيين والجانبيين . غير أنه إلى جانب هذه اليوجا الماقبل المنهجية والماقبل الهندية تشكلت تباعاً يوجا - دارسانا ، اليوغا الكلاسيكية ، كما صيغت بعد زمن متأخر من قبل باتانجالي في اليونا - سوترا التي ألفها ويقر هذا المؤلف نفسه (ي - س ١ - ١) أنه باختصار لم يفعل سوى إعادة جمع وتنظيم التقاليد المبدئية والتقنية لليوجا . أما بالنسبة لشخص باتنجالى ، فلا يعرف شيء عنه . ولا يعرف حتى ما إذا كان قد عاش في القرن الثاني أو الثالث أو حتى الخامس ب . م . ومن بين الحصائل التقنية المحفوظة بالتقليد ، تناول تلك التي تحققت من صحتها بكفاية تجارب دورية . وفيما يتعلق بالأطر النظرية والأساس الميتافيزيقي التي اعطاها باتنجالى إلى هذه الممارسات ، فإن اسهامه الشخصي ضعيف جداً . إنه لم يفعل سوى معاودة تناول نظرية سمخيا في خطوطها العريضة وتنسيقها في توحيد سطحي .

إن اليوجا الكلاسيكية تبدأ من حيث تنتهي السمخيا . لأن باتنجالى لم يعتقد بأن المعرفة الماورائية تستطيع بذاتها لوحدها ، ان تقود الانسان الى الخلاص . إن المعرفة لا تفعل سوى تهيئة الأرضية بهدف انتصار الحرية : وهذه يمكن الحصول عليها بواسطة تقنية تنسكية وطريقة تأمل . وقد عرّف باتنجالى اليوجا هكذا : «محو حالات الشعور [ي . س ١ - ٢] . هذه (الحالات من الشعور) سيتافرتي هي بعدد لا متناه ، ولكنها تدخل جميعها في اصناف ثلاثة ، وتتعلق على التوالي بامكانيات للتجارب : (١) الاغلاط والأوهام (احلام - هلوسة ، اخطاء في الادراك الحسى اختلاطات الخ» (٢) شمولية التجارب البسيكولوجية المعتادة وكل ما يحس به ، رؤية أو تفكير من لا يطبق اليوجا (٣) التجارب الماقبل بسيكولوجية (ماوراء النفس - المتعلق بالظواهر النفسية الغير معروفة) والمطلقة بالتقنية اليوجية ، والمقبولة ، كما هو معلوم ، لدى متلقينها فحسب . وهدف يوجا باتنجالى هو حذف الصنفين الأولين من التجارب (المبتدئين

* yainus = ديانة هندية تعتمد على تطهير النفس باللاعنف .

تباعاً من الخطأ المنطقي والخطأ الميتافيزيكي) وابداهما (بتجربة) سكونية مافوق شعورية مافوق عقلية .

وخلافا للسمخيا ، فإن اليوجا تمنح نفسها مهمة افناء ، الواحد بعد الآخر ، لمختلف التجمعات ، انواع ومختلف (حالات الشعور (سيثافرتي) . وعلى ذلك فإن هذا التدمير ، لا يمكن الحصول عليه ، اذا لم نبدأ بمعرفة ، وبعبارة اخرى تجريبيا ، البنية ، والأصل والكثافة لما هو مقرر تدميره . و«معرفة تجريبية» تعني هنا : طريقة ، تقنية ، تطبيق . ولا يمكن اكتساب شيء دون عمل ودون تطبيق التنسك : انه هنا اللازمة للأدب اليوجي . إن الكتب (٢) و (٣) من اليوجا - سوترا مكرسة بصورة خاصة لهذا النشاط اليوجي (تطهيرات ، وضعيات الجسد ، التقنيات التنفسية الخ) . إن السيثافرتي «في اللغة عواصف الشعور» لا يمكن لها ان تراقب ، وأخيراً ان تتلاشى ، اذا لم تكن معرضة للتجربة سلفاً وليس سوى بالتجارب يمكن الحصول على الحرية (٢٠) .

إن سبب هذه العواصف ، التي تشكل المسيل النفسي - عقلي هي ، الجهل ، كما هو معلوم [ي . س . ١ - ٨] . الا ان محو الجهالة الما وراثية بالنسبة لليوجا ، لا تكفي لالغاء حالات الشعور . لأنه ، عندئذ ، حتى (العواصف) الراهنة ستدمر ، وسيأتي غيرها بدون تأخير ليحل محلها جارفة مالا حصر له من تحفظات الكمونات (المسترة) فازانا ، المغلفة في ماتحت الشعور . ان مفهوم الفازانا ذو أهمية اساسية في بسيكولوجيا اليوجا ، وان العقابيل التي تنصبها القوى النصف واعية على الطريق الموصلة للتححر هي من نوعين : فمن جهة ، إن الفازانا تغذي بدون انقطاع مسيل (مجرى) النفس - عقلي ، والسلسلة الغير متناهية للسيفافرتي ، ومن جهة اخرى ، فان الفازانا ، حتى بفضل نموذجيتها المميزة (النصف واعية) ، يصعب مراقبتها وتطويعها . وهكذا فإن اليوجي - حتى ولو ان له في نشاطه ممارسة متواصلة - فإنه يخاطر بأن يبدو ضالاً بغزو النهر القوي من (عواصف) نفسية - عقلية متهاوية بالفازانا ولكي ينجح في تدمير السيثافرتي لابد من قطع دورة مافوق الشعور - الشعور .

إن نقطة الانطلاق للتأمل يوجا هو التركيز على موضوع واحد ايكارجاتا . وهذا الموضوع يمكن ان يكون لا على التعيين موضوعاً طبيعياً (النقطة بين الحواجب ، طرف الأنف شيئاً مضيئاً الخ) ، أو فكرة (حقيقة ميتافيزيكية) أو إله (ايزفارا) . ان التمرين ايكارجاتا يكّد بمراقبة المولدتين للسيولة العقلية : النشاط الحسي ، ونشاط ماتحت الشعور . وبداهة ان التركيز على موضوع واحد لا يمكن له ان يتحقق بشكل آخر سوى بتحريك عدد من التمارين والتقنيات حيث تلعب الفسيولوجيا دوراً رئيسياً . لن يحصل على الايكارجاتا اذا كان الجسد مثلاً ، في حالة من التعب أو بكل بساطة اذا كان غير مرتاح ، ولا اذا كان التنفس غير منتظم ، ولا اتساق . ولهذا فإن تقنية اليوجا تقتضي مجموعة اصناف من التطبيقات النفس - فيزيولوجية والتمارين النفسية المسماة أنجا («عضو») . وهذه «الأعضاء» من اليوغا يمكن لها ان تعتبر في آن واحد مجموعة من تقنيات وكما لو انها محطات لخط السير التنسكي والروحي الذي مصطلحه الأخير هو التحرير . وان اليوغا - سوترا [الكتاب ٢ - ٢٩] تقدم قائمة أصبحت كلاسيكية : (١) الكبت (ياما) (٢) التأديبات (نياما) (٣) وضعيات الجسد (آسانا) (٤) رقابة التنفس (برانايااما) . (٥) التحرر من النشاط الحسي للاستحواز على الموضوعات الخارجية (براتياهارا) (٦) التركيز (دهارانا) (٧) التأمل اليوجي (دهيانا) (٨) الانستاز enstase (سامادهي) .

١٤٣ - تقنيات اليوجا .

ان الصنفين الأولين الكبت (ياما) والتأديبات (نياما) تشكل الأوليات التي لابد منها لأي تنسك . ويوجد خمسة أنواع من الكبت (ياما) ؛ آهيا («لا تقتل») ؛ ساتيا («لا تكذب») ؛ آستيا («لا تسرق») ؛ براهما كاريا («التعفف الجنسي») ؛ آباريجراها («لا تكن بخيلاً») [ي - س ٢ ، ٣٠] . ان الكبوتات أو القموعات لا تنتج حالة يوجية ، وانما حالة تطهيرية أسمى من حالات التدنس . وبالتوازي معها فإن على اليوجي أن يطبق (الميامات) أي مجموعة من التأديبات الجسدية

والنفسية «النظافة ، الصفاء ، الزهد ، (تابا) وإن دراسة ماوراء الطبيعة لليوجا ، والكلد لأن يجعل من الاله (ايزفارا) الباعث لكل افعاله تشكلان التأديبات» كما كتب باتانجالي [ي ، س ٢ ، ٣٢] (٢١)

ولا تبدأ التقنية اليوجية بمعنى الكلمة ، الا مع تطبيق الآزانا (وضعية الجسد) . والآزانا تعين الوضعية اليوجية المعروفة جيداً والتي عرفتها [اليوجا- سوترا جزء ٢ ص ٤٦] «كتاب ومرغوب» . وهو يتعلق بواحد من التطبيقات المتميزة للتنسك الهندي ، المؤكد في الأوبانيشاد وحتى في الأدب الفيدي . والشيء المهم هو تثبيت الجسد في الوضعية ذاتها بدون اجهاد ؛ وعندئذ فقط تسهل الآزانا التركيز . «وضعية الجسم تصبح كاملة عندما يزول الجهد في تحقيقها» كما كتبت الفيازا [ي . س . ٢ : ٤٧] «إن الذي يطبق الآزانا ، سيتوجب عليه استعمال جهد يتكون من الغاء الاجهادات الجسدية الطبيعية» [ذات المرجع : فاكساتي] .

ان «الأزانا» هي الخطوة الأولى التي تجري بهدف الغاء القوالب الخاصة للوجود البشري . وعلى مستوى الجسد ، ان الآزانا هي «تمرين» ايكاجراتا ، وتركيز في نقطة واحدة : الجسد «مركز» في وضعية واحدة . كذلك الأمر فإن التمرين ايكاجراتا يضع نهاية للترجرجات وإلى تشتت «حالات الشعور» ، كذلك فإن الآزانا تضع نهاية لتحرك ولشغور الجسد ، بردها تعدد الوضعيات الممكنة إلى وضعية واحدة ، غير متحركة ، وجامدة . ومن جهة أخرى ، فإن الصبوة نحو «التوحد» و «الكلية» خاصة بكل التطبيقات اليوجية . وان هدفها هو تجاوز أو الغاء الشرط البشري الناتج من رفض التوافق مع الميول الطبيعية .

إذا كانت الآزانا قد ابرزت الرفض للحركة ، فإن البراناياما تأديب التنفس ، هو «الرفض» للتنفس كعموم الناس ، أي بطريقة لا اتساقية arythmique ان تنفس الانسان الدنيوي يختلف إما تبعاً للظروف وإما تبعاً للتوتر- النفس - عقلي . إن هذا «العدم الانتظام» وهذه الفوضى تنتج سيولة نفسية خطيرة ، وبالنتيجة عدم الاستقرار وتشتت الانتباه . ويمكن الوصول للانتباه

بالكد ، ولكن الاجهاد بالنسبة لليوجا هو اخراج* Extériorisation فيحاول اذن بوسيلة (البراناياما) حذف اجهاد التنفس : ضبط التنفس يجب ان يصبح شيئاً آلياً لكي يتمكن اليوجي من نسيانه .

ويلاحظ أحد الشراح المتأخرين (بهوجا Bhoja) «انه توجد دوما صلة بين التنفس والحالات العقلية» [ي . س . ١ . ٣٤] . إن هذه الملاحظة هامة ، فالعلاقة التي توصل ايقاع التنفس بحالات الشعور اثبتت تجريبياً بلا ريب من قبل اليوجيين من فترات قريبة جداً . وعلى الأرجح ، ان هذه العلاقة قد استخدموها كأداة لتوحيد الشعور . إن اليوجي بإيقاعه لتنفسه وبإبطائه له تبعاً يستطيع اختراق - بمعنى الاثبات تجريبياً وبوضوح - بعض حالات الشعور التي هي غير ممكنة الاكتساب ، في حالة اليقظة ، وبخاصة حالات الشعور المميزة للسهاد . ان الايقاع التنفسي لشخص ينام هو اكثر ببطء مما هو لشخص متيقظ ، وبتحقيق هذا الايقاع بالسهاد ، بفضل البراناياما ، يستطيع اليوجي اختراق «حالات الشعور» الخاصة بالسهاد ، بدون ان يتنازل عن وضوحه .

ان البسيكولوجيا الهندية تعرف اربعة نماذج من الشعور : الشعور النهاري ، وشعور الرقاد مع الاحلام ، والرقاد بدون احلام و «الشعور المتخشب» - تورياً - وكل واحدة من هذه النماذج للشعور هي ذات علاقة مع ايقاع تنفسي مميز ، بواسطة البراناياما أي بتمديد أكثر فأكثر للزفير والشهيق - والهدف من هذا التطبيق هو اعطاء فسحة طويلة بقدر الامكان بين هاتين الفترتين من التنفس^(٢٢) يستطيع اليوجي اذن ان يمر بدون انقطاع من اللاشعور إلى حالة اليقظة في النماذج الثلاثة الأخرى .

إن الآزانا، والبرايناياما، والايكاجراتا توصلت لتوقيف الشرط البشري، ولم يكن هذا الا اثناء الزمن الذي يدوم فيه التمرين . فبدون حراك ، موقعا تنفسه ، مثبتا نظره وانتباهه على نقطة واحدة - ، فإن اليوجي هو «مركز» و

* الاخراج في علم النفس هو اظهار الحالات الداخلية والتعبير عنها - (المعرب) .

«موحد» . . إنه يستطيع اثبات صفة التركيز بالبراتياهارا وهو تعبير يترجم عادة بـ (حبس الشعور) أو «تجريد» ، ولكنه من الأفضل ترجمته بـ «قدرة لتحرير النشاط الحسي من تأثير الموضوعات الخارجية» [بوهجا . . أو . ي . س ١ - ٥٤] إن البراتياهارا يمكن اعتبارها كالمحطة الشاملة للزهد النفسي - الفسيولوجي . وفي هذه النقطة ، فإن اليوجي لن يصبح « مضاعاً » أو « مضطرباً » بالنشاط الحسي وبالتذكر الخ . .

ان الاستقلال تجاه مظاهر des stimuli العالم الخارجي وتجاه دينامية ماتحت الشعور ، يسمح لليوجي بأن يطبق (التركيز) والتأمل . ان الدهارنا (من جذر دهر «أبقاه مقفلاً» هي في الواقع « تثبيت الفكرة في نقطة واحدة » وهدفها الموضوعي هو المعرفة . أما بالنسبة للتأمل اليوجي دهيانا فإن باتانجالي يعرفها بـ «تيار من فكرة موحدة» [ي . س ٣ : ٢] ويضيف فايازا التعليق التالي : «تمة الجهد العقلي من أجل تمثل موضوع التأمل ، حرّاً من كل اجهاد لتمثل موضوعات اخرى» .

ومن غير المفيد التأكيد على ان هذا «التأمل» اليوجي يختلف بالكلية عن التأمل الدينيوي . ان الدهيانا يسمح «باختراق» الموضوعات ، «بتمثلها» سحرياً . وان عملية «الاختراق» في جوهر الموضوعات هي بصورة خاصة صعبة التفسير . ولا يجب ادراكها لا تحت اشكال الخيال الشعري ، ولا تحت أشكال حدس من نموذج برغسوني . إن ما يميز (التأمل) اليوجي هو تماسكه ، وحالة الوضوح التي ترافقه والتي لا تكف عن توجيهه . «فالتكامل العقلي» لا يفلت في الواقع أبداً عن ارادة اليوجي .

١٤١ - دور الاله

خلافاً للسمخيا ، فإن اليوجا تؤكد على وجود اله ايزفارا (لغويا : سيد) . ومعلوم جداً ان هذا الاله ، ليس خالقاً . ولكن (ايزفارا) يستطيع أن يعجل لدى بعض الناس في عملية الخلاص . ان السيد الذي وصفه براتنجالي هو على الأكثر

اله اليوجين . انه لن يأتي لمساعدة أحد الا ممن سبق له اختيار اليوجا . ويمكن على سبيل المثال لليوجي الذي اختار الاله موضوع تركيزه ان يحصل على الساما وهي ، (الوجد) . وحسب رأي بارتانجالي [ي . س . ٢ : ٤٥] إن هذا العون الالهي ليس نتيجة «رغبة» ، أو «شعور» - لأن السيد لا يمكن ان توجد عنده لا رغبة ولا انفعال - وإنما مجرد «تعاطف ميتافيزيكي» بين (ايزفارا) و (بيروشا) ، تعاطف يفسر توافق بنيتهما . إن ايزفارا هو بيروشا حراً من الأزل ، لم يمس مطلقاً «بالآلام» وعدم «طهارات» الوجود [ي . س . ١ - ٢٤] . وفيمازا في تفسيره لهذا النص ، يؤكد على ان الفرق بين «الروح المتحررة» وايزفارا هو الآتي : الأولى وجدت على علاقة مسبقة (حتى الوهمية) مع الوجود النفس - عقلي ، في حين ان ايزفارا كان حراً دائماً . ان الاله لن يدع نفسه ينجذب لا بالشعائر ، ولا بالتقوى ، ولا بالايمان في «احسانه» ، ولكن جوهره المساعدة غريزيا للذات التي تود التحرر باليوجا .

سيقال بأن هذه المودة لنظام ميتافيزيكي يظهر اتجاه بعض اليوجيين ، قد استنفذ القدرة التي كانت لايزفارا بانه يهتم بمصير البشر . ويوجد الانطباع بأن ايزفارا دخل في الدارسانا يوجا بنوع ما من الخارج . لأن الدور الذي يلعبه في الخلاص هو مجرد عن الأهمية ، فالبراكرتي تحمل على عاتقها بذاتها تخلص العديد من «الذوات» المصادة في أحابيل وهمية من الوجود . مع ذلك فإن باتانجالي قد شعر بالحاجة لادخال الاله في جدلية الخلاص ، لأن ايسقارا توافق مع حقيقة نظام تجريبي . وكما قلنا فإن بعض اليوجيين حصلوا على الساما وهي «بالورع لايزفارا» [ي . س . ١ ، ٤٥] إن باتانجالي بعرضه جنبي وتصنيف كل التقنيات اليوجية ، المقومة (بالتقليد الكلاسيكي) لم يستطع أن يهمل كل سلسلة للتجربة التي جعلها ممكنة التركيز في ايسقارا وحده .

وبعبارات اخرى ، والى جانب التقليد ليوغا «سحرية» بمعنى انها لا تتطلب سوى الارادة وقوى التنسك ، كان يوجد تقليد آخر (صوفي) كانت فيه المحطات النهائية لممارسة اليوغا قد أصبحت على الأقل اكثر سهولة بفضل ورع - حتى مع انه

نادر جداً فإنه معقول جداً. نحو اله. ومن جهة أخرى ومع أنه يمثل أقل ما يظهر لدى باتانجالي ولدى شارحه الأول فيازا ، فإن ايسفارا هو محروم من عظمة إله خالق كلي القدرة ومن التفخيم الخاص باله ديناميكي وخطير لمختلف الصنفين . إن ايسفارا ، ليس هو ، باختصار ، سوى النموذج القديم لليوجي : اليوجي الأكبر، ومن الراجح المعلم للعديد من المذاهب اليوجية . وفي الواقع إن باتنجالى يؤكد على أن ايسفارا قد كان ال غورو guru لحكماء العصور الموعلة في قدمها ، ويضيف ، لأن ايسفارا غير متصل بالزمان [ي . س ١ - ٢٦] . غير أن الشارحين المتأخرين وحدهما ، فاكاسباتي ميزرا (نحو ٨٥٠) وفيجنانا بهيكشو (القرن السادس عشر) هما اللذان منحا ايسفارا أهمية كبرى . وعليه ، فإنها عاشا في الفترة التي كانت فيها الهند بكاملها مغرقة بتيار من الوريعة والصوفية^(٢٣) .

١٤٥ - سامادهي والقوى العجائية .

إن المرور من التركيز الى التأمل لا يتطلب استخدام أية تقنية جديدة . كذلك لا حاجة لأية ممارسة يوجية اضافية لتحقيق (السامادهي) بدءاً من اللحظة التي نجح فيها اليوجي بأن «يتركز» وبأن «يتأمل» . والسامادهي l'énstasis اليوجية هي النتيجة النهائية والتتويج لكل الجهود والممارسات الروحية للناسك^(٢٤) . إن العبارة مستعملة سابقاً بمعنى غنوصي ، فسامادهي هي تلك الحالة المتأملية التي تعقل فيها النفس مباشرة شكل الموضوع بدون مساعدة المقولات وبدون الخيال ، حالة يكشف فيها الموضوع (في ذاته) سفاروبا وفي ماهولديه من جوهري ، وكما لو «كان خالياً من ذاته» [ي . س ٣ - ٣] . يوجد توافق حقيقي بين معرفة الموضوع وموضوع المعرفة ، وهذا الموضوع لا يمثل أبداً للشعور في العلاقات التي تحدده وتعرفه بصفة ظاهرة ، وانما «كما لو أنه كان فارغاً من ذاته» .

ومع ذلك ، وبأكثر من كونها (معرفة) فإن السامادهي حالة قالب سكوني خاص باليوجا . وهذه (الحالة) تجعل ممكناً تحرك الكشف للذات بفضل تصرف

ليس منشأً «لتجربة» . ولكن ليست أية سامادهي تكشف الذات . وبالنتيجة ، تنجز الخلاص النهائي . فعندما يحصل على (السامادهي) في تركيز الفكر في نقطة من الفضاء ، أو في فكرة ، فإن الانستاد (حالة السامادهي) تسمى (مع دعامة) أو (مميزة) (سامبراجناتا سامادهي) . وعلى العكس ، عندما يحصل على السامادهي خارج كل علاقة ، أي عندما تكون ببساطة معرفة كاملة للكائن فهي غير مميزة (آسامبراجناتا) . فالحالة الأولى هي وسيلة للخلاص في المعيار الذي يجعل معرفة الحقيقة ممكنة ويضع أجلاً للمعاناة . ولكن الشكل الثاني من السامادهي يدمر الانطباعات (سامسكارا) ، لكل الوظائف العقلية السابقة» [فيجنانا بهيكشو] وينجح حتماً في وقف القوى الكارمية التي سبق انطلاقها بالنشاط الماضي لليوجي . وهذه الحالة سامادهي تشكل في واقعها «خطفاً» لأنها تحققت دون أن تستدعى .

ومن المؤكد ان السامادهي الغير مميزة تشكل محطات عدة ، لأنها قابلة للكمال ، وفي هذه المظاهر (مع الدعامة) تتكشف السامادهي عن كونها «حالة» متحصلة بفضل بعض «المعرفة» . ويتوجب بدون انقطاع الابقاء في الذاكرة على حضور هذا المرور من (المعرفة) الى الحالة ، لأن هذا هو الخط المميز لكل التأمل الهندي .

وفي السامادهي يوجد (القطاع المستوي) الذي ترمي الهند لتحقيقه ، والذي هو الممر المتناقض من المعرفة الى الكينونة .

ان اليوجي عندما يصل الى هذا المستوى ، يكتسب (القوى العجائبية) سيدهي ، التي أوقف لها الكتاب الثالث من اليوجا - سوترا بدءاً من سوترا ١٦ . فالليوجي يكتسب بعض القوى الخفية المتعلقة بالموضوعات التجريبية ، بتركيزه وتأمله وبتحقيقه للسامادهي تجاه موضوع أو صنف كامل من الموضوعات . وهكذا وعلى سبيل المثال ، فإنه بالتركيز على بقايا ماتحت الشعور ، (سمسكارا) ، يعرف وجوداتها السابقة . [ي . س ٣ : ١٨] . وبمساعدة تركيزات أخرى يحصل على القوى الخارقة (طيران في الهواء ، يصبح غير مرئي الخ) . وكل ماجرى فيه

التأمل هو - بالفضيلة السحرية للتأمل - متمثل وممتلك . وفي المفهوم الهندي ، إن للتنازل قيسة ايجابية . وإن القوة التي يحصل عليها الناسك بتنازله عن متعة معينة يتجاوز كثيراً المتعة التي تنازل عنها . فبفضل التنازل ، والتنسك (تابا) ، يستطيع البشر والشياطين أو الآلهة أن يصبحوا اقوياء لدرجة أن يصبحوا معها مهددين للعالم بكامله .

ولتجنب مثل هذا النمو لقوة مقدسة تجرب الآلهة (التنسك) . وقد أجرى باتنجالي نفسه تورية للتجارب السماوية [ي . س ٣ - ٥١] ، وأعطى فياذ الايضاحات التالية : عندما يصل اليوجي لآخر الساما وهي المتميزة فإن الآلهة تتقرب منه وتقول له : «تعالى واغبط هنا ، في السماء . فهذه المسرات مرغوبة ، وهذه الفتاة معبودة ، وهذا الاكسير يلغي الهرم والموت» الخ . . وهي تكمل ابتلاء مع النساء السماويات ، ومع السماع والرؤية لما هو فوق الطبيعي ، مع الوعد بتحويل جسده إلى جسد من الماس ، وبكلمة ، تقدم له المشاركة بالشرط الالهي [فيازا أو . . ي . س ٣ - ١] . ولكن الشرط الالهي هو بعيد ايضاً عن الحرية المطلقة . وعلى اليوجي ان يرفض هذه «الصور السحرية» «المرغوبة من الجاهلين فقط» كما عليه ان يثابر على مهمته : الحصول على الخلاص النهائي . ولأنه ، سرعان ما يقبل الناسك ممارسة القوى السحرية المكتسبة ، سرعان ما تتلاشى الامكانية التي كان اكتسبها من قوى جديدة . وحسب كل التقليد لليوجا الكلاسيكية ، فإن اليوجي يستعمل مالا يحصى من السيدهي (القوى العجائبية) بهدف استعادة الحرية الأسمى ، الأزابراجتاتا سامادهي ، وليس مطلقاً من أجل الحصول على مهارة العناصر . وفي الواقع ، يقول لنا باتنجالي [٣ - ٣٧] إن هذه القوى هي «كمالات» وهذا هو المعنى اللغوي لعبارة (سيدهي) في حالة اليقظة ، ولكنها تشكل عقبات في حالة السامادهي (٢٥) .

١٤٦ - الخلاص النهائي.

يلخص (فيازا) في هذه العبارات المرور من سامبراجتاتا الى الأسامبراجتاتا سامادهي : بالتنوير (براجنا ، «حكمة») المتحصلة عفويا عندما يجد اليوجي نفسه

في آخر مرحلة من السميراجناتاساماهي ، يتحقق «العزل المطلق» (كايفاليا) ، أي تحرر بيروشا من سلطة البراكرتي . ومن الخطأ اعتبار هذه الطريقة بتكون الروح «كرعشة» بسيطة حيث سيكون الشعور فيها مفرغاً من كل محتوى . ان «الحالة» و «المعرفة» التي يعبر عنها هذا المصطلح في آن واحد ، ترجعان للغياب الكامل للموضوعات في الشعور ، وليس مطلقاً لشعور مفرغ بطريقة مطلقة . لأن الشعور هو ، على العكس ، مشيع ، في تلك اللحظة ، بحدس مباشر وشامل للكائن ، وكما يكتب مؤلف لعهد متأخر مادهافا «لايسوغ تصور النيرودها [التوقف النهائي لكل تجربة نفسية عقلية] كلا وجود ، وانما بالأولى كدعم لشرط خاص للروح» . وان حالة الخواء الكامل ، هي الحالة الغير مشروطة التي ليست «تجربة» أبداً (لأنه لا يوجد هنالك مطلقاً علاقة بين الشعور والعالم) ، وانما «كشف» . إن «المعقول» بودهي باكماله لمهمته ينسحب منفصلاً عن بيروشا ويعاود الالتحام في ال براكرتي . واليوجي المتوصل للخلاص : هو جيفاغوكتا ، «ناج في الحياة» . انه لا يعيش ابداً تحت سلطة الزمان ، وانما في خلود قائم ، في le nunestans (نونيستانس) الذي عرّفه بويس Boèce بالأبدية .

وبالفعل ان حالته لا معقولة : انه في الحياة إلا أنه ناج délivéré وله جسد ومع ذلك يُعرف ، ومن هذا الواقع انه هو البيروشا ، يعيش لأجل ، وفي ذات الوقت يشارك في الخلود . ان الساماهي بطبيعتها ذاتها «حالة» متناقضة ، لأنها تفرغ وفي ذات الوقت تملأ لحد الاشباع الكائن والفكر . ان الحالة اليوجية تقع على خط معروف جداً في تاريخ الاديان والصوفيات : هو خط تطابق الأضداد . بواسطة الساماهي ، يصعد اليوجي الاضداد ويجمع الفراغ والامتلاء ، والموت والحياة والكائن واللاكائن . وحالة الساماهي تعادل اعادة ضم مختلف نماذج الحقيقة في نموذج واحد : عدم الثنائية البدئية ، الكمال الغير متميز لما قبل انشطار الواقع في موضوع - ذات .

وسيكون من الخطأ الجسيم اعتبار هذه الاعادة السامية كمجرد جمع بسيط في الغير متميز البدئي ، فالخلاص لا يمكن مقارنته «بسهاد عميق» من الوجود لما قبل الولادة : ان الأهمية المعطاة من قبل كل الباحثين للحالات اليوجية لما فوق

الشعور تدلنا على ان اعادة الضم النهائي يحصل في هذا الاتجاه وليس في نشوة اكثر أو أقل عمقاً . وبعبارة اخرى ان الاستعادة بالسامادهي لعدم الثنائية الأولية ينقل هذا العنصر الحديد بالنسبة للحالة التي كانت توجد قبل انشطار الحقيقة في موضوع - ذات : المعرفة للوحدة وللغبطة . وفي هذا يوجد «رجوع للأصل» ولكن مع هذا الفارق وهو أن (الناجي في الحياة) يستعيد المركز الأصلي المغتني بابتعاد من الحرية والنشوة - الشعورية . انه يعاود جمع الكمال البدئي بعد أن أحيا هذه الطريقة في التكون الغير ممكن البوح به والمتناقض : الشعور بالحرية ، الذي لا يوجد في أي مكان في الكون ، ولا على مستويات الحياة ، ولا على مستويات «الألوهية الميتولوجية» والتي لا توجد الا عند الكائن المطلق (براهمان) . وسيكون ابتلاء أن يرى في هذا المثل الأعلى - النصر الواعي للحرية - التبرير المقدم من الفكر الهندي لواقع ، هو لأول نظرة عبثي ومعدوم الفائدة ، بأن العالم يوجد ، وان الانسان يوجد وان وجوده في العالم هو تنمة غير منقطعة من الأوهام والآلام . ولأن الانسان بتحرره يؤسس البعد الروحي للحرية و «يدخله» في «الكوزموس» الكون وفي الحياة ، أي في طرائق الوجود العمياء والمشروطة بكل تعاسة .

مع ذلك ، فإن هذه الحرية المطلقة كانت قد اكتسبت بمقابل نفى شامل للحياة وللشخصية البشرية . إن نفياً جذرياً هكذا تطلب وجود البوذا لكي يدرك النيرانا ، ولكن هذه الحلول الأخيرة والاستثنائية لا تستطيع استنزاف مصادر العبقرية الدينية الهندية . وكما سنرى فإن ال مبهاجافادرجينا تقدم طريقة اخرى من اجل الحصول على الخلاص بدون التنازل عن الدنيا (ف ١٩٣ - ١٩٤ع) .

حواشي الفصل السابع عشر

- ١-٢ gonda ديانات الهند ص ٢٦٣
- ٣- م. الياد . اليوجا ص ٣٧٧
- ٤- عند جوندا ص ٢٧١ - ٢١٥ - ياما سيد مملكة الأموات حاز بعض التقدير .
اضافة لذلك تمثل بكاما ، الازمنة
- ٥- anirudha (القرن ١٥ - يوجا - الياد ص ٢٣
- ٦- adm khog a kariks ١ - يوتجالي ، مؤلف أول كتاب حول اليوجا وكتب : كل شيء مؤلم
بالنسبة للحكيم
- ٧- ثمة نصوص اخرى - مذكورة في اليوجا - من الياد ص ع
- ٨- مظاهر الاسطورة (الياد) ص ١٤٥ حول المشابهات بين الرمزية الهندية للاسر والاعتناق من
الروابط وبعض المظاهر للميتولوجيا الغنوصية (ر فقرة ٢٢٩)
- ٩- نؤكد بأن السنسكريت لا يمتلك لغة تناسب بدقة التعبير الأوروبي (للفلسفة) ان نظاما
فلسفيا خاصا يسمى دارسانا «وجهة نظر ، رؤية ، معرفة ، نظرية ، طريقة المراقبة» من
جذر ويجد (رأى - راقب ، فهم»
- ١٠- ١١ اليوجا - الياد ص ٢٠-
- ١٣- وذلك هو السبب الذي من أجله أرجأنا للجزء الثالث من هذا المؤلف حضور مختلف
انظمة الفيدانتا التقليدية
- ١٤- ١١ - ١٨ - ١٩ - و ٢٢ - ٢١ - الخ .
- ١٥- ١٦ - اليوجا - الياد ص ٢١
- ١٧- السمخيا - يوجا تقدم ايضا شرحاً شخصيا للغوانات الثلاثة عندما تراقب مظاهر الطبيعة
فقد تكون : الساتفها هي التي تسود وان الشعور يكون ساكتا ، واضحا مفهوما فاضلا ،

ومحكوما بالعقل فانه يضطرب غير متزن ، غير ثابت ، ومثقل بالثاما ، يكون مشوشا ، وحشيا ، مغفلا الخ ..

١٩ - هذه المقارنة شائقة جدا كذلك الماهارتا كما في اطروحات سمخيا
٢٠ - كذلك فإن الآلهة «فيديها» غير مجسدة التي ليس لها تجاوب - لأنه لا يوجد لها اجساد ، فلها شرط من الوجود .. ولا يمس بالخلاص العام

٢١ - «نظافة» تعني كذلك التطهير الداخلي للاعفاء (التي يؤكد عليها بصورة خاصة الهاتاسوجا) والصفاء Sereinde تعني غياب الرغبة بمضاعفة ضروريات الوجود ، الثابا تقتضي تحمل المتضادات كالحر والقر . الخ ..

٢٢ - ايقاع التنفس يمكن الحصول عليه بتوقيع للفرات الثلاث - الشهيقي الزفير - الاحتفاظ بالهواء ، وبالممارسة يصل اليوجي لتحديد كل واحدة من هذه الفترات لوقت طويل . وهدف البراناياما بصفته توفقا طويلا بقدر الامكان للتنفس يبدأ بوقف التنفس ١٦ ثانية ونصف ، ثم خمسة وثلاثين ، خمسين ثانية - ثلاث - دقائق ونصف ثم خمسة دقائق وهكذا دواليك . ان توقيع وحبس النفس يلعب كذلك دورا هاما في الممارسات التأوية ولدى الصوفيين المسلمين وفي طرائق التضرع المستعملة من قبل رهبان ال herghastes (اليوجا - الياد ص ٦٨ - ٧٥) .

٢٣ - ان شارحاً آخر متأخر (فيلاكانتا) ، يؤكد ان الها مع انه غير فاعل ، يساعد اليوجين على طريقة الحب ، وينيط فيلاكانتا بايسفارا ارادة مؤهلة لسبق تقرير المصير لحيوات البشر : لأنه «يجبر اولئك الذين يريدون ان يرتفعوا لاجراء افعال طيبة ، والذين يريدون الغناء لاجراء افعال سيئة وهكذا يتعد عن الدور المتواضع الذي اعطاه بانتجالي لايسفارا
٢٤ - معاني العبارة (سامادهي) هي : اتحاد ، شمولية ، امتصاص في ، تركيز شامل للنفس ، اتصال ، وترجم عادة بتركيز concentration ولكنها في هذه الحالة توجد في مخاطرة الخلط مع دهارما ولهذا وضعنا لها ترجمة enstans (لم نجد لها ترجمة في القاموس - الفرنسي العربي) - وكلمة stase - تعني ركود الدم أو وقوفه) . (المترجم)

٢٥ - مع أن الحنين (للشرط الالهي) يكسب قوة حيوية ، فإنه ، سحرانيا لم ينقطع عن ملازمته لليوجين والنسك . وبالأحرى انه لا يوجد حسب رأي فايزا (ي . س ٣ - ٢٦) وهناك تشابه كبير بين بعض الآلهة سكان الاقاليم الساموية في (البراهما كولا) واليوجين في مرحلة السيهي . وفي الواقع ان الطبقات الأربع لآلهة البراهما كولا لهم بطبيعتهم ذاتها «مركز روحي» يتناسب على التوالي مع اربع طبقات من (سامابرجناتا سامادهي) . بواقع ان هذه الآلهة توقفت عن مرحلة ولم تصل للخلاص الشامل .

الفصل الثامن عشر

البوذا ومعاصروه

١٤٧ - الأمير سيدهارتا

إن البوذية هي الديانة الوحيدة التي لم يعلن مؤسسها نفسه لا نبياً لاله ، ولا مرسلأ من قبله ؛ والذي رفض اضافة إلى ذلك ، حتى الفكرة عن اله - كائن أعلى . إلا أنه أعلن نفسه (المتيقظ) بوذا ، وبالتالي القائد والمعلم الروحي . إن تعليمه يهدف لخلاص البشر . وبالفعل ان هذا التقدير للمنقذ جعل من رسالته الفدائية soteriologique «ديناً» وحول ، سراعاً ، الشخصية التاريخية سيدهارتا لكائن الهي . ولأنه ، بالرغم من الابعاءات اللاهوتية وتخريفات (الفقهاء) أحبار البوذية وبالرغم من بعض التفسيرات الأوروبية التي رأت في البوذا شخصية اسطورية ، أو رمزاً شمسياً ، فإنه لا يوجد مبرر لنفي تاريخيته .

إن أغلب الباحثين متفقون على القبول بأن البوذا المستقبل قد ولد على الأرجح في نيسان/ أيار ٥٥٨ ق.م . «أو حسب نص آخر في ٥٦٧ ق.م . في كابيلافاستو . ابنا الملك صغير سودهودانا من زوجته الأولى مايا ، وقد تزوج وهو ابن ستة عشر سنة ، وترك القصر وهو ابن ٢٩ سنة وحصل على «اليقظة الكاملة» في نيسان - أيار ٥٢٣ ق.م أو ٥٣٢ ق.م ، وبعد أن بشر خلال البقية من حياته توفي في كانون ثاني ٤٧٨ أو ٤٨٧ ق.م عن عمر ٨٠ سنة . غير أن بعض التواريخ والأحداث الأخرى التي سيروها فيما سيأتي ، لا تستنفذ مطلقاً صورة بوذا ، كما فهمها المؤمنون به . لأنه ، ما أن أعلنت هويته الحقيقية - المتيقظ - على العموم وقبلت من تلامذته ، حتى تحولت حياته وتلقت الابعاد الميتولوجية المميزة لبعض المنقذين . وان هذه العملية في «تأسطره mythologisation» توسعت مع الزمن ، ولكنها في ماسلف كانت سارية خلال حياة المعلم . وعليه يقتضي أن تؤخذ في الحسبان هذه الصورة الخرافية ، لأنها هي التي كانت المبدعة في اللاهوت والميتولوجيا البوذية كما في الأدب الالتهالي وفي الفنون التشكيلية .

وهكذا قبل، إن بوذا المستقبل (بودهيزاتفا) «الكائن المتيقظ» اختار لنفسه أبويه ، في الحين الذي كان فيه إلهاً في سماء التوزيتا des tausita وقد كان الحبل به بلا دنس ، فبوذا المستقبل داخل في الخاصرة اليمنى لوالدته تحت شكل فيل أو ولد لستة أشهر . (الترجمات القديمة تتكلم فقط عن حلم الأم : ان فيلاً دخل في جسدها) . مدة الحمل هي كذلك بلا دنس لأن بوذا المستقبل وجد في صندوق من حجر كريم وليس في الرحم . وولادته كانت في حديقة ، وتعلقت امه بشجرة ، وخرج الولد من خاصرتها اليمنى .

وما ان ولد البودهيساتفا (بوذا المستقبل) حتى جرى سبع خطوات متجهاً نحو الشمال واطلق «زنجرة» أسد ، هاتفا : «إنني الأعلى في العالم ، انني الأفضل في العالم ، إنني بكر العالم ، هذه آخر ولادة لي ، ولن يكون بعد منذ الآن بالنسبة لي وجود جديد»^(١) . فأسطورة ميلاده تعلن اذن انه ، منذ ولادته ، يفارق

بوذا المستقبل الكون cosmos و « يدرك ذروة العالم » ويلغي المكان والزمان ، إنه ، اذن « الأول » و « الاقدم في العالم » . ان العديد من المعجزات تنبىء بالحدث . فبمثوله في معبد براهماني ، « تزاح صور الآلهة من امكنتها وتسقط على اقدام البودهيذاتفا » . و (غنت نشيداً « على شرفه »^(٢)) . ولقد أخذ الولد من طريق والده اسم (سيد هارتا) : (هدف - مدرك) . وبتفحص جسده ، عرف المتنبئون الاثنين وثلاثين علامة الاساسية والثمانين علامة الثانوية (للرجل الكبير) ماهابيروزا ، فأعلنوا أنه سيصبح سيداً عالمياً (كاكرافارتان) أو بوذا .

ان شيخاً من الريشي المسمى آذيتا طار عبر الهواء بدءاً من الحملايا حتى كاييلافاستو ، وطلب رؤية الوليد الجديد ، وأخذه بين ذراعيه ، وعارفا انه سيصبح البوذا ، أخذ يبكي وذلك لعلمه انه لن يعيش ليلحق به .

وبعد سبعة أيام من ولادته ماتت مايا ، لكي تعاود ولادتها في سماء التوزيتا . وقد ربي الولد خلال سبعة أعوام من قبل خالته ، وبعدئذ تلقى التعليم ككل أمير هندي ، وتميز في العلوم كما في التمارين الطبيعية . وفي سن السابعة عشرة تزوج اميرتين من بلاد مجاورة ، غوبا ويازودهارا . وبعد ثلاثة عشر عاما ، انجبت منه هذه الأخيرة ولداً راهولا . إن كل هذه التفصيلات ، التي تعقد الطريق التنسكية البوذية ، هي على ما يبدو رسمية . باعتبار ان السيد هارتا هرب من القصر بعد قليل من الوقت من ولادة راهولا توفيقاً مع العادة الهندية التي لا تسمح بالتنازل عن الدنيا الا بعد ولادة ولد أو حفيد .

وقد أقيم سيناريو متكامل حول الرحيل الكبير ، وحسب النصوص الأكثر قدماً فإن البوذا قد أعلن لتلامذته أنه بالتأمل حول الشيخوخة ، والمرض والموت ، فقد السرور في الحياة وقرر ان ينقذ البشرية من هذه الآلام الثلاثة . وتبرر الاسطورة الحدث بطريقة دراماتيكية مشبعة بنبوء المتنبئين ، فقد نجح سيد هودانا بعزل الأمير الشاب في قصره وحداثقه المريحة . ولكن الآلهة افسدت مخطط الأب ، فخلال ثلاثة مخارج متوالية نحو حدائق السرور ، صادف سيد هارتا بدياً شيخاً هرماً مستندا على عصاه ، ثم ، صادف في الصباح (مريضاً هزيراً شاحباً

متحرقاً بالحمل، وفي المرة الثالثة أخيراً شاهد ميتاً محمولاً الى المقبرة . لقد كشفت له الآية انه لا يوجد شخص يمكنه الفرار من المرض والشيخوخة والموت . وفي النهاية في خروجه الأخير ، شاهد الأمير راهباً مستعظيماً هادئاً ورصيناً ، فأدخل هذا المشهد العزاء على نفسه مظهراً له ان الدين قادر على شفاء آلام الشرط البشري .

١٤٨ - السفر الكبير.

ويهدف تدعيم قراره بالتنازل عن الدنيا ، ايقظت الآلهة سيدهارتا في منتصف الليل كي يشاهد الأجساد العارية والمقرقة للإماء النائمات . وعندئذ ، استدعى سائس خيوله شانداكا وامتطى جواده ، ولكون الآلهة اهيجت كل المدينة ، خرج الأمير من الباب الجنوبي الشرقي . وبوصوله لمسافة تبعد عشرات الفراسخ من كابيلافاستو ، توقف واجتث شعره بسيفه وغير ثيابه بابدالها بثياب صياد واعاد الى القصر شانداكا مع حصانه . ومنذ توقفه رفض مجموعة الآلهة التي خفرتة حتى هنا . ومن هنا فإن الآلهة لن تلعب أي دور في الصورة الخرافية لبوذا . انه يدرك هدفه بوسائله الخاصة ، دون أية مساعدة مما وراء الطبيعة ، وعندما أصبح ناسكا متنقلاً تحت اسم غوتاما (اسم عائلته في قبيلة السافيا) توجه نحو فيدالي (باتي : فيزالي) ، حيث ان معلما براهمانيا يدعى آراد كالاما ، كان قد علمه نوعاً من السمخيا الما قبل الكلاسيكية .

فتعمق بسرعة بهذه العقيدة ، ولكنه رآها غير كافية ، وترك آرادا ووصل إلى راجاجرها عاصمة ناجادها . وقد عرض عليه ملك بيمبزارا الذي افتتن بالناسك الشاب ، عرض عليه نصف مملكته ، ولكن غوتاما رفض هذه المحاولة وأصبح تلميذاً للمعلم آخر (اودراكا) . وتعلم بذات السهولة التقنيات الیوجية الملقنة له من قبل اودراكا ، ولكن ذلك لم يرضه ، فتركه وسار يتبعه خمسة تلامذة متوجهين صوب جاريا . إن تدريبه الفلسفي والیوجي استمر لمدة سنة .

لقد أقام في مستقر مريح بجوار جايا حيث عكف لمدة ست سنوات على إماتة الجسد إماتته باقى أنواعها . فقد توصل الى ان يتغذى بحبة واحدة من الذرة البيضاء (الدخن) في اليوم ، ولكنه صمم على صيام شامل ، وغير متحرك ، وقد رد تقريباً إلى حالة هيكل عظمى ، وانتهى الى التشبه بالغبار . وتبعاً لهذه المجاهدات العنيفة حصل على لقب ساكياموني (ناسك بين الساكيا) . وعندما ادرك الحد الأقصى لاماتة الجسد ولم يبق له سوى جزء من ألف من قوته الحيوية ، ادرك عدم جدوى الزهد كطريقة للخلاص ، فقرر قطع صيامه . ومع وجود الاحترام الكبير للتبا في أي مكان في الهند ، فإن التجربة لم تكن غير مفيدة . منذئذ فان بوذا المستقبل كان بإمكانه ان يعلن أنه اتقن الممارسات التقشفية ، كما انه كان قد أتقن الفلسفة (سمخيا) واليوجا ، تماماً كما كان قد عرف كل لذات حياة الامارة قبل تركه الدنيا . فلا شيء مما شكل لا نهائية مختلف التجارب البشرية لم يكن منذئذ مجهولاً- المسرات والاحباطات من الثقافة، ومن الحب والقوة، حتى الفقر لمتدين متجول ، إلى تأملات وانتشاءات اليوجي ، مروراً بالعزلة والاماتات التنسكية .

وعندما قبل غواتاما هدية مؤلفة من رز مسلوقة قدمتها امرأة تقية ، تركه خمسة من تلامذته وهم مذعورون وذهبوا نحو بيناريس . ان ساكياموني (بوذا) الذي جدد قواه بالغذاء باعجوبة ، توجه إلى غابة ، واختار شجرة (آزفاتها) وجلس عند جذعها مصماً ان لا ينهض الا بعد الحصول على (التيقظ) . بيد أنه قبل ان يستغرق في التأمل تحمل ساكياموني هجمة مارا «الموت» .

لأن هذا الاله الكبير قد تنبأ ان الاكتشاف الوشيك الوقوع للخلاص ، بتوقف الدورة الأبدية للولادة ، للموت واعادة الولادة ، سيضع نهاية لعرشه . وانفجرت الهجمة بجيش مرعب من الشياطين والاشباح ، والغيلان ، ولكن المزايا السابقة لساكياموني و «تصرفه الودي» (ميترى) رفعت حوله نطاقاً من الوقاية ، فبقي غير مزعزع .

فادعى مارا (الموت) عندئذ بالمكان تحت الشجرة ، بحجة مزايا كان اكتسبها فيها سلف ، على اثر تضحية اختيارية . وساكياموني كان اكتسب مزايا خلال وجوداته السابقة ، ولكن وبما انه لم يكن لديه أي شاهد ، استدعى «الأم المشتركة لكل الكائنات» ومع الإشارة التي اصبحت كلاسيكية في الايقونية البوذية ، لمس الأرض بيده اليمنى ، فبدت الأرض :جسم صغير وضمنت اقوال ساكياموني . إلا أن مارا وكاما والايروس Eros وفي آخر المطاف روح الحياة وهذه الحياة ذاتها هي المهدة بالخلاص الذي يتهيأ له البودهيذاتفا لينعم به على العالم . عندئذ ، أحاطت نساء لا يحصى عددهن بالناسك محاولات اغراء عبثا بعريهن ومفانتهن الكثيرة . ولكن ، مارا ، المقهور ينسحب قبل حلول الظلام .

١٤٩ - اليقظة . التبشير بالشرعة .

إن هذه الميتولوجيا لغزوة ومحاولة مارا تعلن الصفاء الخلقي المطلق لسكياموني فعندئذ امكن تركيز كل قواه الروحية على المسألة المركزية : الخلاص من المعاناة . ففي يقظته الأولى ، اجتاز المراحل الأربعة من التأمل ، التي سمحت له باحتضان ، وبفضل «عينه الالهية» (ب ١٥٨٠ع) ، كلية العوالم ومستقبلها الأبدي ، أي الدورة المرعبة للولادات ، والميتات وإعادة التجسيدات المحكومة بالكارما . وفي اليقظة الثانية ، اختصر حيواته السابقة التي لا تحصى وتأمل في لحظات الوجودات اللامتناهية للأغيار . واليقظة الثالثة تشكل البوذهي ، التيقظ ، لأنه فهم القانون الذي يجعل من الممكن هذا الدور الجهنمي من ولادات واعادة ولادات ، القانون المسمى الاثنتي عشرة «تكاثرات بتبعية متوالية» [و ١٥٧٠ع) ، ويكتشف في ذات الوقت الشروط الضرورية لوقف هذه «التكاثرات» منذئذ ، حاز «الحقائق النبيلة» الاربعة : اصبح بودها «التيقظ» ، في اللحظة ذاتها التي بدأ فيها النهار .

استمر البوذا سبعة اسابيع في «جو التيقظ» ونستعرض من بين الأحداث الخرافية انحفاظ عليها في التقليد ، المحاولة الأخيرة للمارا (الموت) : ليدخل السعيد مباشرة في النيرفانا ، دون ان يعلن مبدأ الخلاص الذي اكتشفه . ولكن البوذا أجابه بأنه لن يدخل إلا بعد أن ينشئ جماعة متعلمة ومنظمة بشكل جيد . ومع ذلك ، وبعد قليل من الوقت ، تساءل البوذا اذا كان ثمة حاجة لتعليم مذهب على هذه الدرجة من الصعوبة . وان تدخل براهما وبصورة خاصة القناعة بوجود عدد من البشر مؤهلين لأن ينفذوا ، هو الذي قرر ذلك . فتوجه صوب بيناريس حيث مع «عينه الالهية» رأى التلامذة الخمسة الذين كانوا هجروه . لقد وجدهم في دير ، في موقع سارنات الحالي ، وأنبأهم بأنه أصبح بوذا . وعرض عليهم الحقائق النبيلة الاربعة حول الالم ، وأصل الالم ، وايقاف الالم ، والطريق الموصلة لقطع الالم (ف ١٥٦٠ع) .

إن هذا العرض الأول «يهز دولاب الشريعة» . فاهتدى الخمسة وأصبحوا «القديسين» (أرهاتس) . وبعد قليل من الوقت كان ثمة مجال لايمان ابن صاحب مصرف في ياناريس ، متبوعا بابناء عدد آخر من الاسرة . وسرعان ، ما اصبحت الجماعة (سامجها) تعد ٦٠ راهبا (بهيكهو) فأرسلهم البوذا للتبشير منفردين في البلاد . أما بالنسبة له ، فقد توجه صوب أوروفيلفا حيث ، بسلسلة من المعجزات ، نجح في اهتداء الاشقاء الثلاثة كازايا ، البراهمانيين العابدين بصورة خاصة الاله أغني . وعندئذ توجه البوذا إلى الألف تلميذ لكاميزابا : فبرهن لهم ان العالم بكامله مضطرم بنيران العشق ، فقبلوا المبدأ وأصبحوا قديسين (أرهاتس) . ومنذئذ تكاثرت اعتناقات المذهب ، ففي راجاجرها ، قدم الملك الشاب لماجادهما المسمى بيميزارا هدية ديلا للبوذا وللجماعة . وفي راجاجرها نفسها أهدى بوذا للايمان متدينين بارزين ، ساريوترا ومودجالايانا ، وناسكاً ، ماهاكاسيابا ، وهؤلاء الثلاثة سيكون لهم دور بارز في تاريخ البوذية . وبعد بعض الوقت ، استجاب السعيد لدعوة والده وتوجه مع جماعة كبرى من الرهبان نحو كابيلافاستو . وكانت الزيارة مناسبة لعدد من المشاهد المأساوية ، والمعجزات الخرافية . فقد نجح البوذا باقناع والده وعدد من اقاربه . ومن بينهم اعمامه آناندا

و(تلميذه الخادم) الاساسي ، وديفاداتا ، الذي سيصبح بعد فترة قصيرة خصماً له .

ولم يتأخر البوذا في كايلافتو ، فرجع إلى راجاكرها ، وزار سرافاستي وفيزالي وتكاثرت الاهتداءات التلقينية . وعندما تلقى نبأ مرض والده الحاد ، رجع مجدداً إليه وقاده للقداسة . وإن الملكة وقد أصبحت أرملة ، طلبت من ولدها بالتبني ان يقبلها في الجماعة . ومع انه رفض ، فإن الملكة ، مع جماعة من الأميرات الراغبات جميعهن أن يصبحن راهبات ، تبعته مشياً على أقدامهن حتى فيزالي . وقد عرضت أناندا قضيتها وأخيراً قبلها البوذا ، بعد أن فرض على الرهبات قواعد أكثر قسوة مما على الرهبان وذلك لأن هذا القرار متخذ ضد الرغبة ، وأعلن أنه بقبوله للنساء ، فإن الشريعة التي كان يجب لها أن تدوم الف سنة لن تدوم سوى خمسمائة سنة .

ونتيجة معجزات تمت من قبل بعض تلامذته ، فإن البوذا يقاوم عرض «القوى العجيبة» [ف . ١٥٩ع] ، مع ذلك فإنه ذاته قد استدرج لاتمام إحدى المعجزات الكبرى ، منذ مقاومته ضد «المعلمين الستة» خصومه : تارة ينبت شجرة منجا ضخمة وتارة يتنزه على قوس قزح من الشرق الى الغرب ، أو يضاعف إلى مالا نهاية صورته في الأجواء ، أو يمضي ثلاثة اشهر في سماء اندرا بهدف تبشير امه . ولكن هذه القصص الخرافية لم ترتفع للتقليد البدائي ، فمن الراجح اذن ان منع السيديهي والأهمية المعطاة للحكمة (البراجنا) كوسيلة للايان ، تشكل جزءاً من تعليمه الأساسي^(٤) .

وكما توجب انتظار ذلك فإن المعلمين الخصوم الحاسدين لنجاحات السعيد ، جهدوا ، ولكن عبثاً ، لافقاده سمعته بوشايات قبيحة . واكثر عنفا هي تلك الخصومات الشنيعة بين الرهبان ، كتلك التي اندلعت في كوزامبي بعد تسع سنوات من التيقظ بخصوص تفصيل القاعدة الرهبانية (كانت تتعلق بمعرفة ما اذا كان يتوجب املاء جرة تنظيف المراحيض ، مجدداً بعد استعمالها) .

وقد حاول المعلم مصالحة المتخاصمين ، الا انه طلب منه برجاء ان لا يهتم بمثل هذه الأعمال فترك كوزامبي^(٥) . مع ذلك ، فإن غير المتدينين (اللايك) الساخطين قد رفضوا تقديم المعونة للرهبان الذين حرضوا على سفر السعيد، وان المعاندين اجبروا على الترك .

١٥٠ - انشقاق ديفاداتا . آخر الاهتداءات . البوذا يدخل في

البارينيرفانا

ان المصادر لا تعلمنا الا بغموض زائد عن المرحلة المتوسطة من مجرى حياته . اثناء فصل الامطار ، كان البوذا يتابع تبشيريه في الفيهارا («اديرة») قرية من المدن . وبقية السنة ، كان يسافر مصحوباً بالمقربين من تلامذته عبر البلاد مبشراً بالشرعة الجيدة . وفي سنة ٥٠٩ ق.م وبسن العشرين سنة ، تلقى ولده راهولا السيامة النهائية . وتقص التواريخ الرسمية بعض الاهتداءات الاستعراضية ، مثل اهتداء ياكزا واضع الاحاجي ، أو قاطع طريق مشهور ، أو ذلك التاجر الغني من البنغال ، الأمر الذي يثبت ان شهرة المعلم كانت قد انتشرت تماما لما بعد حدود البلاد حيث كان يبشر .

وعندما وصل البوذا الى سن ٧٢ سنة في (٤٨٦ق.م) طلب اليه عمه الحسود ديفاداتا ان يترك له توجيه الجماعة . وتجاه رفضه حاول ديفاداتا قتله ، بدئياً بواسطة قتلة مأجورين ، ثم بعدئذ بأن يسحقه بصخرة أو عن طريق فيل هائج خطير . لقد خلق ديفاداتا انشقاقاً مع جماعة من الرهبان ، بالتبشير بتنسك اكثر جذرية - ولكن ساريوترا ومودغاليانا نجحا في اعادة الضالين ، وحسب عدد من المصادر فإن ديفاداتها قد ابتلع حياً في جهنم . ان السنوات الأخيرة للمبارك قد اظلمت بأحداث مؤلة ، من بينها دمار قبيلته الساكيا وموت ساريو ترادمودغاليانا .

وخلال موسم الأمطار لعام ٤٧٨ ق.م استقر البوذا مصحوباً بأناندا في (قرية البامبوز) (فينوجراما) ، حيث وقع مريضاً بمرض خطير الديرانتاريا . وقد تجاوز الأزمة وفرح اناندا لأن «المبارك لن ينطفئ قبل ان يترك تعاليمه لموضوع الجماعة» . ولكن البوذا يحيبه بأنه علّم الشريعة بالكامل ، بدون ان يحتفظ بسر عن أية حقيقة ، كما يفعل بعض المعلمين ، وانه اصبح «شيخا هرماء» وحياته وصلت لأجلها ، ومن الآن يتوجب على التلامذة ان يفتشوا عن الغوث في الشريعة .

ولكن بعض المصادر تضيف مشهداً له دلالة : بعودته الى فيزالي ، يستريح المبارك في غابة كابالا المقدسة ، وبثلاث مرات يمجّد أمام آناندا سحر هذا المكان والجمال المتنوع «للقارة الهندية» مضيفاً ، انه اذا دعي ، فإن البوذا «لا يمكن له ان يستمر اثناء فترة كونية أو الباقي من فترة كونية» . ولكن اناندا ، التزم الصمت ، لثلاث مرات ، وطلب اليه المعلم ان يتعد . وعندئذ اقترب مارا (الموت) وذكره بوعده للدخول في البارانيرفانا عندما ستكون السمجها samgha قد اقيمت بثبات . «لا تشغل بالك ، أيها الخبيث اجابه المبارك . لن تنتظر طويلاً» وتنازل عندئذ عما بقي له من الحياة ، وفجأة اضطربت الأرض . وطلب آناندا من معلمه سبب هذه الظاهرة الشاذة . وباعلامه عنها رجاء ان يستمر في الحياة حتى نهاية الدورة الكونية . ولكن البوذا لن يخالف العهد الذي قطعه لمارا . «هذا من غلطتك يااناندا . . لو أنك دعوت المقدر ياآناندا ، لكان رفض أول وثاني مرة طلبك ، ولكنه كان أجابك في ثالث مرة . اذن فهذا هو خطأك ياآناندا»^(٧) .

وطلب عندئذ من تلميذه ان يجمع الرهبان الذين كانوا يوجدون في فيزالي ، ورجع الاثنان الى بابا . وهنالك ، دعيا من قبل الحداد كوندا الى غداء التي كانت تشتمل على «أكلة لحم خنزير regaldepore» طبق من لحم الخنزير أو من بعض الفطر الذي تحبه الخنازير . وهذا الطبق يثير اسهالاً دمويًا ، وحسبما يبدو عودة المرض الذي ماكاد يشفى منه (الديرنتاريا) . الا انه توقف في الطريق نحو كوزي ناجارا ، عاصمة مالاً . فنام البوذا على جانبه الأيمن وهو مرهق بعد مسيرة

صعبة ، بين شجرتين ، في أجمة ، ووجهه للغرب ورأسه للشمال وجنبه الأيسر مدد على الأيمن . فأخذ أناندا ينشج بالبكاء ، ولكن المحتضر أخذ يعزبه : «يكفي ، يا أناندا ، توقف عن الحزن والنحيب . . كيف تقبل ان من يولد لن يموت ؟ ذلك شيء غير ممكن إطلاقاً»^(٨) . وبعدئذ اثنى على تفاني أناندا أمام الجميع وأكد له انه سيتوصل الى القداسة .

وتجمع المالليون مسرعين لقرب المبارك بعد ان أعلنهم أناندا بالنبأ . وبعد أن كان البوذا أقنع المتدين سوبهادرا بالايمان استدعى المؤمنين به وطلب اليهم الافصاح عما اذا كان مايزال هنالك شك لديهم في موضوع الشريعة وفي العقيدة . فلزموا الصمت جميعهم ، عندئذ تكلم البوذا بهذه الكلمات : «اليكم اتوجه ايها الرهبان المتسولون ، ان قابلية الهلاك هي قانون الاشياء ، لا تضعفوا جهودكم» وأخيراً وفي اليوم الثالث والأخير من سهر الليل اجتاز المحطات الأربع من التأمل وانطفأ . لقد كانت ليلة القمر البدر لكارتिका ٤٧٨ ق.م أو (٤٨٧ حسب نص آخر) .

وكما من أجل معادلة ميتة بشرية ، فإن جنازة البوذا اثارت العديد من الاساطير.خلال سبعة أيام،كُرِّمَ المالا Les malla مع الموسيقى والرقصات الميت المكفن بالعديد من الأقمشة والموضوع في حوض من الزيت ، لأنه أجريت له جنازة ملك كاكرافارتان . وقبل الاحتفال على مقعد من خشب ذي رائحة جرى الطواف بالجسد في كوزيناجارا . ولكن المقعد لا يمكن له ان يحرق قبل وصول التلميذ ماهاكازيابا ، الذي اتبع نفس طريق معلمه ، لفترة ثمانية أيام . وكما ان ماهاكازيابا اصبح الرئيس الأول للجماعة ، توجب ان يكون حاضرا على الأقل اثناء حرق المبارك . وفي الواقع وحسب الاسطورة ، فإن رجلي بوذا خرجتا من نعشه «لكي يستطيع تلميذه تمجيدهما بلامستهما بجبينه ، وعندئذ اشتعلت المحرقة عفواً . ولأن المبارك مات على ارض المالا فقد حمل هؤلاء بقايا عظامه . مع ذلك فإن الشعوب المجاورة طلبت نصيباً منها لأجل ان يقيموا ستوبات des stupas ورفض المالا في البدء ، ولكنهم بعد أن هددوا بالحصار والمقاطعة ، انتهوا الى

القبول باقتسام العظام الى ثمانية حصص . وعلى الرفات ، وعلى المبخرة وعلى
الفحم من المحرقة رفعت الستويات des stûpas .

١٥١ - الوسط الديني : النساك المشردون .

حوالي بداية القرن الرابع ، عرفت الهند الغانجية gangetique فترة من
النشاط الديني والفلسفي الغزير ؛ وقد قورنت ، بحق ، بالازدهار الروحي في
اليونان بذات الفترة . فإلى جانب المتدينين والصوفيين الذين كانوا يتبعون التقليد
البراهماتي ، كان يوجد مالا يحصى من جماعات السراماناس («الذين يبذلون
الجهود» شاحب : سامانا) ، نساك مشردون (باريفراجاكا) والذين كان يصادف
من بينهم يوجيون وسحرة ومجادلون («سوفسطائيون») وحتى ماديون وعدميون
ومبشرون لكارفاكا ولوكاباتا . وان بعض النماذج من النساك المشردين يعود إلى
الأزمة القيدية وإلى ما قبلها . ومن بين أغليبيتهم يعرف القليل عن الاشياء خارج
اسمائهم . ان مذاهبهم معلنة بطريقة مجتزأة جدا في النصوص البوذية والجائنا ،
ومن جهة أخرى ، فهم يكافحون من قبل الجانية والبوذية ، وهم على الغالب
مشوهون وموضع ازدراء .

ومع ذلك فمن الراجح ، أن كل هؤلاء السرامانا قد تركوا العالم الممجوج
في وقت واحد من صلف الوجود البشري والمبدأ الغامض في الطقوسية
البراهمانية . لقد كانت آلية انتقالات الأرواح ومحركها الغامض ، هو الفعل
(كارمان) الذي أجهد السراماناس أنفسهم لفهمه وتطويعه . لقد كانوا يستعملون
وسائل متعددة ومختلفة ، من التقشف المتطرف ، والوجد الما قبل الیوجی ، أو
التحليل التجريبي للمادة إلى ما وراء الطبيعة الأكثر صعوبة ، والممارسات التهتكية
والعدمية الشاذة أو المادية العامة . وكانت الوسائل المختارة تتعلق في قسم منها
بالقيمة المعطاة للفاعل المدان بنقلته بمقتضى كارمان : هل تعلق ذلك بتنظيم
نفسی ، قابل للتلف ، أو بذات soi غير قابلة للفناء وخالدة ؟؟ . في الأساس

كان هذا هو ذات المشكلة المعروفة من قبل الاوبانيشادات الأولى (ف ٨٠٠ ع) والتي ستبقى دوماً في مركز الفكر الهندي .

ان النصوص البوذية والجانية تدل أحيانا فقط على مبادئ بعض المتدينين بدون ان تشير الى اسمائهم . وهكذا ، على سبيل المثال ، تقدم نموذجاً طويلاً من المبادئ : «بعضها يعتمد على الدورات الماضية للمدة ، مؤكداً أبدية الذات (آتا - وبالسنكرية آتمان) والعالم ، ومكتسباً بتأديب نفسي (الذي كان في السابق ، يوجا مع سامادهي) قوى عجيبة مثل ذكرى وجودات سابقة . وبعضهم يؤكد تارة على أبدية وتارة لا أبدية ، عارضاً على سبيل المثال أنابراهمان أزلي لكل مخلوقاته الغير دائمة . وبعضهم يوحد الذات مع الجسد ويعتبرها منذئذ غير دائمة . وبعضهم يقبل اللانهاية ، وبعضهم النهاية للعالم [...] . ولا أدريون des agnostiques يتجنبون كافة المسائل . بعضهم يرى الذات والعالم نتاجاً دون سبب ومجموعة أخرى تعتمد على الدورات التي ستأتي ، مواجهة مصير الذات بعد انحلال الجسد . وهذه الذات يمكن أن تكون معلومة ، أو حتى ذات شكل ، محدوداً أو غير محدود ، مثبتات عريقة . أو أنها غير معلومة ، أو أنها لا معلومة ولا لا معلومة ويجهل عنها كل شيء الخ . . . » [تلخيص من قبل ج . فيلليودا ، في كتاب الهند الكلاسيكية جزء ٢ ص ٥١٢] . هذا الكاتالوج قيم إلى درجة أن بعض المذاهب المتهمه والمدانة سيعاد الأخذ بها وتطويرها من قبل مختلف المدارس البوذية .

وبأكثر من هذه المذاهب المغفلة ، فإن المصادر قد حفظت أسماء بعض المذاهب . ونشير لأكثرها أهمية : الأجيثيكا ، الذين كان معلمهم الأساسي ماسكارين غوزالا ثم النيجرانتا (بلا مكان - أي الجانيين المؤمنين بماهافيرا . أما بالنسبة لمعلمي غوتاما ، آرادا كالاما ، ورودراكا ، مع أن بوذا قد فاقهما بالذكاء وقوة التركيز اليوجي ، فإن تأثيرهم على طريقته من التأمل كان بارزاً .

ان السامانا فالازوتا [ديجها ١ ، ٤٧] ، تذكر إضافة إلى ذلك المعلمين الستة خصوم بوذا . وعن كل واحد منهم قيل انه هو (رئيس الجماعة) شهير (مؤسس

مذهب) محترم كقديس ، مبجل من قبل جماعة من الناس ، متقدم في السن .
فبورانا كاراسابا يبدو أنه بشرٌ بغياب قيمة العمل : آجيتا كيزاكامبالا علّم عن مادية
قريبة من مادية الكارفاكا ، كاكودا كاتاتيانا ، أزلية (الأجسام) السبعة (كايا ، أي
«أجساد» الأرض ، الماء ، النار ، الهواء ، السرور ، الألم ، والحياة) وسنجايا على
الأرجح علم التشكيكية septicisme لأنه تملص من كل جدل . والاثنان الأخيران
ماسكارين غوزالا ونيجانثا ناتابوتا ، أي ماهافيرا ، وهذا الأخير ، مايكاد يذكر في
المصادر البوذية ، مع أنه ، من بين معاصري بودا ، هو الشخصية الدينية الأكثر
أهمية .

وفي العديد من السوتا sutta ذكرت اللقاءات مع الباربيافاكا ولكن
النصوص تبرز أجوبة المبارك بالأولية عن مذاهب واخلاقيات هؤلاء المتحاذئين
معه . فهو يلومهم ، مثلاً ، لكونهم متبجحين بتنسكهم الخاص ، وباحتقارهم
للآخرين ، ولاعتقادهم انهم قد وصلوا لهدفهم واستخلصوا الرضى ، لاقامتهم
رأيا متجاوزا الحد من شجاعتهم^(٩) الخ . . انه يعلن ، ان ما يميز السامانا الحقيقي
أو براهمان ، ليس هو ابدا مظهره الخارجي ، وتوبته ، أو امانته لنفسه الطبيعية ،
وانما التوازن الداخلي ، الاحسان ، والتثقيف للذات ، وتحرر الروح من
الخرافات والمعتقدات الباطلة ومن الآليات .

١٥٢ - ماهافيرا و «متقذو العالم»

مع ان ماهافيرا معاصر لبودا ، وانها جالا في ذات الأقاليم ، وعاشرا
الأوساط نفسها ، فإنها لم يلتقيا . ولا تعرف الأسباب التي دفعته ليقرر تجنب لقاء
اكبر خصم أساسي له ، والوحيد الذي نجح بتنظيم جماعة دينية استمرت في
الحياة حتى أيامنا . وتلاحظ بعض المشابهات بين حياة واتجاهات المعلمين .
فالانثان يتيمان لمذهب ارستقراطي عسكري (كزاتريا) ويظهران نفس الاتجاه ضد

البراهمانية التي كانت تميز فيها سلف الأوبانيشادات الأولى . والاثنتان «هرطقيان» بامتياز لأنها ينكران وجود اله أعلى ، والخاصية المكتشفة للفيذا ويؤكدان على عدم جدوى وعلى قساوة الأضحيات . ولكنهما ، من جهة أخرى يتميزان بمزاجهما ، وفي نهاية المطاف ، فإن نظريتهما لا يمكن ان تتوافق .

وخلافا للبودية ، لم تبدأ الجاينية مع تبشير ماهافيرا . وهذا لم يكن سوى الأخير في سلسلة خرافية من التيتارماكارا ، لغوياً (صانعو السرور) وبعبارات أخرى «مخيفو الطريق» معلنو السلامة»^(١) . ان الأول رسا بها أوادزيفارا «المعلم البدني» قد عاش الوف السنين ، بدثيا كأمر ثم فيما بعد كناسك ، قبل ان يصل للنيرفانا على قمة كيلازا . ان السير الخرافية للواحد والعشرين تيرتاماكارا تتبع عن قرب ذات النموذج ، الذي ليس هو من جانب آخر سوى حياة ماهافيرا المصورة في مثال نموذجي : كلهم من أصل أميري ، يتنازلون عن الدنيا ويؤسسون جماعة دينية . وقد اتفق على الاعتراف ببعض التاريخية للثالث والعشرين تيرتاماكارا ، باردفا . ابن ملك بيناريس ، وكان قد ترك العالم بسن ٣٠ ، وحصل على كلية العلم ، وبعد ان انشأ ثمانى جماعات ، كان عليه ان يموت ، ابن مائة ، وعلى جبل ، قبل ماهافيرا بـ ٢٥٠ سنة . وحتى أيامنا أيضاً ، يلعب باردفا وضعاً استثنائياً في عبادة وميتولوجيا الجانثيين .

ان ماهافيرا كان ابن سيدهارتا ، رئيس قبيلة شريفة ، وتريزالا ، منتميا بالقرابة الى العائلات الحاكمة لماكاها . ولكن الاسطورة تدخل ولادته في النطاق التقليدي من الولادة (لمنفذي العالم) : والذي يجب له ان يكون الرابع والعشرين وآخر تيرتاماكارا ، ويقرر النزول على ارض بهدف احياء المبدأ والكمال الاخلاقي للجماعات المؤسسة من قبل بارزفا . انه يتجسد في رحم ديفاناندا زوجة أحد البراهمان ، ولكن الآلهة عملت على نقل الجنين في اميرة من ماجاها . وثمة مجموعة من الاحلام النبوية تعلن للوالدين ولادة منقذ كاكرافارتان . وتاماً ، وكما حصل بالنسبة لبوذا وزرادشت فإن نوراً كبيراً يضيء ليلة ولادته .

لقد تلقى الولد اسم فاردهامانا «الناجح» وهو مثل البوذا ، عرف حياة الامارة ، وتزوج فتاة من الأشراف وحصل له منها ولد . ولكنه بموت أبويه ، عندما كان له من العمر ٣٠ سنة ، وبعد أن حصل على اجازة من شقيقه البكر ، فإن فاردهامانا وزع كل أمواله ، وترك الدنيا وارتدى ثوب الناسك المتشرد . وخلال ١٣ شهراً تنازل عن لبس الثوب ، وهذا أول تجديد فصله عن التقليد المنقول من قبل بارزفا . وانصرف خلال ١٣ سنة ، عاريا (مرتديا الفضاء) الى اقصى نوع من التقشف والى التأمل . واخيراً ، وبعد طول اماتة نفس وبعد يومين ونصف من الخشوع والتأمل ، وفي ليلة صيف ، تحت شجرة ساللا ، على شاطئ نهر ، حصل على «كلية العلم» . وهكذا أصبح جينا (منتصر) وأخذ المؤمنون به فيما بعد اسم جاينا ، ولكنه بخاصة سمي ماهافيرا (البطل الكبير) خلال ثلاثين سنة استمر على حياة التشرد مبشراً بمبدأه في بلدان ماجدها ، انجا ، وفيدها من السهل الغانجي . واثناء الريح الموسمية ، مثل كل المتدينين الآخرين ، توقف ماهافيرا على اطراف مدينته . وفي بافا (بالقرب من باتنا الحالية) مات عن عمر ٧٢ سنة . وان تاريخ «دخوله في النيرفانا» هو ايضا موضع خلاف ٤٦٨٠ ق.م حسب رأي بعضهم و ٤٧٧ حسب رأي (جاكوبي وشومبرنغ) - وعلى كل حال ، بضع سنوات قبل نيرفانا بوذا .

١٥٣ - مبادئ وممارسات الجانيين

لا نعلم ، تقريبا ، شيئا عن شخصية الماهافيرا . وان الميتولوجيا التي تمجد ولادته وبعض المشاهد من مجرى حياته هي كتلك التي صيغت حول بوذا ، الميتولوجيا التقليدية للهند . وشرية جاينا دونت في القرن الرابع أو الثالث ق.م ولكن بعض المقاطع هي اكثر قدما وتحفظ على الأكثر بذات العبارة المستعملة من قبل المعلم . وان ما يبدو متميزاً في تعليم ماهافيرا هو الفائدة بالنسبة لبني الطبيعة ، وولعه بالتصنيفات والأعداد . وقد أمكن القول بأن العدد يحكم منهجه

(شوبريغ) . وفي الواقع ، يجري الكلام عن ثلاثة انواع من الشعور وخمسة انواع من المعرفة المستقيمة ، وسبعة مبادئ أو أصناف ، وخمسة انواع من الأجساد ، وستة صبغيات أو ألوان اليزيا ، التي تميز احترام أو عدم احترام الروح ، وثمانية انواع من مادة الكارميك ، واربعة عشر محطة للتكيف النفسي الخ . . ومن جهة اخرى فان ماهافيرا يتميز كذلك عن بارسفا كذلك عن بوذا بتقشفه الحاد الذي فرض على تلامذته العري الدائم والعديد من المحرمات .

وماهافيرا ينكر وجود الاله ، ولكن ليس وجود الالهة : فهذه الأخيرة تتمتع ببعض الغبطة ، ولكنها ليست خالدة . وان الكون والحياة لا بداية لهما كما أنه ليس لهما نهاية . وان الدورات الكونية تتكرر إلى مالا نهاية . وعدد الأرواح ايضا لا نهائي . وكل ذلك محكوم بالكارمان ، باستثناء الروح الناجية . وان الخطأ المميز للجانية الذي يبرز بنيتها القديمة هو النفسية panpsychisme القائلة ان كل مايوجد في العالم يملك نفساً ، ليس الحيوانات فحسب ، وانما النبات ايضا ، والحجارة وقطرات الماء الخ . . وبما ان احترام الحياة هو الأول والأهم ، وهو أمر وتوجيه جانبي ، فإن العقيدة النفسية اثارت مالا يحصى من الصعوبات . ولأجل هذا فإن على الراهب ، اثناء مسيره ، ان يكنس أمامه ، وانه ممنوع عليه الخروج بعد غياب الشمس - وذلك بهدف ان لا يخاطر بقتل بعض الحيوانات الصغيرة .

ويبدو متناقضا ان مبدأ يتلمس «النفسية» ويعلن الاحترام المطلق للحياة ، يخرب جذريا الحياة البشرية ، ويعتبر ان المثل الأعلى ، هو الانتحار بالصيام . إن احترام الحياة ، أي لكل ما يوجد في الممالك الثلاثة للعالم ، لم ينجح مطلقا في إعادة تقديس الوجود البشري ، أو على الأقل ، ان ينيط به معنى دينيا . إن الجانية وهي تتقاسم التشاؤم ، ورفض الحياة للذين ظهروا مع الالبانيشاد ، لم تدرك سوى غبطة روحية وعبر كونية trans- cosmique (ر. ف ١٩٠ ع): وفي الواقع : ان الروح الناجية من «المادة الكرمية» تنطلق «كسهم» نحو قمة الكون ، وهناك ، في نوع من مواطن الالهة Empyreé تلتقي وتتصل مع مثيلاتها ، مشكلة جماعة روحية محضة ، وحتى الهية . انه تشاؤم و (روحية) لا كونية تذكر

ببعض المدارس الغنوصية (رف ٢٢٨ ع)، ومع اختلافات هامة مع السمخيا واليوجا التقليديتين (ف ١٣٩ ع) .

ان الكارمان يلعب دوراً حاسماً ، لأنه يخلق المادة الكرمية ، نوعاً من جهاز نفس - جسدي يلتصق بالروح ويجبرها على التناسخ . ان الخلاص موكسا يكتمل بالانقطاع عن كل تماس مع المادة ، أي بطرح الكارمان الذي سبق ان امتص وبوقف كل مدد كارمي جديد . وكما كان هذا متوقعاً ، فان الخلاص يحصل عليه بسلسلة من التأمل والتركيز من نوع يوجي^(١٢) . الذي يتوج حياة من التنسك والخشوع . وطبيعي ، لا يوجد سوى الرهبان والراهبات الذين يمكن ان يكون لهم أمل في الخلاص . ولكن حياة الرهبة مفتوحة لكل ولد من سن الثماني سنوات ، شريطة ان يكون بصحة جيدة . وبعد بضع سنوات من الدرس ، يلحق المريد من قبل معلم ويتلفظ بالنذور الخمسة : بأن يحافظ على كل حياة ، وان يقول الحقيقة ، وان لا يملك شيئاً ، وان لا يكتسب شيئاً ، وان يبقى طاهراً ، وبهذه المناسبة يتلقى قدحاً للصدقة ومكنسة قصيرة لتنظيف الطريق امامه ، وقطعة صغيرة من القماش الناعم ، ليغطي فمه بها اثناء الكلام (على الأرجح تحاشياً لابتلاع الحشرات) . ان حياة التجوال للرهبان والراهبات ، باستثناء الشهور الأربعة خلال الريح الموسمية ، تحتذى في كل نقطة من حياة ماهافيرا .

وحسب التقليد ، عند موت الماهافيرا ، كان يوجد خارج مجموعة اللايك الواسعة ١٤٠٠٠ راهب و ٣٦٠٠٠ راهبة . وهذه الارقام مبالغ فيها على الأرجح ، ولكن ما يدهش اكثر هو الزيادة الكبرى من النسوة بين المريدين وفي الجماعة اللا دينية ، لاسيما أن الراهبات ، حسب رأي بعض المعلمين الجانبيين ، لن تستطعن التوصل إلى الخلاص ، باعتبار أنه ليس مسموحاً لهن ممارسة العري الرهباني . إلا أن العدد المرتفع للنساء الراهبات أو اللا متدينات قد تأكد بأقدم تقليد . ويظن بأن ماهافيرا قد توجه بصورة خاصة إلى أقرانه ، أعضاء الارستقراطية ، النبلاء والعسكريين . ويمكن الافتراض بأن النسوة المنتميات إلى هذه الأوساط قد وجدن في تعليم ماهافيرا تعليماً ماداً جذوره في الروحية الهندية

الأكثر قدماً ، وقد وجدن فيه طريقاً دينياً كان قد رفض بالنسبة لهن من قبل الأرثوذكسية البراهمانية .

١٥٤ الجيفيكاس والقدرة الكلية للقدر

لقد اعتبر البوذا ان غوزالا (ماكهالي) ماسكاران وكأنه اخطر خصم له . ان غوزالا التلميذ والرفيق لماهافيرا لعدد من السنين ، قد مارس التنسك ، وحصل على قوى سحرية وأصبح الرئيس للأجيفيكاس . وحسب بعض اشارات السير الذاتية المحفوظة بالكتابات البوذية والجانية ، كان كوزالا ساحراً قوياً . وقد قتل واحداً من تلامذته (بنار سحره) ؛ وربما أنه على اثر مسابقة سحرية مع ماهافيرا وسوء تعليمات هذا قد مات (على الأرجح ما بين ٤٨٥ - ٤٨٤) قبل المسيح .

ان الاشتقاق لعبارة اجيتيكا بقي غامضاً ، ولم يكن لها أن تعاود تكوينها بسبب الهجوم العنيف عليها من المبادئ البوذية والجانية ، وخارجاً عن بعض الاشارات المحفوظة في كتب الخصوم ، فلا شيء منها استمر في الحياة من شرائعها . . وربما عرف انها تتعلق بحركة قديمة سابقة بعدة أجيال للبوذية والجانية .

إن ما يميز غوزالا عن كل معاصريه ، هو قدرته الصارمة «الجهد البشري غير فعال» ذلك هو الأمر الرئيسي في رسالته ، ومفتاح القبة لمنهجه يمسك به بحكمة واحدة : نياتي ، «القدرة» ، «القدر» . وحسب نص بوذي ، ان غوزالا كان يعتقد ، بأنه لا يوجد سبب ، ولا يوجد باعث لفساد الكائنات ، فهي فاسدة بدون سبب ولا باعث . ولا يوجد سبب لطهارة الكائنات ، فالكائنات مطهرة بدون سبب ولا باعث . لا يوجد تصرف صنع من قبل الذات ، ولا يوجد تصرف صنع من قبل الغير ، لا يوجد تصرف بشري ، لا يوجد قوة [. . . .] لطاقة ، [. . . .] ، لقوة بشرية [. . . .] ، لشجاعة بشرية . كل الكائنات ، كل

الأفراد ، كل الخلائق كل الأشياء الحية هي بدون ارادة ، وبدون قوة وبدون طاقة ، انها تتطور بجهد القدر ، الاحتمالات لحالتها نفسها . . . » [سمانا فالازوتا ، ٤٥ ترجمة ل. رينو] . وبعبارة أخرى ، فإن غوزالا يرفض المبدأ الهندي القديم للكارمان . وحسب رأيه ان كل كائن يتوجب عليه ان يمر بدورته عبر ٨٤٠٠,٠٠٠ ايون eons = دهر (ماهاكالب) ، وفي الأخير يتحصل الخلاص عفوياً ، بدون كد . ولقد اعتبر البوذا ان هذه الحتمية تشكل جرمًا لا يمكن القبول به ، وعلى هذا هاجم (ماكاهالي غوزالا ، اكثر من أي واحد آخر بين معاصريه : معتبراً مبدأ القدرية اكثرها خطراً .

إن ماكاهالي غوزالا يشغل وضعا أصليا في افق الفكر الهندي : فمفهومه عن الحتمية دفعه لدراسة الظواهر الطبيعية وقوانين الحياة^(١٣) . ان الأجييكاس يمشون عراة تماما متبعين العادة السابقة لظهور الماهافيرا والماكاهالي غوزالا . وككل النساك المتجولين ، فإنهم كانوا يتسولون الطعام ويتبعون قواعد تغذية قاسية جداً ، وكثيرون منهم وضعوا حداً لحياتهم بتركهم لأنفسهم يموتون جوعاً . ان المسارة في النظام كانت تقدم خاصية قديمة : كان على المريد ان يحرق يديه بالقبض على شيء حام ، وكان يدفن حتى عنقه وينتف شعره شعرة فشعرة . ولكنه لم يبق شيء مما يتعلق بالتقنيات الروحية للاجييكاس . ويجب الافتراض ، أنهم كانوا يملكون تقاليدهم التنسكية وطروحاتهم التأملية ، وهذا ما يجعلنا نفهم بعض الاشارات لنوع من النيرفانا يمكن مقارنته بالسما العليا لبعض المداس الصوفية^(١٤) .

حواشي الفصل الثامن عشر

- ١ - majzhima nikuga ماجهيا نيكايا ٣ - ص ١٢٣ - حول رمزية الخطوات السبع . م - الياد احلام وغوامض ص ١٤٤ .
- ٢ - لاتيا ، فيتارا ص ٦١٨ ، أ - فوثر حياة بوذا ص ٥٥
- ٣ - مع ذلك ف إن مارا لم يدان بما لا يمكن اصلاحه ، لأنه في مستقبل بعيد ، سيؤمن وسينقذ
- ٤ - لأن التواريخ الرسمية تتكلم بشكل دائم عن سفرات بوذا في الهواء .
- ٥ - الحادث هو ذي دلالة ، يمكن ان يشير الى ان التعطيلات لسلوك الرهبانية ليست منظمة بالضرورة من قبل البوذا ، مع انه يوجد كثير من الأمثلة المعاكسة (انظر قبللوزا الهند التقليدية ص ٤٨٥ .
- ٦ - Dinyarwdona ص ٢٠٠ . مترجمة من قبل E, Burnf
- ٧ - مآشار بارينيانا - سوتا ٣ - ٤٠ ترجمة فوشر ص ٣٣ . مشهد ذهول أناندا قد اقترح بالتأكيد من أجل شرح موت البوذا ، لأنه مع كونه اختار الظروف لولادته ، فإن البوذا كان يستطيع تمديد إلى مالا نهاية وجوده . فليست خطيئة اذا لم يفعل . وفي كل الأحوال لا الخرافة ولا الجماعة البوذية لم توصم اناندا بالعار ، الأمر الذي يثبت انه يتعلق بمشهد مدسوس لأسباب دفاعية عن الدين .
- ٨ - ماها - بارينسبانا - سوتا ١٤
- ٩ - اودمباريكا سيهاناداسوتا (ديجها ٣ - ٤٣
- ١٠ - كاسا بارسيها ناداسوتا(ديجها ١ - ١٦٩
- ١١ - ولكنه سرعان ما أعلن البوذيون هم ذاتهم سلسلة معتبرة من البودھاس

- ١٢ - بعض الصياغات تناسب تماماً التقليد الكلاسيكي لليوجا ، المثبت فيما بعد من قبل باتانجالي (ف ١٢٣ ع) . وعلى سبيل المثال التركيز (دهيانا) يتكون بتثبيت النشاط النفسي - عقلي في (نقطة وحيدة)
- ١٣ - عرض تصنيفاً للكائنات حسب العدد والمعنى ، واختصر مبدأ من التكونات في قلب الطبيعة (بارينلامافادا) معتمداً على الملاحظات الدقيقة بالنسبة لدورية حيلة النباتات .
- ١٤ - حوالي القرن العاشر ق.م الاجيفيكاس ، كالهند بكاملها خضعوا للبهالتي ، وانتهوا بالذويان مع مذهب فيشتوي البانكاراترا . انظر . أ . ل . باشام - تاريخ ومبادئ الاجيفيكاس ص ٢٨٠ .

الفصل التاسع عشر

رسالة البوذا : من الرعب من الرجوع الأبدي الى السعادة التي
تدق عن الوصف

١٥٥ - الرجل المصاب بسهم مسموم ..

إن البوذا لم يقبل مطلقا ان يعطى إلى تعليمه بنية منهج . وهو لم يرفض الاطناب حول المسائل الفلسفية ، فحسب ، وانما ايضا لم يدع مجالاً للتكلم حول كثير من النقاط الرئيسية عن مذهبه ، وعلى سبيل المثال حول نظام القديس الداخل في النيرفانا . وهذا السكوت افصح المجال لامكانيات ، ومنذ وقت مبكر ، لشروح متنافرة ، وأثار فيها بعد ظهور مختلف المدارس والمذاهب . إن النقل الشفهي لتعليم المبارك وتسجيل الشريعة يطرح عدداً من المسائل ، وسيكون من العبث الأمل بالوصول يوما ما الى حلها بطريقة مرضية . الا انه اذا بدا غير ممكن اعادة تكوين «الرسالة الرسمية لبوذا» بكل تكاملها ، فسيكون من المبالغ

فيه ، الاستنتاج أن النصوص الأكثر قدما ، قد مثلت فيها سلف مذهبه في السلامة المتغيرة جذريا .

فمنذ البداية ، نظمت الجماعة البوذية (ساجها) بقواعد رهبانية (فينايا) ، ضمنت لها وحدتها . اما بالنسبة للمذهب ، فإن الرهبان كانوا يتوازعون بعض الأفكار الرئيسية المتعلقة بالتناسخ والثواب عن الأفعال ، وتقنيات التأمل الذي كان يقود للنيرفانا وإلى «شرط البوذا» (وهو ما يسمى بعلم البوذية Le boudhologie) . اضافة لذلك ، ومنذ عصر المبارك كان يوجد سابقاً كتلة من العلمانيين (لايك) المتعاطفين الذين ، مع قبولهم التعليم تماماً ، لم يتنازلوا عن الدنيا ، وبإيمانهم بالبوذا ، وبالأحسان تجاه الجماعة كسب العلمانيون احترامات ضمنت لهم وجوداً ثانياً في مختلف «الفراديس» متبوعاً بأعادة تجسيد ممتاز . وهذا النوع من الورع يميز «البوذية الشعبية» . وان له أهمية كبرى في التاريخ الديني الاسيوي ، وبالميتولوجيات ، والطقوس والأعمال الأدبية والفنية التي أثارها .

وأساساً ، يمكن القول ان البوذا قد قاوم إلى حد التفكير الكوني والفلسفي للبراهمان والسرماناس ، مما هو لمختلف الطرائق والتقنيات للسرخيا ولليوجا ما قبل الكلاسيكية . وفيما يتعلق بعلم الكون وعلم نشأة الانسان ؛ التي رفض مناقشتها ، فمن الواضح ان العالم ، بالنسبة لبوذا ، لم يخلق لا من قبل اله ، ولا من قبل صانع أولي كبير de'miurge ، ولا من قبل روح الشر (كما تعتقد به الغنوصيات والمناوية) (ف ٢٢٩ ع ع) ، ولكنه يستمر بالوجود ، أي أنه خلق باستمرار ، بالأعمال ، الخيرة أو الشريرة ، للبشر . وفي الواقع ، عندما تتزايد الجهالة ويزداد الشر ، ليست الحياة البشرية فقط هي التي تختصر ، ولكن العالم نفسه يخرب . (الفكرة هي مما قبل الهندية ، ولكنها تشتق من مفاهيم عتيقة عن الانحطاط المتتالي للعالم الموجب لاعادة خلقه الدوري) .

أما بالنسبة للسرخيا واليوجا ، فإن البوذا استعار وطور تحليل معلمي السرخيا والتقنيات التأملية لليوجيين ، رافضاً مسلماتهم النظرية ، وبالدرجة الأولى فكرة الذات (بيروشا) . ورفضه لأن يساق في التأملات من كل الأنواع هو

رفض جازم . لقد تألق بإعجاب في المناظرة الشهيرة مع مالون كيابوتا . فقد كان هذا الراهب يأسف لأن المبارك ترك بدون جواب مسائل من نوع : هل العالم خالد أم هو غير خالد ؟ وهل هو متناهي أولاً متناهي ؟ وهل الروح هي ذات الجسد أم هل هي مختلفة ؟ وهل التاتاهاجاتا توجد بعد الموت أم انها لا توجد ؟ الخ . . فطلب (مالون كيابوتا) من المعلم ان يحدد فكره بدقة ، وان لم يفعل ، ان يعترف بأنه لا يعلم الجواب . وعندئذ اخبره البوذا بقصة الانسان المصاب بسهم مسموم . لقد جلب له الاصدقاء والأقارب جراحاً ، ولكن الرجل صرخ فيهم : «لن اسمح باستخراج هذا السهم قبل أن اعلم من الذي ضربني ، فاذا كان هذا كشارترياً أو براهمان [. . .] فمن هي عائلته ، واذا كان كبيراً أو صغيراً أو ذاقامة متوسطة ، فمن أية قرية أو أية مدينة قد جاء ، ولن اسمح ابداً باستخراج هذا السهم قبل معرفة بأي نوع من الأقواس صُوب علي [. . .] وبأية وتر استعمل في القوس [. . .] وأية ريشة استعملت على السهم [. . .] وبأية طريقة صنعت حربة السهم» . ان هذا الرجل سيموت قبل معرفته هذه الأمور وأتمل المبارك كلامه ، كذلك الأمر بمن سيرفض اتباع طريق القداسة قبل ان يحل هذه المعضلة الفلسفية أو تلك . لماذا رفض البوذا بدياً مناقشة هذه الأمور ؟ «لأنه من غير المفيد ، لأنه غير مرتبط بحياة القداسة والروحانية ، ولا يساهم أبداً بالنفور من العالم ، وبالاتصال ، وبانقطاع الرغبة ، وبالهدوء ، وبالنفاذ العميق ، وبالاتسار ، وبالوصول للنيرفانا»^(١) . وذكر البوذا مالون كيابوتا بأنه لم يعلم سوى شيء واحد ، هو : الحقائق النبيلة الأربعة [ماجهيا نيكايا ١ - ٤٢٦] .

١٥٦ - «الحقائق النبيلة» الأربعة و «طريق الوسط»

هذه الحقائق النبيلة الاربعة تتضمن لبّ تعليمه . فقد بشر بها في أول موعظة في بيناريس ، بعد قليل من الزمن من تيقظه ، امام رفاقه القدماء الخمسة (ف ١٤٩) . وأول حقيقة تتعلق بالمعاناة أو الألم (باليدوكها) . فبالنسبة لبوذا ، كما

بالنسبة للمفكرين والمتدينين الهنود بعد عصر الاوبانيشاد ، كل شيء هو معاناة tout est souffrance . وعليه «الولادة الم ، والشيخوخة معاناة ، والمرض معاناة ، والموت معاناة ، وأن يوجد المرء مرتبطاً بمن لا يحب يعني المعاناة . والمرء المبتعد عما يحب [. . . .] وان لا يجد ما يرغب فيه ، يعني المعاناة . وباختصار ان كل تماس مع (الواحد أو أياً) من السكاندها الخمسة يدخل المعاناة» [ماجهيا . ١ - ١٤١] . ولنوضح بأن عبارة دوکها التي تترجم عادة بـ (ألم) أو (معاناة) لها معنى اكثر اتساعاً . فهناك اشكال مختلفة من السعادة ، توصف كما لو كانت دوکها ، فبعد ان امتدح البوذا الغبطة الروحية لتلك الحالات الیوجية ، اضاف انها «متغيرات دوکها ، وخاضعة للتغيير» [ماجهيا . ١ - ٩٠] . انها دوکها حقاً لأنها خاضعة للتغيير^(١) . وكما سنرى ، فإن البوذا يختصر (الأننا le moi) لخلط خمسة مجاميع (سكاندها) للقوى الطبيعية والنفسية . وهو يوضح ان الدوکها هي ، في نهاية المطاف الخمسة مجاميع^(٢) les cinq a gregads

والحقيقة النبيلة الثانية توحد أصل المعاناة (دوکها) في الرغبة ، والشهية أو «العطش» (تانها) الذي يحدد اعدادات التجسيد . هذا «العطش» يبحث باستمرار عن متع جديدة : ويميز فيها الرغبة بمسرات الحواس ، والرغبة بالبقاء والرغبة بالمحق (auto- annihilation) ويلاحظ بأن هذه الرغبة بالمحق مدانة مع المظاهر الأخرى من «العطش» . وفي الواقع ، بصفة انها بذاتها «شهية» ، فإن الرغبة بالمحق ، التي يمكن ان تقود الى الانتحار ، لا تشكل ابداً حلاً ، لأنها لا توقف الدورة الأبدية للتناسخات .

وثالث الحقائق النبيلة تعلن ان الخلاص من الألم (دوکها) يوجد في حذف الشهوات (تانها) . إنها تعادل النيرفانا . وفي الواقع ان أحد اسماء النيرفانا هو «انتفاء العطش» (تانها كهايا) . وأخيراً ، فإن الحقيقة النبيلة الرابعة تكشف الطرق الموصلة إلى انقطاع المعاناة .

ان البوذا في صياغته للحقائق الأربع ، يطبق طريقة من الطب الهندي الذي يصف المرض بدثياً ، ثم يكتشف سببه ، ويقرر بعدئذ ازالة هذا السبب

واخيراً يحضر الوسائل القابلة لأن تزيله . ان التطبيق المعد من قبل البوذا يشكل ، في الواقع ، الحقيقة الرابعة ، انها تحدد الوسائل لشفاء ألم الوجود . وهذه الطريقة معروفة تحت الاسم «طريق الوسط» . وفي الواقع ، انها تتحاشى النهايتين : ملاحقة السعادة بلذائذ الحواس ، والطريق المضاد ، البحث عن الغبطة الروحية بتنسك حاد . ان «طريق الوسط» يدعى كذلك «طريق الاعضاء الثمانية» لأنه يتكون في : (١) رؤية او رأي صحيح (أو عادل) (٢) فكر صحيح (٣) كلام صحيح (٤) نشاط صحيح (٥) وسائل وجود صحيحة (٦) جهد صحيح (٧) انتباه صحيح (٨) تركيز صحيح .

ويرجع البوذا بدون كلل الى القواعد الثمانية «للطريق» فيفسرها بطرق مختلفة لأنه كان يتوجه الى مجالس مختلفة . وهذه القواعد الثمانية كانت احيانا مصنفة تبعاً لمنظوراتها . وهكذا ، على سبيل المثال إن نصاً من الماذهب نيكايا [٣٠١ - ١] يعرف التعليم البوذي وكأنه : (١) سلوك اخلاقي (سيلا) (٢) مذهب عقلائي (ساماهي) (٣) حكمة (براجنا) . إن السلوك الاخلاقي المؤسس على الحب الكلي والشفقة من أجل كل الكائنات ، يقوم في الواقع في ممارسة القواعد الثلاثة (٢ - ٤) من (طريق الثمانية) أي الكلام الصحيح أو المضبوط ، ونشاط صحيح ، أي طريق حياة صحيحة . وهناك نصوص عديدة تفسر ما يفهم من هذه الصياغات^(٣) . فالمذهب العقلي (ساماهي) يقوم في ممارسة الثلاثة الأخيرة من التركيز الصحيح . وهو يتعلق بممارسات تنسكية من نظام اليوجا ، والتي سنؤكد عليها فيما سيأتي ، لأنها تشكل الجوهر في الرسالة البوذية . أما بالنسبة للحكمة (براخيا) ، فإنها النتيجة للقاعدتين الأوليتين : نظر أو رأي صحيح ، وفكر صحيح .

١٥٧ - تغير الأشياء ومذهب الأنانا

بالفكر والتأمل حول الحقيقتين الشريفتين الأوليتين - الألم وأصل الألم - يكتشف الناسك عدم الثبات ، اذن عدم الجوهرية (آنانا) للأشياء ، وبذات الحين

عدم جوهرية كينونتها الذاتية . إنه يكتشف نفسه بأنه ليس تائها بين الأشياء «كما هو الأمر - مثلاً - للفيدنتي ، للأورفي ، للغنوصي» وانما ، مشاركا قوالها في الوجود . لأن الشمولية الكونية كما هو كذلك النشاط النفس - عقلي تشكل عالماً واحداً بذاته . ان البوذا باستعماله تحليلاً قاسياً ، أظهر ان كل ما يوجد في العالم يمكن تصنيفه في خمسة فئات أو مجموعات أو اصناف (سكاندها) : (١) مجموعة «الظواهر» او المحسوس (الذي يشمل كلية الأشياء المادية ، واعضاء الحواس وموضوعاتها) . (٢) المشاعر (المثارة بالتماس مع اعضاء الحواس الخمسة) ، (٣) الادراكات الحسية les perceptions والمفاهيم les notions التي تنتج منها (أي الظواهر الادراكية) ، (٤) البنى النفسية (سامسكارا) شاملة النشاط النفسي الواعي وغير الواعي . (٥) الافكار (فيجيانا) أي المعارف المتحصلة بالقدرات الشعورية وبصورة خاصة ، بالنفس (مانا) التي تقيم في القلب وتنظم التجارب الشعورية . لا يوجد سوى النيرفانا التي ليست مشروطة ، ولا «مكونة» وبالتالي ، لا يمكن لها ان تصنف بين «المجموعات» .

إن هذه «المجموعات» أو «المشتملات» تصف ، بطريقة موجزة ، عالم الأشياء والشرط البشري . وثمة صيغة أخرى مشهورة تلخص وتوضح بطريقة أكثر دينامية أيضاً ترابط المسببات بالأسباب الذي يحكم دورة الحياة والولادات . وهذه الصيغة معروفة تحت اسم «الانتاج المشترك المشروط» (باتيكاسموباكا) متضمنة اثني عشر عاملاً («عضواً») حيث أولها هو الجهل . إن الجهل هو الذي ينتج الافعال الارادية ، وهذه بدورها تنتج «البنى» النفسية (سامسكارا) التي تشرط المظاهر النفسية والعقلية ، وهكذا دواليك - حتى الرغبة ، وبتخصيص أكثر الرغبة الجنسية التي تولد وجوداً جديداً وتصل في النهاية الى الشيخوخة والموت . وبالأساس ، ان الجهل ، الرغبة والوجود ، كلها متعلقة ببعضها وتكفي لتفسير السلسلة الغير منقطعة من ولادات ، وميتات ، وتناسخات .

ان هذا الأسلوب من التحليل والتصنيف ليس من اكتشاف البوذا . فتحليلات اليوجا والسمخيا الما قبل كلاسيكية ، وكما سلف لتعليمات البراهماتا

والأوبانيشاد ، قد حلت وصنفت الشمولية الكونية والنشاط النفس - عقلي في عدد من العناصر أو الأصناف . وزيادة على ذلك ، فمنذ العصر ما قبل الفيدي ، أعلنت الرغبة وأعلن الجهل كأسباب أولية للمعاناة وللتناسخ . ولكن الأوبانيشاد ، مثلها مثل السمخيا واليوجا ، تعترف اضافة الى ذلك بوجود مبدأ روحي مستقل : هو الاثمان أو البيروشا . وعلى ذلك فإن البوذا يبدو منكرًا ، أو على الأقل بقي ساكتا ، عن وجود مثل هذا المبدأ .

وفي الواقع ، ان عدداً من النصوص ، المعبرة كعاكسة للتعليم الأصولي للمعلم ، تعارض حقيقة الشخص البشري (بودجالا) ، والمبدأ الحيوي (جيفا) ، او الاثمان . ويعلن المعلم في إحدى خطبه (تماما بدون شعور) المذهب الذي يؤكد : «هذا العالم هو هذا الاثمان ، بعد الموت سأكون هذا ، الذي هو ثابت ، والذي يدوم ، والذي يستمر ، والذي لن يتغير ، وسأوجد كذلك للأبد»^(٤) . وتفهم النية والوظيفة التنسكية لهذا السلب :

بالتأمل حول عدم حقيقة الشخص ، ندمر حب الذات من جذورها ذاتها . ومن جهة أخرى ، فإن نفي الذات ، وموضوع التناسخات ولكن القابل لأن يتحرر وان يدرك النيرفانا ، قد طرح مسائل حمة . ومن أجل هذا ، وفي مناسبات عديدة رفض البوذا الاجابة على اسئلة حول وجود أو عدم وجود الاثمان .

وهكذا بقي صامتا عندما سأله ناسك متشرد قاشاجوتا حول هذه المسائل . ولكنه فسر لأناندا فيما بعد معنى سكوته : لو أنه أجاب بأن ذاتاً كانت توجد لكان قد كذب ، زد على ذلك فإن فاكشاجوتا كان صنف المبارك بين انصار «النظرية الخلودية» (أي الذين كانوا جعلوا منه «فيلسوفاً» ، كما يوجد منهم العديد) . ولو أنه أجاب بأنه لا يوجد «ذات» لكان فاكشاجوتا اعتبره كنصير لنظرية «اللاعدمية» ، وما هو أكثر من ذلك ، ان البوذا كان ايضا افدح في تشويشه : «لأنه كان ظن أوقدر : في البدء كان عندي في الواقع اثمان ، ولكنها لا توجد عندي الآن» [ساميوتا نيكايا ٤ - ٤٠٠] . ويشرح هذا المشهد الشهير ، فإن

(فازوباندهو) [القرن الخامس د . م] استنتج : «الاعتقاد بوجود (ذات) يعني السقوط في هرطقة الديمومة ، وجحود الذات ، يعني السقوط في هرطقة الفناء بالموت»^(٥) .

بإنكار حقيقة الذات (نيراقميا) يوصل الى هذا التناقض : مذهب يمجّد أهمية العمل و «ثمرته» ، وثواب العمل ، وينكر الفاعل ، «الآكل للثمرة» . وبعبارات أخرى ، وكما قال فقيه متأخر بودها جهودا : «المعانة وحدها توجد ، ولكن لا يوجد أي أحد يعاني . الأعمال موجودة ، ولكنه لا يوجد فاعل» [فيزودهيماجا ص ٥١٣] . غير ان هنالك بعض النصوص التي هي أكثر تباينا : «من يأكل ثمرة العمل في بعض الوجود ليس هو الذي فعل الفعل في وجود سابق ، ولكنه ليس غيره»^(٦) .

من مثل هذه التناقضات والغوامض تنعكس المعضلة المثارة برفض البوذا لحسم بعض المسائل المتناقضة . فاذا كان المعلم قد انكر وجود الذات التي لا تجبر ولا تكسر ، فذلك لأنه علم ان الاعتقاد في (اثمان) يجر لخصومات ميتافيزيكية لا نهاية لها ويشجع الصلف العقلي ، وفي آخر المطاف الحصول على اليقظة . وكما انه لم ينقطع عن التذكير به ، فقد بشر بانقطاع المعاناة ووسائل اتمامها . ان المتناقضات التي لا حصر لها حول «الذات» وحول «طبيعة النيرفانا» وجدت حلولها في تجربة التيقظ : لقد كانت تلك المتناقضات غير قابلة للحل بالفكر وعلى مستوى التعبير بالألفاظ .

الا ان البوذا على ما يبدو قد قبل بعض الوحدة والاستمرارية «للشخص» (بودجالا) ففي موعظة حول الحمل والحمال اكد : «ان الحمل ، هو السكندها الخمسة ، مادة ، احساس ، افكار ، ارادات ، معرفة ، وحمال الحمل هو البودجالا ، وعلى سبيل المثال ، هذا المتدين المحترم من تلك الأسرة وذلك الاسم الخ [ساميوثا ٣ - ٥٢] ولكنه رفض ان يتحزب في التناقض بين (انصار الشخصية (بودجالادان) و (مناصري الجماعات) : لقد أخذ موقفا (وسطيا)^(٧) . بيد أن العقيدة في استمرارية الشخص دعمت وليس فحسب في الأوساط الشعبية . ان

الجاتكاز يروون الوجودات السابقة للبوذا ، ولعائلته ورفاقه ، والهوية لشخصياتهم معترف بها دائما . وكيف تفهم الكلمات التي لفظها سيدهارتا ، اثر ولادته : «هذه آخر ولادة لي» (ف ١٤٧ع) ، اذا انكرت استمرارية «الشخص الحقيقي» (حتى ولو حصل تردد في تسميتها الذات أو بدجالا)؟؟

١٥٨ - الطريق الموصلة للنيرفانا

ان الحقيقتين الأخيرتين يجب لهما ان تفحصا سوية . فيؤكد بدثيا ان توقف الألم يحصل عليه بالانقطاع الكلي للعطش (تانها) اي «واقعة الابتعاد (عن هذا العطش) ، والتنازل عنه ، ورفضه ، والتحرر منه وعدم الارتباط به» [ماجيمها ١ - ١٤١] . ويؤكد بدقة ايضا على ان الطرق التي توصل لتوقف الألم هي تلك الطرق المعلن عنها في الطريق المثمن . وهاتان الحقيقتان الاخريان تؤكدان بوضوح : (١) ان النيرفانا توجد ، ولكن (٢) لا يمكن الحصول عليها الا بتقنيات خاصة من التركيز ، والتأمل . وضمينيا ، يعني هذا ايضا ان كل جدل متعلق بطبيعة النيرفانا والقلب الوجودي (للمنرفن) nirvane لا معنى له بالنسبة لمن لم يدرك على الاقل عتبة هذه الحالة الدقيقة عن الوصف .

ان البوذا لم يقدم مطلقاً (تعريفاً) للنيرفانا ، ولكنه يعود بدون انقطاع الى بعض صفاتها . إنه يؤكد ان الارهاث (القديسين الناجين) «قد ادركوا السعادة الغير قابلة للزعزعة» [اودانا - ٨ - ١٠] ، وان النيرفانا «هي طوبى» [انكوتارا ١٧ - ٤١٤] ، وانه هو المبارك قد ادرك الخلود ، وان النساك يستطيعون كذلك ادراكه : «ستجعلون من انفسكم حضوراً منذ هذه الحياة ، ستعيشون حائزين لهذا الخلود» [ماجيهتيما ١ - ١٧٢] . ان الارهاث «منذ هذه الحياة نفسها ، منبوذ (منرفن) (نيبوتا) ، شاعر بالسعادة في ذاته ، يمضي وقته مع براهمان»^(٨) .

ان البوذا يعلم اذن بان النيرفانا هي «مرآة على هذه الأرض» ظاهرة ،
حالية ، أو (من هذا العالم) . . ولكنه يؤكد على واقعه انه وحده من بين اليوجيين
يرى ويملك «النيرفانا» . أي : «هو ومن يتبع طريقته» . ان البصيرة vision المسماة
في الشريعة «عين القديسين» (آريا كاكهو) تسمح «بالتماس» مع الغير مشروط ،
«الغير مبني» النيرفانا^(٩) . وعليه فان هذه «البصيرة» «المساعدة» يحصل عليها
ببعض تقنيات تأملية مطبقة سلفاً منذ الازمنة الفيديا والتي توجد موازيات لها في
ايران القديمة .

واجمالا ، مهما كانت طبيعة «النيرفانا» فمن المؤكد انه لا يمكن الاقتراب منها
الا باتباع الطريقة التي علم بها البوذا . ان البنية الیوجية لهذه الطريقة واضحة :
انها تتطلب في الواقع سلسلة من التأملات والتركيزات المعروفة منذ عدة قرون .
غير ان الأمر يتعلق ببوجا متطورة ومعادة التفسير بعقريّة المبارك الدينية . ان
الناسك يمر بدنياً للتفكير باستمرار حول حياته الفيزيولوجية ، بهدف الوعي بكل
التصرفات التي اكملها حتى ذلك الحين بصورة آلية وبدون وعي ، وعلى سبيل
المثال «بالتأمل طويلاً يعرف حتى العمق لهذا الالهام الطويل ، وبالزفير باختصار
يفهم الخ» . وانه يتدرب ليكون واعياً بكل زفراته [. . . .] وبكل شهقاته ،
ويدرب نفسه لتبطئة شهقاته وزفراته [. . . .] «ديجها ١ - ٣٩١» . كذلك الأمر
فإن الناسك يكبد ليفهم تماماً ما يفعله عندما يمشي ، أو يرفع ذراعه . أو يأكل أو
يتكلم أو يصمت . . ان هذه المرونة المستمرة تثبت له انسحاقية العالم الظاهرائي
وعدم حقيقة «الروح»^(١٠) : تساهم بخاصة «بنقل» التجربة الدنيوية .

وان الناسك يمكنه ان يدنو الآن مع شيء من الثقة ، من التقنيات
بكل معنى الكلمة . ويصنفها التقليد البوذي في ثلاث فئات : «التأملات»
(جهانا) «الخشوعات» (ساماباتي) و «التركيزات» (سامادهي) . وسنصفها بدنياً
باختصار محاولين بالتالي تفسير نتائجها . ففي أول تأمل (جهانا) يثبت الناسك
بانفصاله عن الرغبة (سعادة) مصحوبة بنشاط عقلائي (محكمة وتفكير) . وفي
ثاني تأمل (جهانا) ينال التهذئة لهذا النشاط الفعلي ، وبالنتيجة ، يعرف الصفاء
الداخلي ، وتوحيد الفكر (السرور والسعادة) الناتج عن هذا التركيز . وفي ثالث

(جهانا) ينفصل عن الفرح ويبقى غير مبالٍ ، وانما بتمام الشعور ويختبر الغبطة في جسده . وأخيراً في المرحلة الأخيرة ، بالتنازل عن السرور مثل التنازل عن الألم ، يحصل على حالة من الطهارة المطلقة ، ومن عدم المبالاة والفكر المتيقظ .

ان الخشوعات الأربعة (ساماباتي) («اجتناءات» ، و «محصلات») تتلو عملية «التطهير» للفكر . هذا الفكر المفرغ من محتوياته ، يركز تباعاً على لا نهائية الفضاء ، وعلى لا نهائية الشعور ، وعلى «العدمية» . وفي رابع ساماباتي ، يدرك حالة هي «ليست لا شعوراً ولا لا شعوراً» . ولكن البهيكهو Bhikkhu يجب أن يذهب بعيداً أكثر في هذا العمل ايضاً من التطهير الروحي ، محققاً التوقف لكل ادراك حسي وكل فكرة (نيرودها سامباتي) .

إن الراهب يبدو وكأنه فيزيولوجياً في حالة تخشب ، ويقال بأنه «لمس النيرفانا بجسده» . وفي الواقع إن مؤلفاً متأخراً صرح بأن «البهيكهو الذي عرف ان يصنع هذا المكسب لم يبق لديه ما يفعله»⁽¹²⁾ . أما بالنسبة للتركيزات (سامادهي) ، فهي تمرينات يوجية لمدة محدودة اكثر من تمرينات الجهانا والساماباتي ، وتستخدم بخاصة لانجذاب نفس - عقلي . ان الفكر مركز على بعض الموضوعات أو مفاهيم بغاية الحصول على توحيد الشعور ومحو النشاطات العقلية . وتعرف أنواع مختلفة من السامادهي ، يتبع كل منها هدفاً محدداً .

بتطبيق وتطويع هذه التمارين اليوجية ، وتمرارين غيرها أيضاً ، التي لا يمكن التوقف عندها هنا يتقدم البهيكهو على (طريق الخلاص) . ويميز في ذلك اربع اطوار : ١) «الدخول في التيار» هو الطور المدرك من قبل الناسك المتحرر من الاخطاء والشكوك والذي لن يولد سوى سبع مرات على الأرض ٢) «الرجوع الوحيد» ، الطور لمن انقص العشق ، والغضب والحماقة والذي لن يكون له سوى عودة ولادة واحدة ، ٣) «اللا رجوع» ، عندما يتجاوز الناسك نهائياً وبشكل كامل الاخطاء ، والشكوك والرغبات ، سيولد في جسد اله وسيحصل بالتالي على الخلاص ، ٤) «المستحق» (أرهات) المطهر من كل التدنيسات والأهواء ، الموهوب بمعارف مافوق الطبيعة وبقدرات عجيبة خارقة (سيدهي) يدرك النيرفانا منذ نهاية حياته .

١٥٩ - تقنيات التأمل وتنويرها بالحكمة

سيكون من السذاجة الظن بإمكانية (استيعاب) هذه التمارين اليوجية ، حتى ولو بتكرار الاستشهادات بالنصوص الأصولية وبتقديم شروح لها . والممارسة وحدها تحت رقابة معلم ، هي القابلة لأن تكشف بنيتها ووظيفتها . وقد كان هذا فعلاً في ازمة الاوبانيشاد ومازال كذلك حتى يومنا هذا .

ولنتناول مع ذلك بعض النقاط الأساسية :^(١) بدنياً ، كل هذه الممارسات اليوجية مقادة بالحكمة (براينا) المعرفة التامة للحالات النفسية وماقبل النفسية المجربة من قبل البهيكهو . وان الجهد «لوعي» النشاطات الفيزيولوجية الأكثر شهرة (تنفس ، مشي ، حركة الأذرع الخ . . .) يتحدد في التمارين التي تكشف لليوجي «حالات» منيعة على شعور دنيوي .

٢) ان التجارب اليوجية ، وقد أصبحت غير معقولة انتهت لتحول الشعور الطبيعي فمن جهة ، الناسك هو متحرر من الأخطاء المتضامنة بالبنية حتى لشعور غير مستنير (مثلاً الاعتقاد بحقيقة الشخص أو وحدة المادة . . الخ) ، ومن جهة أخرى ، يدرك بفضل تجاربه المافوق طبيعية ، مستوى من المعرفة خارج كل منهج مفهومي ، ومعرفة مماثلة ، مرفوضة بالاستعمال للالفاظ .

٣) وبالتقدم في الممارسة يجد الناسك موافقات جديدة للمبدأ ، وبخاصة الرضوخ «المطلق» «لغير مكون» يصعد كل القوالب المقبولة لشعور غير متنور ، ولحقيقة واضحة «لخالد» (أونيرفانا) ، الذي لا يمكن قول شيء سوى انه موجود .

ان خبراً متأخراً يلخص عن معرفة كبرى الأصل التجريبي (أي اليوجي) للاعتقاد في حقيقة النيرفانا . «يصر عبثاً على أن النيرفانا لا توجد بسبب أنها ليست موضوعاً للمعرفة - بلا ريب ان النيرفانا ليست معروفة مباشرة بالطريقة التي يعرف بها اللون ، والاحساس الخ ، وليست معروفة بصورة غير مباشرة بنشاطها ، بالطريقة التي تعرف بها اعضاء الحس . مع ذلك فإن طبيعتها ونشاطها

[...] هما موضوع للمعرفة [...] . فاليوجي الداخلي في الخشوع يشعر بالنيرفانا ؛ وبطبيعتها وبنشاطها . وعندما يخرج من التأمل ، يهت : (آه النيرفانا ، تدمير ، هدوء ، ممتاز مخرج) . ان العميان ، لأنهم لا يرون اللون الأزرق والأصفر ، ليس لهم الحق بأن يقولوا ان المبصرين لا يرون الألوان وأن الألوان لا توجد أبداً^(١٤) .

ومن الراجح ان المساهمة الأكثر عبقرية للبوذا كانت في ترتيبه لطريقة للتأمل نجح فيها بادخال الممارسات التنسكية والتقنيات اليوجية لقواعد مميزة للمعرفة ، وقد صدّق هذا ايضا بالفعل الذي كان البوذا قد منحه قيمة مساوية للتنسك - التأمل من نوع يوجي وللعقولة المبدأ . الا أنه ، كما توجب الانتظار في هذا الشأن ، فإن الطريقتين ، اللذين يناسبان بوجه آخر اتجاهين متنافرين للنفس ، لم يُطوعا الا فيما ندر من قبل ذات الشخص . ومنذ وقت قريب حاولت النصوص الشرعية التي تتوافق معها . « فالنساك المستسلمون للتأمل اليوجي » « جهين » يلومون النساك الذين يرتبطون بالمبدأ « ال دهمايوجا » وبالعكس . ويتوجب عليهم ، على العكس من هذا ان يقيم بعضهم الآخر . وفي الواقع إن الأشخاص الذين يمضون وقتهم ملامسين مع جسدهم (أي : محققين ، ومجربين) العنصر الخالد (أي النيرفانا) هم نادرون جداً . كذلك فإن الذين يرون الحقيقة العميقة باختراقها بواسطة البراجانا (بالعقل) هم نادرون ايضاً^(١٥) .

ان كافة الحقائق المكتشفة من قبل البوذا يجب لها ان تكون « محققة » على الطريقة اليوجية ، أي متأملة ، « ومجربة » . ولهذا فإن اناندا ، التلميذ المفضل للمعلم ، مع كونه لا مثيل له بالنسبة لمعرفة المذهب ، قد استثنى من المجمع الديني le Concile (ف ١٨٥ ع) : لأنه لم يكن « أرهات » ، أي لم يكن عنده تجربة (يوجية) كاملة . وهناك نص شهير من السامبولا [٢ - ١١٥] يضع وجهها لوجه موزيلا دنارادا ، كل واحد منها ممثلاً درجة ما من الكمال البوذي ، والاثنان يحوزان ذات المعرفة ، ولكن نارادا لم يعتبر ارهات أبداً ، منظور إليه بأنه لم يحقق تجريبياً « التماس مع النيرفانا »^(١٦) . وان هذا التفرع الثنائي استمر ، وبتزايد طوال

تاريخ البوذية . وقد أكد بعض الأحبار بذاتهم ان الحكمة (براجنا) قادرة لتضمن لنفسها وحدها اكتساب النيرفانا . وبدون ان يكون هنالك حاجة لاستدعاء تجارب يوجية . ويظن ان في هذه العظة «لقديس جاف» ، وناج بالحكمة براجنا ، اتجاه «ضد الصوفية» وربما مقاومة «الميتافيزيكيين» ضد المبالغات اليوجية .

ويضاف الى ذلك بأن الطريق للنيرفانا - تماما كما في اليوجا التقليدية ، الطريق للسهادي - يؤدي لحيازة قوى خارقة (سيدهي بالي ، ايدهي) . وقد كان هذا طرح لبوذا (كما لباتنجالي فيما بعد) مسألة جديدة . فمن جهة ، لأن «القوى» هي لا محالة مكتسبة اثناء الممارسة وهي تشكل ، لهذا السبب نفسه ، علامات دقيقة حول النشاط الروحي للناسك : انها حجة على ان هذا هو على أهبة «التحلل من الشرط» ، وانه علق قوانين الطبيعة التي كان سحق بها في الدوام . ولكن القوى ، من جهة اخرى هي خطرة بشكل مزدوج ، لأنها تختبر البهيكهو مع «سلطة سحرية للعالم» عابثة وتخطر اضافة لذلك بخلق اختلاطات بين المدنسات .

إن «القوى الخارقة» تشكل جزءاً من خمسة أصناف من العلوم العليا (أبهيجنا) هي : ١) سيدهي ٢) العين الالهية ٣) الاذن الالهية ٤) معرفة فكر الغير ٥) ذكرى الوجودات السابقة) . وان أي واحدة من هذه الابهيجنا الخمسة لا تختلف عن «القوى» القابلة للحصول عليها من قبل اليوجيين الغير بوذيين . وفي الديجهانيكايا [١ ، ٧٨] يؤكد البوذا ان البهيكهو في تأمله قادر لأن يتعدد ، ولأن يصبح غير مرئي ، ولأن يخترق الأرض الصلبة ، ولأن يمشي على الماء ، ويطير في السماء ، أو أن يسمع اصواتاً سماوية ، وان يعرف أفكار الغير ، وأن يعيد تذكر وجوداته السابقة ، بيد أنه لا ينسى أن يضيف ان حيازة هذه «القوى» تخاطر بحرف الناسك عن قصده الحقيقي ، النيرفانا . اضافة لذلك ، فإن عرض مثل هذه «القوى» لم يكن يخدم البتة انتشار السلامة ، وبعض اليوجيين والوجديين استطاع اجراء ذات الخوارق ، وماهو اكثر من ذلك ان الدنيويين ، اعتقدوا ان ذلك يتعلق بالسحر بكل بساطة . ولهذا فإن البوذا كان قد منع بحزم عرض «القوى الخارقة» امام اللامتدنيين .

إذا أخذنا في الحسبان تحول الشعور الديني المتحصل من قبل البهيكهو ، والتجارب الخارقة اليوجية وماقبل علم النفس التي ينجزها ، ندرك مدى التشويش ، والترددات لا بل التناقضات في النصوص القانونية فيما يتعلق بطبيعة «النيرفانا» و«حالة» المتحرر . ولقد نوقش كثيراً من أجل معرفة ما إذا كانت طريقة تكون «المنرفن» تعادل الاستئصال الكلبي ، أو الوجود الطوبايي التالي الذي لا يوصف . لقد قارن البوذا الحصول على النيرفانا باطفاء شعلة . ولكنه لوحظ ، بالنسبة للفكر الهندي ، ان اطفاء النار لا يعني زوالها ، وانما العودة لحالة كمنون (بالقوة)^(١٧) . ومن جهة اخرى اذا كانت النيرفانا هي المطلقة او الغير مشروطة بامتياز ، فإنها تفارق ليس البنى الكونية فحسب ، بل اصناف المعرفة ايضا . وفي هذه الحالة يمكن الجزم بأن «المنرفن» Nirvané لم يوجد بعد «إذا فهمنا الوجود كطريقة للتكون في العالم» ولكنه يمكن التأكيد أيضاً انه «يوجد» في نيرفانا ، في المطلق أي في طريقة تكوّن من المستحيل تخيلها . ان البوذا قد ترك فعلاً هذه المسألة مفتوحة ، لأنهم وحدهم الذين يوضعون في الطريق la voie والذين حققوا ، على الأقل بعض الممارسات اليوجية ، والذين هم بعناية متنورون بالبراجنا ، وحدهم يعتبرون انه مع تحول الشعور ، والبنى الشفهية وبنى الأفكار قد فنوا . وعندئذ نصل الى مستوى متنافي ، ومتناقض بوضوح ، حيث يتحد الكائن مع اللاكائن ، ويمكن بالنتيجة التأكيد في آن واحد على أن الذات توجد أو أنها لا توجد أبداً ، وان الخلاص هو الاستئصال وفي ذات الوقت هو غبطة . وفي معنى آخر ، ورغم الخلافات بين السمخيا - يوجا وبين البوذية ، يمكن مقارنة (المنرفن) بالجيفان موكتا «الناجي في الحياة» (ف ١٤٦ ع) .

وعلى ذلك تقتضي الإشارة الى ان التشابه بين النيرفانا والتصاعد المطلق للكوزموس ، أي فئاته ، هو أيضاً قد اشتهر بالعديد من الصور والرموز . ولقد اشرنا سابقاً إلى الرمزية الكونية والمؤقتة للخطوات السبعة لبوذا (ف ١٤٧ع)

ويحسن أن نضيف المثل عن «البيضة المكسورة» المستعمل من قبل بوذا ليعلن انه كسر دولا ب الوجودات (سمسارا) ، وبعبارة اخرى انه صعد كذلك الكون كما صعد الزمن الدوري . وليس أقل من ذلك استعراضية صور ، «تهديم المنزل» من قبل البوذا و «السقف المتشقق» من قبل الأرهات ، صور تترجم فناء العالم المشروط^(١٨) . وعندما يعاد التذكير بأهمية المشابهة (كون - بيت - جسم بشري) بالنسبة للفكر الهندي (وبصورة عامة بالنسبة للفكر التقليدي «القديم» تقاس الثورية الجديدة للموضوع المطروح من قبل البوذا . فللمثل الأعلى القديم من «الاقامة في منزل ثابت» (بمعنى اعتلاء مركز وجودي في كون كامل) ، أقام البوذا نقيضاً وهو المثل الأعلى للنخبة الروحية التي كانت معاصرة : فناء العالم وتصاعد كل «حالة» مشروطة .

ومع ذلك فإن البوذا لا يدعي أبداً أنه يبشر بمبدأ «أصلي» . إنه يكرر في الكثير من المناسبات انه اتبع «الطريق القديم» والمبدأ الترجيحي «أكاليكو» الموزع من قبل «القديسين» و «المتيقظين الكاملين» من العصور الماضية^(١٩) . وهذه كانت طريقة أخرى للإشارة الى الحقيقة «الأبدية» وعالمية رسالته .

حواشي الفصل التاسع عشر

- ١ - التعليم الديني البوذي قد ميز الدوكها بصفتهها معاناة عادية ، وبصفتهها معاناة مسببة بالتغير وبصفته لحالة مشروطة . ولكن وبما ان كل شيء هو مشروط ، فهو اذن دوكها .
- ٢ - النصوص ذكرها راهولا ص ٤١
- ٣ - مثلاً الكلام الصحيح يعني غياب الكذب ، الغيبة ، النميمة ، وكل كلام فظ ، وشتيمة أو غير مؤدب وأخيراً الثروة . ان قاعدة النشاط الصحيح تمنع على البوذي ان يهدم الحياة وان يسرق وان يحصل على علاقات جنسية غير شرعية . . وطريقة الحياة الصحيحة تستبعد المهن المضرة بالآخرين) .
- ٤ - ماجهيمانيكايا . ١ - ١٣٨
- ٥ - ٦ ماجهيمانيكايا - ص ١٠٨ - ٤٠٩
- ٧ - من جهة اخرى فإن البوجالا فادان ذاتهم كانوا قد تقربوا من خصومهم بطرحهم تعريفاً متناقضاً للشخصية : «خطأ ان البيدجالا هو ذات الشيء للسكاندها ، ومن الخطأ انها تختلف عن السكاندها» ومن جهة اخرى فإن انصار dze agragach انتهوا بتحويل الشخصية الى مجموعة (سامانانا) للأسباب والغايات حيث ان الوحدة ، مع كونها متحركة فهي غير منقطعة . الأمر الذي يجعلها مماثلة للروح ، وسيعاد هذان الشرحان من قبل المدارس التالية ، الا انه في تاريخ الفكر البوذي ، فإن المستقبل ينتمي لمناصري الروح . مع ذلك فإن المدارس الوحيدة التي تملك الكتابات عنها والتي نعرف ان نعلم بشكل افضل النيراتاميا ، انظر nallée- ponnan النيرفانا ص ٦٦
- ٨ - انجوتارا - ٢٠٦ وغيرها . . نصوص ذكرها فاليه بوسان وان لا يجد السعادة والفرح والنور في داخله ، يوجد البوحي مع براهمان ويدرك النيرفانا التي لبراهمانا» ونص بوذي آخر يصف القديس الناجي (عن هذا الناسك اقول انه لا يمضي للشرق ولا للجنوب ولا

- للغرب [...] منذ هذه الحياة ، هو منفصل ، منرفن ، مجرد ، موحد مع براهمان) .
- ١٠ - في الواقع ان الشارح س- فازيلي يستخرج من التأمل على الاشارات الجسدية النتيجة التالية («لايقولون ان هذه وحدة حية تمشي» ، وحدة حية ترتاح ، ولكن هل يوجد فعلاً وحدة حية تمشي أو ترتاح ؟ لا يوجد» أما بالنسبة للشهيق والزفير فإن البهيكهو اكتشف انها مثبتة على المادة ، والمادة هي الجسم المادي ، هي العناصر الاربعة . الخ .
- ١١ - dighe ١ - ١٨٢ - مهما كانت النجاحات الخارجية للبهيكهو فإن الجهات الاربع تؤله المادة ولادة بين الالهة الذين هم دوماً غارقون في هذه التأملات .
- ١٢ - sandiduva القرن ٧ ق.م
- ١٣ - نذكر بالثمانية تحمرات والثمانية تمرينات تطوعية
- ١٤ - ساجها مهادرا- ذكرها فاله بوسان ص ٧٣ - ٥٤ (لايمكن القول ان شيئاً لا يوجد لأن الجهلة لا يبصرونه) .
- ١٥ - الكوتارا ص ١٧٨
- ١٦ - ر . اليوجا - م . اليام - ص ١٩١
- ١٨ - انظر النصوص المذكورة في صور ورموز ص ١٠٠ و «كسر سقف البيت» باسيم .
- ١٩ - «لقد رأيت الطريق الموجل في القدم ، الطريق القديم المبني من قبل كافة المتيقظين الكاملين للزمن . هاهو المسلك الذي ادى اتباعه» [سميوتا- نيكاجا ٢ - ١٠٦] .
- وفي الواقع «الذين ، في ازمة مرت ، كانوا قديسين ، ومتيقظين كاملين ، كل هذه الكائنات السامية قادوا بحق تلامذتهم نحو مثل هذه الغاية ، وبالطريقة التي هم اليوم بالتأكيد يقادون فيها للتلامذة من قبل ، وأولئك الذين ، في الأزمة المقبلة سيصبحون قديسين ومتيقظين كاملين ، كل هذه الكائنات السامية لن تحمل ابدأ قيادة تلامذتها فعلاً ، بالطريقة التي هم فعلاً يقودون التلامذة من قبلي بالذات» [ما ج . ٢ - ٣٠٤] .

الفصل العشرون

الديانة الرومانية : من الأصول إلى ادعاءات الباشاناليين
١٠٨٦ ق.م

١٦١ - رومولوس والضحية القربانية

حسب المؤرخين القدامى ، كان بناء روما نحو ٧٥٤ ق.م ، وتؤكد الاكتشافات الحفرية صحة هذا القول : فموقع اوربس Urbes بدىء بسكناه منذ منتصف القرن الثامن . ان اسطورة بناء روما والخرافات حول الملوك الأول هي بشكل خاص هامة لمعرفة الديانة الرومانية ، ولكن هذه القيمة الميثولوجية تعكس كذلك بعض الحقائق الانتوغرافية والاجتماعية . إن الاحداث الخرافية التي تنصدر ولادة روما تبرز : (١) من حشد من الهاربين من مختلف الأصول و (٢) من ادماج جماعتين عرقيتين متميزتين جداً ، وعليه ، فإن الاتنية اللاتينية ، حيث خرج الشعب الروماني ، هي الحصيلة لخليط بين السكان النيوليتيك من السكان

الأصليين والغزاة الهندو-أوروبيين النازلين من بلاد ما بين الألب . وهذه التركيبة الأولى تشكل النموذج المثالي للقومية وللثقافة الرومانية . وفي الواقع إن عملية التمثيل والتكامل الإثني الثقافي والديني قد استمر حتى نهاية الامبراطورية .

وحسب التقليد المنتقل عن طريق المؤرخين ، فإن نوميتور Numitor ملك الألب ، قد عزل من قبل أخيه أميلوس Amulios . ويهدف تدعيم حكمه فإن أميلوس ذبح ابن نوميتور والزم شقيقتها رياسيلفيا Rhea Sylvia لتصبح كاهنة الآلهة فيستالا Vistale . غير أن سيلفيا وجدت نفسها حاملا من أفعال مارس Mars وولدت ولدين ، روميلوس وروموس . وقد وضعتهما على نهر التير ، وقد التقط التوأمان ، اللذان تغذيا بأعجوبة بلبن ذئبة ، بعد فترة ، من قبل راعٍ وريبا من قبل زوجته . وعندما بلغا مبلغ الرجال ، عرف روموس وروميلوس من قبل جدتهما ، بعد أن أزاها الغاصب ، أعادا نوميتور إلى العرش . ومع ذلك تركا الألب وقررا بناء مدينة على الموضع ذاته حيث أمضيا طفولتهما . ولكي يشاورا الآلهة ، اختار روميلوس البالاتان le palatian في حين أن روموس ، استقر على هضبة أفنتان l'Aventin إن روموس هو الذي تلقى أول إشارة فآلية : طيران ستة عقبان . ولكن روميلوس رأى اثني عشر وإليه يرجع شرف بناء المدينة ، فقد رسم بسكة الفلاحة خطا حول (بالاتان) : التراب الملقى كان يمثل الأسوار ، وخط الفلاحة كان يرمز للخنديق وقد رفعت السكة لتدل على موضع الأبواب المقبلة . وازدراء بالألفاظ الشاذة لأخيه اجتاز روموس بقفزة واحدة السور والخنديق ، عندها انقض عليه رومولوس وضربه على رأسه صارخا : «هكذا سيقضى في المستقبل على كل من تسول له نفسه اجتياز أسواري»^(١) .

إن الخاصية الميتولوجية لهذا التقليد بارزة . ففيها نجد النغمة لوضع المولود الجديد في أساطير (سرجون) و (موسى) و (سيروس) والأشخاص الآخرين المشهورين (٥٨٥ - ١٠٥٠ع) . وإن الذئبة المرسلة من قبل مارس لترضع التوأمان تنبئ بالنزعة الحربية للرومان . وإن العرض والأرضاع من قبل أنثى حيوان كاسر يشكل التجربة المسارية الأولى التي يتوجب على أبطال المستقبل التغلب عليها . لقد أتبعت بتدريب المراهق الجاهل لهويته بين أقوام فقيرة وخشنة (على سبيل المثال

سيروس). ان نغمة «الأخوين (التوأمين) الأعداء» كنغمة ازاحة العم (أو الجدد) ، تعرفان كذلك انتشاراً واسعاً . أما بالنسبة لطقوسية انشاء المدينة بخط فلاحه فقد اشرنا الى موازيات لها في العديد من الثقافات . (بالمقابل فإن مدينة عدوة كانت تزال طقوسيا عند كانت تخرب أسوارها ويرسم خط فلاحه حول الانقاض)^(٢) . وكما في تقاليد أخرى ، فإن بناء مدينة يمثل ، في الواقع ، التكرار لشكونية . وان أضحية روموس تعكس الأضحية النشكونية الأولية من نموذج بيروشا ، يميروبان - كو (ف ٧٥٠ع) ان ذبح روموس على موقع روما يؤكد المستقبل السعيد للمدينة ، أي الولادة لشعب روماني ولجبيء رومولوس للحكم^(٣) .

من الصعب التحديد بدقة لتاريخية ، وبخاصة ، لتحولات هذا التقليد الميتولوجي قبل ان يسجل من قبل المؤرخين . فقدمها لا يمكن انكاره وقد ابرزنا بعض المشابهات مع النشكونية الهندو- اوروبية^(٤) . وابرز مايدوهنا الانعكاس لهذه الاسطورة في الضمير الروماني . «فمن هذه الاضحية الدموية الأولى التي قدمت لآلهة روما ، سيحتفظ الشعب دوما بذكرى مروعة . فبعد البناء باكثر من سبعمائة سنة سيعتبرها هوراس ايضا كنوع من خطأ بدئي يتوجب بالضرورة لنتائج اثاره خسارة المدينة بدفع ابنائها للتذايح فيما بينهم . وفي كل فترة حرجة من تاريخها ستسائل روما بآلم ، معتقدة بشعور وطأة اللعنة عليها . واضافة لهذا أنها في نشأتها لم تكن بسلام مع الناس ، ولم تكن بسلام مع الآلهة . وهذا القلق الديني سينيخ بكلكله على مصيرها»^(٥) .

١٦٢ - «تاريخ» الأساطير الهندو- اوروبية

تروى التقاليد عن سكنى المدينة من قبل الرعاة في الاقليم ، ومن ثم من قبل اللصوص والمشردين من اللاتيوم . ومن أجل الحصول على نساء ، استعمل رومولوس حيلة : اثناء العيد الذي جذب اليه العائلات من المدن المجاورة ،

انقض رفاقه على الشابات السابينات sabinas وجروهن الى منازلهم . وامتدت الحرب التي تفجرت بين السابين والرومان دون أي حسم عسكري ، حتى اللحظة التي توسطت فيها النسوة بين اقاربهن ومغتصبيهن . وان الصلح أدى بعدد من السابين للاستقرار في المدينة . وبعد أن نظم رومولوس البنية السياسية ، بانشاء السيناتور ، وجمعية الشعب اختفى اثناء عاصفة هوجاء فأعلنه الشعب اليها . وبالرغم من جريمته بقتل الأخ ، فإن صورة رومولوس ، أصبحت وبقيت مثالا في ضمير الرومان : لقد كان في آن واحد مؤسسا ومشرعاً . وقد كرس السابي الأول نوما Numa نفسه لتنظيم المؤسسات الدينية ، وقد تميز بصورة خاصة بتكريم الضمير الطيبة Fide publica ، ربة تحكم كذلك العلاقات بين الافراد اضافة للعلاقات الدولية . ومن بين الملوك الذين خلفوه ، كان الأكثر شهرة السادس سيرفيوس توليوس ، الذي يرتبط اسمه باعادة تنظيم المجتمع الروماني ، وبالاصلاحات الادارية وتضخم المدينة .

ولطالما نوقشت صحة هذا التقليد ، الذي يقرر العديد من الحوادث الاسطورية ، منذ انشاء روما حتى سقوط آخر ملك ، الاتروسكي ثار كان المعظم ، والاحتفال بالجمهورية . ومن الراجع جداً ، ان ذكريات عدد من الشخصيات والأحداث التاريخية ، التي سبق تحويلها باندفاعات الذاكرة الجماعية ، قد فسرت ونظمت توافقاً مع مفهوم عمل مؤرخين خاص . وقد اظهر جورج دوميزيل في أي معنى أضفى الرومان الصفة التاريخية على كبرى التعبيرات من الميثولوجيا الهندو- اوروبية (ف ٦٣ع) ، وإلى أية نقطة يمكن القول عن أقدم ميثولوجيا رومانية ، والعائدة لما قبل التأثيرات الأتروسكية والاغريقية ، حيث تبدو مموهة في الكتابين الأولين لتيت - ليف .

وهكذا ، وبخصوص الحرب بين الرومان والسابين ، فإن دوميزيل يلاحظ التناسب المدهش مع مشهد مركزي للميثولوجيا السكandinافية ، وبخاصة النزاع بين شعبين لآلهة الأرض والفانس . فالأولون تجمعوا حول اوذين Othin وتهور Thor . واوذين ، رئيسهم ، هو الاله - الملك - الساحر ، وتهور ، الاله ذو المطرقة ، هو البطل السماوي الكبير . وعلى العكس فإن الفانس هي آلهة الخصب

والثروة . وان الفانس قاومت بثبات هجمات الأذس ، ولكنه كما يقول سنوري ستورلوسون Snorri sturluson «تارة انتصر بعضهم، وتارة انتصر البعض الآخر» . وقد عقد الأذس والفانس الصلح بعد أن تعبوا من هذا التناوب المكلف كثيراً لنصف نجاح : فاستقر الآلهة الفانس الاساسيون لدى الأذس ، مكملين بهذه الطريقة ، وبالخصب والثروة التي يمثلونها ، الضعف من الآلهة المتجمعة حول أوزين . وهكذا اكتمل دمج الشعبين الالهيين ، ولم يحدث بعده نزاع آخر بين الأذس والفانس (ف ١٧٤ع) .

ويبرز جورج ديميزيل المشابهات مع الحرب بين الرومان والسابين . فمن جهة ، إن رومولوس ابن مارس والمحمي من قبل جوبيتر ، ورفاقه ، محاربون اشداء ولكنهم فقراء وبدون نساء ، ومن جهة أخرى ، ان تاتيوس والسابين ، متصفون بالغني والخصب «لامتلاكهم نساء» . فهذان الطرفان هما في الواقع متكاملان وان الحرب لن تنتهي مطلقاً نتيجة انتصار ، وانما بفضل مبادرة الزوجات . أما وقد تصالحوا فإن السابين قرروا الاندماج مع رفاق رومولوس ، حاملين لهم الثروة . وأصبح الملكان متحدين ، فأسسا العقائد : رومولوس لجوبيتر وحده ، وتاتيوس للآلهة ذات العلاقة مع الخصوبة والأرض ، ومن بينهم يظهر كويرينوس . «لن يسمع كلام مطلقاً عن انفصام بين التركيبة السابينية والتركيبة اللاتينية ، والالينية والروميلية لروما ، لا تحت هذا الحكم المزدوج ولا فيما بعد ، وان المجتمع اصبح كاملاً»^(٦) .

صحيح ، إنه من الممكن ، كما يعتقد عدد من العلماء ، ان هذه الحرب التي انتهت بصلح تعكس إحدى الحقائق التاريخية ، وبدقة المزج بين «السكان الأصليين» والفاتحين والهندو- اوروبيين^(٧) . ولكن مما له دلالة ان «الاحداث التاريخية» ، كان يعاد التفكير فيها ويعاد تنظيمها تبعاً لمخطط ميتولوجي خاص بالمجتمعات الهندو- اوروبية . ان التناظر المدهش بين مشهد ميتولوجي اسكندنافي واسطورة تاريخية رومانية يتكشف معناه العميق عندما نتفحص جملة التراث الهندو- اوروبي لروما . ولنتذكر بدنيا ان اقدم تثلث روماني - جوبيتر- مارس- كويرينوس - يعبر عن الايديولوجيا التثلثية التي تأكدت لدى شعوب

هندو- اوروبية اخرى ، أي : الوظيفة للسيادة السحرية والقانونية (جوبيتر ، فارونا وميترا ، اودين) ، الوظيفة لآلهة القوة الحربية (مارس - اندرا ، تهور) وأخيراً الوظيفة لآلهة الخصب والوفرة الاقتصادية (كوبرينوس ، التوأمان نازاتيا ، وفريتير) . ان هذا التثليث الوظيفي يشكل النموذج المثالي للتقسيم الثلاثي للمجتمعات الهندو اوروبية لثلاث طبقات : كهنة ، محاربون ومربو حيوانات - مزارعون (براهمانا ، كزاتريا وفيزيا اذا شئنا ان لا نذكر سوى المثال الهندي) (ف ٦٣ ع) . وقد تهشم التثليث الاجتماعي في روما بسرعة ، ولكنه يمكن كشف رموز الذكرى في التقليد الخرافي للقبائل الثلاثة .

مع ذلك ، فإن الجوهري من التراث الهندو- اوروبي قد حوفظ عليه تحت شكل اعطيت له صفة تاريخية بقوة . إن الاتجاهين المتكاملين للوظيفة الأولى - سيادة سحرية وسيادة قانونية ، البارزان بالزوج فارونا - ميترا - يصادفان لدى مؤسسي روما : رومولوس وتاتيروس . فالأول ، نصف اله ، عنيف وهو محمي من قبل جوبيتر فيريترينوس ، والثاني متزن وعاقل مؤسس للمقدسات والشرائع ، هو العابد لفايديس بوبليكا Fides publica وقد تلاهما او تبعهما ملك محارب حصرا هو توليوس هوستيلوس ثم انكوس مارسيوس ، الذي فتحت المدينة في عهده للثروة والتجارة إلى مدى بعيد^(٨) . وبالإجمال ، فإن الممثلين الالهيين للوظائف الثلاثة مسخوا في «شخصيات تاريخية» ، وبدقة في سلسلة ملوك الرومان الأوائل . وان الصيغة التراتبية الأصلية - التثليث الالهي - قد عبر عنها بمصطلحات مؤقتة ، كإرث تاريخي للأشخاص .

وقد عرض ج . ديميزيل أمثلة أخرى من إضفاء الصفة التاريخية على الأساطير الهندو- اوروبية في روما ، ويذكر منها : انتصار هوراس الثالث على الثلاثي كورياس ، الذي نقل نصر اندرا وتريتا على التريسفال Tricephale (ذات الثلاثة رؤوس) أو خرافة المشوهين ، كوكليس وسكيفولا («السايكلوب» وال «جوشير») وموازيها في الزوج الاله الأعور والاله مانشو للاسكندنافيين ، اي اودين وتهور^(٩) .

إن نتائج هذه البحوث المقارنة هي ذات نتيجة كبيرة . انها تظهر بدتيا ان أصول الديانة الرومانية لا يجوز ان يبحث عنها في المعتقدات من نوع «بدائي»^(١٠) ، لأن الايديولوجيا الهندو - اوروبية كانت ايضاً مؤثرة في عصر تكون الشعب الروماني . وان هذا التراث لا يشمل ميتولوجيا وتقنية طقوسية مميزة فحسب ، بل ايضاً ميتولوجيا متماسكة ومصاغة بوضوح : ويكفي ان نقرأ التحليلات التي اجراها ديميزيل لكلمات *maiestas, gravitas, mas, augur, augustus* الخ .. حتى يتضح هذا^(١١) .

إن تأرخة *l'historicisation* العبارات الميتولوجية والسيناريوهات الاسطورية - الطقوسية الهندو اوروبية هام ايضاً لسبب آخر . فهذه العملية تكشف واحدة من الملامح المميزة للعبقرية الدينية الرومانية ، وبخاصة اتجاهها اللاماورائي ودلالاتها الواقعية . وفي الواقع ، يصدم المرء بالاهتمام المثير ، والديني ، للرومان ، بالنسبة للحقائق المباشرة للحياة الكونية والتاريخ ، وبالأهمية البارزة التي يعطونها للظواهر الغريبة (المعتبرة لحد ما بشائر) ، وبخاصة بالثقة البالغة بقوة الشعائر .

واجمالاً ، فإن استمرار حياة التراث الميتولوجي الهندو - اوروبي المقنع في التاريخ الأكثر قدماً للمدينة ، يشكل بذاته ابداعاً دينياً قابلاً لأن يكشف لنا البنية المميزة للتدين الروماني .

١٦٣ - الخصائص المميزة للتدين الروماني

إن الترتيب اللاماورائي *amétaphysique* والاهتمام اليقظ جداً (من طبيعة دينية !) بالنسبة لحقائق الأشياء المباشرة ، كونية أو تاريخية يظهر في وقت مبكر في موقف الرومان تجاه الأشياء الغير مألوفة ، عوارض أو تجديدات . فبالنسبة للرومان كما هو بالنسبة للمجتمعات الريفية بصورة عامة ، كان المعيار المثالي يظهر في نظامية الدورة السنوية ، وفي التابع المنتظم للفصول . فكل تجديد جذري

كان يعادل المس بالقاعدة ، وهو في آخر لحظة ، يستدعي الخطر بالعودة إلى العباء (ف ٢٥ ع مفهوم مماثل في مصر القديمة) ، وعلى ما يبدو ، ان كل ظاهرة غير مألوفة - معجزات - ظواهر طبيعة شاذة ، (ولادة مسوخ ، امطار من حجارة ، الخ) - كانت تنبىء بأزمة في العلاقات بين الآلهة والبشر . وكانت المعجزات تثير الانزعاج ، لا بل الغضب ضد الآلهة ، وكانت الظواهر الشاذة تعادل مظاهر لغزية للآلهة ، وهي من بعض وجهات النظر ، كانت تشكل «ظهورات سلبية» .

إن يهوه ، هو ايضا ، قد اعلن عن مقاصده بواسطة ظواهر كونية واحداث تاريخية : لم يتوقف الانبياء عن تفسيرها ، مشيرين الى التهديدات المرعبة التي تفوه بها (ف ١١٦ ع) . وبالنسبة للرومان ، فإن المعنى الدقيق للمعجزات لم يكن واضحاً ، فتوجب حل رموزها من قبل المختصين بالعبادة . وان هذا يفسر الأهمية المعبرة للتقنيات التنبؤية والاحترام ، المقرون بالخوف ، الذي تتمتع به العرافون الاوتروسك les haruspices étrusques وفيما بعد ، الكتب سيبلين les Livres sibyllin ومجموعات أخرى تنبؤية . وكانت الكهانة تقوم على تفسير نبوءات بصرية auspicia أو سمعية omine وكان كبار القضاة والرؤساء العسكريون وحدهم مجازين في شرحها . ولكن الرومان احتفظوا لأنفسهم بحق رفض النبوءات [ر . inter abia ، شيشرون ، التنبؤ ١ - ٢٩] . وان أحد القناصل الذي كان كذلك عرافاً augure كان يحمل في محفة مغلقة ، بهدف ان لا يعرف الاشارات التي يمكن لها أن تعاكس مخططاته [التنبؤ - شيشرون ١١ - ٧٧] وعندما كانت تكتشف دلالة المعجزة ، كانت تجري تطهيرات وطقوس أخرى من التطهير ، لأن هذه «الظهورات السلبية» قد أعلنت عن وجود دنس ، وكان يقتضي له أن يدفع بعناية .

وللهولة الأولى ، يمكن تفسير الخوف اللا محدود من الأعاجيب ومن العيوب وكأنه رهبة متولدة عن التطير . ومع ذلك فهو يتعلق بنوع خاص بالتجربة الدينية . لأنه عبر مثل هذه المظاهر المشينة يقوم الحوار بين الآلهة والبشر . وهذا الموقف تجاه المقدس هو النتيجة المباشرة للتقييم الديني للحقائق الطبيعية ، وللنشاطات البشرية وللأحداث التاريخية ، واجمالاً للمحسوس والخاص والمباشر .

وان تعدد الطقوس يشكل مظهراً آخر من هذا السلوك . فبما أن الارادة الالهية تظهر ذاتها في الحال ، في سلسلة غير محدودة من الأمارات والحوادث المشينة ، يقتضي معرفة أية شعيرة أو أي طقس سيكون الأكثر فعالية ، إن الضرورة المعرفة للمظاهر المميزة لكل الهويات الالهية ، حتى في تفصيلاتها ، شجعت عملية معقدة للتشخيص . وان التجليات المتعددة للألوهية ، وكذلك وظائفها المختلفة ، ترمي لأن تتميز بصفتها «اشخاصاً» مستقلة .

وفي بعض الأحوال لا تصل هذه التشخيصات أبداً لتبرز صورة إلهية حقيقية . إنها تستدعي الواحدة بعد الأخرى وإنما دائماً في مجموعة . وهكذا ، على سبيل المثال ، ينتشر النشاط الزراعي تحت علامة عدد من الهويات entitee تحكم كل واحدة منها فترة خاصة - من قلب الأرض المستريحة ، ومن الفلاحة بخطوط كبرى ، وحتى الحصاد والنقل بالطنابر والتخزين . وبذات الأمر ، وكما كان يذكره بدعابة ، القديس اوغسطين [مدينة الله ٧ - ٣] ، كان يجري استدعاء فاتيكانوس وفابولينوس لمساعدة الطفل الوليد ليصرخ ، وليتكلم ، وكان يجري استدعاء ايدوكا وبوليناس لمساعدته كي يأكل ويشرب ، وابيونا لتعلمه المشي ، وهكذا دواليك . غير ان هذه الهويات entités الما فوق الطبيعية كانت تستحضر فقط لعلاقتها بالأعمال الزراعية والعبادة الخاصة . وهي تفتقد شخصية واقعية و «قدرتها» لا تتجاوز المنطقة المحددة لعملها^(١٢) . وهذه (الهويات) لا تشارك ، مورفولوجيا ، في شرط الآلهة .

ان التصور الميتولوجي الضعيف للرومان وعدم مبالاتهم تجاه الميتافيزيك ، هما متوازنان ، وسرى هذا من اهتمامهم الشغوف بالمحسوس ، والخاص ، والمباشر . وان العبقرية الدينية الرومانية تتميز بالبراغماتية ، وبالبحث عن الفاعلية ، وبخاصة التقديس للجماعات العضوية : اسرة ، شعب ، وطن . وإن الانتظام discipline الروماني الشهير ، الوفاء بالارتباطات (فايدس fides)^(١٣) . والاخلاص للدولة ، والاحترام الديني للقانون ، ترجع بانتقاص الشخصية الانسانية : الفرد يحتسب في المعيار الذي كان ينتمي فيه لجماعته . وليس الا بعد زمن متأخر وتحت تأثير الفلسفة الاغريقية والمعتقدات الشرقية

للخلاص ، أن اكتشف الرومان الأهمية الدينية للشخص ، ولكن هذا الاكتشاف الذي ستكون له نتائج بارزة [ف ٢٠٦ع] قد مس بخاصة ، السكان المدنيين .

ان الخاصية الاجتماعية للتدين الروماني^(١٤) ، وفي المحل الأول ، الأهمية المعطاة للعلاقات مع الغير ، قد عبّر عنها بوضوح بالمصطلح بيتاس pietas فرغم علاقاتها مع الفعل بيار piare (هدأ ، ازال دناسة ، فأل سيء الخ) . فإن البيتاس la pietas تعني (المراقبة المتشككة للطقوس ، بل وايضا الاحترام للعلاقات الطبيعية (أي المنظمة حسب القاعدة) بين الكائنات البشرية . فبالنسبة للولد ، تتكون البيتاس باطاعته لوالده ، وعدم الطاعة يعادل تصرفاً مخزياً ، ضد النظام الطبيعي ، وعلى المجرم ان يكفر عن هذا الدنس بموته الخاص . وإلى جانب البيتاس نحو الآلهة ، يوجد البيتاس نحو اعضاء الجماعات التي تنتمي إليها ، ونحو المدينة ، وأخيراً نحو كل الكائنات البشرية . ان «حق الشعوب droit de jus gentum - gens كان يفرض الواجبات حتى تجاه الغرباء . وهذا المفهوم يتفتح كلياً» تحت تأثير الفلسفة الهيلينية عندما انتشر بوضوح مفهوم الانسانية humanistas اي الفكرة بأن واقعة الانتماء وحدها للجنس البشري كانت تشكل قرابة حقيقية ، مشابهة للقرابة التي كانت تصل اعضاء شعب واحد أو مدينة واحدة منشئة واجبات التضامن والمحبة ، أو على الأقل الاحترام^(١٥) . إن الايديولوجيات «المغالية في الانسانية humisnitaristes في القرنين ١٨ و ١٩ لم تفعل سوى اعادة تبني وانعاش ، المفهوم الروماني القديم للبيتاس le pietas مع ازالة القداسة عن هذا المفهوم .

١٦٤ - العبادة الخاصة : بيناتس ، لارس ، مانيس

حتى نهاية الوثنية ، حافظت العبادة الخاصة - الموجهة من قبل رب الاسرة patarfamilias على استقلاليتها وعلى أهميتها الى جانب عبادة عامة ، منجزة من قبل ممتهنين مرتبطين بالدولة . وخلافا للعبادة العامة ، التي تحورت باستمرار فإن

العبادة الاهلية ، المنجزة حول الموقد ، لا تبدو أنها حصلت على تغيير يذكر خلال القرون الاثني عشرة من التاريخ الروماني . وبالتأكيد انه يتعلق ، بنموذج طقوسي قديم ، لأنه تأكد لدى شعوب هندو- اوروبية اخرى . وتماثا كما في الهند الآرية ، فإن النار الاهلية كانت تشكل مركز العبادة : وكان يقدم إليها اضاحي غذائية يومية وزهور ، ثلاث مرات في الشهر الخ . . . وكانت العبادة توجه إلى بيناتس penates والي لارس Lares وهي تجسيدات اسطورية - شعائرية للأجساد وللجنيوس genius نوع من حمام «مضاعف» للفرد . إن الأزمات المتفجرة بالولادة وبالزواج وبالموت كانت تتطلب طقوس مرور متميزة ، محكمة ببعض الأرواح والآلهة الأدنى . وقد ذكرنا أنفا الهويات entités التي كانت تدعى حول الوليد الجديد . وكانت حفلة الزواج الدينية تجري تحت رعاية الآلهة المحلية والأهلية (تيلوس Tellus وبعد ئدسيريس) . ورعاية جينون Junon بصفتها راعية لقسم الزواج ، وكانت تستوجب الأضحيات والدورانات حول الموقد .

إن الشعائر الجنائزية ، المنجزة في تاسع يوم بعد اللحد أو الدفن ، قد تحددت في العبادة النظامية «لاقارب المتوفي» (divi parentes) أو مانس mânes . وقد كرس لها عيدان : البارنتاليا les parentalia في شباط والليموريا les lemuria في أيار . وخلال العيد الأول لم يكن القضاة يحملون شاراتهم . والمعابد كانت مغلقة ، وكانت النيران تطفأ على المذابح ولم تكن تعقد عقود زواج [أوفيد ، فاستي ٢ - ٥٣٣ ، ٥٥٧ - ٦٧] . وكان الموتى يرجعون الى الأرض ويقتاتون من الطعام على المقابر [ذات المرجع ٢ - ٥٦٥ - ٧٦] . ولكن البيetas le خاصة هو الذي يسكن الأجداد [انيماس ، بلاكار باترناس . . ذات المرجع ٢ - ٥٣٣] . وبما أن شباط كان الشهر الأخير في السنة حسب التقويم الروماني القديم ، فإنه كان يشاطر في شرط الميوعة «العمائية chaotique» التي تميز هذه الفترات بين دورتين زمنييتين . ولأن القواعد معلقة ، كان الموتى يستطيعون العودة على الأرض . ودائما في شباط كانت تجري شعيرة اللوبيركاليا Lupericalia (ف ١٦٥ ع) : تطهيرات جماعية كانت تعد للتجديد الشامل ، المرموز اليه بالسنة الجديدة (= إعادة خلق شعائري للعالم) (١٦) .

وخلال الأيام الثلاثة من الليموريا (٩، ١١، ١٣ أيار) كان الأموات يعودون مجدداً وكانوا يزورون منازل اخلافهم . ومن أجل تهدئتهم ومن أجل منعهم من جر بعض الأحياء معهم ، كان رئيس العائلة يملأ فمه بحبات الفول الأسود ، ويلفظه لها كلها ، كان ينطق تسع مرات بهذه العبارة : «بهذه أخبات من الفول ، اشترى نفسي ومن يلوذ بي» واخيراً يحدث ضجة بشيء من البرونز ليخيف الاشباح ويردد تسع مرات «مانس manes آبائي ، اذهبوا من هنا !» [ذات المرجع ٤٢٩ - ٤٤٤] . إن الطرد الطقوسي للموتى ، بعد زيارتهم الدورية على الأرض ، هي حفلة منتشرة على نطاق واسع في العالم (ر . الانستيريا ف . ١٢٣) .

ونشير كذلك الى شعيرة ذات علاقة مع المانس les manes : النذر devotio وهذه الشعيرة وصفها تيت ليف [٨ - ٩ - ١٠] بتفصيل في معرض وصف معركة ضد السامينت . ان القنصل ديسيوس Decius وقد رأى كتابه على أهبة الهرب «نذر» حياته من أجل النصر . وردد وهو مقاد من قبل كاهن عبارة شعائرية مستدعيا عدداً كبيراً من الآلهة ومبتدئاً مع جانوس ، جوبيتر ، مارس ، كويرينوس ، ومبرما عقداً مع الآلهة مانس والربة تيلوس . وبذات الوقت الذي قدم دوتيوس حياته قدم إلى مانس وإلى الأرض جيوش الاعداء . ان شعيرة النذر توضح مفهوماً قديماً من التضحية البشرية بصفتها «قتلاً خلاقاً» واجمالاً ، فإنه يتعلق بتحول شعائري من الحياة المضحى بها لفائدة العملية المقصودة ، وهي في حالة دينيوس ، النصر العسكري . لقد استدعي مجمع الآلهة برمته تقريباً ، ولكن النذر للمانس - أي التضحية الذاتية من ديثيوس والذبح بالجملة للساميتين - هو الذي انقذ الجيش الروماني .

وتجهل التمثيلات لمملكة الموتى الخاصة بقدامى سكان اللاتيوم ، وتلك التي نقلت إلينا تعكس تأثير المفاهيم الاغريقية والاتروسكية . ومن الراجح جداً ان الميتولوجيا الجنائزية القديمة لللاتين كانت قد مددت التقاليد لثقافات نيوليثيكية اوروبية . ومن جهة اخرى ، فان المفاهيم للعالم الآخر المتوازعة بين الطبقات

الزراعية الايطالية قد تغيرت سطحياً بالتأثيرات الخارجية ، اغريقية ، اتروسك ، هيلينية ، وعلى العكس فإن الجحيم المذكورة من قبل فرجيل في النشيد الرابع من الانيادة والرمز الجنائزي للنواويس sarcophages من العصر الامبراطوري ، والمفاهيم الشرقية والفيثاغورية حول البدء ، والخلود السماوي ستصبح جميعها شعبية إلى اقصى الحدود بدءاً من القرن الأول ق.م في روما وفي مدن اخرى من الامبراطورية .

١٦٥ - اكليروس ، عرافون وجمعيات أخوية دينية

ان العبادة العامة ، تحت رقابة الدولة ، كانت تتم من قبل عدد من الموظفين والكونفريرات confréries الدينية . ففي زمن الملكية ، كان الملك يحتفظ بالمنصب الأول من التراتبية الكهنوتية : كان ملك القداسة rex sacrosanctus ومن المؤسف ان المهمات التي كان يحتفل بها معلومة بشكل ناقص . مع ذلك ، يعرف انه قد مورست في الريجيا Regia «منزل الملك» ثلاثة أصناف من الطقوس ، المكرسة لجوبيتر (أوجينون وإلى جانوس) ولمارس ولربة الخصب الزراعي أوبس كونسينا . وهكذا ، فإن دي ميزيل يلاحظ بحق ان منزل الملك كان مكان اللقاء ، وان الملك هو وكيل التولية ، والوظائف الثلاثة الأساسية ، التي سنشير إليها ، كانت يُديرها منفصلة كهنة ميورس les flamines maiores وما يسوغ افتراضه ، انه فيما سلف في العصر ما قبل الروماني ، كان الملك محاطاً بجهاز كهنوتي ، تماماً مثل الراجان الفيدي الذي كانت له كنيسته (بيروهيئا) والملك Ri الايرلندي الذي كان له كهنته ses druides . ولكن الديانة الرومانية تتميز بميل نحو التجزئة والتخصص . وخلافاً للهند الفيدية والسلت ، حيث الاكليروس قابل للتبديل وبالنسبة لتدشين كل حفلة ، فإن كل كاهن وكل مجمع في روما كان له اختصاصه المميز^(١٨) .

وبعد الملك يأتي في الترتيب الكهنوتي الـ ١٥ فلامين flamines ، وفي الدرجة الأولى الفلامين الكبار : أولئك الذين ينسبون لجوبيتر (فلامين ديبليس)

ولمارس وكويرنيوس . واسمهم قريب من السنسكريتي براهمان ، ولكن الفلامين لم يكونوا يشكلون طبقة ، واكثر من ذلك لم يكونوا يكونون حتى مجعاً . فكل فلامين كان مستقلاً ومرتبلاً بالوهية يستقي منها اسمه . إن المؤسسة ، هي بالتأكيد قديمة ، والفلامين يتميزون بشياهم الطقوسية وبالعدد الكبير من المحرمات . وبفضل اهتمام عالم الآثار اولوس جولوس Aullus Gellus عرف بشكل افضل وضع الفلامين دياليس : لم يكن يستطيع الابتعاد عن روما ولا يمكنه ان يحمل عليه أية عقدة (إذا دخل انسان مقيد منزله ، كان يتوجب ان يفك قيده) ؛ ولا يجوز له ان يبدو عارياً تحت السماء ، ولا أن يرى الجيش ، ولا امتطاء حصان ، وكان عليه ان يتجنب التماس مع النجاسات والموتى أو ما يستدعي الموت الخ [نوكس آتيكي ١٠ - ١٥ ر . بلوتارك مسائل رومانية ١١١] .

وبالنسبة لفلامين مارس وكويرنيوس ، كانت الالتزامات والممنوعات أقل قسوة ، ولم يصل إلى علمنا مباشرة شيء حول المهام الطقوسية للفلامين مارياتليس ، ولكنه من الراجح انه كان يعمل في اضحية الحصان المقدم في ١٥ آذار و ١٥ تشرين أول . أما بالنسبة لفلامين كويريناليس ، فكان يعمل خلال ثلاث حفلات ، الأوليتان منها (كونسواليا الصيف ٢١/ آب وروغاليا ، ٢٥ نيسان) كانت بالتأكيد ذات علاقة بالحجوب^(١٩) .

ويعرف القليل عن أصل المجمع الكهنوتي . فحسب معلومات عن شيشرون [دي دومو ١٣٥ وما .- ريب . ١٢] . يمكن الاستنتاج بأن المجمع كان يحتوي ، اضافة للأخبار ، ملك التقديس والفلامين الكبار . وخلافا لرأي كورت لات^(٢٠) ، أظهر ديميزيل أقدمية هذه المؤسسة . إلى جانب . فلامين دياليس ، كان الخبر يمثل ، في المحيط المقدس للملك ، وظيفة متممة . وكان الفلامين يكملون مهمتهم نوعاً ما «خارج التاريخ» ، فكانوا يقيمون بانتظام الحفلات المقررة ، ولكنه لم يكن لهم القدرة على تفسير ولا على حل الحالات المحظورة . ورغم علاقته الصميمية مع الآلهة السأوية فإن الفلامين دياليس لم يكن يترجم ارادة السماء . لأن هذا كان من مسؤولية العرافين augures وعلى العكس ، فإن مجمع الاخبار ، وبدقة أكثر الخبر الأكبر حيث ان الآخرين لم يكونوا سوى

الامتداد ، كان يحوز في آن واحد الحرية والمبادهة . لقد كان موجوداً في الاجتماعات التي كانت تقرر الأعمال الدينية ، وكان يضمن الطقوس دون وصايات وكان يراقب الأعياد . وفي ظل الجمهورية ، كان الحبر الأعظم هو الذي «أنشأ الفلامين الكبار والفيسستالات les Vestales الذين كان له عليهم سلطات تأديبية ، ومن هذه الأخيرة ، كان المشاور ، وأحياناً الممثل»^(٢١) . ومن الراجح جداً إذن ان مؤسسات الفلامين الكبار والأخبار لم تكن ابداع روما الملكية ، و«ان النظام الصلب للأولى والحرية للثانية لا يمكن لها ان تفسر بابداعات متتالية ، وبتطورات ، ولكنها تناسب تعريفات ، ووظائف مختلفة ، ماقبل رومانية ، والتي تظهر ايضا في اسمائها ، وأخيراً كان طبعاً أن اكبر نصيب من التراث الديني للوظيفة الملكية قد انتقل للحبر»^(٢٢) .

إن الفيسستالات الستة كانت مرتبطة بمجمع حبري . وان الفيسستالات المختارات من قبل الحبر الأكبر مابين ست وعشر سنوات كن مكرسات لمدة ثلاثين سنة . إنهن كن يرعين الشعب الروماني بتغذية نار المدينة ، وكان عليهن أن لا يد عنها تنطفئ . ان قدرتهن الدينية مرتبطة بعذريتهن : واذا فقدت فيستالة طهارتها ، كانت تدفن حية في قبر تحت الأرض ، وشريكها كان يعذب . وكما يلاحظ ديميزل ، فإن هذا يتعلق بنموذج كهنوتي أصلي ، «لم يكتشف علم الاجناس كثيراً من موازياته» [ص . ٥٧٦] وكان مجمع المتنبيين قديماً ايضا ، وكان مستقلاً عن المجمع الحبري . ولكن سر النظام كان مجهولاً ، ومعلوم فقط ان العراف لم يكن يستدعى لحل رموز المستقبل ، وكان دوره محدداً باكتشاف ما اذا كان هذا المشروع أو ذاك (الاختيار لمكان العبادة أو لموظف ديني الخ) هو الأصلح . كان يطلب من الاله : «اذا هو أصلح . . . sifasest . . . ارسل لي آية ما!» مع ذلك وفيما سبق في نهاية الملكية بدأ الرومان بمشاورة مختصين آخرين محليين أو أجانب (ف ١٦٧ ع) . ومع الزمن ادخلت الى روما بعض التقنيات التنبؤية من أصل اغريقي أو اتروسكي . . فطريقة الهاروسبيس des haruspices (التي تتكون بتفحص احشاء الاضحيات) استعيرت بكاملها عن شعوب الاتروسك^(٢٣) .

إلى جانب هذه المجموعات ، فإن العبادة العامة كانت تتطلب عدداً من جماعات مغلقة أو «رفاقيات sodalités» من (sodalis = رفيق) ، كل واحد متخصص في تقنية دينية خاصة . وان العشرين فيتالييس Fetiales كلها تبارك اعلانات الحرب ومعاهدات السلام . وكان الساليس les salic «الرافضون» لمارس وكويرينوس ، في كل مجموعة اثني عشر عضوا ، يعملون في آذار وتشرين أول ، عندما كان يوجد انتقال من السلام الى الحرب او من الحرب إلى السلام . وكان الفراترس ارفال les Fratres Arvales يحملون الحقول التي جنت .

وكانت كونفريرية اللوبرسي des Lupereis تحتفل ، في ١٥ شباط باللوبريكاليا des Lupercalia . وكانت الشعيرة مقتصرة على احتفالات نيمزة في فترة ازمة متفجرة بنهاية السنة (ف . ١٢، ٢٢ ع ع) . فبعد الأضحى بتيس في مغارة لوبانار ، كان اللوباركيون ، عراة باستثناء وزرة (تنورة) من جلد الماعز ، يبدأون المسيرة التطهيرية حول البالاتان . وكانوا وهم يركضون يضربون المارة بسيورهم المجدولة من جلد التيس . وكانت النساء تتقدم لتلقي الضرب للحصول على الخصب [بلوتارك ، روميلوس ٢١ ، ١١ - ١٢ الخ] . فكانت الشعائر في آن واحد تطهيرية وتخصيبية ، مثل العديد من الحفلات المقامة بمناسبة السنة الجديدة . وهذا يتعلق ، تأكيداً ، بشعيرة قديمة معقدة ، تتطلب ايضاً علامات لمسارة من نموذج mamer bund مانيربوند ، ولكن دلالة السيناريو تبدو انها قد أهملت قبل الجمهورية .

وفي العبادة العمومية ، كما في العبادة الخاصة ، كانت الأضحى تتكون في تقديم مادة غذائية : باكورات الحبوب ، والعنب والخمر الحلو وبخاصة الاضحيات الحيوانية (بقريات ، اغنام ، خنازير وفي الخامس عشر من تشرين الأول الحصان) . وباستثناء حصان تشرين الأول ، كان قربان الاضحيات الحيوانية يتبع ذات السيناريو . فقد كانت تنجز تقدمات أولية على الموقد المتنقل foculus ، ممثلاً الموقد المتنقل للمضحى ، وموضوع امام المعبد الى جانب المذبح . وبعدئذ كان المضحى يذبح الضحية رمزياً ، فيمرر السكين التضحية على الجسم من الرأس حتى الذنب . وفي الأصل ، كان يذبح الحيوان ، غير انه في الشعيرة

التقليدية كان بعض الكهنة يولج بهذه المهمة . ان القسم المخصص للاله - الكبد ، الرئتان ، القلب وبعض قطع اخرى كان يحرق على المذبح . وكان اللحم يستهلك من قبل المضحي ورفاقه في عقيدته الخاصة ، ومن قبل الاكليروس في الاضاحي المحتفل بها بالنسبة للدولة .

١٦٦ - جوبيتر - مارس - كويرينوس والثلاثي الكابيتولي

خلافًا للاغريق الذين كانوا نظموا منذ زمن مبكر مجعاً للآلهة منظماً بشكل جيد ، فإن الرومان لم يقيموا في بداية العصر التاريخي سوى جماعة تراتبية للآلهة ، وبخاصة الثلاثي القديم جوبيتر مارس كويرينوس المكمل بجانوس وفيستار . وبصفته إلهاً معلماً dieu-patron فإن جانوس منذ «البدايات» وضع على رأس القائمة ، وفيستا vesta حامية المدينة في المؤخرة . ان المصادر الأوربية تتكلم مع ذلك عن عدد كبير من الآلهة المحليين أو المستعارين من اليونان أو الاتروسك . ولكن ، لا التصنيف ولا الترتيب لهذه الآلهة كان مؤكداً^(٢٥) . وبعض الباحثين القدامى كان يميز الآلهة الأصلية والآلهة الجديدة les di indigetes et les di novenciles ، فالأولى وطنية (patru) والثانية آلهة اتخذت فيما بعد [فارون ، اللغة اللاتينية - ٧٤٠ ؛ فيرجيل جورج ٠١ ، ٤٩٨] . وأكثر قيمة هي الترنيمة التي أظهرتها عبارة النذر المنقولة من قبل تيت ليف : الآلهة الاربعة الكبار (جانوس ، جوبيتر ، مارس ، كويرينوس) كانوا متبوعين من بيللونا Bellona ومن اللارس les Lares (معلمو الحرب والأرض) ؛ ومن الآلهة الجديدة والأصلية وأخيراً من الآلهة مانس وتيلوس (ف ١٦٤) .

على كل حال ، لا يمكن الشك بالخاصية القديمة للثلاثي جوبيتر ، مارس ، كويرينوس ، ان حالة ووظائف الفلامين الثلاثة الكبار تدل بما فيه الكفاية على بنية الآلهة الذين يضمنون العبادة . فجوبيتر^(٢٦) هو بامتياز الاله الأعلى ، سماوي وساطع ، مصدر القداسة والقائم على العدالة ، وضامن الخصب الشامل وهو

مدير كوني مع انه لا يدير الحرب . فادارة الحرب هذه هي ميدان مارس (مافوس ، ماميرس) ، الذي يمثل لدى كل الايتاليك الاله المحارب .

وأحياناً يشرك مارس كذلك بطقوس سلمية ، ولكنه يتعلق بظاهرة معروفة في تاريخ الأديان : الاتجاه الكلي ، التسلطي «imperialiste» لبعض الالهة بتجاوز محيط نشاطهم . وهذا ما يتحقق بخاصة في حالة كويرينوس^(٢٧) . مع ذلك ، رأينا (ف ١٦٥ ع) ان الفلامن كويريتاليس يتدخل فقط في ثلاث حفلات ذات علاقة مع الحبوب . واكثر من هذا ، اشتقاقيا ، ان كويرينوس هو متضامن مع جماعة الفيري des viri تجمع الشعب الروماني ، واجمالا انه يمثل الوظيفة الثالثة في التقسيم الثلاثي الهندو- اوروبي . الا انه في روما كما هو في أي مكان آخر ، تحملت الوظيفة الثالثة تجزئة معلنة ، قابلة للتفسير بتعدد قيمتها وفعاليتها .

أما بالنسبة ل(جانوس) و (فيستا) فإن تجمعهما بالثلاثي القديم هو على الأرجح امتداد لتقليد هندو- أوروبي . وحسب رأي فارون Varron فإن البريما les prima تنتمي الى جانوس ، والسوما summa الى جوبيتر ، فجوبيتر هو الملك إذن ، لأن البريما متفوقون بالسوما ، فبعضهم ليس لهم ميزة الا في نظام الزمن ، والبعض الآخر في المنصب^(٢٨) . مكانيا ، جانوس هو على أعتاب المنازل والأبواب . وفي الدورة الزمنية ، هو الذي يدير «بدايات العام» . وظاهريا في الزمن التاريخي ، جانوس يقع في البداية : لقد كان الملك الأول للايوم والحاكم لعصر ذهبي ، عندما كان الالهة والبشر يعيشون سوية [أوفيد - فاستي ١ - ٢٤٧ - ٤٨] ^(٢٩) . لقد كان متخيلاً ذي وجهين bifrons ، لأن «كل مرور يفترض مكانين ، وحالتين ، ذلك الذي يترك ، وذلك الذي يدخل إليه» [ديميزيل ص ٣٣٧] . إن قدميته ليست موضع شك لأن الهندو- ايرانيين والسكاندينافيين يعرفون كذلك «آلهة أولى» .

وان اسم فيستا يشتق من جذر هندو- اوروبي يعني (حرق) ، وواقعة كون المعابد الأخرى جميعها مربعة الزوايا باستثناء معبد الفيستا ، الذي هو دائري ،

تفسر ، كما أوضح ديميزيل بالمذهب الهندي لرمزية الأرض والسماء . فالمعابد يجب لها ان تقام وتوجه حسب الاتجاهات السماوية الأربع ، ولكن بيت الفيسا لا يجب له ان يفتح لأن كل قوة الربة هي على الأرض ؛ ومعبدها هو فكرة مقدسة aedes sacra وليس معبداً templum . ولم تمثل فيستا بصور ، فالتار كانت تكفي لاظهارها [فاستي ٤ - ٢٩٩] . وهذا ايضا هو برهان على القدمية والمحافظة ، لأن غياب الصور كان يميز اصوليا كل الآلهة الرومانية .

وفي ظل حكم الاتروسك ، اضاع التثليث القديم جوبيتر ومارس وكويرينوس فاعليته، وحل محله التثليث جوبيتر، جينون ، مينيرفا . وهذا التثليث قائم منذ عهد التاركوين de Tarquins . وان التأثير الاتروسكي اللاتيني ، الحامل من جهة أخرى بعض العناصر الاغريقية ، هو واضح . فللآلهة الآن تماثيل ، وجوبيتر اوبتيموس مكسيموس كما أصبح اسمه منذ ذلك الحين ، هو ممثل للرومان تحت صورة بطابع اتروسكي لزوس اليوناني . وقد تحملت عبادته بعض التغيرات . واكثر من ذلك ، ان الانتصار الممنوح من قبل مجلس السينا للقائد المنتصر انتشر تحت علامة جوبيتر . وخلال الحفلة يصبح المنتصر المضاعف لجوبيتر : يتقدم بعربة ، متوجاً بالغار ، في ابهة الآلهة^(٣٠) . ورغم حضور جينون ومينيرفا في معبده ، فإن السيد الوحيد هو جوبيتر ، وإليه توجه النذر وكلمة الاهداء .

«إن جينون كما يلاحظ ديميزيل هي اكثر الربات أهمية في روما ، ولكنها ايضا اكثرهن اضطراباً» [ص ٢٩٩] . ان اسمها جينو Juno مشتق من جذر يعني (القوة الحياتية) . ووظائفها متعددة : إنها تدير عدة اعياد ذات علاقة بخصب النساء (بصفتها لوسينا Lucina كانت تستدعى من أجل الولادات) ولكن ايضا مع بداية الأشهر ، ومولد القمر الخ . . مع ذلك ، كانت في الكايبتول ريجينا Regina لقب كان يعكس تقليداً قوياً بحيث انه قبل في ظل الجمهورية . واجمالاً ، فإن جينون كانت توجد مشاركة في ثلاثة وظائف من الايديولوجيا الهندو - اوروبية : الملكية المقدسة ، والقوة الحربية والخصب . وقد قرب ديميزيل هذه القيم المتعددة من مفهوم شائع في الهند الفيدية ، وفي ايران ، بخاصة ان الربة التي ترأس كل

الوظائف الثلاثة وتوفق بينها ، منشئة على هذه الطريقة النموذج للمرأة في المجتمع^(٣٢) .

اما بالنسبة الى مينرفا ، فإنها كانت معلمة الفنون والصناعات اليدوية . واسمها هو على الأرجح ايطالي (مشتق من الجذر الهندو- اوروبي مين - الذين يعني كل نشاط للنفس) .

ومع ذلك فإن الرومان قد تلقوها عبر الاوترسكيين . ولكن مينيرفا كانت تمثل فيما سلف في ايتوريا تبنيًا للبالاس - آتينا .

وفي آخر المطاف ، ان الثلاثي الكابيتوليني لم يمدد أي تقليد روماني . وان جوبيتر لوحده كان يمثل التراث الهندو- اوروبي . وان مشاركة جينون ومينرفا كانت من عمل الاتروسك . وبالنسبة لهم كذلك ، ان الثلاثي الالهي كان يلعب دوراً في تراتب البانتون . ونعلم ، على سبيل المثال ، انها كانت ترأس انشاء المعابد [ر . سيرفيوس ١ - ٤٢٢] . ولكن كل مايعرف هو على وجه التقريب .

١٦٧ - الأتروسيكون : الغاز وفرضيات

كانت روما منذ وقت مبكر في مواجهة مع العالم الاتروسكي . ومع ذلك فإنه من الصعب التحديد بدقة للتأثيرات المتبادلة لثقافتها . ان الدليل من الحفريات (قبور ، فريسك ، تماثيل ، اشياء مختلفة) تشهد بوجود حضارة متطورة الى درجة عالية ، ولكننا نجهل اللغة الاتروسكية . ومن جهة اخرى ، لم يوضح أي مؤرخ للأتروسكيين ديانتهم وثقافتهم وتاريخهم كما حصل بالنسبة للتراقين والسلت والجرمن . واكثر من ذلك ، ان المعلومات الرئيسية المتعلقة ببعض مظاهر الدين الاتروسكي لم تقدم من قبل الكتاب اللاتين الا بدءاً من القرن الأول ق.م . عندما تحمل التراث الأصلي التأثيرات الهيلينية . وأخيراً ، فإن أصل الشعب الأتروسيكي ذاته هو موضع خلاف ، الأمر الذي ينقص قيمة الاستقراءات المقارنة .

حسب التقليد المنقول من قبل هيرودوت [١ - ٩٤] يتحدر الاتروسك من الليديين les Lydiens وفي الواقع أن الأصل الآسيوي يبدو متطابقاً في بعض النقوش المكتشفة في لينوس Lenos .

غير أن الأشكال الثقافية المتطورة في اتروريا لا تعكس ابداً الوقائع الآسيوية . وما يبدو مؤكداً ، هو أن التكافل symbiose المتحقق بنضج بين الغزاة الآتين من وراء البحر وسكان البلاد الأصليين المستقرين بين نهر البو Po والتبر Tiber ، أي في الاقليم الذي كان ، في القرن الرابع ، يشكل ايتروريا . إن حضارة الاتروسك كانت بالتأكيد أعلى : كانوا يملكون اسطولاً بحرياً هاماً ، وقد مارسوا التجارة واستعملوا الحديد وبنوا مدناً محصنة . وكان تنظيمهم السياسي الاساسي (الفيدرالية للمدن ، واتحاد المدن) وكانت العاصمة تضم اثني عشر منها . وعليه فإن السكان لهذه المدن لم يكونوا اتروسك الا في قسم منهم ، وكان الباقي مشكلاً من الاومبريان والفينيك والليغور وشعوب ايتالية اخرى .

ان التأثيرات الاغريقية يشعر بها منذ وقت مبكر ، سواء في الدين أو الفن . وكان الاله الاتروسكي فيلونس ممثلاً كديونيزوس ، إلى جانب سيملا (سيميلييه) وآريتا (أريادم) . ومن جهة أخرى ، فان عدداً من الالهة الاتروسكية الرسمية تحمل اسماء لاتينية أو فاليسك : saturnus- satres, mars- maris, Neptuns- Nethuns junو uni ان اسم البطل الاسطوري ماستارنا في الاتروسكية ميسترنا مشتق من اللاتيني ماجستر . وان تمثل آلهة الرومان بآلهة الاغريق له نموذج الاتروسكي السابق : جينو ، مينرفا ، نيتون اصبحت بوزيدون ، آتينا ، هيرا على نسق الاتروسك ، اوني Uni ومينرفا ونيتون . وباختصار ، ان الثقافة ، وبصورة خاصة الديانة الاتروسكية ، تتميزان بتمثل مبكر لعناصر ايتالية واغريقية^(٣٣) . وهو يتعلق ، تأكيداً ، بتكافل أصولي ، لأن العبقرية الاتروسكية طورت الافكار المستعارة تبعاً لتزعتها الخاصة . غير اننا نجهل الميتولوجيا والتيلوجيا الاتروسكية . ولا توجد جرأة حتى لاعتبار حالة هرقل Hercle (Héraclis) كاستثناء ، لأنه ، بالرغم من جهود جان بايه Jean Bayet يعرف فقط انه كان شعبياً إلى حد كبير جداً في ايتروريا وانه كان يملك ميتولوجيا

أصولية ، مختلفة عن التقليد الاغريقي ومحتملاً زيادة على ذلك بعض العناصر من أصل شرقي^(٣٤) . أما بالنسبة للميتولوجيا فسيكون من العبث الاعتقاد بأنها يمكن أن يعاد تركيبها أو انشاؤها بدءاً من بعض المعلومات المتأخرة حول الكتب الاتروسكية . وكما سنرى فإن هذه المعلومات تتعلق حصراً بمختلف تقنيات التنبؤ .

ومع فقدان النصوص ، فإن العلماء ركزوا على الدراسة التفصيلية للمواد الاثرية . ان البنية القديمة لعبادة الموتى والربات الاخرويات تذكر بمقابر وثمانيل مالطة وصقلية وايبيديا (ف . ٣٤ ع) . وان المقابر الكبيرة nécropales - مدن حقيقية - كان ترتفع الى جانب المدن . وكانت القبور مزينة بسخاء ، خاصة ، بالسلاح بالنسبة للرجال والجواهر بالنسبة للنساء . وقد مورست الأضحية البشرية ، عادة أوجدت فيما بعد معارك المصارعين . وتشير التسجيلات الجنائزية للقراية الأمومية فقط للمتوفي . وفي حين ان قبور الرجال كانت مزينة بعضو التذكير ، فإن قبور النساء كانت تبرز شواهد بشكل بيوت . فالمرأة كانت تجسد البيت ذاته ، حيث العائلة^(٣٥) . وقد بحث (باخوفن) عن نظام القراية الأمومية ، والذي يبدو مؤكداً هو الوضع البارز للمرأة في المجتمع الاتروسكي . ان النساء كن يشاركن على الموائد الى جانب الرجال . وقد لاحظ الكتاب الاغريق بتعجب أن الزوجات الاتروسك كن يتمتعن بحرية مباحة ، بينما هي في اليونان للهيتريات (العاهرات) فقط . وفي الواقع ، كن يظهرن للرجال بدون حجاب ، وتمثلهن الفريسك الجنائزية في ثيابهن الشفافة ، وهن يشجعن بهتافهن وحركاتهن معركة المصارعين العراة^(٣٦) .

وفي نهاية الجمهورية ، عرف الرومان ان الاتروسك كانوا يحوزون «كتاباً» موصلة من قبل شخصيات مافوق الطبيعة ، الحورية أو الجنية فيجوا أو تاجيه la nymphe Vegaie ou Tagés وحسب الأسطورة ان هذا الأخير انبثق يوما من خط فلاحه ، وكان له مظهر ولد ، وانما حكمة شيخ . وسرعان ما تجمع الجمهور حول تاجيه وتمكن بعناية من ان يكتب تعاليمه ، وان هذا هو أصل تنظيم العرافين l'haruspicinae dixiplina .

ان الباعث الاسطوري للكشف عن كتاب مقدس (أو محتوى مذهب سري) من قبل كائن فوق الطبيعة ، قد تأكد منذ المصريين وميزوبوتاميا حتى الهند القروسطية وفي التبت . وهذا السيناريو أصبح شعبياً خاصة في العصر الهيليني . وان ظهور Tages التاجي بصفته puer aeternus يذكر بالهرمسية (ف ٢٠٩ ع) ، الأمر الذي لا يقتضي بالضرورة «قراءة» كيميائية ، اذن متأخرة ، للتقليد الاتروسكي . والمهم هنا واقعة أنه الاتروسكيين منذ بداية القرن الأول ق.م كانوا معنيين في كتبهم بالمحافظة على بعض الكشف من نظام مافوق الطبيعة ، وفي الأساس يمكن أن تصنف هذه النصوص في كتب أنوار libri fulgurales (نظرية الصواعق) ، وكتب شعائر libri rituales (ترتبط بها les acherontici) وكتب تنبؤية libri hirsupicini (المكتملة بكتب قدرية) .

ان مبدأ الصواعق ، كما نعرفه من اطروحات سينيكا وبلين^(٣٨) ، كان يقتضي مرجعاً يعطي ، لكل يوم من السنة ، دلالة ضربات الرعد . وبعبارة اخرى ، ان السماء ، المقسمة الى ١٦ قسماً ، كانت تشكل لغة افتراضية محيطة بالظواهر الارصادية . ان دلالة الصاعقة كانت تكتشف بالاجزاء من السماء حيث جاءت وحيث وصلت . وان الاحدى عشر نموذجاً متميزاً من الصاعقة كان يحرك من قبل الآلهة المختلفة . فالرسالة كانت اذن من أصل الهي ، ومع انها منقولة في «لغة سرية» يمكن لها ان تفهم فقط من قبل الكهنة المختصين ، العرافين . وقد أوضحت بعناية المشابهات مع المبدأ الكلداني^(٣٩) . غير انه ، في الشكل الذي نقلت الينا فيه ، فان نظرية الصواعق تكشف بعض تأثير من العلم الهيلنستي ، منذ علوم الارصاد les meteorologica لأريسطو- المزيف حتى مفاهيم «المجوس الكلدانيين»^(٤٠) مع ذلك ، وفي نهاية المطاف ، ان هذه التأثيرات قد غيّرت بخاصة اللغة ، بتبنيها في اسلوب الزيج du Zeitgeist المعاصر . ان الفكرة الرئيسية ، وخاصة المشابهة بين الأكبر- الأصغر المعروفة macrocosme-microcosme هي قديمة جداً .

كذلك الأمر بالنسبة للعرافين haruspicine أي تفسير الاشارات المسجلة في احشاء الاضحيات ، كانت تفترض التوافق بين المستويات الثلاثة للمرجع :

الهي ، كوني ، بشري . فخصوصيات مختلف مناطق العضو كانت تدل على قرار الآلهة ، وبالنتيجة ، تنبؤ بحركة الاحداث التاريخية التي هي وشيكة الوقوع . ان النموذج من البرونز لكبد خروف ، المكتشف في بليزانسة سنة ١٨٧٧ يتضمن عدداً من الخطوط المرسومة بإزميل واسماء اربعين من الآلهة^(٤١) . ويمثل النموذج في آن واحد بنية العالم وتوزيع المجمع الالهي (البانتيون) .

ان نظرية تشابه الاصغر - الأكبر تبين كذلك مايمكن تسميته بالمفهوم الاتروسكي للتاريخ . فحسب كتاب القدر librifatales ان حياة بشرية تنتشر على اثني عشر اسبوعاً ؛ وبعد الثاني عشر ، «يخرج الناس من روحهم» والآلهة لا ترسل لهم أية آية^(٤٢) . وواضح ، ان الشعوب والدول ، وايتروريا كذلك روما ، لهم أجل مثبت بالقواعد نفسها التي تحكم الكون . وقد جرى كلام عن تشاؤمية الاتروسكيين ، بخاصة في موضوع عقيدتهم في حتمية كونية ووجودية شديدة . ولكنه يتعلق بمفهوم قديم ، تشارك فيه العديد من المجتمعات التقليدية : الانسان متضامن مع الايقاعات الرئيسية للخلقة ، لأن كل طرائق الوجود - كونية ، تاريخية - بشرية - تكرر على مستواها المميز من المرجع ، النموذج المثالي المكتشف بالمدار الدوري للحياة .

انه لمن الصعب اعادة تكوين المعتقدات الاتروسكية حول الموت والوجود بعد الموت . وبدءاً من القرن الرابع ، أخذت الرسوم المقبرية تمثل مقرنفوس الأموات «مختلفة عن المقرات الاغريقية ، ولكنها مستلهمة منها : فالمت يسافر ، على حصان ، وفي عربة ، وهو يستقبل في العالم الآخر من قبل مجموعة من الناس الذين ربما كانوا اجداده ، وتنتظره وليمة يرأسها هادس وبيرسفونة اللذان يسميان هنا ايتا Eita وفيرسيباني»^(٤٣) .

ومن جهة اخرى ان الصور تمثل ابليسية ليست من مصدر اغريقي . ان بطل الرواية ، شارون charun رغم اسمه الاغريقي ، هو ابداع اصولي للميتولوجيا الاتروسكية «اذا كان أنفه المعقوف يوحي بطائر مفترس ، واذا به بحصان فإن اسنانه الصّارة ، على الآثار التي تكشفها تكشيرة شفثيه الوحشية ،

تستدعي صورة آكل لحوم ، على أهبة افتراس ضحاياه»^(٤٤) . وبعد أن قتله ، فإن شارون يرافق ضحيته في سفره لمقر نفوس الموتى . ولكن دوره ينتهي بالدخول الى العالم الآخر حيث ، بالحكم عليه بالمشاهد المرسومة على جدران المقابر ، يعرف الميت وجوداً تالياً غنياً بالمسرات .

إن بعض الفقرات من كتاب الاشيرنوتيس libri Acherontici لا تسمح بأية مقاربة مع كتاب الموتى المصري . وحسب الكاتب المسيحي ارنوب (القرن ٤) : «في كتبها الأخروية Libri Acherontici ، تقدم الاتروية l'Etrurie انه ، بدم بعض الحيوانات المقدمة الى بعض الآلهة ، ستصبح الأرواح إلهية وتنجو من شرط الفناء» [٦٢ - ٢ Adversus Nationes] . ويضيف سيرفيوس معلومات هامة : على اثر بعض الاضحيات ، تتحول الارواح الى آلهة يُدل عليها كحيوانات للتذكير بأصلها [ذات المرجع ٣ - ١٦٨] . وسيتعلق اذن بتاليه متحصل على أثر طقوس دموية ، وهو ما يمكن تفسيره إما كعلامة للقدّم ، واما كأضحية مقدسة مماثلة للمسارة في اسرار ميترا (ف ٢١٧ع) . وعلى كل حال ، ان «تاليه الارواح» يضيف بعداً جديداً للأخروية الاتروسكية .

وفي آخر المطاف ، فإن ماهو جوهرى في الفكر الدينى الاتروسكى يفوتنا . وان التقدير الذى كان يتمتع به ، منذ بدايات روما ، اسلوبهم بالتاليه ، وبالتوجه وبانشاء المدن والمنشآت المقدسة ، يدل على بنية كوزمولوجية للاهوت الاتروسكيين ويبدو انه يفسر جهودهم لاختراق لغز الزمن التاريخي . ومن الراجح جداً ، ان هذه المفاهيم قد اسهمت في نضج الديانة الرومانية .

١٦٨ - ازمان وكوارث : من السيادة الغالية الى الحرب القرطاجية

الثانية

في ٤٩٦ ق.م وبعد زمن قصير من اقضاء آخر ملك اتروسكى واقامة الجمهورية رفع معبد على اسفل الافتان l'Aventin لثالوث جديد : سيرسي cères

ليبر Liber وليبرا Libra . ومن الراجح ان السياسة قد لعبت دورها في انشاء هذه العبادة المكرسة لثلاثة آلهة حماة patronnes للخصب . ان المعبد هو مكان مكرس منذ زمن طويل للعبادات الريفية ، وكان يعود إلى ممثلي العامة de la plèbe (٤٥) . حسب الاشتقاق اللغوي ، سيرسي تعني النمو المجسدة . وان وجود فلامن سيرباليس flamen cerialis والصفة الخاصة لطقوس يحتفل بها بمناسبة السيرباليس (١٩ نيسان) ، يؤكد على قدم الربة .

أما بالنسبة لليبر Liber فإن اسمه يبدو مشتقاً من الجذر الهندو-أوروبي لوده leudh ، ومعناه «البدار ، الذي يضمن الولادة والحصاد» (٤٦) . وحسب القديس اغسطين [مدينة الله ٦ - ٣] ان الروح ليبر- ايبرا كان يشجع الانجاب والخصب الشاملين ، «بتحرير» المنى اثناء الوصال الجنسي [مدينة الله ٧ - ٩] ، وفي بعض الأماكن من ايطاليا كان عيدهم ، الليبراليا la Liberalia (١٧ آذار) يتضمن عناصر تحليلية : طواف لفضيبة ذكوري ، الذي يتوجب على العجائز الطاهرات تنويجه علناً ، مع كلام فاحش الخ [مدينة الله ٧ - ٢١] . ولكنه منذ وقت مبكر ، مثل الثلاثي ، ليبروليبريا وسيريس (l'interpretio graeca بالثلاثي ، ديمتر ديونيزوس (باخوس) وبيرسفونه) (بروزيرين) (٤٧) . وان ليبر الذي أصبح مشهوراً باسم باخوس سيعرف خطوة استثنائية على اثر نشر العبادة الديونيزية .

إن روما كانت متألقة مع آلهة الاغريق منذ وقت سابق في القرن السادس تحت حكم الاتروسك . ولكننا بدءاً من العهد الجمهوري ، نشاهد التمثل السريع لآلهة اغريقية : الديوسكورس Les Diocures في ٤٩٩ ، وميركور mercure في ٤٩٥ ، وابولون في ٤٣١ (بمناسبة امراض الطاعون وهو اذن «الاله - الطبيب» الذي أدخل أولاً) . ان فينوس ، في الأصل اسم عام يعني فتنة سحرية ، قد وحدث بأفروديت الاغريقية ، ولكن بنية الربة ، تغيرت ، فيما بعد ، تحت تأثير الخرافة الطروادية . وعملية مماثلة تميز تمثل الآلهة اللاتينية والاي탈ية . فديانا قبلت من الالبين ومثلت فيما بعد بأرتميس . وفي ٣٩٦ ق.م دعت جينون ريجينا ، الربة الشفيعة للفييس de véies احتفالاً لتستقر في روما . ويصف تيت ليف في مقطع شهير [٧ - ٢١ - ٣ - ٢٢] طقس الدعوة الايفوكاسيو

l'evocatio : الدكتاتور كاميل cammille توجه بالدعاء الى ربة المحاصرين assie'ge's : «وأنت ، ياجينون ريجينا ، التي تفضل الآن الفينيس ، اتضرع اليك بأن تتبعينا ، نحن المنتصرين ، في مدينتنا التي ستصبح قريباً مدينتك ، وحيث سيستقبلك معبد يليق بعظمتك» . ان الفينز les veins «كانوا يجهلون ان كهانهم الخاصون والعرافين الغرباء قد سبق ان تركوهم ، وان الالهة كانت مدعوة لقسمة جلودهم وان آخرين ، مدعويين من مدينتهم بندوق ، كانوا ينظرون آنثذ من جانب المعابد والمقرات الجديدة التي كانت تنتظرهم عند الاعداء : باختصار انهم كانوا انفسهم يعيشون يومهم الأخير ...»

ان غزوة السلتي ، في الربع الأول من القرن الرابع اوقفت الاحتكاك مع الهيلينية . وان خراب روما (حوالي ٣٩٠) كان جذرياً لحد ان بعضهم فكر بترك الخرائب نهائياً والاقامة في فييس vèies . وكما حصل في مصر بعد غزوة الهكسوس (ف . ٤٣٠) فان حرق المدينة قد زعزع ثقة الرومان في مصيرهم التاريخي . وليس الا بعد نصر الستينوم sentinum (٢٠٠ ق.م) ان روما وايطاليا تخلصتا من السيادة الغالية المطلقة . فأعيدت الصلات مع العالم الاغريقي ، وعاد الرومان للأخذ بسياساتهم بالغزو ، وحوالي نهاية القرن الثالث كانت روما الأكثر قوة في ايطاليا . ومنئذ سيكون للتقلبات السياسية انعكاساتها القاسية جداً في بعض الاحيان على المؤسسات الدينية التقليدية . وبالنسبة لشعب حمل على أن يقرأ في كل الأحداث التاريخية انها تجليات إلهية ، فإن الانتصارات أو الكوارث العسكرية كانت مثقلة بالدلالات الدينية .

وبعد زمن قصير ، عندما وضعت الحرب القرطاجية الثانية وجود الدولة الرومانية ذاته في خطر ، تعرضت الديانة لتحول في صميمها . فاستدعت روما كل الالهة مهما كان أصلها . إن العرافين وكتب سيبيلين كشفت اسباب الكوارث الحربية في اخطاء مختلفة للنظام الطقوسي . واتباع تعليمات كتب سيبيلين ، فرض مجلس السينا الاجراءات الصحية : اضاحي ، تطهيرات ، حفلات وطوافات غير اعتيادية وحتى اضاحي بشرية .

ان كارثة كانس cannes (٢١٦ ق.م) . . . التي انتصر فيها هانيبال ، جعلت ايضاً اكثر تهديداً بالعديد من الخوارق وبارتكاب المحارم للفستاليتين devx vestales فقرر السينا sénat (مجلس الشيوخ) ارسال فاييوس بيكتور لمشاورة عرافة دلفي . وفي روما ، كانت كتب سيبلين تنص على اضاحي بشرية : اثنان من الاغريق واثنان من الفايين دفنوا احياء [تيت ليف ٢٢ ، ٥٧ - ٦] (٤٨) وعلى الأرجح أنه يتعلق بطقس ذي بنية قديمة : «الموت الخالق» (٤٩) .

وأخيراً ، في ٢٠٥ - ٢٤ ق.م ، في فجر الانتصار ضدها نيبال وحسب اقتراح كتب سيبلين ، أدخلت روما أول آلهة اسيوية ، سيبل Cybèle ، الأم الكبيرة للبسينونت de pessinonte (تيت ليف ٢٩ ، ١٠) . وقد حمل الحجر الأسود الشهير المرمز للربة من بيرغام pergame مع خفر روماني . واستقبل رسميا في اوستي ostie ، واستقرت سيبل في معبدها على البالاتان (٥٠) . مع ذلك فإن الخاصية التهتكية للعقيدة ، وفي المحل الأول ، حضور الكهنة المخصين des pretres ennuques كانت تتعارض جداً مع التقشف الروماني . ولم يتأخر السينا عن تنظيم المظاهر الطقوسية بعناية . فكانت الاضاحي تقدم حصراً داخل المعبد ، باستثناء طواف سنوي كان يقود البيتهيل le béthyl إلى حمامه . وقد منع على المواطنين الرومان التضحية لسيبل حسب الطقس الاناضولي . وحدد الملاك (مجموعة الموظفين) بكاهن وكاهنة ومساعديهما ولكنه لم يكن للرومان ولا لعبيدهم حق بممارسة هذه الوظائف . أما بالنسبة للعبادة الرومانية الرسمية ، فكانت مراقبة من قبل بريطور مديني .

مع ذلك ، رضي السينا في سنة ٢٠٤ ق.م بتنظيم هيئات تضم حصراً اعضاء من الارستقراطية ، وكانت وظيفتها الرئيسية اقامة حفلات على شرف سيبل . واجمالاً ، فإن ادخال أول آلهة اسيوية كان من عمل الارستقراطية . وقد كان الأباطرة يقدرون أن روما كانت مدعوة لأن تلعب دوراً هاماً في الشرق . غير أن حضور سيبل لم يكن له تال . وسيكون لغزو العبادات الشرقية مكانه بعد قرن من الزمن . وبالتأكيد ، ان روما بعد الألام الرهيبة والرعب من الحرب القرطاجية الثانية ، كانت منجذبة بشكل مزدوج بالالوهية الاسيوية .

غير أننا نصادف، هنا أيضاً، التعقيد الخاص بالرومان: في آن واحد
الضرورة لمراقبة العبادات الغريبة والخوف من اضاعة فائدتها^(٥١). إلا أن نتائج
هاتين الحربين والنصر النهائي الباهر لم تذهب سدى. فمن جهة ان عدداً مرموقاً
من اللاجئين من كل الأقاليم الايطالية والعبيد الغرباء تجمعوا في روما، ومن
جهة اخرى، انفصلت بعض قطاعات من السكان بشكل متزايد عن الدين
التقليدي. وفي روما كما في كل عالم البحر المتوسط، وبدءاً من القرن الرابع
تكشفت الضرورة لتجربة دينية شخصية عن حاجة ماسة. ان مثل هذه التجربة
الدينية كانت مقبولة بصورة خاصة في الجمعيات السرية المتآمرة على الدولة les
conventicules وفي المجتمعات المغلقة من نموذج «ديانة الأسرار»؛ وبعبارة
أخرى، في اتحادات سرية فلتت من رقابة الدولة. وان هذا هو السبب الذي من
أجله منع السينا مساهمة المواطنين الرومان، وحتى عبيدهم في العبادة الأناضولية
لسبيل.

وفي سنة ١٨٦ ق.م اكتشفت السلطات، باندهاش وخزي، وجود (عبدة
باخوس) باشالي bacchanalie - أي اسرار تهتكية ليلية. أن عبادة ديونيزوس،
قد عرفت انتشاراً واسعاً في عالم البحر المتوسط وبخاصة في العهد الهيليني (ف
٢٠٦ ع). وبعد سيادة الرومان على اليونان الكبرى، فإن الجمعيات الباطنية
للساك انتشرت في شبه الجزيرة، وبخاصة في كامبانيا. وفي الواقع ان كاهنة
بصيرة أصولية من كامبانيا هي التي كانت أدخلت لروما عبادة سرية، محوَّرة تبعاً
لتصوراتها الخاصة، أو متضمنة بعض الشعائر القابلة للمقارنة بالأسرار. وعلى
أثر قرار، أعلن على العموم مباشرة من قبل القنصل، كشف التفتيش علاقات
العبادة وخاصيتها التهتكية. وكان المتممون اليها اكثر من ٧٠٠٠ متهمين بالعديد
من أعمال الرجس المقززة: فلم يقسموا بأنهم لا يفشون شيئاً فحسب، وإنما
مارسوا اللواطه la pèderastie ونظموا اغتياالات بهدف الحصول على الأموال.
وكان الاحتفال بالطقوس يتم في منتهى السرية. وحسب تيت - ليف [٣٩ -
١٣ - ١٢]، كان الرجال يحركون اجسامهم وكأن روحهم هائمة، وهم يتنبؤون
بكلمات نبوءة، وكانت النساء بشعورهن المسبلة على طريقة عابدات باخوس،

يركضن حتى التبير «وهن يرقصن مشاعل متقدة» حيث كن يغرزنها في الماء ويعاودن سحبها وهي مشتعلة ، «لأن الكبريت الحى ممزوج بالكلس»^(٥١) .

ان بعض الاتهامات تذكر بالكليشيات المستعملة فيما بعد في كل دعاوى البدع الهرطقية والسحر . ان السرعة الحوية وقسوة التفتيش ، وقسوة الضغط (عدة الوف اعدموا في البلاد) تظهر الخاصية السياسية للدعاوى . وتعلن السلطات الحظر على الاتحادات السرية ، حيث الحظر من مؤامرة قادر يحاول الانقلاب على الدولة . وبلا ريب ان العبادة الباخية لم تمنح تماما ؛ ولكنها منعت على المواطنين الرومان من ان يشاركوا فيها . زيادة على ذلك ، ان كل حفلة باخية ، المحددة الزاميا بخمسة اعضاء ، يتوجب لها ان تجاز بقرار من السينا . وان المنشآت والموضوعات الطقوسية قد تخربت ، ماعدا تلك التي كانت تقتضي (بعض التقديس) .

ان كل هذه الاجراءات من الرعب تظهر إلى أي مدى كان السينا يشتهه بالجمعيات الدينية التي كانت تفلت من رقابته . وان السيناتوس - كونسولت ضد الباخيين لا يجب ان يفقد قيمته أبداً ، اذ أنه بعد ثلاثة قرون استخدم الاسلوب نفسه بإضطهاد المسيحيين .

حواشي الفصل العشرين

- ١ - تيت ليف (٣-) ، لوفيد - ٣٨١ الخ
- ٢ - servins - ٦ - ٢١٢
- ٣ - Florus - و propertius - ٦ - ١,٣١
- ٤ - puhvel ص ١٥٣ و Bruce Lincoln اسطورة الخلق ص ١٣٧
- ٥ - pierre Grimal الحضارة الرومانية ص ٢٧ - هوراس يثير نتائج قتل الأخ الأصلي في النشيد
- ٧ - ١٧ - ٢٠
- ٦ - جورج ديميتريل ، التراث الهندو اوروبي في روما .
- ٧ - سيكون من عدم الفطنة توحيد المركبات العرقية تبعاً للطقوس الجنائزية ، باضافة اللحد للسابين والحرق والترמיד للاتين - النظر - موللر - كارب . ذكره ديميتريل .
- ٨ - ٩ - ج - ديمتريل - الدين الروماني .
- ١٠ - خطوة مميزة خاصة من قبل هـ - ج - روز الذي شبه نومن إلى مانا ، مهملاً واقعة انه (خلال قرون ان نومن لم يكن سوى الرب نومن ، الارادة المعلن لمثل الآله (ديمتريل
- ١١ - و . الافكار الرومانية ص ٣١ - ١٥٢ بالتأكيد الى جانب هذا النمط العام من الشرح النظري وبذات الوقت تطويع تجريبي للعالم ، كان يوجد عدد من المعتقدات والصور الالهية من أصل اجنبي ، ولكنه في عصر التكوين العرقي للشعب الروماني هذا التراث الديني الدخيل عني بخاصة الطبقات الزراعية .
- ١٢ - واكثر من ذلك في هذه المناطق المحدودة ، هذه الهويات ليست هامة - ديمتريل ص ٢
- ١٣ - حول الـ fides ر . ديمتريل ص ١٥٦
- ١٤ - سنرى اتجاها مشابها في جهد بعض الكنائس المسيحية لتصبح «متحينة» بالنسبة للمجتمعات المزال عنها صفة القداسة في القرن (٢٠) .

١٥ - ب . غريما ص ٨٩ - ضد النظرية «السياسية» للاث حول البيتاس . ر . مذهب مزجيل

Boyancés

١٦ - م . الياد - اسطورة العودة الابدية فصل ١١

١٧ - ١٨ - الدين الروماني القديم ص ٥٧١ - ١٨٤ - ٧١ .

١٩ - ج ديميزيل الدين الروماني القديم ص ١٦٦ - الفلاحين الوسط كانوا مرتبطين بآلهة سقطت بعدم الاستعمال في العصر الكلاسيكي - فولكانوس ، فوليتزنوس ، بالاتوا كارمتا ، فلورا ، بومونا الخ .

٢٠ - هذا الكاتب يفترض ثورة «حملت لرأس التنظيم الديني في روما الخبر الأكبر والجماعة التي تتبعه» ص ١٩٥

٢١ - ٢٢ - ديمرال ص ٥٧٤ - ٥٧٦

٢٣ - بالنسبة للنشاط العرافي ، المدخل للهام المباشر من اله ، كان مشتبها فيه بالفعل البسيط الذي يخرج عن رقابة الدولة . ان المجموعة المعروفة تحت اسم كتب سيلليين يجب ان تكون مقبولة طالما انها كانت مشهورة باحتوائها على أسرار مستقبل روما . ولكنها كانت محروسة جداً من قبل الكهنة وكان يلجأ اليها في حالات الخطر الكبرى

٢٤ - Februm الذي اعطى الاسم لشهر فبراير ، ترجم من قبل قارون (اللغة اللاتينية ١ ص ١٣) - وفعل februaire يعني تطهر .

٢٥ - قارون وزعها في rerti = محدة و incerte من بينها مئزر عشرين الها اساسيا ، اوغسطين - مدينة الله ٧،٢

٢٦ - نجد الاسم في ombriens osque وفي المتكلمين اللاتين .

٢٧ - هذا الاله يوجد احيانا مجتمعاً مع مارس جراديفوس : الاثنان يملكان التروس المقدسة (تيت/ ليف) رومولوس ابن مارس ، ممثلاً الملكية السحرية والعسكرية قد تمثل بعد موته بكويرانوس .

٢٨ - فارون - ذكره القديس اوغسطين . مدينة الله (٧) - ٩ - ١ انظر شرح ديميزيل

٢٩ - كذلك فإن جانوس يرأس بعض (البدايات) الطبيعية : إنه يضمن علوق الجنين انه معني بتأسيسه للديانة ، وقد شيد العابد الأولي ، وانشأ الساتورناليا .

٣٠ - ج . ديميزل ص ٣٢٣ - وذات الأمر في ايران آثار ، النار - كانت اقيمت في نهاية قائمة الأميشا سييتا (ص ٣٢٩ ذات المرجع)

٣١ - سرخيوس ٢٧ - وبلوتارك وصف بالتفصيل الانتصار لبول ايميل بعد نصر بيدنا ١٦٨ ق.م

٣٢ - ر . تحليل وظيفة سارسافاتي وأنهايتا . ص ٣٧

- ٣٣ - F. Altheim يلاحظ ان التراث الاسيوي والبحر المتوسط يمكن فهمه ليس في بداية وانما نهاية التاريخ الاتروسكي ر . تاريخ الديانة الرومانية ص ٥٠
- ٣٤ - j. Bayet « Héracles- Hercle » في النطاق الاتروسكي ، ص ٧٩ - ١٢٠
- ٣٥ - Les phalli الجنائزية ظهرت بدءاً من القرن السادس في حين ان شواهد القبور بشكل منازل تأكدت كثيراً . بالأحرى ، ان الاتروسك ذكر والقب الأب وليس اسم العائلة للأم : « الأم كانت معتبرة أقله كشخصية فردية بأكثر مما كانت معتبرة كعضو في خط النسب » (altheim) الدين القديم ص ٤٦
- ٣٦ - ذات المرجع السابق ص ٦١
- ٣٧ - شيشرون الالهيات ٢ - ٥١ و Lydus يؤكد ان الاغريق مثلوا الولد تاجيه بهرمس محلي .
- ٣٨ - انظر المسائل الطبيعية ٢ - ٣١ - ٤١ . والمسائل التاريخية ٢ - ١٣٧ - ١٤٦ .
- ٣٩ - أخيراً - أ - بيجانيول ص ٣٤٠ - ٣٤٢ (الاتروسك شعب شرقي)
- ٤٠ - انظر S. Weinstock (Libri Fulgurales) ص ١٢٦
- ٤١ - عصر النموذج هو ايضا موضع معارضة ، انه يحدد على الأرجح في القرن الثالث والثاني ق.م والمشابهات مع كتابات الاكباد الميزوبوتامية واضحة ، وهي مرجحة ومؤكدة بتأثيرات تالية .
- ٤٢ - قارون نصوص مذكورة ومشروحة من قبل بوشيه - لولكيرك ، تاريخ الحضارة ص ٨٧
- ٤٣ - ٤٤ - ح - ديميزيل ص ٦٧٦
- ٤٥ - حسب التقليد ، ان المعبد كان نتيجة مشاوره كتب سيلين ، ولكنه يتعلق بمفارقة تاريخية
- ٤٦ - E. Benveniste (Libereliberi) ديميزيل ص ٣٨٣
- ٤٧ - ج . بايه (Les céralia - مزج طقس لاتيني باسطورة اغريقية) شعائر روما القديمة ص ١٠٦
- ٤٨ - في ٢٢٦ ق.م على اثر مشاوره كتب سيلين زوج من الاغريق واحد الغالبين دفنوا أحياء بهدف ابعاد تهديد غزوة الفلوا (بلوتارك ، مارسيلوس ٣-٤) وتضحيات مماثلة حصلت في نهاية القرن الثاني (بلوتارك ٣٨) والاضحيات البشرية منعت من مثل السينا سنة ٩٧ ق.م .
- ٤٩ - من أجل ضمان النصر دفن كسرى تسع اولاد وتسعة بنات أحياء عندما حمل على الاغريق . ويعرف من جهة اخرى ان تيمستوكل على اثر عملية عرافة ، ضحى بثلاثة مساجين صباح معركة سالامين (بلوتارك) وحول هذه النعمة الطقوسية . انظر إلياد من الموسكي - الجنكيزخان ص ١٧٨

- ٥٠ - من المناسب التذكير بأنه بفضل خرافة اينيه لم تعد سيبيل ربة أجنبية .
- ٥١ - لقد اتهموا اضافة لذلك بأنهم ابادوا بطريقة مرعبة كل الذين كانوا رفضوا المشاركة في جرائمهم وأعمالهم المنكرة وفي تحليل دقيق لنصوص تيت - ليف والسيناتوس كوشلت لـ ١٨٦ حالة خاصة بالباخين انظر - اوريان بروهل ص ٨٥

الفصل الحادي والعشرين

السلت ، الجرمن ، التراس والجييت

١٦٩ - استمرارية عناصر ما قبل التاريخ

إن الأثر الحاسم للسلتيين des celtes في التاريخ القديم لأوروبا ظل محسوساً خلال أقل من قرنين من الزمن : من الغزوة لشمالي إيطاليا في القرن الرابع (سقطت روما في ٣٩٠ ق.م) إلى نهب معبد ابولون في دلفي ، في ٢٧٩ ق.م . وبعد قليل من الزمن ، ختم المصير التاريخي للسلت : فقوتهم المحاصرة بين توسع القبائل الجرمنية وبين ضغط روما لم تتوقف عن الانحدار . إلا ان السلت كانوا ورثة ما قبل تاريخية غنية بشكل متفرد ومبدعة . وعليه ، وكما سنرى ، فإن المعلومات الواردة عن طريق علوم الآثار ذات أهمية لفهم الديانة السلتيّة .

فما قبل السلت ، على الأرجح ، هم صناع الثقافة المسماة «حقول الجرار» urnfiele - champs diurnes^(١) . المنبثقة في اوروبا الوسطى ما بين ١٣٠٠ - ٧٠٠ ق.م فقد كان هؤلاء يسكنون القرى ، ويمارسون الزراعة ، ويستعملون البرونز وكانوا يحرقون الموتى . إن أوائل هجراتهم (القرن ٩ - ١٠) قادتهم إلى فرنسا ، واسبانيا ، وبريطانيا العظمى . وما بين ٧٠٠ - ٦٠٠ ق.م انتشر استعمال الحديد في اوروبا الوسطى ، وهذه هي الثقافة المسماة هالستات de Hallstatt ، المتميزة بتفريق العينات stratification الاجتماعية المحددة وبالطقوس الجنائزية المختلفة . ومن الراجح ان هذه التجديدات هي حصيلة تأثيرات عقائدية ايرانية ، منقولة عن طريق السيميريين les cimmériens (من أصول البحر الأسود) . وانه عندئذ تشكلت الارستقراطية العسكرية السلتيه . إن الأجساد (أقله اجساد الرؤساء) لم تكن تحرق ، ولكنها كانت توضع ، مصحوبة بأسلحتها والأشياء الأخرى الثمينة ، في عربة ذات اربع عجلات ، ثم تدفن بعدئذ في غرف جنائزية مغطاة بنشز ضريحي terre . ونحو ال ٥٠٠ ق.م ، خلال العصر الثاني الحديدي ، المعروف باسم لاتين Latène عرفت الابداعية الفنية للعبقريه السلتيه أوجها . وقد وصفت الأعمال الجوهريه ، والمذهبات والموضوعات الكثيرة من المعدن ، المكتشفة عن طريق الحفريات ، وصفت «كمفخرة للعالم البربري ، وكمأثرة كبرى ، أكثر مما هي مساهمة محدودة للسلتيين في الثقافة الأوروبية»^(٢) .

ومع ملاحظة الجذب في المصادر المكتوبة حول الديانة ، فإن الوثائق الأثرية لا تحصى . ويفضل الحفريات عرف ان السلت أعطوا أهمية كبرى للفضاء المقدس ، أي للأمكنة المكرسة ، تبعاً لقواعد محددة ، حول مذبح كانت تمارس عليه الاضحيات . (كما سنرى ، فإن عدم التحديد الطقوسي للفضاء المقدس والرمزية «لوسط العالم» قررت من قبل الباحثين القدامى ، ونجدها في الميتولوجيا الايرلندية) . ودائماً بفضل الحفريات ، عرف ان مختلف نماذج التقدّمات كانت توضع في آبار طقوسية ، من مترين الى ثلاثة عمقاً . وهذه الحفر الطقوسية مثلها مثل البرازرس Le brothros الاغريقي والمندوس le mendus الروماني تماماً ، كانت تضمن الاتصال مع آلهة العالم تحت الأرض . وان مثل هذه الآبار قد تأكدت

منذ الألفين ، وكانت تملأ أحياناً بأشياء من ذهب وفضة متكدسة في قدر احتفالي مزين بفخامة . (توجد ذكرى لهذه الآبار ، ذات الصلة مع العالم الآخر ، والكنوز تحت الأرض ، في خرافات القرون الوسطى وفي الفولكلور السلتي) .

وليس بأقل من ذلك أهمية المصادقة المقدمة من الحفريات المتعلقة بانتشار واستمرارية عبادة الجماجم . فمنذ الاسطوانات من الحجر الكلسي المزينة برؤوس ذات نماذج ، المكتشفة في يوركشاير وترجع الى القرن الثامن عشر ق.م ، وحتى القرون الوسطى ، فإن الجماجم وتمثيلات «الرؤوس المقطوعة» تأكدت في كل الأقاليم المسكونة من قبل القبائل السلتيه . وقد اكتشفت جماجم موضوعة في أوكار للكلاب ، أو مدخلة في جدران المعابد ، رؤوس منحوتة من الحجر ومالحيص من الصور من الخشب المعلقة في الينابيع ، وعليه فإن الأهمية الدينية للجماجم قد أبرزت من قبل الكتاب التقليديين ، وبالرغم من تحريم الكنيسة ، فإن تمجيد (الرأس المقطوع) يلعب دوراً هاماً في خرافة القرون الوسطى والفولكلور البريطاني والايروندى^(٤) . وهو بالتأكيد يتعلق بعبادة تمد جذورها في ما قبل التاريخ واستمرت تعيش في العديد من الثقافات الاسيوية حتى القرن التاسع عشر^(٥) . ان القيمة السحر - دينية الأصولية (للرأس المقطوع) تدعمت فيما بعد بالمعتقدات التي تركزت في الجمجمة المصدر الأول لبذرة الرجولة semen virile والمقر «للروح» . وكانت الجمجمة عند السلت تشكل بامتياز الوعاء لقوة مقدسة ، من أصول الهية ، كانت تحمي الملك ضد كل نوع من الأخطار وتضمن له الثروة والنصر في ذات الوقت .

وإجمالاً ، فإن الاكتشافات الاثرية ، اخرجت من جهة ، قدمية الثقافة السلتيه ، ومن جهة اخرى استمرارية بعض الأفكار الدينية المركزية لما قبل التاريخ وحتى القرون الوسطى . ان العديد من هذه الأفكار والعادات كانت تعود إلى الأسس الدينية القديمة للعصر الحجري (النيوليتك) ، ولكنها تمثلت في زمن مبكر من قبل السلت وادخلت جزئياً في النموذج اللاهوتي الموروث من اجدادهم الهندو - اوروبيين . وان الاستمرارية الثقافية المدهشة المبرهن عليها بعلم الآثار تسمح لمؤرخ الديانة السلتيه باستعمال مصادر متأخرة ، وفي الدرجة الأولى منها

النصوص الايرلندية المحررة بين القرن الرابع والثامن ، وايضا الاساطير الملحمية والفولكلور الذي استمر يعيش في ايرلندا حتى نهاية القرن التاسع عشر .

١٧٠ - التراث الهندو - اوروبي

ان قدم الثقافة السلتيّة تأيّد بمصادر أخرى ، ففي ايرلندا يوجد العديد من الأفكار والعادات المؤكدة في الهند القديمة ، فعروض الشعر *la prosodee* مشابه لما هو في السنسكريتية والحثية ، وكما يوضح ستيوارت بيجو *stuart piygot* انه يتعلق «بفقرات من ارث عام لما يعود للألفين سنة»^(٦) . وكالبراهمانيين تماماً ، فإن الكهنة *les druides* كانوا يعطون الذاكرة اهمية معتبرة (ر. ف ١٧٢ع) وإن الشرائع الايرلندية القديمة كانت مؤلفة بالشعر لتسهيل تذكرها . ان التوازي بين المعالجات القانونية الايرلندية والهندية تتحقق ليس في شكلها وصياغتها فحسب ، وإنما ايضا واحيانا فيما يتعلق باملائها . ويذكر في هذا الصدد أمثلة اخرى عن التوازي الهندو - سلتي : الصيام كوسيلة لدعم طلب قانوني ، والقيمة السحر - دينية للحقيقة^(٨) . والإدراج لمقاطع من الشعر في النثر القصصي الملحمي ، وبصورة خاصة في الحوارات ، والاهمية للشعراء الغنائيين *des bardes* وعلاقتهم مع الحكام^(٩) .

وبسبب التحريم الطقوسي للكتابة ، لا يوجد أي نص حول ديانة السلتيين القاريين محررة من قبل أحد السكان الأصليين . وان المصادر الوحيدة هي بعض الأوصاف من قبل بعض الكتاب الاغريق - اللاتين ، وعدد كبير من الآثار المصورة ، يرجع اكثرها الى العصر الغالي - الروماني . وعلى العكس ، فان السلتيين سكان الجزر ، المتمركزين في ايكوسيا وبلاد الغال وبخاصة ، ايرلندا ، قد انتجوا أدبا ملحيميا غزيراً . وبالرغم من واقعة تمام تأليفه بعد اعتناق المسيحية ، فإن هذا الأدب يمدد في قسم كبير منه التقليد الميثولوجي لما قبل المسيحية ، وهذا يصح ايضاً على الفولكلور الايرلندي الغني .

ان ارشادات الباحثين الكلاسيكيين تأكدت في كثير من الأحيان بالوثائق الايرلندية . فسيزار في كتابه De bello Gallico [٤ - ١٣] يؤكد ان الغولوا Les Gaulois يعرفون طبقتين متميزتين - طبقة الكهنة druides وطبقة الفرسان - وطبقة ثالثة ، مقهورة ، هي طبقة «الشعب» . وان هذا هو نفس التثليث الاجتماعي العاكس لايديولوجيا هندو- اوروبية معروفة جداً (ف . ٦٣ ع) ، والتي توجد في ايرلندا لزمان قصير بعد اعتناق المسيحية : فتحت سلطة الريغ Rig (المشابه لفظيا للسنسكريتي راج raj ، واللاتين ريج Reg) ، كان المجتمع مقسماً بين طبقة الكهنة des druides ، والارستقراطية العسكرية (فليث la flaith ، وأصلها «قوة» ، المشابه الصوتي الدقيق للسنسكريتي كزاترا ksatra) ومربو الماشية «بو ايريج les bo airig ، ناس احرار (ايريج airig) الذين يعرفون كحائزين للأبقار (بو) «bo»^(١١) .

وسيكون هنالك مجال للإشارة فيما بعد لبعض استمرارية حياة النظام الديني الهندو- اوروبي عند السلتيين . ولنحدد بدقة منذ الآن أن «المخلفات الشائعة في المجتمعات الهندو- ايرانية والايثالية - السلتية» تفسر ذاتها «بالوجود لجماعات قوية من الكهنة الخازنة للتقاليد المقدسة والتي كانوا يعتمدونها بصرامة شكلية»^(١٢) .

اما بالنسبة لللاهوت التثليث الهندو- اوروبي فيمكن التعرف عليه في قائمة الآلهة المنقولة من قبل سيزار César واعطيت الصفة التاريخية جذريا ، وان هذا اللاهوت مازال قائماً في التقليد الايرلندي . وقد أظهر جورج ديمتريل وجان دفري ، أن رؤساء الشعب الاسطوريين تواتها دي دانان Tuatha Dé Danann ، يمثلون بالفعل ، الآلهة للوظيفتين الأوليتين ، في حين ان الثالثة مصورة من قبل شعب دي فيمور des Femores ، المعبرين كسكان سابقين للجزيرة^(١٣) .

ان سيزار يمثل مجمع الآلهة السلتي في تفسير روماني ، فيكتب هذا القنصل «ان الاله الذي يجدونه اكثر ، هو ميركور mercure . ان تماثيله هي الأكثر عدداً . انهم يرون فيه مخترعاً لكل الفنون ، انهم يعتبرونه كالقائد للمسافرين على الطرقات ، والذي سلطته هي اذن الاكبر لكسب الأموال وتشجيع التجارة .

وبعده يعبدون ابولون ، مارس وجوبيتر ومنيرفا . ويحملون عن هذه الآلهة تقريبا ذات الفكرة التي تحملها شعوب أخرى . فأبولون يطرد الأمراض ، ومنيرفا تعلم عناصر الأعمال والمهن ، وجوبيتر يمارس سلطته على السماوات ، ومارس يدير الحروب» [ب . ج ٤ - ١٧] .

لقد نوقشت كثيرا رسمية ، وبالنتيجة ، قيمة هذا الشرح الروماني للبانتيون الغالي Gaulois . ومع ذلك ، فإن سيزار كان يعرف جيدا ، العادات والعقائد السلتيّة . فقد كان فيما سلف (القنصل الأول proconsul) للغال الألبية قبل أن يبدأ حملته في الغال عبر الألب . ولكن بما أننا نجهل الميتولوجيا السلتيّة القارية ، فإن لدينا منها القليل حول الآلهة المذكورة من قبل سيزار . ومن المدهش انه لم يضع «جوبيتر» على رأس القائمة . ومن المؤكد ان الاله السهاوي السلتي الكبير قد أضاع أوليته لدى سكان المدن المعرضة منذ مالا يقل عن قرنين لتأثيرات البحر المتوسط . ان الظاهرة عامة في تاريخ الأديان ، في الشرق الأدنى القديم (ف ٤٨ ع) . كما هو لدى الهنود الفيديين (ق ٦٢ع) والدى الجرمن القدامى (ب ١٧٦ع) ولكن الأعمدة المسماة «جوبيتر الجبار» التي توجد في اعداد كبيرة ، وبخاصة ما بين الرين والموزيل والساون والتي كانت رفعت كذلك من قبل بعض القبائل الجرمنية ، فهي تمدد رمزية قديمة ، خاصة تلك المتعلقة بكائن سهاوي أعلى : وسلاحظ بدنيا ان هذه الأعمدة لا تدشن النصر الحربي كتلك الأعمدة العائدة لتراجان ومارك أوريل . انها لم تكن ابداً مرفوعة في الساحات (الفوروم) أو الشوارع ، وانما بعيداً عن المدن . وأكثر من هذا هو ، ان هذا الجوبيتر السلتي قد أبرز غالباً مع دولاب ، وعلى ذلك يلعب الدولاب دوراً مهماً في اللغة السلتيّة^(١٤) . وكما لاحظ ورنر موللر ، فإن هذا الجوبيتر السلتي هو بالنتيجة الاله السهاوي والمدير الكوني ، معلم السنة ، والعمود الرمزي قطب الدنيا l'axi mundi . ومن جهة أخرى فإن النصوص الايرلندية تتكلم عن الداغدا Dagda «الاله الجيد» وتتفق بتوحيده مع الاله الغالي الذي اشار اليه سيزار بتجلي (جوبيتر)^(١٥) .

ان علم الاثریات قد وافق على تأكيد القنصل سيزار حول شعبية «ماركور (mercure): اكثر من ٢٠٠ تمثال ونصب وحوالي ٥٠٠ نقش . إن الاسم الغالي مجهول ولكن من الراجح انه كان ذات الشيء للاله لوغ Lug الذي يلعب دوراً هاماً لدى السلت سكان الجزر . فالعديد من المدن يحمل اسم لوغ (مثلاً: ليغدوم - ليون . . الخ) ، وقد كان يحتفل بعيدة في ايرلندا ، الأمر الذي يثبت ان هذا الاله كان معروفاً في كل البلدان السلتيّة . ان النصوص الايرلندية تمثل لوغ كرئيس للجيش ، مستعملاً السحر على ساح المعركة ، لكنه كذلك معلم شاعر والجد الاسطوري لقبيلة هامة . ان هذه الملامح تقربه من وودان - اودهان ، Wdan- Odhin الذي ، هو ايضا قد مثل من قبل تاسيت بمركور . ويمكن الاستنتاج من هذا بأن لوغ يمثل السيادة تحت مظهر سحري وحربي : انه عنيف وباسل ، ولكنه يحمي المحاربين كما يحمي شعراء البطولة Bardes والسحرة . وتاما كأودهان - ودولمان (ف ١٧٥ع) يتميز بقدراته السحرية - الروحية ، الأمر الذي يفسر لماذا شبه بمركور يوس - هرmez - mercurius- Hermes^(١٦) .

وقد كتب سيزار ان الغالين يندرون إلى مارس «في بدء المعركة ، كل ماسيحصلون عليه : وبعد النصر ، يضحون له بالسلب الحي ويجمعون كل الباقي في مكان واحد» . ان الاسم السلتي للاله الغالي للحرب غير معروف . وان النقوش الكثيرة الموقوفة لمارس تتضمن على الغالب القاب : البيوريز Abbioriz «ملك العالم» ريجيزاموس Riginamos «ملكي جداً» ؛ كاثوريكس caturix «ملك المعركة» ، كامولوس camulus «قوي» ، سيغومو segomo «منتصر» الخ . . وبعض القابه هي غير مفهومة ، ولكن حتى لو أمكن ترجمتها ، لاتغني معارفنا . ويمكن القول ذات الشيء بشأن اكثر من مائة نقش موقوفة لهرقل ، تماما كذلك التي هي مكرسة لمارس ، تشير فقط لوجود اله للحرب .

وإذا أخذنا في الحسبان بعض المعلومات ، فإن بنية هذا الاله تبدو معقدة . وحسب المؤرخ الاغريقي لوسيان الساموزي (القرن الثاني ب . م) فإن اسم هرقل Héracles كان اوغاموس ogamios وقد رأى لوسيان صورة لهذا الاله : انه شيخ

أصلع ، ذي جلد مجعد ، يجر عدداً كبيراً من الرجال والنساء المربوطين بلسانه بسلسلة من ذهب وعنبر . ومع انهم مرتبطين بشكل واهٍ ، فإنهم لم يكونوا يريدون الحرب ، وإنما كانوا يتبعونه (مسرورين وفرحين في اغراقه المديح) . وإن رجلا من اهل البلاد قد فسر له الصورة : هم ، السلت ، لا يمثلون بفن الكلام بهرمس ، كالاغريق ، وإنما بهرقل ، «لأن هرقل هو أقوى بكثير» [خطاب ، هرقل ، ١ - ٧] . وإن هذا النص افسح المجال لتفسيرات متناقضة^(١٧) . فقد قورن الاشخاص المربوطون بالسلاسل بالماروت marut الذين يرافقون اندرا ، وبجيش الاينهيرجار des Einherjar الحارسين أودهين - وودين [ج . دي فرايس] . ومن جهة أخرى قُرب من فارونا «المعلم الموصل» [ف . لورو] . ومن الراجح ان «مارس» السلتي قد مثل بعض الصفات الخاصة لاله سيد - ساحر ، مدعماً وظيفته النفسية العصابية . (كما سنرى فقرة ١٧٥ ، كان اودهين عند الجرمن ، على العكس فد اضيف اليه في جزء منه اله الحرب) . وفي الأدب الملحمي الايرلندي يقابل الاله أوغميوس ، الاله أوغما البطل بامتياز . ولكنه يضاف اليه كذلك اختراع الكتابة المسماة (اوغامبيك) ؛ الذي يعيد القول بأنه يجمع القوة الحربية و «العلم» من نوع اودهينيك odhinique .

ويمثل سيزار «أبولون» كإله طبيب ، واسمه الغالي مجهول ، ولكن القابه البارزة في النقوش تثبت بصورة عامة خاصيته بالشفاء . وعليه فإن النصوص الايرلندية تتكلم عن ديانسشت Diancecht الذي يشفي ويعيد احياء التوثادي دانان le Tuatha Dé Danam انه يستدعى اضافة الى ذلك بصيغة قديمة من التعزيم exorcisme وان اسمه مذكور الى جانب غروبنيو Grobniu ، الاله الحداد . فيمكن اعتباره اذن كممثل لآلهة يعتبرها (ديميزيل) مخصصة «للوظيفه الثالثة» . اما بالنسبة «للميرفا» التي يجهل اسمها الغالي ايضاً ، ولكن سيزار كان قد عرفها كربة للصناعات اليدوية والمهن (فهي تنتمي اذن للوظيفة الثالثة) . وقد قربت من الربة بريجانيئا Brigantia ، ابنة داغدا Dagda ، ومعلمة الشعراء ، والحدادين والأطباء .

١٧١ - هل يمكن إعادة تكوين مجمع الآلهة السلتي

إن البانتيون المستتر بالشرح الروماني لسيزار يمؤ حقيقة دينية حيث ان مقارنتها بالتقاليد السلتيه لسكان الجزر تجعلها ممكنة القبول في جزء منها . ففيما يتعلق بالاسماء اللاهوتية theonymes المرفوعة على الآثار وفي النقوش من العصر الغالي - الروماني ، تبدو في معظمها نعوت تفصيلية أو إرائية topographiques للآلهة اعضاء البانتيون : إن بعض العلماء اعتبرها (خطأ) كأنها تدل على آلهة مستقلة .

إن المعلومات الوحيدة حول الأسماء الغالية للآلهة قد نقلت إلينا ، في القرن الأول ب.م عن طريق الشاعر لوكين Lucain فهو يذكر «أولئك الذين يهدثون بتضحية رهية العنيف توتاتس teutates والمرعب ايزوس Esus على مذابح متوحشة وتارانيس Taranis ، مذبج ليس أقل قسوة من مذبج ديانا السييتيكية» [فارسانيا ١ - ٤٤٤ - ٤٦] . إن رسمية هذه الأسماء مصادق عليها بالتسجيلات الغالو- رومانية التي تذكر ايزوس ، وثارانوكنوس (أوجوبيتر تارا نوكنوس) ومارس توتاتيس . وقد جرب كاتب تعليق في القرون الوسطى^(١٨) أن يشرحها ، ولكن شروحه متضاربة . ومع ذلك فإن الشرح يقدم معلومات دقيقة حول نوع الأضحية المقدمة إلى كل واحد من الآلهة : بالنسبة لتوتاتس ، يخنق رجل باغراقه في دن ، وبالنسبة لاييوس كانت الأضحية تعلق على شجرة وتذبح ، وبالنسبة لتارانيس - «معلم المعارك وأكبر آلهة السماء» - كان الرجال يحرقون في سلة من خشب .

ان واحدة من صور قدر غونديستروب Gundestrup تمثل شخصية مرتدية الثياب وهي تقذف الضحية البشرية ، ورأسها إلى الأسفل - في حلة . وعدد من المحاربين المشاة يتجهون صوب الحلة ، ومن فوقهم فرسان يبتعدون . ويظن جان دي فري [المرجع السابق ص ٥٥] انه يمكن ان يكون ذلك مسألة طقس

مساري ، ولكنه لا علاقة له مع توتاتس . (ان الشعر الملحمي الايرلندي يعاود مرارا عرض قصة الملك الذي ، في بيت محمي لدرجة البياض ، يغرق في دن حيث كان يسرع للنجاة من الحريق . إنه بالتأكيد يتعلق بطقس مدخل للأضحية البشرية)^(١٩) . ومنذ القرن الثامن عشر جرت ترجمة الاسم توتاتس بـ «أب القبيلة» . فالاله قد لعب بالتأكيد دوراً هاماً في حياة القبيلة ، لقد كان معلم الحرب ، الا ان وظيفته كانت اكثر تعقيداً^(٢٠) .

وفيا يتعلق بتارانيس فإن دلالة اسمه واضحة : الجذر هو تاران (رعد) . وتحت شكله الثاني ، ثاناروس ، هو قريب من إله الجرمن ، دونار^(٢١) . وتما كدونار تمثل بجوبيتر . ومن الراجح اذن ان اعمدة «جوبيتر الجبار» كانت مكرسة لتارانيس «المرعد» الاله السلمي القديم للسماء . ويوجد الاسم ايزوس في الاسماء الخاصة ، ولكن الاشتقاق اللغوي غير دقيق^(٢٢) . وعلى قاعدتي المذبحين صُور ايزوس ضارباً شجرة ؛ فهل يعني ذلك تضحية بالشئ ؟ ان جان دي فري يقدّر ان ايزوس كان الها غالباً يمكن مقارنته بأودهن السكندنافية^(٢٣) . وفي الحقيقة ، لا يُعرف شيء دقيق في هذا الشأن .

ان المنحوتات والصور الايقونية والنقوش قد اظهرت الاسماء والصور لآلهة اخرى غالوة رومانية . وفي بعض الحالات تم التوصل الى كشف بنيتها والدلالة على وظيفتها الدينية بفضل الميتولوجيا المموهة في تقاليد السلت الجرزيين . إلا انه ، فعلاً بسبب اتجاه محافظ يميز العبقرية الدينية للسلتين ، كانت نتائج التحليل غالباً غير دقيقة . ونذكر بمثال شهير : النقش البارز الوضوح والحامل الاسم سيرنونوس Cernunnos والممثل بشيخ عجوز ، أصلع ، له اذنا وقرون غزال . وطبيعي أن يثار مشهد مصور على حلة غوند يسترروب Gundestrup : شخصية يعلو رأسها قرون أيل وجالسة في وضع سمي بالصدفة (وضع بوذا) وهي تمسك بيدها عقداً ، وباليدي الأخرى افعى لها رأس كبش : وهي محاطة بحيوانات متوحشة وبأيل جميل جدا . وقد وجدت صور مماثلة في بريطانيا العظمى^(٢٤) . ومعلوم ان الايقونة والرمز الديني للأيل هما قديمان جداً . وهناك مشهد منقوش

لفال كامونيكا *val cammonica* يرجع الى القرن الرابع ق.م يمثل الها له قرون أيل وحية ذات قرون . الا انه ، وكما رأينا (ف ه ع) فإن الساحر الكبير أو «رب الحيوانات» في مغارة الأخوة الثلاثة كان ايضا له رأس أيل تعلوه قرون كبيرة جداً . وعليه يمكن تفسير السيرونونوس كإله من غمط (رب الوحوش الكاسرة)^(٢٥).

مع ذلك فإن الرمزية الدينية للأيل معقدة إلى حد كبير جداً . فمن جهة ، وفي منطقة تمتد من عصر ما قبل التاريخ ، من الصين حتى أوروبا الغربية ، فهو بسبب التجديد الدوري لقرونه ، أحد رموز الخلق المتماهي والتجديد . ومن جهة أخرى فإن الأيل كان يعتبر كجد أسطوري للسليتين والجرمن^(٢٧) . وإضافة إلى ذلك كان أحد الرموز الأكثر شهرة للخصب ، وأيضاً حيواناً جنائزياً وقائداً للموتى ، وكان بخاصة الطريدة المفضلة للملوك والأبطال : اماتته في الصيد ، كانت متضامنة رمزيا مع الموت المأساوي للأبطال^(٢٨) . وبالنتيجة ، فإنه من المرجح ان سيرونونوس كان يقوم بوظائف أخرى إلى جانب وظائف (رب الوحوش الكاسرة) . ويكفي التذكير بالمعركة الطويلة والقاسية التي خاضتها الكنيسة ضد التنكر الطقوسي بأيل (cervulo facere) للتحقق من الأهمية الدينية للأيل (الطريدة المفضلة للاسترقراطية العسكرية) في الأوساط الشعبية .

ان مثال سيرونونوس يوضح الصعوبة لتفسير عقدة دينية متعددة القيمة تفسيراً دقيقاً في غياب نصها الاسطوري - الطقوسي المميز . فعند محاولة تحليل الوثائق الأثرية الخاصة بالآلهة النسوية جوهنا بصعوبة ماثلة ، وكل ما يمكن التأكيد عليه هو ان العدد البارز من التماثيل D'EXvoto يقنع بأهميتها . ان الرسوم التشكيلية للماترس والماتروني *des matros et matronae* تبرز خاصيتها كربة للخصب والأمومة (سلة فواكه ، قرن الخصب ، اولاد في الحضن أو على الركبتين الخ .) . وكما كتب كاميل جوليان ، «ربما كانت آلهة مغفلة ، لم يكن لها اسماء ولها مئة من الصفات»^(٢٩) . غير أن النصوص السلتية لأهل الجزر تقدم تحديدات لها دلالاتها . ان أم الآلهة كانت ربة : دانو *Danu* في أيرلندا ، ودون *Don* في بلاد

الغال . واكثر من هذا : لا يمكن ان يكون ملك في ايرلندا (ايرو Eriu) الا بزواجه من الربة الوحيدة التي كانت تحمل ذات الاسم ، وبعبارة اخرى كان يضاف الى السيادة بزواج مختلط hieros gamas مع ربة الأرض . وان هذا السيناريو الاسطوري - الطقوسي يشكل احد النغمات الأكثر استعمالاً والأكثر ثباتاً في الادب الوطني Vermaculaire^(٣٠) .

ومن الواضح ، انه يتعلق بمفارقة من السيناريو الاسطوري - الطقوسي القديم في الشرق الأوسط ، المتضمن الزواج المقدس بين السماء والأرض (أو العاصفة ، أو الشمس) والأرض - الأم ، مشخصة بالملك وبكاهنة .

ان هذا الزواج hiero gamos كان يضمن الخصب للبلاد والثروة للحكم لفترة من الزمن . وان استمرارية الحياة للتراث القديم في ايرلندا قد توضح بطقس التنصيب الملكي ، المؤكد في القرن الثاني عشر : على مرأى من رعيته ، يقترب الملك مع مهرة بيضاء يجري قتلها وطبخها بعدئذ ، ويقسم لحمها من قبل الملك ورجاله^(٣١) . وبعبارات اخرى ، فإن السيادة تجلب بالزواج Herogamos بين الملك والأرض الأم Terra mater تحت شكل فرس . وعلى ذلك ، فإن ربة غالية gauloise ايونا (ريجينيا) ، هي مرسومة على الآثار ، جالسة على حصان أو واقفة امام حصان أو بين مجموعة احصنة . وقد فسرت ايونا كربة أم وعصابية^(٣٢) . وان تابعها الايرلندي رهيانون Rhiannun كان كذلك على علاقة بالخليل^(٣٣) .

وتماما كما في الرسم الايقوني لبريطانيا الكبرى في العصر الروماني ، فإن الأدب الوطني يقدم بتفضيل الربات الامهات المجمعات في ثالوثات . وان اكثرها شهرة الماشا الثلاثة les trois macha المشخصة للربة الوصية للعاصمة اوليستر^(٣٤) .

ولا يمكن الوصول للعرش الا بالنوم مع واحدة من الماشا . وأحياناً تظهر الربة كعجوز حيزبون وتطلب مشاركة النوم مع بطل شاب . غير أن الشاب ما أن يتمدد إلى جانبها حتى تتحول العجوز لفتاة متفردة بجمالها . وبتزويجها منه ،

يحصل البطل على الملك^(٣٥) . وإن الفكرة الرئيسية للأسطورة - الطقسية للعجوز الممسوخة بقبلة ، التي توجد في قصص البريتون للغزال Graal كانت معروفة سابقاً ، في الهند ، في عصر البراهمانا^(٣٦) .

وفي الملحمة ، يوجد للملكة ميدب medb العديد من العشاق ، وهذا ما يعود الى القول بأنها تعود لكل ملوك أيرلندا . غير انه يجب ان نضيف ، ان المرأة في المجتمعات السلتية كانت تتمتع بحرية وتقدير ديني واجتماعي معتبر . ان طقس الكوفاد couvade المؤكد في أوروبا لدى السلتيين والباسك فقط (شعب - ماقبل - هندو اوروبي) ، ابرز الأهمية السحر - دينية للمرأة . فإلى جانب اعراف قديمة (مثل بعض الطقوس الجنائزية ، وميتولوجيا الموت النخ) يدل «الكوفاد» على استمرارية بقاء العناصر الماقبل الهندو - اوروبية - والعائدة على الأرجح الى سكان محليين من عصور النيوليتيك .

أما بالنسبة للربات ، فان وظائفهن المتعددة للألوهية الحاكمة للخصب والحرب والمصير والثروة تأكدت كذلك لدى الربات الجرمنية ، الأمر الذي يشير ، أقله في جزء منه على تراث هندو - اوروبي^(٣٧) . وقد اضيف الى هذا التقليد الديني العائد لما قبل التاريخ الأوربي وما قبل التاريخ السلتي ، أضيف إليه تباعاً التأثيرات من البحر المتوسط الروماني ، وبدقة أكثر ذلك التركيب من العصر الهيليني - والمسيحي . ومن أجل قياس العبقرية الدينية السلتية يجب ان يؤخذ في الحسبان في ذات الوقت الاستمرارية التي حوفظ بها على بعض العناصر الأثرية - وفي المقام الأول العادات والمعتقدات ذات العلاقة مع (الاسرار) الخاصة بالأنوثة ، والقدر والموت والعالم الآخر - واعادة تقييمها المستمر منذ القدم وحتى العصر الماقبل الحديث .

١٧٢ - الكهنة الغاليون وارشادهم الباطني

ان الصفحات المكرسة من قبل جول سيزار للكهنة الغاليين (الدرويد) De bello Gallio ٦ - ٢] تشكل واحدة من المصادر الأكثر أهمية حول الديانة السلتية .

وان هذا البروكونسول يستعمل ، بدون ان يذكره معلومات بوزيدونيوس posidonius (القرن الثاني ق.م) الا انه كذلك كان قد حاز معلومات اخرى .
فالكهنة الغاليون ، كما يقول سيزار ، (يسهرون على الأشياء الالهية ، ويهتمون بالأصاحي العامة والخاصة ؛ وينظمون كل الأشياء المتعلقة بالدين . وان عدداً كبيراً من الشباب يأتون إليهم ليتعلموا ويستفيدوا تقديراً كبيراً)

إن هؤلاء الدرويد (الكهنة) هم الذين «يفصلون في الخلافات ، العامة والخاصة» وكل من لا يقبل قرارهم كان يمنع من الاصحاحي ، الأمر الذي يعادل نوعاً من الموت المدني . إن رئيساً وحيداً يمارس السلطة العليا . «وعند موته اذا كان أحدهم يمثله بفضله فإنه يخلفه : وإذا كان هنالك مجموعة متساوين فإنهم يختصمون على الامارة وأحياناً يجري الاقتراع وأحياناً يتنازعون بالسلاح . في فترة ما من السنة ، يجتمعون في مكان مكرس من بلاد الكارنوت carnutes يعتبرونه مركز الغال» .

ان الدرويد معفون من الخدمة العسكرية ومن الالتزام بدفع الضرائب ، ويأتي الكثيرون لاتباع تعليمهم منجذبين بمكاسب كثيرة . ويقال بأنهم يحفظون هنالك ، عن ظهر قلب ، عدداً كبيراً من الأشعار : وبعضهم يبقى اذن عشرين سنة في مدارسهم . ومن رأيهم ان الديانة ممنوع تعليمها كتابة ، كما يمكن اجراء ذلك في علوم اخرى ، وفي الحسابات العامة والخاصة التي تستعمل فيها الأحرف الهجائية الاغريقية» . ويؤكد سيزار بأن الدرويد اقاموا هذا الاستعمال «لأنهم لم يريدوا نشر مذهبهم في الشعب» ، وأيضاً فإنهم بتهريبهم عن استعمال الكتابة يهمل المتدربون - الدرويد المذاكرة . ان اعتقادهم هو «أن الأرواح لا تفنى أبداً ، ولكنها تمر بعد الموت من جسد لآخر ؛ وهذا ما يبدو لهم بصورة خاصة جدير باثارة الشجاعة وبالغاء الخوف من الموت . انهم يناقشون كذلك كثيراً في أمور النجوم وحركاتها وفي الطبيعة للأشياء ، وقدرة وقوة الآلهة الخالدة وينقلون هذه التأملات للناسئة» .

وقد طبق السلتيون الأضحيات البشرية ، وحسب معلومات بوزيدونيوس المستعملة من قبل ديودور الصقلي [٧ - ٣١٠] ومن قبل سترابون [٦ - ٤] فإنهم قد طبقوها بطرق مختلفة : تضرب الضحية بسيف صغير ويتنبأ بالمستقبل تبعاً لاختلاجاتها وسقوطها ، أو تخرق بسهم ، أو تخوزق . ويقرر سيزار [ب . ح / ٦ - ٦١] ان «المصابين بمرض خطير أو الذين يتعرضون لخطر كبير في المعارك يذبحون ، اضحيات بشرية ، أو يندرون بتقديمها ويرجعون في هذا المشاورة الدرويد» . وقد شرح بعض المثقفين هذه الوقائع كبرهان على بربرية السلت والخاصية البدائية الوحشية والطفولية في آن واحد للاهوت الدرويدي . غير ان الاضاحي البشرية كانت في كل المجتمعات التقليدية تناسب رمزية كوزمولوجية واخرى هي بخاصة قوية ومعقدة ، الأمر الذي يفسر استمراريتها لدى الشعوب الجرمنية الجيت - داس والسلت والرومان (الذين منعوها في سنة ٩٧ ب.م) . وان هذا الطقس الدموي لا يدل مطلقاً على الدونية العقلية ولا القصر الروحي للشعوب التي طبقتها . وعلى سبيل المثال نذكر ان النجادجو داياك لبورنيو Les Ngadju Dayak du Bornéo الذين أقاموا واحدة من اكبر اللاهوتيات تماسكا ورفعة

معروفة في تاريخ الاديان ، كانوا صيادي رؤوس وكالسلت تماماً طبقوا الأضاحي البشرية^(٤١) .

ان كل المصادر تؤكد على الأهمية المعتبرة للدرويد في تعليم الشيبية . ومن المرجح ان التلامذة الذين يجهزون لمنصب الدرويدية والذين كان يتوجب عليهم الدراسة بعمق للميتولوجيا والعلوم ، كانوا يتبعون اثناء عشرين عاماً تعليم ارشادات معلمهم . وان رفض الكتابة (الذي يفسر جهلنا بمذهب الدرويديين) والأهمية المناطة بالذاكرة والنقل الشفاهي للتعليم يمدد التقليد الهندو- اوروبي (كما ذكرنا) . وقد كان التعليم سرىاً لأنه كان باطنياً ، بمعنى انه غير قابل للفهم من غير المتلقين . . وان هذا المفهوم يذكر بباطنية الأوبانيشاد (ف ٨٠٠ ع) والتانتراس Tantras .

اما بالنسبة للاعتقاد بالتقمص metempsychose فإن الايضاح التقدمي من قبل سيزار - مبدأ «هو أنه بصورة خاصة مناسب لاثارة الشجاعة مزيلاً الخوف من الموت» - هو بكل بساطة التفسير العقلي لعقيدة في استمرارية حياة الروح . وكتب لوكين Lucain [فارساليا ١ - ٤٥٠] ان السلت يرون «ان ذات الروح تحكم جسداً في عالم آخر» . ويذكر كل من بومونيوس ميلا pomponius mela [٣ - ٣] وتيماجين Timagéne مؤكدين أن في تعليمات الرويد تعتبر «الأرواح خالدة» . ويقرر ديودور الصقلي [٧ - ٢٨ - ٦] ان «أرواح البشر هي خالدة وترجع في عدد من السنين الى جسد آخر» . وقد تأكدت العقيدة بالتقمص في الأدب الايرلندي^(٤٢) . وبغياب كل دليل مباشر ، يكون من الصعب التحقق فيما اذا كان الوجود التالي للروح يقتضي بالنسبة للدرويد «الخلود» وفي ذات الحين الروح والجسد سواء (كما في الاوبانيشاد) ، او انه كان يتكون في «استمرارية حياة» غير محدودة للروح فحسب .

وبما ان بعض الكتاب القدامي قد اثار في شأن السلت ، النظرية الأورفية - الفيثاغورية للتقمص ، فإن عدداً من العلماء المحدثين استنتج ان الكتاب الاغريق - اللاتين فسروا المعتقدات السلتيه في اللغة الفيثاغورية ، وبعبارة اخرى

انهم اخترعوا عقيدة مجهولة من قبل السلتيين . غير ان هيرودوت في القرن الخامس ق.م شرح بالطريقة ذاتها - أي بتأثير فيثاغورس - عقيدة الجيت des Gètes «بخلود» الروح ، عقيدة ، لم ينكرها هذا المؤرخ اليوناني أصلاً (ف ١٧٩ع) . وبالفعل ، ان الكتاب القدامى استدعوا بحق فيثاغورس لأن مفاهيم الجيت والسلت كانت تذكر بمبدأ أورفي - فيثاغورسي .

وقد وضعت ايضا موضع الشك المعلومات الواردة من سيزار عن الاهتمامات العلمية للدرويد : «... لقد ناقشوا في الكثير عن النجوم وحركاتها وعظمة العالم والأرض» الخ . . ومع ذلك فإن قطعة من التقويم الذي وجد في كولونيا cologne يبرهن عن وجود معارف فلكية متقدمة . وفي الواقع تمكنوا من بناء دورة من ١٩ سنة شمسية معادلة الى ٢٣٥ شهراً قمرياً ، الأمر الذي اجاز التوفيق بين النظامين (الشمسي والقمرى) . وان عدداً من الباحثين قد اعتبر مع ذات الشبهة معلومات سترابون المتعلقة بالمعارف الفلكية للجيتو - داسيس Géto-Daces ولكن ، وكما سنرى (ف ١٧٩ع) فإن الحفريات قد كشفت عن بقايا لمعبدين تقويميين في سارميزيتوزا sarmizecetuzs وفي كوستستي costesti أي في المراكز الاحتفالية للجيتو - داسز .

هذا وان الضغط على الدرويد في عهد الاباطرة اوغست ، وتبير وكلور انما كان يهدف للقضاء على الوطنية الغالية . ومع ذلك ، عندما نقص الضغط الروماني بشكل واضح في القرن الثالث تولدت نهضة فجائية للدين السلتي واستعاد الدرويد سلطتهم . وفي ايرلندا استمر الدرويد في الوجود حتى القرون الوسطى شأنهم في ذلك شأن البنى الدينية الأخرى . وماهو اكثر من ذلك ، ان ابداعية العبقرية الدينية السلتيية ستعرف اوجاً جديداً في الأدب المنتعش بدءاً من القرن السابع حول الابطال المدخلين في الاستقصاء عن الغرال Graal كما سنرى في القسم الأخير من هذا الكتاب .

١٧٣ - يغدرازيل ونشكونية قدامى الجرمن

مع حيازة معلومات اكثر غنى من المعلومات عن السلتين ، فإن مؤرخي الديانة الجرمنية يصرون على صعوبة مشروعهم . ان المصادر هي من طبيعة مختلفة ومن قيمة غير متساوية : قطع اثرية ، كتابات من العصر الروماني (وفي المقام الأول منها جرمانياتاسيت) ، تفصيلات وصفية للمبشرين المسيحيين وبخاصة قصائد السكالوالايزلندية des shaldes islandais المتممة بالكراسة القيمة المقمشة من قبل سنوري ستورلوسون snorri sturluson في القرن الثالث عشر . زد على ذلك ، ففي ايسلندا فقط ، التي اخذت الصبغة المسيحية بوقت متأخر (في سنة ١٠٠٠) قد حوفظ على تقليد شفاهي متماسك بما فيه الكفاية لكي يسمح لنا باعادة تكوين الميتولوجيا والطقوس في خطوطها الكبرى . وهذا ما يعيد القول ، بأنه لا يمكن بدون أدلة اضافية ، اعتبار المعلومات المتعلقة بعقائد المهاجرين النروجيين في ايسلندا ، صالحة لمجمل القبائل الجرمنية .

مع ذلك ، ورغم فراغات كبيرة جداً (أي معلومات حول القوط Coths والبرغوند bergondes) ، ورغم تنافر المعتقدات ، المتحصلة من تأثيرات مختلفة (سلتية ، رومانية شرقية شمال اسيوية مسيحية) والمتحملة من قبل مختلف القبائل اثناء تشتها عبر نصف أوروبا ، لا يمكن الشك بوجود بعض الوحدة الأساسية في ديانة الجرمن . وبدئياً ، ان مجموعة عناصر مميزة للتراث الهندو-اوروبي قابلة لأن يعترف بها في تقاليد عدد من القبائل «بالدرجة الأولى التوزيع الالهى الثلاثي ، الزوج المتناقض والمتم للآلهة الأسياد الأخروية» . اضافة الى ذلك ، فإن اسماء الأيام تدل على أن كل الشعوب الجرمنية كانت تقدس الآلهة الكبرى نفسها . وعندما تبنى الجرمن في القرن الرابع ، اسبوع السبعة أيام ، استبدلوا بأسماء الآلهة الرومانية اسماء الهتهم الخاصة . وهكذا على سبيل المثال الاربعاء mercredi (dies mercuri) أي يوم ميركوري قد ابدل باليوم اودهين - ودان jour d'odhin-wodan الألماني - القديم - العالي woutanestac ، والانكليزي

wednesday ، والنيرلاندي woensday ، والاسكندنافي القديم odhinsdags .
الأمر الذي يثبت أن ميركور قد تطابق مع اله معروف في كل مكان في العالم
الجرمني تحت اسم واحد هو نفسه : odhin wotan .

وقد لوحظ أن آخر مظهر للدين الجرمني قد حكم بالاهتمامات المعطاة
لاسطورة نهاية العالم . والمقصود بذلك ظاهرة عامة ، مؤكدة منذ القرن الثاني
ق.م في الشرق الأدنى وفي ايران وفلسطين والبحر المتوسط ، وبعد قرن من
الزمن في الامبراطورية الرومانية . غير أن ما يميز الديانة الجرمنية ، هو واقعة ان
نهاية العالم قد سبق اعلانها في التشكونية .

والقصة الأكثر اكتبالاً للخلق نقلت من قبل سنوري snorri [جيلفاجينين ،
٤ - ٩] ، وأن منبعها الرئيسي هو قصيدة رائعة ، فوليسبا voluspa أي (نبوءة
فولغا) بمعنى «العرافة» . وهي مؤلفة حوالي نهاية العصر الوثني . وحسب هذه
النبوءة (فقرة ٣) ، لم يكن هنالك في البدء «لا أرض ولا قبة سماوية» وانما «هوة
جبارة»^(٤٣) . وهذه الصورة ، المألوفة في التشكونيات الشرقية ، توجد في
نصوص أخرى^(٤٤) . وقد حدد سنوري بدقة أنه كان يمتد في الشمال اقليم بارد
كثير الضباب ، نيفلهييم Niflheim ، متطابق مع عالم الأموات حيث يسيل نبع
مولد لاحدى عشر نهراً صغيراً ، وفي الجنوب كانت توجد بلاد محترقة ، موزبل
Muspell ، محروسة من العملاق سوسترا sustra (الأسود) . وبنتيجة تلاقي الجليد
والنار ، تولد كائن بشري يميير ymir في الأقليم المتوسط . واثناء نومه ، تولد تحت
ذراعه من عرقه ، رجل وامرأة ، وان احدى رجليه حملت ولداً مع الأخرى . ومن
الجليد الذي ذاب أتى للكائن بقرة ، اودهومبلا Audhumbla ؛ وان هذه البقرة
هي التي غذت يميير من لبنها . وبلعقها الجليد المالح ، أعطته أودهو مبلا شكل
انسان ، بوري Buri . وقد تزوج هذا ابنة جبار فكان له منها ثلاثة أبناء :
اودهين ، وفيلي ، وفي odhin, Vili, et vé وقد قرر هؤلاء الاخوة الثلاثة قتل
يميير ، فابتلع طوفان دم كل الجبابرة ماعدا واحداً انقذ باعجوبة مع زوجته .
وبعدئذ ، جر الأخوة ، يميير الى وسط حفرة كبيرة ، وبتقطيعه انشأوا العالم من

جسده : من لحمه شكلوا الأرض ، ومن عظامه الجبال ، ومن دمه البحر ، ومن شعره الغيوم ، ومن جمجمته السماء .

إن النشكونية المبنية على امانة وتقطيع كائن بشري تذكر بأساطير تيامات (ف ٢١ ع) وبيروشا (ف ٧٣ ع) وبانكو (ب ١٢٩) ، فخلق العالم اذن نتيجة أضحية دموية : هي فكرة دينية قديمة منتشرة بشكل واسع ، وهي عند الجرمن كما عند شعوب أخرى تبرر التضحية البشرية . وفي الواقع إن مثل هذه الأضحية تكرر للعمل الالهي الأولي ، وتضمن تجديد العالم ، واعادة تجديد الحياة ، وتماسك المجتمع .

إن يمير هو خنثى^(٤٥) : حمل لوحده زوجاً بشرياً ، والخنثوية la bisexualite تشكل ، كما علمنا ، التعبير الممتاز عن الكلية . ولقد تدعت فكرة الكلية البدئية لدى الجرمن القدامى بسنن وتقاليد ميتولوجية ، وبحسب هذه التقاليد ان يمير هو جد للآلهة وأوجد كذلك الجبابرة الشيطانية (الذين سيهددون الكون حتى الكارثة النهائية) .

بمتابعة عملهم النشكوني ، يخلق الأخوة الثلاثة النجوم والأجرام السماوية بدءاً من الشهب اللامعة ، ونظموا حركتها بثبيت الدورة اليومية (الليل والنهار) وتتابع الفصول . إن الأرض ، على شكل دائري كانت محاطة من الخارج بالمحيط الكبير ؛ وعلى الجوانب ، أقام الآلهة مسكن الجبابرة . وفي الداخل بنوا ميدهجاره midhgardh (لغوياً «متراً في الوسط») ، عالم البشر ، المحمي بسور مصنوع من اجفان يمير . بمساعدة هونير Hoenir ، الاله الصامت ، وبمساعدة لودهور Lodhur ، الذي نجهل كل شيء عنه ، خلق اودهين odhin أول زوج بشري بدءاً من شجرتين ، اسكار وايمبلا Askr et embla^(٤٦) وجدتا على الشاطئ : هو احياهما ، وهونير قدم لهما العقل ولودهور اعطاهما الحواس والشكل البشري . وهناك اسطورة أخرى تتحدث عن كائنين بشريين متعلقين بالشجرة الكونية بجدرازيل yggdrasill ويعمران العالم . اثناء الشتاء الكبير لرغناروغ Ragnarok (١٧٧ ع) سيجدان ملجأ في جذع ييدرزاييل وسيتغذيان بندي

اغصانها . وحسب سنوري snorri ، ان هذا الزوج الملتجئ الى الشجرة الكونية سيعيش عند خراب العالم وسيعود لسكنى الأرض الجديدة التي ستجدد بعدئذ .

ان الشجرة يجدر ازيل كائنة في وسط رمزي ، وهو يشكل العالم في الوقت نفسه . رأسها يلامس السماء وأغصانها تحتضن العالم ، وأحد جذورها ينغرز في بلاد الموتى (هال) Hel ، والأخرى في منطقة الجبابرة والثالث في عالم البشر^(٤٧) . منذ انبثاقها (أي منذ ان نظم العالم من قبل الآلهة) أصبحت يجدر ازيل مهددة بالدمار ، وأخذ نسر على عاتقه افتراس اوراقها ، وأخذ جذعها بالتلف ، وبدأت الأفعى يندهوغ Nidohog تقرض جذورها . وفي يوم قريب ستتهار يجدر ازيل وسيكون هذا نهاية العالم (راغنا روك Ragnarok) .

وبوضوح ، يتعلق هذا بالصورة المعروفة جداً عن الشجرة الكونية الكائنة في وسط العالم والرابطة للمستويات الكونية الثلاثة : سماء ، أرض ، وجحيم^(٤٨) . وقد اشرنا في عدد من المناسبات الى القدم وإلى الانتشار البارز لهذا الرمز الكوني . وان بعض المفاهيم الشرقية والشرق اسيوية قد أغنت بالفعل صورة واسطورة يجيدرازيل . غير انه يقتضي الإشارة للملامح الجرمنية المميزة : الشجرة - يعني الكون - تعبر بظهورها حتى عن الانحطاط والدمار النهائي ، فالقدر (وردهر urdhr تختبئ في البشر تحت الأرض حيث تنغرز جذور يجدر ازيل ، وبعبارة أخرى في مركز الكون ذاته . وحسب الفوليسبا (فقرة ب) la voluspa ان ربة القدر تحدد المصير لكل كائن حي ، ليس البشر فحسب ، وانما ايضاً الآلهة والجبابرة . ويمكن القول ان يجدر ازيل تجسد القدر النموذجي والشامل للوجود كل طريقة للوجود - العالم ، الآلهة ، الحياة ، البشر - قابلة للفناء ، ومع ذلك قابلة لمعاودة نشأتها في بداية دورة كونية جديدة .

١٧٤ - الأذس والفانس . ادهن ومزاياه (الشامانية)

إن الآلهة بعد أن أقاموا زوج الاجداد في ميدهجارð midghardh بنوا مقرهم الخاص ، ازجارð Asgardh ، دائئاً في مركز العالم وانما في الأعلى^(٤٩) . وقد اعيد

توزيع البانتيون بين مجموعتين الهيئتين : الآدس والفانس les Ases et les Vanes .
وان الأكثر شهرة بين الآدس هم تير Tyr ، اودهن odhin وتهور thorr ، والأولان
يوافقان اقنوحا من إلهين سيدين (في الهند الفيدية ، ميترا وفارونا) ، بينما ان تهور
الاله ذو المطرقة ، والعدو بامتياز للجبابرة ، يذكر بالصفة الأمومية لاندرا . ومن
جهتهم ، فإن الأكثر أهمية بين الفانس - نيجورددر Nijordhr ، فراير Freyr وفريجا
Freyja - متميزون بغناهم وعلاقاتهم بالخصب ، والسرور والسلام . وبتحليلنا
للبنية الاسطورية للحرب بين الرومان والسابين (ف ١٦٢ع) اشرنا سابقا للنزاع
الذي واجه الآزس والفانس . فهذه الحرب الطويلة والقاسية والسجال ، انتهت
بمصالحة نهائية . فالآلهة الرئيسيون الفانس استقروا لدى الآدس واكملوا بالخصب
والثروة التي يتحكمون فيها المزاي الممثلة بالسيادة القانونية ، والسحر والقوة
العسكرية .

ان عدداً من الباحثين قد افرغوا جهدهم لتفسير هذا المشهد الخرافي ،
كتذكّار لنزاع تاريخي بين الممثلين لثقافتين متميزتين ، تتقاسمان معتقدات دينية
مختلفة : المزارعون المحليون (بالنسبة لبعضهم «شعوب الميغاليس») وقاهروهم
«سكان السهوب» أو الغزاة الآريون) . ولكن جورج ديميزيل أظهر ان ذلك يتعلق
بنغمة اسطورية هندوآوروبية أعطيت صفة تاريخية في اقصوصة سنوري^(٥٠) .

بالتأكيد ، ان غزوات اقاليم مسكونة من قبل السكان المزارعين من العصر
الحجري النيوليتك ، واخضاع الوطنيين سكان البلاد من قبل غزاة اقدر
عسكريا ، المتبوع بتركيب وتكافل بين هذين النموذجين من المجتمعات ، بل
جنسين مختلفين ، هي وقائع قد تأكدت بعلم الآثار ، وهي تشكل من جهة أخرى
ظاهرة مميزة لما قبل التاريخ الأوروبي الممتد ، في بعض الأقاليم ، حتى القرون
الوسطى . ولكن النغمة الميتولوجية للحرب بين الآدس والفانس تسبق عملية
الجرمنة ، لأنها تشكل جزءاً لا يتجزأ من التقليد الهندو-أوروبي . ومن الراجح
أن الاسطورة قد استخدمت كنموذج واثبات لعدد من الحروب المحلية ، المنجزة
بالمصالحة بين الخصوم وبتكاملهم في مجتمع عام .

ونضيف ، مع ذلك إلى انه ، اذا كان الأذس الاساسيون - تير ، اودهن تهور - قد حافظوا على بعض الخطوط المميزة لآلهة الوظيفتين الأوليتين ، السيادة والحرب ، فإن صورهم تحملت تغييرات جمة وتقبلت من جهة ، بتوافق مع العبقرية الدينية الجرمنية ، ومن جهة أخرى تحت تماس تأثيرات من البحر المتوسط وشمال آسيا . ان اودهن - ودون الأكثر أهمية من بين الآلهة ، ابوهم وسيدهم ، وقد وضحت مشابهاته مع فيرونا : كلاهما السيدان بامتياز والمعلمان للسحر ؛ انهما «يربطان» ويشلان خصومهما ، إنهما اليقان للاضاحي البشرية^(٥١) . ولكننا سنرى أن الفوارق بينهما ليست أقل تميزاً .

في مقطع من قصيدة هافامال Havamal («كلمات الرفيع الشأن» فقرة ١٣٩ - ١٤٢) يروي أودهن كيف حصل على الرونات les runes ، رمز الحكمة والقوة السحرية ، معلق لتسع ليال على الشجرة يجدرزيل ، «مجروح بالحربة ومضحى لاودهن ، أنا ذاتي مضحى لذاتي ، دون غذاء ولا شراب ، هاهي الرونات les runnes ، تستجيب لدعوتي ، وتتكشف» . وهكذا حصل على العلم المستور وعلى هبة الشعر . انه على التأكيد ، يتعلق بطقس للمسارة من بنية ماقبل الشامانية . اودهن يبقى معلقاً بالشجرة الكونية^(٥٢) ؛ يجد رازيل تعني من جهة أخرى «الحصان (درازيل) لـ يوج d'yog» ، أحد أسماء اودهن . ان المشنقة تدعى «حصان» المشنوق ومعلوم ان الضحايا المضحى بها لأودهن كانت تعلق بالأشجار . ويجرحه نفسه بالحربة ممنوعاً من الماء والغذاء ، يتحمل الاله الموت الطقوسي ويكتسب الحكمة الخفية من نموذج مساري . ان المظهر الشاماني لأودهن مؤكد بحصانه ذي الثمانية مقادم ، سليينير sleipnir ، وبالغرايين اللذين ينيثانه بكل مايجري في العالم ، وتماثا كالشامانيين ، فإن اودهن يستطيع تغيير شكله ويمكنه ارسال روحه تحت شكل حيوانات ، إنه يفتش بالقرب من الأموات ، وانه يحصل ، على المعارف السرية ، ويعلن في قصيدة هافامال (فقرة ١٥٨) انه يعرف سحراً يمكن له ان يجبر مشنوقاً للنزول عن المشنقة ويتعامل معه ، انه خبير في فن السيدر seidhr ، تقنيته سرية من نمط شاماني^(٥٣) .

وثمة أساطير أخرى تظهر الحيل التي يرجع إليها اودهن والشمّن الذي يقبل دفعه بهدف الحصول على الحكمة ، وكلية العلم والالهام الشعري . ان جباراً ، mimir كان مشهوراً بعلمه السري ، فقطع الآلهة رأسه وارسلوه لأودهن . وهذا حافظ عليه بمساعدة نباتات ، ومنذئذ كان يشاور رأس الجبار في كل المرات التي يريد فيها اكتشاف بعض الأسرار^(٥٤) وحسب سنوري [جيلفاجينين ٨] ان mimir كان الحارس لنوع الحكمة على قاعدة يجدر ازيل . وإن أودهن لم يحصل على حق الشرب إلا بعد أن ضحى بعينه ، وإخفائها في النبع [فوليسبا فقرة ٢٥] .

وثمة أسطورة هامة تحكي قصة أصل (شراب الشعر والحكمة) : في الفترة التي تحقق فيها السلام بين الفانس والأدس ، بصقت الآلهة جميعها في قدر ، ومن هذه البصقة الاحتفالية انبعث كائن ذي حكمة فوق المعتاد سمى كفازير kvasir^(٥٥) . وقد قتله قزمان ، ومزجا دمه بالعسل وهكذا صنعوا نبيذ العسل Hydromel وان من يشربه يصبح شاعراً أو عالماً . وقد اخبىء الشراب في العالم الآخر وفي مكان يصعب جدا الوصول إليه ، ولكن اودهن يتوصل للاستيلاء عليه ، ومنذئذ أصبح من الممكن الحصول عليه من قبل الآلهة . إن الإلهام الشعري معيّن أو معرف بالسكالديس les scaldes «كأس ايج» «نبيذ عسل ايج» ولكن ايضا «نبيذ عسل الأقزام» ، و «بدم كفازير» الخ^(٥٦) . وباختصار : على اثر تلقيه (مسارته) والتي تسمح له بالحصول على الرونات les runes وتضحيته بعينه (التي اعطته الحق بالشرب من بئر mimir) وسرقه نبيذ العسل ، يصبح اودهن السيد الغير منازع بالحكمة وكل العلوم الخفية . انه في آن واحد إله الشعراء والحكماء ، واله الوجديين والمحاربين .

١٧٥ - الحرب - الوجد والموت

خلفاً لفيرونا ، فإن اودهين - ووداين هو إله الحرب : لأنه كما كتب ديمزل «في الايديولوجيا والممارسات الجرمنية ، اجتاحت الحرب كل شيء وكل لون»

[الهة ص ٦٥]. غير انه في المجتمعات التقليدية ، وبخاصة لدى الجرمن القدامي ، تشكل الحرب طقساً مبرراً بلاهوت . فيوجد بدنيا التمثيل لمعركة حرية بتضحية : المنتصر كالضحية يقدم للاله مقدمة دموية . وبالنتيجة ، فإن الموت البطولي يصبح تجربة دينية متميزة . وازضافة لذلك ، ان الطبيعة الوجدية للموت تقرب المحارب من شاعر ملهم باكثر مما تقربه من شامان ، ومن نبي وحكيم - عراف . وبفضل تمجيد الحرب ، والنشوة والموت اكتسب اودهن - ودان صفته المميزة .

ان الاسم وودان Wodan مشتق من المصطلح Wut ووت ، الذي يعني لغويا (الرعب) وهذا يتعلق بالتجربة المميزة للمحاربين الشباب : حولت انسانيتهم في مخرج من الهيجان العنيف والرعب ، ومثلتهم بأكلة لحوم مسعورة . وحسب الانجليغا - ساغا l'ynghlinga- saga [فصل ٦] ، ان رفاق اودهن «ذهبوا بدون دروع» متوحشين كالكلاب أو الذئاب ، يعضون تروسهم وكانوا اقوياء كدبية وثيران . لقد ذبحوا الرجال ، ولا النار ولا الفولاذ ، لم يستطيعا شيئاً ضدهم . ولقد سمي هذا غضب البيرسكير des berseker (لغة . «المحاربون بغطاء ، سركر sercer دب») . وقد عرفوا ايضاً تحت الاسم اولف هيدهنر d'ulfhedhmar «رجل بجلد ذئب» .

يصبح بيرسركر berserke على إثر معركة تلقينية . وهكذا ، لدى الشاتي les chatti كما يكتب تاسيت [جرمانيا ، ٣١] ، فإن طالب الخدمة لا يقص شعره ولا يخلق ذقنه الا بعد ان يقتل عدواً . ولدى التيفالي les Teifali ، يتوجب على الشاب ان يقتل خنزيراً برياً أو دباً ، ولدى الهيرولي les Heruli ، يتوجب عليه ان يقاتل بدون سلاح^(٥٧) . وعبر هذه التجارب ، فإن طالب الخدمة يتحقق من طريقة تكونه حيواناً كاسراً ، ويصبح محارباً شرساً في المقياس الذي يسلك فيه كأكل لحوم . ان العقائد في الليكانتروبي ly kan thropie المتحصلة بارتداء جلد

* ly dan thropie = جنون يجعل المريض يتخيل انه ذئب .

ذئب شعائريا ، أصبحت شعبية الى حد كبير في القرون الوسطى وفي الأقاليم الشمالية امتدت حتى القرن التاسع عشر .

إن إله الحرب أودين - وودين هو أيضا اله الموتى .. إنه يحمي الأبطال الكبار بوسائل سحرية ، ولكنه ينتهي إلى خيانة واغتيال من يحميهم . وتفسير هذا التلاؤم الغريب والمتضاد يبدو انه ضروري ليجمع حوله المحاربين الأكثر شراسة بهدف المعركة الآخروية لراغناروك Rágnarak (نهاية العالم) وفي الواقع ، ان المحاربين المرموقين ، الساقطين على ارض المعركة ، كانوا يقادون من الفالكيري Les Valkries الى القصر السماوي فالهالا Valhalla^(٥٨) وكان أودين يستقبلهم ، ثم يمضون أيامهم متحاربين ، متهيثين من أجل المعركة الحاسمة .

ولا يمكن لأودهن - اودان ان يكون إلهام مفضلاً من قبل السكان المزارعين لأنه حامي المانريوند des mannerbunde الذين هم كل جماعة ذات بنية وجدية وعسكرية . كانت ترعب القرى . إن عبادته ، المتطلبة اضحيات بشرية بطريقة الشنق ، كان يحتفل بها بصورة خاصة من قبل عائلات الملوك ، والرؤساء العسكريين وفي محيطهم . وقد ابرزت مع ذلك عدة القاب مشتملة الكلمة أو دهن ، وحتى اسماء مؤلفة من الفاظ دالة على «حقل» «برية» ، الأمر الذي لا يثبت البنية الزراعية لأودهن وإنما خاصته التسلطية ، ونزعه لتملك الوظائف والصفات العائدة لألهة أخرى .

إن الدور الرئيسي الذي لعبه اودين - وودهن في الحياة الدينية للجرمن يفسر بالمزايا المتعددة للسيادة السحرية . فأودهن هو المنشئ الأساسي للخلقة في العالم ، الآلهة والبشر . (وشخصيات الهية أخرى مغالين في الأزمنة الاسطورية للبدايات ، لم تحتفظ الذاكرة الجماعية سوى باسمائهم) . وقد كان أيضا يدعى للعب الدور الأساسي في المعركة النهائية للراغناروك (نهاية العالم) . ان صفته كاله أعلى وفي ذات الوقت اله الحرب والموت ، تجعل الخاصية المقدسة للملكية مفهومة ، كذلك التقييم الديني للموت على ساح المعارك الذي يميز ثقافة العصر الوسيط الجرمانى الأعلى (.. ما سيأتي في الجزء الثالث) .

ان الأول بين الأزس ، تير(تيواز* Tiwaz ، زيو Ziu) هو أكثر شحوباً بكثير ، أصولياً كان الها أعلى^(٥٩) ، لأن أحد أسماء الآلهة ، تيوار Tiwar هو جمع تير Tyr . بما أن الترجمة الرومانية كانت ماثلة بمارس mars ، فإنه ، على العموم قد صنف بين آلهة الحرب . وفي الواقع ، ان تير يمثل مظهراً عسكرياً متطوراً الى حد ما ، ولكن ايجاءه الأصولي «اله قاضي» (عمائل لميترا) هو ايضا شفاف . ان له علاقات عضوية مع الشيغ le thing أي مع جمعيات الشعب التي كانت تحسم الدعاوى . صحيح ان الجمعيات في ازمة السلم تذكر بأزمة الحرب ، لأنها تجمع مسلحين ، وكانت المقررات ترم بتحريك الرمح أو الفأس في الهواء ، أو بضرب الخربة على الترس^(٦٠) .

إن المشهد الأسطوري الأكثر أهمية ، والذي يميز ايجاء (تير) كان له محله في بدايات الأزمنة . كانت الآلهة تعلم بأن الذئب فينرير Fenrir ، الذي حملت به جبارة من أعمال لوكي de Loki ، يجب أن يفترسها . وبإقناعه أن ذلك يتعلق

بلعبة ، نجحت بربطه بحبل سحري ، ناعم لدرجة أنه غير مرئي وقد قبل الذئب ، المغرور به ، اللعبة شريطة أن يضع أحد الآلهة يده في شدقه ، كرهن على انه لا يراد به شر . وتير وحده هو الذي تجاسر على اجراء هذه الحركة ، وفور شعور الذئب بأنه لا يستطيع أن يفلت ، قطع له يده [جيلفا جيني فصل ١٣ - ٢١] . ويلاحظ ديميزيل بحق أن مثل هذه الحركة ، ضرورية جداً وقد كانت من أجل انقاذ البانتيون ، وتشكل انتهاكاً لعهد ، وبالتالي ، تدل على انحطاط الآله الأعلى القاضي^(٦١) .

وان تهور Thorr (دونار Donar) كان واحداً من الآلهة الأكثر شعبية . وان اسمه يعني الرعد وسلاحه المطرقة مجولنير mjollnir صورة اسطورية عن الصاعقة ، المماثلة لفاجرا Vajra اندرا (ف ٦٨٠ ع) . ان لحيته الحمراء وشهيته

الخرافية تقربه من بطل فيدي . وتهور هو المدافع عن الأرض ومقرها الإلهي . وتظهره عدة حكايات مواجهها للجبابرة ومبيداً لهم بمطرقته^(٣٠) . وان خصمه الرئيسي هو الأفعى الكونية جورنولجان gornungan التي تلف العالم وستهدد الآلهة في المعركة النهائية راغنورك ragneork . وكثير من النصوص وبعض الرسوم تظهرها ساحبة التنين من البحر .

وهناك صور متعددة لتهور تمثله دوماً مع مطرقته وكانت توجد في الكثير من المعابد . وتتكلم الشهود لهذه الصور أكثر من صور الآلهة الأخرى ، بصفته سيد الصواعق ، كان تهور شعبياً بين المزارعين ، مع انه لم يكن لها زراعياً . ولكنه كان يضمن المحاصيل ويحمي القرى ضد الشياطين . وفي وظيفته كاله محارب أبدل بأودهين .

إن الميل الجنسي erotique المميز (لاندر) يمكن حل رموزه في الدور الطقوسي لمطربة بمناسبة الزيجات . وقد لوحظ اعطاء الصفة الفولكلورية لبعض القصص الميثولوجية ، مبرزة تهور ، والمطربة والجبابرة ، وعلى سبيل المثال تنكر تهور بخطية ، بهدف خداع الجبار الذي كان سرق المطربة . إن دلالة الطقوس الغامضة غدت منسية ، وهذه القصص الميثولوجية استمرت في الحياة بفضل صفتها القصصية . وان عمليات مماثلة تفسر «الأصل» لكثير من القصص الأدبية العديدة .

أما بالدر Baldr فإنه بطهارته ونبله ، وبمصيروه المأساوي هو الأكثر أهمية من بين الآلهة إنه ابن اودهين والربة فريج Frigg ، وهو ، كما كتب سنوري «الأفضل والكل يشني عليه . انه جميل في مظهره ومشرق يشع بالنور . وهو الأكثر حكمة من بين الأرض والأكثر كياسة عند التكلم ، والأكثر رحمة» [فصل ٢ جيلفا جينين] . لا يعرف سوى القليل حول عبادته ، ولكنه معروف بأنه كان محبوباً بشكل عام . ومع ذلك فإن بالدر بموته قد كشف أهميته في مأساة العالم . وان أسطوره هي فضلاً عن ذلك الأكثر إثارة من كل الميثولوجيا الجرمنية .

وحسب ترجمة سنوري ، كان لبالدر أحلام مشؤومة ، وقد قررت الآلهة

أن تجعله معصوماً . وقد جمعت والدته الأيامين من كل الأشياء في العالم أن لا توقع به شراً . ثم تجمع الأرزس على محلة يتنغ thing (جمعية الشعب) حول بالدر ، وأخذوا يتسلون بضربه بالحراش ويقذف كل نوع من المقذوفات . «وعندما رأى لوكي هذا انزعج» . فذهب ليجد فريج Frigg تحت ملامح امرأة وسأها فيما اذا كانت كل الكائنات قد حلفت أن تحفظ بالدر .

وأجابت فريج : «يوجد نبتة صغيرة من الغابة تسمى مستيتيم mistiteam نبتة من دبق ، وتبدو لي ضعيفة جداً لأطلب يمينها» . فاقتطعها لوكي وذهب الى التينغ . وكان هنالك هودهر Hodhr ، شقين بالدر ، وهو كائن أعمى ، يقف في الورا ، ولكن لوكي أعطاه غصن النبتة وقال له : «افعل مثل الآخرين ، اضربه ، سأدلك على الاتجاه ، حيث يوجد» . ورمى هودهر المقاد من قبل لوكي ، رمى نبتة الدبق على شقيقه . «فاخترق المقذوف بالدر الذي سقط ميتا على الأرض . وقد كان هذا اكبر شقاء يمكن ان يحصل لدى الآلهة ولدى البشر» . ومع ذلك ولأنهم كانوا في ركن مقدس ، لم يستطع أحد معاقبة لوكي [جيلفا جينين فصل ٣٣ - ٣٥] .

«إن هذه الدراما ، كما يستخلص من البنية نفسها للفوليسبا voluspa ، هي المفتاح لقبة تاريخ العالم : بها ، أصبح قصر العمر الحالي دون علاج . بالتأكيد ان طيبة وحنان بالدر كانا حتى ذلك الحين غير فعالين ، لأنه ، بنوع من سوء الحظ ، «أي واحد من أحكامه لم يؤخذ به ولم يتحقق» ، على الأقل وجد ، وهذا الوجود كان احتجاجاً وتعزية» (٦٣) .

ان بالدر ، الذي لم يسقط على أرض معركة ، لم يتوجه صوب فاهالا valhalla وإنما صوب مقاطعة هيل Hel . وللرسول المبعوث من قبل أودهن ، ليطلب إلى هل تحرير بالدر ، أجابت انها ستحرره بشرط ان «كل الأشياء في العالم» تندب . وبإعلام من الآلهة ، ندب البشر والحيوانات والحجارة والأشجار جميعها . وان ساحرة وحيدة رفضت ندب بالدر ، و «يفترض ان هذا كان لوكي» . أخيراً ، يترصد تهور لوكي وتقيده الآلهة الى حجر . ومن فوقه تعلق

أفعى سامة تدع السم يسقط على وجهه . وإن زوجته ، كما يكتب سنوري ، هي بالقرب منه وتمسك حوضاً تحت السائل السام . وعندما يمتلئ الحوض ، تذهب لافراغه ، ولكنه في هذه الفترة يتلقى السم على وجهه ، فيتهالك وعندئذ ارتجت الأرض . مع ذلك فإن لوكي سيتوصل لأن يتحرر في فترة الراغناروك ragnarok في فجر نهاية العالم .

١٧٧ - الآلهة فانس - لوكي - نهاية العالم

إن الفانس كلهم ، بقليل أو كثير على علاقة مباشرة بالخصوبة والسلام والثروة . ونجورد Ngordh الأكثر قدماً من بينهم تزوج من شقيقته وولد منها اولاداً التوأمين فري وفريجا . وبما أن الجرمن القدامى كانوا يمجّتون الزواج بالمحارم ، فإن هذا التقليد الاسطوري يمكن تفسيره إما كعكس لاخلق السكان الأصليين^(٦٢) ما قبل الهندو أوروبيين ، واما كمشير للخاصية التهتكية الخاصة بآلهة الخصب ، وبخاصة الخصب الزراعي . ان تاسيت في كتابه [جرمانيا - ٤٠] يتكلم عن الربة نيرسس Nerthus أي الأرض الأم terre- mère ، وهذا هو ذات الاسم لـ نجورده Njordh . والربة كانت تطوف عبر القبائل في عربة تجرها بقرة ، وكان يحتفل بعبادتها في غابة مقدسة في جزيرة المحيط - ويضيف المؤرخ الروماني « ان هذه هي الفترة الوحيدة التي كان السلام والهدوء يعرفان ويتذوقان » . ان العربة وتمثال الربة كانا يغرقان بعدئذ ، وكان العبيد الذين يتمون هذه الشعيرة يغرقون أيضاً في ذات البحيرة . ويبدو أن قصة تاسيت قد تأثرت على الأرجح بما كان يعرف من شعيرة سيبييل في روما ، ومع ذلك فإن تاريخاً محفوظاً، ملحمة الملك اولاف olaf يؤكد وجود هذا النوع من العبادة^(٦٥) .

وفي المظهر الأخير من الوثنية السكاندينافية استعويض عن نجورده بفراير Freyr . وصورة هذا في معبد اوبسالا كانت قضيبية ، وتتضمن عبادته العديد من الحركات التهتكية والاضحية البشرية . ولكن ميثولوجيته لا جدوى فيها . أما بالنسبة إلى فريجا Fryja ، تماماً مثل فريج Frigg (friyr) « والتي لم يكن اسمها على

مايظن سوى لقب اضافي - فقد كانت بامتياز ربة الحب والانسال ، وحسب سنوري ، كانت الالهة الوحيدة التي مازالت محترمة من قبل الشعب عندما يرقب عمله ، وان العدد الأكبر من الأسماء الموقعة المحتوية لاسم فريجا تؤكد هذا الرأي . ويضيف سنوري بأن فريجا كانت أصوليا راهبة للفانس وكانت أول من علم الأزس التقنية الالهية لسيدهر seidher وكانت لها قدرة الاتصال مع العالم الآخر ، كما كانت تستطيع ان تتخذ شكل طائر .

وان لوكي هو اله غامض ومعقد ، والإشتقاق اللغوي لاسمه غير يقيني ، وهو لم يتلق عبادة ولم يكرس له معابد . ومع انه نفسه كان آدس ، كان يسعى لاحاق الضرر بالآلهة وسيحارب ضدهم في نهاية العالم ، وهو الذي سيقتل هيمدللر Heimdallr . ان سلوكه محير ، فمن جهة ، هو رفيق الآلهة^(٦٧) ويجب مصارعة اعدائهم ، الجبابرة ، وقد صنع عن طريق الاقزام بعض الموضوعات السحرية اشياء حقيقية تابعة للآلهة (الخاتم دروينين Draupnin لأودهن ، والمطرقة لتهور الخ) .

ومن جهة اخرى ، فهو خبيث ، لا أخلاقي ومجرم : فهو مدبر اغتيال بالدر ، ويفتخر بذلك . ان طبيعته الشيطانية قد تأكدت بذريته : الذئب فنرير fenrir والافعى الكبيرة هما ونداه ، وهبل Hel ، رئيسة البلاد الكثيرة حيث يذهب الموتى الذين ليس لهم حق بالاقامة في القالها للاهي ابنته .

ان الاساطير كثيرة جداً حول لوكي ، ولكنها غالباً ماتشابه الحكايات الشعبية والتمثيلات المضحكة (الهرجات) farees . فهو يتباهى بغزواته : وقد انجب زوجة تير Tyr ولداً ، وأخذ مكان تهور قرب زوجته الخ . . انه يلعب دوراً في كافة الهرجات والقصص المشيرة للآلهة والجبابرة . وهناك قصيدة شهيرة ومثيرة لوكازنيا La Kasenna ، تحكي كيف أن لوكي بدخوله الى القاعدة التي كان يعبد فيها الآلهة ، قد شتمهم بطريقة وقحة جداً . ولم يوقفه سوى ظهور تهور الذي وضع حداً لشتائمه .

ومنذ أكثر من قرن ، والعلماء يفسرون تباعا (لوكي) كاله للنار ، والرعد ، والموت ، انعكاساً للشيطان المسيحي أو الى بطل محضراً ، ويمكن مقارنته ببروميثية^(٦٨) . وفي سنة ١٩٣٣ قرّبه جان دي فري من تريكستر Tri eh,ster ، الشخصية المتناقضة المميزة في الميثولوجيات الشمال اميركية . وطرح جورج دوميزيل تفسيراً أكثر قبولاً لأنه أخذ في الحسبان في آن واحد لوكي وهودهر وبالدر ونهاية العالم .

ان الطبيعة المخادعة للوكي ، خبثه وحضوره بين خصوم الآلهة اثناء المعركة الأخرى جعلت منه المماثل للشخصية التعيسة لـ ماهابهاراتا ، ودوريودهانا ، التجسيد بامتياز لشيطان عصرنا (ف ١٩١ ع) . وحسب دوميزيل ، ان السعة والانظامية للتنسيق بين الماهابهاراتا والايدا d'Edda تبرهن عن وجود اسطورية اخروية واسعة ، راوية للعلاقات بين الخير والشر ، وخراب العالم ، اسطورة سبق تشكيلها قبل شتات الشعوب الهندو-أوروبية^(٦٩) .

وكما لاحظنا (ف ١٧٣ع) في الفترة الأخيرة من الوثنية كان الجرمن مهتمين جداً بالاخروية . ونهاية العالم كان تشكل جزءاً لا يتجزأ من علم نشأة الكون ، وكما في الهند ، وفي ايران ، وفي اسرائيل ، كان يعرف السيناريو والممثلون الرئيسيون نهاية العالم l'apocalypse ، وان التفصيلات الأكثر كمالاً والأكثر مأساوية قد قدمت بقصيدة فوليسيه volupsé وبالشرح المسهب لسنوري . وتوجد نماذج او كليشيهات معروفة جداً بكل الاداب المتعلقة بنهاية العالم : الاخلاق تنحدر وتزول ، البشر يتقاتلون ، الأرض تهتز ، الشمس تظلم ، النجوم تتساقط ، الغيلان المفلتة من اصفادها تتصارع على الارض ؛ الافعى الكبير يعوم من المحيط ، مثيراً طوفانات كارثية . غير انه يوجد ايضا تفصيلات اكثر تخصصاً : شتاء طويل من ثلاث سنوات (fimbuluder) ؛ قوم رحل من الجبابرة سيصلون في قارب مبني من أظافر الموتى ، وغيرهم ، تحت قيادة سورتر surtr ، سيتقدمون على الأرض ويتسلقون قوس قزح ليهاجموا ويخربوا أسجارد Asgardl مقر الآلهة . وأخيراً يتلاقى جيش الآلهة والابطال وجيش الغيلان والجبابرة في سهل واسع من أجل المعركة الحاسمة . وكل واحد من الآلهة ينقض على خصمه . وتهور يواجه

الأفعى الكونية وصرعها ولكنه يسقط فوراً مسحوقاً بسمها . واودھين يفترس من قبل فنرير Fenrir ، وابنه الشاب ، فيدار vidar يصرع الذئب ، ولكنه يموت ، وبعد قليل من الوقت يهاجم هيمادلر Heimadallr لوكي ويفني أحدهما الآخر ، وفي الواقع ان كل الآلهة وكل خصومهم يسقطون في هذه المعركة الأخروية باستثناء سورتر surtr ؛ فهذا الناجي الأخير يشعل الحريق الكونية - فيزول كل أثر للحياة ، وأخيراً تبتلع الأرض برمتها من قبل المحيط وتنهال السماء .

ومع ذلك ، ليست هذه هي النهاية ، فإن ارضاً جديدة ستنبثق خضراء جميلة ، خصبة كما لم تكن فيما سبق ، مطهرة من كل الآلام . وسيعود ابناء الآلهة الموتى الى مقرهم l'Argardh ، وبالدرو وهودھري سيخرجان من الجحيم متصالحين . وشمس جديدة اكثر اشراقاً من السابقة ستأخذ مسيرتها في السماء . والزوج البشري الملتجئ يجدرازيل سيصبح الأصل لبشرية جديدة^(٧٠) . وقد ظن بعض الكتاب ان اسطورة الراغناروك rugnarok يمكن مماهااتها بمختلف التأثيرات الشرقية (ايرانية مسيحية ، مانوية الخ) ولكن ديميزيل ابرز ان ذلك يتعلق بترجمة اسكندنافية لاسطورة اخروية هندو- اوروبية ؛ وان أحداث التأثيرات الخارجية لم تفعل سوى اضافة صورة اكثر تزويقاً وتفصيلات مثيرة للعواطف .

ان الديانة الجرمنية ، ببحثها أو بالحكم عليها تبعاً للمقاطع وال فقرات المتناثرة المحفوظة كانت واحدة من اكثر الديانات تعقيداً أو أكثرها أصولية في اوروبا . وان الأمر الذي يصدم بدياً ، هو قابليتها لانحاء وتجديد التراث الهندو- اوروبي متمثلة العديد من الأفكار والتقنيات الدينية الدخيلة أو الطارئة ، من أصول متوسطة (البحر المتوسط) وشرقية أو هندو- اوروبية أو شمال اسيوية . وقد لاحظنا عملية مشابهة في التركيب الهندي (ف ١٣٠ع) وفي تشكيل الدين الروماني (ف ١٦١ع) . غير ان الابداعية الدينية لدى الجرمن لم يشلها اعتناق المسيحية ، إن واحدة من أجمل القصائد الملحمية بيوولف Beowulf المؤلفة في انكلترا في القرن الثامن تمثل الميثولوجيا البطولية الأكثر تكاملاً ، وبطريقة اكثر عمقاً ، من المؤلفات المماثلة القارية ، وفعلاً بفضل تأثير الافكار المسيحية^(٧١) . وان واحدة من اكثر الأوصاف انطباعية عن فناء العالم ragnarok قد نقشت على

صليب من حجر في جوسفورت Gosforth (غمبرلاند) ، وعلى الوجه الآخر من الأثر صورت عملية الصليب^(٧٢) . وفي الواقع ، ان بعض الابداعات الدينية الجرمنية تتفتح خلال القرون الوسطى العليا ، على اثر التكافل ، أو بالمعارضة ، مع المسيحية . ان المزية الدينية للملكية القروسطية مشتق في آخر المطاف من المفهوم القديم للجرمن والقاتل بأن الملك هو الممثل للأجداد الإلهيين : (قوة الملك) ترتبط بقوة مقدسة مما فوق الأرض والتي هي في آن واحد الأساس والضمان للنظام الشامل^(٧٣) أما بالنسبة للميتولوجيا البطولية ، فإنها تتمدد ، مغتنية ومعادة التقسيم ، في مؤسسة الفروسية وفي خرافات القديس جرجس (الخضر) والسير جاهاد أو بيرسفال .

١٧٨ - التراسيون (كبار مجهولون) في التاريخ

إن أقدم ثقافة تراسية trace تبدو كتركيب لموضوع هام من عصر البرونز واسهام الشعوب النصف بدوية القادمة من اوكرانيا .
وان العرقية التكوينية l'ethnogenèse للتراس Thraces تستكمل في اقليم واسع ، بين الدينيستر ، والكاربات الشمالية والبلقان . ونحو نهاية القرن الثامن ، أدخلت غزوات السيمريين بعض العناصر القوقازية في الفن وفي التسليح . ومنذ القرن الخامس أكد هيرودوت في كتاباته ان التراس كان الشعب الأكثر عدداً بعد الهنود . ولكن دورهم في التاريخ السياسي قد انحى . وقد كانت مملكة الأودريس des odryses «في وادي ماريستا» على درجة كافية من القوة لمهاجمة المقدونيين في ٤٢٩ ق.م وبعد أقل من نصف قرن اضاعت استقلالها تحت حكم فيليب الثاني . واكمل الاسكندر الكبير السياسة التوسعية لوالده : في سنة ٣٣٥ ق.م اجتاز الدانوب بهدف غزو واخضاع الجيتو - داس les Géo-Dace . ولكن فشل الحملة سيسمح لهذه القبائل التراسية بالبقاء مستقلة وان تعدل تنظيماتها الوطنية . في حين ان التراس الشماليون اندمجوا نهائيا في فلك الهيلينية ، ولم تصبح الداسي la Dacie مقاطعة رومانية الا في سنة ١٠٧ ب.م .

وكذلك فإن مصيراً معاكساً يبدو أنه قد لاحق الابداعات الدينية للتراسي وللجيت - داسس ، فاعترف الاغريقون باكراً بأصولية وقوة التدين التراسي . وان تقاليد متنوعة قد أقلمت في تراس (أو في فريجيا) أصل الحركة الديونيزيسية (ف ١٢٢ ع) وقسماً كبيراً من الميثولوجيا الأورفية (ف ١٨٠ ع) . وقد تكلم سقراط في الشارميد charmide (٢ ١٥٦) باعجاب عن أطباء (الملك التراس ذالموكسي) الذي كان مذهبه وممارسته أعلى مما هي لدى الأطباء الاغريق . ولكنه ، وخلافاً لبعض المعلومات القيمة ، الواصلة عن طريق هيرودوت حول السيناريو الاسطوري - الطقوسي لزاموكسي ، فإن المعلومات حول الديانات التراسية والتراس - جيتيه هي غير وافرة وهي تقريبية . صحيح ، وبخاصة في العصر الامبراطوري الروماني ، ان الآثار الدينية وافرة ، مع ذلك ، وبغياب الأدلة الخطية ، فإن تفسيرها غير يقين وموقت . وتما كما هو لدى السلت ، فإن الاكليروس والرهبان التراسيين والجيتو - داس كانوا يتنكرون للكتابة . وان القليل الذي نعلمه حول الميثولوجيا ، واللاهوت والشعائر ، قد نقل اليها عن طريق الكتاب الاغريق واللاتين ، عبر شروحاتهم الاغريقية واللاتينية ، واذا كان هيرودوت لم يسجل بعض المحادثات الاغريقية من الهيليسبونت Hélespont فإن السيناريو الاسطوري الطقوسي لزاموكسي وحتى اسم الجيبيليزيس Gébéléizis قد جرى تجاهله . وكما هو لدى السلاف والبلطيق ، لابل لدى الجرمن القدامى وأخلاف السلتيين ، فمن المؤكد ان التراث الديني للتراسيين قد حوفظ عليه ، مع بعض التعديلات ، التي لا مفر منها في العادات الشعبية وفي فولكلور الشعوب البلقانية والرومانية . ولكن تحليل التقاليد الفولكلورية الأوروبية في منظور التاريخ العام للأديان مازال في بداياته .

وحسب هيرودوت [٧ - ٧] ان التراسيين كانوا يعبدون «آريس ، ديونيزوس وأرتيمس» مع ذلك ، فإن ملوكهم كانوا يجبلون (هرمس) الذي كانوا يعتقدون بتحدرهم منه . وبدءاً من هذه المعلومات المختصرة ، والتي غدت ايضاً اكثر غموضاً بالشرح الاغريقي ، فقد جرت محاولات لاعادة تركيب البانتيون الأصلي للتراسيين . فمنذ هومر [الليادة ١٣ - ٣٠١ الخ] حتى فيرجيل [الانبياء

٣ - ٥٧ - ٣] ، أقلم التقليد في تراس وطن آريس Arès ، اله الحرب . ومن جهة أخرى فإن التراسيين كانوا مشهورين بفضائلهم الحربية وعدم مبالاتهم تجاه الموت ، وبالنتيجة يمكن قبول ان إلهاً من نوع (آريس) كان الرئيس لمجمع آلهتهم . مع ذلك ، رأينا (ف ١٧٦ ع) ، الاله القديم السماوي للجرمن تيواز Tiwaz وقد تمثل من قبل الرومان بمارس . وعليه يكون من الممكن اذن ان آريس التراسي كان أصلاً الها سماويا وأصبح الها للعاصفة والحرب^(٧٢) . وفي هذه الحالة فإن (ارتيميس) كانت الهة محلية مشابهة للربات التراسية بنديس Bendis أو كوتيت (kottys) . وقد اختار هيرودوت تسميتها (آرتيميس) (بدلاً - على سبيل المثال من «ديمتر») بسبب الطبيعة المتوحشة للغابات والجبال في تراس .

وإذا كانت هذه «القراءة» مقبولة ، فيمكن كذلك افتراض وجود اسطورة نموزجية ، لدى التراسيين القدامى ، حول الزواج بين اله العاصفة والأرض الأم .

وسيكون (ديونيزوس) ثمرة هذا القران . إن الاغريق كانوا يعرفون الاسماء التراسية لديونيزوس: كان اكثرها شيوعاً (سابوس) و (سابوذيوس)^(٧٥) . وان عبادة (ديونيزوس) التراسية تذكر بالطقوس المذكورة من قبل اوريبيدس في مسرحية عابدات باخوس les Bacehantes (ف . ١٢٤ ع) . فقد كانت الحفلات تجري اثناء الليل ، في الجبال على ضوء المشاعل ؛ والموسيقى المتوحشة (أصوات طنانجر برونز وصنوج وناي) ؛ كانت تثير المؤمنين للصراخ من الفرح والرقص الدائري ، غاضبين وضاجين . «وكانت النساء خاصة اللواتي يستسلمن إلى هذه الرقصات الغير منتظمة والمنهكة ؛ وكان لباسهن غريباً ، فكن يرتدين ثياباً طويلة فضفاضة ، مصنوعة على ما يبدو من جلود الثعالب ؛ ومنها وتحتها جلود صغار الماعز ، وعلى الأرجح كن يضعن قرونا على الرأس»^(٧٦) . وكن يمسكن في ايديهن افاعي مكرسة إلى ساباذيوس ، وخناجر أو مزراق باخوس ذيرس Thyrses . وما ان يصلن إلى ذرة الحدة parosysme وإلى «الجنون المقدس» ، حتى كن يقبضن على الحيوانات المختارة لتضحيتها ويمزقنها قطعاً ، ويفترسن لحمها نيئاً . إن أكل اللحم النيء l'omophagie الطقوسي كان يتم التوحد مع الاله ؛

وكان المساهمون يسمون آنثذ سابوس أو ساباذيوس^(٧٧) .

وبالتأكيد ، انه يتعلق ، كما عند الباخين الاغريق (بتأليه مؤقت) . ولكن التجربة النسوية كان يمكن لها ان تثير الالهامات الدينية المميزة ، وفي المكان الأول المعطيات التنبؤية . وخلافاً للديونوزيسية الاغريقية ، فإن العرافية التراسية كانت على علاقة بعبادة ديونيزوس . وان بعض القبائل ، قبيلة البيسس des Besses كانت تمارس عرافة (ديونيزوس) وكان المعبد يقع على جبل عال^(٧٨) . وكانت النبية تنبأ بالمستقبل في حالة الانتشاء كما هو الشأن بالنسبة لعرافة دلفي .

إن التجارب الانتشائية كانت تدعم الاعتقاد بأن الروح ليست مستقلة فحسب ، وإنما هي قابلة للتوحد صوفياً مع الألوهية . وان فصل الروح عن الجسد ، المحدد بالانتشاء ، كان من جهة يكشف الثنائية الأساسية للانسان ، ومن جهة اخرى إمكان وجود روعي تال نقي ، كنتيجة «للتأليه» . ان المعتقدات القديمة باستمرارية حياة ، غامضة وتقريبية ، للروح قد تحولت تدريجياً ، لتصل في نهاية المطاف إلى فكرة التقمص ، أو إلى مختلف المفاهيم من عدم فناء الروح . ومن الراجح ان التجارب الوجدية التي مهدت الطريق لمثل هذه المفاهيم لم تكن دائماً من هذا النموذج (الديونيزيس) اي تهتكى . فالوجد يمكن أيضاً أن يثار ببعض الأعشاب أو بالتنسك (عزلة - صيام ، أو الحماية النباتية الخ) وبالصلاة^(٧٩) .

وفي مثل هذه الأوساط ، تطورت في اليونان الممارسات والمفاهيم الدينية المعروفة تحت اسم الأورفية orphisme (ف ١٨٠ ع) . ان العقيدة بالخلود وتأكيد النعيم للروح غير المجسدة وصلت لدى بعض قبائل التراس ، إلى تمجيد شبه مرضي للموت وإلى انعدام الوجود . وان التراسيين كانوا يتألمون أو يندبون عند ولادة طفل ، ولكنهم كانوا يدفنون موتاهم بفرح [هيرودوت ٥ - ٤] . وقد فسر عدد من الكتاب القدامى الشجاعة الاستثنائية للتراسيين في المعارك بإيمانهم الأخرى . هذا وان مارتيانوس كابيلا martianus capella (٦ - ٦٥٦) نعتهم حتى بأنهم «ذوو شهية حقيقية للموت» (appetitus, maximux mortis) ، لأنه «كان يبدو

لهم جيلاً ان يموت المرء». وقد اعترف بهذا التقييم الديني للموت في بعض ابداعات فولكلورية للرومان ولشعوب جنوب - شرق أوروبا^(٨٠).

أما بالنسبة «لهرمز» الذي حسب هيرودوت ، كان معبوداً حصراً من قبل (الملوك) أي الارستقراطية العسكرية فمن الصعب مضاهاته . وان هيرودوت لم يعط أية اشارة للاله الشمسي ، مع ان مثل هذا الاله تأكد بشكل واسع في مصادر اخرى^(٨١) . ويمكن اذن ان نرى في (هرمس) التراسي ألوهية شمسية . وبعد بضعة قرون ، تتعدد في البلقان الآثار المسماة البطل الفارس (Héros-Cavalier) ، وان هذا قد توحد في ابولون^(٨٢) . والمقصود ، مع ذلك ، مفهوم أكثر تأخراً ، والذي لا يوضح أبداً التولوجيا «الملكية» التي ذكرها هيرودوت .

١٧٩ - زالموسكي والتخليد

وان المؤرخ ذاته يصرح بأن الجيت ، les Gètes «الأكثر حيوية والأكثر استقامة بين التراسين [٦ - ٩٣] «يعتقدون بأنهم خالدون» ، ولهذا ، وفي هذا المعنى : «يعتقدون انهم لن يموتوا ابداً وان من يفنى منهم سينضم إلى زالموسكي ، الكائن الالهي (ديمون daimon) ؛ والبعض من بينهم يسمى هذا الكائن الالهي ذاته جيبيليزيس Gébéléizis [٤ - ٩٢ - ترجمة ف - ١ - لوغراند] . وان هذه هي المرة الأولى - والأخيرة - يظهر فيها اسم جيبيليزيس في الأدب . وقد سبق لتوماشيك Tomashek ان شخص في هذا الاسم الالهي موازيا للاله التراسي زيلوردوس ، زبيلتيوردوس^(٨٣) Zbelrus, Zbeltiurdos . وتاماً كزبيلسوردوس سيصبح جيبيليزيس إلهاً للعاصفة ، أو بالأحرى إلهاً قديماً للسماء ، اذا وافقنا والد - بوكورني وديسيف اللذان اشتقا اسمه من الجذر guer بمعنى «لمع ، برق»^(٨٤) . ويضيف هيرودوت ، بعد أن روى قصة تضحية مبعوث لزالموسكي ، وهو طقس سنشير اليه فيما بعد ، يضيف : «هؤلاء التراسيون الغابرون ذاتهم ، عندما ترعد وتبرق ، كانوا يطلقون سهاماً في الهواء باتجاه السماء مهددين هذا الاله ، لأنهم لا يفتكرون بوجوده آخر غير الههم» [٤ - ٤٩] .

وبالرغم من شهادة هيرودوت (المعبرة، فعلاً، نحويًا وإنشائيًا ، مع إهمال بالغ) ، فإنه من الصعب اعتبار زالموكسي وجييليزيس كإله واحد وأنه هو نفسه . إن بنيتها مختلفة وعبادتها لا تلتقي أبداً ، وكما سنرى فيما سيأتي فإن زالموسكي ليس له شيء مما هو لإله العاصفة . أما بالنسبة للرمي بالسهم ، فيرد التساؤل عما إذا كان هيرودوت قد فهم جيداً معنى الطقس . ومن الراجح جداً ، إن هذا لم يكن هو الاله (جييليزيس) الذي كان مهدداً وإنما القوى الشيطانية الظاهرة في الغيوم . وبعبارة أخرى ، ان ذلك يتعلق بعمل طقوسي ايجابي : يحتذى ، بصورة غير مباشرة ويساعد فيه اله البروق باطلاق السهام ضد شياطين الظلمات^(٨٥) ومهما يكن من أمر ، يجب التسليم بأنه : لا يمكننا إعادة تكوين الوظيفة و «التاريخ» لجيليزيس بمساعدة دليل واحد . وإن الواقعة في كون جييليزيس لم يذكر بعد هيرودوت لا تقتضي بالضرورة فقدان العقيدة . فيمكن تصور إما ارتباطها بالهة أخرى واما استمرارها تحت اسم آخر^(٨٦) .

ان المعلومات القيمة جداً التي جاء بها هيرودوت لها علاقة باسطورة وعبادة زالموكسي . وبناء على ما تلقاه من الاغريق ومن الهيلينيسون Hellsport ومن البحر الأسود ، فإن زالموكسي سيكون خادماً قديماً لفيثاغورس : «عندما أصبح حراً ، كان قد كسب ثروات واسعة ، باغتناؤه سيعود إلى بلاده . وكما ان التراسيين كانوا يعيشون ببؤس وكانوا بسطاء في تفكيرهم» فإن زالموكسي ، أخذ على عاتقه مهمة تحضيرهم . «فصنع لنفسه قاعة استقبال كبيرة حيث أخذ يستضيف فيها كما لو انها فندقاً ، الأعيان أو المهمين من مواطنيه ؛ وخلال الوليمة ، كان يعلمهم أنه ، لا هو ولا مدعويه ولا ابناءهم يموتون ، وإنما سيذهبون لمكان حيث سيعيشون بشكل دائم ويستمتعون بسعادة تامة» وخلال فترة من الزمن «كان قد انشأ لنفسه مقراً تحت الأرض» حيث «كان ينزل ويعيش ثلاث سنوات مستمرة . وكان التراسيون يأسفون عليه ويكونه كأنه ميت ، وفي السنة الرابعة ، كان يظهر لأعينهم : وهكذا أصبح مقبولا في اعتقادهم ماكان قاله زالموكسي [...] . ويضيف هيرودوت : وبالنسبة لي لا أرفض الاعتقاد بما روي عن المقر الأرضي ، ولا اعتقد بذلك ، ولكنني أظن بأن زالموكسي هو أسبق

من فيثاغورس بعدد من السنين . ولترك جانباً ما اذا كان رجلاً أو كائناتاً الهياً لبلاد الجيت، [٤ - ٩٥ - ٩٦ ترجمة ليغراند] .

وكما كان من الطبيعي ، فإن هذا النص قد أحدث انطباعاً كبيراً في العالم القديم ، منذ معاصري هيرودوت حتى آخر الفيثاغوريين الجدد والافلاطونيين الجدد . وان التاريخ المقرر والمتماسك : الاغريق الهيلليسيون ، أو هيرودوت نفسه ، كانوا ادخلوا ماكانوا تلقوه عن زالموسكي ، وعن مبدأه وعبادته في افق روحي من بنية فيثاغورية . وعليه فإن هذا يعيد القول بأن عبادة إله جيتو - داسي اقتضت الاعتقاد بخلود الروح عنده ، أو عبر معلميه ، تستنتج الخاصية السرية للعبادة^(٨٧) . وفي الواقع ، ان الجيت ، كما يكتب هيرودوت «يعتقدون بخلودهم» [١٧ - ٩٣] . «لأنهم يعتقدون بأنهم لا يموتون ابداً وان من يهلك منهم سيجتمع بزالموسكي» [١٤ - ٩٤] . مع ذلك فإن الكلمة athanatizein [٥٠ - ٤] لا تعني «اعتقد بنفسه خالداً» وانما «جعل خالداً»^(٨٨) . وان هذا «التخليد» كان يحصل عليه بواسطة مسارة ، الأمر الذي يقرب العبادة المنشأة من قبل زالموسكي من اسرار الاغريق والهيللنستيكي (ف ٢٠٥ع) . إن الحفلات بمعنى الكلمة ، هي مجهولة ، ولكن المعلومات المنقولة من قبل هيرودوت تشير الى سيناريو اسطوري - طقوسي «لموت» (احتجاب) و «عودة إلى الأرض» (بعث) .

ويروي المؤرخ الاغريقي كذلك [٩٤ - ٤] الطقس المميز لزالموسكي : ارسال مبعوث مكلف بأن يوصل الى الاله ، كل اربع سنوات «ما يرغبونه في كل حالة» . فكان بعض الرجال يسكون بثلاثة حربات ومن يعين بالقرعة كان يُقذف في الهواء ، ويسقطه ، كان يشك برؤوس الحربات . ان الاضحية كانت تجعل من الممكن التواصل بالمبعوث ، وبعبارة أخرى كان يعاد ترتيب العلاقات بين الجيت والهم ، كما كانت عليه هذه العلاقات منذ البداية ، وعندما وجد زالموسكي بينهم . ان الاضحية وإرسال مبعوث كانا يشكلان بنوع ما تكراراً رمزياً (ربما طقوسياً) لبناء العقيدة ، وكان يعاد ترتيب بعث زالموسكي بعد الثلاث سنوات من الاحتجاب ، مع كل ماكان يتطلبه ، بصورة خاصة ، ضمان الخلود والغبطة للروح .

ان بعض الكتاب القدامى ، وكذلك عدد من العلماء المحدثين ، قد أوصلوا زالموكسي مع ديونيزوس وأورفيه من جهة ، ومع شخصيات اسطورية أو مؤسطرة بقوة من جهة أخرى^(٨٥) الأمر الذي كان اثره المميز اما تقنية شامانية ، واما عرافة ، واما هبوطات الى مقرات الاموات . ولكن ما يرويه لنا هيرودوث حول زالموكسي لم يدخل أبداً في نظام الميتولوجيات ، والمعتقدات والتقنيات الشامانية أو المعطاة صفة الشامانية . بل على العكس ، وكما سنرى ، فإن العناصر الأكثر تميزاً لعبادته (انديريون Andreon ، ومآدب احتفالية ، واحتجاب في (المقر تحت الأرض) والبعث بعد اربع سنوات (تخليد) للروح ، وتعليمات متعلقة بالوجود المبارك في عالم آخر ، كل هذا يقرب زالموكسي من الاسرار^(٩٠) .

وقد قدم سترابون في بداية العصر المسيحي [الجغرافيا ٧ - ٣ - ٣] ترجمة جديدة لاسطورة زالموكسي ، معتمداً بصورة خاصة على الوثيقة المقدمة من ابوزيدونيوس (١٣٥ - ب - ٥٠ ق.م) ان زالموكسي كان عبداً لفيثاغورس ، ومع ذلك فليس المذهب المتعلق بالخلود هو الذي تلقاه من معلمه ، وانما «بعض اشياء متعلقة بالاجرام السماوية» أي العلم بالتنبؤ بالاحداث المقبلة حسب الدلالات السماوية . واضاف سترابون ، إلى ذلك السفر إلى مصر البلد المتميز بالسحر . وانه بفضل معارفه الفلكية ومزايه السحرية والنبؤية نجح زالموكسي في اشراك الملك في الحكم . . وبصفته كاهناً كبيراً ونبياً «للإله الأعظم والأكثر تقديراً في بلادهم» اعتزل زالموكسي في مغارة على قمة الجبل المقدس كوجينون Kogainon ، حيث لم يكن يستقبل سوى الملك وخدمه الخاصين ، وفيما بعد «أصبح يدعى كما يدعى اله» . ويضيف سترابون انه «عندما حكم بوريسبستا Boresbista على الجيت Gète فإن ذات المهمة تولاهما قبل ديقاينوس Decainens وبطريقة او اخرى استمرت القاعدة الفيثاغورية بالامتناع عن الكائنات الحية كما كانت قد عُلِّمت من قبل زالموسكي»^(٩١) .

وفي المرحلة الجديدة من ديانة الجيتو- داسيين التي أرشدنا عليه بوزيدونيوس وسترابون ، فإن صفة زالموكسي تبدو محورة بشكل ملموس . فيوجد بدئياً التطابق بين الاله زالموكسي وكاهنه الكبير الذي انتهى لأن يؤله تحت الاسم

ذاته . واكثر من هذا ، لا نجد أية اشارة لبنية سرية كما ابرزها هيرودوت .
واجمالاً ، فإن عبادة زالموكسي قد سادها كاهن كبير يعيش منفرداً في قمة الجبل ،
وبصفته الشريك والمستشار الأول للملك ؛ وان هذه العقيدية (فيثاغورية) لأنها
تستبعد التغذية باللحم . ولا نعلم في أي معيار استمرت البنية المسارية
والأخروية «لسر» زالموكسي استمرت في الحياة لزمن سترابون . ولكن الكتاب
القدامي يتكلموت عن بعض النساك والمتدينين ، ومن الراجح ان هؤلاء
«المتخصصين بالمقدسات» قد مددوا التقليد «السري» لعبادة زالموكسي^(٩٢) .

حواشي الفصل الحادي والعشرين

- ١ - مسمى هكذا لأنه كان يجري حرق الأموات ووضع رمادهم في جرار تطمر بعدئذ في مقبرة تحت الأرض
- ٢ - Anne Ron الوثنية السلتيّة البريطانية الخ .
- ٣ - ستوارث بيجو- أوروبا القديمة ص ٢١٥ - الدرويد ص ٦٢
- ٤ - آن روس- المرجع السابق
- ٥ - اليوجا ٢٩٩ والشامانية ص ٣٣٩ - م . الياد .
- ٦ - حسب ميل ديلون في كتابه الدرويد ص ٨٨ ان الدرويد والبراهمان حافظوا على ممارسات ومعتقدات هندو اوروية استمرت في العيش في العالم الجايليك gaélique حتى القرن ١٨ وفي الهند حتى يومنا هذا . انظر كتابه - السلت والأريين ص ٥٠٢ ويدراسته للجناثر الايرلندية والهندية يقدر هانس هاترمان ان البنية العقلية الايرلندية هي اكثر قرباً من الهندية القديمة عما هي من الانكليزية والالمانية .
- ٧ - د. أ - بينستي (اللغة والقيمة التاريخية للايرلنديين وقوانينهم) ذكرها ديلوس ص ٢٤٧
- ٨ - انظر المراجع لدى ديلون (الحفريات) ص ٢٤٧ .
- ٩ - جورج - ديميزيل - فيوس والثروة ص ٢٢٢ . الخ . ونؤكد انه يوجد كذلك مشابهات مع العالم السومري - الاكادي يمكن تفسيره باحتكاكات الهندو اورويين مع شعوب الشرق الادنى القديم .
- ١٠ - ح . ديميزيل ايدولوجيا التثليث للهندو اورويين ص ١١
- ١١ - E. Benveniste اللغة للمؤسسات الهندو- اوروية
- ١٢ - ر . ر ديميزيل - واساطير وملاحم - وانظر - جان دي فري : ديانة السلت .
- ١٣ - انظر الدلالات المعطاة من قبل ورنر موللر . ص ٤٦

- ١٤ - ١٥ - ر . . الامثلة المذكورة من قبل ورنموللر ص ٥٢ - تمثيل الانوس بكائن يحمل دولاباً ذي اربعة او اثني عشر شعاعاً ، مؤكدة في القرون الوسطى : وانظر بعض الرسوم التي جمعها موللر
- ١٦ - جان دي مري . . الذي يضيف «ولكنه لا يجب ان ينسى ان هذا التمثل لا يدخل في الحساب الا من نقطة تفصيل لشخصية المعقدة جداً .
- ١٧ - بعضها قد نوقش من مثل نرانوا لمارو «الالهية السلتيه ذات الصلات : من الاغميوس دي لوسيان الى لوغميوس دي دو» ص ٢١٦
- ١٨ - شرح بيرناتريا - المادة من قبل . زويكر . ص ٥١
- ١٩ - يذكر mL.Sjoertedt بعض الموازيات القارية - آلهة وابطال السلت ص ٧٥ بالنسبة الى س - رامنو ، هذه الاضاحي المنجزة في نهاية حكم ، اودورة حكم ثابت تمديد الزمن للتحدر «وبالتالي اكملت لتاريخ معين تقويمي» . (الموت التضخوي للملك) ص ٢١٧
- ٢٠ - دوفال - «توتاتس ، ايزوس ، تارانيس» ص ٥٠ آلهة السلت
- ٢١ - في آخر مكان - هـ بيرخان الجرمن والسلت ص ٣٣
- ٢٢ - ٢٣ - حان دمي ثري ص ١٠٦
- ٢٤ - ٢٥ - آن روث - ص ١٠٢ - ١٨١
- ٢٦ - ٢٨ - من زالموسكي - الى جنيكيزخان - الياد ص ١٤٦
- ٢٩ - تاريخ الغول - دوفال - ص ٤٢
- ٣٠ - انظر برواندياماك كان - (مظاهر قصة الملك والربة في الادب الايرلندي)
- ٣١ - جيرالدوس كاميريزيس - طبيوغرافيا هيبرنيكا .
- ٣٢ - ق/ هربرت - اسطورة ايونا
- ٣٣ - ٣٤ - ج - جريكور ايونا - ريانون - ماشا ص ٢٥ - علاقة الماشا بالحصان
- ٣٥ - المصادر ، حللها أ . س - برادن في (أصل اسطورة الجريل)
- ٣٦ - أ . ك - كوماراسوامي (حول لوائلي بريد) ص ٣٩٣
- ٣٧ - بيركان - المانيا والسلت ص ٥٤٢
- ٣٨ - اظهر فيندريس وحدة المفردات اللغوية الدينية (بخاصة المصطلحات التي تدل على كلمات مجردة) لدى الهنود الفيديين واللاتين والسلت . وهذا العمل يبرهن على امكانية تعليمية «المتخصصين بالقدس» لدى هذه المجموعات الثلاثة الآرية لما قبل التاريخ .
- ٣٩ - انظر الامثلة عند فرانسواز لي رور الدرويد ص ١٠٩
- ٤٠ - جها دي فري ص ٢١٨ . معلومات شيزار حول (الرئيس الوحيد) الذي يمارس السلطة العليا بين الدرويد غير مصادق عليه من قبل الكتاب الكلاسيك .

- ٤١ - الحنين للأصل ص ١٥٩ - هانس شير -
- ٤٢ - انظر بعض الأمثلة لدى فرانسواز دي رو . الدرويد ص ١٢٨ ويلاحظ الكاتب مع ذلك ان التقمص في ايرلندا محفوظ على بعض الكائنات الاسطورية أو الالهية .
- ٤٣ - جان دي فري يفسر الكلمة ginnunga بأنها تدل على فكرة خداع بالسحر
- ٤٤ - حسب (صلاة وسوبرون) قصيدة من أصل مسيحي كتب في القرن التاسع في المانيا الشمالية «لم يكن أرض ولا قبة سماوية ، لا شجر ولا جبل . الشمس لم تشرق ، والقمر لا يضيء والبحر المتكبر لن يوجد» .
- ٤٥ - الاسم (يمير) قد قرب من السنسكريتي بينا (ثنائي الجنس) وحسب تاسيت (جرمانيات) الجدل الاسطوري للجرمن كان ثوسيتو- وعليه هذا الاسم قد اشترك بالسويدي القديم تفسيراً (المنفصل) ويعني كيمير ، كائناً خنثى .
- ٤٦ - آسكر يذكر بالفرين Frèn الكوني ، ايمبلا هو يمكن ان يكون ذات الكلمة لا سيملا (الدرداد) ، وان بدءاً من الاشجار يشكل نقمة واسعة الانتشار في الميثولوجيا القديم وهو كذلك مؤكد لدى الهنـدو اوروپيين - بونفانت - الأكبر والاصغر . لدى الهنـدو اوروپيين ص ١
- ٤٧ - حسب سنوري ، كل واحد من الجذور الثلاثة ينفـرز في بثر ، واشهر الأبار هو البثر الأكثر حكمة من الالهة ميمير الذين سيوضع فيه اودهين عينه رها (١٧٤ع) وذلك العائد للقدر ولكنه من الراجع ان التقليد الاصولي كان يعرف مصدراً واحداً تحت الأرض
- ٤٨ - ذات الرمزية تظهر في الاسطوانة Trmisl التي هي في عقيدة الساكسون ، تدعم السماء
- ٤٩ - كما نعلم ان الدلالات الطبوغرافية لوسط الدنيا تعكس جغرافيا اسطورية منشأة حسب هندسة خيالية .
- ٥٠ - ٥١ - انظر - آلهة الجرمن ص ١٧ مرجع سابق ديميزيل
- ٥٢ - حول هذا الدور للشجرة الكونية في المسارات الشامانية لشمال آسيا - انظر الشامانية - الياد
- ٥٣ - من غير المستحسن تحديد المصدر للعناصر الشامانية في الديانات القديمة الجرمنية على الأخص في الميثولوجيا وعبادة اودهن - ودان . وبعضهم يصعد للتراث الهنـدو اوروپي ولكنه لا يجوز استثناء تأثيرات الشمال . على كل حال فإن الاهمية المناطة بالتقنيات الوجدية والمعتقدات ذات البنية الشامانية تقرب الدين الجرمني من الشامانية الآسيوية .
- ٥٤ - الشامانيو يوكاير شاوروا هاجم اجدادهم - الشامانيين «الشامانيين ص ١٨٠»

٥٥ - يتعلق بشراب مسكر يلصق الخيمة بين فئتين اجتماعيتين - ووضح ديميزل مشابهاً هندياً
ر . لوكي ص ١٠٢ وآلهة الجرمن ص ٣٩

٥٦ - الينابيع مشار إليها من قبل نورفيل - بيتر ، اسطورة وديانة الشمال ص ٣٨
٥٧ - ر . الياد من زالموكس لجنكيز خان ص ١٧ - ووصف تاسيت les harri على المجري الأعلى
للأوندر والفستولا مع تروسهم السوداء واجسادهم المدهونة بالأسود مثل جيش من
الاشباح الذي لا يستطيع عدو النظر اليه .

٥٨ - فالدولا vaeidoll «غرفة من سقطوا» les Nalkrues الفالكريز (يعني اسمهم) أولئك اللذين
اختاروا الموت على ارض المعركة وكانوا بدئياً أرواح تبصروا الموت مسبقاً .

٥٩ - اسمه تيواف مشابه لاسماء أخرى هندو اوروية (لاله السماء) : دايوس - زوس - جويتر .
من المرجح انه على الأقل لدى بعض القبائل الجرمنية ، الاله الساوي اكمل بقاءه مجدداً
تحت الاسم ايرمين - هيرمين irmin- hermin

٦٠ - كما لاحظ جان دي فري «من وجهة نظر جرمنية لا يوجد تضاد بين المفاهيم (اله المعارك) و
(اله القانون)

٦١ - ذات المرجع - آلهة الجرمن ص ٥٥ (ماكسب المجتمع الالهي هكذا بفاعلية اضاعه بقوة
خلفية وصوفية : وليس اكثر من العرض الدقيق لعصابات أو دول ارضية . مهمم الوحيد
أن يربحوا ويتصرفوا الى حياة كل الجماعات البشرية بالتأكيد صنعت من علف وخديعة ،
على الأقل ، ان اللاهوت يصف ذلك كأمر الهي حيث ان الكل ليس ولن يكون اكثر
كمالاً ، ولكن حيث ميترا او فيدس يسهر حارس يتلألاً نموذج الهي»

٦٢ - العلاقات بين تهور والشخصية التي تهز فأساً في الرسوم من عصر البرونز السكندنافية
هي من الصعب تحقيقها

٦٣ - ديميزل - آلهة الجرمن ص ٩٥ - ٩٦

٦٤ - سنوري يؤكد بان الزواج بين شقيقه وشقيقته كان شائعاً لدى الفانس

٦٥ - خلاصة من قبل فايدسون - آلهة واساطير الشمال الأوروبي ص ٩٣

٦٦ - هي ممثلة بفينوس

٦٧ - شاركت تهور بسفرة لبلاد الشياطين والعمالقة ورافقت اودهين وهونير وساعدتهما بسلخ
القرم اندوري الخ

٦٨ - ٦٩ ر . النظريات المعروفة من جاروفري دو وميزال (آلهة الجرمن ص ٩٧
٧٠ - هذا التفصيل الأخير يعارض السيناريو الأخروي الذي لخصناه بانهيافار يمازيل يكتمل آخر
الزمان

٧١ - مرغريت آرين (الاجداد الابطال) ل ١٢٩

٧٢- في ذات الكنيسة يوجد حجر مشابهة لقطعة حلب يظهر شهور على أهبة صيد الافعى الكبيرة

٧٣- اوتو- هوفلر- عن المانيا ص ٧ - ٣٥٠

٧٤- زد على ذلك ، فإم الاله زيبلسوردوس الذي ان القسم الثاني من اسمه سوردوس مشتق من الجذر سورزجر- رعد- لقد كان اذن اله العاصفة سمي بشكل صحيح من قبل الاغريق زوس كيرونوس .

٧٥- انظر المصادر المذكورة من قبل رودس . بيسييه ص ٢٦٩ . لقب آخر كان بساروس بمعنى (لابس جلدًا طويلاً لثعلب، حول شعائر ساباذيوس في آثينا انظر تاريخ المعتقدات اليا ص ٣٨

٧٦- ٧٧ انظر المصادر التي رود ص ٢٧٥ حول الحماس الذي يتم الاتحاد النشوس مع الاله
٧٨- هيرودوت [ب ٧٠ - ٣] يعتبر البس Isjenes كأسرة من قبيلة ساترس ، ولكن غيره (بوليب استرابون - بيلين) يعتبرها شعباً مستقلاً عن العراقة التراسية (رود) ص ٢٨١
٧٩- بذور القنب عن التراسيين (بوجيونوس ميلا ١١ - ٢١) وعند السيس (هيرودوت ٤ - ٧٣) في ودخان بعض (الشار) عند المساحيث (هيرودوت ٧٣) وسترابون (٧ - ٣/٣) يقرر تبعاً لبوزيدون ان المسيسيين يمتنعون عن كل طعام من اللحم ، بما في ذلك العسل واللبن والجبن ، ولهذا السبب يسمون في آن واحد (الذين يخافون الله) «والذي يمشون في الظلام» . وهذين المصطلحين يعنيان على الأرجح بعض الشخصيات الدينية وليس مجموع الشعب . والهانبوياتي سيكونون رافصون وشامانيون كانوا يستعملون دخان القنب لاثارة الشهوات الوجدية . ويضيف سترابون انه لدى التراسيين كان يوجد معتزلين اتقياء معروفين تحت اسم كتيراتي يعيشون بعيدين عن النساء ومكرسين انفسهم للالهة «ويعيشون متحررين من كل خوف» [٨ - ٣]

٨٠- من زالموسكي - لجينكيزخان - اليا - فصل ٧

٨١- انظر بيتازيوني - دين التراسين القدامى

٨٢- ٨٣- والد- بوركورني - بوجهيرك الخ . .

٨٤- من زالموسكي - لجينكيزخان ص ٨٥

٨٦- واقعة ان الميتولوجيا الفولكلورية الرومانية للبنى يلي تشتمل على عدد من العناصر الخاصة باله العاصفة وتثبت على الأقل ان جيسيليريس كان ايضاً فعالاً في فترة المسيحية في داسي ومهما كان اسمه في ذلك العصر . ويمكن القبول كذلك فإنه فيما بعد على اثرولاتوفيقية اندمج زالموكسي بجيسيليريس .

٨٧- ٨٨- هذا مايمكن ان يكون السبب الذي من اجله تردد هيردون باعطاء تفصيلات «اذا-

هذا ليس اكيدا . ان معلميه علموه ، الخ » وتقريره بموضوع الاسرار معروف ولكن هيرودوت اعترف بأنه لا يعتقد بزموكس عبدا لفيثاغورس بل على العكس اعتقد بأسبقيته له .

٨٩- آباريس - آريستيس - هيمائيموس .. الخ ..

٩٠- وفي هذا المعنى يمكن مقارنته بديونيزوس وللأسرار الديونورية

٩١- في مقطع آخر حيث يمثل مجرى حياة بيريس (١٤ - ٧٠) يصف سترابون ديفانيوس كساحر . ولم يسافر فقط الى مصر ولكنه تلقى بجد بعض الاشارات ادعى بواسطتها معرفة الارادة الالهية وبعد قليل من الوقت المثير لها .

٩٢- ١. من زالموكس لجنكيزخان ص ٦٦٧ وهناك تفصيلات اخرى تبدو هامة بالنسبة لسترابون : ان زالموكسي تماما مثل ديكانيوس ، قد حقق دوراً عجبياً بفضل معارفه الفلكية بصورة خاصة والسحرية . في القرن ٧٧ . ولكن معتمداً على مصادر اكثر قدما ، جوردانس ، وصف بعبارات حادة فائدة الكهنة الداس بالنسبة للفلك ، وبالنسبة للعلوم الطبيعية . وان اللاحاح الموضوع على المعرفة بالاجرام السماوية يمكن ان يعكس معلومات دقيقة . وفي الواقع أن معابد سار مزيجونزيا وكوتيسي الذين يرمز لهما باورانوس - الشمس ، واضحة ويبدو أن لها طبيعة سرية (انظر هاوريان دي كومنيو) ص ١٦٩ .

الفصل الثاني والعشرين

أورفيه ، فيثاغورس ، والأخروية الجديدة

١٨٠ - اساطير أورفيه : مغني القيثارة «مؤسس المسارة»

يبدو أنه من المستحيل الكتابة عن أورفيه والأورفيه دون اثاره بعض الفئات من العلماء : إما الشكاكين و «العقلانيين» الذين لمسوا أهمية الأورفية في تاريخ الرومانية الاغريقية ، واما المعجبين و «المتحمسين» الذين ينظرون إليها كحركة ذات مضمون بارز^(١) .

إن تحليل المصادر يسمح لنا بالتمييز بين مجموعتين الوقائع الدينية : (١) الاساطير والتقاليد الخرافية ذات العلاقة مع أورفيه (٢) الافكار والمعتقدات والعادات المنظور إليها كأورفية . إن مغني القيثارة citharède قد ذكر لأول مرة في القرن الرابع من قبل الشاعر ابيكوس دي ريجين Ibykos de Rhogin الذي تكلم

عن «أورفيه ذي الاسم الشهير» . وبالنسبة لبندار ، فهو «العازف أب الاغاني الميلودية» . [بيث ١٤٠ - ١٧٧] . وإيشيل Eschyle يدعوه كمن «يسحر الطبيعة برمتها بروائع» [اغامنون ١٨٣٠] . ولقد صور على طرف زورق ، والقيثارة بين يديه ، ومعين بوضوح على واجهة أفريز من القرن الرابع عائد لمخبأ السيسيكونيين Sicyoniens في دلفي . ومنذ القرن الخامس أخذت الصور الايقونية لأورفيه تنمو باستمرار : يرى عازفاً على قيثارته محاطاً بالطيور ، والحيوانات المتوحشة ، أو بالتراسيين المؤمنين . وهو مقطوعاً قطعاً من قبل الميناد les menades ، أو انه في الهاديس l'Hadès قرب الآلهة . ودائماً في القرن الخامس تؤرخ الاشارات الأولى لنزوله إلى مقر الأموات ليستعيد زوجته أوريديس Eurydice [آليت ٣٥٧] . وقد فشل لأنه ادار رأسه بسرعة^(٢) . أو لأن القوى الجهنمية عارضت مشروعه^(٣) . وقد جعلته الاسطورة يعيش في تراس «قبل هومر بجيل من الزمن» ، ولكنه منذ القرن السابع أصبح يصور على السيراميك في هندام اغريقي على أهبة سحر الحيوانات المتوحشة أو البربر بموسيقاه^(٤) . وفي تراس وجد منيته . وحسب القطعة الضائعة من إيشيل Eschyle ، البصاريدس les Basarides ، فإن أورفيه كان يصعد كل صباح على جبل بانجيوس Pangaios ليعبد الشمس ، المتمثلة بأبولون ، فأرسل ديونيزوس الغاضب ضده المينادات les Ménades وقد تمزق مغني القيثارة وبعثرت اشلاءه^(٥) . وان رأسه الملقى في الهيرون Hébron طفا مغنياً حتى ليسوس . وقد استقبل بتقوى ، واستخدم بعدئذ كوسيط وحي oracle .

وسنشير الى الأورفية في آداب القرنين الخامس والسادس ، ولكننا نعرض هنا أن تقدير أورفيه والمشاهد الأكثر أهمية للصورة المرسومة عنه تذكر لحد كبير بالممارسات الشامانية ، فهو كالشامان ، مطب وموسيقي ، يفتن ويروض الحيوانات المتوحشة ، ينزل إلى مستقر الأموات ليستعيد أورديس ، رأسه المقطوع محفوظ ويستخدم وسيط وحي ، تماماً كما تستخدم جماجم الشامان اليوكاجيرس yukagirs في القرن التاسع عشر . ان كل هذه العناصر قديمة وتناقض الاغريقية - الرومانية للقرنين السادس والخامس ، الا اننا نجهل ما قبل تاريخها في اليونان القديمة ، أي وظيفتها المؤقتة الاسطورية - الدينية قبل ان تندمج في الاسطورة

الأورفية . واطافة لذلك فإن اورفيه كان على علاقة مع مجموعة شخصيات خرافية - مثل آباريس Abaris وأرستيلس Aristee الخ . متميزة كذلك بتجارب انتشائية من غط شاماني أو ما قبل الشامانية .

كل هذا يكفي لجعل المغني الاسطوري « قبل هومر » كما يقره التقليد وكما كررته الدعاة الأورفية . ولا يهم كثيراً ما اذا كانت هذه الميثولوجيا المقلدة للقديم ، في جزء منها ، حصيلة طلب مثار على ما يرجح بمشاعر مؤكدة . « ومن الممكن في الواقع ان تعين خارج الميثولوجيا الرغبة بوضع اورفيه في الأزمنة العظمى «للأصول» وبالنتيجة ، اعلانه «جداً هومر» ، الأكثر قدماً والأكثر اعتباراً ممن يمثل ، والرمز عينه ، للديانة الرسمية . فهامة هي اذن واقعة الاختيار بعناية للعناصر الأكثر قدما ، والتي يمكن منها الحصول على ممر لاغريق القرن السادس^(٧) . ان الإصرار على استحضار وجوده ، ونبوءته وموته المأساوي في «تراس» سيؤكد البنية البدئية لشخصيته . وما له دلالة ايضاً انه من بين القلائل النازلين لمستقرات الأموات المؤكدين في التقليد الاغريقي ، اصبح الأكثر شعبية » .

إن الكاتاباز la catabase متضامنة مع طقوس مسارية . وعليه فإن منشداً كان مشهوراً بصفته «مؤسسا للمسارات» و «الاسرار الخفية» . وحسب اوريبيد ، «انه اظهر مشاعل الاسرار الخفية» [ريزوس ٩٤٣] . إن مؤلف ضد اريستوجيتون A. Aristorgiton (ف ١١ ع) أكد بأن اورفيه «قد أظهر لنا المسارات الأكثر قداسة» ، راجعاً في ذلك بالتأكيد إلى اسرار ايلوزيس .

وأخيراً فإن علاقاته مع ديونيزوس وأبولون تصادق على شهرته «كمؤسس للاسرار الخفية» لتعلق ذلك بآلهة الاغريق وحدهم والذين كانت عبادتهم قد تطلبت مسارات و «جدا» ، (معلوم ، بأنه وجد بأنواع مختلفة ، لا بل متضادة) . ومنذ القديم أفسحت هذه العلاقات مجالاً للتناقضات . فعندما يسحب ديونيزوس والدته سيميله من هادس ، يلاحظ ديودور [٤ - ٢٥ - ٤] التشابه مع نزول اورفيه للبحث عن اورديس . وتقطيع هذا الأخير من قبل المينادات يمكن له ان يفسر

ايضا كطقس ديونيزيس ، تمثيل الاله sparagmos تحت شكل حيوان (ف ١٢٤ ع) . ولكن اورفيه كان معروفا بخاصة كالأمين الممتاز لأبولون . وحسب احدى الاساطير ، كان الابن للاله نفسه من الحورية كاليوب . ويدين بموته العنيف للفتاني الذي أظهره تجاه ابولون . وان الأداة الموسيقية لأورفيه كانت القيثارة الأبولونية^(١٠) . وأخيراً وبصفته مؤسس المسارة فإن اورفيه أعطى أهمية كبرى للتطهيرات وقد كان الختان Katharsis تقنية أبولونية بصفة خاصة^(١١) .

وهناك عدد من الملامح يمكن الامساك بها : (١) مع ان الاسم وبعض الاشارات للأسطورة قد تأكدت اعتباراً من القرن الرابع فقط ، فإن اورفيه هو شخصية دينية من نموذج قديم . ويمكن التصور بسهولة انه عاش (قبل هومر) ، مع فهمنا لهذه العبارة إما تاريخياً وإما جغرافياً (أي في اقليم «بربري» لم يمس بعد بالقيم الروحية المميزة للحضارة الهوميرية . ٢) «أصله» وماقبل تاريخه تفوتنا معرفته ، ولكن أورفيه لا ينتمي بالتأكيد للتقليد الهوميري ، ولا لتراث البحر المتوسط . وان علاقاته مع التراسيين غامضة جداً ، لأنه من جهة ، يتلاءم بين البربر كأغريقي ، ومن جهة أخرى يتمتع بمزايا سحر- دينية مما قبل الهيلينية (تدريب على الحيوانات ، كاثاباز شاماني) . وحسب علم الهيئة morphologiquement هو قريب من زالموكسي (ف ١٧٩ ع) فهو ايضاً مؤسس اسرار خفية (بواسطة كاثاباز) وبطل محضر للجيت والتراس «الذين اعتقدوا بأنهم خالدون» . ٣) إن أورفيه قد مثل كمؤسس لمسارات ممتازة . وإذا أعلن «جدا لهومير» فذلك لا يبراز الأهمية لرسالته الدينية . وهذا ما يقطعها جذريا مع الديانة الأوليمبية .

وان جوهر المسارة المعتمدة وكأنها مؤسسة من قبل اورفيه هي مجهولة ولا يعرف سوى بعض مقدماتها : نباتية ، تقشفية ، تطهير ، تعليم ديني ، وتعرف في ذلك الأطروحات اللاهوتية : التقمص وبالنتيجة خلود الروح .

ان مصير الحياة التالي للروح كان يشكل ، كما رأينا (ف ٩٧ ع) هدفاً للمسارات الايلوزية ولكن العبادات الديونوزية والأبولونية كانت هي ايضاً تشرك

مصير الروح . فيبدو مقبولاً إذن ، أنه قد رؤي في الصورة الأسطورية لأورفيه في القرنين الرابع والخامس وكأنه مؤسس لأسرار ، وهي باستلهاها لمسارات تقليدية ، طرحت مذهباً تلقينياً أكثر تحقّقاً لأنه كان يأخذ في الحسبان التقمص وخلود الروح .

ومنذ البداية ، فإن صورة اورفيه بعثت تحت علامات معبرة عن ابولون وديونيزوس ، ان «الارفية» ستتطور في ذات الاتجاه . وليس هذا هو المثال الوحيد . فميلامب mélampe كاهن ييلوس paylos مع انه «المفضل لأبولون» ، كان في ذات الوقت «الذي يشرح للاغريق اسم ديونيزوس ، أضحيته وطواف عضو التذكير» [هيرودوت ٢ - ٤٩] . زد على ذلك ، فقد رأينا (ف ٩٠ ع) ، ان لأبولان علاقة مع هاديس . ومن جهة اخرى ، لقد انتهى بعقد الصلح مع ديونيزوس ، الذي غدا مقبولاً بين الأولمبيين . إن هذا التقريب للآلهين المتضادين ليس بدون دلالة . فهل يمكن ان الروح الاغريقية تعبر هنا عن أملها لأن تجد ، بالمواربة بمثل هذا التواجد للآلهين ، الحل لأزمات متفجرة بخراب القيم الدينية الهومرية ؟

١٨١ - النسب الالهي والإناسة الأورفيين : تقمص الروح وخلودها .

في القرن الرابع ، كان الفكر الديني والفلسفي محكوماً بمسألة الواحد والمتعدد . وكانت الأفكار الدينية في ذلك الوقت تتساءل : «ماهي العلاقة بين كل فرد والآلهة التي يشعر بالانتماء إليها ؟ كيف نستطيع تحقيق الوحدة الكامنة والخفية في الانسان كما في الاله» . ان نوعاً من الوحدة بين الالهي والبشري كان يتم اثناء التهتكات الديونيزية ، الا أنها مؤقتة ، ويتم الحصول عليها بتخفيض الشعور . وان «الأورفيين» بقبولهم للدرس الباخي - أي مشاطرة الانساني للالهي - استخرجوا نتيجة منطقية : الخلود ، وبالنتيجة ألوهية الروح وعليه

أبدلوا التهتك بالتطهير l'orgia par la katharsi الأورجيا بالكاتارسيس ، تقنية من التطهير التي علمها ابولون .

ان الغناء على القيثارة citharède غدا الرمز والمعلم الكامل لحركة ، هي في وقت واحد «مسارية» و «شعبية» عرفت تحت اسم الأورفية . وان مايكفي لتجهيز هذه الحركة الدينية ، هو بدئيا الأهمية المعطاة للنصوص المكتوبة في «الاسفار» . وافلاطون يرجع الى كمية من الكتب المنسوبة الى اورفيه والى موزيه Musée الذي اعتبر كابن او تلميذ له) ومن ثم على التطهيرات والحياة بعد الموت . وهو يشير ايضا الى بعض المقاطع السداسية ، من طبيعة متعلقة بنسب الآلهة ، كما لو انها متعلقة «بأورفيه» . وأوربيد أيضا يتكلم عن «كتابات» اورفية ، واريستو ، الذي لم يعتقد أبداً بتاريخية اورفيه ، كان متألفاً مع نظريات الروح المتضمنة في «الأشعار الأورفية المزعومة»^(١٣) . ويبدو معقولاً ان افلاطون كان يعرف بعض هذه النصوص (يمكن شراؤها من المكاتب) .

وثاني المميزات هو التنوع الملحوظ للأورفيات المزعومة ، إلى جانب كتاب انساب الآلهة ، أو النساك والمنتبين كان يوجد ماكان قد دعاه ثيوفراست Théophraste فيما بعد ، في العصر الكلاسيكي ، بأورفيوتيليستات orpheotélestes «ملقنين أورفين» . وبدون احتساب لصانعي المعجزات thaumaturgs العاميين المطهرين والمنتبين ، الذين وصفهم افلاطون في مقطع شهر^(١٤) . فإن الظاهرة معروفة في تاريخ الاديان : كل حركة تنسكية أو غنوصية أو متعلقة بالخلاص تثير مالا يحصى من التشكلات الكاذبة والمسارات التي تكون أحيانا طفلية . وفي هذا نذكر بما أسمى بالنساك الكذابين الذين فرّخوا بسرعة في الهند منذ عصور الاوبانيشاد ، أو المقلدين الاجلاف لليوجيين والتانتاريك . ان المعارضات تتكاثر ، بخاصة عندما يصر على الخاصية المكتشفة والمسارية لعرفان متعلق بفكرة دينية مغلّصة . ويذكر ، على سبيل المثال ، «بالمسارات» التي لا حصر لها و «بالجمعيات السرية» التي انبثقت في اوروبا الغربية بعد ظهور الماسونية أو ماله علاقة «بالسر الخفي للصلبان الوردية» . وسيكون من السذاجة ، بالنتيجة تسليم العنان للتأثر بالملقنين الأورفين وصانعي المعجزات ، وان يشك

بحقيقة الأفكار والشعائر الأورفية . فمن جهة ، تأكد منذ الأزمنة القديمة وجود عدد من الانتشائيين ، والمتنبئين ، والمتطيين المشابهين للأورفيين وجميع هؤلاء يشكلون احدى مميزات «الديانات الشعبية» . ومن جهة أخرى ، فانه في الواقع بدءاً من القرن السادس ، أخذ يستند الى الأورفية عدد من صانعي المعجزات ، متنبئون ، ومطهرون ، كما ثبت وجود بعض المعارف الروحية (غنوصيات) وتقنيات دينية متعلقة بوجود منقذ sotéreologiques وانه حصل اكراه لاحتذائها ، أو على الأقل ، لتحقيق ألقها المرتبط باسم شخصية خرافية .

ان بعض اشارات افلاطون تسمح لنا بادراك نص المفهوم الأورفي للخلود . فنتيجة قصاص عن جرم بدئي ، ادخلت الروح في الجسد (سوما) كما لو أنها ادخلت في قبر (سيما)^(١٥) . وبالنتيجة فإن الوجود المتجسد يشبه بالأحرى موتاً ، وان الموت يشكل البداية للحياة الحقيقية . مع ذلك فإن هذه (الحياة الحقيقية) لا يمكن الحصول عليها آلياً ، فالروح تحكم حسب أخطائها أو مزايها ، وبعد بعض الوقت تتجسد مجدداً . وكما في الهند بعد الأوبانيشاد ، يتعلق بالاعتقاد بعدم فناء الروح ، المحكوم عليها بالتقمص حتى خلاصها النهائي . وفيما سبق بالنسبة لامبيدوقليس Empédocle الذي كان يتبع «الحياة الأورفية» ، كانت الروح سجيئة في الجسد منفية بعيداً عن الطوباويين مرتدية «القميمص الغريب من اللحم» [فر . . ب . ١١٥ و ١٢٦] . وبالنسبة لامبيدوقلس كذلك ، فإن الخلود أدخل التقمص métempsychose . وقد كان هذا تبريراً لنباتيته (الحيوان الذي يقتل يمكن ان تكون فيه روح واحد من اقرب اهلنا) .

ولكن المزاوالات النباتية كان لها تبرير ديني اكثر تعقيداً وأكثر عمقاً . فبرفض التغذية على اللحم ، كان الأورفيون و «الفيثاغوريون» يمتنعون عن الاضحيات الدموية الالزامية في العبادة الرسمية . وقد ترجم مثل هذا الرفض ، في الحقيقة ، القرار بالانفصال عن المدينة وفي نهاية المطاف (الانعزال عن العالم) ؛ ولكنه كان أعلن بصورة خاصة طرح النظام الديني الاغريقي ، في جملة ، هذا النظام المبني على التضحية الأولى المقدمة من بروميشية prométhée (ف ٨٦٠ ع) . محتفظاً للبشر باستهلاك اللحم ، ومعينا العظام كتقدمة للآلهة ، استجر بروميشية

غضب زوس ، وفجر بالتالي ، العملية التي وضعت نهاية للعصر «الفردوسي» ، عندما كان البشر يعيشون مشاركين مع الآلهة^(١٦) . ان الرجوع الى المزاوالت النباتية يدل في آن واحد على القرار بمحو خطيئة الأجداد وعلى الأقل باسترداد ، في جزء منها على الأقل ، الطوبى أو النعيم الأول .

إن ما أسمى «بالحياة الاورفية» [شرائع ٧١ - ٧٨٢] كان يتضمن تطهيراً تنسكياً وعدداً من القواعد المميزة ، ولكن السلامة كان يحصل عليها بصورة خاصة «بمسارة» أي بكشوفات النظام الكوني واللاهوتي . وبتجميع وتلصيق بعض الشهادات والاشارات للكتاب القدامى (أخيل ، امبيدوقلوس ، بندار ، افلاطون ، اريستوفان الخ ..) وكذلك الوثائق التالية ، تم التوصل لاعادة تركيب الخطوط الكبرى لما يمكن تسميته ، طالما لم يوجد أفضل «المذهب الأورفي» . ويميز فيه نسب آلهة محدداً في نشكونية ، وإناسة متفردة . وإن هذا هو في الأساس الاسطورة الإنسان كونية anthropogonique التي تقيم الأخروية الأورفية ، المتناقضة في ذات الحين مع أخروية هومير وأخروية ايلوزيس .

إن نسب الآلهة المسمى رابسوديات des rhapsodies^(١٧) لا يعتمد سوى بعض التفصيلات لشجرة النسب المنقولة عن طريق هزيود . فالزمن (كرونوس) ينتج في الايثر l'Aither البيضة الأولية حيث خرج أول الآلهة ، ايروس ، المسمى ايضاً فانيس phanès وان ايروس ، هو مبدأ التوالد ، الذي يخلق الآلهة الأخرى والعالم . ولكن زوس يتلع فانيس وكل الخليقة ، وينتج عالماً جديداً . إن النعمة الاسطورية لابتلاع آلهة حية من قبل زوس معروفة جداً . فهزيود يروي ان الأوليبيمي قد بتلع زوجته ميتيس زوجته ميتيس metis قبل الولادة العجيبة لأثينا (ف ٨٤ ع) . غير ان دلالة المعنى في نسب الآلهة الأورفي متباينة : اعترف فيها بالجهود لانشاء اله مدركوني الخالق لعالم يحكمه . اضافة الى ذلك ، فإن المشهد يعكس الانحاء الفلسفي المتعلق بانتاج عوالم متعددة بدءاً من الوحدة^(١٨) . وهذه الاسطورة لها ايضاً بنية قديمة رغم معالجات عديدة لها ، وقد أشير بحق لمشابهاتها ، النشكونية المصرية والفينيقية .

وتطرح تقاليد أخرى كمبدأ أول نيكس = الليل ، الذي حل بأورانوس وجيا ؛ أو اوكينوس okeanos ، الذي انبثق منه الزمن (كرونوس) الذي ، بالتالي ، انتج الإيثر l'Aither والعما ؛ أو الواحد l'un ، الذي أولد النزاع ، والذي بفعله انفصلت المياه عن السماء . وقد كشفت بردية ديرفيني papyrus de Derveni منذ وقت قريب نسبا أورفياً جديداً للآلهة ، مركزاً حول زوس . وان بيتا من الشعر منسوباً الى اورفيه أعلن ان «زوس هو البدء ، والوسط والتتمة لكل شيء» [كون : ١٥ - ٧ - ٥] وقد عين أورفية موارد (القدر) وكأنه من فكرة زوس . «عندما يقول البشر : (موارد قد نسج) فإنهم يفهمون ان فكر زوس قد حدد ماهو قائم وماسيكون ، وما يتوقف عن ان يكون» [كول ١٥ - ٥ - ٧] . وان اوكينوس ليس سوى أقنوم Hypostase لزوس ، وتماها فإن الأم ريا Rhea كجيا (ديمتر) وهيرا ، وكل هذه الأسماء المختلفة هي لذات الربة [كول . . ١٨ - ٧ - ١١] . وإن للنشكونية بنية جنسية sexuelle وواحدية moniste في آن واحد : زوس يصنع الحب في «الهواء» (أو : «في الأعلى») وهكذا خلق العالم . ولكن النص لم يذكر الشريك^(٢) . ويعلن المؤلف وحدة الوجود مؤكداً ان الكلمة (لوغوس) للعالم ماثلة (للوغوس) زوس [كول ١٥ - ١٣] . ويستتبع هذا ان الاسم الدال على العالم هو (زوس) [هيرقليط فر . . ب ١ - ب ٣] . ان النص المحفوظ في بردية ديرفيني هام من عدة وجوه ، فمن جهة يقر ، لعصر متقدم ، بوجود جمعيات سرية أورفية حقيقية ، ومن جهة أخرى ، يوضح الاتجاه الواحد ، لا بل التوحيدي لبعض نسب الآلهة الأورفي .

أما بالنسبة لأصل الانسان بدءاً من رماد التيتان ، فغير مؤكدة بوضوح سوى لدى بعض الباحثين المتأخرين (أول وثاني قرن ب . م)^(٣) . ولكن كما حاولنا اظهاره بصدد النغمة الاسطورية - الطقوسية الديونيزوسية - الزاغروسية (ف ١٢٥ ع) ، نجد اشارات في مصادر اكثر قدما . وبرغم شكوك بعض العلماء ، فإنه يمكن رؤية إحالات لطبيعة تيتانية للانسان في عبارة بندار : «التكفير لحزن قديم» [فر - شر ١٣٣] وفي مقطع من des lois [٧٠١ - س] حول اولئك الذين «يظهرون الطبيعة القديمة للتيتان» . وحسب معلومات اوليمبيودور ، يمكن

الافتراض بأن كزينوكراتيس ، تلميذ أفلاطون ، شارك بفكرة ان الجسد بصفته «سجنا» مع ديونيزوس والتيتان .

ومهما يكن التفسير المعطى لمثل هذه الاشارات الغامضة ، فمن المؤكد ، ان اسطورة التيتان كانت معتبرة ، في القديم وكأنها «أورفية» . وبحسب هذه الاسطورة ، إن الانسان كان يشارك في وقت واحد في الطبيعة التيتانية وفي الألوهية ، نظراً لأن رماد التيتان كان يتضمن كذلك جسم الطفل ديونيزوس . مع ذلك ، وبتطهيرات (كازارموا) وبطقوس مسارية (تيليتية) ، وباتباع «الحياة الأورفية» تم التوصل لالغاء العنصر التيتاني والتحول الى باخس Bakhos ، وبعبارة اخرى ، تم الفصل والوصل للشرط الالهي ، الديونيزي .

ومن غير المجدي الاشارة الى جده وأصولية هذا المفهوم . ونعيد الى الذاكرة بأن الفكر الميزوبوتامي السابق كان قد رأى : خلق الانسان من قبل ماردوك بدءاً من الأرض (أي من جسم غول بدئي ثيامات) ومن دم الشيطان القديم l'archide'mon كينغو (ف ٢١) إلا أن الخلق البشري الأورفي ، هو أكثر غموضاً ومأساوية كما يبدو من تكونه ، وهو يتضمن ، بالتضاد ، عنصر أمل ، مفقود ليس في التكوين الميزوبوتامي ، وانما أيضاً في المفهوم الهومييري . لأنه بالرغم من أصله التيتاني ، فإن الانسان يساهم ، بطريقة تكوينه الخاصة به ، في الألوهية . إنه مؤهل حتى للتحرر من العنصر «الشيطاني» الظاهر في كل وجود دنيوي (جهالة ، نظام اكل اللحوم . . الخ) . ويمكن التفريق بين من جهة ، ثنائية (روح - جسد) قريبة جداً من الثنائية الافلاطونية ؛ ومن جهة اخرى ، مجموعه من الأساطير ، والمعتقدات والسلوك والمسارات التي تضمن فصل «الأورفية» عن مثيلاتها ، وفي آخر المطاف ، فصل الروح عن الكوزموس (الكون) وكل هذا يذكر بالعديد من مذاهب الخلاص والتقنيات الهندية (ف ١٩٥) ويتقدم على مختلف الأنماط الغنوصية (ف ٢٢٩ ع) .

١٨٢ - الأخروية الجديدة

أما بالنسبة للأخروية الأورفية ، فإنه يمكن إعادة تركيب خطوطها الكبرى بدءاً من بعض المراجعات الافلاطونية ، وامبيدوكلس ويندار . فبعد الموت ،

تتجه الروح نحو الهادس l'Hades - الجحيم . وحسب فيدون [١٠٨] أوغورغياس [٥٢٤] ، إن الطريق «ليس وحيداً ولا بسيطاً ، ويوجد عدة رجعات وعدة اجتيازات» . وتؤكد الجمهورية [٦١٤- س د] على أنه من المسموح به للعدل أن يأخذ طريق اليمين ، في حين ان الخبثاء سيرسلون نحو الشمال . ويصادف وجود اشارات مشابهة في الشعر المكتوب على أوراق ذهبية مكتشفة في قبور ايطالية شمالية وفي كريت وهي ترجع على أقل تقدير للقرن الخامس : «سلام لك أنت الذي تسافر بطريق اليمين نحو البراري المقدسة وغابات بيرسفونة» . وهذا النص يتضمن اشارات دقيقة : «إلى الشمال من مقر هادس ، ستجد نبعا ترتفع إلى جانبه شجرة سرو بيضاء ؛ فلا تقترب من هذا النبع كثيراً ، ولكنك ستجد آخر : من بحيرة الذاكرة (منيموزين mnémosyne) ينساب ماء عذب وهناك حراس عاملون ، قل لهم : انني ابن الأرض والساء المرصعة بالنجوم ؛ هذا ما تعلمونه ، ولكنني جاف من العطش وأكاد أموت ، جودوا علي سريعاً بالماء العذب الذي يسيل من بحيرة الذاكرة : ومن ذاتهم سيعطيك الحراس الماء لتشرب من النبع المقدس ، وبعد هذا ستحكم بين الأبطال الآخرين» (٢٣) .

وفي اسطورة إر ER ، يقرر افلاطون ان كل الأرواح المعينة لمعاودة التجسيد مجبرة لتشرب من نبع ليثيه Lethé كي تنسى تجاربها في العالم الآخر . غير أن الأرواح «الأورفية» كان مقدار لها أن لا تعاود التجسد ، وذلك هو السبب الذي من أجله توجب عليها تفادي مياه ليثيه . «لقد قفزت من دورة العقوبات الثقيلة ومن الآلام ، وانطلقت بخطى سريعة نحو العرش المرغوب . لقد التجأت تحت حضن السيدة ، ملكة مقرات الأموات» . وترد الربة : «أيها السعيد ، أيها المبارك المحظوظ : لقد أصبحت الها بدلاً عن الانسان الذي كنته» [ترجمة بولانجية] (٢٤) .

إن «دورة العقوبات الثقيلة» تتضمن عدداً من اعادة التجسيدات ، فبعد الموت ، تحاكم الروح وترسل مؤقتاً إلى مكان المعاقبة ، أو الطوبى béatitude وترجع إلى الأرض بعد الف سنة . وعلى الفاني العادي أن يجتاز الدورة عشر مرات قبل ان ينجو . ولقد وصف الأورفيون كثيراً عذابات المذنبين (والآلام التي

لا نهاية لها المخصصة للمدانيين)^(٢٥) . وان كيرن Kern أكد كذلك بأن الأورفية كانت أول من أبدع الجحيم^(٢٦) . وفي الواقع ان (كاتاباز) المغني في بحثه عن اوريديس كانت حققت كل انواع الأوصاف للعالم الجهنمي . وهنا نصادف مجدداً العنصر «الشاماني» ، الخط السائد في اسطورة اورفيه : معلوم ان الشامان في كل آسيا الوسطى والشمالية ، هم الذين برواياتهم تفصيلات لا حصر لها عن هبوطاتهم الوجدية للجحيم ، قد أقاموا جغرافية جحيمية مشهدة واسعة وجعلوها شعبية تماماً^(٢٧) .

إن للمشهد ولخط سير الرحلة الملخصين بوريقات قليلة - النبع وشجرة السرو ، وطريق اليمين - كذلك الأمر (عطش الموت) ، موازياتها في العديد من الميتولوجيات والجغرافيات الجهنمية . وان بعض التأثيرات الشرقية لا يسوغ استثناءها ، ولكن ذلك يتعلق عن الأرجح بتراث عام لا يمكن تذكره ، ونتيجة تأملات ألوف السنين ، ووجديات ورؤى وانتشاءات ومغامرات حلمية واسفار خيالية ، إنه بالتأكيد ، تراث قوم باشكال مختلفة وبتقاليد مختلفة . فالشجرة بالقرب من نبع ، أو مجرى هي صورة مثالية «للفردوس» وفي الميزوبوتاميا ، كانت الاجابة في حديقة مع شجرة مقدسة ، ونبع ماء ، محروسين من قبل الملك - حارس الجنة ، ممثلاً للاله (ف ٢٢ ع) . ان الأهمية الدينية للوريقات ، تتكون ، اذن ، في واقعة انها تمثل مفهوماً آخر لوجود تال للروح عما تأكد في التقليد الهومييري . ومن الممكن انه يتعلق بعقائد وميثولوجيات قديمة تعود لحوض المتوسط وشرقية ، محفوظة حتى ذلك الحين في أوساط «شعبية» أو منحرفة عن المركز ، والتي تمتعت منذ بعض الوقت ببعض الاحترام بين الأورفيين والفيثاغورين وكل اولئك الذين كانوا مسكونين باللغز الأخروي .

ومما له دلالة اكثر ، هو ، مع ذلك الشرح الجديد «لعطش الروح» . فلاصاحي الجنائزية لتهدة عطش الموتى تأكدت في عدد من الثقافات^(٢٨) . وان العقيدة بأن «ماء الحياة» يضمن بعث الابطال منتشرة في الأساطير والفولكلور . وبالنسبة للاغريق ، ان الموت يمثل بالنسيان ، وان الموتى هم أولئك الذين فقدوا الذاكرة .

ولا يوجد سوى بعض المتميزين ، أمثال تريزياسي أو امفيارس اللذين حافظا على ذاكرتهما بعد المنية . وان هرمس بهدف ان يجعل ابنه ايتاليد خالداً اعطاه «ذاكرة غير قابلة للفساد»^(٢٩) . ولكن ميتولوجيا الذاكرة والنسيان تحولت عندما رسمت مذهباً للتعلم . فأصبحت وظيفة نبع النسيان ليثية مقلوبة : لا تستقبل مياهه ابداً الروح التي تترك الجسد ، بهدف ان تجعلها تنسى الوجود الأرضي ، بالعكس ، فإن ليثيه يحمي ذكرى العالم السماوي في الروح التي ترجع على الأرض بهدف التجسد مجدداً . إن «النسيان لا يرمز مطلقاً للموت وانما للرجوع إلى الحياة . وان الروح التي تنهور بالشرب من نبع ليثيه («المذبوحة بالنسيان والتعاسة» ، كما وصفها افلاطون ، [فيدر ٢٤٨]) تعاود التجسد وهي من جديد مطروحة في دورة المصير . وقد ادعى فيثاغور ، وإيميد وكل وغيرهم ايضاً ممن يقولون بالتعلمص أنهم يتذكرون وجوداتهم السابقة ؛ وبعبارة أخرى ، لقد نجحوا بالحفاظ على الذاكرة في العالم الآخر»^(٣٠) .

ان القطع المنقوشة على صفيحات ذهب تبدو أنها تشكل جزءاً من نص قانوني ، ونوعاً من دليل للآخرة ، قابل للمقارنة «بكتابي الموتى» المصري والتبتي . وقد انكر بعض العلماء خاصيتها «الأورفية» معتبراً اياها كما لو انها من أصل فيثاغوري . كذلك فقد اعتبر ان اكثري الأفكار والطقوس المشهورة «اورفية» تمثل في الحقيقة ابداعاً أو معالجات فيثاغورية ، والمسألة تبدو معقدة جداً لا يمكن تلخيصها في بضع صفحات . ومع ذلك يؤكد بأن الإسهام الاحتمالي لفيثاغورس والفيثاغوريين ، مع كونه بارزاً ، إلا أنه لم يغير معرفتنا للظاهرة «الأورفية» . وبالتأكيد ، فإن المشابهات بين أساطير اورفيه وفيثاغورس واضحة ، كذلك ان التوازي بين شهرتهما المتعلقة بكل منهما غير قابلة للإنكار . ان فيثاغورس ، تماماً «كمؤسس المسارات» الخرافي ، شخصية تاريخية وربما «رجل إلهي» بامتياز ، يتميز بتركيب عظيم لعناصر قديمة (البعض منها «شاماني») ، وبإعادة تقييمات جريئة للتقنيات التنسكية والتأملية . وفي الواقع ، ان اساطير فيثاغورس تشير الى علاقاته مع الآلهة والأرواح ، وسلطته على الحيوانات ، وحضوره في أمكنة متعددة في آن واحد . ويشرح بوركر Burkart «الفخذ

الذهبي» الشهير لفيثاغورس بمقارنته له بمسارة من نموذج شاماني . (معلوم ، في الواقع ، ان الشامانيين السيريين اثناء مسارتهم ، يكونون معنيين بالحصول على اعضاء متجددة ، وتجمع العظام أحيانا مع حديد) . وأخيراً فإن كاثاباز catabase فيثاغورس يشكل عنصراً شامانيا . ويروى هيرونيوموس الرودسي Hiéronymos de Rhodes ان فيثاغورس نزل في الهادس وهناك رأى روحي هومر وهزيود مكفرتين عن كل ماقلاه من شر في الآلهة^(٣١) . ومثل هذه الملامح «الشامانية» هي فضلاً عن ذلك غير مستثناة من خرافات اورفية وفيثاغورس . إن أباريس الشمالي l'hyperbareén Abaris كاهن ابولون ، طار على سهم (ف ٤٩١) ، واريستياز البروكونيزي Aristéase de proconnèse كان مشهوراً بانتشائه القابل لأن يختلط مع الموت ، بتحوله لغراب ؛ وهيرموتيموس الكللازوميني ، الذي كان معتبراً من قبل بعض الكتاب كتجسد سابق لفيثاغورس ، كان قادراً على ترك جسده لوقت طويل^(٣٢) .

ويضاف على المشابهات لتراجم الحياة الخرافية ، المشابهات بين المذاهب وتطبيقات «الأورفيات» والفيثاغورية : الاعتقاد بالخلود ، التقمص ، القصاص في الجحيم ، عودة الروح الأبدية للسماء ، النباتية ، الأهمية المعطاة للتطهيرات ، التنسك . غير أن كل هذه المشابهات والمطابقات لا تثبت وجود «الأورفية» بصفتها حركة مستقلة . وقد يمكن ان بعض الكتابات «الأورفية» هي من تأليف فيثاغورسيين ، الا انه سيكون من السذاجة التخيل ان الاساطير الأخروية ، والمعتقدات والطقوس «الأورفية» قد اخترعت من قبل فيثاغورس او تلامذته . فالحركتان الدينيتان تطورتا بالتوازي ، كتعبيرين عن تصور واحد . ومع الفارق ، بأن «المذهب» الفيثاغوري ، تحت ادارة مؤسسه ، لم ينتظم في جمعية مغلقة ، من نوع باطني فحسب ، بل ان الفيثاغوريين زرعوا منهجاً «لتربية كاملة»^(٣٣) . واكثر من هذا ، إنهم لم يزدروا السياسة العملية ، حتى انهم خلال فترة من الزمن توصلوا لاستلام السلطة في عدد من مدن ايطاليا الشمالية .

ولكن اكبر ميزة لفيثاغورس هي وضعه الأسس «لعلم شامل» ذي بنية متكاملة holistique ، أدخلت فيه المعرفة العلمية في جملة مبادئ اخلاقية ،

وميتافيزيقية ودينية ، ومترافقة بمختلف «تقنيات الجسد» . وبالجملة كان للمعرفة فيه وظيفة هي في آن واحد غنوصية ، وجودية ، ومتعلقة بالخلاص sotériologique وهذا هو «العلم الكلي» من نمط تقليدي^(٣٤) ، الذي يمكن التعرف عليه في فكر افلاطون كما هو ايضاً عند الانسانيين في النهضة الايطالية ، وعند باركليز أو عند الكيميائيين في القرن السادس عشر ، «علم كلي» كما تحقق خاصة بالطب والكيمياء الهندية والصينية .

ان بعض المؤلفين يميلون لاعتبار الحركة الأورفية كنوع من «كنيسة» أو مذهب يمكن مقارنته بمذهب الفيثاغوريين . ومن المحتمل أن الأورفية تشكلت في «كنيسة» أو في تنظيم سري مماثل لديانات الاسرار . الأمر الذي يميزها - حركة «شعبية» ومبهرة للنخبة ، وفي وقت واحد متضمنة «مسارات» وحائزة «لكتب» - ويقربها بالأحرى من التانتارية tantrisme الهندية والتاوية الجديدة . وان هذه الحركات الدينية ، لا تشكل ولن تشكل «كنائس» ولكنها تتضمن «مدارس» ممثلة لتقاليد متوازية مشهورة بسلسلة من المعلمين ، الخرافيين احياناً ، وحائزة لأدب موسع^(٣٥) .

ومن جهة أخرى ، يمكن التعرف في «الأورفيين» الورثة لجماعات مسارية ، الذين في العصر القديم أشغلوا وظائف مختلفة تحت الاسم كابير kabires ، تيلشين telchines ، كوريت courètes ، كوريبانت corybantes ، داكسيل dactyles جماعات حافظ اعضاؤها بحسد على بعض «اسرار المهنة» (كانوا معدنين وحدادين ، وكذلك مطبيين ، ومتنبئين ، ومعلمي مسارات الخ) . وببساطة فإن «اسرار المهنة» ذات العلاقة مع مختلف التقنيات المتابعة للسيطرة على المادة ، كان لها محلها في «الأسرار» المتعلقة بمصير الروح بعد الموت .

ومع ان تقدير الأورفية قد انحدر بعد الحروب الميدية ، فإن افكارها المركزية - الثنائية ، الخلود ، واذن الوهية الانسان ، الأخروية - لم تنقطع عن اشغال الفكر الاغريقي ، وبخاصة عبر شرح افلاطون . وقد استمر التيار في

• يلفت النظر - الاسم الأول والثاني ومائلتها باللفظ العربي خبير وتلقين .

الحياة على مستوى شعبي كذلك ، («الأورفيوتيلست les orpheotélestes » وبعد فترة متأخرة ، في العصر الهلنستي ، أمكن توحيد التأثير لبعض المفاهيم الأورفية في ديانات الاسرار ، بانتظار الموجة الجديدة التي ستعرف فيها الأورفية في القرون الأولى من العصر المسيحي ، وبخاصة بفضل الافلاطونية المحدثة والفيثاغورية الجديدة . وان هذه الامكانية للتطور والتجدد وللتدخل بطريقة خلاقة في عدد من التركيبات الدينية ، هي التي كشفت ، فعلاً ، مضمون التجربة «الأورفية» .

اما بالنسبة لصورة أورفيه فإنها استمرت لتكون موضعاً لاعادة تفسيرها باستقلال عن «الأورفية» من قبل اللاهوتيين اليهود والمسيحيين ، ومن قبل الهرمسيين = كيميائيين حتى بوب pope ومنذ نوفاليس حتى ريلكه وبيير ايمانويل . وأورفيه هو واحد من الوجوه الاسطورية النادرة الاغريقية التي لم تشأ أوروبا نسيانهم سواء أكانت أوروبا هذه مسيحية ، متنورة ، رومانتيكية ، أو حديثة (الجزء الثالث من هذا الكتاب) .

١٨٣ - افلاطون - فيثاغور والأورفيه

ان تاريخ الفلسفة الغربية ، حسب الصيغة الشهيرة لهوايت هيد A.N.Whitehead ليس في جملته سوى سلسلة ملاحظات ترقية لصفحات فلسفة افلاطون . وأهمية افلاطون في تاريخ الأفكار الدينية هو كذلك بارز : العصر القديم المتأخر ، واللاهوت المسيحي بدءاً من القرن الرابع بصورة خاصة ، والغنوص الاسماعيلي ، والنهضة الايطالية ، تميزت كلها بعمق بالرؤية الدينية الافلاطونية ، مع الخلاف فيما بينها . والواقعة التي لها دلالتها ولزومها اكثر من الأولى ، هي ان إلهام افلاطون لهذه الحركات لم يكن دينياً وإنما سياسياً . وفي الواقع ، إن افلاطون كان قد حلم بإقامة المدينة الفاضلة المثالية ، المنظمة حسب قوانين العدالة والانسجام ، المدينة التي يتوجب على كل فرد فيها ، ان يشغل

وظيفة محددة ومميزة . والحال أن آثينا فيها سلف كانت مع المدن الاغريقية الأخرى متآكلة بسلسلة من الازمات السياسية والدينية والاخلاقية التي كانت تهدد أسس البنيان الاجتماعي ذاتها . وقد كان سقراط عين المنبع الاساسي للتفكك في نسبية السفسطائيين وفي الشكية المعجمة ، ولأن انكار السفسطائية وجود مبدأ مطلق غير قابل للتحويل جعلهم يعارضون ضمناً امكانية المعرفة الموضوعية ، ويهدف ان يبرز سقراط زيف مقولتهم فقد ركز على طريقة التوليد maieutique أي الحوار المبنية على اشعار النفس بما تنطوي عليه من المعرفة الفطرية، الموصل إلى معرفة الذات والى مذهب قدرات الروح . أما تقصي العالم الطبيعي فلم يكن يهيمه في شيء . ولكن افلاطون أجهد نفسه لاكمال تعليم استاذة ، ولكي يؤسس علمياً قيمة للمعرفة ، فقد درس الرياضيات . وقد بهره المفهوم الفيثاغوري للوحدة الكلية ، والنظام الثابت للكون والانسجام الذي ينظم مسيرة الكواكب كالسلم الموسيقي^(٣٦) . وباحيائه لنظرية الأفكار ، المتعلقة بالمثل الخارج - أرضية والثابتة للحقائق الأرضية ، رد على السوفسطائية والمتشككين : المعرفة الموضوعية هي ممكنة اذن ، لأنها تستند على مثل سابقة الوجود وأبدية .

وفي موضوعنا هنا لا يهمننا إن افلاطون يتكلم أحياناً عن عالم افكار كمثال لذاتنا- حيث ان الاشياء المادية «تحتذي» الأفكار ضمن امكانية قدرتها- وانه يؤكد أحياناً بأن عالم الوقائع المحسوس «يساهم» في عالم الأفكار^(٣٧) . ولكن هذا العالم من المثل الخالدة ما أن يقوم مرة ، حتى يتوجب تفسير متى ، وكيف توصل البشر لمعرفة الأفكار . ومن أجل حل هذه المسألة استعان افلاطون ببعض المبادئ الأورفية والفيثاغورية المتعلقة بمصير الروح . صحيح ، ان سقراط كان أصراً سابقاً على القيمة التي لا تقدر للروح، لأنها وحدها كانت منبع المعرفة، وأشار إلى ضرورة «العناية بالروح» . وناهض الرأي التقليدي المبرم من هومر، وبخاصة أن الروح هي مجرد شيء «مشابه للدخان» . غير ان افلاطون ذهب بعيداً أكثر : بالنسبة له ، الروح - وليست الحياة !- كانت الشيء الأكثر قيمة ، لأنها كانت تنتمي لعالم مثالي وابدئي . فهو يستعير اذن من التقليد «الأورفي» - الفيثاغوري ، مع تطويعه تماماً في نظامه الخاص ، مبدأ تقمص الروح واعادة

التذكر (anamnesis)

وبالنسبة لافلاطون ، ان المعرفة تعود ، في آخر المطاف لتذكر [ر . خاصة مينون ٨١ - ٢٠٥] . فبين وجودين ارضيين تتأمل الروح الأفكار : تشارك في المعرفة النقية والكاملة . ولكن هذه الروح باعادة تجسدها ترتوي من نبع النسيان lethi وتنسى المعرفة المتحصلة بالتأمل المباشر للأفكار . إلا أن هذه المعرفة كامنة في الانسان المتجسد ، وبفضل العمل الفلسفي ، تكون هذه المعرفة قابلة لتنتقل من القوة إلى الفعل . والموضوعات الطبيعية تساعد الروح لأن تنطوي على ذاتها ، وينوع من «النكوص» لتجد وتسترد المعرفة الأصلية التي كانت حازتها في شرطها الخارج - أرضي . والموت هو ، بالنتيجة ، العودة الى حالة بدئية وتامة ، مضاعة دوريا باعادة تجسد الروح^(٣٨) .

إن الفلسفة هي «تهيئة لأجل الموت» في المعنى الذي تلقنه للروح ، كيف أنها بتحررها مرة من الجسد تبقى في الحالة نفسها باستمرار في عالم الأفكار ، وبالتالي تتجنب اعادة تجسد جديد . واجمالاً فإن المعرفة صحيحة ، وان السياسة الوحيدة التي تستطيع انقاذ المدن الاغريقية من دمارها ، بنيت على فلسفة تلتمس عالماً مثالياً وخالداً وتقمصا للروح^(٣٩) .

ان التعليمات الأخروية كانت في أوج شهرتها ، وفي الحقيقة ، ان مذهب خلود الروح وانتقالها والتقمص لم تكن تشكل مستحدثات . ففي القرن السادس ق.م كان فيريسيد السيروسي phérécide de syros أول من قال ، بأن الروح هي خالدة وانها تعود تباعاً للتجسد على الأرض^(٤٠) . ومن غير المناسب مشابهة المصدر الظرفي لهذه العقيدة . ففي زمن فيريسيد لم تكن صيغت بوضوح الا في الهند . وكان المصريون يعتبرون الروح خالدة وقابلة لأن تتخذ مختلف اشكال الحيوانات ، ولكنه لا يوجد أي أثر لنظرية عامة لهجرة الروح وانتقالها . والجيت getes ايضا كانوا يعتقدون بإمكانية «خلود المرء» الا انهم كانوا يجهلون التقمص وانتقال الروح^(٤١) .

وعلى كل حال فإن أخروية فيريسيدي لم يكن لها صدى في عالم الإغريق .
وان الأورفية وبخاصة فيثاغورس ، وتلامذته ومعاصره امبيدوقليس هم الذين
عمموا وبذات الوقت نهجوا مذهب انتقالات الروح والتقمصات . ولكن تأملات
لوسيب Leucippe وديموقريط Démocrite الكوزمولوجية والاكتشافات الفلكية
الحديثة ، وبخاصة تعليم فيثاغورس ، قد غيرت جذرياً مفهوم استمرار حياة
الروح ، وبالتالي ، بنى الآخرة . لأنه عرف الآن بأن الأرض كانت كرة ، وانه لا
هادس تحت الأرض الهومرية ، ولا «جزائر السعداء» التي كان يظن بأنها واقعة في
اقصى الغرب ، لم يعد يمكن لها أن تؤقلم في اسطورة - جغرافية ارضية . وقد
أعلن مبداً فيثاغوري بأن «جزائر السعداء» كانت «الشمس والقمر»^(٤٢) .
وبالتدريج ، فإن أخروية جديدة وجغرافية جنائزية اخرى انتهتا لأن تتعارضاً :
الآخرة تأقلمت الآن في مناطق النجوم ، والروح اعلنت من أصل سماوي
(حسب لوسيب وديموقريطس انها «من نار» مثل الشمس والقمر) ، وستنتهي
بالرجوع الى السماوات .

ولهذه الأخروية قدم افلاطون اسهاماً حاسماً . فقد ابتكر «ميتولوجيا للروح»
جديدة واكثر تماسكاً ، مستخرجاً لها من التقليد الأورفي - الفبثاغوري ،
ومستعملاً بعض المصادر الشرقية ، ولكنه ادخل كل هذه العناصر في رؤية
شخصية . لقد أهمل الميتولوجيا الكلاسيكية المؤسسة على هومر وهزiod . وان
عملية طويلة من التآكل انتهت لتفريغ الأساطير والآلهة الهوميرية من دلالتها
الأصولية^(٤٣) . زد على ذلك ، فإن «ميتولوجيا الروح» لم يكن ممكناً لها ان تجد أي
سند في التقليد الهوميري . ومن جهة اخرى ، فإن افلاطون نفسه في محاوراته
عارض اسطورة اللاغوس mythos au logos ؛ وفي أحسن الأحوال ، ان
الاسطورة هي خليط من الخيال والحقيقة . مع ذلك ، فإنه في كتابه الرئيسي
المأدبة Bunguet لم يتردد افلاطون في ان يجادل حول باعثن اسطوريين ، الايروس
النشكوني وبخاصة ، الانسان البدئي المتخيل ككائن مزدوج الجنس بشكل كرة
[سبب ١٨٩ - ١٩٣] . ولكن هذا يتعلق باساطير من بنية قديمة جدا . فخشوية
الانسان الأول تأكدت في العديد من التقاليد القديمة (الهندو - اوردتية ، مثلاً)^(٤٤)

وان مغزى الاسطورة الخثوية هو شفاف : كمال الانسان كوحدة بدون انفصام . مع ذلك يضيف افلاطون الى هذا دلالة جديدة : الشكل الكروي والحركات للتشكل البشري متشابهان بالاجرام السماوية ، التي كان قد نزل منها هذا الكائن الأول .

إن الأصل السماوي للانسان هو الذي توجب شرحه بصورة خاصة . لأنه أسس «ميتولوجيا الروح» . ونصادف في جورجياس [٤٩٣] لأول مرة اسطورة اخروية ، الجسد هو قبر الروح . ويدافع سقراط عن هذه الاخروية بالرجوع الى اوربيد وللتقاليد «الأورفية» الفيثاغورية . فالارتحال هو مضمّر فحسب ، ولكن هذا النغم ، الرئيسي في الاخروية الافلاطونية ، قد حلل ، كما سنرى ، في المينون le Ménon [٨١ - أ - ي] . ففي فيدون [١٠٧ ي] حدد بدقة ان الروح تعود على الأرض بعد فترة طويلة .

وتعاود الجمهورية أخذ الرمزية القديمة «للأكبر والأصغر macro cosme- microcosum وتطوره في معنى افلاطوني مميز ، مظهره التشابه بين الروح ، والدولة ، والكون . ولكن نغمة المغارة [الجمهورية ٧٠] بصورة خاصة هي التي تشهد على القوة الابداعية الميثولوجية لافلاطون .

وتلك الرؤية الاخروية قممتها في فيدر phédre : هنا ، لأول مرة ، يكون مصير الروح متضامن مع حركات السماوات [٢٤٦] . وقد أعلن ان المبدأ الأول للكون متطابق مع أول مبدأ للروح . ومما له دلالة ان الحوار نفسه يضع موضع العمل رمزين غربيين : الصورة الاسطورية للروح مقارنة بحوزي سائق عربته ، وبأجنحة الروح . ونصادف الصورة الأولى في الكاينا اوبانيشاد [١ - ٣ - ٣ - ٦] وانما مع هذا الفارق وهو انه لدى افلاطون ، ان صعوبة القيادة تعود للخصومة بين الحصانين . أما بالنسبة «لأجنحة الروح» فانها «تبدأ تنبت» عندما «يتأمل الانسان جمال الكون [و] يبدأ في التفكير بالجمال في ذاته» [٢٤٩] ان نبات الاجنحة على اثر المسارة تأكد في الصين ، لدى التاويين ، وفي التقاليد السرية للرجال المداوين الاستراليين^(٤٥) .

وان الصورة متضامنة مع مفهوم الروح بصفتها جوهر روحاني طيار ،
يمكن مقارنتها بالطائر او الفراشة . والطيران يرمز للذكاء ، ومعرفة الاشياء السرية
او الحقائق الميتافيزيقية^(٤٦) . واستعمال هذا الرمز القديم لا يعتبر مفاجأة لأن
افلاطون «اعاد كشف» وتطوير ما امكن تسميته الانطولوجيا القديمة : نظريته
في المثل ، تحدد النماذج المثالية ، المميزة للروحانية التقليدية . وان الأسطورة
النشكونية لطيماوس du Timée تقيم بعض اشارات من بروثاغوراس ومن المأدبة ، إلا
انه يتعلق بأبداع جديد . وان مما له دلالة ان الفيثاغوري طيماوس هو الذي ، في
هذه الرؤية النشكونية العليا لافلاطون ، يؤكد ان الخالق Demiurge قد خلق ذات
العدد من الأرواح مما يوجد من نجوم [طيماوس ٤١] . وان تلامذة افلاطون
اكملوا فيما بعد نظرية «الخلود الكوكبي» . وعليه ، فإنها بالعناصر «الأورفية»
والفيثاغورية التي امتزجت بها ستعرف انتشارها الواسع . وستصبح هذه
النظرية ، التي يظهر فيها المعطى البابلي «إلهية النجوم» سائدة بدءاً من العصر
الهيليني^(٤٧) .

ان الاصلاح السياسي الذي حلم به أفلاطون لم يتجاوز مطلقاً حالة
المشروع . وبعد جيل من موته تنهار أمام التقدم المذهل للاسكندر الكبير كافة
المدن - الدول الاغريقية . وان هذه هي إحدى الفترات النادرة في التاريخ العالمي
حيث أن نهاية العالم تمتزج تقريباً مع البداية لنوع جديد من الحضارة ، ذلك الذي
سيُفتح خلال العصر الهيليني . ومما له دلالة ان اورفيه ، وفيثاغورس وافلاطون
يمثلون بين مصادر الالهام للتدين الجديد .

١٨٤ - الاسكندر الكبير والثقافة الهيلنستية

عندما مات الاسكندر في بابل ، ٣ حزيران ٣٢٣ ق.م عن عمر يقل عن
٣٣ سنة ، كانت امبراطوريته تمتد من مصر حتى البنجاب . وخلال اثني عشر
عاماً وثمانية اشهر من حكمه كان قد اخضع المدن - الدول الاغريقية ، وآسيا

الوسطى وفينيقيا وفتح امبراطورية الاكاسرة الأخمينيين وغلب بوريس Porus . الا انه ، رغم عبقريته وهالة مجده النصف إلهية - لأنه كان اعتبر كابن لزوس - آمون - فإن الاسكندر تعلم ، في بيس Beas ، الحدود لقوته ، فالجيش كان تمرد ، رافضاً اجتياز النهر ومتابعة تقدمه في الهند ؛ و «معلم العالم» كان مجبراً على الرضوخ . لقد كانت هذه اكبر خيبة له وكانت الهزيمة لمشروعه الخيالي : فتح آسيا حتى «المحيط الخارجي» l'oceanex terieur مع ذلك وعندما أمر الاسكندر بالتراجع ، فإن المصير المباشر للهند ، وكذلك مصير العالم التاريخي بصورة عامة ، كان قد رسم : آسيا الآن اصبحت مفتوحة للتأثيرات المتوسطة ، ومنذئذ ، لم تنقطع الاتصالات بين الشرق والغرب بشكل كامل .

ومنذ السيرة الذاتية لـ ج . ج درويسن (١٨٣٣) G.G. Droysen وبخاصة منذ كتاب و . و تارن ١٩٢٦ W. W. Tarn شرح عدد من المؤرخين حسب تصورات مختلفة ، لابل متناقضة ، الهدف المقصود من الاسكندر في فتحه لآسيا^(٤٨) . وسيكون من السذاجة محاولة تحليل المتناقضات التي دامت منذ قرن ونصف في بضع صفحات . إلا أنه مهما كان المنظور الذي يحكم من خلاله على حملات الاسكندر ، فمن المتفق عليه ان نتيجتين لها كانتا عميقتين ومحتومتين . فبعد الاسكندر وجدت الصورة الجانبية التاريخية للعالم متغيرة جذريا . وان البنى السياسية والدينية السابقة - المدن - الدول ودساتيرها الثقافية ، وان المدينة la polis بصفتها «مركز العالم» ومستودع النماذج المثالية ، والاناسة (الانثروبوجيا) المنبثقة بدءاً من اليقين بوجود اختلاف لا يردم بين الاغريق و «البرابرة» - كل هذه البنى انهارت . وتوضع بالتتابع في مكانها جميعها معنى مسكوني واتجاهات كونية (كوزموبولوتية) وعالمية . وبرغم المقاومات ، فإن اكتشاف الوحدة الأساسية للجنس البشري كان لا بد منه .

إن اريسطو معلم الاسكندر ، كان يرى ان العبيد هم عبيد بطبيعتهم ، وان البرابرة هم عبيد بالطبيعة^(٤٩) . . . ولكن الاسكندر تزوج في سوزا suse من اميرتين اخمينيتين ، وزوج حسب الطقس الفارسي تسعين من رفاقه الصميمين من بنات العائلات الايرانية النبيلة . وبالتوازي مع ذلك ، احتفل بزواج عشرة

آلاف جندي مقدوني حسب الطقس الفارسي ايضاً . وفيما بعد ، نال الفرس الأمانة الأولى في الجيش واندجوا حتى في التجمع السياسي الكتبية la phalange . وقد كان المقدونيون بعيدين عن مشاطرة مليكهم مفهومه السياسي هذا . فيما انهم منتصرون وفاتحون ، لم يكونوا يرون في البرابرة ، سوى شعب مغلوب . وعندما تمرد المقدونيون في أوبيس opis - لأنه كما كان عبر عن ذلك واحد منهم : «جعلتم من الفارسيين أباءكم» - صرخ فيه الاسكندر : «ولكنني صنعت منكم جميعاً اقربائي !» . وانتهى التمرد بحفلة مصالحة ، اقيمت حسب التقليد ، ودعي إليها ٣٠٠٠ شخص . وفي نهايتها تلفظ الاسكندر بصلاة - دعاء - من أجل السلام ورجا أن تصبح كل الشعوب في امبراطوريته مشاركة في ادارة الجماعة . وازافة لذلك تمنى على كل الشعوب في العالم ان تستطيع العيش سوية في انسجام ووحدة القلب والنفس (homonoia) . وقد كان قال سابقاً ، ان كل البشر هم ابناء لأب واحد وان صلاته كانت التعبير عن عقيدته التي كان تلقاها رسالة من الاله من أجل ان يكون مصلح العالم^(٥٠) .

ان الاسكندر لم يعلن نفسه مطلقاً انه ابن زوس : ومع ذلك فإنه قبل هذا اللقب من قبل الآخرين . ولكي يضمن الاندماج بين اليونان والفرس ادخل الاحتفال الايراني «طاعة» (Prosknesis) الملك . (وكان تبني سابقاً العادة وقواعد السلوك (ايتيكيت) للاقبال الاخمينيين) . وبالنسبة للايرانيين فان حفلة «طاعة الملك» كانت تختلف حسب الصنف الاجتماعي الذي كان ينفذها . وثمة نقش من بيرسبوليس يمثل داريوس الأول جالساً على عرشه ، ونبيل فارسي يرسل له قبلة باليد . ولكن هيروdotus يؤكد ان اتباع الصنف الأدنى كانوا يركعون امام الملك في خشوع عميق . مع ذلك ، فإن الاسكندر الذي فوجيء بمعارضة من رفاقه ، تنازل عن (حفلة طاعة الملك prosknesis) ؛ وفي الواقع قد تنازل في ذات الوقت عن الفكرة بأن يصبح إلهام لامبراطوريته^(٥١) . ومن الراجح ان هذه الفكرة أوحيت إليه بمثال الفراعنة ، ولكنه يجب ان يؤخذ في الحسبان ايضاً بعض الاتجاهات على أهبة التحقيق في اليونان . ونقتصر على ذكر مثال واحد: كتب ارسطو - مفكراً بالتاكيد بالاسكندر - انه ، عندما سيعود ، فإن السيد الأعلى

سيكون الها بين البشر [السياسة ٣ - ١٣ - ١٢٨٤] . وعلى كل حال ، فإن خلفاء الاسكندر في آسيا ومصر سيقبلون بدون تردد بأن يؤهلوا .

وبعد عشرين سنة من الحروب بين أولياء العهد اليونان فإن ما بقي من الامبراطورية كان مقسماً بين الأسر المالكة المقدونية الثلاثة : آسيا ، أصبحت للسلوقيين ، ومصر للبطالة ، ومقدونيا للأنتونييين Antigonides . الا أنه بدءاً من ٢١٢ ق.م بدأت روما بالتدخل في أعمال العروش الهيلينية وانتهت بامتصاص عالم البحر المتوسط برمه . وعندما فتح اوكتاف مصر في عام ٣٠ ق.م فإن المسكونة الجديدة كانت امتدت من مصر ومن مقدونيا حتى بلاد الأناضول وما بين النهرين . ولكن نهوض الامبراطورية الرومانية imperium Romanuns مَيَز كذلك نهاية الحضارة الهيلينية .

ان توحيد عالم تاريخي مطعم بالاسكندر انجز في أول وقت بهجرة كثيفة للهيلينيين نحو الأقاليم الشرقية ، ونشر اللغة اليونانية والثقافة الهيلينية . واللغة الاغريقية العامة (Koiné) كانت تحكى وتكتب من الهند وايران حتى سورية ، وفلسطين ، وفي ايطاليا ومصر . وفي المدن ، قديمة كانت أو منشأة حديثاً رفع الاغريق معابد ومسارح واقاموا ملاعبهم الرياضية gymnasia . وتباعاً ، فإن التعليم على النموذج الاغريقي تم تبنيه من قبل الأغنياء واصحاب الامتيازات من كل البلدان الاسيوية . ومن طرف لآخر من العالم الهيليني مجدت قيمة واهمية «التعليم» و «الحكمة» . والتعليم - المبني دوماً على فلسفة - أفاد من احترام شبه ديني . ولم يوجد في التاريخ مطلقاً مثلما وجد في اليونان من بحث عن العلوم وفي ذات الوقت اعتباره توسيحاً للسمو الاجتماعي وكأداة للكمال الروحي (٥٢) .

ان الفلسفات الرائجة ، وفي المحل الأول منها الرواقية stoicisme ، المؤسسة من قبل رجل سامي من قبرص ، زينون السيتومي Zénon de Cittium (٥٣) ، ولكن ايضاً مبادئ ابيقور Epicure والكليبيين Cyniques تعارضت في كل المدن وإن ما أسمى «بالتنوير الهيلينستي» شجع في آن واحد الفردية والعالمية cosmopolotisme . وان اضمحلال المدينة (بولبس) اعتق الفرد من

ارتباطاته القديمة بالنظام المدني والديني ، وعلى العكس ، فإن هذا الانعتاق كشفت له عزلته وانحلاله في كون مرعب بغوامضه ولا نهائيته . وقد بذل الرواقيون مافي وسعهم لدعم الفرد مظهرين له التشابه بين المدينة والعالم . وكان ديوجين Diogène قبل ذلك ، والمعاصر لاسكندر ، قد أعلن انه «عالمي cosmopolits» ، و «مواطن للعالم»^(٥٤) (وبعبارة اخرى ، لم يعترف بدويجين كمواطن لأية مدينة ، ولأي بلد) . ولكن الرواقيين هم الذين اعطوا الصفة الشعبية لفكرة ان كل البشر عالميون cosmopolites - مواطنون للمدينة ذاتها ، الكون - مهما كان أصلهم الاجتماعي ووضعهم الجغرافي^(٥٥) . «في دولته المثالية ، قدم زينون أملاً باهراً الذي ، منذئذ ، لم يترك الانسان ؛ لقد حلم بعالم لن يصبح مقسماً بين دول متفرقة ، وانما عالم سيشكل مدينة كبيرة ، تحت سلطة قانون إلهي واحد ، حيث سيجتمع كل المواطنين ليس بشرائع بشرية وانما برضاهم الاختياري ، أو كما يعبر زينون ، بالحب»^(٥٨) .

وان ابيقور هو ايضا قد كان نشر (العالمية) ؛ ولكن هدفه الاساسي كان خير الفرد . ولقد قبل وجود الآلهة ، مع ذلك ، فإن هذه الآلهة ليس لها ما تفعله لا مع الكون ولا مع البشر . ان العالم كان آلة machine أتت للكائن بطريقة آلية صرفة ، وبدون صانع وبدون قصد . وبالنتيجة ، فإن الانسان كان حراً في اختيار طريقة الوجود التي تناسبه بشكل أفضل . ان فلسفة ابيقور تصدى للبرهان على ان الصفاء الروحي والسعادة المتحصلة براحة الضمير l'ataraxia تميزان الوجود الأفضل الممكن .

وان مؤسس الرواقية يعبر عن مذهبه بما يتعارض مع مذهب ابيقور ، وحسب زينون وتلامذته ، ان العالم قد تطور بدءاً من التجلي البدئي لئله ، والبذرة النارية التي أولدت «العلة المنوية Raison séminale» (logos spermatikos) أي القانون الكوني Loi universelle . وظاهرياً ، ينبثق الذكاء البشري من شعلة الهية . في هذه الوحدة للوجود الموحدة الواضعة عقلاً واحداً ، ان الكون هو «حي مليء بالحكمة» [الرواقية - قطع - ان - ١٧١ - ٢٠ ن ٤٤٠ - ٤٤٤] . وعليه ، فإن الحكيم يكتشف في اعماق روحه ، انه يملك ذات (اللوغوس) الذي

ينعش ويحكم الكون (مفهوم يعيد الى الذاكرة اقدم الاوبانيشادات ، (ر ف ع ٤٨١). فالكون هو اذن معقول ومتلقي لأنه مخترق بالعقل . وبممارسة الحكمة ، يحقق الانسان التماهي مع الألوهة ويسود مصيره الخاص بكل حرية .

صحيح ان العالم والوجود البشري ينتشران تبعاً لمخطط مقرر بدقة . ولكن بالفعل البسيط الذي يزرع الفضيلة ويقوم بواجبه ، والذي يتم اجمالاً الارادة الالهية ، فإن الحكيم يثبت الحرية ويفارق الحتمية . وان الحرية (autarkes) تعادل اكتشاف عصمة الروح . والروح معصومة تجاه العالم والغير ، ولا يمكنها فعل الشر الا لذاته . ان هذا التمجيد للروح يعلن في ذات الوقت المساواة الاساسية بين البشر . ولكنه من أجل الحصول على الحرية يجب ان يحرر الانسان نفسه من الهيجانات والتنازل عن كل شيء - «الجسد ، الملكية ، المجد ، الكتب ، السلطات» - لأن الانسان هو «العبد لكل مايرغب فيه» ، الانسان هو «عبد الآخرين» [ابيكيت ٤ ، ٤ ، ٣٣] . ان المعادلة : ملكيات ورغبات = عبودية تذكر بالمذاهب الهندية ، وبخاصة اليوجا والبوذية [ف ١٤٣ ، ع ٤ - ١٥٦ع] . كذلك فإن مناداة ابيكيت في توجهه للاله : «اشاطرك ذات العقل . . اني مثلك» [٢ - ١٦ - ٢٤] تذكر بما لا يحصى من الموازيات الهندية . إن المطابقات بين الميثافيزيقيات والالهيات الهندية وتلك العائدة للبحر المتوسط تتكاثر في القرون الأولى قبل المسيح . وسنعود إلى دلالة هذه الظاهرة الروحية .

إن المستجدات الخاصة بالديانات الهيللنستية هي تماماً مثل الفلسفات الجديدة ، كانت ترنو الى خلاص الفرد . وان التنظيمات المغلقة والمطبقة لمسارة وكشوف اخروية تتكاثر . والتقليد المساري لاسرار ايلوزيس (ر. فصل ١١) سيعاد الأخذ به وتوسيعه من قبل مختلف الديانات السرية ، المركزة حول /الهة مشهورة معروفة وقاهرة للموت (ف ٢٠٥ع) . ومثل هذه الالهة كانت اكثر قرباً من الانسان وكانت مهمة بنشاطه الروحي وتضمن له سلامته . وإلى جانب الالهة والربات للاسرار الهيللنستية - ديونيزوس ، ايزيس ، اوزيريس ، سيبيل ، آتيس ، مثيرا - فإن آلهة اخرى اصبحت شعبية ، ولذات الأسباب : هيليوس ، هيراقلس ، آسليبيوس تحمي وتساعد الفرد^(٥٧) . حتى الملوك المؤهلين يبدون اكثر

فاعلية من الآلهة التقليدية : الملك هو منقذ (سوتي soter) انه يجسد «الشرعية الحية» (nomos apocalypses) .

إن التوفيقية الاغريقية - الشرقية التي تميز الاديان الجديدة للاسرار توضح في ذات الوقت الانعكاس الروحي القوي للشرق المغلوب من قبل الاسكندر . ان الشرق قد مُجّد وكأنه الوطن للأوائل من الحكماء ولأكثرهم اعتباراً ، وانه البلاد التي حفظ فيها معلمو الحكمة المذاهب الباطنية وطرائق الخلاص . ان اسطورية المناقشات بين الاسكندر والبراهمانيين والنساك الهنود ، اسطورة ستصبح شعبية بصورة متفردة في العصر المسيحي ، وتعكس الاعجاب القريب من الديني بالنسبة للحكمة الهندية . وفي الشرق ستنتشر بعض اسفار الرؤيا حول نهاية العالم apacahypses (المتضامنة مع مفاهيم مميزة للتاريخ ، كذلك صيغ جديدة من السحر ومتعلقات الملائكة ، وعدد من الكشوف أو الظهورات المتحصلة على اثر سفرات انتشائية للسماء وللعالم الآخر) (ف ٢٠٢ ع) :

وسنشرح فيما بعد أهمية الابداعات الدينية للعصر الهلنستي (ف ٢٠٥ ع) ولنصف هنا ان توحيد العالم التاريخي المطعم من قبل الاسكندر والمتمم من قبل الامراطورية الرومانية ، هو من منظور تاريخ الاديان ، قابل للمقارنة بوحدة العالم النيوليتيكي ، المنجزة بانتشار الزراعة . فعلى مستوى الجماعات الزراعية ، كان التقليد الموروث من عهد النيوليتيك يشكل وحدة دعمت خلال الألوف من السنين ، وبالرغم من التأثيرات المتلقاة من مراكز مدنية ، وبمقارنة هذه الشكلية الواحدة الاساسية ، الواضحة لدى الشعوب الزراعية في اوروبا وآسيا ، فإن المجتمعات المدنية للألف الأولى ق.م قدمت تنوعاً دينياً بارزاً . (يكفي ملاحظة البنى الدينية لبعض المدن الشرفية ، والاغريقية والرومانية) . ولكن التدين المسكوني اثناء العصر الهيليني انتهى ليستعير لغة مشتركة .

حواشي الفصل الثاني والعشرين

- ١ - حتى التقييم للمصادر يهدر من فئة لآخرى : ان الشككين يشيرون لفقر الوثائق وتاريخها المتأخر ، والآخرين يقدرون انه لا يجب الخلط بين التاريخ والتحرير لوثيقة مع عصر محتواها ، لأنه ، بالنتيجة ، باستعمالنا مع الروح النقدية بدقة ، كل الأدلة الصحيحة ، تكون في حالة من ادراك مهمة اساسية للأورفية . هذا التوتر بين منهجية يرد لتعارض فلسفي اكثر عمقا ، مؤكداً في اليونان من القرن السادس وهو حساس ايضا حتى يومنا . «ان اورفيه و الاورفية» يشكلان بامتياز واحداً من موضوعات تفجر اوتوماتيكيا تقريبا الحروب الكلامية .
- ٢ - ان المصادر محللة من قبل W.K. Guthrie اورنس والديانة الاغريقية ص ٢٩ .
- ٣ - «لم يجرؤ أن يموت حيال كالسيت ، ولكنه حياً تحرك للدخول إلى هادس ، ولهذا فرضت عليه الالهة عقاباً وأماتته بأيدي النساء» (أفلاطون سيمبوز ١٧٩)
- ٤ - Guthrie - اورفوس ص ٤٠ .
- ٥ - o. kern قطع اورفية - ربات الشعر les merseg تجمع الاعضاء وتدفنها في ليثريا في سفح الاوليمب
- ٦ - الشامانية - م - الياد ص ٣٠٧
- ٧ - لفترة ما حيث كان يعرف بشكل أفضل السكان (برابرة - تراس وحتى السيس الذين يتجولون رحلاً في شمال البحر الأسود
- ٨ - اقامة عبادة اورفية في تراس في بيتيازوني .
- ٩ - الكاتابات في الاوديسة ثلاثم على الأرجح نص أورفي .
- ١٠ - Guthrie يذكر مقطعا من السيستو ص ٥٧٨ مظهر ابولون عاظاً بالفهود والاسود والكلبات التي كانت ترقص على نعم القيثارة (الاغريق والهنتم) ص ٣١٧

١١ - ابولون اعاد للصمت وسطاء العرافين المقدمين من قبل اورفيه الى ليسبوس - اشارة الى
غيره الاله او عدم التلاؤم بين التقنيتين العرافيتين - شامانية وبيتية .

١٢ - Gulhrie الهة الاغريق ص ٣١٦ ان الايونيين المنجدين بالدين طرحوا المسألة الفلسفية
«ماهي العلاقة بين مختلف تعدديات العالم حيث نعيش فيه والجوهر الوحيد والأصولي الذي
استمد الكل منه أصله»

١٣ - افلاطون - الجمهورية ١٣٦٤ . . وان سويداس اعطى قائمة طويلة بالكتب المنسوبة
لأورفيه

١٤ - المضحون الشحاذون ، والمتنبئون الذين يلزمون ابواب الاغنياء ، ويقنعونهم بأنهم
حصلوا من الآلهة بواسطة الاغاني والاضحيات ، على القدرة لأن يدفعوا عنهم المظالم التي يمكن
ان يكونوا قد ارتكبوها هم واجدادهم [. . .] ومن أجل تحقيق الطقوس يصنعون مجموعة من
كتب مؤلفة من قبل muse وأورفيه ابن القمر وربة الشعر . حول هذه السلطات يقنعون ليس
افراداً خاصين فحسب ، وانما دول يوجد فيها بالنسبة للحياة والأموات غفرانات وتطهيراً
[. . .] وهذه المسارات لأنهم هكذا اسموها ، تعتقنا من عذاب الضمير والجحيم (الجمهورية
٣٦٤ كا ٣٦٥)

١٥ - كراتيل - ٤٠٠ - فيدوف ٢٦ ب حول سجن الروح - وهذه المشاهد اعطت مجالاً لتناقضات
لا حد لها .

١٦ - ١٧ هزيود - الأعمال - ٩٠ - ١٠٠ حول القيم الصوفية والاخرية للنباتيين . النصوص
المشروعة من قبل جويلليري ص ١٦٧

١٨ - guthrie الهة الاغريق ص ٣١٩

١٩ - اكتشف في ١٩٦٢ بالقرب من مدينة ديرفني وهو مؤرخ من القرن الرابع ق . م ويتعلق
بشرح لنص اورفي الذي يؤكد ويثبت قدم وسمو الصفة اليمائية التعبيرية لمثل هذه
الكتابة .

٢٠ - هذا النموذج من النشكونية يذكر باللاهوت الموفيس (٢٦ ع) ونظام الابداع الذاتي
لبراجاباتي (٧١ ع) .

٢٢ - olympiadore في فيدو ٨٤ - ٢٢

٢٣ - gulhoui صفيحات بيتليه ص ١٧١ وشرح زونت .

٢٤ - بداية النص هي ذات دلالة هامة . المتلقي يتوجه للآلهة في الجحيم : «لقد أتيت من
جماعة من الطاهرين فيأليها الطاهر الأعلى في الجحيم (اوكليس ايوليوي) وانتم أيها الآلهة
الخالدون . لأنني قبل ان انتمي الى عنصركم المبارك - افترسني الحظ والآلهة الأخرى

الخالدون». وتكشف لوحة أخرى تفصيلات هامة : (لقد تحملت عفوية تستحقها اعمالى الظلمة . . والآن آتى ضارعا بالقرب من المنورة بيرسفونه ، من أجل أن تشملني برحمتها وترسلني لمحل اقامة القديسين» الربة تستقبله برحمة) «سلام لك انت الذي تحملت المعاناة بما لم تتحمل مثلها سابقاً . . سلام سلام لك . خذ طريق اليمين نحو البراري المقدسة ونحو غابة بيرسفونة» .

٢٥ - مغطسين في مرجل ، وسيدون معاقبين بعذاب مخصص لظلمهم وكما يقول افلاطون في الجمهورية «اما الفجار والظالمون فيغوصون في الوحال المستنقعات في هاووز ويقض عليهم بأن ينقلوا الماء بالجرال جزاء ما صنعت ايديهم ، وان يلتحفوا في حياتهم بفضيحة وعار . . وهذه الصورة حسب وصف افلاطون عقاب اولئك الذين لم يتطهروا فيجب عليهم في هادس التحمل بشكل دائم . ولكن عبثاً بدون تطهير» .

٢٦ - gumont يعيل لتوحيد أصل كل هذه الاداب بالهلوسة ، في الأورفية ، والتي عبر اساطير بلوتارك ورؤى بطرس الواصلة حتى دانتي ص ٢٤٦ .

٢٧ - ٢٨ - الشامانية - الياذ

٢٩ - «حتى عندما اجتار L'Acheron فإن النسيان لم يغير روحه ومع انه يسكن تارة في مقر الظلمات وتارة مقر نور الشمس ، حافظ دوماً على ذكر ما رآه» (ابوليوس دي روزوس ص ٤٦٢)

٣٠ - ٣١ - ٣٢ مظهر الاسطورة - الممارسة والثقافة للذاكرة كانت تلعب دوراً هاماً في الاخوات الفيثاغورية (ديودوره) وعبارة النسيان واعادة التذكر التي هي الشواهد الأولى ترتبط ببعض الشخصيات الاسطورية الاغريقية من القرن الرابع وقد لعبت دوراً معتبراً في التقنيات التأملية والأفكار الهندية واعيد اطلاقها من قبل الغنوصيين (١٣٠ع) (الياذ - من زالموسكي لجنكييزخان ٣٣ - باتمامهم للقواعد التنسكية والاخلاقية بدراسة الموسيقى والرياضيات والفلك . ولكن عما هو معلوم ، ان الهدف الشامل لهذه المذاهب كان لنظام صوتي . وفي الواقع «اذا كان كل شيء عدداً ، وكل شيء انسجام الازداد فإن كل ماهو حي بما في ذلك الكون ، لأنه هو ايضاً يتنفس ، هو نسيب يمت له بصلة .

٣٤ - بعد ارسطو هذا النموذج من (على شامل) يفقد تقديره ، والبحث العلمي اتجه نحو منهجية ستعطي نتائجها الباهرة في اوروبا في القرن السادس عشر والسابع عشر ، ولا تتبع البتة عدم كفاية المسيرة ، انه ببساطة يتعلق بمنظور جديد . والكيمياء مع المعارف ويتطلع لهدف آخر غير التحول الكيميائي .

٣٥ - وتما في حالة التانذاريم ، فإن بعض النصوص الأورفية لتاريخ حديث قد ظهرت كالاكتشافات لمذهب قديم - الأمر الذي يمكن أن يكون دقيقاً من جهة أخرى .

- ٣٦ - يكتب اريسطو بخبث ان الفارق الوحيد بين أفلاطون وفيثاغورس هو لفظي . وان الاشياء بالنسبة لفيثاغورس هي ارقام
- ٣٧ - Grulhene الآلهة الكبار .
- ٣٨ - مظاهر الاسطورة - الياد - بعض الملاحظات عن المشابهات بين نظرية الأفكار والمادة التذكر الافلاطونية ومعطى الانسان في المجتمعات القديمة .
- ٣٩ - لنذكر بأن الميتافيزيك الهندي قد طور بعناية مذهب انشغال الروح (سمساراً ، ولكن بدون حملها على نظرية المعرفة ، لكي لا يتكلم في السياسة (٨٠ ع)
- ٤٠ - شيشرون - رحب تقليد آخر فإن فيرسيد قد استعمل (الكتب المقدسة للفينيقيين) ولكن ذلك يتعلق بكليشييه غير ذات قيمة وثائقية . مع أن التأثيرات الشرقية على فكر فرنيسيد بارزة
- ٤١ - هيرودوت (لم ١٧٩)
- ٤٢ - ومع ذلك فإن تقليداً آخر وافق كاتاباز فيثاغورس وكان ادخل المعتقد بجهم .
- ٤٣ - فيما سلف لم يترد كزينوفون ٥٦٥ ق.م عن مهاجمة مجمع الآلهة الهومييري وبصورة خاصة التجسد البشري للآلهة وقد دعم وجود (اله فوق كل الآلهة والبشر شكله وفكره ليس فيه شيء مشترك مع فكر البشر الفانين) كذلك كانت متدين ايضاً بعمق مثل بندار رفض الاساطير التي لا تصدق .
- ٤٤ - هذا المفهوم سيعاد اخذه بتقدير منذ الافلاطونية الجديدة والغنوصية المسيحية حتى الرومانية الالمانية .
- ٤٥ - الطاويون يعتقدون بأنه عندما يحصل رجل على القاو فإن ريشاً يبدأ بالنبات على جسده . .
- الياد عن الاديان الاسترالية .
- ٤٦ - الذكاء (مانوس) هو الاسرع من بين الطيور كما تقول الريغ فيدا «ان من يعرف له جناحان» .
- ٤٧ - Burkat صورو علوم ص ٣٨ - الاعتقاد الذي تحده الروح بعلاقة مع السماء والنجوم ، وحتى الذي يأتي من السماء ويعود إليها ، هو مقتسم مع الفلاسفة الايونيين على الأقل منذ هرقل .
- ٤٨ - يكفي مثلاً - مقارنة الدراسات للاحادية لبورت وغرين . . الخ .
- ٤٩ - اريسطو - ٦٥٣ وافلاطون جمهورية ٤٧ - على عكس ايزروقرات خصم اريسطو اعتمد على ان عبار هديثين helléne تشير الآن لمن يملك بعض الثقافة وليس الابن لطبقة عرقية .
- ٥٠ - ثارن - الاسكندر الأكبر ص ١٢٧
- ٥١ - ان الفيلسوف الذي نصح الاسكندر بالاحتفال بهذا العرف المحصور بالنسبة للأسبوية قد اشرك بمؤامرة واعدم بعدئذ

- ٥٢ - في اوروىا الغربفة والوسطى ففب الانتظار حتى القرن ١٧ لمصادقة تمجفء عمائل ، كذلء بصورة خاصة (العلم الجفءفء) أى طرفة جفءفة للتعلفم والبءء العلمف بالترجمة الئف أمل منها اعاءة اصلاء العالم المسفءف .
- ٥٣ - بوصوله الى اثفنا نءو ٣١٥ ق.م افءء عام ٣٠٠ مءسة فف رواق الرسامفن . واىءصور ولف فف سفموزا من أب أثفنف وعلم فف اثفنا منذ ٣٠٦ . .
- ٥٤ - ءفوففن لفرء - ولكن الكلففن لم فعبأوا بالجماعة - وكانوا مهءمفن فقط بفءسفن الفرء
- ٥٥ - (هاءس) الفءافة الهلنسفة
- ٥٦ - M.W.Tarun الفءافة الهلنسفة ص ٧٩
- ٥٧ - carl schreicter الفءافة الهللفنف ص ٨٠٠

الفصل الثالث والعشرون

تاريخ البوذية من ماهاكاسيابا إلى ناكارجوننا

١٨٥ - البوذية حتى أول انشقاق

لم يكن للبوذا أن يحصل على خليفة ، وقد كان كشف الشريعة (دهارما) وأقام الجماعة (سامجها) : فتوجب الآن تقنين الشريعة ، اي اجتناء مواعظ المبارك وتثبيت القانون . وكان كبيرا التلامذة مودجالايانا وساريبوترا قد ماتا . أما بالنسبة لأناندا الذي كان خلال خمسة وعشرين عاما الخادم الأمين للمعلم ، فلم يكن ابداً أرهات : لم يكن عنده وقت لاتقان تقنيات التأمل . وان المبادهة بإقامة مجمع من ٥٠٠ أرهات اتخذت من قبل ماهاكاسيابا ، الذي كان هو ايضا على درجة عالية من التقدير من قبل بوذا ، إلا انه كان ذا طبع قاس لا يرحم ، على عكس المحبوب اناندا .

وحسب السنة المجمع عليها ، كان المجمع قد عقد في مغارة واسعة بالقرب من راجاكرها *rujagrha* اثناء فصل الامطار الذي تلى موت المعلم ، وتمدد سبعة أشهر . وتذكر غالبية المصادر عن مشادة عنيفة بين ماهاكازيابا واناندا . وبما ان هذا الاخير ليس أرهات فقد رفض من حق المساهمة في المجمع فانسحب عندئذ واعتذر وتوصل سريعاً للقداسة . وعندئذ قبل ، أو حسب نصوص أخرى ، اخترق المغارة بمعجزة ، مبرهنا بهذا على قدراته اليوجية ، وقد كان حضوره من جهة اخرى لابد منه لأن أناندا كان الوحيد الذي سمع وتذكر كل خطابات المعلم . وفي رده على ماهاكازيابا ، تلى اناندا خطاباته ، وان أجوبته تشكل مجمل السوترا *des sutra* اما النصوص التي تشكل «السلة» للنظام (بيتاكا) ، والفينيايا *winaya* فقد وصلت من قبل تلميذ آخر ، أوبالي *upali* .

وبعد زمن قليل ، كان على ماهاكازيابا ان يتهم أناندا باخطاء متعددة (خمس أو عشرة) ارتكبها عندما كان يخدم المبارك . وان افدح الاخطاء كانت تلك التي دعم فيها قبول راهبات وإهمال الطلب من المبارك لأن يمدد حياته حتى نهاية الفترة الكونية الراهنة [ف ١٥٠ ع] . وقد كان على اناندا أن يعترف علناً بأخطائه ، إلا أنه انتصر في النهاية ، واصبح الشخصية الرئيسية للساجمها ، وكان عليه أن يعيش بقية حياته (٤٠) ، أو على الأقل ٢٤ سنة بعد البارينيرفانا) متبعاً مثال معلمه ، أي مسافراً ومبشراً بالطريقة .

إن تاريخ البوذية بعد مجمع راجاكرها غير معروف بشكل جيد وان مختلف قوائم الآباء الذين كان عليهم قيادة الساجمها خلال القرن التالي لا تتضمن معلومات ذات قيمة . ولكن مايبدو اكيداً هو اتساع وانتشار البوذية نحو الغرب ودخولها ديكان *Dekkan* . ومن الراجح كذلك ان اتساع شقة الخلافات المذهبية والفوارق في تطبيقات النظام قد تضاعفت . وبعد مائة أو مائة وعشر سنوات بعد البارينيرفانا ، أوجبت أزمة جديدة وجود مجمع جديد . وذلك لأن يازاس *yasas* تلميذ أناندا وقد غاظه سلوك رهبان فيزالي وبخاصة واقعة قبولهم الذهب والفضة ، نجح في دعوة لاجتماع سبعمائة ارهات في فيزالي نفسها . وقد أدان المجمع الممارسات موضوع الاتهام وأجبر المذنبون على قبول الحكم .

غير ان الخلافات استمرت بتفاقمها وظهر يقينا أن مذاهب مختلفة كانت قد وجدت آنئذ ، حوالي منتصف القرن الرابع ق.م . وبعد بضع سنوات من مجمع فيسالي ، أعلن الناسك ماهادينا في باتاليبوترا pataliputra خمس اطروحات غريبة متعلقة بشرط الارهاث . لقد أكد بصورة خاصة : (١) يمكن للأرهاب ان يغوى في الحلم (أي تستطيع بنات المارا de Mara استثارة انزال منوي عنده) (٢) انه مازال عنده جهالة . (٣) وشكوك ، (٣) وانه يمكن له ان يحرز تقدما في الطريق بمساعدة آخر . (٥) ويستطيع الحصول على التركيز بتلفظه لبعض الكلمات . ومثل هذه النواقص في الارهاث يترجم عن ردة الفعل ضد الاحترام الذاتي لاولئك الذين كانوا يعتبرون وكأنهم «ناجون في الحياة» . وسراعا ما انقسمت الجماعات بين مؤيدين ومعارضين للماهاديفا ، ولم يستطع المجمع الذي التأم في باتاليبوترا تفادي انقسام الساجها بين انصار «النقاط الخمس» - الذين بادعائهم انهم الأكثر عدداً ، اتخذوا اسم ماهاساجهيا - وبين معارضيهم ، الذين بادعائهم انهم كانوا يمثلون العمداء (ستهافيرا) اتخذوا اسم ستهافيرا .

١٨٢ - بين الاسكندر الكبير وآذوكا

ان هذا الانشقاق الأول كان حاسماً ونموذجياً لأن انشقاقات أخرى ستلوه . وقد تخربت وحدة الساجها بما لا يمكن اصلاحه ، ولكن دون ان يتعرض انتشار البوذية للخطر مطلقاً . وخلال الربع قرن الذي عقب الانشقاق كان هنالك حدثان هامان لا مثيل لهما بالنسبة الى مستقبل الهند . وكان الأول اجتياح الاسكندر الكبير الذي كانت له نتائج حاسمة بالنسبة للهند التي افتتحت منذئذ للتأثيرات الهلنستية . غير ان الهند اللامبالية بالتاريخ والمجردة من السير التاريخية لم تحفظ أية ذكرى للاسكندر ولا لمشروعه الخارق : وليس سوى بالأساطير الخرافية التي انتشرت فيما بعد (المزعومة «قصة الاسكندر») ان الفولكلور الهندي اعترف بالمغامرة الخارقة للتاريخ القديم . ولكن نتائج هذا اللقاء الأول الحقيقي مع الغرب لم يتأخر عن الشعور به في الثقافة والسياسة الهنديتين .

وليس النحات الاغريقي - البوذي لقاندهارا Gandhara سوى مثال ، ولكنه مثال هام ، يعرض أول تمثيل انساني الشكل للبوذا .

والحدث البارز الثاني كان تأسيس الاسرة الملكية موريا Maurye من قبل كاندراجوتا (٣٢٠ - ٢٩٦ ق) ، الأمير الذي عرف الاسكندر في شبابه ، والذي بعد ان فتح عدداً من المقاطعات في الشمال الغربي ، غلب النانديين les Nanda وأصبح ملكاً لماجادها . وقد وضع كاندراجوتا هذا الأسس لأول امبراطورية هندية ، حيث ان حفيده آدوكا قدر له ان يوسعها ويدعمها .

وفي بداية القرن الثالث ، دافع فاتسيوترا وهو ابراهمان آن بجماعة الستهافيرا ، عن مذهب استمرار الشخص (بودجالا) عبر انتقالات الروح (ف ١٥٧ ع) ونجح بتأسيس مذهب أصبح على درجة من القوة . وبعد زمن قصير وتحت حكم آدوكا عرفت جماعة الستهافيرا انقساماً جديداً بصدد النظرية المعتمدة من قبل البعض بأن «الكل يوجد» (سارقام آستي) ، الأشياء الماضية ، والحاضرة والمستقبل . وقد عقد آدوكا مجمعاً ، ولكن بدون نتيجة ، فاتخذ المجددون اسم سارفاستيفاديس sarvastivadis وبما ان الملك كان مخلصاً لهم ، فقد التجأوا الى كشمير مدخلين بذلك البوذية الى هذا الاقليم الهيمالايني .

إن الحدث الكبير من تاريخ البوذية كان اعتناق آدوكا هذا للدين ، والذي (حكم من ٢٧٤ حتى ٢٣٦ أو بحساب آخر من ٢٦٨ إلى ٢٣٤) . حسب اعترافه الخاص (المعلن في المنشور الثالث عشر) ، فإن آدوكا كان مضطرباً في اعماقه على اثر انتصاره ضد الكالينجاس les kalingas ، الذي كلف مائة الف قتيل ومائة وخمسين الف اسير . ولكن آدوكا ، قبل ثلاثة عشر سنة ، كان قد اعتبر مجرماً بجرم اكثر بشاعة . وبذلك عندما اتضح له ان موت أبيه الملك بندوسارا أمر لا مفر منه ، فأقدم على ذبح أخيه والاستيلاء على السلطة . مع ذلك ، فان هذا المقاتل لأخيه وهذا الفاتح الذي لا يرحم «سيصبح اكثر ملوك الهند فضيلة وواحداً من اكبر الوجوه في التاريخ» . وبعد ثلاث سنوات من انتصاره ضد جماعة الكالينجاس اعتنق البوذية واعلن ايمانه بها على رؤوس الاشهاد وخلال سنوات

مارس الحج اكثر من مرة الى الأماكن المقدسة . غير أنه رغم عمق ايمانه ببوذا ، فإن أذكا أظهر انه متسامح كبير . فهو كريم تجاه الديانات الأخرى في الامبراطورية ، والدهارما التي علم بها هي في آن واحد بوذية وبراهمانية . ان المرسوم الثاني عشر المكتوب على حجر يؤكد ان «الملك صديق الآلهة وبمنظرة حبية يحترم كافة المذاهب والمتدينين وغير المتدينين ، إن بالهبات أو بالتكريمات المختلفة . ولكن لا بالهبات ولا بالتكريمات يقيم صديق الآلهة أية قيمة إلا للتقدم في الجوهري من كل المذاهب» . وفي آخر المطاف ، فإن هذه هي الفكرة القديمة للنظام الكوني التي كان الملك المدير الكوني هو ممثلها النموذجي (٣٠) .

مع ذلك ، فإن هذا الأخير من كبار الموريا ، الذي حكم على كل الهند تقريبا ، كان ايضاً ناشراً صارماً للشرعية لأنه اعتبرها الأكثر توافقاً مع الطبيعة البشرية . وان نشره للبوذية في كل مكان ، بارساله بعثات تبشيرية حتى باكتريان وفي سوجديان وفي سيلان التي تشير النصوص التقليدية الى انها اعتنقت البوذية بواسطة ولده أو شقيقه الأصغر . وهذا الحدث كان له نتائج بارزة ، لأن هذه الجزيرة بقيت بوذية حتى يومنا هذا . وقد استمرت انطلاقة آذوكا بترويج في القرون التالية ، بالرغم من اضطهادات خلفاء الموريا وغزوات شعوب السيت Seytles البربرية . وقد انتشرت البوذية في كشمير وفي ايران الشمالية وآسيا الوسطى ووصلت حتى الصين (القرن الأول ب. م) واليابان (القرن الرابع) . ومن البنغال وسيلان دخلت الى الهند الصينية وانسوليند منذ القرون الأولى من العصر المسيحي .

«كل الناس هم ابنائي . وكما من أجل ابنائي ، أريد لهم كل خير وسعادة في هذا العالم وفي العالم الآخر ، كذلك هو ما أرغبه من أجل كل البشر» . هذا ماكان أعلنه آذوكا . ولكن حلمه بامبراطورية - أي بعالم - موحد بالديانة ، انطفاً معه ، وبعد موته سرعان ما اضمحلت امبراطورية الموريا . ولكن الضمير المسيحاني لأذوكا وحماسه في نشر الشرعية جعلوا من الممكن التحول بالبوذية الى دين عالمي ، الدين الوحيد للسلام الذي ارتضته آسيا .

ان آذوكا بسياسته المسيحانية كان قد ضمن النصر الشامل للبوذية . ولكن الانطلاق والابداعية للفكر البوذي ، لهما مصادرهما في موضع آخر . فبدنياً ، يوجد التوتر بين (المفكرين) وبين (اليوجيين) ، وهو ما شجع لدى بعضهم كما لدى البعض الآخر ، عملاً مرموقاً من التفسيرات والتعمق المذهبي . كما يوجد كذلك ، عدم التوافق لا بل التناقضات ، لأنظمة نظرية ماثلة في النصوص القانونية ، التي كانت أكرهت التلامذة للرجوع باستمرار الى المنبع ، أي إلى المبادئ الرئيسية لتعليم المعلم . وقد ترجم هذا الجهد التفسيري herme'neutique باغناء ملحوظ للفكر . وتشكل الانشقاقات والمذاهب ، في الواقع ، برهاناً على ان تعليم المعلم لم يمكن استنفاده بأرثوذكسية ، ولا تأطيره بصلابة في تعليم مدرسي^(٤) .

وأخيراً ، يجب التذكر ، ان البوذية ، مثل كل حركة دينية اخرى ، كانت توفيقية syncretiste في المعنى الذي كانت فيه قد تمثلت وادخلت باستمرار قيماً ليست بوذية .

وقد كان المثال اعطي من قبل البوذا ذاته ، الذي كان قبل جزءاً كبيراً من التراث الهندي ، ليس مذهب الكارمان والسمسارا فحسب ، وانما ايضا التقنيات اليوجية والتحليلات من نوع براهمانا وسامكهيا ، وكذلك ايضاً الصور والرموز والموضوعات الميتولوجية لما قبل الهندية منساقاً لمعاودة تفسيرها تبعاً لمنظوره الخاص . وهكذا ، من المرجح ، ان الكوزمولوجيات التقليدية ، مع السماوات والجحيم ، التي لا حصر لها ، وسكانها ، جميعها كانت قد قبلت منذ زمن البوذا . وان عبادة رفات القديسين فرضت نفسها مباشرة من بعد البارينيرفانا ، وكان لها بالتأكيد سوابق في تمجيد بعض اليوجيين اللامعين وحول الستوبات des stupas (مكان حفظ الرفات) تألفت رمزية كوزمولوجية غير فاقدة للأصولية ولكنها في خطوطها الكبرى تسبق البوذية في وجودها . وواقع ان العديد من الآثار الهندسية

والفنية قد اختفى مضافا الى واقع ان جزءاً كبيراً من الأدب البوذي القديم قد ضاع ، يجعلان تسلسلات الأحداث تاريخياً تقريبية . غير انه مما لاشك فيه ان عدداً كبيراً من الرموز ، والأفكار والشعائر السابقة ، واحيانا منذ قرون عديدة ، هي الشواهد الدليلية الأولى التي تؤكدتها .

وهكذا ، فإن الابداعية الفلسفية ، الموضحة من قبل «المدارس» الجديدة ، تناسب عملية اكثر بقاءً ولكنها ايضاً مبدعة «لتوفيقية» ولاغناء ، تتحقق بخاصة في جمهور الغير متدينين (اللايك)^(٥) . وان الستوبا le stupa الذي افترض فيه الحفاظ على رفات البوذا او القدسين ، او اشياء مقدسة ، يتفرع على الأرجح من ركمة فوق القبر tumulus دفنت فيها الأرمدة بعد تحريق الأموات . ففي وسط مصطبة كانت ترتفع القبة ، محاطة برواق دائري ، كان يستخدم في الدوران الطقوسي . وكانت الكيتيا caitya معبداً صغيراً متضمناً عدداً من الأعمدة ومشكلة من ردهة ورواق في غرفة صغيرة لها جدران وكان يوجد فيها نصوص مكتوبة على مواد مختلفة . ومع الزمن اندمجت الكيتيا بالمعبد وانتهت الى الزوال . وكانت العبادة تقتضي ركوعاً وتحيات طقوسية وطوافات دائرية وتقدمات من الزهور والعطور ومظلات كبيرة الخ . . . ان المفارقة - تمجيد كائن ليس له اي علاقة مع هذا العالم نفسه - هي ظاهرة فحسب . لأن ، تقريب الملامح «للجسد الطبيعي» للبوذا* المعاد تخيينه réactualisé في الستوبا ، أو «جسمه بشكل هندسي» الرموز في بنية المعبد ، هما معادلان لتمثل المذهب ، أي للامتصاص «لجسده النظري» ، الدهارما dharma . وان العبادة المحولة فيما بعد لتمائيل بوذا ، أو الحج الى مختلف الأماكن المقدسة بحضوره (بودها - جايا ، سارناس الخ) تبرر بذات الجدلية : الأشياء المختلفة أو النشاطات العائدة للسمسارا samsara هي قابلة لتسهيل خلاص المؤمن بفضل العظمة والعمل الانقاذي الذي لا مرد له للمتيقظ^(٦) .

وأثناء قرون ، وعلى الأرجح مباشرة بعد موته ، فإن المبارك مُثل - ومُجد تحت شكل ايقوني : أثر قدمه ، الشجرة ، الدولا ، وهذه الرموز اعادت حضور الشريعة مثيرة للنشاط التبشيري للبوذا ، شجرة اليقظة ، (تحريك دولا - الشريعة) . وعندما صنعت التماثيل الأولى لبوذا في بداية العصر المسيحي.

(التمثال الاغريقي - الهندي لفنדהارا) ، فإن الوجه البشري لم يُعتمَ مطلقاً الرمزية الاساسية . وكما اظهر ذلك بول موز pulmus ، فإن صورة البوذا تراث قيمياً دينية من المذبح الفيدي . ومن جهة أخرى فإن الهالة التي تشع حول الرأس لتمائيل البوذا (وحول المسيح ، في الفن المسيحي لذت الفترة من القرن ١ - ٥) تشتق من نموذج مسبق من عصر الأخمينيين وبصورة خاصة الهالة المشعة لأهورا مزدا من جهة أخرى يحدد هذا النموذج المفاهيم القديمة الميزوبوتامية (ف ٢٠٠ع). وفي هالة الايقونة البوذية ، يشير الرمز بخاصة لهوية طبيعة البوذا مع النور . وعليه وكما رأينا (ف ١٨٠ ع) ، فإن النور منذ عصر الفيدا كان معتبراً كتعبير مصور تام بالنسبة للروح .

لقد تحملت حياة النساك بعض التغيرات مع انشاء الاديرة (فيهارا) . والتغير الوحيد الذي يعيننا هو تعدد المؤلفات في المذهب والمعرفة . ورغم العدد الكبير من الكتب المفقودة «الأمر الذي يجعلنا نجعل تقريباً كل شيء عن كثير من المدارس والمذاهب» فإن الأدب البوذي بلغات بالي pali وسنسكريت يؤثر بعلاقاته . والنصوص التي تشكل «المبدأ الأسمى» ، و «السلة» الثالثة والأبهيدها رمابيتاكا l'abhidharmapitaka كانت أعدت ما بين ٣٠٠ ق.م و ١٠٠ ب.م وهي تتناقض مع نموذج السوترات des sutras ؛ انها تأليف عقلاني ، تعليمي جاف ، وغير شخصي . ان رسالة بوذا أعيد تفسيرها وقدمت تحت شكل نموذج فلسفي ، ولكن الكتاب جاهدوا في شرح التناقضات التي تفيض بها السوترات les sutras .

ومن الواضح ، ان كل مذهب يملك ابهيدهارماكوزا خاصة له ، وان الفروقات بين هذه الترجمات «للفقه الأعلى» استدعت تناقضات جديدة . والمستجدات هامة أحياناً . والمثال على ذلك : أصولياً ، كانت النيرفانا الوحيدة «الغير مركبة» (اسما سكرتا) اما الآن ، ومع بعض الاستثناءات ، فإن المدارس ترفع الى مصاف «غير المركبات» الفضاء ، والحقائق الأربع ، والطريق (مارجا) والبراتيتا ساموتبادا ، أو حتى بعض «مجموعات» يوجية . أما بالنسبة للأرهاب ، فإنه حسب بعض المدارس يمكن ان ينتقص ، بينما هو بالنسبة لبعض المدارس الأخرى سام رفيع طاهر حتى بجسمه ؛ وبعضهم يؤكد إمكانية ان يصير ارهاب

مسبقاً في المرحلة الجينية (وفي حالة الحلم ، ولكن امثال هذه المذاهب قد انتقدت بشدة من قبل معلمين آخرين .

وبالنسبة لهذه النتائج فإن الأكثر أهمية ايضاً كان معاودة تفسير علم البوذية (بوذولوجيا) . فبالنسبة للسثافيرافادين les Sthaviravadins ، أن ساكيا موني كان رجلاً جعل نفسه بوذا ، وبالنتيجة أصبح «الها» . أما بالنسبة لفقهاء آخرين ، فإن اعضاء الصفة التاريخية للبوذا - ساكياموتي كان شائناً : من جهة ، كيف ان إلهها كبيراً يمكن ان يصبح إلهاً ؟ ومن جهة أخرى ، توجب الرضوخ لقبول ان منقذا محسوب ان يُفقد في نيرفانتة (عليائه) . عندئذ أعلنت مدرسة لوكوتارا ، ان ساكياموني ، كان فيما سلف قد غدا بوذا منذ حقب كونية عديدة ، ولم يترك السماء التي سكنها . وإن من رأي من الناس مولوداً في كاييلافاستو ، ييشر ويموت ، لم يكن سوى شبح (ميرميتا) مخلوق من قبل الساكياموني الحقيقي . وهذه البوذولوجيا سيعاد الأخذ بها وتوسيعها من قبل الماهايانا .

والسيرفاديون السيلاونيون لم يستثنوا من الانشقاقات المذهبية . وانما كان هذا بخاصة في الإقليم الذي استمر فيه التبعثر وتعدد المدارس مع كثافة اكبر . وكخصوصهم فإن الستافيرا والماهازامكيتا قد عرفوا الانقسامات ايضاً ، بدتيا في ثلاث مجموعات ، وبعدئذ في عدد من المذاهب حيث ان تعدادها معدوم الفائدة . غير ان مما له اهميته واقعة كون الماهازمجهكا قد أثاروا ، أو جعلوا من الممكن قيام تجدد جذري في البوذية عرف باسم الماهايانا ، التي تعني لغوياً : العربة الكبرى .

١٨٨ - طريق البودهيستايغا

تأكدت البوادر الأولى للماهايانا نحو نهاية القرن الأول ق. م ، وهذه البوادر هي البراجنا باراميتا سوترا («مواظ حول كمال الحكمة») ، وهي مؤلفات بأطوال مختلفة ، صعبة الفهم ، وتدخل انشاء جديداً في الفكر والأدب البوذيين . فالمصطلحات ماهيانا وهيانيانا (لغوياً : «العربة الصغيرة» ، المعبران عن البوذية

القديمة تهرافادا) هما من حيث الظاهر متأخران . وان المؤمنين بالطريقة الجديدة يسمونها «طريقة البودهيزاتفا» . وهم يتميزون بتسامحهم الكبير فيما يتعلق بالمؤسسة ويعلمهم للبوذية من بنية صوفية . ومتفق عليه عندهم الاعتراف بتأثير الورع العلماني (لايك) . فالمثل الأعلى ليس أرهات منعزل باحث عن نيرافته ، وانما البودهيساتفا ، شخصية علمانية ، نموذج للاحسان والشفقة ، الذي يضع نهائياً خلاصه من أجل تسهيل سلام الآخرين . وهذا البطل الديني ، الذي يشابه رامنا وكريشنا ، لا يطلب من المؤمنين طريقة الراهب الصارمة ، وانما الورع الشخصي من نوع بهاكتي . ويحسن ، مع ذلك التذكير ، بأن البوذية القديمة لم تغفل هذا النوع من الورع . فحسب الماجهيمانيكايا [١ - ١٤٣] ، ان البوذا نفسه كان أعلن بأن أي واحد يضع امام نظره «شعوراً بسيطاً من ضمير وعاطفة ، سيذهب الى الفردوس»^(٨) . أما الآن ، فيكفي اتخاذ القرار بأن يصبح بوذا «لأجل خير الغير» ، لأن الماهايانا غيرت جذرياً المثل الأعلى للمريد : لا تستوحى النيرفانا ، وانما يستوحى شرط البوذا .

إن كل المدارس البوذية تعترف بأهمية البودها ستغات . ولكن الماهانيس أعلنوا سموالبودهيساتفا على الأرهات ؛ لأن هذا الأخير ، لم يتخلص نهائياً من الذاتية (الأنات) : ولأجل هذا يبحث عن النيرفانا من أجله لوحده .

وحسب اولئك الذين انتقدوهم ، فإن الإرهات قد نشروا الحكمة وليس المرحمة . في حين أن جماعة البودهيزاتفا كما تردده نصوص البراجنانيا رافيتا «لا يريدون ادراك نيرفانتهم الخاصة منفردين . وبالعكس فإنهم طافوا العالم متألين لدرجة عالية من الوجود ، وراغبين ، مع ذلك باكتساب التنوير الاسمي ، ولم يرتعدوا ابداً أمام الولادة والموت . انهم في طريق المسيرة من أجل مصلحة العالم ومن أجل سعادة العالم وبالشفقة من أجل العالم . ولقد اتخذوا هذا القرار : نود أن نصبح ملجأ من أجل العالم ومأوى من أجل العالم ومكانا للراحة للعالم ، والسعادة النهائية للعالم والجزائر للعالم والانوار للعالم ، والهداة للعالم ، ووسائل للخلاص للعالم»^(٩) .

هذا المذهب من السلامة هو لحد كبير جريء بحيث ان الماهايانا اعلنته بشرى ، وايضا فلسفة اكثر عقلانية ، فلسفة «الفراغ الشامل» سونياتا . وفي الواقع ، لقد قيل ان شيئين ضروريان للبودهيذا فتا ولتطبيقها من الحكمة : «لاتحمل أبداً الكائنات وانظر في الحقيقة ان كل الأشياء فارغة»^(١٠) ويبدو مناقضا انه في الفترة ذاتها لانتصار المرحمة من أجل كل الكائنات - ليس البشر ، وانما ايضا الاشباح ، والحيوانات والنباتات - ان العالم برمته هو «مفرغ» من الحقيقة . ان البوذية القديمة قد اصررت على عدم واقعية حتى الروح (نيرانميا) . وان الماهايانا ، بتمجيدها لدرب البودهيذا فتا ، تعلن عدم واقعية ، وعدم وجود «الأشياء» في ذاتها ، الدهارمات (دهارما سونياتا) وعلى ذلك ، فهذا التناقض ليس واحدا . فمذهب الفراغ الشامل ، بتفريغه العالم من «الواقعية» يسهل انفصال العالم ويقود إلى محو الذات - هدف أول لبوذا ساكياموني والبوذية القديمة .

وسنصادف هذه المسألة في عرضنا لفلسفة سونياتا . اما الآن فنتفحص الابداعات الدينية الخاصة بالماهايانية . لأن ، مايميز العربية الكبرى هو ، من جهة ، الاندفاع الغير محدود للورع العلماني وللميتولوجيات الانقاذية التي تدخلها ، ومن جهة اخرى الماورائية الخارقة ، رؤية وفي ذات الوقت ذات صرامة قصوى ، من معلمها . ان هذين الاتجاهين ليسا في نزاع البتة ، بل على العكس ، انهما يتكاملان ويؤثران أحدهما على الآخر .

ويوجد العديد من البودهيذا فتا ، لأنه منذ الأبد يوجد منقذون وهم بصيرورتهم بوذا نذروا انفسهم لادراك اليقظة من أجل خلاص كل الكائنات . ومن اكثرهم اهمية ميتريا ، وافالوكيتسبارا ، ومانجوسرى . وان البودهيذا فتا ميتريا (من ميتري = طيبة) هو القريب من بوذا ، وان خليفة سكاموني هو الأكثر شهرة ، افالوكيتسبارا . وهذا مايشكل ابداعا اكثر حداثة ، مختصا بالورع «وليس بوذا فقط» وقد فرض نفسه في بدايات عصرنا . ان افالوكيتسبارا يظهر كتركيب من ثلاثة آلهة كبرى هندوسية ، فهو رب العالم ، والشمس والقمر تآتيان من عينيه ، وآتت الأرض من قدميه ، ومن فمه يأتي الريح : انه لا يمسك العالم في يده ، «كل مسامة من جلده تتضمن نموذجا من العالم» - عبارات نجدها في

معرض فيشنو وشيفا . ان افالوكتسبارا يحمي ضد كل نوع من الخطر ، ولا يرفض أياً دعاء ، حتى ما يكافىء النساء العاقرات بالابناء . ومانجو سري «ثروة عذبة» هو متضامن مع بوذا أكسوبها ، يجسد الحكمة ويحمي المعرفة . وهو سيتمتع بوضع متميز في البوذية الصينية .

ان البودهساتفا افالوكيتسفارا مرتبط صوفيا ببوذا آميتابها ، ولكن هذا الأخير لم يصبح شعبياً في الهند الا متأخراً ، في القرن السابع ، وحتى ذلك الحين ، كان احترامه يتعلق بعلاقاته مع افالوكيتسفارا . وعلى العكس ، فإن اميثابها بعد القرن الثامن سينال حظاً فوق العادة ، في التبت وفي الصين واليابان . ومن المناسب الاشارة إليه منذ الآن في نص الايمان الماها يانستي ، لأن ميتولوجياه وعبادته تميزان تجديدا مدهشاً . فعندما كان مجرد ناسك بسيط ، نذر اميثابها نفسه ليصبح بوذا وليكتسب «ارضاً عجيبة» حيث ان السكان ، بقوة ما لهم من مزايا ، سيتمتعون بسعادة لا مثيل لها حتى دخولهم في النيرفانا . إن هذه الأرض السعيدة (سوكهافاني) تقع على مسافة مدوّخة الى الغرب : إنها مغرقة في النور وتشبه فردوساً بسبب طرائفها وزهورها وطيورها . وسكانها هم في الحقيقة خالدون ، ويستمتعون فوق ذلك بالتلقي شفاها للعلم من أميثابها .

وامثال هذه الجنان سبق ان عرفت في الهند . والعلامة المميزة للأرض السعيدة سوكهافتي . هي في السهولة القصوى التي يدخل بها المؤمنون إليها . وفي الواقع يكفي أن يسمع اسم اميثابها أو ان يفكر به : في فترة الموت ، سينزل الاله وسيقوده بذاته الى الفردوس (سوكهافاني) . وذلك هو النصر المطلق للورع، ومع هذا فإن التبرير المبدئي يمكن أن يوجد في البوذية الأكثر قدماً، ففي الترجمة الصينية للميليندا - بانها milinda-panha قيل إن «الناس الذين اثناء وجودهم فعلوا الشر حتى مائة سنة ، سيحصلون جميعهم بعد الموت ، على ان يولدوا في أعلى سماء ، اذا فكروا ببوذا في فترة الموت»^(١٢) . وبالتأكيد إن اللجنة سوكهافاني ليست نيرفانا ، ولكن اولئك الذين يصلون إليها ، بفضيلة فكرة واحدة ، أو كلمة واحدة ، مقدر لهم لأن يحصلوا في المستقبل ، وبدون أي جهد على الخلاص النهائي . واذا تذكرنا ضيق الطريق الأقصى ، الذي كان البوذا قد

بشر به وبشرت به البوذية القديمة ، يتقوم مدى الجرأة لهذا اللاهوت الجديد . غير ان ماهو واضح ، ان هذا يتعلق بلاهوت صوفي ورعي ، لا يتردد في ان يطبق في الممارسة وفي كل الأيام ، الاكتشافات الميتافيزيكية للمعلمين الكبار للماهايانا .

وبما انه يوجد مالا نهاية من البوذات ، فإنه يوجد مالا نهاية من «اراضي للبوذات» أو «حقول بودها buddha ksetra» . وسوكهافاني ليست سوى واحدة من اراضي البوذا هذه . انها جميعها عوالم متصاعدة ، مبدعة بمزايا وافكار المنقذين . وتصفها الآفاتاسكا «كذلك لا تعد ولا تحصى ، اكثر من ذرات الغبار» خارجة من «فكرة اثرية في نفس بودهيساتافا عن الرحمة» . كل هذه الاراضي للبودها «تخرج من التخيل ولها اشكال لامتناهية»^(١٤) . وان الصفة الخيالية لهذه العوالم قد اشير اليها تباعا وباستمرار في النصوص . ان «حقول بودها» هي انشاءات عقلية متسامية في فكر البشر بهدف هدايتهم . وهذه المرة ايضا لم تتردد العبقرية الهندية عن تقييم التخيل المبدع مستعملة إياه كوسيلة للخلاص .

١٨٩ - ناجا - جونا ومبدأ الخواء الشامل

هذه التيولوجيات الميتولوجية توافقت ببعض النظريات الجديدة ، المنبثقة ، هي أيضاً من ذات الهاجس لإلغاء الاندفاعات الانانية . وأولها نظرية تحويل الجدارة (باريناما) . وهي تبدو معارضة لقانون الكارمان ، مع ذلك فهي تمدد الاعتقاد الراسخ بالبوذية القديمة حيث ان نموذج البهيكو المجهود نفسه ليصبح ارهاتا ، يساعد ويلهم العلمانيين (اللايك) . ولكن مبدأ تحويل الجدارة كما فسر من قبل الماهايانا هو ابداع مميز للعصر . فالأنصار مدعوون لتحويل أو تقديم جداراتهم لتنوير كل الكائنات . وكما يكتب سانتيايفا (القرن السابع) في كتاب اصبح مشهوراً ، بودهيكار يافترا : «بالجدارة المنبثقة من كل تصرفاتي بحيرة اريد تهدئة المعاناة لكل المخلوقات ، واكون الطبيب ، الشافي ، المرضعة لمرضى مضى

على مرضه زمن طويل [...] . حياتي مع كل عودة ولاداتي ، كل ممتلكاتي ، كل جدارة اكتسبتها او سأكتسبها ، كل هذا اتركه بدون أمل في ربح لأجل نفسي ، بهدف ان يكون خلاص كل الكائنات هو المفضل»^(١٥) .

وفكرة جديدة أخرى تكشف ان «طبيعة البوذا» ماثلة في كل كائن بشري وحتى في كل حبة رمل . وهذا مايرجع إلى القول بأن «بوذيتنا» الخاصة هي التي تجبرنا لنصبح بوذا . وان هذه هي فكرة متضامنة بالاكشاف الاويانيشادي (تطابق آثمان - براهمان) والبدئية الهندوسية ان الانسان لا يمكنه ان يعبد الألوهية إلا بصيرورته ذاته الها . وسيكون للنظرية تطورات هامة في الماهايانا ، وبخاصة في المبدأ الشهير «الجنين تاناغا» (تاناغاتا غاربا) . انه ايضا متضامن بتفسير آخر أصولي لطبيعة البوذات : مبدأ الاجساد الثلاثة (تريكايا) للبوذا . فأول جسم ، هو جسم الشريعة (دهارما كايا) ، وهو متصاعد ، مطلق لا نهائي أبدي ؛ فهو إذن الجسم الروحي لدهارما ، أي في آن واحد الشريعة المبشر بها من قبل بوذا والحقيقة المطلقة ، والكائن الطاهر . (يظن بجسم مراجباتي ، مشكلاً - في بعض الأحوال - من مقاطع مقدسة وعبارات سحرية ؛ ف ٧٧ ع) . وثاني جسم ، السامبهو غا كايا أو «جسد المتعة» ، هو التجلي العظيم للبوذا الممكن ادراكه فقط للبودهيساتفات . واخيراً «جسد الابداع السحري» (نيرمانا كايا) ، هو الخيال الذي يجابه البشر على الأرض ، والذي يشبههم ، لأنه مادي وموقت ؛ ولكنه يشغل دوراً حاسماً ، لأنه فقط عبر هذا الجسم الشبح يكون البشر قادرون على تلقي الشريعة وادراك الخلاص .

وكما لاحظنا فإن هذه الاطلاقات النظرية والتركيبات الميتولوجية التي تميز الماهايانا تهدف الى تسهيل النجاة لغير المتدينين . وبقبول وادخال عدد من العناصر الهندوسية ، سواء «شعبية» (طقوس ، بهاكتي ، الخ) وسواء فقهية ، فإن الماهايانا جدد وأغنى التراث البوذي ، بدون التنكر له مطلقاً . وفي الواقع ، ان مبدأ الخواء الشامل (سونياتافادا) المحضر بعبقريه ناجارجونا القرن الثاني ق.م) كان معروفاً أيضاً تحت الاسم مادهياميكا «للوسط» ، يفسر «بطريق الوسط» المبشر به من قبل سكياموني . وبالتأكيد ، وكما من أجل موازنة الاتجاه نحو «السهولة» ،

الواضحة في الورع الماهياني ، فإن مبدأ الخواء (سونيا فادا) يتفرد بعمقه وتعميقاته الفلسفية .

وقد أعلن الخصوم الهنود لنا غارجونا كما أعلن بعض العلماء الغربيين ، ان السونيافادا هي فلسفة عدمية ، لأنها تبدو منكراً للمبادئ الأساسية لبوذية . وفي الحقيقة انها علم الكائن (انطولوجيا) مبطنة بعلم متعلق بالمتقذ (سوتوريولوجيا) sotériologie ، الذي يجهد نفسه لأن ينعق من تكوينات وهمية متعلقة بكلام : السونيافادا تستعمل اذن جدلية متناقضة واصلة لتوافق الأضداد ، الأمر الذي يذكر بنوع ما بنيقولا دي كاس Nicolas de Gues ، أو شيء من هيجلو وتينجنستين .

ان ناجارجونا ينتقد ويرفض كل نوع من الفلسفة ، مبرهنأ عدم امكانية التعبير عن الحقيقة الكلية (بارامارزاتا) باللغة . وبدئيا يعيد إلى الذاكرة بأنه يوجد نوعان من «الحقائق» : الحقائق الاتفاقية ، أو «المسترة في العالم» (لوكازامفرتيزاتيا) ، التي لها فائدة تطبيقية ، والحقيقة الشاملة ، التي هي وحدها يمكن ان تقود الى الخلاص . فالأبهيد دهارما ، الذي يدعي ايصال «العلم الأعلى» ، يعمل في الحقيقة من حيث النتيجة مع مغارف اتفاقية . وما هو اكثر فداحة ، ان الابهيدهارما يعتم الطريق نحو الخلاص مع تعريفاته التي لا حصر لها واصناف وجودات (مثلاً ، سكاندهار ، دهاتوس الخ) التي ليست ، في الاساس ، سوى حصيلة التخيل . ويقترح ناجارمونا ان يتحرر وان يوجه الطاقات العقلية الاسيرة في شبكة الخطاب .

بالبرهان على الخواء ، أي عدم الواقعية ، لكل ما يبدو موجوداً أو لما يمكن الشعور به ، فكراً أو تخيلاً ، يُستتبع العديد من النتائج . وأول هذه النتائج : كل الصيغ الشهيرة للبوذية القديمة ، كذلك كل اعادة تعريفاتها المنهجية من قبل المشئين ابهيدهارما ، تتكشف انها مغلوطة . وهكذا ، على سبيل المثال ، ان المراحل الثلاث لانتاج الأشياء - «أصلاً» و «مدة» و «انقطاعاً» - لا توجد أبداً ؛ كذلك الأمر لا توجد السكندھات les skandhas ، ولا العناصر الغير قابلة

للتقصان (دهاتوس) ، ولا الرغبة ، ولا موضوع الرغبة أو الحالة لمن يرغب . كلها لا توجد لأنها محرومة من طبيعة خاصة . فالكرمان نفسه هو بنيان عقلي ، لأنه لا يوجد «فعل» بمعنى الكلمة ولا «فاعل» . وينكر ناغارجوناً كذلك الفرق بين «عالم المركبات» (سمسكرتا) و«الغير مشروطة» (اسمسكرتا) . و«من وجهة نظر الحقيقة الكلية ، ان معنى عدم الدوام (آنيثيا) لا يمكن اعتباره كحقيقة أكثر من معنى الدوام» [مولامادهيما كاكاريكا ٢٣ ، ١٣ - ١٤] . اما بالنسبة للقانون الشهير «التعاون. الانتاجي المشروط» (براتييتيا سامودبادا) فهو مفيد فقط من وجهة نظر تطبيقية . وفي الحقيقة ، «ان التعاون الانتاجي المشروط ، نسميه سونيا (فراغ)» [المرجع السابق ١٤ - ١٨] . كذلك الأمر ، الحقائق الأربعة المقدسة المعلنة من قبل بودا ليس لها طبيعة خاصة : يتعلق بحقائق اتفاقية يمكن لها ان تستخدم ، على مستوى الكلام فقط .

وان النتيجة الثانية هي ايضا أكثر جذرية : ناجارجونا ينكر التمييز بين «المرتبط» و«الناجي» وبالتالي بين سمسارا ونيرفانا . «لا يوجد شيء يفرق بين السمسارا عن النيرفانا» [المرجع السابق ١٥ - ١٩] ^(١٦) . وهذا لا يعني ان العالم (سمسارا) والخلاص (نيرفانا) هما «ذات الشيء» ، ولكنها غير مفترقين . فالنيرفانا «صنيعة الروح» . ويقول آخر ، من وجهة نظر الحقيقة الكلية ذاتها لا تتمتع بنظام انطولوجي مستقل وسليم .

وأخيراً فإن النتيجة الثالثة عن الخواء الشامل تؤسس واحدة من أكثر الانطولوجيات أصالة المعروفة بتاريخ الفكر . كل شيء فراغ ، مجرد من طبيعة خاصة ، ومع ذلك لا يسوغ الاستنتاج من هذه وجود «جوهر مطلق» يرجع إليه سونيا (أو نيرفانا) فعندما يعلن ان «الفراغ» سونيا ، غير قابل للتعبير عنه ، وانه غير معقول ، وغير قابل للوصف ، فلا يقتضي انه توجد «حقيقة متصاعدة» مميزة بهذه الأوصاف . والحقيقة الكلية لا تنكشف عن «مطلق» من نموذج فيدانتى ؛ انها طريقة للوجود مكتشفة من قبل التابع عندما يحصل هذا على اللامبالاة الكاملة تجاه (الأشياء) وتجاه انقطاعها . «فالتحقيق» بالفكر ، للفراغ الشامل يعادل ، فعلا ، الخلاص . ولكن من يدرك

النيرفانا لا يستطيع «معرفتها» لأن الخواء يصعد في آن واحد الكائن واللاكائن وان الحكمة (براجنا) تبرز الحقيقة الكلية باستعمال «الحقيقة المستورة في العالم» : هذه الأخيرة غير مرفوضة ، ولكنها محوَّلة الى «حقيقة لا توجد بذاتها»^(١٧)

ان ناجا رجونا يرفض اعتبار السوياتاسفادا «كفلسفة» : انها تطبيق جدلي وتأملية معاً ، وانها بتخليصها للتابع من كل تركيب نظري للعالم كما للخلاص ، تسمح له بالوصول الى الصفاء الرصين والى الحرية . وهو يرفض بطريقة حاسمة الفكرة بأن دلائلها ، أو أي تأكيد فلسفي آخر ، هي صالحة بسبب تأسيس انطولوجي قائم خارج أو ماوراء اللغة . فلا يمكن القول عن الخواء سونيا بأنه موجود ، ولا انه غير موجود ، ولا انه يوجد وبذات الوقت لا يوجد الخ . . وعلى هذه الأقوال ترد انتقادات جمّة : اذا كان كل شيء خواء ، عندئذ فإن النفي المعروف من ناجا رجونا هو كذلك اطروحة فارغة ، إنه يرد بأن تأكيدات خصومه كذلك منفياتهم لا وجود مستقل لها : انها توجد فقط على مستوى الحقيقة الاتفاقية .

ان البوذية شأنها شأن الفكر الفلسفي الهندي بصورة عامة ، قد تغيرت بعمق بعد ناجا رجونا ، ومع ان هذا التغيير لم يكن مباشرة واضحاً ، فإن ناجا رجونا قد دفع الاتجاه الفطري للروح الهندية باتجاه الحد الأقصى لتوافق الازدواج . ومع ذلك فقد نجح في اظهار ان مجرى حياة البوذهيساتفا احتفظ بكل عظمتها بالرغم من واقعة ان «كل شيء هو فراغ» . وقد استمر المثل الأعلى للبوذهيساتفا يستلهم الاحسان والغيرة مع انه كما تقول الافاتاماساكا^(١٨) «مع البقاء في النيرفانا ، اظهر السمسارا . يعلم انه لا توجد كائنات ، ولكنه اكره نفسه للاقرار بها ، انه في النهاية يسكن ، ولكنه يبدو مظهرًا للعواطف . انه يسكن جسد الشريعة ، ولكنه يظهر نفسه في كل مكان ، تحت مالا يحصى من اجساد الكائنات الحية ، انه مغرق دوماً في انتشاءات عميقة ، ولكنه يتمتع باشياء مرغوبة . . . » .

١٩٠ - الجاينية بعد ماهافيرا : تبحر في العلم ، علم الكون ، علم

ما يتعلق بالانقاذ ..

كان ستهافيرا (قديمًا) سودرمان الخليفة المباشر لماهافيرا ، وقد حسب وكأنه المكلف بنقل كلمات المعلم لتلميذه جامبو . وكان هؤلاء آخر من هم كليون المعرفة والمقدسون . وكانت اسماء الستهافيرات dessthovira . ممن خلفوا جامبو معروفة . وكان الأكثر أهمية بادراباهو ، معاصراً للملك جاندراغوبتا ، وقد مات في عام ١٧٠ أو (١٦٢) بعد ماهافيرا أي في القرن الثالث ق.م . وبهادراباهو هو الذي ثبت قانون جاينا le canonjaina ، وحرر بذلك عدة كتب . ولكنه كان الشاهد ايضا ، ومن المحتمل واحداً من اسباب الأزمة التي ادت الى انقسام كنيسة جاينا .

حسب النصوص ، ان بهادراباهو ، وقد توقع مجاعة لمدة اثني عشر عاما ، هاجر مع قسم من الجماعة ديكان . وكلف تلميذه ستهولابادرا ليشغل مكانه لدى من بقي من الجماعة . وبعد بضع سنوات ، انعقد مجمع في باتاليبوترا بهدف جمع كل النصوص المقدسة ، التي كانت تنقل شفاهاً حتى ذلك الحين . ووجد لها دراباهو نفسه في الطريق الى نيپال . وقد أرسل له مبعوثون من اجل ان يتلو أمامهم بعض النصوص القديمة حيث انه كان الوحيد الذي يعرفها . غير ان المبعوثين أصغوا إليه بشكل سيء ، ولم ينجحوا في استيعاب سوى بعض المقاطع من هذه المؤلفات التي كانت تحافظ على المذهب الأصلي . وان ستهولابادرا وحده هو الذي تذكر عشر كتب من مجموع اربعة عشر ، وان هذا المشهد ، المرجح انه اسطوري ، يؤكد بعدئذ الفوارق بين نوعي القوانين .

وعندما رجع المهاجرون الباقون الى ماجادها متمسكين اوفياء بالعري ، صدموا بتخاذل النساك الباقين مكانهم ، وتمدد التوتر خلال عدة أجيال ، وتفاقم مع اختلافات حول بعض التفاصيل في الطقس والتباعدات المذهبية . وأخيرا وفي عام ٧٧ ق.م أصبح الانفصال أمر لا مفر منه فانقسمت الجماعة الى

سفيتامبارا وهم الذين «يرتدون الأبيض» الى ديغمبارا «يرتدون الفضاء» ، وهؤلاء الآخرون كانوا ينكرون الخلاص على الذين لم يكونوا يحترمون العري الكامل «وبالتيجة انكروه ايضاً على النساء» . واطافة لذلك ، كانوا قد رفضوا بعض عناصر السيرة الذاتية للماهافيرا (زواجه مثلاً) ولأنهم كانوا يعتبرون كمضيعين للنصوص القديمة ، فإن النساك «المرتدون الفضاء» وضعوا موضع الشك رسمية القانون المقام من قبل السفيتامباريين . وانعقد مجمع ثان في فالابهي في النصف الثاني من القرن الخامس : نظمه السفيتامبار بهدف تثبيت التسجيل النهائي للنصوص المقدسة .

ولا نناقش هنا مختلف أصناف الكتب التي تشكل الأدب العريض لقوانين جاينا ، وأما بالنسبة للنصوص التالية للقوانين فعددها كبير جداً^(١٩) . وعلى خلاف البوذية ، فإن الجاينية قد حافظت على بنيتها الأولية . ولا يوجد سوى القليل من الأفكار الجديدة والابتدعة في الأدب الفلسفي والطقوسي الغني . وان الكتب الأكثر شهرة مثل برافاكاناسارا لكوندا كوندا (القرن الأول ب.م) وتاتغارنا لأوناسفاتي (غير مؤرخ ولكنه سابق لمؤلف كوندا كوندا) ، لا تفعل ، أساساً ، سوى تنهيج المفاهيم المصاغة سابقاً من قبل ماهافيرا أو خلفائه المباشرين ، بطريقة مدرسية^(٢٠) . وان المذهب متعلق بوجود مخلص ومركز في «الطرقات الثلاثة» للجانية : الرؤية المستقيمة ، والسلوك المستقيم والمعرفة المستقيمة . والسلوك المستقيم تحقق بالمذهب او بالتنظيم التنسكي . وتميز اربعة انواع من «النظر المستقيم» حيث ان الأولى هي بكل بساطة بصرية والأخيرة تشكل ادراكاً تصاعدياً غير محدود . ولن غمضي في تحليل الأنواع الخمسة «للمعرفة المستقيمة» ويكفي ان نذكر اطروحتين متميزتين لمنطق جاينا : «مبدأ وجهات النظر» (نايا - فادا) و «مبدأ الامكانية» (سياد - فادا) . ويعتمد المبدأ الأول انه بصدد كل شيء ، يمكن اصدار عدة تأكيدات متكاملة . صحيح من بعض وجهة النظر ، ان مثل هذه المقولة ليست هي اذا تفحصناها في منظور آخر ، ولكنها تبقى قابلة للتوافق مع جملة الايضاحات . أما مبدأ «الامكانية» (سياد) فيدخل النسبية او غموض الواقع . ويشار اليه كذلك تحت اسم «القاعدة ذات السبعة

اقسام» ، لأنه يتطلب سبعة اشكال من التأكيدات : ١) أيمكن لهذا ان يكون هكذا ، ٢) وأيمكن لهذا ان لا يكون هكذا ، ٣) وأيمكن لهذا أو لا يمكن له ان يكون هكذا ، الخ . . وقد أدين هذا المذهب من قبل المدارس الفلسفية الهندية الأخرى^(٢١) . ومع ذلك فإن هاتين الطريقتين المنطقيتين تشكلان الابداعات الأكثر أصولية للفكر جاينا .

ان التحليلات للمادة ، وللروح ، وللزمن والفضاء (هذان الصنفان الأخيران كان معتبرين «كجواهر» من «المادة الكرمية» الخ . قد أعدت ومنهجت ، بالاكثر من التصنيفات والتسميات . ان ملاحظة متميزة ، يمكن ان تكون معارة من قبل ماهافيرا الى ماكهالي غوزالا ، هي الاعتقاد بأن الأفعال تدفع الروح على شكل صبغة (ليزيا) وان هذه الألوان تفرق الأجساد كذلك ، وهكذا فإن الجدارة أو عدم الجدارة للروح معلمة بالألوان الستة للأجساد : الأسود ، الأزرق - الاسود والاعبر يميزان سكان الأقاليم الجهنمية ، بينما ان الاصفر ، الوردي والابيض يدلان على الكائنات التي تعيش على الأرض ، والابيض الناصع والباهر ينتمي فقط لأولئك الذين يرتفعون صوب قمة العالم . انه بالتأكيد ، يتعلق بمفهوم قديم ، متضامن مع بعض التطبيقات الیوجية . وعليه ، ففي تصنيف الكائنات حسب توصيفها الروحي ، إن المرحلة الثامنة ، عندما يتم «أول استقبال للروح في جوهرها الصافي» ، تسمى كذلك «الاستقبال الأول الابيض» . ويصادف المعادل للون - المرحلة الروحي في تقاليد هندية أخرى وخارج - هندية .

وكالطبيعة (براكرتي) في المفهوم سمخيا - يوجا ، فإن الطبيعة تنتظم عفويا وبدون وعي بهدف خدمة الروح . ومع انها خالدة وبدون بداية ، فإن الكون يوجد من أجل ان تستطيع الأرواح الانعتاق من تركيباتها . ولكن وكما سنرى فإن الانعتاق لا يقتضي الهروب الشامل والنهائي من الكون . إن أصولية الكوزمولوجيا جاينا تعتمد بدقة على قدمها . فهي حفظت واعادت تقييم مفاهيم تقليدية هندية مهمة من قبل الكوزمولوجيات الهندوسية والبوذية . مالكون (موكا) يصور تحت شكل انسان واقف ، واليدان مكفتان ، وقبضة اليد على الذراعين . وهذا العفريت macranthrope مؤلف من عالم أدنى (الأعضاء الدنيا) وعالم متوسط

(منطقة الزنار - الوسط) وعالم أعلى الصدر والرأس). وانبوب عمودي يجتاز ، مثل قطب الدنيا l'aximundi ، المناطق الكونية الثلاثة . والعالم الأسفل يحتل سبعة «أراض» (بهومي) مرصوفة فوق بعضها ، ولكل منها لون مختلف ، من الأسود الأكثر كثافة حتى النور المتحصل ببريق ١٦ نوعاً من الجواهر . (المناطق العليا من «الأرض» الأولى مسكونة بشمانية عشر صنفاً من الآلهة . و «الأراض» الستة الأخرى الجهنمات الحقيقية ٨,٤٠٠,٠٠٠ بعددها مسكونة بمختلف طبقات المدانين ، من لون أغبر ، وأزرق على أسود ، وأسود . أجسامهم ممسوخة ، والتعذيبات التي تطبق عليهم في انواع الجحيم المتقدة أو المتجمدة ، تذكر بالكليشيات التقليدية . ان المذنبين بجرائم دون مغفرة يحشرون ابدياً في اكثر المغارات رعباً ، نيفرادا ، الكائنة تحت اقدام العفريت .

ان هذه الصورة لعالم بهيئة بشرية ، حيث مختلف اقاليمه - متمثلة باعضاء الانسان الكوني - مسكونة من قبل كائنات من مختلف الألوان ، هي صورة قديمة جداً . وزد على ذلك بأنه لا توجد جهة ، في الهند ، حافظت بشكل افضل ، وبكفاءة اكثر في التطابق مع تجارب (الأنوار الصوفية) عما فعلته الجاينية . فالعالم الوسيط يناسب لدرجة كبيرة ماجرى وصفه بالكوزمولوجيات الهندية والبوذية^(٢٢) . والعالم الأعلى ، الواقع في اعلى قمة جبل ميرو mont mor ينقسم الى خمسة اقاليم طباقاً ، متناسبة مع اضلاع العفريت البشري ، مع عنقه ، ومع ذقنه ، ومع الفتحات الخمسة في وجهه ، ومع جديلة شعره . وان كل اقليم يلائم بدوره عدة «فراديس» مسكونة بمختلف انواع الآلهة . وبالنسبة للإقليم الخامس ، قمة العالم وجديلة العفريت . فهو مخصص للأرواح المتحررة . وهذا ما يعيد إلى القول بأن الناجي لا يفارق الكوزموس (كما هي الحالة «للنيرفانا» البوذية) وانما طبقاته المتعددة فقط . وإن الروح المتحررة تتمتع بطوباوية يعجز المرء عن وصفها وهي خالدة في السيدها - سكاترا «حقل الكاملين» برفقة أمثالهم ، ولكن داخل عالم بهيئة بشرية .

وفيماء سلف ومن أيام بهادراباهوفان الجاينية تدخلت في البنغال وأوريسا . وفيما بعد فإن جماعة الديغامبارا أقاموا في دكان وجماعة السفيتامبارا توجهوا صوب

الغرب ، مستقرين بخاصة في غوجيرا . وإن تقاليد الكنيستين ارتضتا لأن تذكرنا من بين المهتدين أو المناصرين عدداً كبيراً من الملوك والأمراء . ومثل بقية الأديان الهندية الأخرى ، فإن الجاينية تحملت اضطهادات من المسلمين (نهب ، تخريب معابد ، منع العري) وأصبح هذا الدريثة إضافة لذلك الهجوم المعاكس ضد الهندوسية . ومنذ القرن ١٢ أصبح انحدارها لا يمكن التغلب عليه . وخلافاً للبوذية ، لم تصبح الجاينية ديناً شعبياً في الهند سائداً ، ولم تنجح في اختراق الحدود للأقاليم الشمالية - ولكن وفي حين أن الهندوسية قد تلاشت تماماً من بلاد منشها ، فإن الجماعة الجاينية مازال تعد اليوم ١,٥٠٠,٠٠٠ عضو وبسبب حالتهم الاجتماعية وتميزهم الثقافي فإن تأثيرها كان ملحوظاً .

حواشي الفصل الثالث والعشرون

- ١ - ساريبوترا مات قبل المبارك بستة اشهر فقط وقد كان مارس تأثيراً كبيراً على البهيكهو : وكان قد تجاوزهم جميعهم (بالحكمة) والتهذيب - بعض المدارس كانت تعتبره القديس الأكثر احتراماً بعد البوذا .
- ٢ - هذا المجمع الثاني هو آخر حدث تاريخي مقرر في مختلف كتب التلامذة . ومنذئذ فإن ما يأتي من التاريخ البوذي سيروى من جهات اخرى وبطريقة جزئية وغير مثبتة في المؤلفات المتأخرة .
- ٣ - بصورة غير مباشرة ، وهذا هو اثبات ايضاً على ان البوذية كانت قبلت عدداً من الافكار الاساسية من الفكر الهندي التقليدي .
- ٤ - صحيح ان كل مدرسة وكل مذهب كان اعتبر نفسه ملزماً باحياء مدرسة الخاصة . ولكن هذا التقدم بالمنهجية كان قد انطلق وتغذى بابداعات فلسفية رسمية .
- ٥ - لا يجوز اعتباره كمظهر او عنصر (شعبي) لأنه بخاصة مستوحى من قبل ممثلي الثقافة الهندية التقليدية .
- ٦ - ان التقليد الاكثر قدماً يعني انه قبل اثيرفانا ، كان البوذا وافق على كل الاعطيات والمدايح التي يجب تقديمها له من المؤمنين عبر قرون .
- ٧ - جزء فقط حفظ في ترجمات تيبية وصينية .
- ٨ - يمكن مضاعفة النصوص - (دهامرخادا تقول « يلتجئ في البوذا ، سيذهب لجماعة الآلهة) ص ٢٨٨
- ٩ - اشنازا كازريكا ١٥ - ٢٩٣ ترجمة E. Conze البوذية ص ١٢٦
- ١٠ - ثارجا دشيكا ذكرها كونز ص ١٢٨ .
- ١١ - كما انه في الهيناياانا احياناً يبدو يبدو البهيكهو مرتبكين بعض تجاوزات الورع الشعبي .

- ١٢ - من غير المتفق عليه حول معنى هذا الاسم : « سيد (ايزفارا) الذي ينظر من العلى » او الذي ينظر بعطف نحو الأسفل .
- ١٣ - شرحه ديمفيل ص ١١٦ ترجمة البالي palie عولجت مجددا تحت تأثيرا المانوية السنغالية وقدمت تفسيرات .
- ١٤ - افاتماشكا سوترا ذكرها كونز ص ١٥٤ .
- ١٥ - بودهي كاريافاترا ٣ - ٦ ترجمة Find .
- ١٦ - الفصل ٢٥ من مولامادهي ماکاكارىکا . مكرس بكامله لتحليل النيرفانا انظر فريدريك سترنغ ص ٧٤ .
- ١٧ - سترنغ ص ٩٦ .
- ١٨ - ترجمة صينية للسيكساناندا ، ذكرها I . لاموت . تعليم فيمال كيرني ص ٣٦ .
- ١٩ - الى جانب الرسائل الفلسفية ، نوجد ملاحم (معتمدة تبعا للملاحم الهندوسية والبورناس) وسيرذاتية خرافية للثرثاماكارس ، وحتى حكايات ، وقصص ودراما ، والأصل ان لا يقال شيء عن الأدب التعليمي والعلمي . باستثناء الأدب الانشاء الذي هو ايضا غير مستثنى من تعليمية مملّة ، فالانتاج الجهاني الضخم مميز بالرتابة والندب .
- ٢٠ - هذا النموذج من المحافظة مميز للهند التقليدية ، ولا يشكل بذاته فكاسلبيا . ولكن الكتابات الجانية تنفرد بنسجها الثقيل والمجدي .
- ٢١ - من الراجع ان بوذا كان قد رجع الى السايذا فاذا عندما هاجم بعض المتدينين الذين كانوا ينسحبون من كل سؤال يطرح عليهم .
- ٢٢ - يوجد شكل القرص ، اله في وسط جبل ميرو حيث تنفرز قاعدته في اقليم جهنم . وحول هذا الجبل الكوني توضع ١٥ قارة متركزة تسمى جزر ديفيا مفصولة بمحيطات دائرية . والقارة المركزية جامبو ديفيسبا مقسمة الى سبعة مناطق مجتازة بسلاسل من الجبال ويعيش البشر في الاقليم الشمالي فقط (الهند) والجدر القارية الاخرى تشكل (ارض السرور) لأن السكانلا يعملون ليعيشوا ، وان الاقامة للالهة كوكبية .

الفصل الرابع والعشرون

التوليفة الهندوسية : الماهابهاراتا والبهاجافا دجيتا

١٩١ - معركة الأيام الثمانية

إن الماهابهاراتا بأبياتها التسعين الفا ٩٠,٠٠٠ هي أطول ملحمة في الأدب العالمي . وما نقل إلينا منها ، النص المستجمع لبعض التنقيحات وعدد كبير من النصوص المحرفة ، وهذه الأخيرة هي بخاصة في الأقسام «الموسوعية» [انشودات ١٢ و ١٣] . وسيكون من العبث ، مع ذلك الاعتقاد بإمكانية إعادة تكوين «الشكل الأول» للقصيدة . أما بالنسبة للتاريخ «فإن الإلمام به لا معنى له بالنسبة للملحمة» [ب . رينو] . ويفترض أن القصيدة الملحمية قد اكتملت فيها سلف ما بين القرن السابع والقرن السادس قبل عصرنا ، وأخذت شكلها الحالي ما بين القرن الرابع ق.م والقرن الرابع ب.م [ويترنيثز] .

إن النغمة الأساسية هي النزاع بين خطي النسب للبهاراتيد : المتحدرين من الكورو Kuru (الـ ١٠٠ كورافا) والمتحدرين من الباندو pandu (الخمسـة باندافا) . فدوريو دهانا Duryoudhana ، بكر الكورافا ، ابن الملك الأعمى دهرتاراسترا ، كان يتآكله غضب شيطاني نحو أعمامه ، وهو في الواقع تجسيد للشيطان كالي ، أي الشيطان من العصر الأكثر سوءاً للعالم . وإن البندافا الخمسة - أي يودهيثيرا ، وأرجونا ، وبهيم ، وناكولا دساهديفا - هم أبناء باندو ، الأخ التالي لـ دهرتاراسترا . وبالفعل ، إنهم أبناء الآلهة دهارما ، وفايو ، واندرأ وأل أسفين الاثنيين ، وسنقوم فيما بعد دلالة هذه القرابة الالهية . عند موت باندو ، أصبح دهرتاراسترا ملكاً ، بانتظار ان يصبح يودهيثيرا في سن يؤهله لاعتلاء السلطة . ولكن دوريودهارما لم يرض ، ومن بين الأحابيل التي نصبها لابناء عمه ، كان اخطرها حريق بيت من خشب كان اقنعهم بسكناه . ولكن البندافا نجوا بواسطة عمر تحت الأرض ، ومع أهمهم ، التجأوا متكرين في الغابة . ومتابعين عدداً من المغامرات . وقد نجح أرجونا ، متكرراً ببراهمان بالحصول على الزواج من الأميرة دروبادي ، المجسدة للربة سري sri واصطحبها للدير الذي يقيمون فيه في الغابة . وبدون تبصر من دروبادي ومعتقدة أن أرجونا لم يحمل معه سوى الطعام الذي جمعه من الصدقة ، هتفت الأم : «تمتعوا بها جميعكم» . وهكذا أصبحت الصبية زوجة مشتركة للأخوة الخمسة .

إن الملك الأعمى دهرتاراسترا ، وقد علم بأن البندافا لم يهلكوا في الحريق ، قرر أن يترك لهم نصف المملكة . فأنشأوا لأنفسهم عاصمة اندرا براستها ، حيث اجتمعوا فيها مع ابن عمهم كريشنا krishna ، رئيس قبيلة بادفا . فدعا دوريودهانا يودهيثيرا إلى مباراة في طاولة الزهر . ولأن حجرا كان مغشوشاً ، اضاع يودهيثيرا امواله تباعاً ، عرشه ، واخوته ، وزوجتهم . فأبطل الملك المباراة وأعاد الأموال للبندافا . إلا أنه بعد وقت قليل سمح بمباراة ثانية بالطاولة ، وتم الاتفاق على ان المغلوبين سيعيشون اثني عشر عاما في الغابة ، والسنة الثالثة عشر في التنكر . وقد لعب يودهيثيرا ، وخسر مجددا فنفى نفسه مع اخوته ودروبادي . والنشيد الثالث فانا بارفان («كتاب الغابة») الذي هو بأبياته من الشعر المؤلفة من

بيتين متكاملين distique والذي يشتمل على ١٧,٥٠٠ ديستيك منها ، هو النشيد الأطول والأكثر غنى بالمشاهد الأدبية : يروي النساك للبندافا القصص التاريخية المساوية لنالا وداهايانتي ، وسفيتري وراما ، وسيتا . ويثير النشيد التالي مغامرات السنة الثالثة عشرة ، التي نجح المنفيون باجتيازها دون ان يعرفهم احد . وفي النشيد الخامس («كتاب الاستعدادات») يظهر ان الحرب لا مفر منها . فيرسل جماعة البندافا كريشنا كسفير : طالبوا باعادة بعث مملكتهم ، وعلى الأقل ، لخمسة قرى ، ولكن دوريودهانا يرفض . وتجمعت جيوش لا حصر لها من هنا وهناك وتفجرت الحرب .

ويضم النشيد السادس اشهر مشهد من الملحمة : إنه ال بهاغافادجيتا ، والذي سيطلعنا فيما بعد . وفي الاناشيد التالية ، رويت بعناء مختلف فترات المعركة التي جاشت خلال ثمانية عشر يوماً . لقد غطيت الأرض بالقتلى والجرحى . وسقط رؤساء الكورو kuru واحداً بعد الآخر وآخرهم دورودھانا . وقد نجا ثلاث كورافافا فقط ، من بينهم اسفاتهامان الذي سيأتي الاله شيفا ليدخل فيه . ومع قبيلة من الشياطين انتجهم شيفا ، تسلل اسفاتهامان ليلا في معسكر الباندافا النائمين وذبحهم بالجملة ، باستثناء خمسة اشقاء كانوا غائبين . وقد اراد يودهيشيرا الذي احزنه كثيراً العدد الكبير من القتلى ، التنازل عن العرش والعيش في تنسك ؛ ولكن اشقاءه الذين شد كريشنا ، وحكماء كثيرون أزرهم ، نجحوا في ثنيه عن قراره واحتفلوا مزهوين بتضحية الحصان [الاسفاميدها . ر فقرة ٧٣ ع] . وبعد أن تعاون لمدة خمسة عشر عاما مع ابن أخيه دھرتاراسترا آوى مع بعض رفاقه الى الغابة . وبعد فترة قصيرة من الزمن ماتوا في حريق اثارته نارهم المقدسة الخاصة . وبعد ستة وثلاثين عاماً من المعركة الكبرى ، هلك كريشنا وشعبه بطريقة غريبة : تقاتلوا مع بعضهم مستعملين قصبات تحولت سحريا الى دبائيس فانهارت العاصمة وتلاشت في المحيط . ان يودهستهيرا وقد شعر بالشيخوخة ترك السلطة لابن أخيه الصغير باركسيت (الذي كان قد ولد ميتا واعاد كريشنا له الحياة) ، وتوجه مع اشقائه ، ودروبادي وكلب ، نحو الهملايا . وسقط رفاقه الواحد بعد الآخر على الطريق . ووحده يودهيسيرا مع كلبه (الذي

هو في الحقيقة والده الخاص ، دهارما) اللذين قاوما حتى الرمي الأخير . وتنتهي الملحمة مع وصف مختصر لنزول يودهيسرا الى الجحيم ، متبوعاً بصعوده للسماء .

١٩٢ - حرب اخروية ونهاية العالم

إن هذه الحرب الشنيعة كانت قررت من قبل براهما ، بهدف اراحة الأرض من سكانها الذين لم يتوقفوا عن التكاثر . وطلب براهما من عدد من الآلهة والشياطين لأن يتجسدوا بقصد تفجير حرب مرعبة للاستئصال . وقد وصفت الـ ماهابهاراتا نهاية العالم (برالايا) ، متبوعاً بانثاق عالم جديد تحت حكم يودهيسثيرا و باريكسيت^(١) . وتقدم القصيدة بنية اخروية : معركة جبارة بين قوى «الخير» وقوى «الشر» (مشابهة للمعارك بين ديفارآزورالا) ؛ تدمير العلاقات الكونية بالنار ، وبالماء ، واعادة انثاق عالم جديد وطاهر ، مرموز اليه بالبعث الخارق للباركسيت parixsit* . وفي معنى آخر ، يمكن الكلام عن اعادة تقييم ضخم للسيناريوهات القديمة الاسطورية - الطقوسية للعالم الجديد . مع ذلك ، ففي هذه المرة لا يتعلق ابدأ بنهاية «سنة» ، وانما بنتيجة عصر كوني .

إن النظرية الدورية تصبح شعبية بدءاً من البوراناس . وهذا لا يعني أن الاسطورة الاخروية هي بالضرورة ابداع هندوسي ، ان هذا المفهوم موغل في قدمه ويتمتع بانتشار بارز ؛ وما هو اكثر من ذلك ، أن اساطير مشابهة تأكدت في ايران واسكاندينافيا . وحسب التقليد الزرادشتي ، في نهاية تاريخ اوهرامزد ، سيقبض أهريمان الأميزياسبيتا الستة وكل منها تقبض في يدها على شيطان قديم ، وستصبح هذه التجسيدات النهائية للشر محصورة في الظلمات (ف ٢١٦ع) . وكما رأينا (ف ١٧٧ع) ، نصادف اخروية مماثلة لدى الجرمن القدامى : اثناء المعركة النهائية (راغناروك) ، سيكلف كل اله بكائن شيطاني أو بغول ، مع الفارق بأن الآلهة وخصومهم سيقتلون بعضهم بعضاً حتى الأخير ، وستحرق الأرض

* ر . قصة الغارقليط في الديانة المسيحية . الذي سيأتي ذكره .

وتغوص أخيراً في البحر . ومع ذلك ، فإن الأرض ستعاود انبثاقها من الكتلة المائتة وتنشأ بشرية جديدة ستمتع بوجود سعيد تحت حكم الإله الشاب بالدر . Baldr

لقد حلل كل من ستيج ديكاندر وجورج دوميزيل بوضوح المشابهات التكوينية بين هذه الحروب الثلاثة الأخروية . وعليه يمكن الاستنتاج بأن أسطورة نهاية العالم كانت معروفة من قبل الهندو-أوروبيين . وبالتأكيد أن التباعدات ملموسة ، ولكنها يمكن لها أن تفسر بالتوجهات المختلفة نحو الشرق ، والمميزة للديانات الثلاثة الهندو-أوروبية . صحيح أن الأسطورة الأخروية لم تؤكد في العصر القيدي . ولكن هذا لا يثبت مع ذلك أنها لم تكن موجودة^(٢) . وحسب عبارة دوميزيل [أسطورة وملحمة ص ٢١٨] ، أن المهابهاراتا هي «النقل الملحمي لأزمة أخروية» ، ولما تسميه الميتولوجيا الهندوية النهاية ليوجا . وعلى ذلك فإن المهابهاراتا تحتوي بعض العناصر الفيدي لابل الما قبل الفيدي^(٣) . ومسموح إذن احتساب الأسطورة عن نهاية عصر من بين هذه التقاليد القديمة الآرية ، وأكثر من هذا لقد كانت معروفة من قبل الإيرانيين .

ولكنه يجب أن يضاف مباشرة أن القصيدة تمثل تركيياً عظيماً ، يبرز أكثر غنى من التقليد الأخروي الهندو-أوروبي الذي يمدده . وأن المهابهارتا بوصفها لقاء الكتل البشرية الغير محدودة وللكوارج الأرضية التي ستلو ذلك الصورة المتألقة للبوراناس . وأكثر أهمية هو التطورات والتجديدات اللاهوتية . وأن الفكرة المسيحانية للأفانرا معروفة بقوة وبحدة . ففي الظهور الشهير من ال-بهاغافادجيتا [٩ - ١٢] يظهر كريشنا لأرجوانا ، كأنه تجسيد لفيشنو . وكما لاحظنا^(٤) فإن هذا الظهور يشكل كذلك (برالاي) تسبق «نهاية العالم» الموصوفة في الأنلشيد الأخيرة من الملحمة . وعليه فإن اظهار «كريشنا» فيشنو كسيد للبرالاي أمر كبير بنتائجه اللاهوتية والماورائية . وفي الواقع ، خلف الأحداث المأساوية التي تشكل اللحمة للمهابهاراتا تفسح المجال لحل رموز التعارض والتكامل (فيشنو) (كريشنا) وشيفا . أن الوظيفة «التدميرية» لهذا الأخير متوازية عكسياً بالدور «الخالق» لفيشنو (كريشنا) . فعندما يكون واحد من هذه الآلهة - أو واحد من ممثليهم - حاضراً

في عملية ، فإن الآخر يكون غائباً . ولكن فيشنو (يكريشنا) هو ، ايضا الفاعل «للتدمير» و «الانبعاثات» . وزيادة على ذلك ، فإن الملحمة والبورانا تبرزان المظهر السلبي لهذا الاله^(٥) .

ونعيد القول إن فيشنو ، بصفته كائنا اسمى ، هو الحقيقة الكلية ، وبالنتيجة فهو يحكم الخليفة كما يحكم دمار العوالم . انه خارج الخير والشر ، كما هو من جهة أخرى كل الآلهة . لأن «الفضيلة والإثم يوجدان - أيها الملك ، بين البشر حصراً» [١٢ - ٢٣٨ - ٢٨] . وقد كانت الفكرة مألوفة منذ عصر الاوبانيشاد بين اليوجيين والمتأملين . ولكن الماهاباراتا - وبدقة اكثر - وفي المكان الأول منها الكافادجيتا - جعلتها مقبولة ، وبالتالي شعبية في كافة المستويات من المجتمع الهندي . بتمجيد فيشنو تماما ككائن اسمى ، تشير القصيدة إلى تكاملية شيفا وفيشنو^(٦) . ومن هذه الوجهة النظر ، فإن الماهاباراتا يمكن لها ان تعتبر كحجر الزاوية للهندوسية . وفي الواقع ، ان هذين الالهين بالارتباط مع الربة الكبرى (سهاكتي) ، كالي - دورجا) سادا الهندوسية منذ العصور الأولى المسيحية حتى الآن .

إن تكاملية شيفا - فيشنو تتفق بنوع ما مع تكاملية الوظائف المتعارضة المميزة للآلهة الكبرى (خلافة/ مدمرة) الخ . . وفهم هذه البنية للألوهية يعادل كشفاً ، ويشكل كذلك المثال الواجب اتباعه للحصول على الخلاص . وفي الواقع إن الماهاباراتا تصف وتمجد ، من جهة الصراع بين الخير والشر دهارماو ، أدهارما ، الصراع الذي يكتسب الثقل لمعيار شامل ، لأنه يحكم الحياة الكونية ، والمجتمع والوجود الشخصي ، ولكن القصيدة من جهة أخرى تذكر بأن الحقيقة الكلية - البراهمان - ائتمان للأوبانيشاد - هي خارج الزوج دهارما/ أدهارما وكل زوج آخر من الاضداد . وبعبارة أخرى ، فإن الخلاص يقتضي الفهم للعلاقات بين «الطريقتين» من الحقيقة : الحقيقة المباشرة ، أي المشروطة تاريخياً ، والحقيقة الكلية . وإن التوحيدية الاوبانيشادية قد انكرت صحة الحقيقة المباشرة . والماهاباراتا وبخاصة في اجزائها التعليمية ، تطرح نظرية أكثر اتساعاً : من جهة يعاد فيها تأكيد الوحدانية الاوبانيشادية ، المصبوغة بتجارب الوهية (فيشنوية) ؛

ومن جهة أخرى ، يقبل كل حل للخلاص ليس معارضاً بشكل واضح للتقليد المختص بالكتابة المقدسة .

١٩٣ - اظهار كريشنا

للنظرة الأولى ، يمكن ان يظهر متناقضاً أن العمل الأدبي الذي يصور حرباً استتصالية مرعبة والنهاية ليوجا ، يشكل في ذات الوقت النموذج المثالي لكل تركيب روحاني منجز بالهندوسية . إن الاتجاه للتوفيق بين الاضداد يميز الفكر الديني الهندي منذ عصر البراهمانا ، ولكنه في المهاباراتا جرى قياس أهمية هذه النتائج . وفي الأساس يمكن القول ان القصيدة : (١) تعلم تكافؤ الفيدانتا (أي مبدأ الاوبانيشادات) ، والسمكهيا واليوجا (٢) تقييم المقارنة «للطرائق» الثلاثة مارجا ممثلة بالنشاط الطقوسي ، والمعرفة الميتافيزيقية وممارسة اليوجا ، (٣) تبذل مافي وسعها لتثبيت طريقة للوجود في الزمان ، وبعبارة أخرى تقوم تاريخية الشرط البشري ، (٤) تعلن سمو «طريقة» رابعة ، انقاذية : الايمان بفيشنو (كريشنا) .

إن القصيدة تظهر السمكهيا واليوجا في مراحلها الما قبل المنهجية . فالأول يعني «المعرفة الحقيقية» (تاتفا جنانا) أو «معرفة الذات» أتمابودها) ، ومن هذه الوجهة النظر ، فإن السمكهيا تحدد التفكير الأوبانيشادي . وان اليوجا تشير الى كل نشاط يقود الذات الى براهمان ، في ذات الوقت انها تمنح مالا يحصى من «القوة» . وعلى الأغلب يعادل هذا النشاط التنسك . فعبارة يوجا تعني أحياناً طريقة واحياناً قوة أو تأمل^(٨) . وان الدرسانا الاثنتين معتبرين كما لو أنهما متكافئين . وحسب البهاغافادجيتا ، «وحدها الأرواح المحدودة تعارض سمكهيا ويوجا ، ولكن ليس الحكماء (بانديتاه) . والذي فعلاً هو ان معلم الواحد ، مضمون لثمرة الاثنتين . فسمخيا ويوجا ليسا سوى واحد» [٥ - ٤ - ٥] .

كذلك فإن التطابق للطرق الانقاذية الثلاثة في الـ (بهاغافادجيتا) قد برهن عليها حصراً . فهذا المشهد الشهير يبدأ «بأزمة الوجود» لأرجونا وينتهي بكشف

نموذجي متعلق بالشرط الانساني و «طرق» الخلاص . إن البصير المكتتب بسبب من الحرب ، التي سيكون فيها ملزماً بقتل اصدقائه وابناء عمه الخاصين ، كريشنا يكشف لأرجونا الوسائل للقيام بواجبه من كشاترا بدون ان يدع نفسه ليقيد بالكارما . وبالأكثر ، فإن كشوفات كريشنا تحمل على : (١) بنية العالم (٢) قوالب الكائن (٣) الطرق التي تتبع للحصول على الخلاص النهائي . ولكن كريشنا يبذل العناية ليضيف ان هذا «اليوجا القديم» [٦ - ٣] ، الذي هو «السر الأعظم» ، ليس تجديداً ، فقد علمه سابقاً إلى فيفازفا ، الذي كشفه بعدئذ لمانو ، ومانو نقله الى ايكشافاكا [٤ - ١] .

«إنه بهذا التقليد عُرف الملوك - الريشي ؛ ولكنه ، مع الزمن اختفى هذا اليوجا هنا» [٦ - ٣] . وفي كل مرة يتأرجح النظام (دهارما) يظهر كريشنا نفسه بذاته [٧ - ٦] ، أي يتكشف بطريقة معينة و «بفترة تاريخية» معينة هذه الحكمة الغير موقوته . (وهذا هو مبدأ الافاترا) . وبعبارات اخرى ، اذا مثلت البهاغافا دجيتا تاريخياً كتركيب روحي جديد ، فإنها لم تظهر «جديدة» سوى في عيوننا لكون هذه العيون مشروطة بالزمن وبالتاريخ^(٩) .

ويمكننا القول بأن جوهر المذهب المظهر من قبل كريشنا يلخص في هذه العبارة الموجزة : افهمني واقتدي بي : لأن كل ما يكشفه حول كينونته الخاصة وحول «سلوكه» في الكون وفي التاريخ ، يجب ان يخدم بطريقة مثالية لأرجونا : هذا يجد المعنى لحياته التاريخية وبالاتحاد معه يحصل على الخلاص عارفا ما هو كريشنا ومايفعله . ومن جهة أخرى ، فإن كريشنا ذاته يصر على القمة النموذجية والانقاذية من نوع الهي : «كل ما فعله الرئيس ، يحدو البشر الآخرون حذوه : والقاعدة التي يقررها ، يتبعها العالم» [٣ - ٢١] . وهو يضيف ، بالرجوع إليه ذاته : «في العوالم الثلاث ، لا يوجد شيء سوى ما أنا ملزم باجرائه [...] ومع ذلك ابقى أعمل» [٣ - ٢٣] . ويسرع كريشنا بكشف الدلالة العميقة لهذا النشاط : «اذا لم اكن دائماً في عمل بدون تعب ، في كل الأمكنة ، فإن البشر سيتبعون مثالي . والعوالم تنقطع عن الوجود اذا لم اكمل عملي ؛ سأكون السبب للاختلاط الشامل ولنهاية الخلائق» [٣ - ٢٣ - ٢٤] .

وأرجونا يترتب عليه بالنتيجة ان يقتدي بسلوك كريشنا : أي ، في الدرجة الأولى ، يستمر في العمل ، كي لا يؤدي بسلبيته «للاختلاط الشامل» . الا انه لكي يستطيع العمل «على طريقة كريشنا» يتوجب عليه الفهم بشكل جيد لجوهر الألوهية باكثر ماهو لطرق مظاهرها . ومن أجل هذا ان كريشنا ينكشف : بعرفة الله ، يعلم الانسان في ذات الوقت النموذج الواجب الاتباع . وعليه ، يبدأ كريشنا بكشف ان الكائن واللاكائن يستقران فيه وان كل الخليقة - من الالهة حتى المعادن - تنحدر منه [٤ - ٤ - ٦ ، ٩ - ٤ - ٥ أ] . انه باستمرار يخلق العالم بواسطة مادته براكرتيته son prakrti ، ولكن هذه الفاعلية الغير منقطعة لا تعوقه ابدا : انه ليس سوى المراقب لخليقته الخاصة [٩٠ - ١٠٨] . وعليه ، فإن هذا التقييم ، فعلا ، بمظهر متناقض ، من نشاط (الكارمان) ، الذي يشكل الدرس الرئيسي المعلن من قبل كريشنا : اقتداء بالاله الذي يخلق ويدعم العالم بدون المشاركة فيه ، سيتعلم الانسان ليعمل ذات الشيء . «لا يكفي ابدأ الامتناع عن العمل للتحرر من الفعل : عدم العمل وحده لا يقود مطلقاً الى الكمال» لأن «كل واحد محكوم بالعمل» [٣ - ٤ - ٥] . حتى ولو امتنع عن ان يعمل في المعنى الضيق للكلمة ، فإن نشاط اللاشعور المثار من قبل الغونات les guna [٣ - ٥] يستمر في وصله بالعالم وبداخله في الدورة الكارمية .

انه محكوم بالعمل - لأن «العمل اسمى من اللاعمل» [٣ - ٨] ، فعلى الانسان اكمال الأعمال المرسومة ، وبعبارات اخرى «الواجبات» . فالتصرفات التي تتحكم به ، مفروضة عليه بفضل مركزه الخاص . «ويفضل اتمام واجبه الخاص ولو كان بشكل غير كامل ، على اكمال واجب الغير ولو بشكل كامل» [بارادهارما ٣ - ٣٥] . وهذه النشاطات المميزة مشروطة بالجونات les guna [١١ - ١٠٠ - ٨] . ويعيد كريشنا ويكرر بمناسبة عدة ان الجونات تنبثق عنه ، ولكنها لا تقيد : «لا ولو أنا فيهم ؛ فإنهم هم الذين في» [٧ - ١٢] . والدرس الذي ينطلق من هنا هو التالي : تماما بقبول «الوضعية التاريخية ، المبدعة بالجونات (ووجوب قبولها لأن الجونات ، هي ايضا مشتقة من كريشنا) وبالعامل تبعاً للضرورات لهذه «الوضعية» - على الانسان ان يرفض لذاته تقييم اعماله ، وبالنتيجة ، اصفاء قيمة مطلقة على شرطه الخاص .

في هذا المعنى يمكن القول ان البهاغافا وجيتا تجهد نفسها «لإنقاذ» كل الاعمال البشرية و «تبرير» كل عمل مدنس : لأنه بالواقع ذاته أنه لا يتمتع بثمراتها ، فالإنسان يحول أعماله لتضحيات ، أي بآليات عبر اشخاص يساهمون في دعم النظام الكوني . وعليه ، فإن كريشنا يذكر ، بأن الأفعال وحدها التي لها هدف التضحية لا تفيد أبداً . [٣ - ٩] . وقد خلق برابجاتي الأضحية ليستطيع الكون ان يظهر وليستطيع البشر ان يعيشوا وينتشروا [٣ - ١٠] ولكن كريشنا يكشف ان الانسان يستطيع المساهمة ، هو ايضا ، بكمال العمل الالهي : ليس بالأضحيات فحسب (التي تشكل الطقوس الفيدية) ، بل بكل أفعاله ، مهما كانت طبيعتها . فعندما يضحي مختلف النساك واليوجيين بنشاطاتهم النفس - فيزيولوجية فإنهم ينفصلون عن هذه النشاطات ، وترد إليهم قيمة عبر الذاتية [٦ - ٢٥] ، وباجراء هذا «كلها لها المعنى الحقيقي للأضحية ، وبالأضحية تمحي قذاراتها» [٦ - ٣٠] .

إن هذه النقلة للنشاطات الغير مقدسة بطقوس تصبح ممكنة باليوجا . ويكشف كريشنا لأرجونا ان «إنسان العمل»^(١٠) يمكن انقاذ نفسه ، وبعبارة اخرى ، ان يخلص نفسه من نتائج مساهمته بحياة العالم ، مع استمراره في العمل . ان الشيء الوحيد الذي يجب عليه ملاحظته هو هذا : يجب عليه ان ينفصل عن أعماله وعن نتائجها ، وبعبارة أخرى : «التنازل عن ثمار افعاله» (فالترسنافيراجيا) والعمل بشكل لا شخصي ، بدون هوى ، ولا رغبة ، كما لو تعلق بتوكيل ، محل آخر . فاذا توافق بدقة مع هذه القاعدة ، فإن افعاله لن تزدرع بقدرات كامنة كرمية ، ولن تستعبده مطلقا بدورة كرمية . «فاللامبالي بثمره العمل ، قانع دوما ، حر من كل ارتباط ، منشغل بما يمكن له ان يكون ، وفي الواقع لا يفعل شيئاً...» [٦ - ٢٠] .

إن أكبر أصولية آل بهاجافادجيتا هي في اصرارها على هذه «يوجا العمل» التي تتحقق «بالتنازل عن ثمرة الأعمال» . وكذلك كان هذا هو الباعث الاساسي

لنجاحها دون سابقة في الهند . لأنه منذئذ سمح لكل انسان بأن يأمل بالخلاص ، بفضل فالاترنزا فيراجيا ، حتى انه ، لبواعث النظام المختلفة جداً ، سيكون ملزماً بالاستمرار بالمشاركة في الحياة الاجتماعية ، للحصول على اسرة ، والاهتمامات ، ولاشغال وظائف ، وحتى لارتكاب اشياء «لا أخلاقية» (مثلما حصل لأرجونا ، الذي فرض عليه قتل خصومه في الحرب) . فإن يعمل بهدوء دون أن يتحرك برغبة «الحصول على الفائدة» ذلك هو تحصيل ثقافة ذاتية وصفاء تستطيع اليوجا وحدها ان تمنحه له . وكما قال كريشنا : «بالعمل دوما دون ضيق ، يبقى أميناً لليوجا» . فهذا التفسير لتقنية اليوجا هو متميز بجهد عظيم من تركيب البهاغافادجيتا ، التي ارادت التوفيق بين كل الالهامات : التنكسية ، والصوفية ، أو المكرسة للنشاط في العالم .

وزيادة على هذه اليوجا المقبولة لكل الناس ، والتي تتكون في التنازل عن كل «ثمرات الأعمال» . تعرض البهاغافادجيتا باختصار تقنية يوجية بكل معنى الكلمة محجوزة للتأملات [٤ - ١١] . يقرر كريشنا أن : «اليوجا هي اسمى من التنسك (ثاباً)، اسمى حتى من العلم (جناناً)، اسمى من الاضحية [٤- ٤٦] . لكن التأمل اليوجي لا يدرك هدفه الكامل الا اذا تركز التلميذ في الاله : «الروح صافية وبدون خوف [...] ، العقل ثابت وبدون انقطاع مفكر بي moi ، يجب ان يطبق اليوجا متخذني هدفاً اسمى» [٤ - ١٤] . «إن من يراني في أي مكان ويرى كل شيء فيّ ، هذا لن اتركه ابداً ، وابدأ لن يتركني . إن من هو مثبت نفسه في الوحدة ، يعبدني ، أنا الذي اسكن في كل الكائنات ، هذا اليوجي يسكن في ، كيفما كانت طريقته في العيش» [٤ - ٣٠ - ٣١] .

إن هذا هو في آن واحد الظفر لتطبيقات اليوجا والتمجيد للورع الصوفي (بهاكتي) إلى مصاف «الطريق» الأسمى . وازضافة لذلك فقد برز في البهاغافادجيتا مفهوم الرحمة منشأ عن التطور الغزير الذي سيتخذه في الأدب الفيشنوي للقرون الوسطى . ولكن الدور الحاسم الذي كان له في انبثاق التوحيد لم يستنفذ أبداً أهمية البهاغافادجيتا . هذا الكتاب الذي لا مثيل له ، هو مفتاح قبة الروحانية الهندية ، وهو قابل لأن يقيم في نصوص متعددة . وبواقع لفته الانتباه

على تاريخ الانسان ، فإن الحل المقدم من قبل الجيتا Le Gita هو بالتأكيد الأكثر امكانية للفهم ، ويقتضي ان نضيف ، الأكثر ملاءمة بالنسبة للهند الحديثة التي سبق ادخالها في «دورة التاريخ» . ولأنها مترجمة بمصطلحات مألوفة للغربيين ، فإن المسألة المواجهة في الجيتا هي التالية : كيف يحل الوضع المتناقض المنشأ بالعمل المزدوج من حيث وجود الانسان في الزمان من جهة ، منذور للتاريخ ، وإنه يعلم ، من جهة أخرى بأنه سيكون «مداناً» ، اذا ترك ليستنزف بالزمنية وبتاريخيته الخاصة ، والذي ، بالنتيجة ، يتوجب عليه بأي ثمن أن يجد ، في العالم ، طريقاً ينفذ على مستوى عبر تاريخي وغير موقوت ؟

وقد رأينا الحل المعروض من قبل كريشنا : عمل واجبه (سفادهارما : في الدنيا ، ولكن دون ان يدع نفسه تثار بالرغبة في ثمرات أعماله (فالاترسنا فيراجا) . وبما ان العالم برمته هو الخليقة ، لا بل التجلي ، لكريشنا (فيشنو) فإن العيش في الدنيا ، والمشاركة في تركيباتها ، لا يشكل «عملاً سيئاً» . (فالعمل السيء) هو بالاعتقاد ان الدنيا ، والزمن والتاريخ تنصرف بحقيقة خاصة ومستقلة ، أي انها لا توجد شيئاً آخر خارج لدنيا والزمنية . ان الفكرة هي ، بالتأكيد ، ماقبل - هندية ، ولكنها في البهاجافادجيتا ثالث أكثر تعبير متماسك لها .

١٩٥ - «افتراق» و «تجميع»

لكي نوضح الدور البارز للبهاجافادجيتا في التاريخ الديني للهند ، يجب تذكر الحلول المعروفة في السمكهيا واليوجا والبوذية . فبحسب هذه المدارس ان الخلاص يتطلب كشرط واجب ولازم sine qua non ، الانفصال عن العالم ، بل النفي للحياة البشرية بصفتها كطريقة للوجود في التاريخ^(١) . ان اكتشاف «الأم شامل والدورة اللانهائية للتجسيدات»^(٢) . كان قد وجه البحث عن الخلاص في اتجاه محدد : فالخلاص كان يوجب تطبيق الرفض لاتباع غرائز الحياة والمصطلحات الاجتماعية . ان الانزواء في عزلة والممارسات التنسكية كانت تشكل الأوليات

التي لابد منها . ومن جهة اخرى فإن السلامة بالعرفان الروحي (غنوص) كانا مقارنا «بيقظة» و«انعقاد من العلاقات» و«رفع العصابة التي تغطي العينين الخ . [ف ٣٦ ع] . واجمالاً فإن السلامة كانت تفرض عملاً من الانقطاع : التحلل من العالم ، مكان المعاناة والسجن المخصص للعبيد .

إن انخفاض القيمة الدينية للعالم قد تسهل باضمحلال اله خالق . وبالنسبة للسّمكها - يوجا إن العالم قد جاء ليكون بسبب «الغريزة الغائية» للمادة الأولية (براكرتي) . وبالنسبة للبوذا ، فإن المسألة لا تطرح نفسها كذلك ، لأن البوذا يعارض في وجود الاله . فانخفاض القيمة الدينية للعالم مصحوبة بتمجيد للروح أو الذات (اثمان) بيروشا) . وبالنسبة لبوذا نفسه ، مع أنه يرفض «الأثمان» بصفته جوهرأ فرداً (موناد) مستقلاً وغير قابل للتخفيض ، فإن الخلاص سيحصل بفضل جهد ذي طبيعة روحية .

ان التصليب durcinement المتماذي للثنائية - روح مادة ، يذكر بتطور الثنائية الدينية ، الواصلة للصيغة الايرانية للمبدأين المتضادين الممثلين للخير والشر . وكما لاحظنا في عدد من المناسبات وخلال فترة طويلة من الزمن فإن التعارض خير/ شر لم يكن سوى أمثلة متعددة من أزواج واقطاب - كونيات، اجتماعيات ، دينيات - ضمنت التناوب الايقاعي للحياة والعالم . واجمالاً ، فإن ما عزل في المبدأين المتضادين ، الخير والشر ، كان في البداية واحداً فقط بين العديد من الصيغ عبر بواسطتها عن المظاهر المتضادة وانما المتكاملة في الواقع : نهار/ ليل ، مذكر/ مؤنث ، حياة/ موت ، خصب/ جذب ، صحة/ مرض الخ^(١٣) . وبعبارة اخرى ، ان الخير والشر يشكلان جزءاً من ذات الايقاع الكوني ، وبالتالي بشري ، صاغه الفكر الصيني في تناوب المبدأين يانغ وين (ث ١٣٠ ع) . (ع)

إن تخفيض الكون والحياة المذكور في الاوبانيشاد ، يعرف تعابيره الاكثر دقة في الانطولوجيات الثنائية وطرائق الفصل المعلنة بالسّمكها - يوجا والبوذية . ويمكن مقارنة عملية التصليب الذي يميز هذه المراحل للفكر الديني الهندي مع تصليب

الثنائية الايرانية لزرادشت في المانوية . وبالمظهر ، اعتبر زرادشت العالم «كخليط» من الروحي والمادي . والمؤمن ، بانجازه بدقة للأضحية فصل جوهره السماوي (مينون) عن المظهر المادي (جيتيه)^(١٤) .

غير أنه بالنسبة لزرادشت وللمزدية ، كان العالم صنعة أهورامزدا . وإن العالم لم يفسد إلا بعد زمن متأخر ، بواسطة أهريمان . وعلى العكس فإن المانوية وبعض المذاهب الغنوصية كانت تصف الخليقة بقوى شيطانية . فالعالم ، والحياة والانسان ذاته هم حصيلة سلسلة من النشاطات المساوية المحزنة أو الاجرامية . وفي آخر المطاف فإن هذه الخليقة البشعة والعبثية هي منذورة للتلاشي . وإن الخلاص هو النتيجة لجهد طويل وصعب من أجل فصل النفس عن المادة ، والنور عن الظلمات التي تأسره .

بالتأكيد ان الطرق المختلفة والتقنيات الهندية ، المتطلعة لخلاص الروح بسلسلة من الانقسامات اكثر فأكثر جذرية ، قد استمرت باستقطاب مهتدين جدد لزمن طويل بعد الباها غافادجيتا . لأن رفض الحياة وبخاصة الوجود المشروط بالبنى الاجتماعية - السياسية وبالتاريخ ، كان قد أصبح بعد الابانيشاد حلاً محترماً انقادياً . ومع ذلك ، فإن الجيتا Gita كانت قد نجحت في ادخال كل الشرقيات الدينية الهندية في تركيب جريء ، كذلك الممارسات التنسكية المدخلة لترك الجماعة والالتزامات الاجتماعية . ولكن ، وبصورة خاصة ، انجزت الجيتا إعادة التقديس للكون ، والحياة الكلية وحتى الوجود التاريخي الانسان . وكما سنرى ، فإن فيشنو - كريشنا ليس الخالق وسيد العالم فحسب ، بل انه يعاود تقديس العالم برمته بوجوده .

من جهة اخرى ، فإن فيشنو يخرب دوما العالم دورياً في نهاية كل دورة كونية ، وبعبارة اخرى ان كل شيء مخلوق ومحكوم بالاله . وبالنسبة فإن المظاهر السلبية للحياة الكونية ، والوجود الفردي والتاريخ تتلقى دلالة دينية . ان الانسان ليس الرهينة لسجن كوني ، خلق لوحده ، ولكن العالم هو عمل اله شخصي كلي القدرة . وما هو اكثر من ذلك ، انه لم يترك العالم بعد خلقه ، وانما استمر ماثلاً فيه وفعالاً على مختلف المستويات ، بدءاً من البنى المادية للكون حتى في شعور

الانسان . وان الكوارث الكونية والمصائب التاريخية ، لابل الدمار الدوري للعالم ، كله محكوم بفيشنو- كريشنا ، فهي اذن ظهورات . الأمر الذي يقرب الـ البهاغافادجيتا من يهوه ، خالق العالم ، ورب التاريخ ، كما فهمه الانبياء (ف ١٢١ ع) . زد على ذلك ، ليس بدون فائدة اعادة التذكير بأنه كما في الكشف الموعود بالجيتا ، سيحصل اثناء حرب مرعبة فناء فإن الانبياء بشروا تحت «إرهاب التاريخ» ، وتحت التهديد بالتشتت الوشيك للشعب اليهودي .

ان الاتجاه لجمع الحقيقي الذي يميز الفكر الهندي ، يجد في البهاغادجيتا واحدة من العبارات الأكثر اقناعا . وهذا التجميع المكتمل باشارة من الاله شخصيا يمنح قيمة دينية حتى لمظاهر غير منكرة «للشر» . و«الألم» ، كالحرب ، والخيانة ، أو الاغتيال^(١٥) . ولكن هذا هو بصورة خاصة اعادة تقديس للحياة وللوجود البشري الذي له نتائج ملحوظة في التاريخ الديني للهند . إن التانتارية في القرون الأولى للمسيحية ستجهد بكل وضوح لتحويل الوظائف العضوية «تغذية غريزة جنسية الخ . .» الى تقديس . ومع ذلك ، فإن هذا النموذج من التقديس للجسم والحياة كان من الممكن الحصول عليه بتقنية يوجية معقدة جداً وصعبة . وفي الواقع ، فإن المبادأة التانتيرية كانت محفوظة للنخبة . في حين ان رسالة البها غافادجيتا كانت تتوجه لكل اصناف البشر وكانت تشجع كل الالهامات الدينية . ولقد كان هذا الامتياز لعبادة مقدمة لاله هو في آن واحد شخصي وغير شخصي وخالق ومدمر ، ومجسد ومتصاعد .

حواشي الفصل الرابع والعشرين

- ١ - جورج دوميزيل - أي في حكم يودهيشيرا إعادة بعث العالم (اساطير وملاحم) ص ٥٢ و Alf. Hillebrandt ، متبعاً التفسير الهندي التقليدي ، يقدر ان «العصر الجديد» يبدأ مع حكم باركسيت (الماهاباراتا والأخروية الهندية ص ١٠٢
- ٢ - «إن فكر الاناشيد القيدية مركز على الحاضر ، وعلى الخدمات الآنية للالهية حيث ان المفاخر الماضية والاسطورية هي الضمانات : ان البعيد من المستقبل لا يهمهم» دوميزيل اساطير وملاحم ص ٢٢٢
- ٣ - stig wikankr لاحظ ان آباء النبدار الخمسة - دهارما - فايو ، اندرا ، والتوامين ، تناسب القائمة ثلاثية الوظائف للالهة الفيدية - ميترا - فاردنا (=دهارما) ، اندرا (= فايواندرا) والاسفين . هذه القائمة لا تعكس الوضع الديني للعصر حيث كانت القصيدة تحت (عصر محكوم بفيشنو وشيفا) ، ولا يعكس العصور الفيدية عندما كان سوما واجنى يتمتعان بدور هام ويتبع هذا ان الماهاباراتا تقدم حالة عن اشياء قبل - فيدية وبعد فيدية - (دوميزيل) .
- ٤ - م - بياردو (دراسات للميتولوجيا الهندية) ص ٥٤
- ٥ - في البورانا les Puranas عادة يوصف فيشنو كمتوحش خطر ، غير مسؤول «مجنون» وعلى العكس ، شيفا يمثل في كثير من الحالات عن نجاح في تهديته . ر النصوص التي ذكرها دافيد كينسلي «عبر منظر زجاجي» ص ٢٧٦
- ٦ - من اجل مختلف المظاهر لهذه التكاملية j. Gonda ص ٨٧
- ٧ - بصورة خاصة في القطع (المزيفة من الملاحم) والتعاليم . (الكتاب ١٢ و ١٣ الخ)
- ٨ - هذه المنوعات في المعاني تناسب تشتت مورفولوجيا . . ر م . الياد - اليوجها ص ١٥٧
- ٩ - هذا ليس بدون تأثير على كل تفسير غربي للروحانية الهندية : لأنه اذا كان لنا الحق باعادة تكوين التاريخ للمذاهب والتقنيات الهندية مع بذل الجهد لتدقيقها وتحديداتها وتطورها وتحويراتها

المتابعة فانه لا يسوغ نسيان انه من وجهة نظر الهند ، ان النص التاريخي - الكشف ليس سوى مضمون محدود : (الظهور) او (الغياب) لصيغة انقاذية على مستوى التاريخ لا يستطيع ان يعلمنا شيئاً بالنسبة لمصدره - وتبعاً للتقليد الهندي الذي اعيد التأكيد عليه بقوة بواسطة كريشنا ، فإن مختلف «الفترات التاريخية» التي هي ذات الوقت فترات مصير كوني - لا تخلق المبدأ وإنما تظهر فقط (صيغاً خاصة برسالة غير وقتية) .
الياد . اليوجا .

١٠ - «رجل العمل» أي الذي لا يستطيع ان ينسحب من الحياة المدنية لأجل ان يصنع سلامه بواسطة المعرفة ، والتنسك أو الورع الصوفي .

١١ - بالتأكيد المحطات (الكلاسيكية) لدراسامات سمكهيا يوجا هلي سابقة بعدة قرون لتحرير البها حلة جيتا ولكن اتجاهاتها المميزة - بصورة خاصة الطرائق المعلنة بهدف فصل الروح عن التجربة الفعلية - سبق تأكلها في عصر الاويانيشاد .

١٢ - نعيد إلى الذاكرة ان القدرية في التقمص جعلت عبثا الانتحار

١٣ - انظر الياد - العينين للأصول ص ٣٢٣

١٤ - ر . فقرة ١٠٤ع - لقد اتبعنا شرح ح - جنولي

١٥ - من بعض وجهات النظر يمكن القول ان البهاجافادجيتا تغطي مفهوماً قديماً للحقيقة الكلية المتخيلة كتناوب لمبادئ متعارضة وإنما متكاملة .

الفصل الخامس والعشرون

المحن اليهودية : من سفر الرؤيا إلى تمجيد التوراة

١٩٦ - بدايات الأخروية

إن الفصول ٤٠ - ٥٥ من كتاب اشعيا ، تشكل مؤلفاً على حدة ، معروفاً تحت اسم (اشعيا الثاني) deuterio-Isaïe وهذا النص حرر في السنوات الأخيرة من النفي البابلي ، من قبل كاتب مجهول ، ومن المرجح انه أعدم بعد محاكمة [اشعيا - ٥٢ - ٣ - ٥٣ - ١٢] . والرسالة تتناقض بقوة مع نبوءات أخرى ، بدءاً بتفاوتها وايضاً بتفسيرها الجريء للتاريخ المعاصر . فالملك الكبير قورش أداة ليهوه [٤١ - ٤٢] ، يهيء لخراب بابل . وان اولئك الذين اعتقدوا بعظمة الآلهة البابلية سرعان ما يختلط الأمر عليهم لأن هذه الآلهة مجرد أصنام غير ذات حول وعاجزة [٤٠ : ١٩ ، ٤٤ : ١٢ - ٢٠ الخ] . ويهوه وحده هو الاله : « هكذا قال

الرب ملك اسرائيل وفاديه رب الجنود ، أنا الأول وأنا الآخر ولا اله غيري» [٤٤ - ٦ وكذلك ٤٥ - ٨ - ٢٢] «إنني إله لا مثل له ، إله لا شبه له [٤٦ : ٩] .

انه يتعلق بتأكيد اكثر جذرية لوحداية نموذجية ، نظراً لأن الوجود حتى لآلهة أخرى قد نفي . «استيقظي استيقظي ، البسي العزة يا ذراع الرب ، استيقظي كما في أيام القدم واجيال الدهور- أأست انت التي قطعت رحاب Rahab وطعنت التنين . أأست انت التي جففت البحر ، ومياه الغمر العظيم فجعلت اعماق البحر طريقاً يعبر فيه المقتدون» [٥١ : ٩ - ١٠] . فالخليقة ، كما هو التاريخ ايضا ، هو اذن ، كالنفي والتحرير كذلك ، كلها من عمل يهوه . ان تحرير المنفيين قد فسر بخروج جديد . ولكنه يتعلق هذه المرة بعودة ظافرة : «لقد رسمت طريقاً في الصحراء ، وشعاباً في القفر [٤٣ : ٢٩] «إنكم بفرح تخرجون ويسلام ترشدون والجبال والتلال تندفع بالترنيم أمامكم ، وجميع اشجار الصحراء تصفق بالأيدي - عوض العليق ينبت السرو وعوض القراص ينبت الأس ويكون ذلك للرب اسماً وآية أبدية لا تنقرض» [٥٥ ب ١٢ - ١٣] . [٤٠ - ٩ - ١١]

والخروج الجديد لن يكون سريعاً : «إنكم لا بعجلة تخرجون ولا كمن يهرب سيرون بل امامكم يسير الرب ويجمعكم اله اسرائيل» [٥٢ : ١٢] . وبعض الشعوب الأخرى ستكون محصورة في الافتداء الذي يعد «توجهوا إلي ، فأخلصوا يا جميع أقاصي الأرض فإنني أنا الله وليس آخر» [٤٥ : ٢٢] . ومع ذلك فإن اسرائيل سيتمتع دوماً بوضعه المتميز ، وهو أنه الشعب السائد .

إن سقوط اورشليم ، وانهايار مملكة جودا juda والنفي ، كانت جميعها الأحكام الالهية المعلنة من قبل كبار الانبياء ، والآن اكتمل العقاب ، ويهوه جدد الحلف . وفي هذه المرة سيكون الحلف ابدياً [٥٥ : ٣] . «اسمعوا فتحيا نفوسكم ، فإنني اعاهدكم عهداً ابدياً على مراحم داوود الأمانة» . والافتداء لا رجعة فيه [٤٥ : ١٧ : ٥ : ٦] لأنه «في سورة غضب حجبت وجهي عنك لحظة ، وبرأفة أبدية ، أرحمك قال فاديك الرب» [٥٤ : ٨] . ان الاسرى المنفيين ، وقد حرروا من قبل الرب يهوه سيرجعون الى صهيون «فالذين افتداهم الرب

سيرجعون ويأتون الى صهيون بترنيم ، ويكون على رؤوسهم فرح أبدي وبشبتهم السرور والفرح وتنهمز عنهم الحسرة والتأوه [٥١ - ١١] .

إن الحماس والتمجيد والرؤى الطوباوي المنبثقة من تأكيد السلامة الوشيكة الحصول ، لا مثيل لها في الأدب السابق ، فعوزيا ، وارميا ، وحزقيال ، كانوا أعلنوا إيمانهم بافتداء اسرائيل . غير أن كاتب اشعيا الثاني هو أول نبي يعد أخروية . فهو يعلن ، في الواقع ، عن فجر عهد جديد . وبين العصرين - ذلك الذي اكتمل ، والجديد الذي يجب له ان يبدأ من فترة لأخرى - يوجد فارق جذري . ولم يبشر الانبياء الآخرون بنهاية عصر مأساوي وقرب عصر آخر ، كامل وسعيد ، ولكن نهاية السلوك اللاأخلاقي لاسرائيل ، وتمجيدها بعودة صادقة للرب . وعلى العكس ، فإن نبوءة إشعيا الثانية تمثل تدشين عصر جديد كتاريخ مأساوي ، متضمنا سلسلة من الأعمال المعجزة المحددة من قبل الرب : (١) خراب بابل من قبل يهو [٤٣ : ١٤ - ١٥ الخ] وبواسطة اداته قورش [٤١ : ٢٤ الخ] أو بواسطة اسرائيل [٤١ : ١٤ - ١٦] (٢) فداء اسرائيل ، أي تحرير المنفيين [٢٩ : ٢٥ - ٢٦] ، واجتياز الصحراء [٥٥ : ١٢ - ١٣] والوصول الى القدس [٤٠ : ٩ - ١١] وتجميع كل أولئك الذين كانوا مشتتين في العالم [٤١ : ٨ - ٩] ورجوع يهو لصهيون [٤٠ : ٩ - ١١] تحول البلاد بواسطة إعادة البناء [٤٤ : ٢٦] وتعدد الجماعات وتكاثرها [٤٤ : ١ - ٥] لا بل وحتى بتغيرات على اسلوب فردوسي [٥١ : ٣] (٥) اهتداء الأمم بيهو ورفضها لأهتها [٥١ : ٤ - ٥] الخ .^(١) وهذا السيناريو الأخروي سيعاد أخذه وتطويره من قبل الانبياء المتأخرين (ف ١٩٧ع) . ولكن أحداً منهم لم ينجح في مساواة القدرة الرؤية والعمق الروحاني لاشعيا الثاني .

ثمة اربعة قصائد مساة اغاني الخادم [٤٢ : ٤-١ ، ٤٩ : ١-٦٥ ، ٥٠ : ٤٩ و ٥٢ : ١٣ - ٣٣ : ١٢] تعبر بطريقة أصولية ومأساوية عن آلام الشعب اليهودي . وقد اعطى تفسيرها مجالاً للخلافات لا حصر لها ، ومن الراجح جداً أن خادماً ليهو (ايهيدياهيفه) يشخص النخبة اليهودية المنفية ، وإن آلامه اعتبرت كتكفير عن ذنوب الشعب برمته . فقد تقبل هذا الخادم يهو كل المصائب : «لقد

ادرت ظهري لأولئك الذين ضربوني . . ولم أبعد وجهي عن الالهات والبصاق» [٥٠ - ٦] . إن محنة النفي هي أضحية ، بفضلها محيت ذنوب اسرائيل . «إنها كانت معنا ناتنا التي تحملها والمنا التي قيدته [. . . .] . وقد اخترق بسبب من ذنوبنا ، وسحق بسبب جرائمنا . ان العقاب الذي اعاد السلام لنا هو عليه ، وأنه بفضل جراحه تم شفاؤنا» [٥٣ : ٥] .

إن العهد الجديد والتفسير المسيحي رأيا في «الخادم ليهوه» المقدمة للمسيح . وقد شجع عدد من المشاهد هذا التفسير لأن «يهوه أسقط على نفسه جرائمنا كلنا [. . . .] وكخروف يقاد الى السلخ [. . . .] ولا يفتح فمه من اجل ذنوبنا ، لقد ضرب حتى الموت» [٥٣ : ٦١ - ٨] انه اضحية متطوعة (الخادم) «حسب بين المذنبين في حين انه قد تحمل اخطاء الألوف ، وتشفع من أجل المذنبين» [٥٢ : ١٢] . الا انه بعد «المصائب لروحه ، سيرى النور وسيكون مغمورا [. . . .] ومع الأقوياء ، وسيتقاسم الغنائم ، [٥٢ : ١١ - ١٢] . اكثر من هذا ايضا : سيجعل يهوه من «خادمة» نور الأمم ، ومن أجل ان يدرك سلامي «اقطار الأرض» [٤٩ : ٦] .

إن هذه النصوص تصنف من بين قمم الفكر الديني العبري . فإعلان السلام الشامل عبر محن «خادم يهوه» تبشر بالمسيحية .

١٩٧ - حجاجي ، وذكريا ، نبيان - أو خرويان

إن المنفيين المواجهين بمسائل مستعجلة ، بدءاً من عودتهم في ٥٣٨ ق.م كانوا مواجهين بمسألة إعادة بناء المعبد . والمعبد الجديد لم يعد يتم ابداً للأسرة الملكية ، وانما للشعب ، الذي التزم بتحمل نفقاته . وقد وضعت حجر الأساس في ٥٣٧ ق.م ومع ذلك توقفت الأعمال بعد فترة قصيرة ، ولم يعاد العمل إلا في ٥٢٠ ق.م وبعد تغير سياسي . فقد اثارت الأزمة التي هزت الامبراطورية الفارسية موجة عارمة من الاعتقاد الأخروي . وقد ركز زوروبابل الذي سيسى

المفوض الأعلى ، والكاهن الأكبر هوشع ، المدعومين من النبيين حجابي وزكريا ، ركزا جهدهما على إعادة تشييد المعبد . وفي ٥١٥ ق.م دشّن المعبد ، ولكن زورديابل المعتبر غير موثوق من النظام الفارسي ، كان قد مضى .

وبالنسبة للمتحمسين الثملين بالتنبؤات الحديثة ، فقد كان هنالك بداية لسلسلة جديدة من الاحباطات . فطالما ان الحكم الالهي قد تم ، أخذ التساؤل يطرح متى سيظهر العصر الأخروي المعلن من قبل اشعيا الثاني . وبالنسبة لحجابي ، كان العهد الجديد قد بدأ عند وضع زورديابل لحجر الاساس [٢ : ١٥ - ١٩] . واعلن بالنسبة ليوم انتهاء الأعمال هزة ارضية ، وسقوط (ملوك الأمم) ومحق جيوشهم ، وبعث زورديابل كملك مسيحياني . «أليس البذر في الأهراء بعد . كذا الكرم والتين والرمان والزيتون لم تثمر بعد . لكن من هذا اليوم أبارك . وكانت كلمة الرب ثانية إلى حجابي في الرابع والعشرين من الشهر قائلا . كلم زورديابل حاكم يهوذا قائلاً انني ازلزل السماء والأرض واقرب عرش الممالك وادمر قدرة ممالك الأمم وأقلب العجلة وركابها وتسقط الخيل وركابها كل واحد بسيف أخيه» [نبوءة حجابي ٢ : ٢ - ٢٤] (٢١) . ومع ذلك وعندما افتتح المعبد نهائيا ورد التساؤل عن ترك الوعد الأخروي ينتظر . وقد كان فسر أحد الأجوبة الأكثر اقناعاً ، التأخر بفساد الجماعة ، الا انه ، وكما حصل مراراً في التاريخ ، فإن تراجع التغيير العالمي المتنبأ به من قبل اشعيا الثاني غير مفهوم الخلاص وبالتدرج انطفأ الأمل الأخروي .

وسنقيم فيما بعد نتائج هذا الاضطراب بالنسبة للتاريخ التالي لاسرائيل ، ومع ذلك ، لا يمكن بخس قيمة الأهمية لنبوءة أخروية . فأجابي وزكريا يؤكدان على الفرق الجذري بين العصرين ، القديم والجديد . فبالنسبة لزكريا ان الأول كان مميزا بارادة يهوه بالدمار ، والثاني برغبته في الانقاذ [١ : ١ - ٦ - ٨ ، ١٤ : ١٥] فسيكون في البدء تدمير للشعوب المسؤولة عن مأساة اسرائيل [١ : ١٥] يتبعه «فيض من الخيرات» الموزعة من قبل يهوه للقدس [١ : ١٧ ، ٢٠ : ٥ - ١٩] فسيستأصل الرب المذنبين من يهود [٥ : ١ - ٤] وسيبعد الظالمين من البلاد [٥ : ٥ - ١١] . وسيجمع المنفيين [٦ : ١ - ٨ الخ] وأخيراً سيحتفل بالحكم المسيحي في

اورشليم وستأتي الأمم «هكذا قال رب الجنود ، سيأتي شعوب ايضاً وسكان مدن كثيرة . ويسير سكان الواحدة الى الأخرى قائلين لنسر سيراً لاستعطاف وجه الرب والتماس رب الجنود ، وأنا ايضاً اسير ، فيأتي شعوب كثيرون ، وامم أقوياء لالتماس رب الجنود في اورشليم واستعطاف وجه الرب» [٨ : ٢٠ - ٢٢ ، ١٥] وتلاقى نبوءات مماثلة في النص المسمى رؤيا اسرائيل [اشعيا فصل ٢٤ - ٢٧] (٣) . وستعاد النعمات ذاتها في القرن الرابع من قبل زكريا الثاني Dentère zacharie [٩ : ١١ - ١٧] [١٠ : ٣ - ١٢] . ومن قبل النبي يوشل Yoel (٤) . والسيناريو الأخروي يتضمن كلا أو جزءاً من هذه البواعث : اضمحلال الأمم ، وانعتاق اسرائيل ، وتجمع المنفيين في القدس ، والتحول الفردوسي للبلاد ، وبعث الملكية الالهية أو حكم مسيحياني ، والايمان النهائي للشعوب . ويمكن ان نميز في هذه الصور الفردوسية التحول الأخروي لرسالة «الأنبياء المتفائلين» قبل النفي (٥) . ومنذ اشعيا الثاني ، كان اعتبر فجر الآخرة وكأنه قريب الحدوث [اشعيا : ٥٦ : ١ - ٢٢ : ٢] «هكذا قال الرب حافظوا على الانصاف وأجروا العدل ، فقد اقترب خلاصي ان يجيء وبري ان يتجلى» . ويتجاسر النبي حيناً بتذكير يهوه الذي تأخر بانقاذ اورشليم «على أسوارك يا اورشليم أقمت حراساً لا يسكتون نهاراً ولا ليلاً ياذاكري الرب لا تفتروا . ولا تدعوه يفتقر حتى يقر اورشليم وتجعلها تسيحة في الأرض» [اشعيا : ٦٢ : ٦-٧] . مع ذلك ، يعرف أن الخطيئة تفرض على المذنبين «ولكن آثامكم مزقت بينكم وبين الهكم وخطاياكم حجبت وجهه عنكم فلا يسمع ، [٥٩ : ٢]» (٦) . وبالنسبة لاشعيا الثاني كما هو بالنسبة للأنبياء التالين على النفي ، ان تدشين او احياء عهد جديد سيكون مسبوقاً باضطرابات تاريخية كبرى «سقوط بابل» وغزوة الشعوب ضد القدس يتبعها تدميرهم) .

إن امتداد الفداء الأخروي لشعوب أخرى مثل بالتائج بالنسبة للتطور التالي لديانة اسرائيل ففي اشعيا الثاني [اشعيا ٥١ : ٤-٦] يتوجه يهوه الى كل الشعوب ، ويتكلم عن «سلامه» الذي «سيأتي مثل النور» . «في ذلك اليوم يلتفت الانسان الى صانعه وتنظر عيناه الى قدوس اسرائيل» [١٧-٧] .

والفداء الشامل بوضوح اكثر معلن من قبل صفيان [٣ : ٩] «لاني حينئذ اجعل للشعوب شفة طاهرة ليدعوا جميعهم باسم الرب وليعبدوه بكتف واحدة» . ومع ذلك ، وعلى الأغلب ، فإن الخلاص موعود به للجميع ولكنه سيكون مقبولا في القدس فقط ، المركز الديني والوطني لاسرائيل [اشعيا : ٢ : ٢-٤ ، ٢٥ : ٦ ، ٥٦ ، ٧ ، ارميا ٣ : ١٧ ، زكريا ٢ : ٨] .

والى جانب امثال هذه النبوءات التي تهم العالم التاريخي فقط ، نصادف تنبؤات من نمودج اكثر قدماً (رف ١٢ ع) . متعلقة بالكون في مجمله . فأجاي [٢ : ٦] يعلن ان يهوه [سيهز السماء والأرض ، والبحر والتراب الثابت] . وان الدينونة الأخيرة ستكون مصحوبة بكوارث كونية ستدمر العالم [اشعيا ٣٤ : ٤ ، ٥١ : ٦] ولكن يهوه سيخلق «سماوات جديدة وارضا جديدة» ، فلا تذكر السالفة ولا تخطر على بال» . [اشعيا ٦٥ : ٧] . ان الخليقة الجديدة ستكون غير قابلة للدمار [٢٢ : ٦٦] وسيكون يهوه نوراً خالداً [٦٠ - ٢٠] . حتى القدس ستجدد [زكريا : ٢ - ٩٥] وستسمى باسم جديد هو ما سينطق به فم يهوه [اشعيا ٦٢ : ٢] . وكما في السيناريوهات الأخروية الأخرى ، فإن تجديد الخليقة سيضمن بعض العناصر الفردوسية : ثروات لا تحصى ، خصب لا مثيل له ، زوال الامراض ، طول في الأعمار ، سلام ابدى بين البشر والحيوانات ، استئصال القذارة الخ . . ولكن محور العالم المبعث في كماله الأول سيكون القدس «المركز الحقيقي للعالم» .

١٩٨ - انتظار الملك المسيحاني

حسب النبوءات الأخروية ، فإن العالم المجدد سيكون محكوماً من قبل يهوه^(٧) . . أو من قبل ملك معين من قبل الرب وسيحكم باسمه . وهذا الملك يسمى بصورة عامة المسيح (ماسياه masiah) = المدهون - oint ، ومن المفروض فيه أن يكون من احفاد داوود . ويتكلم اشعيا عن (ولد) «ابنا من أجل عرش

الرب» [٩ : ٦-١] «ويخرج قضيب من جذر يسمى يَسِي وينمي فرع من أصوله» [اشعيا ١١ : ١] «وسيحكم بعدل في عالم فردوسي حتى «يسكن الذئب مع الحمل والنمر يربض بالقرب من الجدي ، ويكون العجل والشبل والمعلوف معا وصبي صغير يسوقها» . ويشارك زكريا في الكرامة المسيحية بين السلطة المؤقتة والسلطة الروحية ، زوروبابل والكاهن الأعلى جوزيه (٤ : ٦-١) ١٠ - ٦ - ١٤ . وفي نبوءة أخرى يصف دخول الملك المسيحي إلى القدس «عادل ومتنصر متواضع وممتطيا حماراً» [٩ : ٩ - ١٠] . «ابتهجي جداً يا بنت صهيون واهتفي يا بنت اورشليم ، هوذا ملك يأتيك صديقاً مخلصاً وديعاً راكباً على أتان وجحش ابن أتان» .

ويقتضي التأكيد بأن العبارة (الممسوح ليهوه) كانت في الأصل مطبقة على الملك الحاكم . فالشخصية الأخروية كانت اذن مقارنة بالملك . وبعد زمن متأخر ، جرى الكلام عن (دهن) ، مسح الكهنة ، والأنبياء والبطارقة (١٨) . فأن يكون ممسوحاً من قبل يهوه يدل على علاقة حميمة أكثر مع الرب . غير ان المسيح الأخروي في العهد القديم ليس كائناً مما فوق الطبيعة ، نازلاً من السماء لانقاذ العالم . فالغفران هو من عمل يهوه حصراً والمسيح هو فان ، وفرع في ارومة داوودية ، وسيترع على عرش داوود ويحكم بالعدل . وقد استنتج بعض المؤرخين بأن الانتظار المسيحي انبثق في الأوساط المشبعة بالحماس الأخروي ، الباقية مع ذلك امينة على مملكة داوود . غير ان هذه المجموعات لم تكن تمثل سوى أقلية ، ولأجل هذا فإن الانتظار المسيحي لم يمارس تأثيراً ذي دلالة هامة^(٩) . والمسألة مع ذلك معقدة . فأصولية الفكر الديني العبري لاشك فيها ، ولكن الايديولوجيا الملكية التي احييتها كانت تتضمن مماثلات مع دور «الفادي» لملك في الممالك الشرقية القديمة^(١٠) .

لقد قوبلت النبوءات الأخروية برسالة كبار الانبياء السابقين على النفي : الأولون منهم لم يكونوا يأملون بتحول جذري للانسان وبصفة جديدة للوجود ، وانما بعمر جديد ، وانطلاقاً من ذلك خليفة لعالم جديد ، وسيتحول الانسان

بشكل غير مباشر ، وينوع ما آليا ، بهذه المعجزة من يهوه . ان النبوءات الاخروية ستخفي اذن سوء تفاهم لرسالة كبار الانبياء واشارة متفائلة متعلقة بارادة الرب لانفاذ اسرائيل^(١١) . ومع ذلك يجب ملاحظة ان الأمل بتجديد كوني متضمن بعث الانسان في كماله الأول ، هو مفهوم مركزي للتدين القديم ، وبصورة خاصة تدين العصور الزراعية القديمة (ف ١٢ ع) . وان كل اخروية تتناول ، وتحدد وتعاود تقييم فكرة ان الخلق ، هي العمل الالهي بامتياز ، وانه وحده قادر لتجديد وتقديس الوجود البشري : بالتأكيد ان الانتظار الأخروي بعد النفي انبثق من تجربة دينية اخرى هي تجربة كبار الانبياء ، ولكنها لم تكن أقل في دلالتها . وفي آخر المطاف كانت تتعلق بالتنازل عن الآمال بالتطهر الروحي الممكن التحقيق بالجهود الشخصية وباعادة تأكيد الايمان في اله كلي القدرة وفي مواعيده للسلامة.

صحيح ان التأخير في مجيء الآخرة انتهى بتدعيم سلطة الاتجاهات المعارضة من نوع شريعي وطقوسي . ولكن الآمال الأخروية لم تغب مطلقاً بشكل نهائي (ف ٢٠٣ ع) .

١٩٩ - تقدم الشرعية

خلال القرنين من السلام تحت السيادة الفارسية المطلقة ، تدعم بشكل نهائي الاصلاح الشرعوي الذي كان ابتداءً قبل النفي واستمر في الأسر . ففي بابل قُيِّم الختانCircumcision كرمز ممتاز للانتماء الى شعب يهوه . واحترام السبت اصبح الرهان للايمان بالعهد (اشعيا ٥٦ : ٨-١ ، ٥٨ : ١٣-١٤) . وقانون الاحكام الطقوسية المحتواة في تشنية الاشترع Lévitique [فصل ١٧ - ٢٦] أخذ شكله النهائي اثناء النفي . ويتسميته (قانون القداسة) ونسبته لموسى ، ينظم هذا القانون الاضاحي من الحيوانات ، والعلاقات والمحرمات الجنسية ، وتقويم الأعياد ، وتفصيلات العقيدة ، مؤكداً على التطهير وعدم النظافة الشعائرية . و

«قانون القداسة» كالبراهماناه les Brahmanas (ف ٧٦ع) يؤكد باصرار على جعل وظائف الحياة والمعطيات الاجتماعية طقوسية . وبرز هدفه بالحفاظ على طهارة اسرائيل ، وبغاية التهيئة لمعركة جديدة للبلاد الموعودة من قبل يهوه . فاستمرارية حياة الشعب لن تكون ممكنة إلا في المعيار الذي ستكون هويته الإثنية والروحية مصانة وسط عالم غريب وغير طاهر .

إن إعادة بناء الحياة الوطنية لم يكن منتظراً ، كما لدى كبار الأنبياء ، بإيمان داخلي منجز بالروح ، وإنما بالتنظيم الفعال للجماعة تحت سلطان مطلق للقانون (توراة) . إن العقيدة تتركز بأقل حول تمجيد الرب مما هي حول «القداسة» لاسرائيل أي حول طهارته الطقوسية المهددة بالذنوب باستمرار . فكفارة الذنوب العامة تتخذ أهمية معتبرة ، ومقررة بمؤسسة الغفران الكبير (يوم كيپوريوم youm kippurium «إن الادارة الغفرانية مرتفعة إلى درجة انها لا تدع ابداً مكاناً لأمل في نظام جديد وأفضل . ولا يوجد أثر لأخروية أو مسيحيانية في القصص الكهوتية . وبالنسبة لهم ، يملك اسرائيل كل المؤسسات الضرورية لسلامته ولاستمراره عبر العصور»^(١٢) . وكان الكهوت السلطة الوحيدة المؤهلة لحراسة تطبيق الشريعة . وإن التراتبية الادارية التي سادت الحياة الدينية خلال عهد الفرس ، تدعمت بنياتها السابقة .

إن نحemia يهودي كان يعيش في بلاط كسرى الأول وقد أصبح حوالي ٤٣٠ ق.م حاكم الجودي judée وحصل على الاجازة باقامة اسوار القدس وقد أجرى كذلك اصلاحات دينية «من بينها استئصال الكهنة المتزوجين من نساء غير اسرائيليات» . ويعرف القليل عن تاريخ رئيس ديني آخر هوايزودراس ، الذي تابع - على الأرجح في السنوات الأولى من القرن الخامس - مهمة نحemia . وقد اعطى هو كذلك أهمية رئيسية «للمطهارة الطقوسية» لاسرائيل وفرض فسخ الزيجات المختلطة ، وبالتأكيد لا يتعلق هذا باجراء جذري . والخطر كان بالنظام الديني ، لأنه عبر الزيجات المختلطة كان كمال اليهودية yahvisme مهدداً . ولم يمنع أن اصلاح ايزودراس قاد الى عزل عرقي والى تدعيم شرعية سادت منذئذ ديانة اسرائيل . وحسب السنة (نحemia - ٨) فإن ايزودراس نظم اجتماعاً كبيراً «رجال

ونساء وكل من كان في سن الرشد» وقرأ خلال الاجتماع «كتاب شريعة موسى» .
وإذا كان من المستحيل التأكيد بدقة فيما إذا كان يتعلق هذا بالأسفار الخمسة
Pentateuque أو بجزء من هذا المؤلف فقط ، فإنه منذ القراءة الرسمية ، امتلك
دين اسرائيل «رسمياً» كتابات مقدسة .

وسرعان ما اختلط القانون (توراه) مع الأسفار الخمسة (البانتاتوك) . فحل
محل النقل الشفهي ، الدراسة وشرح النصوص المكتوبة واعتبر ايسدراس أول
كاتب أو فقيه في الشريعة docteur de la loi . وأصبح الكاتب نموذجاً حقيقياً
للسلوك الديني . غير أنه برزت على التوالي فكرة جديدة ، تلك هي التوراة
الشفاهية . فإلى جانب القانون المكتوب ، تلقى موسى من الرب تعليمات اضافية
نقلت ، منذئذ شفاهاً . وهذه المدونة من التفسير كانت تشكل الميشنا la mishna
«التكرار» .

وقد كانت في الاساس شكلاً من اصفاء الشرعية لما أمكن الاشارة إليه
سابقاً «بالباطنية» ، أي النقل بالمساراة للمذاهب السرية^(١٤) . ومع الزمن ، تمتع
عمل الفقهاء بسلطة قربت من سلطة التوراة (ف ٢٠١ ع) .

وفي هذا الشأن سيكون من غير المفيد الاشارة الى كل الكتب الصادرة ،
والمكتوبة في القرون التالية لمعالجة اصلاح ايساردس . واثناء هذه الفترة تم تأليف
كتاب الحوليات Livre de chronique وبعض المزامير ، والكتابات التنبؤية والتي
اعادت استعمال كمية من النصوص الأكثر قدماً .

وكذلك فإنه خلال هذه الفترة برز التوتر بين اتجاهين دينيين متعارضين يمكن
الاشارة اليهما على وجه التقريب تحت اسم «العالميين» و «القوميين» . وكان
الاتجاه الأول قد مدد الأمل للأنبياء الآخرين بأن يروا يوماً «الأمم» وهي تعبد
يهوه ، معترفة به كاله واحد . وعلى العكس من هذا «القوميون» الذين أعلنوا
الخاصية المحصورة بالكشف . وكانوا يركزون جهودهم على الدفاع عن التكامل
الانتي لاسرائيل . وفي الواقع كان النزاع أكثر تعقيداً وأكثر تبايناً .

٢٠٠ - تشخيص الحكمة الالهية

إن الحدث الأكثر أهمية ، والذي سيكون له نتائج بارزة في تاريخ اليهودية ، كان المواجهة مع الهيلينية . فمنذ زمن سبق من عصر البرونز المتأخر كان للاغريق علاقات متتابعة مع فلسطين . وخلال الألف الأولى تنامى فيضهم تباعاً وباستمرار وامتد حتى تحت السيادة الفارسية^(١٦) . إلا أنه وبخاصة بعد انتصارات الاسكندر ، أخذ تأثير الثقافة الهيلينية يقيم علاقات قوية جداً . وقد انتشرت اللغة والثقافة والمؤسسات الاغريقية (مدارس ، جيمنازات الخ . .) في كل مكان ، ليس في الشتات فحسب ، وإنما أيضاً في فلسطين ، المحكومة بعد موت الاسكندر (٣٢٣ ق.م) من قبل السلوقيين وأقيال مصر^(١٧) .

وتماماً ، كما بالنسبة للرومان ، فإن التاريخ كان مثقلاً ، بصورة خاصة منذ الأنبياء ، بدلالات دينية . وبعبارة أخرى ، فإن الأحداث التاريخية ، بتحويلها وقولبتها للمصير السياسي لاسرائيل ، كانت أيضاً قابلة لتكوين فترات هامة في تاريخ السلام . وبالنسبة للعبيرانيين فإن السياسة الوطنية لم تكن تتميز عن النشاط الديني : الطهارة الطقوسية ، اذن انقاذ اسرائيل ، كان متضامناً مع الاستقلال السياسي . وقد بدأ الشعور بالتأثير المتعاظم للهيلينية ، في فلسطين ، في مختلف الاتجاهات السياسية والدينية والثقافية . وان الارستقراطية وبعض قطاعات البورجوازية أكرهت على ادخال الأفكار والمؤسسات الموعودة بالأفكلارون l'Aufklärung الهلنستي . وهذه السياسة (الليبرالية) والشعبوية cosmopolite التي هددت الهوية الوطنية ذاتها ، كانت مرفوضة من قبل اصناف اجتماعية اخرى ، وفي الدرجة الأولى من قبل الأوساط الديني المحافظة ومن قبل السكان الزراعيين . وان التوتر بين هذين الاتجاهين المتعارضين قاد إلى عصيان المكابيين (ف ٢٠٢ ع) .

ان مختلف الاتجاهات الايديولوجية والدينية التي مزقت الشعب اليهودي منذ غزوة الاسكندر (٣٣٢ ق.م) حتى تحول فلسطين لمقاطعة رومانية (٦٩ ق.م)

قد تركت طابعها في عدد من المؤلفات التي ألّفت في اورشليم او في الشتات (دياسبورا) ويقتضي ان يحدد بدقة مع ذلك ، ان معطى الزيتجست Zeitgeist كان كما توجد آثاره في المفاهيم الهيلينية ، حتى في النصوص المحررة بهدف انتقادها ورفضها .

إن تشخيص الحكمة *hokma* يصنف بين الابداعات الدينية الأكثر اصولية لهذه الفترة . والفصول التسعة الأولى من الأمثال (كتاب يرجح انه كتب في منتصف القرن الثالث ق.م) تمجد الأصل الالهي للحكمة وتعدد خصائصها وصفاتها . «الرب حازني في أول طريقه قبل ماعمله منذ البدء . من الأزل مسحت من الأول من قبل ان كانت الأرض . ولدت حين لم تكن الغمار والينابيع الغزيرة المياه . قبل أن أقرت الجبال وقبل التلال ولدت . اذ كان لم يضع الأرض بعد ولا ما في خارجها ولا مبدأ أتربة المسكونة» [٨ - ٢٢ - ٢٨] . «الحكمة اخترعت علم الفطنة والدهاء بها يحكم الملوك [...] . والرؤساء يرأسون والعظماء يشترعون ماهو عدل والزعماء وجميع قضاة الأرض» [٨: ١٢] . وقد رأى بعض الباحثين في هذا المفهوم تأثير الفلسفة الاغريقية ، مع ذلك فإن الحكمة (صوفيا) بصفتها كهوية إلهية ومشخصة ظهرت متأخرة نسبياً ؛ ولدى الافلاطونيين المحدثين^(١٨) . وقد ابرز علماء آخرون موازيات سامية سابقة للتأثيرات الاغريقية ، وبصورة خاصة «حكمة احيقار»^(١٩) . كذلك جرى البحث في سوابق الحكمة (*Hokma*) في عبادة الرباط الامهات (ايزيس أو عشتار) ؛ ولكن الحكمة ليست ابدأ رفيقة للاله ؛ متولدة من قبل الرب إنها تنبثق من فمه .

وفي الحقيقة ان بوسيه وغريسمان قد اشارا لأهمية ، كائنات وسيطة ، في الفكر اليهودي ، تتوسط بين الاله والانسان وبخاصة في العصر الهيليني^(٢٠) . وان بعض مدارس للحكمة اعتبرت الحكمة في مصاف السلطة العليا ، بصفتها وسيطة للكشف . ولكن وكما سنرى فإن التفسيرات والتقييمات للحكمة ، المتفرقة والمتناقضة ، تعكس ازمة في العمق يمكن لها ان تغير جذريا منظور اليهودية .

٢٠١ - اليأس من الوهية جديدة : الكوهلية والكنسية

إن سفر الجامعة (اكليزياست) او (كوهليت) يعتبر بصورة عامة مع سفر أيوب كشاهد مثير للعواطف وللهمزة المثارة بانهايار مذهب الثواب أو المكافأة . ف ضد تيولوجيا ادب الحكمة ، يؤكد مؤلف سفر الجامعة (كوهليت) على عدم امكانية تفسير افعال الاله . ليس فحسب ان ذات المصير ينتظر المجنون والحكمي [٢ : ١٥] ، والانسان والبهيمة «الأول يموت وهي كذلك» [٣ : ١٩] وانما ، «رأيت تحت الشمس في موضع العدل جوراً وفي موضع البر نفاقاً» [٣ : ١٦] ، ويحكم الكاتب تبعاً لتجربته الخاصة : «يوجد صديق يهلك في بره ، ومنافق تطول أيامه في شره» [٧ : ١٦] . هادىء ، مترفع تقريباً . كفيلسوف يعود باستمرار حول هذه اللازمة : «يوجد باطل يجري على الأرض ، صديقون يصيهم مايليق بعمل المنافقين ومنافقون يصيهم مايليق بعمل الصديقين» [٨ : ١٤ ، ٩ : ٢] وفي آخر المطاف لا يمكن الكلام عن عدالة الاله «إن رأيت ظلم الفقير وعكس القضاء والعدل في بعض الأقاليم فلا تعجب من الأمر فإن فوق العالي أعلى منه يلاحظ وفوقهما من هو أعلى منهما» [٥ : ٧] الخ . وبما هو اكثر : لا يفهم مطلقاً دلالة الخليقة ، ولا معنى الحياة «رأيت من جهة ، أعمال الله كلها ان الانسان لا يستطيع ان يدرك اسباب شيء مما يحدث تحت الشمس ومهما جد في الطلب فلا يدرك شيئاً ، حتى الحكيم وان زعم انه يعلم لا يستطيع ادراكاً» [٨ : ١٧] . لأنه لا يمكن «ادراك ماصنع الله ، منذ البدء حتى النهاية» [٣ : ١١] . إنه لا يسرف في غضبه ولا في رحمته . ان الشعور بالذنب كذلك الأمل بالرحمة كلاهما عبث . الاله هو مبتعد عن البشر ، انه لا يهتم بمصيرهم .

واللازمة التي أصبحت شهيرة «كل شيء باطل وقبض الريح باطل» تجذب تبريرها في الاكتشاف للعرضية أو عدم الثبات وفي عدم عدالة الوجود البشري . والكاتب يغبط «الموتى اكثر من الأحياء» وبصورة خاصة «اولئك الذين لن يعيشون بعد» ويقول «فغبطت الأموات الذين درجوا من قبل على الأحياء الذين هم باقون

حتى الآن . وخير من كليهما من لم يوجد حتى الآن لأنه لم ير العمل الشرير الذي يفعل تحت الشمس» [٣:٢-٤] حتى الحكمة هي صلف وغرور [١٦ : ١ - ١٧ : ٢ : ١١:٩]

مع ذلك فإن الجامعة لا تتمرد ضد الرب . بل على العكس ، بما أن مصير البشر هو «في يد الرب» [١:٩] فإنه يجب الاستفادة «من الأيام التي يعطيها الرب لأن هذا هو نصيبه» [١٧:٥] . ان «السعادة الوحيدة التي توافق الانسان» هي من طبيعة متعة He'doniste «سافر ، كل خبزك بسرور واشرب خمرك برضى النفس [...] خذ الحياة مع المرأة التي تحب [...] لأن هذا هو نصيبك [...]» . كل ماتجده لتتعلمه ، افعله بمقدار ما تستطيع لأنه لا يوجد لا اعمال ولا حسابات ولا معرفة ولا حكمة في الجحيم (شبول) التي أنت صائر إليها» [٩:-٧ - ١٠] .

لقد قورنت هذه العقلانية المتشائمة مع بعض المدارس الفلسفية الاغريقية . ومنذ فولتير ، رأى عدد من المؤرخين والشارحين وجود تأثير الرواقيين ، وابيقور وانصار المتعة He'doniste السيرينيين de cyrène^(٢٢) . وقد كانت تأثيرات الثقافة الهيللنستية على يهودية ما قبل النفي قوية ومتبادية (ف ٢٠٢١ ع) . ومع ذلك لا تصادف في (الكوهلت) سفر الجامعة . فقد انتقد الفلاسفة والكتاب الاغريق باسهاب الميتولوجيات والتيلوجيا التقليدية . وعليه ، وبعيداً عن نفي وجود الاله ، يعلن كاتب سفر الجامعة حقيقته وكلية قدرته^(٢٣) : إنه لا يتوقف عن ترداد وجوب الاستفادة من منحه . واكثر من هذا ان الكوهلت لا يرفض أبداً الممارسات الطقوسية ولا التقوى والتدين . فليست هي اذن مسألة إلحادية وانما توتر بين يأس ورضى ، مثار باكتشاف لا مبالاة الاله . وقد جرى بحق تقريب هذه الدعوة للاستمتاع بالحياة بنشيد مصري لعازف قيثارة Harpiste (ف ٣٠ ع) وبنصيحة معطاة من قبل سيدوري siduri الى جلقامش (ف ٢٣ ع) .

وأقل تأثيراً من سفر الجامعة (كوهلت) ، سفر يشوع بن سيراخ المعروف كذلك تحت الاسم الكنسي (سيراسيد) ، فهو مع ذلك اكثر كشفاً عن الأزمة التي كانت تشغل اسرائيل . وهذا السفر مؤلف على الأرجح بين ١٩٠ - ١٧٥ ق.م من

قبل كاتب معلم مدرسة الحكمة ، والكتاب موجه الى الشباب العبرانيين المشدوهين بالأفكار روم l'Aufklarum الهيللنستية . وابن سيراخ قومي مقتنع بالأهمية الحاسمة (متدين ولكنه سياسي كذلك) لطهارة الشريعة . وهو يهاجم الأغنياء فيقول : «الغني يظلم ويصخب والفقير يُظلم ويتضرع» [سفر ابن سيراخ ١٣ - ٤] [٢٣ - ٨] ؛ وبما أن الانصار هم الاكثرية المشايعة للشعوية وللعالمية ، فإن بن سيراخ منذ بدء كتابه ينهض ضد الايديولوجيا الدورية الهللنستية ويهتف : «كل حكمة فهي من الرب ولا تزال معه إلى الأبد» [١-١] ، الأمر الذي سمح له بتوحيد الحكمة (السابقة الوجود في الاله) مع التوراة . وإن مدح الحكمة ، التشديد الكبير للفصل (٢٤) يشكل قمة كتابه . فالحكمة تعلن في آن واحد وضعها الممجّد «اني خرجت من فم العلي بكرة قبل كل خليفة» [٢٤ - ٦] ونزولها الى اورشليم : «وهكذا في صهيون ترسخت وجعل لي مقراً في المدينة المحبوبة وسلطنتي هي في اورشليم» [٢٤ - ١٥] .

و ضد الرأي ، الذي يدافع عنه «الشعوبيون» الممثل للأنوار يصف ابن سيراخ معلم الحكمة ، بالكاتب المثالي ، وكعالم مركز في دراسة الكتابات : «انه يبحث عن حكمة جميع المتقدمين ويتفرغ للنبوءات . يحفظ احاديث الرجال المشهورين ويدخل في افانين الأمثال يبحث خفايا الأقوال السائرة ويتبحر في الغاز الاحاجي . يخدم بين ايدي العظماء ويقف امام الرئيس ، يجول في ارض الأمم الغربية فيختبر في الناس الخير والشر الخ . . .» [٣١ - ١ - ١٠] . «لأن كل الحكمة مخافة الرب وفي كل حكمة العمل بالشريعة» [١٩ - ٢٠] وفي الأدب المتعلق بالحكمة والأمثال وبصورة خاصة في الأمثال وفي بعض المزامير الحقيقية ، كان العادل والحكيم الذي يعرف الأصل الالهي للنظام الكوني والحياة الاخلاقية . فالحكمة اذن كانت مقبولة من رجال بالاستقلال عن ديانتهم . ولكن ابن سيراخ يرفض هذا التفسير (العالمي) . ويطابق الحكمة بالورع والعقيدة . إن التوراة (ليست شيئاً آخر سوى القانون المعلن من قبل موسى» [٢٣ : ٢٤] [٢١] . وبعبارات أخرى ، إن الحكمة هي الاعطية الاستثنائية المصنوعة من قبل الرب لاسرائيل . لأن الرب قد وضع لكل شعب اميراً «ولكن اسرائيل هو حصّة الاله» «لكل أمة أقام رئيساً . اما اسرائيل فهو نصيب الرب» [١٧ - ١٥] .

ويرجع ابن سيراخ في اللاهوت للوضعيات التقليدية . فهو ينتقد الرأي بأن الرب غير مبال بمصير البشر ؛ وبعبارة أخرى ، انه يرفض في آن واحد سفر الجامعة (كوهلت) والفلسفة الاغريقية الطافية في الأوساط الشعبية من اورشليم . ويجهد بخاصة لتبرير مبدأ الثواب: يمجّد كمال العمل الالهي [٣٩ : ١٦ ، ٤٢ : ١٥ ، ٢٢ - ٢٥] ؛ ويعيد التذكير بأن الأتقياء لهم مصير آخر غير مصير الخبثاء لأن «الخيرات خلقت من أجل الأخيار منذ البدء وكذلك ، بالنسبة للشريرين ، الآلام» [٣٩ : ٢٥] وبعد ان فكر طويلاً استنتج «أعمال السيد كلها خيرة» [٣٩ : ٣٣] وفي آخر المطاف «إن السيد وحده سيعلم وحده الحق» [١٨ : ٢] .

إن هذا الانعاش الجسور للتدين التقليدي ترافق بنقد فظ من قبل (خصوم الحكمة) المتوحدين مع المرتدين والمتحررين الهيلينيين . ويدعو سيراخ من أجل خلاص اسرائيل (الأمم الأجنبية) : «الق ربك على جميع الأمم الذين لم يلتمسوك ليعلموا أنه لا اله الا أنت ويخبروا بعظائمك . صب غضبك ، دمر الاعداء ، أبد الاعداء ، ليكن المعتدون على شعبك مهدين بالدمار . . .» [٣٦ : ٦ : ٨] . ومع ذلك ، وفي الفصل ٢٤ الشهير ، تذكر الحكمة : انا وحدي جلت في دائرة السماء وسلكت في عمق الغمار ومشيت على امواج البحر وداست قدمي كل الأرض وعلى كل شعب وكل الأمم حكمت . [٢٤ - ٥] . وبعبارة أخرى فلأن الحكمة ممثلة «كقوة تملأ العالم بكامله ، الطبيعة والبشرية (وليس اليهود فقط)»^(٢٠) . الا ان ابن سيراخ كان ملزماً لأن يضيق ، وفي آخر المطاف ، لينسى البعد العالمي للحكمة . وبالتلاقي مع الهيلنستية وحكمتها (صوفيا) ، «إن حكمة استطاعت فرض نفسها في اليهودية فقط في تقريبها من عامل لعب الدور الحاسم في هذا الصراع : الشريعة . . . أهمية الحكمة من أجل تكوين الديانة اليهودية في هذه المعركة ضد الهيلنستية وحكمتها لا يسوغ ان يساء تقديرها»^(٢١) .

٢٠٢ - أوائل الرائيين : دانيال وهينوخ الأول

إن المواجهة مع الهيلينية ادركت أوجها تحت حكم انطيوخوس ابيغان

(١٧٥ - ١٦٤ ق.م). فمنذ بعض الوقت فيما سلف ، كان التعارض بين
الحزبين - الطوبياد les Tobiades والأونياد les oniates يهدد باتخاذ شكل عنيف .
فكان اصدقاء اليونان philhellènes يطالبون باصلاح جذري ، ويهدف تحويل
اليهودية التوراتية لدين من نموذج (عصري) يمكن مقارنته بالابداعات الأخرى
التوفيقية المعاصرة . وفي سنة ١٦٧ ق.م ، وبناء على قيام محاولة عصيان فاشلة
من قبل فريق الأونياد ، نصح خصومهم انطيوخس بالغاء التوراة بقرار
ملكى^(٢٧) . فتحول معبد اورشليم إلى معبد توفيقى لزوس اوليمبوس المطابق
ببعل الفينيقي ، ومنع القرار ، تحت طائلة العقوبة بالموت التقيد بالسبت
وبالاعياد ، وممارسة الختان وحيازة الكتب التوراتية . واقامت في كل مكان من
فلسطين مذابح لآلهة الشعوب وأكره السكان على تقديم قربان لها .

ومنذ غزو كنعان ، بخاصة في ظل الملكية ، عرف الاسرائيليون التهديد
وخطر التوفيقية الدينية (ف ١١٣ عع) . غير ان عدوان انطيوخس ابيغان كان
اكثر عنفاً . صحيح ان نية انطيوخس لم تكن استبدال زوس اوليمبوس بيهوه
، وانما لاعطاء اسم لاله هو ، بالنسبة للوثنيين ، كان في الاساس مجهولاً^(٢٨) .
ومن جهة اخرى ، فإن عدداً من الباحثين الاغريق والرومان قد قربوا يهوه من
زوس^(٢٩) . ومثل هذه المقارنة ، الخارقة للقدسيات بالنسبة للتقليدين ، يمكن لها
ان تكون مقبولة من قبل قسم كبير من النخبة الثقافية (الانتلجنسيا) المحبة
لليونان ، والمبهورة بعظمة الرؤى الدينية والفلسفية للرواقيين . ولكن مثل هذا
التفسير الفلسفي كان يفوت أغلبية الاسرائيليين : فهم لم يكونوا يرون في زوس
سوى واحد من عدد من الآلهة المكرمة من قبل الشعوب . اضافة لذلك ، وكما
اعترف فيما بعد المؤرخ فلافيوس جوزيف [اليهودية - ١٢ ، ٣٢٠ ، ٢٤٣] فإن
انطيوخس كان مسؤولاً عن عدد من التدنيسات (في المحل الأول منها صفة تعدد
التعددية لآلهة العقيدة المزروعة في اورشليم) . والنهب ، وعدم التسامح ،
وبخاصة اضطهاد اليهود^(٣٠) .

وقد اعطى الكاهن ماتاتياس المنتمي لعائلة الهازمونيين الاشارة لعصيان
مسلح . ومن البدء كان مدعوماً بجماعة من الزيلوط Zélotes «الأتقياء»

هاسيديم . وبعد موت ماتاسياس أخذ ادارة الحرب واحد من ابناؤه جوداماكابي . وفي سنة ١٦٤ ق.م ، احتل المعبد وأحيا العقيدة . وقد اعتبر هذا النصر الديني كافياً من قبل الهاسيديم . ولكن المكابيين استمروا في كفاحهم من أجل الحرية السياسية ، التي نجحوا في الحصول عليها في سنة ١٢٨ ق.م . وبعد بضعة قرون ، كان يوجد آنذ ملوك يهود ، منتخبين من عائلة الهازمونيين^(٣١) . وقد كان حكمهم مفجعاً ، وفي سنة ٦٣ ق.م قبل السكان بعزاء سيادة الرومان المطلقة .

ان مدة القرن من الزمان بين استبداد انطيوخوس ابيفان وتراجع فلسطين الى مقاطعة رومانية من قبل بومبي pompe كانت حاسمة بالنسبة لتاريخ وديانة الشعب اليهودي . ومن جهة أخرى فان المحاولة لإعادة الوثنية بالقوة أثارت صدمة لم يفلح يهود فلسطين بتناسيها : لم يكونوا يعتقدون ببراءة الوثنيين ، وفصلتهم منذئذ هوة كبيرة عن الثقافة الهيلينية^(٣٢) . ومن جهة أخرى ، فإن النصر العسكري للمكابيين ، كان له كنتيجة تزايد مفاجيء من التأثير السياسي للملكة اليهودية وماهو اكثر من ذلك ، ان الوجه المسيحي لجودا ماكابيه شجع بعدئذ انتفاضات مسلحة اخرى ، كانت هذه المرة ضد الرومان ، غير ان العصيان من ٦٦ - ٧٠ قد اكتمل بتخريب المعبد الثاني واورشليم بكتائب طيطوس Titus وخنق التمرد الذي قاده باركوشبا في ١٣٢ - ١٣٥ بوحشية من قبل هادريان .

ومايعنينا بالنسبة لموضوع هذا الكتاب هو الابداعات الدينية بصورة خاصة . وكما توجب انتظارها ، فإن الأحداث التاريخية المعاصرة هي المتغيرة بشكلها ، والمثقلة برسالات مرموزة ، والمكتملة في رؤية خاصة بالتاريخ العالمي . ففي وسط الاتقياء (هاسيديم) أخذت تظهر أولى الكتابات الرؤية ، دانيال والقسم الأقدم من كتاب هنيوش Henoch (هوشع) . وشكل الاتقياء جماعة مغلقة جداً ، واصرروا بالحاح على الاحترام المطلق للشريعة وعلى استعجال التوبة . وكانت الأهمية المعبرة المعطاة للتوبة ، النتيجة المباشرة لمفهوم رؤوي للتاريخ . وفي الواقع كان التاريخ قد أدرك أومس علاقات مجهولة حتى ذلك الحين . وبالنسبة ، فإن دانيال وهوشع الأول كانا تنبأء ، أن العالم يقترب من نهايته ،

وان الاتقياء المتدينين يجب عليهم ان يحضروا انفسهم من أجل الدينونة العاجلة للرب .

ان كتاب دانيال في شكله الحالي قد اكمل حوالي ١٦٢ ق.م ووصف فيه كاتبه الأحداث المعاصرة أو الحديثة تحت شكل نبوءات معلنة قبل عدة قرون . وان هذا الاجراء (vaticiniexeventu) مميز للأدب الرؤوية^(٣٣) . انه يدعم الايمان في النبوءات ، وبالنتيجة يساعد المؤمنين على تحمل المحن القائمة . وهكذا فإن سفر دانيال يروي حلماً لنبوختنصر (٥٦٢ - ٦٠٥) ق.م . فالملك كان رأى غملاً : رأسه من الذهب ، وصدره وذراعه من الفضة ، وبطنه فخذه من البرونز ، وساقاه من حديد وفخار . وفجأة انفصلت حجر وضربت التمثال : «فانسحق الحديد والحزف والنحاس والفضة والذهب معا وصارت كغفى البيدر في الصيف ، فذهبت بها الريح ولم يوجد لها مكان . أما الحجر الذي خرب التمثال فصار جبلاً كبيراً وملاً الأرض كلها . . هذا الحلم . . أما تعبيره فتحير به الملك» [٢ - ٣١ - ٣٦] .

وقد فسر دانيال الحلم : فالرأس الذهبي ، هو نبوختنصر ؛ وبعده سيقوم عرش آخر أدنى ، وعرش ثالث بعدئذ ، من البرونز ، الذي سيسود الأرض قاطبة . والرابع «صلب كالحديد» سيسحق الآخرين ، ولكنه سينتهي بالتلاشي . عندئذ «وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم اله السماء مملكة لا تنقضي إلى الأبد ، وملكه لا يترك لشعب آخر فتسحق وتنفى جميع تلك الممالك وهي تثبت الى الأبد» [٢ - ٤٤] . ان الممالك المتتالية للآشوريين (مملكة بابل الجديدة) ، الميديين ، والفرس ، وأخيراً مملكة الاسكندر ، تشير لعملية متسارعة بالانحطاط ولكنه بخاصة اثناء الرابعة (أي مملكة انطونيوس ابيفان) حيث هدد وجود شعب اسرائيل بشكل فادح . مع ذلك فإن دانيال يؤكد ، ان نهاية هذا العالم المتساقط تقترب ، وان الرب سيبنى فيها بعد المملكة الخالدة . ويروى دانيال زيادة على ذلك واحداً من أحلامه الخاصة ، وفيه رأى اربعة حيوانات ضخمة خارجة من البحر ، وان الحيوانات تمثل الممالك الاربعة المعينة للهلاك ، وبعدها يعطي الملك والسلطان عظمة الملك تحت السماء باسرها لشعب قديسي العلى وسيكون ملكه أبدياً ويعبده

جميع السلاطين ويطيعونه» [٧ - ٢٧] .

واجمالاً فإن كاتب سفر دانيال بتذكيرهم بالاحداث العظيمة للماضي ، وبخاصة متتالية أو ترنيمة المصائب التي اضعفت الامبراطوريات العسكرية ، رمى الى هدف محدد : تشجيع وتقوية اخوانه في الدين ، غير أن التراث المأساوي لأربعة ممالك يعبر في ذات الوقت عن مفهوم موحد للتاريخ العالمي . صحيح ان الصورة الميتولوجية تفشي مصدراً شرقياً . فنغمة الممالك الأربعة المتتالية ، المرموز اليها بالمعادن الأربعة تصادف عند هزبود وفي ايران .

اما بالنسبة للحيوانات الأربعة ، فيوجد لها عدد من السوابق ، بابلية ، ايرانية ، وفينيقية^(٣٤) . كذلك فإن الدهر الكبير (grand éon) الذي تكلم عنه هينوش الأول [١٦ : ١] ، يمكن مقارنته بمذهب (العام الكبير)^(٣٥) ومع ذلك فإن دانيال والرائين اليهود يمثلون عنصراً مجهولاً في التقاليد الأخرى . والاحداث التي تشكل التاريخ العالمي لا تعكس اكثر الايقاع الخالد للدورة الكونية ولا ترتبط بالنجوم ، إنها تتطور حسب مخطط الاله^(٣٦) . ففي هذا المخطط المسبق اقامته ، يلعب اسرائيل الدور المركزي ، فالتاريخ يتجه بسرعة نحو نهايته ، وبعبارة اخرى فإن النصر النهائي لاسرائيل هو أمر وشيك الوقوع . وهذا النصر لن يكون بنظام سياسي فقط ، وفي الواقع إن اتمام التاريخ يعادل سلامة اسرائيل ، سلامة محددة دائماً من قبل الرب ومسجلة في مخطط التاريخ ، بالرغم من آثام شعبه .

٢٠٣ - الأمل الوحيد : نهاية العالم

كما في التقاليد الأخرى ، فإن نهاية العالم هي ، في الرؤى اليهودية معلنة بعدد من الكوارث الأرضية والظواهر الكونية الشاذة : ستضيء الشمس اثناء الليل ، والقمر اثناء النهار ، وسيجري الدم في الأنهر ، وستخرج النجوم من محاجرها ، وسيقزز الدم الاشجار ، وستسيل النار من احشاء الأرض ، وستصرخ الحجارة الخ . . [ايسدرا ٥٠ : ٤ - ١٢] وستقصر السنة ، وسيقتل البشر

ويعتقون بعضهم بعضاً وسيكون هنالك جذب ومجاعة الخ^(٣٧) . وكالتقليد الايراني
لنهاية العالم ، سيكون هنالك دينونة شاملة ، اذن بعث للأموات .

وقد كان سبق لسفر اشعيا [٢٦ : ١٩] أن أشار الى البعث «امواتك
سيحيون ، واشلاؤهم ستبعث» غير انه من الصعب تحديد تاريخ هذا المقطع .
وأول مرجع لا جدال فيه يوجد في دانيال [١٢ : ١٣] «ستبعث من جانبك في
نهاية الأيام»^(٣٨) . ومن الراجح جداً ان ذلك يتعلق بتأثير ايراني ، الا انه يجب ان
يؤخذ في الحسبان ايضاً مفاهيم العصور الحجرية الشرقية لآلهة الزراعة (ف
١١٨ع) . ان مذهب البعث سيكون معلنا باستمرار في الأدب الرؤوي [ر.
ايزوراس ، هيوش ٥١ : ١٦ - ٥ - ٦١ - ٦٢] . والرؤيا السريانية syriaque
لباروخ ، ومن قبل الفريزيين وقد كان مقبولاً منذ تنبؤ المسيح بشكل عام باستثناء
الصدوقيين . أما بالنسبة للدينونة الأخيرة فإن دانيال [٧ : ٩ - ١٤] يصفها منظومة
بحضور «قديم» «فبينما كنت أرى اذ نصبت عروش فجلس القديم الأيام وكان
لباسه ابيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه لهيب نار وعجلاته نار
مضطربة . ومن أمامه يجري ويخرج نهر من نار وتخدمه الوف الوف وتقف بين يديه
ربوات ربوات ، فجلس أهل القضاء وفتحت الاسفار وكنت أرى ما ذا يكون عن
صوت الأقوال العظيمة التي ينطق بها القرن ، وبين كنت أرى اذ قتل الحيوان
وتلف جسمه وجعل وقوداً للنار» . وفي حلمه الذهولي كذلك ، كان هينوش رأي
بوضوح الرب جالساً على العرش ، ورأى «الكتب المختومة» وحضر محاكمة
الملائكة المتساقطين والعصاة المدانين بأن يقذف بهم في مغارة متقدة [٩٠ : ٢٠]
وتعاود صورة «العلي الأعلى» ظهورها على «عرش الدينونة» في (الاسيدراس
الرابع) : المذنبون مخصصون «لغرف جهنم والفاضلون يكافؤون في جنة النعيم»
[٣٣ - ٣٧] وبعيد المحاكمة (الدينونة) سيمحي الشر للأبد ، وسيهزم
الفساد ، وفي كل مكان ستفرض الحقيقة نفسها [ايسدراس ١٧ : ٦ : ٢٦ -
٢٨] . ان مفهوم الدينونة الأخروية بالنار هي على الأرجح من أصل ايراني (ف
١٠٤ع) .

وفي ذات الرؤية للقديم والدينونة ، يحضر دانيال نزول كائن من السماء

«كابين الانسان» : قيد الى حضرة القديم الخ . . . «ورأيت في رؤى الليل فإذا بمثل ابن البشر آتياً على سحاب السماء فبلغ إلى القديم الأيام وقرب الى امامه . وأوتي سلطاناً ومجداً وملكا بجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه وسلطانه سلطان أبدي لا يزول وملكه لا ينقرض) [٧ : ١٣ - ١٤] . وفي «ابن الانسان» يرمز دانيال لشعب اسرائيل في فترة عليا من الظفر الأخروي . وسيكون لهذه العبارة نجاح منقطع النظير في القرن الأول قبل عصرنا ، ولقد كان هذا ، من جهة أخرى ، اللقب الذي اعطي للمسيح ، وهو يتعلق بصورة اسطورية شائعة جداً في العالم الهيليني هي الشكل البشري l'Anthropos أو الانسان الأول . وهذه الأسطورة هي من أصل هندي ايراني (. . . بيروشا ، غايمورد) ، الا ان السوابق المباشرة (لابن الانسان) = «الانسان» هي موضع بحث عنها في التوفيقية الدينية - ايرانية - كلدانية (ف ٢١٦ ع) . وان فكرة الانسان الأول الموظفة لكهنوت اخروي ليست توراتية وليس سوى في اليهودية المتأخرة ان جرى الكلام عن آدم سابق الوجود للمخلوق^(٣٩) .

إن المفهوم الواحد للتاريخ العالمي سمح اذن بحل رموز المعنى الاخروي للزمان المعاصر . وخلافاً للعلوم الكونية القديمة ، التي كانت فسرت الانبياء المتتاليين والغير ممكن انقاذه للعالم بنظرية من نموذج دوري (الذي يجد التعبير الأكثر تضيقاً له في المذهب الهندي لليوجات الاربعة) فإن الأتقياء (الهاسيد) كانوا أعلنوا يهوه رباً أوحد للتاريخ ، وفي كتاب دانيال وهينوش الأول يبقى الرب الوجه المركزي : الشر ليس مشخصاً بوضوح في عدو يهوه ؛ ان الشر متولد بعدم طاعة البشر [هينوش ١ - ٤ : ٨ - ٩] وبعضيان الملائكة المتساقطة .

ولكن القماشة للأساس تتغير بشكل محسوس في الأدب الرؤوي . فالعالم والتاريخ معتبران الآن وكأنهما مسودان بقوى الشر ، أي بالقوى الشيطانية المقادة بالشيطان . وان العبارات الأولى عن الشيطان satan [أيوب : ١ : ٦ ، ٢ : ١ زكريا ٣ : ١] كانت تمثله وكأنه متم للبلاط السماوي ليهوه . لقد كان «العدو» لأنه كان الشخصية السماوية العدو للإنسان (ر ف ١١٥ ع) . . . والآن ، فإن الشيطان يشخص مبدأ الشر : لقد أصبح عدو الاله . اضافة لذلك ، فإن فكرة جديدة

تتحقق : فكرة عصرين أو «مملكتين» : «هذا الحكم والحكم الآخر» وعليه لقد كتب : [٥٠ : ٧] «الأعلى الأعلى لم يخلق عصرًا وحيداً ، ولكن عصرين» [٧ - ٥٠] ايسدراس^(٤٠) . وفي هذا العصر ، «مملكة الشيطان» هي المقدر لها أن تنتصر . فالقديس بولس يشير إلى الشيطان وكأنه «اله هذا العالم» [رسائل الى الكورنثيين ٤ - ٤] . وقدرته تدرك أوجها باقتراب العصر المسيحياني ، عندما تتكاثر الكوارث والمظاهر المضللة المشار إليها آنفاً . إلا أنه في المعركة الأخروية ، سينتصر يهوه على الشيطان ، وسيبيد أو يستأصل كل الشياطين ، وسيجث الشر ويشيد عرشه بعدئذ باسطة الحياة والفرح والسلام الأبدي^(٤١) . وتتكلم بعض النصوص عن عودة للجنة وانطلاقاً من الغاء الموت [ايسدراس ٤ - ٧ - ٨ : ٥٢] . ومع ذلك ورغم كماله ودوامه فإن هذا العالم المخلوق مجدداً سيبقى عالماً طبيعياً .

لقد تطورت صورة الشيطان ، على الأرجح ، تحت تأثير الثنائية الايرانية^(٤٢) وهو على كل حال ، يتعلق بثنائية ملطفة ، لأن الشيطان لا يوجد مقارناً منذ البدء مع الاله ، وهوليس بخالد . ومن جهة اخرى ، يجب ان يؤخذ في الحسبان تقليد اكثر قدما ، ذلك الذي يدرك يهوه بصفته ككمال مطلق للحقيقة ، أي كأنه توفيق المتعارضات coincidentia oppositum كانت تتواجد فيه كل الاضداد ، كذلك «الشر» اذن [ف ٥٩ ع] ونعيد إلى الذاكرة المثل الشهير لصموئيل : «روح يهوه كانت انسحبت من صموئيل وروح شريرة آتية من يهوه سبب له الرعب»*

وكما في ديانات أخرى ، تتحقق الثنائية على إثر أزمة نفسية تضع موضع التساؤل في أن واحد اللغة والمسلمات اللاهوتية التقليدية ، والتي تصل ، بين أخرى غيرها ، إلى تشخيص المظاهر السلبية للحياة للواقع وللألوهية . إن كل ما فهم حتى ذلك الحين كفترة في العملية الشاملة (المبنية على تناوب الاضداد : نهار/ ليل ؛ حياة/ موت ؛ خير/ شر الخ) ، هو منذئذ معزول ، ومشخص

* ورد النص في سفر صموئيل [١ - ١٦ - ١٤] كآلاتي « وفارق روح الرب شاوول وزعجه روح شرير من لدن الرب » - المترجم .

وموظف بوظيفة خاصة مميزة ومحصورة ، وبصورة خاصة وظيفة الشر (ف ١٩٥ ع). ومن الراجح ان الشيطان هو النتيجة في ذات الوقت لانقطاع الصورة القديمة ليهوه (نتيجة التفكير حول غموض الالهية) والتأثير للمذاهب الثنائية الايرانية . وعلى كل حال فإن صورة الشيطان ، بصفتها تجسيدا للشر ستلعب دوراً بارزاً في تكوين وتاريخ المسيحية ، قبل أن تصبح الشخصية الشهيرة إلى مالا يحصى من التحولات في الآداب الأوروبية للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وفيا يتعلق بالآخرة ، والخلقة الجديدة ، فإن الأدب الرؤوي لا يمثل مفهوماً موحداً . فالكتاب متفقون على تعيين المآسي وعذابات العصر الراهن وكأنها «آلام الولادة» أو «آلام المسيحية» ، لأنها تسبق وتعلن عن مجيء المسيح . وتاما كما هو لدى إشعيا وأنبياء ما قبل النفي ، فإن المسيح messie هو دائماً معتبر ككائن بشري ، وهو بدقة ملك لشعب الله^(٤٣) . وكمثال واحد على ذلك ، تقرر مزامير سليمان (مؤلف كتب في القرن الأول ق.م) صلاة من أجل الاسراع بمجيء المسيح ، ابن داوود لكي يسحق «الحاكمين الظالمين ويطهر اورشليم من حضور الوثنيين» [٢٤-٢٢: ١٧] . «انه ملك عادل [وتحت حكمه لن يوجد ظلم ، لأن الكل سيصبحون مقدسين وملكهم سيكون المسيح » [١٧ : ٢٦] ، ٢٩ - ٣٠ .

وحسب بعضهم ، فإن مملكة المسيح تنتمي ايضاً للدهر الحاضر ، انها تشكل بنوع ما حكماً انابياً (بالنبابة) وبخاصة الألفية le millenium * فهذه المملكة المسيحية مخصصة لتدوم ٤٠٠ ، ٥٠٠ أو ألف سنة وستتبع بالدينونة الشاملة وخراب العالم . والمسيح بذاته سيموت وسيعود تماماً «بصمت» أوليا primordial ، أي إلى العماء «لكنه خلال سبعة أيام ، سيستيقظ للدهر الذي ينال الآن» [ايسدرا ١٧ .. ٧ : ٢٨] ويعبارات أخرى ستكون هنالك الخليفة الجديدة ، البعث والطوبى الأبدية^(٤٥) .

* le Millnarisme ، نظرية بعض الكتاب المسيحيين القائلين بملك المسيح على الأرض مدة ألف سنة قبل قيامه الموت .

إن العديد من النصوص تصنف المسيح بين الكائنات الأزلية ، إلى جانب هينوش ، ايليا ، وشخصيات أخرى رفعت الى السماء من قبل الرب . وحسب بعض المصادر الربينية Rabbiniques ان المسيح سيخبأ في الجنة مباشرة بعد ولادته ، أو مع ايليا في السماء^(٤٦) ويذكر عهد الاثني عشر بطريكا ونصوص قمران عن مسيحين اثنين ، كاهن وملك ، والمسيح الكهنوتي له الأولوية . ويؤكد عهد ليقى انه في ظل كهنته «سيزول كل ذنب . . وهو سيفتح بنفسه ابواب الجنة [. . .] وسيعطي إلى القديسين ما يأكلونه من شجرة الحياة» [١٨ : ٩ - ١٢] . واجمالاً ، فإن المسيح الكهنوتي سيلغي النتائج للذنب الاصلي^(٤٧) .

ويضاف الى ذلك أن نبوءة يسوع وبزوغ المسيحية متضامنان بذات الخميرة الروحية المميزة للأمال المسيحية والايحاءات الاخروية اليهودية بين عصيان المكابيين والخراب الثاني للمعبد (ف ٢٢٤ ع) .

٢٠٤ - ردة الفارين : تمجيد التوراة

في اليهودية كما في غيرها من التقاليد ، دعمت التطلعات الرؤوية الدفاع ضد الارهاب التاريخي ، وقد حل المؤمنون الرموز في المصائب المعاصرة مستخلصين منها نبوءة تبعث على الراحة . فبمقدار مايزداد وضع الشعب اليهودي تأزماً ، بمقدار ماكانت القناعة تزداد بأن الدهر الحاضر يقترب من نهايته . وبصورة مجملة ، كان تفاقم الارهاب يبشر بسلام وشيك الحصول . وسيكرر مستقبلاً التقسيم الديني للمعاناة الماثرة بالأحداث التاريخية ، في العديد من المرات وليس باليهود والمسيحيين فقط .

انه لا يتعلق أبداً بهروب أمام ضغط التاريخ ، ولا بتفاوض تغذية الأوهام . فالأدب الرؤوي كان يشكل علماً مقدساً ، من جوهر واصل إلهيين . وكما يكتب مؤلف سفر دانيال [٢ : ٢٠ - ٢٢] ان الاله «هو الذي يعطي الحكمة للحكماء» و

«هو الذي يكشف الاسرار وما في الأعماق ، ويعلم ما في الظلمات» . إن هينوش شخصية خرافية ، وصورة مثالية للحكيم وللنبي من العصر البدئي^(٤٨) ، وقد أصبح الآن شعبياً تماماً : لقد تنبأ بالدينونة القريبة لجيل ما قبل الطوفان والملائكة الساقطين . والآن يعلن كشفاً جديداً ويطلب بالندم ، لأن ثاني دينونة تقترب . وكدا نبال تماماً يتلقى هينوش العلم المقدس في أحلامه ورؤاه [١٣ : ٨ - ١٤ : ١٠] . لقد أدخل من قبل الملائكة في المخابء السماوية ، وياشر بسفريات انتشائية للسموات [فصل ١٢ - ٣٦] حيث سمح له الرب بأن يرى الألواح المحفوظة التي كتب عليها تاريخ العالم من البداية حتى النهاية .

في فجر الزمن كشف الاله العلم السري الى بعض الأشخاص المشهورين باحسانهم وتقواهم وقدراتهم على «اكتشاف المستقبل» وهذا التعليم كان باطنياً (مختوماً) ، وبعبارة أخرى لا يمكن ادراكه من قبل غير المقدسين . وقد نقل بعدئذ إلى بعض الكائنات استثناء . ولكن بما ان العصر الأولي يناسب نهاية الأزمنة (eschaton) فإن العلم المقدس قد كشف حضورياً من جديد، ودوماً الى مجموعة محصورة من المسارين . وفي هينوش الأول [١ - ٦] وصف ابن الانسان بأنه الملقن بالسر بامتياز «سيد كل الاسرار» . وعندما سيتربع على عرشه «ستسيل كل اسرار الحكمة من فمه» . وصفاته الأكثر تميزاً هي الحكمة والذكاء^(٤٩) . ويضاف الى ذلك ان نغمة «العلم المصون المستور» هي شعبية جداً حتى العصر الهيلنستي (ف ٢٠٩ ع) وهي تشكل التبرير لكل المدارس الغنوصية (ف ٢٢٩ ع)^(٥٠) .

وقد طور مؤلفو الرؤيات بشكل واسع هذا المفهوم للحكمة المصونة في السماء والتي هي غير قابلة لأن تحتذى من قبل البشرية^(٥١) فالرؤى والتجارب الوجدية كانت تلعب دوراً رئيسياً في الأدب الرؤوي «كما هو في أي مكان آخر في العالم الهلنستي» . والرؤى والوجديات تثبت رسمية وصدق «النبي والحكيم» . واكثر من هذا ، ان التجارب الوجدية اغنت تباعاً قيمة العلم المكتشف . فسفر دانيال كشف تاريخ العالم فقط ، في حين ان النصوص المعلنة من تقليد هينوش تلف العالم بكامله ، مرثي وغير مرثي : الجغرافية الأرضية والسماوية ، الفلك ، وعلم النجوم ، والتعدين والطب . وبالنسبة (لستة هينوش)

ان الاسرار المتعلقة بالعلوم الكونية اكتشفت ومجدت في آن واحد عمل الاله . وكما يلاحظ هينجل Hengel فإن معلمي الحكمة الهاسيديم كانوا مرتبطين بمعارضة ضد الهيلينية ايضاً بحدّة اكثر من ابن سيراخ . لأنهم في الاساس ، وبواسطة «الكشوفات الرؤوية» كانوا يمتلكون علماً اسمى من علم الاغريق . وفي الواقع ، كان علمهم يغلف الكوزموس والتاريخ والعالم السماوي ، ومع التوسع مصير الانسان في فترة الآخرة ، وهي معرفة غير ممكن حيازتها بالعقل . وهذا المفهوم لعلم باطني ، شمولي ومصون ، قابل لأن يكون مفهوماً في الرؤى الوجدية أو المنقولة عن طريق مسارة ، تأكد كذلك في سنن دينية اخرى وسيكون مشتركاً مع المسيحية القديمة .

إن أي تيار آخر للفكر اليهودي لم يقتبس الأفكار الهيلنستية - الشرقية بهذا مقدار من السعة للرؤية ، وبالرغم من هذا فإن أساس الرؤية يبقى دوماً المفهوم السابق للعهد القديم من تاريخ الخلاص^(٥٢) . ويعيننا هنا مظهر روحي هام جداً ، بخاصة الابداعية الدينية المثارة بالتوفيقية . ففي الواقع ان «معلمي الحكمة» (هاسيديم) وكتاب الرؤيات الأولى ، قد تلقوا وتمثلوا أفكاراً مشتقة من عدة انظمة توفيقية ، ولكن هذه الأفكار قد أغنت اليهودية ودعمت الأمل لشعب يهودي في فترة صعبة للغاية . ومن جهة اخرى ، ان عملية مماثلة قد حلت رموزها في تيارات دينية اخرى . وتحت قيادة معلم العدالة ، انفصلت مجموعة مؤلفي الرؤى «الاسينيين Esséniens» عن باقي الجماعة وقررت العيش في الصحراء ، حياة ذات خاصية تنسكية (ف ٢٢٣ ع) ، وعليه ، فإن الأكثر قرباً من التشابه مع التنظيم التنسكي للاسينيين هو الجمعية السرية المغلقة من نموذج اغريقي . حتى الفيريسيين phariseus الجماعة الثانية المتنوعة من كتاب الرؤى هاسيديم ادخلوا عدداً من الأفكار الهيلينية في مذهبهم من الشريعة^(٥٣) .

وفي آخر المطاف ، فإن الضغط التدنيسي لأنطيوخوس ابيفان والعصيان الظاهر للمكابيين ، أوجبا الاستشراق والبنى المستقبلية لليهودية . إن «الحماس ضد التوراة» الذي أنعش مناصري انطيوخوس شجع «الحماس من أجل التوراة» وانتهى بتدعيم انطولوجيا الشريعة^(٥٤) . وقد رفعت التوراة الى رتبة من حقيقة

مطلقة ، وابدية ، ونموذج مثالي للخلقة . وحسب ر . سيمون بن لاكيش (القرن الثالث ق.م) يرتبط وجود العالم بواقعة ان اسرائيل تقبل التوراة ؛ وبدون ذلك سيرتد العالم للعلماء^(٥٥) . وكل واحد من ٢٤٨ أمر و ٣٦٥ نهي مما تشكل منه التوراة يتلقى معنى كونيا . فالانسان ، يخلق مع ٢٤٨ عضوا و ٣٦٥ عرقاً ، تعكس في بنيتها نفسها في آن واحد عمل الرب (الكون) وظهوره (الشريعة)^(٥٦) . وبصفتها كحقيقة مطلقة ، فإن التوراة هي منبع الحياة . وكما كتب هيلل Hillel «حيث يوجد كثير من التوراة يوجد كثير من الحياة» .

غير ان تمجيد التوراة حوّر مصير اليهودية جذريا . فمئذ الانبياء كان التدين العبري منعشاً بالتوتر بين الاتجاهات الشمولية والخاصة . وان سبب هذا التعارض الحاد والخلاق كان اساساً الصفة التناقضية للكشف . وعليه فإن كشف الرب في التاريخ ، أي تحديده للشعب اليهودي ، كان معلنا بأنه مقبول كونياً مع كونه معتبراً محصوراً بالاسرائيليين . وفي النصف الثاني من القرن الثاني ق.م وبفضل التطور المدهش للدiaspora ، وفي قسم منه ، للدعاية التبشيرية ، كانت اليهودية على أهبة أن تصبح ديانة عالمية . غير ان الردة ضد تدنيس انطيوخوس وصلت الى مادعي «التركيز على التوراة»^(٥٧) . وعليه فإن مثل هذا التركيز أعاق انطلاقة ديانة عالمية . بالتأكيد ان الشريعة لعبت دوراً حاسماً في الدفاع عن الهوية الوطنية ، ولكن الشعور برسالة عالمية لم يتمكن من الانتظام والتطور بحرية إلى جانب تيار وطني قادر وشعبي . وهذا مايفسر من جهة اخرى قرار الكنيسة المسيحية البدائية ، المتعشة بروحية نبوية - يهودية ، لارسال بعثات لدى الساميين المكروهين جداً من قبل الاسرائيليين [اعمال الرسل ٨: ٤] وبعد زمن قصير لدى غير اليهود في انطاكية [اعمال ١١: ١٩] «لقد أخذ علم المسيحية (كريستولوجيا) مكان انطولوجيا التوراة بصفته تعبيراً عن الكشف الحر والمصون للاله في التاريخ ، كشف لم يكن يعرف حدوداً لنظام قومي أو تاريخي»^(٥٨) . ان ثبات التوراة وانتصار الشرعية وضعا كذلك نهاية للأمال الأخروية . «فحتى الأدب الرووي زال تباعاً وحل محله التنسك اليهودي» [هيجل ص ١٧٥] .

ويحسن ان نضيف مع ذلك إلى أنه في المنظور اليهودي ، كان ترك الرسالة

العالمية هو الثمن الذي وجب دفعه لانقاذ الجماعة الاسرائيلية ، وفي آخر المطاف ، فإن الأمر الجوهري كان استمرارية التاريخية للشعب اليهودي . فهو لم يتعلق «بقومية» فقط وانما ، وقبل كل شيء ، بلاهوت مشاد على معنى «الشعب المختار» فاسرائيل كان قد اختير من قبل يهوه ؛ ليكون شعبه . وبالنتيجة ، فإن الشعب اليهودي كان يشكل حقيقة تاريخية مقدسة بارادة الرب . وكان الانحلال القومي يعادل الالحاد أو الكفر أي تدنيس بنية اخلاقية مرسدة بأصلها ذاته . وكان الواجب الأول للشعب اليهودي اذن الحفاظ على الهوية دون ان تمس حتى نهاية التاريخ ، وبعبارة اخرى البقاء دائماً تحت تصرف الرب .

حواشي الفصل الخامس والعشرين

- ١ - فوهرر - تاريخ الديانة اليهودية ص ٣٠٨
- ٢ - سنجد افكارا مماثلة عند زكريا ٨ : ٩ - ١٣ الخ
- ٣ - سيحاكم الرب كل اعداء اسرائيل ، وعواصمهم ستدمر ، وغالباً ان من سيعيش منهم سيساهمون بالعيد المسيحياني بالقرب من يهوه على جبل صهيون (٢٤ : ٢١ : ٢٥ : ١٢)
- ٤ - بعد المعركة الأخروية ضد الأمم المذنبة تجاه يهوه واسرائيل ، سيبدأ عصر فردوسي من الرخاء والسلام
- ٥ - فوهرر - ص ٣٤٠
- ٦ - ان النبي «ملاصخي» (القرن الخامس) يرفض تحديد التاريخ (ليوم يهوه) . والأساس هو الاستعداد الداخلي لأن يوم وصوله (٢-٣) يمكن ان يباغت في أي وقت شاء .
- ٧ - اشعيا : ٢٤ : ٢٣ - ٣٩ و (عندئذ سيحكم يهوه عليهم في جبل صهيون) زكريا ٩ : ٨-١ الخ
- ٨ - ١١ - مراجع متعددة فوهرر ص ٣٠٠ ويدنجرين ص ٢٤٥ وغيره
- ١٢ - أ - كاكو (اليهودية منذ الاسر البابلي) ص ١٤٣
- ١٣ - حسب مارثان سميث سيكون نحميا هو الذي استمر. بالاصلاح المطعم من قبل عنذرا ص ١٢٠ (احزاب الفلسطينيين في العهد القديم) ص ١٢٠
- ١٤ - ان شرحاً مماثلاً اكد صحة المذاهب المشايانا والتقنيات التاتارية كذلك الكشوفات الهرمسية والرؤى والعرفان ..
- ١٥ - يذكر ان كتاب ايوب مؤرخ من قبل عدد من المؤرخين من عصر ما قبل النفي .
- ١٦ - ١٧ - المراجع السابقة في فقرة ٨ - (١١) .
- ١٨ - ١٩ - هينجل - اليهودية - والهليلينية والمصادر السابقة .

- ٢٠ - هينجل ويوسيه غريمان ص ٣١٩ - ٣٤٤ .
- ٢١ - ٢٣ دلالة المصطلح غير مؤكدة ، كوهلت ترجع على الأرجح الى (معلم الجماعة) أو (الخطيب) ر. هينجل
- ٢٤ - في مديح الأجداد [٤٤ : ٤٩-١] : ١٦ بن سيراخ يمجّد الوجوه الكبرى من التاريخ التوراتي هينوش ، نوح ، ابراهيم اسحاق يعقوب .. نص متفرد موازي له في الأدب المتعلق بالأمثال ويقربه هينجل من تمجيد الأبطال في الأدب الهلنستي .. ولكن الكاتب ينقد نفسه والمديح يصبح تعليمياً ورتبياً .
- ٢٥ - wschencke (ص ١٦٠) يذكر باللغوس للفلاسفة الرواقيّة التي تدخلت واعطت شكلاً في الكوزموس والقانون Loie (لغوس) شامل . والذي هو الحكمة الحقيقية متدخلاً في كل مكان وهو مشابه لزوس .
- ٢٦ - ٢٧ - ٣٠ - المراجع السابقة وحسب بيكرمان ان المتطرفين انصار الهيلىينية في القدس هم الذين دفعوا انطونيوشس للنصر .
- ٣١ - الاضطهاد وحرب المكابيين - حللت من قبل بيكرمان
- ٣٢ - ولكن الاتجاهات التوفيقية استمرت في التطور في ساماري في شرق الاردن وبصورة خاصة في الدياسبورا ، ذات اللغة الاغريقية .. هينجل ص ٣٠٨
- ٣٣ - انظر العرافة بوثية المصري - عرافات هيستاسب وسييل الخ
- ٣٤ - ٣٥ - المراجع المذكورة اعلاه
- ٣٦ - في سفره الانتشائي للساء رأى هينوش الألواح التي كان عليها قد كتب التاريخ في مجمله (هينوس ٨١ : ١-٥) وانظر ويدنغرين .
- ٣٧ - انظر - اسطورة العود الأبدى لآلياد ص ١٤٩ - وهذه الكليشيهات تشتق من سيناريو اسطوري قديم حول نهاية العالم . يتلوها خليفة جديدة .
- ٣٨ - من ذات الفترة هينوش الأول ٩٠ - ٣٣ .. كتاب جاسون دي سبريد المكتوب فيها بعد موت يهوذا كابا ر. هينجل ص ١٩٦
- ٣٩ - في الواقع ان اليهودية كانت تجهل ان ابن الانسان يشكل مفارقة لاسطورة الانسان البدني فالرؤية اليهودية تمجد الدور الأخرى لابن الانسان ولكنها لم تضع اية اشارة الى وجوده التالي و F.A. Borsch اوضح تلقائياً الميتولوجيا الشرقية للملك كابين للاله الأولي - انظر كتابه (ابن الانسان في الاسطورة والتاريخ)
- ٤٠ - في ذات المؤلف توجد فكرة قديمة للانحطاط الذي لا مفر منه للعالم والخلقة سبق ان شاخت وسبق لها ان اجتازت قوة الشباب الخ .. اسيدراس [٥٥:٧]
- ٤١ - تاريخ آخر الزمان يمكن حسابه من قبل الحكمة (رص ٢٦٠) المراجع

- ٤٢ - اظهرت نصوص قمران روحان مخلوقان من قبل يهوه - خيراً وشرّاً (ف ٢٢٣ع) . وهو مذهب يذكر بالسير فانسيم (ف ٢١٣ ع)
- ٤٣ - المراجع السابقة
- ٤٤ - الفكرة ستنبثق بالارشادات الربانية - (المراجع ص ٣١٥)
- ٤٥ - ٤٥ - السنهدرية ٣٩ له اراء ربانية مختلفة
- ٤٧ - رينجرين - ديانة اسرائيل ص ٣٥٠ ان الارشادات حول العصر المسيحاني استمرت في الحلقات الربانية للعصور الأولى ب.م وذات البواعث تعود باستمرار . دمار الوثنيين ، انتصار اليهود ، النعم الممنوحة من قبل الاله للمؤمنين الخ . . وبعض النصوص تضيف في هذا اليوم ستصبح كل الشعوب مؤمنة بعبادة الاله الواحد يهوه . ولكن الايمان الاثير على كتاب الرؤيا حيث ان تاريخ الآخرة يمكن حسابه ، قد اهل ، والمسيح سيصبح في الفترة المعينة من الرب وحتى ذلك الحين فان المؤمنين يجب ان يطبقوا التوبة وان يندموا ويطبقوا الشريعة .
- ٤٨ - ٤٩ ذات المراجع
- ٥٠ - في الهند ، تأكد مذهب الغنوص السري الذي يوصل بطريقة تلقينية ، منذ عصر الاوبانيشاد ولكنه سيعاود انبثاقه على الأخص في ادب التانتريك (الجزء الثالث)
- ٥١ - ٥٤ هينجل - ويرى رفع المعتقدات والأفكار المستعارة من قبل اليهود لوسط ثقافي شرقي هيلليني . ويرى . ان الجبهة الثانية في مواجهة الهيللينية كانت تشكل القوة الوحيدة القادرة لتحديد كلية الحضور للتوراة ، وفي الواقع ، ستنتهي التوراة لتسود في آن واحد الحاضر التاريخي والايقاعات الكونية .
- ٥٥ - اليعازر بن هيركانوس ص ١٠٠ ق.م رفض لقوله : « اذا لم تكن التوراة هنا فإن السماء والأرض لم توجدا . . نص نقله هينجل .
- ٥٦ - بعد قرنين ، فإن التانتريسم ستحضر نموذجاً بشرياً - كونياً وشعائر مشابهة
- ٥٧ - حتى في الدياسبورا فإن اولوية التوراة لم تكن موضع جدل ، ان الشرح المجازي لم يلغ المعنى الادبي للكتابات وقد قبل فيلون القوانين والموانع المنصوص عليها .

الفصل السادس والعشرون

توفيقية وابداعية للعصر الهيليني : وعد الخلاص

٢٠٥ - ديانات الأسرار

كما لاحظنا سابقا (ف ١٨٤ع) ، فإن وعد الخلاص يشكل التجدد والتميز الرئيسي للديانات الهيلنستية ، وهو بالتأكيد ، يتعلق ، في الدرجة الأولى ، بالسلامة الفردية ، ولكن العبادات السلالية cultes dynastiques كانت قد اتبعت هدفاً مماثلاً^(١) . إن الآلهة المشهورة التي عرفت الموت والبعث كانت أكثر قرباً من الانسان ، من الآلهة حامية المدن poliades . وإن عبادتها لاءمت مسارة معدة قليلاً أو كثيراً (تعليم ديني ، طقوسي ، ارشاد باطني) كان المرید على اثرها يقبل في الجمعية السرية . ولم يكن الانتهاء إلى جمعية للأسرار ليمنع ابداً المسارة في جمعيات أخوية confréries سرية أخرى . وكما في كل التيارات الروحية المعاصرة ، فإن الأمل بالخلاص تطور تحت اشارة التوفيقية .

وفي الواقع ، إن التوفيقية الدينية هي العلامة السائدة للعصر . ان التوفيقية ، كظاهرة قديمة لا يعرف تاريخها ، والتي تأكدت بشكل واسع ، لعبت دوراً هاماً في تكوين الأديان الحثية ، والاغريقية والرومانية ، وفي ديانة اسرائيل وبوذية الماهايانا والتاوية . ولكن مايميز توفيقية العصر الهيليني والروماني هو اتساعها وابداعيتها المدهشة . وهذه التوفيقية ، البعيدة عن الابتذال والجذب ، تبدو كأنها الشرط لكل ابداع ديني . وقد رأينا أهميتها في اليهودية لما قبل النفي (ف ٢٠٢ع) وسنكشف فيما بعد عملية مشابهة في بعض ابداعات التدين الايراني (ف ٢١٢ع) . والمسيحية البدائية تتطور كذلك في وسط توفيقى . صحيح ، ان ألهاً واحداً ، في العصر الذي نبخته ، سيرايسس sèrapis هو نتيجة دمج محسوس لصورتين إلهيتين ، ولكن الاسرار الاغريقية الشرقية ، والارشادات الأخروية والرؤوية وعبادة الحكام - لكي نشير لبعض الأمثلة فقط - توضح الأهمية والحياة للفكر التوفيقى .

ونستطيع القول بأن الوعود بالخلاص تحمى نفسها لتثير الاحترام الكبير جداً للربة تيشية Tyché «الحظ» - (فورثينا - باللاتينية) . وان تيشية المتقلبة الأطوار والغير متوقعة تقدم السعادة أو سوء الحظ بلا مبالاة ؛ وهي تظهر نفسها مثل (انانك) Ananke (الضرورة) أو هيمازمين hemarmene «القدر» ، وتظهر قوتها بخاصة في حياة العظماء كالاسكندر^(٢) . ان القدر ينتهي ليكون مشاركاً بالقدرية الكوكبية . فوجود الافراد كذلك أجل المدن والدول كله محدد بالنجوم . وهذا المبدأ ، والتنجيم - التقنية التي تطبق قواعده - يتطوران تحت تحريض ملاحظات البابليين المطبقة على ثورات الكواكب . بالتأكيد ، ان نظرية التوافقات - الأصغر والاكبر micro- macrosmique كانت معروفة منذ زمن طويل في ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) (ف ٢٤ع) وفي العالم الآسيوي ايضا . ومع ذلك فإن الانسان لم يشعر في هذه المرة بأنه متضامن مع الايقاعات الكونية فحسب ، ولكنه يكتشف انه محدود بحركات النجوم^(٣) .

إن هذا المفهوم المتشائم لم يصل لافتقاد الثقة به الا باعتقاد ان بعض الكائنات الالهية مستقلة عن القدر ، بل وانها أعلى منه . فبعل Bel أعلن معلماً

للحظ ، (فورتينا ريكتر Fortina rector وفي اسرار ايزيس ، تؤكد الربة المسارة التي تستطيع ان تحدد لها الحياة خارج الأجل المحدد من قبل القدر . وفي مدائح ايزيس واوزيريس تعلن الربة : (لقد غلبت القدر ، والقدر اطاعني) ان تيشيه أو (فورتينا) تصبح نعتاً لايزيس^(٤) . وهناك عدد من النصوص المتعلقة بالأسرار والهرمسية تؤكد ان المتلقين لم يعودوا محدودين بالقدر وبالمصير^(٥) .

وعلى خلاف المسارة في اسرار ايلوزيس التي كان لها مكان استثنائي في التيلستريون telestion ولأجل دقيق (ف ٩٧٠ع) ؛ فإن المسارات في الديانات الأخرى للسلامة كان يمكن لها ان تنجز في أي مكان وفي أي تاريخ . وان كل هذه العبادات المسارية كانت تعلن عن قدمية موعلة في قدمها ، حتى ولو ان ترتيبها لم يؤرخ ، في بعض الحالات ، ولو حتى بالقرن . إنه بالتأكيد ، يتعلق ، بنموذج خاص - لزيجست Zeitgeist من العصر الهيليني - الروماني ، ولكن ، وكما سنرى ، فإن ديانات الخلاص تركب بعض العناصر الدينية القديمة . وباستثناء الديونوزيسية ، فإن كل الأسرار هي من أصل شرقي : فريجي (سبيل وآتيس) ؛ مصرية (ايزيس واوزيريس) ، فينيقية (ادونيس) ؛ ايرانية (ميتر) . غير انه في العصر الهيليني وبخاصة في ظل الامبراطورية ، لم يكن لهذه العبادات الشرقية خاصة إتنية ، فنياتها ، وتطلعاتها الدينية الانتقادية كانت أعلنت رؤية شمولية . ويعرف الشيء الجوهري من عباداتها الشعبية ، أما ما يخص الطقوس السرية ، أي المسارة بمعنى الكلمة ، فقد انخفضت الى بعض الاشارات الموجزة واللغزية .

ويعرف ان المرشح كان يرتبط بقسم بأن يحفظ السر لكل ماسيرى ويسمع خلال الحفلات . ويتلقن ايضا التاريخ السري (Hieros logos) الراوي لأسطورة أصل العبادة . وعلى الأرجح ، كانت الاسطورة معروفة مسبقاً من قبل الناشئ المتلقي ، ولكنه كان يوصل إليه تفسير باطني جديد ، الأمر الذي كان يعادل الكشف عن المعنى الحقيقي للمأساة الالهية . وقد كانت المسارة تستبق بفترة من الصيام والنقعة maceration ، وعلى إثرها كان المبتدئ يطهر بتطهيرات ، وفي اسرار مثيرا وآتيس ، كان يضحي بثيران وكباش على حفرة مغطاة بمشبك : وكان

الدم يقطر على المتلقي الموضوع في الاسفل . وبطريقة لم تتوضح كان الطالب يشارك طقوسياً في سيناريو ديني يقام عن الموت والبعث اللألوهية . واجمالاً فإن المسارة كانت تحقق نوعاً من تقليد الألوهية imitatio dei . وان غالبية الاشارات أو الدلالات المجترأة التي بحوزتنا ترجع للموت والبعث الرمزيين للمتلقي . ف لوسوس Lucius البطل في رواية ابولية Apulee -المسوخون métamorphose - تحمل اثناء تلقيه باسرار ايزيس موتاً تطوعياً و «قرب العرش ، من الموت» من أجل الحصول على «يوم من الولادة الروحية» [٢٩ : ٢٤] . وفي اسرار سيبل ، يعتبر التلميذ المريد موريتورس moriturus «على أهبة الموت»^(٦) . وهذا الموت المجازي mystique يتبعه ولادة جديدة ، روحية . وكما كتب سالوستو sallusto عن الطقس الفريجي «كان التلامذة المسارون الجدد يتغذون باللبن كما لو أنهم كانوا قد ولدوا مجدداً» . وفي النص المعروف تحت اسم طقس ميترا Liturgie de mithru والذي داخله عرفان (غنوص) هرمسي يمكن أن نقرا : «اليوم لكوني حامل بك مجدداً بين عدد لا يحصى «أصبحت خالداً» أو «مولوداً مجدداً بهدف اعادة التولد في هذه الولادة الخلاقة للحياة ..»^(٧) .

وخلال الحفلات ، كان التلميذ الجديد يتأمل أو يمسك بعض الاشياء المقدسة . وكان يوصل إليه في ذات الوقت تفسير رمزيها ، وعلى الأرجح كان يتعلق بتفسير باطني يوضح ويبرر قيمتها الانقاذية ، وخلال فترة من مسارته ، كان المتلقي يشارك في مأدبة طقوسية . وفي الفترة التي نبهتها ، كان لهذه الممارسة التي لا يمكن تذكرها ، بصورة خاصة ، دلالة أخروية وفي اسرار ميثرا ، كان يقدم الخبز والخمر للمتلقي ليعطيان القوة والحكمة في هذه الحياة ، والخلود السامي في الآخرة . وبفضل المسارة كان المتلقي يصبح المماثل للآلهة . فالتأليه والتعظيم لدرجة التأليه ، وعدم الموت . تلك هي المفاهيم المألوفة في كل ديانات الأسرار^(٨) .

٢٠٦ - ديونيزوس الروحاني

في العصر الهلنستي والروماني كان الإله الأغريقي ديونيزوس هو الأكثر

شعبية . وكانت عبادته العامة قد «تطهرت» واتخذت صفة روحانية ملغية الوجد (الذي استمر مع ذلك يلعب دوراً في الأسرار الديونيزية)^(١١) . يضاف الى ذلك ، ان ميتولوجيا ديونيزوس كانت أكثر حيوية . وكانت الفنون التشكيلية ، وبخاصة التزيينات المقدسة قد ألهمت على نطاق واسع مشاهد ميتولوجية شهيرة ، وفي الدرجة الأولى منها طفولات ديونيزوس («الولادة العجيبة» ، «السلة») ، وفداء أريادن ، المتبوع بزواج مختلط Hieros gamos . فالميتولوجيا ، وأمكنة العبادة ، والآثار كانت تذكر بتأمل الطبيعة المزدوجة لديونيزوس ، المتولد من زوس وامرأة فانية ، والمضطهد ومع ذلك الظافر ، والمقتول والمبعوث حياً . وقد أظهر قبره في دلفي ، ولكن قيامته كانت مرسومة على عدد من الآثار . لقد نجح بترفيغ والدته لتكون بين الهة الاوليمب ؛ وبصورة خاصة ، سحب أريادن Ariadne من مقر الأموات وتزوجها . وعليه ، فإن صورة اريادن في العصر الهيليني كانت ترمز للروح البشرية . وبعبارات أخرى ، ان ديونيزوس لم يعتق الروح من الموت فحسب ، وانما اقترن بها في اعراس روحانية [شنيدر ٢٠ ص ٨٠٢] .

إن شعبية ديونيزوس قد انتشرت كذلك بواسطة جماعات التخنيث Technites أو الفنانين الديونيزيين ، جماعات تأكدت في آثينا منذ ٣٠٠ ق.م . والمقصود بها جمعيات أخوية (كونفريرات) ماقبل دينية^(١٢) ، ولكن بدون خاصية الأسرار . أما بالنسبة للأسرار الديونوذيكية بالمعنى الدقيق للكلمة ، فقد كنا أبرزنا جوهر المسألة (ف ١٢٥ ع) . ونعيد إلى الذاكرة أن ديونيزوس في عابدات باخوس les Bacchantes يعلن البنية السرية لعبادته ويوضح ضرورة السر التلقيني : «سرهم يمنع من تواصلهم مع من ليسوا باخيين» - «ماهي فائدتهم بالنسبة لأولئك الذين يحتفلون بها؟» كما يتساءل بنسيه penthe . «غير مسموح لك أن تتعلمها ، ولكنها اشياء جديرة بأن تعرف» [الاسطر ٤٧٠ - ٧٤] . وفي آخر المطاف ، ان السر التلقيني قد حوفظ عليه جيداً . وقد انقرضت كل النصوص المرتبطة بخدمة دينية تقريباً ، باستثناء بعض الترنيمات الأورفية المتأخرة . واذا كانت الوثائق الأثرية من العصر الهيللنستي والروماني عديدة جداً ، فإن تفسير رمزياتها ، حتى في حال قبوله من اكثر العلماء ، لم ينجح في توضيح المسارة بمعنى الكلمة .

ولا يمكن الشك بالتكوين المغلق ، وبالتالي الطقوسي ، بمعنى مساري ، للجمعيات الأخوية الديونوزيسية des thiasés dionysiaques وهناك نقش كومس de cumes (بداية القرن الخامس) يثبت ان للأخويات confréries مقابرها الخاص حيث لم يكن مسموحاً بالدفن فيها إلا للملقنين باسرار باخوس^(١٣) . وقد أمكن إظهار (خلافاً لرأي بعض العلماء الذين لم يروا فيها سوى نطاق ملائم لمآدب واحتفالات مدنسة) أن المغارات الديونوزيسية ، كانت تشكل امكنة للعبادة . وتمثل الشواهد الايقونية الأكثر قدماً والعائدة للقرن السادس ، ديونيزوس نائماً في مغارة ، أو تمثل حورية ménade راقصة أمام قناع للاله بقامة كبيرة قائمة داخل مغارة . وعليه فإن النصوص تشير الى الرقصات المقدسة والحفلات الطقوسية أمام المغارات الديونوزيسية ، ومن جهة أخرى ، انها تؤكد بدقة على ان الحفلات كانت تحصل اثناء الليل بهدف ضمان سريتها . اما بالنسبة للشعائر المسارية ، فنحن مضطرون للجوء إلى الافتراضات . وقد استخلص فريدريك ماتز Frédéric matz في بحثه حول المشاهد التصويرية متبعاً في هذا مثال علماء آخرين ، ان العمل المركزي للمساراة كان يتكون في الكشف عن عضو التذكير المخبأ في سلة (ليكنون liknon) ومن المرجح ان هذا المشهد ، الذي اشتهر على نطاق واسع ، كان له أهمية طقوسية ، غير ان بويانسيه Boyancé قد برهن بشكل ملائم على أن النصوص تذكر الليكنون le liknon بأنه ذي علاقة مع كل انواع المسارات وليس مع مسارة ديونيزوس وحدها .

ومن جهة أخرى ، ففي متحف اوستي ostie وعلى بروز من الجص أو المرمر ، يبدو ديونيزوس وثلاثة شخصيات أخرى معينين باسمائهم ، والسلة تحمل العلامة : سر mysteria . وعليه ، فإن السلة تحتوي الكريونديا les crepundia أو signa ، بمعنى «اللعبات الروحانية» (الدوامة ، المعين ، الكعوب ، والمرأة) والمؤكد سابقاً منذ القرن الثالث ق.م في اوراق بردي غوريب Gorub وان التيتان Titans مع هذه الألعاب نجحوا بجذب الطفل ديونيزوس - زاغروس وذبحوه بعدئذ وقطعوه قطعاً (ف ١٢٥ع) ، وقد نقلت إلينا هذه الاسطورة من قبل بعض المؤلفين المسيحيين فقط ، ولكنها كانت معروفة من قبل الملقنين الاثنين بالاسرار -

بلوتارك وأبوليه - وكذلك من قبل الكونفريرية الأورفية في مصر الهيللنستية^(١٥) .
وبتفحصها حسب الآثار ، يبدو أن التباهي بالقضيب كان يشكل جزءاً من «هذه
الشعائر الرهيبة التي تسبق المرور للحضرة الالهية»^(١٦) . ويظن بويانسية Boyancé
ان «من كان يستطيع ان يوجد الايمان في المتلقي ، واليقين بدعم إلهي ، قادر بأن
يضمن له في الآخرة مصيراً متميزاً ، لم يكن يستطيع ان يحصل على رؤية شيء
كهذا» ص (٤٥) فالعمل المركزي للمسارة كان الحضور الالهي الذي يغدو
محسوساً بالموسيقى والرقص ، التجربة التي تولد «العقيدة برابطة صميمية تقام مع
الاله»^(١٧) .

وبالتأكيد ان هذه الملاحظات ، تأكدت على نطاق واسع ، ولكنها لا تعرفنا
كثيرة بالطقوس المسارية . وعلى كل حال ، يحسن ان نحدد بدقة ان التباهي
بالقضيب كان يشكل عملاً دينياً ، لأنه كان يتعلق بالعضو المولد لديونيزوس ،
الذي هو اله وفان غلب الموت . ونعيد التذكير هنا بقداسة لينغام شيفا lingam de
shiva ، لكي نأخذ بعين الاعتبار انه ، في النصوص الثقافية والدينية ، لا يرمز

العضو المولد لاله لسر الخلق فحسب ، وانما يعيد حضوره ايضا .
وان مثل هذه التجربة في العالم الغربي الحديث هي بالتأكيد غير مقبولة ، لأن
المسيحية ، خلافاً للأسرار ، قد جهلت القيمة القدسية للجنسية sexualité . وقد
أمكن اجراء ذات الاشارة بخصوص وجبات ديونيزية طقوسية ، عندما ، كان
يترك الملقن بالاسرار وهو متوج بالزهور في حالة سكر مفرح معتبر كتملك الهي .
ويصعب بالنسبة لنا تفهم القداسة لمثل هذه المسرة . ومع ذلك كانت سبقت
الطوبى أو نعيم ماوراء القبر الموعد للملقن في الاسرار الديونوزيسية^(١٨) .

وهناك نصوص متأخرة ، تعكس الأخروية الأورفية ، وتؤكد على دور
ديونيزوس بصفته ملكاً للأزمنة الحديثة . فمع انه طفلاً ، جعل منه زوس حاكماً
على كل الآلهة في العالم . ان تجلي الطفل الالهي يعلن عن الشباب الجديد
للكون ، ويعلن عن تقمص كوني palin génésie cosmique^(١٩) .

(الطفل بصفته علامة لتجدد الولادة واعادة تجديد يمدد الرمزية الدينية للقضيبي). ان الآمال المرتبطة بانتصار ديوزينوس ، واذن باعادة تجديد دوري للعالم ، يدخل العقيدة في رجعة وشيكة الوقوع للعصر الذهبي . وهذا ما يفسر الشعبية للقب ديونيزوس الجديد الذي اعطي لشخصيات مختلفة (أو الذين وصفوا انفسهم به) على مدارات عصرنا^(٢٠) .

٢٠٧ - آتيس وسيبيل

إن عبادة سيبيل و «الأسرار» آتيس توضح ايضاً وبشكل افضل الاشكال الدينية الأخرى المعاصرة للتشتت البنيوي للابداعات التوفيقية . فالربة الفريجية المدخلة إلى روما في ٢٠٥-٢٠٤ ق.م لانقاذ الجمهورية والمهددة بجديية من قبل الجيوش القرطاجية (ف١٦٨ع) كان لها قصة متعددة الألوف من السنوات . ويشهد الحجر الأسود الذي يمثل سيبيل طقوسياً بقديم العبادة : فالحجر واحد من أقدم الرموز للأرض الأم . وانها الحجر دائماً ، وبعبارة أخرى الأم الكبيرة سيبيل ، هي التي توجد في الأصل لآتيس ولعبادتها . وحسب الاسطورة التي نقلها بوزانياس [بوزانياس ٧ - ١٧ : ١٠ - ١٢] إن غولا خنثى herma phrodite أجديتيس ، ولد من حجر ملقح من قبل زوس^(٢١) . وقد قرر الآلهة اخصاءه وتحويله الى ربة ، سيبيل . وحسب رواية مختلفة أخرى ، ان شجرة لوز انبثقت من دم الخنثى . وبإقدام نانا ابنة نهر سنغاريوس على أكل حبة لوز^(٢٢) أصبحت حاملاً فولدت طفلاً (آتيس) وما ان كبر آتيس حتى احتفل بعمره من ابنة الملك . وعندما دخلت أديتيس التي احبته الى قاعة الاحتفال ، اعتبر حضورها عملاً جنونياً ، فاجتث الملك الأعضاء الجنسية المولدة وهرب آتيس ، واختن تحت شجرة صنوبر ومات . وقد حاولت أجديتسي يائسة اعادة إحيائه ولكن زوس عارض في ذلك ، وسمح فقط ببقاء جسد آتيس غير معرض للفساد والاشارة الوحيدة لحياته ستكون غمو شعره وحركة اصبعه الصغرى^(٢٣) . وبما أن أديتيس ليست سوى تجلٍ للأم الكبرى الخنثى ، فإن آتيس هو في آن واحد الابن ، والحبيب والضحية لسيبيل ، وقد حزنت الربة على غيرتها ، فندمت وبكت حبيبها .

ان هذه الميتولوجيا الموغلة في القدم والشعائر الدموية التي سنشير اليها تشكل الارومة لدين انقاذي اصبح شعبياً لدرجة كبرى في العصور المسيحية الأولى في كل الامبراطورية الرومانية . ومن المؤكد ان السيناريو الاسطوري الطقوسي كان قد اوضح «السر» للنبات (ف ١٢)

إن الدم والاعضاء الجنسية المقدمة لسييل كانت تضمن الخصوبة للأرض الأم . ولكن هذه العقيدة القديمة قد غذيت مع الزمن بدلالات دينية جديدة ، وهذه الطقوس الدموية غدت وسائل للغفران . ومن الراجح ان الوظيفة المتعلقة بوجود فاد في العبادة كانت معروفة منذ وقت سابق . ففي بسيونونت *pessiononte* كان يوجد (كونفريرية) مغلقة من نموذج ديانة الاسرار^(٢٤) . وقبل ادخالها لروما بزمن طويل ، كانت عبادة آتيس وسييل قد انتشرت في اليونان ، حيث انها تحملت على ما يرجح العديد من التغيرات . وفي اليونان كما في روما فإن نفور الكهنة الخصيان تجاه الشعائر الدموية جعل اعتماد آتيس في وضع تابع مرؤوس . وخلال زمن طويل ، لم يستفد هذا الاله في روما من أية عبادة عامة ، مع ان عدداً من التماثيل الصغيرة من الطين المشوي التي ترجع للقرن الثاني ق.م تؤكد وجوده . ولم يرتفع آتيس وطقوسه الى المستوى الأول الا تحت سلطة كلود وخلفائه وسنشير الى اهمية هذا الحدث .

ان الأعياد كانت تقام في الاعتدال الربيعي *l'exquinoux* من ١٥ - ٢٣ آذار . وفي اليوم الأول للقصب (دخول القصب) ، كانت كونفريرية القصب تحمل الى المعبد قصباً مقطوعاً ، وحسب الخرافة ، ان سييل وجدت الولد آتيس موضوعاً على ضفاف نهر سانفريوس . وبعد سبعة أيام تستقدم كونفريرية دندروفور من الغابة شجرة صنوبر مقطوعة . فكان جذعها يغطي بعصابة ، مثل الجثة ، وفي الوسط كانت ترتبط صورة لآتيس . وكانت الشجرة تمثل الاله الميت . وفي ٢٤ آذار (يوم الدم) كان الكهنة والمتلقون يمارسون رقصات متوحشة على صوت الصنوج والطبول والمزامير ويجلدون انفسهم حتى تسيل دماؤهم ويقطعون اذرعهم بالمدى ، وفي أوج الهيجان ، كان بعض المتلقين الجدد يقطعون اعضاءهم الذكورية ويقدمونها كنذور للربة . ومع العويل والانتحابات الكثيرة

لليلة ٢٤ - ٢٥ آذار كان يتوالى فجاءة انفجار الفرخ ، ففي الصباح ، كان يعلن عن قيامة الرب^(٢٦) . وكان هذا يوم فرح عظيم (هيراليا) Hiralia .

وبعد يوم من الاستراحة ، كان يجري في ٢٧ آذار الطواف الكبير للنهر حيث يفرق تمثال سيبييل (lavatio) وحسب رأي بعض الكتاب ، كان يحتفل بالمسارات الفردية في ٢٨ آذار ، فكان التلميذ المستجد يقدر بدم ثور أو كبش مضحي به (taurabolium et criobalium) وواضح ، ان الاضحية حلت محل القطع الذاتي للتلميذ ، لأن هذا كان يقدم للربة الأعضاء المولدة من الاضحيات . وكان مقبولاً في «غرفة الزوجية» (بانتوس ، كوبيكولوم) أو «تحت المذبح» بصفة زوج روحاني لسيبييل ، تماماً كالكاهن الذي يدخل في هذا المكان السري - المقدس لكي يقدم للأم البقايا من ختانه^(٢٧) .

وفىما يتعلق بالمسارة بمعنى الكلمة ، فإن الوثيقة الوحيدة التي نحوذها هي العبارة المذكورة من قبل كليمنت الاسكندري والتي استخدمت ككلمة مرور للملقنين : «لقد اكلت بالطلبة ، وشربت بالصنج ، وحملت بالكرونوس ، لقد دخلت تحت المذبح» [٢ - ١٥ بروترييت] وان المشابهة مع الستيميا le synthema لألوزيس هي واضحة (ف ٩٨ ع) ، ويمكن لها ان تفسر إما باستعارة من جانب أو آخر ، وإما بالاشتقاق بدءاً من صيغة عامة مستعملة في عدد من الاسرار في العصر الهلنستي . وهذه الصيغة تعود بالتأكيد للشعائر التلقينية . فالطلبة والصنج هما أداتان مفضلتان لسيبييل . وبما ان آتيس كان قد سمي «سنبلة القمح المحصورة خضراء» [فيلوز وفومينا ٥ - ٨] فمن المحتمل ان الوقعة أو الوجبة الطقوسية كانت تتألف أساساً من خبز وخمر ، وفي الواقع ان فيرميكوس ماتيرنوس قد فسرهما كمشابهة وموازية شيطانية وعززة للعشاء السري المسيحي cènechrétienne . أما الكرونوس kernos ، فمن الراجع في العبادة المسارية لآتيس ، ان هذا الاناء من الطين المشوي لم يكن يستعمل من أجل التقديم الغذائية وإنما من أجل تقديم أعضاء الثور الجنسية او أعضاء الكبش للأم (من تحت المذبح)^(٢٨) .

وكما سنرى ، فإن اسرار أتيس وسييل ، أقله بدءاً من تاريخ معين ، كانت وعدت الملقنين بالخلود . وهنا يقتضي التفحص عن قرب لدلالات الطقوس الرئيسية ، أي المحرمات من الأغذية والختان للكهنة . فالأديان الهيلنستية للأسرار ، رغم روحانيتها حافظت على عدد من العناصر القديمة . ويتعلق الأمر من جهة أخرى بمميز لحركات دينية تفرض المسارة الفردية . فأكّل اللحم النيء l'omophagie ، الشعيرة الديونيزية بامتياز ، كانت قابلة لاعادة تحيين تجربة دينية مميزة للصيادين البدائيين (ف ٩٩ع) . وبصورة عامة ، يمكن القول ان الحفلات ذات البنية المسارية تعيد اكتشاف بعض التصرفات القديمة وتعيد تقييم عدد من الأشياء الطقوسية البالية . ويمكن ان نعيد الى الذاكرة في هذا الصدد سكاكين الصوان المستعملة من أجل الختانات المسارية ، أو دور المعين (bull-roarer) Rhombe في الميتولوجيا والمسارة الأورفية ، أو الوظيفة الدينية للسر (ف ٩٩ع) .

إن الأسرار الهيلنستية تذكر بتصرفات طقوسية قديمة جداً - موسيقى متوحشة ، رقصات هيجانية ، انواع الوشم ، امتصاص نباتات للهلوسة - بهدف اجبار قرب الألوهية ، لابل الحصول على التوحد الروحي في اسرار أتيس ، وان الصيام المفروض على التلامذة يتألف أساساً في الامتناع عن الخبز^(٢٩) . لأن الاله هو «السنبلة المحصودة خضراء» وان الوجبة المسارية الأولى ترد في مجملها لتجربة القيمة القدسية للخبز وللخمر ، تجربة قلما تكون مقبولة لدى السكان المدنيين . اما بالنسبة لختان الكهنة ذاتياً وبعض المؤمنين اثناء ارتعاشاتهم الوجدية ، فتؤكد طهارتهم المطلقة ، وبعبارة أخرى عطاءهم الشامل للألوهة^(٣٠) . ان مثل هذه التجربة هي بصعوبة غير ممكنة التحليل ، وبأكثر من غرائز جنسية قل أو كثر عدم الشعور بها التي تحكم المتلقي ، فيجب ان يؤخذ في الحسبان الحنين الى خثوية androgynie طقوسية ، أو رغبة في مضاعفة احتياط من «قوى مقدسة» برهبانية صارمة أو مشهدية ، أو حتى من الارادة بأن يشعر بنفسه مطروحاً خارج الى التقليدية للمجتمع بإحتذاء ألوهية كلية . وفي آخر المطاف ، فإن عبادة أتيس وسييل جعلت من الممكن اعادة اكتشاف القيم الدينية للجنسية والألم الطبيعي والدم . إن الرعدات transes كانت تحرر المؤمنين من سلطة المعايير والاتفاقات؛

وفي معنى آخر ، كانت الاكتشاف للحرية .

إن الاتجاه لاثبات تجارب قديمة جداً كان متوازناً بالجهد من أجل «اعلاء» الزوج الالهي آتيس - سيبيل واعادة تفسير طقوسهما . وفي هذه المرة ايضا يهمننا ظاهرة خاصة بالتوفيقات الدينية المعاصرة : الارادة باستعادة الفضائل من الماضي السحيق والتمجيد معها للابداعات الأكثر حداثة . ان التفسير الديني ، المطبق بعناء من قبل اللاهوتيين وفلاسفة القرون الأولى للمسيحية ، طابق آتيس مع المبادئ ذاتها للخلق وللعملية الجدلية حياة - موت - عودة ولادة . ومع المفارقة ، فإن آتيس انتهى ليكون متمثلاً بالشمس وليصبح المركز للاهوت شمسي ، وغدا شعبياً حوالي نهاية الوثنية . ان الدلالة الأولى للمسارة - التمثيل الصوفي لالاه - قد أعني بقيم جديدة . وهناك نقش روماني من ٣٧٦ يعلن «يعاود الولاة للأبد» ذلك الذي ينجز التوربول والكريبوبول le Taurobole et le criobole^(٣١) . انه يتعلق ، احتمالاً ، بتأثير مسيحي ، ولكن الوعد «بالقيامة» أو «معاودة الولادة» كان مستتراً في السيناريو الاسطوري - الشعاري للهيلاريا Hilaria ومن الراجح ان لاهوتي الاسرار ، المجاهدين بنجاح البعثة المسيحية ، قد اشاروا بالحاح لفكرة الخلود ، كنتيجة للغفران المنجز من قبل آتيس . ومهما يكن من أمر ، فمن المؤكد ان الأباطرة الرومان ، وبخاصة الانطونيين الآخرين ، قد طرحوا بقوة العبادة الفريجية بأمل توقيف انطلاقة المسيحية .

٢٠٨ - ايزيس والاسرار المصرية

إن الأسرار المصرية تتميز عن التجمعات الدينية الأخرى المماثلة بواقعة معرفة أصلها ومراحل انتشارها في آسيا وأوروبا . ففي بداية القرن الثاني قبل المسيح قرر بطليموس سوتر ان يدعم حكمه بمساعدة ألوهة مقبولة كألوهة عليا في آن واحد من قبل المصريين ومن قبل الاغريق . وهكذا رفع سيرابيس = ساراريس الى مرتبة الشرف لاله وطني كبير - وحده - التقليد المنقول من قبل بلوتارك (ارسيد

٢ - ٨] فإن بطليموس رأى تمثال الاله في الحلم - وفي ٢٨٦ ق.م أو ٢٧٨ ق.م. حُمل تمثال الاله من سينوب واقيم في المعبد الذي شيد في الاسكندرية . ان الاشتقاق اللغوي لسيرابيس ووطنه الأصلي متعارضان ايضاً . وعادة يشتق اسمه من اوزيرابيس أي «اوزيريس - آبيس»^(٣٢) وفيما يتعلق بعبادته ، فإن بطليموس سوتير كلف مثقفين اثنين من اللاهوتيين لاقامة بنيته : الكاهن المصري مانيتون والاغريقي تيموتيه . الأول ، مؤلف لعدة مؤلفات ، من بينها تاريخ مصر ، وكان يعرف الثقافة الاغريقية جيداً ، والثاني عضو من اسرة شهيرة وكان ملقناً ومكرساً بعدة اسرار .

ان نجاح العقيدة الجديدة قد ضمن بفضل الاحترام المعتبر الذي كان يتمتع به ايزيس واوزيريس . وكما رأينا آنفاً (ف ٣٣ع) ، فإن اللاهوتيين في الامبراطورية الجديدة قد أحيوا تركيباً دينياً كبيراً بجمع اوزيريس ورع ، المعتبرين كمتكاملين ، وهذان الالهان انتهيا بتوحيدهما . وإن شعبية اوزيريس لم تتوقف عن التنامي لأنه كان الاله المصري الوحيد ، الذي ، اغتيل ، وانتصر على الموت و «أعيد احيائه» بفضل العناية من ايزيس وحوريس . في أبيدوس وأي مكان آخر ، كانت السيناريوهات الشعائرية الممثلة لمختلف المشاهد الاسطورية . قد شرحت أمام المعابد . وكان هيرودوت قد حضر مثل هذه الحفلات في سايس saïs ، وقد مائلها بالاسرار الاغريقية . وذلك هو السبب الذي من أجله تمتنع عن وصفها [٢ - ٦] ^(٣٣) . ومما لا شك فيه ان بعض الطقوس والشعائر الأوزيرية السرية ، المنجزة داخل المعابد كانت تتعلق بالحياة المستقبلية^(٣٤) . إلا أنه من المخاطرة تفسير هذه الطقوس السرية كحفلات مسارية حقيقية مطبقة لمنفعة فرد حي بقصد «سلامته» . من جهة أخرى ، يصعب الاعتقاد بأن لاهوتياً معتبراً كمانيتون لم يدخل في اسرار ايزيس تقاليد دينية أكثر قدماً . وعلى سبيل المثال ، أمكن اظهار أن اخلاقيات ايزيس لا تمثل تجديداً حديثاً ، وانما اعادت على العكس ، أخذ الصيغ الطقوسية القديمة ، ذات العلاقة مع الايديولوجية الملكية^(٣٥) . وازضافة لذلك ، وكما سنرى ، فإن اسرار ايزيس تحدد عدداً من الحفلات المطبقة في مصر القديمة .

وغير مجد هنا تلخيص تسلسل الأحداث والطوارئ الفجائية لانتشار العبادة خارج الحدود المصرية ، منتشرة بدئياً في آسيا الوسطى وفي اليونان ودخلت إلى إيطاليا في القرن الثاني ق.م وإلى روما في القرن الأول . وقد أصبحت العبادة المصرية شعبية لدرجة ان الرومان عارضوها مرة بعد اخرى بوحشية وصدر قرار مجلس السينا بتدمير معابدها . وكبقية الاسرار من العصر الهلنستي والامبراطوري فإن اسرار ايزيس وسيرايس تطلبت اعياداً عامة ، وعبادة يومية وطقوساً سرية ، مشكلة المسارة بكل معنى الكلمة . وفي خطوطها الكبرى يعرف النموذجان الاحتفاليان الأولان . اما بالنسبة للمسارة ، فإن شهادة ابولية *apulié* في تاسع كتاب من المسوخات ، معتبرة بحق ، كاثمن وثيقة من كل الأدب القديم حول الاسرار .

ان العيدين العامين الكبيرين كانا يعيدان ترتيب بعض المشاهد لاسطورة ايزيس واوزيريس . الأول ، القارب *Nvigium* أو «قارب ايزيس» وكان يفتتح الملاحه في الربيع . والثاني ابداع اوزيريس *l'inventio d'osiris* وكان يجري في ٢٩ تشرين أول الى أول نوفمبر . وفي أيام الصيام الثلاثة ، انتحابات وتمثيلات ايمائية مصورة البحث عن اوزيريس المذبوح والمقطع ، والطقوس الجنائزية المطبقة من قبل ايزيس (ف ٢٩ ع) وكان يتبع ذلك السرور وابتهاج المؤمنين ، عندما كان يعلن إليهم ان جسد الاله قد وجد ، واعيد تكوينه ، وعاود حياته^(٣٦) وكان يحتفل بالمهام اليومية من بعد الظهر . ومن الصباح كانت تفتح ابواب المقابر وكان المشاهدون يستطيعون تأمل تماثيل الآلهة ويشهدون العبادة المنجزة من قبل الكهنة .

وحسب ابوليه ، كان الكاهن في اليوم المحدد سلفاً من قبل الربة ينفخ بالماء التلميذ المتلقي ويوصل اليه «بالسر بعض الارشادات التي لم تكن مصنوعة من أجل الصوت البشري الغير جدير بها» . وبعدئذ ، وأمام كل الحضور ، يأمره ، بأن يتمتع ، خلال ستة أيام عن طعام اللحم والخمر . ومساء المسارة ، تقدم له عصبة المؤمنين هدايا مختلفة ، وبعدئذ ، يقاد من قبل الكاهن ، مرتديا جبة من الصوف ، في المعبد الصغير المنزل عن المعبد . «بدون ريب . قد تسألني

بحشرية ، أيها القارئ النابه ، لمعرفة ماذا يقال بالتالي ، وما صنع ؟؟ سأقوله لك ، اذا استطاعه هذا ، ستتعلمه اذا كان مسموحاً بسماعه [. . .] مع ذلك ، ان هذا قد يكون رغبة و تقية تملكك ، وكذلك لن اجعل عدم صبرك يدم طويلاً . اصنع اذن ، ولكن صدقني ، لأنني اقول الحقيقة ، لقد ادركت تخوم الموت ، داعسا برجلي عتبه ، لقد رجعت محمولا عبر العناصر . وسط الليل رأيت الشمس تتلألأ ، لقد استطعت تأمل وجهها لوجه ، آلهة الجحيم والآلهة السهاوية وقد عبدتها عن قرب» [ميت ٩ : ٢٣] .

تأكيداً ، انه يتعلق بتجربة موت وبعث ، ولكنه يجهل المحتوى المميز . ان التلميذ المتلقي ينزل الى الجحيم ويعود مجتازا العناصر الأربعة الكونية ، انه يرى الشمس مشعة في الليل ، صورة يمكن ان ترد الى اوزيريس - رع مجتازا اثناء الليل العالم ماتحت الارض ، انه يتقرب هكذا بالتالي من الآلهة الأخرى يتأملها ويعبدها عن قرب . لقد جرت محاولة للكشف في هذه الجملة الملغزة عن اشارات الى مسيرة المتلقي عبر غرف مختلفة مزينة بتمائيل آلهة وبصورة العالم الأرضي ، ومعلقة فجأة في غرفة مضاء بقوة . وبعض العلماء أثار تجارب الظاهرات النفسية الغير معروفة para psychologiques أو التنويم المغناطيسي l'isynpose . وفي الواقع ان كل ما يمكن التأكيد عليه هو ان التلميذ ينتهي لأن يشعر بأنه متهامي باوزيريس - رع أو حوريس . لأنه في الصباح ، مرتديا اثني عشر ثوبا شعائريا مرمزة للأبراج الاثني عشر ، يصعد التلميذ على منصة في وسط المعبد ، ورأسه محاط بتاج من النخيل . «هكذا ، ظاهراً على مثال الشمس موضوعاً هنالك كتمثال» . ويبدو على أعين الجمهور ، من امام تمثال ايزيس . وبالنسبة لبطل المسوخات ، كان هذا اليوم «يوم الذكرى السنوية لاعادة ولادته في حضن الاسرار» .

وفي اليوم الثالث ، كانت المسارة تتم بمأدبة طقوسية . مع ذلك ، وبعد سنة ، بناء على طلب الربة ، كان المتلقي يقيم في «الاسرار الليلية للاله الأعلى» [٩ - ٢٨] حفلة هي على ما يحتمل ذات علاقة مع ابداع اوزيريس . وأخيراً فإن رؤية جديدة للربة ، تقضي بمسارة ثالثة ، ولكن أبوليه ، لم يكشف شيئاً ، حول هذه الامتحانات المسارية الأخيرة .

وكما رأينا (ف ٣٣ ع) ، في مصر القديمة كان يؤمل بتطابق بعد الموت مع اوزيريس . ولكن المتلقي بواسطة مسارته في الاسرار كان قد تلقى ، هذه المطابقة الروحانية مع الاله ؛ وبعبارة اخرى ، فان الفرد الحي هو الذي كان قد «تأله» ، وليست الروح في شرطها بعد الموت . وكما ان اوزيريس أعيدت له الحياة بواسطة ايزيس ، فإن «تأله» المتلقي كان في الأساس عمل الربة . اننا نجهل «الحالة الوجودية» للتلميذ . ومع ذلك يبدو مؤكداً ان أي ملقن لم يكن يشك بمصيره المتميز ، بقربه من الآلهة ، بعد الموت . وفيما يتعلق بالمسيرة بمعنى الكلمة ، اذا عدنا فيها الى ادوات الوصل ، فإن معلومات أبولييه تسمح لنا بفهم البنية التوفيقية للعبادة الجديدة . وتلعب العناصر المصرية دوراً هاماً : السيناريو الاسطوري - الطقوسي لايزيس وأوزيريس يستلهم العيدين العاميين وعلى الأرجح ، أقله في جزء منه ، الطقوس المسارية ، ورفع ايزيس الى صف الربة العالمية ، لابل الوحيدة ، واوزيريس الى فضيلة الاله الأعلى ، يحدد الاتجاه ، المؤكد سابقاً في العصر القديم (ب ٣٣ ع) : بترقية آلهة مختلفة إلى أعلى مستوى . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن هبوط التلميذ الى الجحيم وصعوده عبر العناصر الكونية يتكرر للمفهوم الهلنستي بصورة متميزة .

ان الشعبية الكبرى للأسرار المصرية في القرون الأولى من العصر المسيحي ، وواقعة ان بعض ملامح الايقونات وميتولوجيا العذراء مريم قد استعيرت من ايزيس ، تدل على تعلق ذلك بابداع ديني رسمي وليس بانبعاثٍ مصنع ومستهلك . ويجب اعتبار آلهة الأسرار كتجليات جديدة لايزيس وأوزيريس . وما هو أكثر من ذلك ، تلك التفسيرات الهيلنستية التي ستتطور من قبل اللاهوتيين الارفيين الجدد والأفلاطونيين الجدد . ان اوزيريس الممثل بديونيزوس (الذي هو ايضاً قد قتل وقطع وبعث) اوضحت باعجاب التيولوجيا الاورفية الجديدة : النشكونية المدركة كتضحية ذاتية للألوهة ، مثل تبعثر الواحد في التعدد ، المتبوع «بالبعث» أي بتجمع المتعدد في الواحد الأولي (٣٧) .

ان التطابق المتبادل لكافة الآلهة يصل الى «وحدانية» من نوع توفيقى ، اثير لدى اصحاب النزعة الصوفية التي ترمي للاتحاد بالرب في العصر القديم

الأخير . وما له دلالة ان مثل هذه الشمولية «التوحيدية» تمجد بخاصة الآلهة المثيرة للشفقة بامتياز امثال ديونيزوس واوزيرس . وفيما يتعلق بإيزيس واوزيرس ، فإن تفسيراتها الأخيرة واعادة تقييمهما من قبل لاهوتي الأسرار ومن قبل الفلاسفة الافلاطونيين الجدد ، الذين كانوا معتبرين ، خلال قرون من الزمن ، كمنيرين للحقيقة ولأعمق ، عبقرية دينية مصرية^(٣٥) .

٢٠٩ كشف هرمس المثلث العظمت

تحت اسم الهرمسية ، تدرك مجموعة المعتقدات ، والأفكار والتطبيقات المتنقلة في الأدب الهرمسي . والمقصود بذلك مجموعة النصوص ذات القيمة غير المتساوية المحررة بين القرن الثالث قبل وبعد المسيح . ويميز عادة بين صنفين منها : الكتابات العائدة للهرمسية الشعبية (فلك - سحر - علوم خفية ، كيمياء) والأدب الهرمسي العلمي ، وبالدرجة الأولى منه ، السبعة عشر اطروحة باللغة اليونانية ، للمدونة الهرمسية corpus Hermeticum^(٣٩) . ورغم اختلاف القصد والمحتوي والانشاء ، فإنه يوجد بين المجموعتين نصوص فيها بعض الوحدة في القصد ؛ وهذا مايعيد الى الذاكرة العلاقات بين التأوية الفلسفية والتأوية الشعبية (ف ١٣٣ع) أو الاستمرارية بين العبارات «الكلاسيكية» و «الشاذة» baroques لليوجا . وحسب التسلسل التاريخي فإن النصوص الهرمسية الشعبية هي الأكثر قدما ، وبعضها يرجع حتى القرن الثالث ق.م . أما بالنسبة للهرمسية الفلسفية ، فقد تفتحت بخاصة في القرن الثاني بعد المسيح .
وكما كان متوقعا ، فإن هذا الأدب ، يعكس قليلاً أو كثيراً التوفيقية اليهودية - المصرية (اذن بعض العناصر الايرانية كذلك) وكان يعرف اضافة لذلك تأثير الافلاطونية ، الا انه بدءاً من القرن الثاني ق.م أصبحت الثنائية الغنوصية هي السائدة .

«بممثليه ، وديكوره ، وأساطيره ، يبدو الأدب الهرمسي مصرياً . هذا الادعاء ، أقله بالنسبة لبعض النصوص القديمة ، يركز على بعض المعرفة لمصر

البطلمية أو الرومانية ، معرفة لا يسوغ مطلقاً سوء تقدير حقيقتها^(٤٠) .
 فالشخصيات (توت ، اغاتوديمون ، وآمون الخ) والتزيينات (ديكورات)
 لمفيس ، وطيبة ، وهرموبوليس ، وسايس واسوان الخ) وبعض بواعث
 التيولوجيا الفرعونية (على سبيل المثال ، يزوغ الأكمة البدئية في طيبة أو
 هرموبوليس) ، والتآلف مع التقاليد المصرية القديمة^(٤١) . كل ذلك يشكل
 علامات يجب اخذها في الحسبان . ان تطابق توت مع هرمس كان معروفاً سابقاً
 من قبل هيرودوت [٢ : ١٥٢] . وبالنسبة للكتاب من العصر الهلنستي ، فإن
 ثوت كان المعلم لكل العلوم ، ومخترع الميروغلفية وساحر كبير . لقد كان خلق
 العالم بالكلمة ، وعليه طابق الرواقيون هرمس باللوغوس logos^(٤٢) .

والكتابات الهرمسية الشعبية لعبت دوراً هاماً في العصر الامبريالي .
 بدئياً ، بخاصيتها «البضعية» opératoire : الى عصر مرعب بالقدرة الكلية
 للقدر ، كشفت هذه النصوص «اسرار الطبيعة» (مبدأ التشابه ، وعلاقات
 «التجاذب» بين مختلف المستويات الكونية) ، والتي بفضلها احتاز المجوس le
 magus قواهم السرية . حتى القدرية النجومية امكن لها ان توضع موضع
 الفائدة . وفي واحدة من الكتابات الفلكية ، الليبرالهرمسي le Liber
 Hermetis^(٤٣) ، لا توجد أية اشارة لمسألة الموت والحياة المستقبل ؛ وما اهتم به ،
 كان الوسائل للعيش سعيداً على الأرض . مع ذلك فالمعرفة ، اذن تطويع
 الطبيعة ، كان قد غدا ممكناً بالالوهة . «لأنه يتعلق باكتشاف شبكة تامة من
 التجاذبات والتنافرات التي تمسك بها الطبيعة بسرية ، وكيف تخترق هذه السرية
 اذا لم يكشفها إله ؟؟»^(٤٤) وبالنتيجة فإن العلم من نوع هرمسي يشكل في آن
 واحد سراً ونقلًا مساريًا لهذا السر ، ومعرفة الطبيعة تتحصل بالصلاة والعبادة أو ،
 على مستوى ادنى ، بالاكرام المحجري^(٤٥) .

في هذا المجموع corpus العديم الشكل من متحصلات سحرية ومعالجات
 متعلقة بالسحر الطبيعي والعلوم الخفية ، تصادف أحياناً مفاهيم مميزة للأدب
 العلمي . وفي الكوركوزمو kore Kosmeu (١٤ - ١٨) ، ان خلق الأرواح
 موصوف كعملية كيميائية . والصلاة التي تحقق منها أسليبيوس Asclepius ستوجد ،

في الاغريقية ، في حصيلة سحرية . وان الأهمية لهذا الادب الهرمسي «الشعبي» لا يجوز ان يساء تقديرها . فقد ألهم وغذى التاريخ الطبيعي لبلين pline الكتاب الشهير في القرون الوسطى فيزيولوجيا physiologus وعلمه الكوني sa cosmologie وافكاره الرئيسية (مبدأ التجاذبات والتواصلات وفي المحل الأول منها الصلة بين الأكبر والأصغر) عرفت نجاحا بارزاً منذ بداية القرون الوسطى حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ونجدها ليس حسب لدى الافلاطونيين الايطاليين ولدى الباراسيلز paracelse وانما ايضا لدى علماء مختلفين امثال ، جون دي ، واشمول ، وفلود ونيوتن^(٤٦) .

وتماما كمنظومة النصوص الشعبية ، اعتبرت الكتابات المؤلفة للأدب الهرمسي العلمية وكأنها مكتشفة من قبل هرمس مثلث العظمت . وتختلف هذه الاطروحات بنوعها الأدبي ، وبخاصة بمذهبها وقد لاحظ بوسيه Bousrt في سنة ١٩١٤ أن المجموعة الهرمسية corpus Hermelicum تقدم لاهوتين لا يمكن التوفيق بينهما ؛ أحدهما متفائل (من نوع توحيدى - حلولى moniste-pantheiste) والآخر متشائم ، مميز بشائية قوية . فبالنسبة للأول ، أن الكون جميل وخير ، لأنه مخترق بإله^(٤٧) فبتأمل جمال الكون ، يتوصل للألوهة . والاله ، الذي هو في آن واحد ، الواحد ، والكل ، هو خالق ، ويدعى «أب» والانسان يشغل المكان الثالث «من التثليث ، بعد الاله الكون . ان رسالته هي «في تأمل وعبادة الأشياء السماوية ، ومعالجة وإدارة الاشياء الأرضية» (axlepiens ٨ ع) . وفي آخر المطاف ، ان الانسان هو المكمل الضروري للخلق ؛ انه «الكائن الحي القابل للموت ، زينة الكائن الحي الخالد» [ك . هـ . ٤ - ٢٢] .

وعلى العكس من هذا ، المذهب التشاؤمي ، ففيه ان العالم هو بالأساس سيء ، «انه ليس صنعة الاله ، وعلى كل حال الاله الأول ، لأن هذا الاله الأول كائن بلا نهاية فوق كل مادة ، انه خفي في سر كينونته : فلا يمكن اذن ادراك الاله الا بالهرب من الكون ، وعليه يتوجب السلوك هنا كغريب»^(٤٨) . ونعيد الى الذاكرة ، على سبيل المثال ، تكوين العالم والمأساة المثيرة للشفقة للانسان حسب

الرسالة الأولى من المجموعة ، البوامندريس le poimandrès : العقل الأعلى خشي
نوس nous ، انشأ في البدء خالقاً Demiurge أنشأ العالم ، وبعدئذ الشكل
البشري p'Anthropos الانسان السهاوي ، وهذا الأخير نزل في المحيط الأدنى
حيث «مخدوعاً بالحُب» اقترن مع الطبيعة (فيزيس physis) وولد الانسان
الأرضي . ومنئذ ، انقطع الشكل البشري الالهي عن الوجود لشخص متميز ،
لأنه أحيا الانسان : حياته تحولت للروح البشرية ونوره لنوس en nous .
ومن أجل هذا ، فالانسان وحده بين الكائنات الأرضية هو في آن
واحد فان وخالد ، مع ذلك بمساعدة المعرفة ، يستطيع الانسان ان «يصبح الها» .
وهذه الثنائية ، التي تبخس العالم والجسد ، تشير الى الهوية بين الالهي والعنصر
الروحي للانسان ، وتما كالألوهة ، تتميز النفس الانسانية (نوس nous) بالحياة
وبالنور . وبما ان العالم هو «كلية الشر» [ن . هـ - ٤ - ٤] فإنه يجب ان يعود «غريباً»
للعالم [٨ - ١] بهدف إكمال «ولادة الألوهية» [٨ - ٧] ، وعلى ذلك ، فإن الانسان
المجدد يحوز جسداً خالداً ، لأنه «ابن الله ، الكل في الكل» [٨ : ٢] .
هذا اللاهوت ، المتضامن مع تشكونية ومع نظرية انتقادية متميزتين ، هو ذو
تكوين غنوصي (عرفاني) بامتياز (٢٢٩ع) . غير أنه سيكون من الغفلة ربط
الاطروحات الهرمسية المتوازعة للثنائية وللشأونية ، بالغنوصية . فبعض العناصر
الميتولوجية والفلسفية من نموذج (غنوصي) تشكل جزءاً من زيتجست Zeitgeist
العصر : وعلى سبيل المثال ، احتقار العالم ، والقيمة الانتقادية لعلم أولي المكشوفة
من قبل إله أو كائن فوق البشر ومنقولة تحت علامة السر . ويضاف إلى ذلك أن
الأهمية الحاسمة المعطاة للمعرفة ، المنقولة بطريقة تلقينية سرية لبعض التلامذة تذكر
بالتقليد الهندي (للأوبانيشاد ، والسامكهيا والفيدانتا ، تماماً كما ان «الجسد الخالد»
للانسان المتجدد يمثل مشابهاً مع الهاتايوجا والتاوية والكيميائيات الهندية
والصينية .

٢١٠ - مظاهر تقليدية للهرمسية

اعتبر بعض العلماء الهرمسية كأخوة Confrerie دينية بالمعنى الأصلي ، مع
عقائدها وشعاراتها ، ولاهوتها ، بحيث أن المدونة الهرمسية تؤلف كتابها المقدس .

وبعد بوسيه Bousset وكروول وكيمنت يرفض فيستوجريير R.P.Festugière هذه الفرضية ، بدنيا ، ان حضور المذهبين المتعارضين للذين لا يمكن التوفيق بينهما متعارض مع دلالة أخوة مشكلة من قبل «جماعة من الناس اختاروا بحرية نظاماً للفكر والحياة» ، وبالتالي ، لا يوجد أثر ، في الأدب الهرمسي «لحفلات خاصة للمؤمنين بهرمس . ولا شيء يشبه تقديسات المذاهب الغنوصية : فلا تعميم ، ولا تناول قربان أو مشاركة ، ولا اعتراف بالذنوب ، ولا وضع الأيدي لتكريس كهنة لعقيدة . ولا رجال دين ولا أي مظهر لتنظيم التسلسل التراتبي لدرجات التلقين . وليس هنالك تمييز لسوى طبقتين من الأفراد : أولئك الذين يصغون للكلام وأولئك الذين يرفضونه . وعليه فإن هذا التمييز قد غدا مبتذلاً ، وأدخل في الادب ، أقله منذ بارمينيد parménide (٤٩) .

مع ذلك ، اذا لم تفرض فرضية الكونفريرية السرية ، المنظمة تراتبياً ، نفسها ، فإن الأبحاث الكبرى العلمية تفترض وجود مجموعات مغلقة ، مشاركة بمسيرة يمكن مقارنتها بمجموعة الكيمائيين والتانترিকা des Tantrikas . وهو يتعلق ، فيما لو أخذنا عبارة اسلكيوس Asclepius (ف ٢٥ ع) بديانة مكذوبة religio mentis : اله «يتلقى اضحيات روحية طاهرة» [ك . هـ ١ - ٣] . وعلى كل فقد كشف عن مناخ ديني مميز وعن بعض المعطيات الطقوسية : الزملاء يتجمعون في معبد ؛ انهم يحترمون قاعدة الصمت ويحافظون على السر حول الكشوفات ؛ والتعليم الديني بالحديث catéchese يكتمل مع رصانة احتفالية ، والعلاقات بين المعلم وتلامذته لها صدى ديني . واسطورة التعميد في باطية تدل على المؤلفعة مع طقوس الاسرار (٥٠) . ويمكن كذلك افتراض المعرفة ببعض الممارسات الهادفة للوجد : هرمس يقص على تلميذه تات Tat تجربة وجدية ، يدخل من بعدها في «جسد خالد» وينجح تات في تقليده [ك . هـ ١٣ : ٣] .

ويمكن القول اننا امام نوع جديد من اتصال الحكمت الباطنية . فخلافاً للجمعيات المغلقة المتعلقة بتنظيم تسلسلي ، هنالك طقوس تلقينية وكشف متزايد لمذهب سري ، الهرمسية ، وتما كالكيمياء ، يُدخل فقط عدد من النصوص المظهرة ، المنقولة والمفسرة من قبل «معلم» لبعض التلامذة المحضرين بعناية (أي

جعلوا «طاهرين» بالتنسك ، والتأمل وبعض الممارسات الطقوسية) . ولا يجب اغفال ان الكشف المحتوى في الابحاث الكبرى للمدونة الهرمسية يشكل عرفانا (غنوصاً) أعلى ، هو بصورة خاصة العلم الباطني الضامن للسلامة ؛ والعمل البسيط ليفهم ويتمثل . معادلاً «المسارة»^(٥١) . وهذا النموذج الجديد من «المسارة» الفردية والروحية بنقاء ، اصبح ممكناً بالقراءة الواعية والتأمل لنص باطني ، وقد انتظم في العصر الامبريالي ، وبخاصة بعد انتصار المسيحية . وهذه هي النتيجة ، من جهة ، للاحترام البارز الذي تمتعت فيه «الكتب المقدسة» المشهورة بأنها من مصدر الهي ، ومن جهة أخرى ، بعد القرن الخامس المسيحي ، لزوال الأسرار وانكشاف تنظيمات سرية أخرى . وفي المنظور لهذا النموذج الجديد من المسارة ، لم يُدخل نقل المبادئ الباطنية أبداً «سلسلة مسارية» ؛ وربما كان النص المقدس قد نسي خلال قرون ، ويكفي ان يكتشف من قبل قارئ جدير لكي تغدو رسالته غير معقولة وراهنه .

إن نقل الهرمسية يشكل فصلاً مثيراً في تاريخ الباطنية : لقد انجز عبر آداب سورية وعربية syria que etarabe ، وبخاصة بفضل السابين في حران ، وفي ميزوبوتاميا (بلاد ما بين النهرين) ، والتي استمرت في الحياة في الاسلام حتى القرن التاسع^(٥٢) . وإن بحوثاً حديثة قد كشفت بعض العناصر الهرمسية في البارسيغال دي ولغرام فون ايزنباخ le parzival de Wolfram von Eschenbach وفي عدة نصوص اسبانية من القرن الثالث عشر^(٥٣) . مع ذلك فإن «النهضة» الحقيقية للهرمسية في اوروبا الغربية قد بدأت مع الترجمة اللاتينية للمدونة الهرمسية ، مشروع من قبل مارسيل فاسان marsile Ficin بناء على طلب دي كوزم دي ميديتشي ، وقد اكمل في ١٤٦٤ . ولكن ، وكما سنرى (جزء ٣) ان اعادة اكتشاف المدونة الهرمسية يشكل بالفعل تفسيراً جديداً ، جريئاً وخلاقاً ، للهرمسية .

٢١١ - الكيمياء الهيللنستية

يُميز مؤرخو العلوم ثلاثة عهود في تكوين الكيمياء الاغريقية - المصرية^(٥٤) :

(١) عهد المحصلات التقنية المتعلقة بعمليات السبك للصبغة وتقليد الذهب (على سبيل المثال ، بابريات les papryai ليدن واستوكهولم ، التي ترجع في تاريخها للقرن الثالث ق.م) ؛ (٢) العهد الفلسفي ، المفتوح ، على الأرجح ببولوس دي منديس (القرن الثاني ق.م) والذي يبدو في الفيزيكا كي ميستيكا les physika kai myslika ، وهي بحث مزور منسوب الى ديموقريط ؛ (٣) واخيراً ، عهد الأدب الكيميائي بمعنى الكلمة ، وهو أدب ذوسيم Zosime (القرن ٣ - ٤) وشراحه (القرن ٤ - ٦) . ومع ان مسألة الأصل التاريخي للكيمياء الاسكندرانية لم تُحل بعد ، فإنه يمكن تفسير الظهور المفاجيء للنصوص الكيميائية حول العصر المسيحي وكأنه النتيجة للتلاقي بين التيار الباطني الممثل بالأسرار ، والفيشاغورية الجديدة ، والأورفية الجديدة ، والتنجيم ، «الحكمات الشرقية المكتشفة» والغنوصية الخ . . . تيار باطني كان بخاصة من عمل اشخاص مثقفين ، من الانتلجنسيا - وبين التقاليد «الشعبية» ، الحارسة لاسرار الصنعة وانواع السحر والتقنيات من عصور قديمة جداً . وثمة ظاهرة مشابهة تلاحظ في الصين مع التاوية والتاوية الجديدة ، وفي الهند مع التانتريسم والهاتا - يوجا . وفي عالم البحر المتوسط ، مدت هذه التقاليد «الشعبية» حتى العصر الهيللنستي معطى روحياً من بنية قديمة . وكما رأينا «ف ٢٠٩ ع) ، فإن الفائدة المتنامية بالنسبة للصبغات والعلوم التقليدية الخاصة بالمواد ، والحجارة الكريمة ، والنباتات ، تميز كل هذا العهد من العصر القديم .

فما هي الاسباب التاريخية التي يجب ان نعزو اليها ولادة التطبيقات الكيميائية ؟ لن نعرف هذا مطلقاً بلا ريب ، ولكن من المشكوك فيه ان الكيمياء قد تكونت في انتظام مستقل منطلقاً من محصلات لتحويل المعادن الى ذهب أو تقليد الذهب . وقد كان الشرق الهيللنستي ورث كل هذه التقنيات المعدنية من بلاد ما بين الرافدين ومن مصر ، ومعروف انه منذ القرن الرابع عشر قبل المسيح ، كان سكان ما بين الرافدين أتقنوا معالجة الذهب . وإرادتهم بوصل انتظام دام الف سنة في العالم الغربي ، بالجهود المبذولة لتزييف الذهب ، هو نسيان للمعرفة الخارقة التي كانت لدى القدامى عن المعادن وعن اعمال السبك ؛ وان هذا ايضا هو سوء تقدير لامكانياتهم العقلية والروحية . ان التحويل ، كهدف اساسي للكيمياء

الهيلينستية ، لم يكن ابداً ، في الحالة المعاصرة للعلم ، نوعاً من الضلال ، لأن وحدة المادة كانت منذ بعض الوقت عقيدة من الفلسفة الاغريقية . الا أنه من الصعب الاعتقاد ان الكيمياء قد خرجت من تجارب مشاريع لتصحيح هذه العقيدة وللبرهان تجريبياً على وحدة المادة . ويبدو شيئاً ان تتخذ تقنية روحية ومذهب ديني للانقاذ مصدرهما في نظرية فلسفية .

ومن جهة اخرى ، عندما تطبق الروح الاغريقية على العلم ، فإنها تدل على معنى فوق العادة من الملاحظة والتعقل . وعليه ، فإن ما يصدمنا بقراءة نصوص الكيمياء الاغريقية ، انما هو فقدانها للفائدة بالنسبة للعناصر الطبيعية - الكيميائية ، أي الغياب الفعلي للروح العلمية .

وكما لاحظ شرودد تايلور sherwood Taylor : «كل الذين كانوا استعملوا الكبريت لم يستطيعوا ملاحظة الظواهر المثيرة التي تنتج بعد اذابته والتسخين المتتالي للسائل . وعليه ، ومع ان الكبريت مذكور مئات المرات ، لم تجر اشارة لواحدة من خصائصه خارج تأثيره على المعادن . وهنا يوجد هذا النوع من التضاد مع روح العلم الاغريقي الكلاسيكي ، الذي يوجب الاستنتاج منه أن الكيميائيين لم يكونوا معنيين بالظواهر الطبيعية التي لم تخدم أهدافهم . ومع هذا ، فإنه من الخطأ ان لا يرى فيهم سوى باحثين عن الذهب ، لأن اللهجة الدينية والصوفية ، وبخاصة في المؤلفات المتأخرة ، تتوافق بشكل سيء مع نفسية الباحثين عن الثروة [. . . .] . ولن نجد في الكيمياء أي طعم لعلم [. . . .] . فلم يستعمل الكيمياء أبداً اجراءات علمية»^(٥٥) . ان نصوص الكيميائيين القدامى تظهر «ان هؤلاء الرجال لم يكونوا ابداً معنيين بصنع الذهب ولم يتكلموا في الحقيقة عن الذهب الحقيقي . إن الكيميائي الذي يتفحص هذه المؤلفات يتأكد له ذات الانطباع الذي يريد ماسوني استخراج معلومات عملية من مؤلف في الماسونية - الحرة» [شيرود تايلور ، ص . ١٣٨] .

فاذا لم يكن من الممكن للكيمياء اذن ان تتولد عن الرغبة في تمويه الذهب محاولة الذهب كانت معروفة على الأقل منذ اثني عشر قرناً) ولا من تقنية علمية

اغريقية (رأينا فقدان منفعة الكيميائيين بالنسبة للظواهر النفسية - الكيميائية بصفتها كذلك) ، فنحن مكرهون للبحث من جهة أخرى عن «الأصول» لهذا النظام الفذ . وأكثر من النظرية الفلسفية لوحدة المادة ، هي على الأرجح المفهوم القديم للأرض - الأم حاملة المعادن - الجنين (ف - ١٥ع) التي بلورت الايمان في تحول اصطناعي ، أي محدث في مخبر . فهذا هو التلاقي مع الرمزيات ، والميتولوجيات وتقنيات المعادن ، والسباكين ، والحدادين ، التلاقي الذي ، على الأرجح ، وقت العمليات الكيميائية الأولى . غير أن الاكتشاف التجريبي ، وبخاصة ، للمادة الحية ، كما كانت قد شعر بها من قبل الصناع ، أوجب لها ان تلعب دورها الحاسم . وفي الواقع ان المفهوم لحياة معقدة ومساوية للمادة هو الذي يشكل أصولية الكيمياء بالنسبة للعلم الاغريقي الكلاسيكي . وهذا المفهوم مؤسس على افتراض ان التجربة للحياة المساوية للمادة غذا يمكننا بمعرفة الاسرار اليونانية - الشرقية .

إن سيناريو «الآلام» ، «لموت» و «لبعث» للمادة تأكد منذ البداية في الأدب الكيميائي الاغريقي - المصري . وان تحول المادة l'opus magnus الذي يصل الى الحجر الفلسفي ، يتحصل بإمرار المادة بأربعة اطوار ، معينة ، بوظيفة الألوان التي يأخذها المقومون ، ميلانزيس (اسود) ، ليكوزيس (ابيض) كزانتوزيس (اصفر) وايوزيس (أحمر) . فـ «الأسود» يرمز إلى «الموت» . ولكنه يحسن الإشارة: الأطوار الاربعة للأوبوس l'opus سبق ان تأكدت في الفيزيكاكي ميستيكا les physika kai mystika المزورة عن ديموقريطس ، اذن في أول الكتابة الكيميائية (القرن ٢ - ١ ق.م) . ومع مفارقات لا حصر لها ، فإن الأطوار الأربعة (أو الخمسة) للعمل (نيغريدو) ألبيدو ، سيترينيتاس ، روبيدو ، وأحياناً فيريديتاس ، وأحياناً كودا بافونيس) استمرت عبر كل تاريخ الكيمياء العربية والغربية .

ويوجد أكثر ايضاً : ان الدراما الصوفية للاله - آله ، موته ، بعثه - هي التي طرحت على المادة لتحويلها . وبالإجمال ، فإن الكيميائي يعالج المادة كما كانت الألوهة تعامل في الأسرار : المواد المعدنية (تنألم) (تموت) (تعاود الولادة) بطريقة أخرى من التكون ، أي انها تتحول . ويقدم زوسيم (مؤرخ اغريقي من القرن

الخامس) في بحث له عن الفن [٣ - ١ - ٢] رؤية كان حصل عليها في الحلم : شخصية باسم إيون Ion يكشف بأنه كان قد اخترق بسيف ، وقطع الى قطع ، وقطع رأسه ، وسلخ وحرق في النار - انه تحمل كل هذا «من أجل ان يستطيع تغيير جسده الى روح» ويتساءل زوسيم بعد استيقاظه عما اذا كان كل مارآه في الحلم لا يتعلق بتقدم الكيمياء من خلط الماء ، وعما اذا كان إيون ليس هو الوجه ، والصورة النموذجية للماء . وكما أوضح جونغ yung فإن هذا الماء هو الماء الدائم l'aqua permanens للكيميائيين و «لعذاباتهم» بالنار المناسبة لعملية الفصل separatio^(٥٦) .

ويلاحظ بأن وصف زوسيم يذكر ليس بتقطيع ديونيزوس «وألهة أخرى ميتة» للأسرار (حيث «الأم» هو على مستوى ما ، قابل للمقارنة بمختلف حالات دورة نباتية ، خاصة عذابات ، موت وبعث «روح القمح») ، ولكنه يقدم مشابهاة اخاذة مع الرؤى المسارية للشامان ، وبصورة عامة ، مع المخطط الأساسي لكل المسارات القديمة . ففي مسارات الشامانيين ، مع ان المحن التي تتحمل «بحالة ثانية» هي أحيانا على درجة بالغة من القسوة : يشهد شامان المستقبل في الحلم تقطيعه الخاص إلى قطع ، وقطع رأسه وموته^(٥٧) . وإذا أخذنا في الحسبان شمولية هذا المخطط التلقيني ، ومن جهة أخرى ، التضامن بين عمال المعادن ، والحدادين ، والشامانيين ، وإذا نظرنا ان الكونفريرات القديمة ، للبحر المتوسط والمعدنيين والحدادين كانوا يتصرفون ، على الأرجح ، بأسرار خاصة بهم ، اذا لاحظنا كل هذا ، نصل الى اقامة رؤى زوسيم في الشمول الروحي الخاص للمجتمعات التقليدية . وللغور ، يقاس التجديد الكبير للكيميائيين : لقد ألقوا على المادة الوظيفة المسارية للمعانة . ويفضل عمليات كيميائية ، مماثلة «للعذابات» ، و «للموت» و «للبعث» للتلميذ ، فإن المادة متحولة ، أي تحصل على طريقة تكون متصاعدة : تأتي من «الذهب» . فالذهب ، كما هو معلوم ، هو رمز الخلود . والتحول الكيميائي يعادل اذن كمال إعادة^(٥٨) . وبالنسبة للكيميائي ، لا كمال «مسارته» .

لقد كان ينظر للمعادن والركاز ، في الثقافات التقليدية ، كأعضاء

حية : وكان يجري الكلام عن حملها وغموها واعادة تولدها ، ويجري الكلام ايضا حتى عن زواجها (ف ١٥ع) وتبنى الكيميائيون الاغريق الشرقيون كل هذه المعتقدات القديمة وقيموها . فالامتزاج الكيميائي للكبريت والزئبق قد يعبر عنه دوما بالفاظ « الزواج » . ولكن هذا الزواج هو ايضا اتحاد صوفي بين مبدئين كونيين . فهنا التجدد في المنظور الكيميائي : حياة المادة لم تعرف بمصطلحات حيوية كما في تصور الانسان القديم ، ولكنها اكتسبت بعداً روحياً ؛ وبعبارة اخرى : ان المادة بتسئمتها المعنى المساري (التلقيني) للمأساة والمعاناة ، تتقلد ايضا مصير الروح . فـ « التجارب المسارية » التي هي على مستوى الروح ، تصل الى الحرية والتنور والخلود ، وتقود على مستوى المادة الى التحول للحجر الفلسفي . ويمكن مقارنة هذا التقييم الجريء بسيناريو اسطوري - طقوسي قديم جدا (حمل وغمو المعادن في رحم الأرض - الأم ؛ الفرن المثل برحم طقوسي جديد ، حيث ان المعدن يكمل حمله ، ابدال المعدن والخبير بالمعادن بالأرض الأم لتسريع واكمال «النمو» للمعادن) . يمكن مقارنته «بتحول» الطقوس القديمة الزراعية بديانة اسرار ، وستشمن فيما بعد نتائج هذا الجهد من أجل «اعطاء الروح» للمادة ، «لتحويلها» (٥٩) .

حواشي الفصل السادس والعشرين

- ١ - على سبيل المثال ، ان رفع إله تقليدي الى صف الهه حامية للأسرة المألحة : ابولون بالنسبة للسلوقيين ، زوس بالنسبة للابيدوس ، اتينا بالنسبة للآثينيين . وإن تألية الحكام والعبادات التوفيقية للدولة - على سبيل المثال ، سيرابيس في مصر البطلمية تطلعت لذات الهدف .
- ٢ - ثارن - الحضارة الهيلينية ٣٤٨٧
- ٣ - ان الرواقين انهمكوا بتصحيح عدم الاخلاقية الفلكية ، وقد فسروا العناية الالهية كأنه الخير الذي يأخذ حسابه من الاخلاق وفي الواقع ان العناية الالهية هي التي خلقت النجوم . ومن جهة اخرى تجب الإشارة انه تبعاً لحسابات فلكية منجزة من قبل البابليين ، فإن تاريخ العالم كان منذئذ مقسماً لأدوار وازمات محكومة بالمذنبات ، وهذه الرؤية الجديدة الكوزمو- تاريخية تلهم بعض الايحاءات الآخروية (الرؤية اليهودية (٢٠٢٥) ع . العصر الذهبي المنعش من قبل اغسطس بنهاية الحروب الدينية الخ . .
- ٤ - ٥ الخط ليس له قوة ضد أولئك الذين يخدمون ويمجدون ايزيس ، والغنوصيون ليسوا أبداً بسجناء fatun لأن النفس (نرس nors هي سيدة القدر .
- ٦ - ١٦ - اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف .
- ١٧ - بويانسيه ص ٤٤ مشاهد مسارية اخرى محللة من قبل توركان الساركوفاج ص ٤٠٢ . ان الفريسك الشهير (لفيلا دي ميثيري) في بومباي ترتبط بوضوح بعبادة ديونيزيسية . ولكن خلافاً لرأي أولئك الذين رأوا في الفريسكات مشاهد مسارية ، فإن بعض الكتاب يظن انها لا تكشف اسراراً ولا توضح الاسطورة للاله ولا المراحل للمسارة
- ١٩ - « مفهوم التقمص palingenesie وفكرة ان الها جديدا هو اله لاصلاح دوري لم تكونا أبداً مفاهيم واضحة القرابة مع تلك التي كانت ادخلت التناوب للتجليات وغييات الاله الذي كان

قد تظاهر برجعاته ، السنوية وكل عدة سنوات . وعلى مخطط المدة الكونية يترك هذا المفهوم ليتوضع بسهولة تحت شكل دورة من الرجوع على درجات كونية كذلك» .. توركان - (النواويس sacrophages ص ٣٩٤

٢١ - هذا المشهد يذكر بالاسطورة الحورية - الحثية : كوماربي (أب الآلهة) لقح بمنية صحرة . (فقرة ٤٦)

٢٢ - نانا تجل آخر للآم (اي جاديشي)

٢٣ - تبعاً لرأي آخر ، أتيس قتل من قبل خنزير بري ، تقليد قديم لأن هيرودوت [١ - ٣٤] رواه تحت شكل بشرية الآلهة

٢٤ - المراجع - هبدن . غايو . الخ .

٢٥ - المعلومات المتعلقة بالتقويم للاعياد متأخرة (القرن ٣ - ٤ بعد المسيح) .. ويحسن تقديم بنية العقيدة في أوجها .

٢٦ - عدد من الكتاب روى لهذا المشهد مقطعاً من الكاتب المسيحي فيرميكوس ماثيرونوس (القرن ٤) واصفاً الانتحابات الليلية حول تمثال الهي موضوع على محفة . فجأة يحضر النور وكاهن يواسي المؤمنين : «أيها الشجاع ، النساك ، الآلهة منقذ ، بالنسبة لكم أيضاً الآلام تأتي لتحيته» . ولا يحدد بدقة ماثيرونوس من أي عقيدة تتعلق ، ولكن وضعه يبدو أكثر توافقاً مع اوزيريس . ولا يسنى انها يوجد مشابهة بين عدد من الاديان في هذا الموضوع .

٢٧ - هيدينغ ص ١٩٠ حسب شرح آخر البانتوس le pantos (لغويا «مخدع الربة» كان مغارة أو مكاناً تحت الأرض في المعبد ذاته أو في الجوار ، باختراق التلميذ له ينجز نزولاً للجحيم ، ويحسن ان يضاف بأنه في زمن الامبراطورية كان يمكن للتوربوليوم وللريبوليوم ان ينجزا في كل الفصول ، وكان يحتفل بها من أجل صحة الامبراطور .

٢٨ - ٢٩ اسماء المراجع

٣٠ - انظر الملاحظات لميشيل ميسلين (حقائق نفسية وقيم دينية في العبادات الشرقية ص ٩٧ ونؤكد بدقة ان الورع المطلق للآلهة لا يقتضي بالضرورة الختان الجنسي فالطهارة الاحتفالية كان يمكن لها ان تؤكد بزواج رمزي . والمرحلة الثانية من المسارة الاسطورية كانت تسمى nymphyme فالناسك يصبح الزوجة للآلهة ، غير ان الشعيرة روحية صرفة .

٣١ - ٣٢ - اسماء المراجع

٣٣ - اثبت المؤرخ بذات الوسواس والشك بخصوص اسرار ساموطراس والأورفية واليؤوس الخ ..

٣٤ - ٣٥ - اسماء المراجع

٣٦ - السوابق ترجع الى الاحضارات المقدسة المشهورة في Abydos منذ الاسرة الملكية الثانية

عشرة

٣٧ - ٣٨ - اسماء المراجع

٣٩ - يوجد ايضا ترجمات لاتينية معروفة تحت اسم اسكيلوس عن (خطاب كامل) فقد أصله

٤٠ - اسماء المراجع

٤١ - وفي الواقع ان البايروس قد عوضت الترجمات الهيلينية الدقيقة لبعض الاساطير ، عبر

سبيل المثال اسطورة الربة ثفتوت حيث يلعد ثوت هرمس دوراً ص ٤١٩

٤٢ - فوستيجير- كشف هرمس المثلث العظمة - ويذكر نص يرجع للبطالة الأول ان ثوت

هرمس الأول كان يعيش (قبل الطوفان) وهرمس الثاني المثلث العظمة ، تبعه ، ثم ابنه

اغاثوديمون وحفيده تات . وهذه الشخصيات مذكورة في رسالة كاردكوزمان وشجرة النسب هي

رسميا مصرية

٤٣ - يرجع الأصل الاغريقي الى ١١١ قرون ق.م

٤٥ - ٤٦ - المراجع

٤٧ - العالم (حي خالد) (المدونة الهرمسية) (١) هو مدعو (اله) او (اله كبير) وانه عبر العالم يظهر

الاله «الغير مرأى» - (ك ه . ٥ - ٢)

٤٨ - ٤٩ - فيستوجير- الهرمسية ص ٣٨

٥٠ - حسب رابع بحث من مدونة هرمس ، في بدء الزمان ملأ الاله بالنفس (نوس) باطية

cratère : والذين غمسوها اصبحوا «رجالاً كاملين» واطهر فيستوجير ان المقصود خليطاً من

الطقوس المطبقة في الأسرار (١) امتصاص مشروب مقدس متخرج من الجرة و (٢) حوض

للتطهير والمسارة (تعميد في الباطية)

٥١ - فيستوجير حلل نموذجاً مميزاً للعصر الهيليني : انتقال الاسرار الطقوسية العقائدية بصفتها

تحولات في ما اسماء الكاتب (اسرار ادبية) ، ولكن مثل هذا الاستقال يحافظ دوماً على قيمة

دينية : يثير النشاط الخيالي للقارىء ويكشف له المعنى العميق للأسرار .

٥٢ - كان للسابين نبي هو (هرمس) واغاثودايمون وكانوا يعرفون جيداً رابع بحث من المدونة

الهرمسية التي كان عنوانها (الباطية) cratés وحسب هنري خان ان الباطية cratère هي ذات كلمة

الغزال Graal

٥٣ - ٥٤ - ٥٧ - اسماء للمراجع

٥٨ - يتكلم جونغ في كتابه علم نفس وكيمياء عن الغفران بالعمل الكيميائي للروح de

l'amimamundi الأسيرة في المادة . وهذا المفهوم من أصل وبنية غنوصية ، كان بالتأكيد مشتركاً

بين عدد منالكيميائيين : لقد ادخل من أمة اخرى في كل هذا التيار من الفكر الأخرى الذي

توجب له ان يصل لمفهوم l'apocatastase للكوزموس . ولكن على الأقل لبدائياته ، والكيمياء لم

تعوض اسر (الآينيا موندي) في المادة ، مع أنها ، بغموض ، مازالت يشعر بها كأنها الأرض
الأم .

٥٩ - انظر الجزء (٣) من هذا الكتاب :

الفصل السابع والعشرون

تركيبات ايرانية جديدة

٢١٢ - التوجهات الدينية تحت حكم الأكاسرة (٢٤٧ - ٢٢٠ ق.م)

بعد سقوط الامبراطورية الأخمينية (٣٣٠ ق.م) انساقت الديانة الايرانية في الحركة الواسعة والتوفيقية المعقدة التي تميز العصر الهلنستي (٢٠٥ - ٢٠٠ ق.م) . فبعد استعادة جزء من ايران لاستقلاله من قبل الرئيس الفارسي أرشك Arsakés الذي باعلانه لنفسه ملكا في ٢٤٧ ق.م ، أسس الأسرة الملكية الوطنية الارشكية(*) ، ولم يوقف هذه العملية . بالتأكيد ، ان الفرس قد حملوا معهم تماماً تقليداً دينياً وثقافياً نابعاً من فرسان السهب de la steppe . ومن الراجح جداً ، ان بعض

* الأسرة الارشكية : اسرة بارثية مؤسسها ارشك الذي اقتطع مملكته من دولة السلوقيين في ٢٥٠ ق.م ودامت حتى قضى عليها في ٢٢٦ ميلادية ازدشير مؤسس الدولة الساسانية - المترجم)

عناصر الايديولوجيا الملكية التي تأكدت بدءاً من الأرشكيين تمثل التراث لتلك القبائل الجهموحة التي كانت تتجول منذ قرون على حدود الامبراطورية . ولكن جاذبية الهيلينية بدت غير قابلة للمقاومة ، وعلى الأقل حتى القرن الأول بعد المسيح فشجع الأرشكيون التهلسنس (نقشت الآلهة الاغريقية على نقودهم) ولنعيد الى الذاكرة مع ذلك ان النموذج الذي جرت محاولة تقليده هو الهيلينية الاسكندرية ، وهي ذاتها كانت قد امتصت عدداً من العناصر السامية والآسيوية .

ان الوثائق المعاصرة ، عديدة جداً وهي ذات انواع مختلفة : كتابات لكتاب من الفرس واللاتين ، وآثار ، ونقوش ، ونقود . . الخ . . ولكن المعلومات التي تقدمها حول العقائد والأفكار الايرانية الدينية هي على الأكثر غميمة للأمل . فالابداعية الدينية تحت حكم الأرشكيين يمكن فهمها بشكل أفضل بمساعدة وثائق متأخرة : اظهرت البحوث الحديثة ان النصوص المتأخرة تعبر عن معتقدات وافكار مركبة أو مقيّمة في العصر البارثي . وقد كان هذا من جهة اخرى طراز العصر : تبعاً للمواجهة والتبادل الثقافي الذي لا حصر له ، للأشكال الدينية الجديدة التي انبثقت بدءاً من مفاهيم اكثر قدما .

وفي الأساس ، ان المصادر المعاصرة تظهر لنا : (١) ان ميترا معبود في كل الامبراطورية وان هذا الإله يوجد على علاقات خاصة مع الملوك^(٢) (٢) ان المجوس les mageus يشكلون طبقة الكهنة المضحين ، الذين ينجزون على الأخص اضاحي دموية (ابقار ، خيول) ؛ وقد كتب (سترابون) ان المجوس كانوا يعبدون (آنا هيتا) ولكن توجد اشارات الى أنهم كانوا يشاركون في عبادة ميترا ايضا (كان لهم دور في اسراره) (٣) ان عبادة النار شعبية جداً (٤) وفي القرن الثاني والأول قبل المسيح كان يدور حول عنوان (عرفات هيستاسب oracles d'Hystaspe رؤيا مكتوبة بالآغريقية (هيستاسب هو الشكل الاغريقي لفريشتابا) الموجهة ضد روما (التي أعلن سقوطها) ، ولكن المتضامنة بالأدب الأخرى الايراني^(٢) .

ومع ذلك فإن الابداعات الدينية الكبرى للعصر البارثي هي من نظام اخر .

ففي القرن الأول ق.م بدأت اسرار ميترا بالانتشار في عالم البحر المتوسط (ترجع أول الوثائق الى ٦٧ ق.م) ، مما يفسح مجالاً للظن بأنه حوالي نفس التاريخ تأكدت فكرة الملك المسيحاني ، التي هي دوما ذات علاقة مع السيناريو الاسطوري - الطقوسي المعد حول ميترا . وبالرغم من التناقضات ، يبدو مرجحاً ، كما برهن ويدنغرين Widengren أن اسطورة المنقذ ، كما تظهرها الترنيمة الغنوصية للجوهرة ، قد تكونت في زمن الأرشكيين ، وأخيراً ، فإنه اثناء هذا العصر ايضا تطور لاهوت زورفانيت : *Zurvanite* الذي تعده الأفكار المتعلقة بالزمان ، والأبدية ، وسبق الخلق الروحي على الخلق الطبيعي ، والثنائية المطلقة ، وكل هذه مفاهيم ستنهج ، واحيانا تنظم بعناء ، وبعد بضعة قرون ستسود حكم الساسانيين .

ويقتضي أن لا يغفل عن التضامن الأساسي بين كل هذه الأشكال الدينية . وان تنوع العبارات يفسر بالفارق بين الأهداف المقصودة . وسيكون من العبث على سبيل المثال ، البحث عن عناصر الايديولوجيا الملكية في المظاهر الشائعة للدين الشعبي أو في الارشادات اللاهوتية . ان مميزات عامة لكل هذه الابداعات ، مع التحديد التام لكل المفاهيم الأكثر قدما ، والأثرية احيانا ، بقيت مفتوحة في المعنى الذي تتضمنه لأن تتطور خلال القرون التالية .

إن عرّافي هيستاسب ، يعاودون أخذ بواعث أخروية كلاسيكية ، والتي هي على الأرجح من أصل هندي - إيراني (تقصير السنة ، الانحطاط العالمي ، المعركة الحاسمة الخ) والتي ستعد في الرؤيات الفهلوية للعصر الساساني ، وفي المكان الأول في الباهمان *Bahman Yasht* . ومن جهة أخرى فإن العرافين يحققون نبوءاتهم على قاعدة تقويم تاريخي أو خروي لـ ٧٠٠٠٠ سنة ، كل ألف منها باعتباره محكوما بكوكب ، وهذا مايفشي التأثير البابلي « ر . السلسلة المعروفة جيداً : ٧ مذنبات ، ٧ معادن ، ٧ ألوان الخ » . ولكن تفسير هذا المخطط التاريخي المتسلسل هو إيراني : خلال الآلاف الستة ، يتصارع الاله وروح الشر من أجل السيادة ؛ ويبدو الشر منتصراً ، فيرسل الاله الشمس ميترا (= ابولون = هيليوس) الذي يسود الألف السابعة ؛ وفي نهاية هذا الزمن الأخير ، تتوقف قوة

المدنات ويجدد العالم حريق شامل^(٣) . وعليه ، فإن هذه الأساطير- التسلسلية للتاريخ ذات الرؤيا الأخروية ستعرف شعبية كبرى في العالم الغربي في بداية العصر المسيحي .

ان الأمل الأخروي سيمكن أيضاً حل رموزه في التقاليد المتعلقة بولادة ملك منقذ ممثلاً بميترا . والمفهوم التقليدي للملك الالهى المدير الكونى Kosmokrator البرزخ بين البشر والآلهة ، هذا المفهوم سيغتنى بدلالات جديدة انقاذية ، عملية يسهل فهمها في عصر محكوم بانتظار المنقذ . ان الصورة الذاتية الخرافية للميثرادات أوباتور Mithratdate Eupator توضح باعجاب هذا الأمل الأخروي : ولادته معلن عنها بواسطة نجم مذنب comète ، والنور يسقط على الطفل فور ولادته ، ولكنه لا يترك سوى ندبة ؛ وتعليم الملك المقبل يشكل سلسلة من التجارب التلقينية ، فخارجاً عن تنويمه ، سرادات ، كالعديد من الملوك الآخرين ، يعرف بتجسد ميترا . وهناك سيناريو مسيحاني مشابه يعلن الخرافة المسيحية للولادة .

٢١٣- ذورفان وأصل الشر

ان المسائل المطروحة من قبل ذورفان والذرفانية مازالت بعيدة عن الحل . فالاله قديم بالتأكيد . ويأمل غريشمان Ghirshman بأنه مائل ذورفان في قطعة برونز من لوريستان Louristan ممثلة الاله مجنحاً وخنثى مولداً للتوأمين (الذنان خرجا من كتفيه) ؛ وثلاثة مواكب ، رموز للأعمار الثلاثة للإنسان ، تقدم له باحترام البرسم le barsomm^(٤) . وإذا كان التفسير صحيحاً ، فإنه يستخلص بأن اسطورة ذورفان بصفته أبا لأوهر مازد وأهريمان كان معروفاً سابقاً لعصر أكثر قدما من تاريخ الشهادات الأولى المكتوبة . وحسب ملاحظة اوديم الرودسي Eudème de Rhodes (النصف الثاني من القرن الرابع ق.م) فإن «المجوس ... يدعون ... الكل واحداً . وقابلاً للادراك ، تارة ، مكان ، وتارة زمن ؛ ومن سيولد إما أوهر مازد وأهريمان ، واما النور والظلمات»^(٥) . ان النبأ هام جداً : هو

يؤكد لنا انه ، حوالي نهاية عصر الاخويديين كانت التعاليم حول الزمن - المكان بصفته منبعاً مشتركاً لمبدأي الخير والشر المتجسدين في اوهرمازد واهريمان ، كانت مألوفة للايرانيين . ان المصطلح الافستيقى *avestique* «الزمن» هو ذوازا *thwasa* ، لغويا «المقدس» أو «الذي يسرع» ويظن ويدنغرين *widengren* انه منذ انبدء كان يدل على القبة السماوية ، النعت الخاص لاله السماء سيد الأقدار^(٨) . ومن الراجح اذن ان ذورفان كان في الأصل إلها سماويا ، مصدر الزمان وموزع الحظ والتعاسة ، وفي آخر الأمر سيد القدر^(٩) . وعلى كل حال ، فإن بنية ذورفان قديمة جداً : انه يذكر ببعض الآلهة البدائية التي تتواجد فيها الاقطاب الكونية والمتضادات من كل نوع .

وفي الأستاق الحالية (نصوص كتبت على الأرجح في القرن الرابع ق.م) قلما يذكر ذورفان ، ولكنه دائماً على علاقة مع الزمن والقدر . وان نصاً [فيدفادا ١٩ - ٢٩] يؤكد بدقة ، أنه قبل الوصول الى جسر سينفا *cinvat* (ف ١٠٣ ع) «المخلوق من قبل مازدا» فإن ارواح الصالحين والكفار تتقدم على (الطريق المخلوق من قبل ذورفان) . وان الوظيفة الأخروية للزمن - القدر ، وبعبارة اخرى للمدة الزمنية الممنوحة لكل فرد ، قد اشير إليها بوضوح . وفي مقطع آخر فإن ذورفان ممثل وكأنه الزمن الذي لانهاية له [فيديفات ١٩ : ١٣-١٦] ، وفي موضع آخر يميز بين ذورفان أكارانا «زمن لانهاية» وذرفان داريفوكزادهاتا «زمن مستقل لفترة طويلة» [يافت ٧٢ : ١٠] .

كل هذا يفترض نظرية حول مسيل المدة الزمنية من قلب الأبدية . وفي المؤلفات الفهلوية «الزمن المستقل طويلاً» ينبثق من «زمن لانهاية» و ، بعد استمراره اثني عشر الف سنة عاد اليه [بونداهيشن ١ : ٢٠ ؛ ديناركت ٢٨٢] . إن نظرية الادوار امشكلة من عدد من الألوف من السنين هي قديمة ، ولكنها كانت معبراً عنها بشكل مختلف في الهند وايران ومابين النهرين . ونظرية الألوف مع أنها أصبحت شعبية حول نهاية العصور القديمة واستعملت في مالاياحي في الرؤى والنبوءات ، عرفت انطلاقة خاصة في ايران ، وعلى الأخص في الأوساط الذرفانية ، وفي الواقع ، إن التأملات أو الأفكار حول الزمن والمصير تتنامى في

الكتابات الذرفانية : انها مستعملة كذلك لتوضح مصدر الشر وسيادته الحالية في العالم ، بأكثر من أن تقدم حلاً أكثر تضييقاً لمسألة الثنائية .

إن بلوتارك في مقالته إيزيس وأوزيريس [١٦ - ٤٧] يعزو تبعاً لمصادر من القرن الرابع ق.م مذهب «المجوسي ذرادشت» : «أوهرمازد ، التولد من أصفى نور» و«ارمانوس مولود في الظلمات» وكل منها يمارس السلطة خلال ٣٠٠٠ سنة ويتحاربان خلال (٣٠٠٠) سنة ايضاً . وإن المعتقد بأن للعالم مدة مقدارها ٩٠٠٠ سنة مقسمة في ثلاثة مراحل متساوية (سيامة او هرمازد تفسح المجال لسيادة أهرمان متبوعة بـ ٣٠٠٠ سنة من الصراع) يصادف في كتابة متأخرة وغنية بعناصر ذورفانية ، المينوك إكرات le menoki khrat [٧ - ١١] . وحيث ان الزرادشتية تحصر الفكرة لفترة محكومة بأهرمان ، فإنه من المحتمل أن المصادر المستعملة من قبل بلوتارك تنعكس على المفاهيم الذرفانية . وإضافة لذلك ، يكتب بلوتارك ان ميترا ، الذي يوجد بين اوهرمازد واهريمان (لهذا يوصف (بالمتوسط)) قد علّم الفرس ليقدموا الى آلهتهم اضحيات متميزة ، تقدمه من نموذج محلي - جنائزي بصفتها مخصصة «للشيطان السيء» - الذي ليس هو ولن يكون مفهوما زرادشتياً^(١٠) .

إن ذورفان لم يذكر من قبل بلوتارك ، ولكن اسطورة التوأمين والتفسير لسيادتهما المتناوبة ظهرت في عدة مصادر متأخرة كما لو أنها ذرفانيتين أصلاً . وحسب أحد الأباء الأرمن ايزنيك دي كولب Eznik de kolb ، انه في الحين الذي لم يكن يوجد شيء ، قدم ذوفان (زوان ، الذي يعني قدر أو نصر) خلال ألف سنة اضحية بهدف أن يكون له ولد^(١١) . وكما انه شك بفاعلية اضحيته «أية فائدة يمكن ان تكون للأضحية التي أقدمها؟» فإنه حمل بولدين : اوهرمازد «بفضل الأضحية المقدمة» واهيرمان «بفضل الشك الذي خامره» . وقرر ذورفان بأن يجعل البكر من ولديه ملكاً . فعرف اوهرمازد قصد والده وكشفه لأهرمان ، وهذا الأخير مزق الرحم وخرج . الا انه عندما أعلن لذورفان انه ابنه أجابه هذا «ولدي معطر منور وأنت مظلم متن» . وعندما ولد اوهرمازد «منوراً ومعطراً» فاراد ذورفان تكريسه ملكاً . ولكن أهرمان ذكره بنذره أن يجعل المولود الأول ملكاً . ولكي لا يرجع

ذورفان عن قسمه أناط به الملكية لتسعة آلاف سنة ، وبعدها سيحكم اوهرمازد .
ويكمل ازنيك القصة بقوله . وعندئذ شرع اوهرمازد وأهريمان «شرعا بإنشاء
مخلوقات ، فكل ما خلقه اوهرمازد كان طيباً ومستقيماً وكل ما فعله أهريمان كان
شريراً وسيئاً» . ويلاحظ ان الالهين خالقان ، مع ان خليفة اهريمان هي حصراً
سيئة . وعليه ، فإن هذه المشاركة السلبية في العمل النشكوني (جبال ، وافي
ووحوش مؤذية الخ) تشكل عنصراً جوهرياً في العديد من الأساطير والخرافات
الشعبية النشكونية ، المنتشرة بدءاً من أوروبا الشرقية حتى سيبيريا^(١٣) حيث يلعب
خصم الاله دوره .

وكما تؤكد الرسالة الفهلوية الهامة البونداهيشن الكبيرة le grand Bundahishn [٣ - ٢٠] «بإنجاز اضحية ، كل الخليفة أبدعت» . وهذا المفهوم ،
كذلك الأمر اسطورة ذرفان ، هما بالتأكيد هندية - ايرانية ، لأنها توجدان في
الهند كذلك . فلكي يحصل برجاباتي على ولد ، قدم اضحية^(١٤) داكساينا ، وهو
كذلك ، في الحين الذي كان يضحى فيه ، خامره شك («أيجب علي تقديمها ؟
لا يجب علي تقديمها ؟») . وعليه فإن برجاباتي هو الاله الكبير الذي خلق العالم
من جسده الخاص وصور السنة والدورة الزمنية كذلك (ف ٧٦ ع) . إن الشك ،
مع كل نتائجه المساوية يشكل خطأ طقوسياً . وهو إذن النتيجة لحادث تقني ، من
إهمال المضحي الالهي . والخبيث لا يحوز أبداً نظاماً اونطولوجياً خاصاً : انه يرتبط
بفاعله لا ارادياً ، والذي يسرع من جانب آخر للمحد مسبقاً من أجل وجوده .

ان النعمة الميتولوجية للنتائج المساوية للشك لها العديد من الموازيات في
الأساطير - المؤكدة تقريباً في كل مكان في العالم - والتي تفسر أصل الموت أو الشر
بفقدان التيقظ أو البصيرة من جانب الخالق . ويؤخذ في الحسبان الفارق مع
المفاهيم الأكثر قدماً ، الموزعة كذلك من قبل زارادشت : أهورا مزدا أوجد
الروحين ، ولكن الروح الشريرة اختارت بحرية طريقة تكونها (ف ١٠٣ ع) .
والاله العاقل ذاته ، في العديد من الديانات القديمة ، يوائم توافق المتضادات ،
لأنه يشكل الكلية للحقيقة . ولكن في الاسطورة الزورفانية ، كما في أساطير
مشابهة أخرى ، ان الشر حصل ، مع انه بدون تعمد ، من قبل الاله الكبير

نفسه . وعلى كل حال ، وأقله في التقليد المنقول من قبل ازينك ، لا يلعب ذورفان أي دور في الخلق الكوني : انه يعرف نفسه كإله متعالى *deus otiosus* ، لأنه قدم لولديه التوأمين رموز السيادة (البرسوم *le barsom* لأهورامزد و حسب الكتاب الفهلوي ذاتسبرام *Zātspram* ، «أداة مشكلة من المادة الخاصة للظل» إلى أهريمان) .

٢١٤ - الوظيفة الأخروية للزمن

في المقياس الذي يمكن فيه التوجه في الأرومات المتتالية للنصوص الفهلوية والتعامل معها (منجزة عندما أصبحت المزدكية الكنيسة الرسمية للإمبراطورية الساسانية [٢٢٦ - ٦٣٥] ، وحتى بعد انتصار الاسلام) ، تبدو الزورفانية وكأنها بالأحرى ثيولوجيا توفيقية معدة من قبل المجوس الميديين ، أكثر من أن تكون ديانة مستقلة . وفي الواقع ، لم تقدم توضيحات لزورفان مطلقاً ، وأكثر من ذلك ، أن هذا الإله البدئي مذكور دوماً مع اوهرمازدواهيرمان . ولنوضح بأن نظرية الألوف من السنين كانت تدخل دائماً ، بطريقة أو بأخرى ، ذورفان - إما بصفته إلهاً كونياً للزمن ، وإما بكل بساطة بصفته رمزاً أو تشخيصاً للزمن . وإن الـ ٩٠٠٠ أو الـ ١٢٠٠ سنة التي تشكل تاريخ العالم قد فسرت بالنسبة لشخص ذورفان ذاته . وحسب بعض المصادر السورية *syriaque*^(١٦) ، فإن ذورفان محاط بثلاثة آلهة ، هي في الحقيقة أقانيمه *ses hyspostases* ، أذوفار وفرازوفار وزاروفار . وهذه الأسماء تفسر بأوصافه الأقسية ارزوكارا *asrokara* («الذي يجعل رجولياً») وفرازوكارا («الذي يجعل متألّفاً») ، ومارسوكارا («الذي يجعل شيخاً») ^(١٧) . بوضوح يتعلق ذلك بزمن معاش ، كما يمكن رؤيته في المراحل الثلاث من الوجود البشري : فتوة ، نضج ، شيخوخة . وعلى المستوى الكوني ، يمكن ربط كل واحدة من هذه الفترات الزمنية بفترة من ٣٠٠ سنة . وهذه «الصيغة لثلاثة أزمنة» توجد في الأوبانيشاد ولدى هومر^(١٨) ومن جهة أخرى ، ان صيغة مشابهة مستعملة في النصوص الفهلوية ، ممثلة اوهرمازد (كائن ، كان ، وسيكون) ، ويقال بأن «زمن

اوهرمازد « zamân i ohrmazd » كان ، كائن ، وسيكون دائماً»^(١٩) . ولكن ذورفان (= زمان zaman) أيضاً هو الذي «كان وسيكون كل الأشياء»^(٢٠) .

وبالاجمال ، فان الصور والرموز الموقته مؤكدة بلا خلاف في النصوص الزرادشتية أو الذورفانية . وذات الوضع فيما يتعلق بدورة الـ (١٢٠٠) سنة . فهي تلعب دورا في التعاليم الذورفانية . وزورفان يمثل كإله له اربعة وجوه ومربعات كونية (كوزمولوجية) مختلفة تستخدم لتحيط به ، الأمر الذي يتوافق مع الـ سماوي قديم للزمان وللمصير^(٢١) . واذا اعترف بالاله ذورفان في «الزمن اللا محدود» زمان ! أكتنارك zaman i akanarak فيبدو أنه يصعد اوهرمازد وأهريمان ، لأنه يعلن : «الزمن أقوى من الخليقتين ...»^(٢٢) .

ويمكن تتبع المجادلات بين الأورثوذكسية المزدية التي صلبت تباعاً الثنائية، والتيلوجيا الذرفانية . والفكرة بأن أوهرامزد وأهريمان هما شقيقان مستولدان من ذورفان ، هي مدانة بالطبع في مقطع من دينكارا denkart^(٢٣) . ولهذا فإن مسألة المصير للخصمين لا تعرض في الكتابات الفهلوية الارثوذكسية . إن اهرمازد وأهريمان موجودان منذ الأبد ، ولكن الضد سينقطع عن الوجود لفترة ما ، في المستقبل . ويعرف عندئذ لماذا لدى المزدیین أيضاً ، إن للزمن وللمذهب الألوف أهمية رئيسية .

وحسب اللاهوت المزدی ، ان الزمن ليس لابد منه للخلیقة ، ولكنه هو الذي يجعل من الممكن دمار أهریمان ونزع الشر^(٢٤) . وفي الواقع ، ان اهرمازد خلق العالم ، بهدف قهر الشر وایادته . وتفرض النشكونية سلفا اخروية ومذهباً متقدماً . ولأجل هذا فإن الزمن الكوني ليس دورياً ولكنه ممتد خطياً : له بداية وسيكون له نهاية . ان المدة الزمنية هي النتيجة غير المباشرة لمهاجمة اهریمان . وان اوهرمازد بخلقه للزمن الممتد خطياً والمحدود كالفترة التي سيكون فيها مجال لمعركة ضد الشر ، قد منح في ذات الوقت معنى «اخروياً» ، وبنية مأساوية (حرب غير متوقعة حتى النصر النهائي) . وهذا ما يعيد القول بأنه خلق الزمن المحدود بصفته تاريخاً مقدساً . يضاف الى ذلك ان هذه هي الأصولية الكبرى للفكر المزدی لتفسير

الشكوكية ، والنشأة البشرية ونبؤه ذرأشت كفترات انشائية لذات التاريخ الوحيد والمقدس .

٢١٥ - الخليقتان : مينوك وجيتيك

حسب الفصل الأول من بونداهيشن Bundahishn يوجد اوهرمازد وأهريمان منذ الأزل ؛ ولكن في حين ، ان اهرمازد ، غير محدود في الزمن ، هو محدود بأهريمان في المكان ، وأهريمان هو محدود في المكان كما هو محدود في الزمان ، لأنه في فترة ما سينقطع عن الوجود ، وبعبارة أخرى ، ان الاله ، في المزدية ، هو أصلاً محدود لأنه محاط بضده أهريمان^(٢٥) . وهذا الوضع سيتمدد إلى الأبد اذا لم يُهاجم اهريمان .

إن أوهرمازد يقاوم بهجوم مضاد بخلقه العالم ، الأمر الذي يسمح له بأن يصبح لا نهائياً ايضاً في المكان . وهكذا ، فإن اهريمان يساهم في كمال أوهرمازد . وبعبارات أخرى ، إن الشر بدون ادراك وبدون ارادة ، يساعد في انتصار الخير ، وهذا المفهوم غالباً ما يصادف في التاريخ ، وهذا ما شغف به جوته . Goethe

إن اوهرمازد في كلية قدرته تبصر المعركة فانتج خليفة «مثالية» أو «روحية» . إن التعبير المستعمل مينوك menok قابل للترجمة بصعوبة بالغة لأنه ينعكس على عالم تام مما هو جنيني . وحسب الداداستان إدينك le Dāstān i Denik [٣ : ٣٧] ، ماهو مينوك هو تام ، ويؤكد الدنكارت le Denkart [٩ : ٣٧-٥] ان العالم كان في البدء خالداً . ومن جهة أخرى يصف البونداهيشن le Bundahishn [١ ، ٦] الخليقة في حالة المينوك ، خلال الثلاثة آلاف سنة التي دامت ، كما لو أنها «دون فكر ودون حركة وغير محسوسة»^(٢٦) . ولكن هذه بخاصة هي الصفة السساوية والروحية للحالة مينوك المشار إليها . «لقد أتيت من العالم السساوي (مينوك)» هذا ما ورد مكتوباً في نص من القرن الرابع ، «ليس في العالم الأرضي (جيتيك getik) أنني بدأت

التكون . لقد كنت ظهرت أصلاً في الحالة الروحية ، حالي الأصلية ليست الحالة الأرضية^(٢٧) . ومع ذلك لنؤكد بدقة ، ان المقصود ليس وجوداً مجرداً ، لعالم أفكار افلاطونية : الحالة مينوك يمكن تعريفها كطريقة للتكون روحية ومادية في آن واحد .

وفي الدراما الكونية لتاريخ العالم تميز اربعة مراحل . فائناء الزمن الأول يحصل عدوان اهريمان والظلمات ضد عالم النور لأهورمازد . (انه يتعلق بشئانية من نوع لاكوني *acosmique* * ، لأنه في مذهب ذرادشت ، أهورامازدا هو الخالق للنور كما هو خالق الظلمات ؛ [رياسنا ٥: ٤٤] . وقبل نقل الخليقة من الحالة الروحية ، مينوك ، للحالة المادية جيتيك ، طلب اهورمازد من الفرافاشي Fravashi (أرواح سابقة الوجود مستقرة في السماء) فيما اذا كانت تقبل بوجود جسدي ، على الأرض بهدف مقاومة قوى الشر^(٢٨) . فرضي الفرافاشي بذلك . وهذا ما يؤكد الارتباط لأجل الحياة المجسدة ، ولأجل العمل ، وفي آخر لحظة لأجل المادة ، خط مميز لرسالة ذرادشت وإن الفارق مع التشاؤمية الغنوصية والمانوية ، ظاهر^(٢٩) . وفي الواقع ، ان الخليقة المادية جيتيك ، قبل هجوم اهريمان ، كانت بذاتها طيبة وكاملة . ولم يتلفها سوى غزوة اهريمان ، بإدخالها الشر . والنتيجة هي حالة «الخلط» (جوميسين *gumecisn*) التي توجد فيها منذئذ الخليقة برمتها ، حالة لن تزول الا على اثر تطهير نهائي . إن اهريمان وجحافل الشيطانية تفسد العالم المادي باختراقه وتوسيعه من قبل مخلوقاته الضارة ، وبخاصة باستقرارها في اجساد البشر . وفي الواقع ، ان بعض النصوص يفهم منها ان اهريمان لا يرد على الخليقة المادية لأهورمازد بخليقة جيتيك من نظام سلبي : فمن أجل افساد العالم يكفيه ان يدخل اليه وان يسكنه . وبالنسبة ، عندما لا يكون له سكن في أجساد البشر ، فإن اهريمان سيزول من العالم قاطبة^(٣٠) .

إن هجوم اهريمان موصوف بعبارات عاطفية : إنه يمزق محيط السماء ، ويتدخل في العالم المادي جيتيك ، ويوسخ المياه ، ويسمم النبات ويشير بذلك موت

* *Acosmique* (مذهب قائل بأن الكون لا وجود له في ذاته لأن كل موجود انما هو في الله

الثور الأولي^(٣١) . انه يهاجم جايومارت Gayomart ، الانسان الأول ، وتوسخه العاهرة ، وعبره توسخ كل البشر . (مع ذلك ، كان مقدرا على جايومارت ان يعيش ايضا ٣٠ سنة بعد الهجوم) . وبعدئذ يلقي اهرمان بنفسه على النار المقدسة ويوسخها باثارتة الدخان . ولكنه في أوج سلطته ، غالبا ما يكون اهريمان اسيراً في العالم المادي ، لأن السماء بانغلاقها تحبسه في الخليقة كما لو أنها اوقعتة في مصيدة^(٣٢) .

٢١٦ - من جايومارت الى ساوشيان

جايومارت هو ابن اهودمازد وسباندرمات ، الأرض ، وكما كرانثروبيا (عمالقة) macranthropes اسطورية اخرى له شكل دائري و «يلمع كالشمس» [افلاطون symp ١٨٩] . وعندما يتوفي تنشق المعادن من جسده ؛ منه sa semence مطهر بنور الشمس ، وثلاث منه يسقط على الأرض فينتج عشبة الراوند rhubarbe ، حيث يتولد أول زوج بشري ، مازي ومازيان masy et maayane . وبعبارة اخرى ، ان الزوج الأولي تولد من الجذ الاسطوري جايومارت ومن الأرض الأم ، وشكلها الأول نباتي - مبدأ اسطوري منشئ جداً في العالم . وقد أمرهما اوهرامزد بفعل الخير وعدم عبادة الشياطين وبالامتناع عن الطعام . وفي الواقع ، ان مازي ومازيان اعلنا اوهرمازد كخالق ، ولكنها خضعا لاغواء اهريمان وصرحا بأنه هو خالق الأرض ، والماء والنباتات ، ويسبب هذا «الكذب» ادين الزوجان وبقيت روحهما في الجحيم حتى البعث .

وخلال ثلاثين يوماً عاشا بدون طعام ، ولكنها رضعا بعدئذ لبن عترة وتظاهرا بعدم الرضى ، وكانت تلك كذبة ثانية ، قوت الشياطين . ويمكن تفسير هذا المشهد الاسطوري بطريقتين : توضحان (١) إثم الكذب أو (٢) إثم الأكل ، أي اقامة الشرط البشري ؛ وفي الواقع ، وكما في عدد من الأساطير القديمة ، لم يكن للزوجين الأول حاجة بالطعام ؛ واكثر من ذلك ، حسب المعتقد الايراني ،

سيقلع البشر ، في نهاية الزمان ، عن عادة الأكل والشرب^(٣٣) . وبعد ثلاثين يوماً أيضاً ذبح مازي ومازيان رأساً من قطيع وشوياه . وقدموا جزءاً للنار وآخر للآلهة ، بطرحه في الهواء ، ولكن نسرأ رفع هذا الجزء . (بعد وقت قصير ، أكل كلب ، الأول من اللحم) . وهذا ما يمكن ان يعني ان الاله لم يقبل التقدمة ، ولكن ايضاً ان الانسان لا يجب ان يكون آكل لحوم . وخلال خمسين عاماً ، لم يكن لمازي ومازيان أية رغبة جنسية . ولكنهما تزوجا وولد لهما توأمان «لطيفان» لدرجة ان الأم افترست واحداً والأب الآخر . عندئذ الغى اوهرمازد تذوق الأولاد لكي يبقى آباؤهم منذئذ على حياتهم^(٣٤) . وفيما بعد حصلت مازي ومازيان على ازواج اخرى من التوائم ، التي اصبحت أجداد كل الاعراق البشرية .

ان اسطورة جايومارت (حسب الاستاق جايامارتيان gaya maretan «حياة فانية») هي ذات دلالة رفيعة لتحقيق عمل اللاهوتيين الزرادشتيين في اعادة شروحهم للميتولوجيا التقليدية . وكيمير ymir وبوروشا purusha فإن جايومارت هو شكل انساني عملاق macranthrope بدئي وخشّي ، ولكن اخضاعه للموت قيم بشكل مختلف . فليست كلية العالم ابدا هي التي خلقت من جسده ، ونما المعادن فقط - وبعبارة اخرى - الاجرام les planètes - ومن منيه عشبة الراوند التي حملت أول زوج بشري . وتماثلاً كما في التعليم اليهودي المتأخر ، أن آدم قد منح في آن واحد صفات كونية ، وفضائل روحية بارزة ، كذلك جايومارت قد رفع الى مركز استثنائي في التاريخ المزددي المقدس ، يصنف بالقرب من زرادشت وساوشيان . وفي الواقع ان جايومارت في الخليقة المادية جينك هو أول من يتلقى الكشف للديانة الجيدة^(٣٥) . وبما انه عاش ثلاثين عاماً تحت ضغط اهريمان ، فيمكن له ان ينقل الكشف الى مازي ومازيان ، اللذان اوصلاه فيما بعد الى ابنائهما . وتعلن الميتولوجيا المزددية جايومارت وكأنه الانسان الكامل العادل بامتياز وانه المساوي لزرادشت وساوشيان^(٣٦) .

إن عمل اللاهوتيين المتأخرين ، التمجيد لجايومارت قد انتهى بإعادة شرائه للشرط البشري . ففي الواقع ، ان الانسان كان خلق طيباً وموهوباً بروح ويجسد خالد ، تماماً كجايومارت . وان الموت ادخل في العالم المادي من قبل اهريمان ،

على اثر خطيئة الأجداد . ولكن وكما يلاحظ ذهنر zaeher^(٣٧) . فإن الخطيئة الأصلية ، بالنسبة للزرادشتية هي على الأقل عمل من عدم الطاعة اكثر مما هو خطأ حكم : الأجداد اخطأوا باعتبارهم اهريمان كالمخالق . مع ذلك ، فإن اهريمان لم ينجح في قتل الروح لجايومارت ولا ، بالنتيجة ، روح البشر . وعليه ، فإن هذه هي الخليفة الأقوى لأوهرامازد ، لأن ، الانسان وحده ، في العالم المادي ، يحوز التحكم الحر . ولكن الروح لا تستطيع ان تعمل الا بالجسد الذي تسكنه ؛ فالجسد هو الأداة أو «لباس» الروح . واكثر من ذلك ، لم يصنع الجسد من الظلمات (كما تؤكد عليه الغنوصيات) وانما من ذات مادة الروح ؛ وفي الأصل كان الجسد وضاء ومعترا ، ولكن الشبق coneupiscence جعله نتنا . مع ذلك ، وبعد الدينونة الأخروية ، سبتجد الروح جسداً مبعوثاً وماجداً^(٣٨) .

وياختصار ، إن الانسان بفضل حريته بالاختيار بين الخير والشر ، لا يضمن السلامة لنفسه فحسب ، بل يستطيع المساهمة بالعمل الغفراني لأهورمازد . وكما رأينا (ف ٤: ١٠ع) كل مضحي يساهم «بظهور» العالم ، وهو يعيد ، في شخصه الخاص ، شرط الطهارة التي سبقت «الخلط» (جوميسيسن gumeisn) الحاصل بغزوة اهريمان . لأنه ، بالنسبة للمزدكية ، ان الخليقة المادية - أي المادة والحياة - هي خيرة بذاتها وتستحق ان تكون مطهرة ومبعوثة . وان مذهب بعث الأجساد يشر ، فعلا ، بالقيمة التي تسمو على التقدير للخليقة . وان هذا هو التقييم الديني الأكثر حدة والأكثر جرأة للمادة ، المعروف قبل «الفلسفات - الكيميائية» الغربية في القرن السابع عشر .

خلال الثلاثة الاف سنة التي تفصل مقتل جايومارت وانبثاق الزوج الأولي عن ظهور زارادشت ، وجدت سلسلة من ملكيات اسطورية ، والتي يبدو أن اكثرها شهرة هم يم (yima) وازدهاك وفريتون . ويبدو زرادشت في منتصف التاريخ على مسافة متساوية من جايومارت والمنقذ المقبل ساوشيان (حسب نص تقليدي من القرن الرابع ق.م ، سميثولد ساوشيان من عذراء ستطفو في بحيرة كاسنويا ، وستحفظ موجات البحيرة في زرادشت) . وكما رأينا (ف ١٠٤ و ١١٢ ع ٤) ، فإن التجديد النهائي فرازا - كيريتي سيحصل على إثر تضحية منجزة من

قبل ساوشيان . وتصف الكتب القهلوية بتفصيل كبير مشاهد هذا السيناريو الأخرى . بدئياً وخلال الألف من السنين الثلاثة ، سيمتنع البشر تباعاً عن أكل اللحم ، وعن اللبن والنباتات لكي لا يتغذوا سوى بالماء . وحسب البونداهيشاس ، ان هذا هو ما سيحصل بدقة للشيوخ المقترين من نهايتهم . وبالفعل ، وبهدف الغائها ، تعاود الأخرى اخذ اعمال وحركات الأجداد . ولأجل هذا فإن الشيطان Az (الطمع الذي لم يعد له سلطة على البشر ، سيكون مكرها لافتراس الشياطين . ولقتل ثور بدئي من قبل اهريمان يناسب التضحية الأخرى لثور هاذايوس Hathayos المنجزة من قبل ساوشيان واوهرامزد . والشراب المحضر من شحمه أو نخاعه الشوكي ، المخلوط بالهاوما- البيضاء ، سيجعل البشر المبعوثين خالدين . ويصفته انساناً أولاً ، فان جايومارت سيكون المبعوث الأول . والمعارك التي حصلت في البدء ستعاد : التنين آذراهاك سيعاود الظهور ويُطالب ببعث فريتون ، الذي كان غلبه في ايلومتبوري ixillo tempore (بداية الزمن) . وفي المعركة النهائية سيتواجه الجيشان ، ولكل محارب خصمه المحدد بدقة . آهريمان وآذها آخر من يسقط تحت ضربات اوهرمازد وسروز sroz^(٣٩) .

وحسب بعض المصادر فإن اهريمان قد تراجع دوما لعدم القدرة ؛ وحسب غيرها ، انه اعيد دفعه في الثقب الذي دخل منه إلى العالم ، أو انه تلاشى^(٤٠) . وقد اسال حريق جبار المعادن من الجبال ، وفي هذا النهر من النار- المحرق بالنسبة للأشقياء ، والمشابه للبن الساخن بالنسبة للمستقيمين (العادلين) justes- تتظهر الأجساد المبعوثة خلال ثلاثة أيام . وينتهي الحريق بازالة الجبال ، وتمتلئ الوديان ، والفتحات التي توصل مع الجحيم ، ستغلق . «الأرض المسطحة هي ،- كما هو معلوم - الصورة لعالم فردوسي أولي كما هو أخرى» . وبعد التجدد ، فإن البشر الناجين من خطر الخطيئة ، سيعيشون أبدياً ، متمتعين بالسعادات التي هي جسدية وروحية ايضاً .

٢١٧- اسرار ميترا

حسب بلوتارك [يومب : ٥ - ٢٤] ، إن قرصان سيليسيا «كانوا يحتفلون سرّاً بالأسرار» لثيرا ؛ وقد نشروا هذه العقيدة في الغرب بعد أن انتصر عليهم واسرهم

بومبيه pompee وهذا هو المرجع الأول المعلن لاسرار ميترا^(٤١) . وقد بقيت مجهولة ، عملية تحويل الاله الايراني الممجذ بالمهرياخت mihryacht (ف ١١١ع) في ميترا الأسرار . لقد تطورت عبادته تقريبا في الوسط المجوسي المقام في ما بين الرافدين وآسيا الوسطى . وأصبح ميترا الاله البطل بامتياز حامي الملوك البارثيين . وان الأثر المأتمني لأنطيوخ الأول لكوماجين Antioch L de commagène (٦٩ - ٣٤ ق.م) يظهر الاله وهو يشد على يد الملك . غير ان العبادة الملكية لميترا لم تلاثم ، على مايدو ، أي طقس سري ؛ ومنذ عصر الأخمينيين كانت الحفلات الكبرى للميتراكانا تقام علنا .

إن الميتولوجيا والتيلوجيا للأسرار الميثرية مقبولة لدينا خاصة ، بفضل الآثار المصورة . فالوثائق الأدبية ليست كثيرة وهي ترجع أساساً إلى العقيدة وإلى التراتبية لدرجات تلقينية (مسارية) . وكانت إحدى الأساطير تروي ولادة ميترا من حجر (de patra natus) تماماً كالشكل البشري أو لليكومي (ف ٤٦ ع) ، وأجديتي الفريجي (ف ٢٠٧) وبطل شهير من ميتولوجيا الأوسيت ossète^(٤٢) . وان ذلك هو السبب الذي من أجله كانت المغارة تلعب دوراً رئيسياً في اسرار ميترا . ومن جهة أخرى ، وحسب تقليد نقله البيروني ، فإن الملك البارثي على إثر تنصيبه ، انزوى في مغارة فتقرب منه اتباعه و قدسوه كمولود جديد ، وبدقة أكثر ، كطفل من اصل مما فوق الطبيعة^(٤٣) . وتتكلم التقاليد الأرمنية عن مغارة كان اعتزل فيها ميهير : MEHER (ميهير ، ميترا) حيث كان يخرج منها مرة كل عام . وعليه ، فإن الملك الجديد كان ميترا ، معاد تجسيده ، ومتولد مجدداً^(٤٤) . وتوجد هذه النعمة الايرانية في الأساطير المسيحية للولادة في مغارة بيت لحم المغمورة بالنور^(٤٥) . وباختصار ، إن الولادة العجائبية لميترا تشكل جزء لا يتجزأ من اسطورة كبرى إيرانية - توفيقية للمدير الكوني - الفادي cosmocrate- Rédempteur .

إن المشهد الاسطوري الأساسي يلائم طيران الثور بميترا واضحيته المتخذة ، والمحققة حسب بعض الآثار بناء على أمر الشمس (sol) . ان تضحية الثور مصورة على مجموعة النصب والنقوش الميثرية تقريبا . فميترا يحقق رسالته بدون رغبة ، فيقبض مشيحاً برأسه بيد على انفي الثور ويغرز باليد الأخرى السكين في

خاصته . «من جسد الضحية المحتضرة تولدت كل النباتات والأعشاب الصحية [...] ومن نخاعه الشوكي بذر القمح الذي يعطي الخبز ، ومن دمه ، العنب الذي ينتج الشراب المقدس للأسرار»^(٦٤) . إن التضحية بالثور ، في النص الزرادشتي ، من قبل ميترا تبدو لغزا ، وكما رأينا (ف ٢١٥ع) ، فإن قتل الثور الأولي هو عمل أهريمات . ويقرر نص متأخر من بونداهيش [٤ - E] النتائج الحيرة لهذه الأضحية : فمن مني semence الثور الأولي ، المظهر بنور القمر ، تتولد انواع الحيوانات ، ومن جسمه تنبت النباتات . ومن وجهة النظر المورفولوجية (علم الهيئة) ، يفسر هذا «القتل الخالق» في دين من نموذج زراعي بأفضل مما هو في عبادة تلقينية (مسارية)^(٤٧) . ومن جهة أخرى ، وكما رأينا (ف ٢١٦ع) فإنه في آخر الأزمنة ، سيضحى بالثور هاتا يوس Hathayos من قبل ساوشيان وأهرمازد ، وإن الشراب المتحصل من شحمه أو نخاعه سيجعل البشر خالدين . فيمكن إذن تقريب مأثرة ميترا من هذه الأضحية الأخرية ، وفي هذه الحالة يمكن القول ان المسارة في الأسرار تساهم في التجدد النهائي ، وبعبارة أخرى خلاص التلميذ .

إن ذبح الثور كان يتم في المغارة ، بحضور الشمس والقمر . وإن البنية الكونية للأضحية مشار إليها بالاثني عشر اشارة من الأبراج والكواكب السبعة السيارة ورموز الرياح والفصول الأربعة ، وشخصيتان ، كوتس وكوتوباتس ، تلبسان كميترا ، وكل منهما يحمل مصباحاً متوقداً في يده ، وهما ينظران بانتباه لعمل الاله الباهر ؛ انهما يمثلان تجليان آخران لميترا بصفته إلهاً شمسياً (في الواقع ان بزودو دينيز - يتكلم عن «الثلاثي ميترا» [اييست ٧] .

وتطرح العلاقات بين الشمس Sol وميترا مسألة لم تحل حتى الآن : فمن جهة ، يأمر Sol ميترا ، مع انه أدنى منه ، بأن يضحي بالثور ، ومن جهة أخرى ، فإن ميترا يدعى في النقوش الشمس التي لا تغلب sol invictus . وبعض الفصول المسرحية تظهر sol راکعاً امام ميترا ، وبعض الآخر تظهر الالهة وهي تشد على يديه . ومهما يكن من أمر فإن ميترا و(سول)، وثقاصداقتها بمأدبة حيث اقتسما لحم الثور . وكانت الحفلة في المغارة الكونية . وقد خدم الحضور الالهين ، وهم يلبسون الأقنعة الحيوانية . وهذه المأدبة تشكل النموذج لوجبات طقوسية ، حيث

يخدم النسك المزينون باقنعة مميزة لرتبهم المسارية ، الرئيس (الأب) للجمعية السرية . ويفترض انه بعد زمن قصير كان يحصل صعود الشمس sol إلى السماء ، وهو مشهد مصور على عدة نصب . وبدوره يرتفع ميترًا للسماء ، وبعض الصور تظهره جارياً خلف عربة الشمس .

إن ميترًا هو الاله الوحيد الذي لا يشارك في المصير المأساوي لالهة الاسرار . ويمكن الاستنتاج اذن بأن السيناريو بالمسارة الميثرية لم يكن يقتضي تجارب تتطلب الموت والبعث . قبل المسارة ، كان المريدون يرتبطون بـ sacramentum بالحفاظ على سر الاسرار وهنالك نص عن القديس جيروم ، وعدد من النقوش نقلت الينا مدونة الدرجات السبعة للمسارة : غراب (corax) ، متزوجة (nymphus) جندي (miles) أسد (leo) فرس (perses) ساعي الشمس (heliodromus) وأب (pater) . وإن القبول في الدرجات الأولى كان مسموحاً به حتى للأطفال بدءاً من عمر سبع سنوات ، ومن المرجح انهم كانوا يتلقون بعض التعليم الديني ويحفظون اغاني وانشيد . وكانت جماعة التلامذة mystes مقسمة في مجموعتين : «الخدم» و «المشاركين» ، وهذه المجموعة الأخيرة مؤلفة من ملقنين بدءاً من درجة (الأسد) leo^(٤٩) .

اننا لا نعرف تفاصيل المسارات في مختلف الدرجات . وقد أشار المنافحون المسيحيون عن الكنيسة في مجادلاتهم ضد «الاسرار» الميثرية (المستوحاة من قبل الشيطان) ، الى التعميد ، الذي من المرجح انه كان يدخل المبتدئ في الحياة الجديدة^(٥٠) كما أنه من المرجح ان هذا الطقس كان محجوزاً للمبتدئ الذي يعد نفسه لدرجة الجندي (mils) ومن المعلوم أنه كان يقدم اليه تاج ، ولكنه كان يتوجب على التلميذ رفضه ، قائلاً ان ميترًا «كان تاجه الوحيد»^(٥١) . وكان يعلم بعدئذ على جبهته بحديد مجتمى [ترتوليان ، دي براسكرهاريت^(٥٢)] أو يظهر بمشعل متقد [لوسيان مينيوس ٧] . وفي المسارة برتبة أسد leo كان يهرق العسل على يدي المرشح وكان يطلى لسانه . وعليه ، كان العسل الغذاء للسعداء والمتولدين - مجدداً^(٥٣) .

وحسب كاتب مسيحي من القرن الرابع ، كانت تعصب أعين المرشحين ، اثناء الاحاطة بهم من قبل جمع متهيج من الناس ، بعضهم يقلد نقيق غراب محركا جناحيه ، وبعضهم يزجر كالأسد . وكان على بعض المرشحين المربوطة ايديهم بمصارين الدجاج ان يقفزوا فوق حفرة مملوءة بالماء . ثم ، كان أحدهم يحضر بعدئذ ويقطع المصارين ويُعلن محرراً^(٥٤) . إن مشاهد المسارة المصورة في رسوم الميثروم mithreum لكابو تجعل بعض هذه التجارب المسارية محتملة . إن واحداً من المشاهد المحافظ عليها جيداً موصوفة من قبل كومونت كما يلي : «التلميذ جالس وهو عار من الثياب ، وعيناه معصوبتان ، ويداه مكتوفتان خلف ظهره . والملقن le mystagogue يقترب منه من الخلف ، كما لو أنه يود دفعه إلى الأمام . وفي مواجهته ، يتقدم كاهن بثوب شرقي ، معمم بطربوش عالٍ فريحي ، وماداً حربة صوب التلميذ . وفي مشاهد أخرى ، يكون التلميذ عارياً راکعاً أو حتى ممدداً على التراب»^(٥٥) . ومن المعروف ايضاً انه كان على التلميذ حضور موت صوري ، ويعرض عليه حربة ملوثة بدم الضحية^(٥٦) . ومن الراجح جداً أن بعض الشعائر المسارية كانت تقتضي معارك ضد فزاعة . وفي الواقع ، ان المؤرخ أمبريد كتب أن الامبراطور كومود لوث اسرار ميترا بقتل انسان حقيقي [نصوص وآثار ٢ - ٢١ - ٩] . ويفترض انه باتمام المسارة لدرجة جندي mile ولصنف أب كان كومود قد قتل المرشح ، في حين انه لم يكن يستوجب سوى تمثيل موته .

إن كل واحدة من هذه الدرجات كانت محمية بكوكب فدرجة الغراب محمية بعطارد ، والزوجة بالزهرة والجندي بمارس والأسد بجوبيتر ، والفارسي بالقمر ، وساعي الشمس بالشمس ، والأب بزحل . وان العلاقات الكوكبية هي بكل وضوح مبينة في الميثريات les mithrea للقديسة بريسكا وأوستيا^(٥٧) de santaprisca et ostia ومن جهة أخرى ، فإن أورجين origène في [contracelsun ٦ : ٢٢] يتكلم عن سلم من سبع درجات مؤلف من مختلف المعادن (رصاص ، قصدير ، برونز ، حديد ، خلطة ، فضة ، ذهب) ومشاركة مع مختلف الآلهة (الرصاص بكرونوس ، والقصدير بأفروديت الخ) ومن الراجح جداً أن مثل هذا السلم كان يلعب دوراً طقوسياً - دوراً غير معروف - باستخدامه رمزاً للجمعية السرية الميثرائية .

٢١٨ - «لو أن المسيحية توقفت»

عندما تناقش اسرار ميترًا ، يبدو انه لا بد من ذكر الكلمة الشهيرة لأرنست رينان: «لو ان المسيحية توقفت في غمها بأحد الأمراض القاتلة ، لكان العالم أصبح ميثريًا» [مارك . اورليوس ص ٥٧٩] ومن المحتمل ان رينان كان متأثر بالاحترام والشعبية التي تمتعت بها اسرار ميترًا في القرنين الثالث والرابع ، فقد صدمه فعلاً انتشار هذه الأسرار في كافة المقاطعات من الامبراطورية الرومانية . وعليه ، فإن هذه الديانة الجديدة للأسرار قد فرضت بقوتها وأصلتها . فالعبادة السرية لميترًا نجحت في جمع التراث الايراني مع التوفيقية الاغريقية - الرومانية . ففي مجتمعه للآلهة ، جاور الأرباب الرئيسيون للعالم التقليدي ذورفان وآلهة شرقية أخرى . اضافة لذلك ، فإن اسرار ميترًا تمثلت وأدخلت التيارات الروحية المميزة للعصر الامبريالي : علم التنجيم ، والتعاليم الأخروية ، والدين الشمسي (المشروح ، من قبل الفلاسفة ، بصفته توحيداً شمسياً) . ورغم التراث الايراني ، فإن اللغة الدينية كانت اللاتينية . وخلافاً لديانات اخرى شرقية للسلامة ، المدارة من قبل منظمات اكليروسية دخيلة (مصرية ؛ سورية ، فينيقية) فإن رؤساء الأسرار الآباء انضموا جنوداً بين السكان الاتياليك وسكان المقاطعات الرومانية . وإضافة لذلك ، فإن الميثرية كانت تتميز عن الاسرار الأخرى بغياب الطقوس التهتكية أو القبيحة . إنها ديانة بامتياز للجنود ، وقد طبعت هذه العقيدة الدينيين بانتظامها ، ومزاج واخلاقية اعضائها ، وهي فضائل تعيد إلى الذاكرة التقليد الروماني القديم .

أما بالنسبة لانتشار الميثرية ، فقد كان معجزة : من ايكوس في ميزوبوتاميا ، ومن افريقيا الشمالية واسبانيا حتى اوروبا الوسطى وفي البلقان . ان كثرة المعابد قد اكتشفت في المقاطعات الرومانية من داسيا ، وبانونيا ، وجرمانيا . (يبدو ان العقيدة لم تدخل اليونان ولا اسيا الوسطى) . ومع ذلك يجب ان يؤخذ في الحسبان واقعة ان الجمعية السرية كانت تقبل مائة عضو على الأكثر .

وبالنتيجة ، حتى في روما ، حيث كان يوجد في فترة ما ، مئات المعابد ، فإن عدد المقبولين لم يكن يتجاوز العشرة آلاف^(٥٨) . ان الميثرية كانت تقريباً محصورة بعقيدة سرية موقوفة على المحاربين ، وقد تبع انتشارها تحركات الفيلق العسكرية . ان القليل الذي يعرف من الطقوس المسارية يذكر مقدما بمسارات «جمعيات الرجال» الهنود- اوروبيين (١٧٥ع) باكثر مما يذكر بالأسرار المصرية او الفريجية . لأنه وكما لاحظنا ، ان ميثرا كان الاله الوحيد للأسرار الذي لم يعرف الموت ابداً . وان الميثرية هي الوحيدة بين العقائد السرية التي لم تقبل النساء . وعليه ، وفي عصر من الزمن حيث مساهمة النساء في عبادات الخلاص وصلت لدرجة لم يسبق ان عرفتها سابقاً ، ان مثل هذا التحريم جعل من الصعب ، ان لم يكن بعيد الاحتمال ، ايمان العالم بالمثرية .

ومع ذلك ، فإن المنافحين عن المسيحية رفضوا «المنافسة» الظرفية مع المثرية ، لأنهم رأوا في الأسرار محاكاة شيطانية لسر القربان المقدس *léncharistie* . وقد اتهم جوستان «الشياطين الخبيثة» لأنها أمرت بالاستعمال التقديسي للخبز والماء ، وتكلم تيرتوليان عن «القربان من الخبز» . وعليه ، فإن الوجبة الطقوسية للمتلقين تحمي ذكرى مآدبة ميثرا والشمس بعد اضحية الثور . ومن الصعب التحديد بدقة فيما اذا كانت مثل هذه الحفلات تشكل بالنسبة للمتلقين الميثريين ، وجبة تقديسية أو اذا كانت تشابه بالأحرى مآدب طقوسية اخرى شائعة جداً في العصر الامبريالي^(٥٩) . ومهما يكن من أمر ، لا يمكن انكار الدلالة الدينية للمآدب الميثرية (ولا انكار مآدب ومعتقدات ذات اسرار اخرى) ، لأنها كانت تتبع نموذجاً أو طريقة إلهية . فالفعل نفسه الذي اعتبره المنافحون عن المسيحية كتقاليد شيطانية لسر القربان المقدس يشير الى خاصيتها المقدسة . ففيما يتعلق بالتعميد التلقيني كان قد طبق ايضا في عبادات اخرى . ولكن التشابه مع الميثريين يتكشف بالنسبة للاهوتيين المسيحيين من القرنين الثاني والثالث ، واكثر ارباكا ايضا ، ان الاشارة المدموغة على الجبين بالحديد المحمى كانت تذكرهم بشعيرة تكمل التعميد المقدس *signatio* وازضافة لذلك ، وبدءاً من القرن الثاني فإن الديانتين احتفلتا بميلاد إلههما في ذات اليوم (٢٥ كانون أول) وتقاسمتا معتقدات متماثلة حول نهاية العالم والدينونة الأخيرة وبعث الأجساد .

ولكن هذه المعتقدات ، وهذه السيناريوهات الاسطورية - الشعائرية تعود الى زيتجيسـت Zeitgeist من العصر الهلنستي والروماني ومن المحتمل ان اللاهوتيين من مختلف الديانات التوفيقية للسلامة لم يترددوا عن استعارة بعض الافكار والصيغ التي عرفوا قيمتها ونجاحها (اشرنا سابقاً لحالة الاسرار الفريجية ف ٢٠٧ع) وفي آخر المطاف ، ان ماكان يهم هو التجربة الشخصية والتفسير اللاهوتي للسيناريو الاسطوري - الشعائري العلني بالايمان والتجارب المسارية «ويكفي التذكير بالتقييمات العديدة للقداسات لدى غير المسيحيين وفي تاريخ المسيحية»^(٦٠) .

ان عدداً من الاباطرة قد اعتمد وادعم الميثرية بخاصة لاسباب سياسية . ففي كارنوتوم carnutum في ٣٠٧ أو ٣٠٨ كرس ديوكليسيان واغسطي وغيرهما مذبحا لميثرا (المحسن للامبراطورية) . الا ان انتصار قسطنطين على جسر ميليفيوس في ٣١٢ ختم مصير الميثرية . وقد وجدت العبادة احتراماً تحت فترة الحكم القصيرة لجوليان ، فهذا الامبراطور الفيلسوف أعلن عن نفسه أنه ميثري . وبعد موته في ٣٦٣ وضعت نهاية للدعم الرسمي للميثرية . وككل الاديان المتعلقة بالسلامة والجمعيات السرية الباطنية ، فان العبادة السرية لميثرا الممنوعة والمضطهدة زالت كحقيقة تاريخية . لكن ابداعات اخرى للعبقرية الدينية الايرانية تابعت تدخلها في العالم على وشك ان تصبح مسيحية . فبدءاً من القرن الثالث ، زعزع نجاح المانية manicheisme أركان الكنيسة ، وامتد تأثير المانية خلال القرون الوسطى . ومن جهة اخرى ، فإن عدداً من الأفكار الدينية الايرانية - بصورة خاصة بعض بواعث الميلاد ، وما يتعلق بالملائكة ، وقصة المجوس ، وتيولوجيا النور وبعض العناصر للميتولوجيا الغنوصية - ستنتهي بتمثل المسيحية والاسلام لها ، وفي بعض الحالات ، يمكن التعرف على ملامحها من العصور الوسطى العليا حتى النهضة وعصر الأنوار^(٦١) .

حواشي الفصل السابع والعشرين

- ١ - تأليه الملوك الأحياء ، ظاهرة مميزة في العصر الهلنستي ، وتأكدت لدى الارشكيين ، وتعرف على الأقل امثلة ثلاثة - (ر . ديانة الفرس ، غوليني ص ٢٥
- ٢ - ٤ - اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف .
- ٥ - وفيد تغرين widogren (. . .) اعتقد بمعرفة اسمه في الواح نوزي Nuzi للقرن ٣ - ١٢ ق.م) ولكن speiser اظهر ان الاسم يجب أن يكون قد قرئ zarwa اسم ربة حورية الخ .
- ٦ - ٨ - اسماء المراجع المعتمدة
- ٩ - بما ان زورفان حسب اودين eudon كان معبوداً من قبل المجوس ، أي اقلية في بلاد الميديين فانه من الصعب تقرير ما اذا كان سكوت ذرادشت يفسر باسباب نزاعات كلامية او ببساطة الأهمية المتواضعة ، ربما حتى فقدان ، هذا الاله للزمن والقدر في اوساط النبي الأهمية المتواضعة ، ربما حتى فقدان ، هذا الاله للزمن والقدر في اوساط النبي
- ١٠ - نوقش نص بلوثارك من قبل ويدنغريد - ديانة الايرانيين ص ٢٤٤
- ١١ - ١٢ - ايزنك فهم جيداً ان زورفان كان خثي ، ولكن كتاباً اخرين متأخرين تكلموا عن أم ، او (زوجة) زرفان - المراجع المذكورة
- ١٣ - ٢٣ - اسماء المراجع لكل فترة ذكرت
- ٢٤ - في البوندا حسيم . . . (اوهرمازد له ايضاً ثلاثة اسماء : الزمان ، المكان ، والدين معتمدة من الزورفانية ولكنها ضرورية من أجل تفسير الخلق .
- ٢٥ - ٢٨ - اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف
- ٢٩ - ٣٠ - بالنسبة للمأزدية فإن الثنائية الراديكالية فاني كانت تمثل الهرطقة بامتياز .

- ٣١- من نخاعه تولدت النباتات الغذائية والطبية ومنه نتجت الحيوانات المفيدة ، وقد عرفت ذكرى الاسطورة من مثل هذا النموذج حول قتل الثور .
- ٣٢- اهريمان لا يستطيع مهاجمة السماء لأن الفراش المسلحين بالرمح يحملونها
- ٣٣- ٣٨- اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف
- ٣٩- اسماء المراجع «والمقصود بالتأكيد لأسطورة اخروية هندو- اوروية محافظ عليها ايضا في الهند البراهمانية ولدى الجرمن (رف ١٧٧ و ١٩٢ع)
- ٤٠- ٤١- المصادر المذكورة وكل المصادر الأخرى : ادبية ، ملحمة اثرية حول العبادة وتدخلها في الغرب ترجع فقط للقرون الأولى من الميلاد المسيحي .
- ٤٢- ٤٦- اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف
- ٤٧- ويدنغرين يذكر ان سفيرة متأخرة بابلية kalu موافقة لتضحية بشور بهدف ضمان الخصب
- ٤٨- ٥٠- اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف .
- ٥١- Losy - اسرار وثنية واسرار مسيحية ص ١٧٣ نجهل التجربة المسارية المميزة للغراب وحسب بورفير ان الغرابان مساعدة «ويذكر ان الغراب هو الرسول الذي نقل الى ميثرا أمر الشمس بذبح الثور» وان الشعائر المميزة للدرجة الزوجة كانت (مشعل الزيجات) وتاج (اشارة لفينوس) وشمعة رمز النور الجديد) المقبول منذئذ .
- ٥٢- ٥٣- تروتوليان ص ٥٠- وكان يوضع العسل على اللسان للمولود الجديد في التقليد الايراني ، ان العسل كان يأتي من القمر .
- ٥٤- بعض الباحثين يشكون بأصالة هذه المعلومات . الا انه كما يقول لوزي «ان خاصيتها الغليظة تشهد برسمتها ، الأمر الذي جعل الكاتب يفترض اعطاء تفسير رمزي لم يفهم معناه ولم يهتم باعادة تكراره(ص ١٨٣)
- ٥٥- ٦١- اسماء المراجع التي ذكرها المؤلف .

الفصل الثامن والعشرون

ولادة المسيح

٢١٩ - (يهودي غامض) : يسوع الناصري

في ٣٢ أو ٣٣ من عهدنا ، كان شاب فاريسي pharisien يدعى شاول ، وكان متميزاً بالحماس الذي كان يضطهد به المسيحيين ، وفي طريقه من اورشليم الى دمشق . «فجأة جلله نور آت من السماء ، قد سطع حوله ، فسقط إلى الأرض ، وسمع صوتاً يقول له : «شاول ، شاول . لماذا تضطهدينى ؟» فقال : «من أنت يارب ؟» قال : أنا يسوع الذي أنت تضطهده . فقم وادخل المدينة فيقال لك ما يجب عليك أن تفعل» . وأما رفقاؤه فوقفوا مبهورين يسمعون الصوت ولا يرون أحداً . فهض شاول عن الأرض وهو لا يبصر شيئاً ، مع ان عينيه كانتا منفتحتين ، فاقتادوه بيده ودخلوا به دمشق . فلبث ثلاثة أيام مكفوف البصر لا

يأكل ولا يشرب» . وكان في دمشق تلميذ اسمه (حنينا) ، فناداه الرب أثناء الرؤيا : (ياحنينا) قال لبيك يارب . ففرض عليه الذهاب الى شاول ومضى (حنينا) فدخل البيت ووضع يديه عليه فقال «ياأخي شاول ، إن الرب أرسلني وهو يسوع الذي تراءى لك في الطريق التي قدمت منها ، أرسلني لتبصر وتمتلىء من الروح القدس» فتساقط عندئذ من عينيه مثل القشور . فأبصر وقام فاعتمد ثم تناول طعاماً فعادت إليه قواه»^(١)

هذا ما جرى بعد عامين أو ثلاثة من الصلب . (يجهل التاريخ الدقيق لموت يسوع : فيمكن ان يكون قد حصل في ٣٠ أو ٣٣ . وبالتتبع ، فإن اعتداء بولس يمكن تحديده على الأكثر في ٣٢ أو فيما بعد في ٣٦) . وكما سنرى ، فإن الايمان بالمسيح المبعوث يشكل العنصر الاساسي في المسيحية ، وبخاصة مسيحية القديس بولس^(٢) . وهذه الواقعة ذات أهمية كبرى ، لأن رسائله تشكل الوثائق الأولى التي تروي تاريخ الجماعة المسيحية . وعليه فإن الرسائل جميعها مشحونة بحماسة منقطعة النظير : تأكيد البعث ، اذن الخلاص بالمسيح . «وأخيراً كتب الهلنسي الكبير ويلا موتيـز - موالندورف ، أخيراً عبرت اللغة الاغريقية عن تجربة روحية حية ومتقدمة»^(٣) .

ويقتضي ابراز واقعة أخرى : الزمن القصر - بضع سنوات - الذي يفصل التجربة الوجدية لبولس عن الحدث الذي كشف ارشاد المسيح . وفي السنة ١٥ من إمارة تيبير Tibère (اذن في ٢٨ - ٢٩ ق.م) ، بدأ ناسك ، يوحنا المعمدان ، يجوب اقليم الاردن ، «معلنًا تعميداً للتوبة ومن أجل حط الذنوب» [لوقا ٣: ١] وقد وصفه المؤرخ فلافيوس جوزيف «رجل شريف» كان يحض اليهود لممارسة الفضيلة ، والعدالة والرحمة [آنت . جود . ١٨ . ف، ١١٦ - ١١٩] . وبالفعل كان نبياً حقيقياً ضد التراتيبات السياسية والدينية اليهودية . ان يوحنا المعمدان الرئيس لمذهب ألفي ، أعلن قرب قيام المملكة ، ولكن دون ان يدعي بلقب مسيح . وكان لدعوته نجاح بارز ، ومن بين الألوف من الاشخاص الذين سارعوا من كل فلسطين ليتلقوا التعميد وجد يسوع ، من أصل من الناصرة في الجليل . وحسب التقليد المسيحي ، فإن يوحنا المعمدان عرف فيه المسيح ، ونجهل السبب

الذي من أجله عمّد المسيح ، إلا أنه من المؤكد ان التعميد كشف له الكرامة المسيحية . وفي الأناجيل ، ان سر هذا الكشف قد ترجم بصورة روح الله ، النازلة كالحمامة والصوت الآتي من السماوات والقاتل : «هذا هو ابني الحبيب الذي عنه رضيت» [متى-٣: ١٦ ومرقص ١: ١١ ولوقا ٣: ٢٢] . وينسحب يسوع الى الصحراء ، حالاً بعد التعميد ، والأناجيل تؤكد انه «اقتيد للصحراء بالروح» لكي يجرب من قبل الشيطان [مرقص ١١: ١٢ ومتى ٤: ١-١٠ ولوقا ٤: ١-٣] . إن الصفة الاسطورية لهذه التجارب واضحة ، ولكن رمزيتها تكشف البنية المميزة للأخوية المسيحية . ومورفولوجيا (تشكليا) إن السيناريو مشكل من سلسلة من الامتحانات المسارية مشابهة لتجارب غوتاما بوذا (ب- ١٤٨ع) فيسوع يصوم اربعين يوماً واربعين ليلة والشيطان يجربه : طلب إليه بدنيا معجزات «مر أن تتحول هذه الحجارة الى خبز» ؛ ويقوده الى قمة معبد اورشليم ويقول له : «إذا كنت ابنا للرب ، ألقي بنفسك للأسفل» ثم يقدم له السلطة المطلقة : «كل ممالك العالم مع امجادها» وبعبارة اخرى ، يقدم له الشيطان القوة لابطال الامبراطورية الرومانية «اذن الانتصار العسكري لليهود المعلن من قبل الرائيين» شريطة ان يركع يسوع أمامه^(٤) . وتماثا كيوحنا المعمدان مارس يسوع التعميد ، خلال بعض الوقت ، وعلى الأرجح بنجاح اكثر من يوحنا [يوحنا ٣: ٢٢ - ٢٤ ، ٤: ١٢] . إلا أنه وقد عرف ان النبي أوقف من قبل هيرودوت ترك جودا الى بلدته الأصلية . ويفسر المؤرخ فلافيوس جوزيف . حركة هيرودوت بالخوف : لقد خاف هذا من تأثير المعمدان على الجماهير وتدمير عصيان . ومهما كان من أمر ، فإن حبسه فجر نبوءة يسوع . فمنذ وصوله الى الجليل ، أعلن يسوع الانجيل ، أي الخبر الطيب «حان الوقت واقترب ملكوت الله . . . فتوبوا وآمنوا بالبشارة»^(٥) . ان الرسالة تعبر عن الأمل الأخروي الذي ، مع قليل من الاستثناءات ، كان قد ساد التدين اليهودي منذ اكثر من قرن . وحسب الانبياء ، وحسب يوحنا المعمدان ، تنبأ المسيح بقرب تحول العالم : وهذا هو الجوهر في تنبؤه [ف ٢٢٠ ع] .

* البشارة : la Bonne Nouvelle - (التي اتى بها يسوع من عند الأب لخلاص الناس) هكذا يعرفها شراح الأناجيل)

وأخذ يسوع بالتبشير والتعليم محاطاً بتلامذته الأول ، في الكنس ، وفي الهواء الطلق ، متوجهاً بخاصة إلى المتواضعين وإلى الفقراء . وكان يستعمل الوسائل الارشادية التقليدية مستنداً الى التاريخ المقدس وإلى الشخصيات التوراتية الأكثر شعبية ممثلاً من مستودع لا تعيه الذاكرة من الصور والرموز ، ومستعملاً بخاصة اللغة المصورة بالأمثال . وكالعديد من «الرجال الالهيين» الآخرين للعالم الهلنستي ، كان يسوع طبيباً وصانع معجزات thaumaturge ، شافٍ من كل الأمراض ومساعداً أو مواسياً من به مس من الشيطان . وقد أصبح مشتبهاً فيه بالسحر على اثر بعض المعجزات ، وتلك جريمة كان يعاقب عليها بالموت . «وكان يطرد شيطانا أخرس . فلما خرج الشيطان تكلم الأخرس فأعجب الجموع . على ان أناساً منهم قالوا : «إنه بيعل زبول سيد الشياطين يطرد الشياطين» . وطلب منه آخرون آية من السماء ليخرجوه»^(٦) . فالشهرة بالراقي وصانع المعجزات لم تنس من قبل اليهود ؛ وهنالك تقليد من القرن الأول أو الثاني يشير الى ييشو Yeshu الذي «طبق السحر وضلل اسرائيل»^(٧) .

ولم تتأخر نبوءة يسوع عن اثارة قلق الجماعتين ذات التأثير السياسي والديني ، الفريسيين les pharisiens والصدوقيين les sadduciens . وكانت الجماعة الأولى غاضبة للحرريات التي اتخذها الناصري تجاه التوراة . أما بالنسبة للصدوقيين ، فكانوا قلقين تجنباً للاضطرابات القابلة للانفجار على اثر كل دعاية مسيحية .

وفي الواقع ان مملكة الرب المبشر بها من قبل يسوع كانت تعيد الى الذاكرة ، بالنسبة الى بعضهم ، التعصب الديني والتصلب السياسي للزولوتين des Zélotes . فقد كان هؤلاء رفضوا الاعتراف بسلطة الرومان لأنهم بالنسبة اليهم «ان الاله وحده كان الحاكم والسيد» [يوسف : جودا . . ١٨ ، ٦١ (ف ٢٣)] . وقد كان على الأقل واحد من اثني عشر من الحواريين Apotres سمعان الغيور ، احد الزيلوط القدامي [مرقص ٣ : ١٥] . ويقرر لوقا ان احد التلامذة قال بعد الصلب : «وكنا نحن نرجو أنه هو الذي سيفتدي اسرائيل . . .» [٢٤ : ٢١] .

ومن جهة اخرى فان واحداً من المشاهد الأكثر استعراضية والأكثر غموضاً والمروية بالانجيل توضح سوء التفاهم بشأن مملكة معلنة من قبل يسوع^(٩) . فبعد أن وعظ شطراً من اليوم ، علم يسوع أن الـ ٥٠٠٠ شخص الذين اتبعوه على شطآن بحيرة طبريا قد فقدوا الطعام . عندئذ أجلسهم وزاد باعجوبة ، بعض الأرغفة من الخبز وبعض السمك فأكلوا جميعهم [يوحنا : ٦ : ١١] . ويتعلق هذا بطقس قديم جداً ، تعيد ترجمته تأكيد واحياء التضامن الصوفي للجماعة ، وفي هذه الحالة ، فإن الوجبة المشتركة يمكن لها ان تدل على الاستباق الرمزي للأخوية ، ولأن لوقا [١١ : ٩] يؤكد ان يسوع أتى ليتكلم لهم عن مملكة الرب . غير ان الجمهور المذهول بهذه المعجزة الجديدة لم يفهم دلالتها العميقة ورأى في يسوع «النبي الملك» المنتظر بحماس ، وذلك الذي سيحرر إسرائيل . «وعلم يسوع أنهم يهمون باختطافه ليقيموه ملكاً ، فانصرف وعاد وحده إلى الجبل» [يوحنا ٦ : ١٥] عندئذ فرق الجماعة ، وانسحب مع تلامذته في زورق واجتاز بحيرة طبريا .

إن سوء التفاهم يمكن له ان يفسر بعضيان مجهض . وفي كل حال ، فإن يسوع قد ترك من قبل الجمهور . وحسب يوحنا [٦ : ٦٦ : ٦٧] ان الاثني عشر وحدهم بقوا مخلصين له . وان يسوع قرر معهم الاحتفال بعيد الفصح في ٣٠ (أو ٣٣) في اورشليم . لقد اثير نقاش طويل - ومازال يثار - حول الهدف لهذه المهمة . فمن المحتمل ، ان يسوع أراد اعلان رسالته في وسط ديني لاسرائيل بهدف إقحام جواب حاسم في معنى أو آخر^(١٠) . وعندما كان بالقرب من اورشليم فإن الناس «تصوروا أن عرش الرب سيظهر في ذات اللحظة» [لوقا ١٩ : ١١] لقد دخل يسوع في المدينة كملك مسيحاني [مرقص ١١ : ٩-١٠] . طرد البائعين والشارين من الهيكل ووعظ الشعب [١٥ : ١١] . وفي الصباح دخل مجدداً الى المعبد وأخذ يروي لهم مثل الكرامين القتلة ، الذين بعد ان قتلوا الخدم المرسلين من قبل معلمهم قتلوا ابن صاحب الكرم . وتساءل فماذا يفعل رب الكرم ؟ واستنتج يسوع ، إنه يأتي ويهلك الكرامين ويعطي الكرم آخرين [مرقص ١٢ : ٩] . وبالنسبة للكهنة وللكتبة ، فإن دلالة المثل كانت واضحة : الأنبياء قد

اضطهدوا ، وآخر مرسل يوحنا المعمدان ، أوشك ان يقتل . وحسب يسوع ، ان اسرائيل كانت تمثل دوماً كرامة الرب ، ولكن سلطتها الدينية كانت مدانة ؛ إن اسرائيل الجديدة سيكون لها رؤساء آخرون^(١١) . واكثر من ذلك ، ان يسوع كان قد جعلهم يدركون انه هو الوريث للكرمة ، (الابن الحبيب) للمعلم - اعلان مسيحاني يمكن له ان يثير الانتقامات الدموية للمالك . وعليه ، وكما سيقول الخبر الأكبر قيافا : «انتم لا تدركون شيئاً ، ولا تفطنون انه خير لكم ان يموت رجل واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة بأسرها» [يوحنا ١١ : ٥] . ولقد توجب التدخل بسرعة ، دون تنبيه انصار يسوع ، والتوقف يجب ان يحصل خلال الليل بسرية . وفجر الفصح دشّن يسوع آخر وجبة مع تلامذته . وهذه الوليمة الكاملة للاصدقاء ، ستصبح الشعيرة المركزية للمسيحية : سر القربان المقدس *encharistie* التي ستطالعنا دلالتها فيما بعد (ف ٢٢٠ع) .

«بعد التسيّجات ، ذهبوا لجبل الزيتون» [متى ٢٦ : ٣٠] . ومن هذه الليلة المؤثرة ، حفظ التقليد ذكرى حدثين لازما ضمائر المسيحيين . فقد خاطب يسوع بطرس : «الحق أقول لك : في هذه الليلة قبل ان يصيح الديك ، تنكرني ثلاث مرات» [متى ٢٦ : ٣٤] ومرقس ١٤ : ٢٦-٣١ . وعليه فإن يسوع كان يرى في بطرس تلميذه الأكثر ثباتاً ، ذلك الذي يجب ان يدعم الجماعة من المؤمنين .

وبالتأكيد إن إنكاره لم يفعل سوى التأكيد على سرعة عطب البشرية . ومع ذلك ، فإن مثل هذا التصرف لم يبلغ أبداً الجدارة والفضائل اللدنية *charismatiques* لبطرس . وان دلالة هذا الحدث المعقد واضحة : في بنية الخلاص ، لا تحسب أبداً الفضائل البشرية وكذلك الآثام ، والذي يهم ، هو التوبة وعدم اضاعة الأمل . إن جزءاً كبيراً من تاريخ المسيحية سيكون من الصعب تبريره دون سابقة بطرس : لإنكاره وتوبته [متى ٢٦ : ٧٤] أصبحتا بنوع ما النموذج المثالي بالنسبة لكل حياة مسيحية .

وليس أقل مثالية هو المشهد التالي ، الذي يجري في ضيعة يقال لها

جثشمانية* : يصحب يسوع معه بطرس وتلميذين آخرين وقال لهم : «نفسى حزينه حتى الموت . امكثوا هنا واسهروا معي» . [متى ٢٦ : ٣٨] ثم ابتعد قليلا وسقط على وجهه يصلي ويقول . «ياأبت إن أمكن الأمر ، فلتبتعد عني هذه الكأس ، ولكن لا كما أنا أشاء ، بل كما أنت تشاء» [٢٦ : ٣٩] . ولكنه عندما رجع ، وجد تلامذته على وشك أن يناموا . فقال لبطرس : «أهكذا لم تقفوا على السهر معي ساعة واحدة : اسهروا وصلوا لئلا تقعوا في التجربة . الروح مندفع وأما الجسد فضعيف» [٢٦ : ٤٠] وأمرهم مرة جديدة بالسهر والصلاة ، وعبثاً ، فبرجوعه «وجدهم مجدداً على أهبة النوم ؛ لأن أعينهم كانت مثقلة» [٢٦ : ٤١] . ومرقص ١٤ : ٣٢ - ٤٢ ولوقا ٢٢ : ٤٠ - ٤٦ وعليه ، فمعلوم منذ مغامرة جلقامش (ف ٢٣ ع) ان الانتصار على النعاس ، والبقاء متيقظاً ، يشكل التجربة المسارية الأكثر قسوة ، لأنها ترمي لتحويل الشرط المادي ، ولانتصار «الخلود» . وفي جثشمانية ، بدت «اليقظة المسارية» - مع انها كانت محددة بوضع ساعات - انها فوق الطاقات البشرية . وهذه الخيبة ستصبح هي أيضاً ، نموذجاً مثالياً بالنسبة لأكثرية المسيحيين .

وبعد وقت قصير ، اوقف يسوع من قبل حرس الكاهن الأكبر ، المدعم على الأرجح بجنود رومان . ومن الصعب التحديد بدقة لنتيجة الأحداث . والأنجيل تقرر حكمين منفصلين ، لأنه ، وقد سئل من قبل كبير الكهنة : «أأنت المسيح ، ابن المبارك ؟ فقال يسوع : «أنا هو . وسوف ترون ابن الانسان جالساً عن يمين القدير وآتياً في غمام السماء» [مرقص ١٤ : ٦١ - ٦٢ . متى ٢٦ : ٥٧ - ٦٨ ، لوقا ٢٢ : ٥٦٤ ٦٦ : ١٧] .

لقد كان يعاقب على التجديف بالرجم ، ولكنه من غير المتيقن أنه في عهد السهودرين كان له الحق بتطبيق العقوبة الرئيسية . وعلى كل حال ، فإن يسوع قد حوكم بعدئذ من قبل بونس بيلاطس ponce pilate حاكم يهودية judée . متهما بالتمرد «أأنت ملك اليهود ؟» وأدين بالموت بطريق الصليب ، وهي عقوبة رومانية

* كلمة عبرية معناها معصرة للزيتون ، والضيعة المذكورة في وادي قدرون في اسفل جبل الزيتون .

نموذجية . ومواجهها بسخرية (مرتديا معطفاً ارجوانيا وتاجاً من الشوك) حياه الجنود : «سلاماً ، ملك اليهود !» . وقد صلب يسوع بين لصين . مع هذه العبارة - Iestes = خليع - كان يشير جوزيف عادة الى المتمردين ، «وهكذا فإن نص التنفيذ ليسوع كان بوضوح قمع التمرد اليهودي ضد الحكومة الرومانية وانصارهم في يهودا . فكل اعلان عن مجيء مملكة الرب تقتضي في أعين سلطات اورشليم احياء مملكة يهودية»^(١٢) .

وقد تشتت المؤمنون نتيجة القرار بعقوبة يسوع . وبعد زمن قصير من التوقيف انكره تلميذه المفضل بطرس ، ثلاث مرات . ومن المؤكد ان نبوءة يسوع ، وربما حتى اسمه ، قد طمسها النسيان ، ماعدا مشهد متفرد وغير مفهوم خارج الدين : قيامة المعذب . فالسنة المنقولة من قبل بولس وبالأناجيل تضيي أهمية حاسمة لقبر فارغ ولعدد من ظهورات يسوع المنبعث حيا . ومهما كانت طبيعة هذه التجارب ، فإنها تشكل المصدر والأساس للمسيحية . فالإيمان بيسوع المسيح المبعوث حولت قبضة من الهاربين المثبطي الهمة الى جماعة من الناس المصممين والواقفين بأنهم لن يغلبوا . ويمكن القول تقريباً ان الاحبار عرفوا ، هم أيضاً ، التجربة المسارية للحنوط والموت الروحي قبل ان يولدوا لحياة جديدة وان يصبحوا المبعوثين الأول للانجيل .

٢٢٠ - الخبر الجيد : مملكة السماء آتية قريباً :

لقد تكلم رودولف بولتمان عن «السطحية الغير محتملة» للسير الذاتية ليسوع . وفي الواقع ، ان الشهادات قليلة وغير موثقة . واكثرها قدما رسائل بطرس التي تهمل بالكلية تقريباً الحياة التاريخية ليسوع ، ان الاناجيل الاربعة المتوافقة المحررة ما بين ٧٠ و ٩٠ ، تجمع التقاليد المنقولة شفاهاً عن طريق الجماعات المسيحية الأولى . ولكن هذه التقاليد تنسب ليسوع كما تنسب للمسيح المبعوث . وهذا لايلغي بالضرورة قيمتها الوثائقية ، لأن العنصر الأساسي

للمسيحية ، كما هو من جهة أخرى ، لكل دين منسوب لمؤسس ، هو فعلا الذكرى . فذكرى يسوع هي التي تشمل الأسوة لكل مسيحي . ولكن التقليد المنقول من قبل الشهود الأول كان «نموذجيا» وليس «تاريخيا» فقط ، انه حفظ البنى الموضحة للأحداث وللنبوءة ، وليس الذكرى الدقيقة لنشاط يسوع . وهذه الظواهر معروفة جداً وليس في تاريخ الاديان فقط .

ومن جهة اخرى يجب ان يؤخذ في الحسبان ، واقعة ان المسيحيين الأوائل ، يهود اورشليم ، كانوا يشكلون مذهباً رؤوياً داخل اليهود الفلسطينيين ، لقد كانوا في انتظار وشيك الوقوع لرجعة ثانية للمسيح ، وقد كانت هذه نهاية التاريخ التي أشغلت بالهم ، وليس عمل المؤرخين للانتظار الأخروي . اضافة الى ذلك ، وكما توجب الانتظار ، فسرعان ما تبلورت ميتولوجيا كاملة ، حول صورة المعلم المبعوث ، والتي تعيد الى الذاكرة الآلهة المنقذين والانسان المأمول الهيا (theio anthropos) وهذه الميتولوجيا التي سنشير اليها فيما بعد (ف ٢٢٢ع) هامة بصورة خاصة : فهي تساعدنا لفهم البعد الديني المميز للمسيحية وكذلك تاريخها التالي . فالأساطير التي ألقت يسوع الناصري في عالم من نماذج مثالية وصور متصاعدة هي ايضا «صحيحة» كإشارته وكلماته : هذه الأساطير تؤكد في الواقع ، القدرة والابداعية لرسالتها الأصلية ، زد على ذلك ، فإنه بفصل هذه الميتولوجيا والرمزية الشاملتين ، أصبحت اللغة الدينية المسيحية مسكونية ومقبولة خارج بؤرتها الأصلية .

ومن المتفق عليه ، القبول بأن الأناجيل الأربعة المتوافقة synoptique قد نقلت إلينا الجوهر من الرسالة ، وفي المكان الأول منها اعلان مملكة الرب ، وكما ذكرنا سابقاً ، فإن يسوع بدأ مهمته مبشراً في الجليل «بالعهد الجديد الآتي من الله : «لقد كملت الازمان ومملكة الله قريبة جداً» [مرقص : ١ : ١٥] والآخرة وشيكة : «الحق اقول لكم : في جملة الحاضرين هنا من لا يدوقون الموت ، حتى يشاهدوا ملكوت الله آتياً بقوة» [مرقص ٩ : ١/١٣-٢٤] «أما ذلك اليوم أو تلك الساعة فما من أحد يعلمها : لا الملائكة في السماء ، ولا الابن ، الا الآب . فاحذروا واسهروا ، لأنكم لا تعلمون متى يحين الوقت [مرقص ١٣-٣٢-٣٣] مع

ذلك فإن هنالك صيغاً أخرى عن يسوع تجعل معلوماً ان المملكة موجودة سابقاً . فبعد تعويذة قال : «واما اذا كنت باصبع الله اطرده الشياطين ، فقد وافاكم ملكوت الله» [لوقا ١١: ٢٠] وفي مناسبة اخرى يؤكد يسوع انه منذ ازمان يوحنا المعمدان «منذ ايام يوحنا الى اليوم ملكوت السموات يؤخذ بالجهاد والمجاهدون يخطفونه» [متى ١١: ١٢]* . والمعنى يبدو هو : ان المملكة معطلة باعمال العنف ولكنها موجودة آنئذ وخلافاً لتناذر رؤوي مثار على نطاق واسع في أدب العصر ، فإن المملكة جاءت بدون كارثة أرضية ، لابل دون علامات خارجية . «لايأتي ملكوت الله على وجه يراقب . ولن يقال : هاهو ذا هنا أو هاهو ذا هناك . فها إن ملكوت الله بينكم» [لوقا ١٧: ٢٠] في الأمثال ، وقال : «مثل ملكوت الله كمثل رجل يلقي البذر في الأرض ، فسواء نام أو قام ليل نهار فالبذر ينبت وينمي ، وهو لا يدري كيف يكون ذلك [مرقص ٤-٢٦-٢٩] وانه مثل حبة خردل : فهي حين تزرع في الأرض أصغر سائر البذور التي في الأرض . فاذا زرعت ، ارتفعت وصارت اكبر البقول كلها . . . [مرقص ٤ - ٢٨ ، متى ١٣-٣١] ومثل ملكوت السماوات كمثل خمرة أخذتها امرأة فجعلتها في ثلاثة مكاييل من الدقيق حتى اختمرت كلها» [متى ١٣-٣٣] .

ومن الممكن ان هذين الاعلانيين المتباعدين عن الملكوت - في وقت مستقبل قريب جداً ، وفي الحاضر - يناسبان صوراً متتالية عن مهمة يسوع^(١٥) . كما يمكن الاعتقاد بأنها تعبر عن ترجمتين لذات الرسالة : (١) قرب الملكوت المعلن عنه من قبل الأنبياء والرثيين ، وبعبارة أخرى «نهاية العالم التاريخي» و(٢) تقدم المملكة المكتملة بأولئك الذين ، بفضل توسط يسوع ، يعيشون مسبقاً في الحاضر التوقيتي للدين^(١٦) .

وهذه الترجمة الثانية هي بصورة خاصة ممكنة لرسالة تبرز الجدارة المسيحانية ليسوع . وبعيد عن الشك ، ان تلاميذه قد اعترفوا به كمسيح ، كما

* اختلف المفسرون في معنى هذه الآية ، وقد يكون أحسن تفسير ماجاء في متى ٢٩/٥ و ١٣/٧-١٤ أي : لا بد للانسان من ان يجهد نفسه ويبدل أئمن ماعنده لكي يدخل ملكوت الله [المعهد الجديد الدار الكاثوليكية بيروت طبعة ٩٧٩] . المترجم .

ثبت ذلك التسمية «المسيح christ» المعادل الاغريقي لكلمة المسيح . ويسوع لم يستعمل مطلقاً هذا التعبير تجاه ذاته ؛ ومع ذلك قبله عندما لفظ به آخرون [مرقس ٨ : ٢٩ ، ١٢ : ٦١] ومن المرجح ان يسوع قد تجنب التسمية (المسيح) لكي يوضح الفرق بين النبا السعيد (البشارة) التي بشر بها والأشكال القومية للمسيحانية اليهودية . فملكوت الله لم تكن الثيوقراطية التي اراد الزيلوط Zelotes احياءها بقوة السلاح . ويسوع قد عرف نفسه بخاصة ، بعبارة ابن الانسان . وهذا التعبير الذي لم يكن في البدء سوى مرادف «للانسان» (ر.ف ٢٠٣ ع) انتهى ليدل - بشكل مضمحل في نبوة يسوع ، وعلمنا في الثيولوجيا المسيحية - على ابن الله .

إلا أنه ، في المعيار الذي يمكن فيه اعادة تشكيل ، «شخصية» يسوع أقله في خطوطها الكبرى ، فبصورة الخادم المتألم [اشعيا ٤٠ - ٥٥] (ف ١٩٦ ع) يمكن مقارنته . «لاشيء يسمح برفض الآيات كزائفة حيث يتكلم عن التجارب التي تنتظره . وان كل مهمته هي التي ستصبح غير قابلة للتفسير اذا رفضنا قبول انه واجه وقبل ظرفية الآلام ، والاهانة وبدون شك الموت نفسه . فبصعوده لأورشليم ، تحمل اخطار مسيرته وربما دون ان يستبعد تماما إمكانية تدخل مظفر من قبل الاله» (١٧) .

«لاتظنوا اني جئت لأبطل الشريعة أو الأنبياء ماجئت لأبطل بل لأكمل» [متى ٥ : ١٧] وتاماً كالأنبياء ، يجد طهارة القلب على حساب الشكلية العلقوسية ، فيرجع بدون كلل الى محبة الاله القريب . وفي الموعظة على الجبل [متى ٥ : ٣-١٢ ولوقا ٦ : ٢٠-٢٣] يثير يسوع النعم التي تنتظر المحسنين وأصحاب القلوب الطاهرة والمسلمين والرحماء والمضطهدين والساعين الى السلام والمحزونين ولفقراء الروح . . وان هذا هو النص الانجيلي الأكثر شعبية لآخرة العالم المسيحي . ومع ذلك ، بالنسبة ليسوع ، فان اسرائيل يبقى دوماً الشعب المختار من الله . انه للنعاج الضالة من بني اسرائيل قد ارسل «لم أرسل الا الى الخراف الضالة من آل اسرائيل» [متى ١٥ : ٢٤] ولا يلتفت نحو الوثنيين الا بشكل استثنائي : انه يعلم تلامذته ليتجنبوهم [متى ١٠-٦] . ولكنه يبدو انه قبل «كل الأمم» بعد قيامته : «انني اوليت كل سلطان في السماء والأرض فاذهبوا وتلمذوا

جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس وعلموهم ان يحفظوا كل ما اوصيتكم به وها أنذا معكم طوال الأيام إلى نهاية العالم [متى ٢٨ : ١٨ - ١٩] مرقس ١٣ : ١١] على إثر الأنبياء ، ويوحنا المعمدان ، تابعت مهمة يسوع التحويل الجذري للشعب اليهودي ، وبعبارة أخرى ، انبثاق اسرائيل جديدة ، وشعب جديد للاله . فالأب [لوقا ١١ : ٢-٤ ومتى ٩ : ١٣] يلخص باعجاب «الطريقة» للعودة إليه . عبارة من التقوى العبرية ، فالصلاة لا تستعمل ابد الضمير الشخصي المفرد وانما بالجمع فقط : أبانا ، أعطنا اليوم خبز يومنا واعفنا عما علينا ، نجنا من الشرير . والمحتوى يتفرع من صلاة قديس kaddish للكنيس القديم ، انه يعكس الحنين لاعادة ايجاد تجربة دينية بدائية : تجلي يهوه بصفته أبا . ولكن النص المعروف من يسوع هو اكثر ايجازا واكثر عاطفة^(١٨) . ومع ذلك فإن كل صلاة يجب ان تدخل بالايان الصحيح ، اي الايمان الذي شهد به ابراهيم (ف ٥٧ ع) . «لأن الله على كل شيء قدير» [مرقس ١٠ : ٢٧] كذلك «كل شيء ممكن لمن يؤمن» [مرقس ٩ : ٢٣] بفضل القوة الخفية للايمان الابراهيمي ، تغيرت جذرياً طريقة تكوّن الانسان الخائر القوى . «كل ما تطلبه في الصلاة ، آمن بأنك حصلت عليه وهذا ما سيأتيك» [مرقس : ١١-٢٤ ومتى ٢١ : ٢٢] . وبعبارة أخرى ، فإن اسرائيل الجديد ينشق خفية بقدرة الايمان الابراهيمي . الأمر الذي يفسر من جهة اخرى نجاح الرسالة المسيحية المبشرة بالايان بيسوع المسيح المبعوث .

وعندما احتفل يسوع في آخر مشهد مع تلامذته «أخذ الخبز وبعد ان قدسه ، قطعه واعطاه لهم قائلاً : خذوا ، هذا هو جسدي ؛ ثم أخذ قدحاً وشكر واعطاها لهم وشربوا جميعهم . وقال لهم : هذا دمي ، دم العهد الذي يراق من أجل الناس لغفران الخطايا»^(١٩) . ولم يتردد أحد المفسرين المعاصرين عن ان يكتب : «لا يوجد كلمات اخرى ليسوع مؤكدة بقوة اكثر»^(٢٠) . ولوقا وحده يقرر ايعاز يسوع : «اجعل هذا ذكرى لي» [١٨ : ٢٢] . ومع ان بولس يؤكد رسمية هذا التقليد (رسالة الى الكوراثتين ١١ : ٢٤) لاتوجد أية وسيلة لاثبات ان هذه الكلمات قد تلفظ بها يسوع . ان هذا الطقوس يحدد الطقوس الأهلي اليهودي ، وبخاصة تكريم الخبز والخمر . . وغالباً ان يسوع قد طبقه ؛ وعندما كان العشارون والصيادون حاضرين ، أعلنت الوليمة على الأرجح الملكوت^(٢١) .

وبالنسبة للمسيحيين الأوائل ، فإن «قطعة الخبز» (أعمال الرسل ٢: ٤٢) كانت تشكل العمل الطقوسي الأكثر أهمية . فمن جهة ، كان هذا إعادة تحيين حضور المسيح ، وبالنتيجة ، الملكوت الذي كان قد بعثه ، ومن جهة أخرى ، فإن الطقس كان يسبق المأدبة المسيحانية لنهاية الأزمنة . ولكن كلمات يسوع تكشف دلالات اعماق : ضرورة تضحيته ارادياً من أجل ضمان «العهد الجديد»^(٢٢) . بناء اسرائيل الجديد . وهذا مايدخل القناعة بأن حياة دينية جديدة لا تنبثق الا عبر موت تضحوي ؛ وهذا المفهوم ، كما هو معروف ، قديم ومتشرب عالمياً . ومن الصعب التحديد بدقة فيما اذا كانت هذه المشاركة الطقوسية مع جسده ودمه معتبرة من قبل يسوع كتما هي صوفي مع شخصه . وهذا مايؤكد عليه بولس [رسالة ١ الى الكورنثيين ١٠ : ١٦ و ١٢ : ٢٧ و الى الرومانيين ١٢ : ٥ ايفيزين ٤ : ١٢] . ورغم اصولية فكره ولغته اللاهوتيتين ، يمكن انه يمدد تقليداً اورشليمياً رسمياً^(٢٣) . وعلى كل حال فان الوجبة المتخذة بالمشاركة من قبل المسيحيين الأوائل تقلد التصرف الأخير ليسوع ؛ فقد كان هذا في آن واحد مشهداً يمكن تذكره ، وتكراراً شعائرياً لتضحية تطوعية من قبل الفادي .

تشكلياً morphologiquement يذكر سر القربان المقدس l'Eucharistie بولائم الاصدقاء agapes الطقوسية المطبقة في الأزمنة القديمة في حوض البحر المتوسط ، وبخاصة في ديانات الأسرار^(٢٤) . وقد كان هدفها التكريس ، اذن الخلاص ، للمساهمين ، بالمشاركة مع ألوهية من بنية سرية حكيمة mystériosophique . وان خط التقارب مع الشعيرة المسيحية له دلالة : إنه يبرز الأمل الشائع في ذلك العصر ، لتماهي صوفي مع الألوهة . وان بعض المؤلفين قد حاول تفسير سر القربان المقدس بتأثيرات الديانات الشرقية للسلامة ، ولكن الفرضية لا أساس لها . ففي المعيار الذي رمت فيه الى تقليد المسيح ، كانت الوليمة البدائية تشكل تقديساً فرضياً . ويمكن القول من الآن ان هذا الطقس المركزي - الأكثر أهمية في العقيدة المسيحية ، مع التعميد - قد ألهم عبر قرون اللاهوتيات العديدة والمختلفة ، وفي عصرنا مازال تفسير سر القربان المقدس يفصل الكاثوليكية

٢٢١ - ولادة الكنيسة

يوم عيد العنصرة (عيد الحصاد عند اليهود) le pantecole للسنة ٣٠ ، كان تلامذة المسيح قد وجدوا جميعهم ، «ولما أتى اليوم الخمس»^(*) كانوا مجتمعين كلهم في مكان واحد ، فانطلق من السماء بغثة دوي كريح^(**) عاصفة فملاً جوانب البيت الذي كانوا فيه وظهرت لهم السنة كأنها من نار قد انقسمت فوقفت على كل منهم لسان ، فامتلاوا جميعاً من الروح القدس ، وأخذوا يتكلمون بلغات غير لغتهم . . . [أعمال الرسل ٢ : ١-٤] . إن التجليات النارية للروح الالهية تشكل نعمة معروفة جداً في تاريخ الأديان : فهي توجد في مابين النهرين (ميتروباتيا) (ف ٢٠٠ ع) وفي ايران (ف ١٠٤ ع) وفي الهند (بوذا ، ماهافيرا الخ ١٥٢ ع) . ولكن النص عن عيد العنصرة يرمي لهدف اكثردقة ، فالريح العاتية ، والألسنة من النار ، ولغة المعتمهين تذكر ببعض التقاليد اليهودية المتعلقة بالظهور على سيناء^(٢٥) . (ف ٥٩ ع) . وبعبارات أخرى ، فإن هبوط الروح المقدسة قد فسرت كما لو أنها كشفت جديد للاله ، مماثل للكشف في سيناء . ففي يوم العنصرة ولدت الكنيسة المسيحية . فلم يبدأ الرسل بالتنبؤ بالانجيل واكمال عدد من المعجزات والاشارات الا بعد تلقيهم للروح القدس [أعمال الرسل ٢ - ٤٣] . ففي ذلك اليوم وجه بطرس إلى الجمهور أول دعوة للإيمان . واضطلع هو ورفاقه بعبء الشهادة لبعث يسوع - المسيح ، والله هو الذي بعثه [أعمال الرسل ٢ : ٢٤ و ٣٢ . . . الخ] . والمعجزة قد كان تنبأ بها داوود [٣١ : ٢] ، فالبعث أو القيامة هو إذن الحدث الأخروي المعلن من قبل الأنبياء [٢ : ١٧ - ٢١] . فبطرس يطلب إلى

* لقيامة يسوع

** هنالك صلة بين الريح والروح ، وجناس لفظي في الأصل اليوناني لأن الكلمة الواحدة تعني الروح وتعني الريح [العهد الجديد المطبعة الكاثوليكية بيروت لعام ٩٧٩] - المترجم

اليهود التوبة وان «يعتمد كل منكم باسم يسوع المسيح لغفران خطاياكم فتتالوا موهبة الروح القدس» [٢: ٢٨] وهذا الخطاب الأول ، الذي أصبح النموذج المثالي (للاعلان المسيحي) Kerygma ، اتبع باهتداءات عديدة للمسيحية (٣٠٠٠ حسب اعمال الرسل ٢: ٤١) وفي مناسبة اخرى (أشقى رجلا كسيحا منذ بطن امه يحمله بعض الناس . . . » [٣: ١-٩] ونصح بطرس اليهود لأن يعترفوا بأنهم أخطأوا ، جهلاً ، بادانة يسوع ، وان يتوبوا متقبلين للتعميد [٣: ١٣-١٩] .

إن أعمال الرسل ، تدعنا نتبصر الحياة للجماعة المسيحية الأولى في اورشليم (التي اسمها المؤلف بالاسم الاغريقي ايكليزيا ecclesia) وحسبما يبدو ، ان المؤمنين مازالوا يتبعون انتظاما دينيا تقليديا (ختان الأطفال الذكور ، التطهير الشعائري ، الراحة يوم السبت الصلاة في المعبد) . ولكنهم يتجمعون عادة للتعليم وكسر الخبز والصلوات [٢: ٤٢] وقد استولى الخوف على جميع النفوس لما كان يجري على ايدي الرسل من المعجزات والآيات وكان جميع الذين آمنوا جماعة واحدة يجعلون كل شيء مشتركاً بينهم ، يبيعون املاكهم وأموالهم ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كل منهم ، يلازمون الهيكل كل يوم بقلب واحد ويكسرون الخبز في البيوت ، ويتناولون الطعام بابتهاج وسلامة قلب يسبحون الله وينالون حظوة عند الشعب كله . وكان الرب كل يوم يضم الى الجماعة أولئك الذين ينالون الخلاص [٢: ٤٧] مع ذلك فإن أعمال الرسل (التي تذكر عدداً من الأمثلة عن التبشير لغير المؤمنين) لا تقرر شيئاً حول التعليم المقدم لأعضاء الجماعة . أما بالنسبة للتنظيم الاقتصادي ، فإن الأعمال تؤكد بدقة ، أن «كل المؤمنين يجعلون كل شيء مشتركاً - كما جاء في النص اعلاه [٢: ٤٤ - ٤٥] لقد كانوا في انتظار المجيء الثاني للمسيح .

ورغم طاعتهم الدقيقة للممارسات الموسوية ، فإن المسيحيين في اورشليم أثاروا عداوة كبار الكهنة والصدوقيين [٤: ٣-١] فقد اوقف بطرس ويوحنا عندما وعظا في الهيكل ، ومثلوا أمام السنهدرين ، ولكنهم أطلق سراحهم بعدئذ [٤: ٣-١] ومرة اخرى اوقف كل الرسل ثم أطلق سراحهم من قبل السنهدرين [٥: ١٧-٤١] . وبعدئذ ومن المحتمل في ٤٣ قبض الملك هيرودوس [٤١-٤٥م]

على بعض أهل الكنيسة ليقوع بهم الشر ، فقتل بحد السيف يعقوب أخا يوحنا الذي كان أراد التأكد من مساندة بيت آن . وان وضع الفريسين كان متباينا أكثر . فقد دافع جاماليل - معلم شاول - عن الرسل أمام السنهدين . ولكن الفريسين المفضلين لدى المؤمنين من أرومة اورشليمية (العبرانيين) كانوا اعداء للمهتدين حديثا المجندين بين يهود الشتات «الهللنستين» . وقد لاموهم على انفصالهم عن المعبد وعن الشريعة [١٣: ١٤] . وانه بهذا السبب رجم في ٣٦ - ٣٧ ، اسطفانس أول شهيد للدين المسيحي [٧ : ٥٨ ، ٦] «كان شاول موافقاً على قتله» [٨ : ١] وفي ذات اليوم طرد «الهلنستيون» من اورشليم فتشتوا جميعاً من نواحي يهودا والسامرة [٨ : ١] ومنذئذ فإن الرسل ، ورئيسهم يعقوب (شقيق السيد) سيحفظون سيادة كنيسة اورشليم .

لقد كشف آنثذ بعض التوتر بين (العبريين) و (الهللنستين) . فالأولون هم أكثر محافظة وشرعية ، رغم انتظارهم لظهور المسيح . وقد اتبعوا بأمانة ، القانون اليهودي للأنظمة الطقوسية ومثلوا بامتياز الحركة المعينة بالمصطلح اليهودي - المسيحي^(٢٦) . وتلك هي طاعتهم الضيقة للشريعة التي رفض بولس قبولها . وفي الواقع ، تفهم بشكل سيء الشرعية الربانية الممارسة فعلا من قبل اولئك الذين كانوا أعلنوا قيامة المسيح واضطلعوا بعبء الشهود . وإن (الهلنستين) كانوا قد شكلوا جماعة صغيرة من اليهود مستقرة في اورشليم ، وقد اعتنقت هذه الجماعة المسيحية . ولم يكونوا يكونون احتراماً كبيراً لعبادة تقام في المعبد . ويهتف اصطفان في خطابه : «... إن العلي لا يسكن في بيوت صنعتها الأيدي» [أعمال الرسل ٧ : ٤٨] : ان تشتت الهللنستين عجل في نجاح البعثة بين يهود الشتات ، وبخاصة في انطاكية بين الوثنيين [١١ : ١٩] . وفي الدياسبورا تطورت علوم المسيحية . وان اللقب (ابن الانسان) - الذي لا معنى له في اليونانية - ابدل «ابن الله» أو «السيد» كيريوس Kyrios وكلمة مسيح ترجمت في اليونانية خريستو christos ، وانتهت لتصبح اسماً علماً : يسوع - المسيح .

واتجهت الرسالة بسرعة نحو الوثنيين ففي انطاكية في سورية ، تنظمت أول جماعة هامة من المهتدين من أصل وثني ، وهنا استعملت كلمة مسيحيين christiens لأول مرة «وفي انطاكية سمي التلاميذ أول مرة مسيحيين» [أعمال

الرسل ١١-٢٦] (٢٧) . ومن انطاكية شُعت الرسالة المسيحية في العالم الهلنستي . ان المواجهة لحركة مسيحية يهودية مع التدين والفكر الاغريقي سيكون لها نتائج حاسمة بالنسبة لتطور المسيحية . وان الاحترام العالي للقديس بولس الذي أدرك جيداً معطيات المسألة ، والذي كانت له الجرأة بما لا وهن فيه لكي يفرض الحل الوحيد الذي كان يعتبره صحيحاً ومتماسكاً .

إنه مولود على الأرجح في القرن الأول في تارس tarse في سيليسيا (٢٨) وجاء للدراسة في اورشليم مع (جلايل) «فقيه في الشريعة محترم من قبل الشعب [اعمال ٥: ٣٤] وقد وصف نفسه «كعبري ابن عبري» ، أما بالنسبة للشريعة ، فهو فريسي ، وأما لجهة حميته فقد كان مضطهداً للكنيسة [رسالة الى اهالي غلاطية : ١-٣-٦ . ٤] . وعندما وجد نفسه في مهمة ضد المسيحية ، ظهر له المسيح على طريق دمشق . انه الوحيد بين اولئك الذين لم يعرفوا يسوع ليتلقى لقب الرسول ، لقد آمن ، فعلاً ، بالمسيح المبعوث : الانجيل الذي بشر به ، لم يتلقاه أو يتعلمه من انسان «واغما بكشف من يسوع المسيح» [غلاطية ١: ١١-١٢ كورنثية ٢: ١٦] . وبعد ان اصبح «رسولاً للمشركين l'apotre des Gentils» بأشر بولس اسفاراً تبشيرية طويلة عبر آسيا الوسطى ، وقبرص ، واليونان ، ومقدونيا . وقد بشر في عدد من المدن ، وأسس كنائس وأقام لفترة طويلة في كورنثية وروما . ولقد لفظ من قبل اليهود وأوقف في اورشليم ، وبعد سنتين من السجن سلم لمحكمة الامبراطور . وفي روما عاش سنتين في حرية مراقبة ولكن الأعمال تقطع القصة فجأة ، وتجهل نهاية الرسول . وقد مات شهيداً في روما ما بين ٦٢ - ٦٤ .

بالرغم من الفصول الخمسة عشر (على ثمانية وعشرين) المكرسة للأعمال ، وبالرغم من الأربعة عشر رسالة المنسوبة اليه (٢٩) فإن معرفتنا بحياة ومهمة وفكر القديس بولس بقيت مجتزأة . وان تفسيره ، العميق والشخصي ، للانجيل كان معروضاً شفاهاً وعلى الأرجح بطريقة مختلفة ، أمام المؤمنين وغير المؤمنين . إن الرسائل les Epitres لا تشكل ابداً فصولاً متتابعة لرسالة نموذجية ، إنها تتحدد ، وتوضح ، وتحدد بدقة بعض مسائل مبدئية أو تطبيقية ، مسائل نوقشت بعناية في تعليمه ، ولكن مالا يفهم بدقة من قبل الجماعة ، أو الحلول البولسية النموذجية

اذن ، قد انتقد ، ورفض احياناً من قبل مبعوثين آخرين . ومع هذا القول ، يجب ان يضاف مباشرة ان الرسائل Lettres تمثل الوثيقة الأكثر قدماً والأكثر اهمية للكنيسة البدئية ؛ وهي تعكس أكبر الأزمات للمسيحية الوليدة ، وايضا الجراة المبدعة لأول لاهوتي مسيحي .

٢٢٢ - رسول للمشركيين

ان لاهوت وتبشير Kérygma القديس بولس ينبعان من تجربته الوجدية على طريق دمشق . فمن جهة ، اعترف بقيامة المسيح^(٣٠) ، الابن المرسل من قبل الله بهدف خلاص البشرية من الخطيئة والموت . ومن جهة اخرى ، إن الايمان اقام علاقة من مشاركة صوفية مع المسيح . وقد فسر بولس تجربته كمشابهة للصلب [غلاطية ٢: ١٩] «جعلت من نفسي عاصياً ، لأنني بالشرعة مت عن الشرعة لأحيا لله* وقد صلبت مع المسيح*» . . أو «روح الله» [٧: ٤٠] . ولم يتردد عن الاعلان بأن «المسيح ينطق بلساني» [كورنثية ٢: ١٣ : ٣] و [الرومان ٥: ١٨] . انه يشير إلى انتشاء صوفي «حتى السماء الثالثة» وإلى الكشف الذي تلقاه من السيد [كورنثية ١٢-٤١] . وهذه الآيات والمعجزات ، منحت له من قبل روح الله «لكي يحصل على طاعة الوثنيين» [رومية : ١٥ : ١٨] . وبالرغم من هذه التجربة الممتازة . فإن بولس لم يقدم ابداً نظاماً استثنائياً متميزاً عن الآخرين . فكل مؤمن يتم الاتحاد السري مع المسيح بسريرة التعميد . لأنه «وقد اعتمدنا في يسوع المسيح انما اعتمدنا في موته قدمنا معه بالمعمودية ، لنموت فنحيا حياة جديدة كما اقيم المسيح من بين الأموات بمجد الأب فنعيش نحن ايضاً في حياة جديدة»

* اعتبر المفسرون المسيحيون هذه العبارة غامضة في جلاء معناها ، فقال بعضهم ان المسيحي يصلب بروحه مع المسيح فيموت معه عن شريرة موسى (روم) او ما بعده ، وما تقتضيه هذه الشريرة نفسها (١٣/٣) ليحيا حياة المسيح بعد قيامه من بين الأموات . وقال آخرون ان المسيحي تخلى عن الشريرة ليدعن للكتاب المقدس في عهده القديم أو انه مات عن شريرة موسى بشريرة اخرى هي شريرة الايمان أو الروح [روم ٨/٢] .

[رسالة الى اهل رومة ٦: ٣]** . بالعماد يتجدد به ويصبح خلقاً جديداً فيحيا حياة جديدة ، لقد أصبح عضواً من تنظيم ومن جسم سري . معمداً بذات الروح «وكما ان الجسد واحد وله اعضاء كثيرة وان اعضاء الجسد كلها على كثرتها ليست إلا جسداً واحداً ، فكذلك المسيح . إنا قبلنا المعمودية جميعاً في روح واحد لنكون جسداً واحداً ، أیهوداً كنا أم یونانیین عبيداً أم احراراً ، وانا ارتوينا من روح واحد» [كورنثية ١٢-١٣]

إن الموت والقيامة بالتعميد في الماء تشكلان سيناريو اسطوري - طقوسي معروف جداً ، ومتضامان برمزية ماثية مؤكدة عالمياً^(٣١) . ولكن القديس بولس يوصل سرية التعميد بحدث تاريخي راهن : موت وقيامة يسوع المسيح . وازضافة لذلك ، فإن التعميد لا يضمن الحياة الجديدة للمؤمن فحسب ، وانما يكمل تحولهُ الى عضو من جسم سري للمسيح . ومثل هذا المفهوم كان غير معقول بالنسبة لليهودية التقليدية . وهو من جهة اخرى يتميز عن ممارسات تعميدية معاصرة ، وعلى سبيل المثال الاسينيين des Esséniens ، حيث ان التطهيرات المتعددة كان لها بصورة خاصة قيمة تطهيرية .

إن سر القربان المقدس هو كذلك غريب على اليهودية . وكالتعميد تماماً ، فإن القربان المقدس يدخل المؤمن في الجسد السري للمسيح ، الكنيسة . وبالمشاركة مع الأنواع القربانية المقدسة يتمثل جسد ودم السيد (كورنثية ١٠ : ١٦ - ١٧ : ١١ - ٢٧ : ٢٩) «أليست كأس البركة التي نباركها مشاركة في المسيح ؟ أليس الخبز الذي نكسره مشاركة في جسد المسيح ؟ فنحن جسد واحد لأنه ليس هنالك الا خبز واحد ، ونحن على كثرتنا جسد واحد لأننا نشترك في هذا الخبز الواحد» [١٠ - ١٨] . وبالنسبة للقديس بولس ، ان الخلاص يعادل التشارك السري مع المسيح . ان من عندهم ايمان ، لديهم في انفسهم المسيح [كورنثية ١٣ : ٥] . ان الفداء قد جرى باعطية مجانية من الاله ، وبصورة خاصة التجسيد ، والموت والقيامة ليسوع المسيح .

** يرى كثير من المفسرين ان في هذه الآية اشارة الى العماد بالتغطيس فكان المعمد يموت مع المسيح فتموت معه خطاياه ثم يقوم معه ويحيا حياة جديدة (الانجيل - طبعة بيروت ١٩٧٩)

إن الأهمية الرئيسية المعطاة من القديس بولس للبر [٣ : ٢٤ - ٦ : ١٤] الخ . تتفرع احتمالاً من تجربته الخاصة : فبالرغم من كل ما فكر به وما عمله - حتى موافقته على رجم اسطفان - منحه الإله الغفران عنه . وبالنتيجة فإنه من غير المفيد بالنسبة لليهودي ، اتباع النصوص الطقوسية والاخلاقية للتوراة : لا يستطيع الانسان ان ينال الخلاص بذاته لذاته . وبعبارة اوضح إن الانسان قد شعر بالذنب على اثر احياء الشريعة ، فقبل معرفة الشريعة لم يكن الانسان ليعرف ما اذا كان مذنباً أو غير مذنب [رومه ٧ : ٧] . ان يكون خاضعاً للشريعة يعادل ان يكون «مستعبداً لعناصر الكون» [غلاطية ٤ : ٣] وهذا مايعيد القول : «ان دعاة العمل بأحكام الشريعة لعنوا جميعاً» [غلاطية ٣ : ١٠] فالمسيح افتدانا من لعنة الشريعة اذ صار لعنة لأجلنا فقد ورد في الكتاب : «ملعون من علق على خشبة»* [١٢-١٤] . اما بالنسبة للوثنيين فمع انهم يستطيعون معرفة الاله عبر أعمال خلقه «قد اصبحوا مجانين في ادعائهم الحكمة» لقد استبدلوا بمجد الله صوراً تمثل الانسان الزائل والطير وذوات الأربع والزحافات» [رومية ١ : ٢١-٢٣] وبالجملة ، بالنسبة لليهود كما بالنسبة للوثنيين فإن الغفران قد جرى حصراً بالايمان وبالقداسة إن الخلاص هو «الهبة المجانية من الله» «الحياة الابدية في ربنا يسوع» [روما ٦ : ٢٣] (٣) .

إن مثل هذا اللاهوت أوجب حتماً معارضة القديس بولس لليهود المسيحيين لأورشليم . فقد اوجب هؤلاء الأخيرون الختان المسبق على الوثنيين المهتدين ومنعوا حضورهم في المآدب المتخذة مشاركة والاحتفال بسر القربان المقدس . وعلى اثر نزاع رواه بولس [غروية ٢ : ٧ - ١٠] وروته اعمال الرسل [١٥] بشكل متناقض ، اجتمع الفريقان في اورشليم ، وتوصلوا إلى حل تحكيمي . فالوثنيون المهتدون تمسكوا بالامتناع فقط «عن اللحوم المذبوحة على النصب ، وعن الدم ، ولحوم المخنوقات (الميتة) وعن الزنى» [أعمال الرسل ١٥ : ٢٩] . من الراجح ان هذا

* يقول المفسرون المسيحيون ان السيد المسيح انقذ الناس من لعنة الله لمخالفتهم الشريعة بأن جعل نفسه شريكاً لهم في تلك اللعنة لما ارتضى ان يطلب (روم ٨/٣ ١٠ كورنثس ١٢/٥) فاستشهاد بولس كما جاء في سفر تثنية الاشتراع (٢١/٣) تأييد لذلك القول [العهد الجديد طبعة بيروت] المطبعة الكاثوليكية ١٩٧٩

القرار قد اتخذ بغياب بولس ، الذي لم يقبل به تأكيداً ، لأنه احتفظ بجزء من النظرة اليهودية . وعلى كل حال فإن اجتماع أورشليم أقر النجاح الغير متوقع للبعثة المسيحية بين الوثنيين ، نجاحاً كان مناقضاً لنصف الفشل المتحمل في فلسطين .

ولكن القديس بولس جوبه كذلك ببعض الأزمات التي هددت كنائسه الخاصة ، والجماعات التي كان قد أسسها . ففي كورنثة رغب المؤمنون بالعطايا الروحية أو «الهبات اللدنية» ، المألة من الروح القدس . وهي تتعلق من جهة أخرى ، بممارسة دينية شعبية في العالم الهلنستي : البحث عن الانتشاء «فالهبات اللدنية charisme» كانت تقتضي منحة الشفاء ، والقدرة على اجترار معجزات ، والنبوة ، ولغة المجذوبين ، ومنحة تفسير اللغات الخ . [كورنثية ١٢: ٤] وان بعض المؤمنين السكري بوجدياتهم وبقدراتهم اعتقدوا بحصولهم على امتلاك الروح وبالتالي الحرية ؛ وقد حسبوا ان كل شيء كان منذئذ مباح لهم [١٢: ٦] وحتى الختان : «فما الختان بشيء ولا القلف بشيء ، وانما الشيء ان يكون الانسان خلقاً جديداً . والسلام والرحمة على الذين يتبعون هذه الطريقة وعلى اسرائيل الله» [١٥: ٦ - ١٦] فقد ذكرهم بولس أن اجسادهم هي : «اعضاء المسيح» [١٥: ٦] . واضافة الى ذلك احيا تراتبية اللدنات : واكثرها اهمية هي هبة الخبر ، بعدها هبة النبي ، يتبعها في المحل الثالث ، بالأعطية الروحية للفقهاء أو علماء الدين [١٢: ٢٨-١٤: ٥] . واجمالاً فإن القديس بولس لم يطرح الالهام بالهبات العليا ، ولكنه أضاف : «سأريكم طريقاً يتجاوزها جميعاً» [١٢: ٣١] . اتبعوا التسبيح بالمحبة ، تلك هي واحدة من قمم افكار بولس : «لو تكلمت بلغات الناس والملائكة ، ولم تكن لدي المحبة ، فما أنا الا نحاس يطن أو صنج يرن . ولو وهبت لي النبوة وكنت عالماً بجميع الأسرار عارفاً كل شيء ، ولي الايمان الكامل أنقل به الجبال ، ولم تكن لدي المحبة ، فما انا بشيء . ولو فرقت جميع أموالي وقدمت جسدي ليحرق ولم تكن لدي المحبة فما يجديني ذلك نفعاً الخ . . فالايمان والرجاء والمحبة هي الثلاثة الباقية اعظمها المحبة» [كورنثية ١٣: ١-١٣] .

من المحتمل ، ان يكون بولس قد قبل البحث عن الهبات اللدنية لأنه فهم

الضرورة لترجمة رسالة الانجيل في لغة دينية مألوفة في الأوساط الهيلينية . ومهما كان الأمر ، فقد عرف الصعوبة بالتبشير «بمسيح مصلوب عثار لليهود وحماقة للوثنيين» . [١ : ٢٣] . ان بعث الأجساد ، العقيدة الشائعة لدى اكثرية اليهود كانت تبدو غير معلومة لدى الاغريق ، المهتمين بخلود الروح فقط^(٣٤) . ولا أقل من ذلك صعوبة ، العلم بأنه كان الأمل بتجديد أخروي للعالم ؛ وعلى العكس فقد بحث الإغريق ، عن الوسائل الأكثر ضماناً للانعقاد من المادة . فقد حاول الرسول أن يتكيف ، وكلما زاد تدخله بعمق في الأوساط الهلنستية كلما نقص كلامه عن الانتظار الأخروي . وتكشف اضافة الى ذلك التحديدات التي لها دلالاتها . وهولم يستعمل فقط وبشكل مألوف المفردات الدينية الهلنستية (العرفان gnosia ، الاسرار mysterios الحكمة sophia ، المنقذ soter الخ) ولكنه يتبنى بعض المفاهيم الغريبة عن اليهودية والمسيحية البدائية . وهكذا ، على سبيل المثال ، يجعل الفكرة الثنائية خاصته ، هذه الفكرة الأساسية في الغنوصية ، من «رجل علم نفس» ادنى ومعارض «للرجل الروحي»^(٣٥) . فالمسيحي يبحث لينسلخ عن الانسان اللحمي روحانياً صرفاً (بنوماتيكوس pneumatikos) وان خطأ ثنائياً آخر يقابل الاله بالدنيا ، المحكومة حالياً «بأمرائها» [كورنثية ١ - ٢ : ٨] «انها حكمة ليست بحكمة هذه الدنيا ولا بحكمة رؤساء هذه الدنيا ولم يعرفها أحد من رؤساء هذه الدنيا» [كورنثية ١ - ٨] . وبعبارة اخرى «بالأركان» [غلاطية ٤ : ٩] . «فحين كنا قاصرين كنا عبيداً لأركان العالم . . اما الآن وقد عرفتم الله ، بل عرفكم الله فكيف تعودون الى ترك الأركان الضعيفة الحقيرة وتريدون ان تعودوا عبيداً لها كما كنتم قبلاً» [٣ - ٩] مع ذلك ، بقي لاهوت بولس توراتياً . انه يرفض التمييز الذي يؤكد عليه الغنوصيون ، بين الله الأعلى والفادي ، والخالق السيئ المسؤول عن الخليقة ، إن الكون محكوم بالشر اثر سقوط الانسان ، ولكن الغفران يعادل خلقاً جديداً والعالم سيعاود تغطية كما له الأساسي .

ان علم بولس بالمسيحية تطور حول القيامة ؛ فهذا الحدث يكشف طبيعة المسيح : انه ابن الله الفادي . وان المأساة الأخروية تذكر بسيناريو للخلاص معروف جداً في ذلك العصر ، ولكن العبارات الأولى هي اكثر قدماً^(٣٦) . فالمنقذ هبط من السماء على الأرض لمنفعة البشر ، ويرجع للسماء بعد اكمال مهمته .

في أقدم رسالة له ، الرسالة الأولى الى التسالونيين المحررة في عام ٥١ من كورنثه يعلمهم بولس «بكلام الله»^(٣٧) المتعلق بالقيامة : «لأن الرب نفسه عند الصيحة وصوت رئيس الملائكة والنفخ في بوق الله ، سينزل من السماء ، فيقوم أولاً الذين ماتوا في المسيح * ، وبعدئذ ، نحن الأحياء ، الذين سيصيرون هنالك ايضاً ، سنجتمع بهم ونرتفع على غيوم علاقات السيد في الجو . وهكذا سنكون مع الرب دوماً أبداً» [تسالونيك ٤ : ١٦ : ١٧] . وبعد سنوات في ٥٧ ، ذكر الرومان «... فإن الخلاص الآن أقرب منه يوم آنا . . . قد تناهى الليل واقترب النهار» [رومية ١٣ : ١١ - ١٢] . مع ذلك ، فإن انتظار القيامة ، لا يجب ان يعكر الحياة للجماعات المسيحية . فهو يؤكد على ضرورة العمل لاستحقاق الخبز الذي يؤكل [تسالونيك ٣ : ٨ - ١٠] . ويطالب باحترام الشرائع النافذة ، والخضوع إلى السلطة ودفع الرسوم والضرائب [رومية ١٣ : ١ - ٧] . إن النتائج لهذا التقييم المزدوج لحاضر (بانتظار القيامة ، يستمر التاريخ ويجب احترامه) لم تتخلف عن الشعور بها . فبالرغم من الحلول العليقة المطروحة منذ نهاية القرن الأول ، فإن مسألة الحاضر التاريخي ، تجاور ايضا الفكرة المسيحية المعاصرة .

ان السلطة المعتمدة للقديس بولس في الكنيسة القديمة ، هي في جزء كبير منها النتيجة لكارثة هزت اليهودية وشلت التطور لاتجاه يهودي - مسيحي . وخلال حياته ، كانت اهمية القديس متواضعة ، ولكنه بعد وقت قصير بعد موته انفجرت في عام ٦٦ حرب اليهود ضد روما ، وانتهت في عام ٧٠ مع خراب اورشليم وتدمير الهيكل .

* يرى شراح الانجيل ان الموتى اول من يلبي نداء الرب فيقومون ، ثم ينضم اليهم من لم يزالوا احياء ، وبعدئذ يذهبون جميعاً لملاقاة المسيح ويواكبونه للدينونة الأخيرة وهي فاتحة ملكوته الابدي . ولكن المقصود قبل كل شيء سواء هو ما ورد في آخر الآية : فتكون مع الرب دائماً ابداً . ذلك هو الخلاص والمحدد الملكوت وذلك ماينعم به السيد المسيح على الذين اختارهم [شرح الانجيل طبعة بيروت ١٩٧٩] .

أثناء الحرب ، في بداية صيف ٦٨ ، هاجمت فصيلة عسكرية تابعة لفاسباسيان دير قمران ودمرته ، وهذا الدير كان قائماً في وسط الصحراء على ضفاف البحر الميت . ومن المحتمل ، ان المدافعين عنه قد ذبحوا ، ولكنهم وهم على شفير الكارثة كان لديهم الوقت لاختفاء عدد معتبر من الكتابات في آنية كبيرة من الفخار . وقد جدد اكتشاف هذه الجرار في عام ١٩٤٧ و ١٩٥١ معرفتنا بحركات تنبؤية يهودية وبأصول المسيحية . وفي الواقع ، ان الباحثين قد شابهوا في الحماسة الرهبانية للبحر الميت المذهب الغامض للأسينيين des Esséniens ، المعروف حتى ذلك الحين فقط بالمعلومات الشحيحة التي جاء بها فلافيوس جوزيف وفيلون وبلين لي جون^(٣٨) . ومن بين المخطوطات التي حلت الغازها وكتبت حتى الآن يوجد ، الى جانب شروح بعض أسفار العهد القديم رسائل أصلية . ونذكر اكثرها أهمية : «لقيقة حرب ابناء النور ضد ابناء الظلمات» . و «رسالة الانتظام» و «مزامير الشكر» و «التقرير حول حقوق» .

وبالاستعانة بهذه الوثائق الجديدة ، يمكن اعادة تكوين تاريخ المذهب في خطوطه الكبرى . فقد كان الحكماء الهاسيديم les Hassidim الذين نتذكر حميتهم الدينية ودورهم في حرب المكابيين (ف ٢٠٢ع) هم أسلافه . وان مؤسس جماعة قمران المسمى من قبل تلامذته «معلم العدالة» كان كاهناً صدوقياً ، متميماً اذن للطبقة الكهنوتية الشرعية وأصولياً متطرفاً . وعندما أعلن سمعان (١٣٤ - ١٤٢) «أميراً وكبيراً للكهنة للأبد» وتحولت مهمة الكهانة الكبرى بما لا رجعة فيه من الصدوقيين الى الهسمونيين ، ترك «معلم العدالة» اورشليم مع جماعة من المؤمنين والتجأ في صحراء يهودا . ومن المحتمل ، ان «الكاهن الشرير» الملعون في النصوص القمرانية سيكون سمعان ، فقد كان اضطهد «معلم العدالة»^(٣٩) في منفاه وتوجه لمهاجمة قمران ، عندما اغتيل من قبل حاكم جرس yericho [مكابيين ١٦ : ١١] . ان ظروف «موت» «معلم العدالة» غير معلومة^(٣٩) ، وقد قدسه تلامذته

والمؤمنون به كرسول للرب . وكموسى تماماً جعل الحلف القديم ممكناً ، وقد جدد «معلم العدالة» ؛ وبتأسيسه للجماعة الأخروية لقمران تقدم العهد المسيحاني .

ومنذ إشهار النصوص الأولى ، لاحظ الأخصائيون مشابهاً ذات دلالة بين المفاهيم والممارسات الدينية الاسينية والمفاهيم والممارسات المسيحية البدائية . وبفضل هذه الوثائق الجديدة ، يعرف الآن الوسط التاريخي والروحي (le sitz im Leben) لمذهب رؤوي يهودي . فالموازيات الاسينية توضح بعض المظاهر لنسوة يسوع ولعدد من العبارات الشائع استعمالها من قبل مؤلفي العهد الجديد . ولكنه يوجد أيضاً فوارق ليست قليلة الأهمية . ان جماعة قمران كانت رهبانية متشددة ؛ وأن المسيحيين الأوائل عاشوا في العالم ، وشكلوا جماعة ارسالية . وقد كان المذهبان رؤويان ومسيحانيان كذلك : الاسينيون كالمسيحيين تماماً ، اعتبروا انفسهم كشعب العهد الجديد . ولكنهم انتظروا نبياً اخروياً (الذي ، كان في العهد الجديد قد سبق مجيئه في شخص يوحنا المعمدان) ومسيحين : المسيح الكاهن ، الذي يقدسهم والمسيح الملكي ، الذي سيقود اسرائيل في الحرب ضد المشركين ، حرب قرر الاله نفسه النصر فيها . و«لفيفة حرب ابناء النور ضد ابناء الظلمات» تشكل في الواقع ، مخطط معركة لهذا الانقلاب الأخروي . إن تعبئة لمدة ست سنوات سيتبعها تسع وعشرون سنة من الحرب . وان جيش ابناء النور سيكون مشكلاً من ثمانية وعشرين الف مقاتل مشاة وستين الف فارس ، معززين بعدد ضخمة من الملائكة^(٤٠) . وكان المسيحيون أيضاً يأملون ، بمجيء ثان ظافر للمسيح ، كقاض ، وفادي للعالم ، ولكنهم باتباع تعليمات المسيح ، لم يشاركوا بايديولوجيا الحرب المقدسة .

وبالنسبة للأسينيين كما هو بالنسبة للمسيحيين ، سيظهر المسيح في نهاية الازمنة وسيحصل على عرش أبدي ، وفي المذهبين المسيحانيين تتواجد الاركان الكهنوتية الملكية والنبوية ، متحدة . ومع ذلك ، فإن مفهوم مسيح سابق الوجود ، في ادب قمران (آدم الثاني ، ابن الانسان) لم يتأكد ، واكثر من هذا ، ان المسيح لم يصبح بعد الفادي السماوي ، والصورتان المسيحانيتان لم تتوحدا ، كما في الدراسة المسيحية للكنيسة البدائية^(٤١) . وان «معلم العدالة» بصفته

شخصية أخروية قد افتتح العصر الجديد . لقد وصفه تلامذته برتبة مسيحانية : رتبة معلم يكشف المعنى الحقيقي ، الباطني للكتابات المقدسة ، والذي اضافة الى ذلك موهوب بقدرات نبوية . ويفهم من بعض النصوص ، ان المعلم سيقوم بنهاية الأيام^(٤٢) . ولكن البروفيسور بر . كروس الخبير في هذا الشأن يقدر «اذا كان الاسينيون انتظروا عودة معلمهم كمسيح كهنوتي ، فإنهم عبروا عن أملهم بطريقة غير مباشرة الى حد كبير ، الأمر الذي يتناقض مع التأكيد الذي طور معه العهد الجديد هذه الفكرة .

ان التنظيم والمنظومات الشعائرية للمذهبين الرويين تبرز جميعها مشابهات مدهشة ، ولكن بعض المفارقات التي ليست أقل أهمية تبرز ايضاً . فالاسينيون شكلوا جماعة هي في آن واحد اكليروسية وعلمانية . وكان النشاط الديني (تعليم ، عقيدة ، تفسير) موجهاً من قبل كهنة متوارثين ؛ وكان العلمانيون (اللايك) مسؤولين عن المصادر المادية . وكانت الجماعة الموجهة تدعى الربيين les Rabbin (لغويًا - الكثيرون) ، وهو مصطلح يوجد في العهد الجديد «الجمعية» التي تنتخب ممثلها ؛ [انظر اعمال الرسل ١٥ : ١٢] . وكانت الدائرة الداخلية تشكل من اثني عشر من اللايك وثلاثة من الكهنة . وكانت المهمة الأكثر رفعة مهمة مراقب (mbaqquen) وهذا الرئيس الأعلى يجب ان يتصرف «كراع» («وثيقة دمشق» ١٣ : ٩-٧) . وتذكر وظيفته بوظيفة «راع» أو اسقف episkopos لدى المسيحيين . وفي قمران ، كان العماد المساري ، الذي يضم التلميذ الجديد في الجماعة ، متبوعاً بتطهيرات شعائرية سنوية . وتماثل مثل «كسر الخبز» بالنسبة للمسيحيين ، فإن وجهتهم العامة كانت مفهومة من قبل الأسينيين كمقدمة لمأدبة مسيحانية^(٤٣) . وكان اعضاء الجماعة يمتنعون عن الزواج ، لأنهم كانوا يعتبرون انفسهم جميعاً جنوداً في الحرب المقدسة . ولم يكن يتعلق ذلك بتنسك حقيقي ، وانما بتنسك مؤقت ، مفروض لقرب الآخرة^(٤٤) . ويجب الاشارة لنقطة اخرى من التشابه : الطريقة التأويلية Herméneutique المماثلة لدى الشراح الأسينيين ومؤلفي العهد الجديد ، دون مشابهة في اليهودية الربينية ولا لدى (فيلون) . وتطبيق اجراء خاص ، اكتشف الأسينيون في نبوءات العهد القديم مراجع محددة للتاريخ

المعاصر وبالنتيجة نبوءات متعلقة ببعض أحداث وشبكة الوقوع . وكان الذين عندهم زيادة في «المعرفة» ، اي المتلقين في العرفان الروي المظهر من قبل «معلم العدالة» يعلمون ان الحرب القصوى هي على وشك الانفجار . ومن جهة أخرى فقد رأينا (ف ٢٠٢ ع) ان كل الأدب الروي اليهودي كان يجد المعرفة الباطنية . وبذات الأمر ، وبخاصة بدءاً من الجيل الثاني أعطى المسيحيون قيمة خاصة للعرفان الروحي (غنوص) : لقد كانوا متلهفين لحل رموز الاشارات المبشرة بعودة المسيح الثانية . وبالنسبة للأسينيين ، كانت المعرفة الدينية بامتياز معرفة مكشوفة ، لنظام أخروي . وقد توضح مفهوم مواز في رسائل بولس وفي الأناجيل متى ويوحنا . وكان التعليم لدرجة عليا ، وحتى اسرار الجماعة معتبرة باطنية ، لأن عرش الرب غير ممكن ادراكه با «للحم» وإنما بالروح فقط^(٤٥) وباختصار ، إن المعرفة الروحية والسرية تشكلان عند اليهود كما عند المسيحيين جزءاً من «الطريقة» الروية . وبعد خراب قمران وتشتت الأسينيين ، اعاد بعض الناجين ، على الأرجح ، جميع البؤر المسيحية في فلسطين . وعلى كل حال ، فإن التقاليد الروية والباطنية اعتمدت في مسيحية القرنين الأولين ، وشجعت بعض الاتجاهات الغنوصية (ف ٢٢٨ ع) .

إن المشابهات بين لغة اللاهوتيات الاسينية ولاهوتيات انجيل يوحنا هي مميزة كذلك . فيوجد في نصوص قمران عدد من العبارات المميزة لعبارات يوحنا ، على سبيل المثال «نور الحياة» [١٢:٨] وابن النور [٣٦:١٢] ، «الذي يعمل في الحقيقة يأتي من النور» [٣: ٢٥] «روح الحقيقة وروح الخطأ» [رسالة يوحنا ٤: ٦]^(٤٦) . وحسب نظرية الأسينيين ، ان العالم هو الحقل لمعركة بين روحيين خلقهما الرب منذ البدء : روح الحقيقة (المسماة ايضا «أمير النور» و «ملاك الحقيقة») وروح الشر أو الفساد ؛ وهذا الأخير ليس شيئاً آخر سوى بيليال Belial «أمير الظلمات» الشيطان . وتجري الحرب بين هذين الروحين وجيوشهما الروحية كذلك بين البشر وفي قلب كل «ابن للنور» [النظام الجديد ٤: ٢٣ - ٢٦] وقد قُرب السيناريو الأخروي الأسيني من بعض النصوص اليوحنية . ويذكر موجز النظام manuel Discipline [٣: ١٧ - ٢٣] ان ابناء العدالة رغم كونهم تحت قيادة أمير

النور ، يقعون أحياناً في الخطأ ، مدفوعين بملاك الظلمات . وعلى ما يبدو ، فإن أول رسالة ليوحنا تتكلم عن «ابناء الله» و «ابناء الشيطان» وتحرض المؤمنين ان لا يضلوا بالشيطان [٣١ : ٧ : ١٠] ولكن في حين ان الاسينيين هم في انتظار الحرب الأخروية ، ففي الأدب اليوحني ، رغم واقعة استمرار الصراع ، فإن الأزمة تم تجاوزها ، لأن يسوع المسيح انتصر على الشر .

وتحسن الإشارة الى فرق آخر : في الأدب اليوحني ، إن الروح بصورة عامة مفهومة كأنها روح الله أو روح المسيح [رسالة ليوحنا ٤ : ١٣] وفي موجز النظام ، أن أمير النور أو روح الحقيقة يدوانه المساعد لأبناء النور . مع ذلك فإن صورة الفارقليط paraclet المثارة من قبل يوحنا «روح الحق» [١٤ : ١٧ ، ١٥ : ٢٦ الخ] تبدو مشتقة من لاهوت مشابه للاهوت قمران . فالمسيح موعود بإرساله بهدف الشهادة والشفاعة من أجل المؤمنين ، ولكن الفارقليط لن يتكلم مطلقاً باسمه الخاص . ومثل هذه الوظيفة ، التي لم تنتظر من الروح القدس حيّرت الشراح دائماً . إن نصوص قمران تسمح لنا بفهم مصدر الفارقليط : فحسب علم الهيئة morphologiquement هو متضامن مع شخصية من البلاط السماوي ليهوه بخاصة الملاك أو المبعوث الإلهي^(٤٧) . غير ان التأثيرات الايرانية ؛ وفي المقام الأول منها الثنائية الدينية والملائكية ، حولت الملاكين من بلاط يهوه (ف ٢٠٣ ع) في تجسيد المبدأين المتعارضين : خير/شر ، حقيقة/ كذب ، نور/ ظلمة . . ان الاسينيين ، كذلك مؤلف المجموعة اليوحنية ، تقاسموا هذا اللاهوت وهذه الأخروية الفلسفتين التوفيقيتين ، المتأثرتين ، بقوة ، بالثنائية الايرانية .

وبالرغم من المشابهات العديدة التي نذكرها فإن الاسينية والمسيحية تمندان جذورهما في النبوة للعهد القديم . لقد كان الاسينيون يسندون ويدعمون الانفصالية الاكليروسية ، وكان المسيحيون يجهدون على العكس ، لنيل كل الطبقات الاجتماعية . وكان الاسينيون يستثنون من مآدبتهم المسيحانية كل اولئك الذين كانوا غير نظيفين والمشوهين طبيعياً او روحياً ، وبالنسبة للمسيحيين ، فإن واحدة من الملوك كانت بحق الشفاء للمعاقين (العميان الذين يرون ، الخرسان الذين يتكلمون الخ . .) وقيامه الأموات . وأخيراً فإن قيامة يسوع وهبة

الروح القدس ، والحرية الروحية التي تتابعت لانتظام الشريعة ، تشكل «الحدث» المركزي الذي يميز هاتين الجماعيتين المسيحانيتين messianiques^(٤٨) .

٢٤٤ - خراب الهيكل ، وتأخر عودة المسيح

ان قسماً من اليهود - المسيحيين برفضهم الانخراط في الحرب المسيحانية ضد الرومان ، انكفأوا في عام ٦٦ إلى بيلا pella ، في شرقي الاردن ، والتجأ آخرون الى المدن السورية ، وآسيا الوسطى ، والاسكندرية . وان معنى الرفض لا يفوت الرافضين : فالمسيحيون^(٤٩) تخلصوا من التضامن بمصير قومي لاسرائيل [اوزيلي تاريخ كنسي ٣ - ٣١٥] . وان الحدث يميز انفصام الكنيسة عن اليهودية . مع ذلك ، فإن اليهودية استمرت في العيش بفضل اشارة ماثلة . إن الرئيس الديني الأكثر أهمية في عصره ر. جوشانان بن زكاي ، الذي كان قاوم بشدة العصيان المسلح ، هرب اثناء حصار المدينة في تابوت . وبعد زمن قصير ، حصل على رخصة من تيتوس باقامة مدرسة ابتدائية في جبنه gabneh ، قرية بالقرب من يافا . وبفضل هذه المدرسة المؤسسة من قبل جوشانان ستنقذ القيم الروحية للشعب اليهودي ، المقهور على المستوى القومي والمهدد بالفناء .

إن خراب المدينة وخراب المعبد غير بقسوة التوجه الديني لليهود ، كذلك الأمر بالنسبة للمسيحيين ، فبالنسبة لليهود ، طرح خراب المعبد مسألة ماتزال اكبر من تلك التي واجهها اجدادهم قبل ستة قرون ، لأن الانبياء بتنبؤهم بالكارثة ، كانوا في ذات الوقت كشفوا سببها : ان يهوه كان يستعد لمعاقبة شعبه بسبب انعدام أماناته التي لا حصر لها . وهذه المرة ، على العكس ، أعلن الرؤويون ان نصر الرب النهائي في المعركة الاخروية ضد قوى الشر هو امر مؤكد . والجواب على هذه الكارثة الغير متوقعة والغير مفهومة أعطي الى يابنيه yabneh : اليهودية ، ستستمر ولكن ومصلحة أي خالصة من الآمال الرؤوية الباطلة ومن المسيحانية ، ومتبعة تعاليم الفريسيين حصراً (ر.ف ٢٠٤ع) . وقد كانت نتائج هذا القرار البدئية تدعيم الشريعة والكنيس ، وتقييم الميثنا ، واخيراً التلمود . ولكن الخراب

الثاني للمعبد مَيَزَ بعمق تطور اليهودية : فبحرمانهم من المعبد ، المكان المقدس الوحيد الذي كانت تمارس فيه العبادة ، انكفأ المؤمنون الى الصلوات والتعلم الديني (٥٠) .

واثناء الحرب ، عرف المسيحيون ، هم ايضا ، انبثاق الحماس الرؤوي : الأمل الذي لم يتأخر الرب فيه عن التدخل ، وبدقة بتسريع المجيء الثاني للمسيح . وانجيل مرقس يعكس ويمدد هذا الأمر الرؤوي (٥١) . ولكن تأخر المسيح كان أثار مسائل معقدة ، وفي الأساس يمكن تصنيف الاجابات المعطاة في ثلاثة فئات : ١) أعيد التأكيد ايضا بقوة اكثر على قرب مجيء المسيح الثاني (رسالة بطرس)

٢) ارجىء مجيء المسيح لمستقبل بعيد ، وقدم لذلك تبرير لاهوتي لهذا الأمل المحدد : وهذا هو العصر المحتفظ به لنشاط الارسالية الكنسية (متى ولوقا) ٣) ان مجيء المسيح حصل سابقاً ، لأن صلب وقيامة يسوع يشكلان في الواقع الحدث الحقيقي النهائي (الآخرة eschaton) و «الحياة الجديدة» هي مقبولة سابقاً للمسيحيين (انجيل يوحنا) (٥٢) .

وهذا التفسير الثالث هو الذي سينتهي ليفرض نفسه . زد على ذلك انه يمدد التناقضات المواجهة بالمؤمنين الأوائل : في الواقع ، ان يسوع المسيح لم يتميز ابداً عن الكائنات البشرية الأخرى ، مع انه ابن الله ، فقد اهين ومات على الصليب . ولكن القيامة اكدت الوهيته . ومع ذلك فإن هذه التجربة البراقة لم تكن في العادة مقبولة . (بالنسبة لأكثرية اليهود ، كان مجيء المسيح يقتضي بالضرورة الخلاص الوطني والتحول الظاهر للعالم) . ومنذئذ كان مجيء المسيح ينتظر لفرض الازعان لغير المؤمنين . ان منشئ انجيل يوحنا وحلقته من المؤمنين يرد بطريقة جريئة لتأخر المجيء . ان مملكة الله سبق لها ان اقيمت ، ليس آليا وبشكل شامل واضح ، وتماثا كالمسيح ، المتجسد في الشخصية التاريخية لیسوع ، لم يكن بالنسبة لأكثرية اليهود - والوهية المسيح لم تكن ايضا بالنسبة لغير المؤمنين . انه يتعلق باختصار ، بذات العملية الجدلية الموصوفة جيداً في كل تاريخ الأديان : ان تجلي المقدس في شيء غير مقدس يشكل في ذات الوقت تمويها ، لأن المقدس ليس واضحاً بالنسبة

لكل اولئك الذين يقربون الموضوع في مظهر فيه . وهذه المرة ايضا ، فان المقدس - ملكوت الله - قد ظهر في جمعية بشرية محددة تاريخياً : الكنيسة .

إن هذه الاعادة للتقييم لمجيء المسيح تفتح ، امكانيات متعددة من التجربة الدينية والارشاد اللاهوتي . ففي مكان السيناريو المؤلف - مجيء المسيح بصفته ظهوراً مادياً ومتألقاً بنصر الله المؤكد بانتهاء الشر ونهاية التاريخ - يعوم الاقتناع بأن الحياة الروحية يمكن ان تنمو وتتكامل في هذا العالم ، وان التاريخ يمكن له ان يغير صورته ؛ وبعبارة اخرى ، ان الوجود التاريخي قابل ليصل الى الكمال والسعادة للملكوت الله . وبالتأكيد ، ان الملكوت سيكون «بوضوح» للمتدينين في المقام الأول ، ولكن كل جماعة مسيحية يمكن لها ان تغدو النموذج المثالي لحياة مقدسة وإذن ، دعوة للاهتداء . ان هذا الشرح للجدلوية المقدس المدشنة بتماهي الملكوت مع الكنيسة يمتد أيضاً حتى يومنا ، وبطريقة متناقضة ، ويظهر بخاصة «بإبطال القداسة» الكثيرة (عدم اسطرة الاناجيل والتقليد والخط من الرمزية الدينية ، واختصار الحياة التقديسية ، والاتجاهات ضد الصوفية والخط من الرمزية الدينية ، والفائدة الحصرية بالنسبة للقيم الخليقة والوظيفة الاجتماعية للكنائس الخ) «ابطال صفات القداسة» على أهبة ان تكون كاملة في العالم المسيحي المعاصر (الجزء ٣) .

حواشي الفصل الثامن والعشرين

- ١ - اعمال الرسل ٩، ٣-٥، ١٩-١٩. إن كاتب الأعمال يروي ايضاً مرتين اللقاء مع المسيح المبعوث على طريق دمشق ١٢ : ٤-٢١ و ٢٩ : ١٢-٢٠
- ٢ - في الرسالة الأولى للكورنثيين (١٥-٢) يؤكد بعناية القائمة بكل اولئك الذين يظهر المسيح لهم مبعوثاً
- ٣ - اسماء المراجع المعتمدة
- ٤ - بالتأكيد ان سيناريو (الاعراضات) قد أدخل فيها بعد في التقاليد الخرافية المجموعة في الاناجيل بعد سقوط العصيان المسلح لسنة ٦٦ - ٧٠ أي بعد خراب المعبد من قبل الرومان ، ولكن في الأفق الرمزي الذي تطورت فيه الكنيسة ، فالاعراضات مثلت مسبقاً معجزات يسوع (لأنه بعد قليل من الزمن سيغير الماء الى خمر وسيكثر الخبز والأتربة) وان انتصار المسيحية (لأنه مع ان الامبراطورية الرومانية لم تخرب بعصيان مسلح فإنها انتهت لتصبح مسيحية) .
- ٥ - البشارة التي اتى بها يسوع من عند الأب بخلاص الناس ٥ - مرقس ١ : ١٥ متى ١٤ : ١٧ يتكلم عن مملكة السماوات ولكن الصيغتين مترادفتان .
- ٦ - لوقا : ١١ - ١٥ - ١٧ لقد رأى لوقا جيداً ان طلب الآية والاثام بالسحر يشكلان وحدة قصصية . والاناجيل الأخرى اعتبرتهما منفصلتين مرقس ٣ : ٢٢ متى ١٢ : ٢٤
- ٧ - سندهرين ٤٣ - نفس النص يقدم معلومات اخرى ستتحقق من اهميتها فيما بعد لأنها مستقلة عن المصادر المسيحية . والمصادر الربانية ذكرت ونوقشت من قبل كلوسبر ص ٩٤
- ٨ - يسوع والزيلوط ص ٤٤ - ٤٧ المرجع السابق
- ٩ - ١١ - اسماء المراجع
- ١٢ - يذكر كلوسبر . ان التقليد الربيني يقرر أن يسوع قد حوكم من قبل السلطات اليهودية وادين بان يشنق صباح الفصح

١٣ - ان الشارح المعاصر يقبل رسميا اربعة اعلانات متعلقة بمحاكمة الرب (مرقص ١ - ١٥ لوقا ١١ : ٢٤ و ١٧-٢٠ ومتى

١٤ - ارنست كيزمان مسألة تاريخية يسوع ص ٤٢

١٥ - مارسيل سيمون اليهودية والمسيحية القديمة ص ٨٦

١٧ - سيمون ص ٨٧ حول دمج الصورتين المثلثيتين للمسيح الخادم المتألم في شخصية يسوع

١٨ - يؤكد المفسرون كذلك على الفرق بين الصيغة الأكثر قدما للنص kaddish (بيني الرب ملكوته اثناء حياتك واثناء ايامك) والنص المستعمل من قبل يسوع بفضل حكمك

١٩ - ٢١ اسماء المراجع المعتمدة

٢٢ ! جماعة قمران كانت تعتبر كذلك منتفعة بالعهد الجديد (ف ٢٢٣ ع)

٢٣ - بولس يبعث هذه الفكرة بتعميمها ، انه يماهي الجماعة المسيحية باسرائيل الجديدة مع جسد المسيح ، كل مسيحي بصفته في المسيح تماما كان المسيح هو فيه .

٢٤ - ٢٥ اسماء المراجع

٢٦ - نورمان بيران نسب لهم القصص الرؤوية واقوال يسوع المحفوظة في الأناجيل

٢٧ - بيترسون - اظهر الصدى السياسي لاسم : (اشياح المسيح) . سيدهون أول كاتب لاتيني يؤكد الذهب الجديد ، ويقرر ان الامبراطور كلود طرد اليهود من روما في ٤٩ لأنهم تحركوا (تحت تحريض المسيح)

٢٨ - يضاف لاسم التوراتي شاوؤل اللقب الروماني بول ابوه كان مواطناً رومانياً .

٢٩ - اتفق على الاعتراف برسمية ١٥ و ٦ من بينها الأكثر أهمية : الرسالة الى الرومان - الكورنثيين ، غلاطة ولكن بقية الرسائل توضح ذات الفكرة البولسية .

٣١ - رسالة في تاريخ الأديان - الياد . وصور ورموز - الياد - فصل ٧ .

٣٢ - يحسن التحديد ان الرسالة للرومان حيث ترتبت اللاهوت والبروربانية الصليب - هي الكتابة الأكثر أهمية للقديس بولس . وان عدداً من اللاهوتيين يعتبرون الرسالة للرومان وكأنها الأكثر أهمية من كتب العهد الجديد . وان التغير لهذا النص العميق الجريء والملمغز اثار العديد من الانبياءات والتعليم واثار ازيمات مزقت وفي آن واحد جددت المسيحية منذ القرن الخامس عشر وان واحدة من اللاهوتيات المعاصرة الأكثر دلالة قد احتفل بها من قبل المعلق الشهير كارل بارت .

٣٣ - تأكد المظهر بشكل واسع في تاريخ الأديان الهندية (ف ١٤٦ ع) والغنوصية (ف ٢٣٠ ع) ويصادف كذلك في عدد من التيارات السرية المسيحية والاسلامية .

٣٤ - قيامة الفادي تؤكد قيامة المسيحيين (كورنثيه ١٥ : ١٢) بولس يشاطر كذلك بالمفهوم من أصل اغريقي بالخلود الحاصل مباشرة بعد الموت (كورنثيه ٥) مع ذلك فإن للوجود التالي لم يكن غير

مجسد ، انه الجسد (للروحي) الذي سيعيش بالموت و (لاستعمال عبارة) : الذي يبعث (كورنثية ١٥ : ٤٤) ان نظرية (الجسد الروحي) تأكدت في تقاليد اخرى (الهند - التبت) وان اصولية بولس هي اشراكه الخلود بالقيامة ولكن هذا الحل قد اثار مشاكل أخرى .
٣٥ - (كورنثية ٢١ : ١٤-١٥) (الانسان الأول نبت من التراب وهو ترابي والثاني اتاه من السماء ٤٧ - ١٤

٣٦ - الميتولوجيات القديمة عرفت نماذج عدة من كائنات مافوق الطبيعة (انباء للآلهة، مالفين ابطال محضرين صور مسيحية وأورفة الخ ..) نزلوا لتعليم أو انقاذ الانسان وعادوا بعدئذ للسماء وتعرف مفاهيم مشابهة في اميتولوجيات الهندو - اوروية .. والبوذية .
٣٧ - كورنثية ١ - ١٥ - ٥١ «اني اكشف لكم سرأ فاقول : اننا لا نموت جميعاً ، بل تتبدل جميعاً في لحظة وطرفة عين عند النفخ في البوق الأخير ، لأنه سينفخ في البوق ، يقوم الأموات غير فاسدين ونحن نتبدل وقد استعمل بولس في هذه الآيات عبارات اسفار العهد القديم لوصف القيامة واستعمل صيغة المتكلم فقال (تتبدل) كأنه سيكون من الأحياء يوم القيامة ، وتعبيره هذا وجه البيان لاغير حسب رأي شراح الرسالة

٣٨ - ان التناقض بين مجموعتي الوثائق - محفوظات قمران ، وشهادات المؤلفين التقليديين تفسر من جهة بالإعلام غير الكافي لهذه الأخيرة ، ومن جهة أخرى بالتعقيد لهذا المذهب الروي ، إن جماعة قمران لا تشمل الاسينية في مجملها ، ويظهر مؤكدا انه كان يوجد بؤر أدنويات اسينية في مقاطعات اخرى من فلسطين .
٣٩ - بعض الباحثين يستنتج من وثائق قمران اتهام الكاهن الكافر بالتحريض على اغتياله . مع ذلك لم يتأكد عمله السيء بوضوح حسب تحليل الوثائق .
٤٠ - yadin حرب ابناء النور وابناء الظلام ص ٣٦٩

٤١ - كروس ص ٢٢ رسالة الى العبرانيين تمثل يسوع كمسيح في آن واحد كهنوتي وملكي . ويكشف لروس في هذا التفسير جهد الكنيسة البدائية تكليف المسيحية بانتظار مسيحياني للاسينيين او بدقة اكثر لآظهاره في صورة واحدة اتمام كل الحنين المسيحياني للماضي
٤٢ - الأكثر اهمية والأكثر غرضة للجدل ، هو مقطع من (وثيقة دمشق) مشترك الاعداد ٢١ : ١٨ انظر الترجمات والتحليلات لدى gupont-sommer
٤٣ - النصوص المذكورة مترجمة من قبل كروس
٤٤ - النصوص المذكورة محللة من قبل كروس «الزمن قصير .. ليعيش الذين عندهم نساء ، كما انه عند من لا يوجد عندهم ...»

٤٥ - انظر يوحنا ٣: ٥ «ممن احد يمكنه ان يدخل ملكوت الله الا اذا ولد من الماء والروح» بالنسبة للخاصية الباطنية للعرفان . في ادب قمران وفي العهد الجديد انظر - نوتشر والمراجع الأخرى

٤٦ - المشابهات في النصوص القمرانية مذكورة من قبل كروس ص ٢٠٧ الثنائية - نور ظلّمه وبخاصة التمجيد للنور كالتجلي المختار للروح ، يدل على تأثير الأفكار الايرانية . ولكنه لا يسوغ نسيان ان صورة مماثلة ستوجد في العهد القديم وفي ديانات سامية أخرى
٤٧ - ٤٨ . كروس ص ٢١١ يذكر النموذج الكنعاني للملك المرسوم
٤٩ - اربع سنوات سابقة في ٦٢ . يعقوب رئيس الجماعة اليهودية المسيحية في اورشليم ، كان قد مات شهيدا

٥٠ - انظر جوداه جولدين (حول التغير والتبني في اليهودية ص ٢٩٠
٥١ - بعد الكارثة ٧٠ بدأ المسيحيون بتجميع وكتابة السنن الأورشليمية حول الحياة ، المهمة الموت والقيامة ليسوع ، وهذه هي الأناجيل الأولى .

الفصل التاسع والعشرون

وثنية ، ومسيحية وغنوصية في العصر الامبراطوري

٢٢٥ - العذراء تعود

إذا كانت عبادة الأم الكبرى سبيل قد عضدت من قبل الارستقراطية الرومانية ، فإن نجاح الديانات الشرقية الأخرى المدخلة بعدئذ ، قد ضمنت من قبل البروليتاريا سكان المدن ومن قبل العدد الكبير من الغرباء المقيمين في روما . وخلال القرنين الأخيرين من الجمهورية ، كان الدين التقليدي - الى العبادات العامة - قد أضاع احترامه تدريجياً . فبعض الوظائف الاكليروسية وعدد من مؤسساتها سقط بعدم الاستعمال ، وكما في أي مكان آخر في العصر الهلنستي ، فإن التدين قد انتشر تحت علامة الربة (الحظ) فورثونا (Fortuna (Tyché والقدرية النجومية (ف ٢٠٥ ع) . وجذب السحر والتنجيم ليس الجماهير فحسب ، وإنما

بعض الفلاسفة (الرواقيون كانوا اعترفوا بصحة التنجيم). وأثناء الحرب الاهلية انتشرت اعداد من الرؤيات من مصدر شرقي ، وأعلن اولئك المعروفون تحت الاسم ، عرافو سييلين السقوط الوشيك للسلطة الرومانية . واكثر من ذلك هو إن الوسواس القديم لنهاية روما^(١) أخذ يظهر هذه المرة مؤكداً بالأحداث الدموية للتاريخ المعاصر . ولم يخف هوراس مخاوفه بالنسبة للمصير القريب للمدينة [إيبود ١٦] .

وعندما اجتاز قيصر الروبيكون Rubicon ، أعلن الفيثاغوري الجديد نيجديوس فيجولوس بداية مأساة كونية - تاريخية ستضع نهاية لروما وحتى للجنس البشري . ولكن حكم أغسطس الآتي بعد الحروب المدنية الطويلة والمدمرة ، بدا وكأنه يقيم سلاماً داخلياً . ولكن المخاوف الموحى بها بالاسطورتين - عمر روما والسنة الكبرى - بدتا منذئذ بدون قيمة - فمن جهة ، لأن أغسطس كان قد جاء لبناء روما من جديد ، وبالنسبة لميتها ؛ ومن جهة أخرى لأن مرور عصر الحديد إلى العصر الذهبي كان قد تم بدون كارثة كونية . وعلى ذلك ، فإن فرجيل قد ابدل آخر سيكولوم saeculum المتعلق بالشمس - الذي كان يجب له ان يثير الحريق الشامل - أبدله بعصر ابولون ؛ وهكذا تجنب الاكبيروزيس l'ekpyrosis واعتبر الحروب المدنية كعلامة حتى للمرور من عصر الحديد إلى العصر الذهبي . وفيما بعد ، عندما حكم أغسطس ظهر باعثاً بالفعل لعصر ذهبي ، فأجهد فرجيل نفسه لطمأنة الرومان بالنسبة لدوام المدينة . وفي الانبأ [١ ، ٢٥٥] يتوجه جويتر لفينوس ويؤكد لها بأنه لن يثبت لرومة أية نوع من التحديد المكاني أو الزماني : «هذه الامبراطورية بدون نهاية هي التي اعطيتها لهم» . وبعد اعلان الانبأ سميت روما اوربس ايتيرنا urbes aeterna وأعلن أغسطس المؤسس الثاني للمدينة . واعتبر تاريخ ولادته في ٢٣ أيلول «كنقطة انطلاق للعالم الذي انقذ أغسطس وجوده وغير وجهه»^(٢) . وعندئذ انتشر الأمل بأن روما تستطيع التجدد دورياً . وهكذا فإن روما المتحررة من اساطير الأثني شر نساً والاكبيروزيس l'ekpyrosis ستستطيع التوسع ، كما يذكر فرجيل [الانبأ ٦ - ٧٩٨] ، حتى الأقاليم «التي تستقر خارج طرقات الشمس والسنة» .

ولذلك صلة بالجهد العالي لتحرير التاريخ من القدر الكوكبي او من قانون الدورات الكونية ، واعادة ايجاد ، باسطورة التجدد الدائم لروما ، الاسطورة القديمة للتجدد السنوي للكون بواسطة اعادة تجدد خلقه الدوري (بالمضحين أو الحاكم) . وهذه هي ايضا محاولة لتقييم التاريخ على المستوى الكوني ، أي اعتبار الأحداث والكوارث التاريخية كما لو أنها احتراقات او انحلالات كونية حقيقية يجب لها دوريا ان تضع نهاية للعالم من أجل ان تسمح بإعادة تجده . فالحروب ، والخرائب ، والمعاناة الماثرة بالتاريخ ليست أبدا العلامات المنبئة بالمرور من عصر كوني الى عصر كوني آخر ، ولكنها تشكل بذاتها هذا المرور . وهكذا ، لكل عصر من السلام ، يحدد التاريخ نفسه ، وبالنتيجة ، يبدأ عالم جديد ؛ وفي آخر المطاف (كما تظهره الاسطورة المشكلة حول أوغسطس)، فإن الحاكم يكرر خلق الكون^(٣) .

ويعلن فرجيل في رابع محاورة له ان العصر الذهبي هو على وشك أن يبدأ تحت حكم القنصل اسينيوس بوليون (٤٠ ق.م أي قبل الظفر النهائي لاوكتاف) «ان هذه ولادة دورة جديدة للقرون . وهاهي العذراء تعود ، ويعود حكم ساتورن saturne» . «عرق ذهب» ينبثق في كل مكان في العالم ، وابولون هو حاكمهم (٥ - ١٠) . وعليه فإن فرجيل يجمع كل هذه الاشارات المميزة لصورة العصر الذهبي ، مع ولادة طفل تجهل هويته ، ولكن عدداً من العلماء يفترض انه سيكون ابن بوليون pollion . ولقد جرى نقاش مطول ومازال يجري ايضا حول دلالة هذه القصيدة الملهمة والملغزة . ويكفي هنا الاشارة الى قوة تبصر فرجيل: وكنبي حقيقي ، فهم النص في آن واحد كونيا ودينيا لنهاية الحروب الأهلية ، وتنبأ بالوظيفة الأخروية للسلام المنبعث بنصر أوكتاف أوغسطس .

وفي الواقع ، ان حكم أوغسطس يميز نهضة خلاقة للدين الروماني التقليدي^(٤) . وحسب سويتون suétone [اوغ- ٩٠-٩٢] ، فإن أوغسطس تصرف كروماني حقيقي سلفي ، أخذاً في الحسبان أحلاماً وتعليمات اخرى ، وأخذاً بعين الاعتبار مظاهر الآلهة ، مطبقاً التقوى pietas تجاه الآلهة والشرية . «وان هذا التدنيس وليس اللاهوت المتكبر ، هو الذي أملى دوما الأعمال الحاسمة للامبراطور...»

فبالتقوى والتدين ، أعيد بوحي اخذ وتجديد الوضعية الدينية والمثل العليا للماضي الروماني^(٥) . ان اغسطس قرر احياء المعابد المدمرة ، واشاد عدداً من المعابد الجديدة ، واعاد اقامة تكاليف اكليروسية بقيت شاغرة منذ وقت طويل ، واعاد احياء هيئات محترمة . . ولم يشك المعاصرون برسمية التغيير . «مجيء العهد الجديد» احتفل به في اغاني الشعراء كما ايضاً في المظاهرات العامة . وان الأعمال الفنية كعصر اغسطس تظهر بطريقة مشرقة التجدد لتجربة الفكر الديني .

ان التاريخ مثقل بانكار «العصر الذهبي» منذ موت اغسطس وعاد الرومان العيش في انتظار كارثة وشيكة الوقوع . ولكن عصر اغسطس بقي النموذج المثالي بالنسبة لحضارة الغرب المسيحي . وما هو اكثر من ذلك ، ان فرجيل ، وفي جزء شيشرون ، استلهما لاهوت الأدب ، وبصورة عامة ، لاهوت الثقافة المميزة للقرون الوسطى والتي استمرت في عصر النهضة . .

٢٢٦ - المحن والمصائب لديانة غير مشروعة

بعد موت يوليوس قيصر، جرى اعلانه الها بين الالهة ، وفي ٢٩ ق.م كرس له معبد في الفوروم . وقد كان الرومان اظهر والتأليه بعد الموت لكبار الرؤساء ، ولكنهم كانوا يرفضون تأليههم اثناء حياتهم^(٦) . وكان اغسطس قبل التكريمات الالهية في المقاطعات فقط ، أما في روما فكان ابن الاله فقط .
إن التأليه للاباطرة «الخيرين» ، ومن هنا تعمم تنظيم العبادة الامبراطورية بعد اغسطس^(٧) . ولكن تيير لم يؤله لأن كاليجولا أهمل تقديم الطلب امام مجلس السينا ، وأما بالنسبة لكاليجولا ، فقد كان همه أن يتأله قبل موته ، ولكن ذكره ادينت من قبيل الشيوخ sénateurs . وقد عرف كلوديوس ، وفيسابسيان وتيتوس التأليه ، ولكن جالبا وأوثون ونيشيليوس لم ينالوه ولم يكونوا يستحقونه وكذلك دوميثيان عدو مجلس الاعيان (السينا) . وما أن ضمنت آلية التوارث ، حتى ان كل اباطرة القرن الثاني تألهوا ؛ الأمر الذي لم يحصل في القرن الثالث ، عندما تتابع الاباطرة بسرعة فائقة^(٨) .

وبدأ من القرن الثاني ، كان رفض الاحتفال بالعبادة الامبراطورية القضية الأساسية لاضطهادات المسيحيين . ففي البدء ، باستثناء المذبحة المنظمة من قبل نيرون، فإن الاجراءات ضدالمسيحيين شجعت خاصة بمعاداة الرأي العام . وخلال القرنين الأولين ، اعتبرت المسيحية ديناً غير شرعي ، وكان المسيحيون يضطهدون لأنهم مارسوا ديناً سرياً بدون ترخيص رسمي . وفي ٢٠٢ اصدر سيبتيم سيفر القرار الأول ضد المسيحيين مانعاً التبشير . وبعد قليل من الوقت هاجم ماكسيمين التراتبية الكنسية وانما بدون نجاح . وحتى حكم ديسيوس تطورت الكنيسة بسلام . ولكن في ٢٥٠ اصدر ديسيوس قراراً يلزم كافة المواطنين بتقديم الاضاحي لالهة الامبراطورية .

لقد كان الاضطهاد لمدة قصيرة ولكنه كان قاسياً جداً . وهذا ما يفسر العدد الكبير من الردات . ومع ذلك ، فإن الكنيسة خرجت ظافرة من المحنة بفضل شهدائها والمؤمنين بها . ان الضغط المقرر من قبل فاليريان في ٢٥٧ - ٢٥٨ تبعته فترة طويلة من السلام (٣٠٣ - ٣٦٠) . وقد نجحت المسيحية بالتسرب الى أي مكان في الامبراطورية وفي كل الطبقات الاجتماعية (حتى في عائلة الامبراطور) ..

ان آخر اضطهاد هو اضطهاد ديوكليسيان (٣٠٣ - ٣٠٥) الأطول مدة والأكثر دموية . وبالرغم من الحالة المأساوية للامبراطورية ، فإن الرأي العام ظهر ، هذه المرة ، أقل كراهية تجاه المسيحيين . وعليه فإن ديكلوسيان اتخذ قراره بآبادة هذا الدين الدخيل وضد القومية . وفعلاً من أجل تقوية فكرة الامبراطورية ، اراد إعادة احياء التقاليد الدينية الرومانية القديمة وبخاصة ، تمجيد الصورة شبه الالهية للامبراطور . ولكن تراث اصلاح اوغسطس كان بالتدريج قد تفتت . وأخذت العبادات المصرية وآسيا الوسطى تتمتع بشعبية مذهلة ، واستفادت اضافة لذلك من الحماية الامبراطورية . فكومود (١٨٥ - ١٩٢) تلقن في اسرار ايزيس وميترا وكاراكلا (٢١٢ - ٢١٧) شجع عبادة الاله الشمسي السوري ، solinvictus . وبعد بضع سنوات ، ادخل الامبراطور السوري ايلاجابال Elagabal ، الذي هو نفسه كاهن الاله ايميز Dieu d'Eemès ، عبادته إلى روما . وقد اغتيل ايلاجابال في

٢٢٢ وابتعد الاله السوري من المدينة . مع ذلك وكما سنرى فإن اورليان (٢٧٠ - ٢٧٥) نجح في ادخال عبادة الشمس . فقد عرف اورليان انه من العبث تمجيد الماضي الديني لروما فقط الأمر الذي أوجب اضافة الى ذلك ادخال السنة الرومانية المحترمة في لاهوت شمسي من بنية وحدانية ، وهو الدين الوحيد الذي كان على أهبة لأن يصبح عالميا . وقبل الاضطهادات الكبرى في اواخر القرن الثاني حاول العديد من اللاهوتيين والمنافحين عن المسيحية التبرير والدفاع عن دينهم الجديد تجاه السلطات والانتلجنسيا الوثنية . ولكن مشروعهم تعرض للسقوط . وبسذاجة وطيش هاجم بعض المنافحين عن العقيدة عبادة الأصنام والثقافة الهلنستية (تاثيان ، تيرتوليان) ، والأكثر أهمية هو ان جوستان (استشهد حوالي ١٦٥) أجهد نفسه للبرهان على ان المسيحية لا تحتقر الثقافة الوثنية ، وقد مدح الفلسفة اليونانية ، ولكنه ذكر بأنها تستلهم الكشف التوراتي . وبأخذ جوستان لأدلة من اليهودية الاسكندرية ، أكد بأن افلاطون والفلاسفة الآخرين اليونان عرفوا المذهب العلن ، منذ زمن طويل قبلهم ، من قبل (النبي) موسى . هذا ومن جهة اخرى فإن خيبة المنافحين عن الدين المسيحي كانت متوقعة ، فبالنسبة للسلطات ، لم تصبح المسيحية مدانة بالاحاد والقدح في الذات الملكية فحسب ، ولكنها كانت متهمة بكل انواع الجرائم ، بالتهتك ، وبنكاح المحارم ، وبقتل الاطفال ، وأكل لحم البشر . وبالنسبة للنخبة الوثنية ، فإن ماهو جوهرى من اللاهوت المسيحي - تجسد المنقذ وآلام وقيامته - كان بكل بساطة غير معقول . على كل حال ، فإن العناد التعصبي لهذا الدين الجديد «للخلاص» جعل من الوهم الأمل بتواجد سلمى مع الأديان ذات الآلهة المتعددة .

وبالنسبة للبعثة المسيحية ، فإن الاضطهادات كانت تشكل الخطر الأكبر ؛ ولكن هذا لم يكن الخطر الوحيد المهدد للكنيسة . إن اسرار ايزيس وميترا ، وعقيدة الشمس ، والتوحيد الشمسي ، كلها كانت تمثل منافسة عنيدة ، لاسيما وانها كانت تستفيد من الحماية الرسمية لها . وازضافة لذلك ، فإن خطراً أكثر دقة كان يهدد الكنيسة من الداخل ، مختلف الهرطقات ، وفي المكان الأول منها الغنوصية . إن الهرطقات والغنوصيات ظهرت منذ بداية المسيحية . ويغيب القانون ، فإن الوسيلة

الوحيدة لتأكيد رسمية المعتقدات والممارسات الشعائرية كانت السنة الرسولية .
وحوالي السنة ١٥٠ ، كان جميع الأحبار قد ماتوا ، ولكن الانتقال لشهادتهم كان
قد ضمنَ بعدد من النصوص التي كانوا حبروها أو أوحوا بها والتقليد الشفهي .

مع ذلك ، فإن الطريقين للسنة الرسولية - شفاهية وكتابية - كانا قابلين لجني
تجديدات غامضة قليلاً أو كثيراً . فإلى جانب الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل
المقبولة من كل جماعات المسيحيين^(٩) . هنالك نصوص أخرى كانت تدور حول
اسماء الرسل : انجيل توما ، انجيل الحقيقة ، انجيل متى المزور . اعمال بطرس
ويوحنا الخ . واكثرية هذه الكتب موصوفة بأنها مزورة (لأنها تحتوي على كشوفات
بقيت حتى ذلك الحين «مخبأة» ومتضمنة لعلاقات بمذهب باطني ، واحل للرسل
عن طريق المسيح المبعوث ومتعلق بمعنى سري لأحداث حياته . وإلى هذا التعليم
السري ، المحفوظ والمنقول بالتقليد الشفاهي ، استندت الغنوصيات .

٢٢٧ - المعرفة الربانية المسيحية (الغنوصية المسيحية)

إن مشكلة الباطنية ، وانطلاقاً من المسارة سيثير مالا يحصى من المتناقضات ،
وبخاصة في البدء اثناء الأزمة المتفجرة بالغنوصية . فأمام الادعاءات الشاذة لبعض
الكتاب الغنوصيين ، أنكر آباء الكنيسة ويتبعهم فيما بعد معظم المؤرخين ، انكروا
وجود تعليم باطني ممارس من قبل يسوع ومستمر من قبل تلاميذه . ولكن هذا
الرأي قد نوقض بالوقائع . فالباطنية وبعبارات أخرى التحول التلقيني للمذاهب
والممارسات المحتفظ بها لعدد ضيق من المؤيدين تأكد في كل الأديان الكبرى في
العصر الهلنستي والمحيطه بالعهد المسيحي . وعلى درجات مختلفة يوجد السيناريو
التلقيني «تعليم وشعائر سرية ، فصل أو عزل المؤمنين ، اليمين على السكوت أو
الصمت الخ . . .» ففي اليهودية المعيارية وفي المذاهب اليهودية ، ولدى الاسينيين
(على سبيل المثال التنظيم المختصر) [٩ - ٧١ - ١٣ - ٢٣] ولدى السامارتيين
والفارسيين^(١٠) .

وان الممارسة لبعض التعليم الباطني مذكور كذلك في انجيل مرقس «فلما اعتزل الجمع سأله الذين حوله مع الاثني عشر عن الأمثال - فقال لهم : «انتم اعطيتم سر ملكوت الله وأما سائر الناس فكل شيء يلقي إليهم بالأمثال» [مرقس ٤ : ١٠ ٧ : ١٧ ١٠-١٠] ومنذ بدايات الكنيسة يميز داخل الجماعة ثلاث درجات ، والتي يفترض انها التدريب التكريسي : «المبتدئون والمتقدمون والتامون . وحسب اوريجين origène «ان الانجيليين حافظوا على ستر التفسير الذي كان اعطاه لهم يسوع عن اغلبية الأمثال [١٦-٢] واكثر وضوحاً هو كليمنت الاسكندري فقد دعا معلميه الذين حافظوا على «السنة الحقيقية للتعاليم المباركة الصادرة مباشرة عن الرسل المقدسين بطرس ، يعقوب ، يوحنا وبولس ، المنقولة عن الأب للابن والتي وصلت الينا بفضل الله» [سترومات ١-١-١١١-٣٠] .

والمقصود بذلك تعليمات محجوزة لعدد من المؤمنين ، المنقولة شفاهاً [٢-١٣] ويتوجب لها ان تبقى سرية ، وهذه التعليمات تشكل التقليد الغنوصي [٢-١٥] وفي كتاب آخر يؤكد كليمنت «لجلك العالي ، وليوحنا ولبطرس أن الاله بعد قيامته اعطى العرفان الرباني (غنوص) وان هؤلاء اعطوه للرسل ، والرسل الآخرون اعطوه الى ٧٠ حيث ان برنابا كان واحدا منهم»^(١١) .

ومن المستحيل التحديد بدقة للمعيار الذي كان قاد لانتخاب التلامذة الجديدين بالتلقين في المعرفة الربانية ، وبخاصة الظروف ومراحل التكريس . وان بعض التعليم من نموذج (باطني) كان معطى بالتسلسل لكل المؤمنين ، انه كان يحمل على رمزية التعميد ، وتناول القربان المقدس والصليب ، وعلى رؤساء الملائكة ، وعلى شرح الرؤيا . وفيما يتعلق بالأسرار المكشوفة ، الى المكتملين والى الذين هم على أهبة ان يصبحوا كذلك ، كان يرجع على الأرجح الى خفايا الهبوط والصعود للمسيح عبر السموات السبع المسكونة من قبل الملائكة [ايفيزيوس ٤ : ٩] والى الأخروية الفردية أي إلى التطواف الصوفي للروح بعد الموت . وعليه فإن هذا التطواف الصوفي متصل بـ le pseudo-Denys للتقليد الشفاهي للرسل . وهكذا يظهر لنا وجود توالي للمعلمين الغنوصيين أو المعلمين الروحيين متميز عن توارث الاساقفة الذي نقلوا عقيدة الرسل [. . .] ولكنهم اكملوا التقليد اللدني للازمنة

الرسولية وللرسل^(١٢) - مع ذلك فإن التقاليد الباطنية للرسل تحدد باطنية يهودية متعلقة بسر الصعود للروح وأسرار عالم السماء . ولكن هذه المذاهب توجد كذلك لدى المانديين . وما هو أكثر من ذلك ، انها مشابهة لبعض المفاهيم الأخروية المصرية (ف ٥٣ع) والایرانية . . وإلى جانب افكار ومعتقدات اخرى «خلافاً» للافكار والمعتقدات الموزعة بين المسيحية واليهودية ، نصادفها لدى عدد من الكتاب الغنوصيين ، والوثنيين وهراطقة المسيحية . ويعرف لماذا ابتداء من بعض الزمن اصبحت المعرفة الربانية والباطنية متهمتين بنظر السلطة الكنسية . ولقد امكن لبعض الغنوصيين مستندين لسنة رسولية شفوية وسرية ، ادخال نظريات في المسيحية . و ادخال ممارسات معارضة جذريا لمنطوق أو اخلاقية الانجيل . ولم تكن «الباطنية» و «الغنوصية» بصفتهما كذلك اللتان تكشف انهما خطرتين ، وانما «الهرطقيات» التي تدخلت تحت غطاء من «سر تلقيني» .

وبالتأكيد ، وبما انه لزمّن طويل ايضاً ، لم تكن العقائد ولا «الكتاب» مثبتة ، كان يمكن ان يظهر متعسفا الوصف بالهرطيقية لبعض التفسيرات الجريئة لتعليم المسيح غير انه في عدد من الحالات كانت «الهرطيقية» - أي التفسير المغلوط للرسالة الانجيلية - واضحة ، وعلى سبيل المثال ، عندما رفضت صحة العهد القديم واعتبر الاله - الأب كخالق شرير وبلد - كذلك الأمر ، عندما أدين العالم وعييت الحياة بصفتها كابداعات صدفية أو شيطانية ، أو عندما انكر التجسد ، والموت والقيامة للابن . صحيح ان القديس بولس ، هو ايضا كان قد قدر هذا العالم المحكوم بالشيطان وان الرؤويين اليهود والمسيحيين كانوا تنبؤوا بالخراب الوشيك الوقوع للأرض ، ولكن لا القديس بولس ولاكتاب الرؤويا لم ينكروا الأصل الالهي للخلق .

٢٢٨ - مقاربات الغنوصية

من العسير التحقق بدقة من أصول التيار الروحي المعروف تحت اسم

(الغنوصية)* ولكن يجب تمييزه عن العديد من المعارف الربانية gnoses السابقة أو المعاصرة ، المشكلة جزءاً لا يتجزأ من مختلف ديانات العصر (الذرادشتية ، الأسرار ، اليهودية المسيحية ، المعارف ، التي سنرى ، انها متضمنة تعليمها باطنياً . ويضاف الى ذلك ان كافة القصص الميتولوجية والأخرية تقريباً التي وضعت موضع الاعمال من قبل الكتاب الغنوصيين هي سابقة للغنوصية بالمعنى الدقيق للكلمة strictosensu فبعضها تأكد في ايران القديمة وفي الهند من عصر الاوبانيشاد ، وفي الأورفية والأفلاطونية ، وبعضها الآخر يتميز بالتوفيقية من نوع هيللنستي ، واليهودية التوراتية وما بين العهدة ، او التعابير الأولى للمسيحية . ومع ذلك فإن ما يحدد الغنوصية السابقة ليس هو التكامل العضوي قل أو كثر مع عدد من العناصر المتفرقة ، ولكن اعادة التفسير الجريء ، والشتائم بصورة خاصة ، لبعض الأساطير ، والأفكار والتولوجات ذات الانتقال الواسع في ذلك العصر^(١٣) .

إن صيغة الغنوص الفالنتيني* ، المنقولة من قبل كليمنت الاسكندري ، تعلن بإمكانية الحصول على الخلاص بتعلم «ماذا كنا وماذا أصبحنا ؟ وأين كنا وأين ألقى بنا ؟ ونحو أي هدف نسير مسرعين إليه ، ومن أين تم استردادنا ؟ وماهي الولادة ، وماهو البعث» [مقتطفات من ثيودوت ٧٨ - ٢] . وخلافاً للأوبانيشاد ، وللمسكهيا - يوجا والبوذية - التي تتجنب بعناية الإطناب على العلة الأولى السقوط البشري - فإن المعرفة الغفرانية أو الفدائية المعلمة من قبل الغنوصيين تتكون قبل كل شيء في «تاريخ سري» ، (وبدقة اكثر ، الباقي سراً

* في المعجم الفلسفي للدكتور صليبا جزء ٢ ص ٧٢: ان الغنوصية يطلق على المذهب الذي انتشر في القرنين الثاني والثالث للميلاد وامتد بطريق الافلاطونية الحديثة الى فلاسفة الاسلام وخلاصته ان العقل البشري قادر على معرفة الحقائق الالهية ، وان الحقيقة واحدة وان اختلف تعليمها وان الموجودات فاضت عن الواحد ولها مراتب مختلفة اعلاها مرتبة العقول المقارفة وادناها مرتبة المادة التي هي مقر الشر والعدم ، اما لنفس التي هبطت الى هذا العالم فإنه لا خلاص لها الا بالمعرفة بل الخلاص بالمعرفة افضل من الخلاص بالايان والأعمال الصالحة وهي انواع .. كما ذكرها .. المرجع .. المذكور .

* نسبة لفالنتين (محبوب تختاره الفتاة في عيد القديس فالنتين ويتوجب عليه ان يقدم لها هدايا .

بالنسبة لغير المتلقين) : أصل وخلق العالم ، أصل الشر ، مأساة الفادي الهابط على الأرض بهدف انقاذ البشرية ، والانتصار النهائي للاله المتصاعد ، انتصار سيجرّم نتيجة التاريخ وبزوال الكون . انه يتعلق بأسطورة كلية : يقرر كل الأحداث الحاسمة ، منذ أصل العالم حتى الوقت الحاضر ، ومبرهنًا على استقلاليتها ، ويضمن مصداقية الآخرة ، وان هذه الاسطورة الشاملة معروفة لدينا في العديد من النصوص . وسنذكر بعضها فيما بعد ، مؤكدين بصورة خاصة على أكثرها عظمة ، تلك التي انشئت من قبل ماني (ف ٢٣٣ع) .

وللعودة إلى الصيغة الفالنتينية ، فإن الغنوصي يتعلم ان كينونته الصحيحة (كينونته الروحية) هي من أصل وطبيعة الهيتين ، مع انه ، حالياً ، يوجد اسيراً في الجسد ؛ انه يتعلم كذلك بأنه كان يسكن منطقة متصاعدة ، إلا أنه فيما بعد ، طرح في هذا العالم السفلي ، وانه يتقدم بسرعة نحو الخلاص وسيتهي بأن يتحرر من سجنه الجسدي ، وهو يكتشف أخيراً ، في حين أن ولادته كانت تعادل سقوطاً في المادة ، فإن عودة ولادته ستكون من نظام روحي صرف . ونعيد ذكر الأفكار الرئيسية : الثنائية روح/مادة الهي (متصاعد)/لا الهي ، واسطورة هبوط الروح (=روح ، جزئاً إلهي) ، أي التجسد في جسم (مثلاً بسجن) ؛ واليقين بالخلاص («السلامة») المتحصلة بفضل الغنوص la gnose .

وللهولة الأولى ، يقال إن هنالك صلة بتطور لاحد له ، ضد - كوني ، ومتشائم ، وثنائية اورفية - افلاطونية^(١٤) . وفي الحقيقة ، ان الظاهرة هي أكثر تعقيداً . ان المأساة البشرية - بخاصة السقوط والفداء - تعكس المأساة الالهية . فالإله أرسل في العالم كائناً أولياً ، او ابنه الخاص ، من اجل انقاذ البشر . هذا الكائن المتصاعد يتحمل كافة النتائج المهيئة للتجسد ولكنه ينجح بالكشف لبعض المختارين عن العرفان (الغنوص) الحقيقي المنقذ قبل ان يرجع نهائياً الى السماء . إن بعض المفارقات تسهب في اتجاه أكثر مأساوية نزول الإبن او الكائن المتصاعد : ان هذا مأسوراً بالقوى الشيطانية و ، محبلاً بالانغماس في المادة ، ينسى هويته الخاصة . فيرسل الاله عندئذ رسولاً ، و «بإيقاظه» له يساعده على استرداد وعيه الذاتي . (تلك هي اسطورة «المنقذ - المنقذ» sauteur-sauvé . المروية ببراعة في

نشيد الجوهرة ؛ رف ٢٣٠ ع) .

وبالرغم من بعض الموازيات الايرانية ، فإن النموذج المباشر للمنقذ الرسول من قبل الاله هو بكل وضوح يسوع المسيح . إن النصوص المكتشفة في عام ١٩٤٥ في نجع حمادي ، وفي مصر العليا تبرهن عن الأصل اليهودي - المسيحي لبعض المدارس الغنوصية العامة^(١٥) . ومع ذلك فإن لاهوتياتها واخلاقياتها مختلفة جذريا عن تلك التي علّمت من قبل اليهودية والمسيحية . بدنياً ، بالنسبة للغنوصيين ، ان الاله الحقيقي ليس الاله الخالق ، أي يهوه . لأن الخلق هو عمل قوى أدنى ، بل شيطانية ؛ أو ايضاً ، ان الكوزموس هو التشويه الشيطاني قل أو كثر لعالم أعلى - مفاهيم غير ممكنة الادراك بالنسبة لليهودية كذلك بالنسبة للمسيحيين . وبالتأكيد ، ان نشأة الكون ، في الوثنية المتأخرة ، اضعفت كل دلالتها الدينية الايجابية . ولكن الغنوصيات تذهب ايضاً بعيداً أكثر . فليس فقط ان خلق العالم هو غير دليل لكلية القدرة للاله ، انه يفسر بحادث متحصل في المناطق العليا ، أو كنتيجة للغزوة البدئية للظلمات ضد النور (ر . الاسطورة المائية ف ٢٣٣ ع) . اما بالنسبة للوجود المجسد بعيداً عن ان يحاط في «تاريخ مقدس» كما فكر به المسيحيون واليهود ، فهو يقرر ويوضح هبوط الروح . وبالنسبة للغنوصي ، فإن الهدف الوحيد الجدير بالاتباع هو الانعتاق من هذه القطعة الصغيرة الالهية والصعود نحو الاقطار السماوية .

ولقد رأينا (ف ١٨١ ع) ان سقوط الانسان ، أي تجسد الروح ، كان قد شغل فيما سلف اللاهوتيين الأورفيين والفيثاغوريين : لقد فسرت ، إما كعقاب عن إثم ارتكب في السماء ، وإما كنتيجة لاختيار مؤلم مصنوع من قبل الروح ذاتها . وفي القرون الأولى للمسيحية انتشرت هاتان الاسطورتان وتحورتا من قبل عدد من الكتاب الغنوصيين وغيرهم^(١٦) .

فطالما ان العالم هو النتيجة لحادث عرضي أو كارثة ، وبما انه محكوم بالجهل ومدار بقوة الشر ، فإن الغنوصي يتكشف بكليته مغتربا بثقافته الخاصة ويطرح كل المعايير والمؤسسات ، والحرية الداخلية المتحصلة بالعرفان تسمح له بالتصرف

بحرية من ذاته والعمل على هواه . إن الغنوصي يشكل جزءاً من نخبة ، نتيجة اختيار مقرر بالروح . انه ينتمي لطبقة «الروحيين» - المكتملين «أبناء الملوك» - الوحيدين الذين سينقذون^(١٧) . وتماثل الريش les richis ، والسانيازي les sannyasi واليوجيين ، فإن الغنوصي يشعر بنفسه متحرراً من القوانين التي تحكم المجتمع : إنه ينتمي لما وراء الخير والشر ، ولأجل متابعة المقارنة مع الأعمال الهندية ، والتقنيات الجنسية والشعائر التهتكية للمدارس التانتارية «الليد اليسرى» [ر. الفصل ٣٨ جزء ٣] ، تقابل التهتكات للمذاهب الغنوصية المتحررة (في المقام الأول منها الفيبيونيسست les phibionistes)^(١٨) .

٢٢٩ - من سمعان الساحر الى فالتين

ان المدافعين عن الكنيسة المسيحية يرون في سيمون الساحر أول هرطقي والسلف لكل الهرطقات . وحسب بعض المؤرخين ، فإن سمعان ليس غنوصياً بالمعنى الضيق للكلمة وإنما أصبح تلامذته كذلك بعد كارثة الـ ٧٠ - ١٩ . وقد اصطدم الرسول بطرس بالحركة السمعانية في ساماري ، حيث أعلن سمعان نفسه «قوة الرب الذي أسمى كبيراً»^(٢٠) . وفي الواقع ، لقد عبد كأنه «الاله الأول» ، وان رفيقته «هيلين» المكتشفة من قبل سمعان في ماخور ، وفي صور ، كانت معتبرة كآخر وأحط تجسد «لفكر» الاله (ايناوا Ennoia) ؛ وقد أصبحت هيلين - ايناوا بعد شرائها من قبل سيمون وسيلة الغفران العالمي . ان سمعان الساحر يرم مؤرخ الاديان خاصة بالنسبة لتمجيد هيلين وبالنسبة للميتولوجيا التي أوجتها . ان اتحاد «الساحر» والعاهرة يضمن السلامة الشاملة ، لأن هذا القران ، هو في الحقيقة ، اجتماع الاله والحكمة الالهية .

إن ذكرى هذا الزوج المتنافر اثار على وجه الاحتمال اسطورة فاوست المثل النموذجي للساحر . وفي الواقع كان سمعان معروفاً في روما كفوستوس Faystus («المفضل») ورفيقته كانت ، في وجود سابق ، هيلين طروادة . الا انه ، في

القرون الأولى من العصر المسيحي ، اثرت بخاصة المواجهة القصوى بين الرسول بطرس والساحر . وحسب الاسطورة ، فإن سيمون أعلن في روما ، صعوده للسماء أمام جمهور معتبر من المشاهدين ، غير ان الصلاة التي تلاها الرسول جعلته يسقط بحالة مؤلة .

ومثال مارسيون marrcion هو تعليمي لعدة اسباب ، لقد ولد حوالي ٨٥ ، في الجسر le pont ابنا للأسقف دي سينوب ، وحافظ في قسم كبير على الممارسات الارثوذكسية . الا انه طور لحد الافراط معاداة - اليهودية البولسية . وقد رفض مارسيون العهد القديم وأقام قانونه الخاص ، راجعاً لأنجيل لوقا وإلى الرسائل العشرة لبولس . وأضاف اليها موجزا المتضادات les Antithèses التي قدم فيها مبادئ لاهوته . وفي روما ، حوالي ١٤٤ حاول مارسيون عبثاً الحصول على خضوع الكهنوتيين . وباعتبار انه قد فصل ، فقد أقام مذهبه في اتجاه راديكالي دوما وأسس كنيسة حقيقية . وكمنظم بارع ، نجح في اقناع عدد كبير من جماعات مسيحية في حوض المتوسط . وهذه التولوجيا الجديدة نجحت نجاحاً بارزاً ، ولهذا فقد هوجمت بلا كلل من قبل الكتاب الارثوذكس . الا انه ، منذ منتصف القرن الثالث ، أخذت المارسيونية بالانحدار وانتهت في الغرب ، بأقل من سنة .

إن مارسيون يشارك في الجوهر في الثنائية الغنوصية ، بدون ادخال التطبيقات الرؤوية . ونظامه الثنائي يعارض الشريعة والعدالة المقامتين من قبل الاله الخالق للعهد القديم ، وبالحب وبالانجيل المكشوفين من قبل الاله الخير ، ارسل هذا الاله ابنه يسوع المسيح لكي ينقذ البشر من عبودية الشريعة . فيسوع اتخذ جسداً مؤهلاً ، لأن يشعر ويتألم ، مع انه ليس مادياً وفي تبشيره يمجّد المسيح الرب الكريم ، الا انه يتحفظ بأن يحدد بدقة ان ليس المقصود اله العهد القديم . ومن جهة أخرى فإن يهوه بتبشير يسوع علم بوجود اله متساعد . وقد ثار بتسليم يسوع الى مضطهديه . ولكن الموت على الصليب يحمل السلامة ، لأن يسوع بتضحيته افندى البشرية من اله خالق . مع ذلك ، استمر العالم ليكون تحت سيادة يهوه وسيبقى المؤمنون مضطهدين حتى نهاية الأزمنة . وليس الا عندئذ سيعرف الاله الكريم : سيتلقى المؤمنين في ملكوته ، بينما ان الباقين من البشر ، شأنهم شأن

المادة والخالق ، سيصبحون فانيين نهائياً .

وهناك ساماريتاني آخر ، ميناندر ménandre أدخل الغنوصية لانطاكية وقد مثل نفسه وكأنه القادي الهابط من السماء لانقاذ البشرية . وسيصبح الذين عمدوه أسمى من الملائكة . وخليفته ، ساتورنيل (الناشط في انطاكية ما بين ١٠٠ و ١٣٠ تقريباً) ؛ عارض الرب المستر برب اليهود ، الرئيس البسيط للملائكة الخالقة . لقد أدان الزواج ، المعتبر عمل الشيطان [ايرينيذ ١ - ٢٤ - ٢] . ولاهوته محكوم بالثنائية ، وحسب ايرينييه ، كان ساتورنيل أول من تكلم عن صنفين من البشر ، أولئك الذين يشاركون وأولئك الذين لا يشاركون بالنور السماوي .

وسيرانث cérinthe يهودي - مسيحي معاصر ليوحنا [ايرينييه ٣ - ٣ - ٤] يعلم ان العالم قد خلق من قبل خالق مجهل الاله الحقيقي : وهذه هي العبارة الأولى للغنوصية القديمة بالمعنى الضيق للكلمة . وحسب سيرانث ، ان يسوع هو ابن يوسف ومريم ؛ وبتعميده ، نزل عليه المسيح بشكل حمامة وكشف له الأب المجهول ، ثم انه قبل الآلام عاود الصعود لقرب الاله الأب [ايرينييه ١ - ٢٨] .

والغنوصية اليهود - المسيحية المنتشرة في آسيا وسورية دخلت كذلك في مصر . وقد أقام سيرانث في الاسكندرية ، حيث انه حوالي عام ١٢٠ ، أعلن كاربوكرات مذهباً مشابهاً : يسوع هو ابن يوسف ، ولكن «قوة» قدسته [ايرينييه ١-٢٣٢] . والذي يتلقى قوة يصبح المساوي ليسوع وهو مؤهل لاكمال ذات المعجزات . وثمة خط مميز لغنوص كاربوكرات هو لا أخلاقيته الراديكالية ، «التي تبدو انها رفعت من التمرد الغنوصي ليس ضد الاله اليهودي فحسب ، وانما ضد الشريعة»^(٢١) . وبازيليد ، اسكندراني آخر معاصر لكاربورات ، يعطي التركيب الأول للمذاهب المعلمة من قبل تلامذة سمعان الساحر . لقد نشر «كوزمولوجيا» علم كون من نوع غنوصي واسع ومعقد ، معدداً بطريقة استعراضية السماوات والملائكة التي تحكمها : يعدد منها ٣٦٥^(٢٢) ويرفض بازيليد الشريعة اليهودية بالكلية : فيهمه ليس سوى واحد من الملائكة الخالقة للعالم ، مع انه يجهد نفسه للسيادة عليها ولاخضاعها جميعاً .

وبلا ريب ان المعلم الغنوصي الأكبر أهمية هوفالتين ، الذي يظهر بين كبار اللاهوتيين ونساک عصره . وقد ولد في مصر وتعلم في الاسكندرية ، وعلم في روما ما بين ١٣٥ - ١٦٠ . ولكن وكما أنه لم ينجح في الحصول على وظيفة اسقف ، فقد انفصل عن الكنيسة وترك المدينة^(٢٣) . وفي اقامته لنظامه العظيم ، تعرض فالتين لتفسير وجود الشر وسقوط الروح ، ليس في منظور ثنائي - بتدخل خصم للاله - وإنما بمأساة حصلت داخل الالهية ذاتها . إن أية خلاصة لا تنصف جمال وجراً التركيب الفالتييني . ولكن خلاصة لها مع ذلك الميزة لابعاد مالا يحصى من سلاسل النسب «فيوضات» و«اسقاطات» مثاره برتبة مؤثرة بهدف تفسير الأصل وراوية المأساة لكل الحقائق الكونية ، الحيوية ، والنفسية والروحية^(٢٤) .

وحسب فالتين ، إن الآب أول مبدأ مطلق ، ومتصاعد وهو غير مرئي وغير ممكن فهمه ، إنه يتحد بقرينته الفكرة (Ennoia) ويولد الأزواج الخمسة عشرة للايون eons (فترات من الدهر) التي ، بتجمعها ، تشكل البليروم pleirome^(٢٥) . وإن آخر الايونات صوفيا sophia العمياء برغبتها لمعرفة الآب ، تثير ازمة على اثرها يظهر الشر وتظهر الآلام . وإن صوفيا والخلائق الضالّة التي وقتها المترسبة من البليروم تنتج حكمة دنيا . في الأعلى ، خلق زوج جديد ، المسيح وشريكته المؤنثة ، روح القدس . وأخيراً ، معاوداً الحياة في كمالها الاساسي ، يولد البليروم المنقذ ، المسمى كذلك يسوع . وينزوله في الأقاليم الدنيا ، يؤلف المنقذ «المادة الغير مرئية» مع العناصر المادية الآتية من الحكمة الدنيا ، ومع العناصر النفسية ، انه يشكل الخالق ، اي - رب التكوين . وهذا يجهل وجود عالم أعلى ويعتبر نفسه الاله الوحيد . انه يخلق العالم المادي ، ويؤلف صنفين من البشر ، باحيائهما من نفخته ، «المادين» و«النفسيين» . ولكن العناصر الروحية ، الآتية من الصوفيا العليا ، تدخل بلا علمه في نفخة الخالق وتولد طبقات «الانسام الغازية»^(٢٦) . ويهدف انقاذ اتباعه الروحانيين الأسرى في المادة ، نزل المسيح على الأرض ، وبدون ان يتجسد في المعنى الأصلي للعبارة ، كشف المعرفة المحررة . وهكذا فإن الانسام الغازية المتبقية بالغنوص ، هي وحدها فقط ، تعاود الصعود نحو الآب .

وكما يلاحظ هانز جوناكس ، في منهج فالتين ، ان للمادة أصل روحاني ويفسر بالتاريخ الالهي . وعليه ، فإن المادة هي حالة أو «حبة» من الكائن المطلق ، وبدقة أكثر ، «التعبير الخارجي التماسك» لهذه الحالة ، والجهالة («عمى» صوفيا) هو العلة الأولى لوجود العالم^(٢٧) . وهذه فكرة تعيد الى الذاكرة المفاهيم الهندية (المشاركة بعدد من المدارس فيدانتا وبالسّمكها - يوجا) . وتّما كما في الهند ، فإن الجهالة والمعرفة تميزان نوعين من الانطولوجيا (معرفة الكائن) . إن المعرفة تشكل الشرط الأصولي للمطلق ؛ والجهالة هي النتيجة للبلبلّة الحاصلة داخل هذا المطلق نفسه . ولكن السلامة المتحصلة بالمعرفة تعادل حادثاً كونياً . وإن الغفران لآخر «نسمة غازية» سيكون مترافقاً بدمار العالم .

٢٣٠ - اساطير واستعارات غنوصية

إن فقدان الذاكرة (وبعبارة أخرى نسيان هويته الخاصة) والرقاد ، والسكر ، والخلل ، والأسر ، والسقوط والحنين للوطن جميعها تصنف بين الرموز والصور الغنوصية المميزة مع إنها ليست من ابداع معلمي العرفان (الغنوص) . وبالعودة صوب المادة وبالرغبة لمعرفة ملذات الجسد ، تنسى الروح هويتها الخاصة . «إنها تنسى اقامتها الأصلية ، ومركزها الحقيقي ، وكيّونتها الخالدة»^(٢٨) . إن الحضور الأكثر مأساوية وإثارة لاسطورة غنوصية عن فقدان الذاكرة وسوابق المريض توجد في نشيد الجوهرة المحفوظة في أعمال توماس . يصل أمير من الشرق ليفتش في مصر عن «الجوهرة الوحيدة التي توجد وسط البحر محاطة بأفعى ذات صفيّر طنان . وفي مصر يؤسر الأمير من قبل رجال البلاد ، الذين يعطونه ما يأكله هين أطعمتهم ، وينسى الأمير هويته . «لقد نسيت انني كنت ابن ملك وخدمت ملكهم ونسيت الجوهرة التي من أجلها ارسلني أهلي ، ومن ثقل طعامهم غمت نوماً عميقاً» . إلا أن أهل الأمير يعرفون ما حصل له فكتبوا له رسالة «استيقظ - وقم انت من رقادك ، واصغ الى كلمات رسالتنا ، تذكر انك ابن الملك . انظر في أية عبودية سقطت ، تذكر الجوهرة التي من أجلها ارسلت الى مصر» . وطارت الرسالة كنسر ، ونزلت عليه وأصبحت كلاماً «على صوتها وعلى حفيفها ، تيقظت وخرجت من رقادي .

لقد جمعتها ، وعانقتها . وكسرت ختمها وقرأتها [. . . .] . لقد تذكرت انني كنت ابنا لأقارب الملوك [. . . .] وتذكرت عن الجوهرة التي من أجلها ارسلت الى مصر وأخذت أعمل لرقي الحية ذات الصفير الطنان . لقد جعلتها تنام برفيها ، ثم عزمت عليها باسم والدي وحملت الجوهرة وأوجبت على نفسي العودة لمنزل والدي^(٢٩) .

وهذه الأسطورة هي اسطورة «منقذ منقذ» salvator salvatus في ترجمتها الأكثر نجاحاً . ونضيف لذلك انه من أجل كل باعث اسطوري نجد موازيات في مختلف النصوص الغنوصية^(٣٠) . إن دلالات الصور سهلة الفهم ، فالبحر كذلك مصر هما الرمز العام للعالم المادي التي سقطت فيه روح الانسان اسيرة ، والمنقذ مبعوث من أجل تحريرها . وبالنزول من الأقاليم السماوية يترك البطل «ثوب انتصاره» ويلبس «الثوب القدر» لكي لا يتميز عن سكان البلاد ؛ وهذا هو (الغلاف الجسدي الشهواني) ؛ لحسد الذي يتجسد فيه والى فترة ما خلال صعوده يستقبل بثوبه الفخم من النور «مشابها له ذاته» ويعرف ان هذا القرين هو ذاته الحقيقية . ان اللقاء مع قرينه المتصاعد يذكر بالمفهوم الايراني للصورة السماوية للروح (داينا) التي تواجه المتوفي في ثالث يوم بعد وفاته . (انظر الجزء ١) . وكما لاحظ جوناس فإن اكتشاف هذا المبدأ المتصاعد داخل الذات نفسها يشكل العنصر المركزي للديانة الغنوصية^(٣١) .

إن نعمة فقدان الذاكرة المثارة بانغماس في الحياة = (المادة) والسوابق المرضية المتحصلة بالحركات والأغاني أو كلمات مبعوث ، تصادف كذلك في الفولكلور الديني لهند القرون الوسطى . وان واحدة من الأساطير الأكثر شعبية تحكي قصة فقدان الذاكرة لما ستيندرانات . فهذا المعلم اليوجي يهيم بملكة ويستقر في قصرها ، ناسيا هويته تماماً ، أو حسب رواية اخرى ، سقط سجين نساء في بلاد (الكادالي) . وان تلميذه غوراكنات الذي علم بأسر معلمه ، يمثل امامه ، تحت شكل راقصة ، ويبدأ بالرقص مع الغناء لأغاني (ذات الغاز) وشيثاً فشيثاً يتذكر ما تسيندرانات هويته الحقيقية . إنه يعرف ان الطريق الشهواني يقود الى

الموت ، وان نسيانه كان في اساسه نسيان لطبيعته الحقيقية والخالدة ، وان مفاتن كادالي تمثل سرابات الحياة الدنسة . ويشرح له غوراكناث ان الربة دوريا هي التي حرضت النسيان الذي كاد ان يكلفه الخلود ويضيف غوراكناث ، ان هذا السحر يرمز للعنة الخالدة الجهالة الملقاة من «الطبيعة» على الكائن البشري^(٣٢) .

ان اصول هذه النغمة الفولكلورية ترجع الى عصر الاوبانيشاد . ويذكر في هذا الصدد الخرافية الحكيمة للشاندوجيا اوبانيشاد (الانسان المأسور من قبل اللصوص والمبعد بعيداً عن مدينته وعيناه معصوبتان) وتفسير السمكارا : اللصوص والعصابة على العينين تمثل الجهل والضلال ، وان الذي يرفع العصابة عن العينين هو المعلم الذي يكشف له المعرفة الحقيقية ؛ ومنزله الذي نجح في اكتسابه يرمز لأتمانه ، لذاته ، الماثلة لكائن مطلق .. (. . ماسبق ذكره حول هذا) . وتمثل السمكهيا - يوجا وضعاً ماثلاً : فالذات (بيروشا) هي بامتياز «غريب» وليس له شيء ليفعله مع العالم (براكرتي) . وتماها كما هو بالنسبة للغنوصيين ، فإن الذات (بيروشا) معزولة لا مبالية مجرد مشاهد بسيط غير فاعل في مأساة الحياة والتاريخ (ف ١٣٦ع) .

إن التأثيرات ، في معنى أو آخر ، غير مستبعدة ، ولكنه من الراجح اكثر ، اننا هنا على صلة ببعض التيارات الروحية الموازية ، المتطورة بدءاً من الازمات المتفجرة منذ بضعة قرون سابقة في الهند (الاوبانيشاد) وفي اليونان والبحر المتوسط الشرقي (الأورفية والفيثاغورية) وفي ايران والعالم الهيللنستي . وان العديد من الصور والاستعارات المستعملة من قبل الكتاب الغنوصيين لها تاريخ ، لابل قبل تاريخ ، محترم ، ولها انتشار كبير .

وان واحدة من الصور المفضلة هي صورة الرقاد المثل بالجهل والموت . ويرى الغنوصيون ان البشر لا ينامون فحسب ، وانما يحبون النوم . «لماذا ستحبون دائماً النوم وتعثرون مع اولئك الذين يتعثرون ؟» سؤال سألته الجينزا^(٣٣) le Ginza «على من يسمع ان يستيقظ من رقاذه العميق» . ذلك ما كتب في رؤيا يوحنا، كما سنرى فإن الباعث ذاته سيوجد في المانوية. غير أن مثل هذه الصيغ

ليست احتكاراً للكتاب الغنوصيين . فرسالة القديس بولس الى اهالي افسس [١٤:٥] تحتوي على هذه الاشارات المغفلة «تنبه أيها النائم وقم من بين الأموات يضيء لك المسيح» . وان الرقاد (Hypnes) بصفته الشقيق التوأم للموت (تهاناتوس) Thanatos ، في اليونان كما في الهند وفي الغنوصية ، وفعل «اليقظة» كان له معنى «انقاذي» sotériologique (في المعنى الواسع للكلمة :سقراط «يوقظ» محدثيه أحيانا ضد رغبتهم) .

انه يتعلق برمزية قديمة ومنتشرة عالمياً . ان النصر المحرز على الرقاد واليقظة الممتدة تشكلا ت تجربة تلقينية نموذجية . ولدى بعض القبائل الاسترالية ، ان التلامذة الجدد في طريق تلقيهم الأسرار يجب عليهم ان لا يناموا خلال ثلاثة أيام ، أو يمنعون ايضاً من النوم قبل الفجر^(٣٠) . وهذا ما يذكر بالتجربة المسارية التي يسقط فيها بأسى البطل الشهير جلقامش : لم ينجح لان يستيقظ وفاته حظه بالحصول على الخلود (ف ٢٣ع) . وفي اسطورة من اميركا الشمالية من نموذج اورفيه واوريديس يحصل أن رجلاً ينزل الى منازل الأموات (الجحيم) حيث يجد زوجته التي كانت قد ماتت ، ويعرض عليه سيد الجحيم بأنه يستطيع اعادة زوجته على الأرض اذا كان قادراً على اليقظة كل الليل . ولكنه لم يفلح ، وحتى بعد ان نام خلال النهار كي لا يتعب ، لا يتوصل الرجل الى ان يستيقظ فعلاً الا في الفجر^(٣١) . فيلاحظ اذن ان «عدم النوم» ليس انتصاراً على التعب الطبيعي فحسب ، وإنما هو خاصة اجراء برهان على القوة الروحية . فان يبقى «متيقظاً» يكون واعياً تماماً ، وهذا يعني : البقاء حاضراً في عالم الروح . إن يسوع لم يتوقف عن ان يفرض على تلامذته اليقظة [ر. على سبيل المثال متى ٢٤: ٤٢] . وان ليل جيتسيماني جعل مأساوية بصورة خاصة بعدم قدرة التلامذة على اليقظة مع يسوع .

وفي الأدب الغنوصي ، ان الجهل والرقاد يعبر عنهما كذلك بمصطلحات «السكر» ويقارن انجيل الحقيقة الذي «يملك العرفان - الغنوص» بشخصه يصبح قانعاً زاهداً في الشرب بعد ان سكر ، وبرجوعه لذاته يؤكد مجدداً ماكانت في الاساس ذاته^(٣٧) . إن «اليقظة» تدخل السابقة المرضية ، واكتشاف الهوية

الحقيقية للروح ، أي المعرفة لأصله السماوي «استيقظي انت ، ياروح الاشراق ، من رقاد السكرالذي تردت فيه»[. . . .]، ذلك ماكتب في نص مانوي. اتبعيني للمكان المجد حيث كنت تقيمين من البدء» وفي التقليد الماندي mandeénn ، يتوجه المبعوث السماوي لآدم ، بعد أن ايقظه من ثباته العميق «لاترقد بعد الآن ولا تنام ، ولا تنسى ابداً ما ألقاه الرب على عاتقك»^(٣٨) .

وفي آخر المطاف ، ان اغلب هذه الصور - الجهل - فقدان الذاكرة ، الأسر «الرقاد والسكر» - تصبح جميعها استعارات مجازية في التبشير الغنوصي لتدل على الموت الروحي . وان العرفان (غنوص) يصاحب حقيقة الحياة ، أي الغفران والخلود .

٢٣١ - البارقليط المستشهد

ولد مانني في ١٤ نيسان سنة ٢١٦ في سيلوسي - ستيزفون من بابل ، وحسب التقليد ، فإن والده ، باتيك ، سمع اثناء ثلاثة ايام متوالية صوتا يفرض عليه أن لا يأكل لحماً ، وان لا يشرب خمراً ، وان يبتعد عن النساء . وقد كان باتيك ، المضطرب ، مرتبطاً بمذهب غنوصي تعميد القسايط les Elkasaites^(٣٩) . وقد جاء الطفل إلى العالم معاقاً (كان اعرجاً على الأرجح) وعندما بلغ سنته الرابعة من العمل ضمه والده إليه بهدف تربيته ضمن جماعة القسايط . وفي غضون أكثر من عشرين عاماً (من ٢١٩ - ٢٢٠ - ٢٤٠) كبر مانني وترى في وسط يهودي مسيحي ذي ورع كبير . ومن حيث النتيجة لا يسوغ اساءة تقدير أهمية العناصر المسيحية في التركيب المانوي . ومع ذلك فإن الارشاد الديني لمانني ظهر متعارضاً مع اللاهوت ، ومع الأخروية ، والشعائر المسيحية . وقد تلقى كشافين على التوالي في سن ١٢ و ١٤ . اوضحا له رسالته الخاصة ، واجبراه على قطع علاقته مع مذهب القسايط . ومانني ذاته هو الذي نقل لنا فحوى هذين الكشفين . حيث أن ملاكاً أوصل إليه في الرسالة الأولى ترك جماعة والده .

وبعد اثني عشر سنة ، ٢٤٠ ، حضته الرسالة الثانية على العمل : «أتى الزمن بالنسبة اليك لأن تظهر علناً وان تعلن مذهب جهاراً»^(٤٠) .

ونجهل تقريباً كل شيء عن العمل الروحي الذي حوّل الشاب الهزيل الى رسول لا يكل لمذهب جديد للخلاص . كذلك نجهل الاسباب التي جعلته يقرر اتخاذ أول سفر رسولي الى الهند ، ومن ٢٤٠ - ٢٤١ إلى بداية ٢٤٢ أو ٢٤٣^(٤١) . وعلى كل حال ، فإن الاحتكاك مع بعض ممثلي الروحية الهندية كان له نتائج إن بالنسبة لماني أو بالنسبة الى الهند . وبناء على دعوة من شاهبور الأول أتى ماني الى فونديشاهبور عاصمة الساسانيين . وقد كان شاهبور متأثر بعمق بالنبي ، فمنحه الحرية بأن يشر ، هو وورسله ، في كل انحاء الامبراطورية ، وكان هذا الاعتراف الرسمي بالديانة الجديدة وكان تاريخها قد اعتمد بتقى : ٢١ آذار ٢٤٢ (او حسب حساب آخر في ٦ نيسان ٢٤٣) .

لانعرف شيئاً عن شخصية ماني خلال حكم شاهبور الأول من ٢٤٢ إلى ٢٧٣ . الأمر الذي يعني اننا نجهل تقريباً كل شيء عن حياة النبي ، ماعدا البداية (الكشفان ، و «ايمان» شاهبور) ومن الأخير (زوال الخطوة ، الموت) . وان ما يبدو مؤكداً ، اقامته لعلاقات جيدة مع الملك ، وأنه قام باسفار طويلة للتبشير عبر كل الامبراطورية الايرانية ، حتى نهايتها الشرقية . وقد ارسل اضافة الى ذلك عدداً من البعثات داخل الامبراطورية وفي الخارج (مصر ، وباكتريان . الخ) .

وفي نيسان ٢٧٢ مات شاهبور وتلاه ابنه هورميزد . واسرع ماني الى ملاقاته . وقد حصل من الملك الجديد على رسائل حماية واجازة للدخول الى بابل . ولكنه ماكاد يمر عام حتى مات هورميزد وعاد العرش لشقيقه بهرام الأول . وقد وصل ماني أو فونديشاهبور بناء على اخبار من الملك وذلك بعد سفر يمكن اعتباره كأنه «عودته الرعوية الكبرى» ، أو «حجة وداع الرسول الى مراتع شبابه وإلى المدارس التي كان ولدها» .

وفي الواقع ، انه منذ وصوله ، اتهم من قبل رئيس المجوس العنيد موبيدكارتر : فإن تبشير ماني ، يشجع مؤسس التعصب المزددي ، ويحرف اتباع

الديانة الرسمية . وقد جرى اللقاء مع الملك في جو عاصف . وعندما أعلن ماني الخاصية الالهية لرسالته ، هتف بهرام : «لماذا أتى اليك هذا الكشف ، وليس لنا ، نحن أسياد البلاد ؟» ولم يستطع ماني ان يرد سوى بالقول : «تلك ارادة الله»^(٤٣) . وكمذنب مدان قيد ماني والقي في غيابة السجن . وقد منعت الاصفاد (ثلاثة في يديه ، وثلاثة في رجليه ، وواحد في عنقه) ، وبوزن (٢٠ ك غ) عن كل حركة ، وسببت له آلاما مبرحة . وان الألم la passion الذي دل عليه المانيون بالمصطلح المسيحي «الصلب» - تمدد خلال ٢٦ يوماً^(٤٢) . مع ذلك استطاع النبي تلقي الزيارة من رفاقه في الديانة ، وحافظت السنة التقليدية ، مع بعض التعديل ، على عدد من المشاهد الموجبة للعبارة . وتوفي ماني في ٢٦ شباط ٢٧٧ ، عن عمر ٦٠ عاماً . فقطع جسده ، وعرض رأسه على باب المدينة والقيت بقايا جسده للكلاب .

ومباشرة بعد موت النبي ، أمر بهرام بعنف لارحة فيه ضد الحركة . وبدأت الكنيسة المانية على الفور وكأنها على شفير الانطفاء نهائياً . ولكنها مع ذلك لم تنقطع عن التنامي خلال قرون ، منتشرة صوب الغرب حتى في شبه الجزيرة الايبيرية وصوب الشرق حتى الصين .

٢٣٢ - الغنوصية المانوية

المانوية هي قبل كل شيء عرفان رباني (غنوص) ، وهي تشكل بصفتها هذه جزءاً من تيار غنوصي كبير اشرنا اليه . ولكن على خلاف المؤسسين الآخرين للمذاهب ، أقحم ماني نفسه في محاولة خلق دين عالمي مقبول من الجميع ، وغير محدود بتعليم باطني محصور بالمتلقين . لقد اعترف بقيمة بعض الأديان السابقة ، ولكنه اعتبرها غير كاملة . وأعلن من جهة اخرى انه أدخل في كنيسته الجوهري من كل الكتابات وكل الحكم : «كما ان نهرا يجتمع الى نهرا آخر لتكوين تيار قوي ، هكذا انضمت الكتب القديمة في كتاباتي ، وشكلت حكمة كبرى ، لدرجة انه لا يوجد مثلها في الاجيال السابقة» وفي الواقع ، ان ماني يعطي دوراً بارزاً ليسوع

ويجعل منه فكرة البارقليط . ويستعير من الهند نظرية «التقمص» او انتقال الارواح ، ويأخذ بخاصة الافكار المركزية الايرانية ، وفي المقام الأول منها الثنائية ، النور - الظلمات ، والاسطورة الأخروية . . وان التوفيقية كانت تناذر الاعراض المميزة للعصر . وفي حالة ماني ، كانت ايضا ضرورة عملية . فقد اراد مد كنيسته الى طرفي الامبراطورية الفارسية ، وعلى ذلك اجبر على استعمال لغات دينية مألوفة في الأقاليم الشرقية كما في الأقاليم الغربية . وعلى كل حال ، وبالرغم من العناصر الذاتية الظاهرة ، فإن المانوية تمثل الوحدة الداخلية لابداع قوي وأصولي .

إن المانوية كديانة عالمية شأنها شأن البوذية والمسيحية ، كانت ملزمة باعتماد التبشير ، وحسب ماني ، على المبشر ان «يهيم باستمرار في العالم ، مبشراً بالمذهب وقائداً للأشخاص في درب الحقيقة»^(٤٥) . وأخيراً ، فإن المانوية ، متفقة مع الزيتجيسست zeitgeist هي «ديانة كتاب» . ولكي يتجنب ماني التناقضات والمهرطقات التي زعزعت الزرادشتية، والبوذية والمسيحية، حَبَّرَ الرسائل السبعة التي تشكل الشريعة . وماعدا الرسالة الأولى منها بها بوهريانا التي ألفها بالفارسية ، فإن الرسائل الأخرى كتبت بالسريانية syriaque أو الارمنية الشرقية . ولم يحتفظ من هذا التأليف الضخم سوى النذر اليسير وبالترجمة فقط ، ولكن تعدد واختلاف اللغات التي وصلت اليها منها هذه القطع (قبطية : صفدية ، تركية ، صينية الخ) توضح النجاح المنقطع النظير للتبشير المانوي .

وكما في كل الغنوصيات ، وكما هي الحالة ايضا في السمكهيايوجا وفي البوذية ، فإن التوجه نحو الخلاص يفتح مع تحليل دقيق للشرط البشري . ففي الواقع البسيط الذي يعيشه على هذه الأرض ، اي بانه مجهز بوجود متجسد ، فإن الانسان يتألم الأمر الذي يعيد الى القول بأنه فريسة الألم . والخلاص لا يمكن الحصول عليه الا بالعرفان (غنوص) العلم الحقيقي الوحيد ، الذي يتخذ . وبالتوافق مع المذهب الغنوصي ، فإن كونا محكوما بالشر لا يمكن ان يكون من عمل الاله ، السامي والرحيم ، وانما من عمل خصمه . وإن وجود العالم يفترض اذن حالة سابقة ، قبل كونية ، تماما كالشرط المثير للشفقة ، الساقط ، للانسان يفترض

وضعاً بدئياً طوباويا . إن الجوهرى فى المذهب المانوي يمكن تلخيصه فى عبارتين : المبدآن ، والفترات الثلاثة^(٤٦) . وعليه فإن هاتين الصيغتين تشكلان كذلك اساس التدين الايراني . واذن يمكن القول بأن المانوية هي التعبير الايراني ، للعصر التركيبي للعرفان الالهي (غنوص) . فمن جهة اعاد ماني تفسير بعض المفاهيم التقليدية الايرانية ، ومن جهة اخرى ، ادخل فى نظامه عدداً من العناصر ذات الاصول المختلفة . (هندية ، يهودية مسيحية ، غنوصية) .

ولم تكن المانوية ، تقدم بالنسبة للمؤمنين ، اخلاقاً وطريقة للخلاص solériologique فحسب ، وإنما ايضا ، وبخاصة ، علماً شاملاً مطلقاً . فالخلاص هو الاثر الذي لا مندوحة منه للعرفان . والمعرفة تعادل سابقة : فالمشايخ يعرف كجزء من نور ، اذن من طبيعة الهية ، لأنه يوجد وحدة جوهر consubstantialité بين الاله والارواح ، والجهل هو النتيجة لخلط الروح والجسد ، الروح والمادة (مفهوم سائد فى الهند وامكن اخرى بدءاً من القرن الخامس ب.م) . غير انه بالنسبة لماني ، كما هو بالنسبة لكل معلمي الغنوصية ، يقتضي العرفان المخلص المعرفة بالتاريخ السري كذلك (أو المنسي) للكون . إن المشايخ كان يحصل على السلامة لأن يعرف أصل العالم ، وسبب خلق الانسان ، والطرق المستعملة من قبل أمير الظلمات ، وازداد الطرق المعلنه من قبل أب النور . و «التفسير العلمى» لبعض الظواهر الكونية، وفي المقام الأول منها مظاهر القمر كانت تثير شعور المعاصرين . وفي الواقع ، ان الطبيعة والحياة ، فى الاسطورة الكونية الكبيرة والأخروية المعلنه من قبل ماني ، تلعبان دوراً هاماً : مأساة الروح تنعكس فى الموروفولوجيا ومصير الحياة الشامل .

٢٣٣ - الاسطورة الكبرى : السقوط و خلاص الروح الالهية

فى البدء ، وفى «الزمن السابق» ، تواجدت منفصلة بحد ، «الطبيعتان» او «الماهيتان» substances النور والظلمة ، الخير والشر ، الاله والمادة . فى الشمال يحكم «أب العظمة» (ممثلاً بالاله الأب للمسيحيين ، وفى البلاد الايرانية

بذورفان) ، وفي الجنوب ، «أمير الظلمات» (اهريمان ؛ أو بالنسبة للمسيحيين ، الشيطان) . ولكن «الحركة غير المنتظمة» للمادة تقسر أمير الظلمات صوب الحد الأعلى لمملكته . وبرؤيته لعظمة النور ، تحرق برغبة الانتصار عليها . وعندئذ قرر الأب رد الخصم بنفسه . «فأثار» ، أي طرح بدءاً من ذاته ، «أم الحياة» التي طرحت بدورها اقنوماً جديداً ، «الإنسان البدئي» (اوهرميزد في الاطروحات الايرانية) . ومع أبنائه الخمسة ، الذين هم في الواقع «روحه» و«سلاح» مصنوع من خمسة انوار ، نزل الانسان الأول الى الحد ، فواجه الظلمات ، ولكنه هزم وافترس ابناءؤه من قبل الشياطين (الأرخونات les Archontes) . وهذه الهزيمة تميز البداية «لخلط» كوني ، ولكنها تضمن في الوقت ذاته الانتصار النهائي للاله . ذلك لأن الظلام (المادة) تملك الآن جزئياً من النور ، أي جزءاً من الروح الالهية ، وفي تحضير الأب لخلاصه ، يدبر في ذات الوقت نصره النهائي ضد الظلمات .

وفي خليفة ثانية ، «يستدعي» الأب الروح الحية ، التي بهبوطها نحو الظلمة ، تمسك يد الانسان الأول^(٤٧) وترفعه صوب وطنه الساهوي ، جنة الانوار . ويقتلها للأرخونات الشيطانية تصنع النفس الحية السماوات من جلودها ، والجبال من عظامها ، والأرض من لحمها ومن برازها . (تتعرف في هذا على الاسطورة القديمة للخلق بالتضحية بجبار اوغول بدئي من نموذج تيامات ، يميز بوروشا) وازافة لذلك ، تكمل أول خلاص للنور ، ويخلق الشمس ، والقمر ، والنجوم وجزيرات لم تعاني كثيراً من الاحتكاك مع الظلمة .

وأخيراً ، يجري الأب استحضاراً كلياً ويطرح بفيض منه «الرسول الثالث» . وهذا الرسول ينظم الكون في نوع من آلة للتفريغ ، وفي آخر المطاف ، لتخليص جزيرات النور التي مازالت اسيرة . وفي الخمسة عشر الأولى من الشهر تصعد الجزيرات حتى القمر ، الذي يصبح بدراً ؛ وفي الخمسة عشر الثانية يتحول النور من القمر للشمس ، وأخيراً الى جزئه الساهوي . ولكنه يقي ايضا الاجزاء التي ابتلعت من قبل الشياطين . وعندئذ يظهر المبعوث نفسه الى الشياطين الذكور بشكل عذراء عارية باهرة الحسن ، بينما تراه الشياطين الأنثى كشباب جميل عار (تفسير كرية ، «شيطاني» للطبيعة الخثوية للمبعوث الساهوي) . وينشر الأرخونات

الذكور منهم وهم متحرقون بالشهوة ، ومعه النور الذي كانوا قد ابتلعوه . وما يسقط من منهم على الأرض يولد كل انواع النباتات . أما بالنسبة للشياطين الاناث (الشیطانات) التي كانت حملت ، من رؤيتها للشباب الجميل ، فقد ولدت اجهاضات ، ويطرح هذه الاجهاضات على الأرض ، أكلت براعم الأشجار متمثلة هكذا النور الذي تحتوي عليه .

إن المادة ، المتجسدة في «الشبق» قررت ، وهي منذرة بالخطر وبواسطة تكتيك المبعوث الثالث ، خلق سجن أكثر أماناً حول الأجزاء من النور التي مازالت اسيرة . وإن شيطانين ، أحدهما مذكر ، والآخر مؤنث ، افترسا كل المجهضات بهدف امتصاص كلية النور ، وبعدئذ تزاوجا وهكذا تم حملها بآدم وحواء . وكما يكتب هنري شارل بوش phuch «إن نوعنا تولد اذن اثر تصرفات مقرفة من توحش وجنسية . وانه يحافظ على وصمات العار لهذا الأصل الشيطاني : الجسد ، الذي هو الشكل الحيواني للأرخونات ، فالليبدو ، والرغبة ، تدفع الانسان لأن يتزوج وأن ينتج بدوره ، أي وفقاً لمخطط المادة ، لتُبقى في اسرها إلى ما لانهاية الروح المتيرة التي ينقلها التوالد من جسد لجسد» .

ولكن بما أن الكمية الكبرى من النور توجد الآن متجمعة في آدم ، فإنه هو مع هبوطه يصبح الموضوع الأساسي للخلاص . وإن السيناريو الأخروي يتكرر : .أما كما أن الانسان الأول قد انقذ بواسطة النفس الحية ، فإن آدم ، محقراً ، دون معرفة قد أعيد ايقاظه من قبل المنقذ ، «ابن الله» المتماهي «بأوهرمز» أو «يسوع النور» . وهذا هو التجسد للعبقرية المنقذة («اله النوس» ، النوس Nous) الذي يأتي في آدم لانقاذ روحه الخاصة ، الهائمة والمكبلة في الظلمات . وكما في النماذج الغنوصية الأخرى ، فإن الخلاص يقتضي ثلاث محطات : اليقظة ، كشف العلم المنقذ ، والذكرى «آدم تفحص ذاته بذاته وعلم كأنه ...» . «روح المبارك العائدة عاقلة وقد بعثت» (٤٦) .

إن هذا السيناريو الانقاذي اصبح النموذج لكل خلاص بالمعرفة ، حاضراً ومستقبلاً . وحتى نهاية العالم ، فإن جزءاً من النور ، أي الروح الالهية ،

ستجر نفسها «لتستيقظ» وفي آخر المطاف ، لتحرر الجزء الآخر ، المحبوس في العالم ، وفي جسد البشر والحيوانات وكل انواع النباتات . والأشجار بخاصة ، هي التي تحتوي على كمية قوية من الروح الالهية ، التي استخدمت صليبا للمسيح المعذب ، اليسوع باتيبيليس le yesus patibilis كما كان عبّر عنه المانوي فوستس Faustus «يسوع الحياة والسلامة للبشر ، هو معلق على كل خشبة»^(٤٩) . ان استمرارية العالم تحدد عملية الصلب واحتضار يسوع التاريخي . صحيح ان اجزاء النور ، أي ارواح الموتى المباركين ، منقولة باستمرار نحو الجنة السماوية عن طريق القوارب ، والقمر والشمس . الا ان الخلاص النهائي ، من جهة اخرى ، متأخر بأولئك الذين لا يتبعون الطريق المعين من قبل ماني ، أي لا يتجنبون الانجاب . وذلك لأن النور مركز في المني ، وكل طفل يأتي للعالم لا يفعل سوى تمديد أسر قطعة الهية .

وفي وصف «الزمن الثالث» ، الأخروية النهائية ، يجري ماني استعارات للصورة الرؤوية المألوفة في كل آسيا الغربية وفي العالم الهلنستي . تفتح المأساة بسلسلة من تجارب مرعبة (تسمى من قبل المانوية «الحرب الكبرى») التي تسبق نصر كنيسة العدالة ، والدينونة الأخيرة عندما ستحاكم الأرواح امام محكمة (بيما Bema) المسيح . وبعد فترة حكم قصيرة ، يرتفع المسيح والنخبة وكل تجسّدات الخير إلى السماء . وسينتهي العالم المحترق والمطهر بحريق من ١٤٦٨ سنة . وستجتمع الجزئيات الأخيرة من النور في «تمثال» سيصعد الى السماء^(٥٠) . والمادة ، مع كل تشخيصاتها ، وشياطينها وضحاياها ، والمدانين ، ستحبس في نوع من «كرة» (le balos) وتطرح في عمق حفرة كبيرة جدا ، مختومة بصخرة . وفي هذه المرة ، سيكون انفصال الماهيتين substances نهائيا ، لأن الظلمة لن تستطيع ابدا غزو مملكة النور

٢٣٤ - الثنائية المطلقة بصفتها mysterium Tremendum

لقد تعرفنا في هذه الميتولوجيا الكبيرة على النغمات الأساسية للروحانية الايرانية والعرفان (الغنوصي) الهلنستي . وقد فسر ماني بعناء ومع الكثير من

التفاصيل اسباب الانحطاط البشري ، معاوداً رسم المشاهد المختلفة للسقوط ولأسر الروح الالهية في المادة . ومع مقارنتها ، على سبيل المثال بايمجازية ، بل بسكوت الغنوصيات الهندية (السمكهيا - يوجا والبوذية) تبدو التيولوجيا والنشكونية ، والنشأة البشرية المانوية مرضية ومهما كانت المسألة المتعلقة «بالأصول» . ومعروف لماذا ان المانويين كانوا يعتبرون مذهبهم اكثر «حقيقة» أي اكثر «علمية» من المذاهب الأخرى : ذلك لأنه فسر كلية الحقيقي بسلسلة علل لتتأج . وبحق القول ، بوجود بعض التماثل بين المانوية والمادية العلمية القديمة والحديثة : فبالنسبة للأولى كما للأخرى ، ان العالم ، وحياة الانسان هما نتيجة صدفة . حتى النزاع بين المبدئين انفجر على اثر حادث : أمير الظلمات كان قد وجد قريباً جداً من النور بسبب ما اسماء اسكندر ليكوفرون «الحركة الغير منتظمة» للمادة . وسنرى ، ان كل «الخلايق» ببدايتها بتشكل العالم حتى ظهور الانسان ، ليست سوى اشارات دفاع من محرك أو آخر .

وقلما ادركت فلسفة أوغنوصية لا كونية التشاؤم المأساوي الذي يشكل النظام الماني . فالعالم أبدع بدئياً من مادة شيطانية ، اجساد الارخونات (ايضا ان العمل النشكوني - انجز من قبل كائن الهي) . والانسان هو عمل قوي شيطانية في اقدر تجسدها . وقلما توجد اسطورة اخرى عن نشأة الانسان اكثر مأساوية واكثر ضعة . (وهذه المرة ايضا ، تلاحظ المشابهة مع العلم الحديث ، فبالنسبة لفرويد ، على سبيل المثال ، ان اكل اللحوم ، (التوحش) وارتكاب المحرمات قد ساهما بشكل بارز في جعل الانسان كما هو) .

ان الوجود البشري ، تماماً كالحياة العالمية ، ليس سوى وصنة فشل المي . وعليه ، لو ان الانسان الأول قد غلب منذ البدء لما وجد الكوزموس (الكون) ولا الحياة ولا الانسان . فالنشكونية هي حركة يائسة للاله من اجل انقاذ جزء من ذاته وتما كخلق الانسان الذي هو حركة يائسة للمادة كي تمسك بجزيئات النور أسيرة . والانسان بالرغم من أصله الغيرنبيل ، اصبح المركز والرهان للمأساة ، لأنه يحمل في ذاته جزءاً من الروح الالهي^(٥١) . ومع ذلك ، فهو يتعلق بسوء فهم ، لأن الله لا يهتم بالانسان لكونه انساناً ، وانما بالروح ، التي هي من اصل

الهي وسابقة لظهور الجنس البشري . واجمالاً ، إنه يتعلق دائماً بجهد الاله لينقذ ذاته ، وفي هذه الحالة ايضاً يمكن الكلام عن «منقذ منقذ *sauveur sauvé*» . وتلك هي ، من جهة اخرى ، الفترة الوحيدة التي تظهر الألوهية فاعلة ، لأن المبادرة والعمل ، بصورة عامة ، تنتمي لأمير الظلمات . وهذا ما يجعل الأدب المانوي مدعاة للشفقة ، خاصة ، الأناشيد التي تصف سقوط ومصائب الروح . هذا وان بعض المزامير المانوية ذات جمال كبير ، وان صورة يسوع باتيليس تصنف بين الابداعات المثيرة للشفقة الانسانية .

بما ان الجسد هو من طبيعة شيطانية ، فإن ماني يقرر ، على الأقل بالنسبة للنخبة^(٥٢) ، التنسك الأكثر تضيقاً ، مانعاً تماماً الانتحار . فما ان قبلت المقدمات لمرة واحدة - المبدآن والعدوان الأول للشر - حتى بدا النظام بكامله مشكلاً بقوة . ولا يجب التقييم دينياً ما يرجع الى عدو الله : الطبيعة ، الحياة ، وجود الانسان . إن «الديانة الحقيقية» تتكون في التهرب من السجن المقام من قبل القوى الشيطانية ، والمساهمة في الافناء النهائي للعالم او الحياة والانسان . ان «التنوير» المتحصل بالغنوص يكفي للخلاص ، لأنه يثير بعض الملازمة التي تفصل المؤمن من العالم . ان الطقوس غير مجدية ، ماعدا بعض الاشارات الرمزية (قبلة السلام ، التحية الأخوية ، قبضة اليد) ، الصلوات والأناشيد . ان العيد الرئيسي ، البيا *le bema* مع انه يحيي ذكرى عذاب ماني ، يمجّد «جسد» الرسول ، اي تعليم الغنوص الفدائي .

وفي الواقع ، فإن التبشير ، و «التعليم» يشكلان النشاط الديني الحقيقي للمانيين . وفي القرن الثالث ، ولكن خاصة في القرن الرابع ، تكاثرت البعثات في كل اوربا وافريقيا الشمالية وآسيا الوسطى . وتميز القرن الخامس ببعض التراجع ، وفي القرن السادس بدت المانية مهددة بالزوال من اوربا ، ولكنها استمرت في الحياة دائماً في بعض الأوساط (على سبيل المثال ، في افريقيا في القرن الثامن) . وازضافة لذلك فإنها تلهم في الامبراطورية الساسانية ، في القرن الخامس ، حركة مزدك ، ومن الراجع ان البوليسيين *les pauliciens* في ارمينيا في القرن السابع ، والبوغميليون *Bougmline* في بلغاريا ، في القرن العاشر ، أخذوا

ببعض الموضوعات المانوية ، ومن جهة اخرى ، وبدءاً من نهاية القرن السابع ، فإن دفعة جديدة وقوية البشير في اسيا الوسطى والصين ، حيث تستمر المانوية في الحياة حتى القرن الرابع عشر^(٥٣) . يضاف الى ذلك ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، ان الافكار الكوزمولوجية المانوية قد مارست بعض التأثير في الهند والتبت (ر. نص ٣٦) وما هو اكثر من ذلك ان بعض «الاتجاه المانوي» مازال يشكل جزءاً لا يتجزأ من الروحية الأوروبية .

كل هذه النجاحات للتبشير لا تجعلنا نغفل عن واقعة ان المانوية ، قد اعتبرت كهرطقة بامتياز ، وأنها قد انتقدت بعنف ، ليس من قبل المسيحيين واليهود والمجوس والمسلمين فحسب ، وانما ايضا من قبل الغنوصيين كالمانديين mandeéens والفلاسفة ، وعلى سبيل المثال افلوطين .

حواشي الفصل التاسع والعشرين

- ١ - «في كل الأزمان التاريخية اسطورتان غسقيتان اقلقتا الشعب الروماني : ١) حياة المدينة ، التي انتهت مدتها بصفتها محدودة لعدد من السنين (العدد/ السري) المكتشف من قبل الاثني عشر نسرأ المنظورة من قبل روميلوس و ٢) (السنة الكبرى) ستضع نهاية للتاريخ برمته وبالتالي روما بواسطة Ekpyrois عالمية . وان تاريخ روما بذاته قد اثقل بتكذيب هذه المخاوف حتى تاريخ متقدم جداً . فان ١٢٠ سنة بعد تأسيس روما اعلمت ان الاثني عشر نسرأ التي رآها روميلوس لم تكن تعني ١٢ سنة من حياة تاريخية بالنسبة للمدينة ، كما رفض الكثيرون في بداية ٣٦٥ وامكن ملاحظة انه لم يتعلق ابدأ (بسنة كبرى) حيث كل سنة من المدينة كانت تعادل يوماً وكان يفترض ان القدر منح روما مصيراً آخر من (سنة كبرى) مؤلفة من ١٢ شهراً لمائة سنة» (اسطورة العود الابدي صفحة ١٥٧ الاياذ)
- ٢ - ٥ - اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف
- ٦ - مع ذلك فإن قيصر كان له تمثاله في الكابيتول وتمثال آخر في المعبد الكورينوس مع نقش (اله لا يغلب) وفي ٤٤ ق.م تلقى رسمياً لقب (يوليوس المقدس)
- ٧ - لايتعلق بتأثير من الشرق الهلنستي ، وسبق لشيرون ان كتب ان (ارواح الرجال الشجعان والطيبين هي بصورة داخلية خاصية الهية)
- ٨ - اسماء للمصادر
- ٩ - مما له دلالة انه في النصف الثاني من القرن الثاني ، كانت هذه النصوص متبناة من قبل كل الكنائس الكبرى لذلك العصر لكتابات وحيدة ممثلة للسنة الرسولية . ومنذئذ فإن تاريخ المسيحية تملك قانونها العهد الجديد واصبحت (دين كتاب)
- ١٠ - انظر المصادر المذكورة والعشرة من مثل مارتون سميث . كليمنت الاسكندري وبدء من هذا التقليد للمذاهب والممارسات السرية لليهودية انبثق ادب الميركابه وفي المقام الاول

النصوص هيكايات ص ١٨٨

١١ - قطعة من هيوستات منقولة من قبل اوسيب تاريخ الكنيسة - ودانوليو - التقاليد السرية للرسل

١٢ - ح دانيلو ص ٢٠٨

١٣ - وهكذا على سبيل المثال ، فإن الفقهاء الغنوصيين قد اعدوا تفسير الاسطورة من هبوط المسيح في العالم بفصله عن نصه التوراتي المسيح المرسل من قبل الاله الخالق ، وحمله الى (تاريخ سري) آخر «الخلق يشكل كارثة مأساوية» وبالنتيجة ، يجب له ان ينسب لخالق او كائن شيطاني ، المتجسد الحقيقي للشر .

١٤ - فقرة ١٨١ نعيد الى الذاكرة انه بالنسبة لافلاطون ، ان الخالق ليس التجسيد للشر ، فالعالم هو كوزموس كامل ومتناسق وبالنسبة لافلاطون كما هو بالنسبة للرواقيين ، النجوم هي آلهة يسهل تأملها التقرب من الكائنات الذكية ، الالبازة ٩ - ١٧ ١٨ . وفيما يتعلق بتجسيد الروح فانها بالنسبة لافلاطون لايسقطه لأن الروح تطيع غبطتها الروحية واستقلالها [٤ - ٨ - ٥ - ١٠] ولكنها كذلك هبوط حر مقبول بهدف مساعدة الوجودات الكائنة في العالم الأدنى (١٧ - ٧٨) .

١٥ - وهكذا على سبيل المثال ، فإن الانجيل حسب ثوماس المكتشف في نجع حمادة يعكس الترجمة الكاملة المنسوبة ليسوع في البابيروس والمعروفة منذ ١٨٩٧ (d'oxyshynch) ١٦ - الفكرة الاورفية - الافلاطونية عن التجسيد باعتباره عقابا ، مخلوطة مع الاسطورة التوراتية لسقوط الملائكة . وقد استعيرت من قبل بعض الغنوصيين ونصف المسيحيين (فالنتين ، مارسيون ، بارديسان) ومن قبل ماني ومن قبل كاتب كاروكوزمو ومحتماً من قبل اوريجين للسقوط الارادي للروح ، وقد اثبت من قبل النرجسيين - الروح سقطت عاشقة لصورتها الخاصة المعكوسة في العالم المادي ، أو بالطمع وهذا المفهوم قد تأكد لدي نوميونيوس الأفاقي ولدى كاتب البوامندر وعند افلوطين

١٧ - ان صنفاً آخر النفسانيين اولئك الذين عندهم نفس ، وكما هؤلاء هم قابلون لأن ينجذبوا نحو الأعلى ، ولكنهم محرومون من الروح (بنوما) واخيرا الصنف الثالث الجسديون وهم بالكلية معلقون في المادة ومدانون بالفناء ، وان الاضطراب العايب لهذه الاصناف من الافراد يوضح تحولا سريا باطنيا للتعليم .

١٨ - ان الكثير من النقود المعارضة يتعلق هنا بعضيان . . معاند وعنيف ذي مضمون واسع ونتائج جسيمة ضد الشرط الانساني (الوجود) العالم ، والاله ذاته . انها تستطيع كذلك ان تفقد لتصور حدث غائي الذي سيصبح عودة وانكفاء للحالة الراهنة ، تعويض متبادل لليمين واليسار للخارج والداخل للأدنى والأعلى ، من العدمية : عدمية (الغنوصيات

زندقية ، التي باجتيازها كأبي قانون طبيعي أو اخلاقي ، تستعمل وتسيء استعمال اجسادهم والعالم من اجل تدنيسها ، من اجل استنفادها ، ومن أجل انكارها وتلاشيها ، عدمية ذات bunilib التي من اجلها كل كائن كل شيء ، والعالم مأخوذ في شمولية مصيره ، كلها مقدرة لأن تجدد في الجهل الكبير ، وفي السلامة لعدم الكينونة ، كماها النهائي . بيوس . (في البحث عن المعارف جزء ١)

١٩ - ٢٠ (الأعمال ٨: ١٠ مع ذلك من غير المؤكد ان الساحر وسمعان هما شخصية واحدة ٢١ - التاريخ الجديد للكنيسة - جان دانيو

٢٢ - انظر النصوص المؤلفة والمعلق عليها من قبل لينانغ - العرفان - كذلك ملاحظات غرانت ٢٣ - حتى سنة ١٩٥٠ مصادرنا الوحيدة عن الفالنتية كانت الخلاصات والمقتطفات المحفوظة من قبل ايريني وكليمينت الاسكندراني : وهيوليت الذين استعملوا من جهة اخرى بصورة خاصة مؤلفات التلامذة ولكن انجيل الحقيقة المكتشف في نجع حمادة ، مع انه ليس مؤلف فالتين يمثل بالتأكيد افكاره ونص آخر من نجع حمادة (مثلا) رسالة الطبايع الثلاث وكتاب رجيوس حول القيامة ، تتصل بالمدرسة الفالنتية .

٢٤ - ان الاغراء الممارس يمثل هذه التسلسليات للانساب وسلاسل المظاهر المتعرجة هي واحدة من الخطوط المميزة للعصر ، والاتجاه لتكاثر المحطات المتوسطة والوكلاء الوسطاء بين المطلق والاصناف المختلفة للحقائق وتوجد لدى الفلاسفة (افلوطين مثلا ولكن لدى الكتاب الغنوصيين - خاصة بازيليدي ، فالتين ماني وقد اصبحت في آن واحد وسواسا ومسطرة .

٢٥ - المصطلح pelerme - pelerme (نعيم) تعني العالم الروحي حول الألوهية الأولية ، انها مشكلة بكلية وشمولية الدهور

٢٦ - ٢٨ - اساء المراجع المعتمدة من المؤلف

٢٩ - النص مترجم ومشروح ، مع غيره من نصوص من قيل ليسيفانج (الغنوص ص ٢٤٧) ٣٠ - جوناكس ، عدد من الموازيات بالنسبة (للثوب القذر) و (الثوب السماوي) وبالنسبة للحية والرسالة والصعود ص ١٣٦

٣١ - في الانجيل حسب توباس ، قال يسوع لتلامذته : (عندما ستظنرون لصوركم الحاصلة قبلكم ، التي وان لامتوت ولا تظهر فكم هو كبير سيكون اما ستتحمله الصورة ، اي (الذات السامية) وهي موصوفة كملاك وان لقاء الأنا المتصاعدة مع (الملاك) يمكن مقارنته بالتجربة الفائقة الوصف لوحدة اثمان - براهمان

٣٢ - م . الياد . . اليوجا

٣٣ - مذكورة من قبل جوناكس ص ٧٠ وفي نص آخر . يروي الجينزايكيف ان آدم تيقظ من

- رقاده ورفع بصره نحو مكان النور (جوناس ص ٧٤
- ٣٤- ج دوريس الكتب المقدسة والغنوصية المصرية «انني الصوت الذي يوقظ من الرقاد في دهر من الليل ، هكذا تبثدي قطعة غنوصية محفوظة من قبل همبولي
- ٣٥- ٣٨ اسماء المراجع المعتمدة
- ٣٩- مذهب مسيحي - يهودي ، هيتيرودوكس ، مؤسس سنة ١٠٠ في بلاد الباريسيين من قبل ايلوس
- ٤٠- فيهرست ص ٥٠ ترجمة هـ بويش اغانوية ص ٤٣ حسب السنة المانوية ترك النبي مذهب التعميد لاختياره الحر . مع ذلك ظهر سريعاً انه ممنوع بالتراتبية
- ٤١- «أكان ذلك من اجل الهرب من بعض اجراءات السلطة ، وان كبدايات للدعاية المانوية كانت مقلقة ؟ أكان ذلك لأصل تعلم المعتقدات البوذية ، أو على العكس ، لأجل اتباع خطى الرسول توماس والاكستاب من تبشير الجماعات المسيحية التي سبق تأسيسها في البلاد؟؟» بويش ص ٤٤
- ٤٢- بويش - للمانوية ص ٥٠ حسب السنة ، ارسل ماني لرفاقه : (انظروا الي واقتنعوا مني ياابنائي لأنني بالنسبة لماهو من جسدي : اريد الابتعاد عنكم - فرانسوا ديكره ماني والسنة المانوية ص ٦٧
- ٤٣- المرجع السابق
- ٤٤- في صلاة مؤثرة يتضرع ماني لربه : «لقد اظهرت الطريق للأبناء من الأعلى . لقد نفذت امرك ، الذي من أجله ارسلت لهذا العالم . والان دعني انال سلام الخلاص لكي لا أرى بعد ذلك وجه الأعداء ولا اسمع اصواتهم القوية . هذه المرة اعطني التابع الكبير للنصر»
- ٤٥- البيروني - تاريخ الهند ص ١٩٠
- ٤٦- حسب نص من تورفان ترجمة بيليو ١٩١٣ ص ١٠٠ ان الذي كان يريد «الدخول في الدين» كان عليه ان يعلم انه يوجد بعد آن ، الطبيعتين متميزتين النور والظلمة ، وثلاث فترات : الفترة السابعة عندما لم يكن العالم قد اتى للكائن وان النور كان منفصلاً عن الظلمات ، والفترة المتوسطة ، بعد ان هاجمت الظلمات منطقة النور . وأخيراً الفترة التالية عندما سيفصل المبدآن مجدداً .
- ٤٧- قبضة اليد ستصبح الشعيرة المانوية الممتازة
- ٤٨- تيودور باركوناي في كومونت- بحث حول المانوية - ١ - ص ٤٧ قطعة من تروفان الخ
- ٤٩- عبارة اورها القديس اوغسطين
- ٥٠- مع ذلك ، وحسب بعض المدارس المانوية ، فإن كل اجزاء النور لن تكون منقذة ، وبعبارة اخرى ، ان عدداً من الأرواح ستبقى للأبد سجينة المادة

- ٥١ - بالتناقض ان هذه الشارة الالهية مستقرة في المنى . وان ماني اخذ الفكرة القديمة الهندو-ايرانية عن الهوية روح - نور - منى رجولي
- ٥٢ - تماما كالمذاهب الغنوصية الأخرى ، تقسم المانوية المؤمنين في صنفين ادى المستعمون الحرفيون والنخبة
- ٥٣ - جاكهان ديفور - اعتنق المانوية واصبحت دين الدولة في كل الامبراطورية الويفورية ، حتى تدميرها من قبل القرغيز في ٨٤ في الصين هنالك معابد مانوية اقيمت في القرن ٩ و (دين النور) كان ومازال على هامش التاوية والبوذية حتى القرن الرابع عشر (بويش ص ٦١ - ٦٦ .

الفصل الثلاثون

غروب الآلهة

٢٣٥ - هرطقات واورثوذكسية

إن اللاهوت الأول المنهجي هو النتيجة لأزمات هزت بخطر الكنيسة الكبرى خلال القرن الثاني . وينقد «هرطقات» المذاهب الغنوصية - في الدرجة الأولى منها الثنائية المضادة للكونية ، ورفض التجسد ، والموت وقيامه يسوع المسيح - أقام الآباء تباعاً المذهب الارثوذكسي . وقد تكونت الارثوذكسية اساساً في الايمان بالتولوجيا الايصائية القديمة . وكان الغنوصيون معتبرين الهرطقة بامتياز ، ذلك لأنهم رفضوا ، كلا وجزءاً ، حتى مبادئ الفكر العبري - وفي الواقع ، كان يوجد تعارض بين الأفكار الغنوصية - سبق وجود الروح في صدر الواحد الأصلي ، والخاصية العرضية للخلقة ، وسقوط الروح في المادة ، الخ -

واللاهوت ، والنشكونية والانتروبولوجيا التوراتية . ولا يمكن القول بأنه مسيحي دون المشاركة في مبادئ العهد القديم المتضمنة تكوين العالم وطبيعة الانسان : بدأ الاله العمل النشكوني بخلق المادة واكملها بخلق الانسان ، الجسدي ، والذي يمكنه التناسل ، والحر ، على صورة شكل خالقه . وبعبارة اخرى ، فان الانسان خلق مع امكانيات فعل إله . وان «التاريخ» هو المدة الزمنية التي تعلم الانسان اثناءها ممارسة حريته ، وان يتطهر ، واجمالاً ، لأن يتدرب على مهته من الله^(١) . لأن عبارة الخلق هي انسانية مقدسة . وهذا مايفسر الأهمية للتوقيت والتاريخ ، وللدور الحاسم للحرية البشرية ، لأن الإنسان لا يستطيع ان يكون الهاً رغماً عنه .

إن هذه المفاهيم قد ثبتتها المسيحية . فالقديس بولس يمجّد الولادة الجديدة المضمونة بالمسيح : «اذا كان احد في المسيح فإنه خلق جديد» [كورنثية ٥ : ١٧] «فما الختان بشيء ولا القلف بشيء ، وإنما الشيء ان يكون الانسان خلقاً جديداً» [غلاطية ١٦ : ١٥] «انساناً جديداً او بشرية جديدة» [افسس ٢ : ١٥] . وكما كتب كلود تريسمونتان «لامشكلة ، في هذا المنظور ، للمعبودة لشرطنا السابق ، البدائي ، كما في الاسطورة الغنوصية ، ولكن على العكس للمد ، دون التطلع الى الوراء ، نحو ماهو الى الامام ، ونحو الخليقة التي تأتي والتي نضع . فالمسيحية ليست مذهب عودة ، كالغنوص أو الافلاطونية المحدثة ، وإنما مذهباً للخلق»^(٢) .

بشكل متناقض ، وبالرغم من تأخر قبيلة المسيح الثانية وفداحة الاضطهادات ، فإن المسيحية تأخذ صورة «ديانة متفائلة» . فاللاهوت المنشأ ضد الغنوصيات يمجّد الخلق ، ويقّدهس الحياة ، ويقبل التاريخ حتى ولو انه ارجع هذا التاريخ للارهاب . وتما كيوشنان بن زكاي ، الذي ضمن في مدرسته في يابنا استمرارية اليهودية ، كانت الكنيسة تنظر الى المستقبل بأمل وثقة . وتأكيداً ، سنجد بعد قليل ، بعض الأوضاع المخالفة المعبرة عن رفض الحياة (التنسكية ، الرهبنة ، مدح العذرية الخ ..) والتي هي مقبولة ، ومجددة احياناً في مختلف الكنائس . ومع ذلك ، ففي عصر محكوم بالقنوط ويميز بفلسفات هي تقريبا ضد الكونية ومتشائمة^(٣) كالفلسفات الغنوصية ، فإن اللاهوت والتطبيق العملي للكنيسة يتميزان بتوازنهما .

وبالنسبة للآباء ، فإن الارثوذكسية كانت متضامنة مع الارشاد الرسولي : فالرسل تلقوا التعليم مباشرة من المسيح ونقلوه للأساقفة ولخلفائهم^(٤) أما بالنسبة لسبب الهرطقات ، فإن ايرينييه وهيبوليت يجدان في الاحتكاك مع الكتابات الفلسفية الاغريقية .

وهذه الاطروحة قد انتقدت في عام ٩٣٤ من قبل والتربور^(٥) . فقد لاحظ هذا العالم الألماني بدياً ان المعارضة الارثوذكسية - الهرطقية تتحقق متأخرة في بداية القرن الثاني . فلقد كانت المسيحية البدائية معقدة لحد كبير ، وتظهر عبارات متعددة ومختلفة . وفي الواقع ، كانت الأشكال الأولى للمسيحية اكثر قربا من تلك المعتبرة فيما بعد كهرطقة . وقد توصل والتربور الى نتيجة ان ثلاثة مراكز مسيحية كبرى - اوديسة ، والاسكندرية ، واسيا الوسطى - كانت هرطقية في القرنين الأولين ؛ وان الارثوذكسية لم تدخل الا بعدئذ بزمان غير قصير . ولقد كان المركز الارثوذكسي الوحيد منذ البدء هو روما . وبالنتيجة فإن انتصار الارثوذكسية في الزمن القديم يعادل انتصار المسيحية الرومانية . وهكذا ، في مسيحية بدائية ذات أشكال متحركة ومتعددة ، وتيارات مختلفة وعلى الأغلب متعارضة ، نجحت روما في تثبيت شكل خاص أخذ اسم اورثوذكسية لأنها نجحت بفرض نفسها ، وفي مواجهتها ستكون الاتجاهات الأخرى موصوفة بالهرطقية^(٦) .

مع ذلك ، وكما يلاحظ اندريه بينوا ، فإن شرح بوير يبقى تاريخياً صرفاً ؛ فهو لا يأخذ بعين الاعتبار المحتوى المذهبي المميز للارثوذكسية وللهرطقية . وتلك هي مزية هـ . اي - تورنر الذي قام بمشروع تحليلي لاهوتي لهذين الوضعين المتعارضين^(٧) . وحسب تورنر ان الهرطقية «تتميز عن الارثوذكسية ، من جهة ، بطرحها المذاهب المعرفة بوضوح من قبل الكنيسة ، ومن جهة أخرى ، بافساد المحتوى الخاص من الايمان المسيحي ؛ واجمالاً ، انها تمثل انحرافاً بالنسبة للايمان التقليدي» [أ - بينوا ص ٣٠٣] . «ان الارثوذكسية تبدو كنظام للفكر متماسك ومتناسق جداً ، في حين ان الهرطقة ، بابتعادها تباعاً عن الاسس المذهبية البدئية وبادخالها عوامل من تخفيف ، ومن تشويه ، ومن تحريف وقدمية ، تبدو كجملة من نظريات مجتزأة ، غير مكتملة واخيراً غير متماسكة» [ذات المرجع ص ٣٠٦] . ومن

وجهة نظر التاريخ ، للفكر المسيحي ، «انتصار الارثوذكسية هو انتصار التماسك على التفكك ، وهو انتصار الحقيقة المنطقية على الهذيان الخيالية ، وانتصار اللاهوت المقام بطريقة علمية في مواجهة نظريات غير منظمة [...]» ، والارثوذكسية تبدو وكأنها مرتبطة بمؤسسة قانونية لمجتمع له تاريخه وسياسته ، ولكنها تبدو كذلك متصلة بنظام فكري ، وبمبدأ . انها تساهم بالمؤسسة القانونية واللاهوتية معاً [ذات المرجع ص ٣٠٧] .

وباختصار ، ان الارثوذكسية تعرف بـ (١) الايمان بالعهد القديم وبسنة رسولية مؤكدة بالوثائق (٢) المقاومة ضد الافراطات بالتخيلات الاسطورية (٣) بالتحفظ تجاه الفكر المنهج (اذن الفلسفة الاغريقية) (٤) الأهمية المعطاة الى مؤسسات اجتماعية وسياسية ، وباختصار الى الفكر القانوني ، المنظومة المميزة للعبقرية الرومانية . وكل واحد من هذه الأركان أثار ابداعات لاهوتية مميزة ، وساهم في مقياس كبير ، قل أو أكثر ، لنصر الكنيسة الكبرى . ومع ذلك فإن كل واحد من هذه الأركان أثار لفترة ما ، في تاريخ المسيحية ، ازمات كانت في كثير من المرات عنيفة ، وساهمت في انتصار السنة التقليدية البدائية .

٢٣٦ - الصليب وشجرة الحياة

بسبب الجدال ضد - الغنوصية ، كان التعليم الباطني وتقليد الغنوص المسيحي مخنوقين تقريباً في الكنيسة الكبرى . «بعد ذلك بفترة متأخرة ستظهر التراتبية الكنسية ارتياباً مماثلاً تجاه التجارب الصوفية ، وربما يكون هذا الثمن الأكثر غلاء الذي يتوجب على المسيحية ان تدفعه لانقاذ وحدة الكنيسة . والعرفان (الغنوص) المسيحي والتعليم الباطني سيعيشان منذئذ منقوصين وموهنين ، على هامش المؤسسات الرسمية . وستعرف بعض التقاليد الباطنية (في المقام الأول منها تلك التي حفظت في اسفار الرؤيا ونهايات العالم) وفي الأناجيل المختلفة ، ستعرف حركة كبرى في الأوساط الشعبية ، ولكن ذلك باجتماعها مع الأساطير والخرافات المتفرعة من أنظمة غنوصية هرطقية ، وبخاصة المانوية .

وهنا سيكون من غير المفيد التأكيد على بعض المضاعف للكنيسة البدائية ، على سبيل المثال ، المناقشات حول المسألة الفصحية* (حوالي نهاية القرن الثاني) أو المسائل المذهبية (العفو عن المؤمنين المذنبين بذنوب جسيمة بعد تعميدهم الخ) .

واكثر دلالة واكثر جسامه بالنسبة للتاريخ العام للأديان ، المناقشات والازمات المثارة بالصياغات الدوغمائية لدراسة المسيحية وسيرة المسيح ، وهي مسألة سنعود إليها فيما بعد . ولنلاحظ هنا انه يمكن التمييز بين اتجاهين متوازيين ومتكاملين بهدف انماء التراث الديني لما قبل المسيح ؛ فيشاهد ، كما قيل ، الجهود المكررة والمتنوعة لتقديم بعد عالمي لرسالة المسيح . ان الاتجاه الأول ، والأكثر قدما ، يظهر نفسه في التمثيل واعادة التقييم للرمزيات والسيناريوهات الميتولوجية من أصل توراتي ، شرقي أو وثني . والاتجاه الثاني الموضح بخاصة بالتعاليم اللاهوتية بدءاً من القرن الثالث ، يجهد نفسه «لتعميم» المسيحية بمساعدة الفلسفة الاغريقية ، وبخاصة ماورائية الافلاطونية المحدثه .

وقد سبق للقديس بولس ان وظف سرية التعميد برمزية ذات بنية قديمة : موت وقيامة شعائرية ، ولادة جديدة في المسيح . وقد أقام اللاهوتيون الأوائل السيناريو : التعميد نزول في لجة المياه من اجل مبارزة مع الغول البحري ، والنموذج هو نزول المسيح في الأردن . وتقييم آخر هو التعميد كضد لنموذج الطوفان . وحسب جوستان ، فإن المسيح ، نوح جديد ، الخارج ظافراً من الحياة ، أصبح رئيس جنس جديد . والعري التعميدي ، هو ايضا ، يتضمن دلالة وميتافيزيكية في آن واحد : ترك الثياب العتيقة من الفساد والخطيئة وهي التي ارتداها آدم بعد السقوط . وعليه ، فإن هذه الافكار توجد في كل مكان : «مياه الموت» هي لازمة لميتولوجيات الشرق للعصر الحجري ، والاسيوية والاقيانوسية . والعري الطقوسي يعادل التكامل والطيبة : اللجنة تقتضي فقدان «الثياب» أي «غياب» «الابتذال» (صورة نموذجية للزمن) . وان غيلان الهوة (الغم) تصادف في العديد من التقاليد ؛ والنزول الى عمق الغمر تجربة تكريسية

* المسألة الفصحية = question pascal (حمل يذبح في عيد الفصح)

للأبطال . وبالتأكيد ، ان التعميد بالنسبة للمسيحيين ، هو سر لأنه أقيم من قبل المسيح . ولكنه لم يعاود أخذ أقل من الطقس التلقيني للتجربة (= صراع ضد الغول) والموت والقيامة الرمزيتين (= ولادة الانسان مجددا) .

ودوما حسب رأي القديس بولس ، يمكن بواسطة التعميد الحصول على توفيق الاضداد : «لا يوجد عبد ولا رجل حر ، لا يوجد رجل ولا امرأة» [غلاطة ٣: ٢٨] . وبعبارة أخرى فان المعمد يعاود اكتساب الشرط البدائي للحنثى . وهذه الفكرة معلنة بوضوح في انجيل توما : «وعندما تجعل من الذكر والانسان شيئاً واحداً ، للدرجة ان الذكر لا يكون ذكراً وان المرأة لا تكون امرأة [...]» عندئذ ستدخل الملكوت»^(٩) . ومن غير المفيد التأكيد على القدمية والانتشار العالمي لرمز الحنثى بصفقتها تعبيراً مثالياً للكمال البشري . ومن الراجح ان هذا الرمز ، بسبب الأهمية المعتمدة والمعطاة من قبل الغنوصيين للحنثى ، كان مثاراً أقل فأقل بعد القديس بولس . ولكنه لم يفقد بتمامه من تاريخ المسيحية^(١٠) .

واكثر جرأة ايضا هو التمثيل بالتصوير ، والطقس واللاهوت المسيحي لرمزية شجرة العالم . في هذه الحالة ايضاً تتوصل لرمزية قديمة ومنتشرة عالمياً . فالصليب ، المصنوع من خشب شجرة الخير والشر متماهي أو يحل محل الشجرة الكونية ، وهي موصوفة كشجرة «ترتفع من الأرض للسماوات» شجرة لانفني «تنصب في وسط السماء والأرض ، ثابتة تدعم الكون» ، «شجرة الحياة مغروسة للصلب au calvaire» . وثمة نصوص عديدة لأباء الكنيسة patristiques وطقوسية تقارن الصليب بسلم أو اسطوانة أو حبل ، وهي عبارات مميزة «لمركز العالم» . وهذا ما يبرهن على ان صورة المركز كانت تفرض طبيعياً على التخيل المسيحي ، وبالتأكيد ، ان صورة الصليب بصفقتها شجرة الخير والشر ، وشجرة كونية ، لها أصلها في التقاليد التوراتية . الا انه بالصليب (=المركز) يحصل الاتصال مع السماء وبذات الأمر ، ان العالم برمته «منقذ» ، وعليه ، فإن مفهوم الخلاص لم يفعل سوى معاودة أخذ وإكمال مفاهيم التجدد المستمر والتجديد الكوني ، والخصب الشامل والقدااسة ، والحقيقة المطلقة وفي آخر المطاف الخلود ، وكل مفاهيم تتواجد في رمزية شجرة العالم .

وثمة نغمات قديمة أخرى ادخلت تباعاً في سيناريو الصليب فيما إن يسوع المسيح قد صلب في مركز العالم ، هنالك حيث خلق ودفن آدم ، فإن دمه السائل على «رأس آدم» قد عمّده وافتداه من ذنبه^(١٢) . وبما إن دم المنقذ قد افتدى من

ذنب أصولي ، فإن الصليب (=شجرة الحياة) يصبح مصدر الأسرار (المرموزة بزيت الزيتون ، والقمح ، والكرمة ، التي اشرك بها الاعشاب الطبية)^(١٣) . وإن هذه النغمات الميتولوجية ، المقامة خاصة من قبل المؤلفين المسيحيين بدءاً من القرن الثالث لها تاريخ مسبق طويل ومعقد : من دم وجسد اله ، أو كائن أولي معذب أو منكل به ، تنبت اعشاب عجيبة ، الا انه تقتضي الإشارة منذ الآن إن هذه السيناريوهات وهذه الصور القديمة المعاد أخذها من قبل المؤلفين المسيحيين ، عرفت نجاحاً لا مثيل له في الفولكلور الديني لأوروبا . فما لا يحصى من الأساطير والأغاني الشعبية تتكلم عن زهور واعشاب طبية تنبت تحت الصليب أو على قبر يسوع . وفي الشعر الشعبي الروماني ، على سبيل المثال ، إن دم المنقذ يتج القمح ، والزيت المقدس والكرمة . «... وسقط لحمي / هنالك حيث سقط / قمح جيد أتى ...» «... مسامير غرسها / سال دمي / وحيث تقطرت / سال خمر جيد ...» «من الاضلاع سالت / دم ومياه / / دماء ومياه - الكرمة . / من الكرمة - الثمار . / ثمار - الخمرة : / دم السيد لأجل المسيحيين»^(١٤) .

٢٣٧ - نحو مسيحية كونية

سندرس في أحد الفصول الأخيرة من الجزء الأخير من هذا الكتاب الفولكلور المسيحي وفائدته بالنسبة للتاريخ العام للأديان . ولكنه تقتضي الإشارة منذ الآن للدور الذي كنا أسميناه «العالمية» للرسالة المسيحية بواسطة الصورة الميتولوجية وبعملية مستمرة لتمثل التراث الديني الماقبل المسيحي . ويمكن التذكر بدتياً إن أكثرية الرموز المثارة (التعميد ، شجرة الحياة ، الصليب الممثل لشجرة الحياة ، أصول المواد السرية ، زيت خمر ، قمح ، من دم المنقذ) تحدد وتطور بعض رموز مؤكدة في اليهودية المعيارية أو في الأناجيل المختلفة ما بين الايصائية .

والمقصود ، احيانا (أي الشجرة الكونية ، وشجرة الحياة) ، رموز قديمة ، حاضرة سابقاً في العصر الحجري ومقومة بوضوح في الشرق - الأدنى منذ ثقافة السومريين .

وفي حالات أخرى ، هنالك صلة بتطبيقات دينية من أصل وثني ، مستعارة من قبل اليهود في العصر الروماني - الاغريقي (الاستعمال الطقوسي للخمر ، رمز شجرة الحياة في الفن اليهودي ، الخ)^(١٥) . وأخيراً ، فإن عدداً كبيراً من الصور ، والوجوه والأفكار الاسطورية المستعملة من قبل الكتاب المسيحيين ، والتي ستصبح الموضوعات المفضلة للكتب الشعبية والفلكلور الديني الأوروبي ، المشتق من الأناجيل المزورة اليهودية . وباختصار ، فإن التصور الميتولوجي المسيحي يستعير ويطور بواعث وسيناريوهات مخصصة بالتدين الكوني ، الا أنه سبق لها أن تحملت اعادة تفسير في النص التوراتي . وبإضافة تقييما الخاص ، فإن اللاهوت والتصور الميتولوجي المسيحي لم يفعل سوى تحديد عملية كانت بدأت مع غزو أرض كنعان (ف ٦٠ ع) .

وفي لغة لاهوتية ، يمكن القول ، إن عدداً من التقاليد القديمة المدخلة في السيناريو المسيحي حصلت على فدائها . وفي الواقع ان ذلك يتعلق بظاهرة من تماثل العالم الديني المختلف والمتعدد الأشكال . وتعرف عملية مشابهة - سبقت في نهاية العصر القديم ، وخاصة في العصر الوسيط الأعلى - في تحول بعض الآلهة أو الأبطال الاسطوريين إلى قديسين مسيحيين . وسنحلل فيما بعد دلالة عبادة القديسين ورفاتهم (فصل ٣٢) . إلا أنه يجب ان نعيد إلى الذاكرة منذ الآن إحدى نتائج هذه العبادة : «تعميح» christianisation التقاليد الدينية الوثنية - اذن استمرارية حياتها في نطاق التجربة والخيال المسيحيين - الذي ساهم في التوحيد الثقافي المسكوني . وكمثال على ذلك ، أن مالا يحصى من الأبطال والآلهة قتلة التينينات ، من اليونان حتى ايرلندا ومن البرتغال حتى الأورال ، أصبحوا جميعهم نفس القديس : الخضر (سنت جورج) . وهذا هو الارشاد الرباني المميز لكل شمولية دينية متجاوز للاقليمية^(١٦) . وبناء عليه ، وفيما سلف في اثناء القرن الثالث ، تلاحظ ، في كل انحاء الامبراطورية اتجاهات مختلفة للاكتفاء الذاتي

والاستقلال للذان هددا وحدة العالم الروماني^(١٧) . وبعد انهيار الحضارة المدنية ، استدعيت عملية المشابهة وتوحيد التقاليد الدينية الماقبل المسيحية لتلعب دوراً بارزاً .

إن هذه الظاهرة هامة جداً لأنها تميز الابداعية الدينية من نوع فولكلوري لم يجذب انتباه مؤرخي الأديان . وهو يتعلق بابداعية موازية لابداعية اللاهوتيين والنسك والفنانين . ويمكن التكلم عن «مسيحية كونية» وذلك لأن سر العلم المسيحي قد طرح على الطبيعة بكاملها ، من جهة ، ولأن العناصر التاريخية المسيحية قد أهملت ، من جهة أخرى ، وبالعكس ، يؤكد على البعد الطقوسي للوجود في العالم . ان مفهوم كون مشترى بموت وقيامه المنتقد ، ومقدس بخطى الاله ، ويسوع ، والعذراء والقديسين ، كان يسمح بايجاد عالم مثقل بالفضائل والمحاسن التي جردته منها الحروب وارهابات العالم التاريخي^(١٨) . وهذا لم يكن بالطبع سوى بتفرد وبشكل رمزي .

ومع ذلك نؤكد على ان الفولكلور المسيحي يستلهم كذلك من مصادر هرطقية ، قلت أو كثرت ، ويتجاهل احياناً اساطير ، وعقائد أو سيناريوهات ذات أهمية أولية بالنسبة للاهوت . وعلى سبيل المثال ، وما له دلالة أن النشكونية التوراتية قد تلاشت في الفولكلور الأوروبي . وان النشكونية الوحيدة «الشعبية» المعروفة في اوروبا . من الجنوب - الشرق هي من بنية ثنائية : تضع في النشاط العملي الاله والشیطان^(١٩) وفي التقاليد الأوروبية حيث ان هذه النشكونية غير مؤكدة ، لا يوجد اية اسطورة نشكونية^(٢٠) .

وسنعود إلى مسألة استمرار الحياة في الفولكلور الأوروبي ، وإلى الصور والسيناريوهات المألوفة في الرؤى والصور اليهودية والمسيحية والهرطقية . (القسم الأخير من هذا الكتاب) . وان استمرارية وجود هذا الصنف من التقاليد القديمة حتى القرن العشرين يشير الى أهميتها في العالم الديني للشعوب الزراعية .

وانه لذنو دلالة كبرى ، مثلاً ، ان باعثاً اسطوريا مثاراً على نطاق واسع في الماندية والمانوية ، ولكن أصله على الأرجح هو سومري ، يلعب ايضاً دوراً أساسياً

في ميتولوجيا الموت والطقس الجنائزي للرومان وبعض شعوب اوربوا الشرقية .
وتتكلم الكتابات الماندية والمانوية عن جمارك كائنة في كل واحدة من السموات
السبعة ، وعن رجال «جمارك» يتفحصون «البضاعة» ، الروح (أي الأعمال والمزايا
الدينية) اثناء سفرهم السماوي^(٢١) . وعليه ، ففي هذا الفولكلور الديني والعادات
الجنائزية للرومان ، هنالك مسألة «طريق الموت» عبر «جمارك الفضاء» . ونشير إلى
بعض الرموز والسيناريوهات الايرانية التي تمثلت ايضا باللاهوت ، إن لم يكن
بالميتولوجيا المسيحية . فالفكرة الايرانية لقيامة الأجساد تم تلقيها مع التراث
اليهودي . «مقارنة جسد القيامة مع ثوب سماوي يذكر بدون معارضة بالتنصيات
التي تفرق اللاهوت المزدي . وواقعة ان اجساد المستقيمين ستشع تفسر بشكل
افضل بالديانة الفارسية للنور»^(٢٢) . وان صورة الولادة - النجم أو اسطوانة النور
التي تشع فوق المغارة - قد استعيرت من سيناريو ايراني (فارسي) لولادة مدير -
كوني فادي . ان استهلال الإنجيل جاك [١٨ : ١] يتكلم عن نور مبهر ملأ مغارة
بيت لحم . وعندما بدأ ينحسر ، ظهر الطفل - يسوع . الأمر الذي يعني ان النور
كان مشاركاً في الجوهر ليسوع ، أو انه كان احدى تجلياته .

غير ان الكاتب المجهول هو الذي ادخل العناصر الجديدة في الخرافة .
وحسب قوله ، ان الملوك المجوس الاثني عشر كانوا يعيشون بجوار (جبل
الانتصارات mont des victoires) وكانوا يعرفون الكشف السري للسيت seth
المتعلق بمجيء المسيح ، وكانوا ، في كل سنة يتسلقون الجبل حيث كانت توجد
مغارة مع الينابيع والأشجار . وهنالك ، تضرعوا إلى الرب خلال ثلاثة أيام ،
منتظرين ظهور النجم . وأخيراً ظهرت النجمة تحت شكل ولد صغير ، وقال لهم
هذا أن يذهبوا ليهودا . وقد سافر ملوك المجوس مستدلين بالنجمة لمدة ستين .
وبرجعهم إلى مكانهم ، روى المعجزة التي كانوا قد شاهدوها ، وعندما وصل
الآب توماس لبلادهم ، طلب اليه ملوك المجوس ان يعمدهم^(٢٣) .

ومع بعض التطورات الموجية جداً ، توجد هذه الاسطورة في كتاب
سوري ، تاريخ ذقنين la chronique de zuqnin ويؤخذ منه ان الاثني عشر (الملوك -
الحكماء) جاؤوا من بلاد شير shyr تحريف شيز shyz ، مكان ولادة ذرادشت . وان

«جبل الانتصارات» هو ترداد للجبل الكوني الإيراني هارابارزيتي أي قطب الدنيا l'Axis mundi الذي يربط السماء والأرض . فهو اذن في «وسط العالم» وان سيت seth أخفى الكتاب المحتوي للنبوءة ، حول عودة المسيح ، وان النجم هنالك اعلن ولادة المدير الكوني ، الفادي . وعليه ، حسب التقاليد الإيرانية ، فإن الكزافانات les xvana المشعة تحت الجبل المقدس هي العلامة المعلنة لساوشيان ، الفادي المتولد بأعجوبة من منى زرادشت^(٢٤) .

٢٣٨ - ازدهار اللاهوت

كما قلنا سابقاً ، تركب اللاهوت المسيحي خلال الأزمة الغنوصية للقرن الثاني ، وهو يعرف اساساً باخلاصه للعهد القديم . وقد شرح إيرينييه Eréne الذي هو واحد من الأوائل الأكثر أهمية من اللاهوتيين المسيحيين ، الفداء أي تجسيد يسوع المسيح ، كما لو انه استمرار واكمال للعمل الذي بدأ بخلق آدم ، ولكنه معاق بسبب السقوط . ويصلح المسيح المسيرة الوجودية منذ آدم بهدف انقاذ البشرية من نتائج الخطيئة . ومع ذلك ، وفي حين أن آدم هو المثال النموذجي للبشرية الساقطة وانه منذور للموت ، فإن المسيح هو الخالق والنموذج المثالي لبشرية جديدة مقدسة بوعد الخلود ويفتش إيرينييه - ويمجد - موازيات متعارضة بين آدم والمسيح : فالأول خلق من الأرض البكر ، والمسيح ولد من عذراء ؛ وآدم عصي باستعماله الشجرة المحرمة ، والمسيح اطاع بتركه لنفسه يتعذب على شجرة الصلب الخ .

ويمكن تفسير نظرية المراجعة كجهد مضاعف بهدف تمثيل الكشف التوراتي بمجمله من جهة ، وبتبرير التجسيد وكأنه الاكمال لهذا الكشف عينه من جهة أخرى .

ان التركيبات الأولى للتقويم المقدس ، اي زمن شعائري ، تمدد المؤسسات اليهودية ؛ الا انه يوجد دوما التجديد عن العلم بالمسيحية . فجوستان يعين يوم الأحد وكأنه «اليوم الأول» مقررأ انه يوم القيامة ويوم خلق العالم معا .

وهذا الجهد بقصد الاشارة للخاصية العالمية للرسالة المسيحية ، باسراكها بالتاريخ المقدس لاسرائيل - التاريخ العالمي الوحيد حقاً - قد تتابع بالتوازي مع الجهد بهدف تمثيل الفلسفة الاغريقية . وان لاهوت «اللوغوس» ، وبدقة اكثر سر تجسده ، ينفذ الى تعليم المنظورات الغير ممكن ادراكها في افق العهد القديم . ولكن هذا التجديد الجريء لم يكن مجرداً عن المخاطر . فالظاهرية docétisme واحدة من الهرطقات الأولى ، من أصل وبنية عنوصية ، توضح بطريقة مأساوية المقاومة ضد فكرة التجسد . وبالنسبة للظاهرين docètes (من فعل dokéo أظهر) لم يكن المنقذ ليستطيع قبول الاهانة بالتجسد والعذاب على الصليب ؛ وحسب رأيهم ، ان المسيح «ظهر» رجلاً لأنه ارتدى مظهراً بشكل بشري . وبعبارة اخرى إن العذاب والموت قد تحملهما واحد آخر (الرجل يسوع أو سيمون السيريدي de syréne) .

وربما كان الآباء على حق بدفاعهم الضاري عن عقيدة التجسد . ففي منظور تاريخ الأديان يمثل التجسد آخر وأكمل Hiérophanie : تجسد الاله بالكلية في كائن بشري محسوس وتاريخي - أي فاعل في زمنية تاريخية محددة جداً وغير قابلة للانعكاس - وبدون أن ينغلق على نفسه في جسده (لأن الابن مشارك في الجوهر مع الأب) . وقد أمكن ان يقال حتى أن أقنمة la kenosis يسوع المسيح ، لا تشكل فحسب التوبيخ لكل التجسيدات hiéorophanies المنجزة منذ بداية الأزمنة ، وانما تؤكد ، أي تبرهن على صحتها . فإذا قبلت امكانية تجسد المطلق في شخص تاريخي ، يعترف في ذات الوقت بصحة الجدلية الشمولية للمقدس ؛ وبعبارات اخرى ، يعترف بأن الأجيال التي لا تحصى مما قبل المسيحية لم تكن ضحايا وهم باعلانها عن وجود المقدس أي الاله في الموضوعات والايقاعات الكونية .

إن المسائل المطروحة بعقيدة تجسد اللاغوس ، توجد مثقلة في لاهوت الثلثية وبالتأكيد ان التعاليم اللاهوتية كان لها مصدرها في التجربة المسيحية ، فمنذ بدايات الكنيسة عرف المسيحيون الاله تحت ثلاثة صور (١) الأب ، خالق وقاض والذي كان ظهر في العهد القديم (٢) السيد يسوع المسيح المبعوث (٣) روح القدس

الذي كان له القدرة على تجديد الحياة واكمال الملكوت . غير انه منذ بداية القرن الرابع ، طرح كاهن الاسكندرية آريوس تفسيراً أكثر غماسكا وأكثر فلسفة للتثليث . فلم يرفض آريوس التثليث ، ولكنه انكر المشاركة في الجوهر consubstantialité للأشخاص الالهية الثلاثة . وبالنسبة له ، ان الاله واحد غير مخلوق ؛ والابن والروح القدس خلقاً فيما بعد من قبل الأب ، اذن هما ادنى منه . وقد عاود آريوس ، من جهة ، الأخذ بنظرية المسيح - الملاك ، أي المسيح المتماهي برئيس الملائكة Archange القديس ميشيل (نظرية تأكدت في روما في بداية القرن ٢) ومن جهة اخرى ، فإن بعض اطروحات اوريجين origène ممثلة الابن كألوهية ثانوية . ولقد كان لتفسير آريوس بعض النجاح ، حتى بين الأساقفة ، غير انه في مجمع نيسيه سنة ٣٢٥ تم تبني الرمز الذي يرفض الاريوسية . مع ذلك فإن لاهوت آريوس كان له ايضاً المدافعون الأقوياء عنه ، وتمددت معارضته خلال نصف قرن^(٢٥) . ولكن اثناز (المتوفي ٣٧٣) هو الذي أحيا نظرية المشاركة في الجوهر (homoousios) للأب والابن ، وهو مبدأ لخصه اوغسطين في العبارة : جوهر واحد - ثلاثة اشخاص Unasubstantia - tres personae . ولم يكن يتعلق بتعارض بين لاهوتين : عقيدة التثليث كانت أشغفت الجماهير . لأن المسيح اذا لم يكن سوى الوهة ثانوية ، فكيف يمكن الاعتقاد بأن لديه القدرة لانقاذ العالم ؟!

ولم ينقطع لاهوت التثليث ابداً عن اثاره المشكلات ، فمنذ عصر النهضة عرف الفلاسفة العقلانيون انفسهم بدنياً بأنهم خصوم التثليث . ومع ذلك فإن لاهوت التثليث له مزية تشجيع التعاليم الجريئة ، مجبراً المسيحي لأن يتحرر من نطاقات التجربة والمنطق اليومي^(٢٦) .

إن التقديس المتنامي ، وفي آخر المطاف ، تأليه مريم ، هما بخاصة من عمل الورع الشعبي . ففي نهاية القرن الأول ، تاريخ انجيل يوحنا ، كانت الكنيسة قد اعترفت بالدلالة الدينية لمريم . فعلى الصليب ، قال يسوع لأمه : «أيتها المرأة ، هذا هو ولدك [...] ثم قال للتلميذ : هذه أمك» [يوحنا ١٩: ٢٥] .

إن أهمية مريم تنبع من أمومتها : إنها ديبارا Deipara «تلك التي تلد الاله». ولقد تأكدت العبارة لأول مرة في بداية القرن الثالث ؛ ولكن عندما استعملها القائلون بطبيعة واحدة les monophysites^(٢٧) في معنى هرطقي ، استبدلت كلمة ديبارا بعبارة أكثر وضوحاً ، تيوتوكوس Theotokos «أم الاله» . ولكنها كانت دائماً أما عذراء . وعقيدة العذرية المستمرة لمريم أعلنت بمجمع أفسس^(٢٨) وفي هذه الحالة أيضاً يؤخذ بكثير من الواقعية عمل التمثيل وإعادة التقييم لفكرة دينية ، قديمة جداً ، ومنشرة عالمياً . وفي الواقع ، ان لاهوت (مريم)، الأم العذراء تعاود وتكمل المفاهيم القديمة جداً ، الآسيوية وللحوض المتوسط ، وللتوالد الذاتي parthénogénèse للربات الكبرى (ر. على سبيل المثال هيراف ٩٣ع) . إن اللاهوت المريمي يظهر تمثيلاً أقدم وأكثر دلالة لمديح مقدم ، مما قبل التاريخ ، للسر الديني للانوثة . فالعذراء مريم ستماهي في المسيحية الغربية ، مع صورة الحكمة الالهية . وعلى العكس ، فإن الكنيسة الشرقية ستطور إلى جانب لاهوت أم الاله ، نظرية الحكمة السماوية صوفيا sophia التي تفتح فيها الصورة الانثوية الروح القدس ، وبعد عدة قرون ستلعب الحكمة الصوفية sophianologie بالنسبة للنخبة المثقفة من المسيحيين الشرقيين ، دوراً مماثلاً في التوماسية الجديدة néo-thomisme في تجديد الفلسفة الكاثوليكية .

٢٣٩ - بين شمس انفيكيتوس وإن هوك سيغنوفنيس

كما رأينا ؛ أن اورليان (٢٧٠ - ٢٧٥) أوضح أهمية اللاهوت الشمسي ، من بنية توحيدية لضمان وحدة الامبراطورية ، وقد أعاد ادخال الاله ايميز Emèse الى روما ، ولكنه غير جذريا بنية العبادة . وإن العناصر السورية حذفت بعناية ، وانيطت الخدمة بالسيناتورات الرومان . وقد اثبت العيد السنوي لاله الشمس الغالب Deus sol invictus في ٢٥ كانون أول (يوم الميلاد) لكل الالهة الشمسية الشرقية .

ان الخاصية الشمولية للعبادة واللاهوت الشمسيين كانت معترفاً بها أو متوقعة من قبل المؤمنين الاغريق والرومان بأبولون - هيليوس ، كما هو من قبل عبدة ميثرا والبعل السوريين . واكثر من هذا ، ان الفلاسفة وفلاسفة اللاهوت كانوا بعدد كبير منهم متبنين وحدانية ذات بنية شمسية . وفي الواقع ، ان الاتجاهات التوحيدية والشمولية التي تميز نهاية القرن الثالث ، اصبحت سائدة في القرن الرابع . وان التوفيقات الدينية الكثيرة والاسرار ، وانطلاقة اللاهوت المسيحي للوغوس ، والرمزية والشمسية المطبقة على الامبراطور والامبراطورية معا ، توضح الابهار الممارس بمعنى الواحد l'un وباللاهوت للوحدانية .

وقبل اعتناق قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧) للمسيحية كان مؤمناً بالعبادة الشمسية وكان يرى في الشمس الغالبة solinvictus الأساس لامبراطوريته . فالشمس مثلث بغزارة على الآثار المصورة ، وعلى النقود ، وفي النقوش . ولكن خلافا لأورليان الذي كانت الشمس بالنسبة له الاله الأعلى ، فان قسطنطين كان يعتبر الشمس وكأنها الرمز الأكثر كمالاً للاله . ان تبعية الشمس للاله الأعلى كانت على الراجح جداً النتيجة الأولى لاعتناقه المسيحية ، ولكن الفكرة كانت آنئذ موضحة من قبل الافلاطونية البورفيرية المحدثه (٢٩) .

لا تتفق الشهادات حول الاشارة المنظورة من قبل قسطنطين قبل المعركة الحاسمة على جسر ميلوس ، والتي لاقى فيها خصمه ماكسنس حتفه . وحسب لاكتانس ، ان قسطنطين «قد انذر اثناء نومه لأن يعلمُ التروس بعلامة سماوية وبذلك يربح المعركة : فاطاع ونقش على التروس اسم المسيح» . ولكن اسقف قيصرية (اوزيب) في كتابه «حياة قسطنطين» [١ - ٢٨ - ٢٩] يروي قصة مختلفة : «ففي وسط النهار بدأت الشمس بالانحدار ، فرأى بأمر عينه - نفسه قسطنطين اكد ذلك - علامة الصليب تشع بالنور وسط السماء واكثر من ذلك ايضا الشمس مع هذه الكلمات : بواسطتها ستتصير . وعلى هذه الرؤية اضطرب هو وكل جنوده من الدهشة [...] فتساءل قسطنطين ماذا يمكن لهذه الرؤية ان تكون ، وفي الليلة التالية ، تراءى له مسيح الله اثناء نومه مع ذات العلامة التي كان رآها في السماء

وأمره لأن يجعل شعاراته العسكرية على نموذج هذه الاشارة الميثية في السماء ، من أجل استعمالها في المعركة كسلاح للنصر .

ومازالت رسمية هذه الشهادات موضع نقاش ، ومازال النقاش لمعرفة ما اذا كانت العلامة المنظورة من قبل قسطنطين مسيحية او وثنية^(٣٠) . ومهما يكن من أمر ، فإن اعتناق قسطنطين للمسيحية ضمن التمسح الرسمي للامبراطورية . وأخذت الرموز المسيحية الأولى بالظهور على النقود منذ ٣١٥ وزالت آخر الصور الوثنية في ٣٢٣ .

لقد تلقت الكنيسة نظاماً قانونياً متميزاً ، أي أن الدولة ، اعترفت بصحة محاضر المحاكم الاسقفية *épiscopale* ، حتى في الأمور المدنية . وتسلم المسيحيون أعلى مستوى المسؤوليات ، وتعديلات الاجراءات الشديدة ضد الوثنيين . واصبحت المسيحية تحت حكم تيودوس *théodose* الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥) دين الدولة وحرم الدين الوثني نهائياً وهكذا أصبح المضطهدون مضطهدين .

وفي الواقع ان المسيحية قد اظهرت قوتها وحيويتها قبل اعتناق قسطنطين لها . فحوالي ٣٠٠ ، في انطاكية وفي الاسكندرية ، كانت الجماعة المسيحية ، هي الجماعة أو التنظيم الديني الأكثر اتساعاً والأكثر تنظيماً . وأكثر من هذا ايضاً ان الخصومة كنيسة - امبراطورية اضاعت تباعاً من تصلبها . وان آخر المنافحين عن المسيحية ، لاكتان (حوالي ٢٤٠ - ٣٢٠) وأوزيب من قيصرية (حوالي ٢٦٣ - ٣٣٩) اعلنا بأن المسيحية كانت الأمل الوحيد لانقاذ الامبراطورية .

إن اسباب النصر النهائي للتبشير المسيحي هي اسباب عديدة . فبدئيّاً ، الايمان الذي لا يتزعزع والقوة الخلقية للمسيحيين ، وشجاعتهم أمام التعذيب والموت ، شجاعة تثير الاعجاب حتى من قبل اعدائهم العتاة ، لوسيان الساموساتي ، ومارك أوريوس وغالييه سيلز . ومن جهة أخرى فإن تضامن المسيحيين لم يكن له مثيل ؛ وقد كانت الجماعة اخذت على عاتقها ، رعاية الأراامل ، واليتامى والشيوخ ، وافتدت السجناء من قطاع الطرق . وكان المسيحيون اثناء الأوبئة وحصار المدن ، الوحيدون الذين يعتنون بالجرحى

ويدفنون الأموات ، وبالنسبة لكل من ليست لهم جذورهم في الامبراطورية ، وبالنسبة لكل الجماهير التي تعاني العزلة ، وبالنسبة لكل ضحايا الاغتراب الثقافي والاجتماعي ، كانت الكنيسة الأمل الوحيد للحصول على هوية ، وإيجاد ، أو معاودة إيجاد ، معنى في الوجود . وبما انه لم تكن توجد حواجز - اجتماعية ، عرقية ، ثقافية - كان أي شخص يستطيع ان يصبح عضوا في هذا المجتمع المتفائل والمتناقض ، حيث يستطيع مواطن ، حارس الامبراطور ، ان يركع امام اسقف ، هو عبده القديم . ومن الراجح جداً، إن أي مجتمع آخر تاريخي لم يعرف - لا قبل ولا بعد - وجود مثيل لهذه المساواة ولهذا الاحسان ولهذا الحب الأخوي المعاش في الجماعات المسيحية في القرون الأربعة الأولى .

ان التجديد الغير منتظر مطلقاً ، والذي كان له نتائجه البارزة في التاريخ الديني ، والثقافي والاجتماعي لأوروبا ، كان الرهبانية ، الميزة بالفصل بين العالم وبين تنسكية حادة جداً^(٣١) . وقد برز المظهر بشكل مستقل في القرن الثالث ، ليس في مصر فحسب ، كما كان يعتقد حتى وقت قريب ، وانما ايضا في فلسطين وسورية . وما بين النهرين^(٣٢) . فالقديس انطوان أسس الرهبنة المصرية ، ولكن باكوم ، (حوالي ٣٤٧ - ٣٩٠) هو الذي نظم حياة الرهبنة في صحراء طيبة في ٣٢٠ (حيث ؛ انه حوالي نهاية القرن الرابع كان يوجد حوالي ٧٠٠٠ راهب) . وكما يلاحظ بيتر براون ، كان الرهبان قد اختاروا بملء حريتهم المضادة للثقافة - الصحراء والمغاوير^(٣٣) . وإن تقديرهم البارز هو النتيجة لانصرامهم ضد الشياطين ، من جهة ، ولدربتهم على الوحوش الكاسرة من جهة أخرى ، وقد رأت النور فكرة جديدة ! الرهبان ، هؤلاء «القديسون» الحقيقيون ، هم على درجة من القوة لقيادة الشياطين وثني ارادة الله بصلواتهم . وفي الواقع ، ان الرهبان وحدهم ، كانت لديهم الشجاعة لمقاومة بعض مقررات الامبراطور . فالقديس سمعان ستيليت الجاسم على عموده تفحص الدعاوى ، وتنبأ ، وشفى المرضى ، ولام ونصح كبار الموظفين .

وحوالي نهاية القرن الرابع ، من ما بين النهرين إلى افريقيا الشمالية ، شوهدت موجة من العنف المنجزة من قبل الرهبان : ففي ٣٨٨ أحرقوا كنيساً في

كاللينيكوم ، بالقرب من الفرات وارعبوا القرى السورية حيث كانت توجد معابد الوثنيين ؛ وفي ٣٩١ دعاهم بطريك الاسكندرية تيوفيل «لتطهير» المدينة سيرابوم ، من المعبد الكبير سيرابيس sérapis . وفي ذات الفترة ، دخلوا بالقوة في بيوت الوثنيين ليفتشوا فيها عن الاصنام . وفي ٤١٥ ، ارتكب جماعة من الرهبان المتعصبين اكبر وابشع جرم عرف في التاريخ : فقد اعدموا بدون محاكمة par lynchage* هياسيا فيلسوفة الاسكندرية النبيلة ، التي دعاها تلميذها ، الاسقف سينيزيوس ك «أم ، وأخت ومعلمة ومحسنة» [ايب .. ١٦] a

وفي الشرق ، اسبغ الاساقفة حمايتهم على الرهبان لتدعيم مركزهم الخاص ؛ فجميعهم ، اساقفة ورهبان وضعوا انفسهم في المقام الأول من الشعب وأملوا عليه ارادتهم . وكما يلاحظ بيتر براون «هذه الانحرافات عن المركز حولت المسيحية الى ديانة جماهيرية» . ويأكثر من هذا مفاجأة ظهر العمل المتحقق ، خاصة في الغرب ، من قبل خلفائهم ، رهبان القرون الوسطى العليا .

٢٤٠ - الحافلة التي توقفت في ايلوزيس

إن أي حدث تاريخي لم يترجم بشكل افضل النهاية «الرسمية» للوثنية سوى الحريق لمعبد ايلوزيس ، ففي ٣٩٦ من قبل آلاريك alaric ، ملك القوط . الا انه ، من جهة اخرى ، أي مثال آخر لا يوضح بشكل افضل العملية الغامضة لستر واستمرارية التدين الوثني . في القرن الخامس ، روى المؤرخ اونايبوس Eunapios ذاته المثلثن باسرار ايلوزيس نبوءة آخر كاهن شرعي . فبحضور اونايبوس تنبأ الكاهن بأن خليفته سيكون غير شرعي ومدنس ؛ وحتى انه لن يكون مواطناً لآثينا ؛ واسوأ من هذا ايضا ، سيكون هذا أحدهم الذي «بتكريسه لألهة أخرى» سيكون مرتبطاً بقسمه «بأن يرأس حصراً احتفالاتهم» . ويسبب هذا التدنيس ، فإن المعبد سيدمر . وعباده الربتين تزول الى الأبد .

* par lynchage (تليش) اعدام عسفي من hynch قانون لنش (قانون الاعدام من غير محاكمة قانونية وهو منسوب الى قاض اميركي بهذا الاسم (القاموس المنهل)

ويتابع اونايبوس ، وعليه ، فإن متلقنا باسرار ميترا (حيث يكون له مرتبة الأب) يصبح كاهناً Hierophante . وكان آخر هيروفانت لأيلوزيس . لأنه بعد زمن قصير تسربت قوط آلاريك عبر عمر تيرموبوليس ، متبوعين «برجال يرتدون السواد» ، الرهبان المسيحيين - فخرت أقدم وأهم مركز ديني لأوروبا ودمرته نهائياً .

مع ذلك ، اذا كان الطقس التلقيني زال من ايلوزيس ، فإن ديميتير لم تهجر المكان من تجليها المأساوي . صحيح ، ان القديس ديمتريوس قد كان أخذ مكانها في بقية اليونان ، وأصبح هكذا معلماً للزراعة . الا ان الكلام في ايلوزيس جرى ومازال يجري ، عن القديسة ديمترا ، قديسة كانت مجهولة سابقاً والتي لم تقنن ابدأ . وحتى بداية القرن التاسع عشر كان هنالك تمثال للربة يغطى طقوسياً بالأزهار من قبل فلاحي القرية ، لأنها كانت تضمن الخصب الى الحقول . وبالرغم من مقاومة السكان المسلحة ، رفع التمثال من قبل ا . د . كلارك في عام ١٨٢٠ وقدم الى جامعة كامبردج^(٣٥) . وفي ايلوزيس روى كاهن في سنة ١٨٦٠ للمنقب الأثري ف . لينورمان قصة القديسة ديميترا ، بأنها كانت امرأة عجوز من اثينا ، واختطف رجل تركي ابنتها ، ولكن حارساً يقظاً نجح بتحريرها - وفي ١٩٢٨ سمع ميلوناس ذات القصة من رجل في التسعين من عمره في ايلوزيس . والمشهد الأكثر اثارة للميتولوجيا المسيحية لديميتير جرى في بداية شباط ١٩٤٠ وروي على نطاق واسع ونوقش في الصحافة الأثينية^(٣٧) . ففي واحدة من محطات الأتوبيس - أثينا - كورنثة ، صعدت امرأة عجوز «نحيفة ومكرنشة» ، ولكنها ذات عينيْن كبيرتين تنبضان بالحياة» . وبما أنه لا يوجد معها دراهم لتدفع ثمن تذكرة الحافلة انزلها المراقب في المحطة التالية ؛ وكانت هذه فعلاً محطة ايلوزس . ولكن السائق لم ينجح مطلقاً في الاقلاع بالباص ؛ وفي آخر المطاف قرر المسافرون التعاون لدفع ثمن بطاقة العجوز . فصعدت الى الحافلة التي عاودت سيرها هذه المرة . وعندئذ قالت لهم العجوز : «كان عليكم ان تجربوا هذا قبل الآن ، ولكنكم انانيون ، وبما انني بينكم أود أن أقول لكم أيضاً شيئاً : ستعاقبون من اجل الطريقة التي تعيشونها ، ستحرمون

حتى من العشب ، حتى من الماء !» ولم تكمل تهديدها ، كما روى كاتب الخبر المنشور في صحيفة هيسيتيا ، حتى اختفت [. . . .] . لا أحد رآها تنزل . وأخذ ينظر بعضهم للبعض الآخر ، ونظر مجدداً إلى أرومة البطاقات لكي تدخل القنعة بأن بطاقة قد انتزعت فعلاً .

ونذكر ، لاستخلاص النتيجة ، الملاحظة الذكية لشارل بيكارد : «اعتقد بأن الهلنستين ، بصورة عامة ، سيعمدون بصعوبة ، أمام الحكاية القصيرة فيستدعون عن قرب بعض الذكريات عن النشيد الهومييري الشهير ، حيث أن أم كورية coré المتخفية بامرأة عجوز في مخدع الملك الايلوزي سيليوس ، تنبأت ايضاً وأعلنت - في ازمة غضب مقرعة الناس على عدم رحمتهم - أعلنت سلفاً بكوارث عنيفة تصيب كل الاقليم .

حواشي الفصل الثلاثين

- ١ - نتبع الشرح التفسيري الرائع للفكر العبري الذي أتى به كلود تريسموثان . (ميتافيزيك المسيحية ص ٣٣)
- ٢ - مما له دلالة أن الآباء اتبعوا بصورة عامة مبادئ اليهودية المعيارية ، متجاهلين التعاليم اليهودية من نوع غنوصي .
- ٣ - يذكر هذا التناقض ، الذي يمر غالباً بصمت من قبل المؤرخين : المعلمون الأكثر أهمية الغنوصيين كذلك مارسيون وكتاب فلاسكيون آخرون (ايبكتيت ، بلوتارك ، نشروا فلسفتهم المأساوية والمتشائمة جداً في عصر من سلام ورفاهية (عصر الذهب) للانطونيين
- ٤ - المرطقيون ايضاً طلبوا من الرسول - ولكن الآباء رفضوا هذه الادعاءات بالارث لأنها كانت سرية ولا يمكن تحقيقها . كما كتب إيرينييه . « قبل فالتين لم يكن يوجد فالتيون ولا قبل مارسيون مارسيونيون»
- ٥ - ٨ اسماء المراجع
- ٩ - لوجيون ٢٢ ترجمة بويش ١٠٦ «عندما تصنع من اثنين واحدا ، ستصبح ابن الانسان»
- ١٠ - ١٤ اسماء المراجع
- ١٥ - اسماء المراجع حول الخمر وشجرة الحياة . ولكن عدد الرموز الوثنية المتمثلة من قبل اليهودية هي اكثر بكثير : ثور ، اسد ، نصر ، نسر ، صدقة ، عصفور ، زورق الخ .
- ١٦ - توجد عمليات مماثلة في الهند (تهنيد صور الهية وعبادات اصلية) وفي الصين (بخاصة في التاوية الشعبية) وفي اليهودية (في عصر غزوة ارض كنعان والعصر الوسيط) وفي الاسلام
- ١٧ - ١٨ اسماء المراجع
- ١٩ - يتعلق بأسطورة معينة من بعض العلماء مثل (المغطس النشكوني) - (من زالموسكي الى جنكيزخان - الياذ

- ٢٠ - ٢٤ اسماء المراجع
- ٢٥ - الأرينية l'arimisme غلبت نهائيا في ٣٨٨
- ٢٦ - من هذه الوجهة النظر ، يمكن مقارنتها بالميتازفيك لناجارجوننا (فقرة ١٨٩ ع) والقبالة وطرائق المعلم ذين .
- ٢٧ - حركة هرطقية (بدء القرن الخامس) اعضاؤها كانوا يفكرون بأن الانسانية والالوهية في المسيح اختلطت بهوية واحدة
- ٢٨ - ولكنه فقط في حوالي ١٠٠٠ وجدت في الغرب عقيدة تقول بان العذراء كانت حبلت بدون خطيئة
- ٢٩ - ٣٣ - ٣٥ - ٣٧ اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف .

فهرست الجزء الثاني

الفصل السادس عشر : ديانات الصين القديمة

- ١٢٦ - معتقدات دينية للعصر الحجري الجديد ١٢٧ - ديانة البرونز بـ : اله السماء والاجداد .
١٢٨ - الاسرة الملكية النموذجية : التشيو ١٢٩ - الأصل ومعاملة العالم ١٣٠ - قطبة تناوب
واعادة تجديد . ١٣١ - كونفوشيوس : قوة الشعائر . ١٣٢ - لاوتسو والطاوية . ١٣٣ -
تقنيات الحياة المديدة . ١٣٤ - الطاوية والكيمياء

الفصل السابع عشر - البراهمانية والهندوسية : الفلسفات الأولى وتقنيات الخلاص

- ١٣٥ - (كل شيء معاناة) ١٣٦ - طرائق لليقظة السامية ١٣٧ - تاريخ الأفكار وتأريخية النصوص
١٣٨ - الفيدانتا - ماقبل المنهجية ١٣٩ - الروح حسب السمخيا يوجا ١٤٠ - معنى
الخلقة : مساعدة الخلاص للروح ١٤١ - دلالة الخلاص ١٤٢ - اليوجا : تركيز على شيء
١٤٣ - تقنيات اليوجا ١٤٤ - دور الاله ١٤٥ - ساماهي (والقوى العجيبة) ١٤٦ -
الخلاص النهائي .

الفصل الثامن عشر زيودا ومعاصروه

- ١٤٧ - الأمير سيدهارثا ١٤٨ - السفر الكبير ١٤٩ - (التيقظ) التبشير بالشرعية ١٥٠ - مذهبية
ديفاداتا . الاهتمامات الأخيرة . البوذا يدخل في البارنيرفانا ١٥١ - الوسط الديني :
النسك الجوالون - ١٥٢ - ماهانيرا ومنقلو العالم ١٥٣ - مذاهب وتطبيقات جايانا ١٥٤ -
الاجيفيكاس وكلية قدرة (القدر)

الفصل التاسع عشر - رسالة بوذا - من الرعب للعودة الابدية الى الطوبى الدقيقة عن الوصف

١٥٥ - الانسان المضروب بسهم مسموم ١٥٦ - الحقائق النبيلة الاربعة وطريق الوسط ١٥٧ - استمرارية الاشياء ومذهب الانسان ١٥٨ - الطريق الموصل للنيرفانا ١٥٩ - تقنيات وتأمل وانارتها بالحكمة ١٦٠ - تناقض اللامشروط .

الفصل العشرون الديانة الرومانية : من الأصول حتى قضية الباشنال (١٨٦ق.م)

١٦١ - رومولوس والضحية التضحية ١٦٢ - تاريخ الاساطير الهندو اوروبية ١٦٣ . خصائص مميزة للتدين الروماني ١٦٤ - العبادة الخاصة : بيناتس ، لارس ، مانس . ١٦٥ - كهنوت ، واخوات دينية ١٦٦ - جوبيتر ، مارس ، كوميرينوس والثلاثي الكابتولين ١٦٧ - الاتروسك : الفازوفرضيات ١٦٨ - ازمت وكوارث : من السيادة الغلوا حتى الحرب القرطاجية الثانية .

الفصل الحادي والعشرون - السلت - الجرمن - التراث والجليت

١٦٩ - استمرار العناصر الى قبل التاريخ ١٧٠ - التراث الهندو - اوروبي ١٧١ - هل يمكن تكوين البانتيون السلتي ؟ ١٧٢ - الدويد وتعاليمهم الباطنية ١٧٣ - يغدرازيل والتشكونية للجرمن القدامى ١٧٤ - الأذس والفانس - اودهين ومزايه «الشامانية» ١٧٥ - الحرب ، الانتشاء والموت . ١٧٦ - الأذس : تير ، تهور ، بالدر ١٧٧ - آلهة الفانس - يوغا نهاية العالم ١٧٨ - التراسيون ، / كبار مجاهيل / التاريخ ١٧٩ - زالموسكي (عدم الموت)

الفصل الثاني والعشرون - اورفيه - فيثاغورس - والأخوية الجديدة ١٨٠ - اساطير اورفيه : سيزايد ، شامان ومؤسس المسارة ١٨١ - نسب آلهة والنترولوجيا اورفيه ، تناسخ وخلود الروح ١٨٢ - الأخوية الجديدة - ١٨٣ - افلاطون ، فيثاغورس والأورفيه ١٨٤ - اسكندر الكبير والثقافة الهلنستية .

الفصل الثالث والعشرون - تاريخ البوذية لماهاكاذيا في ناكاراجونا

١٨٥ - البوذية حتى أول انقسام - ١٨٦ - بين الاسكندر الكبير وأذوكا - ١٨٧ - توتر مبدئي وتركيبات جديدة ١٨٨ - طريق البودهيذاتفا ١٨٩ - ناكاراجونا ومبدأ الفراغ الشامل ١٩٠ - الجانية بعد ماهافيرا : علم ، كوزمولوجيا ، انقاذ .

الفصل الرابع والعشرون - التركيب الهندوسي : الماهاباراتا والبهاجادجيتا

١٩١ - حرب الثمانية عشر يوما ١٩٢ - حرب اخروية ونهاية العالم . ١٩٣ . كشف كريشنا .
١٩٤ - تنازل عن ثمرة اعماله ١٩٥ - انفصال وكلية .

الفصل الخامس والعشرون - تجارب اليهودية . من الاخروية لتمجيد التوراة

١٩٦ - بدايات الاخروية ١٩٧ - احجية وزكريا انبياء اخرويين ١٩٨ - انتظار الملك المسيحاني
١٩٩ - تقدم الشرعانية ٢٠٠ - تشخيص الحكمة الالهية ٢٠١ من القنوط الى توحيدية
جديدة : الكوهليت ، والكنيسة ٢٠٢ - الرؤوين الأول : دانيال وهينوس الأول ٢٠٣ -
الامل الوحيد : نهاية العالم ٢٠٢ ردة الفريسيين : تمجيد التوراة .

الفصل السادس والعشرون - توفيقية وابداعية في العصر الهيليني : وعد الخلاص

٢٠٥ - ديانات الاسرار ٢٠٦ - ديونيزوس الصوفي ٢٠٧ - آتيس وسييل ٢٠٨ - ايزيس
والاسرار المصرية ٢٠٩ كشف هرمس مثلث الحكمة ٢١٠ - مظاهر مسارية للهرمسية
٢١١ - الكيمياء الهلنستية

الفصل السابع والعشرون - ترتيبات ايرانية جديدة

٢١٢ - توجهات ديتنية تحت حكم الارشيديين (٢٤٧ق.م) - ٢٢٠ ب.م) ٢٣ - ذورفان وأصل
الشر ٢١٤ - الوظيفة الاخروية للزمن ٢١٥ - الخليقتان : مينون وجيتيك ٢١٦ - من
جايومارت الى ساوشيان ٢١٧ - اسرار ميترا ٢١٨ - لو توقفت المسيحية .

الفصل الثامن والعشرون - ولادة المسيحية

٢١٩ - يهودي غامض .. يسوع الناصري ٢٢٠ - البشارة : ملكوت الله قريب جدا ٢٢١ -
ولادة الكنيسة ٢٢٢ - رسول الوثنيين ٢٢٣ - الاسينيون في قمران ٢٢٤ - خراب الهيكل :
تأخير عودة المسيح الثانية

الفصل التاسع والعشرون - وثنية - مسيحية - وغنوص في العصر الامبراطوري

٢٢٥ - العذراء تعود ٢٢٦ - المحن والمصائب لديانة غير مشروعة ٢٢٧ - المعرفة الربانية المسيحية

٢٢٨ - مقاربات غنوصية ٢٢٩ - من سمعان الساحر الى فالتين ٢٣٠ - اساطير واستعارات
غنوصية ٢٣٢ - البارقليط المستشهد ٢٣٢ . الغنوصية المانوية ٢٣٣ - الاسطورة الكبرى -
السقوط وخلص الروح الالهية ٢٣٤ - الثنائية المطلقة المطلقة

الفصل الثلاثون - غروب الالهة

٢٣٥ - هرطقات وارثوذكسية ٢٣٦ - الصليب وشجرة الحياة ٢٣٧ - نحو مسيحية كونية ٢٣٨ -
ازدهار اللاهوت ٢٣٩ - بين شمس انفيكتوس ولاهوك سيفنوفنسي ٢٤٠ - الحافلة التي
توقفت في ايلوزيس .

مِنْ غَوَا مَآبِ بُوذَا حَتَّى انْتِصَارِ الْمَسِيحِيَّةِ

دِيَانَاتُ الصِّينِ الْقَدِيمَةِ - الْبَرَاهِمَاءُ وَالْهِنْدُوسِيَّةُ - بُونَا وَمَعَامُوه - الدِّيَانَةُ الرُّومَانِيَّةُ - السَّنَتُ - الْبَرْمَسُ
أُورْفِيَّةٌ - فَيَاغَرَسُ - التَّرَكِيبُ الْهِنْدُوسِي - بَحَارُ الْيَهُودِيَّةِ - الْهَلِينِيَّةُ - زَكِيَّاتُ الْإِرَانِيَّةِ - دَوْلَةُ الْمَسِيحِيَّةِ
غُرُوبُ الْآلِهَةِ - الخ

تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية

تأليف
ميرسيا البياو

ترجمة
عبد الحماد بن عباس

الجزء الثالث



تاريخ
المعتقدات والأفكار الدينية

عنوان الكتاب بالفرنسية

HISTOIRE DES CROYANCES
ET DES IDEÉS RELIGIEUSES

MIRCEA ELIADE

تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية

الجزء الثالث

ترجمة
عبد الحميد عباس
المحامي

تأليف
ميرزا الياس

ديانات أوراسيا القديمة - الناسايسم المسيحية - الأديانة الوثنية - نضضة - إيسودم - الكاثوليكية الغربية
صوفيات إسلامية - يهودية - وندوباكورا - حركات دينية في أوروبا الغربية الوسطى - إيسودم - ديانة ألبين



حقوق الطبع محفوظة

لدار دمشق

طبعة أولى

١٩٨٦ - ١٩٨٧

طبع في مطابع الشام

١٩٨٦/١٠/٣٠٠٠

دسح - شارع بورسعيد - هاتف ٢١١٠٤٨ - ٢١١٠٢٢



مقدمة الجزء الثالث

ان التأخير الحاصل بظهور هذا الجزء يرجع لاسباب صحية ، فمنذ بعض الوقت استمر بصري يضعف ، ويسبب من ألم المفاصل العنيف كتبت بصعوبة . وهذا ما الزمني باكمال القسم الأخير من تاريخ المعتقدات والافكار الدينية بمعونة العديد من زملائي ، المختارين من بين طلابي القدامى .

وكما انه لن يفوت القارئ ملاحظة انني غيرت مخططي للكتاب الذي كنت اشرت إليه في مقدمة الجزء الثاني . لقد اكملت تاريخ الكنائس المسيحية حتى عصر الانوار ونقلت في الجزء الأخير الفصول حول تفتح الهندوسية ، وحول صين القرون الوسطى وحول الديانات اليابانية . لقد كرست اربعة فصول لتاريخ المعتقدات ، والافكار والمؤسسات الدينية لاوروبا بين القرن الرابع والسابع عشر ولكنني لم اصر كثيراً على الابداعات المألوفة للقارئ الغربي - (على سبيل المثال السكولاستيك ، والاصلاح) لكن لكي اتمكن من الوقوف على بعض المظاهر التي تمر بصمت أو يشار اليها في الكتب المختصرة : الهرطقات ، الميثولوجيات والممارسات الشعبية ، والسحر والكيمياء والباطنية . فهذه الابداعات المفسرة في افقها الروحي لا تعدم الفائدة ، وأحياناً حتى العظمة وعلى كل حال ، انها تشكل جزءاً لا يتجزأ من التاريخ الديني والطقوسي لأوروبا .

ان جزءاً هاماً من الجزء الأخير من التاريخ سيكون مؤلفاً بتقديم الاديان

القديمة والتقليدية لأميركا ، وأفريقيا وأوقيانوسيا . وأخيراً وفي الفصل الأخير
ساهتم بتحليل الابداعية الدينية للمجتمعات الحديثة .

انني اشكر البروفيسور شارل ادامز الذي تلطف وقرأ الفصول /٣٣/
و/٣٥/ واعلمني بالعديد من الملاحظات القيمة ؛ ومع ذلك ، فإنني مسؤول عن
شرح الشيعة والصوفية الاسلامية شرحاً مبنياً على تأويل صديقي المأسوف عليه
هنري كوربان انني اقر بالعرفان لزميلي وصديقي البروفيسور اندريه لاكوك للعناية
التي قرأ بها وأصلح النص بكامله من الجزء الراهن ، ولصديقي جان لو بيدوبايو
لصبره وللعناية التي بذلها لاجراء هذا الجزء .

إن حضور ، وعطف وتضحية زوجتي حقق ظفري على التعب والقنوط
المثار بآلامي وعجزتي . وبفضلها أمكن لهذا الكتاب ان يظهر .

م . اياد

جامعة شيكاغو نيسان ١٩٨٣

الفصل الواحد والثلاثون

اديان أوراسيا القديمة :

الترك - المغول - الفينو - اوغريان ، البالطو - سلاف .

٢٤١ - صيادون ، رحل ، محاربون

إن غزوات الترك - مونغول الصاعقة - منذ الهانس في القرن الرابع ، وحتى تيمور لنك (١٣٦٠-١٤٠٤) استوحيت من نموذج اسطوري للصيادين البدائيين لأوراسيا : آكل اللحم المطارد لطريدته في السهب . فالمباغته وسرعة الحركة ، وذبح السكان جميعهم وازالة العلامات الخارجية لثقافة الاستقرار (مدن ، وقرى) ، جميعها تقرب فرسان الهانس ، الآفار ، والترك والمنغول من سرب الذئاب الصائدة لأياثل السهب ، أو المهاجمة لقطاعان الرعاة (المتجولين) من البدو الرحل . وبالتأكيد ، إن الأهمية الاستراتيجية والنتائج السياسية لهذا السلوك كانت معلومة جداً للرؤساء المحاربين . ولكن الاحترام الصوفي للصياد المثالي - المفترس - لعب دوراً بارزاً . وإن عدداً من القبائل الألتية altaiques تدعي ان جدّها القديم هو ذئب مما فوق الطبيعة (ر.ف ١٠ع) ..

إن الظهور الخاطف السرعة «لامبراطوريات السهوب» وخاصيتها الآنية ، قلت أو كثرت ، ما زالت تشده المؤرخين و(تثير اعجابهم) ، وفي الواقع إن الهانس سحقوا ، في ٣٧٤ ، الاوستروغوث les ostrogothes على الدينيستر ، ودفعوا قبائل جرمانية أخرى على الهجرة العاجلة بدءاً من السهل الهنغاري ، والعديد من مقاطعات الامبراطورية الرومانية . ولقد نجح آتيلا في اكتساح قسم كبير من أوروبا الوسطى ، ولكنه بعد زمن قصير من موته (٤٥٣) انقرض الهانس المنقسمون والحائرون من التاريخ . كذلك فإن الامبراطورية المنغولية الضخمة التي خلقها جنكيز خان في عشرين سنة (١٢٠٦-١٢٢٧) والمتنامية بواسطة خلفائه (أوروبا الشمالية بعد ١٢٤١ ، الفرس ، العراق ، والاناضول بعد ١٢٥٨ ، الصين في ١٢٧٩) تنحدر بعد الغزوة الفاشلة لليابان سنة ١٢٨١ .

وكان التركي تيمورلنك (١٣٦٠-١٤٠٤) المعتبر خليفة لجنكيز خان ، آخر الفاتحين الكبار المستوحي طريقة المفترسين .

ولنحدد بدقة ان كل هؤلاء (البرابرة) المتدفقة من السهوب في وسط آسيا . لم تكن تجهل بعض الابداعات الثقافية والدينية للشعوب المتحضرة ، ومن جهة أخرى ، وكما سنرى ، فإن اجدادهم الصيادون مما قبل التاريخ والرعاة البدو ، قد افادوا هم ايضاً من الاكتشافات المنجزة في بقاع مختلفة من آسيا الجنوبية . إن الشعوب الناطقة باللغة الآلتية شغلت اقليما واسعا جداً : سيبيريا ، اقليم الغولغا ، آسيا الوسطى ، الشمال والشمال الشرقي للصين ، منغوليا وتركيا . وتميز ثلاثة فروع اساسية :

(١) الترك العامون ويغور ، وشاغاطاي

(٢) المنغول (كلموك ، مونغول ، بوريا)

(٣) الماندشو- تونغور^(١) .

وقد كانت السهوب حول جبال الألبالي وشنغهاي بين التبت والصين ، الممتدة للشمال حتى التايجا السiberية هي على الأرجح الموطن البدائي للشعوب الآلتية .

وإن الجماعات الألطية المختلفة ، والشعوب الفنلندية - الاوغرية التي كانت تعيش على الصيد البري والبحري في المقاطعات الشمالية، وعلى الترحال الرعوي في آسيا الوسطى وبمعيار متواضع على الزراعة في الإقليم الجنوبي ، كانت منذ ما قبل التاريخ قد أغنت اوراسيا الشمالية ، بثقافتها ، وصناعاتها وافكارها الدينية التي وصلت إليها من الجنوب . وتربية غزال الرنة في المقاطعات السيبيرية استوحي من تدجين الحصان الحاصل على ما يرجح ، في السهوب . كذلك فإن المراكز التجارية مما قبل التاريخ (على سبيل المثال ، مركز جزيرة الغزلان على بحيرة أونيجا ، والتعدين في (بيرم) لعبت دوراً هاماً في اقامة ثقافات سيبيرية . وتباعاً فإن آسيا الوسطى وآسيا الشمالية تلقيتا تدريجياً افكاراً دينية من أصل ميزوبوتامي وايراني وصيني وهندي وتبتي (لامية) ؛ ومسيحية نسطورية ومأنوية ، والتي يجب ان يضاف إليها تأثيرات الاسلام ، ومن وقت قريب ، المسيحية الروسية الارثوذكسية .

مع ذلك يجب التأكيد ، بأن هذه التأثيرات لم تنجح دوماً بتغيير البنى الدينية الأصولية بشكل ملموس . وإن بعض المعتقدات والاعراف المميزة للصيادين من العصور الحجرية المتأخرة مازالت تعيش في اوراسيا الشمالية . ونتعرف على الاساطير والمفاهيم الدينية القديمة ، في عدد من الحالات ، تحت قناع لامبي واسلامي ومسيحي^(٢) .

وبالنتيجة ، ورغم مختلف التركيبات ، يمكن تمييز بعض المفاهيم المميزة : الاعتقاد باله سماوي ، حاكم البشرية ، الذي هو نموذج مميز للنشكونية ، والتضامن الصوفي مع الحيوانات ، والشامانية . ومع ذلك . فإن الفائدة الكبرى لديانات اسيا الوسطى والشمالية تقوم بخاصة في ابداعاتها لبنية توليفية ..

٢٤٢ - تانجري ، (الاله - السماء)

من بين كل آلهة الشعوب الألطية ، فإن الأكثر أهمية والمعروف بشكل افضل هو بالتأكيد (تانجري) عند المغول والكلموكس ، و/تينجري/ عند البوريات و/تانجيرا/

عند التاتار - الفولغا و/تينجي / عند البلطيق . ولفظ تانجري الذي يدل على «اله» و«ساء» ينتمي للمفردات اللغوية التركية والمنغولية . موجود «منذ ما قبل تاريخ آسيا ، وعرف قدراً متفرداً . وحقل امتداده في الزمان ، وفي المكان وعبر الحضارات غير محدود : يعرف منذ أكثر من ألفي سنة ؛ إنه استعمل عبر القارة الآسيوية بكاملها ، من حدود الصين إلى جنوب روسيا ، ومن كامتشاتكا لبحر مرمرية ؛ لقد استخدمه «الوثنيون» الآلثيون لتعيين آلهتهم وربهم الأعلى ، وقد احتفظ به في كل الأديان العالمية الكبرى حتى أنه عبر تاريخها احتضنه الترك والمنغول تبعاً (مسيحية - مانوية اسلام الخ) . إن كلمة تانجري مستعملة لتعبر عن الآله ، بصفته الها سبواً ، فقد تأكد لدى الهوينغ - نو في القرن الثاني ق.م ان النصوص تظهر وكأنه «سام» (اوزا) «أبيض وأسود» (كوك) «خالد» (مونجكا) «متمتع بالقوة» (كيوك)^(٤) .

وقد دَوّن في واحد من النقوش الباليوتوركية Paléoturques للأرخون de l'orkhon (القرن السابع - الثامن) : «عندما صنعت السماء الزرقاء في العلى ، والأرض المظلمة في الأسفل صنع أبناء الانسان (= البشرية) بين الاثنين»^(٥) . ويمكن تفسير الفصل بين السماء والأرض كعمل نشكوني ولكنه لا يوجد سوى اشارات للنشكونية بمعنى الكلمة ، صانعها هو تانجري غير ان تاتار الأكطاي والياكوت يشيرون إلى إلههم «كخالق» ، وحسب البوريات فإن الآلهة (تينجري) خلقت الانسان ، وان هذا قد عاش سعيداً حتى الفترة التي نشرت فيها الأرواح الشريرة المرض والموت على الأرض .

وعلى كل حال ، فإن النظام الكوني ، وبالتالي تنظيم العالم والمجتمع ، ومصير البشرية يتعلق جميعه بتانجري . وبالنتيجة فإن على كل ملك ان يتلقى تنصيبه من السماء . ويقرأ في نقوش الاورخون : «تانجري الذي رفع والدي الخان .. تانجري الذي اعطى الامبراطورية .. هذا التانجري أقامني أنا كخان ...»^(٦) وعليه فإن الخان هو ابن السماء حسب النموذج الصيني (ف ١٢٨ع) . إن الملك هو مبعوث أو ممثل السماء - الآله . وعبادة تانجري مدعومة في كل عظمتها وفي كل كمالها من قبل الملك «عندما تسود الفوضى ، وعندما تتفرق القبائل ، عندما لا توجد بعد امبراطورية (كما في ايامنا) فإن تانجري ، كما سبق أن أشار يرمي لأن يصبح إلهاً مفارقاً un deus otiosus ، أن يترك مكانه لآلهة سبواية ثانوية أوليتفجر إلى اجزاء (تعدد التانجري ...) . . عندما لا

يوجد حاكم بعد ، فإن السماء - الاله سينسى ببطء ، وتتقوى العبادة الشعبية لتتجه وتأخذ المكان الأول . (يعرف المونغول ٩٩ تينجري ، والاكثرية منها ، لها اسماء ووظائف محددة) . فالتحول من إله سهاوي وحاكم إلى اله مفارق ظاهرة مؤكدة عالميا . وفي حالة تانجري ، فإن تعدده أو ابداله بآلهة أخرى يبدو أنه قد تبعه نفجر الامبراطورية غير ان العملية ذاتها تحققت في مالا يحصى من النصوص التاريخية ..

ليس للتانجري معابد ومن المشكوك فيه ان يكون قد ابرز بشكل تمثال . وفي مناقشة جنكينز/خان الشهيرة مع امام بخارى قال له : «ان العالم بكامله هو بيت الله ، فلماذا اذن تعيين مكان خاص (على سبيل المثال - مكة) لكي يحج إليه ؟» . وكما في أي مكان آخر ، فإن الاله السهاوي للالطين هو كلي القدرة . ويقول المونغول عندما يحلفون : «لتعلم السماء ...» وكان الرؤساء المحاربون يصعدون لقمة الجبال (صورة مميزة لمركز العالم) لكي يصلون للاله ، أو ، قبل الغزوات ، كانوا يعتزلون في خيامهم احيانا، لثلاثة أيام، كما فعل جنكينز خان ، بينما كان الجيش يدعو السماء . وكان تانجري يظهر عدم رضاه بعلامات كونية : مذنبات ، مجاعات - طوفانات . وكانت توجه إليه الصلوات (على سبيل المثال لدى المونغول والبلطيار الخ) وكان يضحي إليه بأحصنة ، وثيران وخراف . وقد تأكدت الأضحية السهاوية عالميا ، وبخاصة في حالات المصائب والكوارث الطبيعية . غير انه في آسيا الوسطى والشمالية ، كما في أي مكان آخر ، فإن تعدد التانجري ، متبوع بتمثيلها بآلهة أخرى (العاصفة ، الخصب الكوني الخ ..) . وهكذا ، فإن الاله اوغان Bui ugan (الكبير جدا) قد أبدل في الألطاي بتانجري كيزكان Kasekan (الرحيم سيد السماء) وإليه تقدم الأضحية بحصان^(٩) . ويميز التباعد والسلبية آلهة سهاوية أخرى ؛ وهكذا فإن البوغا Buga «(سها) (عالم)» للطنجوز des Tongaues لا يتلقى عبادة ، فهو كلي القدرة ، ولكنه لا يتدخل في الأعمال البشرية ، انه لا يعاقب حتي المذنبين . فأورون اي توجون Urun aitojon لليقوط Yakoutes يسكن السماء السابعة ، ويدير كل شيء ولكنه لا يفعل سوى الخير أي لا يعاقب أبدا^(١٠) .

٢٤٣ - بنية العالم

إن علم الكون والنشكونية للشعوب الآلتية تقدم فائدة كبرى . فمن جهة ،

تحافظ على عناصر قديمة ، مؤكدة في عدد من الثقافات التقليدية ، ومن جهة أخرى ، فان الأشكال التي نقلت إلينا فيها ، تدل على عملية توليفية طويلة من التمثل وإعادة التفسير لبعض الافكار المتلقاة من الخارج . واكثر من هذا : ان علم الكون لا يلدو دأماً متضامنا مع الأسطورة النشكونية ، الاكثر انتشاراً في آسيا .

وبالتأكيد يجب ان يؤخذ في الحسبان التنافر للوثائق المتوفرة : فالأسطورة النشكونية قد دارت في الأوساط الشعبية - وستحقق من دلالة هذا فيما سيأتي .

ففي آسيا ، كما في كثير من أقاليم العالم . كانت بنية العالم مفهومة كما لو أن لهذا الكون ثلاث طبقات - سماء - ارض - جحيم - مرتبطة فيما بينها بمحور أو قطب Axe مركزي . وهذا القطب يمر «بفتحة» ، «بثقب» ؛ ومن هذا الثقب تنزل الآلهة على الأرض ، وان الموتى هم في الاقاليم تحت الأرض ؛ وكذلك فإن روح الشامان تستطيع من هنا ان تطير أو تنزل خارجاً من اسفارها السماوية أو الجحيمية . فالعوالم الثلاثة - حيث تسكن الآلهة ، والبشر وحاكم الجحيم مع الموتى - متخيلة اذن كـ ثلاث صفائح متوضعة فوق بعضها .^(١١)

وان عدداً من الشعوب الآثية تخيلت السماء كخيمة : المجرة (درب اللبانة) هي درزها (خياطتها) ؛ والنجوم ، هي الثقوب من أجل الضوء . ومن وقت لآخر ، تفتح الآلهة الخيمة لكي تنظر إلى الأرض ، وهؤلاء هم النيازك les météores . والسماء هي كذلك مدركة كغطاء ، ويحصل أن لا تكون مثبتة بشكل كامل على اطراف الأرض ، وعندئذ تتدخل رياح كبيرة بواسطة الفجوة ، وهكذا عبر هذا الفضاء المختصر تستطيع الابطال والكائنات الاخرى المتميزة الانزلاق والدخول للسماء . وفي وسط السماء تشع نجمة القطب ، التي تثبت الخيمة السماوية كوتد وهي تسمى عمود الذهب (بوريات ، مونغول الخ) ؛ وعمود الحديد (تر سيبيريا الخ) ، والعمود الشمسي (التيليت الخ)^(١٢) .

وكما يجب أن نتوقع ، فإن هذه الكوزمولوجيا وجدت جواباً في الأصغر microcosme المسكون من قبل البشر . فقطب العالم l'axe du monde . تمثل بطريقة مادية ، إن بواسطة الاعمدة التي تسند المسكن ، وان تحت شكل اوتاد منغزلة ، مساة (اعمدة العالم) وعندما تغير شكل البيت «من الخيمة إلى سقف مخروطي ، وانتقل إلى

خيمة اللباد ryaurte فإن الوظيفة الاسطورية - الدينية للعمود قد تطورت لفتحة عليا حيث يخرج منها الدخان . وهذه الفتحة تناسب الثقب المماثل «لبيت السماء» المشابه «للثقب» الذي صنعه نجمة القطب في القبة السماوية ، وهذا الرمز منتشر جداً^(١٣) . والفكرة الكامنة في ذلك هي الاعتقاد بإمكانية الاتصال المباشر مع السماء . فعلى المستوى الأكبر macrosomique ، هذا الاتصال ممثل بقطب (عمود ، جبل شجرة الخ) ، وعلى المستوى الأصغر microsomique ، مستدل عليه بالعمود المركزي للبيت أو الفتحة العليا للخيمة ؛ الأمر الذي يعني ان كل مسكن بشري مطروح في (وسط العالم) أو ان كل مذهب ، خيمة أو منزل يجعل ممكناً الانفصال للمستوى ومنه الاتصال مع الآلهة ، لا بل (في حال الشامان) الصعود للسماء .

وكما لاحظنا في العديد من المناسبات ، فإن الصورة الاسطورية (لمركز العالم) الأكثر انتشاراً (فيما سلف مما قبل التاريخ) (ف. ٤٧) هي الجبل الكوني وشجرة العالم . ونصادف كذلك هذه الصور لدى الشعوب الألطية وفي كل مكان من آسيا . فتاتار آلتاي يتخيلون ان بي اولغان Baiulgan في وسط السماء ، جالساً على جبل من ذهب . وتاتار آباكان يسمونه (جبل الحديد) وفي الواقع ان المونغول ، والبوريات والكالموك يعرفونه تحت الاسم سوبو ، سومور او سومر ، الأمر الذي يخالف بوضوح التأثير الهندي (= ميرو ، الجبل الاسطوري) ولا يستدعي بالضرورة انهم جهلوا هذا الزمن القديم والعالم^(١٤) . أما بالنسبة لشجرة العالم ، فقد تأكدت في أي مكان من آسيا ولعبت دوراً هاماً في الشامانية . وشجرة العالم ، كونيا ، ترتفع في وسط الأرض في محلة «سرتها» وتلامس أغصانها قصر بي اولغان . والشجرة تربط الأقاليم الكونية الثلاثة ، لأن جذورها تنغرس في عمق الأرض . وحسب المونغول والبوريات ، تتغذى الآلهة تانجري من ثمار الشجرة . وتعتقد شعوباً أخرى ، أن أرواح الأولاد ، قبل الولادة ، تستريح كعصافير صغيرة على أغصان الشجرة الكونية ، وهناك يذهب الشامان للبحث عنها^(١٥) . والشامان يهتم بإنشاء طلبة من خشب شجرة العالم . وأمام خيمته (يورت) وداخلها توجد بقايا من هذه الشجرة ، وهو يرسمها أيضاً على طبله ، وأكثر من هذا ، كما سنرى (ف٢٤٥) فإن الشامان الآلتي بتسلقه شجرة السندر الطوقسية يتسلق بالفعل الشجرة الكونية ...

إن اسطورة التشكونية المعروفة أكثر بين شعوب آسيا الوسطى والشمالية هي اسطورة منتشرة عالمياً تقريباً ، مع انها تحت مظاهر متباينة إلى حد ما . وان قدمها (ف ٧ع) وانتشارها البارز - خارج آسيا ، قد تأكد في الهند الآرية وما قبل الآرية ، وفي آسيا جنوب - شرق وفي اميركا الشمالية - وان التغيرات المتعددة التي تلقتها عبر العصور جعلت من هذه الاسطورة واحدة من المسائل الأكثر تشويقاً بالنسبة لمؤرخ الأديان . ولكي نبرز الخصائص المميزة للترجمات الأسبوية - الوسطى (والترجمات لاوروبا الشرقية) (ف ٢٥٠ع) . نبرز بدتياً ما يمكن افتراضه بأنه الأشكال الأولى للأسطورة . فالمشهد دائماً هو ذاته : المياه الكبرى قبل الخلق . والسيناريو يتضمن مفارقات : (١) الاله ، تحت شكل حيوان هو نفسه يغطس في عمق اللجة بهدف استخراج قليل من الطين ، الطمي ليصنع العالم . (٢) أو انه يرسل حيواناً برمائياً (طائر مائي) (٣) أو يغطس كائناً (أحياناً خلد الماء ، الذي كان يجهل حتى ذلك الحين الوجود والذي يتضح ضده فيما بعد . وقد تأكدت الترجمة الأولى في الهندوسية «اله كبير - براجاباتي - براهمان ، فيشنو - ممسوخاً بشكل خنزير بري ، يتزل في أعماق المياه ويرفع الأرض (ر. جزء ١) ، والترجمة الثانية منتشرة جداً (منذ ما قبل الآرية ، آسام ، اميركا الشمالية الخ) ونشير بتأكيد إلى أنه في هذه الترجمة لا يوجد اي تعارض بين الحيوانات الغاطسة والخالق) ؛ وليس سوى في آسيا وأوروبا الشرقية ان الغاطس النشكوني يتطور في اتجاه ثنائي .

ولدى مختلف الشعوب التركية يفاجأ أحياناً باختلاف هاتين الترجمتين الاخيرتين . فتشمل اسطورة بورياتية سومبال - بوركان واقفاً على المحيط البدئي . ويراقب طائراً مائياً ويطلب إليه ان يغوص في الاعماق . ومن الطين الذي ينقله الطير ، يصنع الأرض . وحسب روايات اخرى مختلفة ، يصنع بوركان الانسان فيما بعد ، ودائماً من الطين^(١٦) . وفي اسطورة لدى التاتار أن لبيد (بجع ابيض) يغطس بناء على أمر الاله ويحمل له قليلاً من التراب في منقاره . ومنه صنع الاله الأرض ، مسطحة وزلقة ، وانه فيما بعد من وصول الشيطان يصنع المستنقعات^(١٧) .

وحسب تاتار اللطاي ، في البدء ، حيث لم يكن يوجد سوى الماء ، سبح الاله
و«الانسان» سوية تحت شكل أوزات سوداء . فأرسله الاله ليبحث عن الطمي . ولكن
«الانسان» احتفظ بقليل منه في فمه ، وعندما أخذت الأرض في النمو ، بدأ الطمي
يتفخ . فاضطر لبصقه ، وبهذا تولدت المستنقعات . فقال له الاله : (لقد اذنبت)
وسيكون اتباعك أشرار . وان اتباعي سيكونون انقياء ؛ وسيرون الشمس . والنور
وسأدعى كوريستان (= اوهرمازد) ، وانت ستكون ايرليك^(١٨) . ان التوليفة مع
الأفكار الايرانية واضحة ، ولكن السيناريو للغاطس التشكوني قد حوفظ عليها بكاملها
تقريباً . وان التماهي بين «الانسان» وسيد الجحيم «ايرليك خان» تفسر بواقع أن
الانسان الأول ، الجدد الأسطوري ، كان كذلك الرجل الأول ، والجدد الأسطوري ،
كان أيضاً أول ميت «وهي اسطورة مؤكدة عليها بشكل واسع في العالم» .

إن الروايات المختلفة لدى المنغول هي أيضاً أكثر تعقيداً . فأوسيرفاني Ocirvani
(= فجر اباني) وتساكان - سوكورني نزلوا من السماء على البحر الأولي . فطلب
اوسيرفاني من رفيقه ان يغطس ويحمل له الطمي . وبعد ان نشر الطمي على سلحفاة ،
نام الاثنان . فوصل الشيطان سلموس الذي جهد لاغراقهما ولكنه بمقدار ما كان يحركهما
كانت الأرض تكبر . وحسب رواية أخرى ان اوسرمان ، الذي يعيش في السماء ، اراد
خلق الأرض ويبحث عن رفيق ، فوجده في تساجان - سكورتني ، وارسله ليفتش عن
الغضار باسمه . ولكن هذا تبجح قائلاً : «بدوني ، لن تستطيع الحصول على الغضار»
وعندئذ سألت المادة من بين اصابعه . وغاطساً للمرة الثانية ، أخذ الطين هذه المرة باسم
اوسرمان . وبعد الخلق عاش سولموس الذي طالب بجزء من الأرض ، تماماً بما يستطيع
ان يلمسه بطرف عصاه . وضرب سولموس التراب بعصاه فظهرت الافاعي^(١٩) . وهذه
الاسطورة تضع باعشرين ثنائيتين مختلفتين جنباً إلى جنب :

- ١ - تماهي الضد مع بطل الرواية الغاطس .
 - ٢ - الشرير الذي يصل من حيث لا يعرف من أين ، في حين أن الأرض كانت
قد خلقت سابقاً ، فيطلب جزءاً منها ، أو أنه سيسعى لخرابها .
- إن الغطس التشكوني قد تأكد كذلك لدى الفنلنديين الاغريين ولدى السلاف
الغربيين وفي اوروبا الشرقية وسنعود اذن لتفحص الفرضيات المتقدمة حول الاسطورة

وحول أصلها (ف ٢٥٠ع) ونكتفي هنا بالتأكيد على انه بدءاً من المظهر الثالث - عندما غطس الخالق مع مساعدين بشر - تكونت الامكانيات المأساوية ، وفي اللحظة الأخيرة ، «ثنائيات» لغطس نشكوني . وان انقلابات غطس وعمل نشكوني تلاه أثرت منذئذ لتفسير نقصان الخلق ، كذلك الأمر ظهور الموت وظهور الجبال والمستنقعات ، و«كولادة» الشيطان وكذلك وجود الشر ، وكما ان الخالق ليس هو نفسه الذي غطس لجلب مادة الأرض ، ولكن الحاجة اكملت من قبل مساعديه او من قبل أحد خدعه ، فقد أصبح من الممكن ان يدخل في هذا الاسطورة ، بالفعل ويفضل المشهد ، عنصر من التبعية أو من العداوة والتعارض . ان التفسير «الثنائي» للخلق قد جعل ممكناً بواسطة التحول المتنامي لمساعد الاله في «خادمه» ، «رفيقه» وفي النهاية «خصمه» (٢٠) . وستفحص فيما بعد أهمية هذا التفسير الثنائي في الالهيات الشعبية (ف ٢٥٠ ع) .

وتبرز الاساطير حول خلق الانسان ايضاً الدور المحزن للعدو أو الضد . فكما في كثير من الميثولوجيات ، يكون الله الانسان من الغضار وينفخ فيه الروح . ولكن السيناريو في آسيا الوسطى والشمالية ، يتطلب مشهداً مأساوياً : فبعد ان صنع اجساد البشر الأول ، ترك الاله كلباً لحمايتها وصعد للسماء من أجل ان يفتش لها عن روح . واثناء غيابه يحضر ايرليك ، ويعرضه على الكلب (الذي كان عارياً حتى هذه اللحظة) جزء صوف ، فيما اذا دعاه يقترب ، لوث الاجساد بلعابه .

ويعتقد البوريات انه بلون توسيخ شولم (الضد) فإن البشرية لم تكن تعرف الامراض والموت . وحسب مجموعة روايات أخرى آلبية ، ان ايرليك ، مستفيداً من غياب الاله ، ومضللاً الكلب ، أحيا الاجساد (٢١) . والمقصود في هذه الحالة الاخيرة ، جهد بائس ، ليس من أجل اعفاء أو حل الاله من وجود الأمراض وميتة الانسان فحسب ، وانما من شقاوة الروح البشرية ايضاً .

٢٤٥ - الشامان والتلقين الشاماني

إله سماوي حاكم أصبح إلهاً مفارقاً deusotiosus أو يتكاثر إلى مالانهاية (تانجري وال ٩٩ تينجري) ؛ إله خالق ، ولكن أعماله (العالم والانسان) مفسدة بالتدخل الماكر

من ضد شيطاني ؛ عرضية الروح البشرية ، الأمراض والموت المثارة بالشياطين والأرواح الشريرة ، عالم مثلث - سماء ، ارض ، جحيم - يدخل جغرافيا ، اسطورية أحيانا ومعقدة جداً (تعدد المستويات السبائية والجحيمية الطالبة معرفة الطرق الموصلة للسماء أو العالم الآخر ويكفي التذكير بهذه العناصر الجوهرية للتحقق من الدور البارز للشامان في ديانات اسيا الوسطى والشمالية . وعليه ، فإن الشامان هو في آن واحد لاهوتي وشيطاني ، متخصص بالانتشاء ورجل طبيب مساعد في الصيد ، حامي الجماعة والقطعان محرك نفسي ، وفي بعض المجتمعات ، مثقف وشاعر .

وما يقصد بالعبارة (شامانية) هو ظاهرة دينية قديمة (يبدو التأكيد عليها منذ العصر الحجري) وممتشرة عالمياً (بالأحرى يوجد استثناء في افريقيا) . ولكن الشامانية في المعنى الدقيق للمصطلح ، تسود بخاصة في اسيا الوسطى والشمالية وفي الاقاليم الشمالية . والشامانية تعرضت دائماً في آسيا لتأثيرات كبرى (ايرانية ، ميزوبوتامية ، بوذية ، لامية) دون ان تفقد ابداً بنيتها الخاصة .

ان القوى المتعددة للشامان هي النتيجة لتجاربه التلقينية . وانه بفضل التجارب اثناء تلقينه يقوم شامان المستقبل عرضية الروح البشرية ويتعلم الوسائل لمنعها أو للدفاع عنها ، كذلك فهو يعرف بالتجربة المعاناة المثارة بمختلف انواع المرض وينجح في تعيين نوع فاعليها ، وهو يتحمل موتاً طقوسياً ، ينزل إلى الجحيم وأحيانا يصعد إلى السماء . وباختصار ، ان كل قدرات الشامان تتعلق بتجاربه ومعارفه للنظام «الروحي» ؛ لقد نجح في التآلف مع كل «الأرواح» : ارواح الاحياء وارواح الأموات ، ومع الآلهة والشياطين ، ومع مالا يحصى من الوجوه - الغير مرئية بالنسبة لبقية البشر - التي تسكن الأقطار الكونية الثلاثة .

ويصبح المرء شامانا ، (١) بالهام عفوي (الدعوة أو الاختيار) (٢) بالانتقال الارثي للصنعة الشامانية (٣) بقرار شخصي أو في بعض الحالات النادرة بارادة القبيلة . الا انه مهما كانت طريقة الاختيار ، فإنه لا يعترف به شامانا الا بعد تلقيه تعليماً مزدوجاً : (١) من نظام وجدي (احلام ، رؤى ، ارتعاشات الخ) (٢) ومن نظام تقليدي (صياغات شامانية ، اسماء ووظيفة الارواح ، ميثولوجيا ، وعلم انساب القبيلة واللغة السرية

الخ). وهذا التعليم المزدوج ، الذي هو من مهمة الأرواح والمعلمين القدامى الشامانيين ، يشكل التلقي الذي يمكن ان يكون علنياً ، وغياب حفلة التلقين لا يقتضي البتة غياب التلقي : فهذا يمكن له تماماً ان يجري في الحلم أو في التجربة الوجدية للتلميذ . وتناذر الارشادات الصوفية يتم التعارف عليها بسهولة . وإن شامان المستقبل يتفرد بسلوك غريب ، يصبح حالماً ، ويبحث عن العزلة ، ويحب التجول في الغابات أو المحلات المقفرة . له تبصرات رؤوية ، ويغني اثناء النوم ، الخ . . وأحياناً تتميز هذه الفترة من الحضانة أو الإعداد بظواهر أو أمارات حادة : فعند جماعة الياكوت يحصل ان يصبح الشاب عصبي المزاج ويفقد المعرفة بسهولة ، ويلتجئ للغابات ، ويتغذى بقشور الاشجار ، ويلقى بنفسه في الماء والنار . ويخرج نفسه بالسكاكين^(٢٠) .

حتى عندما يتعلق الامر بالشامانية الارثية ، فإن انتخاب شامان المستقبل يسبقه تغيير في السلوك : ارواح اجداد الشامان تختار شاباً من الاسرة ، وهذا يصبح غائباً وحالماً . ومولعاً بحاجته للعزلة ، وله رؤى تنبؤية وبالمناسبة ، يتحمل المهاجمات التي تتركه بلون وعي . واثناء هذه الفترة يعتقد البورياشي ، ان الروح حملت بالارواح ، واستقبلت في قصر الآلهة ، وانها قد ثقفت من قبل اجداد الشامان باسرار الصنعة ، وأشكال واسماء الآلهة ، واسماء وعقيدة الأرواح الخ . . وبعد هذا التلقي فقط تكمل الروح الجسد^(٢٣) .

ويقتضي الارشاد الصوفي على الغالب ازمة عميقة تلعب دور التلقين . وعليه فكل مسارة تلقينية ، من أي نوع كانت ، تلائم مرحلة من الفرز وعدداً من التجارب والتعذيبات . ان المرض المثار لدى شامان المستقبل بالشعور المغرق بالغم الذي كان «اختاره» هو بهذا العمل ذاته مقوم في «مرض تلقيني مساري» . والعرضية والعزلة المتكشفتين بكل مرض ، هما في هذه الحالة الدقيقة : متقلبتين برمزية الموت الصوفي : لأن ، اعتلاء «الانتخاب» المافوق ، الطبيعي يترجم بالشعور المتروك للقوى الالهية أو الشيطانية ، أي المنذور لموت وشيك . و«جنون» الشامانيين المقبلين ، و«اضطرابهم النفسي» يعني ان الانسان المدنس هو على وشك ان «يذوب» وان شخصية جديدة هي على أهبة أن تولد .

وفي العديد من المرات تتبع أماره (المرض) عن قرب بالغ الطقس الكلاسيكي

للتلقين . فعذابات «المختار» تشبه في كل نقطة منها العذابات المسارية ؛ وتما كما في طقوس التطهير ، فإن التلميذ المبتدي يقتل من قبل الشياطين - «معلمي التلقين» ، وشامان المستقبل يرى مقطعاً ومجزأاً من قبل «شياطين المرض» . والموت الطقوسي مجرب من قبل المريض تحت شكل هبوط للجحيم :

يشهد في الحلم تقطيع نفسه إلى قطع ، ويرى الشياطين وهي تجتث له رأسه ، وتقلع عينيه الخ . . وحسب شعب الياقوت ، تحمل الأرواح شامان المستقبل إلى الجحيم وتجسه ثلاث سنوات في منزل . وهناك يتحمل تلقينه : فتقطع الأرواح رأسه ، وتدعه جانباً (لأن على التلميذ ان يشاهد بعينه الخاصتين عملية تقطيعه) ؛ وتقطعه إلى أجزاء صغيرة توزع بالتالي لأرواح مختلف الأمراض ، وبهذا الشرط فقط ، سيحصل الشامان المقبل على قدرة الشفاء .

وتغطفى العظام بالتالي بلحم طري وفي بعض الحالات يعطى دماً جديداً . وقد روى شامانيون آخرون بأنهم ، أثناء مرضهم المساري ، قد ثق بهم اجداد الشامانيين بالاسهم ، وانهم قطعوا لحمهم وانتزعوا عظامهم لتنظيفها ، وعلى الأقل اذا لم يفتحوا بطنهم ، أكلوا لحمهم وشربوا دمهم ؛ أو انهم اخطأوا لهم الجسد وحلحوا (طرقوا) رأسهم على سندان . وخلال هذا الوقت يجسمون بدون وعي ، شبه فاقد الحياة من ثلاثة إلى تسعة ايام ، في الخيمة أو محل منزول . ويبدو بعضهم وكأنه انقطع عن التنفس ، ولم يفلح بدفنه . واخيراً ، أعيد احياءهم ، وانما مع جسد متجدد بالكلية ، ومع منحة (الشومنة) - اي ان يصبح شامانا^(٢٤) .

وبصورة عامة ، عندما يجسم التلميذ بدون شعور في الخيمة ، تستدعي الاسرة شامانا ، وهذا الأخير هو الذي سيكون له دور المعلم . وفي حالات أخرى ، بعد «تقطيعه التلقيني» يذهب التلميذ للبحث عن معلم بهدف تعلم اسرار الصنعة . هذا وان التعليم هو ذي طبيعة باطنية ، ويتلقى احياناً في حالة انتشاء ؛ وبعبارة أخرى ، فإن المعلم - الشامان - يعلم تلميذه بنفس طريقة الشياطين والأرواح . ولدي الياقوت ، يأخذ المعلم معه روج التلميذ في رحلة طويلة وجدانية . فيبدأ بتسلق جبل ؛ ومن الأعلى هنالك ، يظهر المعلم للتلميذ مفارق الطريق حيث تصعد شعاب أخرى نحو رؤوس الجبال : إنها هنالك تستقر الأمراض التي تعذب البشر . ويقود المعلم بعد ذلك التلميذ

إلى منزل . وهناك يرتديان الألبسة الشامانية ويشومنان مجتمعين . فيكشف له المعلم كيف يعرف ويشفي الامراض التي تهاجم مختلف اجزاء الجسم . واخيراً ، يقود تلميذ . إلى العالم الأعلى ، نحو الأرواح السماوية . ويتصرف الشامان الجديد منذئذ «بجسد متلقى» ويستطيع ممارسة مهته^(٢٥) .

كذلك يوجد حفلات عامة للتلقين ، وبخاصة لدى البوريات والجولد والألطين والثونغوز والمانشو . وتصنف حفلات البوريات بين الأكثر أهمية . وتقضي الشعيرة الأساسية صعوداً . فيثبت في الخيمة Youste شجرة سنذر صلبة ، جذورها في الموقد ورأسها خارج من ثقب الدخان . وهذه الشجرة تسمى «حارس الباب» ، لأنها تفتح للشامان مدخل السماء . ويتسلق المتدرب حتى الشجرة Boulcan ، ويخروجه من ثقب الدخان ، يصرخ بقوة ليستدعي مساعدة الآلهة . وبعدئذ ، يتجه الحفل بكامله بطواف حول محل بعيد عن القرية ، حيث كان قد غرس مساء عدد كبير من اشجار السنذر Boulcan من أجل الحفلة ، وبالقرب من شجرة ، يضحى بتيس ، فيدهن المتدرب ، وهو عاري الجذع ، بالدم حتى رأسه وعينييه واذنيه ، بينما يدق الشامانيون الآخرون على الطبل .

ويتسلق المعلم - الشامان عندئذ على شجرة ، ويجري تسعة جزّات (جروح) في قمته . ويمتطي المتدرب بدوره شجرة ويتبعه شامانيون آخرون يسقطون جميعاً - أو يتظاهرون بالسقوط - بانتشاء . وحسب مصدر معلومات ، على المرشح ان يتسلق تسعة شجرات ، والتي هي كالحزات التسعة ترمز للسماوات التسعة^(٢٦) .

والذي يستخلص من هذا الطقوس التلقيني ، ان المتدرب الشامان مهتم بالذهاب إلى السماء لكي يكرّس . وكما سنرى ، فإن الصعود بواسطة شجرة أو عمود يشكل كذلك الطقوس الأساسي لاجتماعات الشامانات الآلثية . فشجرة السنذر أو العمود يتمثلان بالشجرة أو العمود اللذان يتصبان في وسط العالم ويوصلان الأقاليم الكونية الثلاثة في القمة ، وان الشجرة الشامانية لها كل الاحترامات التي هي للشجرة الكونية .

٢٤٦ - اساطير وشعائر شامانية

إن الاساطير حول أصل الشامان تبرز فكرتين ذات دلالة عالية : (١) أول شامان

كان مخلوقاً من قبل الاله (أو الآلهة السابوية) ؛ ٢) ولكنه بسبب تعاسته حددت الآلهة قدراته . فحسب البوريات ، قررت التينجري ان تعطي شامانا واحداً للبشرية لكي تكافح ضد المرض والموت، المدخلين عن طريق الارواح الشريرة. وقد أرسلت النسر ، الذي رأى امرأة نائمة فتعاطى معها . وولدت المرأة ولداً هو الذي أصبح «الشامان الأول» . ويشاركهم الياقوت ذات العقيدة . ولكن النسر يحمل ايضاً اسم الكائن الأعلى آجي (الخالق) أو آجي توجون (خالق النور) . وابناء آجي يمثلون كارواح - طيور موضوعة على اغصان شجرة العالم ؛ وفي القمة يوجد النسر ذي الرأسين ، الذي يشخص على الأرجح آجي توجون ذاته^(٢٧) .

إن أجداد الشامان - الذين تلعب ارواحهم دوراً في الاختيار والتكريس للمدرب - تتحلر من هذا (الشامان الأول) المخلوق من قبل الكائن الأعلى على شكل نسر . مع ذلك ، فإن دور الاجداد في الشامانية الحالية هو دور معتبر من قبل البعض كانهطاط . وحسب سنة تقليدية بورياتية ، كان الشامانيون في الزمن القديم (ينالون) سلطتهم مباشرة من الأرواح السابوية ؛ وليس سوى في زمننا انهم يتلقونها من اجدادهم^(٢٨) .

وهذا الرأي يعكس العقيدة ، المؤكدة في أي مكان من آسيا وفي المناطق الشمالية ، لانهطاط الشامانية . وفي السابق ، كان (الشامانيون الأول) يطيطون حقيقة في الغيوم على (احصستهم) (أي على طبولهم) ؛ وهم يستطيعون اتخاذ أي شكل وصنع معجزات لا يستطيع اخلافهم الحاليون صنعها وهم غير مؤهلين لاستعادتها . ويفسر البوريات هذا الانهطاط بالزهو وسوء حظ أول شامان : عندما دخل في مزاحمة مع اله ، فقد انقص هذا قدرته بسهولة^(٢٩) . ويمكن كشف الرمز في هذه الاسطورة السببية بتأثير غير مباشر للمعتقدات الثنائية .

إن الشامان يلعب دوراً رئيسياً في الحياة الدينية للجماعة . ولكنه لا يملؤها ابداً . انه ليس مضحياً ، وفي الالتاي لا يتدخل في حفلات الولادة والزواج الا اذا حصل شيء غير مألوف ؛ على سبيل المثال ، في حالة العقم او الولادة الصعبة . وعلى العكس فإن الشامان يظهر غير ممكن ابداله في كل حفلة تمس بتجارب الروح البشرية مثل

الآتي : مرض (خسارة الروح أو تحللها بأرواح شريرة) والموت (عندما يتوجب ان تقاد الروح في عالم آخر) ، ومن جهة اخرى ، فإن الشامان في آسيا ، يستدعى عندما تنذر طرائد الصيد ، أو لأجل المهارات التقنية الوجدية (تنبؤ ، تبصر الخ) (٣١) .

ولقد اعطى (راودلف) تفصيل وصف أصبح كلاسيكياً للأضحية الألطية بالحصان . فهذه الأضحية يحتفل بها من وقت لآخر من قبل كل عائلة ، وتستمر الحفلة سهرتين أو ثلاث سهرات متتالية . ان القام le kam (= شامان) يقيم في المرح خيمته الجديدة ، ويضع في داخلها شجرة سنذر مجردة من اغصانها ومحززة بتسعة حزوز ، وبعد عدد من الشعائر الأولية ، يبارك الحصان ، وبمساعدة بعض الحضور ، يقتله وذلك بأن يكسر عموده الفقري بطريقة ان لا تسيل منه نقطة دم . وبعد اجراء تقدمات للاجداد والأرواح الواقية يحضر اللحم ويؤكل احتفالاً .

والجزء الثاني من الطقس ، الأكثر أهمية ، يجري في المساء التالي . يرتدي القام Kam ثيابه الشامانية ويستدعي عدداً من الأرواح . وهي حفلة طويلة ومعقدة تكتمل بالصعود ، ويجري الشامان حركات ، وهو يضرب على طبله صارخاً ، ويشير في حركاته انه يرتفع للسماء . وبانتشاء يصعد على الحزوز الأولى للشجرة ، داخلاً تبعاً في السماوات المختلفة ، حتى التاسعة ، أو ، اذا كان قويا حقاً ، حتى الثانية عشرة وحتى أعلى من ذلك . وعندما يدرك القمة التي تسمح له بها قوته ، يقف ويدعوي اولغان .

أنت ، اولغان ، خلقت كل البشر ...

انت ، اولغان ، وهبتنا جميعا القطعان !

لا تدعنا نسقط في الالم !!

اجعلنا نستطيع مقاومة الأشرار ،

لا ترينا ، ابدا كوموس Kormos (الروح الشريرة

لا تسلمنا إلى يديه .

لا تعاقب ذنوبي ...»

ويتلقى الشامان من بي اولغان فيما اذا كانت الاضحية مقبولة كما يتلقى تنبؤات عن الوقت وعن المحصول الجديد . وهذا المشهد يشير إلى ذروة (الانتشاء) : يتدحرج الشامان مجهداً . وبعد بعض الوقت يفرك عينيه ويبدو متيقظاً من نوم عميق ويحيي الاشخاص الحاضرين ، كما لو كان بعد طول غياب (٣٢) .

ان الصعود السهوي له مضاده في نزول الشامان إلى الجحيم . وهذه الحفلة هي اكثر صعوبة . فالنزول يمكن ان يكون عموديا ، أو أفقياً ، وبالتالي ثنائي عموديا (صعود متبوع بهبوط) . ففي الحالة الأولى ، يبدي الشامان انه ينزل السلام السبعة واحداً بعد الآخر ، أو الأقاليم الماتحت الارض المسماة بوداك Puduk (عقبات) . انه مصحوب باجداده وارواحهم المساعدة . ولكل (عقبة) مجتازة يصف قجلاً جديداً لما تحت الارض . وفي (العقبة) الثانية يظهر أنه يشير لصنجات معدنية ، وفي الخامسة ، يسمع الامواج وصفير الريح ؛ وأخيراً ، وفي السابعة ، يرى قصر ايرليك خان ، مبنيا من حجارة وغضار اسود محمي في كل أقسامه ، فيتلفظ الشامان بصلاة طويلة أمام ايرليك «حيث يذكر أيضاً بي اولغان (الذي في العلى) ؛ ويرجع بعدئذ إلى الخيمة ويروى للحضور نتائج سفره .

والنموذج الثاني من النزول - افقي ثم عمودي - هو اكثر تعقيداً واكثر مأساوية . فالشامان يمتطي جوادا عبر الصحارى والسهوب . ويتسلق جبل الحديد ، وبعد سفرة جديدة يصل امام «ثقب دخان الارض» المدخل الى العالم الآخر . وينزوله ، يصادف بحراً ، ويمتاز جسراً له عرض الشعرة (٣٣) . ويمر امام محل تعذيب المذنبين ، وبامتطائه مجدداً ، يصل امام ايرليك خان حيث ينجح في الدخول رغم الكلاب التي تحرسه ورغم الحارس . ان اللقاء مع ملك الأموات - المومى إليه بصعوبة - يقتضي علداً من المشاهد المرعبة والضحمة في آن واحد . ويقدم الشامان إلى ايرليك هدايا مختلفة ثم يقدم أخيراً الكحول . وينتهي الأمر بالاله بأن يسكر ويصبح رحيماً ، فيباركه ويعد بتكاثر القطيع الخ .. فيعود الشامان فرحاً إلى الأرض . تمتطياً ليس الحصان ، وانما اوزة . يفرك عينيه كما لو أنه قد استيقظ ، فيطلب إليه : «هل امتطيت جيداً ؟ هل نجحت ؟» ويجب : لقد اجريت سفرة عجيبة ، لقد استقبلت بشكل جيد جداً» (٣٤) .

وكما سنرى ، فإن هذه الهبوطات الانتشائية للجحيم كان لها أهمية بارزة في الديانة والثقافة لدى الشعوب الآلية . ويمارسها الشامانيون للحصول على بركة ملك الأموات على القطيع والمحاصيل (كما في الأمثلة المذكورة اعلاه) ، وانما لقيادة المتوفين خاصة أو للبحث وتحرير روح المريض أسيرة الشياطين . هذا وان السيناريو هو نفسه دائماً ، ولكن المشاهد المساوية تختلف من شعب لآخر . ويومئ الشامان لصعوبات النزول ، وحده أو مترافقاً بمساعديه ؛ ويوصله ، ترفض ارواح الموتى الدخول للقادمة الجديدة ، ويجب ان تقدم لها ماء الحياة . ويتعشش المشهد ويصبح أحياناً مضحكاً . وفي حالات أخرى ، وبعد عدد من المغامرات ، يصل إلى بلاد الموتى ويفتش بين الجمهور عن ارواح الاقارب المقربين للروح التي يقودها لأجل أن يعهد بها إليهم . وإذا عاد مرة ، فإنه يحمل إلى كل واحد من الحضور تحيات اقاربهم الموتى وحتى انه يوزع هدايا صغيرة من جانبهم .^(٣٥) ولكن الوظيفة الرئيسية للشامان هي الاشفاء . وبصورة عامة ، توصف الأمراض بتيه أو «باعتصاب» الروح ، فيبحث عنها ، الشامان ويأسرها ويعاود ادخالها إلى جسد المريض . واحياناً ، يكون للمرض سبب مزدوج : سرقة الروح ، المثقلة بامتلاكها من قبل الأرواح الشريرة ، والوظيفة الشامانية تقتضي ايضاً البحث عن الروح باكثر من طرد الشياطين . وفي كثير من المرات يشكل البحث عن الروح بذاته استعراضاً تاماً . فالشامان يياشر السفر الانتشائي بدنياً في الاتجاه الافقي - ليتأكد ان الروح ليست تائهة إلى حد ما في الاقاليم المجاورة أو البعيدة - وبالتالي ينزل إلى الجحيم ، ويماهي الروح الشريرة التي يمسك بها اسيرة وينجح في انتزاعها منها .

٢٤٧ - دلالة وأهمية الشامانية

باختصار ، ان الشامانيين يلعبون دوراً أساسياً في الدفاع عن التكامل النفسي للجماعة . فهم بامتياز الابطال ضد الشياطين ، وهم يحاربون الشياطين والأمراض كما يحاربون السحر الاسود . إن العناصر الحربية التي لها أهمية كبرى في بعض نماذج الشامانية الآسيوية (ترس ، حربة ، قوس ، سيف الخ) تفسر بضرورة المعركة ضد الشياطين ، الأغداء الحقيقيين للبشرية . وبصورة عامة ، يمكن القول إن الشامان يدافع عن الحياة ، والصحة والخصب ، وعالم النور ، ضد الموت والأمراض والعقم ، وسوء

الحظ وعالم (الظلمات) ومن الصعب التصور ماذا كان مثل هذا البطل يستطيع ان يمثله بالنسبة لمجتمع قديم . انها القناعة ، في المكان الأول ، بأن البشرية ليست وحدها في عالم غريب ، محاطة بالشياطين و«قوى الشر» . فما عدا الآلهة والكائنات مما وراء الطبيعة التي توجه إليها الصلوات وتقدم إليها الاضحيات ، يوجد «متخصصون بالمقدس» ، رجال مؤهلون لرؤية الأرواح ، وللصعود إلى السماء والاجتماع بالآلهة ، والهبوط إلى الجحيم ومحاربة الشياطين والمرض والموت . ان دور الشامان الرئيسي للدفاع والحماية التكامل النفسي للجماعة يقوم خصوصاً في هذا الخط : ان الناس متيقنون أن واحداً منهم مؤهل لمساعدتهم في الظروف الصعبة المثارة من قبل سكان العالم غير المرئي . ومن المواسي والمريح معرفة ان عضوا من الجماعة هو قادر لأن يرى ما هو مخبوء وغير مرئي بالنسبة للآخرين ويقدم لهم معلومات مباشرة ومحددة عن عالم ما فوق الطبيعة .

ان الشامان بفضل أهليته للسفر في عوالم ما بعد الطبيعة ، ورؤية الكائنات المافوق بشرية (الهة ، شياطين) وأرواح الموتى ، قد استطاع المساهمة بطريقة حاسمة بمعرفة الموت . ومن الراجح ان عدداً من الخيوط «الجغرافيا الجنائزية» ؛ كذلك فإن عدداً من افكارميثولوجيا الموت ، هي حصيلة التجارب الوجدية للشامانيين . فالمشاهد التي يراها الشامان والشخصيات التي يصادفها عبر اسفاره الوجدية في الآخرة هي موصوفة حصراً من قبل الشامان نفسه ، اثناء أو بعد الرعدة . ان العالم المجهول والمربع للموت يتشكل ، ويتنظم بتوافق مع نماذج متميزة ، وينتهي بتقديم بنيته ، ومع الزمن ، يصبح مألوفاً ومقبولاً . ويدورهم فإن سكان عالم الموت يصبحون مرئيين ، فيتخذون وجهاً ، ويتمسكون بشخصية ، لا بل بسيرة ذاتية وشيئاً فشيئاً ، فإن لعالم الأموات يغدو معروفاً والموت نفسه مقوم ، بصورة خاصة كشعيرة للمرور نحو طريقة روحية للتكون . وفي آخر المطاف فإن قصص الأسفار الوجدية للشامانيين تساهم في اخفاء الصفة الروحية لعالم الأموات ، تماماً باغثائه بأشكال ويصور محترمة .

إن مغامرات الشامان في العالم الآخر ، والتجارب التي يتعرض لها في هبوطاته الوجدية للجحيم وفي صعوداته السماوية ، تذكر بمغامرات الشخصيات في الحكايات الشعبية وابطال الأدب الملحمي . ومن الراجح جداً أن عدداً كبيراً من الموضوعات ، من

بواعث ، ومن شخصيات ، ومن صور ونماذج من الأدب الملحمي ، انما هي في التحليل الأخير ، من مصدر انتشائي ، وهم في هذا المعنى قد استعاروا قصص الشامانيين الراوية لاسفارهم ومغامراتهم في العوالم الماورائية .

وهكذا ، على سبيل المثال ، تروى مغامرات بطل البوريات مومانتو الذي نزل إلى الجحيم مكان أبيه وعاد للأرض ، ووصف عذابات المذنبين . وان التاتار يملكون أدباً معتبراً حول الموضوع . فلدى تاتار السهوب رساغان ، ان فتاة شجاعة كوييكو، نزلت إلى الجحيم لتحمل منها رأس شقيقها المقطوع من قبل غول ، وبعد عدد من المغامرات ، وبعد ان شاهدت مختلف انواع العذابات التي تعاقب مختلف الذنوب ، وجدت كوييكو نفسها امام ملك الجحيم بذاته . فسمح لها بحمل رأس أخيها اذا خرجت منتصرة من احدى التجارب . وهناك أبطال آخرون في الأدب الملحمي التتري مكلفون بالمرور بمثل هذه التجارب التلقينية ، مطبقين دوماً نزولاً إلى الجحيم^(٣٧) . ومن الراجح كذلك ان الغبطة القبل الانتشائية قد شكلت واحداً من مصادر الشعر الغنائي . وعندما يتجهز الشامان لرعدته ، يضرب الطبل ، ويدعو ارواحاً للمساعدة ، ويتكلم (لغة غامضة ، أو (لغة حيوانات) . ويقلد صراخ الحيوانات وبخاصة غناء العصفير . وينتهي بالحصول على (حالة ثانية) تضع باهتزاز الابداع اللغوي والايقاعات للشعر الغنائي . ويجب كذلك تذكر الخاصية المساوية لحضور الشاماني الذي يشكل استعراضاً لا مثيل له في عالم التجربة اليومية . إن عرض المآثر السحرية الدوران مع النار و«معجزات» اخرى يكشف عالماً آخر ، العالم الخرافي للآلهة وللسحرة ، عالم حيث يبدو كل شيء ممكناً ، وحيث يرجع الأموات إلى الحياة . وحيث يموت الأحياء من أجل ان يعيشوا بعدئذ إلى الحياة ، وحيث يمكن التلاشي أو الغياب ومعاودة الظهور آنياً ، وحيث تلغى (قوانين الطبيعة) ، وحيث ان بعضاً من «الحرية» الفوق بشرية هي مشهورة وتكون حاضرة بطريقة عجيبة . وتفهم معقولة مثل هذا الاستعراض في جماعة «بدائية» . ليست «المعجزات» الشامانية فحسب تدعم وتقر البنى لدين تقليدي ، ولكنها تثير وتغذي ايضاً الخيال وتزيل الحواجز بين الحلم والحقيقة المباشرة ، وتفتح الباب نحو العوالم المسكونة من قبل الآلهة . والموتى والأرواح^(٣٨) .

٢٤٨ - ديانات الأديان الشماليين والفينيون - الأوغريين

إن بنية هذا الكتاب - الذي يهدف لتحليل الابداعات الدينية بخاصة - تسمح فقط بتقديم موجز للأديان العامة للشعوب المتمية لمجموعات لغوية للسييرية القديمة Paléo- Sibérien ، الأوراليان ، والفينو- الاوغرية . ليس أن اديانهم تنقصها الفائدة ، ولكن لأن عدداً من اركانها المميزة (آلهة سماوية ، واله مفارق ، واسطورة الغطس النشكوني وتصلبيها الثنائي - الشاماني) هي مشابهة لما هو موجود لدى الشعوب الألتية . وهكذا وعلى سبيل المثال ، يمكن تذكر اس Es للآينيسيين des iénisséiens (كيتس Kets) اسم يعني في آن واحد «سما» و«اله سماوي» (ر. تانجري) . وحسب أنوتشين ، فإن اس غير ممكن رؤيته بمعنى ان أحداً لا يراه مطلقاً ؛ وان الذي يراه يصبح أعمى . واس هو الخالق وسيد العالم ، وانه كذلك قد خلق الانسان . وهو طيب ، كلي القدرة ، الا أنه لا يهتم باعمال البشر ؛ «انه يترك هذا إلى الأرواح من الصنف الثاني ، وإلى الابطال وكبار الشامانيين» . ليس له عبادة ؛ ولا تقدم له اضحيات ، ولا توجه إليه صلوات . مع ذلك فهو يحمي العالم ويساعد البشر .

وكودجو Kudju («سما») اليوكاخير des Yakaghirs اله رحيم ، الا أنه لا يلعب دوراً في الحياة الدينية^(٤٠) . ويسمى الكورجاكس إلههم الأعلى «الواحد الأعلى» والمعلم الأعلى «والرقيب» و«الموجود» الخ^(٤١) . الا أنه ساكن inactif .

ويبدو نوم الساموييد Num des Samoyèdes أكثر أهمية ومعروفاً بشكل افضل . فحسب اقدم معلومات (أ- م - كاسترن) ان نوم يقطن السماء . وهو يدير الرياح والأمطار ، ويرى ويعلم كل ما يجري على الأرض ، وهو يكافيء فاعلي الخير ويعاقب المذنبين^(٤٢) . ويشير بعض المراقبين إلى طبيته وإلى قوته ، ولكنهم يضيفون إلى ذلك ، انه بعد ان خلق العالم ، والحياة والبشر ، عهد نوم بسلطاته إلى كائنات الهية اخرى ، أدنى منه . ومؤخراً ، قرر لوهيتسالو le htisale معلومات اضافية ؛ نوم يسكن السماء السابعة ، والشمس هي عينه ، وهو لا يمثل بصور ، وتقدم إليه اضحيات من غزال الرنة^(٤٣) . وبمناسبة تنصير l'évangélisation الساموييد (١٨٢٥-١٨٣٥) دمر المبشرون

آلان (الاصنام) البشرية ، بعضها من ثلاثة أو سبعة أوجه . وبما انه ليس لنوم حسب رأي الغالبية من الشهادات صور ، فقد استنتج بحق ، ان هذه التماثيل تمثل الاجداد والارواح المختلفة . ومع ذلك فإن من الراجح أن البوليسفالي la poly cépalie (تعد الرؤوس) تعني القدرة لرؤية ومعرفة كل شيء - انتهت لأن تناط بالشمس ، المظهر الرئيسي لنوم^(٤٤) .

هذا وان الاسطورة النشكونية الأكثر شعبية هي ، كما في اي مكان من آسيا الوسطى والشمالية ، الغطس من قبل كائن ، المساعد أو الضد للاله . يرسل نوم تبعاً البجعيات والأوزات «الغاطس» «القطبي» والطائر لغورو Iguru لتحمل له الأرض . ولم ينجح منها سوى هذا الأخير بالعودة مع قليل من الطين في منقاره . وعندما خلق نوم الأرض ، وصل «من جهة ما» «شيخ» طلب منه الاذن بأن يستريح . وانتهى نوم بقبوله ، ولكنه فوجيء صباحاً بالشيخ على ضفة الجزيرة ، على اهبة تدميرها . ومنذراً بالذهاب ، طلب الشيخ - وحصل - على القليل من الأرض التي استطاع تغطيتها بطرف عصاه .

وقد اختفى في هذا الثقب . بعد ان أعلن بأنه منذ الآن سيقوم هنالك ، وسيفتن البشر . وقد عرف نوم خطئه مذعوراً : لقد كان ظن بأن العجوز يريد الاستقرار على الأرض وليس تحتها^(٤٥) . إن نوم في هذه الاسطورة ، ليس كلي المعرفة ، فقد جهل وجود ونوايا (العجوز) (الشرير الذي ادخل الموت) . وهنالك روايات مخالفة مؤكدة لدى التشيرميس Tchérimine والفوجول Vogouls تشير إلى الخاصية «الثائية» للخلق^(٤٦) . ولكن «الثائية» هي أيضاً وبشكل أكثر ملحوظة في اساطير الفندلدين Finnois والأستونيين ، والموردفين : الشيطان - نفسه الذي يغطس ، بناء على أمر الاله . ولكنه يخفي قليلاً من الطين في فمه «وهكذا تولد الجبال والمستنقعات»^(٤٧) .

أما بالنسبة للشامانية ، فإن بنية الشامانية الاسيوية تبرز خيوطها الكبرى التي لحظناها (٢٤٥-٢٤٧ع) . ومع ذلك يلاحظ ان الابداع الادبي في فنلندا . للإلهام الشاماني يدرك أوجه . ففي كاليبالا ، الملحمة القومية التي قمشها الياس لونرو (الطبعة الأولى ١٨٣٢) ، ان الشخصية الرئيسية هو فيناموانيان Vainamoian «الحكيم الخالد» .

وهو من أصل ماورائي مبصر - وجدي موهوب بقوى سحرية لا حصر لها ، واطافة لذلك ، فهو شاعر ، مغني وعازف على الهارب . ومغامراته وكذلك مغامرات رفيقيه - الحداد ايلمارينين والمحارب بيمينكانين - تذكر في مرات كثيرة بانتصارات الشامانيين والأبطال - السحرة الاسيويين (٤٨) .

وتلعب في مجتمعات الصيادين في البر والبحر ، الأرواح الحامية لمختلف اصناف الحيوانات واسياد الوحوش الكاسرة ، دوراً بارزاً . فالحيوان شبيه بالانسان ، وكل حيوان يملك روحاً ، وبعض الشعوب (على سبيل المثال «اليوكا جهيرت») ترى انه لا يمكن قتله قبل أسر روحه (٤٩) . ويرسل الاينوس والجيلاكس روح الدب المقتول إلى وطنه الأصلي . وان سيد الوحوش الكاسرة يحمي الطريدة والصيادين في آن واحد . ويشكل الصيد بذاته طقساً معقداً جداً . لأن الطريدة معتبرة كأنها موصولة بقوة مما فوق الطبيعة (٥٠) . وإن فائدة هذه المعتقدات والشعائر تكمن في قدميتها البالغة (تصادف كذلك في الاميركيتين وفي اسيا الخ) . وهي ترشدنا إلى التضامن الصوفي بين الانسان وعالم الحيوان . وهو مفهوم سحري - ديني سبق ان تأكد لدى الشعوب من الصيادين من العصور الحجرية (ف ٤٢) .

وماله دلالة . ان المعتقدات في الأرواح الحامية للجناس الحيوانية ، وفي اسياد الوحوش الكاسرة ، الشبه غائبة في ثقافات المزارعين ، مازالت تعيش في اسكندينايفيا ، وما هو اكثر من ذلك ، ان عدداً من الصور الماورائية والافكار الميتولوجية المبرزة للقوى السحرية - الدينية للحيوانات ، توجد في معتقدات الرعاة وبخاصة في فولكلور المزارعين ، كما هو الأمر في بقية اوروبا وآسيا الغربية . ولهذا الواقعة نتيجة هامة : فهي تؤكد على استمرار حياة المفاهيم الموهلة في القدم في بعض المجتمعات الزراعية الاوروبية ، أقله حتى بداية القرن العشرين .

٢٤٩ - ديانة البلطيقين

ان الشعوب البلطيقية الثلاثة - الليتوانيين ، والليتون ، والبروسيين القدامى (أو بروتين) - هي المثلثة الأخيرة المستأصلة في حرب طويلة من التحول ومن الغزو مع

فرسان التيتون وقد انتهت بزوالها ، وبامتصاصها في كتلة المستعمرات الألمانية . وان الليتونيين والليتوانيين كانوا قد اخضعوا كذلك من قبل الجرمن ، وعلى الأقل ، انهم اعتنقوا المسيحية اسماً ، في القرن الرابع عشر ؛ ومع ذلك فقد نجحوا في الابقاء على تقاليدهم الدينية . وليس سوى بدءاً من القرن السادس عشر أن المبشرين اللوثرين قاموا بحملة مستمرة ضد الوثنية . ومع ذلك ، فإن الاثنوغرافية والفولكلور لشعوب البلطيق قد حافظت على قسم من التراث القديم وشكلت من حيث النتيجة ؛ مصدراً لا مثيل له لمعرفة الدين التقليدي^(٥١) . وبصورة خاصة فإن الديناس les dainas (اغاني قصيرة من اربعة ابيات) هي ذات أهمية . وهي مرتبطة بطقوس الزراعة ، والزواج والموت . والقصاص الشعبية . وقد شجعت جغرافية البلطيقين محافظتهم «على العديد من المعتقدات والعادات القديمة التي مازالت حية في جبال البيونية والآلب والكاريبات والبلقان» . الأمر الذي لا يستبعد ابدأ تأثيرات الجوار - جرمن - استونيين - سلاف في القرون الاربعة الأخيرة المسيحية .

ومع وجود بعض المفارقات بين مجتمعات الآلهة ومع المفاهيم الدينية والممارسات لشعوب البلطيق الثلاثة ، فإننا نقدمهم مجتمعين لتسهيل العرض . ومنذ البدء ، يقتضي الإشارة إلى واقعة ان البلطيقين حافظوا على اسم الآلهة الساموي الهنود - اوروي القديم دييوس deiues ليتوني dieses ليتواني dievas بروسي قديم deivas ويعد اعتناق المسيحية ، استعمل ذات الاسم الديني للإشارة إلى الآلهة التوراتي . وفي الفولكلور الديني الليتوني فإن Dieus ، أب العائلة الالهية ، يسكن في مزرعته جبل في السماء : ومع ذلك يزور الأرض ويساهم في اشغال المزارعين وفي الأعياد الموسمية المكرسة له . وان ديفس Dive أحيا النظام في العالم وهو الذي يحدد مصير البشر ويسهر على حياتهم الخلقية^(٥٢) ومع ذلك ، فإن ديفس ليس إلهاً أعلى وليست الألوهية الأكثر أهمية .

وان إله الرعد بيركونا Perkunes (ليتواني) أو بيركوناس Perkunas (ليتوني)^(٥٣) . يقيم كذلك في السماء ، ولكنه غالباً ما ينزل على الأرض لمحاربة الشيطان والشياطين الأخرى (خطوط تشير للتأثير المسيحي) . وهو محارب عنيد وحداد للآلهة ، ويراقب الأمطار وبالتالي خصب الحقول . ويلعب بيركيماس / بيركونس دوراً أكثر أهمية في حياة الفلاحين ، وتقدم إليه اضحيات في مناسبة الجفاف ومناسبة الأمراض . وحسب شهادة

من القرن السادس ، فإنه كان يقدم إليه ، اثناء العاصفة ، قطعة من لحم وترفع إليه هذه الصلاة : «أيها الاله بيركونا ، لا تضربني ، انني ابتهل إليك أيها الاله ! انني أقدم اليك هذا اللحم» وهي شعيرة قديمة مطبقة اثناء العاصفة ، من قبل شعوب بدائية على شرف الآلهة السماوية (ب ١٤ع) .

ويبدو ان هنالك مكان بارز في البانتيون البلطقي مشغولاً من قبل الربة الشمس ، «التي رمز إليها منذ زمن طويل برمز مشابه لسوريا Surya القيدية» . انها متخيلة في آن واحد كالأم والشابة . والشمس Saule تملك أيضاً ، مزرعة على جبل سهاوي ، بالقرب من مزرعة ديفس . وحيانا يتصارع هذان الالهان ضد بعضهما وتستمر المعركة ثلاثة أيام . وتبارك الشمس الارض المزروعة ، وتساعد الذين يتألمون ، وتعاقب المذنبين . وأهم عيد لها يحتفل فيه بالانقلاب الصيفي^(٥٤) . وفي الفولكلور الديني الليتواني ، إن الشمس رسول ، هي زوجة مينوس méneus اله القمر ؛ وهذا الأخير يبدو ان له دور محارب . وكل هذه الآلهة السماوية مشاركة بالخيول : فهي تسافر على جبال السماء وتنزل على الأرض بعربات .

إن أغلب الآلهة المحلية هي ربات : الأرض الأم تسمى زيمين مات Zemen- mate من قبل الليتوانيين وزيمينا Zemyna من قبل الليتوانيين ، وهؤلاء الآخرون يعرفون كذلك (سيد الأرض) زيمبياتيس Zemepatis . ولكن عدد (الأمهات) كبير : وعلى سبيل المثال ، ام الغابة (ميزامات) و(ميدين) في الليتوانية . تتكاثر باصدارها ، لأم الحداثق . وأم الحقول ، وأم العنبيات ، أم الزهور الخ . وتشخيصات أخرى لظواهر طبيعية (أم المطر ، الرياح الخ) . وكما لاحظ اوسنر Usener^(٥٥) ، فإن تكاثر امثال هذه الهويات الميتولوجية يذكر بظاهرة مميزة للديانة الرومانية (ف ١٣ع) . وعند (الليتوان) إن أهم ربة هي (ليا Laima) من جنس laim = سعادة - حظ . وهي بامتياز آلهة الحظ أو المصير وهي تحدد مصير البشر منذ ولادتهم . ولكن ليا تدير ايضا الزواج ، ووفرة المحصول ، وحالة القطيع الممتازة . وبالرغم من التوليف مع العنراء مريم ، فإن ليا تمثل صورة دينية قديمة تسمى على الأرجح لمرحلة متقدمة جداً من الوثنية الليتوانية^(٥٦) .

وقبل اعتناق المسيحية ، كانت العقيدة العامة قد طبقت بخاصة في الغابات .

وان بعض الأشجار ، وبعض الينابيع ، أو بعض الامكنة كانت معتبرة كمقدسة مسكونة قبل الآلهة ، وبالنتيجة ، فإن القرب منها كان محرماً . وكانت الجماعة تقدم لها الاضحيات في الهواء الطلق ، وفي الاجامات أو في الأمكنة الاخرى المقدسة ، وكان بيت الغابة يشكل حيزاً مقدساً ، كما هي الزاوية المقدسة للبيوت . وبالنسبة للمعابد بمعنى الكلمة ، فإن معلوماتنا عنها قليلة جداً . وقد كشفت الحفريات آثار معابد صغيرة ، مبنية من الخشب ، بشكل دائري ويقطر خمسة امتار تقريباً ، وكان تمثل الاله مقاماً في الوسط .

ولاننا مع ذلك في ريب حول وجود طبقة كهنوتية . وتظهر المصادر وجود (سحرة) ، وعرفانين ، ووجديين ؛ وكان تقديرهم بارزا . وتتعلق المعاهدة المفروضة في ١٢٤٩ من قبل الفرسان ذوي النظام الثيتوني للبروسيين القدامى - بأول وثيقة مكتوبة حول الديانة البلطيقية - وقد قضت بالزام المغلوبين بالعدول عن حرق أو دفن الموتى مع احصتهم ، ومع خدمهم وسلاحهم وثيابهم أو أية اشيائهم الثمينة ٧٥٠ ؛ وعدم التضحية للأنصاب بعد الموسم ، وللآلهة الأخرى ، وعدم استشارة الشعراء الرائين (ليفاثون) الذين يمدحون الموتى في المآدب الجنائزية ويزعمون رؤيتهم طائرین على خيول في الأجواء نحو العالم الآخر .

ويمكن التعرف في (الشعراء الرائين Bardsvisionnaire) على طبقة من الوجديين والسحرة المماثلين للشامانيين في آسيا . ومن الراجح جداً ، انهم كانوا يقودون في (نهاية المأدبة الجنائزية) روح الأموات نحو العالم الآخر ، لدى شعوب البaltic ، وكما في أي مكان آخر ، كانت السلطات الكنسية تعتبر التقنيات الوجدية والممارسات السحرية كما لو انها موحى بها من قبل الشيطان . ولكن الوجد والوجد للشفاء يشكلان في العادة عملية دينية ، (أو «السحر الأبيض» : الشامان يتخذ شكل حيوان بهدف محاربة الارواح الشريرة . وقد تأكدت عقيدة مشابهة عند اللتيوانيين في القرن السابع عشر : اعترف شيخ متهم بالتشبه بالذئب بأنه كان ذئباً ، وانه ، في ليالي القديسة لوسيل ، من عيد العنصرة والقديس يوحنا ، أنه هو ورفاقه المتحولين إلى ذئاب ، وصلوا مشياً على الاقدام إلى «طرف البحر» اي (جهنم) وخاضوا معركة مع الشيطان والسحرة . وكما روى المعجوز فإن الذئاب حولت نفسها إلى ذئاب ونزلت إلى الجحيم لتسترد منها الأموال المسروقة من

قبل السحرة - قطع ، قمع ، وثمار أخرى للأرض - وفي ساعة الموت ، تصعد روح الذئاب إلى السماء ، في حين ان الشيطان يقود روح السحرة . وان الذئاب هي «كلاب الاله» . ولولا تدخلها الايجابي ، لكان الشيطان قد اجتاح الأرض^(٥٨) .

إن التماثل بين الشعائر الجنازية وشعائر الزواج يشكل أيضاً دليلاً على القدمية البلطيقية .^٢ وان مثل هذا التضامن الشعائري بين الزواج والموت كان يوجد أيضاً في بداية القرن ، في رومانيا وشبه جزيرة البلقان . وكذلك فإن هنالك عقيدة قديمة جداً بأن ديفس وسول ولما يرتدون احياناً لباساً كالفلحين ويرافقونهم في حقولهم ، وهي عقيدة تأكدت في الفولكلور لجنوب شمال أوروبا .

وكنتيجة ، فإن الخطوط المميزة للديانة البلطيقية هي : (١) معنى عدة عائلات إلهية . (٢) الدور السائد لآلهات الشمس والعاصفة ، (٣) أهمية الربات في الولادات وفي المصير (لما) وآلهات جوف ارضية وركود دمها . (٤) مفهوم معركة شعائرية ، منجزة برعدة *entrance* ، بين «السحرة الطيبين» المنزورين للاله ، والسحرة خدم الشيطان . وبالرغم من التوليفة المسيحية ، فإن هذه الأشكال الدينية قديمة جداً ، وهي متأية إما من التراث الهندو - أوروبي (ديفس ، بيركوناس ، سول) ، واما من اساس اوروبي اسوي (ليما ، زيم مات) .

والديانة البلطيقية - تماماً كديانة السلافيين والشعوب الفنلندية - الاوغرية - تقدم فائدة جلي لأن قدميتها تتوضح بمساعدة الاثنوغراف والفولكلور . وفي الواقع وكما قال ماريجا غيمبوتا ، *mariga Gimbuta* ، فإن الأرومة الما قبل المسيحية للفولكلور البالطي «هي قديمة لدرجة انها ترجع دون أي ريب إلى ازمة ما قبل التاريخ ، وعلى الأقل إلى عصر الحديد ، او حتى بالنسبة لبعض عناصرها ، لعدة ألوف من السنوات السابقة»^(٥٩) .

٢٥٠ - الوثنية السلافية :

إن السلاف والبالطين هما آخر الشعوب ذات اللغة الآرية الداخلة إلى أوروبا . وقد كان السلاف المحكومون على التوالي من قبل السيت *les ceythes* والسارمات

Sarmates والقوط Goth مكرهين للاقامة خلال اكثر من الف عام ، في إقليم محدد بين الدنيستر والفيستون . ألا ان اجتياح اوروبا من قبل الهانس ، والبلغار والآفار ، وبدءاً من القرن الخامس سمح بفيضان الشعوب السلافية واستقرارها المتوالي في اوروبا الوسطى والشرقية^(٦٠) . وقد تأكد اسمها - سكلافيني Sclavini - لأول مرة في القرن السادس . وقد قدمت الحفريات عدداً من المعلومات حول الحضارة المادية وحول بعض الاعراف والمعتقدات الدينية للسلافين الساكنين في روسيا واقليم البلطيق . ولكن المصادر الوحيدة المكتوبة حول ديانة السلاف القدامى هي تالية على المسيحية ؛ وحتى عندما تكون صحيحة ، فإنها تقدم لنا حالة منحنطة عن الوثنية العرقية . مع ذلك ، وكما سنرى ، فإن التحليل بانتباه للشعائر والمعتقدات الشعبية يسمح لنا بادراك بعض الخطوط المميزة الخاصة للتدين السلافي الأصلي .

وقد وصلت الينا معلومات قيمة من قبل هيلموند Hellmond في تاريخه عن السلاف المكتوب بين ١١١٧ و ١١٧٢ . فبعد ان ذكر الأسماء والوظائف لبعض الآلهة التي سنعرضها فيما سيأتي أكد هيلموند ان السلاف لم ينكروا وجود «اله واحد في السماء» ولكنهم قدروا ان هذا الاله «يهتم فقط بالشؤون السماوية» تاركاً حكم أو ادارة العالم إلى آلهة أدنى منجيين من قبله . وقد دعا هيلموند هذا الاله (قدرة مطلقة prepotens واله ديورم deus deorum ، ولكنه ليس الها للبشر ، : انه يحكم على الآلهة الأخرى ، ولا علاقة له مع الأرض^(٦١) . فهو يتعلق اذن باله سماوي أصبح مفارقاً deus otiosus سبق ان اشرنا له لدى الشعوب الآلثية والفينور اوغريان . ولكنه مؤكد كذلك لدى الهنود الاوروبيين [ر. الاله الفيدي ف. ٤٦٥] .

أما بالنسبة للآلهة الأخرى ، فإن القائمة الأكثر كما لاتوجد في تاريخ اخبار كيف المسمى تاريخ وقائع نسطور Nestor وهي وقائع محررة في القرن الثاني عشر . وهذا المؤرخ الاخباري يعرض بشكل سريع و«بسخط» وثنية القبائل الروسية في عصر الأمير الكبير فلاديمير (٩٧٨-١٠١٥) . ويذكر سبعة آلهة بيرون Perun ، فولوس Volos ، كورس Khors ، دازهبوج Dazhbog ستريبوج Stribog - سماغلو وموكوش Simarglu et mokosh - ويؤكد «ان الشعب كان يقدم لها اضحيات [...] وكان يقود لها ابناءه

وبناته . ليضحى بها لهذه الشياطين ...» (٦٢) .

ويفضل معلومات اضافية ، تم التوصل لاعادة تكوين ، على الأقل في جزء منها ، بنية ووظيفة البعض من هذه الالهة . بيرون كان معروفاً من كل القبائل السلافية ؛ وتوجد ذكراه في التقاليد الشعبية وفي اسماء المواقع وان اسمه هو هنتو-اوروي (من الجذر Pesk-Per بمعنى خرب ، فجر وهو يدل على اله العاصفة ، المشابه لبارجانيا الفيدي وبيركونا البلطقي . ومن المحتمل ، انه كان يشبه بيركونا - مثلاً كرجل كبير ونشيط ، ذي لحية حمراء ، وفأس أو مطرقة في يده يقذفها ضد الأرواح الشريرة . وبعض القبائل الجرمنية تضاهي بيرون وظهر . وان اشتقاق اسمه يوجد في بيوروم Piorum ، وهو مصطلح بولوني لأصل الرعد والبرق ، وفي عدد من تعبيرات الشعوب السلافية (٦٣) . وكانت شجرة السنديان موقوفة عليه مع بقية آلهة العاصفة لأوروبا ما قبل المسيحية . وحسب رأي المؤرخ البيزنطي ، بروكوب ، كان يضحى له بديوك الدجاج وبالكباش . . وفي الفولكلور المسيحي - كان بيرون قد ابدل بالقدّيس ايلي Elie ، متخيلاً كشخص ذي لحية بيضاء ، مجتازاً السماء في عربة نارية .

وفيلس Volos أو قيلس Veles . إله للقطيع من ذات القرون ، وهو يجد موازبات له في الليتوانية كـ فيليناس Velnias الذي يعني الآن (شيطان) وفيلية velé (ظل الموت) ، وفي السلتيّة تكلم تامسيت عن فيلادا Velada نية السلتيين (٦٤) . وحسب رومان جاكوسون ، انه يتفرع عن مجمع الالهة العام الهنتو-اوروي ويمكن مقارنته بفارونا. وقورش Khors هو الاسم الديني المستعار من الايرانية خورشيد Kl.ursid ، تشخيص الشمس . كذلك فإن سينا - غلوهومن أصل ايراني ؛ وقد قربه جاكوسون من الفارس سيمورغ (العنقاء الالهة) . وقد استعاره السلافيون على الأرجح من السارماتيين الذين كانوا قد عرفوه تحت الاسم سيارغ .

وحسب الاشتقاق اللغوي فإن دازهبوج Dazhbog تعني «موزع الثروات» [في السلافية duti «أعطى» و logu «ثروة» ، ولكن ايضاً «إله» ، مصدر الثروات] .

وهذا الاله قد تماهى ايضاً بالشمس . أما بالنسبة لستريبورع sriborg فلا يعرف

عنه شيء ؛ غير ان نصاً روسيا قديماً ، قصيدة ايغور ، يؤكد ان الرياح هي احفاده^(٦٦) . وموكوش آخر الالهة المذكورة من قبل مقمش الاخبار نسطور ، كانت على الراجح ربة للخصب . وفي القرن السابع عشر ، طلب القساوسة الروس من الفلاحين : «أذهبت لعند موكوش ؟» . وكان التشيك يدعونها اثناء الجفاف والمحل . وتذكر بعض مصادر القرون الوسطى الاله رود Rod (اسم مرتبط بفعل Raditi بمعنى «حمل») وروز هينيشات les Rozhenitsa («أم ، رحم ، خصب») جنيات مشابهة للنورمات Normes الاسكندنافية . ومن المحتمل ان الروزهينيشات هي التجليات أو الاقانيم Iyostures للربة الأم القديمة المحلية ماتي سيرازين ليا «الأم الأرض الطيبة» التي استمرت عبادتها حتى القرن التاسع عشر .

ويعرف كذلك خمسة عشر من اسماء آلهة البلطيق ، الاقليم الذي بقيت فيه الوثنية قائمة حتى القرن الثاني عشر . واكثر هذه الالهة أهمية كان (سفيتوفيت) svetovit الاله المعلم لجزيرة روجن ، والذي كان له معبده في آركونا والذي يقاس تمثاله بشمانية أمتار^(٦٨) . ويشير الجذر svet أصلاً إلى القوة (كان قويا) . وقد كان سفيتوفيت في آن واحد محارباً وحامياً للحقول . وفي ذات الجزيرة كانت جاروفيت Jarovit وروجفيت وبوروفيت معبودات كذلك . ويشير اسم الأولين منها إلى وظيفة تتعلق بالتقويم : جارو «شاب ، متقد ، أني» ويعني «الربيع»^(٦٩) . ورينو هو الاسم للشهر الخريفي عندما تتزاوج الحيوانات الفتية ؛ وبورا يعني «وسط الصيف» .

إن البوليسيفالي (متعدد الرؤوس) poly cephalis يصادف لدى بعض الشعوب الهندو-اوروبية (على سبيل المثال ثلاثي الرؤوس الغالي (الفارس التراسي ذي الرأسين أو الثلاثة رؤوس الخ) ، ولكنها تأكدت كذلك لدى الفينور اغريان (د ٢٤٨ م) التي قدم بعدها السلاف الأوائل عدداً من المشابهات . ودلالة البوليسيفالي واضحة : انها تعبر عن كلية الرؤية الالهية ، وهي صفة مميزة للالهة السماوية ، ولكن ايضاً للالهة الشمسية ، ويمكن الافتراض ان الاله الأعلى للسلاف الغربيين تحت مختلف أشكالهم (تريجلاف . سفانغيت ، روجيفيت) . كان إلهها شمسياً . وتعيد إلى الذاكرة بأن كورس ودازههورغ كانت متماهية بالشمس لدى السلاف الشرقيين . واله آخر سفاروغ Svarog (لدى السلاف الغربيين سفاروزيك) كان الأب للدازههورغ ، وقد كان معتبراً كاله أعلى .

وحسب التقليد ، ان النار - سواء أكانت مساوية باكثر مما هي منزلة - كانت ابن سافوزغ . . وفي القرن العاشر كتب الرحالة العربي المسعودي ان السلافيين كانوا يعبدون الشمس ؛ وكان عندهم معبد مع فتحة في قبة لكي يراقبون منها طلوع الشمس^(٧١) . ومع ذلك ، ففي معتقدات وأعراف الشعوب السلافية ، ان القمر (من نوع مذكر ، يلعب دوراً أكثر أهمية من الشمس «الحياذية والمشتقة على الأرجح من اسم مؤنث» . وتوجه الصلوات للقمر - مدعواً «أب» أو «جد» - للحصول على الوفرة والصحة ، ويحصل النحيب والتأوه في حالات الكسوف^(٧٢) .

٢٥١ - طقوس . اساطير ومعتقدات السلاف القدامى

سيكون من العبث محاولة إعادة تكوين الدين السلافي من التاريخ . ومع ذلك يمكن تمييز الطبقات الأساسية وتحديد معطياتها بدقة لبناء الروحية السلافية . إضافة للإرث الهندو - اوروبي والتأثيرات الفينو - اوغرينية والايرانية ، يمكن مضاهات الطبقات التي مازالت أكثر قدماً . فبتنى اللفظ الايراني بوغ bog «غنى» ولكن «اله» ايضا ، قد حل محل الاسم الديني الهندو - اوروبي ديفوس deivos المحافظ عليه من قبل البلطيقين (ب . ٢٢٨ع) . ولقد اشير فيما سلف إلى استعارات أخرى من مصدر ايراني^(٧٣) . أما بالنسبة للتماثل مع معتقدات واعراف الفينو - اوغريني ، فيمكن لها ان تفسر إما بالاحتكاكات اثناء عصور ما قبل التاريخ واما بفرعها من تقليد عام .

وعلى سبيل المثال ، فقد تم ابراز المشابهات بين بنية معابد السلاف الغربيين وغريين ومعابد الفينو - الأوغرين ، وابراز التشابه بين تصوراتهم المتعددة الرؤوس للآلهة وللأرواح^(٧٤) . وهناك عادة ما قبل سلافية ، مجهولة لدى الهندو - اوروبيين هي الدفن المزدوج^(٧٥) . فبعد ثلاث أو خمس او سبع سنوات ، تنبش العظام ، وتغسل وتغلف بفوطه ؛ وكانت هذه تنقل إلى البيت وتوضع مؤقتا في «الزاوية المقدسة» هنالك حيث تكون الايقونات معلقة . والقيمة السحر - دينية لهذه الفوطه هي بسبب تماسها مع جمجمة وعظام الموتى . وأصوليا كانت توضع قطعة من العظام المنبوشة في «الزاوية المقدسة» ، وهذه العادة ، القديمة جداً (تأكدت في افريقيا واسيا) توجد لدى

الفينوا^(٧٦) .

وهناك مؤسسة سلافية أخرى غير معروفة من قبل الهنود - اوروبيين وهي سنوشا سيتفو le snochacestvo أي يمين العم (أبو الزوج) لينام مع خطيبات ابنائه البالغين ومع كنيسته عندما كان ازواجهن يغيون لفترة طويلة . وقد قارن اوثو - شرادر otto chrader السنوشا سيتفو بالتطبيق الهنود - اوروبي للنقل الزواجي adiutor matrimon . ولكن نقل الابنة أو الزوجة كان يتم من قبل الأب أو الزوج ، واللذان كانا يمارسان هكذا سلطتهما الأبوية أو الزوجية ، والنقل لم يكن يتم دون معرفة ، أو ضد ارادة الزوج^(٧٧) .

وليس بأقل من ذلك تمييزا المساواة بالحقوق في المجتمعات السلافية القديمة . فالجماعة بكاملها كانت تتمتع بكامل سلطاتها ، وبالنتيجة فإن المقررات تصبح متخذة بالاجماع ، وكلمة مير mir في الأصل كانت تدل في آن واحد على الجمعية المشتركة وعلى الاجماع في مقرراتها ؛ الأمر الذي يفسر لماذا توصلت كلمة مير لأن تدل في آن واحد على السلام والعالم . وحسب غاسباريني ، فإن كلمة مير تعكس مرحلة في الجماعة التي يكون كل عضو فيها - نساء ورجالا - يملك ذات الحقوق^(٧٨) .

وكما في الاثنيات الأوروبية ، فإن الفولكلور الديني ، والمعتقدات والعادات السلافية قد حافظت على قسم كبير من التراث الوثني قل أو كثر صبغه بالصيغة المسيحية .

ان منفعة خاصة ترتبط بالمفهوم الما قبل - سلافي لروح الغابة (بالروسية ليشي leshy ، والبييلوروسية ليشوك leshuk الخ) التي تضمن للضيادين الكمية الضرورية من الطرائد . ويتعلق بنموذج قديم من الألوهية : سيد الوحوش الكاسرة (ف ٤ع) وان روح الغابة ليشي ستصبح فيما بعد حماية القطعان . كذلك فإن الاعتقاد بان بعض أرواح الغابة تدخل في المساكن اثناء بنائها ، هو اعتقاد قديم . وهذه الارواح خيرة أو شريرة تدعم المنازل .

وتبرز الميتولوجيا الشعبية بوضوح اكثر استمرارية حياة المفاهيم القديمة الما قبل مسيحية . وكمثال وحيد على ذلك وهو اكثرها شهرة واكثرها دلالة : اسطورة الغاطس النشكوني ، المنتشرة كما رأينا (ف ٢٤٤ع) في كل اسيا الوسطى والشمالية . تحت شكل

متمسح قل أو كثر ، ونجدها في اساطير الشعوب السلافية والأوروبية الجنوبية - الشرقية والأسطورة تتبع المخطط المعروف جداً ؛ يصادف الاله ، حول البحر البدئي ، الشيطان ويأمره بأن يغطس لعمق المياه ويحمل القليل من الطين أو (الرمل) في فمه أو يده ، وعندما تبدأ الأرض بالنمو ، فإن هذه الحبيبات القليلة تصبح جبلاً أو مستنقعات . وثمة خاصية للترجمات الروسية ألا وهي ظهور الشيطان ، وفي بعض الحالات ، الاله ، تحت شكل طائر مائي .

وعليه فإن الصفة الطيرية للشيطان هي أثر من أصل وسط - اسبوي . ففي «اسطورة بحر طبريا» (انجيل مزور توجد مخطوطاته منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر) أن الاله ، الذي طار في الأجواء ، شاهد ساتانيل تحت شكل طائر مائي . ونص آخر يبرز الاله والشيطان تحت شكل ذكرى بط غاطسين ابيض واسود^(٨٠) .

وبالمقارنة مع الروايات الأخرى لوسط اسيا لذات الاسطورة النشكونية ، تعبر الترجمات السلافية والشمالية الشرقية الأوروبية عن الثنائية . اله - شيطان . وقد فسر بعض العلماء هذا المفهوم للاله الذي يخلق العالم بمساعدة الشيطان كما لو انه التعبير عن معتقدات بوغوميلية . غير ان هذه الفرضية تصطدم بصعوبات . فبدئياً لا توجد هذه الاسطورة في أي نص بوغوميلي ، واكثر من ذلك ان هذه الاسطورة ليست مؤكدة في الاقاليم التي كانت ابوغومولية قائمة فيها خلال قرون (حربيا ، البوسنة ، الهرسك ، هنغاريا)^(٨١) .

ومن جهة أخرى ، فإن انواعاً مختلفة قد حصلت في اوكرانيا وفي روسيا ، وفي المقاطعات البلطيقية ، حيث ان المعتقدات البوغومولية لم تدخلها مطلقاً . وأخيراً فقد رأينا ، أن الالاثبات الاكثر تركيزاً للاسطورة يوجد لدى شعوب اسيا الوسطى والشمالية . وقد افترض لها مصدر ايراني . لكن اسطورة الغاطس النشكوني لم تعرف في ايران^(٨٢) . وازضافة إلى ذلك ، وكما كنا اشرنا ، فإن انواعاً مختلفة من هذه الاسطورة تصادف في اميركا الشمالية وفي الهند الايرانية وما قبل الايرانية وفي اسيا الجنوبية الشرقية .

وباختصار ، انه يتعلق باسطورة قديمة ، اعيد شرحها واعيد تقييمها مراراً . وان مسيرتها الملحوظة في اوراسيا واوروبا من الوسط والجنوب - شرق تثبت انها تلي ضرورة عميقة من الروح الشعبية . فمن جهة ، ومع الأخذ بعين الاعتبار عدم كمال العالم ووجود الشر ، فإن الاسطورة كانت تفصل الاله عن الأخطاء الأكثر جسامة للخلق . ومن جهة أخرى كانت تبرز مظاهر للاله الذي سبق له أن عاشر التصور الديني للإنسان القديم : خاصيته كاله مفارق (بارزة بخاصة في الخرافات البلقانية) وهكذا فسرت التناقضات والآلام للحياة البشرية والرفاقية أو حتى الصداقة بين الاله والشیطان . ولقد اكدنا على هذه الاسطورة لعدة اسباب ، فبدتيا تشكل - في ترجمتها الأوروبية ، أسطورة كلية ، لا تروى خلق العالم فقط ، وانما تفسر كذلك أصل الموت والشر . وازافة إلى ذلك ، اذا أخذنا بعين الاعتبار من كل هذه المتغيرات ، فإن هذه الاسطورة تبرز عملية تصليب (ثنائي) يمكن مقارنته بابداعات دينية أخرى مشابهة (الهند ف ١٩٥٥ ع ويران ف ١٠٤٤ ع ٢١٣ ع) . مع ذلك ، فإنه يهنا في هذه المرة اساطير فولكلورية ، كيفما كان مصدرها ، من جهة أخرى . وبعبارة أخرى ، فإن دراسة هذه الاسطورة تحولنا الامساك ببعض مفاهيم التدين الشعبي . ان الشعوب الأوروبية الشرقية بعد زمن طويل من اعتناقها الديانة المسيحية بررت أيضاً بترجمتها الاسطورة ، الوضع الحالي للعالم ولشرطنا البشري . فوجود الشيطان لم يعارض أبداً من قبل المسيحية . ولكن دور الشيطان في الشكونية كان تجديداً (ثنائياً) ضمن النجاح الكبير والدورة العجيبة لهذه الخرافات .

ومن الصعب التحديد بدقة ، فيما اذا كان السلاف القدامى قد تشاركوا بمفاهيم ثنائية أخرى من نموذج ايراني أوغنوصي . وما يعيننا هنا البرهان على استمرارية التركيبات والبنى الاسطورية الدينية القديمة في معتقدات الشعوب الأوروبية المسيحية ومن جهة أخرى ، الأهمية بالنسبة للتاريخ العام للأديان ، لاعادة تقييمات منشأة على مستوى فولكلوري لتراث ديني موغل في قدمه .

حواشي الفصل الواحد والثلاثين

- ١- ان الفرضية لأسرة لغوية اورال- آلتية تحتوي الفنلندية ايضاً قد أهملت
- ٢- الوثائق المكتوبة قليلة ومتأخرة : بعض الاشارات في التقويمات السنوية الصينية من القرن الثاني قبل المسيح ، ولدى بعض المؤرخين اللاتين والبيزنطيين من القرن الرابع بعد المسيح (المتعلقة بحملات آتيل) (القرن السابع والثامن) والأدب المبتنى على غزوات جنكيزخان ، والذي يجب ان يضاف إليه علاقات ابناء ماركوبولو والبعثات الكاثوليكية الأولى ، وليس سوى بدءاً من القرن الثامن عشر ان مؤلفات الكتاب الأوروبية قدعت معلومات اكثر تماسكاً حول المعتقدات والاعراف الأوراسية .
- ٣- ٥- اسماء المراجع
- ٦- في المعتقدات الدينية للشعبية للمونغول ان تانجوري «خلق الكل - النار - اللبن الخ ولكنه لا يتعلق بنشكونية بمعنى الكلمة .
- ٧- ذات المعتقد تأكد في فترة المونغول (كان خائناً بقوة وسلطة السماء الخالدة) - فروسية - امبراطورية السهوب
- ٩- ١٠- حول اسماء الالهة من بنية اورانية - رئيس ، معلم - أب خالق . الكبير النور الخ . . (اسماء المراجع)
- ١١- هذه الصورة مكتملة بالاعتقاد ان العالم مستند إلى حيوان (سلحفاة - حوت يمنعه من الغوص في المحيط)
- ١٢- انظر المصادر المعتمدة في كتاب الشامانية للمؤلف . وان البوريات تمثل النجوم كقطيع من احصنة والنجمية القطبية هي الوند الذي يربط به - والفكرة عامة لدى الشعوب الألتية والايغورية .
- ١٣- ١٤- تأكد كذلك لدى عدد من سكان العصور القديمة كما في الثقافات المتطورة لمصر - الهند - ميرسوبوتاميا اليونان - والمراجع .
- ١٥- ١٧- اسماء المراجع

١٨ - رادولف مرجع سابق . ص ١٠٢ تروى الاسطورة ايضاً خلق الانسان . فيليريك خان يطلب المزيد من التراب الذي يستطيع تنظيمه بالعصى . فيضرب الأرض وتظهر الحيوانات الضارة .
اخيراً يرسله الاله تحت الأرض . ان العداوة بين ايرليك والاله لا تشير بالضرورة الى مفهوم ثنائي - في نقوش صخرية تركيكية ، ايرليك هو اله الموت .

١٩ - ٢٢ - اسماء المراجع

٢٣ - منذ بداية نصف القرن الأخير ، جرت المحاولة عدة مرات لشرح ظاهرة الشامانية السيرية والشمالية بمرض عقلي . ولكن المسألة طرحت بشكل سيء . فمن جهة ان الشامانيين المقبلين ليسوا مؤهلين للنرفة ، ومن جهة اخرى فإن الذين كانوا من بينهم مرض اصحوا شامانيين لأنهم نجحوا فعلاً بالشفاء . ان اعادة تعادل شفاء ؛ انها تترجم بين اخرى بتكامل نفسي جديد . (الشامانية للمؤلف) .

٢٤ - ٢٥ - اسماء المراجع

٢٦ - هذه الشعيرة تذكر ببعض حفلات الاسرار الميثرية . وهكذا فإن تظهر المرشح بالدم كبش ، وصعوده من الشجرة يذكر بالصوفي الميثري المتسلق سلماً من سبع درجات مثلاً السموات السبع الكوكبية (ف. ٢١٧) وكما لاحظنا فإن التأثيرات الشرق اوسطية القديمة واضحة في كل مكان من اسيا الوسطى في سيبيريا ، والشعيرة التكريسية للشامان بوريات ويجب لها على الراجح جد أن تصنف بين تجارب هذه التأثيرات . الا انه يجب ان نضيف ان رمزية شجرة العالم وشعيرة الصعود التكريسي للشجرة يسبق العناصر لثقافة واصلحة من ميز وبوتانيا وايران .

٢٧ - انظر المصادر المذكورة في كتاب الشامانية للمؤلف ف. ٧١-٧٢ . . عندما خلق آجي توجون اول شامان ، غرس كذلك شجرة سنذر ذات اغصان ثمانية في مقره السهاوي وعلى هذه الاغصان اعشاش حيث وجدت اطفال الخالق . فقد غرس اضافة لذلك ثلاثة اشجار على الأرض ، وعلى ذكرها ان الشامان يملك هو ايضاً شجرة ، وحياتها تنوع ما هو مرتبط وذات المرجع . وبعض الشامانيين في احلامهم الوجدية نقلوا بالقرب من الشجرة الكونية ، التي يوجد في قمها سيد العالم .
٢٨ - ٢٩ - لدى المونغول يرتبط شامانيون حصراً باجدادهم (سترانبرج .) اختيار الهي

ف ٤٥٥

٣٠ - كما سنرى فإن لدى الأليثيك - ان الشامان هو ذاته الذي يضحي بالحصان ، ولكنه يفعله لأنه مدعو ليقود روح الضحية حتى بي - اولغان .

٣٣ - لكي يعطى صورة اخاذة عن سفره ، يتأرجح ويتفادى السقوط . ينظر في قاع البحر عظام مالا يحصى من الشامانيين الذين سقطوا فيه ، لأن المذنب لا ينجح في اجتياز الجسر .

٣٤ - ٤٤ - اسماء المراجع

٤٥ - ليهنيالو- ملخصة في ذالموكسي و- اسطورة ثانية مهامويدية تمثل منذ البدء العداوة بين نوروم والموت .

- ٤٦ - ٥٠ - اسماء المراجع
- ٥١ - المصادر المكتوبة (سير ذاتية) تقارير المبشرين والعاملين والكنائس الخ . تحتوي احياناً على معلومات مفيدة ولكن يجب الأخذ بها بحذر . فاعلبية منشئها يجهلون اللغة الباطية اضافة لذلك ، فإنهم قد (مثلوا) الوثنية العرقية حسب نماذج الدعاية للمؤرخين المسيحيين .
- ٥٢ - ٥٦ - المصادر التي اعتمدها المؤلف .
- ٥٧ - هذه العادة القديمة تأكدت مما قبل التاريخ كما هو في ميزوبوتاميا والصين والتبت الخ واستمرت مع ذلك حتى القرن الخامس عشر .
- ٥٨ - ٦٥ - اسماء المراجع
- ٦٦ - ٦٧ - اشتقاقه اللغوي غير مؤكد ، فقد فرض الجندر السلافي srei - لون او الايراني سريري = جميل لقب عام بالنسبة للريح ولكنها توحى ايضا بريق الشمس .
- ٦٨ - دمر المعبد في ١١٦٨ . وبعض المعابد الصغيرة لجزيرة روجين ، كذلك المعبد المرتفع على تلة ريديفو دمرت في القرن ١٢ و ١٣ اثناء حملات الايمان المكره عليها بالمسيحية .
- ٦٩ - القس جارقوا أعلن باسمه «اني ربكم الذي يغطي الحقول بالعشب والغابات بأوراق الشجر . وان محاصيل الحقول والغابات وكل الاشياء النافعة للبشر هي من قدرتي» .
- ٧٠ - ٧٢ - اسماء المصادر
- ٧٣ - لنضيف ان العبارة roy التي اقبل تعبيرها عن المعنى المسيحي للجنة ، كان لها ذات الدلالة لـ Bog = ثروة = غنى .
- ٧٤ - ٧٦ - اسماء المصادر .
- ٧٧ - غامباريني يذكر بخطوط اخرى ليست هندو - اوروبية ، الاعراس الزوجية - وجود قبيلة امومية وسلطة الخال الامومية - والرجوع الدوري للزوجة لعند الاقارب .
- ٧٨ - ٨٠ - اسماء المصادر .
- ٨١ - كذلك غير معلوم في المانيا وفي الغرب ، حينئذ أن les patarini, les cuthres انتشرت حقاً في فرنسا الجنوبية وفي المانيا والبيرنيه ، عدد من البواعث الفولكلورية من أصل ما نوى وبوغومولي .
- ٨٢ - مع ذلك نجد في التقاليد الايرانية التي تمضي تنفذ تمل الذرفانيين (ذ ٢١٣) - سببين او بواعث ، مثلان : إخوة الاله «مسيح» - شيطان ، وفي الاساطير البلقانية ، القصور أو الشلل العقلي للاله بعد خلق العالم .

الفصل الثاني والثلاثون

الكنائس المسيحية حتى الأزمة الايقونية (القرن ٨-٩)

٢٥٢ - روماليسٲ pereat..

كتب هوغ تريفور- روبر Hug trevor- Roper «إن نهاية العصور القديمة ، والافلاس النهائي لحضارة البحر المتوسط الكبرى للاغريق والرومان . يشكل واحدة من المسائل الأكثر أهمية من التاريخ الأوروبي . ولم يتفق على اسبابها - حتى على تاريخ بدايتها . وكل ما يمكن تأكيده هو ان عملية بطيئة ، قلبية ذات اتجاه واحد في ظاهرها ، تبدو أنها بدأت في القرن الثالث وانتهت في اوروبا الغربية في القرن الخامس^(١)».

ومن بين اسباب انحلال الامبراطورية وخراب العالم القديم أثر- وما زال يثار ايضاً - المسيحية ؛ وبدقة اكثر ، اعلاؤها كدين رسمي للدولة . ولن نعالج هنا هذه المسألة الصعبة والمثيرة . ويكفي التذكير بأن المسيحية اذا كانت لم تشجع النزعة والفضائل العسكرية ، فإن الحرب الكلامية (المجادلة) ضد الامبراطورية من قبل المدافعين الأول

عن المسيحية قد فقدت حجتها لأن تكون بعد اعتناق قسطنطين للمسيحية (ف. ٢٣٩ع). وما هو أكثر من ذلك : قرار قسطنطين بتبني المسيحية وإنشاء عاصمة جديدة على البوسفور قد جعل ممكناً الحفاظ على الثقافة التقليدية الاغريقية - اللاتينية^(٢). إلا أنه من الواضح ، ان هذه النتائج الجيدة لتمسيح (جعل الامبراطورية مسيحية) قد فأت المعاصرين . وبخاصة ، عندما حاصر آلاريك زعيم القوط (هو مسيحي ايضاً دائماً حسب هرطقة آريوس) روما في آب ١٠ع واستباحها مبيداً قسماً من سكانها . وهذا الحدث ، رغم ثقله النوعي ، لم يشكل ، من الوجهة النظر العسكرية والسياسية ، كارثة ، لأن العاصمة كانت في ميلان .

ومع ذلك فإن الحدث هز الامبراطورية من طرفها إلى طرفها الآخر . وكما كان متوقفاً ، فسرت النخبة الدينية والاطراف الثقافية والسياسية للوثنيين ، هذه النكبة التي لا سابقة لها بالتخلي عن الديانة الرومانية التقليدية وتبني المسيحية^(٣) .

وللرد على هذه التهمة حرر اوغسطين اسقف هيون بين ٤١٢ و ٤٢٦ اهم مؤلف له *De civitate Dei Contrapagnas* . وهو مؤلف يتعلق بدنياً بنقد الوثنية وبعبارة أخرى الميتولوجيات والمؤسسات الدينية الرومانية. متبوعاً بلاهوت من التاريخ مميّز بعمق الفكر المسيحي الغربي . وفي الواقع لم يهتم اوغسطين بالتاريخ العالمي ، كما كان مفهوماً في ذلك العصر . فلم يذكر من بين امبراطوريات العصر القديم سوى آشور وروما [على سبيل المثال ١٨ - ٢٧ - ٢٣] . ورغم تنوع الموضوعات التي تعرض لها وثقافته البارزة ، فإن اوغسطين قد التزم فقط بالحدثين اللذين ، بالنسبة للمسيحي ، بدأا ووجها التاريخ : خطيئة آدم ، وخلص البشرية بالمسيح . لقد رفض نظريات أبدية العالم ، والعود الأبدي ، ولكنه لم يهتم برفضها . فالعالم مخلوق من قبل الاله وسيكون له نهاية ، طالما أن الزمن ممتد ومحدود . وبعد السقوط الأصلي ، كان التجديد الوحيد الهام هو التجسيد . وان الحقيقة ، التاريخية والانقاذية معا ، تكشفنا في التوراة ، لأن مصير الشعب اليهودي يظهران للتاريخ معنى ويتابع هدفاً محدداً : سلامة البشر [١٧ ، ٣ ، ٧ ، ٨١٢ - ٢٥ الخ] . وبالجمله فإن التاريخ يتكون في الصراع بين المتحدرين من قابيل والمتحدرين من هابيل [١ ، ١٥] .

ويعين أوغسطين هذه المراحل : (١) من آدم حتى الطوفان ، (٢) من نوح لابراهيم ، (٣) من ابراهيم لداوود (٤) من داوود إلى الأسر البابلي ، (٥) من النفي للمسيح . هذا وإن المرحلة السادسة ستمتد حتى العودة الثانية للمسيح^(٤) . وكل هذه المراحل التاريخية تسهم في المدينة العرضية الموقوتة *à la civitas Teremina* المستعملة لأول مرة مع جريمة قايين والتي تعارضها مدينة الله *Civitas dei* . إن مدينة البشر تفتتح تحت علامة الخلاء *vanita* فهي موقوتة وفانية ، وتستمر بالتوالد الطبيعي ، ومدينة الله خالدة وغير فانية ومضاءة بالفضيلة ، وهي تقيم المكان الذي يتم فيه التجدد الروحي . ففي العالم التاريخي (سيكولوم *saeculum*) يكون الصالحون ، تماما كهائيل ، حجاج ماضون نحو الخلاص . وفي آخر المطاف ، فإن مهمة - وتحقيق - الامبراطورية الرومانية . هو لاسناد السلام والعدالة ، لكي يتمكن الانجيل من الانتشار عالميا^(٥) . ولا يشارك أوغسطين في رأي بعض الكتاب المسيحيين الذين كانوا وضعوا رخاء الامبراطورية في علاقة مع نجاحات الكنيسة . وهو لم ينقطع عن تكرار ان على المسيحيين أن لا ينتظروا سوى الظفر النهائي للمدينة الالهية ضد حضارة البشر . وهذا الانتصار لن يكون محله في الزمن التاريخي كما توهم الشيلياستيون والألفيون و *les chiliastes et les millénaristes* . الأمر الذي يدعو إلى القول ، إنه حتى ولو آمن كل العالم بالمسيحية ، فإن الأرض والتاريخ لن يكونا متحولين . وما له دلالة ان آخر كتاب من مدينة الله [٢٢] مكرس لبعث الاجساد .

أما بالنسبة لاجتياح المدينة من قبل آلاريك ، فإن أوغسطين يذكر بأن روما قد عرفت في الماضي كوارث أخرى ، وهو يصبر على واقعة ان الرومان قد استعبدوا واستغلوا شعوبا عديدة لا تحصى ، وعلى كل حال ، وكما أعلن أوغسطين في قسم شهير أن روما لن تفنى اذا لم يفنى الرومان !! وبعبارة أخرى ، ان صفات أو مزايا البشرية التي تضمن استمرارية المؤسسة وليس العكس .

وعندما ازف عام ٤٢٥ قبل خمس سنوات من موته ، كان أوغسطين قد اكمل مدينة الله ، وتدنيس آلاريك كان قد نسي ، ولكن الامبراطورية في الغرب قربت من نهايتها . وبالنسبة للمسيحيين ، خاصة ، الذين خلال القرون الأربعة التالية ، كان عليهم مشاهدة تبعثر الامبراطورية ، وتبرير أوروبا الغربية ، فإن مؤلف القديس

اوغسطين كان ملائماً . فكتاب مدينة الله قطع جذريا التضامن التاريخي بين الكنيسة والامبراطورية الرومانية العاتية . وبما ان الارشاد الحقيقي للمسيحي هو متابعة الخلاص ، وان اقتناعه الوحيد هو بالنصر النهائي والآخر لمدينة الله ، فإن كل الكوارث التاريخية تتحقق في آخر مرحلة ، مجردة من دلالة روحية .

وثناء صيف ٤٢٩ وخريف ٤٣٠ ، اجتاح الفاندال الذين اجتازوا مضيق جبل طارق موريتانيا ونوميديا . واحتلوا ايضاً هيون عندما مات أوغسطين في ٢٨ آب ٤٣٠ . وبعد سنة من موته استبيحت المدينة واحرقت وانقطعت افريقيا الرومانية عن الوجود .

٢٥٣ - اوغسطين : من تاغاست إلى هيون .

كما هو الأمر بالنسبة لمؤسسي الأديان ، قديسين ، أو صوفيين (على سبيل المثال ، بوذا محمد القديس بولس ، ميلاريا ، اغناطيوس ودي ليولا الخ) فإن السيرة الذاتية للقديس اوغسطين تساعدنا لفهم بعض ابعاد عبقرية . فقد ولد في ٣٥٤ في تاغاست ، وهي مدينة صغيرة من افريقيا الرومانية ، من أب وثني وأم مسيحية ، وقد جذبته بدنيا علم البيان ، واعتنق المانوية بعدئذ وبقي وفيها لها تسعة اعوام ، واتخذ له خلية انجبت له ابنه الوحيد ايدوداتوس Adeodatus . وفي ٣٨٥ ، استقر في روما مع أمل ايجاد وظيفة معلم . وبعد سنتين ، ارسله حاميه سيماتوس قائد النخبة الوثنية المثقفة إلى ميلان ، وخلال هذا الوقت ، ترك اوغسطين ديانة ماني وكرس نفسه بشغف للدراسة الافلاطونية المحدثة . وفي ميلان تقرب من الاسقف امبرواز ، الذي كان يتمتع باحترام ملحوظ قبل الكنيسة كما في البلاط الامبراطوري . ومنذ فترة من الزمن ، كان تنظيم الجماعات قد تبني التركيبات التي استمرت قائمة حتى القرن العشرين : استبعاد النساء من طبقة رجال الدين ومن النشاطات الروحية (توزيع القداسات ، التعليم الديني) ؛ والفصل بين رجال الدين والعلمانيين ؛ واستعلاء الاساقفة .

وسرعان ما انضمت (مونيك) والدته اوغسطين إليه ، وكانت على ما يرجح هي

التي اقنعت بالانفصال عن خليلته (لكن اوغسطين سرعان ما اتخذ غيرها) . وقد توصلت مواعظ وامثلة امبرواز ، وتعمقه بالافلاطونية المحدثه إلى اقناعه بتوجب الانعتاق من الخدانة . وفي يوم من صيف ٣٨٦ ، سمع في الحديقة المجاورة صوت طفل قائلاً : «خذ واقرأ» . ففتح اوغسطين العهد الجديد وتوقف بصره على مقطع من الرسالة للرومان [١٣: ١٣-١٤] «لا قصف ولا تهتكات ، لا دعاة ولا فجور .. ولا خصام ولا حسد .. بل البسوا الرب يسوع المسيح .. ولا تشغلوا بالجسد لاشباع شهواته» .

لقد عمّد من قبل امبرواز في عيد الغطاس من عام ٣٨٧ وقرر الرجوع إلى افريقيا مع عائلته ، ولكن (مونيك) توفيت في اوستي (أديوداتوس سيموت بعد ثلاث سنوات) . وقد شكل اوغسطين في تاغاسيت ، مع اصدقائه نصف رهبانية ، وتم اعتماده كاهناً وعيّن مساعداً للاسقف الذي خلفه في ٣٩٦ . وحتى موته كرّس اوغسطين نفسه في مواعظه ورسائله ومؤلفاته الكثيرة للدفاع عن وحدة الكنيسة وتعميق المذهب المسيحي . ولقد اعتبر بحق وكأنه اللاهوتي الاكبر والاكثر تأثيراً من كل لاهوتي الغرب . ومع ذلك ، لم يتمتع بمثل هذا في الكنيسة الشرقية .

ويمكن التعرف في لاهوت اوغسطين على العلاقات العميقة لمزاجه ولسيرته الذاتية الداخلية فبرغم نبذه للمانوية ، حافظ ايضاً ، كما سنرى ، على مفهوم مادي «للطبيعة الشريرة للانسان» ، نتيجة للخطيئة الأصلية المستقلة بالجنسية . أما بالنسبة للافلاطونية المحدثه ، فإن تأثيرها كان حاسماً . فالانسان ، بالنسبة لأوغسطين ، هو روح تستخدم جسداً .. وعندما يتكلم كمسيحي فإن اوغسطين يهتم ويتخذ كل عناية ليذكر بأن الانسان هو وحدة الروح والجسد ، وعندما يتفلسف ، يعاود السقوط في التعريف «الافلاطوني»^(٦) . ولكن مزاجه الحساس بخاصة ، وصراعه المستمر ، بدون نجاح من جهة اخرى ، ضد التسري ، والتي ساهمت جميعها في التمجيد اللامحدود للعناية الالهية ، وبصورة خاصة في تصليب متنامي لأفكاره حول سبق تقرير المصير (ف ٢٥٥ع) .

واخيراً ، بالرجوع إلى الحياة التأملية ، وتقبله كل مسؤوليات الكاهن والاسقف ، عاش اوغسطين حياته الدينية في جماعة المؤمنين . واكثر من أي لاهوتي كبير آخر ، وحد

أوغسطين التوجه نحو الخلاص مع حياة الكنيسة . ولأجل هذا السبب أجهد نفسه حتى أواخر أيام حياته لدعم وحدة الكنيسة الكبرى . فعند أوغسطين ، كان الذنب الأكثر بشاعة هو التمهيد sehisme . ولم يتردد أبداً في التأكيد على إيمانه بالانجيل لأن الكنيسة كانت أمرته بالاعتقاد .

٢٥٢ - السلف الكبير لأوغسطين - أوريجين

عندما تأمل أوغسطين مؤلفاته ، كان اللاهوت المسيحي في عز نهضته . وفي الواقع ، يشكل النصف الثاني من القرن الرابع ، العصر الذهبي لآباء الكنيسة . إن الآباء الكبار ومن هم أقل عظمة بينهم - باسيل قيصرية - وغريغور نازيانز ، وغريغوريس ، ويوحنا فم الذهب ، وإيذا جر الراهب وغيرهم أيضاً - قد نهضوا واكملوا عملهم ، تماماً قبل امبرواز ، في سلام الكنيسة . فقد كان اللاهوت محكوماً أيضاً من قبل الآباء الاغريق . وكان اتهاناس هو الذي صاغ ، ضد هرطقة آريوس ، نظرية وحدة الجوهر في الأقانيم الثلاثة la consubstantialité من الأب والابن ، صيغة قبلت من المجمع المسكوني في نيس سنة ٣٢٥ . ومع ذلك فإن الأكثر عبقرية والأكثر جرأة ، أوريجين (١٨٥-٢٥٤) والوحيد الذي يمكن مقارنته بأوغسطين ، لم يتمتع أبداً بالسلطة التي كان يستحقها ، مع ان تقديره وتأثيره قد ازداد بعد موته .

إن أوريجين المتولد في الاسكندرية من أبوين مسيحيين تميز بذكائه ، وبحماس وإبداعية فوق المألوف ، وقد وهب نفسه ، بحمية وثقافة ، لخدمة الكنيسة (بدئياً في الاسكندرية وبعدئذ في قيصرية) . غير انه ، وهو مقتنع بأن الكشف التوراتي والانجيلي ليس لهما ما يخشيان من الفلسفة الافلاطونية ، فقد درس على امونيوس ساكاس الشهير «الذي سيصبح بعد عشرين سنة معلم افلوطين» . وقد قلر أوريجين أن على اللاهوتي ان يعرف ويتمكن من الثقافة الاغريقية ، وذلك بهدف ان يفهمه المثقفون الوثنيون ، وكذلك المسيحيون الجدد المشبعون بالثقافة التقليدية . (وهكذا سبق عملية أصبحت عامة بدءاً من القرن الرابع) .

إن عمله غير محدود : ففي دراسة النصوص (فيلولوجيا) (أسس النقد الثوراتي

مع الهيكسابل les Hexaples ، منافح عن الكنيسة (ضد سيلز) ، مفسر (حفظت له عدة شروح كبيرة) ، بليغ على المناير ، لاهوتي ، ميتافيزيقي ، ولكن هذا العمل الكبير ضاع في القسم الأكبر منه . وخارجاً عن (ضد سيلز) وبعض الشروح والخطابات المنبرية ، يوجد لدينا رسالة الصلاة وإرشاد الشهيد ، ورسالة لاهوتية ، والمبادئ الذي هو بلا شك أهم مؤلفاته ، وكما يقول أوزيب ، فإن أوريجين لكي يتخلص من الشهوة ، فسر «في معنى أدبي بالغ» مقطعاً من انجيل متى ^(٨) ومجد طيلة حياته المحن وموت الشهداء . وإثناء اضطهاد ديسيوس في سنة ٢٥٠ حبس ومات أثناء التعذيب سنة ٢٥٤ .

ومع أوريجين انحصرت الافلاطونية المحدثه نهائياً الفكر المسيحي ، فالنظام اللاهوتي لأوريجين هو بنيان من عبقرية أثرت كثيراً بالأجيال التالية . غير ان العديد من التعليمات ، الجريئة جداً ، كانت قابلة لتفسيرات سيئة المقصد . فحسب أوريجين ، ان الاله الأب هو متصاعد (مفارق) وغير ممكن ادراكه ، وقد أحدث ابدياً ، الابن ، صورته ، الذي هو في آن واحد لا يمكن ادراكه وقابل للادراك . وعبر الكلمة ، يخلق الاله العديد من الأرواح النقية (logikoi) ، ويهبها حياة ومعرفة . غير ان كل الأرواح الطاهرة ، باستثناء المسيح ، تتعد من الله . ان أوريجين لا يفسر السبب الدقيق لهذا الابتعاد . انه يتكلم عن الاهیال ، والسأم ، والنسيان . وباختصار ، فإن الازمة تفسر ببراءة الأرواح الطاهرة . وبابتعادها عن الله تصبح «أرواحاً» دبرها الأب لأجساد مادية ذات علاقة مع ثقل ذنوبها : أجساد ملائكة ، بشر ، او شياطين .

وعندئذ ويفضل قرارها الحر ، ولكن بالعناية الالهية ايضاً ، تبدأ هذه الأرواح الساقطة الرحلة التي ستتهي بتقريبها من الله . وفي الواقع ، إن أوريجين يفكر بأن الروح لم تفقد الحرية بالاختيار بين الخير والشر على اثر الإثم الأصلي (فكرة سيعاد الأخذ بها من قبل بيلاج كما سنرى) . إن الاله ، الكلي العلم ، يعرف مسبقاً اعمال أو تصرفات حریتنا [حول الصلاة ٧-٥] . ويرفض أوريجين ، وهو يشير إلى الوظيفة الغفرانية للحرية ، قدرية الغنوصيين وبعض الفلاسفة الوثنيين ، إن الجسد ، بالتأكيد ، يشكل عقاباً ، ولكنه في ذات الوقت الوسيلة التي بها يكشف الاله ذاته ، ويدعم الروح في رفعها .

إن المأساة العالمية يمكن لها ان تعرف كما لو أنها المعبر من البراءة إلى التجربة ، عبر تجارب الروح اثناء رحلتها نحو الله . والخلاص يعادل العودة للكمال الأصلي ، l'apokatastasis («بعث كل الاشياء») . ولكن هذا الكمال النهائي هو أعلى من كمال الأصول ، لأنه معصوم ، اذن نهائي [مباديء ٢٠-١١-٧] . وفي هذه الفترة سيكون للأرواح «اجساد من القيامة» . إن خط المسيرة الروحية للمسيحي موصوفة على نحو باهر بمجازات السفر ، من التنامي الطبيعي والمعرفة ضد الشر . وفي النهاية ، فإن أوريجين ظن ان المسيحي الكامل يستطيع معرفة الله والاتحاد معه بالحب^(٩) .

إن أوريجين ، وقد سبق ان انتقد اثناء حياته ، فإنه قد هوجم ايضاً من قبل اللاهوتيين لزمّن طويل بعد مماته ، وبناء على طلب الامبراطور جوستنيان ، ادين نهائياً في المجمع المسكوني الخامس في عام ٥٥٣ . وبخاصة فإن إناسته ومفهومه عن الكمال الأصلي هما اللذان ازعجا العديد من اللاهوتيين . فقد اتهم بوصفه فيلسوفاً وغنوصياً أكثر مما هو لاهوتي مسيحي . فالأبو كاتاستاز اقتضى الخلاص الشامل ، إذن خلاص الشيطان ؛ وأكثر من هذا ، أدخل عمل المسيح في عملية من نموذج كوني . الا أنه يجب أن يؤخذ في الحسبان الزمن الذي كتب فيه أوريجين وبخاصة الصفة الموقّعة لتأليفه . فقد اعتبر نفسه بذاته في خلدمة موقوفة على الكنيسة ، وعبر عن ذلك بالعديد من التصريحات^(١٠) ، الواضحة والثابتة ، كذلك فإستشهاده قد أثبت هذا ، ومما يؤسف له ، ان الخسارة بفقدان العديد من مؤلفات أوريجين يجعل من الصعب احيانا التمييز بين افكاره الخاصة وأفكار (الأوريجينيين) . ومع ذلك ، ورغم الشك بجزء من التسلسلية الكنسية ، فإنه مارس تأثيراً على الآباء القبادوسيين . وبفضل باسيل الكبير وغريغوار النازيانزي وغريغوراليسي ، فإن الجزء الرئيسي من الأفكار اللاهوتية لأوريجين قد حفظت داخل الكنيسة . وعبر القبادوسيين ، أثر على ايفاجر الراهب ، وجان كاسيان ، خاصة في مفاهيمهم حول التجربة الصوفية والرهبة المسيحية .

ولكن الادانة النهائية لأوريجين حرمت الكنيسة من امكانية وحيدة لتدعيم عالميتها ، خاصة بفتحها اللاهوت المسيحي للحوار مع نماذج أخرى من الفكر الديني (على سبيل المثال الفكر الديني الهندي) . ومع كل تطبيقاته الجريئة ، فإن رؤية الخلاص الشامل l'apocatastasie تصنف بين الابداعات الأخروية الكبرى^(١١) .

٢٥٥ - الأوضاع الجدلية لأوغسطين . مذهبه في النعمة الالهية والجبرية

بعد بضع سنوات من تكريسه اسقفاً ، حرر اوغسطين اعترافاته في سنة ٣٩٧ ، لقد اغتم بالذكريات الحية جداً عن شبابه ، «مذعوراً بعمق بتقل ذنوبه» [١٠، ٤٣، ١٠] . لأن «العدو حولها ضد ارادتي إلى غل اوثقني به بكل قوة» [٨-٥-١] . وتأليف هذا الكتاب يعادل علاجاً طيباً : فجهده بهدف المصالحة مع ذاته . وهذا هو في آن واحد سيرة ذاتية روحية ، وصلاة طويلة ، يحاول اوغسطين بمساعدتها ، الدخول إلى طبيعة الله . «انني غبار ورماد ، ولكن دعني اتكلم ! لرحمتك اتكلم وليس إلى البشر !!» [٧، ٦-١] . انه يتضرع لله بعبارات صلاة : «اله قلبي» يا لفرحي المتأخر «مر بما تريد» . «اعط ما أحب» . إن اوغسطين يستدعي ذنوبه ، ومآسي شبابه - سرقة ثمار الكمثرى ، ترك خديته ، يأسه بعد موت صديق - ليس من اجل منفعتها القصصية ، وانما من أجل الانفتاح على الآله ، ومنه ، لتحقيق ثقلها بشكل افضل . ان اللهجة المثيرة للاعترافات تصدم قرائها ، تماماً كما اثرت في بيتراك وكتاب العصور التالية .^(١٣) ومن جهة أخرى فإن هذا الكتاب هو الوحيد لأوغسطين الذي ، حتى يومنا ، يقرأ مع فائدته في العالم كله - وكما ردّدنا غالباً ، فإن الاعترافات هي «الكتاب الأول الحديث» .

ولكن أوغسطين بالنسبة لكنيسة ، القرن الخامس ، كان اكثر من كاتب الاعترافات . فقد كان ، قبل كل شيء اللاهوتي والناقد المعتبر للهرطقات والتمذہبات . وقد استهدفت مجادلاته الأولى المانوية ومبدعات دونا (اسقف قرطاج في القرن الرابع) . فأوغسطين في شبابه اعجب بمآني ولأن الثنائية سمحت له بتفسير الأصل والقوة ، التي تبدو غير محدودة ، للشر ، ومنذ بعض الوقت ، كان قد نبذ المانوية ، غير ان مسألة الشر ظلت تقلقه دائماً . بدئياً ، ومع باسيل الكبير ، حل اللاهوتيون المسيحيون هذه المسألة بافكار الحقيقة الانطولوجية للشر . وعرف باسيل الشر بأنه «فقدان الخير» وبالنتيجة ، فإن الشر غير مرتبط بمادة خاصة به ، ولكنه يظهر بالتشويه للروح» [هيكساميرون ٥: ٢] وكما يبدو بالنسبة لتيت البصري (Tite de Bosra) (المتوفي ٣٧٠) وبالنسبة ليوجنا فم الذهب (٣٤٤-٤٠٧) تقريباً . فإن الشر كان «غياب الخير» .

ويعاود اوغسطين أخذ ذات البراهين في رسائله الخمسة التي ألفها ضد المانوية بين ٣٨٨ و ٣٩٩ . كل ما خلقه الله فهو حقيقي ، يشترك في الكائن ، ومن هنا فهو خير . والشر ليس جوهرأ ، لأنه لا يحتوي على أي اثر للخير . وان هذا الجهد يائس لانقاذ الوحدة ، والقدرة الكلية والطيبة لله ، بحله من التماسك عن وجود الشر في العالم . (لقد لوحظ جهد مماثل لحل الله من ظهور الشر ، في الأساطير النشكونية الأوروبية الشرقية والوسط - اسيوية ر.ف ٢٥١) . إن مذهب la Privatio boni قد شغل اللاهوتيين المسيحيين حتى أيامنا هذه ؛ ولكنه لم يفهم ولم يشارك فيه جمهور المؤمنين . وعند اوغسطين ساهم الجدل ضد المانوية ١٤ في تصليب مفهومه عن الانحطاط العام للانسان ، وتوجد في لاهوته بعض الخيوط من التشاؤمية والمادية المانوية عن العناية . [٥٨-٥٠] .

ومذهب دوناتوس ، اسقف فوميديا ، بدأ في ٣١١ و ٣١٢ اثناء مرحلة السلام التي تلت اضطهادات ديوكليسيان . وقد كان الدوناتيست استبعدوا من كنائسهم الاعضاء من طبقة رجال كانوا تزعموا بطريقة أو أخرى اثناء الاضطهاد . وقد حسبوا ان توسط النعمة باسرار القربان المقدسة كان مشبوها اذا كان من يدبر الاسرار مذنبأ . ومع ذلك ، فإن اوغسطين قد رد عليهم ، بأن قداسة الكنيسة لا تتعلق ابداً بكمال طبقة رجال الدين والمؤمنين ، وانما بالنعمة المنقولة بالتقديسات ؛ وتما ، كما ان الفضيلة الانفاذية للتقديسات لم ترتبط بإيمان من تلقاها . ولكي يتجنب التمذهب ، اجهد اوغسطين نفسه خلال سنوات عديدة لمصالحة الدوناتيت مع الكنيسة الكبرى ، ولكن دون جدوى .

إن المجادلة الأكثر حدة والتي كان لها نتائجها البارزة ، هي التي حصلت مع بيلاج Pélage وزملائه . وبيلاج راهب بريطاني متقدم في السن وصل الى روما سنة ٤٠٠ ، وقد تأثر جداً بسلوك واخلاق المسيحيين فأجهد نفسه لاصلاحهم . وسرعان ما أدى عنفه التنسكي وثقافته إلى تمتعه باحترام كبير . وفي سنة ٤١٠ ، التجأ مع بعض زملائه إلى افريقيا الشمالية . ولكنه لم يوفق في لقاء أوغسطين ، فتوجه عندئذ صوب المقاطعات الشرقية ، حيث حصل على ذات النجاح الذي صادفه في روما ، وقد مات هنالك بين ٤١٨ و ٤٢٠ .

لقد كان لبيلاج ثقة غير محدودة في امكانيات العقل ، وبخاصة في ارادة الانسان بممارسته للفضيلة والنسك ، وكان يعلم بأن كل مسيحي مؤهل للوصول إلى الكمال ، واذن للقداسة . والانسان وحده مسؤول عن ذنوبه ، لأنه يتصرف بقدرة على فعل الخير وتجنب الشر ؛ وبعبارة اخرى ، انه يتمتع بالحرية ، «لتحكم حر» . وذلك هو السبب الذي من أجله لم يقبل بيلاج الفكرة بأن الخطيئة الأصلية هي آليا وبشكل شامل موزعة بين ابناء آدم . «اذا كانت الخطيئة فطرية فهي غير ارادية واذا كانت ارادية ، فهي غير فطرية» . ان هدف تعميم الاطفال ليس غسل الذنب الأولي ، وانما تقديس المولود الجديد بالمسيح . وبالنسبة إلى بيلاج ، توجد الرحمة في كشوفات الاله عبر القانون ، وبخاصة عبر يسوع المسيح . وان تعليم المسيح يشكل نموذجاً يمكن ان يحتذى من قبل المسيحيين . وباختصار إن الانسان ، في اللاهوت البيلاجي ، يرنو لأن يكون نوعاً ما الصانع لسلامه الخاص^(١٥) .

لقد كان تاريخ البيلاجية قصيراً ولكنه على قسط كبير من الحركة ، فبيلاج جُرم وبُرّي عدة مرات من قبل المجامع والسنودسات المختلفة ، ولم تدان البيلاجية نهائياً الا في سنة ٥٧٩ في سنودس البرتقال ، خاصة على أساس الردود التي حررها اوغسطين ما بين ٤١٣ و ٤٣٠ . وتما كما في جداله ضد الدوناتيين ، هاجم اوغسطين بدنيا التشدد في التنسك والرغبة المرضية في بلوغ الكمال الخلقي الذي سبق لبيلاج ان طرحه . وكان انتصاره بخاصة انتصار الجماعة العلمانية المتوسطة للكنيسة ضد فكرة مثل من التنسك والاصلاح^(١٦) . ان الأهمية الحاسمة المناطة بالنعمة من قبل اوغسطين ، اذن بالقدرة الكلية لله ، استندت للتقليد التوراتي ولم تكن لتعيق الشفقة الشعبية . أما بالنسبة لمذهب القضاء والقدر ، فقد عنى النخبة بصورة خاصة ..

وقد سبق لأوريجين ان اعتمد بأن العناية الالهية (أي سبق العلم الالهي) ليست سبب تصرفات الانسان ، هذه التصرفات التي يتمها بحرية تامة وهو مسؤول بالنسبة إليها . إن المرور من عقيدة سبق العلم الالهي ، الذي لم يعق حرية الانسان ، إلى لاهوت التقدير المسبق ، يكتمل بلاهوتية الخطيئة الأصلية . وقد كان أمبرواز لاحظ العلاقة السببية بين ، الحبل العذري بيسوع المسيح من جهة ، وبين الفكرة بأن الخطيئة الأولى تنقل بالقران الجنسي من جهة اخرى . وبالنسبة لسيريان (٢٠٠-٢٥٨) فإن

التمعيد للأطفال كان ضروريا حقاً لأنه كان يحوي الخطيئة الأصلية .

ويعاود أوغسطين أخذ افكار سابقة ويمدها ويعمقها . ويؤكد بخاصة على واقعة أن الرحمة هي حرية الاله بأن يعمل دون أية ضرورة خارجية . فيما ان الله سيد مطلق - خلق كل شيء من عدم - فإن الرحمة ، هي ايضا سيده .

وهذا المفهوم لسيادة souverainete القدرة الكلية والرحمة الالهية تجد تفسيرها الكامل في مذهب القضاء والقدر . فقد عرف اوغسطين القضاء المقدر prédestination وكأنه «التنظيم المسبق من الله لافعاله المقبلة التي لا يمكن لها ان تخطيء أو تتغير» . ولكن اوغسطين يضيف بأن القضاء والقدر لا يوجد له شيء مما يبدو في قدرة الوثنيين : الاله يعاقب ليظهر غرضه وبثب قوته . ويشكل التاريخ العالمي الحلبة التي تظهر فيها افعاله . فبعض الناس يتلقى الحياة الابدية ، وبعضهم اللعنة الابدية - وبين هؤلاء الآخرين ، الأطفال الموتى دون تعميد . وهذا القدر المزدوج - في السماء وفي الجحيم - هو ، كما يعترف أوغسطين ، غير ممكن أن يعرف لأنه منقول بالتناسل الجنسي^(١٧) فالخطيئة الأصلية شاملة ولا مفر منها كالحياة ذاتها . وفي آخر المطاف فإن الكنيسة تتألف في عدد ثابت من القديسين المعينين سلفاً حتى قبل خلق العالم .

وقد صاغ اوغسطين وهو مسترسل في جداله ، بعض الأطروحات ، التي ، مع أنها لم تقبل من قبل الكنيسة الكاثوليكية ، أثارت اعتراضات لا حد لها في اللاهوتيات الغربية . وقد قورن هذا اللاهوت الصلب بالقدرة الوثنية . وما هو أكثر من ذلك ، ان القضاء والقدر الاوغسطيني قد أخرج العالمية المسيحية ، التي تبعا لها أن الله يرغب في خلاص كل البشر . ولم يكن مذهب النعمة هو الذي عورض وانما مشابهة النعمة بنظرية خاصة للقدر ؛ ولوحظ بحق ان مذهب علم الله المسبق ، قد استبعد الاعترافات المثارة بالتفسير الاوغسطيني للقضاء والقدر .

ولنذكر ايضا النتائج التي توصل اليها لاهوتي كبير معاصر : «إن أوغسطين قد دافع ضد المانوية عن الحرية والمسؤولية البشرية . وان ما نعاه اوغسطين على المانويين ، هو القاءهم وحشرهم مسؤولية الشر على «طبيعة» أو على «مذهب» اسطوريين . وفي

هذا ، تصرف أوغسطين ايجابيا ومسيحيا . ولكن هل النظرية التي عرضها أوغسطين على الساحة مقنعة تماماً؟؟ أليس التحضير الذي نقله أوغسطين لأجيال البشرية من خطيئة أصلية قابل إلى ذات النقد؟؟ فالشر الذي ينعله الانسان اليوم [. .] اليس هو ايضا ، في النظرية الأوغسطينية ، الانسان الحالي الذي هو مسؤول عنه ؟ وبالأحرى ، أليست «طبيعة» سيئة ، فاسدة ، التي «انتقلت» بخطيئة أول زوج ؟ [. . .] . في الانسان الأول ، قال لنا أوغسطين ، ان الانسانية قد أخذت ، في الجسد ، عادة الخطيئة . أليس هذا مفهوم مادي لتوارث الاثم ، مفهوم طبيعي ، وبهذا ذاته هو حتمي ؟! . فليس ما هو بيولوجي الذي يلقي بثقله على الانسان ، وفي الطفل الذي يولد لا توجد الخطيئة منقوشة في انسجته ولا في نفسيته ، ان توارث الخطيئة ، سيتلقاها الطفل ، بالتربية التي سيتلقاها [. . .] ، والأشكال العقلية ، والشيم les schémes الاخلاقية التي سيتبناها . ان النظرية المربعة الاوغسطينية عن لعنة الاطفال الموتى دون تعميد تظهران العبقريات الكبرى ، والفقهاء الكبار في الكنيسة ، ليسوا بمنجاة عن ارتكاب تناقضات خطيرة [.] ، إننا نتحمل ، في الكنيسة ، منذ ستة عشر قرنا ، ثمرات وثقل عظمة وضعف القديس أوغسطين^(١٩) .

٢٥٦ - عبادة القديسين : شهادة - رفات - مزارات . . .

خلال فترة طويلة ، ناهض أوغسطين عبادة الشهداء - ولم يكن يعتقد بمعجزات منجزة من قبل القديسين ، وكان قد فضح التجارة ببقايا القديسين^(٢٠) . ولكن نقل رفات القديس اتيين Etenne لهييون في سنة ٤٢٥ والشفاء العجائبي التي تحققها هذه الرفات جعله يغير رأيه . ففي مواعظه التي تلفظ بها ما بين ٤٢٧ و ٤٣٠ وفي الكتاب^(٢١) من مدينة الله يفسر أوغسطين ويبرر تقديس الرفات ويسجل معجزاتها بعناية^(٢١) .

ان عبادة الشهداء كانت طبقت ، وقبلت من الكنيسة منذ نهاية القرن الثاني . الا انه اثناء الاضطهادات الكبرى وبعد السلام الذي اقامه قسطنطين بخاصة . كسبت رفات شهود المسيح أهمية مقلقة . فقد رأى بعض الاساقفة في هذا التمجيد المبالغ فيه

خطر الانتكاس للوثنية . وفي الواقع ، يوجد استمرارية بين الممارسات الجناثرية للوثنيين والعبادة المسيحية للأموات ؛ وعلى سبيل المثال ، المآدب المحتفل بها قرب القبر يوم الدفن ، وفي كل عام ، في الذكرى السنوية . ولكن تنصير هذه الطقوس القديمة لم يتأخر عن الاستشعار : بالنسبة للمسيحيين ، كانت المآدبة قرب القبر تتقدم الوليمة الأخروية للسماء . وعبادة الشهداء تمدد هذا التقليد ، مع الفارق بأنها ليست حفلة عائلية ، ولكنها تهم الجماعة كلها وتجري بحضور الاسقف . وما هو أكثر من ذلك ، ان عبادة الشهداء تظهر عنصراً جديداً ، مجهولاً في المجتمعات غير المسيحية . فالشهداء قد صعدوا الشرط البشري ، مضحين من أجل المسيح ، كانوا في آن واحد بالقرب من الله في السماء ، وهنا على الأرض كانت رفاتهم تتجسد بالقدس . ولا يستطيع الشهداء المثول قرب الله فحسب - لقد كانوا احباء - ولكن رفاتهم كانت قابلة لتحقيق معجزات تضمن شفاء مذهلاً . فالقبور ورفات الشهداء تشكل مكاناً متميزاً ومتناقضاً ، حيث تتواصل السماء مع الأرض .

إن المقارنة مع عبادة الأبطال لا تفرض نفسها . فلدى الوثنيين كانت العبادتان - عبادة الآلهة والابطال - متميزتان تماماً (ر. ف ٩٥ع) . فكان البطل بموته ينفصل نهائياً عن الآلهة ، في حين ان جسد الشهيد كان يقرب من الله أولئك الذي يقدمون عبادة له . وهذا التمجيد الديني للحم كان بنوع ما متضامناً مع مذهب التجسيد . فيها ان الله كان قد تجسد بيسوع المسيح ، فإن كل شهيد ، عذب وقتل في سبيل الله تقدس في جسده (لحمه) الخاص . فقداسة الرفات كانت تمثل موازياً أولياً لسر القربان المقدس . وتمازياً كما تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، كان جسد الشهيد قد تقدس بموته المثالي ، مماثلة حقيقية للمسيح *Vraieimitatio christi* . وقد تدعمت مثل هذه المشابهة بالتجزئة اللاحدودة لجسد الشهيد وبواقع امكانية تكاثر الرفات إلى مالا نهاية : ثياب أشباء ، زيت ، أو غبار اشتهرت بتماسها مع قبر أو جسد القديس .

وقد وصلت العبادة إلى شعبية ملحوظة في القرن السادس ، وفي الامبراطورية الشرقية أصبح هذا الوارع المقرط مزعجاً أحياناً بالنسبة للسلطات الكنسية ، وفي القرن الرابع والقرن الخامس كان يوجد في سورية نوعان من الكنيسة : البازيليك

والمارتيريا^(٢٣) . وكان لهذه الأخيرة «كنائس الشهداء» (eglises des martyrs) مذبج في وسطها موقوف للقديس ويحتوى على رفاتة وهي تتميز بقبته . وخلال زمن طويل ، وبالرغم من مقاومة رجال الدين كانت تجري احتفالات خاصة ، من تقدمات ونذور وصلوات وانشيد وترانيم على شرف الشهيد حول هذا المذبج المركزي (mensa) . وكانت الطقوس تقتضي كذلك اقامة بيرمونات : (عشيات لاعياد دينية مسيحية) ليلية ، تمتد حتى الفجر . وهي بالتأكيد حفلات مثيرة للعواطف ، لأن المؤمنين جميعهم كانوا في انتظار المعجزات فيها .

وحول المذبج (mensa) كانت تقام حفلات ومآدب^(٢٥) . إن السلطات الكنسية مجبرة بدون كلل لتطويع تمجيد القديسين وعبادة الرفات لخدمة المسيح . وأخيراً ، فإن العديد من الكاتدرائيات في القرنين الخامس والسادس تزودت بالرفاتات ، وفي بعض الحالات ، كانت تشاد في الداخل على شرفها كنيسة صغيرة خاصة ، مارتيروم . martyrium ويؤكد في ذات الوقت على التحول التدريجي للمارتيريات إلى كنائس نظامية^(٣٦) .

وفي ذات العصر من نهاية القرن الرابع حتى السادس - امتد تمجيد الرفات في كل مكان من الامبراطورية الغربية . غير ان العبادة روقت بصورة عامة ، بل شجعت من قبل الاساقفة ، مديري المسارح الحقيقيين Vrais impersarios (حسب تعبير بيتر برادن ، عن هذا الولوج الشعبي . ان أضرحة الشهداء ، انشاءات اكثر بروزا بشكل دائم في منطقة المقابر ، وعلى هامش المدن ، أصبحت مراكز الحياة الدينية للاقليم . وتنشع المقابر باحترام لا مثيل له . فبولان دي نول يغبط لبنائه حول قبر القديس فيليكس عقدة من المباني بابعاد كان يستطيع الغرباء ملاحظتها وكأنها تشكل مدينة اخرى . وقد استقرت قوة الاساقفة في هذه / المدن الجديدة خارج المدن /^(٢٧) . وكما كتب القديس جيروم بتكريمه للقديسين «لقد غيرت المدينة عنوانها»^(٢٨) .

وكما في الشرق تماماً ، كان العديد من الحفلات يجري بالقرب من المقابر ، التي أصبحت الموضوع الممتاز للطوافات والحجيج ، طوافات وحجيج تمثل تجديداً متفرداً في التاريخ الديني في حوض البحر المتوسط . وفي الواقع ، إن المسيحية أفسحت مجالاً في

الحفلات العامة ، للنساء والفقراء . وكانت الطوافات والمواكب الشعائرية تشهر انتميز العنصري *déségrégation* والجنسي ، والاجتماعي ؛ وكانت تجمع الرجال والنساء ، اريستوقراطيين وعبيد ، اغنياء وفقراء ، سكان البلاد الأصليين والغرباء . وعندما كانت الرفات تدخل رسميا في مدينة كانت تتلقى ذات التشريفات المخصصة لزيارات الاباطرة .

وكل «اكتشاف» لرفات (على اثر حلم أو رؤيا) كان يثير حمية دينية : وكان يعتبر كاعلان لنعمة الهية^(٢٩) . وكان مثل هذا الحدث يستطيع لعب دور حاسم في التناقضات الكنسية . وتلك كانت حالة اكتشاف امبرواز لرفاة القديسين الشهيدان جيرفى وبيروتيه . فقد كانت الامبراطورة جوستين طالبت بالكنيسة الجديدة لاستعمال الأرين *des Ariens* ، ولكن امبرواز ربح القضية بوضعه الرفات تحت المذبح .

وتنمو عبادة القديسين خاصة في الأوساط التنسكية (برادن . ص ٦٧٠) . وبالنسبة لبولان دي نول ، فإن القديس فيليكس كان معلما وصديقاً ؛ *Patronus et Amieus* وأصبح يوم وفاته بالنسبة لبولين يوم ولادته الجديدة . وبالقرب من قبره كان يتلى عن آلام الشهيد . وبهذه العودة لتحسين *réactualisation* حياته ومامته المثلثين ، كان الزمن يلغى ، وكان القديس حاضراً من جديد وكان الجمهور ينتظر معجزات جديدة : ابراءات للمرض ، طرد للشياطين . وقاية ضد الاعداء . الا ان المثل الأعلى لكل مسيحي كان الدفن المقدس حيث يفتش عن ايجاد القبر بأقرب ما يمكن من المكان الذي يرقد فيه القديس ، بأمل ان يدافع عن الميت امام الله في يوم الدينونة . وقد نبش عدد كبير من القبور المرصوفة بعضها ضد البعض الآخر تحت المارتيريات *le martyria* أو في جوارها المباشر .

إن التنف اللامحدودة من الرفات ، ونقلها من طرف لآخر من الامبراطورية ساهمت في انتشار المسيحية ووحدة التجربة المسيحية التضامنية . وبالتأكيد ، ان اساءات الاستعمال ، والحيل ، والخصومات الكنسية والسياسية قد زادت مع الزمن . وفي بلاد الغال وجرمانيا ، حيث كانت الرفات نادرة ، نقلت من جهات أخرى وبخاصة من روما .

واثناء حكم الكارولينجينين الأول (٧٤٠-٨٤٠) ، نقل عدد من القديسين والشهداء الرومان الى الغرب ؛ ويظن انه ، حوالي نهاية القرن التاسع ، كانت كافة الكنائس تحوز (أو يجب ان تحوز) رفاتا (٣٠) .

ورغم الخاصة (الشعبية) التي انتهت لتسودها مع الزمن ، فإن عبادة الرفات لم تجرد من بعض اهبتها . وفي آخر المطاف ، اشتهرت تحول المائدة ، متقدمة إلى حد ما على النظريات الجريئة لتياريدي شاردان . ومن جهة اخرى ، فإن عبادة الرفات قرّبت ، في حماس المؤمنين ، ليس فحسب الأرض والسماء ، وانما ايضاً البشر من الله ؛ لأن الله هو دائماً الذي حقق «اكتشاف» inventio الرفات واجاز المعجزات . وازافة لذلك ، فإن التناقضات المضمرة في العبادة «على سبيل المثال حضور الشهيد في آن واحد في السماء وفي قبره ، أو في قطعة من جسده» قد آلفت المعتقدات مع الفكرة المتناقضة . وفي الواقع . يمكن اعتبار تقديس الرفات «كمواز سهل» (أي يمكن القبول من العلمانيين) لعقائد التجسيد ، والتثليث ، ولاهوت الأسرار المقدسة .

٢٥٧ - كنيسة المشرق وانطلاق اللاهوت البيزنطي

إن بعض الفروق بين كنائس الغرب والشرق بدأ يتأكد خلال القرن الرابع . وعلى سبيل المثال ، فإن الكنيسة البيزنطية أقامت المؤسسة البطريركية ، التراتبية العليا للأساقفة والميتروبوليت . وفي مجمع قسطنطينية (٣٨١) أعلنت الكنيسة الشرقية مشكلة من اربع سلطات قضائية اقليمية ، لكل منها مقرها البطريركي . وكان يحصل احيانا ان التوتر بين القسطنطينية - أو بصورة غير مباشرة ، الامبراطور - وروما يصبح حرجاً . وقد كانت القسطنطينية بامتلاكها لرفات القديس اندريه «أول مدعو» (الذي له اذن التقدم على القديس بطرس) تدعي - على الأقل - المساواة مع روما . وفي القرون التالية ، اثرت خصومات مسيحية أو كنسية متعارضة في امور عدة بين الكنيستين . ونذكر فقط تلك التي اثارت التمذهب (ف٣٠٢ع) .

ففي المجامع المسكونية الأولى شارك فقط بعض ممثلي «البابا» - اسم اعطاه سيريس لنفسه (٣٨٤-٣٩٩) ، معلنا نفسه هكذا «الأب» وليس «الأخ» للأساقفة

الآخرين . ولكن روما . كانت استندت على الادانة الجديدة لأريوس (مجمع القسطنطينية ، الثاني (٣٨) وادانه نسطوريوس (مجمع ايفسس . الثالث ٤٣١) . وفي رابع مجمع (خلقدونية (٤٥) ضد القائلين بالطبيعة الواحدة le monophysisme^(٣١) ، قدم البابا ليون الأول صيغة بالنسبة للرمز الجديد للايمان الذي أقر من قبل الآباء الشرقيين ، لأنه توافق مع فكرة القديس سيريل ، فقد اعترف بـ «مسيح وحيد ، ابن آله واحد ، دون التباس ، دون تبدل أو تحول ، دون انفصال ، والفرق بين الطبيعتين لا يلغي الاتحاد أبداً ، ولكن الخصائص لكل منها محفوظة لكل منها محفوظة ومجمعة في شخص واحد وفي اقنوم واحد» .

إن الصيغة كانت تكمل العلم التقليدي بالمسيحية ، ولكنها تخلف دون جواب بعض الصعوبات المثارة من قبل القائلين بالطبيعة الواحدة . فرمز خلقدونية أثار انعكاسات منذ ما قبل نهاية القرن الخامس وبخاصة في القرن التالي . انه لم يقبل بمجمله من قبل قسم من المسيحية الشرقية ، وجعل من المحتمل فصل كنائس الطبيعة الواحدة^(٣٢) . وإن الخصومات حول الطبيعة الواحدة أو بعض التعاليم المتهمة بالقول بالطبيعة الواحدة ، تمددت ، عقيمة ومزعجة ، خلال القرون .

ونشير هنا إلى بعض التطورات التي اسهمت باعطاء الكنيسة الشرقية بنيتها الخاصة . فبدنياً ، الانطلاقة التي لا مثيل لها للطقس البيزنطي ، وابته الكهنوتية ، وتألقه الشعائري والفني معا . فالطقس يجري «كسر» محفوظ للمتلقين . وكان عالم المجمع ينذر الذي اختبر السر الالهي : خذ حذرك بأن لا تبوح بطريقة مدنسة بالاسرار القدسية بين كل الاسرار . كن متبصراً واحترم السر الالهي» [الترائية الكنسية ١-١] . ستائر الايقونات ترفع في بعض الفترات ؛ وفي القرون التالية ، عزلت الايقونات تماماً عن اجنحة الكنائس .

«الاجزاء الاربعة لداخل الكنيسة ترمز للاتجاهات الاربعة الاصلية . داخل الكنيسة هو العالم . والمذبح هو الجنة التي توجد في الشرق . الباب الامبراطوري impericle للمعبد بمعنى الكلمة كان يسمى ايضا «باب الفردوس» . وهذا الباب يبقى مفتوحاً اثناء الاسبوع الفصحى في فترة الخدمة ؛ وقد فسر معنى هذه العادة بوضوح في

القانون الفصحي canonpascal : المسيح نهض من القبر وفتح لنا الابواب إلى الجنة .
الغرب ، على العكس ، هو اقليم ظلمات حزن الموت ، والمقرات الابدية للموتى ،
الذين ينتظرون بعث الاجساد والدينونة الاخيرة .

وحسب مفاهيم كوزماس انديكوبلوزيت ، ان الأرض مستطيلة ومحددة بأربعة
جدران تعلوها قبة . وان الأقسام الاربعة لداخل الكنيسة ترمز إلى الجهات الرئيسية
الاربعة^(٣٣) . وبصفتها صورة عن الكون Cosmos فإن الكنيسة البيزنطية تجسد وفي
ذات الوقت تقدس العالم .

وقد عرف الشعر والجوقة الدينية (كورال) تألقاً منفرداً مع الشاعر والمؤلف الروماني
ميلود (القرن السادس) . واخيراً ، تقتضي الإشارة لدور الشماس diacre ، الذي
يستخدم وسيطاً بين المحتفلين والمؤمنين . انه يدير الصلوات ويعين اللحظات الحاسمة
للطقس بالنسبة للحضور .

ولكن الابداعات الاكثر دلالة للمسيحية الشرقية تبدو في اللاهوت بصورة
خاصة . ويدثياً في اللاهوت التنسكي . صحيح ان بنية الفكر الديني البيزنطي قد
غطى بنوع ما أصوليته ، وذلك لأن كل فقيه كد للحفاظ والحماية ، والدفاع عن المذهب
المنتقل من قبل الآباء . وكانت التيولوجيا ثابتة ، وكان التجديد يتمي إلى المهرطقة ،
وكانت عبارة تجديد وتجديف مترادفتين تقريباً^(٣٤) . وهذه الرتبة الظاهرة (بتكرار الافكار
المعلنة من قبل الآباء) يمكن لها ان تعتبر - وكانت كذلك خلال قرون - وكأنها علامة تحجر
وجذب .

مع ذلك ، فإن المذهب المركزي للتيولوجيا الشرقية ، وبخاصة فكرة تأليه
الانسان ، هي ذات أصولية كبرى ، مع انها تعتمد على القديس بولس ، وانجيل يوحنا
ونصوص توراتية اخرى . إن التكافؤ بين خلاص وتأليه كان يشتق من سر التجسيد .

وحسب مكسيم المعترف Maxime le Confesseur ، فإن الله خلق الانسان موهوباً
بطريقة من توالد إلهي وغير مادية ، وان الجنس كالموت ، هما النتيجة للخطيئة
الأصلية . وتجسد اللوغوس جعل التأليه ممكناً ، ولكن نعمة الله وحدها هي التي

تصنعه . وهذا ما يفسر الأهمية للصلاة الداخلية (اصبحت فيما بعد «صلاة غير متوقفة») ، من التأمل وحياة الرهبة في الكنيسة الشرقية . والتأليه مسبوق أو مترافق بتجربة من النور الصوفي . وفيما سلف لدى آباء الصحراء كان الانتشاء يظهر بمظاهر نورانية . فالرهبان «يشعون من نور النعمة» . ففي حين يكون المتنسك مستغرقاً في الصلاة ، تكون حجيرته مضاعة بكاملها^(٣٥)

إن ذات التقليد (صلاة - نور - تصوف - ألوهية) عادت وجودها بعد ألف سنة لدى المعتكفين في جبل آتوس . وإن الجدل المثار حول مزاعمهم أي بأنهم يتمتعون برؤية النور الغير مخلوق - أعطى المجال للمفكر الكبير غريغوار بالماس (القرن الرابع عشر) لاقامة لاهوت صوفي حول النور التابوري Taborique .

وفي الكنيسة الشرقية ، يشاهد اتجاهان متكاملان ، ومع انها متعارضان في الظاهر ، فقد تناميا مع الزمن ، فمن جهة ، الدور والقيمة الكنسية لجماعة المؤمنين ، ومن جهة اخرى ، السلطة المعبرة للرهبان المتسكين والحالمين . وبينما ستبرز التسلسلية في الغرب بعض التحفظ حيال الحالمين والصوفيين ، فإن هؤلاء الأخيرين سيتمتعون في الشرق باحترام كبير من قبل المؤمنين والسلطات الكنسية .

ان التأثير الشرقي الوحيد ذي الدلالة على اللاهوت الغربي كان تأثير دينيس Denys عالم المجمع (المتحل) . إن هويته وسيرته الذاتية مجهولتان . وكان على ما يرجح راهبا سورياً من القرن الخامس ، وبما أنه كان يُعتقد معاصراً للقديس بولس ، فقد تمتع بسلطة شبه رسولية . ان لاهوت عالم المجمع هذا l'Aréopagite يُستلهم من الافلاطونية المحدثة ومن غريغوار النيسي Grégoire de Nysse . وبالنسبة لدينيس هذا ، فإن المبدأ الأعلى - مع كونه فائق الوصف ، مطلق ، خارج الشخص والاشخصي - وهو مع ذلك ذي علاقة مع العالم المرنى عبر تسلسلية كائنات . والثالث هو قبل كل شيء الرمز للوحدة الكلية بين الواحد والتعدد . وهكذا يتجنب دينيس في وقت واحد القول بالطبيعة الواحدة وصيغ مجمع خلقدونية . انه يتفحص مظاهر الألوهية في الاعداد الالهية وتعبيراتها بواسطة الأنظمة الملائكية في التسلسلية الساوية . Hiéraschiecéleste غير ان رسالة صغيرة ، اللاهوت الصوفي la Théalogiemystique هي بخاصة

التي أقامت اعتباره الفائق . فلأول مرة في تاريخ التصوف المسيحي ، توجد عبارات «الجهالة الالهية» و«عدم المعرفة» راجعة لتصاعد الروح نحو الله . ويشير عالم المجمع - المتحلل (دينيس) «النورانية فوق الشعور للظلمات الالهية» ، «الظلمات التي هي خارج النور» ، ويرفض كل نعت إلهي «لأنه ليس أكثر صحة التأكيد بأن الله هو حياة وطيبة ، من التأكيد بأنه هواء أو حجر»

وهكذا يضع دينيس الأسس للاهوت سلمي ، يعيد إلى الذاكرة الصيغة الاوڤانيشادية الشهير ، لا شي ، لاشي netil, neti (ف. ٤٨١) . هذا وإن غريغوار النيسي كان قد قدم بعضاً من هذه الأفكار بطريقة أكثر عمقاً وأكثر منهجية . ولكن تقدير دينيس ساهم لحد كبير بجعله شعبياً بين الرهبان . هذا وإن مؤلفات عالم المجمع المتحلل (دينيس) المترجمة إلى اللاتينية منذ وقت مبكر قد أعيدت ترجمتها في القرن التاسع عشر من قبل الراهب الايرلندي سكوت ايرجين ، وعبر هذه الترجمة عرف دينيس في الغرب .

لقد أعيد الأخذ بأفكاره وعمقت من قبل مكسيم المعترف «العقل الأكثر شمولية في القرن السابع وربما المفكر الأصولي الأخير بين لاهوتي الكنيسة البيزنطية»^(٣٦) وقد حرر مكسيم تحت شكل مدرسي des seïolia ، شرحاً لرسائل دينيس الصوفية ، التي كانت ترجمت أيضاً من قبل ايريجين ، وفي الواقع إن هذه الملونة - الأصلية وشروح مكسيم - كَوْن نصاً لعالم المجمع المتحلل ، الذي أثر على فكر العديد من الصوفيين واللاهوتيين الغرابيين ، من برنارد دي كليرغو وتوماس لكونيلاس حتى نيقولا دي كوز^(٣٧) .

٢٥٨ - تمجيد الايقونات ومحاربوها

إن افدح ازمة مثارة بمحاربة الايقونات (القرن الثامن والتاسع) كان لها اسباب متعددة : سياسية ، اجتماعية ولاهوتية . فتبعاً للحظر المعلن في الوصايا العشر Decalogue لم يضع مسيحيو القرنين الأولين صوراً . ولكن هذا المنع قد تجاهله الناس

في الامبراطورية الشرقية بدءاً من القرن الثالث ، عندما ظهرت الرسوم الايقونية الدينية (صور او مشاهد مستلهمة من الكتابات) في المقابر وفي الصالات حيث كان يتجمع المؤمنون . وهذا التجديد تبعه عن قرب انطلاق عبادة الرفات . وفي القرنين الرابع والخامس ، تكاثرت الصور وتنامى تمجيدها . ثم عبر هذين القرنين حصل النقد والدفاع للايقونات وعنها . وقد كانت الحجة الاساسية للايقونيين . وظيفتها التأديبية - خاصة بالنسبة للأمين - والفضائل المقدسة للصور . ولم تصبح الصور موضوعاً للورع والطقوس في الكنائس كما في المساكن الخاصة^(٣٨) الا حوالي نهاية القرن الرابع واثاء القرن السابع . فقد كان يصلى ، ويسجد امام الايقونات ، وكانت تعانق ، وترفع اثناء بعض الاحتفالات . وقد شوهد خلال هذه الفترة نمو عدد الصور المعجزة - مصادر القوة الخارقة للطبيعة - التي حمت المدن والقصور والجيوش^(٣٩) .

وكما يلاحظ ارنست كيتزنجر فإن هذه العقيدة بالسلطة أو القوة المافوق طبيعية للصور والتي تفترض بعض الاستمرارية بين الصورة والشخص الذي تمثله ، هي الأثر الأكثر أهمية لعبادة الايقونات في القرنين السادس والسابع . فالأيقونة هي «امتداد عضو من الالهية ذاتها»^(٤٠) .

إن عبادة الصور منعت رسمياً من قبل الامبراطور قسطنطين الخامس في سنة ٧٤٦ وأعلنت أنها لعنة من قبل المجمع المعادي للايقونات في القسطنطينية ، وفي ٧٥٤ - وكانت الحجة اللاهوتية الرئيسية بوصفها وثنية مستترة في تمجيد الايقونات . وان ثاني مجمع ضد الايقونات ، هو مجمع ٨١٥ وقد رفض عبادة الصور باسم علوم المسيحية . لأنه من غير الممكن رسم وجه المسيح بدون انكار حضور الطبيعة الإلهية (الأمر الذي يعتبر الحاداً) أو بدون فصل الطبيعتين اللتين لا يمكن فصلهما بهدف رسم الطبيعة البشرية فقط (الأمر الذي يعتبر هرطقة)^(٤١) . وعلى العكس فإن سر القربان المقدس يمثل (الصورة) الحقيقية للمسيح ، لأنها مغرقة بالروح القدس ؛ وهكذا ، فإن سر القربان المقدس ، على عكس الايقونة ، يملك بعداً إلهياً ومادياً في آن واحد^(٤٢) .

أما بالنسبة للاهوت الإيقوني ، الأكثر منهجية فقد اقيم من قبل يوحنا الدمشقي

(٧٤٩-٦٧٥) وتيودور الستوديت (٨٢٦-٧٥٩). فقد اشار المؤلفان ، اعتماداً على عالم المجمع المتحلل (دينيس)، للاستمرارية بين الروحاني والمادي وقد كتب يوحنا الدمشقي . «كيف تستطيعون انتم الذين يمكن رؤيتهم ، عبادة الاشياء غير المرئية ؟» ان الروحانية المفرطة لمحاربي الايقونات صنفتهم في ذات الفئة من الغنوصيين القدامى الذين ادعوا ان جسم المسيح ليس طبيعياً وانما سماوياً^(٤٣) . وعلى اثر التجسيد ، جعلت مشابهة الله ممكنة الرؤية ، وهكذا حذف المنع الايصائي القديم لتصوير الالهى . اذن ، فإن الذين ينكرون ، امكانية تمثيل المسيح بإيقونة ، ينكرون ضمناً حقيقة التجسد . مع ذلك فإن المؤلفين المذكورين ، يؤكدان بأن الصورة ليست مماهية في جوهرها ومادتها مع مثالها . ان الصورة تشكل مشابهة ، وبعكسها للنموذج تدعم التمييز معه . وبالنتيجة ، فإن محاربي الايقونات هم مجرمون بالتجديف عندما يعتبرون سر القربان المقدس كصورة ، لأنه بصفته متماهيا اساساً ومادياً مع المسيح ، فإن سر القربان المقدس هو المسيح ، وليس صورته^(٤٤) .

وفىما يخص ايقونات القديسين ، فإن يوحنا الدمشقي يكتب : «طالما كانوا أحياء ، فإن القديسين كانوا ممثلين بالروح القدس ، وبعد موتهم ، فإن نعمة الروح القدس ليست أبداً بعيدة عن أرواحهم ، ولا عن قبورهم ولا عن صورهم المقدسة»^(٤٥) . بالتأكيد إن الايقونات لا تجوز عبادتها على ذات الطريقة التي يعبد فيها الله . ولكنها تنتمي إلى ذات الفئة من الأشياء المقدسة بحضور يسوع المسيح . كما ، على سبيل المثال ، الناصرة ، الجلجلة ، خشبة الصليب . فهذه الامكنة وهذه الأشياء أصبحت «آنية للطاقة الالهية» لأن الله يصنع خلاصنا عبرها . ومن ايماننا ، تحتل الايقونات مكان المعجزات والأعمال الأخرى ليسوع المسيح ، ولتلامذته امتياز برؤيتها وتأملها^(٤٦) . وباختصار . فإن الايقونات كالرفات تماماً جعلت من الممكن الاتصال بين الساء والأرض ، واعادت ترتيب المعجزة illud tempus ، عندما عاش المسيح والعذراء والرسل المقدسون بين البشر . والايقونات إن لم تكن مماثلة بقوتها للرفات ، فعلى الاقل ، هي أكثر سهولة بالحصول عليها من قبل المؤمنين : توجد في أكثر الكنائس تواضعاً ، وفي الكنائس والمسكن الخاصة ، وما هو أكثر من ذلك ، أن تأملها يسمح بالمرور إلى عالم من

الرموز . وبالنسبة ، فإن الصور كانت قابلة لاتمام وتعميق التعليم الديني للأُميين .
(وفي الواقع ، ان هذا الدور ممتلىء بالتصوير الايقوني في كل التجمعات السكنية
الزراعية في اوروىا الشرقية) .

وبغض النظر عن الاسباب السياسية والاجتماعية ، فإن حمى محاربة الايقونات لم
تثمر . وذلك لأن محاربي الايقونات قد جهلوا من جهة أو قد استبعدوا الوظيفة الرمزية
للصور المقدسة ؛ ومن جهة أخرى ، فإن عدداً من الايقونيين استعملوا عبادة الايقونات
لمنفعتهم الخاصة أو لضمان الاحترام ، والتفوق والثراء لبعض المؤسسات الكنسية .

حواشي الفصل الثاني والثلاثين

- ١ - كتاب نهوض المسيحية للأوروية - تروفر - روبر
- ٢ - ومن سيستطيع حتى التكهن بما يمكن ان يحصل للعالم أو المسيحية لو لم تصبح الامبراطورية الرومانية مسيحية أو لو ان قسطنطينة لم تحافظ على الحقوق الرومانية والثقافة الاغريقية اثناء فترة البرابرة وغزوة المسلمين؟! إن إعادة اكتشاف الحقوق الرومانية في القرن الثاني عشر قد دفعت مرحلة هامة في انبعاث اوروبا . ولكن الحقوق الرومانية التي اكتشفت مجدداً كانت الحقوق المحفوظة في المدونة البيزنطية لجوستنيان [ذات المرجع ص ٣٣-٣٥] كذلك اعادة اكتشاف الكتب الاغريقية في القرن ١٥ ، نتج عصر النهضة .
- ٣ - كتاب ردة الفعل الوثنية - إميل كايحي
- ٤ - لكن اوغسطين يكف عن التأمل حول تاريخ عودة المسيح الثانية ، التي كان بشر بها معاصره لاكتافس (٢٤٠ - ٣٢٠ / حول السنة ٥٠٠)
- ٥ - في كتابه مدينة الله ١٨-١٦ حسب اوغسطين ان الدول والاباطرة ليسوا من عمل الشيطان ، مع ذلك انهم نتيجة الخطيئة الأصلية .
- ٦ - ١ . جيلون - الفلسفة في القرون الوسطى ص ١٢٨ . وهذا التعريف ، المعطى من قبل افلاطون في القيادس أعيد استخدام من قبل افلوطين ، حيث وجده أوغسطين .
- ٧ - يذكر جيروم ٨٠٠ عمل ٧ ولكنه يضيف ان بامفيلوس اعطى قائمة ب ٢٠٠٠ عنوان
- ٨ - «فهناك خصيان ولدوا من بطون أمهاتهم على هذه الحال ، وهنالك خصيان حضاهم الناس ، وهنالك خصيان خصوا انفسهم من أجل ملكوت السموات . فمن استطاع ان يفهم فليفهم» متى ١٩-١٢ وبعضهم يفسر معناه بالتعفف وترك الزواج لخدمة الله والرب .
- ٩ - انظر طبعة وترجمة المبادئ (في مصادر مسيحية) مجلد ٢٥٢-٢٥٣ ... الخ
- ١٠ - على سبيل المثال في المبادئ (فصل ١) «نؤكد الى الحقيقة الوحيدة التي يجب

الاعتقاد بها هي الحقيقة التي لا تعارض ابداً تقليد الكنيسة الرسل»
١١ - ألف سنة بعد هذا ، ستعتمد الكنيسة التعليمات الجريئة لجيول ستينو دافوار ويتر ايكاردت
مضيفة هكذا الامكانية لمنفعة المعاصرين .

١٢ - اسماء المراجع .

١٣ - بعد بوتران بصورة خاصة ذكر القطع الشهير «لم أكن بعد محبا ولكنني كنت محبا للحب . لقد
بدأت البحث عن مناسبة وقوع الحب لأنني أحيت بجنون فكرة أن أحب» [١-٣-١]

١٤ - اسماء المراجع

١٥ - من المحتمل ان زميله الاكثر شهرة كوالستس ، حلب ايضاً اطروحات بيكاج .
وحسب بولس ميلان الذي رفض هذه المهرطقة في ٤١١ - ٤١٢ ان البيلاجية تعتبر أن آدم قد
خلق فانيا وانه عرف الموت حتى بدون ان يذنب ، وآدم وحده الذي تضرر بخطيئته ، وليس
الجنس البشري في مجموعه . فالاطفال يوجدون في ذات الوضع لآدم قبل السقوط واكثر من
ذلك هو حتى قبل المسيح كان يوجد رجال ابرياء تماماً وبدون ذنب .

١٦-١٨ اسماء المراجع المعتمدة .

١٩ - كلود تريسموتان - ميتانيزيك المسيحية ص ٦١١ في الملاحظة ٤٠ يذكر المؤلف نصا
من ليبنتريوك ان المشكوك فيه لم يتطور ابداً «كيف يمكن للروح ان تعذب بالمخطئة الاصيلي التي
هي جذر الآثام الحالية ، بدون ان يكون هنالك ظلم في الله لأن يفرخها»^(٤١) .
٢٠-٢١ نحو ٤٠١ لص عدداً من الرهبان «الذين باعوا اعضاء الشهداء ، اذا تعلق
أحياناً بشهداء» .

٢٢-٢٤ - بوتر براون - عبادة القديسين - وبولد دين سميث (القبة)

٢٥ - عادة ملازمة دامت رفم مقاومة الكنيسة لها . في ٦٩٢ منع مجمع ترول من جديد
المآدب وتحضير الاطعمة على المذبح .

٢٦-٢٧ - اسماء المراجع

٢٨ - يمكن مقارنة هذه (المدن خارج المدن) بمدينة الأموات nécropales الميغاليتية للمالطة
بالدرجة الاولى مدينة الأموات الشهيرة هالسالفنيس) وتتحقق المشابهة عندما تذكر ان هذه
المراكز الاحتفالية الميغاليتية لم تكن مقابر فحسب ، ولكنها كانت تضم كنائس صغيرة ومعابد
ومصاطب تستخدم من اجل الطوافات والشعائر الاخرى . ويضاف مع ذلك . ان مثل هذه
المشابهة المورفولوجية لا تقتضي تشابه المعتقدات .

٢٩ - برادن

٣٠ - باتريك جدي (القرن التاسع وتجارة الرفات) ص ١٠ - البابوات قبلوا اختياراً هذه
التحولات لأن الرفات الرومانية رفعت احترام روما كعاصمة للامبراطورية ومركز المسيحية

٣١- القائلون بالطبيعة الواحدة يحسبون انه اذا كان يسوع المسيح قد تكوّن بدءاً من الطبيعتين الهية وبشرية فإنه لم يبق بعد سوى واحدة في الاتحاد ، وبالنسبة فإن طبيعة الكلمة المجسدة واحدة

٣٢- المحميين ، وان القسطنطينية ٥٥٣ - ٦٨٠ تساهلا للمونوفيسيت

٣٣- ٣٥ - ٣٨ - اسماء المراجع .

٣٩- بين الاكثر شهرة ، ايقونة المسيح لمدينة ايديه المعتمدة وكأنها قادرة لردع غزوة جيش فارس وصورة المسيح الموضوعة فوق الباب الكبير من البروز للقصر الامبراطوري والتي يسميز تدميرها في ٧٢٧ بداية محاربة الايقونات .

٤٠- ٤٢ - ٤٣ - ٤٥ اسماء المراجع المعتمدة .

٤٦- انظر النصوص التي حللها بيليكان ص ١٢١ . . تماما كما ان الانجيليين كتبوا حول

المسيح مع كلمات ، فإنه يمكن الكتابة عنه في الذهب في الايقونات .

الفصل الثالث والثلاثون

محمد وانطلاقة الاسلام

٢٥٩ - الله ، إله أعلى للعرب

إن محمداً هو الوحيد من بين كل مؤسسي الأديان العالمية الذي تعرف سيرته الذاتية في خطوطها الكبرى^(١) وهذا لا يعني معرفة سيرته الداخلية . مع ذلك ، فإن المعلومات التاريخية التي بحوزتنا حول حياته والتجارب الدينية التي هيأت وقررت الهامه النبوي ، على الحضارة العربية من جهة ، وعلى البنى الاجتماعية لمكة من جهة أخرى ، هي معلومات قيمة لدرجة عالية . إنها لا تفسر أبداً شخصية محمد ولا نجاح نبوته ، ولكنها تسمح لنا بالتأكيد على إبداعية الرسول . ان من المهم الحصول ، أقله بالنسبة لأحد مؤسسي الأديان العالمية ، على توثيق تاريخي غني ، ليعرف بشكل افضل القوة

* نحاول ترجمة ما جاء به المؤلف رغم ما يلاحظ من مخالفة استنتاجه للتفسير الاسلامي للنصوص ، ونحاول ايراد النص الأصلي للآيات المترجمة ، لاسيما وأن النص المترجم يفقد بيانه وقد ينعكس ذلك أحياناً على دلالاته . وعلى كل حال فإن آراء المؤلف تخصه وحده ، وهي عرضة للخطأ في الكثير منها .

(المعرب)

لعبقريّة دينيّة ، وبعبارة أخرى ، يؤخذ بعين الاعتبار إلى أية درجة تستطيع عبقرية دينيّة استعمال الظروف التاريخيّة من أجل انجاح رسالتها ، وباختصار ، من أجل تغيير جذري لمجرى التاريخ ذاته .

لقد ولد محمد في مكة ما بين ٥٦٧ و ٥٧٢ ، وكان ينتمي إلى القبيلة القويّة قريش ، بقي يتيمًا في سن السادسة ، وتولى جده لأبيه بدئيًّا تربيته . وبعدئذ تولّاها عمه ابو طالب^(٢) . وفي سن الـ ٢٥ دخل في خدمة ارملة غنيّة - خديجة . وأجرى عدة سفرات مع القوافل في سورية . وبعد وقت قصير حوالي ٥٩٥ تزوج معلمته ، رغم فارق السن (خديجة كانت في سن الأربعين) . وقد كان الزواج سعيدًا ، وإن محمد الذي سيتزوج تسع نساء بعد موت خديجة ، لم يتخذ زوجة أثناء حياته . وقد كان له سبعة اولاد ، ثلاث اولاد ماتوا في سن مبكرة ، واربعة بنات (الشابة الأكثر فاطمة ، ستزوج عليا ، ابن عم محمد) . ان مكانة خديجة في حياة محمد ليست مهملة : انها هي التي شجعتة أثناء محن «وحيه الديني» .

لم تكن حياة محمد معروفة بشكل جيد قبل الكشوفات الأولى حوالي ٦١٠ . وحسب التقليد ، سبق هذه الكشوفات فترات من التحنّث في مغاور وأماكن أخرى منعزلة ، وممارسة غريبة عن الاعتقاد بالألوهية المتعددة لدى العرب . ومن الراجح جداً . أن محمدًا كان متأثرًا جدًا بالمتيقّظين ، وبالصلوات والتأملات لبعض الرهبان المسيحيين الذين كان صادفهم ، أو الذين سمع كلامهم في أسفاره . وقد كان أحد أبناء عم خديجة مسيحيًا . إضافة إلى ذلك فإن بعض اصدااء النبوة المسيحية ، أرثوذكسية أو مذهبية (نسطورية ، غنوصية) ، كما هو الأمر بالنسبة للأفكار والممارسات العبرية ، كانت معروفة في المدن العربية . الا أنه لم يكن يوجد سوى القليل جداً من المسيحيين في مكة ، واغليتهم في شرط متواضع جداً (على الأرجح عبيد ، أو احباش) وغير متعلمين بما فيه الكفاية . . اما اليهود فقد كانوا يتواجدون ضمن كتلة ، في يثرب (المدينة مستقبلًا) : وسنرى (ف. ٢٦٢ع) إلى أية نقطة كان الرسول يعتمد على مساندتهم .

مع ذلك ، لايلو ، في عصر محمد ، ان ديانة العرب المركزيّة تغيرت بتأثيرات يهودية - مسيحية . وبالرغم من انحدار هذه الديانة ظلت تحافظ على بنيتها التعددية

للألوهية السامية . وقد كان المركز الديني ، مكة ، واسمها مذكور في المدونة البطلمية ptolémique (القرن ١١ ق.م) ، ماكورابا Makouraba ، وهو

لفظ مشتق من ماكورابا السبئي بمعنى (معبد) . وبعبارة أخرى ، ان مكة كانت في الأصل مركزاً احتفالياً ، نمت المدينة حوله تبعاً . وفي وسط المنطقة المخصصة ، الحمى ، كان يوجد معبد الكعبة (لغويا - مكعب) ، بناء في العراء ، ومركب في إحدى زواياه الحجر الأسود الشهير ، المعتبر وكأنه من أصل سماوي . وقد كان الطواف حول الحجر يشكل في العصور الماقبل الاسلام ، تماماً كما هو الأمر اليوم ، شعيرة هامة في الحج سنوياً إلى عرفات الكائنة على مسافة بضعة كيلو مترات من مكة . وكان رب الكعبة معتبراً انه الله ذات الاسم مستعمل من قبل اليهود والمسيحيين العرب لدلالة على الاله . غير ان الاله منذ زمن سابق أصبح الها متصاعداً ، ردت عبادته إلى بعض التقدّمات والاضحيات من البواكير التي كانت تقدم إليه مشاركة مع مختلف الآلهة المحلية^(٤) . واكثر أهمية لدرجة بعيدة ، كانت الربات الثلاثة لشبه الجزيرة العربية المركزية : مناة (القدر) واللات مؤنث الاله ، والعزى (القوية) . وباعتبارهن (بنات الله) كن يتمتعن بشعبية .

ويحيث ان محمداً قبل نبوءته اخطأ (وقد صحح ذلك فيما بعد) بمدح وظيفتهن كوسيطات عند الله(*) .

وباختصار ، فإن الدين قبل الاسلام كان يرتبط بالدين الشعبي لفلسطين في القرن الرابع قبل المسيح ، كما انعكس ، مثلاً ، في وثائق المستعمرة اليهودية - الآرامية (الإلفانتين) d'Eléphantine** ، على النيل الأعلى : إلى جانب يهوه - ياهو

* قصة الغرائيق المشهورة حيث ينسب حديث هو موضوع شك : وهو : تلك الغرائيق وان شفاعتهم لترتجى وقد دار حول هذا الحديث من الجدل والمناقشات . . مما لا حاجة لعرضه هنا (المترجم)

** - الفانتين : جزيرة في النيل مقابل أسوان اشتهرت أيام الفراعنة .

Yahwè - Yahu ، كان يعبد بتيهل Néthel وحرم بيتهل Haram Béthel ، والرربة عرات Arat وإله للبنات^(٥) .

وفي مكة كانت خدمة المعبد مناة باعضاء العائلات ذات النفوذ ، وكانت الاعباء ، التي يكافأ عليها جيداً تستقل من الأب إلى الابن . ويبدو أنه لم يوجد جهاز كهنوتي بمعنى الكلمة . ومع انه يوجد تماثل بين اللفظ كوهن الذي يعني عند العبريين رجل الدين Prêtre فإن المصطلح العربي كاهن يدل على الرائي (المبصر) الذي بكونه مأخوذاً بالجن ، كان مؤهلاً للتنبؤ بالمستقبل ولايجاد بعض الأشياء الضائعة أو الإبل الضالة^(٦) .

إن الموحددين الوحيدين بين المعاصرين لمحمد كانوا بعض الشعراء والرائيين المعروفين تحت اسم (الحنيفيين) ، وكان بعضهم متأثراً بالمسيحية ، ولكن الأخرى الخاصة بالمسيحية (وفيما بعد بالاسلام) كانت غريبة عندهم ، كما يبدو انها كانت غريبة عن العرب بصورة عامة^(٧) .

إن البعثة النبوية لمحمد قد انطلقت بعد عدد من التجارب الوجدية التي تشكل نوعاً ما المقدمة للكشف . وفي السورة [٥٣-١-٨] اشارة إلى أول الكشوفات ، «علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو ادنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى» .

ورآه محمد مرة ثانية بالقرب من شجرة عَنَاب «ولقد رآه . نزلة اخرى ، عند سدره المستهى . عندها جنة المأوى . ولقد رأى من آيات ربه الكبرى» [٥-٨ و ١٣-١٨] وفي السورة (٨١: ٢٢-٢٣) يعود محمد إلى هذه الرؤية «وما صاحبكم بمجنون - ولقد رآه بالأفق المبين» . ويتج من هذا أن الرؤى ترافقت بكشوفات سمعية وحيدة اعتبرها القرآن كأنها من أصل الهي . وقد سجلت التجارب الصوفية التي قررت مجرى حياته في السيرة المنقولة من قبل ابن اسحاق (سنة ٧٦٨) . وفي الحين الذي كان محمد ينام فيه في الغار حيث اكمل اعتزاله السنوي ، أتى إليه الملاك جبريل ممسكاً بيده كتاباً وطلب إليه أن يقرأ «اقرأ» . وبما ان محمد قد رفض أن يقرأ ضغط الملاك «الكتاب على فمه وانفه» بقوة كادت ان تحنقه ، وعندما كرر عليه في رابع مرة «اقرأ» سأله محمد :

«ماذا يجب ان اقرأ؟» عندئذ أجابه الملاك : «اقرأ (بمعنى بشر) باسم ربك الأعلى الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، وعلمه ما لم يعلم» [٩٦: ١-٥] ، فقرأ محمد ، وابتعد عنه الملاك «لقد تيقظت ، وكان هذا ، كما لو كنت كتبت بعض الشيء في قلبي» . وترك محمد الغار وما كاد يصل إلى وسط الجبل ، حتى سمع صوتاً سماوياً يقول له : «يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبرائيل» فرفعت رأسي نحو السماء لأنظر ، وها هو جبرائيل كان على شكل رجل جالس في الأفق ، وجنابه متشابكان» . وكرر عليه الملاك الكلمات نفسها ، ونظر إليه محمد دون ان يتمكن من التقدم أو التراجع «ولم استطع تحديد منطقة من السماء دون رؤيته»^(٩) .

إن رسمية هذه التجارب ، تبدو مؤكدة^(١٠) . وإن المقاومة الاساسية لمحمد تعيد إلى الذاكرة تردد الشامانيين والعديد من الصوفيين والانبياء في تقبل الارشاد الرباني لهم . ومن الراجح ان القرآن لا يذكر الرؤية ذات العلاقة بالنام في الغار ليتجنب الاتهام بأن النبي مأخوذ بالجن . ولكن اشارات اخرى من القرآن تؤكد حقيقة الالهام . وكان املاء الوحي غالباً ما يترافق باختلاجات عنيفة ويضغوط حمى أو برداء .

٢٦٠ - محمد رسول الله

خلال ما يقرب من ثلاث سنوات ، أوصل رسالاته الالهية الأولى فقط لزوجته خديجة ولبعض اصدقائه الخالص (ابن عمه علي ، وابنه بالتبني زيد والخليفتين مستقبلاً أبو بكر وعثمان) . وبعد بعض الوقت لم ينقطع الوحي من الملاك وتجاوز محمد فترة الضيق وتشبب الهمة ، واعادت رسالة الهية جديدة تشديد عزيمته «ما ودعك ربك ولا قلى [...] وسيعطيك ربك فترضى» [٩٣: ٥-٣] . .

وبناء على رؤيا عام ٦١٢ أمره باعلان الوحي ، وبدأ محمد رسالته ، ومنذ البدء ، أكد على قوة ورحمة الله الذي كوّن الانسان «من علقه دم» [٩٦: ١-٨-١٧-٢٢-٨٧] وعلمه القرآن وعلمه البيان [٥٥: ١-٤] وخلق السماء والجبال والأرض والجمال [٨٨: ١٧-٢٠] . ويذكر عطف الخالق (بالاشارة إلى حياته الخاصة) : «لم يحدك بيتاً فأوى :

[٩٣: ٣-٨٠] ، ويقارن الصفة الآنية لكل وجود بأزلية الخالق : «كل من عليها فان ويبق وجه ربك ذي الجلال والاكرام» . مع ذلك يبدو مدهشاً ان محمد في اعلاناته الأولى لم يذكر وحدانية الله ، ما عدا استثناء واحد «لا تضعوا مع الله آلهة أخرى» [٥١-٥١] ، وعلى الأرجح يتعلق بتغيير متأخر^(١٢) . وثمة نعمة أخرى من النبوة هي اقتراب الدينونة وبعث الأموات . «عندما سيفنفخ في الصور ، سيكون يوم رهيب ، يوم عصيب بالنسبة للكافرين» [٧٤: ٨-١٠] «فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير» . وهنالك تذكير واشارات في أقدم السور ، ولكن اكثرها اكتمالاً يوجد في بداية سورة متأخرة : «اذا السماء انشقت [...] . اذا زلزلت الأرض زلزالها ، واخرجت الأرض اثقالها (= اجساد الموتى) [٩٩-٢] واذا الأرض مدت والقت ما فيها وتحلت ، يا أيها الانسان انك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه . فاما من اوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً [...] . فاما من اوتي كتابه من وراء ظهره فسوف يدعو ثوراً ، ويصلى سعيراً [٨٤: ١-١٢] . وفي العديد من السور المملة فيما بعد طور محمد الأوصاف الروؤية : ستغير الجبال مكانها ، وستذوب جميعاً وتصبح رماداً وهباء وستنفجر القبة السماوية ، وسيطفأ القمر وتحمد النجوم . ويتكلم النبي كذلك عن حريق كوني (كوزمي) وعن قذائف من نار ونحاس مذاب مطلقة على البشر «يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتهران . فاذا انشقت السماء فكانت كالدهان [٥٥: ٣٥] .

وفي النفخة الثانية في الصور سيبعث الأموات ويخرجون من قبورهم . وستكون القيامة برمشة عين . ووراء السماء المدمرة سيظهر عرش الله ، مسنداً بشمانية ملائكة ومحاط بقطعان سماوية ، وسيحشر الناس أمام العرش ، الصالحون على اليمين والكافرون على الشمال . عندئذ تبدأ المحاكمة على اساس العلاقات المدونة في كتاب أعمال البشر (اللوح المحفوظ) . وسيدعى انبياء الماضي ليشهدون بأنهم بلغوا الوحدانية وانهم انذروا معاصريهم . والكافرون سيدانون بعذب الجحيم^(١٣) . مع ذلك فإن محمداً يؤكد دوماً على المسرات التي تنتظر المؤمنين في الجنة ، انها بخاصة من نوع مادي : انهار عذبة ، اشجار مثقلة الغصون بالثمار ، لحوم من كل نوع ، فتيان ولدان

كأنهم لؤلؤ مكنون) يقدمون شراباً لذيذاً ، حوريات ؛ طاهرات ، ابكار ، مخلوقات بصورة خاصة من قبل الله [٥٦: ٢٦-٤٣] . لا يتكلم محمد عن «الأرواح» التي تتألم في الجحيم أو تتنعم في الجنة . ويبعث الاجساد هو في الواقع خلق جديد . وبما ان الفترة بين الموت والدينونة تشكل حالة من اللاوعي فإن البعث سيكون له انطباع بأن المحاكمة ستكون مباشرة بعد الموت^(١٤) .

وباعلانه : «لا يوجد اله آخر سوى الله» لم يتطلع محمد لاقامة دين جديد ، لقد اراد بكل بساطة ، ايقاظ مواطنيه ، واقناعهم بعبادة الله وحده ، لأنهم اقروا فيما سلف بأن خالق السماء والأرض وضامن الخصب [٢٩-٦١-٦٣] وهم يدعونه في الازمات والاضطراب الكبرى [٢٩: ٣١-٦٥ : ٣١ : ١٧-١٩] وكانوا يقسمون بالله جهد ايمانهم [٣٥: ١٢-١٦-٣٨] . وان الله كان من جهة اخرى رب الكعبة ، وفي واحدة من أقدم السور يطلب محمد من افراد من قبيلته الخاصة قريش ، عبادة رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف [١٠٦-٣-٤] مع ذلك لم تتأخر المعارضة عن الظهور ، وكانت الاسباب والحجج متعددة ، ويؤكد ابن اسحاق ان محمداً بناء على أمر من الله أعلن الدين الحقيقي (الاسلام = الخضوع) .

ولم يقاومه مواطنوه لفترة من الزمن الا عندما تكلم بالسوء ضد آلهتهم . وتذكر السنة انه بعد الآية ٢٠ من السورة ٥٣ (النجم) بصدد الربات الثلاثة اللات والعزة ومناة اتبعت بهذه الآيات : «انها الغرائق العلى (الربات العلى) وان شفاعتهن لترتجى» . ولكن محمد فيما بعد ، اعتبر ان هذه الكلمات أوحى بها الشيطان . فأبدلها عندئذ بهذه الكلمات «إن هي الا اسماء سميتوها انتم واباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان» .

إن هذه الحادثة هي ذات دلالة لسببين : بدنياً ، تظهر صراحة الرسول : فقد اعترف انه بتلاوته الكلام الموحى به بوحى إلهي ، قد خدع من قبل الشيطان^(١٥) . وفي المحل الثاني يرر نسخ الآيتين من قبل الكلي القدرة والحرية المطلقة الرب^(١٦) . وفي الواقع ، إن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي اعترف بحرية النسخ لبعض مقاطع من الوحي .

وبالنسبة لطغمة قريش الغنية ، كان ارتدادهم للوثنية معادلاً لخسارة امتيازاتهم . إضافة إلى ذلك ، فإن الاعتراف بمحمد انه الرسول الحقيقي لله كان يقتضي كذلك الاعتراف بسيادة سياسية ، واكثر فداحة ايضاً : ان الوحي المعلن من قبل النبي ، كان يدين أجدادهم المشركين في جهنم الدائمة ، وهو أمر غير ممكن القبول بالنسبة لجماعة تقليدية . وبالنسبة لقسم كبير من السكان ، كانت المعارضة الاساسية (التواضع الوجودي) لمحمد «ما لهذا النبي : يأكل الطعام ويدور في الأسواق . لولا انزل إليه ملك فيكون معه نذيراً» [٢٥ - ٧] . لقد سخرُوا من الوحي واعتبروه مخترعاً من محمد أو أنه موحى به من قبل الجن . وبصورة خاصة اعلانه نهاية العالم وقيامه الاجساد ، اثارت السخرية من جهة أخرى ، فقد مضى الزمن والكارثة الأخروية تأخرت عن المجيء^(٧) .

وقد لاموه ايضا لعدم وجود معجزات «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب تفجر الانهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقي في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قال سبحن ربي هل كنت الا بشراً رسولاً [١٥/٥ - ٩٣] .

٢٦٠ - السفر الوجداني للسماء والكتاب المقدس

بايجاز ، طلب إلى محمد البرهان على رسمية وحيه النبوي بأن يصعد إلى السماء حاملاً كتاباً مقدساً . وبعبارة أخرى كان من المتوجب على محمد التوافق مع النموذج المشهر من قبل موسى ، دانيال ، هينوش ، ماني والرسل الآخرين الذين بصعودهم إلى السماء التقوا مع الرب وتلقوا من يده الخاصة الكتاب المتضمن الوحي الإلهي ، وقد كان هذا السيناريو مألوفاً ايضاً تماماً لدى اليهودية المعيارية والرؤية اليهودية باكثر مما لدى الساماريين ، وفي الغنوصيات والمانديتات ويرجع أصله إلى الملك الاسطوري في ما بين النهرين ايمانودوركي ، وهو متضامن مع الايديولوجيا الملكية^(١٨) .

وقد تطورت وتنامت تراثات الرسول وردوده على المطاعن بمقدار وتبعاً لما يثيره الكافرون من اتهامات . وكالعديد من الانبياء والرسل الآخرين قبله ، وكبعض انداده اعتبر محمد وأعلن نفسه الرسول (= المبعوث) من الله ١٩ : الذي حمل إلى مواطنه وحياً الهيا . فالقرآن هو (تنزيل رب العالمين) [١٩٣:٣٦] «بلسان عربي مبين» . فهو اذن معقول تماماً الى سكان مكة ، فاذا استمروا في كفرهم ، فذلك لعمامهم أمام الآيات السماوية [٦٨:٢٣] ، ويتكبرهم وطيشهم [١٧: ١٤ ، ٣٣ : ١٦٨] . ومن جهة أخرى ، فإن محمداً يعلم جيداً إن محمداً مماثلة قد تحملها الرسل المبعوثون قبله من الله : ابراهيم ، موسى نوح ، داوود يوحنا ، يسوع . [٦٦:٢١] .

إن الصعود للسماء - المعراج - هو ايضا رد على الكافرين . (سبحان الذي اسرى بعبد له ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا من حوله لنريه من آياتنا» [١٧-١] . ان السنة تحدد السفارة الليلية حوالي سنة ٦١٧ أو ٦١٩ ؛ ممتطيا الفرس المجنح البراق ، زار محمد اورشليم الأرضية ووصل حتى السماء . وقد وثقت تفاصيل هذه الرحلة الوجدية على شكل موسع في النصوص المتأخرة . ويختلف السيناريو في رواياته . فحسب رواية بعضهم ، ان الرسول ، على فرسه المجنح . تأمل الجحيم والجنة ، وقرب من عرش الله . وان الرحلة لم تدم سوى لحظة : فالجرة التي قلبها محمد عند سفره لم تفرغ بعد محتواها عندما عاد لمتزله . وحسب رواية أخرى يبرز على مسرح الحدث السلم الذي تسلقه محمد حتى ابواب السماوات يقوده جبرائيل . ولقد وصل إلى امام الله وتلقى من فمه ذاته أنه اختير قبل كل الانبياء الآخرين وانه هو «محمد حبيبه» وقد أسر الله إليه بالقرآن وبعض العلم الباطني الذي يجب على محمد أن لا يعلم به المؤمنين^(٢٠) .

إن هذه السفارة الوجدية ستلعب دوراً مركزياً في التصوف واللاهوت الاسلاميين فيما بعد ، وانها تبرز خطأً مميزاً لعبقرية محمد والاسلام ، وهذا الخط يظهر في الارادة بتمثل وادخال تركيب ديني جديد للمراسات . وافكار وسيناريوهات اسطورية - طقوسية تقليدية . وسرى فيما بعد ان النتائج للمواجهات مع اليهودية ومع تقاليد دينية أخرى ، وحتى تقليد (وثني) وقديم ، ومثل ذلك الكعبة .

أخذ وضع محمد والمؤمنين معه يتفاقم باستمرار . وقرر أعيان مكة تجريدهم من حقوقهم القبلية . وفي الواقع ، كانت الحماية الوحيدة للعربي انتماءه إلى قبيلة . ومع ذلك فقد دافع عمه ابو طالب عنه مع انه لم يعتنق الاسلام ابداً . وبعد وفاة ابو طالب ، نجح اخوه ابو لهب في تجريد الرسول من حقوقه . وكانت المسألة المطروحة بهذه المقاومة الاكثر عنفا من قبل القرشيين قد حلت على المستوى اللاهوتي : ان الله ذاته هو الذي آراه . والارتباط الأعمى بتعدد الآلهة (الشرك) كان مقررأ ، بكل ازليته ، من قبل الله [١٦ : ٣٩ : ١٠ : ٧٥ : ٦ : ٣٩] . «والذين كذبوا بآياتنا صم بكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم» . والقطيعة مع الكافرين كانت محتومة «لا اعبد ما تعبدون ولا تعبدون ما اعبد» [١٠٩ : ١-٢] .

وحوالي ٦١٥ ، ولكي يضعهم في ملجأ من الاضطهاد ، ولأنه خشي ايضا بعض الانشقاق^(٢١) . شجع محمد مجموعة من ٧٠-٨٠ مسلماً للهجرة إلى بلد مسيحي ، الحبشة ، والنبي الذي كان يعتبر في البداية مبعوثاً وحيداً لهدي القرشيين ، يتقرب الآن من البدو الرحل وسكان المدينتين الواحيتين الطاييف ويثرب . ولم ينجح بالنسبة للرحل وبدو الطائف ، ولكن اللقاءات مع يثرب (مستقبلاً المدينة) كانت مشجعة .

لقد اختار محمد الهجرة إلى يثرب ، أن الدين التقليدي لم يكن ممتعناً بالمصالح الاقتصادية والسياسية : وحيث كان يوجد كثير من اليهود ، اذن الموحدون . وازضافة إلى ذلك ، فإن هذه المدينة الواحة ، كانت قد تعبت في حرب طويلة داخلية .

وقد قبل بعض القبائل ان رسولاً بنيت سلطته على الدين وليس على القرابة الدموية ، يستطيع غض النظر عن العلاقات القبلية ويقوم بدور الحكم . وكانت واحدة من القبيلتين الرئيسيتين قد اعتنقت الاسلام ، مؤمنة ان الله قد ارسل محمداً برسالة موجهة إلى كل العرب .

وفي ٦٢٢ ، وبمناسبة الحج إلى مكة التقت بعثة مؤلفة من ٧٥ رجلاً وامرأتين من يثرب الرسول سراً وتعاهدت معه بيمين رسمي للقتال في سبيله . وبدأ المؤمنون عندئذ مغادرة مكة جماعات نحو يثرب . ودام اجتياز الصحراء (اكثر من ٣٠٠ كم) تسعة أيام . وكان محمد آخر الداهيين مصحوباً بحموه ابو بكر . وفي ٢٤ أيلول وصلوا الى القوة Qoba ، مزرعة بالقرب من المدينة . لقد تمت الهجرة بنجاح . وبعد بعض من الوقت ، دخل الرسول إلى المدينة تاركاً لناقته اختيار المكان المقبل لمقره . والبيت ، الذي كان يستخدم مكاناً لتجمع المؤمنين من أجل الصلاة جماعة ، لم يجهز الا بعد سنة ، لأنه وجب ايضاً بناء الأحياء لأزواج النبي .

لقد تميّز النشاط الديني والسياسي لمحمد في المدينة بجلاء عن نشاطه في الفترة المكية . وهذا التغيير بارز في السور المنزلّة بعد الهجرة : انها تتعلق بصورة خاصة بتنظيم جماعة المؤمنين (الأمة)^(٢٢) . ومؤسساتها الاجتماعية والدينية . وان النية اللاهوتية للإسلام قد استكملت في الفترة التي ترك فيها محمد مكة ، ولكنه في المدينة أثبت قواعد العبادة (الصلوات ، الصيام ، الزكّات ، الحج) . ومنذ البدء ، اثبت محمد ذكاء سياسياً خارقاً ، فقد حقق دمج المسلمين الآتين من مكة (المهاجرين) مع المعتنقين للدين في المدينة (الانصار) ؛ وذلك بإعلانه انه رئيسهم الأوحد ، وان العصبية القبلية قد الغيت اذن . ومنئذ لم يعد يوجد سوى جماعة المسلمين ، المنظمة بصفتها جمعية ثيوقراطية . وفي الدستور المعلن ، على الأرجح سنة ٦٢٣ ، قرر محمد ان المهاجرين والانصار (أي الأمة) يشكلان شعباً واحداً متميزاً عن الآخرين كلهم ؛ لقد أكد مع ذلك على الحقوق والواجبات للقبائل الأخرى وايضاً للقبائل اليهود الثلاثة . وبلا ريب ، ان كل السكان في المدينة كانوا غير راضين عن مبادرات محمد ، ولكن ، اعتباره السياسي كان ينمو بمقدار وتبعالنجاحاته الحربية . غير ان الوحي الجديد الموحى إليه من قبل الملاك جبرائيل هو الذي ضمن له نجاح مقرراته^(٢٣) .

وكان الازعاج الاكبر لمحمد في المدينة انتقاض القبائل اليهودية الثلاث . فقبل هجرته ، اختار محمد القدس كقابلة للتوجه في الصلوات ، حسب الممارسة اليهودية ، وما أن استقر في المدينة ، حتى استعار طقوساً اسرائيلية اخرى ، وتشهد السور المنزلّة

في السنوات الأولى من الهجرة بجهوده لأجل اقناع اليهود بالايمان «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير . فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير» [٥-٢١] . وقد اجاز محمد لليهود الحفاظ على تقاليدهم الطقوسية اذا اعترفوا به كنبي^(٢٢) . ولكن اليهود بدوا دائماً الاكثر عداوة . وزعموا وجود خطأ في القرآن ، مؤكدين على ان محمد لم يعرف العهد القديم .

وتمت القطيعة في ١١ شباط ٦٢٤ ، عندما تلقى الرسول وحياً جديداً محدداً للمسلمين ان يتوجهوا ، من أجل الصلاة ليس باتجاه القدس وانما باتجاه مكة [٢: ١٣٦] . وقد أعلن محمد بحدسه العبقري ان الكعبة بنيت من قبل ابراهيم وابنه اسماعيل [٢: ١٢٧] . وان سبب وجود المعبد الآن تحت رقابة عبدة الأوثان انما هو فقط بسبب ذنوب الاجداد . ومنذئذ «للعالم العربي معبده ، وهو اكثر قدماً من معبد اورشليم . وان لهذا العالم وحدانيته الحنيفية [. . .] وبهذه الاشارة ، فإن الاسلام الذي كان انحرف فترة قصيرة عن اصوله ، رجع إليها ابدناً»^(٢٥) . ان النتائج الدينية والسياسية لهذا القرار بارزة جداً : فمن جهة ، ان مستقبل وحدة العرب سيكون مضموناً ، ومن جهة اخرى ، فإن التفكرات المتأخرة حول الكعبة ستصل إلى لاهوت المعبد تحت دلالة الأقدمين ، اذن «حقائق» ، توحيدية . والآن فقد انفصل محمد عن اليهودية كما انفصل عن المسيحية : هاتان (الديانتان الكتابيتان) اللتان لم تعرفا كيف تحافظان على نقائهما الأصلي . ولأجل هذا فإن الله أرسل آخر رسول ، والاسلام هو المقدر له الآن ان يخلف المسيحية كما خلفت هذه اليهودية .

٢٦٣ - من النفي إلى النصر

من أجل البقاء ، كان محمد و«المهاجرون» مكرهين لشن غزوات ضد قوافل المكين . وأول ظفر لهم ، كان غزوة بدر ، في آذار ٦٢٧ [٣: ١٢٣] ، وقد فقدوا ١٤ رجلاً ، وفقد المشركون ٧٠ قتيلًا و ٤٠ أسيراً . وكانت الغنيمة ، على جانب من الأهمية ، كذلك الأمر فدية الأسرى ، وقد وزعت من قبل محمد ، بحصص متساوية

على المحاربين . وبعد شهر ، أجبر محمد واحدة من القبائل اليهودية على مغادرة المدينة ، تاركة وراءها منازلها واموالها* .

وفي السنة التالية ، غلب المسلمون في أحد من قبل جيش مكي يقدر بثلاثة آلاف رجل ، وقد جرح محمد نفسه . غير ان الحدث الفاصل في هذه الغزوة الدينية تمثل بالمعركة المسماة معركة (الخنلق) . لأنه بناء على آراء رجل فارسي ، حفرت خنادق أمام طرق الدخول إلى المدينة الواحة . وحسب النصوص ان ٤٠٠٠ مكي حاصروا المدينة عبثاً خلال اسبوعين ؛ ولكن اعصاراً شتتهم على غير هدى . واثناء الحصار لاحظ محمد التصرفات المشبوهة لبعض المسلمين المنافقين وقبيلة قريظة آخر قبيلة يهودية بقيت في المدينة . وبعد النصر ، اتهم اليهود بالخيانة فأمر باستئصالهم .

وفي نيسان/ ٦٢٨ ، أوحى إلى محمد مجدداً [٢٧: ٤٨] بالثقة في ان المؤمنين يستطيعون ممارسة الحج إلى الكعبة . ورغم تردد بعضهم ، فإن قافلة المؤمنين اقتربت من المدينة المقدسة . ولم ينجحوا في الدخول إلى مكة ، ولكن الرسول حول هذا الفشل أو نصفه إلى نصر : فقد طلب إلى المؤمنين اليمين على الايمان المطلق (٤٨ : ١٠) ، ويكونه ممثلاً مباشراً لله . ولقد كان بحاجة إلى مثل هذه اليمين لأنه بعد قليل من الزمن عقد مع المكيين هدنة يمكن لها أن تبدو مهينة ، ولكنها سمحت باجراء الحج في السنة القادمة ، وأكثر من هذا ، أن القرشيين ضمنوا للمسلمين سلاماً ، لمدة عشر سنوات .

وفي سنة ٦٢٣ ، دخل الرسول مصحوباً بالفي شحص من المؤمنين إلى المدينة المتروكة مؤقتاً من المشركين ، واحتفل بشعائر الحج . ويدا نصر الاسلام قريبا ؛ اضافة إلى ذلك ، فإن عدداً من القبائل البلوية وحتى ممثلي الأوليغارشية القرشية بدؤوا في اعتناق الاسلام . وفي ذات السنة أرسل محمد بعثة إلى مؤتة ، على حدود الامبراطورية البيزنطية ، ولم تنقص خيبة البعثة من تقديره . وقد كانت مؤتة تدل على الاتجاه الرئيسي الذي يتوجب على الاسلام التبشير فيه ؛ وفهم خلفاء محمد هذا جيداً .

* خلال ما يقرب من ثلاث سنوات ، أوصل رسالته الالهية الأولى فقط لزوجته خديجة ولبعض أصدقائه الخالص (ابن عمه علي ، وابنه بالتبني زيد) .

وفي كانون ثاني ٦٦٣ ومع الف شخص (حسب السنة) وبحجة ان المكين قد ساندوا قبيلة معادية ، علّق محمد الهدنة واحتل المدينة بدون مقاومة . ودمرت اصنام الكعبة ، والمعبد المطهر وازيلت كل امتيازات المشركين ، وما ان أصبح محمد سيد المدينة المقدسة حتى اظهر تسامحاً كبيراً ؛ وباستثناء ستة من اعنى خصومه الذين اعدوا منع الثأر ضد السكان . وموجهاً بغريزته السياسية التي تدعو إلى الاعجاب ، لم يقم محمد عاصمة دولته التيقراطية في مكة فعاد بعد الحج إلى المدينة .

وفي السنة التالية في ٦٣١ ، لم يتم محمد الحج ، وانما ارسل ابو بكر ليمثله ، وبهذه المناسبة ، وبوحي جديد ، أعلن محمد الحرب الشاملة ضد المشركين ، «إن الله بريء من المشركين ، ورسوله [...] فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم [...] فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم ، وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله . ثم ابلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون [٩: ٦-٣]» (٢٧) .

وفي آذار - شباط من ٦٣٢ رجع محمد إلى مكة مدفوعاً بشعور خاص ، وكان هذا آخر حج له . وفي هذه المناسبة رسم بدقة كل تفاصيل شعائر الحج ، التي مازالت تتبع حتى يومنا هذا . وقد أوحى إليه الملك بهذا الكلام : «اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً» [٥: ٣] . وحسب السنة ، فإن محمد في نهاية هذا الحج بالدواع سيدعوربه قائلاً اللهم هل بلغت : وردد الناس : «نعم لقد بلغت» .

وبالعودة إلى المدينة ، في الأيام الأخيرة من ايار ٦٣٢ ، وقع محمد مريضاً ، ومات في حزيران في احضان زوجته المفضلة عائشة . وكان الذعر كبيراً . فبعضهم رفض قبول موت الرسول ؛ واعتقدوا انه كالمسيح ، صعد إلى السماء . ولم يدفن جسده في المقبرة وانما في زاوية من مسكن عائشة ، حيث يرتفع الآن أثر جنازتي شبه مقدس ايضاً وهو بالنسبة للمسلمين كالكعبة . ولقد انتخب ابو بكر خليفة للرسول وقد خاطب المؤمنين بقوله : «اذا كان أحد يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، واذا كان أحد يعبد الله ، فإن محمد حي ولن يموت» .

إن تاريخ الأديان وتاريخ العالم لم يعرفا مثلاً يمكن مقارنته بمشروع محمد . فغزوة مكة وإقامة دولة تيوقراطية يثبتان أن العبقرية السياسية للرسول لم تكن بأقل من عبقريته الدينية صحيح أن الظروف - في الدرجة الأولى منها النزاعات الأوليغارشية المكية - كانت ملائمة للرسول . ولكنها لا تفسر لا اللاهوت . ولا النبوة ، ولا نجاح محمد ولا خلود إبداعه : الإسلام والتيوقراطية المسلمة .

ومن غير المشكوك فيه أن الرسول عرف مباشرة أو بصورة غير مباشرة بعض المفاهيم والممارسات الدينية لليهود والمسيحيين ، ففيما يتعلق بالمسيحية كانت معلوماته ، على الأكثر ، تقريبية . لقد تكلم عن يسوع ومريم بلغة أكد أنها ليسا من طبيعة الهية [١٦:٥-٢٠] لأنها مخلوقان [٣:٥٩] . وأشار في كثير من المناسبات إلى ولادة المسيح ، ولعجزاته ولرسله (مساعديه ، وخلافاً لرأي اليهود ، وبالتوافق مع الغنوصيين فإن محمداً أنكر الصلب وموت يسوع^(٢٨) . مع ذلك ، أنكر دوره كمخلص ، ورسالة العهد الجديد والأسرار والصوفية المسيحية .

ويذكر الرسول للتثليث المسيحي : الله - يسوع - مريم ؛ وعلى الأرجح عرف أعوانه الكنيسة القائلة بالطبيعة الواحدة في الحبشة ، حيث كانت العذراء تعبد بطريقة مبالغ فيها جداً^(٢٩) . ومن جهة أخرى فقد عرفت بعض تأثيرات النسطورية ، وعلى سبيل المثال ، اعتقادها بأن الموت يجعل الروح غير مدركة تماماً ، وإن شهداء العقيدة يتقلون فوراً إلى الجنة . كذلك المفهوم لسلسلة من هبوطات متتالية للوحي كانت موزعة بين عدد من المذاهب الغنوصية اليهودية - المسيحية .

ولكنه لم يتوصل أي تأثير خارجي لتفسير الوحي إلى محمد وإلى بنية نبوته . و بإعلان قرب الدينونة والتذكير أن الإنسان سيكون وحده أمام عرش الله ، أظهر محمد الفراغ الديني للعلاقات القبلية . ولكنه أعاد ادخال الأفراد في جماعة جديدة من طبيعة دينية (الأمّة) . أنه أذن أبدع القومية العربية ، تماماً بسماعه بالتوسيع الإسلامي رباناً .

جماعة المؤمنين خارج الحدود الإثنية والعرقية . إن الطاقة التي كانت تصرف منذ وقت طويل في الحروب بين القبائل توجهت بقنوات إلى حروب خارجية ضد الوثنيين ، حروب مشرعة باسم الله ومن أجل النصر الشامل للتوحيد . ومع ذلك ، فإنه في حملاته ضد القبائل البدوية ، وبخاصة ضد المكين ، ربح محمد بمفاوضات ذكية أكثر مما ربح بقوة السلاح . مقيماً هكذا نموذجاً مثلاً لخلفائه .

وأخيراً ، وبإظهار القرآن لهم ، رفع مواطنيه على ذات صف الشعبيين الآخرين «أهل الكتاب» وشرف اللغة العربية بصفتها لسانا طقوسيا والهيأ ، بانتظار ان تصبح لغة ثقافة مسكونية .

ومن وجهة المورفولوجيا الدينية ، فإن رسالة محمد ، كما صيغت في القرآن ، تمثل التعبير الأكثر نقاءاً للتوحيد المطلق . فالله هو اله ، الاله الوحيد . انه تام الحرية المطلقة ، كلي العلم ، وكلي القدرة ؛ انه خالق الأرض والسموات ، وخالق كل ما هو موجود ، ويضيف إلى الخلق ما يريد» [١:٣٥] . ويفضل هذا الخلق المستمر تتلو الليالي الأيام . وينزل المطر من السماء «والفلك تجري في البحر» [١٦٤:٢] . وبعبارة أخرى ، ان الله لا يحكم الايقاعات الكونية فحسب ، وانما ايضا اعمال البشر . كل افعاله مع ذلك حرة ، وفي آخر المطاف تحكيمية ، لأنها ترتبط بقراره فقط . والله حر بأن يغير قوله ؛ وهذا ما يثار في موضوع نسخ بعض السور .

والانسان ضعيف ، ليس على اثر الخطيئة الأصلية وانما لكونه ليس سوى مخلوق ؛ وعلاوة على ذلك . انه يوجد في عالم أعيدت له القداسة على اثر الوحي الموصول من قبل الله إلى آخر انبيائه . كل تصرف - فيزيولوجي ، نفسي ، اجتماعي تاريخي - بالعقل البسيط الذي ينجز بفضل الله ، يوجد تحت قضائه . لاشيء حر ، ومستقل عن الله في العالم ، ولكن الله رحيم ، وان نبيه أظهر ديناً أكثر بساطة من الديانتين التوحيديتين السابقتين . والاسلام لم ينشئ كنيسة وليس عنده كهنوت ، والعبادة يمكن ان تتم في أي مكان ؛ وليس من الضروري ممارستها في معبد^(٣٠) . والحياة الدينية منظمة بمؤسسات هي في ذات الحين معايير قانونية ، وبخاصة الأركان الخمسة للإيمان . والركن الأهم هو (الصلاة) ، العبادة القانونية ، متضمنة «السجودات

الخمس اليومية ، والثاني هو الزكاة أو المساعدة القانونية ، والثالث ، صوم رمضان والرابع هو الحج ، والخامس يتضمن الأقرار بالآيمان ، الشهادة أي ترداد الصيغة لا اله الا الله ومحمد رسول الله^(٣١) .

ومع التسليم بقابلية خطأ الانسان ، فإن القرآن لم يشجع التنسك ولا الرهينة . «يا بني آدم خذوا زيتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ان الله لا يحب المرففين» [٣٠-٧] . وعلى كل حال فإن القرآن لا يتوجه بالخطاب إلى القديسين والكاملين وانما لكل البشر . وقد حدد محمد عدد الزوجات الشرعيات بأربعة [٣: ٤] . ويدون ان يحدد عدد الإماء والعبيد^(٣٢) . أما بالنسبة للفوارق الاجتماعية فهي مقبولة ولكن كل المؤمنين متساوون في الأمة . والرق لم يلغ ، مع ذلك ، فإن شرط العبودية كان افضل مما هو عليه في الامبراطورية الرومانية .

إن «سياسة» محمد تشبه السياسة البارزة في مختلف اسفار العهد القديم . انها مستوحاة مباشرة أو بصورة غير مباشرة من الله . وان التاريخ العالمي هو الظهور الغير منقطع لله حتى انتصارات المؤمنين هي من ارادة الله فالحرب الشاملة والدائمة هي اذن لا مفر منها بهدف اهداء العالم باثره للتوحيد . وعلى كل حال ، فإن الحرب هي مفضلة على الردة وعلى الفوضى .

وحسب الظاهر ، فإن الحج والشعائر المكملة للكعبة - المعبرة كبيت الله - تبدو مخالفة للتوحيد المطلق الذي بشر به محمد . ولكنه سبق ان اشرنا إلى ان الرسول اراد ادخال الاسلام في التقليد الابراهيمي وإلى جانب رموز أخرى وسيناريوهات ماثلة في القرآن - الكتاب المقدس - الصعود السهوي لمحمد ، دور الملاك جبرائيل - الخ . . والحج سيكون باستمرار معاد التفسير ومعاد التقييم من قبل اللاهوت والتصوف المتأخرين . ويجب كذلك أن يؤخذ في الحسبان السنة الشفاهية المنقولة في الحديث والتي هي ايضاً ، ستضفي الشرعية لعدد من التفسيرات والتعليمات . فالله يحافظ على وضعه الها وحيداً مطلقاً ومحمد سيكون النبي المختار ، ولكن . وكما في اليهودية والمسيحية ، فإن الاسلام سيتهي إلى قبول عدد من الوسطاء والشفعاء .

٢٦٥ - فيضان الاسلام في البحر المتوسط والشرق الأوسط

تماما كما هو الأمر بالنسبة للعبرانيين والرومان ، فإن الاسلام - خاصة في مظهره الأول - رأى في الأحداث التاريخية مشاهد لتاريخ مقدس . انها الانتصارات العسكرية الاستعراضية المتحصلة من الخلفاء الأول الذين ضمنوا بدئياً استمرارية الحياة وبالتالي الانتصار للاسلام . وفي الواقع ، ان موت محمد فجر ازمة كان يمكن ان تكون محتومة للديانة الجديدة . وحسب سنة توصلت لتكون مقبولة من اكرثية المسلمين ، فإن محمداً لم يعين خليفة وقد اختير ابو بكر والد زوجته المفضلة عائشة ، ليكون خليفة ، حتى قبل دفن الرسول . ومن جهة اخرى كان معروفاً إيثار محمد لعلي زوج ابنته فاطمة ووالد حفيديه اللذين كانا في حياته الحسن والحسين . وظهر من المحتمل اذن ان يكون محمد قد اختار عليا كخليفة . ولكن من أجل انقاذ وحدة الأمة ، قبل علي وانصاره اختيار ابو بكر . وكما ان هذا الأخير كان متقدما في السن ، فإن عليا لم يكن ليشك ابداً في انه سيخلفه سريعا ، وما يهم هنا ، كان تجنب ازمة مصيرية للاسلام . وقد كان سبق ان بدأت قبائل البدو تتحلل ، مع ذلك فإن الحملات المشرعة فوراً من قبل أبي بكر نجحت في اخضاعها . وفوراً بعد ذلك . نظم الخليفة غزوات ضد سورية الاقليم الغني الخاضع للسيادة البيزنطية .

ومات ابو بكر بعد ستين في ٦٣٤ ، ولكنه كان قد اسمى كخليفة واحدا من قواده عمرو . وتتابعت اثناء خلافة هذا الاستراتيجي الكبير انتصارات المسلمين بايقاع مذهل . وبانتصارهم في معركة اليرموك غادر البيزنطيون سورية في ٦٣٦ . وسقطت انطاكية في ٦٣٧ وبذات السنة انهارت امبراطورية الساسانيين . وحصلت غزوة مصر في ٦٤٤ وقرطاجة في ٦٩٤ وقبل نهاية القرن السابع ساد الاسلام افريقيا الشمالية ، سورية فلسطين ، اسيا الوسطى ، ما بين النهرين والعراق ، وثبتت بيزنطة وحدها ولكن رقعته تقلصت بشكل بارز .

مع ذلك ، ورغم هذه الانتصارات التي لا مثيل لها ، فإن وحدة الأمة كانت موضع شك بشكل جسيم . لقد عيّن عمر ستة من الصحابة لانتخاب خليفة عندما

جرح بجرحه القاتل من قبل عبد فارسي ، وقد تجاهل هؤلاء «علياً ، وشيعته واختاروا صهراً آخر للرسول عثمان (٦٤٤-٦٥٦) . وعثمان المنتمي للقبيلة الارستقراطية الامويين ، الخصوم القدامى لمحمد وزع المهمات الاساسية في الامبراطورية على أعيان مكة . وبعد اغتياله من قبل بدو الواحات المصريين والعراقيين ، اعلن علي خليفة من قبل المدينيين ، وبالنسبة للشيعة الذين لم يعترفوا بأية خليفة من خارج اسرة الرسول واحفاده ، كان علي الخليفة الحقيقي الأول .

ومع ذلك فإن عائشة وعدداً من رؤساء مكة اهتموا علياً بمؤامرتة في اغتيال عثمان . وتقابل الحزبان في معركة سميت بمعركة الجمل لأنها دارت حول جمل عائشة . وأقام علي عاصمته في مدينة من العراق ، ولكن خلافته عورضت من قبل حاكم سورية معاوية «حمو الرسول ؟» وابن عم عثمان . وقد رفع جند معاوية القرآن على رؤوس رماحهم عندما عرفوا ان المعركة خاسرة بالنسبة لهم . فقبل علي تحكيم الكتاب ، ولكنه ، مدافع عنه بشكل سيء ، من قبل ممثله ، تنازل عن حقه . على اثر هذه الاشارة من الضعف تركه بعض المقاتلين الذين عرفوا منذئذ باسم الخوارج ، واغتيل علي في ٦٦١ ، واعلن اشياعه الغير كثيرين ، نجله البكر الحسن خليفة له . ثم ان معاوية الذي سبق اختياره خليفة من قبل السوريين في القدس نجح في اقناع الحسن بالتنازل عن الخلافة لمصلحته .

لقد كان معاوية رئيساً عسكرياً جديراً وسياسياً موهوباً ، وقد اعداد تنظيم الامبراطورية وأسس الأسرة الملكية الأولى للخلفاء الامويين (٦٦١-٧٥٠) . ولكن الخط الأخير لتوحيد الأمة ضاع عندما ذبح الحسين النجل الثاني لعلي في ٦٨٠ في كربلاء ، في العراق مع كل افراد اسرته تقريباً . ولم يغفر الشيعة مطلقاً لقتله هذا الشهيد ، فاثاروا خلال قرون ، ثورات وعصيانا كانت تقمع بوحشية من قبل الخلفاء الحاكمين . ولم يسمح للجماعات الشيعة بالاحتفال اثناء العشرة الأيام الأولى من شهر المحرم باقامة حفلات عامة إحياء لذكرى الموت المأساوي للإمام الحسين ، الا بدءاً من القرن العاشر (٣٤) .

وهكذا فإنه بعد ثلاثين سنة من موت الرسول ، وجدت الأمة مقسمة وبقية

مقسمة حتى يومنا هذا - إلى ثلاثة احزاب : اكثرية المؤمنين ، السنين أي انصار السنة (التطبيق والتقليد) تحت قيادة الخليفة الحاكم ، والشيعية المخلصين لنسب أول خليفة حقيقي علي والخوارج الذين اعتبروا أن الجماعة وحدها لها الحق باختيار رئيسها وعليها ايضا الواجب بعزله اذا كان مجرماً بذنوب ثقيلة . وكما سنرى (فصل ٣٥) فإن كل واحد من هذه الاحزاب ساهم في مقياس قل أو كثر ، في تطور المؤسسات الدينية ، من اللاهوت والتصوف الاسلامي .

أما بالنسبة لتاريخ الامبراطورية المؤسسة من قبل الخلفاء الأول ، فإنه يكفينا ان نذكر الأحداث الأكثر أهمية . فقد استمر التوسع العسكري حتى ٧١٥ ، عندما أجبر الاتراك جيشاً عربياً لترك اقليم اوكسس OXUS . وفي ٧١٧ ، فشلت الحملة البحرية ضد بيزنطة بخسائر باهظة . وفي ٧٣٧ سحق شارل هارتل ملك فرنسا هجوم العرب قرب تور وأجبرهم على الانسحاب من الجانب الآخر من البيرونية . تلك هي نهاية السيادة البحرية للامبراطورية العربية . وستكون الفيضانات المقبلة وغزوات الاسلام من عمل مسلمين متحدرين من ارومات اتنية أخرى .

إن الاسلام ذاته بدأ يحور بعض بنياته الأصلية . ومنذ وقت سابق كان هدف الحرب المقدسة كما عرفها محمد - اعتناق غير المؤمنين للاسلام - وكان هذا الهدف يحترم اقل فأقل . وقد فضلت الجيوش العربية اخضاع المشركين بدون ان تهديهم للايمان ، بهدف ان تستطيع فرض ضريبة عليهم اكثر ثقلاً . وما هو اكثر من ذلك ، فإن المهتدين لم يكونوا يتمتعون بذات الحقوق التي للمسلمين . وبدءاً من ٧١٥ فإن التوتيرين العرب ومعتقي الاسلام الجديد أخذ يتفاقم باستمرار ، فهؤلاء الاخرون كانوا على اهبة دعم كل عصيان يعدهم بالمساواة مع العرب . وبعد بضع سنوات من الفوضى والصراعات المسلحة ، انهارت الاسرة الملكية الأموية ، في ٧٥٠ ، وحل محلها اسرة ملكية هامة العباسيون . وقد خرج الخليفة الجديد متصراً بفضل مساعدة الشيعة خاصة . ولكن وضع المخلصين لعلي لم يتغير أبداً ، وقد خنق الخليفة العباسي الثاني المنصور (٧٥٤-٧٧٥) بالدم عصياناً شيعياً . وعلى العكس فإن الفروق بين العرب والمؤمنين الجدد امحى نهائياً تحت حكم العباسيين .

ان الخلفاء الاربعة الأولى حافظوا على مركز الخلافة في المدينة ولكن معاوية اقام عاصمته امبراطوريته في دمشق . ومنذئذ تنامت التأثيرات الهيلنستية والفارسية والمسيحية تباعاً اثناء حكم الأمويين . وهي تبدى بصورة خاصة في التزيينات الدينية والدنيوية . وقد استعارت الجوامع الكبرى الأولى في سورية القبة من الكنائس المسيحية^(٣٥) . وان القصور والفيلات والحدائق ، والتزيينات الجدارية والموازيك احتذت نماذج الشرق الادنى الهلنستية^(٣٦) .

إن العباسيين مددوا وطوروا هذه العملية من التمثل للتراث الثقافي الشرقي وللبحر المتوسط . وأخذ الاسلام يقيم حضارة مدنية ، مؤسسة على البيروقراطية والتجارة . وأخذ الخلفاء يراجعون عن وظيفتهم الدينية : واصبحوا يعيشون منعزلين في قصورهم ، منيطين بالعلماء اللاهوتيين وفقهاء القانون - العناية بمعالجة المسائل اليومية للمؤمنين .

وان تأسيس مدينة عاصمة جديدة ، بغداد في ٧٦٢ متميز نهاية الاسلام بغرض عربي ، فالمدينة على شكل دائرة مقسمة بصليب هو صورة عالمية imagomondi ، مركز الامبراطورية : الأبواب الاربعة تمثل الاتجاهات الاربعة للفضاء . النجم الاكثر حظاً جو بيتير يرأس «ولادة» بغداد ، لأن الأعمال بدأت في اليوم المحدد من قبل منجم فارسي^(٣٧) .

وقد استقر المنصور وخلفاءه بكل ابهة الاباطرة الساسانيين ، وقد اعتمد العباسيون بخاصة على البيروقراطية ، الفارسية في اكريتها وعلى الجيش الملكي المبني على الارستقراطية العسكرية الايرانية . وان الايرانيين وقد اعتنقوا الاسلام بالجملة رجعوا الى النماذج السياسية والادارية والسلوكية الساسانية ، وان الطراز الساساني والبيزنطي قد ساد في الهندسة .

وقد كان هذا ايضا عصر الترجمات ، بواسطة الترجمة السورية syriaque ، لمؤلفات الفلاسفة ، والاطباء والكيميائيين الاغريق ، وتحت حكم هارون الرشيد (٧٨٨-٨٠٩) وخلفائه ، عرفت حضارة البحر المتوسط للعصور القديمة المتأخرة نهضة أولى بتعبير

عربي ، ولقد اكملت ، واحيانا مع معارضتها ، عملية التمثيل للقيم الايرانية (٣٨) ، التي شجعها العباسيون . وسنرى فيما بعد (الفصل ٢٥) النتائج لهذه الاكتشافات وهذه المواجهات على تطور الروحية الاسلامية .

حواشي الفصل الثالث والثلاثون

- ١ - المصادر الأكثر أهمية هي القرآن ، والتعليمات الشفهية المنقولة بواسطة السنة - الحديث ويضاف مع ذلك بأن القيمة التاريخية لهذه المصادر ليست مؤكدة دوماً .
- ٢ - ولادة وطفولة الرسول تحولتا بسرعة بما يتوافق مع السيناريو الاسطوري للمعتقدات المثاليين . فائناء الحمل سمعت امه صوتاً معلنا ان ابنها سيكون السيد والنبي لشعبه . وائناء ولادته اضاء نور باهر العالم بكامله (ولادة زرادشت - ماهافيرا ، بوذا (101- 147 152ع) . لقد ولّد نقياً كحمل ، نختونا ، والحبل السري قطع مسبقاً . ومنذ ان ولد أخذ قبضة من التراب وتطلع صوب السماء . ان يهوديا من المدينة عرف ان البار قليط كان جاء للعالم . وأوصل هذا لاتباعه . في السنة الرابعة من عمره ، وألقى ملاكان محمد ارضاً وفتحاً بطنه واخذ قطرة من دم اسود من قلبه وغسلا الجروح بمياه الثلج المذاب الذي كان حملا في اناء من ذهب (القرآن سورة 194 «ألم نفتح قلبك» الخ) هذه الشعيرة المسارية تميز المسارات الشامانية . في سن 12 من عمره صحب ابي طالب مع قافلة سورية . وفي بصرى تعرف على كتف محمد الاشارة النبوية ، الدلالات الخفية عليها ، العلامة الدينية (المصادر المذكورة)
- ٣ - هذا التطور - من جهة اخرى عام
- ٤ - هينبخز - اعياد الربيع
- ٥ - أ - مانسين - الديانة اليهودية - الأرامية لا يلفاتين باريز ١٩٣٧
- ٦ - في بداية نبوته ، اتهم محمد بمس بالجنون .
- ٧ - ثور - اندريه - أصول الاسلام والمسيحية - الاتجاه التوحيدى للدين العربي القديم كان منذ زمن قديم قد اوضح من قبل فلهوزن .
- ٨ - الاعتقاد على ترجمة القرآن من قبل د. ماسون
- ٩ - السيرة النبوية - ابن اسحاق - ترجمة نور اندرية - وترجمة اخرى البلاشير

١٠ - بعض المؤرخين المحدثين يقدران المظهرين - الرؤية المتعلقة بالحلم في الغار ورؤية الملاك جبرائيل المطروحة بالافق الأعلى لا تنتميان لذات التجربة .

١١ - لا تحرك لسانك - كما لو كنت تريد تعجل الكشف . انه يعود لنا (القرآن ، جمعه وقراءته - اتبع قراءته - عندما نقرأ - عليك . وبعبارة اخرى . كل مبادرة شخصية أو ارتجال كان ممنوعاً .) ولا تحرك به لسانك لتعمل به . ان علينا جمعه وقراءته . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه» [١٧-١٨-١٥]

١٢ - انظر Bell - القرآن - في البدء كانت السور تنقل من الذاكرة ولكنه بدى بتأكيدها بالكتابة عندما قويت مقاومة الشرك (ر . بلاشير - مسألة محمد) .

١٣ - يلاحظ من ذلك انها أقل موهبة من بعض الأوصاف البوذية أو المسيحية . ويقتضي التأكيد بأن الأخروية الإسلامية عامة تحتوي عدداً من الاسباب الغائبة في القرآن مثلاً (العقاب في القبر والحسر فوق جهنم ، بخيرة النار الخ)

١٤ - سيكون المبشرون مهياين للحلف بأنهم لم يبقوا في قبورهم سوى ليلة او ساعة واحدة [١٠-٤٦]

١٥ - من الراجح جداً ان محمداً كان يعتبر الربات الثلاثة كملائكة شنيعة ، وفي الواقع ان الاعتقاد بالملائكة كان مقبولاً بالاسلام ، وفيما بعد فإن علم الملائكة لعب دوراً هاماً في التشيع (ت 281ع) ولكن الرجوع الى الخطر الذي تمثله شفاعة الربات = الملائكة . بالنسبة للاهوت التوحيدى حصراً ، ألغى محمد الآيتين .

١٦ - وما ان ننسخ من آية أو ننسى حتى تأتي بديلاً عنها ويأحسن منها ألا تعلم ان الله قادر على كل شيء ؟ [2: 106]

١٧ - كان محمد قد أكد على قيمة نهاية العالم ، وهو لم يحدد بدقة متى سيأتي الحدث ، مع ان بعض السور تشير انه سيحصل خلال حياته

١٨ - المرجع التالي .. (الكتب المقدسة)

١٩ - ر . ويدنفرين .. الكتب المقدسة - وهذا يتعلق بصيغة مستعملة على نطاق واسع في

الشرق الأوسط القديم والتي أعيد اخذها من قبل الاثمة الشيعة (ذات المرجع)

٢٠ - ر . التصوص مترجمة ومشروحة من قبل ويدنفرين وتوجد نصوص مستخرجة من البغوي

والسيوطي في كتاب ارثر جيفري الاسلام ص ٤٦٣٥ وبعض العلماء رأى تفضيل ، الترجمة اللاتينية للنص العربي حول المعراج وان دانتي استعمل عدداً من التفصيلات في كتابه الكوميديا الالهية انظر - بلاسيوز (المعراج المسلم والكوميديا الالهية)

٢١-٢٢ اسماء المراجع .

٢٣ - عندما خرج المدينيون بالتحريم بمناسبة اول غزوة للمهاجرين لأنهم خرقوا الهدنة في الشهر

المحرم (رجب) تلقى محمد هذه الرسالة الالهية : «القتال في هذا الشهر اثم كبير ولكن ابعاد الناس عن طريق الله هو كفر نحوه ونحو الكعبة المقدسة وطرد سكانها كال هذا هو اكثر اثمًا تجاه الله» [١٧: ٢] ٢٤- ٢٦- المراجع المعتمدة . (وات - بلاشير - كوربان)

٢٧- (اما بالنسبة للموحدين (أهل الكتاب) فإن محمداً يذكرهم بمناسبة اخرى ، انه يجب عليهم «ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم منهم امة مقتنعة وكثير منهم ساء ما يعملون . . ان الذين آمنوا والذي هادوا والصايثون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » [٥: ٦٨-٧٢]

28- «وما قتلوه وما صلبوه وانما شبه لهم [...] ولكن الله رفعه إليه» [4: 151]

٢٩- ثورماندريه - يجب كذلك الأخذ في الحسبان واقعة ان الحكمة التي تعني الروح هي في

اللغات السامية من نوع مؤنث .

٣٠- مع ذلك من المأمور به ان يجتمع المؤمنون يوم الجمعة في مكان عام (صلاة الجمعة)

[٩: ٦٢]

٣١- هذه الصيغة لم تؤكد لغة في القرآن ولكن معناها كلي الحضور فيه .

٣٢- على الناقدين الأوروبيين يرد بعض المستشرقين ان هذا كان تقدماً بالنسبة للفوضى الجنسية

للبربرين فيما قبل الاسلام . وهذا البشري للاسلام الصحيح على القوى الاجتماعي والاخلاقي ، هو عبث الامل مدنس في منظور الشولوجيا القرآنية . فأية تفصيلات عن الوحي ليس بحاجة للتبرير .

٣٣- صحيح لقد وصف هذا الفيضان المذهل للعرب وكأنه آخر موجة للغزوات البربرية التي

حطمت الامبراطورية الرومانية في الغرب . مع ذلك وخلافاً للبرابرة فإن العرب استقروا في مدن

جديدة اقيمت على اطراف الصحراء . بدفعهم لبعض الضريرة فان السكان الذين رفضوا كانوا

يستطيعون الحفاظ على دينهم وعاداتهم . ولكن الحالة ستغير بشكل ملحوظ عندما اعتنق قسم كبير من

السكان المدنيين وبخاصة المزطفون والمتقفون .

٣٤- ٣٧- اسماء المراجع .

٣٨- انه يتعلق بابداعات التوفيقات ايرانية لا تنضب . (ف ٢١٢٠ع)

الفصل الرابع والثلاثون

الكاثوليكية الغربية من شارلمان حتى جواشيم دي فلور

٢٦٦ - المسيحية خلال القرون الوسطى العليا .

في عام ٤٧٤ زيج عن العرش آخر امبراطور روماني في الغرب رومولوس اوغستيلوس ، من قبل زعيم البربر اودواكر Odoacre ، وقد كان المؤرخون ، خلال زمن طويل ، اعتبروا سنة ٤٧٤ كتاريخ متفق عليه لنهاية العصور الوسطى القديمة وبداية العصور الوسطى . غير ان صدور كتاب مطبوع بعد وفاة مؤلفه هنري بيرين Henri Pirenne في سنة ٩٣٧ المسمى محمد وشارلمان وضع المسألة في منظور آخر . فقد لفت هذا المؤرخ البلجيكي الكبير الانتباه إلى بعض الوقائع التي لها دلالتها . فمن جهة ان البنى الاجتماعية للامبراطورية استمرت ايضاً أثناء قرنين من الزمن . ومن جهة اخرى فإن الملوك البرابرة للقرنين السادس والسابع استعملوا طرائق رومانية وتعلقوا بالألقاب الموروثة من الامبراطورية . وما هو اكثر من ذلك : استمرت

الاتصالات التجارية مع بيزنطة وآسيا . وقد حصلت القطيعة بين الغرب والشرق ، كما يقول بيرين . في القرن الثامن . وكانت هجمة الاسلام هي السبب . إن الغرب وقد عزل عن مراكز ثقافة البحر المتوسط ودمر بالغزوات المستمرة وبالحروب الداخلية غرق في بربرية . وكان المجتمع الجديد الذي انبثق من الخرائب يقوم في اساسه على الاستقلال الزراعي ؛ وسيكون التعبير عنه ، الاقطاعية . وهذا العالم الجديد - العصور الوسطى - هو الذي نجح شارلمان في تنظيمه .

لقد لاقت نظرية (بيرين) هذه معارضاة حمة^(١) . وحتى يومنا لم تقبل سوى جزئياً . الا أنها قد تمتعت بميزة ، هي الزام العلماء عادة تفحص العملية التاريخية المعقدة التي ستصل لبلورة القرون الوسطى الغربية . ولم يأخذ (بيرين) في الحسبان التغيرات العميقة الحاصلة في الغرب بواسطة المسيحية . وعليه وكما برهن على ذلك و . بارك we. Bark فإن تاريخ اوروىا الغربية بين ٣٠٠-٦٠٠ تقريباً ، هو النتيجة المتحصلة من عاملين : (١) المسيحية و(٢) الصدمات والصدمات المضادة للأحداث : التدهور التدريجي للاقتصاد والحكومة الرومانية المحلية ، الفوضى الناشئة عن الغزوات المتكررة ، والحركة الكافية المتنامية لمجتمع ذي نظام زراعي .

وفي الواقع ، اذا كان الغرب لم ينقسم ، فقيراً ومحكوماً بشكل سيء ، فإن تأثير الكنيسة لن يمكن له ان يكون ايضا ذي أهمية^(٢) .

ان المجتمع القروسطي ، في بدايته ، كان جماعة من الرواد ، وكان النموذج له إلى حد ما مؤسساً بواسطة الرهبانيات البينديكتية . وان بطريرك الرهبانية الغربية القديس بينوا Benoit (٤٨٠-٥٤٠) نظم سلسلة من الجماعات الصغيرة المستقلة تماماً ، من وجهة نظر اقتصادية . ولم يؤد خراب واحدة أو عدة رهبانيات الى خراب المؤسسة . وقد انهكت غزوات البرابرة الرحل ، المتبوعة باجتياحات الفيكونج المدن ، ومنها آخر مراكز الثقافة . ان بقايا التراث الثقافي الكلاسيكي استمر في الحياة في الرهبانيات^(٣) . ولكن القليل من الرهبان كان عندهم الفراغ لتكريس نفسه للدراسة . فقد كان واجبه الاساسي التبشير بالمسيحية ومساعدة الفقراء . وكانوا اضافة الى ذلك بنائين ، واطباء ،

وصائغين للمعادن ، وبصورة خاصة مزارعين . والرهبان هم الذين عدلوا بشكل ملحوظ الادوات والطرائق لاستثمار الأرض^(٤) .

لقد قورنت سلسلة الأديرة المتمتعة باكتفاء اقتصادي تام بالمنظومة القطاعية للملكية ، أي بالاراضي المقطعة من قبل السيد لاتباعه كمكافأة او عطاء متقدم من أجل الخدمات الحربية ، وان هاتين البذرتين المؤهلتين لاستمرارية الحياة في الكوارث التاريخية ، شكلنا الاساسات لمجتمع وثقافة جديدتين . وقد جعل شارل مارتل كثيراً من الملكيات العائدة للكنيسة ملكية دينوية . وذلك بتوزيعها على اتباعه . وكانت تلك الطريقة الوحيدة لانشاء جيش قوي ومتفان ، في ذلك العصر الذي لم يكن لأي ملك الوسائل لتأليف جيوشه .

وكما سنرى في عرض الفروسية (ف ٢٦٧ع) ، ان النظام القطاعي وفكرته هما من أصل جرمني^(٦) . فبفضل هذه المؤسسة ، استطاع الغرب تجاوز نتائج مالا يحصى من الأزمات والكوارث التي تابعت بدءاً من القرن الخامس . وان تنويع شارلمان في روما من قبل البابا ، في سنة ٨٠٠ كأمبراطور «للامبراطورية المقدسة» لم يكن من الممكن تصويره قبل نصف قرن . ومع التسليم بالتوتر الحاد بين الاباطرة والبابوات ، وحسد بعض الملوك والامراء اثناء القرون التالية ، فإن دور وأهمية الامبراطورية الرومانية كانا عابرين ومحدودين بصورة عامة . ولا يهمنا هنا تلخيص التاريخ السياسي والعسكري للقرون الوسطى العليا . الا انه من المجدي الاشارة من الآن الى ان كل المؤسسات القطاعية ، الفروسية ، الامبراطورية - اثارت جميعها ابداعات دينية جديدة . غير معلومة ، أو في كل الأحوال قائمة على نطاق ضيق جداً في العالم البيزنطي .

ومع معطيات قيمة هذا الواقع نستطيع إهمال التجديدات اللاهوتية والتقديسية^(٧) والعناصر الدينية لما أسمى النهضة الكارولنجية للقرن التاسع^(٨) . ومع ذلك تجدد الملاحظة ، أن الكنيسة الغربية ولمدى خمسة قرون ستعرف بالتناوب فترات من الإصلاح والانحدار ، ومن الانتصار والفشل ، ومن الابداعية والهرم ، ومن الانفتاح والتعصب . ولنذكر مثلاً واحداً : فبعد «النهضة الكارولنجية» الكنيسة في القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر ، أخذت مجدداً في التراجع ، إلا أنها دخلت في فترة من

الظفر والقوة مع «الاصلاح الفريغوري» المدشن من قبل غريغوار السابع المنتخب بابا في ١٠٧٣ . ومن غير المناسب هنا ابراز الاسباب العميقة لهذا التناوب . وتكفي الملاحظة بأن عصور الصعود . وكذلك عصور الانحطاط ، هي على علاقة مع الوفاء للسنة الرسولية من جهة ، ومع الآمال الأخروية والحنين لتجربة أكثر رسمية وأكثر عمقاً من جهة أخرى .

فمنذ بداياتها ، تطورت المسيحية تحت علامة الرؤية . وباستثناء القديس اوغسطين فإن اللاهوتيين والرائيين اطنبوا في الكلام حول التناذر syndrome لنهاية العالم وكأنوا يحسبون تاريخ مجيئه . وان اساطير المسيح الدجال و«امبراطور الأيام الأخيرة» كانت تشغف رجال الدين وكذلك جماهير المؤمنين لفجر السنة ألف ، وأصبح السنايرو القديم لنهاية العالم قائماً بشكل مأساوي . وقد أضيف أنثذ إلى الأحوال من النوع الأخروي ، كل انواع المصائب ، الأويثة المرضية ، والمجاعة ، ودلائل الكوارث (مذنبات بحسوفات الخ) . وأصبح حضور الشيطان مشعوراً به في كل مكان . وقد فسر المسيحيون هذه المصائب بسبب ذنوبهم . وكان الدفاع الوحيد هو التوبة والرجوع إلى القديسين ورفاتهم . والتوبات هي تلك التي تفرض على المحتضرين^(١١) . ومن جهة أخرى فإن الاساقفة والآباء انهمكوا في تجميع الشعب حول الرفات «من أجل اعادة بناء السلام ومن أجل مؤسسة العقيدة المقدسة» ، كما كتب الراهب راوول جليير . وكان الفرسان يحلفون بيمين السلام ، ويدهم على الرفات : «لن اجتاح كنيسة بأية طريقة [. . .] لن أهاجم رجل الدين أو الراهب [. . .] لن آخذ الثور ، والبقرة ، والخنزير والخروف [. . .] لن احتجز الفلاح أو الفلاحة [. . .] الخ . . . » . «فهدنة الرب» فرضت تعليق المعارك اثناء الفترات الأكثر قداسة للتقويم اللاهوتي .

وأخذ الحج الجماعي - للقدس ، ولروما والقديس جاك - فورة عجيبة . وقد فسر (راوول جلايير) «السفر المقدس» صوب أورشليم كتحضير للموت والوعد بالخلاص ؛ وقد أعلن العدد الكبير من الحجاج قرب مجيء الدجال و«قرب نهاية العالم»^(١٢) .

غير انه بمرور سنة ١٠٣٣ ، الألف منذ صلب المسيح شعر المسيحيون بأن التوبات

والتطهيرات ادركت هدفها . ويشير راوول جلابير الأمارات والبركات الالهية فيقول : «بدأت السماء تضحك ، وتثار وتتعث بالرياح الطيبة [...] وكل وجه الأرض تغطي بخضرة محبة ووفرة الثمار ابعدت المجاعة بشكل تام [...] ومالا يحصى من المرضى استعادوا صحتهم في هذه الاجتماعات حيث استحضر عدد من القديسين ... [...] . ومد الحضور جميعهم ايديهم نحو الله متضرعين بصوت واحد : السلام ، السلام السلام»^(١٣) . وبالمقابل فقد بذلت الجهود لإعادة تجديد الكنيسة ، وبخاصة دير البنديكتيين في غلوني Gluny . وفي كل مكان في الغرب أعيد بناء المعابد ، وأعيد تجديد الكاتدرائيات ، واكتشفت الرفاتات . إلا أنه مما له دلالة أيضاً التغيرات التي ، في جزء منها . أخذت مكانها في ممارسة الكنيسة ، تحت ضغط التدوين الشعبي ، فقد اكتسب الاحتفال بسر القربان المقدس أهمية استثنائية ، وأثير الرهبان ليصبحوا بذاتهم قساوسة ، بهدف المساهمة في «اكمال جسد ودم المسيح» وإنما «في العالم المرئي الجزء من المقدس» . وتنامت عبادة الصليب ، لأنها العلامة بامتياز لانسانية المسيح . وهذا التجسيد ، لأله مجسد^(١٥) سيكتمل عاجلاً بالايان بالعدراء .

ان العقدة الدينية المتبلورة حول الأحوال والأمال لسنة الألف تتقدم بنوع ما الأزومات والابداعات التي تميز القرون الخمسة التالية .

٢٦٧ - تمثل واعادة تفسير التقاليد الماقبل المسيحية : ملكية مقدسة ،

فروسية .

بالنسبة لأكثرية القبائل الجرمنية ، كان للملكية أصل وخاصية مقدستين : المؤسسون للأسر الملكية هم احفاد الآلهة ، وبخاصة من ودان Wdan^(١٦) . «حظ» الملك كان الدليل الممتاز لطبيعته المقدسة . والملك كان يحتفل بذاته بالاضاحي لأجل المحاصيل ولنجاح الحروب ؛ وكان الوسيط للهبات اللذهنية charismatic بين الشعب

والآلهة . ومفارقة «الحظ» له ، أو بعبارة أخرى تخلي الآلهة عنه يمكن أن يؤدي لازاحة الملك عن عرشه أو حتى لموته ، كما حصل في السويد مع دومالدرد Domaldr على إثر سلسلة من محاصيل جذباء محزنة^(١٧) . وحتى بعد اعتناق المسيحية ، فإن شجرة نسب الملوك - أي انتهاءهم بتحلل النسب من ودان - استمرت محتفظة بأهمية حاسمة^(١٨) .

وكما في أي مكان آخر ، عملت التراتبية الكنسية لادخال هذه المعتقدات في التاريخ المقدس للمسيحية . وهكذا فإن بعض شجرات النسب الملكية أعلنت ، أن وودن ابن نوح ، المتولد في السفينة ، أو المنحدر من ابنة عم العذراء^(١٩) . ان الملوك الذين يسقطون في ساح المعركة - حتى الوثنيين منهم - كانوا متشبهين بالقديسين الشهداء . وقد حافظ الأقباط المسيحيون ، أقله جزئياً ، على الاحترام السحر - ديني لأجدادهم : كانوا يلمسون بذور المحاصيل المقبلة ، وكذلك المرضى والأطفال^(٢٠) . وبهدف تشجيع تمجيد الأضرحة الملكية ، كان يجري دفن الملوك في الكنائس .

غير أن التقييم الأكثر أصولية للتراث الوثني كان الملك بصفته ممسوحاً سيدياً christus Domini . وهكذا يصبح الملك مصوناً محصناً ، وتعتبر كل مؤامرة ضد شخصه عملاً تدينسياً . ومنذئذ لم يتفرع الاحترام الديني للملك من أصله الإلهي ، وإنما من قداسه ، التي تعلنه ممسوح الله^(٢١) . «الملك المسيحي هو مبعوث المسيح لشعبه» كما أكد على هذا مؤلف من القرن الحادي عشر . «فبحكمة الملك ، يصبح الشعب سعيداً ، وغنياً ومتصراً»^(٢٢) . تمجيد ممسوح الإله الذي نتعرف فيه على العقيدة الوثنية القديمة . ومع ذلك ، فإن الملك ليس هو أكثر من الحامي المكرس للشعب والكنيسة ؛ ووظيفته كوسيط بين البشر والآلهة هي منذئذ تمارس بواسطة التراتبية الكنسية .

وتلاحظ عملية مشابهة من تأثير وتركيب لما يتعلق بالفروسية . فقد وصف /تاسيت/ باختصار التكريس العسكري لدى الجرمن القدامى : في وسط جمعية المحاربين في السلاح . يلقي أحد الرؤساء ، أو الأب بالترس والسيف إلى الشاب . فمنذ المراهقة ، كان يدرب مع رفاقه من قبل رئيس ، ولكنه على اثر هذه الحفلة فقط كان يعترف بالشاب كمحارب وعضو في القبيلة . ويضيف (تاسيت) أنه كان من المخجل

بالنسبة لرئيس ، ان يفوقه أحد بالشجاعة - على ساح المعركة - وبالنسبة لرفاقه ان يكونوا أقل شجاعة منه . والذي يستمر في الحياة رئيساً منسحباً من المعركة يكون في حالة بائسة جداً في حياته . وان الدفاع عن الرئيس هو واجب مقدس على كل الرفاق . «الرؤساء يحاربون من أجل النصر ؛ والرفاق من أجل الرئيس» . وفي العودة يُعالون من قبل الرئيس ويتلقون التجهيز العسكري وجزءاً من الغنيمة^(٢٣) .

ولقد تم الحفاظ على هذه المؤسسة بعد اعتناق القبائل الجرمنية للمسيحية : وهي توجد في اساس الاقطاعية^(٢٤) والفروسية . وفي سنة ٧٩١ تلقى لويس الابن البكر لشارلمان والذي لم يكن له من العمر سوى ٣ (سنة) تلقى من والده رمح المحارب . وبعد سبع واربعين سنة أهدى لويس ابنه البالغ من العمر ١٥ سنة (اسلحة رجولية ، الرمح) . وقد كان هذا هو أصل حفلة التدرع للفارس Adoubement التي تشكل شعيرة احتفالية مميزة للفروسية .

ومن غير السهل التحديد بدقة لبداية هذه المؤسسة التي لعبت دوراً بارزاً في التاريخ العسكري ، والاجتماعي والديني والثقافي في الغرب ، وعلى كل حال ، فإن الفروسية لم تحصل على شكلها (الكلاسيكي) الا بعد ادخالها في فرنسا ، في القرن التاسع . أفراساً قوية وكبيرة قادرة لأن تحمل الفرسان المدرعين . ومع ان الفضيلة الرئيسة للفارس كانت منذ البداية الطاعة الشاملة لسيده^(٢٥) . فقد كان على كل فارس واجب الدفاع عن الفقراء وبخاصة عن الكنيسة . وقد كانت حفلة التدرع تقتضي تبريك السلاح (فالرمح كان يوضع على المذبح الخ) . غير ان هذا كان - كما سنرى - بدءاً من القرن السابع ، خاصة ، لأن تأثير الكنيسة أصبح هاماً .

بعد فترة من التدريب تطول أو تقصر . وبعد امتحانات مختلفة ، كانت تتم حفلة التدرع ضمن حفلة عامة . فكان السيد يقدم طقوسياً السلاح إلى الفارس : رمح . سيف ، مهاميز ، زرد ، وترس . وكان الفارس يتصب أمام عرابه ويده مضمومتان ، وحياناً راكمها مطأطيء الرأس . وفي النهاية كان السيد يضرب بقوة ، بقبضة يده أو براحته ، على عنقه . وما زال أصل ودلالة هذا الطقس موضع خلاف .

لقد ادركت الفروسية . تعبيرها التام في القرن الحادي عشر وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر . وبدأ الانحدار اعتباراً من القرن الثالث عشر ، وبعد القرن الخامس عشر لم تعد الفروسية سوى احتفالية ولقب شرف . وبشكل متناقض ، وبخاصة اثناء الانحدار ومرحلة الانحطاط ، أصبحت الفروسية الموضوع لعدد من الابداعات الثقافية التي يمكن بسهولة اكتشاف مصدرها ودلالاتها الدينية [٢١٠ع] .

لقد كانت المؤسسة الموصوفة باختصار من قبل (تاسيت) هي بالتأكيد ذات بعد ديني : ترقية الشاب كانت تعبر عن إكماله لتلقيه العسكري ؛ والأمانة المطلقة تجاه الرئيس كانت تشكل في الواقع ، معطى دينيا . وقد افسح اعتناق المسيحية المجال إلى العديد من اعدادات التفسير وإعادة التقييم للتقاليد السلفية ، ولكنه لم ينجح مطلقاً بمحو التراث الوثني . وقد اضطلعت الكنيسة خلال ثلاثة قرون بدور أكثر تواضعاً في تكريس الفروسية . الا انه بدءاً من القرن الثاني عشر ، كانت الحفلة تجرى ، أقله في الظاهر ، تحت رقابة كنسية . فبعد اعترافه ، كان الفارس يمضي الليل في الصلاة في كنيسة . وكان يتناول القربان في الصباح تحت اشكاله المقدسة ، وكان الشاب عندما يتلقى اسلحة يقسم اليمين ليس باحترام قانون الفروسية فحسب وإنما الصلاة ايضاً . وبعد الحرب الصليبية الأولى ، تشكل نظامان عسكريان في الأرض المقدسة لأجل الدفاع عن الحج ومساعدة المرضى : جماعة المعبد وجماعة المشافي . ومنذئذ اضاف بعض الرهبان تعليماً عسكرياً من نوع فروسى إلى تعليمهم الديني . ويمكن ايجاد السوابق للأنظمة الدينية العسكرية في «الحرب المقدسة» ، الجهاد بالنسبة للمسلمين (ف ٢٦٥ع) ، وفي المسارة في اسرار ميتر (ف ٢١٧ع) وفي لغة المجازات للنسك المسيحيين الذين كانوا يعتبرون كجنود للميليشيا المقدسة ، الا انه يجب كذلك أن يؤخذ في الحسبان الدلالة الدينية للحرب لدى قدامى الجرمن (ف ١٧٥ع) (٢٧) .

٢٦٨ - الصليبيون : أخروية وسياسة .

إن مؤرخي وفلاسفة عصر الانوار من جيون ووليام روبرتسون إلى هيوم وفولتير - قد وصفوا الصليبيين كأنفجار معقد من التعصب والجنون . وهذا الحكم ، مع كثرة

تفرقه ، يشارك به ايضاً عدد من الكتاب المعاصرين . وعلى كل حال ، فإن الصليبيين يشكلون واقعاً مركزياً في التاريخ المتوسطي (القرون الوسطى) . «قبل بدايتهم ، كان مركز حضارتنا يوجد في بيزنطة ، وفي بلدان الخلافة العربية . وقبل كل الصليبيين الآخرين ، كانت هيمنة الحضارة قد انتقلت إلى اوروىا الغربية . وقد ولد التاريخ الحديث من هذا التحول»^(٢٥) . ولكن الثمن ، المرتفع جداً ، لهذه الهيمنة لأوروىا الغربية قد دُفع بخاصة من قبل بيزنطة وشعوب اوروىا الشرقية .

إن الدلالات الدينية للصليبيين هي التي تستوقفنا . فمصدرها وبنيتها الأخروية توضحا بشكل ملائم من قبل بولس الفندري Paul Alphandéry والفونس ديرون Alphonse Dupron . «في المركز من ضمير الصليبية ، كان يوجد عند رجال الدين كما عند غيرهم ، واجب تحرير اورشليم [...] . وهذا ما يوضح الجانب الأكثر قوة في الصليبية، إنه الكمال المزدوج لاتمام الازمنة ولاتمام الفراغ البشري . وفي هذا المعنى ، بالنسبة للفراغ ، فإن علامة تمام الازمنة هي تجمع القوميات حول المدينة المقدسة ، أم العالم ، اورشليم»^(٢٩) .

إن الخاصية الأخروية تتناغم بالتابع مع أنصاف - الانكسارات والعقاييل ، التي تحملها صليبيو البارونات والامبراطور . إن الحملة الصليبية الأولى ، والأكثر استعراضية ، والمطلوبة من قبل الامبراطور البيزنطي الكسي ومن قبل البابا أوربان الأول ، كان قد بشر بها في سنة ١٠٩٥ من قبل بطرس الراهب . فبعد العديد من المغامرات (مذبحة اليهود في مدن الرين والدانوب وتجمع الجيوش الفرنجية الثلاثة في القسطنطينية) ، اجتاز الصليبيون آسيا الوسطى ، وبالرغم من حسد ومؤامرات الرؤساء إحتلت انطاكية ، وطرابلس وأوديسا واخيراً ، القدس . ومع ذلك ، ضاعت هذه الانتصارات بعد جيل من حصولها . وبشر القديس برنارد بالحملة الصليبية الثانية في فيسلاي سنة ١١٤٥ . ووصل جيش كبير يقوده ملكا فرنسا والمانيا إلى القسطنطينية ، ولكنه بعد فترة قليلة من الزمن أبيد هذا الجيش في ايقونيوم وفي دمشق .

أما الحملة الصليبية الثالثة ، المعلنة من قبل الامبراطور فريدريك بارباروس في ماينس سنة ١١٨٨ ، فهي مسيحية وامبريالية . وقد استجاب للنداء ملك فرنسا فيليب

اوغسطس ، وملك انكلترا ، ريشارد قلب الأسد ، ولكن استجابتها كانت دون حماس واندفاع بارباروس^(٣٠) . وقد وصل الصليبيون إلى القدس التي دافع عنها صلاح الدين ، السلطان الاسطوري لمصر وسورية . وقد انتهى الصليبيون هذه المرة بكارثة . لقد فقد الامبراطور حياته في نهر من ارمينيا ، وعاد فيليب اوغسطس إلى فرنسا بهدف تقويض حليفه ، ملك انكلترا . وبقائه وحيداً أمام القدس ، حصل ريشارد قلب الأسد من صلاح الدين على ترخيص بأن يُقدم جنوده تضرعاتهم على القبر المقدس .

لقد فسر بعض المعاصرين عدم قدرة الأمراء على تحرير القدس بعدم جدارة الكبار والاغنياء . فهوؤلاء الأمراء والاغنياء الغير قابلين للغفران لن يحصلوا على مملكة الله ، وكذلك لن يحصلوا على الأرض المقدسة . وهذا يعود للفقراء ، المختارين من الصليبية . «افلاس المحاولات الامبريالية ، المضمونة مع ذلك بالاسطورة المسيحانية ، كان يؤكد على ان عملية التحرير لا يمكن لها ان تنتمي لأقوياء الأرض»^(٣١) . وعندما أعلن انوسنت الثالث الصليبية الرابعة (١٢٠٢-١٢٠٤) كتب شخصياً إلى فولكس النويللي Foulques de Neuilly ، رسول الفقراء ، «واحد من اكثر الوجوه الميزة لتاريخ الحروب الصليبية» كما يؤكد بول الفندري . وقد انتقد (فولكس) بعنف الاغنياء والأمراء ، ووعظ بالتوبة والاصلاح الخلقي كشرط أساسي للصليبية . ولكنه مات في ١٢٠٢ ، في حين كان الصليبيون قد ارتبطوا بالمغامرة التي جعلت من الصليبية الرابعة واحدة من اكثر المشاهد تعقيداً في التاريخ الأوروبي .

وفي الواقع ، ان الصليبيين المشبعين بالأطماع المادية والمسعورين بالمؤامرات ، بدلاً من أن يتجهوا نحو الأرض المقدسة ، احتلوا القسطنطينية ، وذبحوا جزءاً من السكان ونهبوا كنوز المدينة . وقد أعلن الملك بودوان ملك الفلاندر امبراطوراً لآتينيا لبيزنطة كما أعلن توماس موردزيني بطريكا للقسطنطينية .

ومن غير المجدي التوقف على نصف الانتصارات والعديد من كوارث الحروب الصليبية الأخيرة . ويكفي التذكير ، انه بالرغم من حرمان البابا، وصل حفيد بارباروس الامبراطور فريدرىك الثاني الى الأرض المقدسة في ١٢٢٥ ، وحصل من

السلطان على حيازة القدس حيث توج ملكا وحيث استمر خمس سنوات . ومع ذلك سقطت القدس في عام ١٢٤٤ بيد المماليك ، ولم يمكن بعدئذٍ احتلالها ، وقد حصلت عدة حملات قبل نهاية القرن ولكنها كانت جميعها دون أية نتيجة .

من المؤكد ان الحملات الصليبية فتحت اوروا الغربية نحو الشرق وسمحت بالاحتكاك مع الاسلام . ولكن التفاعلات الثقافية كان يمكن لها ان تحصل بدون هذه الحملات الدموية . ولقد دعمت الحملات الصليبية احترام البابوية واسهمت في تقدم الملكيات في اوروا الغربية . ولكنها أضعفت بيزنطة نتيجة تقدم الاتراك بعمق في شبه جزيرة البلقان ، ولكنها أفسدت العلاقات مع الكنيسة الشرقية . وازضافة إلى ذلك ؛ فإن سلوك الصليبية الوحشي قد وجه المسلمين ضد كل المسيحيين ، وان عدداً من الكنائس التي كانت استمرت بالحياة لسته قرون من السيادة الاسلامية تخربت عندئذ . وعلى كل حال، ورغم تهذب الصليبيين، فإن هذه الحركة الجماعية قد حافظت على بنية اخروية . ويوجد الدليل على ذلك بين غيره ، في صليبيات الأولاد التي انبثقت فجأة ، في ١٢١٢ في فرنسا الشمالية والمانيا إن عفوية هذه الحركات تبدو أنها ليست موضع شك «لم يحرضهم أحد ، لامن الأجنبي ، ولا من البلاد» ذلك ما اكده شاهد معاصر^(٣٢) . أولاد ، «يميزون بالايان - تلك هي الملامح الخارقة - وفتوتهم البالغة وبقرهم ، بخاصة رعاة صغار»^(٣٣) ،

بدؤا المسيرة وانضم اليهم الفقراء . ربما كانوا ٣٠٠٠٠ تقدموا بموكب وهم يغنون . وعندما طلب إليهم إلى أين هم ذاهبون أجابوا : إلى الله . وحسب قول مؤرخ معاصر «كانت نيتهم اجتياز البحر ، وبما لم ينجح فيه الأقوياء والملوك ، استعادة قبر المسيح»^(٣٤) . لقد كان الاكليروس معارضاً لتجنيد الأطفال . وانتهت الصليبية الفرنسية بكارثة : بوصولهم إلى مرسيليا ، نزلوا في سبعة سفن كبيرة ، ولكن اثنتين من هذه السفن غرقت على اثر عاصفة في البحر قرب سردينيا وغرق معها كافة ركاياها . أما بالنسبة للخمسة سفن الأخرى فإن مالكيها الخائنين قادوهم للاسكندرية ، حيث باعوا الأولاد لرؤساء المسلمين وتجار العبيد .

وان الصليبية (الالمانية) مثلت ذات القماشة . فيذكر مؤرخ معاصر إنه في سنة ١٢١٢ «ظهر طفل باسم نيكولاس ، جمع حوله العديد من الاولاد والنساء . واكد انه

بناء على أمر ملاك ، توجب عليه الذهاب معهم إلى اورشليم لتحرير صليب الله وان البحر كما حصل سابقاً للشعب الاسرائيلي سيقدم لهم ممراً على اليابسة»^(٣٥) من جهة أخرى ، لم يكونوا مسلحين ، وقد انطلقوا من إقليم كولونيا ونزلوا إلى الرين ، واجتازوا الألب ووصلوا إلى ايتاليا في الشمال . ووصل بعضهم إلى جنوا وبيزا ، ولكنهم طردوا . ومن نجح منهم بالوصول إلى روما أجبر على الاعتراف بأنه لا توجد سلطة تدعمهم . ولم يقر البابا مشروعهم ، فاستمر الاطفال الصليبيون بالعودة القهقري . وكما يقول المؤرخ الاخباري «عادوا جائعين واحداً واحداً وبصمت» لم يساعدهم أحد . ويكتب شاهد آخر : «قسم كبير منهم انبطحوا موتى من الجوع في القرى على الساحات العامة ولم يكفهم أحد»^(٣٦) .

صحيح ان ب. الفاندري وأ- ديرون لم تعرفا بحق في هذه الحركات اختيار الولد في الورع الشعبي . وتلك هي في آن واحد اسطورة الابرياء ، وتمجيد الطفل يسوع وردة الفعل الشعبية ضد صليبية البارونات ، وهي ذات الردة للفعل التي ظهرت في الاساطير المتبلورة حول التافورات «Tafurs» des للصليبيين الأوائل . «احتلال الأماكن المقدسة لا يمكن ان يتم إلا بمعجزة - وان المعجزة لا يمكن لها ان تحصل إلا بفضل الطاهرين ، اطفالاً وفقراء»^(٣٨) .

إن فشل الصليبية لم يبلغ الآمال الأخروية . فقد توسل توماسو كامبا نيلاً في كتابه مونارشيا هيسبانيكا (١٦٠٠) إلى ملك اسبانيا لتحويل حملة صليبية جديدة ضد امبراطورية الترك وتأسيس ، الدولة العالمية ، بعد النصر . ويعد ثمانية وثلاثين سنة يتنبأ كامبانيا في الايكولوجا المقدمة إلى لويس الثالث عشر وحنة النمسية بمناسبة الاحتفال بالولادة المقبلة للويس الرابع عشر ، باستعادة الأراضي المقدسة وتجديد المملكة في آن واحد . فيستقيم الملك الشاب على كل الأرض في ألف يوم ، مجندلاً الغيلان ، أي غخضعاً عروش الكفرة ومحراً اليونان . وسيلفظ محمد خارج اوروا ، وستعود مصر واثيوبيا مسيحيتين ، وسيهتدي جميع التاتار والفرس والصين والمشرق بكامله إلى الايمان المسيحي . وكل الشعوب ستشكل مسيحية واحدة ، وهذا العالم المتخلف سيكون له مركز واحد ، القدس . ويكتب كامبانيا بأن «الكنيسة بدأت في القدس وإلى القدس ستعود بعد ان

دارت حول العالم^(٣٩) . وفي رسالته الأولى والثانية عن البعث لا يعتبر كامبانيا ، شأنه في ذلك شأن القديس برنارد - أن فتح أورشليم كمرحلة نحو أورشليم السهاوية ، وإنما كبعث للملك المسيحاني^(٤٠) .

٢٦٩ - دلالة دينية للفن الروائي والحب الغزلي

إن عصر الصليبيين هو كذلك عصر الابداعات الروحية الكبرى . انه عصر أوج الفن الروائي ونهوض الفن القوطي ، وتفتح الشعر الجنسي والديني ، وروايات الدور الأرثري وترستان وايزولده ، انه عصر انتصار السكولاستيك والتصوف ، وبناء اعظم الجامعات ، والانظمة الرهبانية والتبشير المتجول . ولكنه ايضاً عصر توالد استثنائي لحركات تنسكية واخروية ، اكثرها على هامش الارثوذكسية ، او هرطقة - ارثوذكسية واضحة .

ولا يجدى التوقف ، بعناية عند كل هذه الابداعات . ويكفي هنا ، التذكير بأن اكبر اللاهوتيين والمتصوفين (منذ سانت برنارد ١٠٩-١١٥٣ ، إلى المعلم ايكار ١٢٦٠-١٣٢٧) ، كذلك اكبر الفلاسفة تأثيراً (منذ أنسلم دي كانتربوري ١٠٣٣-١١٠٩ حتى توما الاكويني ١٢٢٣-١٢٧٤) ؛ قد اكملوا عملهم في هذا العصر المخترق بازمامات ، وتحولات ضخمة غيرت جذرياً المظهر الجاني للغرب . ونعيد إلى الذاكرة ايضاً تأسيس نظام الاديعة في سنة ١٠٨٤ و ١٠٩٨ وفي سيتو قرب ديجون ، نظام السيسترسيان Cistercien متبوعاً بالكهانة القانونية المقامة سنة ١١٢٠ في بريمونترية . وستلعب هذه التنظيمات الرهبانية مع الأنظمة المؤسسة من قبل القديس دومينيك (١١٧٠-١٢٢٧) والقديس فرنسوا الاسيذي (١١٨٢-١٢٢١) دوراً حاسماً في الحياة الدينية والعقلية لأربعة قرون تالية .

ولنحاول باختصار اعادة تخطيط بعض البنى للعالم الرمزي المألوف لمجتمع القرون الوسطى بعد ازمة سنة الألف . ولنحدد بدقة بدئياً ، انه ، مع بداية القرن الحادي

عشر ، اتجه مخطط جديد للمجتمع لأن يفرض وجوده . فالأسقف آدالير دي لاون يخاطب ملكه في سنة ١٠٢٧ مذكراً إياه بأن «مجتمع المؤمنين لا يشكل سوى جسد واحد ، ولكن الدولة تضم ثلاثة [...] . بيت الله ، الذي يعتقد بأنه واحد ، قد قسم اذن إلى ثلاثة : البعض يصلي ، والبعض يقاتل والآخر في النهاية يعمل . وهذه الأقسام الثلاثة التي تتواجد لا تعاني من كونها منقسمة [...] . وهكذا ، فهذا التجمع الثلاثي ليس على الأقل واحداً ، وهكذا امكن للقانون أن يتصر للعالم أن يتمتع بالسلام»^(٤١) .

وهذا المخطط يذكر بالتقسيم الثلاثي للمجتمعات الهندو- اوروبية التي درست بوضوح من قبل جورج ديميريل (ف. ٦٣ع) . وما يهنا بدنيا ، هو الرمزية الدينية الأكثر مسيحية بكل دقة ، والتي هي مكلفة بهذا التصنيف الاجتماعي . ان الحقائق المدنسة تساهم في الواقع في المقدس . وهذا المفهوم يميز كل الثقافات التقليدية . ولكي نذكر بمثال مألوف ، فإن هذا المفهوم ينيء عن الزخرفة الدينية منذ بداياتها ويعاود وجوده في انشاء البازيليكات المسيحية (مثلاً ، رمزية الكنيسة البيزنطية) . وان الفن الروائي يساهم في هذه الرمزية ويطورها . فالكاتدرائية هي صورة كونية imagomundi . والرمزية (الكونية) الكوزمولوجية تنظم وتقّس في ان واحد العالم . «ان الكون هو منظور إليه في منظور مقدس ، الذي يتعلق بالحجر أو النبات ، بالحيوان أو الانسان»^(٤٢) .

وفي الواقع ، كل نماذج الوجود ، توجد في الكوزموس ، وكل مظاهر الحياة وعمل الانسان ، وكذلك الأمر الشخصيات واحداث التاريخ المقدس ، والملائكة والغيلان والشياطين . ان تزيينات الكاتدرائيات تشكل مرجعاً لا ينضب للرموز الكونية (الشمس ، الابراج ؛ الحصان شجرة الحياة الخ . . .) إلى جانب النغمات التوراتية والاسطورية (الشیطان ، الحيتان ، العنقاء ، الستورات الخ) أو التعليمية (الأشغال المنجزة كل شهر . . . الخ)^(٤٣) . ويمكن تمييز عالمين متعارضين : فمن جهة كائنات قبيحة ، مشوهة ، غيلانية ، شيطانية^(٤٤) - ومن جهة أخرى المسيح والملك في مجده ، والكنيسة (مصورة كامرأة) والعذراء التي تكسب في القرن الثاني عشر ، مكاناً مرموقاً في الورع الشعبي . ان هذا التعارض واقعي ، وهدفه واضح . ولكن عبقرية الفن الروائي تتركب فعلاً في الخيال المتقد وفي الارادة في الجمع ، في مجموع واحد ، لكل

نماذج الوجود في العوالم المقدسة والمدنسة والخيالية .

وما يعنيننا هنا ليس أهمية هذا العمل الإيقوني في تثقيف الديني للشعب فحسب ، وإنما ايضا دوره في البقطة وانطلاق الخيال ، وبالتالي ، الفكر الرمزي . وإن تأمل مثل هذا العمل الإيقوني الخرافي يؤالف المسيحي مع عدد من رموز دينية عالمية ، وما قبل دينية . ويدخل المؤمن تباعاً في عالم من قيم ودلالات تنتهي بالنسبة لبعضهم إلى ان تصبح اكثر (حقيقة) واكثر قيمة من عالم التجربة اليومي .

إن فضيلة الصور والاشارات والمعطيات الاحتفالية ، والقصص الملحمية ، والشعر الغنائي والموسيقى هي في إدخالها الموضوع في عالم مواز وأن تسمح له بتجارب نفسية واستنارات روحية غير مقبولة بطريقة اخرى . وقد تشكلت بالبعد الديني ، أو ما قبل الديني ، في المجتمعات التقليدية ، ابداعات ادبية وفنية^(٤٥) . ولا يعنيننا هنا ابراز ابداعات التروبادور ومذهبهم بالحب الغزلي . ويلاحظ مع ذلك أن التجديدات الجذرية التي لاءمتها ، ويدتيا تمجيد السيدة والحب خارج الزواج لا تعني تاريخ الثقافة فقط . ولا يجوز ان تنسى الوضع الدوني للمرأة في الارستقراطية القروسطية والفوائد التحويلية أو السياسية التي كانت تقرر الزيجات ، والسلوك الهمجي أو اللامبالي للأزواج . ان «الحب الحقيقي» المكشوف والمجد في القرن الثاني عشر يدخل ثقافة أعلى ومعقدة ، لا بل صوفية وتنسكا ، لم يعرف تلقينها الا قرب نساء ناعمات مثقفات .

وقد صودف أمثال هؤلاء المثقفات ، خاصة في بواتيه ، في قصر اليانور الاكيتانية الشهيرة حفيدة أول شاعر تروبادوري معروف غليوم دي بواتيه (١٠٧١-١١٢٧) وملكة فرنسا وانكلترا على التابع . ان المثلث من الامراء والبارونات والفرسان ، وكذلك العديد من الدوقات والكونتيسات ، تثقفوا جميعاً في هذا الوسط الثقافي المتميز ، والذي كانت ترأسه ابنة اليانور ، ماري دي شامبانيا . حتى انه أقيمت محكمة للحب ، وهي محكمة من نوع فريد يعرف قانونها وعدد من الأحكام الصادرة عنها^(٤٦) . لقد شعرت النساء باستطاعتهم تثقيف الرجال ، «بممارسة قوتهن بطريقة جديدة ومحبة توجب على الرجال ان يكونوا أسرى ، مقادين متعلمين . وقد أشارت اليانور إلى الطريق صوب بياتريس»^(٤٧) .

لقد كانت نغمة القصائد دوماً ، الحب ، ولكنه المعلن تحت شكل اتفاقي ، ممجداً وملغزاً في آن واحد . فالسيدة كانت متزوجة ، واعية لقيمتها ومشغولة بشهرتها . وتلك هي الحجة التي من أجلها لعب السر دوراً حاسماً . والعاشق كان انفصل عن سيدته بواسطة عدد من الطلاسم الاجتماعية والمثيرة . بتمجيد صفات هذه السيدة ، كان على الشاعر إثارة وحدته الخاصة وآلامه ، ولكن أيضاً آماله : لرؤيتها ، حتى عن بعد ، للمس ثيابها ، للحصول على قبلة الخ ...

إن هذه المرحلة الطويلة من المسارة الغرامية تشكل في آن واحد ، تنسكاً وتادباً وجملة تجارب روحية . ان اكتشاف المرأة بصفاتها غموضاً ، وتمجيد جمالها الطبيعي وفضائلها الروحية ، كان يلقي العشيق في عالم مواز من الصور والرموز حيث كان شرطه الجسدي يتحول تبعاً . ومثل هذا التحول كان موجوداً حتى ولو أن الشاعر تلقى في بعض الحالات العطاء الكامل من سيدته^(٤٨) . لأن هذا الاستحواذ كان تنويجاً لتقاليد معدة ومحكومة معا بالتنسك ، والرفعة الاخلاقية والعشق .

ان الخاصية الطقوسية لهذا السيناريو الايروسي لا شك فيها . ويمكن تقريبها ، من جهة ، مع التقنيات الجنسية التانترية التي تسمح بأن تكون مفهومة ايضاً بدقة عما في مضمون الفيزيولوجيا المهذبة ، أو على مستوى روحي صرف ؛ ومن جهة اخرى ، يمكن مقارنتها بورع بعض المدارس الفيشنوية ، حيث أن التجربة الصوفية موضحة جداً بحب امرأة متزوجة ، رادها Radha ، بالنسبة للاله الشاب كريشنا . وهذا المثال الأخير هو بخاصة المثال الأخير ذي الدلالة . فبدنياً هو يؤكد الرسمية والقيمة الصوفية (للحب - العشق) وهو يساعد ، اضافة إلى ذلك بتميز الاتحاد الصوفي التقليد المسيحي (مستعملاً الصيغة الزوجية ، أي زواج الروح مع المسيح ، عن الاتحاد المميز للتقليد الهندوسي الذي ، فعلاً من أجل الإشارة للمطلق المقام بالتجربة الصوفية وعدم التضامن الكلي للمجتمع وقيمه الاخلاقية ، يستعمل ليس صور مؤسسة محترمة بامتياز ، الزواج ، وانما صور مضاد الزواج الزنى .

٢٧٠ - الباطنية وابداعات ادبية ! التروبادور - الوفاء في الحب دورة عزال

في الحب الغزلي ، مجّدت لأول مرة منذ غنوصي القرنين الثاني والثالث ،

الفضيلة الروحية والقيمة الدينية للمرأة . , وحسب العديد من العلماء ، استلهم شعراء التروبادور في البروفانس بنموذج من الشعر العربي في اسبانيا ، الذي كان يمجّد المرأة والحب الروحي الذي توقّظه ، الا انه يجب ايضاً الأخذ في الحسبان عناصر سلتية ، وغنوصية وشرقية ، أعيد اكتشافها أو أعيد تحيينها في القرن الثاني عشر . من جهة أخرى ، فإن الورع تجاه العذراء - الذي ساد في ذات العصر - قد قدس المرأة بصورة غير مباشرة . وقد ذهب دانتى بعد قرن من الزمن (١٢٦٥-١٣٢١) بعيداً ايضاً : فبياتريس - التي كان عرفها كمرافقة ووجدت كزوجة لأمير فلورنسي - قد تألّت . لقد أعلّيت أعلى من الملائكة والقديسين ، محصنة من الائم ، وشبه ماثلة للعذراء . لقد أصبحت وسيطة جديدة بين البشرية (المثلة بدانتى) والاله . وعندما كانت بياتريس على وشك الظهور في الجنة الارضية ، صرخ احدهم : «تعالى يا عروس من لبنان» *veni sponsa del Libano* (المطهر ٣٠-٢) وهذا التعبير مقتبس من الكتاب المقدس [نشيد الانشاد ٤-٨] الذي تبتّه الكنيسة ، ولكنه كان ينشد لأجل العذراء فقط أو لأجل الكنيسة ذاتها^(٥١) . ولم تكن تعرف أمثلة أخرى أكثر بريقها من تأليه امرأة . وبوضوح كانت باتريس تمثل التيولوجيا ، اذن سر الخلاص . لقد كتب دانتى الكوميديا الالهية لانقاذ الإنسان ، موصلاً تحوله لا بمعونة النظريات ، وانما بألعاب واذهال القارئ مع رؤى الجحيم والفردوس . ومع انه لم يكن الوحيد ، فإن دانتى يوضح بطريقة مثالية المفهوم التقليدي ، الذي بحسبه يكون الفن ، وبخاصة الشعر هو وسيلة متميزة لا لإيصال الميتافيزيك أو الميثولوجيا فحسب ، وانما ايضاً لايقاظ وانقاذ الانسان .

إن الوظيفة الانقاذية للحب وللمرأة قد اعلنت بكل وضوح بحركة أخرى . في مظهر أدبي اساساً ، ولكنها تطلبت عرفانا (غنوصاً) سرياً ، وعلى الأرجح تنظيمياً تلقينياً سرياً . انه يتعلق بالاخلاص للحب^(٥٢) الذي تأكد وجود ممثليه بدءاً من القرن الثاني عشر في بروفانس وإيطاليا كذلك في فرنسا وبلجيكا . وقد شكل الأوفياء للحب *les fedli d'Amore* ميليشيا سرية وروحية ، هدفها تعبد «المرأة الوحيدة» والتلقين في سر «الحب» . وكان الجميع يستعمل «لغة غامضة» (*Purlar cruz*) وذلك من أجل ان يكون مبدأهم غير قابل للفهم من قبل «العامة» كما قال واحد من اكبر المشاهير بين الأوفياء للحب فرانسيسكو دي باربارينو (١٢٦٤-١٣٤٨) . وقد أمر مخلص للحب آخر المدعو

جاك ديماسيزيو في قصيدته (هذا هو الاخلاص للحب C'est des fiez d'amours) «لا يسوغ مطلقاً كشف مجالس الحب ، دائماً يجب اخفاؤها بعناية»^(٥٣) . وأما ان المسارة بالحب كانت نظاماً روحياً ، فقد اكد عليه جاك دي بيزيو نفسه ، مفسراً دلالة كلمة «حب» بقوله :

«A تعني في أحد معانيها ، بدون = Sans
و mar تعني موت
وعليه فإن جمعها يعني «خلود» Sansmort^(٥٤)»

إن «المرأة» ترمز للعقل المتصاعد ، والحكمة . وحب امرأة يوقظ المريد من السبات (البلادة) léthargie التي تردى فيه العالم المسيحي بسبب الميوعة الروحية للبابا . وعليه يصادف في نصوص الأوفياء للحب تورية إلى (ارملة ليست ارملة) : إنها السيدة المدركة la madonna intelligenza ، التي بقيت «ارملة» لأن زوجها ، البابا ، مات في حياته الروحية مكرساً نفسه حصراً للأعمال الزمنية .

انه لا يتعلق بحركة هرطقية بمعنى الكلمة ، وانما بجمع لم يعترف للبابوات بمزية الرؤساء الروحيين للمسيحية . لا نعرف شيئاً عن طقوسهم المسارية ، ولكنه توجب وجودها ، لأن الأوفياء للحب شكلوا ميليشيا وعقدوا اجتماعات سرية .

زد على ذلك ، فإنه منذ القرن الثاني عشر فرضت الأسرار وفن اخفائهما في أوساط مختلفة . «المحبون كالمذاهب الدينية لهم لغتهم السرية ، وقد تعارف اعضاء الدوائر الباطنية باشارات ورموز وبألوان وكلمات سر»^(٥٥) . و«اللغات السرية» كتعدد الشخصيات الخرافية والملغزة اعجازية كلها تشكل في ذاتها مظاهر ماقبل دينية . ويوجد الدليل في روايات (الطاولة المستديرة) المقامة في القرن الثاني عشر ، حول الملك آرثر .

ان الأجيال الجديدة التي تربت - مباشرة أو بصورة غير مباشرة - من قبل النيور الاكيتانية Aliénor d'Aquitaine وماري دي شامبانيا لم تتفحص اناشيد الاشارة القديمة .

فمكان شارلمان كان مشغولاً الآن من قبل الملك الخرافي آرثر . وان المادة البريطانية la matière de Bretagne وضعت تحت تصرف الشعراء مجموعة معتبرة من شخصيات واساطير هي في جزء كبير منها من أصل سلتى^(٥٦) ، ولكنها قابلة لأن تتمثل عناصر متنافرة - مسيحية ، وغنوصية ، واسلامية .

والذي أثار الولوع العام بالنسبة للدور الارثوري هو شاعر مسيحي من تروي Troys كانت ماري دي شامباني قد اسبغت حمايتها عليه . واذا كان لا يعرف شيء عن حياته ، الا انه من المعلوم قد بدأ يكتب حوالي سنة ١١٧٠ وانه ألف خمس روايات طوال شعراً ، ومن اشهرها لا نسيلو Lancelot وايريك وبرسفال . وفي موضوعنا يمكن القول ان روايات الطاولة المستديرة أقامت ميتولوجيا جديدة ، في المعنى الذي كشفته هذه الروايات ، بالنسبة لاجتماعهم ، و«لتاريخهم المقدس» وللنماذج المثالية التي يجب ان تقود سلوك الفرسان والعشاق . يضاف إلى ذلك بأن ميتولوجيا الفروسية كان لها تأثيرها الثقافي الأكثر أهمية من تاريخها بمعنى الكلمة .

ويدثنا يلاحظ عدد وأهمية العناصر القديمة ، وتحديد أكثر البواعث التلقينية . وكان هنالك دوما مسألة «بحث» طويل ومتحرك لموضوعات مدهشة تقتضي ، مع غيرها ، تدخل البطل في العالم الآخر . ويمكن الاكتشاف في قواعد الانتهاء إلى مجموعة الفرسان بعض تجارب الدخول في جمعية اخوية سرية من نوع ما نربون Mannerbund فعلى برسفال تمضية الليل في كنيسة حيث يرقد فارس ميت ؛ وعندما يزجر الرعد ، يرى يداً سوداء تطفئ الشمعة الوحيدة المضاءة^(٥٧) . وذلك هو النوع ذاته للسهاد الليلي المساري . وان التجارب التي توجه إلى البطل عديدة جداً : فعليه اجتياز جسر ؛ مغمور تحت الماء ، أو مصنوع من سيف قاطع ، أو أنه محروس من قبل أسود أو غيلان . وضافة إلى ذلك ، يسهر على مدخل القصر حراس آليون ، جنيات أو شياطين . . . وكل هذه السيناريوهات تذكر بالعبور إلى الآخرة ، وبالهبوطات الخطيرة إلى الجحيم ، وعندما تجري مثل هذه السفرات من قبل كائنات حية ، فإنها تشكل دوماً جزءاً من مسارة . وباقتحام مخاطر من مثل هذه الهبوطات إلى الجحيم ، يتابع البطل معركة الخلود أو أي هدف خارق للطبيعة . ان التجارب الكثيرة التي تتحملها شخصيات الدور الارثوري تصنف في ذات المنظومة : في نهاية سعيهم ،

يشفي الأبطال المرض الغامض للملك ، وما ان يتم هذا حتى يعاودوا حكم بلاد الغاست ، أو حتى انهم ذاتهم يقتربون من السيادة العظمى .

ويوجد هنالك بعض العناصر المسيحية ، ولكنها ليست دائما في نص أصلي . وبخاصة يوجد ميتولوجيا الشرف الفروسي وتمجيد المرأة الذي يصل أحيانا لأعلى برحائه^(٥٨) . وكل هذا الأدب الممتلئ ببواعث وسيناريوهات مسارية هام بالنسبة لبحثنا ، ولن يكون سوى سبب للتقدم العام . وفي الواقع ، انه كان بالاصغاء بلذة للقصص الروائية التي كانت تعود فيها النماذج التلقينية حتى الاشباع ، يبدو أن مثل هذه المغامرات كانت تلي حاجة عميقة لانسان القرون الوسطى .

غير انه يجب كذلك أن يؤخذ في الحسبان نية الكتاب بأن ينقلوا ، بواسطة مؤلفاتهم ، بعض تقليد باطني ، كما فعل ذلك المؤمنون بالحب les Fedli d'amore ، أو رسالة هادفة «لإيقاظ» القاريء ، حسب النموذج المثبت فيما بعد من قبل دانتى . وتلك هي حالة الرمزية وسيناريو الغرال du Graal ، نغم مجهول من قبل الروايات الأولى ، ذات المصدر البريتوني للعصر الارثوري . ولم يظهر الغرال الا حوالي سنة ١١٨٠ لدى كريتيان دي تروي chrétien de Troyes . وكما كتب عنه . فندريس y.Vendryès «لا يوجد في أي أدب سلمي ، مهما كان غنياً، أية قصة امكن استخدامها نموذجاً للتأليفات المتنافرة مما استخرجه ادبنا القروسطي من هذا الموضوع» (أي الغرال)^(٥٩) .

مع ذلك ، فليس كريتيان دي تروي هو الذي قدم القصة الأكثر كمالاً والميتولوجيا الأكثر تماسكا للغرال ، وانما هو فارس الماني ولغرام فون ايزنباخ ففي (البرسيغال) الذي ألفه ما بين سنة ١٢٠٠ و ١٢١٠ قبل ولغرام ما اتبعته تعاليم أحد كيوت البروفنسالي Kyatle Provençal . إن بنية التأليف متعددة العناصر : الكتب ٣-١٢ وجزء من ١٣ مؤسسة حول كريتيان ، ولكن في ال ١٤ يتتقد ولغرام سلفه الشهير ، على الأرجح لأنه كان قد فشل بالطريقة التي عالج فيها كريتيان الغرال . وما يدعو إلى الدهشة في رواية ولغرام ، عدد وأهمية العناصر الشرقية^(٦٠) . فأب بارسيغال ، كاموريه ، كان قد استخدم في جيش خليفة بغداد . وعمه ، الراهب تريفريزنت Trevrizent ، كان قد سافر في شبابه إلى آسيا

وأفريقيا . وسيصبح ابن أخت برسيغال الكاهن يوحنا ، الملك الكاهن الشهير والغامض الذي حكم في «الهند» . والأول الذي كتب تاريخ الغرال والذي كان أوصله الى كيوت Kyot هو الحكيم «الوثني» (مسلم - يهودي) فليجيتانيس Flégétanis .

ومن المقبول اليوم ان لغرام فون ايزنباغ كان يملك استعلامات دقيقة وعلى درجة من الاتساع من الحقائق الشرقية ، من سورية ومن بلاد فارس ، حتى الهند وحتى الصين .

وقد حصل عليها على ما يرجح ، من الصليبيين والتجار الطليان العائدين من الشرق^(٦١) . وما هو ذي قيمة بالنسبة لموضوعنا ، هي الأساطير والمعتقدات والطقوس ذات العلاقة مع الغرال ، المثارة فقط من قبل ولغرام^(٦٢) . وعلى العكس من كريتيان ، فإن ولغرام يمجّد فضيلة ودور امفورتناس Amfortas الملك الصياد . وهذا هو الرئيس لنظام فروسية المعبد المسمى Templeisen الذين نذروا الطهارة تماماً كالمعبديين . فهم قد اختيروا من قبل الله وتسمنوا مهمات خطيرة . ان خمسة وعشرين سيدة من الأشراف قد خدمت الغرال le Graal .

ومنذ عهد قريب أرجع اثنان من الباحثين الأميركيين ، اشتقاق العبارة غرال (كأس ، اناء ، حوض ، للكلمة الإغريقية كراتر Krater^(٦٣)) . ولهذا الاشتقاق ميزة تفسير الوظيفة الانقاذية للغرال . وفي الواقع ، وحسب الرسالة الرابعة من المدونة الهرمسية Carpusi Hermetieum «ان الله أملاً جرة Crater ، كبيرة من العقل وأرسلها إلى الأرض ، واعتمد بشيراً un herant ، مع الأمر بأن يعلن لأعمال الناس هذه الكلمات : أغطس - انت ، انت الذي تستطيعه ، في هذه الجرة التي تراها ، انت الذي يعتقد بأنك ستصعد صوب الذي أرسل الجرة على الأرض ، انت الذي يعرف لماذا أتيت لتكون . وكل اولئك الذين اصغوا اسماعهم اذن للاعلان والذين عمدوا بهذا التعميد من العقل ، هؤلاء هم لهم نصيب من العرفان (غنوص) ، وقد اصبحوا بشراً كاملين ، لأنهم تلقوا العقل»^(٦٤) ان التأثير الهرمسي على البرسيغال يبدو مقبولاً ، لأنه في القرن السابع ، وعلى اثر الترجمات الكثيفة للمؤلفات العربية ، بدأت الهرمسية تصبح معروفة في أوروبا^(٦٥) . أما بالنسبة للوظيفة المسارية للعرفان (غنوص) المكتشفة في النصوص

الهرمسية فقد تفحصناها في فصل آخر من هذا الكتاب (ف ٢١٠ع) وسيكون هنالك فرصة اخرى للعودة إليها .

ومن جهة أخرى ، فقد جاء في كتاب نشر عام ١٩٣٩ ؛ ان العالم الفارسي السيد جاهانجير س . كواياجيه لاحظ التشابه بين الغرال والمجد Gloria الملكي الايراني هفارينا Hvarena ، والمشابهات بين اساطير ارثر والملك الاسطوري كاي خسرو^(٦٦) . وقد قارن هنري كوربان من جانبه وبذكاء لملاح الاثنين كليهما - الايراني والغربي - السيناريوهات ، والمؤسسات الفروسية والحكايات المسارية ، متجنباً مع ذلك فرضيات الاحتكاكات التاريخية المعروضة من قبل كواياجيه^(٦٧) . ومن بين التشابهات العديدة ، نشير إلى بنية الفروستين الروحيتين واحتجاب كاي خسرو والملك أرثر^(٦٨) . يضاف إلى ذلك انه في دائرة التأليف السابقة على ولغرام فون ايزنباخ ، أن لوهنجرين Lohengrin ، ابن بارسيفال ، مصحوباً بكل الفروسية ، يعاود نقل الغرال في الهند .

ومهما كان التفسير المعطى لمؤلفات ولغرام وإلى من اكمل خطاه ، فإن رمزية الغرال والسيناريوهات التي تحكمها جميعاً تمثل جميعها بوضوح توليفاً روحياً جديداً يمكن ان يتماها فيه معطيات تقاليد مختلفة . فخلف الفائزة المشوقة بالنسبة للشرق تكتشف الخيبة العميقة المثارة بواسطة الصليبيين ، واستلهم السامح الديني الذي شجع على التقارب مع الاسلام ، والحنين إلى «فروسية روحية» حسب نموذج فرسان المعابد الحقيقيين (les Templeisen de Wolfram)^(٦٩) . أما أن يتعلق هذا كله بتركيب ، فإن إدخال الرموز المسيحية (سر القربان ، المقدس ، والرمح) وحضور عناصر من أصل هرمسي ، يثبت ذلك . وحتى مع الاستقلال عن صحة الاشتقاق المعروض من قبل هـ . ور . كاهان (غرال = كراتر - جرة) ، فإن معاودة اكتشاف الهرمسية عبر الترجمات العربية يبدو غير موضع شك . وعليه ، فإن الهرمسية الاسكتلندية كانت سمحت بالأمل بمسيرة بواسطة العرفان (غنوص) ، أي الحكمة الموعلة في قدمها والعالمية (أمل عرف أوجه اثناء النهضة الايطالية ، ر.ف. ٣١٠ع) .

وكما هو الشأن بالنسبة لكل الادب الارثري ، فإنه من غير الممكن معرفة ما اذا كانت التجارب التلقينية المتحملة من قبل الفرسان قد ناسبت الطقوس بمعنى الكلمة أم لا .

كذلك الأمر ، فإنه سيكون من العبث الاعتقاد بالقدرة ، بمساعدة الوثائق ، على تأكيد نقل الغرال إلى الهند ، أو إلى أي مكان آخر في الشرق ، وتماها كجزيرة آفالون التي اعتزل فيها أرثر ، أو بلاد العجائب سبها مبالا من التقليد التيبتي ، فإن الشرق حيث انتقل إليه الغرال ينتمي للجغرافيا الاسطورية . والذي يهم هنا ، هو رمزية اختفاء الغرال ، انه يعبر عن عدم امكانية ادراك تقليد سري بدءاً من مرحلة تاريخية معينة .

ان الرسالة الروحية للسيناريو القائم حول الغرال تستمر باثارة خيال وتفكير معاصرينا . وبصورة عامة فإن ميثولوجيا الغرال تشكل جزءاً من التاريخ الديني للغرب ، حتى ولو أنها - كما يحصل احياناً ، تتطابق مع قصة البيوتويا .

٢٧١ - جواشيم دي فلور : تيولوجيا جديدة للتاريخ .

إن جواشيم دي فلور Joachim de Flore المتولد في كالابر Calabre سنة ١١٣٥ كرس حياته لله بعد سفره للأرض المقدسة . وقد دخل في الدير البينديكتي دي كورازو ، حيث أصبح كاهناً . وخلال وقت طويل ، أجهد نفسه ليلحق منزله بنظام السيسترسيين des Cisterciens ، الا انه ، عندما قبل ، في سنة ١١٨٨ ، فإن جواشيم وعصبة من المؤمنين انفصلوا عن كورازو . وفي ١١٩٢ ، أسس ارسالية جديدة فرسان جوفاني دي فيور .

لقد كان جواشيم على علاقة مع الأكابر : كانت له مداخلات مع ثلاثة بابوات (الذين شجعوه جميعاً لكتابة «نبؤاته») ، وقد التقى بربشار قلب الأسد (الذي بشر بين أشياء أخرى ، بولادة الدجال) . وفي فترة موته ، ٣٠ آذار ١٢٠٢ ، كان الأبائي دي فلور واحداً من الوجوه المعروفة اكثر والمحترمة اكثر في العالم المسيحي . الا انه كان يوجد له ايضا خصوم أقوياء ، والذين نجحوا ، كما سنرى ، في الغض من شأنه ، ويتضمن عمله الغزير ، ولكن الصعب ، سلسلة من رسائل التفسير الهادفة إلى شرح جديد للكتب المقدسة^(٧٠) . ولكنه ، بسبب الاسطورة المبتدعة حول نبؤات جواشيم دي فلور ، فإن عدداً من النصوص المزورة بدأت تنتشر تحت اسمه .

ومع ذلك فإن جواشيم تنكر للقب نبي ، واعترف فقط بامتلاكه الموهبة لحل رموز الآيات الموضوعية من قبل الله في التاريخ والمحافظة في الكتب . وقد كشف بذاته مصدر فهمه للتاريخ المقدس : بعض لحظات الاستنارة التي منحها الله إياها (مرة صباح عيد الفصح ، ومرة أخرى في عيد العنصرة)^(٧١) . وحسب رأي جواشيم ان علدين - ٢ و ٣ - يسودان ويميزان عصور التاريخ العالمي^(٧٢) : العهدان ، الشعبان المختاران من قبل الله (اليهود والوثنيون) والأشخاص الثلاثة للتثليث . والعصر الأول (يستعمل عبارة نظام status) ، هو عصر العهد القديم ، وقد حكم من قبل الاله الأب وتتميز ديانتته بالخوف التي توحى به السلطة المطلقة للشريعة . والعصر الثاني ، ترأسه الابن وهو عصر العهد الجديد والكنيسة المقدسة بالنعمة الالهية ، والعلامة المميزة لديه هو الايمان la foi . وهذا العصر سيدوم ٤٢ جيلاً ، حوالي ٣٠ سنة لكل منها (تماماً حسبما جاء في انجيل متى - ١ : ١ - ١٧ - اثنين وأربعين جيلاً مرا بين ابراهيم ويسوع) . وبموجب حسابات جواشيم ، فإن العصر الثاني سيشتهي في ١٢٦٠ ، وفي فجر العصر الثالث - وهو المحكوم بروح القدس - عندما ستعرف الحياة الدينية طوبى (نعمة) المحبة ، والسرور والحرية الروحية . ولكن ، قبل بعث النظام الثالث ، فإن الدجال سيحكم خلال ثلاث سنوات ونصف ، سيواجه المؤمنون آخر واعى تجاربهم (مخهم)^(٧٣) . إن بابا قديس حداً والرهبان les visis spirituales - الجماعتين من المتدينين ، جماعة المبشرين وجماعة المتوحدين المتأملين - سيصمدون في مقاومتهم للهجمة . لقد كان العصر الأول محكوماً بالرجال المتزوجين ، والثاني برجال الاكليروس وسيكون الثالث مقاداً بالرهبان الروحانيين . وفي العصر الأول كانت الأولوية للعمل ، وفي الثاني للعلم والتهديب ، وفي الثالث ستكون القيمة الكبرى للتأمل .

وبالتأكيد ان هذا المخطط المثلث التركيب للتاريخ العالمي وعلاقاته مع التثليث هو اكثر تعقيداً ، لأن جواشيم يأخذ في الحسبان ايضاً سلاسل ثنائية «على سبيل المثال ، الأحداث الهامة في تاريخ المسيحية التي سبق تصويرها في العهد القديم» . غير ان أصولية تفسيره لا شك فيها . فبدئياً ، وضد رأي القديس أوغسطين ، يقدر الأبائي ان التاريخ بعد عدد من المحن سيعرف عصراً من النعيم والحرية الروحية . وبالنسبة فإن الكمال المسيحي هو أمامنا ، في المستقبل التاريخي (فكرة لم يستطع أي لاهوتي

اورثوذكسي قبولها) . انه يتعلق في الواقع بتاريخ وليس بأخرية ، كما يشته ، بين غيره ، واقع أن العصر الثالث سيعرف ، هو ايضاً ، الانحطاط وسيكتمل بالمصيبة والخراب - لأن الكمال الوحيد الغير قابل للفساد سيكشف عنه بعد الدينونة الأخيرة .

وكما توجب الانتظار ، فإن الخاصية المادية ، التاريخية ، بخاصة ، للعصر الثالث ، هي التي اثارت في آن واحد مقاومة الكنيسة ، وحماس المتدينين والحمية الشعبية . ان جواشيم يشكل جزءاً من حركة كبرى لاصلاح الكنيسة ، الناشطة منذ القرن الحادي عشر . لقد انتظر اصلاحاً حقيقياً - اصلاح عالمي seformatio mundi مفهوم كانقطاع جديد للألوهية في التاريخ - وليس العودة إلى الماضي^(٧٤) . انه لم يطرح المؤسسات التقليدية - البابوية ، الشعائر المقدسة ، الكهنة - ولكنه اعطاها دوراً اكثر تواضعاً . ان وظيفة وقوة البابوات تلوث جذرياً^(٧٥) . وان الشعائر المقدسة لم تعد تظهر وانه لا بد منها في كنيسة المستقبل المسودة بالروح القدس^(٧٦) . أما بالنسبة للقساوسة ، فلن يتتوها ، ولكن توجيه الكنيسة سيعود للرهبان les virs spirituales ، توجيه هو من جهة أخرى ، روعي صرف ، وليس سيادة على المؤسسات الخارجية للكنيسة^(٧٧) .

ولقد اعتبر الأباتي جواشيم ان عمل المسيح اثناء العصر الثالث سيكون مكماً تحت قيادة الروح القدس . ولكن مثل هذا المفهوم ألم يلغ الدور المركزي للمسيح في تاريخ الخلاص؟؟ على كل حال ، ان الأهمية المعطاة من قبل جواشيم للسيادة ، في كنيسة المستقبل ، للروح على المؤسسات كانت بصفاء معارضة للقوى التي انتصرت في القرن الثالث عشر . ومن هذه الوجهة النظر ، فإن مفهوم جواشيم شكل نقداً جذرياً للكنيسة في عصره^(٧٨) . أن اباتي فلور كان أعلن البناء المستقبلي لنظامين جديدين ، وان ما أنشئ من قبل فرانسوا الاسيزي يعكس على الأرجح الأفكار الجواشمية . وفي الواقع فإن الفرانسيسكان قد اعتقدوا أن القديس فرانسوا - بوجوده المثالي (فقر ، تواضع ، حب لكل مخلوق حي) - حقق في حياته حتى «مقدماً» جديداً للمسيح . وقد تفجرت فضيحة كبرى في باريز سنة ١٢٥٤ ، عندما نشر الفرانسيسكاني جيرارد دي بورزو سان دمينو تحت عنوان (مدخل للإنجيل الخالد) ثلاثة نصوص للأباتي الكالابري ، مضيفاً إليها مقدمات وشروحاً . لقد أعلن أن سلطة الكنيسة الجديدة الروحية ، هي كنيسة الروح القدس . وقد افاد لاهوتيو جامعة باريس من هذه الفرصة

الغير مأمولة لأعلان الهرطقة وخطر الأنظمة المتسولة . ومن جهة اخرى ، ومنذ بعض الوقت ، فيما سبق لم يعد جواشيم هو الشخص المفضل لدى البابا . وفي ١٢١٥ أدينت نظريته عن التثليث . وبعد فضيحة «الانجيل الخالد» اذان البابا الكسندر الرابع في ١٢٦٣ الافكار الاساسية للآباتي .

مع ذلك ، فانه ما زال يحافظ على معجبين ، مثل دانتى الذي وضعه في الجنة . وقد تعددت مخطوطات أعماله وانتشرت في كل مكان من اوروىا الغربية . ومباشرة أو بصورة غير مباشرة ، فإن الجواشمية قد اثرت على الفراتيسللي les Fraticelli والبيجهار les Beghards والبيغونيين les Bégunines ، ويوجد المخطط الجواشيمي في أعمال ارنولد دي فيلانوف وتلامذته^(٧٩) .

وفيا بعد ، حوالي القرن السادس عشر وبداية السابع عشر ، اكتشفت الأجيال الأولى من اليسوعيين أهمية المفهوم الجواشيمي للنظام الثالث . وفي الواقع ، شعروا بمأساة زمنهم ، بقرب المعركة الحاسمة ضد الشر متماهياً بمارتن لوتر^(٨٠) . وتكشف بعض التمديدات الغير منتظرة لأفكار النبي الكالاباري عند ليسينغ : في تربية الجنس البشري ، يطور الفيلسوف أطروحة الكشف المتماهي والمتنامي مكتملاً في عصر ثالث^(٨١) .

وقد كان 'صدى افكار ليسينغ بارزاً ، وقد أثر ، على الأرجح ، عبر افكار السان سيمونيين على اوغست كومت ونظريته للدول الثلاثة . وان فيخته ، وهيجل وسيتلنغ قد دفعوا ، حتى ولو من أجل اسباب مختلفة ، بالفكر الجواشيمي للعصر الثالث الوشيك الوقوع الذي سيجدد وسيكمل التاريخ .

حواشي الفصل الرابع والثلاثون

- ١-٢- ولیم برك- القرون الوسطى ...
- ٣- حوالي ٧٠٠ لجأت الثقافة الغرية لاديرة ايرلندا ونورميري . وهناك بعد مائة سنة ، نشأ المثقفون واللاهوتيون والفنانون .
- ٤- ولیم برك ص ٨٠٠ المرجع السابق
- ٥- ٦- المراجع المعتمدة من المؤلف .
- ٧- على سبيل المثال ، تسليم خاتم الزواج ، أهمية الصلاة ، التي يمكن الاحتفال بها من أجل الاحياء والموتى - كتاب القداس حيث تتجمع الصلوات .. الخ
- ٨- ان تكونا اكثر ملاءمة لرجال الدين ، والدراسة المعمقة للغة اللاتينية الصحيحة ، مختلف الاصلاحات للرهبة تبعاً للنموذج البينديكتي . الخ .
- ٩- ر. النصوص المذكورة من قبل جورج دوي - سنة الألف ص ١٠٥
- ١٠- «بالتأكيد في سنة الألف ان الكنيسة الغرية تلقت اخيراً المعتقدات القديمة جداً في حضور الموتى ، في استمرار حياتهم الغير مرئية ، ولكن مع ذلك مختلفة قليلاً عن الوجود الجسدي»
- ١١- ١٥- المرجع السابق- دوي -
- ١٦- اكثرية ملوك الانكلوساكسون يرجعون أصولهم إلى ودن ... الوثائق المذكورة من قبل ولیم ... والملوك الاسكنديناف يتحدرون من الالم ينجري ، الممثل لغري وهيمدال (أوريغ) سيكون جد كل الملوك- انظر حول ملكية قدامى الجرمن- تاريخ المانيا جزء ٢ ص ٤٤٦ .
- ١٧- انظر ينغليغاغا- فصل ١٦ . تاريخ آخر طرح ينغليغ المضحى به إلى اوزين بسبب المحاصيل السيئة
- ١٨- من ثمانية شجرات نسب للبيوت المالكة الانكليزية ، سبعة ترتقي إلى اودن .
- ١٩- ٢٠- اسماء المراجع .

- ٢١ - الأمر الذي يقتضي طاعة الملك للأسقف .
- ٢٢ - مبادئ نظام سياسي مسيحي - رسالة منسوبة للأسقف ويلفوستون (مات في ١٠٢٣)
- ٢٣ - جرمانيا ١٣-١٤ حول التكريسات العسكرية للمجرمن القدامى (ف ١٧٥ ع)
- ٢٤ - يمكن تعريف الاقطاعية كاتحاد المقاطعة مع السيد (أي محصول الارض التي يديرها الاقطاعي باسم سيده)
- ٢٥ - رولاند كان معتبراً كبطل ممتاز لأنه احترم بدون شرط ، ويشمن حياته ، قوانين الاقطاع .
- ٢٦ - كان القانون يتضمن حسب بعض المصادر اربعة قوانين : صلاة يومية ، تضحية ظرفية بحياته من أجل العقيدة المقدسة ، حماية الكنيسة ، الدفاع عن الارامل ، واليتامى والفقراء . وتضيف بعض النصوص ان الفارس يجب عليه مساعدة السيدات والفتيات اللواتي هن بحاجة اليه ويكرم النساء ويدافع عن حقوقهن .
- ٢٧ - ويضاف إلى ذلك ان مؤسسة الفروسية الدينية تطورت كذلك في الاسلام (هنري كوربان)
- ٢٨ - رونسمان - تاريخ الحروب الصليبية .
- ٢٩ - صليبية واخرى - ديبرون
- ٣٠ - ٣٤ - بولس الفندري . . . وديبرون (المسيحية والفكرة الصليبية) «انه ليس لشروط نجاح الحملة ان فيليب اغسطس ارتبط بها ، وانما العرش الذي سبتره وراءه» ذات المرجع .
- ٣٥ - ٣٨ - ذات المرجع - بولس الفاندري - ويذكر انهم كانوا مشردين فقراء سلموا بالسكاكين والفؤوس . الخ
- ٣٩ - ٤٠ - اسماء المراجع .
- ٤١ - انظر النص في دوبي وسنة الألف ص ٧١-٧٥ في القرن الثاني ، وهذا المخطط يترجم اعادة قبولية المجتمع : كهنوت محكوم بالنموذج الرهباني وارشتراطية عسكرية ، ونخبة اقتصادية للفلاحين ومستغلي الأراضي الذي يكسبون بالعمل الحق بارتقاء فكري . - جاك لوكوف في تاريخ الاديان . . . الخ .
- ٤٢ - ٤٣ - اسم المرجع .
- ٤٤ - وهذا ما اغضب القديس برنارد «ماذا تعني في اروقتنا هذه الغيلان القبيحة ، وهذه المحاسن المرعبة وهذه الأهوال الجميلة» ابولوجيا . ١٢ - داني .
- ٤٥ - كما أظهرته بسيكولوجيا الأعماق . فإن ذات العملية مع أنما افترقت وانحطت ، تأكلت في المجتمعات المعاصرة المدنسة
- ٤٦ - De aste amendi - وهذه الرسالة الصغيرة ترجمت وشرحت من قبل لافيت حوران (التروبادور ومحكمة الحب) ص ٤٣-٦٥
- ٤٨ - انظر . . . التوثيق والتحليل النقلي لموشيه لافرار (حب غزلي وغاية الفن في القرن الثاني

عشر . ومن جهة اخرى ان ماري دي شامبانيا اكدت دون مواربة الفرق بين القران الزوجي ولقاء المحبين المحبات يتوافقان بالتناوب تماما وبدون مقابل ... الأزواج ، هما ، ملزمين بواجب التحمل بالتوالي ارادتهما وان لايرفضا ابداً) .

٤٩- العديد من النصوص الغنوصية تمجد الأم الالهية مثل (الصمت الصوفي) الروح القدس ، الحكمة «انني الفكرة التي تسكن في النور تلك التي كانت وجدت قبل كل شيء . انني فاعلة في كل خلق (. . .) انني غير مرئية واحد من الكل (. . .) . وفي قصيدة غنوصية ، الرعد الروح الكاملة ، قوة نسوية تعلن : «انني الاولى والاخيرة [. . .] انني الزوجة والعذراء [. . .] انني الأم والابنة» الخ .

٥٠- انظر- الشعر العربي والشعر الأوروبي - غارسيا غومير . والمراجع المذكورة .
٥١- من جهة اخرى تطبق بياتريس نفس كلام المسيح (بعد قليل لن تراني ومن ثم ايضا بعد قليل تراني) (يوحنا ١٦: ٦٦)

٥٢- ٥٣- المراجع .. «الحب لا يجوز كشفه وانما اخفاؤه تماما» .
٥٤- ٥٥- عالم القرون الوسطى - ف. اير . . ص ١٥٧ .
٥٦- آرثر- الملك الصياد ، بيرسفال لانسلو ، الموضوعات المذهلة للعالم الآخر . . . الخ .
٥٧- ر. الخرافة الاثرية- جان مارش .

٥٨- على سبيل المثال في لانسيلو كريستيان دي تروى- أما بالنسبة لتاريخ القصة الجميلة والمأساوية تريستييان واوز بلده فانها تشكل (القصة الاكثر شعبية والمدنسة للقرون الوسطى) .
٥٩- ٦٠- فندريس- الغرال في الدور البريتوني . و ٦٠ لان النص مسرحه الشرق
٦١- جونة- الديوان الشرقي- وحب هذا الكاتب . . ان القصة تقتضي معلومات جديدة وهامة بالنسبة لتاريخ الفن على سبيل المثال ان ما قرره ولغرام حول طريق الحرير نحو الصين (قرن قبل ماركوبولو) على قصور الخلفاء المتأخرين في بغداد .
٦٢- ٦٨- اسماء المصادر والمراجع المعتمدة .

٦٩- فراسان المعبد اصبحوا رجال البنوك الرئيسيين في عصر الصليبيين وجمعوا ثروات كبيرة وتمتعوا اضافة لذلك باحترام سياسي ، وبهدف تجريدهم من كنوزهم رفع فيليب الرابع عام ١٣٢٠ دعوى شاكته ضدهم، متهمها اياهم باللاأخلاقية والمهرطقة وبعد سنتين الغى البابا كليمنت الخامس نظام فرسان المعبد نهائيا .

٧٠- اكثرها اهمية اذيع في فينيسيا ، في بداية القرن السادس عشر .
٧١- ٧٩- ٨٠- اسماء مصادر ومراجع معتمدة
٨١- لقد فهم ليسينغ هذا العصر الثالث . بأنه انتصار للعقل بواسطة العلم . ولكن هذا لم يكن

أقله هنا في رأيه . اتمام الكشف المسيحي . انه يرجع بلطف وتقدير (البعض المتحمسين من القرنين ١٣- و ١٤ الذين كانت قضيتهم الوحيدة اعلان الانجيل الجديد الخالد بصورة عاجلة (كارل لويس) معنى التاريخ

الفصل الخامس والثلاثون

علوم دينية وروحانية اسلامية

٢٧٢ - اساسات اللاهوت الأغلي

كما رأينا سابقاً ، ان وحدة الجماعة الاسلامية (الامة) فقدت على اثر الانفصال بين السنية (المؤسسة على السنة ، والتطبيق التقليدي) والشيعية ، التي كانت تدعي بأن الخليفة الحقيقي الأول هو علي . وازافة لذلك «فمنذ وقت مبكر توزع الاسلام إلى مذاهب متعددة جداً أو إلى مدارس غالباً ما كانت تتصارع وحتى انها تدين بعضها بالتناوب ، وكل واحد منها يدعي أنه المالك المتميز للحقيقة العليا ؛ وقد زال كثير منها عبر التاريخ ، وبقي ممكناً زوال غيرها ، ولكن كثيراً آخر «وغالبا الأكثر قدماً» قد استمر حتى ايامنا بحيوية بارزة مصمماً بجد على الاستمرارية وعلى متابعة الاغتناء بمعطيات جديدة ، ويكمية من المعتقدات والأفكار الموهوبة من قبل الأجداد» .

إن الجماعة السنية مثلت ومازلت تمثل غالبية الاسلام . وهي تتميز بدنياً بالأهمية المعطاة للتفسير الحرفي للقرآن والسنة ، وبالدور الرئيسي للشريعة . ولكن نطاق الشريعة

أكثر اتساعاً من الأنظمة القانونية من النموذج الغربي . فمن جهة هي تنظم ليس علاقات المؤمن مع الجماعة والدولة فحسب ، وإنما أيضاً مع الله وضميره الخاص . ومن جهة أخرى فإن الشريعة تمثل التعبير عن الإرادة الإلهية ، كما أوحى بها لمحمد ، وفي الواقع ، وبالنسبة للسنية ، فإن الشريعة والفقه متضامنان . ومصدرهما هو : تفسير القرآن : والسنة المؤسسة على نشاط وكلمات الرسول ، والاجماع أو اتفاق شهادات صحابة محمد يضيف من بين مصادر الشريعة القياس ويعتبر الاجتهاد كالطريقة التي يتوصل بها لهذا القياس .

ومن غير المجدي هنا دراسة مدارس الاجتهاد الأربعة المعروفة بأنها هي كمدارس قانونية من قبل الجماعة السنية^(٢) . وكل المدارس استعملت الطريقة العقلية المعروفة تحت اسم (الكلام) وهو مصطلح عربي يعني .. تكلم ، حديث ، ولكنه انتهى إلى تعريف اللاهوت .

إن أكثر اللاهوتيين قدماً هم المعتزلة ، وهم جماعة من المفكرين انتظموا منذ النصف الأول للقرن الثاني للهجرة ، في البصرة . وقد استقر مذهبهم بسرعة ، وحتى انه أصبح لبعض الوقت ، اللاهوت الرسمي للإسلام السني . ومن بين أطروحات خمسة أساسية للمعتزلة ، تبدو الاثنان الأوليتان هما الهامتان : (١) التوحيد : «الله واحد ، لا شبيه له ، ليس جسماً ، ولا فرداً ، ولا مادة ولا حادثاً . انه خارج الزمن . لا يقيم في مكان أو كائن ، ليس موضوعاً لأية صفات أو نعوت من نعوت الخلاق . انه غير مشروط ولا محدد ولا مولود ولا يولد [...] ، لقد خلق العالم بدون سبق مثال مقام ويلون مساعد»^(٤) . وكتيجة لازمة ، فقد نفى المعتزلة الصفات الإلهية واعتمدوا فكرة ان القرآن مخلوق . (٢) العدالة الإلهية المتضمنة حرية التحكم التي تجعل الانسان مسؤولاً عن أفعاله .

إن الأطروحات الثلاثة الأخيرة ترجع بصورة خاصة إلى مسائل الأخلاق الفردية والتنظيم السياسي للجماعة .

ولبعض فترة من الزمن ، وبعد مجيء الخليفة المأمون ، الذي اعتنق الاعتزال تماماً

وأعلنه مذهباً للدولة - عرفت الجماعة السنية ازمة جسيمة بصورة خاصة . ثم انقذت وحدثها بواسطة الاشعري (٢٦٠/٨٧٣ - ٣٢٤/٩٣٥/٥٠ . ومع انه اتبع اللاهوت الاعتزالي حتى سن الاربعين من عمره ، فقد تركه الاشعري علنا في المسجد الكبير في البصرة وكرس بقية حياته لتوفيق الاتجاهات المختلفة التي واجهته في داخل السنية .

فصد الحرفيين اعتمد الأشعري قيمة البرهان العقلي ، ولكنه انتقد السيادة المطلقة للعقل كما تبناها المعتزلة . وحسب القرآن ، ان الايمان بالغيب (الغير مرئي ، والمافوق المحسوس والخفي) لا بد منه في الحياة الدينية . وعليه فإن الغيب يتجاوز البرهان العقلي . ودائماً ضد المعتزلة ، اعتبر الأشعري ، ان الله يحوز الصفات والاسماء المذكورة في القرآن ، ولكن بدون السؤال «كيف» ، لقد ترك «الايمان والعقل وجهها لوجه دون وسيط» ، كذلك الأمر فإن القرآن هو غير مخلوق ، بصفته كلاماً الهياً خالداً . وليس (كالكلام البشري ، الظاهر في الزمان)^(٦) .

ومع ان المدرسة الأشعرية لم تسلم من الانتقادات ، المصاغة وبخاصة من قبل المعتزلة والحرفيين ، فإن هذه المدرسة سادت خلال قرون ، كل الاسلام السني تقريباً ومن بين مداخلاته الأكثر أهمية ، التحليل المعمق للعلاقات بين العقل والايمان ، وهو يستحق تقديراً خاصاً . فكذلك ان حقيقة روحية يمكن لها ان تدرك بالايمان كما هو بالعقل ، «انه يتعلق مع ذلك في كل حالة بطريقة من الادراك الحسي التي تختلف شروطها والتي لن يعرف لا دمجها مع بعض ، ولا باستعاضة الواحد منها بالآخر ولا المرور من الواحد لكي لا يرى سوى الآخر»^(٧) . ومع ذلك فقد استنتج (كوربان) «بمواجهة متوازية للمعتزلة والحرفيين ، أن الاشعريين يبقون في الواقع على أرضيتهم الخاصة»^(٨) وعلى هذه الأرضية سيكون من الصعب تطوير التفسير الروحي للنبوّة ، بالمرور من المعنى الظاهري إلى المعنى الباطني .

٢٧٣ - الشيعة والتأويل الباطني :

إن الاسلام هو كالمسيحية واليهودية ، (دين كتاب) . فالله تكشف في القرآن عبر

رسوله ، الملاك ، الذي أوحى للنبي كلام الله . ومن وجهة نظر شرعية واجتماعية ، فإن أعمدة الايمان الخمسة تشكل المهم في الحياة الدينية . مع ذلك ، فإن المثل الأعلى للمسلم هو فهم المعنى (الحقيقي) للقرآن ، حقيقة النظام الانطولوجي (المعبر عنه بالمصطلح حقيقة) . فالانبياء ، وبخاصة آخرهم ، محمد ، أعلنوا في نصوصهم الموحى بها القانون الالهي (الشرعية) . غير ان النصوص قابلة لتفسيرات شتى ، مبتدئة بالأكثر وضوحاً ، التفسير الحرفي . وحسب قول صهر محمد ، علي ، الامام الأول «لا يوجد آية قرآنية إلا ولها أربع معان : الظاهر ، والباطن ، والحد ، و(المشروع الالهي) والمصطلح . فالظاهر هو من أجل التلاوة الشفهية ، والباطن هو من أجل العلم الداخلي ، والحد ، هو التلاوة المقيمة للحلال والحرام ، والمصطلح (المشروع الالهي) هو ما قصد الله تحقيقه في الانسان بواسطة كل آية»^(٩) . وهذا المفهوم هو خاص بالشيعة ، ولكنه موزع بين عدد من المتصوفين والاشراقين المسلمين . وكما كتب فيلسوف إيراني كبير ، ناصر خسرو (القرن ٩/٥) : «الدين الايجابي [الشرعية] هي المظهر الخارجي للفكرة (الحقيقية) والفكرة هي المظهر الباطني للدين الايجابي . . والدين الايجابي هو الرمز (مثال) ، والفكرة هي الرموزة «المثول»^(١٠) .

إن الفكرة ، الحقيقية . تتطلب معلمين ملقنين لتجعلها مقبولة من المؤمنين . وبالنسبة للشيعة . فإن المعلمين الملقنين ، والأدلاء الروحانيين بامتياز ، هم الأئمة^(١١) . وفي الواقع ، ان واحداً من أكثر التفاسير الروحية قدماً للقرآن يوجد في التعليم الباطني المعطى من قبل الأئمة لتلاميذهم . وهذا التعليم قد نقل بأمانة وبشكل مدونة ضخمة (خمسة وعشرين جزءاً بحجم نصف طلحية ورق في طباعة انجلسي) . والتفسير المقدم من الأئمة والكتاب الشيعة مؤسس على تكاملية مصطلحين جوهريين : التنزيل والتأويل . فالأول يدل على الدين الايجابي ، حرفية الوحي المنزل من الملأ الأعلى بناء على إملاء الملاك . وعلى العكس فإن التأويل يرجع للأصل ، أي للمعنى الحقيقي والأصلي للنص المقدس . وحسب كتاب اسماعيل (ف ٢٧٤ع) «ارجاع الشيء لأصله ، فالذي يمارس التأويل هو اذن أحدهم الذي يقبل المنطوق عن مظهره الخارجي (ظاهرة) واعادته إلى حقيقته»^(١٢) .

وخلافاً لآراء الأصوليين (الارثوذكس) فإن الشيعة يقدرون انه بعد محمد بدأ دور

جديد هو دور الولاية «محبة ، حماية» . ان «محبة» الله تكشف للأنبياء والأئمة الدلالات السرية للكتاب والسنة ، ومن هنا ، تجعلهم قادرين لتلقين المؤمنين في الاسرار الالهية ، «تحت هذا المظهر ، فإن الشيعة هي عرفان (غنوص) الاسلام . ان دورة الولاية هي اذن دور الامام الوارث للرسول ، اي الباطن التابع للظاهر ، الحقيقة التابعة للشريعة» [كوربان ص ٤٦] . وفي الواقع ، ان الأئمة الأوائل ارادوا الحفاظ على التوازن بين الدين الايجابي و«الفكرة» دون حل الباطن عن الظاهر . ولكن الظروف قد حالت دون الحفاظ على هذا التوازن ، وبالتالي النتيجة الوحيدة للشيعة .

ونشير باختصار إلى التاريخ المأساوي لهذه الحركة . فزيادة عن الاضطهاد السياسي للخلفاء الأمويين وخصوصة فقهاء الشريعة ، فإن الشيعة تحملت كثيراً من انقساماتها الداخلية الخاصة . مثيرة العديد من الشيع والمذاهب . فيما ان الرئيس الديني كان الامام ، أي منحدر مباشرة من علي ، فإن ازمة انفجرت عند موت الامام الرابع جعفر الصادق (١٤٨/٧٦٥) . فابنه اسماعيل الذي سبق وقتل من قبل والده ، مات قبل الأوان . وتجمع قسم من المؤمنين حول ابن هذا الأخير محمد ابن اسماعيل الذي اعتبروه كامام سابع ، وهؤلاء هم الاسماعيليون أو الشيعة السبعية . ومؤمنون آخرون اعترفوا بموسى الكاظم كإمام سابع وهو شقيق اسماعيل ، وهو ايضاً قد قتل من قبل جعفر .

واستمرت سلسلة نسبه حتى الامام الثاني عشر محمد المهدي ، المختفي سراً في ٨٧٤/٢٦٠ وعمره خمس سنوات ، في اليوم نفسه الذي مات فيه والده الشاب الامام قبل الأخير^(١٣)

ومن وجهة نظر شرعية ، ان الفوارق الأكثر أهمية مع الأصولية السنية هي التالية :
(١) المتعة (٢) الاذن بالتقية ، أي اخفاء الاراء الدينية تجنباً في عصور الاضطهادات .
إن التجديدات للفرعين من الشيعة بارزة وبخاصة حول المخطط اللاهوتي . فقد شوهدت الأهمية للباطنية والغنوص . وحسب بعض علماء الدين السنة والكتاب الغربيين ، انه فعلاً بفضل التعليم السري للأئمة دخل العديد من المفاهيم الغريبة (خاصة ، الغنوصية والايروانية) الاسلام الشيعي ، وعلى سبيل المثال ، فكرة الصدور أو الانبثاق الالهي ، في مراحل متتابعة ، واندماج الأئمة في هذه العملية ، والتقمص ،

وبعض النظريات الكونية والاناسية . الخ . . . ويذكر مع ذلك ان ظواهر مشابهة تصادف في الصوفية (ف ٢٧٥ع) والقبالة (ف ٢٨٩ع) وفي تاريخ المسيحية . وان ما يجب ابرازه في كل هذه الحالات ليس هو الفعل في ذاته ، بخاصة الاستعارة من الأفكار والطرائق الروحية الأجنبية ، وإنما إعادة تفسيرها وإعادة تركيبها بواسطة الأنظمة التي تمثلوها .

وإضافة إلى ذلك ، فإن وضعية الامام أثارت انتقاد الأغلبية الأرثوذكسية ! وبخاصة ان بعض الشيعة قد قارنوا معلمهم بالرسول ، وقد ذكرنا بعض الأمثلة المؤسطة التي لا مفر منها برسم الصورة الذاتية لمحمد . ويمكن بسهولة ايراد العديد منها وهكذا : شع نور من رأس والد محمد «إشارة لفور المجد المحمدي» ، وكان محمد الرجل الكامل ، وأصبح الوسيط أو الشفيع بين الله والبشرية . وهنالك حديث يقرر ان الله قال له : «لو لم توجد لما كنت خلقت الأفلاك» . . ويضاف انه ، بالنسبة إلى العديد من الجماعات الأخوانية الصوفية ، كان الهدف الغائي للمريد ، الاقتران مع النبي .

إلا انه بالنسبة للسنة ، فإن الامام لم يكن يستطيع أن يوضع بالقرب من محمد . انهم كذلك يعترفون بنبل علي ، ولكنهم يرفضون الفكرة بأنه لا يوجد خلفاء شرعيون غيره وغير المنحدرين من أسرته . والسنينيون ينكرون بخاصة العقيدة بأن الإمام ملهم من قبل الله بله انه ظهور لله^(١٥) . وفي الواقع ، ان الشيعة يعترفون بعلي وعترته بأنهم فبس (جزئي particle) من النور الإلهي - أو حسب رأي بعضهم جوهر إلهي ؛ ولكنهم بنون تطبيق لهذه الفكرة بالتجسيد . واكثر من هذا صحة ، ما يمكن قوله ان الامام هو تجلي إلهي ، أو كشف إلهي ، (يوجد معتقد مماثل ، ولكن دون ان يكون مقررًا للامام لدى بعض الصوفيين) . وبالنسبة ، فإن الامام ، بالنسبة للشيعة الاثني عشرية ، كما هو الأمر بالنسبة للاسماعيليين ، يصبح الوسيط بين الله والمؤمنين . انه لا يقوم مقام النبي ، ولكنه يكمل عمله ويشاطر احترامه . وهذا مفهوم جريء وأصلي ، لأنه يترك مستقبل التجربة الدينية مفتوحاً . فبفضل الولاية «حبة الله» يستطيع الامام الكشف والبيان للمؤمنين ابعاداً مازالت غير مشكوك فيها من الاسلام الروحاني .

٢٧٤ - الاسماعيلية ، وتمجيد الامام ، البعث الكبير ، المهدي

بدىء بمعرفة الاسماعيلية تقريباً ، نتيجة أعمال وو- ايفانوف W.Ivanow ولم يبق من العصر الأول سوى القليل من النصوص . فبعد موت الامام اسماعيل ، اعتبر التقليد وجود ثلاث ائمة مستورين ، وفي ١٨٧/١٠٩٤ انقسمت الجماعة الاسماعيلية إلى فرعين : الشريكون (أي الفرس) الذين كان مركزهم القيادي قلعة ألموت (حصن في الجبال من الجنوب الغربي من بحر قزوين) والغرييون ، أي سكان مصر واليمن . وإن بحثنا المختصر في هذا الكتاب لا يسمح بتحليل حتى ولو بشكل موجز للمجموعة المعقدة من علم الكون ، والاناسة والأخوية الاسماعيلية^(١٧) . ونوضح انه ، حسب المؤلفين الاسماعيليين ، فإن جسد الامام ليس جسداً من لحم ، كما هو جسد زار ادشت (ف ١٠١ع) ، انه نتيجة ندى من أصل سماوي ممتص بواسطة آبائه . ان الغنوص الاسماعيلي يفهم بالهية الإمام (ولادته الروحية) التي حولته لدعم (معبد النور) معبد روحي صرف . (امامته) هي ذلك المجموع الصوفي المشكل من كل اشكال النور من مريديه .

واكثر جرأة ، هي نظرية الاسماعيلية المعدلة في (الموت)^(١٧) . ففي ١٧ رمضان ٥٥٩ (٨ نيسان سنة ١١٦٢) أعلن الإمام أمام المؤمنين القيامة الكبرى . «ان ما انطوى عليه الإعلان ، لم يكن شيئاً بأقل من مقدمة لاسلام نقي روحي ، محرر من كل ذهنية شرعية ، ومن كل عبودية للشرعية ، دين شخصي ، لأنه كشف وعاش المعنى الروحي لكشوفات نبوة» . ان محاصرة وتخريب قلعة ألموت من قبل المونغول في (١٢٥١/٦٥٤) لم يضع نهاية للحركة ، فالاسلام الروحي استمر مغلفاً في الجمعيات الأخوية الصوفية .

وحسب الاسماعيلية المعدلة ، فإن شخص الامام له حق التقدم على شخص النبي . «إن ما فكرت فيه الشيعة الاثني عشرية ، كما لو أنه مصطلح لمنظور اخروي ، أكملته اسماعيلية ألموت في الحاضر ، بتقدم الأخوية التي هي بعث للروح ضد كل انواع العبوديات (كوربان ص ١٤) . فالإمام بصفته الانسان الكامل أو «وجه الله» فإن معرفة الامام «هي معرفة الله الوحيدة الممكنة للانسان» وحسب قول كوربان في

المقتطفات التالية ان الامام الخالد هو الذي يتكلم : «الانبياء يعبرون ويتغيرون . ونحن ، نحن الرجال الخالدون» رجال الله ليسوا الله ذاته ، مع ذلك انهم غير مفارقين لله» [ص ١٤٤] وبالنتيجة فإن «الامام الخالد كمظهر إلهي يجعل ممكنا علم الكائن (الانطولوجيا) فقط : اذ نظراً لأنه الموحى فهو عين الوجود ، انه الشخص المطلق ، والوجه الالهي الباقي والصفة الالهية العظمى ، التي هي الاسم الأعظم لله . وهو بصورته الأرضية تجلي ، أو مظهر الكلام الأعظم (مظهر كله أعلى) .»

باب الحقيقة لكل زمان ، مظهر الانسان الباقي الذي يظهر وجه الله» [ذات المرجع ١٤٤-١٤٥] كذلك مما له دلالة الاعتقاد بأن لدى الانسان ، تفترض معرفة النفس معرفة الامام «ومعلوم انه يتعلق بمعرفة روحية للقاء في عوالم خيالية مع الامام المستور الغير مرأي ، الغير ممكن ادراكه بالحواس» . ان نصاً اسماعيلياً يؤكد : «من مات وهو لا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» . وبحق رأى كوربان في السطور التالية الرسالة العليا للفلسفة الاسماعيلية : «لقد قال الامام : انني مع محبي حيثما بحثوا عني ، على الجبل ، في السهل ، في الصحراء . إن من كشفت له جوهرى أي المعرفة الصوفية لذاتي ، فليس بحاجة لقرى طبيعية مني وتلك هي القيامة الكبرى» .

إن الإمام الخفي لعب دوراً حاسماً في التجربة الصوفية للاسماعيلية والفروع الشيعية الأخرى . ويضاف إلى ذلك ان مفاهيم مشابهة تتعلق بالقداسة ، لا بل (الألوهية) للمعلمين الروحانيين ، تصادف كذلك في تقاليد دينية أخرى (الهند ، المسيحية في القرون الوسطى ، الها سيد يسم) .

وتحسن الإشارة إلى ان الصورة الخرافية للامام المستور قد اتصلت مراراً بأسطورة أخروية للمهدي ، لغة القائد أو الدليل (أي الذي اهدي من قبل الله) . وهذا التعبير لا يوجد في القرآن ، وقد طبقه العديد من المؤلفين السنة على شخصيات تاريخية^(١٨) . ومع ذلك ، فإن تقديره الأخروي هو الذي أثار الخيال . فبالنسبة لبعضهم ، ان المهدي كان يسوع (عيسى) ولكن اكرثية رجال الدين جعلوه منحدرًا من اسرة النبي . وبالنسبة للسنين ، فإن المهدي ، مع انه يطلق التجديد العالمي ، فهو ليس القائد الذي لا يقهر كما أعلنه الشيعة ، وهؤلاء الآخرون وحلوا المهدي مع الامام^(١٩) .

إن اختفاء ومعاودة ظهور المهدي في نهاية الزمان لعب دوراً بارزاً في التدين الشعبي وفي الأزمات الألفية . فعند بعض المذاهب (الكيسانية) سيكون محمد ابن الحنفية ، ابن علي من زوجه غير فاطمة . مع انه دائماً في الحياة . يرقد في قبره على قمة رضوى حيث ينتظر المؤمنون عودته . وكما في التقاليد ، فإن قرب نهاية الزمان يتميز بانحطاط جذري للبشر وبعلامات مميزة : فالكعبة ستزول ، واجزاء القرآن ستصبح صفحات بيضاء ومن سيلفظ اسم الله يقتل الخ . . . وإن ظهور المهدي سيدشن ، بالنسبة للمسلمين ، عصراً من العدالة والرخاء لا مثيل له حتى ذلك الحين على الأرض . وسيدوم حكم المهدي خمس أو سبع أو تسع سنوات ، وبوضوح فإن انتظار ظهوره يبلغ حدته أثناء عصور من الكوارث . وقد جرب العديد من الرؤساء السياسيين الحصول على السلطة (وحصلوا عليها في كثير من المرات) باعلانهم انفسهم أنهم المهدي^(١٩) .

٢٧٥ - صوفية ، وباطنية وتجارب صوفية .

إن الصوفية تمثل البعد الصوفي للإسلام الأكثر بروزاً وهي واحدة من أكثر التقاليد أهمية للباطنية الإسلامية . إن الاشتقاق اللغوي للإسم العربي (صوفي) يبدو مشتقاً من الصوف ، اشارة لرداء الصوف الذي يرتديه المتصوفون . وقد انتشر هذا المصطلح بدءاً من القرن (٩/٣) . وحسب التقليد ، فإن الأسلاف الروحانيين للصوفية كانوا من صحابة محمد ، وعلى سبيل المثال سلمان الفارسي ، الحلاق الفارسي الذي سكن منزل الرسول وأصبح نموذج التبني الروحي والمسارعة الصوفية . (وايس الكاراني) الذي اثنى محمد على ورعه^(٢٠) .

ولا يعرف سوى القليل عن الاتجاهات التنسكية^(٢١) . ولكنها تتحقق على الأرجح تحت حكم أسرة الأمويين . ففي الواقع ان عدداً كبيراً من المؤمنين خاب أملهم بعدم المبالاة الدينية من الخلفاء الذين شغلهم التوسع المستمر لامبراطوريتهم فقط^(٢٢) .

وأول صوفي متنسك هو الحسن البصري (م. ٧٢٨/١١٠) المشهور بتقواه وبحزنه العميق ، لأنه كان يعتقد دائماً بيوم الدينونة . وهناك حالم آخر ، ابراهيم بن أدهم المشهور بتعريفه لمظاهر الزهد الثلاثة : (١) التنازل عن الدنيا . (٢) عن سعادة معرفة ترك الدنيا ، (٣) التحقيق بالتمام لترك أهمية العالم الذي لن ينظر اليه^(٢٣) .

ورابعة (م ٨٠١/١٨٥) وهي أمة اعتقت من قبل سيدها ، وأدخلت في الصوفية الحب المطلق لله وبدون مقابل . فالحبيب لا يجوز ان يفكر لا في الجنة ولا في النار ، ورابعة هي الأولى بين الصوفيات التي تكلمت عن غيرة الله . «يا أملي ، يا راحتي يا سعادتي ، ان القلب لا يستطيع حب واحد آخر غيرك»^(٢٤) . وقد أصبحت الصلاة بالنسبة لرابعة محادثة حب طويلة مع الله^(٢٥) . مع ذلك وكما اشار إليه الباحثون المحدثون^(٢٦) . فإن جعفر الصادق رابع امام (٧٦٥/١٤٥) وواحد من كبار معلمي الصوفية القديمة ، كان قد عرّف التجربة الصوفية بعبارات حب الهي «نار إلهية تفترس الانسان تماماً» الأمر الذي يبرهن على التضامن بين الشيعة وأول مظهر للصوفية .

وفي الواقع ، ان البعد الباطني الاسلامي ، للتمييز للشيعة ، كان بدئياً متماهياً في السنة مع الصوفية . وحسب رأي ابن خلدون «ان الصوفيين اعتمدوا النظريات الشيعية» . كذلك فإن الشيعة اعتبروا نظرياتهم كمصدر الهام للصوفية^(٢٧) .

وعلى كل حال فإن التجارب الصوفية والغنوصيات التيوصوفية تسربت بصعوبة في الاسلام الأصولي ، فالمسلم لم يجرؤ على ادراك علاقة صميمية، واقعة حب روحي مع الله . فقد كان يكفيه التسليم لله ، واطاعة الشريعة ، وإتمام تعليمات القرآن بواسطة السنة . وإن العلماء الأقوياء بثقافتهم الدينية ومهارتهم بالاجتهاد ، كانوا يعتبرون وكأنهم الرؤساء الدينيون الوحيدون للجماعة . وعليه فإن الصوفيين كانوا بعناد كبير ضد العقلانيين ، وبالنسبة لهم ، ان المعرفة الحقيقية الدينية قد تم الحصول عليها بتجربة شخصية ، موصلة لاتحاد موقت مع الله . إن نتائج التجربة الصوفية في نظر العلماء ، والتفسيرات المقدمة من الصوفية ، كانت تهدد حتى اسس الفقه الأصولي .

ومن جهة اخرى ، فإن طريق الصوفية يقتضي بالضرورة (تلامذة) ، مع لزوم تكريسهم وطول تدريبهم من قبل معلم . وان هذه العلاقة الاستثنائية بين المعلم

وتلامذته وصلت سريعاً لتمجيد الشيخ وعبادة القديسين . وكما يكتب الهجويري «إعلم ان مبدأ وأساس الصوفية ، ومعرفة الله ، تعتمد على القداسة» (٢٨) .

ان هذا التجديد أقلق العلماء ، ولم يكن هذا فقط لأنهم رأوا سلطتهم مهلدة أو متجاهلة . وبالنسبة للفقهاء الأصوليين ، فإن الصوفيين كانوا متهمين بالهرطقة . وعليه ، وكما سنرى يمكن الكشف في الصوفية التأثيرات المعتبرة كأنها نجسة ومدنسة - من الافلاطونية المحدثه ، والغنوصية والماتوية . وباتهامهم بالهرطقة ، فإن بعض الصوفيين - مثل المصري (ذي النون) (م ٢٤٥/٨٥٩) والنوري م ٢٩٥/٩٠٧ - قد أتهموا أمام الخليفة . وان المعلمين الكبار ، الحلاج والسهر وردي انتهوا باضطهادها وقتلها (ف ٢٧٧ و ٢٨٠ع) ، الأمر الذي اكراه الصوفيين لإيصال تجاربهم ومفاهيمهم لتلامذة موثوقين فقط وضمن نطاق ضيق من المريدين .

ومع ان الحركة استمرت بالتصاعد ، لأنها استجابت لارضاء «الغرائز الدينية للشعب ، غرائز هي في قسم منها مجملة بالتعليمات المجردة وغير الشخصية للأصوليين ، والذين وجدوا عزاء لهم في التقريب الديني الاكثر شخصانية والهيجاني للصوفيين» (٢٩) . وفي الواقع . وخارج التعليم التلقيني المساري المحفوظ به للتلامذة ، فإن معلمي الصوفية شجعوا (الانغام الروحانية) العامة . فالاناشيد الدينية ، والموسيقى الآلاتية (نابي القصب صنوج ، طبول) والرقص المقدس ، والترديد المستمر لاسم الله (ذكر) كانت تؤثر في الشعب اكثر من النخبة الروحية . وسنؤكد فيما بعد على رمزية ووظيفة الموسيقى والرقص المقدس (ف ٢٨٢ع) . وإن الذكر يشابه صلاة المسيحيين الشرقيين التي تحللت بترداد مستمر لاسم الله أو يسوع (٣٠) .

وكما سنرى (ف ٢٨٣ع) فإن تقنية الذكر (كما هو في تطبيقات الهيزياست hesychaste تقدم منذ بداية القرن الثاني عشر عملية مورفولوجية معقدة جداً ومدخلة (فيزيولوجيا صوفية) وطريقة من نموذج يوجي (أوضاع جسدية مميزة ، وممارسة للشهيق . ومظاهر صبغية ، لونية وسمعية . الخ . الأمر الذي يجعل من المسلم به وجود التأثيرات الهندية .

وخلال مجرى الزمن ، ومع بعض الاستثناءات ، فإن الضغط الممارس من قبل العلماء قد زال نهائياً . وحتى الأكثر عداوة بين المضطهدين انتهوا إلى الاعتراف بالمساهمة الاستثنائية للصوفيين في الانتشار وفي التجديد الروحي للإسلام .

٢٧٦ - بعض اعلام الصوفية ، من ذي النون حتى الترمذي

إن ذا النون المصري / م ٢٤٥ - ٨٥٩ / سبق ان أخفى تجاربه الصوفية «يا الهي ! علنا أدعوك «سيدي» . ولكن عندما أكون لوحدي ادعوك «يا حي» ! وحسب التقليد فإن ذا النون كان أول من صاغ التعارض بين المعرفة الحدسية (التجربة) intuitive لله والعلم الاستدلالي (غير حدسي) discursive . «مع كل ساعة تمضي يصبح العارف (الغنوصي) أكثر توةاضعاً ، لأن كل ساعة تقربه أيضاً أكثر ، من الله [...] ان العارفين ليسوا ذاتهم ، وإنما في المقياس الذي يوجدون في الله . إن حركاتهم مثارة من قبل الله . وكلامهم هو الكلمات التي نطقها الله بلسانهم»^(٣١) .

وتقتضي الإشارة هنا إلى عبقرية ذي النون . حيث ان تراتيله الممجدة لعظمة الرب افشحت التقييم الصوفي للشعر .

والفارسي ابو يزيد البسطامي (م ٤٦ / ٨٧٤) هو واحد من الصوفية الذين كثر معارضوهم ومتقلبوهم في الاسلام . وهو لم يكتب كتابا ولكن تلامذته نقلوا ما هو اساسي في تعاليمه تحت شكل قصص صغيرة وحكم . ويتنسكه القاسي بخاصة ، وتأمله المركز على جوهر الله ، حصل البسطامي على (الفناء) ، انعدام الذات الذي كان أول من صاغه ، تماماً كما كان أول من وصف تجاربه الصوفية في عبارات من المعراج «الصعود الليلي لمحمد (ف ٢٦١ع) . ولقد حقق «التوحد» أقله موقتا ، كما أعتقد ،

الوحدة المطلقة بين المحبوب والمحِب والحب . وفي انتشاء تلفظ البسطامي بـ «تعاير طوباوية locutions théopathiques» ومتكلما كما لو أنه إله . «كيف وصلت إلى هنا؟- انني متجرد من ذاتي ، كحية تسليخ جلدها . ثم تأملت

جوهري . وكنت انا ، هو !» أو ايضاً : «ان الله راقب كل الضمائر في العالم . ورأى أنها فارغة منه ، ما عدا ضميري حيث يرى نفسه في طوي» (٣٢) .

لقد فسر المستشرق زهر Zehner ، بعد مستشرقين آخرين ، تجربة البسطامي الصوفية كمحصلة لتأثير هندي ، وبصورة دقيقة تأثير القيد انتاشاتكريان (٣٣) . ومع رؤية الأهمية المعطاة للتنسك ولتقنيات التأمل ، يرد التفكير في اليوغا . ومهما يكن من أمر ، فإن بعض معلمي الصوفية شككوا في أن البسطاني حقق الاتحاد مع الله . وحب الجنيد «لقد بقي في البدء ، إنه لم يدرك حالة التمام او المطلق والنهاية» . والحلاج اعتقد بوصوله إليها «الوصول لعتبة الصيغة الالهية» وظن انه «من الله اتته هذه الكلمات» ؛ ولكن الطريق كان مرصوفاً بالعقبات من (أناه) son moi . «مسكين ابو يزيد» لقد قال ، إنه لا يعلم التعرف أين وكيف يجب توحيد الروح مع الله (٣٤) .

وابو القاسم الجنيد (من ٢٩/٩١٠) كان المعلم الحقيقي لصوفية بغداد . وقد ترك العديد من الرسائل في اللاهوت والتصوف ، والشمينة بخاصة من أجل تحليل التجارب الروحية المتوجبة لامتناسخ الروح في الله . ويشير الجنيد في تعليمه لأهمية القناعة التي يضعها في مقابل السكر الروحي المطبق من قبل البسطامي . وبعد التجربة الوجدية التي تعدم الفرد ، يقتضي الحصول على (الزهد الثاني) عندما يرجع الانسان واعياً لذاته وتعاد اليه صفاته . متحولاً الى روح في حضرة الاله . والهدف الغائي للتصرف ليس هو «الفناء» وانما حياة جديدة في الله (البقاء) «هو الذي يبقى» .

وان الجنيد وهو مقتنع بأن التجربة الصوفية لا يمكن صياغتها في لغة عقلية ، حظر على تلامذته الكلام أمام غير المسارين (وهذا من أجل حصول الموافقة على هذه القاعدة التي رفعها الحلاج) . إن رسائله ومحركاته دونت في نوع من (اللغة السرية) غير مفهومة للقاريء الغير متألف مع تعليمه (٣٥) .

وهناك معلم إيراني آخر ، حسين الترمزي (م ٢٨٥/٨٩٨) لقب بالحكيم (الفيلسوف) لأنه ، الأول بين الصوفيين ، استعمل الفلسفة الهيلينية . انه مؤلف غزير الانتاج (نحواً من تسعين كتاب) . وقد عرف الترمزي بصورة خاصة في «خاتم الولاية» (٣٦) . وقد طُوّر فيه لغة الصوفية كما استعملت منذئذ . ان زعيم التراتبية

الصوفية هو «القطب» أو «الغوث». ولا تشكل درجات القداسة التي وصفها (تراتبية للحب) ، انها ترجع للعرفان واشراقات القديس . ومع الترمذي ، يصبح التأكيد على العرفان اكثر وضوحاً مهيباً هكذا الطريق إلى تعليمات دينية صوفية متأخرة^(٣٧) .

لقد أكد الترمذي بملاءمة على معنى الولاية «الحب الالهي» مسارة روحية . وميز فيها بين درجتين : ولاية عامة معطاة لكل المؤمنين ، وولاية خاصة ، محفوظة لنخبة روحية «خلص لله» ، يتعاملون ويتواصلون ، معه ، لأنهم معه في حالة اتحاد فعال ومتصاعد . وعليه يلاحظ هنري كوربان «أن المعنى للولاية المزدوجة هو في المحل الأول قد وضع وأقيم بواسطة النظرية الشيعية»^(٣٨) . وتحليل علاقات الولاية والنبوة يستخلص الترمذي سيادة الأولى ، لأنها دائمة وليست مرتبطة بلحظة تاريخية كالنبوة . وفي الواقع ، فإن دورة النبوة تكتمل مع محمد ، بينما دورة الولاية تتمدد لآخر الزمان^(٣٩) .

٢٧٧ - الحلاج ، الصوفي والشهيد

ولد الحلاج في ٨٥٧/٢٤٤ في الجنوب الغربي من ايران (حسين بن منصور) وتلقى تعليمه من معلمين روحيين قبل ان يلتقي في بغداد ، مع الشيخ الشهير الجنيد ويصبح تلميذهم (في ٨٧٧/٢٧٤) . وحج الحلاج إلى مكة حيث مارس الصوم والصمت وعرف انتشاءاته الصوفية الأولى . «مزجت روحي بروحه مثل مزج المسك بالعنبر والخمر مع الماء الزلال»^(٤٠) . ويعودته من الحج ، أبعد من قبل الجنيد ، وقطع العلاقات مع غالبية الصوفيين في بغداد ، وترك المدينة خلال سنة . وعندما بدأ أول تبشيره السياسي فيما بعد ، لم يثر التقليديين فحسب ، وإنما الصوفيين أيضاً الذين اتهموه بكشف (الاسرار) ، لغير المتلقين . وقد اتهم كذلك «بصنع معجزات» (كالانبياء) لمعارضة شيوخ آخرين لم يظهروا قدرتهم إلا للمتلقين . وعندئذ طرح الحلاج ثياب التصوف ، لكي يختلط بحرية مع الشعب^(٤١) .

وقد اكمل الحلاج حجه الثاني مصحوباً بـ ٤٠٠ من تلامذته في ٩٠٠/٢٩١ . وذهب بعدئذ في سفره طويلة إلى الهند والتركستان وحتى حدود الصين . وبعد الحج

الثالث لمكة ، حيث بقي ستين ، استقر الحلاج نهائياً في بغداد (٩٠٥/٢٩٤) ونذر نفسه للتبشير العلني [ماسينيون - عشق الحلاج] لقد أعلن ان الهدف الكامل لكل كائن بشري هو الاتحاد الصوفي مع الله ، المنجز بالحب (عشق) وفي هذا الاتحاد تقديس وتوَله أفعال المؤمنين . وفي حالة وجد تلفظ بالكلمات الشهيرة - «أنا الحقيقة = (الله) - والتي سببت له الادانة . وهذه المرة ، أثار الحلاج فقهاء الشريعة ووحدهم ضده (الذين اتهموه بالاحاد) واثار السياسيين (الذين اتهموه باثارة الاضطراب في المجتمع) ، واثار الصوفيين ايضاً . وما يدعو إلى الدهشة ، هو رغبة الحلاج بأن يموت ملعوناً anath ème . «مريداً تحريض المؤمنين لانتهاء هذه الفضيحة لانسان يتجاسر بالقول انه توحد مع الألوهية ، لتقتله ، وهتف فيهم ، في الجامع المنصور «إن الله أحل لكم دمي : فاقتلوني . . . لا يوجد واجب في الكون بالنسبة للمسلمين اكثر من إمامتي»^(٤١) .

إن هذا التصرف الغريب من الحلاج يذكر بالملاماتية* . وهم جماعة من الخالمين الذين من أجل عشقهم لله ، بحثوا عن الملامة من رفاقهم . انهم لم يرتدوا التصوف ، وتعلموا اخفاء تجاربهم الصوفية ، وما هو اكثر من ذلك ، حرصوا المؤمنين ، بسلوكهم المنحرف والكافر بشكل واضح^(٤٢) . وهذه الظاهرة كانت من جهة اخرى معروفة عند بعض الرهبان المسيحيين في الشرق بدءاً من القرن السادس ولها ميثلاتها في الهند الشمالية .

وقد اوقف الحلاج في ٩١٥/٣٠١ وأودع في السجن لمدة تسعة أعوام^(٤٣) ثم اعدم في ٩٢٢/٣٠٩ وقد روى بعض الشهود أنهم سمعوا هذه الكلمات الأخيرة من هذا المعذب «إن هذا يكفي للوجد ، عندما وحدانيته فيه هي الوحيدة لتشهد لنفسها» (كلمة فكلمة : «أن ما يحسب ، بالنسبة للانتشائي هو أن الواحد يرجعه للوحدة»^(٤٤) .

إن عمله المكتوب حفظ في قسم منه فقط ؛ مقاطع من تفسير القرآن ، وبعض الرسائل ، وعدد من الحكم والقصائد . وكتاب صغير (كتاب الطواسين) يعالج فيه الحلاج الوحدة الالهية وعلم النبوة^(٤٥) . والقصائد مشبعة بخنين حاد للاتحاد الكامل

* - الملامتية : هم الذين لم يظهر على ظواهرهم مما في بطونهم أثر البتة . . الخ .

بالله . وتصادف أحيانا عبارات مستعارة من العمل الكيميائي أو رجوع للمعنى السري للأحرف الهجائية العربية .

ومن كل هذه النصوص ومن بعض الشهادات ، التي احصاها ونشرها وحللها بطريقة وافية لويس ماسينيون ، يستخلص سلامة ايمان الحلاج وتمجيده للرسول . فطريقة الحلاج لا ترمي لتحطيم الشخصية البشرية ، الا انه بحث عن المعاناة بهدف معرفة «الحب المشبوب العاطفة» (العشق) واذن جوهر الله وسر الخليقة . ان العبارة «أنا الحقيقة» لا تقتضي الالحاد ، مطلقاً ، (كما اتهمه بعضهم بذلك) ، لأن الحلاج أشار دوماً لتساعد الله . وانه في تجارب وجدية نادرة فقط ، تستطيع روح المخلوق ان تكون موحدة مع الله^(٤٧) .

إن مفهوم (الاتحاد المتحول) المعلن من قبل الحلاج جرى تلخيصه بدقة من قبل لاهوتي خصم رغم تقديمه له بنية سيئة . فبحسب قول هذا اللاهوتي ، إن «الحلاج قال : إن الذي يروض جسده باطاعة الشعائر . يشغل قلبه بأعمال فارغة ، ويعاني من الحرمان من اللذات ويمتلك روحه بالامتناع عن الرغبات - سيرتفع بنفسه هكذا حتى محطة «أولئك المقربين» من الله) . وتبعاً لهذا ، لا يتوقف عن هبوط درجات المسافات ، حتى تصبح طبيعته مطهرة من كل ما هو جسدي . ومن ثم [...] تنزل به هذه الروح من الله ، التي منها ولد يسوع ، ابن مريم . وعندئذ يصبح «ذلك الذي يطيعه كل شيء (مطاع)» ، انه لا يريد شيئاً سوى ما يضعه أمر الله موضع التنفيذ ، فكل تصرف منه منذئذ هو تصرف الله ، وكل أمر منه هو أمر الله»^(٤٨) .

وبعد استشهاد الحلاج ، لم تكف قداسته عن التنامي في كل مكان من العالم الاسلامي^(٤٩) . كذلك فإنه كان من المهم جداً تأثيره بعد الوفاة ، على الصوفيين وعلى بعض العلوم الدينية الصوفية .

٢٧٨ - الغزالي والتوفيق بين علم الكلام والصوفية

إن مقتل الحلاج ، كان له بين نتائج اخرى ، نتيجة الزمت الصوفيين على البرهان ، في مظاهرم العامة انهم لا يناقضون ابدأ التعاليم الأصولية ، وقد موّه

بعضهم تجاربه الصوفية وأفكاره اللاهوتية في سلوك شاذ . وتلك كانت حالة الشبلي (٢٤٧/٨٦١ - ٣٣٤/٩٤٥) مثلاً . الصديق الذي سأل الحلاج المعلق على المشتقة حول معنى الوحدة الصوفية . والذي عاش بعده ٢٣ سنة ، وليبدو مضحكاً قارن الشبلي نفسه بعلجوم .

ويتناقضاته ويوحه بعواطفه الشاعرية ، وفر لنفسه «إمتياز حصانة» (ماسينيون) . وقد قال : «من يجب الله من أجل افعاله من النعمة فهو مشرك» . وطلب الشبلي مرة من تلامذته ، ان يتركوه ، لأنهم اينما وجدوا ، سيكون معهم وسيحميمهم^(٥٠) .

وهناك صوفي آخر ، العراقي (النفري) (م ٣٥٤/٨٦٥) الذي استعمل كذلك التناقض وانما متجنباً حذلقه الشبلي . وعلى الأرجح ، كان أول من أعلن ان الصلاة هي عطاء إلهي . «إنني أنا الذي أعطي ، اذا لم أجب على صلاتك ، فلن أحضك للبحث عنها»^(٥١) .

وفي القرن التالي بعد مقتل الحلاج ، أظهر عدد من المؤلفين المذهب والممارسات الصوفية . ولتأخذ النظرية ، التي أصبحت تقليدية ، للمقامات والأحوال والطريقة . ويميز هنالك ثلاث مراحل اساسية : مرحلة المريد (المبتديء) ومرحلة المتقدم (الصالح) ومرحلة (الكامل) . فبناء على نصيحة شيخه يجب على المبتديء تطبيق تمارين تقشفية عديدة ، مبتدئاً مع التوبة ، ومنتهايا بالقبول الصادق لكل ما يحصل له . ويشكل التنسك والتعليم معركة داخلية مراقبة بعناية من قبل المعلم . وفي حين ان المقامات (محطات) هي النتيجة لجهد شخصي فإن (الأحوال) هي منحة غنائية من الله^(٥٢) .

ويقتضي التذكير بأنه في القرن ٩/٣ ، كان الصوفي المسلم يعرف ثلاث نظريات عن الاتحاد الالهي . «الاتحاد مفهوم : أ) كاتصال أو وصال يستبعد فكرة وحدة الروح والله ؛ أو ب) كاتحاد الذي يكشف بذاته معنيين مختلفين : احدهما ، مرادف للسابق ، والثاني مثير لاتحاد في الطبيعة ؛ أو ج) كحلول : روح الله تسكن بدون اختلاط الطبيعة الروح المطهرة للصوفي . ولم يقبل فقهاء الاسلام الرسمي سوى الاتحاد بمعنى الاتصال (أو مماثلة المعنى الأول للاتحاد) ، ولكنهم رفضوا بحماس ، كل فكرة للحلول»^(٥٣) .

وبحق فإن اللاهوتي الشهير الغزالي، هو الذي بفضل احترامه، نجح في ان يجعل الصوفية مقبولة من الأصوليين (الارثوذكس). لقد ولد في فارس الشرقية (١٠٥٩/٤٥١) ودرس (ابو حامد الغزالي) علم الكلام وأصبح مدرساً في بغداد . واتقن فيما بعد طرائق الفارابي وابن سينا المستوحاة من الفلسفة اليونانية . وذلك كي يستطيع نقدها ولطرحها في رفضه للفلسفات^(٥٤) . وعلى اثر ازمة دينية . ترك الغزالي التعليم في ١٠٧٥ وسافر إلى سورية ، وزار القدس وجزءاً من مصر . ودرس اليهودية والمسيحية ، وقد تعرف الباحثون في فكره الديني على بعض التأثيرات المسيحية . وخلال سنتين من وجوده في سورية ، اتبع طريق الصوفية ، وبعد غياب عشر سنوات رجع الغزالي إلى بغداد واستعاد ، التعليم ، لوقت قصير . الا أنه انتهى بالانسحاب مع تلامذته إلى مسقط رأسه حيث أسس مدرسة وديراً للصوفيين . وقد جعلته مؤلفاته الكثيرة مشهوراً منذ زمن طويل ، ولكنه استمر في الكتابة . وكان موضع احترام مجمع عليه ومات في ١١١١/٥٠٥ .

من غير المعروف من هو الذي كان الدليل الروحي للغزالي، وماهو النموذج للتلقين الذي تلقاه . ولكن مما لا شك فيه انه على أثر تجربة صوفية اكتشف عدم كفاية اللاهوت الرسمي (علم الكلام) . وكما كتب بدعابة : «اولئك الذين هم علماء باحثون في بعض اشكال نادرة من الطلاق ، لا يستطيعون ان يقولوا لك شيئاً في موضوع الاشياء الأكثر بساطة للحياة الروحية مثل معنى الاخلاص تجاه الله أو الثقة به»^(٥٥) . وبعد اعتناقه للصوفية وتكريسه متصوفاً ، عرف الغزالي ان تعليم الصوفيين لا يجب ان يبقى سراً ، محصوراً بنخبة روحية ، ولكن ان يصبح مقبولاً من كل المؤمنين .

إن رسمية ونشاط تجربته الصوفية^(٥٦) أقرتا في كتابه الأكثر أهمية (احياء علوم الدين) . انه يتعلق بمجموع من اربعين فصلاً ، درس فيها الغزالي تباعاً المسائل الشعائرية ، والعادات ورسالة النبي «الأشياء التي تقود للهلاك» والأشياء التي تقود للخلاص . وفي هذا القسم الأخير نوقشت بعض مظاهر الحياة الصوفية . ومع ذلك ، جهد الغزالي للحفاظ دائماً على الوسط الصحيح مكماً الشريعة والسنة بتعليم الصوفية ، ولكن بدون ان يعطى الأفضلية للتجربة الصوفية . ويفضل هذه الوضعية تبنى علماء اللاهوت الأصوليون احياء علوم الدين فحصل على سلطة لا مثيل لها .

إن الغزالي كمؤلف موسوعي غزير المادة ، كان ايضاً مجادلاً كبيراً . وقد هاجم الاسماعيلية بدون انقطاع كما هاجم الاتجاهات الغنوصية ، ومع ذلك فإنه في البعض من كتاباته ، يستوحى تعاليمه الصوفية حول النور بنية غنوصية .

وحسب رأي عدد من العلماء ، فإن الغزالي قد خاب في قده (اعادة احياء الفكر الديني للاسلام . «مهما كان متألقاً ، فإن تقدمته لم تفلح ابدأ بمنع تصلب المفاصل الذي سيجمد إلى قرنين أو ثلاثة تالية الفكر الديني الاسلامي»^(٥٧) .

٢٧٩ - الميتافيزيقيون الأوائل ، ابن سينا ، والفلسفة في اسبانيا المسلمة .

إن ترجمات المؤلفات الاغريقية للفلسفة والعلوم ، هي التي اثارت ودعمت التفكير الفلسفي في الاسلام . فحول أواسط القرن ٩/٣ بدأت الكتابات المتعلقة مباشرة بافلاطون وأرسطو(المعروفة من جهة أخرى عبر تفسيرات افلاطونية محدثة) بدأت تطرح نفسها ، إلى جانب الخصومات اللاهوتية . إن الفيلسوف الأول الذي استمرت مؤلفاته بالحياة جزئياً هو أبو يوسف الكندي^(٥٨) (٧٩٦/١٨٥ - ٨٧٣/٢٦٠) تقريباً . وهو قد درس لا الفلسفة الاغريقية فحسب ، وانما العلوم الطبيعية والرياضيات . وقد اهتم الكندي باثبات الامكانية والصحة لمعرفة بشرية صرفة . وبالتأكيد ، قبل معرفة نظام ما فوق الطبيعة . الموحى به من قبل الله لأنبيائه : ولكن الفكر البشري ، أقله من حيث المبدأ ، قادر على اكتشاف الحقائق المظهرة بوسائله الخاصة .

إن التفكير حول هذين النموذجين من المعرفة - بشرية (بخاصة تلك المطبقة من قبل القدماء) وموحى بها (بالقرآن ، بامتيان) - قد طرح على الكندي سلسلة من المسائل التي ستصبح اساسية في الفلسفة الاسلامية . ولنأخذ من بين أهمها : امكانية تفسير ميتافيزيقي (أي عقلي) للقرآن والسنة ؛ وتماهي الاله مع الكائن في ذاته والسبب الأول : والخلق المفهوم وكأنه نوع من سبب مفارق لاسباب طبيعية ، كذلك الأمر الصدور للأفلاطونيين المحدثين ، واخيراً خلود الروح الفردية .

وقد نقّش بعض هذه المسائل ووضع له حل بطريقة جريئة من قبل فيلسوف متعمق ، مزدوج بصوفي ، الفارابي (٢٥٠/٨٧٢ - ٣٧٩/٩٥٠) . فقد كان هو أول من جرّب تقريب التأمل الفلسفي والاسلام . وهو قد كان درس ايضا العلوم الطبيعية (كما قدمها ارسطو) ، والمنطق والتيلوجيا السياسية . وألف مشروع (المدينة الفاضلة) المستوحاة من افلاطون ووصف «الأمير» (النموذجي) جامعاً كل الفضائل البشرية والفلسفية ، «كإفلاطون مرتدياً عباءة الرسول محمد»^(٥٩) . ويمكن القول انه بواسطة اللاهوت السياسي ، اظهر الفارابي لخلفائه كيف يجب ان تعالج العلاقات بين الفلسفة والدين . إن ما وراثيته sa métaphysique مؤسسة على الفرق بين الجوهر والوجود للكائنات المخلوقة ، فالوجود هو محمول *predicat* * ، وهو عرض للجوهر . وبحق يذكر كوربان ان هذه الاطروحة كانت نقطة تحول في تاريخ الفلسفة الماورائية ، كذلك فإن هنالك نظرية أصولية اخرى تميزت بها فلسفة الفارابي وهي نظرية العقل وفيض العقول المتوجة وقوله «عن الواحد لا يصدر الا الواحد» . ولكن الفارابي اهتم بشغف بالصوفية ، وهو يستعمل في كتاباته كلمة الصوفية .

وكما يعترف ابن سينا ذاته ، فإنه بفضل كتاب الفارابي نجح في فهم ميتافيزيك ارسطو . وقد أصبح ابن سينا المولود في بخارى ٣٧٠/٩٨٠ مشهوراً في الغرب تحت اسم أفيسين Avicenne عندما ترجمت بعض كتبه إلى اللاتينية في القرن الحادي عشر . وإن نضجه وثقافته الشاملة لا مثيل لهما . إن قانونه الكبير قد ساد خلال قرون ميدان الطب في أوروبا ومازال له مكانه في الشرق . انه عامل لا يكل (تشير سيرته الذاتية إلى ان مؤلفاته بلغت ٢٩٢ عنواناً) ، وقد ألف ابن سينا ، من بين ما ألف شروحاً حول ارسطو ، ومدونه كتاب الشفاء ، وقد عالج الميتافيزيك ، والمنطق ، والفيزياء ، وبدون التكلم عن موسوعة ضخمة من عشرين جزءاً ، التي ، فقدت ، باستثناء بعض مقاطع منها ، عندما فتح محمود الغزنوي اصفهان . لقد كان ابوه واخوه اسماعيليين ، أما ابن

* محمول *Prédicat* : «محكوم بأنه موجود أو ليس بموجود لشيء آخر ويقابله موضوع» [ابن سينا] والمحمول عند المنطقيين هو المحكوم به في القضية الحملية دون الشرطية ، أما في الشرطية فيسمى تالياً ، ففي قولنا : زيد كريم ، زيد هو الموضوع ، وكريم هو المحمول . والموضوع والمحمول عند المنطقيين بمنزلة المسند والمسند إليه عند النحاة «قاموس الفلسفة .. صليبا جزء ٢ ص ٣٥٧»

سينا نفسه ، فكان يتمي حسب ، رأي كوربان ، على الأرجح ، للشيعية الأثني عشرية . وقد مات عن ٥٧ سنة في (٦٣٧/٤٢٨) بالقرب من (حمادا) حيث كان يصاحب أميره .

لقد تبنى ابن سينا وأطال في ميتافيزيك الجوهر التي اعتمدها الفارابي . فالوجود عنده هو نتيجة الخلق أي «العقل الأول - الالهي - يتأمل مبدأه ، ويتأمل ذاته بأنه واجب الوجود بغيره ، ويتأمل ذاته بأنه ممكن محض بذاته ، تلك الذات التي تظهر ، وهما ، كأنها خارجة عن نطاق المبدأ الأول . فيفيض بذلك عن تأمله الأول العقل الثاني . ويفيض عن تأمله الثاني النفس المحركة للفلك الأقصى ... الخ [كوربان] .

فتعددية الكائن تجري بسلسلة من الصدورات المتتالية ، من هذا العقل الأول .. فالنتيجة هي العقول العشرة وتراتبها (القرويين) وتراتب الانفس السهاوية ، التي ليس لها صفات وملكات حسية ، ولكنها تملك قوة المخيلة الصرف . ان لدى العقل العاشر الطاقة لكي يولد ، بدوره عقلاً ونفساً واحدة ، وانطلاقاً منه يتفجر الغيظ في كثرة الأنفس البشرية ، في حين تصدر المادة عن البعد الظلي ، تلك المادة التي تؤلف فلك ما دون القمر . هذا العقل العاشر هو العقل الفعال وهو الذي تصدر عنه النفوس البشرية^(٦٢) وهو الذي يعكس باشراف منه ، الافكار وصور المعرفة على الأنفس التي قيض لها ان تكتسب القدرة على مواجهته والإلتفات اليه . وبما أن الروح جوهر غير قابل للانقسام ، وغير مادي وغير قابل للفساد فإنها تستمر في العيش بعد موت الجسم .

وقد كان ابن سينا فخوراً لاستطاعته البرهان ، بأدلة فلسفية ، على خلود الأرواح الفردية ، مع انها مخلوقة . وبالنسبة له ، ان الوظيفة الاساسية للدين كانت ضمان سعادة كل كائن بشري . ولكن الفيلسوف الحق هو صوفي كذلك ، لأنه يكرس نفسه لحب الله ، ويفتش عن الحقائق الداخلية للدين . ويذكر ابن سينا في كثير من المرات عن مؤلفه حول (الفلسفة المشرقية) الذي لم يبق منه سوى مراجع موجزة ، وكلها تتعلق تقريباً بالوجود بعد الموت . وهذه التجارب الرؤوية تشكل المادة لثلاثة قصص صوفية تتعلق بسفر وجدي نحو مشرق صوفي ، منجز تحت توجيه الملاك الاشراقي وتلك نغمة سيأخذ بها السهر وردي (ف ٤٢٨١) .

إن قيمة هذا المؤلف تجبرنا للمرور بسرعة على فلاسفة وصوفية الأندلس . ونذكر منهم ابن ما صاراً (٢٦٩/٨٨٣ - ٣١٩/٩٣١) ، الذي في سفره إلى الشرق ، كانت له اتصالات مع الأوساط الباطنية وعلى اثر ذلك ، انسحب مع بعض التلامذة في تنسكية بالقرب من قرطبة . وإن ابن ما صار هو الذي نظم أول جمعية اخوية صوفية (وسرية) في اسبانيا المسلمة . وقد أمكن إعادة تكوين الخطوط الكبرى لمذهبه - الغنوصي والافلاطوني المحدث ، معاً ، وذلك بفضل المحاضر الطويلة التي عملها ابن عربي .

ودائماً في قرطبة حيث ولد ابن حزم (٤٠٣/١٠١٣ - ٤٥٤/١٠٦٣) وهو قانوني مفكر ، وشاعر ومؤلف تاريخ نقدي للأديان والأنظمة الفلسفية . وكتابه الشعري المشهور ، طوق الحمامة ، مستلهم من الأسطورة الافلاطونية المأدبة ، وقد لوحظت المشابهة بين نظريته عن الحب مع (العلم المفرح) لأول ثروبادور غليوم التاسع الاكيتاني^(٦٥) . وأكثر أهمية هي الرسالة حول الأديان والفلسفات . فقد وصف ابن حزم مختلف اشكال الشاكن والمؤمنين ، مؤكداً على الشعوب المالكة لكتاب موحى به ، وبخاصة حول اولئك الذين حافظوا بشكل جيد على مفهوم التوحيد الالهي والنص الأصلي للوحي .

والمفكر ابن باجة الذي عاش في القرن ١٢/٥ هو بصورة خاصة هام بالتأثير الذي مارسه علي ابن رشد والبير الكبير . وقد شرح عدة رسائل لأرسطو ، ولكن مؤلفاته الماورائية الأساسية بقيت دون اكمال . وتشير مع ذلك الى ان «المصطلحات التي لها اثار ابن باجة ، تلك هي ، المتفرد ، والغريب ، ليست سوى كلمات نموذجية للغنوص الصوفي في الاسلام»^(٦٦) . أما بالنسبة لابن طفيل القرطبي في القرن ١٢/٥ فقد طووع ذات الثقافة الموسوعية المطروحة في ذلك العصر ، ومع ذلك ، تعود شهرته إلى (قصة فلسفية مشهورة ، حي بن يقظان المترجمة للعبرية في القرن الثاني عشر ، ولكنها بقيت مجهولة من قبل المدرسين (السكولاستيك) اللاتين . وكمعاصر للسهروردي (ف ٢٨١ع) يرجع ابن الطفيل «للفلسفة الشرقية» إلى الحكايات التلقينية لابن سينا ويورد عمل روايته تبعاً في جزيرتين . الأولى مسكونة بجماعة تمارس ديناً خارجياً تماماً ، محكوماً بقانون صارم . ويقرر الحالم أبسال الهجرة لجزيرة مقابلة . فيصادف الساكن الوحيد حي بن يقظان ، وقد تلقى هذا الفيلسوف لوحده القوانين من

الحياة وخفايا النفس . ويعود حي وأبسال للجزيرة الأولى آمليين ايصال الحقيقة الالهية للبشر ، ولكنها يعرفان بسرعة ان المجتمع البشري غير قابل للشفاء فيعودان تنسكهما . «ان الرجوع لجزيرتهما هل يعني أن الصراع بين الفلسفة والدين في الاسلام ميؤوس منه وليس له مخرج أو نهاية ؟» (٦٧) .

٢٨٠ - آخر واكبر مفكري الاندلس : ابن رشد وابن عربي

إن ابن رشد المعتبر كأكبر فيلسوف مسلم تمتع في الغرب بشهرة استثنائية . وفي الواقع ان عمله محترم جداً . فهو قد شرح بذكاء حاد معظم مؤلفات أرسطو . ولا موجب هنا لتقديم الخطوط الكبرى لمنهجه . ويكفي ان نذكر بأن ابن رشد عرف الشريعة بشكل جيد ، واعتبر ان كل مؤمن ملزم بتطبيق المبادئ الأساسية للدين ، كما هي موجودة في القرآن والحديث والاجماع Consensus . ولكن أولئك الموهوبون بقدرات عقلية خارقة ، كان عليهم التزام باتباع علم أعلى ، أي دراسة الفلسفة . وليس للاهوتيين حق بالتدخل في هذا النشاط ولا تقييم نتائجه . ان اللاهوت (التيولوجيا) ضروري كمهنة وسيطة ، ولكنه يجب عليه دوماً ان يبقى تحت رقابة الفلسفة . ومع ذلك ، فلا الفلاسفة ، ولا اللاهوتيون يجب عليهم كشف التفسيرات للآيات الغامضة من القرآن إلى الشعب . «الأمر الذي لا يستدعي البتة (الحقيقة المزوجة) كما فسرها بعض اللاهوتيين الغربيين» .

إن ابن رشد المتمكن من هذا المبدأ ، انتقد بعنف وبدعابة كتاب (تهافت الفلاسفة للغزالي) (ف ٢٧٨ع) . وذلك بكتابه الشهير تهافت التهافت (réfutation de la réfutation) والمترجم إلى اللاتينية تحت عنوان (Destructiodes tructionis) . وقد برهن فيه على ان الغزالي لم يفهم المناهج الفلسفية وان استدلاله تفضح عدم كفاءته . وقد أظهر إضافة إلى ذلك التناقضات بين هذا العمل وبين كتابات أخرى لصاحب المصنفات الشهير .

كذلك فإن ابن رشد انتقد الفارابي وابن سينا ، متهما إياهما بتركها سنة الفلاسفة القدماء بهدف إرضاء الفقهاء . ولكنه وهو راغب باحياء كوزمولوجيا ارسططالية صرفة ، رفض ابن رشد علم الملائكية angealogie السينيوي ، أي تراتب الملائكة أو الأنفس السماوية Anima caelestes (عالم الملكوت) وانطلاقاً ، عالم الصور المفارقة التي تتركها ، على نحو خاص ، المخيلة النشيطة أو الخلاقة (ف ٢٧٩ع) . إن الصور غير مخلوقة بالعقل الفعال ، كما يؤكد ابن سينا ، وهي غير مفارقة لمادتها وليس العقل الفعال هو من يحلها في المادة ، بل ان المادة في ذاتها تحتوي بالقوة على كلية هذه الصور التي لا يحصرها عد وهذه الصور حالة بها كامنة فيها ، ولكن بما ان المادة هي المبدأ للتفرد ، فإن الفردي يتماهى بالقابل للفساد ، وبالتيجة فإن الخلود لا يمكن ان يكون سوى غير شخصي (أي لا يمكن ان يكون الا في نفس الجنس) . وهذه الاطروحة الأخيرة تثير انعكاسات لدى اللاهوتيين المسلمين كذلك اللاهوتيون الفلاسفة .

وقد رغب ابن رشد في التعرف على متصوف شاب ، ابن عربي ، وحسب شهادة هذا الأخير ، إنه خجل بتصوره لعدم كفاية منهجه الخاص . وابن عربي هو واحد من العبقریات الأكثر عمقاً بين الصوفيين وواحد بين الوجوه الأكثر تفرداً في التصوف العالمي . لقد ولد في ١١٦٥/٥٦٠ في مورسي ، ودرس كافة العلوم وسافر باستمرار من مراکش حتى العراق بحثاً عن الشيوخ والرفاق . وكانت له ، في وقت مبكر ، بعض التجارب الماورائية للطبيعة وبعض الكشوفات . وكان معلموه الأولون من النساء : شمس ، التي كان لها في ذلك الوقت ٩٥ سنة من العمر ، وفاطمة القرطبية^(٧٠) . وفيما بعد ، ويتواجهه في مكة ، صادف حفيذة شيخ . الفتاة الجميلة جداً ، فألف القصائد التي جمعت تحت عنوان (تفسير الرغبات) المستوحاة بحب صوفي متقد ، وقد اعتبرت القصائد كما لو أنها جنسية ، بكل بساطة ، مع انها تذكر فيها بعد بعلاقات داتني وبياتريس .

ومتأملًا ، بالقرب من الكعبة ، عرف ابن عربي عدداً من الرؤى الوجدية (من بينها رؤية ، «الفتوة الأبدية» والتي اقنع انها كانت «خاتم القداسة المحمدية» .

إن أحد كتاباته الأكثر أهمية ، هو كتاب صوفي من اثني عشر جزءاً سمي من جهة أخرى «الفتوحات المكية» . وفي ١٢٠٥ ، في الموصل كشفت له اسرار لثالث مرة . ولكنه بعد وقت قصير ، في القاهرة سنة ١٢٠٦ حصلت له مصاعب مع السلطات الدينية فعاود سفره مسرعاً لمكة . وبعد اسفار أخرى لم تضعف البتة ابداعيته العجيبة ومات ابن عربي في دمشق سنة ١٢٤٠/٦٣٨ عن خمسة وثمانين عاماً .

رغم وضع ابن عربي الاستثنائي في تاريخ التصوف والموراثية الاسلامية ، (يشير اليه الصوفيون وكأنه «الشيخ الأكبر») ، ومازال فكر ابن عربي مفهوماً بشكل سيء^(٧٢) . صحيح إنه كان يكتب بسرعة بالغة ، كما لو أنه مأخوذ بإلهام مما وراء الطبيعة - وإن واحداً من أبرز مؤلفاته (فصوص الحكمة) ترجم منذ زمن قريب للانكليزية ، وهو غني بملاحظات مبهرة ، الا أنه ينقصه بالكلية المخطط والدقة . وهذا التأليف السريع هو على الغالب ما يسمح لنا بفهم أصولية فكره وعظمة لاهوتيته الصوفية .

إن ابن عربي يعترف بأن «معرفة الأحوال الصوفية يمكن الحصول عليها بالتجربة فقط ، فالعقل البشري لا يستطيع تعريفها ، ولا الوصول إليها بالاستنتاج»^(٧٣) . ومن هنا كانت الضرورة للباطنية : «هذا النوع من المعرفة للروحانية يجب ان يستر عن اكثرية الناس بسبب سموها . لأن اعماقها صعبة الادراك والأخطار كبيرة»^(٧٤) .

إن المفهوم الأساسي لموراثية لصوفية ابن عربي هي وحدة الكائن ، وبدقة أكثر ، وفي آن واحد ، وحدة الكائن والادراك الحسي . وبعبارات أخرى ، ان الحقيقة الكلية غير مختلفة وتشكل طريقة التكوين الأولى للألوهية . وهذه الحقيقة الالهية المفعمة بالحب والراغبة بمعرفة ذاتها تنشق إلى : ذات «الذي يعرف» وموضوع «المعروف» . وعندما يتكلم ابن عربي عن الحقيقة في تعارض الوحدة والكائن ، يستعمل مصطلح «الحق» (بمعنى الحقيقي ، الصديق) . وعندما يتكلم عن الحقيقة المنقسمة إلى قطب روحي أو عقلي ، وقطب كوني أو وجودي يشير إلى الأول كالله أو الخالق والقطب الثاني كخلق أو كون . Cosmos^(٧٥) .

ولايضاح عملية الخلق هذه يستعمل ابن عربي بتفضيل فكرات من التخيل الخلاق والحب . فبفضل التخيل الخلاق ، تطرح الصور الخفية التي توجد في الواقع على الرداء الوهمي من الغيرية لدرجة ان الله يمكن ان يرى ذاته كموضوع^(٧٦) . وبالنتيجة فإن التخيل الخلاق يشكل خط الوصل بين الواقع بصفته ذاتها والواقع كموضوع للمعرفة . وبين الخالق والمخلوق . وان الموضوعات المدعوة للوجود بالتخيل الخلاق تعرف بواسطة الذات الالهية وان النغمة الثانية المستعملة لايضاح عملية الخلق هي قاعدة الحب ، أي الحنين لله ليكون معروفاً من قبل المخلوق . ويضيف ابن عربي بدياً عمل الولادة المكتملة بالحقيقة المنتجة . وكل الحب هو دائماً الذي يجمع الخلاق . وهكذا ، فإن انفصال الواقع إلى ذات الالهية وموضوع مخلوق يقود إلى اعادة التكامل في الوحدة البدئية المغتنية في هذه المرة بتجربة معرفة الذات^(٧٧) .

كل انسان بصفته مخلوقاً ، لا يمكن أن يكون ، في جوهره الخفي ، شيئاً آخر سوى الله ، ويصفته موضوعاً لعلم الله ، يساهم الانسان فيما يُعرف الله ذاته ، ويحصل هذا ، يساهم في الحرية الالهية^(٧٨) . والانسان الكامل يشكل «البرزخ isthme» بين قطبي الحقيقة . انه في آن واحد ذكر male ، أي ممثل للسماء ولكلام الله ، وامرأة ، بصفته ممثلة للأرض أو الكون Cosmos . ويجمعه في ذاته للسماء والأرض ، يحصل الانسان الكامل في ذات الوقت وحدة الكائن^(٧٩) . إن القديس يتقاسم مع الله القدرة للخلق (همه) ، أي انه يستطيع تحقيق صورته الداخلية الخاصة بموضوعها إذا لم يكن ذلك لأجل محمد^(٨٠) . ويضاف إلى ذلك بالنسبة لابن عربي ان الاسلام هو اساساً التجربة والحقيقة المعلومتين من قبل القديس الذي تكون وظائفه الأكثر اهمية هي وظائف النبي والرسول .

وابن عربي شأنه شأن اوريجين وجواشيم دي فلور وميتريكارث ، مع انه كان له تلامذة مؤمنون وقد يرون ، وكان محترماً من قبل الصوفية ، فهو لم ينجح في تخصيب وتجديد اللاهوت الرسمي . وخلافاً للمعلمين الثلاثة الكبار المسيحيين ، فإن عبقرية ابن عربي دعمت التقليد الباطني الاسلامي .

ولد شهاب الدين يحيى السهر وردى في ١١٥٥/٥٤٩ في سهر ورد مدينة في الشمال الغربي من ايران ، ودرس في اخريجان واصفهان ، وأقام ببضع سنوات في الأناضول ورجع بعدئذ لسورية ، وهناك أدين بدعوى رفعت ضده من قبل فقهاء الشريعة وقتل في ١١٩٠/٥٨٧ عن ستة وثلاثين عاما . وقد عرف من قبل المؤرخين باسم الشيخ (المقتول) وعرف من قبل تلامذته بالشيخ الشهيد .

ان عنوان مؤلفه الرئيس (حكمة الاشراق) ، يعرف المشروع الطموح للسهر وردى . وبخاصة إعادة تحيين الحكمة الايرانية القديمة والغنوصية الهرمسية . لقد كان ابن سينا تكلم عن حكمة او عن «فلسفة شرقية» (ف ٢٧٩ع) ، ولكن ابن سينا حسب رأيه لم يستطع تحقيق هذه (الفلسفة الشرقية) لأنه كان يجهل المبدأ (المصدر الشرقي ذاته) . «كان يوجد لدى قدامى الايرانيين - يقول السهر وردى - جماعة من الرجال الذين كانوا مهتدين بالله والذين مشوا هكذا في الطريق القويم ، طريق حكمة فلسفية ذكية ، بدون مشابهة مع المجوس . وان حكمتهم الثمينة للنور ، هي ذاتها التي شهدت التجربة الصوفية لإفلاطون ومن سبقه ، والتي أعدت احياؤها في كتابي المعنون (بالحكمة الشرقية) ولا يوجد لدي رواد على الطريق لمثل هذا المشروع»^(٨٢) .

إن عمل السهر وردى الواسع (٤٩ عنوانا) يستمد من تجربة شخصية ، «اهتداء متحصل في شبابه» . وفي رؤية وجودية ، اكتشفت كثرة من «الكائنات النورانية» التي كان يتأملها هرمس وافلاطون ، وهذه الاشعاعات السماوية منابع للنور (عظمة ، وسلطان النور التي اخبر عنها زرادشت ، وهي التي صوبها رفع افتتان روجي للملك المؤمن جدا والمبارك كاي خسرو»^(٨٣) . إنها (كيان خرة Raywa Kharreh) = نور العزة* . إن فكرة الاشراق (وهو اسم يعني السنن والبهاء واشراق الشمس عند

* كيان خرة - يقول زرادشت : «خرة» نور يسطع من ذات الله تعالى وبه يرأس الخلق بعضهم على بعض ويتمكن كل واحد من عمل أو صناعة بمعونته ، ومن يتخصص بالملوك الافاضل فهم يسمى كيان خرة (الفلسفة الاسلامية - كوريان)

طلوعها) تبدو على نحو ثلاثي : ١) فنستطيع ان نفهم منها الحكمة أو الحكمة اللدنية التي يشكل الاشراق أصلها باعتبار انه يمثل ظهور واشراق الكائن معا ، وفعل الوجدان الذين يكشف هذا الكائن ، وعندما يكشفه يقوده إلى الظهور ويجعل منه ظاهرة ، كذلك فإنه يعني في سماء الروح (المثالية) ، لحظة تجلي المعرفة .

٢) ومن هنا ، إلى مبدأ مؤسس على ظهور الانوار المعقولة ، وانسكاب مطالعها على الأرواح لدى مفارقة هذه الأرواح للجساد .

٣) ونستطيع ان نفهم بفلسفة الاشراق فلسفة تشير إلى حكمة الاشراقين أو المشرقين اللدنية ، أي حكمة حكماء فارس القديمة . هذا السناء (الفجري aurore) هو نور العزة ، الكزافناه في الابستاق (وفي الفارسية الحرة) وفي الفارسية القديمة فار ، فارة . وقد وضعها السهر وردي كاشعاع أبدي لنور الأنوار ، حيث يفيض أول رئيس للملائكة ، المعروف تحت الأسم الزارادشتي باهمان Bahman (فهو ماناه)* . وهذه العلاقة الازلية بين نور الأنوار والفائض الأول هي العلاقة النموذجية الأصلية بين المعشوق الأول والعاشق الأول وتوجد على كل درجات الوجود فتتظم الكائنات جميعها في ازواج وهكذا «توالد البعض من البعض الآخر باشعاعاتهم وأفكارهم ، فإن أقانيم النور تصل إلى ما لا يعد ويحصى . وثمة تنبؤ بأن هنالك عوالم لا تحصى وراء كرة الثوابت في علم الفلك (الهيئة) المشائي أو البطليموسي ، وهي مشعور بها بما لا يحصى من عوالم عجيبة» .

إن عالم الأنوار هذا معقد جداً لتقدمه هنا^(٨٤) . ونذكر فقط ان كل أنظمة الوجود الروحي وكل الحقائق الكونية مخلوقة وموجهة بانواع مختلفة من ملائكة صادرة عن نور الأنوار . ان علم الأكوان (الكوزمولوجيا) السهروردية متضامنة مع علم الملائكة angealgie وهي تعيد إلى الذاكرة المفهوم المزدكي لصنفي الحقائق - مينوك (سماوي - ناعم) وجيتيك (ارضي - كثيف) - والثنائية المانوية (ف ٢١٥ - ٢٣٣ - ٢٣٢ ع) . ومن الأربعة عوالم للكونية السهروردية تتناول الأهم من الملكوت (عالم الأرواح السهاوية والأرواح البشرية) ومن العالم الخيالي «عالم البرزخ بين العالم المعقول لكائنات من النور

* - بهمن (نُتِبَ ان اول حاصل بنور الانوار واحد ، وهو النور الاقرب والنور العظيم وربما سماه بعض الفهلوية (بهمن ، فالنور الاقرب فقير في نفسه غني بالاول) كوريان - ص ٣١٣ .

الصافي. والعالم المحسوس ، والعضو الذي يتبصره بذاته هو الخيال الفعال»^(٨٥) . وكما لاحظ هنري كوربان فإن «السهروردي هو الأول على ما يبدو الذي أقام انطولوجيا لهذه البرزخية ما بين العوالم ، وهذه الفكرة سيعاد أخذها وتوسيعها من قبل كل الغنوصيين والصوفيين المسلمين»^(٨٦) .

إن قصص التلقين أو المسارة الروحية المؤلفة من قبل السهروردي ، يمكن حل رموزها في المنظور لهذا العالم الوسيط . فهو يتعلق بأحداث روحية لها مكانها في الملكوت ، ولكنها تكشف عن الدلالة العميقة للمشاهد الخارجية الموازية . ان قصة المنفى الشرقي^(٨٧) . يشكل مسارة تقود المريد لمشرقه ، وبعبارة أخرى ، ان هذه القصة الملغزة والموجزة تساعد المنفى (الغريب) ليعود إلى وطنه . وبالنسبة للسهرودي وأصحاب الحكمة الشرقيين أو الأشرقيين ؛ فإن التفكير الفلسفي يمضي مصاحبا لتحقيقهم الروحاني ، فهم يجمعون طريقة الفلاسفة الباحثين عن المعرفة النقية وطريقة الصوفيين المتابعين للتطهير الداخلي^(٨٨) .

وتشكل التجارب الروحية للانتظام في البرزخ (العالم الوسيط) كما رأينا ، سلسلة من تجارب مسارية مثارة بالخيال الخلاق . ومع انه موجود على صعيد آخر ، يمكن مقارنة الوظيفة لهذه القصص المسارية بقصص روايات الغرال (ف ٢٧٠ع) ونذكر كذلك القيمة السحر - دينية لكل الأمثلة (ر. الحصيدية) ؛ ولنصف إلى ذلك ، انه كانت لدى الفلاحين الرومان قصة شعائرية للحكايات (اثناء الليل) تحمي المنزل ضد الشيطان والأرواح الشريرة ، وأكثر من هذا ايضا ، ان القصة توصل إلى حضور الله^(٨٩) .

ان هذه الاشارات المقارنة تسمح لنا بأن نفهم بشكل جيد ويآن واحد اصولية السهروردي والتقليد القديم الذي امتد به . ان التصور الخلاق ، الذي يجعل ممكنا اكتشاف ما بين العالم ، متضامن مع الرؤية الوجدية للشامان والالهام للشعراء القدامى . فمعلوم ان الملحمة وبعض نماذج حكايات الجنيات تشتق من اسفار ومغامرات وجدية في السماء . وبخاصة في الجحيم^(٩٠) . كل هذا يساعدنا على فهم دور الأدب القصصي من جهة في (التقيف الروحاني) ومن جهة أخرى النتائج ، بالنسبة لعالم الغرب في القرن العشرين لاكتشاف اللاوعي وديالكتيك التخيل .

وبالنسبة للسهروردي ، فإن الحكيم الذي يمتاز أيضاً بالفلسفة وبالتأمل الصوفي هو الرئيس الروحي الحقيقي ، القطب «فبدون حضور القطب لا يستطيع العالم ان يستمر في الوجود ، مع انه لا يكون الا مجهولاً ، مجهولاً تماماً من البشر» [كوربان - تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٣٠٠] . وعليه يلاحظ كوربان ، انه يتعرف هنا على واحدة من الأفكار الشيعية الرئيسية لأن «قطب الاقطاب» هو الامام . فوجود المجهول يقتضي المفاهيم الشيعية عن غيبة الامام ودورة الولاية . (النبوة الباطنية) الموروثة (لخاتم النبيين) . فيعرف اذن الاتفاق بين الحكماء الاشراقيين وبين الحكماء الشيعة .

«وهكذا - يقول كوربان ، ان فقهاء الشريعة في حلب ، لم يخطئوا ذلك أبداً ، فقد كان موضوع الدعوى التجرىمية في محاكمة السهروردي الموضوع الذي انتهى إلى الاعدام ، هو انه كان ينادي بأن الله يستطيع ان يخلق نبياً في الحال لوأراد ، أو في اي وقت يشاء ولكن المقصود هنا ليس النبي المشرع وانما النبوة الباطنية وهذا القول ينم عن فحوى شيعية . وهكذا فإن السهروردي عاش مأساة (الغربة الغريبة) حتى غايتها سواء في مماته أو في موته مستشهداً من أجل الفلسفة النبوية (كوربان - الفلسفة الاسلامية) . ومع ذلك فإن الخلف الروحي للسهروردي - الاشراقيون - مازالوا يعيشون ، أقله في ايران ، حتى يومنا هذا» (٩١) .

٢٨٢ - جلال الدين الرومي : موسيقى ، شعر ، ورقصات مقدسة

ولد محمد جلال الدين الرومي ، المعروف خاصة باسم الرومي ، في ٣٠ ايلول/١٢٠٤ في بلخ ، مدينة من خوراستان . وقد كان والده اللاهوتي والمعلم الصوفي ترك المدينة في ١٢١٩ خوفاً من غزو المغول وذهب حاجاً إلى مكة ، واستقر أخيراً في قونية . وبعد موت والده ، وكان عمر جلال الدين آنئذ ٢٤ سنة ، درس في حلب ودمشق . وبعد سبع سنوات ، عاد إلى قونية وفي ١٢٤٠-١٢٤٩ علم الاجتهاد والشرعية القانونية . ولكنه في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٩ وصل إلى المدينة شمس الدين التبريزي درويشاً هائماً وكان في الستين من عمره . وتشير بضعة نصوص إلى لقائهما .

وكل واحدة من اللقاءات تروي بطريقة مأساوية ، قلت أو كثرت ، قصة اهتمام الرومي : وبذلك أصبح القانوني واللاهوتي الشهير واحداً من كبار الصوفيين وربما الشاعر الأكثر عبقرية في الاسلام وقد سافر «شمس الدين المصطفي» من قبل تلامذة الرومي الذي حسدوه من هيمته على معلمهم إلى دمشق . ورضي بالرجوع ، إلا أنه في ٣ كانون اول ١٢٤٧ اختفى ، مغتالاً بشكل سري . وبقي الرومي لفترة طويلة حزينا . وقد ألف مجموعة من الأناشيد الصوفية التي تحمل اسم معلمه (ديوان شمس التبريزي) وهي «أناشيد جديرة بالتقدير والحب والأسى» ، وهي عمل ثمر مكرس بكامله لهذا الحب ، الأرضي في ظاهره ، ولكنه في حقيقته اقنوم للحب الالهي» (٩٢) .

واضافة إلى ذلك أن الرومي أسس النغم الروحي (الساما le Sama) على شرف شمس .

وحسب ولده (سلطان ولد) «ابدا ، لم ينقطع لحظة عن الاصغاء للموسيقى وعن الرقص ، وهو لم يسترح ليلاً ولا نهاراً ؛ لقد كان عالماً ؛ فأصبح شاعراً . وكان ناسكاً : فأصبح متشياً بالحب ، ليس من خمرة العنب : الروح المستتيرة لا تشرب الا من خمرة النور» (٩٣) . وحوالي نهاية حياته ، اختار الرومي حسام الدين الشلبي لادارة تلامذته . ويفضل الشلبي ، إلى حد كبير ، ألف المعلم مؤلفه الاساسي «المنوي» . وحتى موته في سنة ١٢٧٣ ، أملى عليه الرومي الثنائيات Distique (بيتان متكاملان في الشعر) ، أحياناً وهو ماشي في الشوارع ، أو حتى عندما يكون في حمامه . انها تتعلق بملحمة صوفية من خمسة وأربعين الف بيت تقريباً . محتدياً فيها نصوص القرآن والسنة النبوية ، وكذلك الأمر خرافات apologues وطرائف anecdotes واساطير وجمل من الفولكلور الشرقي والمتوسطي .

ولقد أسس الرومي أخوية صوفية (كونفريرية) ، الطريقة المولوية ، لأنه كان يدعى من قبل تلامذته ورفاقه مولانا (بالتurكية mevlana) . وعرفت الجماعة في الغرب تحت اسم «الدراويزش الدوارين tourneurs» لأنه أثناء حفلة الساما يدور الراقصون أكثر فأكثر سرعة على ذاتهم وحول القاعة . «في ايقاعات الموسيقى ، قال الرومي ، يختفي سر ؛ اذا كشفته فسيقرب الدنيا» . وفي الواقع ، ان الموسيقى توقف النفس جاعلة إياها تتذكر جزءها الحقيقي وتذكرها بنهايتها الأخيرة» (٩٤) . «كلنا نشكل جزءاً من جسد آدم -

يكتب الرومي . وأصغينا لهذه الأنغام في الجنة . ومع ان الطين والماء قد القيا الشك فينا ، فإننا لم نعد نتذكر سوى القليل»^(٩٥) .

وكالموسيقى والشعر المقدسين ، فإن الرقص الوجدي كان مطبقاً منذ بدايات الصوفية^(٩٦) وحسب بعض الصوفيين فإن رقصهم الوجدي كان يستسخ رقص الملائكة . وفي الطريقة المجددة من قبل الرومي (ولكن المنظمة بصورة خاصة من قبل ابنه سلطان ولد) ، فإن للرقص صفة هي كونية ولاهوتية معا . ويلبس الدراويش الثياب البيضاء (مثل الكفن) مغطاة بمعطف اسود (رمز القبر) ومعهم بقعة طويلة من اللباد (صورة الحجر القبرية)^(٩٧) ويمثل الشيخ البرزخ (الوسيط بين السماء والأرض . الموسيقيون يعزفون على الناي من قصب وقرعون الطبول والطبالات . وترمز الفرقة حيث يدور الدراويش إلى العالم ، والدراويش إلى الاجرام الدائرة حول الشمس وحول ذاتها . والطبول تذكر بالناقورات في الدينونة الأخيرة . ودائرة الراقصين مقسمة إلى نصف دائرة ، أحدها يمثل قوس الهبوط ، أو انغماس الأرواح في المادة ، والآخر قوس صعود الأرواح نحو الله»^(٩٨) . وعندما يصبح الايقاع سريعاً جداً ، يدخل الشيخ في الرقص ويدور في وسط الحلقة لأنه يمثل الشمس . «وهذه في اللحظة العليا للاتحاد المحقق»^(٩٩) . ويضاف إلى ذلك أن رقص الدراويش لا يصل الا فيما ندر إلى رعدات عاصبية وهذه فقط في بعض الاجزاء الهامشية .

إن دور الرومي في تجديد الاسلام لا حد له . فمؤلفاته قرئت وترجمت وفسرت من طرف لآخر من العالم الاسلامي . وهذه الشعبية الفريدة تثبت أيضاً مرة أخرى الأهمية للابداعية الفنية ، وبخاصة الشعر ، في تعميق الحياة الدينية . وكما هو لدى كبار الصوفية ، وانما مع حمية موله وقوة شعرية لامثيل لها ، لم ينقطع الرومي عن تمجيد الحب الالهي . «بدون الحب سيصبح العالم بدون حياة» [المثنوي ٧-٣٨] .

إن شعره الصوفي مغرق في رمزيات مستعارة من اجواء الرقص والموسيقى . وبالرغم من بعض التأثيرات الافلاطونية المحدثه ، فإن لاهوته معقد لحد كبير ، فهو في آن واحد شخص تقليدي ، وجريء . يصر الرومي على ضرورة الوصول أو ادراك

غير الكائن . لكي يستطاع الوصول والكيونة ، وهذا ما يحمل العديد من اشارات الحلاج^(١٠٠) .

إن الوجود البشري يتطور تبعاً لارادة ومخطط الخالق . فالانسان كان مكلفاً من قبل الله لأن يصبح الوسيط بينه وبين العالم . وليس من العبث ان الانسان قد «ذهب من البذرة حتى العقل» [مثنوى ٣-٩٧٥] «من اللحظة التي تأتي فيها إلى هذه الدنيا من الوجود ، هنالك سلم وضع امامك لكي يسمح لك بالهرب» . وفي الواقع إن الانسان كان في البدء معدنياً ، وبعد ذلك نباتياً ، ثم حيوانياً . «ثم تكونت انساناً موهوباً بالمعرفة ، والعقل والدين» وفي النهاية سيصبح الانسان ملاكاً ، وستكون اقامته في السماء . ولكن ليست هذه هي المحطة النهائية . «تجاوز حتى الشرط الملائكي ، ادخل في هذا المحيط (الوحدة الالهية) من أجل ان تستطيع قطرتك من الماء ان تصبح بحراً»^(١٠١) . وفي مقطع شهير من المثنوى [٢-٥٣] يوضح الرومي الطبيعة الأصلية التيومورفية théomorphique للانسان المخلوق على صورة الله : «صورتني تبقى في قلب المليك : قلب المليك سيكون مريضاً بدون صورتني [....] ، نور العقول يأتي من فكري ، والسماء خلقت بسبب طبيعتي الأصلية [....] أملك العرش الروحي [....] لست أبداً المجانس Congénère للمليك [....] ولكنني أتلقى منه نوره في ظهوره .

٢٨٣ - انتصار الصوفية وردة فعل اللاهوتيين ، الكيمياء

بعد أن حصلت الصوفية ، بفضل اللاهوتي الغزالي ، على رضى فقهاء الشريعة ، عرفت شعبية كبرى ، بدتياً في أقاليم آسيا الغربية وافريقيا الشمالية ، ثم في كل مكان دخل فيه الاسلام : في الهند ، واسيا الوسطى ، واندونيسيا ، وافريقيا الشرقية . ومع الزمن ، أصبحت الجماعات المحصورة من التلامذة العائشين حول شيوخهم منظمات حقيقية مع العديد من ابنائهم والمئات من الاعضاء . لقد كان الصوفيون افضل المبعوثين للاسلام . ويقدر جيب Gibb ان كسوف الشيعة كان نتيجة الشعبية والروح الارشالية للصوفيين^(١٠٢) . ومثل هذا النجاح يفسر احترامهم وحميتهم من قبل السلطات المدنية .

ان تسامح العلماء شجع استعارة مفاهيم غريبة واستعمال طرائق خارجية . وبعض التقنيات الصوفية تعمقت وتحورت باحتكاكها بالأوساط الدخيلة . ويكفي ان يقارن الذكر المطبق من قبل الصوفيين الأوائل (ف ٢٧٥ع) مع ذلك المحدث تحت التأثير الهندي بدءاً من القرن السابع ق.م . وحسب رأي أحد المؤلفين «لقد بدئت التلاوة بدءاً من الجانب الايسر (من الصدر) الذي هو كالوكر المحتوى على مصباح القلب ، موقد الصفاء الروحي . وتتابع (التلاوة) تماماً بالذهاب وبالاتقال من اسفل الصدر إلى الجانب الايمن ، وبالصعود إلى أعلى الصدر وتكمل بالعودة للوضعية الأساسية» .

وحسب قول مؤلف آخر ، ان الذكر يستوجب «الركوع على الأرض مع تصالب الفخذين ، ويلقى الذراعان حول الجنتين ، والرأس مطأطأ بين الركبتين والعينان مغمضتان . ويرفع الرأس قائلاً لا اله اثناء الزمن الذي يمر بين وصول الرأس إلى علو القلب ووضعه على الكتف الأيمن [...] . وعندما يصل الفم لمستوى القلب ، يقال بحدة الدعاة الا [...] . ويقال ، الله في مواجهة القلب ، الطريقة أكثر حدة»^(١٠٣) . ويتعرف بسهولة على المشابهات مع تقنيات اليوجا - التانتارية وبخاصة في الممارسات التي تثير ظواهر سمعية واستنارات مصاحبة معقدة جداً لا يمكن تقديمها هنا .

ان مثل هذه التأثيرات لا تغير ، أقله لدى الذاكرين الحقيقيين ، الخاصية الاسلامية للذكر . وربما كان العكس هو الذي يحصل . وكثيرة هي المعتقدات الدينية والطرائق التنسكية التي اغتنت باستعارات أو تأثيرات خارجية . وحتى يمكن القول بأنه ، تماماً كما في تاريخ المسيحية ، ساهمت هذه التأثيرات في (جعل الاسلام عالمياً) باعطائه بعداً مسكونياً . .

ومهما يكن من أمر ، فمن المؤكد ان الصوفية اسهمت بقوة في تجديد التجربة الدينية الاسلامية . وفيما يتعلق بالمعطى الثقافي للصوفية فإنه كان ملحوظاً . وقد اعترف في كافة البلاد الاسلامية بتأثيرهم في الموسيقى والرقص وبخاصة في الشعر^(١٠٤) .

غير ان هذه الحركة الظاهرة ، التي حافظت على شعبيتها حتى يومنا هذا^(١٠٥) كان لها ايضا نتائج معقدة في تاريخ الاسلام . فقد أصبحت خصومة العقلانيين لبعض

الصوفيين حادة أحياناً ، ومسبباتهم ضد الفلاسفة تقارب الغوغائية . ومن جهة أخرى ، فإن العنصرية الحادة ، والرعديات والوجديات اثناء الاجتماعات العامة توسعت . وإن غالبية المعلمين الصوفيين ناهضوا مثل هذه التمجيدات التي لا حد لها ، ولكنهم لم يستطيعوا تطويعها دائماً . وإضافة إلى ذلك ، فإن أعضاء بعض التنظيمات كتنظيم الدراويش المتجولين أو الفقراء تعلن عن قدرتهم على صنع المعجزات والعيش خارج القانون .

ومع ان العلماء قد اكرهوا على التسامح مع الصوفيين فإنهم استمروا بترصد العناصر الدخيلة وبخاصة الايرانية والغنوصية ، والتي ، عبر تعليم بعض معلمي الصوفية ، هددت حسب رأي فقهاء الشريعة ، وحدة الاسلام (لقد كان ، آنئذ كما هو الآن ، من الصعب بالنسبة للاهوتيين - وليس اللاهوتيين المسلمين فحسب - الاعتراف بالمساهمة الواسعة للصوفيين بتعميق التجربة الدينية في الوسط الشعبي ، بالرغم من المخاطرة بالهرطقة ، مخاطرة كانت قد وجدت من جهة اخرى ، بالنسبة للاهوتيين على كافة مستويات المعرفة الدينية) . وقد كان جواب العلماء في تعدد المدارس ، ومعاهد التعليم الفقهي الحاصل على وضع رسمي ومدرسين مأجورين . وحوالي القرن ١٤/٨ ركزت مئآت من المدارس رقابة التعليم العالي في أيدي الفقهاء^(١٠٦) .

ومن المؤسف ان الصوفية الكلاسيكية لم تكن معروفة في الغرب خلال العصر الوسيط^(١٠٧) . وإن المعلومات الاحتمالية الغير مباشرة ، بترجمة الشعر الجنسي الصوفي في الاندلس ، لم تشكل لقاء صحيحاً بين التقليديين الصوفيين الكبارين ، وكما هو معلوم فإن المعطى الأساسي للإسلام كان النقل ، بترجمة عربية ، لأعمال الفلاسفة والعلماء القدامى ، وفي المكان الأول أعمال ارسطو .

يضاف إلى ذلك ، على الغالب ، ان التنسك الصوفي اذا كان مجهولاً ، فإن الهرمسية والكيمياء دخلتا إلى الغرب بفضل الكتابات العربية ، التي يقدم عدد كبير منها اعمالاً أصلية . وحسب رأي ستابلتون Stapleton ، فإن الكيمياء الاسكندرانية في مصر تطورت بدتياً في حران وفي ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) وهذه الفرضية وإن عورضت ، الا ان لها مزية تفسير أصل الكيمياء العربية . وعلى كل حال فإن واحداً من الأوائل

الأكثر شهرة من الكيميائيين في اللغة العربية هو جابر ابن حيان الشهير في اللاتينية باسم Geber . ويقدر هولميارد Holmyard بأنه عاش في القرن ٨/١١ وأنه كان تلميذاً لجعفر الصادق سادس إمام . وحسب بول كراوس ، الذي كرس له صورة أثرية ، ان عدداً من المؤلفين (أحصى له مجموعة الأعمال تحت ٣٠٠٠ عنوان تدور تحت اسمه) ؛ وجدت حوالي القرنين الثالث والرابع . وقد أبرز كوربان بشكل مناسب الوسط الشيعي والباطني الذي تطورت فيه كيمياء (جابر) . وفي الواقع ، إن النظرية الجابرية عن (الميزان) سمحت باكتشاف العلاقة القائمة في كل جسم من الأجسام بين ظاهره وباطنه^(١٠٩) . ويبدو مع ذلك ان الرسائل الاربعة لجابر المعروفة في ترجمتها اللاتينية ليست كل اعماله . وان الترجمات الأولى من العربية إلى اللاتينية انجزت في اسبانيا حوالي ١١٥٠ من قبل جيرارد دي كريمون ، وبعد قرن من الزمن ، عرفت الكيمياء بما فيه الكفاية ، لأنها كانت محصورة في أنسيكلو بيديا فانسان دي بوفيه .

ان واحدة من أكثر رسائله شهرة تابولا سماراغدينا Tabula Smaragdina كانت مستخلصة من مؤلف معروف تحت اسم كتاب (سر الخليفة)، وهي مشهورة كذلك باسم توربا فيلوز وفوروم Turba Philosophorum ، المترجمة من العربية ، ويكاتريس Picatrix المحررة باللغة العربية في القرن الثاني عشر . ومن غير المجدي التأكيد ان كل هذه الكتب ، رغم المواد والأدوات والعمليات المخبرية التي تصفها هي مشربة بالباطنية والغنوصية^(١١٠) . وان العديد من المتصوفين ومعلمي الصوفية ، من بينهم الخلاج وبخاصة ابن سينا وابن عربي قدموا الكيمياء وكأنها تقنية روحية حقا . وقد أصبح معروفاً بما فيه الكفاية حول تطور الكيمياء في البلدان الاسلامية بعد القرن الرابع . وفي الغرب ، عرفت الهرمسية والكيمياء فترة مجدها قبل النهضة الايطالية وقد بهر احترامها الصوفي نيوتن آئذ (ف ١٦٨٦ع) .

حواشي الفصل الخامس والثلاثين

- ١ - هنري لاوست - الشيعة في الاسلام ص ٧-٧١
- ٢ - يتعلق بمدارس الخنفيه ، المالكية ، الشافعية ، الحنابلة . ان موجزاً عن هذه المذاهب ومؤسسيها قدمه توفيق فهد بكتابه الاسلام ومذاهبه .
- ٣ - انظر - بصورة خاصة - مؤلف - ده - أولفسن - فلسفة الكلام . . ونذكر بأن كلمة المتكلم أي الذي يتكلم أولدت مصطلح المتكلمون = الذي اهتموا بعلم الكلام (اللاهوتيون) . وبالنسبة لبعض الفلاسفة كالفارابي وابن رشد «ان المتكلمين هم بخاصة المنافحين عن الدين وقد اهتموا ليس بالحقيقة البرهانية أو الممكن البرهان عليها وإنما لدعم أقوالهم وجد لهم اللاهوتي وعبارات اعتقاداتهم التقليدية (كوربان)
- ٥ - لادست (مرجع سابق) .
- ٦- ٨- هـ. كوربان - الفلسفة الاسلامية وهو يقول : «إذا كان الاشعريون استمروا في العيش ضد انتقادات وهجمات عدة ، فإنه يجب القول بأن وعي الاسلام السني قد عرف بها» (ص ١٧٨)
- ٩ - ترجمت من قبل هنري كوربان في تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٣٠ . نظرية المعاني الاربعة في اللاهوت المسيحي للقرون الوسطى (المعنى الحرفي ، اللاهوتي ، الاخلاقي ، والمشابه)
- ١٠ - ترجمة كوربان - وحسب حديث معتبر يعود للرسول ذاته «القرآن له ظاهر خارجي وعمق نجباً ، معنى ظاهري ومعنى باطني» .
- ١١ - لنذكر بأن المصطلح العربي إمام كان يعني أصولياً ذلك الذي كان يدير الصلاة العامة أي الخليفة وعند الشيعة الامام ، خارج دوره كرئيس روحي يمثل اكبر درجة من الاحترام السياسي - الديني .
- ١٢ - ١٣ - وحول اختفاء الامام الثاني عشر ونتائجه (بصورة خاصة النظام الروحي) . هنري كوربان . وهذه الغيبة تميز بداية «اختفاء القاصر ، الذي سيدوم عشر سنوات واثناها يتصل الامام

المستور عدة مرات مع بعض المبعوثين ، وكما انه لم يعين خليفة فقد بدأ التستر الكبير ، أو التاريخ السري للامام الثاني عشر .

١٤ - من المناسب ان نذكر فرعاً ثالثاً الزيديون الذين جرت تسميتهم تبعاً للامام الخامس زيد (م ٧٢٤) انهم قليلو العدد وقریبون جداً من السنين ، وفي الواقع لا يتطون بالامام فضائل مما فوق الطبيعة كما يفعل الاسماعيليون خاصة (ف ٢٧٤ع) .

١٥ - النصيريون في سورية فرع من الاسماعيلية ومجدون علي . ولكن هذا المفهوم يختلف عن الشيعة .

١٦ - يجري الكلام حول مبدأ أو تنظيم أولى لسر الاسرار لانبثاق الكائن بدءاً من العقل الأول ومن آدم الروحي للمملكيتين - السماوية والأرضية - التي حسب تعبير كوربان «ترميزاً واحداً مع الآخر» الخ .

١٧ - قلعة الموت والاسماعيلية المعدلة اثار في الغرب فولكلوراً حول (الحشاشين) مصطلح مشتق حسب سلفستروي ساسي من الحشيش لأنه افترض ان المؤمنين كانوا يتعاطون الحشيش . حول هذه الاساطير انظر د. اولشكي - ماركوپولو اسيا ص ٣٦٨ والكتب المشار اليها .

١٨ - انظر - قصة المهدي في مقدمة ابن خلدون .

١٩ - المثال على ذلك مهدي السودان الذي انتصر عليه اللورد كيتشنر سنة ١٨٩٥

٢٠ - ر. ماسينيون سلمان بك ومقلدات الاسلام الايراني .

٢١ - في القرن الثالث للهجرة ، كانت اغلبية الصوفيين متزوجين وبعد قرنين أصبح المتزوجون

قلة

٢٢ - فيما بعد شبهه بعض الصوفيين الحكومة مع الش . . وفي هذا يجب ان يؤخذ في الحسبان

تأثير الرهبنة المسيحية

٢٣ - ٢٦ - اسماء المراجع المعتمدة . .

٢٧ - يكفي أن يؤخذ في الحسبان واقعة انه في القرون الأولى للإسلام كان من الصعب التدقيق

فيما اذا كان الكاتب سنياً أو شيعياً . وحصل الانقطاع بين الشيعة والصوفية عندما ادخل بعض معلمي الصوفية تفسيراً جديداً للتلقين الروحي والحب الالهي (س. ه. نصر الشيعة والصوفية)

٢٨ - كشف المحجوب - ترجمة نيكلسون ص ٣٦٣

٢٩ - ه. جيب - المحمديون ص ١٣٩ - هذه الصلاة مذكورة عدة قرون قبل الذكر من قبل عدد

من الآباء (القديسون مثل كاسيان جان كليمان الخ)

٣١ - ٣٨ - اسماء المراجع المعتمدة .

٣٩ - كوربان ص ٢٧٥ يلاحظ تشابه هذه النظرية مع نظرية العلم النبوي الشيعية

٤٠ - ٤٢ - الديوان - ترجمة ماسينيون .

- ٤٣- فيما بعض ، دفعت بعض مجموعات الملاماتية ازديادهم للمعايير بتطبيق التهتك - النصوص المترجمة من قبل مولي - متصوفو الاسلام .
- ٤٤ - ٤٦ - ما سينيون . .
- ٤٧ - ٤٩ - تيولوجيا الحلاج حللت من قبل ماسينيون بتيولوجيا صوفية عقائدية . . الخ .
- ٥٠ - ٥١ - اسماء المراجع المعتمدة
- ٥٢ - ٥٣ - ان عددها مختلف . مؤلف ، مذكور من قبل (انواتي) يذكر العشرات ، من بينها الحب ، الخوف الأمل الرغبة الهدوء في السلام ، التأمل ، اليقين (التصوف الاسلامي)
- ٥٤ - بدوره ، هذا التهافت الشهير ، رفض من قبل ابن رشد (ف. ٢٨٠ع)
- ٥٥ - ٥٦ - بعد ابتدائه ، كتب الغزالي سيرة ذاتية روحية (المنقذ من الضلال) ولكن بدون كشف تجارية الصحيحة ، ولقد ألح بصورة خاصة على نقد الفلاسفة
- ٥٧ - المراجع - النقد العنيف للغزالي من قبل (زهر) ولكن كوربان أظهر ان الابداعية الفلسفية لم تنقطع مع موت ابن رشد ١١٩٨ وقد استمرت الفلسفة بالتطور في الشرق ، بصورة خاصة في ايران في التقاليد لمختلف المدارس والسهورودي .
- ٥٨ - عرف في الغرب بواسطة بعض مؤلفاته المترجمة للاتينية في القرون الوسطى .
- ٥٨ - ٥٩ - ٦١ - كوربان - الفلسفة الاسلامية
- ٦٣ - حسب رأي كوربان انه بسبب العقل الفعال الذي له صورة دور الملاك ، تداعت ما سميت بالابن سينية اللاتينية .
- ٦٤ - ترجمت وعلق عليها بذلك من قبل هنري كوربان - ابن سينا والقصة الرؤية .
- ٦٥ - ٦٨ - اسماء المراجع المعتمدة .
- ٦٩ - المترجمات اللاتينية الأولى لابن رشد حول ارسطو انجزت حوالي ١٢١٠-١٢٣٥ ولكن (الابن رشدية اللاتينية) الهامة جداً في القرون الوسطى الغربية تمثل في الواقع شرفاً جديداً قائماً في منظور القديس اوغسطين .
- ٧٠ - د. كتاباتها الذاتية مترجمة من قبل (اوستين) تحت عنوان صوفية الاندلس .
- ٧٢ - كتبه ممنوعة في مصر ، والعمل الضخم والصعب ، لم ينشر بما فيه الكفاية - اما بالنسبة للمترجمات فقليلة
- ٧٣ - الفتوحات المكية
- ٧٤ - تصوف الحكمة . ابن عربي يؤكد ان كل قطب - روحي وكوني - يقتضي بطريقة احتوائية ومسترة القطب الآخر
- ٧٩ - كوربان - فصل ١٧ - تؤكد انه تبعاً لابن عربي ، فان الانسان الكامل يشكل نموذجاً مثالياً . من الصعوبة التعامل في وجوده البشري .

٨٠- كوربان - واوستن - يذكر بالتأويل التيتي الذي توصل لجعل الصور الداخلية مادية .
٨١- نصوص الحكم - ابن عربي يؤكد من جهة اخرى على الاخطار الكبرى المواجهة من قبل
حائز هذه السلطة .

٨٢- كوربان - المرجع السابق .

٨٣- «ومن لم يصلق بهذا (...) فعليه بالرياضيات (...)» فعسى يقع له خطفه من النور
الساطع في عالم الجبروت ويرى الادوات المللكوتية والانوار التي شاهدها هرمس وافلاطون والانوار
السينوية ، ينابيع (الخرة) والرأي الذي أخبر عنه فزادشت ودفع الملك الصديق كيخسرو المبارك إليها
فشاهدها . كوربان .

٨٤- ٨٥- كوربان - مراجع سابقة .

٨٦- أهمية هذا العالم كبيرة في الواقع فهو يأتي على الصعيد الأول من الوجهة التي تفتح على
مصير الكائن الانساني . أما وظيفته فمن نواح ثلاث ، اذ به تتم القيامة ، وذلك انه محل (للاجسام
اللطيفة) وبه تتحقق صحة الرموز التي اشار إليها الانبياء كما تتحقق صحة جميع التعابير الناجمة عن
الرؤى ، وبالتالي فيه يتم (التأويل) ذلك التفسير الذي يعود بمعطيات الوحي القرآني إلى حقيقتها الروحية
الحرفية . وبدون هذا العالم لا يمكن القيام الا بتشبيهات ومجازات . كما انه بعالم المثال هذا تنحل الازمة
القائمة بين الفلسفة واللاهوت ، بين المعرفة والايمان وبين الرمز والحكاية ، ولم يعد ثمة ضرورة للاختيار
بين فضيلتين التأمل الفلسفي وافضلية اللاهوت ذلك أن طريقاً آخر يأخذ مجراه وهو بالتحديد طريق
الحكمة المشرقية (كوربان)

٨٧- ٨٨- في علم الملائكة الروحي يمثل السهروردي الفلاسفة الاغريق القدامى كذلك حكمة
الفرس وبعض كبار الصوفية (كوربان) .

٨٩- انظر على سبيل المثال الأمثلة المذكورة من قبل اوفيدوس - الفلكلور الروماني

٩٠- واحدة من التقديرات الكبرى لهنري كوربان وتلامذته الذي طعموا دراسة هذا التقليد
الفلسفي الذي مازال مجهولاً في الغرب .

٩٢- ٩٣- الرومي والصوفية - ترجمة ايضاً دي قتراي ...

٩٤- د. النصوص المترجمة من قبل مارجان موليه - الرقص الوجلي في الاسلام

٩٥- المشوي - ترجمة موليه - تذكر الاقامة في الجنة وانتظار النفير للدينونة الاخيرة هي من انغام
مؤكلة في التقليد الصوفي الاكثر قلما .

٩٦- ر. دراسة موليه - انتقادات اللاهوتيين وحتى الكتاب الصوفيين ص ١٨ .

٩٧- هذه الرمزية تمثل منذ البدايات للساما ، وقد حددت بالديوان للشاعر التركي الكبير محمد
شليبي ، انظر النص المترجم من قبل موليه ص ٢٤٨-٢٥١ حول الرقص المولوي الرومي وسلطان والد .
٩٨- ١٠٠- اسماء المراجع .

١٠١- ١٠٢ اشعار صوفية ١١- ديوان شمس الشيرازي .

١٠٤- بفضل الشعر الصوفي وبدقة اكثر الصوفي ، الايروتي - فإن عدداً كبيراً من الانغام والبواعث الغير اسلامية حكمت مختلف الآداب الوطنية .

١٠٥- ١٠٦- انظر جيب- وملاحظاته حول النتائج الثقافية لهذه الرقابة على التعليم .

١٠٧- كم هو مؤسف ان الاسلام عرف في اوربا من الجنوب الشرقية تقريباً وحضرا بالامبراطورية العثمانية اي الاحتلال التركي

١٠٨- من جهة اخرى ان احتكاكاً بين بعض الجماعات الباطنية الاسلامية والمسيحية ليست مستثناة ولكنه لا يمكن قياس نتائجها في التاريخ الديني والثقافي للعصر الوسيط

١٠٩- يذكر كوربان ان جابر يقول «العلقة الأولى هي العقل والعقل هو العلم والميزان هو العلم . فكل فلسفة وعلم فهو ميزان . فكأن الميزان جنس والفلسفة فرع ينطوي تحته ، هي وكل ما يتصل بها من فروع» (كتاب الخواص الكبير- المقالة الثانية) ويقول في الكتاب نفسه - المقالة الأولى - «إن قواعد الفلسفة هي قواعد الميزان ، او بعض قواعد قواعد الميزان» اي ان عمل الفيلسوف إما ان يحییء متطابقاً مع العلم بالموازين تطابق المتساويين ، وإما ان يكون علم الموازين شاملاً للفلسفة بجانب منه دون جانب . من هنا . كان «الميزان» هو العلم والفلسفة ، لولا ان حكمة «ميزان» (عند جابر) أهم من حكمتي (علم وفلسفة ، فالميزان جنس والفلسفة فرع ينطوي تحته ، هي وكل ما يتصل بها من فروع .

١١٠- انظر- م . ، الياد- حدادون وكيمايون ص ١١٩

ومن اراء جابر بن حيان : ان ميزان الطبائع هو العلم الذي نعلم به كم من الطبع الفلاني (الحرارة ، البرودة ، اليبوسة ، الرطوبة) موجود في الكائن الفلاني . فاذا كانت الحرارة غالبية عليه عرفنا ان البرودة فيه مستكنة مستبطنة ، وان كانت البرودة غالبية فيه عرفنا ان الحرارة فيه هي المستكنة المستبطنة وكذلك قل في صفتي اليبوسة والرطوبة ...

واللغة في رأس جابر هي نتاج ظهر بالطبع لا بالاتفاق العرضي ولهذا فهي ذات دلالة أصيلة على حقائق سمياتها . والحروف تقابل الكيفيات الاربع في الطبيعة .

فالحرارة يقابلها : أ- هـ- ط- م- ف- ش- ذ .

والبرودة يقابلها : ب- و- ي- ث- ص- ت- ض-

واليبوسة يقابلها : ج- ز- ك- س- ق- ث- ظ

والرطوبة يقابلها : د- ح- ل- ع- ر- خ- غ-

(تاريخ الفلسفة الاسلامية- كوربان الترجمة العربية ص ٢٠٥)

الفصل السادس والثلاثون

اليهودية منذ عصيان بركوخبا حتى الحصادية

٢٨٤ - تجميع الميشنا .

بالتذكير بحرب اليهود الأولى ضد الرومان (٧٠-٧١) وتدمير المعبد من قبل طيطس ، أعدنا إلى الذاكرة مشهداً كانت له نتائجه البارزة بالنسبة لليهودية : الراي جوكها فان بن زكاي الشهير أفرج عنه في تابوت اثناء حصار القدس ، وبعد فترة من الزمن ، حصل على ترخيص من (فيسباسيان) بإقامة مدرسة في قرية جانبية (في يهوده) وقد كان جوكها نان مقتنعاً بأنه ، طالما ان التوراة يدرس ، فإن شعب اسرائيل ، المسحوق حريياً ، لا يمكن ان يزول (ف. ٢٢٤ع)^(١) وقد نظم جوكهانان فيها بعد تحت رئاسة (بطريك) Nasi مجمعا (سندرين) من ٧١ عضوا ، كسلطة دينية لا تعارض ومحكمة عدل في آن واحد . وخلال ثلاثة قرون كانت مهمة البطريك تتقل ، باستثناء واحد منهم ، من الأب إلى الابن^(٢) .

مع ذلك ، فإن الحرب الثانية مع الرومان المعلنة من قبل باركوهبا في ١٣٢ ، والمنتهية بالكارثة لعام ١٣٥ ، وضعت مجددا الوحدة الدينية في خطر ، لابل استمرارية حياة الشعب اليهودية . وقد ألغى الامبراطور هادريان (السهندرين) ومنع تحت طائلة المعاقبة بالموت دراسة التوراة وممارسة الأعمال الطقوسية . ومات كثير من المعلمين اليهود ومن بينهم الشهير الراي اكيبا تحت التعذيب . ولكن انطونين التقي الذي خلف هادريان ، أعاد سلطة السهندرين ، بل انه عمليا زاد في سلطته . فمندذ ، أصبحت مقررات السهندرين معروفة في كل مكان في الدياسبورا . واثناء هذه الفترة - التي تبدأ مع تلامذة جوكهانون بن زكاي وتنتهي حوالي ٢٠٠ - اقيمت البنى الأساسية لليهودية المعيارية . وقد كان التجديد الرئيسي ابدال الحج والأضاحي المنجزة في الهيكل ، بدراسة الشريعة ، والصلاة والتقوى ، وأعمال دينية يمكن ان توجد ، في الكنس ، وفي أي مكان في العالم . وقد كانت الاستمرارية مع الماضي مضمونة بدراسة التوراة وبالنصوص المتعلقة بالطهارة الشعائرية .

ولأجل التحديد بدقة ، والتوضيح والتوحيد للتقاليد الشفاهية التي لا تحصى والتي هي على علاقة بالممارسات التعبدية وتفسيرات الكتابة والمسائل الشرعية ، أجبر الراي جودا (الأمير) بطريك السهندلدين ما بين ١٧٥-٢٢٠) لجمعها وتنظيمها في مجموعة من النصوص الشرعية . إن عملية التجميع هذه الواسعة والمسماة (المشنا) (اي - اعادة القول ، التكرار أو الحشو) تحتوي على مواد وجدت ما بين القرن الأول وقبل القرن الثاني بعد المسيح^(٤) . ويتضمن الكتاب ستة أقسام : الزراعة ، الاعياد ، والحياة العائلية ، القانون المدني ، وانظمة الأضاحي ، والمتعلقة بالغذاء والطهارة الطقوسية .

ونجد عدداً من الاشارات إلى صوفية الميركابا (ف . ٢٨٨) . وعلى العكس ، لا يوجد أي صدى للآمال المسيحانية والتعاليم الرؤوية ، الشعبية جداً في ذلك العصر (الشهيرة ، على سبيل المثال ، في المؤلفات المنحولة الشهيرة باروخ الثاني وايسدرا الرابع) .

ويوجد انطباع بأن (الميشنا) تجهل التاريخ المعاصر أو انها تدير ظهرها إليه . (ويرد التساؤل مثلا ، عن عشور المحاصيل التي يجب أن تحمل لأورشليم ، فيؤكد على أي

نوع من قطع النقد يتوجب صرفها الخ .. (٥) . إن الميشنا تثير حالة لا تاريخية نموذجية ، تمت فيها مختلف أعمال تقديس حياة الانسان حسب قوالب مقننة شرعاً . فالعمل الزراعي كرس بحضور الرب والعمل (المضفى عليه صفة الشعيرة) للانسان . «البلاد اسرائيل قدست بعلاقتها مع الرب ، وموسم الرب تقدس بالانسان العامل تحت أمر الرب ، وعبر الاشارات والفواصل الشفاهية لمختلف التقدمات» (٦) .

وبكل وضوح ، ففي «تقسيم الاعياد» نظمت ، وصنفت وسميت دورات الزمن المقدس ، المرتبط حميمياً بينى المكان المقدس . ويوجد ذات الهدف في كل «التقسيمات» الأخرى . انه يتعلق دوماً بتحديد ، الوسائل الطقوسية ، حتى أدنى تفصيل ، لتقديس العمل الكوني والحياة الاجتماعية ، والعائلية والفردية ، بل وايضا وسائل تجنب القذارة وجعلها غير مؤثرة بواسطة تطهيرات خاصة .

وهذا ما يغري بتقريب هذا المفهوم الديني من المعتقدات والممارسات المسيحية الريفية التي اسميناها «المسيحية الكونية» (ف ٢٣٧ع) . مع الفارق بأنه في الميشنا ، يتم عمل التقديس استثناء بفضل الرب وأعمال الانسان المنفلة لأوامر الرب . ومع ذلك فإن مما له دلالة ان الرب في الميشنا أو بشكل أوضح في تفسيراتها وشروحها التي سنشير إليها - حتى ذلك الحين ، بامتياز ، رب التاريخ - يبدو محايداً تجاه التاريخ المباشر لشعبه : وبالنسبة للخلاص من نوع مسيحاني في تلك الفترة فقد أبدل بتقديس الحياة في ظل توجيه الشريعة .

وفي الواقع ، فإن الميشنا تمدد وتكامل القانون الكهنوتي كما صيغ في تثنية الاشتراع إيهوئية وهذا ما يعيد إلى القول بأن المحافظين تصرفوا بنوع ما كالكهنة واللاويين ، لقد أحترموا الأحكام ضد القذارة وتغذوا في مساكنهم كما كان العاملون في الهيكل يعملون ، والطهارة الشعائرية ، المحترمة خارج جدران الهيكل ، تفصل المؤمنين عن بقية الشعب وتضمن قداستهم ، وإذا كان للشعب اليهودي ان يعيش ، فإنه يجب عليه ان يعيش كشعب مقدس ، في إقليم مقدس ومحتذاً قداسة الرب (٧) .

لقد تابعت الميشنا التوحيد وتقوية التعليمية ، وفي آخر مرحلة ، كان هدفها ضمان استمرار حياة اليهودية ، وبالتيجة تكامل الشعب اليهودي حيثما وجد في شتاته .

وكما قال جاكوب نوستر فإن المسألة هي : ماذا يستطيع الانسان أن يفعل ؟ وتجب الميشنا : (مثل الرب تماما ، يستطيع الانسان ان يضع العالم في حركة . اذا أراد الانسان ، فلا شيء مستحيل [. . . .] . ان الميشنا تقوم شرط اسرائيل : مغلوب ودون سند ، ومع ذلك في بلده ، غير قادر ، ومع ذلك مقدس ، دون وطن ومع ذلك منفصل عن القوميات»^(٨) .

٢٨٥ - التلمود - الردة ضد الرابانيين : الكارائيت .

إن تجميع الميشنا فتح الحقبة المسماة (المؤثرين أو المفسرين) الأماريم des Amaraim . وإن المجموعة المشكلة للميشنا والتعليقات عليها (غومار) يشكل التلمود (لغويا : تعليمات) . إن أول تأليف كتب في فلسطين (٢٢٠ - ٤٠٠ تقريبا) وعرف تحت اسم تلمود اورشليم ، هو أكثر اختصارا وإيجازا من تلمود بابل (٢٠٠ - ٦٥٠) ، ويضم هذا الأخير ٨٧٤٤ صفحة^(٩) . وقد أكملت قوانين السلوك (هالاجا) ، المصنفة في الميشنا ، اكملت في التلمود بواسطة الأجداد ، وهي مجموعة تعليمات أخلاقية ودينية ، وبعض الارشادات الماورائية والصوفية وحتى بعض المواد الفولكلورية .

إن تلمود بابل شغل وظيفة حاسمة في تاريخ الشعب اليهودي : اظهر كيف انه يجب على اليهودية ان تتلاءم مع مختلف الأوساط الاجتماعية السياسية للدياسبورا . وقد سلف في القرن الثالث لمعلم من بابل أن أعلن هذا المبدأ الأساسي : تشريع الحكومة النظامي يشكل القانون الشرعي الوحيد ويجب احترامه من قبل اليهود . وهكذا فإن شرعية السلطات الحكومية تتلقى اجازة من النظام الديني . أما فيما يخص القانون المدني ، فإن اعضاء الجماعة مكلفون بعرض نزاعاتهم امام المحاكم اليهودية .

والتلمود محكوم عليه في جملته ، ومع اعتبارات محتواه وهدفه ، لا يبدو أنه قد أعطى أهمية للتعليم الفلسفي . ومع ذلك اوضح بعض الباحثين اللاهوتية ، البسيطة واللطيفة معا ، والمبادئ الباطنية كذلك ممارسات النظام التلقين المشار إليها جميعها في التلمود^(١٠) .

وبالنسبة لموضوعنا هنا ، يكفي (المرور سريعاً بالقاء نظرة) لاستعراض الاحداث التي ساهمت بثبيت تكوينات اليهودية المتوسطة (القرون الوسطى) . لقد كان البطريك ، المعترف به رسمياً كممثلة الحاكم الروماني Prefet يرسل مبعوثين إلى الجماعات اليهودية لجمع الرسوم ويوصل إليهم تقويم الاعياد . وفي ٣٥٩ قرر البطريك هيليل الثاني تثبيت التقويم بالكتابة ، بهدف ضمان توافقت الأعياد في كل مكان في فلسطين وفي الدياسبورا . وهذا الاجراء أظهر كل أهمية عندما الغيت بطريكية فلسطين من قبل الرومان في سنة ٤٢٩ . ومنذ عصر الساسانيين (٢٢٦-٦٣٧) ، وفضل تساعهم الديني ، أصبحت بابل المركز الأكثر أهمية للشئات (دياسبورا) . وقد استمر هذا الوضع المتميز بعد الفتح الاسلامي . وكل الجماعات اليهودية للدياسبورا الشرقية اعترفت بسيادة (الغادون du Gaon) المعلم الروحي ، الحكيم والرئيس السياسي ممثلاً للشعب أمام الرب وامام السلطات . وان عصر الغاوونيم المبتديء حوالي ٦٤٠ انتهى في ١٠٣٨ ، عندما تحول مركز الروحانية اليهودية في اسبانيا ، الا أنه في هذا التاريخ ، كان قد اعترف بالتلمود البابلي عالمياً كتعليم مرخص به من الربانية rabbanisme ، أي اليهودية التي اصبحت معيارية .

وكانت الربانية قد انتشرت بواسطة المدارس (من المدرسة الابتدائية حتى الاكاديمية Yeshiva) والكنيس Synagogue والمحاكم . وكان الطقس الكنسي ، الذي حل محل الاضاحي في الهيكل ، يتضمن صلوات الصباح وبعد الظهر والجهر بالعقيدة الدينية («اصغ ، يا اسرائيل ، السيد ربنا هو اله واحد!» والثمانية عشر (ثم التسعة عشر) تيريكات ، وصلوات قصيرة معبرة عن آمال الجماعات والأفراد . وثلاث مرات في الاسبوع - الاثنين ، الخميس ، السبت - كان الكتاب يقرأ في الكنيس - وأيام السبت وأيام الاعياد كانت تجرى قراءة علنية لأسفار التوراة والانبياء ، يتبعها عظات أو خطب اخلاقية من الربانيين .

وفي القرن التاسع ألف أحد الغاونات أول مجموع للصلوات ، بهدف تثبيت النظام اللاهوتي . ومنذ القرن الثامن كان قد أحدث في فلسطين شعر كنسي جديد ، وقبل بسرعة . ثم فيما بعد وحتى القرن السادس عشر الفت قصائد دينية اخرى وادخلت في خدمة الكنيس .

مع ذلك فإن التقليدية المتعصبة والجنزية المفروضة من قبل الجاؤونيم ، كانت تثير أحيانا ردات ضد الربانيين . وبعضها المستوحى بالمبادئ المذهبية القديمة لفلسطين أو بالاسلام ، قد حذف بسرعة . غير ان حركة منشقة انبثقت في القرن التاسع ، موجهة من قبل آنان بن دافيد . اخذت بسرعة علاقات مهددة ، وهذه الحركة المعروفة باسم (كارايتس) Karaites أي المعترفين بسلطة الكتاب فقط رفضوا الشريعة الشفاهية (التعليمية رابانية) واعتبروها مجرد عمل بسيط من البشر . وكان الكتبة كارايتس اقترحوا التفحص الواعي والنقدي للكتاب المقدس من أجل استعادة العقيدة والتشريع الرسمي ، كما طالبوا إضافة إلى ذلك برجوع اليهود إلى فلسطين ، بهدف التعجيل لمجيء المسيح . وفي الواقع ، وتحت قيادة دانيال الكوميكي (حوالي ٨٥٠) استقر في فلسطين جماعة من الكارايت ونجحوا في نشر افكارهم حتى إلى افريقيا الشمالية الشرقية ، واسبانيا . وكانت ردة فعل الجاؤونيم نشطة جداً فألقوا العديد من القوانين والموجزات المصدقة والمدعمة للربينية ، والمعتبرة ضد الهرطقة . وفقدت دعوة الكرايتيين اندفاعها ، غير أن المذهب استمر في الحياة في بعض الأوساط الهامشية . مع ذلك وكما سنرى ، فإن اكتشاف الفلسفة الاغريقية عبر الترجمات العربية ، مع أنها نشطت العبقرية الفلسفية اليهودية ، فقد شجعت أيضاً بعض النظريات الشاذة ، بل الفاضحة . ويكفي التذكير بأن هيوي - البالكى ، كاتب متشكك من القرن التاسع ، قد هاجم اخلاقية التوراة ونشر طبعة منقحة لاستعمالها في المدارس .

٢٨٦ - لاهوتيون وفلاسفة يهود في القرون الوسطى

لقد أجهد فيلون الاسكندري (٥٤-١٣ ق.م) نفسه لتوفيق الكشف التوراتي مع الفلسفة الاغريقية ، ولكنه كان مجهولاً من قبل المفكرين اليهود ولم يكن له تأثير سوى على لاهوت الآباء المسيحيين . وليس سوى في القرن التاسع والعاشر ، ان اليهود قد اكتشفوا الفكر الاغريقي بفضل الترجمات العربية ، وتلاقيا مع المنهج الاسلامي (الكلام) بتبرير الدين بالعقل . وكان أول فيلسوف يهودي هام ، هو الجاؤون سعديا بن يوسف

(٨٨٢-٩٤٢) المولود والمتعلم في مصر ، وقد أقام في بغداد ، حيث أدار أكاديميات تلمودية بابلية شهيرة . ومع انه لم يقم منهجاً ولم يبدع مدرسة ، فإن سعديا يشكل النموذج لفيلسوف يهودي^(١٢) . وفي كتابه التبريري عن الدين (كتاب العقائد والآراء) المكتوب باللغة العربية ، عرض العلاقة بين الحقيقة الموحى بها والعقل . فلائتان تصدران عن الله ، ولن تكون التوراة هبة أو عطاء خاص للشعب اليهودي . هذا الشعب المحروم من دولة مستقلة ، فإن وحدته وكرامته تقومان حصراً بفضل طاعته للشرعة^(١٣) .

وفي بداية القرن الحادي عشر ، تحول المركز الثقافي اليهودي نحو اسبانيا المسلمة . وقد عاش سلمون بن جايبرول في مالاقا ما بين ١٠٢١-١٠٥٨ . وأصبح شهيراً ، خاصة بسبب قصائده ، التي أدخل أكثر ما هو معروف منها في الطقوس الديني ليوم الغفران (يوم كيور) . وفي كتابه الذي لم يكتمل (منبع الحياة - ماجورهاييم) يستعير النشكونية الافلاطونية للصدورات ، إلا أنه بدلاً عن العقل الأعلى ، أدخل بن جايبرول مفهوم الارادة الالهية ، وبعبارة أخرى ، فإن يهوه هو دوما الذي خلق العالم . ويفسر ابن جايبرول المادة وكأنها واحدة من الصدورات ، مع ذلك فإن هذه المادة كانت من نظام روحي ، وجسمانيتهما هي واحدة فقط من مزاياها . وقد ترجم كتاب الماجورهاييم المهمل من قبل اليهود تحت عنوان (فونس فيتاي) وقد قدرعاليا من قبل اللاهوتيين المسيحيين^(١٥) .

ويكاد أن يكون مجهولاً كل شيء عن باهيا بن باكادا الذي عاش على الأرجح في القرن الحادي عشر في اسبانيا . وفي رسالته عن الأخلاق الروحية ، المؤلفة باللغة العربية «مدخل لواجبات القلوب» يصر ابن باكادا ، بخاصة ، على التقوى الداخلية . ان كتابه هو في ذات الوقت صورة روحية ذاتية «فمنذ الاستهلال ، يذكر هذا الفقيه اليهودي كم هو وحيد ، وكما هو يتألم من عزله . وقد كتب كتابه كردة فعل ضد محيطه ، متمسك جداً بالشرعية على هواه ، ويهدف الاستشهاد بأن يهوديا ، على الأقل ، كافح ليعيش ، كما تريد رسمية التقليد اليهودي ، وفق القلب ، كما هو وفق الجسد [...] . وفي الليل بخاصة ، يشعر باهيا بتفتح روحه . حينئذ في هذه الساعات الموقوفة للحب والتي يخلد فيها الزوج والزوجة في عناقهما يكون باهيا حبيب الله : جاثيا

على ركبته ، يمضي ساعات من الانتشاء في الصلاة الصامتة ، واصلًا هكذا إلى الذروة التي تفقد نحوها الممارسات التنسكية اليومية ، الخشوع وامتحان الايمان ، والورع الدقيق»^(١٦) .

جودا هاليفي (١٠٨٠-١١٤٩) هو كابن جابرول شاعر ولاهوتي معا . وفي دفاعه عن الدين المزدري به ، يقوم الحورات بين فقه مسلم ، ومسيحي ، وعالم يهودي وملك الخزر . وفي نهاية المحادثات ، يعتنق هذا الأخير اليهودية . وعلى شاكلة الغزالي يستعمل جودا هاليفي محاولة المسيرة الفلسفية لكي يعارض صحة الفلسفة . ان اليقين الديني لا يحصل عليه بواسطة العقل ، وانما بالوحي أو الكشف التوراتي ، كما أقره الشعب اليهودي . فاختيار اسرائيل أقر بواسطة الروح النبوة ، وأي فيلسوف وثني لا يصلح نبياً . وان انطلاقة النبوة متضامنة مع الطاعة لأوامر الشريعة والقيمة القدسية للأرض المقدسة (قلب القوميات) الحقيقي . وان التنسك لا يلعب أي دور في تجربة جوداها ليفي الصوفية .

٢٨٧ - الميمونية بين اريسطو والتوراة

ان موسى بن ميمون (المولود في قرطبة - ١١٣٠ والمتوفي في القاهرة سنة ١٢٠٤) هو رابان - معلم ، طبيب ، وفيلسوف ويمثل قمة الفكر اليهودي القروسطي . وقد تمتع ، ومازال يتمتع بتقدير استثنائي ، ولكن عبقريته المتعددة الخصائص والفقدان الظاهر لوحدة عمله افسحت المجال لمعارضات له لا حد لها^(١٧) . ولقد الف ميمون عدداً من الكتب الهامة في التفسير (الاكثر شهرة منها ، تفسيرات الميشنا وتوراة الميشنا) ورسالة فلسفية شهيرة (دليل المحتارين) باللغة العربية في ١١٩٥ . وحتى يومنا هذا يقدر بعض المؤرخين والفلاسفة اليهود ان الفكر الميموني مميز بتفرعات ثنائية لا تغلب : فمن جهة ، المبادئ التي تستوحىها اعمالها بالتفسير والتشريعية (التي هي مبادي الحلقة halaka) ، ومن جهة أخرى ، الماورائية المصاغة في دليل المحتارين والتي يوجد مصدرها عند اريسطو^(١٨) .

ونؤكد منذ البداية أن ميمون كان له أكبر احترام فدعي «امير الفلاسفة» و«الممثل الأسمى للعقل البشري بعد انبياء اسرائيل» والذي لم يدخر وسعاً للتوفيق بين اليهودية التقليدية وفكر ارسطو^(١٩). ولكنه بدلاً عن البحث بمهارة عن التوافق بين التوراة والفلسفة الارسططالية، بدأ ميمون بالفصل بينهما، «محافظاً هكذا على التجربة التوراتية، بدون أن يحاول عزلها دائماً عن التجربة الفلسفية ومعارضتها معها جذرياً، كما فعل الغزالي وجوداً هاليفي. فالتوراة والفلسفة مرتبطتان عند ميمون، هما يشقان من ذات الجذور، ويتجهان نحو ذات القمة. ولكن الفلسفة في هذه المسيرة المشتركة، تلعب دور الطريق، في حين ان التوراة توجه الانسان الذي يتقدم عليها»^(٢٠).

بالتأكيد ان الفلسفة، تشكل، بالنسبة لميمون نظاماً متيناً، كما تشكل نظاماً خطراً عندما تفهم بشكل سيء. ولا يباح التكريس لكمال العقل الا بعد ادراك الكمال الخلفي (بمراجعة الشريعة)^(٢١).

إن الدراسة الميتافيزيكية المعمقة ليست الزامية لكل اعضاء الجماعة، ولكن على الجميع، اتباع الشريعة وتوافقها بالتأمل الفلسفي. إن الثقيف العقلي يشكل فضيلة أعلى من الفضائل الخلقية. وقد ركز ميمون في ١٣ أطروحة جوهر الميتافيزيك، معتبراً أن هذا هو الحد الأدنى النظري هو ما يجب التأمل فيه وتمثله من كل واحد من المؤمنين لأنه لم يتردد عن التأكيد بأن المعرفة للنظام الفلسفي هي شرط ضروري لضمان استمرارية الحياة بعد الموت^(٢٢).

وتاماً كغيلون وكسعديا عكف ميمون على ترجمة الأحداث التاريخية ولغة التوراة بلغة فلسفية. وبعد ان نقد وطرح الأفكار الهرمسية من نوع علم الكلام، ابرز واستعمل مسيرة ارسطو. وبالتأكيد، إن أي برهان لم يستطع توفيق ازالة العالم المؤكد عليها من قبل ارسطو والخلق من العدم *ex nihilo*، المعلنة في التوراة. غير ان هاتين الاطروحتان، بالنسبة لميمون، لهما مشترك وهو انها لا تقدمان ادلة يتعذر دحضها. وحسب رأي الفقيه اليهودي ان التكوين *genèse* لا يؤكد (الخلق من العدم كحقيقة: إنه يوحى به، ولكن تفسيراً رمزياً يمكن له أن يفسر النص التوراتي في معنى الاطروحة الاغريقية. فلا يمكن للجدل اذن أن يحسم الا بفضل معيار خارج اليقين التوراتي: هذا المعيار هو سيادة الرب وتعاليمه بالنسبة للطبيعة)^(٢٣).

ولكن ميمون ، رغم عبقريته لم ينجح ، أبداً بالبرهان على تماهي الاله - المحرك الخالد عند اريسطو ، مع الاله ، الحر الكلي القدرة والخالق في التوراة . ومن جهة أخرى ، يؤكد ان الحقيقة ، يجب لها ، وهي تستطيع ، ان تكتشف خاصة ، بالعتل ، وبعبارة أخرى ، بفلسفة اريسطو ، وباستثناء موسى ، يرفض ميمون صحة الكشوفات النبوية ، ويعتبرها كعمل تخيل . إن التوراة التي تلقاها موسى هي أثر وحيد وصالح لكل الأزمنة وبالنسبة لأكثرية المؤمنين ، تكفي دراسة التوراة واحترام محرماتها .

والاخلاق عند ميمون هي تركيب بين التراث التوراتي والنموذج الارسططالي ، وفي الواقع ، انه يمجّد الجهد العقلي والمعرفة الفلسفية . وان مسيحيتها هي ارضية صرفة : «مدينة بشرية مؤسسة على اكتساب معرفة مثيرة لممارسة عفوية للفضيلة»^(٢٤) . وبدلاً من قيامة الأجساد يعتقد ميمون بخلود متحصل بالمعرفة الميتافيزيكية . ومع ذلك ، فإن بعض المفسرين لفتوا الانتباه حول ما يمكن تسميته «اللاهوت السليبي» لميمون . «بين الرب والانسان ، يوجد العدم والهاوية [. . .] ، كيف يمكن اجتياز هذه الهاوية ؟ بقبول العدم ، بدنياً . ان سلبية القرب الالهي ، وعدم امكانية ادراك الله في المنظور الفلسفي ليسا سوى صور من أجل هذا الترك للانسان إلى العدم : وانه بالتقدم عبر العدم يتقرب الانسان من الله [. . .] . في بعض الفصول البارزة من دليل المحتارين ، يظهر ميمون كيف ان كل صلاة يجب ان تكون صمتاً وكيف ان كل متابعة يجب ان تهدف أو تتجه نحو شيء ما أكثر رفعة ألا وهو الحب . فبالحب ، يمكن ايجابياً اجتياز الهوة بين الله والانسان : بدون فقدان شيء من صرامته يقام اللقاء بين الله والانسان»^(٢٥) .

وتقتضي الملاحظة من الآن ، ان الفكر الفلسفي اليهودي ، رغم التأثيرات ، التي هي من جهة أخرى كثيرة أو قليلة في سطحياتها ، لفلاسفة اغريق ، وهيللنستين ومسلمين أو مسيحيين ، لم يفقد قوته ولا أصوليته . وبأقل من التأثيرات ، يتعلق بالأولى بحوار مستمر بين المفكرين اليهود وممثلي مختلف النماذج الفلسفية للوثنية القديمة ، وللإسلام والمسيحية . هذا الحوار ترجم بالاغناء المتبادل للمتجاوزين ويوجد وضع مشابه في تاريخ التصوف اليهودي (ف ٢٨٨ع) . وفي الواقع ، ان العبقرية الدينية اليهودية تتميز في آن واحد بالاخلاص للتقليد التوراتي ، وبالقدرة على تحمل عدد من

«التأثيرات» الخارجية ، بدون ان تحكم من قبلها مطلقاً .

٢٨٨ - التعابير الأولى للتصوف اليهودي

إن علم تشكل (مورفولوجيا) التجربة الصوفية اليهودي غني ومعقد . وقبل التحليلات التي سنوردها ، تحسن الإشارة لبعض الخطوط المميزة . فباستثناء الحركة المسيحانية المعلنة من قبل ساباتي زوي Sabbatai Zwi (ف ٢٩١ع) ، لم تنفصل أية مدرسة أخرى عن اليهودية المعيارية رغم التوترات الظرفية ، قلت أو كثرت مدتها مع السنة التعليمية (رابانية) . أما بالنسبة للباطنية التي تميز التصوف اليهودي منذ البدء ، فقد شكلت لوقت طويل جزءاً من التراث الديني اليهودي (انظر - ما سبق بحثه جزء ٢ من هذا الكتاب) .

كذلك الأمر ، فإن العناصر الغنوصية ، المتكشفة قليلاً في كل مكان ، تشتق في آخر مطاف من غنوصية يهودية^(٢٦) . ويضاف إلى ذلك بأن التجربة الصوفية العليا أي الاتحاد مع الله ، تبدو على الأكثر استثنائية . وبصورة عامة فإن بداية التصوف هي رؤية الله ، وتأمل عظمته وإدراك اسرار الخلق .

ويتميز أول مظهر للتصوف اليهودي بالأهمية المعطاة للتصاعد الوجداني حتى العرش الالهي الميركة *la merkaba* * . وهذا التقليد الباطني المتأكد سابقاً في القرن الأول قبل المسيح ، يتمدد حتى القرن العاشر^(٢٧) . عالم العرش ، مكان ظهور العظمة الالهية يتناسب ، بالنسبة للتصوف اليهودي ، مع البليروم Plérone («الطوي») للغنوصيين المسيحيين والهرمسين . وإن النصوص ، القصيرة والغامضة في أكثر الأحيان مشار إليها بـ «كتب الهيكلالوث *livres des Hekhaloth*» («قصور سماوية») . إنها تصف العزف والقصور التي يعبرها الرائي في سفره قبل الوصول إلى سابع وآخر قصر (hekal) هيكلال) ، حيث يوجد عرش الجلال ، وإن السفر الوجداني ، المسمى في البدء

* المركبة عند المسلمين هي الرفوف الأعلى .

«صعود نحو الميركابا» جرت الدلالة عليه ، حوالي ٥٠٠ ، لأسباب مجهولة ، «التزول نحو الميركابا» . وبالتناقض ، فإن أوصاف «التزول» تستعمل تورات تصاعدية .

ومنذ البداية ، يبدو ان المقصود هنا جماعات سرية منظمة بإحكام ، وكشفت مذهبها الباطني وطرقها للمتلقين فقط . ويتوجب على المبتدئين ان يمتلكوا باكثر من الصفات الخلقية ، بعض المزايا الهامة كالفراسة وقراءة الكف .

وقد كان يتم تحضير السفر الوجداني خلال اثني عشر يوماً أو اربعين يوماً من الممارسات التنسكية : صيام ، أغاني طقوسية ، تردد الاسماء ، وضع خاص (الرأس بين الركبتين) .

ومن المعلوم ان صعود الروح عبر السماوات ، والاختطار التي تواجهها ، كانت نغمة عامة في الغنوصية والمهرسية للقرنين الثاني والثالث . وكما كتب جيرشوم شوليم ، فإن صوفية الميركابا تشكل واحدة من الفروع اليهودية للغنوص (العرفان)^(٢٩) .

مع ذلك ، فإن محل الأرخونات Archontes ، الذين كانوا عند الغنوصيين يدافعون عن السماوات السبعة السيارة ، قد أخذ ، في هذه الغنوصية اليهودية ، من قبل «البوايين» القائمين على يمين ويسار مدخل القاعة السماوية . وفي الحالتين تحتاج الروح كلمة المرور : خاتماً سحرياً ، متضمناً اسماً سرياً ، يبعد الشياطين والملائكة المعادية . وبمقدار ما يتتابع السفر تصبح الاخطار اكثر عنفاً . وتظهر التجربة الأخيرة على جانب من الغموض وكلغزوفي فقرة محفوظة في التلمود ، يتوجه الراي اكييا للرايين الثلاثة حيث كانت نيته الدخول إلى «الفردوس» ويقول لهم : «عندما ستصلون أمام صفائح الرخام المتأليء لا تقولوا ابداً : ماء ، ماء . لأنه كتب : «من يتلفظ بالكاذب لن يقيم بحضرتي» وفي الواقع ، إن البريق المبهل لصفائح الرخام التي بلط بها القصر ، كانت تعطي الانطباع عن امواج المياه^(٣٠) .

وثناء السفر ، تتلقى الروح كشوفات متعلقة بأسرار الخلق وتراتبية الملائكة وممارسات السحر الابيض . وفي أعلى سماء ، واقفة أمام العرش «تأمل (الروح) الوجه الروحي للألوهية في رمز «الوجه الذي له مظهر وجه انسان» والذي كان رخص للنبي

حزقيال برؤيته على عرش الميركابا . لقد كان كشف له هنالك «مقياس الجسد» . شيور
كوما ، في العبرية ، اي تمثيل بشري للألوهية ، ظاهرة كالانسان الأول ، ولكن ايضاً
كعاشق نشيد الانشاد . وفي ذات الوقت تتلقى (الروح) كشف الأسماء السرية
لاعضائه» (٣١) .

ونواجه عرض الاله الغير مرئي لليهودية في صورة صوفية يتكشف فيها «الجلال
الكبير» للرؤية والأنجيل المزورة لليهودية . . غير ان هذا التمثيل المصور للخالق (من
ردائه الكوني شعت النجوم والكواكب . . الخ) يتطور بدءاً «من مفهوم توحيدى
مطلق ، تنقصه الخاصية الهرطقية والتناقضية التي كان قد اعتمدها عندما كان الاله
الخالق مقابلاً للاله الحقيقي» (٣٢) .

وإلى جانب الكتابات المتعلقة بالميركابا ، يشاهد في القرون الوسطى انتشار نص
أصبح مشهوراً في كل بلدان الشتات ، دياسبورا ، وهذا النص مؤلف من بضع
صفحات (سفر ياتسيرا أي كتاب الخلق) . إن تاريخ ومصدر هذا الكتاب مجهولان ،
ومن المرجح انه ألف في القرن الخامس والسادس . وهو يتضمن عرضاً موجزاً للنشكونية
والكورمولوجيا . وقد جهد كاتبه لأن «يوفق افكاره المتأثرة ، تأكيداً ، بمصادر
إغريقية ، مع الانظمة التلمودية المناسبة لمبدأ الخلق والميركابا ، وعبر هذا المشروع
نصادف لديه ، لأول مرة ، تفسيرات معادة ذات اتجاه تلقيني لمفاهيم تمس
الميركابا» (٣٣) .

ان القسم الأول يقدم الـ «٣٢ طريقة عجيبة للحكمة (لا هوكلها أو صوفيا) التي
بها خلق الله العالم (ف ٢٠٠ع) : الـ ٢٢ حرفاً من الاحرف الهجائية المقدسة والـ ١٠
اعداد الأولية (السيفيروس) . وأول سيفيرا هو الروح (رواه Ruah) الاله الحي . ومن
الروح Suah خرج الهواء الأولي ، الذي منه تولد الماء والنار ، ثالث ورابع السيفيروس .
ومن الهواء الأولي خلق الله الـ ٢٢ حرفاً . ومن الماء خلق المتاهة الكونية ، ونار عرش
الجلال وتراتيبات الملائكة . والسيفيروس الستة الأخيرة تمثل الاتجاهات الستة
للفضاء» (٣٤) .

وان التعليم في موضوع السيفيروس المزركش بروحانية الحروف ، له على الأرجح أصل افلاطوني محدث ، غير ان فكرة «الحروف التي بواسطتها خلقت السماء والأرض» يمكن تجديد تفسيرها في اليهودية^(٣٥) .

«ومن هذه الشكوكية والكوزمولوجيا المؤسسة على روحانية اللغة ، التي تفضح بوضوح ايضاً العلاقة مع الافكار التنجيمية ، ولطرق توصل مباشرة وبكل وضوح إلى مفهوم سحري لقوة خلاقة وعجائية للحروف والكلمات»^(٣٦) . وقد استعمل سفر يتسيرا Supher Yetsira = كتاب الخلق لأغراض توما تورجية (صنع المعجزات) thaumatuegiques . وقد أصبح الرفيق الملازم للسلفيين Kabbalintes وشرح من قبل كبار المفكرين اليهود في العصر الوسيط ، من سعديا وحتى الساباتي دونونو .

ان التقوية le piétisme اليهودية القروسطية هي من عمل «ثلاثة رجال اتقياء من المانيا» (حصيدي اشكيناز) : صموئيل ، وابنه جودا الحصيدي واليعازر دي وورم . وقد ظهرت الحركة في المانيا في بداية القرن الثاني عشر وغرقت عصرها من الابداعية ما بين ١١٥٠ و ١٢٥٠ . ومع انها تفرز جذورها في صوفية الميركابا وسفر يتسيرا ، فإن تقوية رينان هي ابداع أصولي وجديد . ويمكن ان يلاحظ فيها العودة إلى بعض الميتولوجيا الشعبية ، غير ان الحصيدين يرفضون التعاليم الرؤوية والحسابات المتعلقة بمجيء المسيح . كذلك ، فإنه لا العلم الربانيين ولا اللاهوت التقليدي يعنيهما الأمر في شيء . انها يتأملان بصورة خاصة سر الوجدانية الالهية ومجهدان لتطبيق مفهوم جديد للتقوى^(٣٧) . وخلافاً للسلفيين (القبالين) الاسبان (ف ٢٨٩ع) فإن المعلمين الحصيدين يتوجهون إلى الشعب .

وان المؤلف الرئيسي للحركة سفر الحصيدي sepher Hassidim - يستعمل بخاصة طرائف ونقائض وقصص تدعو إلى التقوى . وتركز الحياة الدينية على التنسك ، والصلاة وحب الله . لأنها في مظهرها الأكثر سمواً ، تماهي الخوف من الله بالورع تجاهه ؛ يحبه^(٣٨) .

وقد أجهد الحصيديون انفسهم للحصول على نقاء كامل للروح : فقبلوا وهم رابطو الجأش ، الاهانات وتهديدات الاعضاء الآخرين من الجماعة^(٣٩) .

انهم لا يسعون إلى السلطة ، ومع ذلك فإنهم يمتلكون طاقات سرية -
سحرية^(٤٠)

إن توبات الحصيديين تستعير بعض التأثيرات المسيحية ، ما عدا ما يتعلق بالجنس . اذ من المعلوم ان اليهودية لم تقبل مطلقاً هذا النوع من التنسك . ولوحظ من جهة اخرى ميل حلولي كبير . فالرب هو اكثر قرباً من العالم ومن الانسان من قرب الروح من الانسان^(٤١) .

ولم ينشر حصيدو المانيا حكمة فلسفية نموذجية ، مع ذلك يمكن تمييز ثلاثة افكار مركزية ، مشتقة على الأغلب من منابع مختلفة (١) مفهوم (المجد الالهي) كابود Kabod (٢) فكرة الكرويي (قدیس) Cherub القائم قرب العرش ، بامتياز* (٣) اسرار القداسة والعظمة الا لاهيتين واسرار الطبيعة البشرية وخط سيرها نحو الله^(٤٢) .

٢٨٩ - القبالة المتوسطة .

إن (القبالا) كانت ابداعا استثنائياً للتصوف الباطني اليهودي ، وهو مصطلح يعني على وجه التقريب «سنة ، سلفية ، تقليد» (من الجذر قبل KBL (تلقى) . وكما سنرى ، فإن هذا الابداع الديني ، ببقائه أميناً على اليهودية ، اعاد تجميع إما التراث الغنوصي ، المشوب أحياناً بالهرطقة ، واما بني التدين الكوني^(٤٣) (المشار إليه أحياناً بشكل غير دقيق بالحلولية) ؛ الأمر الذي أثار، لاحالة توتراً صعباً بين المتبنين لاحدى القبالات والسلطة الربينية . يضاف إلى ذلك منذ الآن . ان القبالا ، رغم هذا التوتر ، ساهمت في تقوية ، مباشرة أو بصورة غير مباشرة ، المقاومة الروحية للجماعات اليهودية في الشتات ، وازضافة إلى ذلك فإن القبالا ، مع انها غير معروفة بما فيه الكفاية ومفهومة بشكل ضعيف جداً من قبل بعض الكتاب المسيحيين ، اثناء وبعد النهضة ، لعبت دوراً

* - في لسان العرب : الكرويون سادة الملائكة ، منهم جبريل وميكائيل واسرافيل ، هم المقربون وفي شعر لامية بن الصلت كروية منهم ركوع وسجد .. (العرب) .

في عملية «عدم ريفية» المسيحية الغربية ، وبعبارة أخرى شكلت قسماً من تاريخ الأفكار في أوروبا بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر .

إن أقدم اطروحة للقبالة بمعنى الكلمة توجد في الكتاب المسمى بهير Bahir ، والذي نقلت نصوصه في حالة ناقصة ومبعثرة ومؤلفة من عدة أرومات ، وهو غامض اخرق . وقد قمّش البهيري بروفانس ، في القرن الثاني عشر ، بدءاً من مواد اكثر قدما ، ومن بينها راز رابا Raza Rabba («السر الأعظم») ، الذي رأى فيه بعض الكتاب الشرقيين كتابة باطنية هامة^(٤٤) ، إن الأصل الشرقي ، وبدقة اكثر الغنوصي - للمبديء المنتظمة في البهير ليس موضع شك . ففيه توجد تعاليم الكتاب الغنوصيين القدامى المؤكدة في مختلف المصادر اليهودية : الأيونات les Eons المذكورة والمؤنثة ، و(الطوي) بليروم ، وشجرة الأرواح ، والشيخينا la Shekhina أي (حضور الرب مع الشعب المختار اينما كان) موصوفة بعبارات مشابهة لتلك العبارات المستعملة بالنسبة للحكمة المزوجة (ابنة وزوجة) الغنوصيين^(٤٥) .

إن مسألة علاقة ممكنة «بين تبلور القبلا ، تحت شكل تحرير البهير ، والحركة المانوية بقيت مع ذلك غير دقيقة . وهذه العلاقة تنقصها الدلائل الدقيقة ، ولكنه لن يعرف استبعاد الامكانية . ففي تاريخ الفكر ، ان كتاب البهير يمثل التكرار ربما الواعي ، وانما المعزز تماماً بالواقع ، برمزية عتيقة ليس لها مثيل في اليهودية القروسطية ، ومع نشر كتاب البهير ، فإن شكلا يهوديا للفكر الاسطوري يدخل في مزاحمة ، ولا محال ، بتناقض مع الصيغ الربينية والفلسفية لهذه اليهودية»^(٤٦) .

وفي الأساس طور قباليو البروفانس نظرياتهم حول قاعلة بهير . فقد اكملوا السنة الغنوصية القديمة ذات المصلر الشرقي بعناصر لعالم روحي آخر ، وبخاصة الافلاطونية المحدثه للقرون الوسطى . «وفي الشكل الذي ظهرت فيه القبلا للوجود ، اشتملت على هذين التقليدين ، والتشديد وضع حيناً على احدهما ، وحيناً على الأخرى . وانها تحت هذه الصورة ، أو الصورة المزوجة ، قد غرست في اسبانيا»^(٤٧) .

وبالرغم من احترامها للتقنية الصوفية ، فإن الوجد لم يلعب دوراً هاماً ، وفي الأدب القبالي الضخم يوجد قليل من العودات إلى التجارب الوجدية الشخصية ، وندراً

جداً إلى التوحد الصوفي . وقد اشير إلى الاتحاد مع الله بعبارة دفيكوس dvekuth^(٤٨) «واذعان» و«اتصال بالله» ، وهي حالة من النعمة تتجاوز الوجد . وهذا ما يفسر ان الكاتب الذي قيّم الوجد كثيراً كان الأقل شعبية ، انه يتعلق بابراهيم ابولافيا المولود في سراغوسة سنة ١٢٤٠ والذي سافر كثيراً في الشرق الادنى ، واليونان وايطاليا . وقد انتشرت مؤلفاته العديدة عن طريق الرنين ، وبشكل اكثر دقة ، بسبب طبيعتها الشخصية جداً .

وطور ابولافيا تقنية وسطية حول اسماء الله بتطبيقه العلم التركيبي للحروف الهجائية العبرية . ولكي يوضح العمل الروحي الذي يؤدي لتحرير الروح من قيود المادة ، استعمل صورة عقدة يجب فكها لا قطعها . وقد استحضر ابولافيا كذلك بعض ممارسات من نوع اليوجا : الايقاع التنفسي ، وضعيات خاصة للجسم ، انواع مختلفة من التلاوة الخ^(٤٩) . وبواسطة اشراك وقلب الحروف ، ينجح المريد بالحصول على التأمل الروحاني والرؤية النبوية . ولكن وجده ليس رغبة ، لقد وصفه ابولافية وكأنه غفران متقدم . وعليه ، فإن المريد اثناء الوجد يمتلىء بنور مما وراء الطبيعة^(٥٠) «ان ما اسماء ابولافيا وجداً ectuse هو الرؤية النبوية في المعنى الذي فهمه ميمون والمفكرون اليهود في القرون الوسطى ، والاتحاد العابر للعقل البشري مع الرب ، والسائل العصبي في الروح الشخصية للعقل الفعّال للفلاسفة»^(٥١) .

ومن الراجح جداً ، ان تأثير أبو لافيا واحترامه بعد وفاته كانا محدودين جذريا بظهور ، (كتاب العظمة) في اسبانيا بعد وقت قصير من ظهور (سفرهازدهار) بعد سنة ١٢٧٥ ، فقد لاقى هذا الكتاب الضخم (زهاء ١٠٠٠ صفحة) في طبيعته الآرامية ، نجاحاً منقطع النظير في تاريخ القبالا . والنص الوحيد الذي اعتبر ككتاب قانوني . وضع خلال قرون من الزمن إلى جانب التوراة والتلمود . ان كتاب الزوهار المكتوب تحت شكل Psemdéigraphique يقدم المناقشات اللاهوتية والتعليمية للراي الشهير سيمون بار يوشاي (القرن الثاني) مع اصدقائه وتلامذته ، وخلال زمن طويل اعتبر العلماء (كتاب العظمة) كجمع لنصوص من أصول متنوعة ، يتضمن بعضها افكار ر. سيمون ، غير ان جيرشوم شوليم أظهر ان كاتب هذه «الرواية الصوفية» هو القبالي الاسباني موسى من ليون^(٥٢) .

وحسب شوليم ، فإن الزوهار يمثل الحكمة اليهودية ، أي نظرية صوفية هدفها الأساسي معرفة ووصف أعمال الله الخفية . فالرب الخفي مجرد عن الصفات والنعوت ، ويسميه الزوهار والقباليون (اينسوف) أي اللانهائي . ولكن بما ان الرب الخفي فعال في أي مكان في الكون ، فإنه يظهر بعض النعوت ، التي تمثل بدورها بعض المظاهر للطبيعة الإلهية .

وحسب القباليين ، يوجد عشرة صفات أساسية للرب ، التي هي في ذات الوقت المستويات العشر التي تدور عبرها الحياة الإلهية . إن أسماء هذه السفيروس Saphiroth العشرة تعكس الطرائق المختلفة للظهورات الإلهية^(٥٣) . وهذه السفيروس مجتمعة تؤلف العالم الموحد لحياة الرب وهي متخيلة تحت شكل (الشجرة الصوفية للرب) أو شكل رجل (آدم كادمون ، الانسان الأول) . وإلى جانب هذا الرمز العضوي ، يستعمل الزوهار رمزية الكلام ، الاسماء التي اعطاها الرب إلى ذاته .

فالخلق وجد في الرب ؛ وتلك هي حركة الإبن - سوف = اللانهائي الخفي ، الذي يمر من الراحة إلى النشكونية إلى الكشف الذاتي . وهذا العمل يحول الاينسوف ، والنعيم الفائق الوصف ، إلى «عدم» صوفي تنبثق عنه السفيروس . وفي الزوهار ان التحول من عدم لكائن عُبِّر عنه برمز نقطة البدء^(٥٤) . ويؤكد مقطع (٢٤٠-١) ان الخلق جرى على مستويين «مستوى أعلى ومستوى ادنى» أي عالم السفيروس والعالم المرئي . وإن الكشف الذاتي للرب ونشره في حياة السفيروس يشكل مبحثاً لأصل الآلهة . «أصل الآلهة والنشكونية لا تمثلان عمليتين مختلفتين من الخلق ، انما مظهران لذات العمل»^(٥٥) . في الأصل كل الاشياء شكلت كلا كبيراً ، وحياة الخالق نبضت في حياة مخلوقاته . وانه بعد السقوط فقط أصبح الرب «متصاعداً»^(٥٦) .

إن واحدة من التجديدات الأكثر دلالة للقباليين هي فكرة اتحاد الرب مع الشيخينا ، وهذا التزاوج hieros gamos يحقق الوحدة للرب . وحسب الزوهار ، في البدء كان الاتحاد دائماً وغير متقطع ، ولكن خطيئة آدم أثارت توقف التزاوج وبطريق النتيجة «إبعاد الشيخينا» . وليس الا بعد بعث الانسجام الأصولي في عمل الغفران ان «الرب سيكون واحداً واسمه واحد»^(٥٧) .

وكما قلنا سابقاً ، فإن القبالة ادخلت في اليهودية مجدداً عدة أفكار واساطير ذات علاقة بالتدين من نوع كوني . ولتقديس الحياة بالعمل والشعائر المقررة بالتلمود ، يضيف القباليون التقييم الميتولوجي للطبيعة والانسان ، واهمية التجربة الصوفية ، وحتى بعض القواعد من أصل غنوصي . ويمكن ان يكتشف في هذه الظاهرة «للافتاح» وهذا الجهد لاعادة التقييم ، الحنين لعالم ديني حيث يتواجد العهد القديم والتلمود مع التدين الكوني ، والغنوصية والتصوف . إن ظاهرة مشابهة تبدى في المثالية «العالمية» لبعض الفلاسفة الهرمسيين في عصر النهضة الايطالية .

٢٩٠ - اسحاق لوريا والقبالة الجديدة

إن واحدة من نتائج طرد اليهود من اسبانيا ، في ١٤٩٢ ، كان تحول القبالة : من مذهب باطني ، وانتهت لتصبح مذهباً شعبياً . فحتى كارثة ١٤٩٢ كان القباليون قد ركزوا اهتمامهم على الخلق بدلاً من الغفران : إن من عرف تاريخ العالم والانسان استطاع حالاً العودة إلى الكمال الأصلي^(٥٨) . غير انه على اثر الطرد ، اجتاحت تفخيم الكلام المهيح للمسيحانية اجتاحت القبالة الجديدة ، وأصبحت البداية والنهاية مرتبطتين سوياً . واخذت الكارثة قيمة غفرانية : دلت على آلام الطفولة في العصر المسيحاني (ف ٢٠٣ع) . ومنذئذ ، فهمت الحياة كالوجود في النفي ، وفسرت آلام النفي ببعض النظريات الجرئية حول الرب والانسان .

وبالنسبة للقبالة الجديدة ، فإن الموت ، والتوبة . واعادة الولادة هي الاحداث الثلاثة القابلة لرفع الانسان نحو اتحاد طوباوي مع الرب . ان الانسانية مهددة ليس بفسادها الخاص فحسب ، وانما ايضاً بفساد العالم ؛ وهذا مثار بالتصدع الأول في الخلق ، عندما انفصلت /الذات/ عن الموضوع . وبالاصرار على الموت والنشور (مفسرين كاعادة تجسيد أو اعادة ولادة روحية متحصلة على اثر التوبة) حصلت دعاية القباليين على شعبية كبرى ، وعبر هذه الدعاية أجهدت المسيحانية الجديدة نفسها لتشق طريقاً لها^(٥٩) .

وبعد حوالي اربعين سنة من الطرد من اسبانيا ، أصبحت صفد ، المدينة من جبال الجليل ، بؤرة القبالة الجديدة ، ولكن صفد فيها سبق هذا التاريخ كانت مشهورة كمركز روحي على نطاق واسع . ومن بين المعلمين الاكثر شهرة يتوجب ذكر اسم يوسف كارو (١٤٨٨-١٥٧٥) مؤلف أهم رسالة في الأصولية الربينية ، وأيضا جريدة غربية ومؤثرة . وكان يسجل فيها تجاربه الوجدية المستوحاة من الملاك المجيد maggid المبعوث للقوى السماوية . ان المثال لكارو هو تثقيفي بصورة خاصة ، إنه يظهر امكانية تكامل الثقافة الربينية هالكها halakha والتجربة الصوفية من نوع قبالي ، وفي الواقع إن كارو وجد في القبالة الاساسات النظرية بأكثر مما وجد الطريقة العملية بهدف الحصول على الوجد وبالتالي حضور المجيد maggid^(٦٠) .

أما بالنسبة للقبالة الجديدة التي انتصرت في صفد ، فإن معلميه المشهورين كانوا موسى بن يعقوب كوردوفيرو (١٥٢٢-١٥٧٠) واسحاق لوريا . فالأول ، مفكر نشيط ومنهجي ، أعد تفسيراً شخصياً للقبالة ، وبخاصة أكثر للزوهار . وإن مؤلفه معتبر ، في حين ان لوريا ، المتوفي في ١٥٧٢ ، عن عمر ٣٨ سنة لم يترك أي مخطوط . وقد عرفت طريقته عبر ملاحظات ومراسلات لزملائه ، وبخاصة رسالة ضخمة إلى حاييم فيتال (١٥٤٣-١٦٢٠) . وحسب كل الشهادات ، فإن اسحق لوريا كان مبصراً (رائي) متمتعاً بتجربة وجدية غنية جداً ومتنوعة بشكل متفرد. ان فقهه مبني على مبدأ الزمزمة (تسيميشوم) . وهذا المصطلح كان يعني أصوليا التركيز والانقباض ، ولكن القباليين استعملوه في معنى (الاعتكاف) . وحسب لوريا ، فإن وجود العالم جعل ممكناً بعملية من اندغام Contraction الرب . اذ هل يمكن ان يوجد عالم اذا كان الرب في كل مكان ؟ «كيف يستطيع الرب خلق العالم من العدم اذا لم يكن هنالك عدم ؟...» وعليه ، «كان الرب مكرماً ليصنع محلاً من أجل العالم بتركه ، ليقال هكذا ، منطقة داخل ذاته ، نوعاً من الحيز الروحاني انسحب منه ليعود في عمل الخلق والكشف»^(٦١) . وبالنسبة ، إن أول عمل للكائن اللامتناهي (ابن - سوف) لم يكن حركة في الخارج وإنما عمل من الانكفاء لداخل ذاته . وكما يلاحظ جيرشوم شوليم ، فإن الزمزمة هي الرمز الاكثر عمقاً للنفي ، فيمكن لها أن تعتبر كنفي الآله في ذاته . وانه فقط في حركة ثانية أرسل الرب شعاعاً من نور وبدأ كشفه الخلاق^(٦٢) .

وقبل الانكماش كان يوجد في الرب ، لصفات الحب والرحمة فحسب ، وانما ايضا صفات الجبروت الالهي التي يدعوها القباليون دين Din (دينونة) مع ذلك ، فإن الدين يبدو بارزا وقابلاً للتماهي على اثر (الزمزمة) لأن هذه الأخيرة تعني ليس عملاً من النفي والتحديد فحسب وانما ايضاً (الدينونة) ويميز في عملية الخلق اتجاهان : مد وجذر («خروج» في اللغة القبالية) . وكالعضوية البشرية تماماً تشكل عملية الخلق نظاماً جباراً من الشهيق والزفير الالهي . ويتابع نص الزوهار التقليدي يعتبر لوريا العمل الشكوني كما لو ان له محلاً في الله ؛ وفي الواقع ، تبقى بقية أثر من النور الالهي في الفضاء البدئي المخلوق بالزمزمة Tsimtsum^(٦٣) .

إن هذه النظرية قد اكملت بمفهومين عميقين وجريئين : «فتات الأواني» (شيمفiras - هاركيليم) والتيكون Tikkun ، وهو مصطلح يعني ترميم خطيئة أو «اصلاح» . فقد كانت الانوار التي صدرت تباعاً من عيون اللامتناهي اين - سوف ، جمعت وحفظت في أواني متناسبة مع السفيروس . ولكن عندما يأتي الدور لهذه السفيروس الستة ، فإن النور الالهي ينساب بضربة واحدة وتتفجر الأنية قطعاً صغيرة . وهكذا يفسر لوريا ، من جهة ، خلط أضواء السفيروس مع الأهداف أي قوى الشر التي كانت تستقر في «عمق الهوة الكبرى» ومن جهة أخرى ، الضرورة لتطهير عناصر السفيروس ، بازالة «الاصداف» بهدف اعطاء هوية منفصلة للشر^(٦٤) .

أما بالنسبة للتيكون ، «الترميم» للنظام المثالي ، والتكامل الكلي البدئي ، فهو الهدف السري للوجود البشري ، وبعبارة أخرى الخلاص . وكما يكتب شوليم «إن هذه الأقسام من القبالة للوريا تمثل النصر الاعظم للفكر البشري الذي لم يسبق ان قدمه في تاريخ التصوف اليهودي» . وفي الواقع ، ان الإنسان مفهوم micro-cosme كجزئي - كوني والرب حي كأكبركوني macro-cosme . ويصل لوريا بنوع ما الى اسطورة للرب معطياً ولادة لذاته^(٦٥) . واكثر من هذا ، فإن الانسان يلعب دوراً ما في عملية البعث النهائي ، وانه هو الذي يكمل تنصيب الرب في مملكته السأوية ، إن التيكون الممثل رمزيا وكأنه الانبثاق لشخصية الرب ، يناسب عملية من التاريخ . وظهور المسيح هو استهلاك للتيكون . والعنصر الصوفي والعنصر المسيحاني متلاحمان سوية .

إن إكمال رسالة الانسان وضعت من قبل لوريا وقبالي صفد - بخاصة حايم فيقال - بعلاقة مع نظرية التقمص الجيلجول Gilgul . وهذا ما يشير إلى الأهمية المعطاة لدور الإنسان في العالم . فكل روح تحتفظ بفرديتها حتى لحظة بعثها الروحي . والأرواح التي اكملت الوصايا تنتظر كل واحدة في مكانها المبارك تكاملها في آدم ، عندما سيحصل البعث الشامل . وجمالاً فإن التاريخ الحقيقي للعالم ، انما هو تاريخ انتقالات الارواح وتشابكاتها . فالتقمص (جيلجول) يشكل فترة من عملية البعث ومدة هذه العملية يمكن لها أن تختصر بواسطة بعض الأعمال الدينية (طقوس ، توبة ، تأمل ، صلاة)^(٦٦) . وتقضي الإشارة الا انه بعد ١٥٥٠ ، أصبح مفهوم التقمص جزءاً لا يتجزأ من المعتقدات الشعبية والفولكلور الديني لليهود .

«في اليهودية ، كانت قبالة لوريا ، آخر حركة دينية أصبح تأثيرها متشراً في كافة الأوساط اليهودية وفي كافة بلدان الدياسبورا بدون استثناء . لقد كانت هذه آخر حركة دينية في تاريخ اليهودية الربينية التي عبرت عن عالم من حقيقة دينية عامة لمجموع الشعب اليهودي . وبالنسبة لفيلسوف التاريخ اليهودي ، يمكن ان يبدو مدهشاً ان النظرية التي حصلت على مثل هذه النتيجة كانت بعمق متمية للغنوصية ، ولكن تلك هي جدليات التاريخ»^(٦٧) .

ومن المناسب ان نضيف ان النجاح الملحوظ للقبالة الجديدة يبرز مرة أخرى هذا الخيط المميز للعبقرية الدينية اليهودية : القدرة على التجدد بادخال العناصر من أصل اجني دون إضاعة البنى الأساسية لليهودية الربينية مطلقاً . وما هو اكثر من ذلك في القبالة الجديدة ، ان عدداً من المفاهيم ذات النظام الباطني أصبح مقبولاً لغير المتلقين بالاسرار وأصبحت شعبية أحياناً (كما كانت حالة التقمص) .

٢٩١ - المخلص المارق

إن حركة مسيحانية ضخمة ، مع انها اجهضت بسرعة ، انبثقت في ايلول سنة ١٦٦٥ في ازмир : فأمام جمع مهتاج ، أعلن الساباتي ذوي (١٦٧٦-١٦٢٧) أنه مسيح

اسرائيل . وقد سبق ان اثرت شائعات حول شخصه وحول مهمته الالهية ، ولكنه بفضل تلميذه فقط ناتان دي غاذا (١٦٤٤-١٦٨٠) اعترف بساباتي مسيحاً . وفي الواقع كان ساباتي قد عانى بشكل دوري من أزمات كآبة حادة ، يتلوها فرح كبير . وعندما علم بأن متتوراً ، ناتان دي غاذا «كان كشف لكل واحد خفايا نفسه» ذهب ساباتي إليه يأمل الاستشفاء . وعلى ما يبدو أن ناتان قد رآه في حالة وجد ، فإنه قد نجح في اقناعه بأنه كان فعلاً المسيح المنتظر . وهذا التلميذ الموهوب بشكل استثنائي هو الذي نظم لاهوت الحركة وضمن لها الانتشار ، اما بالنسبة لساباتي ، فإنه لم يكتب شيئاً ولم تسند إليه أية رسالة أصولية ، أو أي كلام يمكن تذكره .

وقد أثار خبر مجيء المسيح ، حماساً لا مثيل له ، في كل مكان من دنيا اليهود . وبعد ستة شهور من دعوته ، توجه ساباتي نحو القسطنطينية ، ربما بهدف إهداء المسلمين ولكنه أوقف وسجن من قبل مصطفى باشا (في ٦ شباط ١٦٦٦) . ولكي يتفادى القتل ، تراجع ساباتي ذوي عن اليهودية واعتنق الاسلام^(٦٨) . غير انه لامرورق (المسيح) ولا موته بعد احدى عشر سنة ، أوقف الحركة الدينية التي فجرها^(٦٩) .

إن الساباتانية تمثل الانحراف الأول الجاد في اليهودية منذ القرون الوسطى ، وأول الأفكار الصوفية الموصلة مباشرة لعدم تكامل الأصولية التقليدية . وفي آخر المطاف فإن هذه الهرطقة شجعت نوعاً من الفوضى الدينية . وقد استمرت الدعاية في البدء للمسيح المارق بشكل علني . وليس الا بعد وقت طويل ، وعندما انتظرت «العودة الظافرة للساباتي ذوي من محيطات القذارة» ان الدعاية قد أصبحت سرية .

إن تمجيد المخلص المرتد ، هو تدنيس بغیض بالنسبة للفكر اليهودي ، وقد فسر وأثار أعماق واكثر تناقض للأسرار . وقد سبق لناتان دي غاذا أن اكد في ١٦٦٧ «أن الأعمال الغريبة للساباتي كانت تشكل دليلاً لرسمية رسالته المسيحية» . ولأنه «اذا لم يكن المخلص ، فإن هذه الانعطافات لن تصل إليه مطلقاً» . إن الاعمال الحقيقية للغفران انما هي تلك التي تسبب اكبر فضيحة^(٧٠) . وحسب رأي اللاهوتي الساباتاني كاردوزو (المتوفي ١٧٠٦) ، فإن روح المسيح وحدها هي على درجة من القوة لتحمل مثل هذه التضحية ، أي النزول إلى عمق الهاوية^(٧١) . فبهذه اكمال رسالته (تخليص

الشرارات الالهية الاخيرة سجيئة قوى الشر ؛ يتوجب على المسيح ان يدين نفسه بذاته وبأفعاله الخاصة . وتلك هي الحجة التي من أجلها الغيت منذئذ القيم التقليدية للتوراة (٧٢) .

ويميز اتجاهان بين معتقي الساباتانية : المعتدلون والراديكاليون . الأولون لا يشكون أبداً برسمية المسيح ، لأن الرب لا يستطيع ان يخدع شعبه بمثل هذه القسوة ، ولكن المفارقة المتحققة من قبل المسيح المارق لم تشكل نموذجاً يجب اتباعه . وذكر الراديكاليون بشكل آخر : فعلى المؤمن ، كالمسيح تماماً ، ان ينزل إلى الجحيم لأن الشر يجب ان يحارب بالشر . ويعلن بنوع ما القيمة التخليصية للشر . وحسب بعض الساباتانيين ذوي الاتجاه الراديكالي ، فإن كل فعل ظاهر الدناسة والسوء يحقق التماس مع روح القداسة . وحسب رأي البعض الآخر ، فإن خطيئة آدم بوصفها قد نُسخَت ، فإن الذي يصنع الشر هو فاضل بنظر الرب . وعلى مثال البذرة المدفونة في الأرض ، فعل التوراة ان تتعفن بهدف ان تعطي ثمرة ، وبخاصة المجد المسيحاني . فكل شيء مباح ، وكذلك اذن اللاأخلاقية الجنسية (٧٣) . وقد ادرك الساباتاني الأكثر نحساً ، يعقوب فرانك (مات ١٧٩١) ما أشار إليه شوليم كصوفية العدمية ، وقد أظهر بعض عديماتهم في مختلف النشاطات السياسية من نوع ثوري .

ويلاحظ شوليم ، في تاريخ القبالة ، ان ظهور افكار وتفسيرات جديدة مترافق بالقناعة في أن التاريخ يقترب من نهايته ، وان الاسرار الأكثر عمقاً للألوهية ، والمظلمة اثناء فترة النفي ، ستكشف دلالتها الحقيقية على يقظة العصر الجديد (٧٤) .

٢٩٢ - الحصيدية

يمكن ان يبدو متناقضاً أن آخر حركة صوفية ، الحصيدية ، انبثقت في بودولي وقولهايني ، وهما الاقليمان اللذان مارس فيهما المسيح المارق تأثيره العميق . ومن المحتمل جداً ، أن مؤسس الحركة (الربي اسراييل بعل شيم توف) = المعلم ذي اللقب

المختار ، والمختصر في كلمة (بشت) Becht ، كان متآلفاً مع ساباتانية معتدلة^(٧٥) . ولكنه جعل العناصر المسيحانية للساباتانية حيادية ، وكذلك تراجع عن خصوصية الجمعيات الأخوية somfriere ذات التكريس السري التي ميزت القبالة التقليدية . وقد أجهد (البشت) (١٧٦٠-١٧٠٠) نفسه ليجعل كشوفات القبالين الروحية مقبولة من الجماهير . ومثل هذا التعميم للقبالا إلى أوساط الشعب - والمطعم سابقاً من قبل اسحاق لوريا - ضمن للصوفية وظيفة اجتماعية .

لقد كان نجاح المشروع عجيباً وثابتاً ، وتشكل الخمسون سنة الأولى التالية لموت (بعل شيم توف) (بشت) من / ١٧٦٠-١٨١٠ / الفترة البطولية والخلاقة للحصيدية . وساهم عدد كبير من الصوفيين والقديسين في إعادة توليد القيم الدينية المختارة من اليهودية الشريعة^(٧٦) . وفي الواقع ، ظهر نوع جديد كرئيس روحي : في مكان العالم التلمودي أو التلقن بالقبالة التقليدية ، جرى ابداله ، «بالتور» ، النبي . فالصديق (تساديك) «المستقيم» ، أي المعلم الروحي ، أصبح النموذج المثالي الممتاز ، وقد اضاعت تفسير التوراة وباطنية القبالة اوليتهما . وان فضائل وسلوك الصديق هما اللذان يلهمان التلامذة والمؤمنين : وهذا ما يفسر الأهمية الاجتماعية للحركة . ويشكل وجود القديس ، بالنسبة إلى الجماعة بكاملها ، البرهان المحسوس الذي يمكن ان يحقق المثل الديني الأعلى لاسرائيل . وما يهم في الأمر هو شخصية المعلم وليس النظرية . وقد قال صديق مشهور : «لم أذهب للمجيدي مستيريت لأتعلم التوراة ، وإنما لكي انظر إليه وهو يعقد اربطة احذيته»^(٧٧) .

وبالرغم من بعض التجديدات ذات النظام الشعائري ، فإن هذه الحركة المتجددة دعمت دوماً في نطاق اليهودية التقليدية ، ولكن الصلاة العامة للحصيديين اثقلت بعناصر هيجانية : اغاني ، رقصات ، حماس ، انفجار من الفرح . وهذا التهيج غير المعتاد إضافة إلى سلوك منحرف احياناً من بعض المعلمين ، أثار خصوم الحصيدية ، وفجأة . بعد عام ١٨١٠ اضاع الافراط في النظام الهيجاني احترامه وشعبيته ، وبدأ الحصيديون بالاعتراف بأهمية التقليد الربيني .

والحصيدية ، كما ابرزها جيرشوم شوليم ، لم تقدم أية فكرة جديدة حتى في شكلها المتأخر والمبالغ فيه^(٧٩) . وتتكون مساهمتها ذات الدلالة الكبرى في تاريخ

اليهودية ، في الوسائل البسيطة والجريئة معاً ، والتي نجح القديسون والمعلمون الحصريون في جعلها شعبية - وجعل التجربة لتجديد داخلي مقبولة . وتمثل القصص الكلاسيكية التي أصبحت مشهورة بترجمة مارتن بوبر ، الابداع الأكثر أهمية للحركة . واكتسبت تلاوة الأعمال المنجزة والكلمات الملفوظة من القديسين قيمة شعائرية . وإعادة القصة الوجود لوظيفتها البدئية ، وبخاصة تلك التي تعاود بناء الزمن الاسطوري وتجعل الشخصيات الخرافية والميتافيزيكية حاضرة . وعليه فإن السير الذاتية للقديسين والصديقين غمرت ايضاً بمشاهد رائعة ، حيث تنعكس بعض الممارسات السحرية . وهذان الاتجاهان التصوف والسحر - يتقاربان ويتواجدان في نهاية تاريخ الصوفية اليهودية كما في البداية^(٨٠) .

يضاف إلى ذلك أن الظواهر المشابهة تتلاقى كذلك في أي مكان آخر ، وعلى سبيل المثال ، في الهندوسية أو في الاسلام ، حيث ان تلاوة اساطير النساك واليوجيين المشهورين ، أو المشاهد لملاحم مختلفة ، يلعب دوراً رئيسياً في الدين الشعبي . هنا ايضاً تعرف الوظيفة الدينية للأدب الشفهي ، وفي المكان الأول منه للقصة أي «التواريخ» الخرافية والنموزجية . ومن المثير الإشارة هنا إلى التشابه بين الصديق والغورو guru ، المعلم الروحاني في الهندوسية (المقدس أو المؤله أحياناً من قبل المؤمنين به ، والصديقية تحت شكلها الأخير ، عرفت ببعض الحالات الشافة ، عندما كان الصديق يسقط ضحية قوته . وذات الظاهرة تأكدت في الهند منذ العصر الفيدي حتى العصر الحديث . ونعيد التذكير أخيراً بأن التواجد للاتجاهين - الصوفية والسحر - يميز كذلك التاريخ الديني للهند .

حواشي الفصل السادس والثلاثون

- ١ - في الواقع ، ان القسم الكهنوتي من الصلوقيين فقدوا المبرر بأن يكونوا بعد خراب الهيكل القادة ، وعادت القيادة لفقهاء الشريعة أي الفريسيين ولمن خلفهم (الرابان) اساتذة التعليم .
- ٢ - انظر هوغو ماثيل ، دراسة في تاريخ السهندرين ، وبخاصة ص ١٤٠
- ٣ - الفكرة عن ثورات شفوية معلمة من قبل موسى ليوشع والكهنة ترجع إلى تقليد قديم محترم
- ٤ - واحدة من مزايا الكتاب الراهنة لجاكوب فوستر- (اليهودية) هي لتوجيه وتحليله لمواد ترجع إلى عصور سابقة اثناء وبعد الحريين مع روما
- ٥ - ٨ - اسماء المراجع .
- ٩ - بعض القوانين ذات العلاقة الزراعية بالطهارة والأضحية المطبقة في فلسطين ، فقدت عملها في تلمود بابل
- ١٠ - ر- الكتاب القديم - (انتراليا) - والذي مازالت له قيمة (سليانيشتر) .
- ١١ - مثل الصلوقيين في القرن الثاني
- ١٢ - بعض اعماله فقدت ، بين غيرها الترجمة العربية المفسرة للتوراة
- ١٣ - الأدلة المعتمدة من قبل (صاديا) للبرهنة على وجود الاله مستعارة من علم الكلام الاسلامي .
- ١٤ - اسم المرجع .
- ١٥ - عرف ابن غربيا تحت اسم آفيسرون .
- ١٦ - اندريه نيشر «الفلسفة اليهودية في القرون الوسطى ص ١٠٢١ . ومن المحتمل جداً ان باهايا تأثر بالتعرف الاسلامي ولكن الصفة اليهودية الحيادية الروحية ولاهوتة غير موضوع شك . وكما يلاحظ بحق ان باهايا يعيد التقليد الحصيدى اليهودي المؤكد في التوراة ، في قمران وفي التلمود : (التنسك اليقظة ، السهر الليلية في الصلاة والتأمل) باختصار التقليد الذي «عرف ان يدفق التجربة الدينية الأكثر عالمية مع الخصوصية الدون اسرائيلية»

١٧ - وهذا ما قاله ايزاودر تويرسكي مستفيضاً بالنسبة للبعض محرضاً بالنسبة للبعض الآخر ، ونادراً ما يثير حالة اللامبالاة أو الاهمال . لقد رؤي فيه شخصية متعددة المواهب والمتناسقة أو على العكس ، متوترة ومعقدة مقيدة بوعي أو بلا وعي بتناقضات ومضادات .

١٨ - انظر بعض الامثلة الحديثة وبخاصة آراء اسحاق هوزيك وليوشترأوس دافيدها يمكن . الميمونية - وعلى العكس ، يجهد هذا الكاتب الأخير للبرهان على وحدة الفكر الميموني .

١٩ - في هذا المشروع يوجد سابقاً ولكن بدون تباين

٢١ - في مدخل للدليل ، يعترف ميمون بأنه بين احتياطات اخرى ، ادخل قصداً تأكيدات متناقضة من اجل ان يدخل في الخطأ للقارئ الغير محرج

٢٢ - ٢٥ - اسماء المراجع المعتمدة .

٢٦ - في بعض الحالات ، لا يستثنى من هذه العناصر الغنوصية التقليدية انه قد تم احيائها على اثر مجابهات مباشرة أو غير مباشرة مع الحركات الهرطقية المسيحية في القرون الوسطى .

٢٧ - شوليم يميز ثلاثة مراحل : الجمعيات السرية المغفلة لقدامى المدافعين عن العقيدة ، التعاليم حول العرش من بعض معلمي المشنا . تصوف الميركابا في العصر التلمودي المتأخر . وما قبله ٢٨ - اسماء المراجع

٢٩ - اصول الكابال - يتكلم شوليم ايضاً عن الغنوصية الراينية أي عن هذا الشكل من الغنوصية اليهودية التي اجهدت نفسها بالبقاء مخلصه للتقليد هاليكيهيك

٣٠ - ٣٤ - اسماء المراجع المعتمدة .

٣٥ - غاي غازاريل يؤكد على الموازي مع بعض الغنوصية المسيحية مثل غنوصية الهوميلي كليمتين

٣٦ - ٣٨ - شوليم - اليهودية ..

٣٩ - يقارن شوليم صفاءهم بالأتراكسي الكلية والرواقية وكذلك سلوك الحلاج ٤٠ - فيب كتابات اليعاذري ورم نجد أول اشارة للفوليم ، القزم السحري ، المنعش اثناء الوجد .

٤١ - شوليم - يتعلق بتأثير افلاطوني محدث عبر (سكوت اوريجين)

٤٢ - من المؤكد إلى انه لا يوجد استمرارية بين هذه القوى اليهودية للقرن الثالث عشر والحركة الحصيدية التي انبثقت في بولونيا واوكرانيا في القرن ١٨

٤٣ - ٤٦ - شوليم - والمراجع المعتمدة

٤٧ - مجيروننا مدينة صغيرة كاتالانية واقعة بين مرشلونة وجبال البرنيه .

٤٨ - ٤٩ - اسماء المراجع - وبخاصة شوليم ...

٥٠ - ترجم شوليم الوصف المجهر جداً مما مثل هذه التجربة المحور من أحد الزملاء المجهولين في فلسطين سنة ١٢٩٥

٥١ - غاي كازاريل - الربى سيمونيا ص ٧٢ «الأصولية الهرطقية تقريباً لأبولافيا هي لتمثيله الرؤية النبوية (التي حسب التقليد ترتبط دائماً بالله) والديفيكوس ، الخضوع للرب وبالإرادة البشرية الوحيدة والحب البشري الوحيد . موكلة هكذا على ان الرؤية للنبي يمكن لها بحرية ان تجهز وتثار بواسطة كل صوفي تقي ومخلص) .

٥٢ - اسم المراجع .

٥٣ - حكمة الرب Hokma عقل الرب بينا Bina الحب أو الرحمة للرب هسيد Hessed الخ وثاني سفيرا هي الملكوت malkuth (الملكوت : مملكة) الرب ، وضعت بصورة عامة في الزهاد - كنموذج هو في قديم لجماعة اسرائيل أو مثل (الشيخنا) (شوليم الخ) ٥٤ - متمحية (بالحكمة) للرب (السفيرا الثانية) في السفيرا الثالثة النقطة تصبح (قطراً) أو (بناء) الأمر الذي يدل على خلق العالم (بيننا) اسم هذه السفيرا يدل ليس على الذكاء فحسب وإنما أيضاً على المفارقة (ريشوليم) .

٥٥ - شوليم ص ٢٣٣ - هذه النظرية أعدت بخاصة من قبل موسى ديماليوت .

٥٦ - شوليم - تأكدت الفكرة سابقاً لدى البدائين (الياد - احلام وغوامض) .

٥٧ - شوليم ذات المرجع - «ان القباليين حاولوا اكتشاف الجنس في الرب ذاته . أصولية اخرى للزوهار هي تفسير الشر كواحدة من المظهورات او سفيرات للرب - ويلاحظ التوازي مع مفهوم جاكوب بوهلر اما بالنسبة لفكرة التقمص فهي من أصل غنوصي وتأكدت لأول مرة في كتاب اليهود اصبحت شعبية مع نجاح القبالة الجديد في القرن ١٦ .

٥٨ - شوليم - بعض القباليين كان قد أعلن بدقة عن هذه السنة المأساوية لسنة الغفران وكشف الطرد من اسبانيا ان الغفران يعني التحرير والكارثة معا .

٥٩ - أهوال النفي اعيد تقييمها بمذهب التقمص ، المصير الأكثر مأساوية للروح كان ان تعتبر مرفوضة وعارية ، وهي حالة استبعدت اعادة التجسيد أو الخضوع في الجحيم (شوليم) .

٦٠ - اساء المرجع . «وفودي - نظرية لوريا ان الحق كان نتيجة تمدد وانكماش للقوى الالهية يسميه الزمزمة . وجمعت قبالة لوريا بين النظرية والتطبيق فكانت فلسفة وطريقة في السلوك بالتركيز على الصلاة والشعائر كملهم باطن للوصول الى الله والعودة الى ممارسة السحر بتأثير الكلمة .

٦١ - ٦٢ - شوليم - حسب يعقوب يمدن - هذا التناقض للزمزمة هو التجربة الوحيدة الجادة لتوطيم فكرة الخلق من العدم ، وازضافة إلى ذلك ، ان مفهوم الزمزمة اعطى وقفة عنيفة للاتجاهات الحلولية التي كانت بدأت بالتأثير على القبالة بصورة خاصة بدءاً من عصر النهضة .

٦٣ - فكرة تذكر بنظام بازيليد شوليم .

- ٦٤ - اشارة شوليم - للخاصية الغنوصية وبخاصة المانوية (اجزاء النور المبعثرة في العالم)
- ٦٥ - بالنسبة للوريا ، اللانهاثي اين سوف له مصلحة دينية قليلة .
- ٦٤ - شوليم - الصلاة الصوفية تحقق ادات قوة للغفران ، النظرية والممارسة للصلاة الصوفية يشكّلان الجانب الباطني من قبالة لوريا
- ٦٧ - ٧٠ - ذات المرجع
- ٧١ - شوليم ص ٣١٠ - ناتان الغزي يرى ان روح المسيح توجد ، منذ البدء اسيرة في الهاوية .
- الفكرة هي من بنية غنوصية مؤكد عليها بخاصة لدى les ophites ولكن البذرة مؤكد عليها في الزوهار والكتابات اللوربانية .
- ٧٢ - بالنسبة لابراهيم فايز - ان الذين يبقون مخلصين للشرعية هم مبشرون وذات المرجع
- ٧٣ - ممارسات تبتكية مشابهة لتهكات الكاربوكراتيين التي حصلت في سنوات ١٧٠٠ - ١٧٦٠ .
- ٧٤ - ذات المرجع - المردق الضروري للمسيح تعبير جديد للثنائية من نموذج غنوصي ،
- بخاصة المعارضة بين الاله الخفي المفارق وآله الخلق (ذات المرجع) .
- ٧٥ - ٧٦ - ر . الأدلة التي ساقها شوليم في المرجع المعتمد .
- ٧٧ - ذات المرجع - الاستلهام الأعلى للصديق ليس تفسير التوراة والاكثر تحديداً أن يصيح ذاته التوراة .
- ٧٨ - الأكثر شهرة كان الربى ايلي غران فيلنا - الذي ادار في ١٧٧٢ اضطهاداً نموذجياً ضد الحركة .
- ٧٩ - ذات المرجع - الاستثناء الوجه هو المدرسة المبنية من قبل روزعان في اوكرانيا والمسمى هاباد (مختصر هوشبا - مينا - داس) الثلاث سيفورات الأولى .

الفصل السابع والثلاثون

حركات دينية في أوروبا : من أواخر العصر الوسيط حتى فجر
الإصلاح

٢٩٣ - الهرطقة الثنائية في الامبراطورية البيزنطية : البوغميلية

منذ القرن العاشر ، لاحظ المراقبون العلمانيون والدينيون البيزنطيون انطلاق حركة مذهبية في بلغاريا ، البوغميلية bogomilisme . وكان مؤسس الحركة كاهن قرية ، وهو يدعى بوغوميل (المحبوب من الله) . ولا يعرف عنه شيء سوى اسمه . ويبدو أنه بالوعظ والتبشير بالفقر والتواضع والتوبة والصلاة ، حوالي سنة ٩٣٠ وحسب رأيه أن العالم هو عالم سيء وأنه خلق من قبل ساتانايل satañael (أخ يسوع وابن الله) «الاله الشرير للعهد القديم»^(١). وفي رأيه أيضاً أن المقدسات والايقونات وحفلات الكنيسة الارثوذكس عبث كلها ، لكونها من عمل الشيطان . وان الصليب يجب أن يمقت ، لأنه جرى تعذيب المسيح واماتته على صليب . وان الصلاة الوحيدة الصحيحة كانت أبانا ، التي تتلى اربع مرات في النهار واربعة في الليل .

لم يكن البوغوميليون يأكلون اللحم ، ولا يشربون الخمر وقد نصحوا بالامتناع عن الزواج . ولم تعرف جماعتهم أية تسلسلية في السلطة . فالرجال كالنساء كانوا يعترفون ويتعاطون الغفران من بعضهم للبعض الآخر . وكانوا يتقدون الاغنياء ، وقد أدانوا النبلاء وشجعوا الشعب بعدم الطاعة لاسياده وتطبيق المقاومة السلبية . إن نجاح الحركة يفسر بالورع الشعبي المحرر من الوهم ، وبأبهات الكنيسة ، ودناءة الكهنة ، وايضاً بحقد الفلاحين البلغار الفقراء المتردين في العبودية ، ضد المالكين وبخاصة ضد العملاء البيزنطيين^(٢) .

وبعد غزو باسيلوس الثاني لبغاريا (١٠١٨) ، استقر عدد كبير من نبلاء البلغار في القسطنطينية . وقد أخذت البوغومولية التي تبناها عدد من العائلات النبيلة المحلية وحتى الرهبان البيزنطيون ، تنظيم لاهوتها . ولكنه على ما يبدو مرجحاً ان انشقاقاً قد قد حصل في المذهب على اثر خصومات تيولوجية . فقد تجمع في كنيسة دراغوفيستا (اسم قرية على الحدود بين تراقيا ومقدونيا ، اولئك الذين يرون استقلالية الشيطان ، مؤكدين على انه إله خالد وكلي القدرة أما قدامى البوغوميل ، الذين كانوا يرون في الشيطان الابن المنحدر من الرب ، فقد حافظوا على الاسم القديم البلغار . ومع ان (الدراغوفيستين) نسبة لقرية دراغوفيستا ، جهروا بثنائية مطلقة ، والبلغار بثنائية معتدلة ، فإن الكنيستين تسامحتا مع بعضهما بالتناوب . وذلك لأن البوغوميلية عرفت في ذلك العصر انطلاقة جديدة . وانتظمت فيها جماعات في بيزنطة وآسيا الوسطى ودالماسيا ، وارتفعت اعداد المؤمنين بها . وميز عندئذ بين فئتين : الكهنة والمؤمنين . فتدعمت الصلاة والصيام ، وتكاثرت الحفلات وامتدت . «في نهاية القرن الثاني عشر ، اصبحت حركة الفلاحين في القرن العاشر مذهباً ذي شعائر رهبانية ، وتعليم تلقيني ، دخل فيه الخصام بين الثنائية والمسيحية وأصبح محسوساً اكثر فأكثر»^(٣) .

وعندما تنظم القمع ، منذ بداية القرن الثاني عشر ، انكفأ البوغوميليون إلى شمالي البلقان ، وتوجه مبعوثوهم نحو دالماسيا وإيطاليا وفرنسا . مع ذلك ، نجحت البوغومولية في فترات محدودة بفرض نفسها رسمياً ، على سبيل المثال في بلغاريا ، في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وأصبحت في البوسنة دينا للدولة تحت حكم بان كولان (١١٨٠-١٢١٥) غير ان المذهب فقد تأثيره في القرن الرابع عشر ، وبعد الفتح

العثماني لبغايا والبوسنة (١٣٩٣) اعتنقت اكرية البوغوميليين الاسلام^(٤) .

وستتبع خطى البوغوميلية في الغرب . مضيفين إلى ذلك ، ان بعض المفاهيم البوغومولية في اوربا الجنوبية - الشرقية انتقلت بواسطة مزوري الكتب ومازالت تعيش في الفولكلور . وفي القرون الوسطى انتشر في اوربا الشمالية عدد من الكتب المزورة تحت اسم كاهن بوغوميلي ، جيريمية^(٥) . ومع ذلك فإن أي واحد من هذه النصوص ليس من تأليف جيريميه . وعلى سبيل المثال . فإن خشب الصليب ، الذي اشتهر موضوعه في كل اوربا القروسطية ، مستقى من انجيل نيكوديم وهو مؤلف من أصل غنوصي . ونص مزور آخر (كيف أصبح المسيح كاهنا) ، كان معروفاً في اليونان منذ زمن طويل ، ولكن البوغوميليين أضافوا إلى هذه الخرافات القديمة عناصر ثنائية وان الترجمة السلافية لخشب الصليب تبدأ بهذه الجملة : «عندما خلق الله العالم ، وحده وساتانايل كانا موجودين»^(٦) . وعليه فقد رأينا (ف ٢٥١ع) ان هذا الباعث ، النشكوني انتشر بشكل واسع ، ولكن النسخ المختلفة لجنوب - شرق اوربا والسلافية تبرز دور الشيطان . واتباع طريقة بعض المذاهب الغنوصية ، فإن البوغوموليين ربما دعموا الثنائية ، برفعهم لاحترام الشيطان .

كذلك الأمر في ، مزور آدم وحواء ، ادخل البوغوميل مشهداً «لعقد» موقع من قبل آدم والشيطان ، وحسب هذا العقد ، تعتبر الأرض خلقاً لهذا الأخير ، وآدم وذريته ينتميان إليه حتى مجيء المسيح . وهذه القصة توجد في الفولكلور البلقاني^(٧) .

وقد توضحت طريقة تفسير المزورات بكتاب (الانثروغاسيو ايوهانيس) . المؤلف البوغومولي الرسمي الوحيد ، المترجم إلى اللاتينية من قبل الباحثين من جنوبي فرنسا . انه يتعلق بحوار بين يوحنا الانجيلي والمسيح ، محمولاً على خلق العالم ، وسقوط الشيطان وصعود اينوش وخشب الصليب . وتوجد مقاطع مستعارة من انجيل مزورة اخرى بترجمة مؤلف سلافي من القرن الثاني عشر ، مسائل يوحنا الانجيلي ، لا غير ان التولوجيا هي بدقة بوغوميلية . فالشيطان قبل سقوطه ، كان الأول بعد الرب الأب [مع ذلك ، كان المسيح مقبلاً إلى جانب الرب الأب ، [. . .] . الا انه لا يمكننا القول فيما اذا كان يتعلق بمؤلف بوغوميلي أصلي أو من ترجمة مؤلف يوناني . وللحكم عليه

مبدئياً ، هو يمثل على الأرجح تقييماً منسوباً لمؤلف بوغوميلي أو ميسالي ، ومن مواد مزورة أكثر قدماً^(٨) .

وما يعيننا هنا ، ان هذه المزورات ، وبخاصة انواعها الشفاهية المختلفة ، قد لعبت خلال عدة قرون دوراً في التدين الشعبي ، وكما سنرى (ف ٣٠٤ع) ، لم يكن ذلك المصادر الوحيدة للقولكلور الديني الأوروبي . غير ان استمرار نغمات الهرطقة الثنائية في العالم الخيالي لسواد الشعب لم تعد دلالتها . وكمثال وحيد على ذلك : في اورويما جنوب - شرق ، فإن اسطورة خلق العالم مع مساعدة من الشيطان «الذي غطس في عمق المحيط الأولي لكي يحضر الاناء» لها ما يتلوها : التعب ، الطبيعي والعقلي ، للرب . وفي بعض الروايات المختلفة ، نام الاله بعمق ؛ وفي بعضها الآخر ، لم يعرف كيف يحل مشكلة ما قبل النشكونية : فلم يتوصل لإدخال الأرض تحت القبة السماوية ، وان القنفذ هو الذي نصحه ان يضغط الأرض قليلاً ، مسبباً بذلك ولادة الجبال والوديان^(٩) .

إن تقدير الشيطان ، وسلبية الرب وعدم امكانية معرفة سقوطه يمكن لهما أن يعتبرا كتعبير شعبي للاله المحايد dem Otions للديانات البدائية ، حيث ، انه بعد ان خلق العالم والبشر ، لم يعد الاله مبالي بمصير خليقته وانسحب الى السماء ، تاركاً اكمال عمله لكائن مما فوق الطبيعة أو إلى خالق كبير .

٢٩٤ - البوغومليون في الغرب : المانويون (الكاذبون) .

في السنوات العشر الأولى من القرن الثاني عشر ، يشار في ايطاليا ، وفرنسا والمانيا الغربية ، لوجود مبعوثين بوغومول . وفي اورليان ، نجحوا باقناع النبلاء وحتى الكهنة ، ومن بينهم مستشار للملك روبرت وناصح للملكة . وقد اعترف بما هو جوهري في الهرطقة : ان الله لم يخلق العالم المرئي ؛ والمادة غير طاهرة ، والزواج ، والعماد ، وسر القربان المقدس والاعتراف كلها غير مفيدة ؛ والروح القدس ، النازل على المؤمن بوضع الأيدي ، يطهره ويقده الخ ..

وقد كشف الملك الهراطقة ، وحاكمهم وأدانهم وفي ٢٨ كانون اول ١٠٢٢ ، أمر بحرقهم ، وهؤلاء كانوا الهراطقة الأول في الغرب الذين ماتوا على المحرقة . ولكن الحركة استمرت في الانتشار . وترسل الكنيسة الكازارية (مانوية)^(١١) التي كانت أقيمت في ايطاليا مبعوثين إلى بروفانس ، وإلى لانغدوك ، وإلى الاقاليم الرينانية وحتى البيرنية ، وهم ، النساجون ، بخاصة ، الذين نشروا المذهب الجديد . وقد انتظمت جماعات البروفانس في اربع اسقفيات . ويبدو ان مجمعاً عقد في ١١٦٧ بالقرب من تولوز . وان الاسقف البوغومولي للقسطنطينية قد نجح بهذه المناسبة باقناع جماعات لومبارديا وجنوب فرنسا بالثنائية الراديكالية .

غير ان البوغومولية ، بتدخلها في الغرب ، تبنت بعض العناصر من التقليد المحلي المحتج ، وهذا ما جعل الوحدة المذهبية المفقودة اكثر تعقيداً ، ولم يقتنع الكازاريون لا بالجحيم ولا بالمطهر ، فميدان الشيطان كان الأرض ، وقد كان خلقها بهدف احتباس الروح في المادة . لقد كان الشيطان متماهيا بيهوه ، اله العهد القديم . والاله الحقيقي ، الخير والمير ، يوجد بعيداً عن هذا العالم . انه هو الذي ارسل المسيح لتعليم طريقة الخلاص . وبصفته روحاً صرفة ، فإن جسد المسيح لم يكن سوى وهم^(١٢) . إن كراهية الحياة تذكر ببعض المذاهب الغنوصية والمناوية (ف ٢٣٢ع) . ويمكن القول إن المثل الأعلى للكاذار كان فناء البشرية ، بالانتحار ورفض الحصول على ابناء ؛ ولأن الكاذارين كانوا يفضلون الفجور على الزواج .

إن حفلة الانتهاء للمذهب كونفيزا (كونفينينسيا Convenientia) كان يحتفل بها فقط بعد طول تدريب للتلميذ . والشعيرة الثانية للمسارة كونسولا ميتوم (Consolamentum) التي بها يحصل على مرتبة «الكامل» كانت تنجز عادة قبل الموت أو ؛ ، اذا رغب بها التلميذ ، بوقت أبكر ؛ الا انه في هذه الحالة كانت الامتحانات قاسية جداً . كان الكونسولاميتوم يجري السيرفيتيوم le sersitium ويتكون في الاعتراف العام ، الجاري من قبل الجماعة ؛ واثاء هذا الوقت ، كان الرئيس يمسك أمامه نسخة مفتوحة من الاناجيل^(١٣) وبعدئذ كان مريد التنصر يتلقى شعائريا الباترنوستر le Puter Noster ، ويطلب من الرئيس وهوراكع أمامه ان يباركه ويدعوله الله ، داعياً «لعل الله يبارك ؛ ، كان يجيب الرئيس ، وليجعل منك مسيحياً خيراً ، وان يمنحك آخرة

حسنة ! . وبعد فترة من الحفلة ، كان الرئيس يطلب من مريد التنصر الانسحاب من كنيسة روما والصليب المرسوم على جبينه من قبل الكاهن الروماني منذ تعميده . معاودة السقوط في الخطيئة بعد تلقي الكونسولا متوم كان يلغي الشعيرة . ومن أجل هذا طبق البعض من الكاملين الأندورا l'endura ، بتركهم لأنفسهم تموت بحرية من الجوع^(١٤) . وكانت الحفلة تنتهي «بالسلام» ، وقبله متبادلة بين كافة الحضور . لقد كان الكاملون - رجالاً ونساء - يتمتعون باحترام أسمى من الكهنة الكاثوليك . وكانوا يمارسون حياة أكثر تقشفاً من بقية المؤمنين ، ويطبقون ثلاث صيامات طويلة سنوياً . ان تنظيم الكنيسة الكاذارية هو ليف غير معروف جيداً . ومن المعلوم ان كل اسقف كان يساعده فيلوس كبير وفيلوسن أصغر ، وعندما كان يموت الاسقف ، كان الفيلوس الاكبر يخلفه تلقائياً ، ان الماثلة مع الكهانة الرومانية غير متشابهة ، وهي تفسر بالتقليد الكهنوتي للكنيسة المسيحية القديمة من أصول القرن الخامس^(١٥) .

ولفهم نجاح الدعاية للكاذار بشكل أفضل ، وبصورة عامة ، الحركات الماقبل الألفية Paramillénaristes التي غالباً ما أصبحت هرطقية ، يجب ان يؤخذ في الحسبان أزمة الكنيسة الرومانية ، وبدئياً سقوط التراتبية الكنسية . وبافتتاح رابع مجمع لاتران ، أثار أنوسنت الثالث الى أن الاساقفة المشغولين «بلداتهم الجسدية» فقط ، دون ثقافة روحية ، والمجردين من الحماس الرعوي ، «غير قادرين لاعلان كلام الله وحكم الشعب» . ومن جهة أخرى ، فإن لا أخلاقية وحقارة رجال الدين ابعدت المؤمنين تبعاً . ولقد كان عدد من الكهنة متزوجين أو انهم كانوا يعيشون بشكل سافر ، مخادنين . وكان البعض منهم يدير خمارات ليستطيع إطعام زوجاتهم وابنائهم . وبما انه كان يتوجب عليهم مكافأة ارباب عملهم ، كان الكهنة يفرضون رسماً لكل خدمة دينية اضافية : زواج ، تعميد ، صلوات من أجل المرض والموتى . الخ . . . وان رفض ترجمة الكتاب المقدس (كما حصل في الشرق) جعل من غير الممكن كل تعليم ديني ، ولم تكن المسيحية مقبولة إلا عبر الكهنة والرهبان .

وفي العشرات الأولى من القرن الثاني عشر أجهد القديس دومينيك - (١١٧٠-١٢٢١) نفسه في محاربة الهرطقة ، ولكن بدون أي تقدم . وبناء على طلبه أسس انوسنت الثالث نظام الأخوة الواعظين . غير ان الدومينيكانيين كالفاسدين

الرسوليين les légats المرسلين سابقاً من قبل البابا ، لم ينجحوا مطلقاً في الحد من تقدم الحركة الكاذارية . ففي كار كاسونة سنة ١٢٠٤ حصل النزاع العلني الأخير بين اللاهوتيين الكاذار والكاثوليك . وفي كانون ثاني ١٢٠٥ أراد بطرس الكاستيلماري الذي كان انوسنت الثالث أو كل إليه مهمة استئصال الهرطقة في جنوب فرنسا ، التنازل عن مهمته واعتزل في دير رهبنة . ولكن البابا أجابه «ان العمل يثمن عالياً باكثر من التأمل» .

وأخيراً في نوفمبر ١٢٠٧ ، أعلن انوسنت الثالث الصليبية ضد الأليبيجوا les Albigeois متوجها ، بخاصة إلى كبار أمراء الشمال ، دوق بورغونيا ، وكونتات البار Bar ونيجر ، وسامبانيا ، ويلوا . وقد خدعهم بوعده أن املاك النبلاء الأليبيجوا ستعاد إليهم بعد النصر . وملك فرنسا من جانبه ، قد استميل وجذب بامكانية مد مملكته صوب الجنوب . ودامت الحرب الأولى من ١٢٠٨-١٢٠٩ غير انه توجب لها ان تعاد وتمدد أيضاً خلال سنوات طويلة ، ولم تنقطع كنيسة الكاذار عن الوجود إلا حوالي سنة ١٣٣٠ .

إن الصليبية المأساوية ضد الأليبيجوا هي ذات دلالة لعدة اسباب . ومن سخرية التاريخ ، انها كانت الصليبية الوحيدة الظافرة ، وكانت نتائجها السياسية والثقافية والدينية بارزة . وكان من عملها توحيد وغزو المملكة الفرنسية ، كما كان من عملها أيضاً تدمير الحضارة الجنوبية وتدمير عمل البانور ومحاكمها للحب ، وتمجيدها للمرأة وشعر التروبادور ؛ (ف ٢٦٩ع) ، وفيما يخص نتائج النظام الديني ، فإن أكثرها فداحة كان القوة المتنامية ، والمهددة دائماً ، للتفتيش ، فقد أجبر التفتيش المقام في تولوز اثناء الحرب ، كل النساء البالغات من العمر اثني عشر عاماً وكل الرجال باكثر من اربعة عشر عاماً ان يتبرؤوا من الهرطقة . وقد منع سيفودس تولوز في سنة ١٢٢٩ حيازة الكتاب المقدس في اللغة اللاتينية أو في لغة وطنية ، وكانت النصوص الوحيدة المسموح بها كتاب الصلوات اليومية le lerèviaise وكتاب الزامير le Psantier وكتاب ساعات العذراء وجميعها في اللاتينية . وقد انتهى الأليبيجون العديدون الذين التجأوا إلى ايطاليا باكتشافهم من قبل عملاء التفتيش ، لأنه مع الزمن ، نجح هؤلاء الأخيرون في الإقامة في مختلف البلدان تقريباً من اورويما الغربية والوسطى . ومع ذلك يضاف إلى هذا ان

الحرب ضد الهراطقة دفعت الكنيسة لاجراء اصلاحات عاجلة وشجعت الارساليات الدومينكانية والفرنسيسكان .

إن الطريقة التي أنهى بها الاليجوا تشكل واحدة من الصفحات الاكثر سواداً في تاريخ الكنيسة الرومانية ، ولكن ردة الفعل الكاثوليكية كانت قد بررت . إن الحق قد ضد الحياة والجسد «مثلاً- تحريم الزواج ، انكار القيامة الخ . .» والثانية المطلقة شقت الكاثوليكية عن التقليد والمسيحية معا . وفي الواقع ، كان الاليجوا يشرون بدين فريد من نوعه ، وذي بنية وأصل شرقيين .

إن النجاح المنقطع النظير للمبعوثين الكاذار يمثل أول اختراق كثيف للأفكار الدينية الشرقية ، في الاوساط الريفية كما في الاوساط الصناعية ، ورجال الدين والأشراف . ويجب الانتظار حتى القرن العشرين لمشاهدة ظاهرة مماثلة ، وبخاصة التقبل الحماسي تقريباً في كل مكان من أوروبا الغربية ، لألفية من أصل شرقي ، الماركسية- اللينينية . .

٢٩٥ - القديس فرنسوا الاسيزي

إن القرنين ١٢ و ١٣ عرفا تقسيماً دينياً جديداً للفقير . وقد وجدت حركات هرطقية ، مثل : الهوميلياتيس ، والفودوا ، والكاذار ، وكذلك البيغوين ، والبيغارد ، وجدت في الفقر الوسيلة الأكثر فعالية لتحقيق المثل الأعلى المعلن من قبل يسوع والرسول . ولكي يتم توجيه هذه الحركات ، اعترف البابا ، في بداية القرن الثالث عشر ، بنظامي الرهبان المستعطين الدومينيكان والفرنسيسكان . ولكنه ، وكما سنرى ، فإن صوفية الفقر اثار ، لدى الفرنسيكان ، ازيمات هددت وجود النظام . وذلك لأن المؤسس نفسه الذي مجد الفقر المطلق ، أصبح هذا الفقر بالنسبة له (السيدة الفقر) la madonapoverta .

إن فرنسوا المتولد في ١١٨٢ إبناً لتاجر غني من اسير . Assire قام بأول حج لزوما في سنة ١٢٠٥ ، واتخذ ، ليوم واحد ، مكان شحاذا أمام القديس بطرس . وفي مناسبة ثانية عانق ابرصاً وبرجوعه إلى أسيز عاش خلال سنتين في رهبنة بالقرب

من كنيسة . وقد ادرك فرنسوا ارشاده الحقيقي بسماعه في ١٢٠٩ المقطع الشهير من انجيل متى «أشفوا المرضى ، وأقيموا الموتى ، وابرثوا البرص ، واطردوا الشياطين ، أخذتم مجانا فمجانا اعطوا . لا تقتنوا نقوداً من ذهب ولا فضة ولا من نحاس في زنانيركم ولا مزوداً للطريق ولا قميصين ولا حذاء ولا عصا لأن العامل يستحق طعامه . . .» [متى ١٠-٧-١٢] (١٧) . ومنئذ ، اتبع حرفياً هذه الكلمات الموجهة من قبل يسوع إلى الرسل ، وقد انضم إليه بعض التلامذة ، وحرر فرنسوا قاعدة قصيرة وموجزة . وفي سنة ١٢١٠ ، ذهب مجدداً إلى روما ، ليطلب اجازته من انوسنت الثالث . وقبل البابا شريطة ان يصبح فرنسوا مدير نظام صغير (من هنا كان الاسم الاخوة الصغار ، المعطى للفرنسيسكان) . وكان الرهبان يفترون ويشرون عبر ايطاليا ، ويجمعون مرة في السنة ، في البانتكوت ، Pentecote . وفي سنة ١٢١٧ تعرف فرنسوا في فلورانس على الكاردينال اوغولينو ، المعجب كثيراً برسائله ، وأصبح الكاردينال صديقه وحامي نظامه . وفي السنة التالية ، التقى بدومينيك ، الذي عرض عليه توحيد النظامين ، غير ان فرنسوا رفض ذلك .

وفي اجتماع ١٩١٩ طلب أوغولينو بناء على اقتراح بعض الرهبان الأكثر ثقافة تغيير القاعدة ، ولكن دون جدوى . وخلال ذلك الوقت بدأ مبعوثوا الفرنسيسكان يتسربون في البلاد الاجنبية ، ونزل فرنسوا مصحوباً باثني عشر من اخوانه في الأرض المقدسة ، عازماً على التبشير امام السلطان ، وقد مر في مخيم للمسلمين ، واستقبل بشكل حسن . وبعد قليل من الزمن ، أعلم بأن المتدوين اللذين كان قد عينهما ، غير القاعدة la règle وحصلوا على امتيازات من البابا ، فرجع فرنسوا إلى ايطاليا . وعلم ان بعض الاخوان الصغار اتهموا بالهرطقة في فرنسا والمانيا وهنغاريا ، وهذا ما جعله يقرر القبول برئاسة البابا .

ومنئذ أصبحت جماعة الرهبان ، تنظيمًا شرعياً ، تحت ظل السلطة القضائية القانونية . واجيزت قاعدة جديدة من قبل هونوريوس الثالث في سنة ١٢٢٣ ، فرضخ فرنسوا لتوجيه النظام . وفي السنة التالية انسحب إلى فيرونا . وفي هذا الدير تلقى عقابيل المرض . ورغم شدة مرضه ، وفقده البصر تقريباً نجح بتأليف بعض الكتب والنصائح لآخوانه وعهده لهم .

وفي النص الأخير (عهده) أجهد فرنسوا نفسه به لآخر مرة للدفاع عن الارشاد الحقيقي لنظامه . واطهر حبه للعمل اليدوي وطلب من الأخوة ان يعملوا ، وعندما لا يقبضون أجوراً ، أن يرجعوا «لإتة الله ، طالبين المعونة من باب لباب» .

وقد دعا الأخوان أن لا يقبلو «تحت إية حجة ، لا كنائس ولا مساكن ولا كل ما يبنى من أجلهم ، اذا لم يكن ذلك متوافقاً مع الفقر المقدس الذي اوردناه في القاعدة la Regle ، إن يقيموا فيها دائماً كضيوف كغرباء وكحجاج . انني أحرم رسمياً بطاعة على كل الأخوة ، في أي مكان يكونون فيه ، ان يتجاسروا على طلب أي سند في محكمة روما ، بالذات أو بواسطة أي شخص وسيط ، من أجل كنيسة أو من أجل أي مكان تحت حجة وعظ أو بسبب من أي تعذيب جسدي : : :»^(١٨)

لقد مات فرنسوا في سنة ١٢٢٦ ، وبعد أقل من ستين قن من قبل صديقه الكاردينال اوغولينو ، الذي أصبح البابا غريغوار التاسع . لقد كان هذا ، بالتأكيد ، الحل الأمثل لربط النظام الفرنسيسكاني بالكنيسة . ولكن الصعوبات لم تحذف . فمثلت السير الذاتية الأولى القديس فرانسوا وكأنه المرسل من قبل الله لأحياء اصلاحات الكنيسة . وقد كان بعض الاخوان الصغار اعترفوا بمعلمهم الممثل للعصر الثالث المعلن عنه من قبل جواشيم دي فلور^(١٩) . (ف ٢٧١ع) . إن التواريخ الشعبية المجمعة

والمنشورة من قبل الفرنسيسكان في القرن الثالث عشر والمنشورة في القرن الرابع عشر تحت عنوان فيورتي Fioretti قارنت فرنسوا وتلامذته بالمسيح وحواريه . ومع ان غريغوار التاسع اعجب باخلاص بفرنسوا ، فإنه لم يقبل العهد وافر القاعدة لعام ١٢٢٣ . وقد أتت المعارضة خاصة من «الرهبان المحافظين» وفيما بعد ان الروحيين ، الذين أصرروا على ضرورة الفقر المطلق . وفي سلسلة من البراءات البابوية bulles ، بذل غريغوار التاسع وخلفاءه كل جهد للبرهان على عدم تعلقه ابداً «بتملك» ؛ وانما «باستعمال» بيوت وأموال أخرى . وقد حاول جان دي بارم قائد النظام من ١٢٤٧ إلى ١٢٥٧ ، المحافظة على تراث القديس فرانسوا ، متحاشياً النزاع المكشوف مع البابا ، ولكن خصومة الرومانيين جعلت هذه الجهود عبثاً ، ولحسن الحظ فإن جان دي بارم قد أبدل بـ بونا فيتورا Bonaveture الذي

يعتبر بحق كمؤسس ثاني للنظام . غير ان الجدل حول الفقر المطلق استمر خلال حياة بونيفانتور وبعد موته (١٢٧٤) و أخيراً اغلق النزاع نهائياً بعد سنة ١٣٢٠ .

ومن المؤكد ، ان انتصار الكنيسة أنقص الحماية الأصلية للنظام وأحبط الأمل باصلاح بواسطة العودة إلى تقشف الرسل . ولكن النظام الفرنسيسكاني بفضل هذه التسويات نجح في استمرارية حياته . صحيح ان النموذج المثالي الوحيد كان قد انشيء بواسطة حياة كل أيام المسيح ، وحواريه ، والقديس فرانسوا ، أي بالفقر ، والاحسان والعمل اليدوي . ومع ذلك ، فإن الطاعة ، بالنسبة للرهبان ، للسلطة العقائدية الأعلى بقيت الواجب الأول والاكثر صعوبة .

٢٩٦ - القديس بونيفانتور واللاهوت الصوفي .

إن بونافانتور المتولد سنة ١٢١٧ بالقرب من اورفيتو Orviéto ، قد درس اللاهوت في باريس ، حيث علم بدءاً من ١٢٥٣ . وقد اختير وزيراً عاماً في فترة من الفترات الأكثر حرجاً للنظام الفرنسيسكاني سنة ١٢٥٧ . وقد جهد بونافانتور للتوفيق بين الوضعين المتعارضين تماماً ، معترفاً ، إلى جانب الفقر والعمل اليدوي ، بضرورة الدراسة والتأمل . وقد ألف كذلك سيرة ذاتية متواضعة جداً للقديس فرانسوا (Legenda maior) ١٢٦٣ ؛ وبعد ثلاث سنوات ، أعلنت رسمياً أنها السيرة الذاتية الوحيدة المرخص بها .

وثناء تعليمه في باريس ، حرر بونيفانتور شرحاً لأمثال (بيير لومبارد) ، البريفيلوكيوم le Breviloquium والمسائل المتنازع فيها . ولكنه بعد عزلة قصيرة في فيرنا سنة ١٢٥٩ حرر كتابه الرئيسي ، خط السير للروح في الله l'itinéraire de l'esprit Dieu^(٢٠) . وقبل سنة من موته ، الحاصل في ١٢٧٤ ، أصبح بونيفانتور كاردينالاً اسقفاً لألبانو . وثبت رسمياً من قبل سيكت Sixte الرابع في سنة ١٤٨٢ وسمي (دكتور اساورفيم) Doctor serphicus للكنيسة من قبل سيكت الخامس في سنة ١٥٨٨ .

لقد بدىء بالاعتراف ان التركيب اللاهوتي لبونافانتور هو الأكثر كمالاً في القرون الوسطى فقد أجهد نفسه لاستعمال افلاطون واريستو وأوغسطين والآباء الاغريق ، بزيديو- دينيس وفرانسوا الاسيزي^(٢١) . وفي حين ان توما الاكوينى أقام منهجه حول ارسطو ، فإن بونافانتور حافظ على التقليد الأوغسطيني للأفلاطونية المحدثة القروسطية . ولكن الدلالة العميقة للاهوته كشفت خلال القرون الوسطى ، على اثر نجاح التركيب التوماسي -الارسططالي تماماً كما حصل في العصور الحديثة ، بالانبثاق الظافر للتوماسية الجديدة) .

ان باحثاً معاصراً ايورت هـ . كوزان Ewerth. Gousin ، يضاهي مفهوم توافق الاضداد Coincidentia oppositarum بمفتاح القبة للفكر البونافانتوري^(٢٢) . وبوضوح ، انه يتعلق بمفهوم مؤكد عليه تحت شكل ظاهر قل أو كثر في كل تاريخ الاديان . فمن الواضح في التوحيد التوراتي : ان الله لا متناهي ، وشخصي ، متعالي ، وفَعَال في التاريخ ، وابدئي وحاضر في الزمان الخ . . . وهذه الاضداد هي ايضا اخاذة اكثر في شخصية المسيح . ولكن بونافانتور يجهز وينظم طريقة توافق الاضداد بأخذه التثليث كنموذج ، حيث ان الشخص الثالث هو المبدأ الوسيط والموحد .

إن العمل الرئيسي لبونافانتور هو بلا ريب (خط السير للروح في الله Itinerarium Mentis in Deum وفي هذه المرة ايضا ، يستعمل المؤلف رمزا عالميا مذاعاً ، والذي نصادفه منذ بدايات اللاهوت الصوفي المسيحي ، وبخاصة صورة السلم^(٢٣) . «إن العالم هو سلم نصعد عليه نحو الله ، هذا ما كتبه بينافانتين) نجد بعض بقايا الأثر من الله . بعضها هو مادي ، وبعضها روحاني ، وبعضها موقت وبعضها خالد ، وبعضها خارج عنا ، وبعضها في داخلنا . وللوصول لمعرفة المبدأ الأول ، الله ، الأكثر روحانية والخالد ومن فوقنا ، يجب علينا التجول عبر بقايا آثار الله التي هي مادية وموقته وخارجة عنا . وهكذا ندخل في طريق يوصل الله . ويجب علينا بالتالي في روحنا الخاصة ، حيث الصورة الخالدة والروحية لله هي حاضرة في داخلنا ، هنا ، ندخل في حقيقة الله . واخيراً ، يجب علينا ان نمر في ما هو خالد ، والاكثر روحانية وما هو فوقنا^(٢٤) . عندئذ يوجد الله بصفته كوحدة (أي واحد هو خارج الزمن) والتثليث المقدس .

وفي الفصول الاربعة الأولى من (خط السير) ظهرت التأملات حول انعكاس الله في العالم المادي وفي الروح ، وحول قرب الله . والفصلان التاليان مكرسان لتأمل الله بصفته كائناً (فصل ٥) وبصفته خيراً (فصل ٦) . واخيراً في سابع وآخر فصل ، الروح مأخوذة بوجد صوفي و ، مع المسيح المصلوب ، تمر من الموت إلى الحياة . ويشار إلى إعادة التقييم الجريء للوجد . فخلافاً للتجربة الصوفية لبرناردوي كليرفو ، المحكومة برمزية الحب الزوجي ، فإنها الوحدة الصوفية بالنسبة لبينافاتور هي موت مع المسيح ، وبالاتحاد معه ، إعادة الاتحاد مع الله الأب .

ومن جهة أخرى ، فإن بونافيتورا كفرنسيسكاني جيد يشجع المعرفة الدقيقة والمحكمة للطبيعة . ان حكمة الله تتكشف في الحقائق الكونية ، وبمقدار ما ندرس شيئاً أكثر ، بمقدار ما ندخل أكثر في فرديته ، ونفهمه افضل بصفته الكائن النموذجي المقيم في روح الله [خط السير فصل ٢ قسم ٤] . ولقد رأى بعض المؤلفين في فائدة الفرنسيسكانيين بالنسبة للطبيعة أحد مصادر انطلاق العلوم التجريبية ، وعلى سبيل المثال اكتشافات روجيه باكون (حوالي ١٢١٤-١٢٩٢) وتلامذة اوكهام . ويمكن مقارنة هذا التضامن المدافع عنه من قبل بونيفاتور ، بين التجربة الصوفية ودراسة الطبيعة ، مع الدور الحاسم للتأوية في تقدم العلوم التجريبية في الصين (ف ١٣٤ ع) .

٢٩٧ - القديس توما الاكوينى والسكولاستيك

بصورة عامة يقصد بالسكولاستيك ، مختلف الأنظمة اللاهوتية الرامية للتوفيق بين الوحي والعقل ، والدين والفهم العقلي ، وقد استعاد أنسلم دي كانتربوري (١٠٣٣-١١٠٩) صيغة القديس اوغسطين : «أعتقد بقصد أن أقدر على الفهم» . ويعبارات أخرى ، يبدأ العقل مهمته بدءاً من حروف الايمان . ولكن بير لومبارد (١١٠٠-١١٦٠) هو الذي أعد ، في كتابه (الأسفار الاربعة للحكمة Les qutreslivresde Sententiae) البيان الخاص لللاهوت السكولاستيكي . فتحت شكل اسئلة ، وتحليل وأجوبة ، على اللاهوتي السكولاستيكي ان يقدم ويناقش المسائل التالية : الله ، الخلق ، التجسيد ، العرفان التقديسات .

وفي القرن الثاني عشر أصبحت مؤلفات ارسطو وكبار الفلاسفة العرب واليهود وبخاصة (ابن رشد وابن سينا ويعلمون) مقبولة جزئياً بترجمات لاتينية . وقد طرحت هذه الاكتشافات في منظور جديد العلاقات بين الله والايمان . فحسب ارسطو ، ان ميدان العقل مستقل تماماً . وان البير الكبير (البيروني بولستار ١٢٠٧-١٢٨٠) واحد من العقول الأكثر شمولية في العصر الوسيط ، قد قبل بحماس اعادة الفتح ، «بالنسبة للعقل ، فإن القوانين تركها من ذاته تسقط بعدم الاستعمال»^(٢٥) . وعليه فإن مثل هذه النظرية لا يمكن لها إلا أن تسخط اللاهوتيين التقليديين : فقد اتهموا السكولاستيكيين بتضحية الدين للفلسفة والمسيح لأرسطو .

إن فكر البير الكبير عمق ونهج من قبل تلميذه توماس الاكويني (١٢٢٤-١٢٧٤)^(٢٦) . وقد كان توماس لاهوتياً وفيلسوفاً معاً ؛ ولكن المسألة المركزية بالنسبة له هي ذاتها : الكائن ، أي الله . ويميز توماس جنزياً بين الطبيعة والنعمة ، وميدان العقل والايمان ، ومع ذلك فإن هذا التمييز يقتضي توافقهما . إن وجود الله يصبح واضحاً منذ ان يعرف الانسان جهده للتفكير في العالم كما يعرفه . وعلى سبيل المثال : بطريقة أو أخرى ، هذا العالم هو في حركة ؛ وكل حركة يجب ان يكون لها محرك ، وهذا المحرك أو السبب هو النتيجة لسبب آخر ؛ مع ذلك لا يمكن للسلسلة ان تنتهي . ويجب القبول بتدخل محرك أول ، الذي ليس هو سوى الله . وهذه الحجة هي الأولى من مجموعة خمسة ، مشار إليها من قبل توماس «بالطرق الخمسة» . والحل العقلي هو دائماً ذاته : بالانطلاق من حقيقة واضحة ، نصل للاله . «كل سبب فعال يفترض سبباً آخر ويتصاعد السلسلة نصل للأول الله ، الخ ...»

ويكونه لا محدوداً وبسيطاً ، فإن الله المكتشف هكذا بالعقل هو خارج اللغة البشرية . فالله هو العمل الصافي للوجود ، وعليه فهو لا متناهي ، وازلي غير متحول . وبالبرهان على وجوده بواسطة مبدأ السببية ، نصل في ذات الوقت إلى نتيجة ان الله هو خالق العالم . خلق الكل بحرية ، ويدلون أية ضرورة . ولكن العقل البشري ، بالنسبة لتوماس ، لا يستطيع البرهان فيما اذا كان العالم قد وجد دائماً ، أو على العكس ، اذا كان الخلق حصل في الزمان . إن الايمان المبني على موحيات الله يتطلب منا الايمان بأن العالم بدأ في الزمان . انه يتعلق بحقيقة موحى بها ، كبقية مواد الايمان الاخرى (الخطيئة

ان كل معرفة تقتضي المفهوم المركزي للكائن ، وبعبارة أخرى الحياة أو الحضور للحقيقة التي تراد معرفتها . إن الانسان قد خلق ل يتمتع بالمعرفة التامة لله ، ولكنه على اثر الخطيئة الأصلية ، لم يعد مؤهلاً لادراكها بدون مساعدة العناية الالهية . والايان يسمح للمؤمن ، المساعد بالعناية لقبول معرفة الله كما كشفها له اثناء التاريخ المقدس .

وبالرغم من المقاومات التي صادفتها ، فإن نظرية القديس توماس قد كسبت بسرعة عديداً من التلامذة ، ليس من داخل الدومينيكان فحسب ، وانما ايضاً في أوساط مدرسية ودينية أخرى [. . .] . وقد عيّن الاصلاح النوماسي الميدان الكامل للفلسفة واللاهوت ، فليس هو اذن مسألة وحيدة بارزة من هذه الميادين التي لا يستطيع ذكر تأثيرها واتباع اثرها ، ولكنها تبدو بأنها قد اثرت بصورة خاصة على المسائل الأساسية للانطولوجيا التي قاد حلها إلى حل كل المسائل الأخرى^(٢٧) . وقد رأي جيلسون Gilson ، ان أكبر ميزة لسانت توماس ، هي تجنبه للاهوتية - التي قبلت كفاية الايمان - كما تجنب العقلانية . وحسب ، رأي هذا المؤلف ذاته ، فإن انحذار السكولاستيك بدء مع إدانات بعض اطروحات اريسطو (وبخاصة من شراحة العرب) من قبل اسقف باريز اتيين تمبير Etienne Tenpire ، في ١٢٧٠ و ١٢٧٧^(٢٨) . فمنئذ أصبح التضامن البنيوي بين اللاهوت والفلسفة متهماً بعنف . وان انتقادات دونس سكوت Duns Scot (حوالي ١٢٦٠-١٣٠٨) و غليوم اوكهام (حوالي ١٢٨٥-١٣٤٧) أسهمت في تقويض التركيب التوماسي . وفي آخر المطاف ، فإن المسافة التي تتفاقم بشكل دائم بين اللاهوت والفلسفة تسبق الانفصال وهي واضحة في المجتمعات الحديثة بين الدنيوي والمقدس^(٢٩) .

يضاف إلى ذلك ان تفسير جيلسون لم يقبل مطلقاً في مجمله . وان توماس الاكوني لم يكن العبقري السكولاستيكي الوحيد في القرون الوسطى . وقد تمتع في القرنين ١٣ و ١٤ باحترام متساوٍ ومفكرون آخرون - وفي مقدمتهم سكوت وأوكهام - ولكن أهمية التوماسية تتأتى من واقعة أنها أعلنت ، في القرن التاسع عشر ، لاهوتا رسمياً للكنيسة الرومانية . واكثر من ذلك ، ان ولادة التوماسية الجديدة ، في الربع الأول من القرن العشرين ، يشكل فترة لها دلالتها في تاريخ الثقافة الغربية .

الأصلية ، الثلاث المقدس ، تجسد الله في يسوع - المسيح (الخ) وهذا هو اذن موضوع تقصي لاهوتي وليس فلسفياً .

إن دونزسكوت الملقب (الفقيه البديل) قد انتقد منهج توماس ، وهاجمه في الأساس ، أي بانكار الأهمية المعطاة للعقل . فبالنسبة ، لدونز سكوت ، كل معرفة دينية معطاة بالإيمان باستثناء هوية الله مع العلة الأولى ، فهي تكتشف بالمنطق العقلي .

وذهب أوكهام أبعد من ذلك في انتقاده للتولوجيات العقلانية . بما ان الانسان لا يستطيع معرفة سوى الوقائع الخاصة التي يراقبها ، فإن قوانين المنطق والكشف الالهي ، وكل ميتافيزيك هو محال . إن أوكهام ينكر صراحة وجود «العوالم» : انه يتعلق بإنشاءات عقلية دون حقيقة مستقلة . فيما ان الله لا يمكن معرفته بالحدس وان العقل غير قادر ليرهن على وجوده ، فعلى الانسان أن يكتفي بما يعلمه الدين وبما يعلمه الوحي (٣٠) .

إن أصولية وعمق الفكر الديني لأوكهام يمكن فهمه بخاصة في مفهومه لله . فيما ان الله حر ، مطلق ، كلي القدرة ، يستطيع ان يفعل كل شيء ، وحتى انه يستطيع ان يتناقض ؛ إنه يستطيع ؛ مثلاً ، ان ينقذ مجرماً ، وان يدين قديساً . فلا يسوغ حصر الحرية لله حسب حدود العقل ، أو الخيال أو اللغة البشرية . ان حرفاً من الايمان يعلمنا ان الله قد سما فوق الطبيعة البشرية ، ولكنه يستطيع ان يظهر تحت شكل (أي أن له طبيعة) الحمار ، ! الحجر أو الخشب (٣١) .

هذه المختارات المتناقضة من الحرية الالهية لم تخف التصور اللاهوتي للقرون المتأخرة مع ذلك وبدءاً من القرن الثامن عشر - أي بعد اكتشاف البدائية - فإن لاهوت أوكهام كان له ان يسمح بمعرفة اكثر توافقاً لما أسمى «صنمية المتوحشين» . لأن المقدس يظهر تحت أي شكل ، حتى الأكثر ضللاً . وفي المنظور المفتوح من قبل أوكهام ، كان للفكر اللاهوتي أن يبرر les hiérophanies ، تجليات المقدسات المؤكدة في كل مكان من الديانات العتيقة والتقليدية ، وفي الواقع ، يعرف الآن ، ان الموضوعات الطبيعية (حجارة ، اشجار ، ينابيع الخ) . لا تعبد ، وانما تعبد القوى الماوراء طبيعية التي «جسدتها» هذه الموضوعات .

٢٩٨ - المعلم إيكهارت : من الله إلى الآلهة الاسطورية

إن إيكهارت Echart المتولد سنة ١٢٦٠ درس لدى دومينيكان كولونيا وفي باريز .
ومارس وظائف مدرس ، وواعظ وإداري في باريس ١٣١١-١٣١٣ ، واستراسبورغ
١٣١٣-٢٣ وكولونيا ١٣٢٣-١٣٢٧ . وفي هاتين المدينتين الأخيرتين وعظ وقاد المتدينين
كما وعظ وقاد المترهبات béguines . ومن بين أعماله العديدة ، وأكثرها أهمية التعليق على
الحكم والأمثال لبيير لومبارد والأبيوس تريبارتيم l'opus tripartium ، وهي مجموعة
لاهوتية معتبرة ، ومع الأسف ضاع القسم الأكبر منها . وعلى العكس ، فقط حفظ عدد
من كتاباته من المواعظ ، غير أن رسمية بعض المواعظ غير مؤكدة .

والمعلم إيكهارت مؤلف أصلي ، عميق وصعب^(٣٢) . وهو معتبر ، بحق ،
وكانه اللاهوتي الأكثر أهمية في التصوف الغربي . ومع أنه ملد التقليد ، وشن عهداً
جديداً في تاريخ التصوف المسيحي ، ونعيد إلى الذاكرة أنه ، منذ القرن الرابع وحتى
الثاني عشر ، اقتضت الممارسة التأملية ترك العالم ، أي اتباع الحياة الرهبانية . وكان هذا
يتم في صحراء أو في عزلة دير حيث كان الراهب يأمل في هذا التقرب من الله ،
والتمتع بالحضرة الربانية . وهذه الصداقة الصميمية مع الله كانت تعادل العودة إلى
الجنة ؛ وكان التأمل يجد بنوع ما شرط آدم قبل السقوط .

وفيا استطاع اعتباره كمثل أول للتجربة الصوفية المسيحية ، كان القديس
بولس . اشار ، إلى صعوده الوجداني للسما الثالثة : «وان كان لابد من الافتخار - مع أنه
لا خير فيه - فإنني انتقل إلى رؤى الرب ومكاشفاته ، اعرف رجلاً مؤمناً بالمسيح اختطف
إلى السماء الثالثة منذ أربع عشرة سنة . أبجسده ؟ لا أعلم . أم بغير جسده ؟ لا
أعلم . الله أعلم . وانما أعلم أن هذا الرجل اختطف إلى الفردوس . أبجسده لا
أعلم . ابغير جسده ؟ لا أعلم الله أعلم وسمع كلمات لا تلفظ ولا يحل لإنسان أن
يذكرها» [رسالة القديس بولس الثانية إلى أهل قورنثس ١٢ : ١-٤] . إن الحنين إلى
الفردوس يشعر به هكذا منذ بدايات المسيحية . واثناء الصلاة ، كان يتوجه نحو
الشرق ، هناك حيث كانت توجد الجنة الأرضية . إن رمزية الفردوسية كان قد اعترف

بها في الكنائس وحدائق الاديرة . وكان قدماء الآباء للرهبنة . (أمثال ، فيما بعد ،
القديس فرنسوا الاسيزي) مُطاعين من الوحوش الكاسرة ، وعليه ، فإن أول تنازر
Syndrome لاحقاً الحياة الفردوسية هو بحق السيادة المستردة على الحيوانات^(٣٣) .

وفي اللاهوت الصوفي لإيفاجر الكاهن Ekager le Pontique (القرن الرابع) كان
الراهب هو المسيحي الكامل ؛ وكان يشكل النموذج للانسان الذي استرد أصوله ، وكان
الهدف الغائي للتأمل المنعزل الاتحاد مع الله . مع ذلك ، وكما يؤكد عليه بين امور
أخرى ، القديس برنارد ، «ان الله والانسان منفصلان أحدهما عن الآخر . كل منهما
يتمتع بارادته الخاصة ومادته الخاصة . ومثل هذا الاتحاد هو بالنسبة لهما مشاركة بالارادات
واتفاق بحب»^(٣٤) .

هذا التقييم الشبه زواجي للاتحاد الصوفي l'unimystica تأكد على نطاق واسع
في تاريخ التصوف ، وليس في تاريخ التصوف المسيحي فقط . ولنقل مباشرة انه
غريب بكامله عن المعلم ايكهارت . والواقع هو ذو دلالة ، اكثر وذلك لأن الدومينيكاني
يتوجه في مواعظه ليس إلى الرهبان والمتدينين فحسب ، وانما ايضا إلى جمهور المؤمنين .
وفي القرن الثامن ، لم يكن الكمال الروحي مطلوباً في الأديرة فقط . فقد حصل
الكلام عن جعل التجربة الصوفية «ديموقراطية» و«دينية» وتلك هي ظواهر ميزت الفترة
من ١٢٠٠-١٦٠٠ . وكان المعلم ايكهارت اللاهوتي بامتياز لهذه المرحلة الجديدة في
تاريخ التصوف المسيحي ، وقد أعلن وبرر لاهوتيا ، إمكانية معاودة الهوية الانطولوجية
مع الله تماماً مع البقاء في هذا العالم^(٣٥) . وبالنسبة له ايضاً ، فإن التجربة الصوفية
تقتضي (العودة للأصل) ؛ ولكنه الأصل الذي يسبق آدم وخلق العالم .

ويقيم المعلم ايكهارت هذا اللاهوت الجريء بالاستعانة بتمييز أدخله في الكينونة
الالهية ذاتها . فبالكلمة إله يدل على الاله الخالق ، في حين انه يستعمل الألوهية للدلالة
على الجوهر الالهي . والألوهية هي المبدأ وقالب «الاله» . وبالتأكيد ، إنه لا يتعلق أبداً
بأسبقية أو تغيير انطولوجي الذي سيكون له محل في الزمان ، على اثر الخليقة . ولكن
مثل هذا التمييز ، بسبب من الالتباس وحدود اللغة البشرية ، يمكن له أن يفسح المجال
لسوء فهم كره . ويؤكد ايكهارت في إحدى مواعظه : «ان الله والألوهية الاسطورية

déité مختلفان أحدهما عن الآخر اختلاف السماء عن الأرض [...] فالله يصنع ،
والألوهية لا تصنع ، إنها لم تصنع شيئاً [...] فالله والألوهية يفترقان بالعمل وعدم
العمل^(٣٦) . وقد كان دينيز عالم المجمع (ف ٢٧٧ع) عرّف الله «كنفي محض» . ويمد
ايكهات ويوسع هذا اللاموت السلمي : «الله بدون اسم ، لأنه لا يمكن لشخص أن
يقول أو يفهم شيئاً عنه [...] . اذن ، اذا قلت : ان الله طيب ، فهذا غير
صحيح ، أنا طيب ، ولكن الله ليس طيباً [...] . واذا قلت اضافة لذلك : الله
حكيم ، فذلك غير صحيح ؛ أنا اكثر حكمة منه . واذا قلت ايضاً : الله كائن ، فذلك
غير صحيح ؛ إنه كائن فوق الكينونة ونفي فوق المحسوس»^(٣٧) .

ومن جهة أخرى يصر ايكهات على واقعة ان الانسان هو من «عرق وقرابة
الله» ، وهو يحس المؤمن لادراك المبدأ الإلهي ، خارجاً عن الله الثالوثي ، لأن ألوهية
الروح ، بطبيعتها ذاتها ، لا تتلقى شيئاً آخر سوى الكائن الالهي ، مباشرة وبدون
وسيط . وانه في كليته ، يدخل الله الروح البشرية . ولا يرى ايكهات في التجربة
الصوفية ، الاتحاد الصوفي الممجد من قبل سانت برنارد ومؤلفين آخرين مشهورين ،
وانما العودة للألوهة الغير ظاهرة ، وحينئذ يكشف المؤمن هويته الانطولوجية مع المبدأ
الالهي . «عندما كنت لأول مرة ، لم يكن عندي الله وكنت ببساطة ذاتي [...] .
كنت كائناً صافياً وكنت اعرف نفسي بالحقيقة الالهية [...] . كنت علتي الأولى كما
أنا كائني الأزلي مما أنا كائني الموقت [...] . ويسبب ولادتي الأزلية لن أموت مطلقاً
[...] . لقد كنت علة ذاتي وعلة كل الاشياء الأخرى»^(٣٨) .

وبالنسبة لايكهات ، ستكون هذه الحالة البدئية مما قبل الخلق ، حالة النهاية
ايضاً ؛ فالتجربة الصوفية تسبق إعادة تكامل الروح في الألوهة اللامبالية . مع ذلك فإن
هذا لا يتعلق بحلولية ولا بأحدية من نوع فيدانتني . فايكهات يقارن الاتحاد مع الله
بقطرة الماء ، التي بسقوطها في المحيط ، تتوحد معه ؛ ولكن المحيط لا يتطابق بقطرة
الماء . «كذلك الأمر ، تصبح الروح الهية ، ولكن الله لا يصبح الروح» . مع ذلك ،
في الاتحاد الصوفي «ان الروح في الله كما ان الله هو في ذاته»^(٣٩) .

ومع الأخذ في الحسبان للفارق بين الروح والله ، فإن لايكهات المزية الكبرى
للبرهان على ان هذا الفارق ليس نهائياً . فبالنسبة له ، ان الالهام المقدر سلفاً للانسان هو

ان يكون في الله ، لا ان يعيش في العالم بصفته مخلوقاً من الله ، ذلك لأن الانسان الحقيقي - أي الروح - هو خالد ؛ وخلص الانسان يبدأ مع انسحابه من الزمن^(٤١) . ولا يتوقف ايكهارت عن إطرء «الانفصال» ، ممارسة دينية ضرورية قطعاً من أجل معاودة ايجاد الله^(٤٢) . إن الخلاص هو عملية انطولوجية تصبح ممكنة بالمعرفة الحقيقية . وينقذ الانسان في المعيار الذي يكشف فيه كينونته الخاصة ، غير انه لا يستطيع ادراك كينونته قبل معرفة الله ، مصدر كل كائن^(٤٣) . وتتكون التجربة الدينية الاساسية التي تضمن الخلاص في ولادة اللوغوس في روح المؤمن . وبما ان الأب يوجد الابن في الأبدية وبما ان مبدأ الألوهية للأب هو ذات الوهية الروح ، فإن الله يحدث الابن في مبدأ الروح . واكثر من هذا ايضاً : «انه يحدثني أنا ابنه [الذي هو] ذات الابن» «انه يحدثني ليس أنا فقط ، ابنه وانما يحدثني كذاته [أي الأب] وهو ذاته مثلي»^(٤٤) .

لا شيء أثار خصوم ايكهارت كأطروحاته عن ولادة الابن في روح المؤمن ، نظرية مدخلة لهوية المسيحي «الطيب والعاذل» مع المسيح . صحيح ان المشابهات المطروحة من قبل الدومينيكان لم تكن دائماً موفقة . ويتحدث ايكهارت في آخر الموعظة رقم (٦) عن الانسان المتحول بتمامه في المسيح ، تماماً كالخبز المقدس الذي أصبح جسد السيد . «لقد تبدلت تماماً فيه الذي أظهر كينونته في ، ذات الكائن وليس بعضاً مشابهاً»^(٤٥) . ولكن ايكهارت يؤكد في دفاعه ، بأنه يتكلم «بصفته» أي بالمعنى الكلي والمجرد^(٤٥) .

ان الأهمية الحاسمة المعطاة من قبل ايكهارت إلى الانفصال عن كل ما ليس هو الله (أي مبدأ الألوهية) ، وباختصار ، تهربه تجاه الأعمال الزمنية ، انقص ، في نظر بعضهم ، عملية وتأثير لاهوته الصوفي . وقد اتهم خطأ ، بفقدان المنفعة بالنسبة لحياة القداسة للكنيسة وبالنسبة لأحداث تاريخ الخلاص . صحيح ان الدومينيكاني لم يصر على دور الله في التاريخ ولا على تجسد المسيح في الزمان . ولكنه مدح الذي قطع تأمله ليعطي القليل من الحساء إلى مريض ، وردد بإمكانية ملاقاته الله في الشارع تماماً كما في الكنيسة . ومن جهة أخرى ، فإن الهدف النهائي للتأمل حسب ايكهارت ، أي للعودة للألوهة الغير مبالية ، لا يمكن له اقناع المؤمنين الباحثين عن التجارب الدينية المهيبة .

وبالنسبة له ، ان حقيقة الغبطة لم تكن ابداً في الانقطاع ، وانما في الاتحاد العقلي مع الله المتحصل بالتأمل .

وفي سنة ١٣٢١ اتهم المعلم ايكهارت بالهرطقة وخلال سنوات حياته الأخيرة كان من المتوجب عليه الدفاع عن اطروخته . وفي ١٣٢٩ (بعد سنة أو سنتين من وفاته) أدان الباب يوحنا العشرين ، ثمانية وعشرين مادة ، معلنا ان سبعة عشر مادة منها هرطقية وان الأخرى «مخالفة للأخلاق» ، وفضة جداً وهي مشبوهة بالهرطقة^(٤٦) . ومن الراجح أن تعقيد لغته وحسد بعض اللاهوتيين أسهم في ادانته . ومهما يكن من أمر ، فإن النتائج كانت بارزة . وبالرغم من جهود تلامذته هنريش سوزو وجوان تولر (ف ٣٠٠٠ع) وإخلاص العديد من اللوميين ، فإن عمل المعلم ايكهارت بقي خلال قرون ، مستبعداً . ولم يستفد اللاهوت والميتافيزيك للغرب المسيحي من استنتاجاته وتفسيراته العبقريّة . وقد تحدت تأثيرها في البلاد الجرمنية . وشجع الانتشار السري لهذه الكتابات على اعداد نصوص محرفة . ومع ذلك ، فإن الفكر الجريء للمعلم ايكهارت ، قد استمر في تخصيب بعض الافكار المبدعة ؛ من بين اكبرها نيقولا دي كوس Nicolas de Cues (ف ٣٠١٠ع) .

٢٩٩ - التدين الشعبي واططار الورع

منذ نهاية القرن الثاني عشر ، لم يكن الكمال الروحي موضع بحث عنه بخاصة في الاديرة . وكان عدد متنامي من العلمانيين اختار احتذاء حياة الرسل والقديسين ، مع البقاء بالكلية في العالم . وهكذا فعل فودوا سي ليون les Vaudois de Lyon وهم تلامذة لتاجر غني ، بير فالديس الذي كان عمد لتوزيع امواله على الفقراء في عام ١١٧٣ وبشر بالفقر الاختياري ، أو المساكين Humiliatis ، في ايطاليا الشمالية^(٤٧) . وبقيت الأكثرية مخلصّة إلى الكنيسة . وبعضهم ممجدين تجربتهم المباشرة لله ، تحللوا من الشعائر وحتى من التقديسات .

وفي اقاليم الشمال - الفلاندر ، والبلاد الواطئة ، والمانيا - تنظمت جماعات صغيرة علمانية من النساء ، عرفت تحت اسم بيغوين Béguines^(٤٨) ، وقد توزعن

حياتهن بين العمل ، والصلاة والتبشير . وكن قليلات العدد ، ولكنهن مكرسات
انفسهن للطهارة المسيحية والفقر ، وكانت توجد جماعات من الرجال ، البيغاردس
Bégards^(٤٩) .

هذه الحركة من التدين الشعبي ، مثارة بالحنين لحياة رسولية Vita apostolica .
تذكر بالمثل الأعلى الديني للفودوا des Vaudois . وقد أثاروا في آن واحد ، احتقار العالم
وعدم الرضى تجاه رجال الدين . ومن الراجح ان بعض البغوين كان يفضل العيش في
الاديرة ، أو على الأقل ، الافادة من التوجيه الروحي للدومينيكان ، وتلك كانت حالة
ميشيلد دي ماجد يورغ (١٢٠٧-١٢٨٢) ، أول صوفية كتبت في اللغة الالمانية . لقد
اسمت القديس دومينيك «أبي الحبيب» . وفي كتابها ، نور الألوهة ، استعملت ميشيلد
لغة صوفية ، جنسية عن القران بين الزوج والزوجة . «أنت في ، وانا فيك!»^(٥٠) .

إن الاتحاد مع الله يعتق الانسان من الذنب ، كما كانت قد كتبت ميشيلد دي
ماجد يورغ . وبالنسبة للنفس المتنورة والشريفة ، لم يكن هذا التأكيد ، يتضمن في
ذاته ، رأياً هرطقياً . زد على ذلك ، فإن بعض البابوات وعدداً من اللاهوتيين شهدوا
لمصلحة أصولية ومزايا البيغوين^(٥١) . إلا انه ، وبخاصة ، بدأ من القرن الرابع عشر
فإن بابوات ولاهوتيين آخرين اتهموا البغوين والبيغارد بالهرطقة^(٥٢) . وبالتهتك المكتمل
تحت إحياء الشيطان . حسب الكليشيات التقليدية . وقد كان السبب الحقيقي
للاضطهاد حسد رجال الدين والرهبان . ولم يكونوا يرون في الحياة الرسولية للبيغوين
والبيغارد الا فساد طوية ، واتهموهم بحماس متمرّد^(٥٣) .

ومع ذلك ، يضاف إلى هذا ان التقوى قادت مراراً كثيرة إلى البدعة ، وحتى إلى
الهرطقة . في نظر السلطات الكنسية . ومن جهة أخرى وفي القرنين ١٣ و ١٤ كانت
الحدود بين الأصولية والبدعة عائمة على الأغلب . ومن جهة أخرى ايضاً ، فإن بعض
الجماعات من العلمانيين كان طالب بطهارة دينية خارج الطاقات البشرية . ولم تستطع
الكنيسة مساعدة خطر مثل هذه المثالية ، فعادت العمل بنشاط . وهكذا اضاعت
الفرصة لاشباع الحاجة إلى روحانية مسيحية أكثر رسمية وأكثر عمقاً^(٥٤) .

وفي سنة ١٣١٠ احرقت في باريز ، مارغريت بوريه ، أول شخصية عُرِفَت كمنتمية إلى حركة الاخوة والاخوات للروح الحرة . (رغم مشابهاة ذات دلالة ، يقتضي تمييز هذه الحركة عن جماعات البيغوين والبيغارد) . لقد حطم انصار الروح الحرة^(٥٥) كل علاقة مع الكنيسة . ومارسوا صوفية راديكالية باحثين عن الاتحاد مع الله . وحسب اقوال متهميهم ، فإن اخوان واخوات النفس الحرة كانوا يرون بأن الانسان ، في وجوده الارضي يستطيع إدراك ، درجة من الكمال بحيث لا يمكن بعدها ان يخطيء . وقد تحلل هؤلاء الهراطقة من توسط الكنيسة ، «لأن الرب هو الروح ، وحيث يكون روح الرب تكون الحرية» [كورثية ١١-٣: ١٧] .

ومع ذلك ، فلا يوجد ما يثبت أنهم شجعوا التناقضية ؛ بل على العكس ، أنهم بالتشلف والتنسك جهزوا الاتحاد الصوفي . واخيراً ، فهم لم يشعروا بانفصالهم عن الله والمسيح . وكان بعضهم قد اكد : «أنا المسيح ، وانا ايضا اكثر...»^(٥٦) .

ومع ان مرغريت بوريه احرقت كهرطقة ، فإن كتابها «مرآة الارواح البسيطة» نسخ على فترات وترجم الى عدة لغات . صحيح انه لم يكن معروفاً بأنها مؤلفته (تمت المطابقة عام ١٩٤٦) ، ولكن هذا يثبت ان الهراطقة لم تكن واضحة . إن كتابها «المرآة» يتضمن حواراً بين حب وعقل متعلقان بتوجيه روح . ويصف المؤلف سبق «حالات للنعمة» التي تقود للاتحاد مع الله . وفي الخامسة والسادسة من «الحالات» ، تكون الروح «متلاشية» أو «منعقة» وتصبح مشابهة للملائكة . ولكن سابع حالة ، لا يكتمل الاتحاد الا بعد الموت ، في الفردوس^(٥٧) .

وقد انتشرت كتب اخرى لمؤلفين متمين لحركة «النفس الحرة» ، تحت اسم المعلم ايكهارت . والاكثر شهرة منها هو «المواعظ المنحولة رقم ١٧ - ١٨ و ٣٧ و ٥٨» . وتقص رسالة (شويتز ، كاتري) قصة العلاقات بين واحدة من البيغوين مع معلمها ، المعلم ايكهارت . وفي النهاية ، توجه الاخوت كاترين هذا الاقرار : «سيدي ، هل تتمتع معي : لقد اصبحت الها» فيأمرها المعلم بأن تعيش ، خلال ثلاثة أيام ، متوحدة في الكنيسة . وتماها كما في المرآة ، اتحاد الروح مع الله ليس له نتائج فوضوية . ان التجديد الكبير المقدم بحركة «الروح الحرة» هو اليقين بأن الاتحاد الصوفي يمكن الحصول عليه هنا على الأرض^(٥٩) .

اضافة إلى الأزمات التي هزت الكنيسة الغربية^(٦١) . فإن القرن الرابع عشر يتميز بسلسلة من الكوارث والمصائب الكونية : مذبذب ، خسوف الشمس ، طوفانات . وبخاصة بدءاً من ١٣٤٧ الجائحة الرهيبية من الطاعون (الموت الأسود) . ولهذا ، ومن أجل تخفيف عقاب الله أو ثنيه كثرت طوافات السائطين flagellany^(٦٢) . والمقصود بذلك حركة شعبية تتبع مسيرة متميزة من التقوى إلى البدعة . وفي الواقع ، إن المتسوطيين الفخورون بتعذيبهم لأنفسهم ، ورغم جهالتهم في اللاهوت ، كانوا يعتقدون بإمكانية الحلول محل القوى اللدنية والتوماتيرجية للكنيسة . وذلك هو السبب الذي من أجله منعوا من قبل كليمنت السادس .

بهدف التحرر من ذنوبهم وبخاصة ذنوب العالم ، كانت جماعات متقلة من غير المتدينين (لايك) تجتاز البلاد تحت قيادة معلم . ويوصلهم إلى إحدى المدن ، كان الموكب (الذي يصل أحيانا عدد افراده عدة ألوف من الاشخاص) يتوجه نحو الكاتدرائية . منشداً الأناشيد ، ومشكلاً عدة حلقات . ويكل انتحاب ويكاء . كان التائبون يدعون الله ، والمسيح والعذراء ويبدأون بضرب انفسهم بالسياط بعنف حتى تصبح اجسادهم كتلة متورمة من لحم متزرق اللون^(٦٣) .

من جهة أخرى ، يبدو ان كل العصر مهووس بالموت والآلام التي تنتظر الميت في الآخرة . وكان الموت يطبع التخيل بأكثر قوة من الأمل في البعث^(٦٤) . وكانت الأعمال الفنية (آثار جنائزية ، تماثيل ، وبخاصة التصوير) تمثل بدقة مرضية مختلف مظاهر تحلل أو فساد الجسد^(٦٥) . «إن الجنة هي الآن في كل مكان ، حتى على القبر»^(٦٥) . وكان الرقص المأتم ، الذي كان الراقص فيه يمثل الموت ذاته ، جازيا للرجال والنساء من مختلف الأعمار ومن كل الطبقات (ملوك ، متسولون ، اساقفة ، بورجوازيون الخ) قد أصبح موضوعاً مفضلاً في التصوير والأدب^(٦٦) .

انه أيضاً عصر الذبائح الدموية ، والموجزات حول l'ars moriendi الفن الموريندي وانطلاق نغمة الورع ، والأهمية المناطة بالتطهير . ومع ان التعريف الكهنوتي للتطهير

يعود إلى سنة ١٢٥٩^(٦٧)، فإن شعبيته تطورت فيما بعد بفضل الاحترام ، خاصة ، للصلوات من أجل الموتى^(٦٨) .

وفي هذه الأوقات من الأزمات والقنوط ، تنامت وامتدت الرغبة بحياة دينية أكثر رسمية ، وأصبح البحث عن التجربة الصوفية ملحاً . وقد تجمع المتحمسون ، في بافاريا ، وفي الألزاس ، وسويسرا مشيرين لأنفسهم بأنهم «احباب الله» . وسيشعر بوجود تأثيرهم في مختلف الاوساط غير المتدينة ، ولكن في بعض الاديرة ايضا وقد أجهد كل من تولر وسيزو ، تلميذي المعلم ايكهارت، نفسيهما لنقل مذهبه ، ولكن تحت شكل مختصر ، وذلك بغاية ان يجعلاه مقبولا ولوضعه بمنجاة من الاتهامات .

ويعرف القليل عن حياة جوهان تولر (المتولد حوالي ١٣٠٠ والمتوفى في ١٣٦١) ، كما ان النصوص المنسوبة إليه غير صادرة عنه^(٦٩)

فتولر هذا يصير على تولد الله في روح المؤمن : يجب اعدام «كل ارادة ، وكل رغبة ، وكل عمل خاص ؛ يجب ان لا يترك شيء يستمر سوى الانتباه النقي والبسيط لله» . إن الروح مقادة في «الظلمة الخفية لله دون مثال ، واخيراً في الوحدة البسيطة ودون مثال ، حيث تفقد كل تميز ، وحيث هي بدون موضوع ولا مشاعر» . غير ان تولر لم يشجع ابداً البحث عن النعم المصاحبة في التجربة الصوفية .

اما حول اعمال هنريش سوزو (١٢٩٦-١٣٦٦) فتوجد معلومات كاملة . فقد دخل وهو حدث جداً إلى دير دومينكاني في كونستان ، وفي حوالي الثامنة عشرة من عمره ، عرف الوجد الأول وخلافا للمعلم ايكهارت (الذي أرسل اليه في سنة ١٣٢٠) فإن سوزو يتكلم عن تجاربه الوجدية^(٧٠) وهو يلخص هكذا المراحل للطريقة الصوفية : «ان الذي يرجع إلى ذاته يجب عليه ان ينفصل عن الأشكال المخلوقة ، مكوناً مع المسيح ومحولاً في الألوهة» .

وربما على اثر كتابة (سفر الحقيقة) الذي دافع فيه عن تعليم المعلم ايكهارت توجب على سوزو التخلي عن وضعه كقاريء . فسافر إلى سويسرا والألزاس وجهات أخرى والتقى تولر كذلك عدداً من «احباب الله» . وكما ان تبشيره جعله شعبياً ، سواء

في الأوساط العلمانية أو الرهبانية ، فإن سوزو أثار الاحساد ووشى به بكراهيمية . ولكن كتبه بعد موته تمتعت بانتشار واسع .

ومع أنه انتقد بعنف (البيغوين) واتباع (النفس الحرة) فإن الصوفي الفلامندي الكبير (روس برويك ١٢٩٣-١٣٨١ Ruys Broeche) ، لم ينجح هو ايضاً من الارتياحات في العقيدة^(٧١) . ان اكثرية كتاباته الاحدى عشرة الثابتة تتعلق بالتوجيه الروحي . ويؤكد روس برويك باصرار على خطأ الهرطقة والصوفية الكذبة الذين يخلطون الفراغ الروحي مع الاتحاد في الله : لا يمكن معرفة التأمل الحقيقي دون الممارسة المسيحية والطاعة الكنسية ، والاتحاد الصوفي لا يتم ابداً (طبيعياً) وانما هو منحة من النعمة الالهية .

ولم يكن روس برويك يجهل الخطر بأن يحكم عليه بشكل سيء ، ولأجل هذا لم يشجع ابداً انتشار بعض مؤلفاته التي فيها خصيصاً لقراء على جانب متقدم في ممارسة التأمل وعلى كل حال فقد فهم بشكل سيء ، وهو جم من قبل (جان جيرسون) رئيس جامعة باريز . حتى ان المعجب والمخلص له كثيراً جيرهارت كروت ، اعترف بأن فكر روسي برويك يمكن ان يفسح المجال لكثير من التشويش . وفي الواقع ، ومع الاشارة تماماً لضرورة الممارسة ، فإن روسي برويك يؤكد على ان التجربة للتأمل تكتمل على مستوى أعلى . وهو يؤكد بدقة على انه حتى خلال هذه التجربة «المتفردة» «لا يمكن ان نصبح إليها واضاعة قلوبنا لكائن مخلوق» [الحجر المتوهج]^(٧٢) . وعلى كل حال ، فإن هذه التجربة تحقق «توحداً في الوجدانية الاساسية لله» ، وروح التأمل «بكونها محتضنة في التثليث المقدس» . ولكن روس برويك يذكر بأن الله خلق الانسان على صورته ، «كمراة حية طبع فيها صورة طبيعية» . ويضيف انه ، لأجل فهم هذه الحقيقة العميقة والخفية ، فإن على الانسان «ان يموت لذاته ويعيش في الله» .

وفي آخر المطاف ، فإن خطر الرقابة الكنسية قد عنى المتأملين المثقفين في اللاهوت كما عنى المتحمسين من كل نوع ، للبحث عن التجارب الصوفية . هذا وان بعض الروحانيين فهم بشكل جيد عدم جدوى مثل هذه المخاطرة فجيرهارت غروت (١٣٤٠-١٣٨٤) الملقن لحركة تنسكية جديدة اخوان الحياة العامة ، لم يهتم مطلقاً بالتعاليم والتجارب الصوفية .

وان اعضاء الجماعات طبقوا ما أسميناه الورع الحديث *de votio moderna* ، مسيحية بسيطة ، كريمة ومتسامحة ، وغير مبتعدة عن الأصولية . فكان المؤمن مدعواً للتأمل حول سحر التجسيد ، كما يرتبه سر القربان المقدس ، بدلاً من الانسياق للارشادات الصوفية . وفي نهاية القرن الرابع عشر وخلال القرن الخامس عشر جذبت حركة اخوان الحياة العامة غلداً كبيراً من اللايك . إن الحاجة العامة والعميقة لورع مقبول من كل واحد تفسر دوماً النجاح المتفرد لحركة (احتذاء يسوع المسيح) المؤلفة من قبل توماس في كمبين (١٣٨٠-١٤٧١) .

وما زال الجدل قائماً حول دلالة وأهمية هذه الحركة التقوية . فبعض الكتاب اعتبرها كواحدة من ينايع الاصلاحات ، سواء أكانت انسانية ، كاثوليكية أو بروتستنتية^(٧٤) . ومع الاعتراف التام ، بأن الورع الحديث ، في معنى ما ، قد سبق ورافق حركات الاصلاح في القرن السادس عشر ، ويلاحظ ستيفن اوزمنت بحق ان «تحققها الاساسي هو اعادة تجديد المانوية التقليدية عشية الاصلاح . فالورع الحديث برهن على ان الرغبة في العيش حياة مشاعية بسيطة ، من تضحية الذات *abnégation* ، وياحتذاء المسيح والرسل ، كان ما يزال نشطاً في نهاية العصر الوسيط عما كان عليه في الكنيسة البدائية»^(٧٥) .

٣٠١ - نيقولاس دي كوز وغروب القرون الوسطى

ولد نيقولا كريس في كوزا سنة ١٤٠١ ، وهو كذلك بدأ دراسته في مدرسة داخلية يديرها اخوان الحياة المشتركة . وقد تعرف بعض المؤلفين على معالم هذه التجربة الأولى في التطور الروحي للكاردينال المقبل^(٧٦) . لقد اكتشف نيقولا دي كوز باكراً مؤلفات المعلم ايكهارت وبزیدوه آريوباجيت ، وان هذين اللاهوتين الصوفيين هما اللذان وجها وغذياً فكره . ولكن ثقافته الشمولية (اتقن الرياضيات ، الحقوق ، التاريخ ، اللاهوت ، الفلسفة) وأصوليته العميقة لماروائيته ، ومجرى حياته الكنسية الاستثنائية ، كل ذلك جعل من نيقولا دي كوز واحداً من الوجوه الأكثر تعقيداً والأكثر التصاقاً بتاريخ المسيحية^(٧٧) .

وسيكون من العتب مشيئة اعطاء تقديم مركز عن منهجه ، وما يهم هنا ، يقوم
بخاصة على اظهار المنظور الشمولي للموراثيته الدينية كما ظهرت في أول كتاب له
(التوافق الكاثوليكي Concordantia Catholica) (١٤٣٣) وفي (De Docta ignorantia)
علامة الجهل) ١٤٤٠ وفي (سلام الايمان De pacr fidei) (١٤٥٣) . لقد كان نيكولا
دي كوز أول من يعترف بالتوافق Concordantia كقاعدة شاملة ، حاضرة ايضا في حياة
الكنيسة ، وفي تطور التاريخ وبنية العالم ، كما في طبيعة الله^(٧٨) . وبالنسبة له : ان
التوافق يمكن ان يكتمل ليس بين البابا والمجمع وكنايس الغرب وكنايس الشرق
فحسب ، وانما ايضا بين المسيحية والاديان التاريخية . وقد وصل لهذه النتيجة الجريئة
بمساعدة اللاهوت السلمي لبيدو- اريواجيت . ودوما باستعمال الحياة السلبية
vianegativa بنى مؤلفه الرئيسي حول (علامة الجهل) .

وقد كان نيكولا دي كوز بنى استقراءه بكتاب (علامة الجهل) عندما اجتاز البحر
المتوسط (نوفمبر ١٤٣٧) متجها نحو القسطنطينية . وبما أن الأمر يتعلق بكتاب يصعب
تلخيصه ، فإننا نذكر بعض اطروحاته المركزية فقط . ان دي كوز يعيد إلى الذاكرة بأن
المعرفة (التي هي نسبية ، معقدة ومحدودة) غير مؤهلة للامساك بالحقيقة (التي هي بسيطة
وغير محدودة) . فكل علم بصفته ظنياً ، لا يمكن للانسان معرفة الله [١، ١-٣] . ان
الحقيقة - الحكمة المطلقة - هي خارج العقل ، لأن العقل غير قادر على حل التناقضات
[١-٤] . فيجب اذن تصاعد العقل الاستدلالي والتخيل وادراك المبدأ الأساسي
بالحدس . وفي الواقع ، فإنه يمكن للعقل ان يرتفع لما وراء المفارقات والاختلافات
بحدس بسيط [١-١٠] . ولكن ، وبما ان العقل لا يمكنه التعبير عن ذاته في لغة
عقلية ، فإن دي كوز يرجع إلى الرموز ويدنئها إلى الصور الهندسية [١، ١-١٢] . ففي
الله ، يتوافق الأكبر الغير محدود مع الأصغر الغير محدود [١-٤] وتتوافق ، امكانية الفعل
مع الفعل^(٧٩) .

ان الله ليس واحداً ولا ثلاثة . ولكنه الوجدانية التي تتطابق مع الثلاث
[١٩-١] . والله في بساطته اللامتناهية يغلف كل الأشياء ، الا انه في الوقت نفسه هو
كل الاشياء ؛ وبعبارة أخرى ، ان التعقيد يتطابق مع التبسيط [١١-٣] . ويعرفتنا لمبدأ
التوافق المتعارض ، تصبح «جهالتنا» «تبحراً في العلم» . ولكن التوافق بين الاضداد لا

يمكن له ان يفسر تركيب متحصل بالعقل ، لأنه لا يمكن تحقيقه على مستوى النهاية وانما بطريقة ظنية ، على المستوى اللانهائي^(٨٠) .

ولم يشك نيقولا دي كوز مطلقاً بأن الحياة السلبية ، التي تجعل توافق الاضداد ممكناً ، تفتح افقاً آخر للاهوت والفلسفة المسيحيتين ، بالسماح لهما تماماً بتطعيم حوار متماسك ومثمر مع الاديان الاخرى . وبكل اسف ، فإن استبصاراته ، بالنسبة للمسيحية الغربية ، وكذلك اكتشافاته لم تتابع ، وألف الكوزي كتابه سلام الايمان في ١٤٥٣ في الحين الذي أقدم فيه الأتراك على احتلال القسطنطينية وانقطاع الامبراطورية البيزنطية عن الوجود . وفي الواقع ، ان سقوط (روما الثانية) يبرز بطريقة تدعو للشفقة عدم جدارة اوروا لأن تحفظ ، أو تعيد توليد ، الوحدة على المستوى الديني والسياسي . وبالرغم من ذلك فإن هذه الكارثة ، التي كان قد وعها بألم ، يستعيد دي كوز في كتابه سلام الايمان بحججه لمصلحة الوحدة الأساسية للاديان . وهو لم يرتبك بمسألة الخصوصيات : الشرك ، اليهودية ، المسيحية ، الاسلام . وابتاع دي كوز للحياة السلبية ، يبرز ليس عدم الاستمرارية فحسب وانما ايضاً الاستمرارية بين طقوس المشركين والعقيدة الحقيقية . لأن المشركين «يعبدون الألوهة في كل الآلهة»^(٨١) . أما بالنسبة للفوارق بين التوحيد النقي لليهود والمسلمين ، والتوحيد الثلاثي للمسيحية ، فإن دي كوز يعيد إلى الذاكرة بأن «الله بصفته خالقاً هو تثليث وواحد ولكنه بصفته اللانهائية فهو ليس تثليثاً ولا واحداً ، ولا أي شيء آخر مما يمكن قوله . لأن الأساء الموصوفة لله مشتقة من المخلوقات ؛ والله في ذاته لا يمكن ادراكه وهو فوق كل ما يمكن تسميته أو قوله»^(٨٢) . وما هو اكثر من ذلك ، ان غير المسيحيين الذين يعتقدون بخلود الروح يفترضون ، دون علم ، المسيح الذي قتل وقام .

إن هذا الكتاب المبهز والجريء أهمل اهمالاً شبه تام . وكما يذكر بيليكان فإن (سلام الايمان) قد اكتشف في نهاية القرن الثامن عشر من قبل ليسينغ . وبما له دلالة أن الرؤية الشمولية لنيقولا دي كوز ألهمت ناتان دير وايز Nathan derweise وليس أقل من ذلك دلالة ان سلام الايمان مازال مجهولاً من قبل مختلف المسكونيين المعاصرين .

لقد كان نيقولا دي كوز آخر لاهوتي - فيلسوف هام للكنيسة الرومانية الموحدة غير المجزأة ، وبعد خمسين سنة من موته الف مارتن لوتر في ١٥١٧ الاطروحات

الخمسة وتسعين الشهيرة (ف. ٣٠٩ع) . وبعد بضع سنوات ، ضاعت بما لا يمكن ترميمه وحلة المسيحية الغربية . ومع ذلك فإنه منذ الفيدوا والفرنسيسكان في القرن الثاني عشر حتى جان هوس^(٨٣) . واتباع الورع الحديث في القرن الخامس عشر ، كانت الجهود الهادفة لاصلاح و«تطهير» بعض الممارسات والمؤسسات ، عديدة ، ولكن دون أن تفصل مطلقاً عن الكنيسة .

ومع بعض الاستثناءات النادرة ، فإن هذه الجهود بقيت دون نتيجة . ويمثل المبشر الدومينيكاني جيرولا موسافونا رولا (١٤٥٤-١٤٩٨) آخر محاولة للاصلاح المشروع داخل الكنيسة الرومانية ، وقد اتهم بالهرطقة ، واحرق جسده على المحرقة بعد ان اعدم شنقا . ومنذئذ فإن الاصلاحات ستجرى ضد الكنيسة الكاثوليكية أو خارجاً عنها .

بالتأكيد ان كل هذه الحركات الروحية ، والتي هي احياناً على هامش الاصولية ، كانت ، مع الانعكاسات التي اثارها ، متأثرة ، قليلاً أو كثيراً ، مباشرة بتغيرات النظام السياسي ، والاقتصادي والاجتماعي . غير ان ردات الفعل المعادية للكنيسة ، وبخاصة تجاوزات التفتيش ، اسهمت في افقار ، لا بل تصلب شرايين التجربة المسيحية وهرمها . أما بالنسبة لتحولات النظام السياسي ، الهامة جداً بالنسبة للتاريخ الأوروبي - فإنه يكفي هنا التذكير بانتصار الملكيات ، وانطلاقة القوة الروحية الجديدة التي ساندتها : الوطنية . واكثر أهمية بالنسبة لموضوعنا : على قرب الاصلاح، أصبحت الحقيقة العالمية - سواء للدولة أو الطبيعة - مستقلة عن ميدان العقيدة .

ربما ان المعاصرين لم يقيموا بعد حساباً لذلك ، ولكن لاهوت وسياسة اوكهام ستقوم من مجرى التاريخ ذاته .

٣٠٢ - بيزنطة وروما . مسألة الفيليك

إن الفوارق بين كنائس الغرب والشرق ، الموضحة سابقاً منذ القرن الرابع (ف ٢٥١ع) ، تتأكد أثناء القرون التالية . وقد كانت الاسباب متعددة : تقاليد ثقافية مختلفة (يونانية - شرقية من جهة ، ورومانية جرمنية من الجهة الاخرى) ؛ والجهل

المتناوب ليس في اللغات فحسب ، وإنما أيضا في اللغة اللاهوتية المتناوبة ؛ اتساع الفوارق في الأنظمة الثقافية أو الكنسية (زواج الكهنة ، المحرم في الغرب ؛ استعمال الفطير ، في الغرب والخبز مع الخمر في الشرق ؛ الماء المضاف للخمر في سر القربان المقدس في الغرب الخ ...) . وقد احتج البابا نيقولا ضد ترفيع عاجل لرجل علماني (لاييك) لرتبة بطريرك «ناسيا» حالة امبرواز المكرس مباشرة اسقفا لميلانو . ولم ترض بعض مبادعات روما البيزنطيين ؛ وعلى سبيل المثال ، عندما أعلن البابا في القرن الرابع سيادة الكنيسة على السلطة الزمنية ؛ أو ، في ٨٠٠ صلق على تتويج شارلمان بصفته امبراطوراً رومانيا ، مع ان هذا اللقب يعود دوماً للامبراطور البيزنطي .

إن بعض تطورات العقيدة والمؤسسات الكنسية أعطت للمسيحية الشرقية مظهراً خاصاً . ولقد رأينا أهمية تمجيد الايقونات في الامبراطورية البيزنطية (ف ٢٥٨ع) و«المسيحية الكونية» كما كانت عاشتها الشعوب الزراعية لأوروبا الجنوبية - الشرقية (ف ٢٣٦ع) . ان القناعة بأن الطبيعة بكاملها قد كان أعيد شراؤها وتقديسها بالصلب وبالإقامة يبرر الثقة في الحياة ويشجع بعض التفاؤل الديني . ونعيد إلى الذاكرة أيضا الأهمية الملحوظة المعطاة من قبل الكنيسة الشرقية لتقديس طغراء المسيح - «ختم هبة الروح القدس» . وهذا الطقس يتبع مباشرة التعميد ويحول كل لاييك (أي فرد من اللاوس = الشعب) لحامل للروح القدس ؛ وهذا ما يفسر في آن واحد المسؤولية الدينية لكل أعضاء الجماعة - واستقلال هذه الجماعات بالحكومة بالأسقف والمستظمة في ميتروبول . ويضاف إلى ذلك خط مميز آخر : القناعة بأن المسيحي الحقيقي يمكن له ان يدرك من هنا الألوهية (théosis) (ف ٣٠٣ع) .

وحصلت القطيعة بجمع الفيلوك filioque إلى قانون الايمان Credo لنيسي - القسطنطينية ، فاصبح المقطع يقرأ الآن : «الروح القدس في انبثاقه عن الأب والابن» . والمثال الأول المعروف للفيلوك يرجع بتاريخه لمجمع طليطلة الثاني ، المت عقد في سنة ٥٨٩ ، للمصادقة على اعتداء الملك ريكاردو من الأريوسية إلى الكاثوليكية^(٨٤) . وتحليل الصيغتين عن قرب نجد انها تعبران عن مفهومين مميزين للألوهية . ففي التثليث الغربي . روح القدس هو الضامن للوحدة الالهية . وعلى

العكس ، فإن الكنيسة الشرقية تشير إلى واقعة ان الله الأب هو المصدر ، والمبدأ والعلة للتثليث^(٨٥) .

وحسب بعض الكتاب ، كان الاباطرة الجرمن هم الذين فرضوا الصيغة الجديدة للكريدو (عقيدة قانون الايمان) . «إن دستور الامبراطورية الكارولينجية هو الذي عمم في الغرب استعمال الفيليك وحدد لاهوتا فيليوكيا صرفا . وتعلق ذلك باضفاء الشرعية ضد بيزنطة ، التي كانت حتى ذلك الحين واضحة اليد على الامبراطورية المسيحية ، الموحدة بالتعريف ، على تأسيس دولة جديدة ذات مطامح عالمية»^(٨٦) . ولكنه لم يحصل الا في عام ١٠١٤ . وبناء على طلب الامبراطور - هنري الثاني - أن أنشد الكريدو مع فيليوك في روما^(٨٧) . (يمكن اعتبار هذا التاريخ كميز لبداية التمهيد).

. ومع ذلك ، فإن العلاقات بين الكنيستين لم تنقطع نهائيا . ففي ١٠٥٣ ، أرسل البابا ليون التاسع إلى القسطنطينية بعثة ، موجهة من قبل مندوبه الرئيس ، الكاردينال هومبرت ، ليعيد ربط العلاقات القانونية والتهئية لاتحاد ضد النورماندين الذين احتلوا ايطاليا الجنوبية . ولكن بطريك بيزنطة (ميشيل سيرويل) بدا متحفظاً ورافضاً كل التزام . وفي ١٥ تموز ١٠٥٤ أودع المندوبون عندئذ على مذبح كنيسة القديسة صوفيا محضراً بالحرمان ضد (سيرويل) متهمين إياه بعشرة هرطقات من بينها أنه سحب الفيليك من الكريدو وسمح بزواج الكهنة .

ومنذ هذا الانفصال ، لم تنقطع عداوة الغربيين ضد الاغريق عن التزايد . غير ان مالا يمكن اصلاحه حصل فقط في ١٢٠٤ ، عندما هاجمت جيوش الصليبية الرابعة في سنة ١٢٠٤ القسطنطينية ونهبها ؛ محطمة الايقونات وملقية برفات القديسين على المزابل . وحسبما يذكر المؤرخ البيزنطي نيسيتاس شونيئاس ، فإن عاهرة غنت اغاني فاحشة على العرش البطريركي . ويعيد المؤرخ المذكور إلى الذاكرة ان المسلمين «لم يغتصبوا نساءنا [...] ولم يلحقوا البؤس والتعاسة بالسكان ، ولم يجرّدونهم من ثيابهم لكي يجعلونهم يمشون عراة عبر الشوارع ، ولم يجعلونهم يهلكون من الجوع ويحرقونهم بالنار [...] .. » . انظروا اذن كيف عاملتنا هذه الشعوب المسيحية التي تحمل الصليب باسم الرب وتشاطرونا ديانتنا»^(٨٨) . وكما ذكرنا آنفا (ف ١٠٤ع) فإن بودوان دي فلاندر

قد أعلن امبراطورا لاتينيا لبيزنطة وان الفينييسي موروزني اعلن بطريراً للقسطنطينية .
لم ينس الاغريق (اليونان) مطلقاً هذا المشهد المأساوي . مع ذلك ، وبسبب
التهديد التركي ، عاودت الكنيسة الارثوذكسية المفاوضات مع كنيسة روما بعد عام
١٢٦١ ، وقد طلبت بالحاح عقد مجمع مسكوني بهدف تنظيم تناقض الفيلوك والتهمة
للاتحاد . ومن جانبهم ، فإن الاباطرة البيزنطيين ، الذين كانوا يركزون حساباتهم على
المساعدة العسكرية للغرب ، كانوا قلقين ليروا تحقيق الاتحاد مع روما . واستمرت
المفاوضات اكثر من قرن ، واخيراً ، في مجمع فلورنسة (١٤٣٨-١٤٣٩) قبل ممثلو
الارثوذكسية ، بضغط من الامبراطور ، شروط روما ، غير ان الاتحاد سرعان ما أصبح
عاجزاً بسبب الشعب ورجال الدين . ومن جهة أخرى ، وبعد اربع سنوات ، وفي سنة
١٤٥٣ ، احتلت القسطنطينية من قبل الاتراك وانقطعت الامبراطورية البيزنطية عن
الوجود . مع ذلك استمرت انشاءاتها الروحية في الحياة ، في اوربا الشرقية وفي روسيا
ثلاثة قرون على الأقل .

لقد كانت «بيزنطة بعد بيزنطة» حسب عبارة المؤرخ الروماني ن. ايورغا^(٨٩) .
وقد سمح هذا التراث الشرقي لانطلاقة المسيحية (الشعبية) التي لم تثبت لارهاب التاريخ
المستمر فحسب ، وانما أنشأت عالماً من القيم الدينية والفنية التي تنغرس جنورها في
العصر الحجري النيوليتيك (ف ٣٠٤ع) .

٣٠٣ - الرهبان المطمثون . القديس غريغوار بالاماس

لقد اشرنا سابقاً للتأليه (theosis)^(٩٠) وإلى كبار الفقهاء ، غريغوار النيسي
ومكسيم لوكونفسور الذين منهجوا هذه النظرية للاتحاد مع الله (ف ٢٥٧ع) ففي كتابه
حياة موسى يتكلم غريغوار دي نيس عن «الظلمة المنيرة» أو موسى «يصرح بأنه يرى الله»
[١٦٣-٦٤] . وبالنسبة لمكسيم لوكونفسور ، أن هذه الرؤية لله في الظلمات تتج
الآلوهة ، وبعبارة أخرى ، فإن المؤمن يسهم في الله . إن التأليه هو اذن عطاء مجاني

«عمل من الله الكلي القدرة خارجاً بحرية من تصاعده مع البقاء تماماً وجوهرياً غير ممكن معرفته»^(٩١). كذلك الأمر فإن سيميون اللاهوتي الجديد (٩٤٢-١٠٢٢) والصوفي الوحيد من الكنيسة الشرقية يتكلم عن تجاربه الخاصة ويصف في هذه العبارات سر التأليه : «لقد وافقتني يا ربي ، ان هذا الهيكل القابل للفساد - جسدي البشري - سيتحد إلى جسدك المقدس ، وإن دمي سيختلط بدمك ؛ ومن الآن ، أنا عضوك الشفاف والرائق»^(٩٢).

وكما قلنا سابقاً ، فإن التأليه يشكل المبدأ المركزي لللاهوت الارثوذكسي . يضاف إلى ذلك انه مرتبط صمياً بالمزلة الروحية للمطمئنين hēychastes (من كلمة hesychia = طمأنينة) وهم المتوحدون الساكنون أديرة جبل سيناء . وقد كانت الممارسة المفضلة لهؤلاء الرهبان «صلاة القلب» أو «صلاة يسوع» . فهذا النص القصير («ربنا يسوع المسيح ابن الله ، ارحمنا») يجب أن يردد بدون كلل ، بتأمل «داخلي» . وبدءاً من القرن الرابع ، انتشرت الاطمئنانة hēsychasme من جبل سيناء في العالم البيزنطي . وقد أكد اللاهوتي السينائي كليماك (القرن ٦-٧) على أهمية الهيزشيا hesychia^(٩٣) . ولكنه مع نيسيفور المتوحد (القرن الثالث عشر) انغرس هذا التيار الصوفي في جبل آتوس وفي اديرة أخرى . ويعيد نيسيفور إلى الذاكرة أن هدف الحياة الروحية هو الوعي بالتقديسات «للكثر المخبوء في القلب» وبعبارة أخرى جمع الروح (النوس le nous) إلى القلب ، «مكان الله» . ونحصل على هذا الجمع «بانزال» الروح في القلب بعربة التنفس .

ان نيسيفور هو «الشاهد الأول ، المحدد بيقين ، لصلاة يسوع المخلوطة مع صياغة تنفسية»^(٩٤) . وهو في رسالته حول حراسة القلب ، يعرف هذه الطريقة بتفصيل . «هكذا قلت لك ، اجلس أنت ، استجمع نفسك ادخلها - قلت نفسك - في فتحتي انفك ؛ هذا هو الطريق الذي يستعيره النفس ليذهب إلى القلب . ادفعه ، اجبره للنزول في قلبك في ذات الوقت من الهواء المنتشق . وعندما سيحصل ، سترى الفرح الذي سيتلو ذلك [...] كذلك هو الانسان الذي يعود لبيته بعد غياب لن يسترجع سروره من قدرته وعلى ملاقة زوجه وابنائهم ، كذلك النفس ، عندما تتحد بالروح ، تتمتع بسرور ويلذات لا توصف [...] اعلم بالتالي ، انك في حين ان نفسك توجد هنالك ، لا يجب عليك لا أن تسكت ؛ ولا أن تبقى عاطلاً . ولكن لا

يكن لديك شواغل أخرى ، ولا تأملات سوى الهتاف : ربي يسوع المسيح ابن الله ،
كن رحيماً بي . أي هدنة لأي ثمن»^(٩٥) .

واكثر أهمية ايضا لانطلاقة الهيزيشاسم في جبل آتوس ، أن غريغوار السينائي
(١٢٥٥-١٣٤٦) كان أكد على الدور المركزي لذكر الله «تذكر الهك ربك في كل
وقت» . من أجل أن تعي النعمة الحاصلة بالتعميد ، ولكن المسترة بعدئذ بسبب
الذنوب . ويفضل غريغوار العزلة الرهبانية في دير جماعي ، لأن الصلاة الطقوسية تظهر
له خارجة جداً لكي تُطلق «ذكرى الله» . ولكنه يلفت انتباه المتسك على أخطار الرؤى
المثارة بالتخيل^(٩٦) .

إن اللاهوت البيزنطي توقف عن كونه «لاهوت تكرار» بسبب التناقضات المثارة
من الهيزيشاست بالدرجة الأولى . وحوالي ١٣٣٠ فإن اغريقيا من كالابر ، يدعى بارلام
Barlaam ، وصل إلى القسطنطينية ، وكسب ثقة الامبراطور وكرس نفسه لوحدة
بعض رهبان الهيزيشاست ، انتقد بارلام وحدة طريقتهم واتهمهم بالهرطقة . وبدقة
اكثر ، اتهمهم بالميسيليانية messalianisme^(٩٨) . لأن الهيزيشاست زعموا أنهم رأوا الله
ذاته ، وعليه فإن الرؤية المباشرة لله ، بواسطة العيون الجسدية ، غير ممكنة . ومن بين
المدافعين عن الهيزيشاست يتميز ، ومن بعيد ، غريغوار بالاماس ، وبالاماس هذا
المتولد سنة ١٢٩٦ في بالاماس كرس كاهنا وامضى عشرين عاما في دير جبل آتوس .
قبل ان يطوب اسقفا لتسالونيك . وفي رده على بارلام في ثلاثياته لأجل الدفاع عن
القديسين الهيزيشاست جلد بالاماس اللاهوت الارثوذكسي في القسم الأكبر منه .
وتتكون مساهمته الرئيسية في التمييز الذي أدخله بين الجوهر الالهي و«الطاقات» التي
يتصل الله ويتجلى عبرها . «الجوهر الالهي والغير ممكن معرفته ، اذا لم يمتلك طاقة مميزة
من ذاتها ، سيكون بالكلية غير قائم ولن تكون له سوى نظرة روح»^(٩٩) . إن الجوهر هو
«سبب» الطاقات ، «كل واحدة منها تعني حقيقة ملكية الهية متميزة ، ولكنها لا تشكل
ابداً حقائق مختلفة ، لأنها كلها هي أعمال لاله واحد حي»^(١٠٠) . (إن مبدأ الطاقات
حرّم من قبل المجامع البيزنطية في ١٣٤١ ، ١٣٤٧ ، ١٣٥١ .

وفيا يخص النور الالهي المرئي من قبل الهيزيشاست ، فإن بالاماس يرجع إلى نور
التجلي فعلى جبل تابور Thabor ، لم يكن هنالك أي تغير بيسوع - وانما تحول في

الرسول : هؤلاء ، بالنعمة ، استعادوا القدرة لرؤية يسوع كما كان ، مبهورين في نوره . وهذه القدرة ، كانت لدى آدم قبل الهبوط وستعوض للانسان في المستقبل الآخروي^(١٠١) . ومن جهة أخرى ، فإن بالاماس يؤكد مطوراً بذلك تقليد الرهبان المصريين ، أن رؤية النور الغير مخلوق يترافق بالتثوير الموضوعي للقدس . «ان الذي يساهم بالطاقة الالهية [...] يصبح بذاته ، وبنوع ما ، نوراً ؛ إنه متحد بالنور ، ومع النور يرى بوعي كامل كل ما بقي خفياً على من ليس لديهم هذه النعمة»^(١٠٢) .

وفي الواقع ، على اثر التجسيد ، أصبحت اجسادنا «معابد للروح القدس الذي هو فينا» [ارسالة للكورنثيين ٦: ١٩] ؛ ويتقدس القربان المقدس ، يوجد المسيح داخلنا . «نحمل نور الأب في شخص يسوع المسيح» [ترياد - ١ - ٢ و ٣] . هذا الحضور الالهى داخل جسدنا «يحول الجسد ويجعله روحياً [...] للدرجة ان الانسان برمته يصبح روحاً»^(١٠٣) . ولكن هذه «الروحة آ للجسد لا تستدعي الانفصال من المادة . بل على العكس ، فإن المتأمل «بدون ان يفصل أو ان يكون منفصلاً عن المادة التي ترافقه منذ البدء» . يوصل لله ، «عبره ، جملة الخليقة»^(١٠٤) . ويتمرد اللاهوتي الكبير ضد الافلاطونية ، التي بهرت في القرن الرابع عشر ، اثناء «نهضة البايولوج» Renaissance de Paleologues ، النخبة المثقفة (الانتلجنسيا) البيزنطية وحتى بعض اعضاء الكنيسة^(١٠٥) . وبالعودة إلى التقليد التوراتي ، فإن بالاماس يصر على أهمية التقديسات التي تصبح المادة عبرها متصاعدة الجوهر transubstantia lisée دون ان تكون منعقدة .

إن انتصار الهيزشاسم واللاهوت البالاماتي حرض على اعادة تجديد الحياة التقديرية ، كما حرض على اعادة تجديد بعض المؤسسات الكنسية ، وقد انتشرت الهيزشاسم بسرعة في أوروبا الشرقية ، في الولايات الرومانية ودخلت إلى روسيا حتى نوفوغورد . وان «نهضة» اهللنستية ، مع تجديد الفلسفة الافلاطونية ، لم يتواصل ، وبعبارة أخرى ، ان بيزنطة والبلاد الارثوذكسية لم تعرف الحركة الانسانية . ويقدر بعض الباحثين انه ، بفضل النصر المزدوج لبالاماس - ضد اوكهامية بارلام وضد الفلسفة الاغريقية - فإن الارثوذكسية لم تفسح المجالاً لأية حركة من حركات الاصلاح .

ويضاف إلى هذا أن واحداً من أكثر اللاهوتيين جرأة بعد بالاماس كان غير متدين (لايك) ، وهو نيقولا كابازيلا (١٣٢٠-١٣٧١) ، موظف كبير في الادارة البيزنطية . وليس كابازيلا فحسب هو الذي أحيا بوضوح تقليداً استمر عند كل الشعوب الارثوذكسية ، ولكنه اعتبر اللايك كأسمى من الراهب ، فتموزج هذا الأخير هو الحياة الملائكية . في حين ان اللايك هو رجل كامل . وان هذا من جهة أخرى بالنسبة لغير المتدينين كما كتب نيقولا كابازيلاس بهدف ان يعوا البعد العميق لتجربتهم المسيحية ، ويدثيا سر التقديسات^(١٠٦) .

حواشي الفصل السابع والثلاثون

- ١ - من الراجح أن بوغوميل كان قد عرف بعض افكار ثنائية مذاعة من قبل البوليسيان والميساميان ، هراطقة آسيا الوسطى (القرن ٦-١٠) . انظر لمحة سريعة عن نظرياتهم وتاريخهم في كتاب ستيفن رونسمان (مانوية القرون الوسطى) .
- ٢ - انظر - في مكان آخر - روبرت بروتينغ ، بيزنطة وبلغاريا - وسيوجد مواز في الصليبية ضد الأليجوا ، حيث سيوضح ان حسد امراء الشمال حرق من أجل ثروة نبلاء الجنوب .
- ٣ - ٤ - اسماء المراجع المعتمدة
- ٥ - رونسمان - التزويرات البوغوميلية والمزورات الكاذبة .
- ٦ - ٩ - المراجع السابقة - والمصادر المذكورة اسماءها .
- ١٠ - الاسم - Katharas الطاهر - فرض نفسه حوالي ١١٦٣ فقط
- ١١ - يضاف إلى ذلك ، انه بفضل أعمال الدعاوى المرفوعة من قبل التفتيش ، عرفت بشكل افضل المفاهيم واحتفالات الكاذار من قبل البوغوميليين .
- ١٢ - سيكون من العبث التأكيد حول الاختلافات المذهبية . فبعض الكازارين انكروا ألوهية المسيح ، وبعضهم ذكر التثليث في حفلاته وبعضهم قبل سلسلة من الايونات بين الله والعالم كل منها مدخول من الجوهر الالهي (رونسمان) .
- ١٣ - حسب الظاهر . ان الرقييوم لم يكن يحتوي أي تأكيد هرطقي : «ثمة خطان بشيران فقط إلى ان الذين يتلون كانوا يعلمون الثنائية : وتلك هي الطاقة التي يحرم الكلام معها عن آثام الجسد ، وهذه العبارة ذات الدلالة «لا يمكن لديك أية شفقة بالنسبة للجسد ، المتولد في الخطيئة ، وانما ليكن عندك شفقة للروح المحتجز في السجن» (رونسمان) المصدر السابق
- ١٤ - ١٥ - اسماء المراجع .

١٦ - يفسر فريدريك هير بهذا الرفض الخسارة ، بالنسبة للكاتوليكية من افريقيا الشمالية والمانيا .
(عالم القرون الوسطى) .

١٧ - ١٩ - اسماء المراجع .

٢٠ - «بينما كنت أتأمل حول ارتفاعات الروح نحو الله ، تذكرت من بين اشياء أخرى المعجزة الحاصلة في هذا المكان للقديس فرانسوا ذاته : رؤية السيرافين المجنح في شكل صليب . وعليه يبدو لي كذلك ان هذا الظهور مثل الوجد للسيد الأب وارشد بخط السير الروحي الواجب اتباعه للوصول اليه»

٢١ - ٢٢ - اسماء المراجع .

٢٣ - من أجل مقارنة الوثائق انظر - الياد - الشامانية (سلم الجنة) في التقليد المسيحي . انظر دوحه انسلم ستولز - صوت الصوفية - حول السلم في التصوف الاسلامي واليهودي انظر الكسندر الثمان (سلم الصعود) .

٢٤ - itinérarium فصل ١ - قسم ٢ - يضاف إلى ذلك ان هذه المحطات الثلاثة من الصعود نحو الله - من الخارج وفي الداخل وإلى ما فوق - تلائم كل واحدة مظهرين ، نستطيع الدلالة عليها كانبثاقات وتضاعف . والمقصود اذن ستة محطات مرمرزة لسته اجنحة للسيرافين الذي باعتقائه ، آثار امراض القديس فرنسوا ..

٢٥ - ايتيان جيلون يقول «اذا كانت مميزات الفكر الحديث التمييز بين ما يمكن البرهنة عليه وما لا يمكن فانه في القرن الثالث عشر تأسست الفلسفة الحديثة ، وانها مع البير الكبير حددت ذاتها ، وشعرت بقيمتها وحقوقها» .

٢٦ - حياة توماس كانت قصيرة وبجدة من الاحداث المساوية . ولد بالقرب من اجنة حوالي ١٢٢٤ وفي بداية ١٢٢٦ وارتنى ثياب الدومينيكان في ١٢٤٨ وفي السنة التالية ذهب لباريس ليدرس تحت توجيه البير الكبير واجيز في اللاهوت في ١٢٥٦ وعلم توماس في باريس ١٢٥٦-١٢٥٩ وفيها بعد في عدد من مدن ايطاليا ، عاد الى باريز ١٢٦٩ ولكنه تركها مجدداً في ١٢٧٢ وعلم في نابولي ١٢٧٣ . ودعي من قبل غريغوار العاشر لثاني مجمع عام في ليون . وسافر توماس في كانون ثاني ١٢٧٤ ، ولكنه توقف بسبب مرضع في (فوسا نوفا) حيث مات في ٧ آذار . ومن بين كتاباته العديدة - اكثرها شهرة حيث أظهر فيها توماس عبقرية الحقيقة المجموع اللاهوتي والمجموع ضد الوثنيين .

٢٧ - جيلسون - الفلسفة في القرون الوسطى

٢٨ - انظر مناقشة هذه الادانات في المرجع السابق . عدد كبير من الاطروحات كان لابن رشد ، وبعضها يرجع لتعليم توماس .

٢٩ - ستيفن اوزمن - عصر الاصلاح

٣٠ - حسب جيلسون «ان دراسة أوكهام تسمح بملاحظة واقعة تاريخية ذات أهمية رئيسية . وانه

بتجاهلها دائماً ، ذلك لأن النقد الدخيل المقدم ضدها بما نسميه ، بتعبير غامض ، الفلسفة السكولاستيكية ، حتى اثار خرابها قبل ان تنجح الفلسفة المسماة حديثة بالتكون

٣١- انظر مناقشات هذه الاطروحة في المرجع السابق .
٣٢- من جهة اخرى ليس الا في أيامنا ان هذه المؤلفات ، في اللاتينية وفي لغة وطنية هي على أن تطع

٣٣- الياد- غوامض واحلام واساطير

٣٤- واسم المرجع

٣٥- يمكن مقارنة هذا المفهوم مع رسالة البهاجاو وجيتا (فقرة ١٩٣-١٩٤ع)

٣٦- عدد من النصوص تشير مع ذلك للهوية المطلقة بين الله التليثي والألوهة . انظر المراجع المذكورة

٣٧- عن ايكهارت في احدى مواعظه «عندما قلت ان الله لم يكن كائنا وهو فوق الكائن ، فاني لم اجحد الكائن بل على العكس انني نعته بالكائن الأكثر رفعة» .

٣٨- ٣٩- اساء مترجمي النصوص المثبتة

٤٠- ان الزمن حسب ايكهارت اكبر عقبة في القرب من الله ، وليس فقط الزمن «وانما ايضا الاشياء الزمنية والانجازات الوقتة حتى اريج الزمن»

٤١- في رسالته عن الانفصال ، يعتبر ايكهارت هذه الممارسة كأعلى حتى من التواضع والاحسان . الادنة يؤكد ان الاحسان هو واحد من الطرق التي توصل للاتصال .

٤٢- هذا التداخل بين الانطولوجيا والمعرفة يعكس بشكل ما مظهراً مفارقاً ان لم يكن مناقضاً للاهوت ايكهارت وفي الواقع ، انه يبدأ مؤلفه النموذجي مع تحليل موضوعة حول الله ، في حين انه في الاسئلة الباريسية يؤكد ايكهارت ان الله معرف بصفة عقلأ ، عمل المعرفة هو اذن فوق الأسى . (المراجع المعتملة)

٤٣- موعظة ٦- هذه الاطروحة ادينت في افينيون ليس بكونها هرطقة وانما مشبهة بالهرطقة

٤٤- ٤٦- المراجع المعتملة .

٤٧- ان المجموعتين دفعتا باللعة من قبل البابا لوسيوست الثالث في ١١٨٤

٤٨- حسب رأي بعض الكتاب ، هذا الاسم مشتق من الاليجونسين

٤٩- مكدونالد- البغوين والبيفارد .

٥٠- قال لها المسيح ... ويذكر ليرنر .. ان ذات التجربة بالحلب الهمت عمل البغوتين

الفلامندي وهادويش أحد كبار الشعراء الصوفيين في القرن الثالث عشر .

٥١- ليرنر ص ٣٨ .

- ٥٢- من المحتمل صحة ان بعض المجموعات شاركت في مبادئ الكاذار (انظر اسماء المراجع).
- ٥٣- هذا النقد الظالم يفسر بواقعه انه ، حوالي نهاية القرن الثالث عشر ، اصاع الرهبان كثيراً من حماسهم الاساسي وتمتعوا بامتيازات كنسية .
- ٥٤ - ٥٦ - اسماء المراجع المعتمدة .
- ٥٧- مارغريت بوريه هرطقية بسلية ، الصلاة المواعظ ، الصيامات ، الصلوات غير مجدية ، لان الله (هو هنالك سابقاً) ولكن المرأة واحدة من النصوص الباطنية ، لا توجه الا لأولئك الذين يفهمون - انظر النصوص وتحليلاتها ، لدى ليرنر .
- ٥٨- في هذا الأخير يمكن ان نقرأ (الشخص الذي يتنازل للخلق المرئي والذي ينفذ الله فيه بارادته كاملة [. . .] هو في آن واحد انسان واله [. . .] جسده هو بكامله مخترق بالنور الالهي [. . .] الذي يمكن ان يسمى رجل الهي .
- ٥٩- ليرنر ص ٢١٥ .
- ٦٠- اقامة الباب في أمينيون ١٣٠٩-١٣٧٧ ، الانشقاق الكبير ١٣٧٨-١٤١٧ عندما كان ثلاثة بابواب او اثنان يحكمان في ذات الوقت .
- ٦١- ان الظاهرة لم تكن جديدة ، فالتسوطون ظهوروا في بيروجيا في سنة ١٢٦٠ السنة - حب نبوة جواشيم دي فلور - حيث بدأت المرحلة السابعة للكنيسة . في العشرات التالية ، انتشرت الحركة في اوروبا الوسطى ، ولكن باستثناء بعض الانقطاعات العابرة زالت لتعاود ظهورها بقوة استثنائية في ١٣٤٩ .
- ٦٢- انظر الوثائق المحللة من قبل ليفت هيرسي . كل عضو من الجماعة كان يتوجب عليه ان يسوط نفسه مرتين باليوم علنا ومرة منفرداً ، اثناء الليل .
- ٦٣ - ٦٤ - اسماء المراجع
- ٦٥- القرون الوسطى الخرافية - جورجي بالتروزاتي «نهاية القرون الوسطى مليئة بهذه الرؤى للحلم المتحلل والهياكل العظيمة . وخشخشة الجماجم وقرقعة العظام تملأ بضجتها» .
- ٦٦- وذات المرجع السابق يقول : مع انها من أصل هللنستي ، فإن هذه المفاهيم والصور وصلت للقرون الوسطى من اسيا وعلى الأرجح التبت .
- ٦٧- المرجع السابق
- ٦٨- انظر الأمثلة المذكورة من قبل اوكلي حيث يذكر العديد من الصلوات على شرف القديسين الذين يشفون من الامراض ، والقديس بليز لمرض الحلق ، والقديس روشي لمنع الضاعون الخ . .
- ٦٩- ليس الا في ١٩١٠ قد تم التوصل لتأكيد صحة عدد من المواعظ كاملة او مقاطع منها
- ٧٠- «لقد عرفت أختا واعظا ، الذي في بداياته ، ربما خلال عشر سنوات ، تلقى مرتين في

العادة حيا صباحا ومساء مثل هذه النعمة الفطرية التي دامت لوقت عيدين . وخلال هذا الوقت كان مشعباً في الله ، والحكمة الالدية التي لم يستطع التكلم عنها . لقد ظهر له انه يخلق في الاجواء وانه يتجول بين الازمنة ولابدية في طوفان عميق من الاعاجيب التي لا يسبر غورها الله ..

٧١- لقد نظم كاهنا في ١٣١٧ ، روس برديك انسحب في ١٣٤٣ مع جماعة من المتأملين في دير ، واصبح سريعاً راهبا حسب القاعدة الاوغسطينية وهناك مات عن عمر أهم عمله .
٧٢- بعدئذ كتب الكتاب الصغير للتنوير ليجعل مقبولا مملكة الحب الصعبة . وقد يوجد الجوهري من مذهب روس برديك في الاطروحة الطويلة (زواج روحاني) جهم عمله . وفي نص صغير الحجر المتوهج .

٧٣- ٧٦- اسماء المراجع

٧٧- بعد ان لازم عدة جامعات مشهورة من بينها جامعة باودمق ١٤١٧-١٤٢٣ كرس كاهنا حوالي ١٤٣٠ عميداً لكاتدرائية القديس فلورنتان في كويلانس . وقبل في الكلية القنصلية ببال في ١٤٣٠ . مع ذلك انضم الى حزب البابا أوجين ١٧ وارسله هذا كمنسوب الى القسطنطينية لدعوة البطريرك المشرقي والامبراطور يوحنا بالبولوج الى مجمع فلورنسا ، بهدف التحضير لتوحيد الكنائس . وفي الفترة التي تفصل بين اثنين من اعماله الاكثر اهمية الدوكا المجهولة (١٤٤٠) والرؤية الالهية ١٤٥٣ ، رفع نيقلولا لرتبة كاردينال ١٤٤٨ واسقف بريكسن ١٤٥٠ وفي بريكسن دخل في مشاحنة مع الدوق سيجموند دي تيرول ١٤٥٧ وانسحب لروما مكرساً سنواته الأخيرة لاعماله وتوفي في ثودي سنة ١٤٦٢

٧٨- جاروسلاف - بيليكان (تيولوجيا سلبية ودين ايجابي)

٧٩- الكوزي - يعترف بأن التيولوجيا السلبية هي أعلى من التيولوجيا الايجابية ، ولكنه يؤكد انها تتفقان في تيولوجيا واصلة .

٨٠- ولنلاحظ بأن الفوارق بين هذا المفهوم - أي توافق المتعارضات المنجزة عن مستوى الانهائي والصيغ القديمة والتقليدية متعلق بالتوحيد الواقعي للاضداد (انظر على سبيل المثال المسكارا والنيرفان فقرة ١٨٩ - ٢٩٦)

٨١- يذكر بيليكان «انه انت الذي يعطي الحياة .. والكائن انت الذي نبحت عنه في مختلف انظمة العقيدة والذي نسميه بمختلف الاسماء لأنه كما توجد أنت حقا . تبقى مجهولاً وغير ممكن ادراكه» .
٨٢- ذات المرجع - بيليكان .

٨٣- الكاهن التشيكي جان هوس (١٣٦٩-١٤١٠) سمي رئيس جامعة براغ في سنة ١٤٠٠ ، اتق في مواعظه رجال الدين ، والاساقفة والبابوية ، متأثراً بجان وليكف ١٣٢٥-١٣٨٢. كتب هوس كتابه الأكثر أهمية دي الكليزيا ١٤١٣ .. واستدعى لكونستانس ليدافع عن نفسه ١٤١٤ واتهم بالهرطقة وادين بالحرق .

- ٨٤- من الراجع جداً ان الفيلوك أضيف للإشارة على الفرق بين الاريوسيين والكاثوليك فيما يتعلق بثاني شخص من التثليث .
- ٨٥- انظر تحليل النصوص بدمج بيلكان .
- ٨٦- ٨٩- اسماء المراجع .
- ٩٠- فكرة مبنية على كلمات المسيح ذاتها (وانا وهبت لهم ما وهبت لي من المجد ، ليكونوا واحداً كما نحن واحد ، انا فيهم وأنت في ليلغوا كمال الوحدة (يوحنا ١٧: ٢٢-٢٣)
- ٩١- ٩٥- اسماء المراجع .
- ٩٦- يذكر ما يندورف ان المقصود خط اساسي للتقليد الصوفي الارثوذكسي : التخيل تحت كافة الاشكال الارادية وغير الارادية هو العدد الاكثر خطراً للاتحاد مع الله
- ٩٧- في سنة ١٣٣٩ انيطت به بعثة موقته قبل بينوا ١٤ بأفينيون .
- ٩٨- بالنسبة للميسالين ، الهدف الغائي للمؤمن كان الاتحاد الوحداني مع جسد النور للمسيح
- ٩٩- ١٠٠- اسم المراجع .
- ١٠١- هذا يعني ان الادراك الحسي لله في نوره الغير مخلوق مرتبط بكمال الأصول ، وفي النهاية ، في اللجنة ما قبل التاريخ والآخرة التي ستضع نهاية للتاريخ . ولكن الذين سيصبحون جديرين بملكوت الله يتمتعون منذ الآن برؤية النور الغير مخلوق امثال الرسل على جبل تهابور (انظر الياد تجارب النور الصوفي - ميستوفوليس وختمى ص ٧٤)
- ١٠٢- عظة مترجمة من قبل فالوسكى (لاهوت الانوار)
- ١٠٣- ١٠٤- اسماء المراجع
- ١٠٥- «في التحقق من فكرة الفقيه الهيزشاست ، ادارت الكنيسة البيزنطية ظهرها لروح النهضة» ج ، ميردروف- المدخل .
- ١٠٦- هذه الكتب هي ، الحياة في يسوع المسيح ، وتفسير الألوهة الطقوسية ، ومازالت تقرأ في اوساط الجماعات الارثوذكسية .

الفصل الثامن والثلاثون

دين - سحر وتقاليد هرمسية قبل وبعد الاصلاحات

٣٠٤ - استمرارية حياة التقاليد الدينية الماقبل المسيحية

كما لاحظنا تكراراً ، فإن تمسيح christianisations الشعوب الأوروبية لم ينجح في
محو مختلف التقاليد الإيتينية . وقد افصح اعتناق المسيحية المجال لتركيبات وتوليفات دينية
تظهر في العديد من المرات بكل وضوح الابداعية المميزة للثقافات «الشعبية» زراعية
أورعوية . وقد سبق أن أعدنا للذاكرة بعض الأمثلة من «المسيحية الكونية» (ف ٢٣٧ع)
واظهرنا من جهة أخرى^(١) - الاستمرارية - منذ العصر الحجري (النيوليتيك) حتى القرن
التاسع عشر - لبعض الثقافات والاساطير والرموز ذات العلاقة مع الحجارة ، والمياه
والنبات . ونضيف انه ، على اثر اعتناقهم للمسيحية ، حتى سطحيا ، فإن العديد من
التقاليد الدينية الاتنية ، كذلك الأمر بالنسبة للميتولوجيات المحلية ، قد تطابقت ، أي
ادخلت في نفس «التاريخ المقدس» وافصححت في اللغة ذاتها ، عن الدين والميتولوجيا

المسيحية . وهكذا على سبيل المثال ، ان ذكرى آلهة العاصفة استمرت في الحياة في خرافات القديس ايلي Elie ، وان عدداً كبيراً من الأبطال قاتل التماسيح تمثل بالقديس جرجس (الخضر) ؛ وان بعض الاساطير والطقوس المتعلقة بالربات ادخلت في الفولكلور الديني للعذراء مريم . وفي آخر المطاف ، فإن الاشكال التي لا حصر لها في انواع مختلفة من التراث الوثني قد صيغت في ذات المجموعة الاسطورية - الطقوسية التي تمسحت خارجياً .

وسيكون من العبث عرض كل الانساق من «المخلفات الوثنية» . ويكفي ذكر بعض الحالات الموحية بصورة خاصة ؛ وعلى سبيل المثال الكاليكانتزاري ، les Kallikantzari غيلان تسكن القرى الاغريقية خلال الأيام العشرة (ما بين عيد الميلاد والغطاس) والتي تصل السيناريو الاسطوري - الشعائري لستورات des Centaures العصور القديمة الكلاسيكية ٢ ؛ أو الشعيرة القديمة للسير على النار ، المدخلة في حفلة الاناستيناريات des anasténaria في تراقية^(٣) ، أو أخيراً ودائماً في تراقيا اعياد الكرنفال التي تذكر بنيتها بالأعياد «الديونيزية في الحقول» des Anthesteries المحتفل بها في اثينا ، في الألف الأولى قبل العصر المسيحي (ف ١٢٣ع)^(٤) . ولنلاحظ من جهة أخرى أن العديد من القصص والموضوعات الروائية المؤكدة في القصائد الهومييرية هي قائمة حالياً في الفولكلور البلقاني والروماني ايضاً^(٥) . واكثر من هذا : ان ليوبولد شميث بتحليله للاحتفالات الزراعية لأوروبا الوسطى والشرقية تمكن من اظهار تضامنها مع سيناريو اسطوري - شعائري زال من اليونان قبل هوميروس^(٦) .

وبالنسبة لموضوعنا ، يقتضي ايراد بعض الأمثلة التوفيقية الوثنية - المسيحية مظهرة في ذات الوقت صمود مقاومة التراث التقليدي وعملية التمسيح . وقد اخترنا ، كبداية الشعيرة المعقدة للأيام الاثنا عشر لأنها تمتد جنورها في ما قبل التاريخ . وبما انه لا مجال لاطهارها في مجموعة (حفلات ، العاب ، اغاني ، رقصات ، مواكب بأقنعة حيوانية) فإننا نركز على الاغاني الشعائرية لعيد الميلاد Noël . فقد تأكد في كل اوروبا الشرقية حتى بولونيا ، ان الاسم الروماني والسلافي كوليند Colinde يشتق من كاليندا جانواري Calendde Ganuarii . وقد حاولت الكنيسة استئصالها ، خلال قرون ، ولكنها لم تفلح . (في عام ٦٩٢ كرر مجمع القسطنطينية بعبارات صارمة تحريمها) . وفي آخر

المطاف تمسح العديد من الكاليند ، وبهذا استعارت الشخصيات والقصص الميثولوجية للمسيحية الشعبية^(٧) وهذه الشعيرة تجري عادة بدءاً من قرب عيد الميلاد (٢٤ كانون أول) حتى صبيحة الليلة التالية . تعين جماعة من ستة إلى ثلاثين شابا كولاندا توري Colin datoiri رئيساً لهم عارفاً بالعادات التقليدية ، ويتجمعون خلال ٤٠ او ١٨ يوماً لاربع او خمس مرات في الاسبوع في أحد البيوت لتلقي التعليم اللازم . ومساء ٢٤ كانون أول ، يقوم الكوليندا توري ، وهم مرتدون ثياباً جديدة مزينة بالزهور والاجراس الصغيرة ، بالغناء أولاً في بيت مضيفهم ، وبعدئذ يزورون كل سكان القرية . وفي الشوارع يصرخون ، وينفرون على الدفوف والطبل بهدف ان تبعد الضجة الارواح الشريرة ويعلنون لرب البيت عن اقترابهم . وهم ينشدون أول كوليندا تحت النافذة ، وبعد ان يحصلوا على الإذن ، يدخلون إلى المنزل ويكملون عملهم المسرحي ، فيرقصون مع الصبايا ويتلون التبريكات التقليدية . والكوليندا توري يجلبون الصحة والثروة ممثلين بغصن صغير اخضر من الصنوبر موضوع في اناء مملوء بالفتحاح وحببات البازيلاء . وباستثناء العائلات الفقيرة ، فهم يتلقون اعطيات ، اكاليل ، كعك ، ثمار ، لحم اسماك الخ وبعد ان يطوفوا القرية ينظم الجمع عيداً تساهم فيه الشبيبة . ان طقس الكوليند هو على درجة من الغنى والتعقيد . وتشكل التبريكات والمأدبة الاحتفالية العناصر الاكثر قدماً ، انها متضامنة مع الاحتفالات العيدية للسنة الجديدة^(٨) . ويتلفظ الرئيس ، متبوعاً بالكوليندا توري الآخرين ، بمذائح (urare) يمجّد فيها النبالة والكرم وغنى رب البيت . ويمثل الكوليندا توري أحياناً جماعة من القديسين (القديس يوحنا ، القديس بطرس ، القديس جرجس القديس نيقولا) . وبعض الكوليند ، عند البلغار ، لهم كقاعدة لازمة زيارة الله ، مصحوبين بالطفل يسوع ، أو مجموعة من القديسين . زد على ذلك ، فإن الكوليندا توري هم «مدعوون» مرسلون من قبل الله يجلبون الحظ والصحة^(٩) . وفي قصة اوكرانية مختلفة ، يأتي الله ذاته لايقاظ رب البيت ويبشره بقرب «الكوليندا توري» ، وعند رومان ترانسلفانيا ، ان الله ينزل من السماء على سلم من شمع ، وفي ثياب مبهرة مزينة بالنجوم حيث رسمت عليها ايضاً الكوليندا توري^(١٠) .

إن عدداً من الكوليند ، تعكس «المسيحية الكوزمية» المميزة لشعوب جنوب شرق اوروبا . ويوجد فيها مراجع لخلق العالم ، وانما بدون علاقة بالتقليد التوراتي . فالله أو

يسوع خلق العالم في ثلاثة أيام ، الا انه وقد لاحظ أن الارض كانت واسعة جداً كي يمكن تغطيتها بالسما ، القى يسوع ثلاث حلقات تحولت إلى ملائكة ، وهؤلاء انتجوا الجبال^(١١) . وحسب كوليند آخر ، بعد ان صنع الله الأرض وضعها على اربعة اعمدة من فضة لكي يسندها^(١٢) . ويمثل عدد كبير من الاغاني ، الله كراع يعزف على الناي ، مع قطع كبير من النعاج يسوقها القديس بطرس .

واكثر الكوليندات عددا وأقدمها ، هي التي تدخلنا في عالم آخر خيالي . ويحصل العمل في العالم بكامله ، بين كبد السماء (زينيت) والوديان العميقة ، أو بين الجبال والبحر الأسود . فبعيداً جداً ، في وسط البحر ، توجد جزيرة مع شجرة جبارة ، يرقص حولها سرب من الصبايا^(١٣) . وإن شخصيات هذا الكوليند العتيقة ممثلة بطريقة خرافية : انها جميلة وغير مرئية ، انها تحمل الشمس والقمر على ثيابها (مثل الله في الكوليندات المسيحية) . وصياد شاب يمتطي جواداً عالياً في السماء قريب جداً من الشمس . ومنزل معلم الاجتماع وزوجته مؤسطران : المعلم وأتباعه معروضين في مشهد فردوسي ويشابهون الملوك . وابطال الكولندات الأكثر جمالاً هم صيادون ورعاة ، الأمر الذي يؤكد عراققتها في القدم . وبناء على طلب الامبراطور يتصارع البطل الشاب مع أسد ، فيصرعه ويقيده . وخمسون فارس يحاولون اجتياز البحر «الاسود» ولكن واحداً ينجح بالوصول إلى الجزيرة ، حيث يتزوج أجمل الفتيات . وابطال آخرون يلاحقون الحيوانات الكاسرة المرهوبة بمزية سحرية ويتصرفون عليها .

إن سيناريوهات العديد من الكوليندات تذكر ببعض الشعائر التلقينية المسارية وقد تم التعرف فيها على آثار طقوس لمسارة الصبايا^(١٤) . ففي الكوليندات التي تغنيها الفتيات والنساء الشابات ، كما في أعمال شفاهية ايضاً ، تثار مصائب تتعرض لها عذراء تائهة أو معزولة في أمكنة قفراء ، وتثار آلامها الحاصلة نتيجة مسخها الجنسي والتهديدات بموت وشيك . وعلى خلاف التلقينات الذكورية ، فإن أية شعيرة دقيقة لم يحافظ عليها . وتستمر التجارب التلقينية النسائية في الحياة ، فقط في العوالم الخيالية للكوليندات والأغاني الاحتفالية الأخرى . وعلى كل حال فإن هذه المعطيات الشفاهية تساهم ، بصورة غير مباشرة في المعرفة الروحانية النسوية القديمة .

٣٠٤ - رموز وشعائر لرقص تطهيري

إن الشقيف التلقيني للكولينداتوري^(١٥) قد اكمل بالتلقين في الجماعة المغلفة للراقصين التطهريين Cathartiques المعروفين باسم كالوساري Calusari^(١٦) . ففي هذه المرة ، لا يتلقى الشباب التقاليد والاغاني المشاركة مع سيناريو عيد الميلاد ، وانما سلسلة من الرقصات المميزة وميتولوجيا خاصة . فاسم للرقص كالوس Calus مشتق من الكلمة الرومانية كال Cal (حصان) (في اللاتينية Caballus) . والمجموعة مؤلفة من سبعة أو تسعة أو احدى عشر شخصاً مختارين ومتقنين من قبل رئيس اكبر سنا . وهم مسلحون بدبابيس وسيوف ومزودون اضافة إلى ذلك برأس حصان من الخشب وراية ، ونباتات طيبة مثبتة بطرف عصا . وكما سنرى ، فإن واحد من الكالوزاري المسمى (الأخرس) أو (المقنع) يلعب دوراً مختلفاً عن بقية المجموعة .

ويجري الشقيف ، خلال اسبوعين أو ثلاثة في الغابات أو أماكن منعزلة . وما أن تقبل من الرئيس حتى تجتمع الكالوزارات عشية عيد العنصرة ، في مكان سري ، ويحلفون وايديهم على الراية بأنهم سيطيعون القواعد والاعراف للمجموعة ، وان يتعاملون كاخوان ، وان يحافظوا على النظافة (الطهارة) اثناء التسعة (أو الاثني عشر أو الاربعة عشر) يوماً التالية ، وان لا يفشوا سراً عما رأوه أو سمعوه ، وان يطيعوا رئيسهم . وعندما يتم حلف اليمين ، يطلب الكالوزاريون الحماية من ملكة الجنيات ، هيرودباد (= ايرودبادا) ، ويرفعون دبابيسهم في الهواء ثم يضربونها ببعضها . ويفرضون السكوت خوفاً من أن تجعلهم الجنيات (Zine)* مرضى . وبعد القسم وحتى التفرق الشعائري للمجموعات ، يبقى الكالوساري مجتمعين دائماً .

ان عدداً من العناصر يعيد إلى الذاكرة التلقين في جمعية رجال : (Mannerbund) : العزلة في الغابة ، عهد السرية ، دور «الراية» ، الدبوس والرمح ، رمزية رأس الحصان^(١٧) . إن الصفة الاساسية والمميزة للكالوزاري هي عنوانهم

يلاحظ كلمة جن العربية = Zin

البهلولونات موقعة الرقص Aicrobates-chorégraphes ، وبخاصة قابليتهم لاعطاء الانطباع بأنهم يتحركون في الأجواء . ويكل وضوح تذكر الوثبات ، والفقرات والنطات والشقلبات بهرولة الحصان ، ومن ذات الوقت ، الطيران ورقص الجنيات (Zin) . مع ذلك ، فإن اولئك الذين يظنون ان الجنيات قد جعلتهم مرضى ، يأخذون بالقفز والصراخ «مثل الكالوزاري ، يظهر انهم لم يمسوا الارض»

إن العلاقات بين الكالوزاري وبين الجن هي بغرابة متساوية الحدين : الراقصون يطلبون ويحسمون حماية هيروديداد ، مخاطرين تماما بأن يصبحوا ضحايا موكبها التابعين ، الجنيات . انهم يقلدون طيران الجن ولكنهم يجدون في ذات الوقت تضامنهم مع الحصان ، الرمز المذكور «البطولي» بامتياز . ان هذه العلاقات ذات الحدين تظهر كذلك في نشاطاتهم وطرق تكونهم . فاثنا خمسة عشر يوما تقريباً . يذهب الكالوزاري مصحوبين باثنين أو ثلاثة من عازفي الكمان إلى القرى والمزارع المجاورة ، راقصين ، لاعبين ، ومحاولين شفاء ضحايا الجنيات . ويعتقد أن الجنيات أثناء هذه الفترة ، أي الاسبوع الثالث بعد اعياد الفصح ، في أحد عيد الغطاس ، تطير ، وتغني وترقص وبخاصة اثناء الليل ، وانه يمكن سماع اجراسها وطبوها وادواتها الموسيقية الأخرى . لأن للجنيات في خدمتها العديد من عازفي الكمان ، ونافخي الابواق وحتى حامل الراية . والحماية المفضلة ضد الجنيات هو التوم والارطماسية (نبته عطرية) فهذه النباتات ذاتها سحرية - طيبة بحيث ان الكالوزاري يضعونها في كيس صغير على طرف عصي راياتهم . ويعملون ما يمكن من التوم .

وتقوم المعالجة في سلسلة من الرقصات ، المكملة ببعض الأعمال الشعائرية^(١٨) . وفي بعض المقاطعات ، يحمل المريض الخاضع للمعالجة خارج القرية ، بالقرب من غابة ، ويوضع وسط حلقة من الكالوزاري . واثناء الرقص ، يلامس الرئيس أحد الراقصين بالراية ، فيسقط الراقص على الأرض . ويدوم الاغواء . حقيقياً أو مفتعلاً من ثلاث إلى خمس دقائق . وفي فترة السقوط ، يفترض بالمعالج أن ينهض ويهرب ؛ وعلى كل حال يأخذه اثنان من الكالوزاري بذراعيه ويتعدان به بالسرعة الممكنة . إن المقاصد العلاجية للاغواء واضحة : فالمرض يترك المعالج ويدخل في أحد الكالوزار ، الذي يموت حالاً ، ولكنه يرجع بعدئذ للحياة لأنه متلقي initié .

إن سلسلة من المشاهد المضحكة تمثل في الفترة ما بين الرقصات ونهاية الحفلة .
وان الدور الأكثر أهمية يرجع إلى الأخرس . وعلى سبيل المثال ، يرفعه الكالوزاري في
الهواء ويتركونه يسقط فجأة . ومعتبراً كميت ، فإنه ييكي على الأخرس من قبل المجموعة
بكاملها ويهتئون انفسهم لدفنه ، ولكن ليس قبل سلخه . . . الخ . . وإن المشاهد
الاكثر هزلية والاكثر اعداداً تمثل آخر يوم ، عندما ترجع الجماعة إلى القرية .

يشخص اربعة من الكاليزوري بطريقة فظة بعض الشخصيات المألوفة :
الكاهن ، التركي أو (القوقازي) ، الطبيب والمرأة . ويجرب كل واحد اجراء الحب مع
المرأة ، والتمثيل الايمائي هو عدة مرات على درجة من الاباحية . ان (الأخرس) المتصل
بعضو تذكير (قضيبي) من الخشب ، يثير المرح الصاحب الشامل بحركاته الفظة
والمركزة . واخيراً يقتل واحد من الممثلين ويبعث ، وتصبح المرأة حاملاً^(١٩) .

ومهما كان مصدر الكالوس فإنه بأشكاله المؤكدة في القرون الاخيرة ، معروف في
رومانيا فقط ، وربما هو معتبر كابداع لثقافة شعبية رومانية . إن ما يميز في آن واحد هو
قدميته وبنيته المكشوفة (التي تفسر التمثيل لعناصر متمية لسيناريوهات أخرى ، على
سبيل المثال المشاهد الساخرة) . ان المؤثرات الظرفية لمجتمع اقطاعي (الراية) ،
السيف ، ونادرا (المهامين) هي مركبة على ثقافة زراعية قديمة ، وهي تثبت الدور
الشعائري للدبوس ، والسارية المقولبة للصنوبر (شجرة مميزة في الحفلات - الما قبل
المسيحية) . اذا لم نقل شيئاً عن الايقاع ذاته . ومع ان تحقيق اليمين يجري على اسم
الله ، فإن السيناريو ليس له شيء ظاهر من المسيحية . وقد عاودت السلطات الكنسية
العمل بعنف ، وبعض النجاح ، لأن كثيراً من الملامح القديمة المؤكدة في القرن السابع
عشر ، قد زالت . وفي نهاية القرن التاسع عشر ايضاً . في بعض الاقاليم ، كان
التجمع ممنوعاً على الكالوزاري لمدة ثلاث سنوات . ولكن الكنيسة قررت أخيراً
مساختهم .

وهكذا ، وبالرغم من الستة عشر قرناً من المسيحية والتأثيرات الثقافية الأخرى ما
يزال ممكناً ، بعد جيل تقريباً ، حل رموز آثار السيناريوهات المسارية في المجتمعات
الزراعية لأوروبا جنوب . شرق . هذه السيناريوهات التي كانت مصاغة في المنظومات

الاسطورية - الشعائرية للعام الجديد ودورة الربيع . ففي بعض الحالات ، لدى الكالوزاري ، على سبيل المثال ، يبدو التراث القديم واضحاً وبخاصة في الرقصات والتكوينات المبلودية المميزة لها . وعلى العكس ، فإن النصوص هي التي حفظت العناصر المسارية في السيناريو الاسطوري - الشعائري للكلوليند . ويمكن القول ، انه على اثر تأثيرات دينية وثقافية مختلفة ، زال عدد من الشعائر المتضامنة مع المسارات التقليدية (أو انها قد موهت جذريا) ، في حين ان البنى الايقاعية والميتولوجية قد استمرت بالحياة .

وعلى كل حال ، فإن الوظيفة الدينية للرقصات والنصوص الميتولوجية واضحة . وبالنسبة ، فإن تحليلاً صحيحاً للعالم الخيالي للكلونيدات هو قابل ليكشف نموذج تجربة دينية وابداعية ميتولوجية مميزة لفلاحي أوروبا الوسطى والشرقية . ومع الأسف ، فإنه لم يوجد بعد تأويل مناسب للتقاليد الزراعية ، وبعبارة أخرى ، تحليل للنصوص الشفاهية الاسطورية - الدينية المقارنة لتفسير الأعمال المكتوبة . فمثل هذا التأويل كان سيرز ايضاً المعنى العميق للاذعان إلى التراث التقليدي اكثر من اعادة التفسيرات الابداعية للرسالة المسيحية . ففي تاريخ «كلي» للمسيحية ، يجب أن يؤخذ في الحسبان ايضاً الابداعات المميزة للشعوب الزراعية . إلى جانب مختلف التولوجيات المنشأة بدءاً من العهد القديم والفلسفة الاغريقية ، ويقتضي ملاحظة المخططات الاجمالية للتولوجيا الشعبية : وسنجد ، عدداً من التقاليد القديمة المعاد تفسيرها والمعطاة الصبغة المسيحية ، منذ النيوليتك حتى الديانات الشرقية والهللنستية .^(٢١) .

٣٠٦ - مطاردة الساحرات وتعاقبات الديانات الشعبية .

إن «مطاردة الساحرات» مشروع مؤسف ومشهور في القرنين ١٦ و ١٧ ، وقد تابع بواسطة التفتيش أو الكنائس المعاد اصلاحها ، ازالة عقيدة شيطانية واجرامية ، والتي هي برأي اللاهوتيين ، كانت تهدد اساسات الديانة المسيحية ذاتها . وقد ابرزت البحوث الحديثة^(٢٢) . سخافة الاتهامات الرئيسية : علاقات صحيحة مع الشيطان ،

تهتكات ، قتل الاطفال ، أكل لحم الانسان ، ممارسة الشقاوة . . . وقد اعترف ، تحت التعذيب ، عدد بارز من الساحرين والساحرات ، بهذه الأعمال الشائنة والجرمية ، وادينو بالحرق . وقد كانت السيناريوهات الاسطورية الشعائرية للسحر بكل بساطة من اختراع اللاهوتين . ورجال التفتيش .

مع ذلك ، فإن هذا الرأي يجب ان يناقش ، وفي الواقع ، اذا لم تكن الضحايا مذنبة بالجرائم والمهرطقات التي اتهمت بها ، فإن بعضهم اعترف بأنه قد مارس حفلات سحرية - دينية من أصل وبنية «وثنية» ؛ وهي حفلات محرمة منذ زمن طويل من قبل الكنيسة ، حتى ولو كانت ، احيانا ، لها الشكل الظاهري للمسيحية . ويشكل هذا التراث الاسطوري الشعائري جزءاً من الدين الشعبي الأوروبي . هذا وان الأمثلة التي سنناقشها ستسمح لنا بفهم العملية التي على اثرها اعترف بعض معتنقي هذا الدين الشعبي - وحتى اعتقدوا - انهم مارسوا عبادة الشيطان .

وفي آخر المطاف ، فإن مطاردة الساحرات تابعت تجميد استمرارية حياة (الوثنية) اي ، اساسا ، عبادات الخصب والسيناريوهات المسارية . وكانت النتيجة افقار التدين الشعبي ، وفي بعض الاقاليم ، انحطاط المجتمعات الزراعية (٢٣) .

وحسب دعاوي التفتيش في ميلان ، سنة ١٣٨٤ و ١٣٩٠ اعترفت امرأتان بانتماهن لجمعية تديرها ديانا هيرودياس والتي كان اعضاؤها من الأحياء وكذلك من الأموات . وكانت الحيوانات التي يأكلنها خلال الوجبة الاحتفالية يعاد احيائها (بدءاً من عظامها) من قبل الربة . وكانت ديانا («السيدة الشرقية Signora oriente») تعلم المؤمنين بها استعمال الاعشاب الطبية لشفاء مختلف الأمراض ، وكشف فاعلي السرقات ومماثلة السحرة (٢٤) . ومن الواضح أن هؤلاء المؤمنين بديانا لم يكن لديهم شيء مشترك مع صانعي الافعال السيئة الشيطانية . ومن الراجح جداً ، أن شعائرتهم ورؤهام كانت مرتبطة بعقيدة قديمة من عقائد الخصب . غير ان تحريات التفتيس غيرت الوضع جذريا ، كما سنرى ، ففي اللورين في القرنين ١٦ و ١٧ ، اعترف السحرة المطلوبون مباشرة أمام السلطات بأنهم كانوا «شافون - الهيون devins-guérisseurs» ، ولكنهم ليسوا سحرة ؛ وبعد التعذيب فقط ، انتهوا إلى القول بأنهم كانوا «عبيداً للشيطان» (٢٥) .

وحالة المتشردين benandanti توضح بطريقة تدعو إلى الشفقة التحول ، تحت ضغط التفتيش ، من عقيدة سرية للخصب لممارسة السحر الأسود . ففي ٣١ آذار / ١٥٧٥ أخبر النائب الرسولي العام le Vicarie general ومفتش أكويلية وكونكورديا بوجود سحرة في بعض القرى ، وهم تحت اسم بينانداني ، وكانوا أعلنوا عن انفسهم بأنهم سحرة طيون لأنهم قاوموا السحرة stregoni . وقد أظهر التحقيق المتعلق بالبينانداني الأولين الوقائع التالية : لقد تجمعوا سراً ، اثناء الليل ، اربع مرات في السنة (اي في اسابيع الاوقات الاربعة) ؛ وقد بلغوا مكان اجتماعهم على ظهر ارنب ، وهر أو حيوان آخر ؛ وهذه الاجتماعات لم تكن تمثل أية واحدة من الخصائص (الشرطانية) المعروفة جداً ، المتعلقة بجماعات الراقين ؛ ولم يكن يوجد هنالك لا ارتداد ولا جحود ولا ازدراء للتقديسات أو الصليب ، ولا عبادة للشيطان ، واساس الشعيرة بقي مع ذلك غامضاً . وقد واجه جماعة البينداني (المشردون) وهم مزودون بأغصان الشجرة السحرة (ستريغ وستريغوني) الذين ، كانوا هم مسلحين بأنواع من الأغصان والجونك . وقد ادعوا انهم حاربوا الأفعال السيئة للسحرة واشفاء ضحاياهم . وليخرج البينداني ظافرين من هذه المعارك للازمنة الاربعة Quatres-temps ، ولتصبح المحاصيل وفيرة هذه السنة ، والا فإن المجاعة والجذب سيتتابعان^(٢٦) .

وقد كشفت تحقيقات تالية تفصيلات حول تجنيد البينانداني وتركيب جماعاتهم الليلية . وأكدت ان «ملاكاً من السماء» طلب إليهم معاودة التجمع وانهم كانوا ملقنين باسرار الجماعة ما بين سن العشرين والثانية والعشرين سنة . وكانت الجمعية المنظمة على الطريقة العسكرية تحت قيادة رئيس تجتمع عندما كان هذا الاخير يدعوها لهذا الاجتماع بواسطة صوت طبل . وكان اعضاؤها مرتبطين بقسم السر . وكانت جمعيتهم تعادوا اجتماعها ، مشتملة احيانا زهاء خمسة آلاف بينانداني ، وكان بعضهم من ذات المقاطعة ولكن الاكثرية لم تكن تعرف بعضها . وكانت لهم راية من جلد السمور ، بيضاء مذهبة ، في حين ان راية السحرة كانت صفراء ومرفوعة من اربعة شياطين . وكان لكل البينانداني خط مشترك : لقد كانوا ولدوا «مع القميص» أي ولدوا محظوظين ، مع غشاء يسمى غطاء للرأس coiffe .

عندما كان التفتيش الأمين على مفهومه المقولب عن محفل السبت للسحرة ، يسألهم فيما اذا كان «الملاك» قد وعدهم بأطعمة نقية ، ونساء ولذات شهوانية أخرى ، كانوا ينكرون هذه الاشارات بكبرياء . وكانوا يقولون للمفتشين ان السحرة (ستريغوني) وحدهم ، الذين كانوا يرقصون ويتسلون في جمعياتهم . ان النقطة الاكثر غموضاً المتعلقة بالبينانداتي بقيت (سفرهم) نحو مكان اجتماعاتهم . فقد كانوا يأتون إليها ، وحيا inspiro ، في الحين الذي يكونون نائمين ، كما يقولون .

لقد كانوا يقعون قبل «سفرهم» في حالة وهن كبرى وسبات شبه تخشي ، وكانت روحهم اثناء ذلك على وشك ان تترك اجسادهم . ولم يكونوا يستعملون ابداً الدهون لأجل تهيئة «سفرهم» الذي مع انه يتم روحياً ، كان واقعياً في نظرهم .

في سنة ١٥٨١ أدين اثنان من البينانداتي بعقوبة حبس لمدة ستة اشهر بسبب الهرطقة وفداحة اخطائهما . وقد رفعت دعاوى أخرى خلال السنوات الستين التالية التي سنرى نتائجها . ولنحاول الآن ، على ضوء وثائق العصر ، اعادة تكوين بنية هذه العقيدة الشعبية السرية . لقد كانت الشعيرة المركزية لها تتركب بوضوح في معركة احتفالية ضد السحرة لضمان وفرة المحاصيل والخمور وكل «ثمرات الأرض»^(٢٧) . إن واقعة كون المعركة كانت تأخذ مكانها في الليالي الاربعة الحرجة للتقويم الزراعي ، لا تدع مجالاً للشك بالنسبة لموضوعها . فمن المرجح أن المواجهة بين البينانداتي والستريغوني كانت تمجد السيناريو لشعيرة عتيقة من الامتحانات والمباريات بين مجموعتين متخاصمتين ، وبهدف اخفاء القوى الخلاقة للطبيعة واعادة تجديد المجتمع البشري^(٢٨) -

ومع ان البينانداتي زعموا بأنهم حاربوا من أجل الصليب ومن «أجل الايمان بالمسيح» فإن معاركهم الاحتفالية لم تكن مسيحية سوى بشكلها السطحي .^(٢٩) ومن جهة أخرى فإن الستريغوني لم يكونوا متهمين بجرائم عادية ضد تعاليم الكنيسة ؛ ولم يلصق بهم سوى تخريب المحاصيل وافتتان الأولاد . وأنه في سنة ١٦٣٤ فقط (بعد ٨٥٠ دعوى ووشايات أعلم بها تفتيش اكويلية وكونكورديا) صودف لأول مرة اتهام ملصق بالستريغوني يعتبرهم كمجرمين باحتفالهم بمحفل السبت الشيطاني التقليدي .

مع ذلك ، فإن الاتهامات بالشعوذة Sorcellerie المؤكدة في ايطاليا الشمالية لا تحكي عن عبادة الشيطان وانما عن عبادة مرفوعة لديانا^(٣٠) .

ومع ذلك ، وكتيجة للعديد من الدعاوى ، فإن البيناندانتى بدؤا يتوافقون مع قالب ابليسي نسبة لهم التفتيش باصرار . ولم يكن بعد محل للتساؤل ، لفترة معطاة ، عما تشكله النقطة الأساسية : شعيرة الخصب ، وبعد سنة ١٦٠٠ اعترف البيناندانتى أنهم لم يبحثوا سوى عن شفاء ضحايا المشعوذين . ولكن هذا الاقرار لم يكن دون مخاطرة ، لأن التفتيش كان قد اعتبر الاستعداد لطرد الحظ السيء دليلاً واضحاً على الشعوذة^(٣١) . ومع الزمن أصبح البيناندانتى أكثر وعياً بأهميتهم فضاغفوا الشكايات ضد اشخاص قالوا عنهم انهم مشعوذون . وبالرغم من هذه العداوة المتنامية ، فقد شعروا بانفسهم منجذبين دون وعي نحو السترايغ والستريغوني ، وفي سنة ١٦١٨ اعترفت واحدة من البيناندانتى بأنها ذهبت لمحفل سبت ليلي يرأسه الشيطان ، مضيفة مع ذلك بأن ذهابها كان بهدف الحصول من هذا على القدرة بالشفاء^(٣٢) .

وأخيراً وفي ١٦٣٤ وبعد خمسين عاماً من الدعاوى التفتيشية ، قدر البيناندانتى انهم ليسوا سوى واحد مع السحرة (ستريغ وستريغوني)^(٣٣) . وقد اعترف أحد المتهمين بأنه كان ممسوح الجسد بمرهم خاص ، وانه ذهب للسبت حيث شاهد كثيراً من السحرة محتفلين بالشعائر ، راقصين ومستسلمين لأعمال جنسية فاضحة ، معلناً مع ذلك ان البيناندانتى لم يساهموا في التهتك . وبعد بضع سنوات ، اعترف أحد البيناندانتى بأنه وقع ميثاقاً مع الشيطان ، وازدرى المسيح والعقيدة المسيحية وقتل ثلاثة اطفال . وقد أظهرت دعاوى أخرى العناصر التي لا مفر منها منذئذ للصورة الكلاسيكية لسبت السحرة ، وللبيناندانتى المعترفين بأنهم مارسوا حفلات الرقص وقدموا الاحترامات للشيطان وقبلوا مؤخرته . وقد حصلت إحدى هذه الاعترافات الأكثر مأساوية في عام ١٦٢٤ . اذ قدم المتهم وصفاً دقيقاً للشيطان ، وروى كيف اعطاه روحه واعترف بأنه قتل اربعة اطفال ملقيا لهم المصير السيء . غير انه عندما كان يوجد لوحده مع نائبي التفتيش الاسقف الانكليكاني ، كان يعلن السجين بأن اعترافه كان كاذباً وانه لم يكن لابيناندانتى ولا ستريغون . وكان القضاة يتفقون على ان هذا السجين «اعترف بما

لقن به». وغير معروف ما كان عليه الحكم ، لأن المعنى بالأمر كان يشق في زنزاته .
واخيراً ، كانت تلك آخر دعوى كبيرة مرفوعة على البيناندانتي^(٣٤) .

ولتناول الصفة العسكرية للجماعة ، التي كانت هامة قبل دعاوى التفتيش .
فهي لا تتعلق بمثال منفرد . وقد كنا ذكرنا فهي سلف حالة ذلك الشيخ الليتواني من
القرن السابع عشر الذي ، تحول مع رفاقه إلى ذئاب ونزلوا للجحيم وقتلوا الشيطان
والسحرة ، من أجل استعادة الأموال المسروقة (قطعان ، وقمح وثمار أخرى من
الأرض) . ويقارن كارلو جينز بحق البيناندانتي والذئاب الليتوانية المسوخة
بالشامانيين الذين ينزلون ، بوجد ، إلى العالم تحت ارضي لضمان حماية
جماعتهم^(٣٥) . ولا يسوغ ان ننسى ، من جهة أخرى ، المعتقد العام في اوربا
الشمالية - والذي بحسبه ان المحاربين الموتى والآلهة كانوا يقاتلون القوى الشيطانية^(٣٦) .

إن التقاليد الشعبية الرومانية تسمح لنا بشكل افضل فهم أصل ووظيفة هذا
السيناريو الاسطوري - الشعائري . ونعيد إلى الذاكرة أن الكنيسة الرومانية كغيرها من
الكنائس الارثوذكسية ، لم يكن عندها مؤسسة مشابهة للتفتيش . وهكذا ، مع ان
الهرطقات لم تكن مجهولة . فإن الاضطهاد ضد السحرة لم يكن لا كثيفاً ولا غمطياً .
ونحصر التحليل بعبارتين حاسمتين بالنسبة لمسألتنا : ستريفا striga ، كلمة لاتينية
«الساحر» و«ديانا» ، ربة رومانية أصبحت معلمة للسحرة في اوربا الغربية . وستريفا
اعطت ستريفوا strigoi في الرومانية «سحرة» سواء أحياء أو أموات (في هذه الحالة
الأخيرة هامات Vampires) . ان الستريفوا تتولد مع غطاء الرأس Coiffe ؛ وعندما
يدركون أمومتهم يتلبسونها ويصبحوا غير مرئيين ، ويقال عنهم بأنهم موهوبون بقوى ما
فوق طبيعية ؛ على سبيل المثال ، يستطيعون الدخول إلى المنازل من ابواب مرتجة
ويلعبون بدون عقاب مع الذئاب والديبة ، ويستسلمون لكل الأفعال السيئة الخاصة
بالسحرة ؛ ويشيرون الأمراض المعدية لدى البشر والقطيع ، ويسيطرون ، ويمسخون
الناس ، ويجلبون سنوات الجذب ، ويسيطرون على المطر يستندفون الحليب من
الابقار ، وبخاصة يطرحون الحظ السيء . ويستطيعون التحول لكلاب ، وقطط وذئاب
وأحصنة وخنازير وضفادع وحيوانات أخرى . وهم مهتمون بالاختلاط خارج بعض

الليالي ، بصورة متفرقة بالقدّيس جرجس والقدّيس اندريه . ويرجعونهم إلى منازلهم ،
ينفذون ثلاثة دورات ويرجعون إلى شكلهم البشري . وتمتطي ارواحهم بتركها
لأجسادهم أحصنة ، مكانس أو براميل ويجتمع السّتريفوا بعيداً عن القرى ، في حقل
معين أو «على طرف العالم ، هنالك حيث لا يثبت العشب» . وما يصلون للمكان
حتى يستعيدون شكلهم البشري ويبدوون في المضاربة فيما بينهم بالدبوس ، والفأس
والمنجل والأدوات الأخرى . وتستمر المعركة كل الليل ، لتنتهي بالبكاء والمصالحة
العامة . ويرجعون متعبين شاحبي الألوان ، غير عالمين بما حصل لهم ، ثم يسقطون في
نوم عميق (٣٧) .

من المؤسف انه لا يعرف شيء ، بالنسبة لمعنى وموضوع هذه المعارك الليلية ،
هذا وإن موكب الموتى الشائع في أوروبا الوسطى والشرقية يفكرنا بالبينانداتي
وبالوايلدهيز Wildeheer أيضاً . ولكن البنانداتي يأخذون بدقة من السّتريفا ، في حين
ان السّتريفوا الرومان كانوا يتضاربون فيما بينهم ويستهنون دائماً في معاركهم إلى الدموع
والمصالحة العامة . أما بالنسبة للمشابهة مع الوايلدهيز ، فيوجد نقصان الخط الأكثر
تميزاً : الضجة المرعبة التي كانت ترهب القرويين . وعلى كل حال ، ان مثال السحرة
الرومان يوضح رسمية مخطط لما قبل المسيح مبني على أسفار حلمية oniriques ومعركة
طقوسية وجدية ، وهو مخطط تأكد في العديد من اقاليم أوروبا .

إن قصة ديانا ، ربة داسي Dacie القديمة ، هي أيضاً ذات دلالة . فمن الراجح
جداً ان اسم ديانا حل محل الاسم المحلي لربة أهلية جتو- تراس . ولكن قدم
المعتقدات والطقوس المتعلقة بديانا الرومانية لا ريب فيه . وفي الواقع ، يمكن
الافتراض دائماً ، ان المراجع القروسطية التي تمس عبادة وميتولوجيا ديانا ، لدى
الشعوب ذات اللغة الرومانية - ايطالية - فرنسية - اسبانية - بورتغالية ، كانت تعكس
بشكل بارز ، رأي الرهبان القراء مسكوبة في النصوص اللاتينية . ولا يعرف تقديم
فرضية من هذا النوع بالنسبة لقصة ديانا لدى الرومان . ان اسم الربة أتى من دينا Zina
(Cdzian) في اللغة الرومانية ، تعني «جنية» . وإضافة لذلك ، اشتقت كلمة أخرى من
ذات الجذر : زيناتيک Zinatec ، تعني «من هو مخبول ، ضعيف العقل أو مجنون»
بمعنى «بأخوذ» مملوك بديانا أو الجنيات (٣٨) .

وعليه فقد رأينا (ف ٣٠٤ع) العلاقات ، ربما المتقابلة بين les Zine الجن والكالوساري . فالجن يمكن ان يكونوا قسا ، ومن عدم الفطنة لفظ اسمهم . فيقال : «القديسات» «المحسنتات» «الروزالي» أو بساطة «هن» (iele)

إن الجنّيات ، اللواتي هن خالداات ، هن مظهر فتيات جميلات مسرات ومبهرات . مرتديات البياض ، بصدور عارية وغير مرثيات نهاراً ومتمتعات باجنحة ، يتنقلن في الأجواء وبخاصة ليلاً . ويحببن الرقص والغناء ، وهناك حيث يرقصن يبدو عشب الحقول كأنه مشيط بالنار . وهن يصبن بالمرض كل من يراهن وهن يرقصن أو من يخرق بعض المحرمات وهذه الأمراض لا يمكن لها ان تشفى الا بواسطة الكالوزاري les Calusari (٣٩) .

ان الوثائق الرومانية بفضل اقدميتها معين كبير لفهم السحر الأوروبي . وفي المكان الأول ، لا يمكن ان يحصل أي شك بالنسبة لاستمرارية بعض الشعائر والمعتقدات القديمة التي تمس الخصب والصحة خاصة . وثانيا ، فإن هذه السيناريوهات الاسطورية ، الشعائرية اقتضت صراعاً بين مجموعتين من القوى المتعارضة رغم تكاملها مع بعض . مجموعة مشخصة شعائرياً من قبل شبان وصبايا (بينانداتي ، ستريفا ، كالوزاري) . وثالثاً ، فإن الصراع الاحتفالي كان يتبع أحياناً بمصالحة بين مجموعات متخاصمة . ورابعاً فإن هذا الانشطار الشعائري للمجموعة المتضامنة كان يقتضي بعض التعارض ، لأن أحد المجموعتين المتخاصمتين ، مع التعبير عن حالة الحياة والخصب الكونيين ، كان يشخص دائماً المظاهر السلبية . وما هو أكثر من ذلك . ان تشخيص المبدأ السليبي كان يمكن له ، تبعاً للفترة وللظروف التاريخية ، ان يفسر كمظهر للشّر (٤٠) . وهذا هو ما كان يظهر انه حصل في حالة الستريفا الرومانية ، وفي مقاس أصغر ، الجنيات ، الجنيات التي تناسب «موكب ديانا» . وتحت ضغط التفتيش ، فإن تفسيراً مماثلاً وجد متعلقاً بالبينانداتي . وهذه العملية . بسبب التماهي الدوري لاستمرارية حياة الطقوس - الأسطورية الما قبل المسيحية مع الاجراءات الشيطانية ، واخيراً مع الهرطقة ، كانت أكثر تعقيداً في اوربا الغربية .

في التاريخ الديني والثقافي لأوروبا الغربية ، يصنف القرن الذي سبق تكثيف مطاردة السحرة بين القرون الأكثر ابداعا . وهو كذلك ليس فحسب بسبب الاصلاحات الحاصلة ، بالرغم من العقابيل الكثيرة ، بواسطة مارتان لوثر وجان كالفان ، وانما ايضاً لأن العصر - الذي دام تقريباً من مارسيليو فيسينو (١٤٣٣-١٤٩٩) إلى (جيوردانو برينو (١٥٤٨-١٦٠٠) - يتميز بسلسلة من الاكتشافات (الثقافية ، والعلمية والتكنولوجية ، والجغرافية) والتي تلقت بدون استثناء دلالات دينية . وسيكون ثمة مجال لمناقشة القيم أو الوظائف القديمة للافلاطونية المحدثة التي اعيدت صياغتها من قبل الانسانيين الطليان ، ومن الكيمياء الجديدة ، والطب الكيميائي لباراسيلز والنظام الشمسي المركزي héliocentrisme لكوبيرنيكوس وجوردانو برينو . ولكن ، حتى الاكتشاف التكنولوجي كاكشاف المطبعة كانت له نتائج دينية هامة ؛ وفي الواقع لعبت دوراً أساسياً في انتشار وانتصار الاصلاح . وقد كانت اللوثرية منذ بدايتها «ابنة الكتاب المطبوع» : بمساعدة هذه الآلة استطاع لوثر ، النقل ، بقوة ، وبدقة ، لرسائله من طرف لآخر من أوروبا^(٤١) .

ومعلوم ايضاً المعارضات للنظام التيولوجي المثارة باكتشاف اميركا . غير ان كريستوف كولومبس كان فيما سلف واعيا بالخاصية الأخروية لأسفاره . ففي «الظروف الرائعة» (التي نجهلها) ، «اظهر الله يده» . لقد اعتبر كولومب سفره «كمعجزة واضحة» . لأنه لا يتعلق فحسب باكتشاف «الهند» وانما بعالم متخيل . «انني أنا الذي اختارني الله كمبعوثه ، مظهراً لي من أية جهة توجد السماء الجديدة والأرض الجديدة التي تكلم الله عنها بلسان القديس يوحنا ، في رؤياه ، والتي كان اشارة إليها يسوع فيما سلف»^(٤٢) . وتبعاً لحسابات كولومب ، فإن نهاية العالم يجب ان تحصل بعد ١٥٥ سنة . ولكنه ، من هنا ، بفضل الذهب الآتي من «الهند» فإن اورشليم يمكن لها ان تفتتح و«البيت المقدس» سيتمكن ان يعاد «للكنيسة المقدسة»^(٤٣) .

وككل معاصريه ، فإن مارتن لوثر شارك في العديد من الأفكار والمعتقدات العامة لعصره ، وعلى سبيل المثال ، لم يشك مطلقاً بالقوة الرهية للشيطان ولا بضرورة حرق السحرة ، وقبل الوظيفة الدينية للكهنة^(٤٤) . وكالعديد من اللاهوتيين المتدينين واللايك الذين مارسوا نظاماً روحياً (ف ٢٩٩-٣٠٠ ع) فإن مارتن لوثر وجد عزاءه الصوفي في تيولوجيا دوتش la Theologia deutsh ، وهو نص وضعه مباشرة بعد التوراة والقديس اوغسطين^(٤٥) . ولقد قرأ وتأمل في كثير من الكتب ، وبسرعة تأثر بغليوم اوكهام . ولكن عبقرية الدينية لا تفسر بروح عصره . وعلى العكس ، فإن التجارب الشخصية لمارتن لوثر هي التي اسهمت في قسم كبير ، لتغير جذرياً التوجه الروحي للعصر . وتمازجاً كما في حالة محمد ، فإن سيرته الذاتية تساعدنا لفهم المصادر الابداعية الدينية .

ولد في ١٠ تشرين ثاني ١٤٨٧ في ايسيلبن (تورينج) وسجل طالباً في جامعة ايرفرت وحصل على اجازة في ١٥٠٥ ، وبعد بضعة اشهر ، اثناء عاصفة رهية ، نجا من الهلاك فنذر ان يصبح راهباً . وفي ذات السنة ، دخل دير الاوغسطينيين في ايرفرت . وبالرغم من معارضة والده ، لم يتراجع مارتان عن قراره . وكرس كاهناً في نيسان سنة ١٥٠٧ .

وعلم الفلسفة الاخلاقية في جامعات ويتنبرغ وايرفوت ، وفي نوفمبر ١٥١٥ ، بمناسبة سفره لروما ، ذهب من انحطاط الكنيسة . وبعد سنتين من حصوله على الدكتوراة في اللاهوت ، تسلم كرسي الكتابة المقدسة في ويتنبرغ ، وافتتح مسيرته بشرح على التكوين .

ولكن قلقه الديني ازداد بمقدار ما فكر حول غضب وعدالة الرب - الاب ، يهوه العهد القديم . ولم يكتشف الا في ١٥١٣ او ١٥١٤ المعنى الحقيقي لعبارة «عدالة الله» : انه العمل الذي به يجعل الله رجلاً عادلاً ، وبعبارات أخرى ، العمل الذي به يتلقى المؤمن ، بفضل إيمانه ، العدالة المتحصلة بتضحية المسيح . وهذا التفسير للقديس بولس - «ان البار بالايمان يحيا» [رسالة إلى الرومان ١-١٢] - يشكل اساس لاهوت مارتان لوثر . «لقد شعرت بأنني ولدت من جديد ، كما قال فيما بعد ، وانني دخلت الجنة من

ابوابها المفتوحة» . ويتأمله حول الرسالة إلى الرومان - التي هي حسب رأيه «أهم وثيقة من العهد الجديد» - فإن لوثر عرف عدم امكانية الحصول على التبرير «أي علاقة متسقة مع الله» بأعماله الخاصة . وعلى العكس فإن الانسان هو مبرأ ومتخذ بالإيمان بالمسيح فقط . وكالايان تماماً ، فإن الخلاص منوط بمجاناً بالله . وقد اعلن لوثر هذا الاكتشاف في درسه لسنة ١٥١٥ ، مفصلاً ما كان اسماء «تيولوجيا الصليب» .

وقد بدأ نشاطه الاصلاحى في ٣٠ / اكتوبر ١٥١٧ / ففي هذا اليوم ، علق مارتن لوثر على باب الكنيسة من قصر ويتنبرغ اطروحته الـ ٩٥ ضد صكوك الغفران indulgences^(٤٦) . مهاجماً فيها الانحرافات المذهبية والثقافية للكنيسة . وفي نيسان ١٥١٨ كتب باحترام إلى الباب ليون العاشر ولكنه استدعى إلى روما ليبريء نفسه . فطلب لوثر إلى فريدريك الحكيم ، منتخب ساكس ، أن يحاكم في المانيا . وحصلت المواجهة في اوكسبورغ ، في تشرين أول ١٥١٨ أمام الكاردينال كاجيتان ، ولكن الراهب الأوغسطيني رفض ان يتراجع ؛ فبالنسبة له ، كما هو من جهة أخرى بالنسبة لعدد من الاساقفة واللاهوتيين^(٤٧) ليس لمسألة صكوك الغفران أي تبرير عقائدي . ونما النزاع بشكل خطير في الأشهر التالية ، ففي لاينز سنة ١٥١٩ انكر لوثر الأولوية البابوية قائلاً ، بأن البابا ، هو ايضاً يجب عليه الخضوع لسلطة الكتاب المقدس . وجاء الجواب ، في ١٥ حزيران سنة ١٥٢٠ بالبراءة البابوية المسماة Exsurge Domini ؛ فقد اندر لوثر بالتراجع خلال مدة شهرين ، تحت طائلة حرمانه . غير ان المتهم القى علناً نسخة من البراءة في النار واذاً بالمقابل اربعة كتب ، التي تحتسب بين الاكثر وضوحاً والاكثر أهمية من اعماله .

ففي المنشور (إلى النبالة المسيحية والأمة الالمانية) (آب ١٥٢٠) يرفض سيادة البابا على المجمعات ، والتمييز بين رجال الدين واللايك واحتكار رجال الدين للكتابة ، وفي هذا الشأن اعداد إلى الذاكرة ، ان كل المسيحيين هم كهنة ، يفضل تعميدهم . وبعد شهرين اعلن ، متوجهاً إلى اللاهوتيين ، استهلالاً حول الاسر البابلي للكنيسة ، مهاجماً رجال الدين وسوء استعمال التقديسات . وقبل لوثر ثلاث تقديسات فقط - التعميد - سر القربان المقدس - الاعتراف - ثم تنازل بعدئذ عن الاعتراف ، ويفضل حماية منتخب ساكس ، بقي محتبئاً في قصر وارتنبورغ (١٥٢١) ولم يرجع إلى ويتنبرغ الا في السنة

التالية^(٤٨) . وقد بدأت القطيعة النهائية مع روما ، قطيعة كاهن يمكن تفاديها لو أن
الامبراطور شارليكان أصر على الادارة البابوية لتقوم بانجاز الاصلاحات المطلوبة من كل
الجهات . وفي الواقع ، فإن اللايك ، وكذلك عدد من الرهبان ، شاطروا ، حسب
ايضاح ستيفن اوزمن «ذات الشعور المشترك لطغيان ديني لا حل له» .

ان المذكرة المقدمة في مارس ١٥٢١ باسم : احزان الامبراطورية الرومانية
المقدسة . وبخاصة مجموع الأمة الالمانية - والمعبرة عن مشاعر الطبقة الارستوقراطية
والبورجوازية ، كررت انتقادات لوثر ضد البابا ، وكبار القساوسة الالمان ، والكنيسة
ورجال الدين بصورة عامة^(٤٩) . وبعد رجوعه إلى ويتنبرغ ، كان على المصلح ان يشر
ضد حركة (نبؤة) وبعض التجديدات المنجزة اثناء غيابه . وفي السنوات التالية ، واجه
صعوبات اخرى على اثر (ثورات عامية ضد السلطة) yaecqueries التي انفجرت في
١٥٢٤ في المانية الجنوبية ، وبأقل من سنة ، انتشرت في كل البلاد ، ونشر لوثر (ضد
الفوضويين hardes المجرمين وقطاع الطرق من الفلاحين) سنة ١٥٢٥ رسالة هجاء
كانت ومازالت متقلة جداً^(٥٠) . وخلال هذه الثورات الفلاحية تزوج لوثر راهبة قديمة
كاترين فان بورا ، التي انجبت له ستة اولاد . وفي هذه الفترة حصلت المجادلة مع
(ايراسمس) (ف ٤٣٠٨) .

وتابع تنظيم الاصلاح بمعونة (ميلانشتون ١٤٩٧-١٥٦٠) واعوان آخرين . لقد
أصر لوثر على اهمية التراتيل اثناء الخدمة وهو نفسه كتب عدداً منها . وعلى اثر شرحه
للصلاة ، التي اعترف فيها بالحضور الفعلي للمسيح ، انفجرت خصومة مع المصلح
السويسري (زوينغلي) الذي لم يكن موافقاً الا على حضور رمزي .

لقد كانت هذه السنوات الاخيرة على جانب من الصعوبة ، وبخاصة بسبب
احداث سياسية . وكان على لوثر قبول حماية السلطة الزمنية ، لأنه فضل القوة على
الفوضى والعماية . انه لم يتوقف عن مهاجمة انصار اصلاح جنري .

وفي آخر المطاف ، أعلن بطريقة اكثر دوغمائية اللاهوت والعقيدة في حركته
الانجيلية ، التي أصبحت الكنيسة اللوثرية . ومات في ١٨ شباط ١٥٤٦ .

٣٠٨ - لاهوت لوثر . جداله مع ايراسمس

في رسالة مؤرخة حزيران سنة ١٥٢٢ كتب مارتن لوثر : «لا أقبل انه يمكن لنظريتي ان تحاكم من قبل شخص ، حتى من قبل الملائكة . إن من لا يقبل نظريتي لا يمكن الوصول للخلاص» . ويذكر جاك مارتين هذا النص^(٥١) كدليل على الصلف وتركز الأنانية . وعليه ، يتعلق بردة مميزة لمن لا يجروا على الشك باختياره الإلهي ولا بيعته النبوية . ويكونه متلقيا الكشف الذي هو الحرية المطلقة للرب الأب الديان ، يدين وينقذ حسب قراره الخاص ، فإن لوثر لن يسامح أي تفسير آخر . وإن عنفه الذي لا يسامح بعكس حمية يهوه وغيرته تجاه البشرية . وإن الكشف الذي كافأ لوثر - التبرير ، واذن الخلاص ، بالايان فقط solafide - هو نهائي وغير قابل للمس به ، حتى الملائكة لا تستطيع محاكمته .

وهذا الكشف ، الذي غير حياته ، شرحه لوثر باستمرار ودافع عنه في لاهوته . وعليه ، لقد كان لاهوتيا بارزاً ومثقاً^(٥٢) . وعشية اطروحاته ضد صكوك الغفران ، هاجم لاهوت نهاية القرون الوسطى في خصومته ضد لاهوت السكولاستيك (٤) آب (١٥١٧) . فحسب تعليم كنيسة القرون الوسطى الموضحة بخاصة من قبل توما الأكويني ، ان المؤمن الذي يطبق الخير في حالة من النعمة يساعد في خلاصه الخاص . ومن جهة أخرى ، فإن تلامذة أوكهام العديلون كانوا يقدرون ان العقل والوعي ، منحتان من الله ، لم تحذفا بالخطيئة الأصلية ، والنتيجة فإن من يفعل الخير حسب اتجاهه الأخلاقي الطبيعي يتلقى النعمة كمكافأة ، وبالنسبة للأوكهاميين ، فإن مثل هذه العقيدة لا تقتضي البتة البيلاجوسية (نظرية الراهب بيلاجوس ٣٦٠-٤٢٠م الذي انكر الخطيئة الأصلية وقال بحرية الارادة التامة) . لأن الله في آخر المطاف هو وحده الذي يريد انقاذ الانسان دائماً .

وقد هاجم لوثر بعنف في خصومته ضد التيولوجيا السكولاستيكية هذه النظرية . فإرادة الانسان بطبيعتها الخابصة ليست حرة ان تفعل الخير . فبعد السقوط ، لا نستطيع التكلم «بحرية التحكم» ، لأن الذي يسود منذئذ الانسان هو انانيته الذاتية المطلقة

والسعي اللاهت وراء رغباته الخاصة . وليس المقصود دوما اتجاهات أو أعمال لا اخلاقية ؛ فأحيانا يفتش الانسان عما هو خير ونبيلا ، ويطبق الدين ويحاول التقرب من الله . ومع ذلك ، فإن هذه الأعمال هي آثمة ايضاً ، لأن مصدرها ذات الأنانية التي اعتبرها لوثر كنموذج اساسي لكل نشاط انساني «خارج النعمة»^(٥٣) .

وقد أدان لوثر ايضاً اخلاق ارسطو التي بحسبها ، تتحصل الفضائل الخلقية بالتعليم . وفي آخر المطاف رأى في لاهوت السكولاستيك بيلاجوسية جديدة . وبالنسبة له ، ان الخير ، سواء أتم في أو خارج ، حالة النعمة لا يسهم مطلقاً في انقاذ الروح . ومنذ خريف ١٥١٧ ، تاريخ الخصومة ، يعاود لوثر باستمرار أخذ التفسير للايمان وحده solafide . انه يلح بصورة أقل على المحتوى الدوغمائي للايمان ؛ ان تجربة الايمان في ذاتها هي التي تجلب البراءة fiducia الصافية والشاملة ، كبراءة الأطفال . أما بالنسبة للانسجام بين العقل والايمان ، فإن لوثر اعتبره مستحيلاً ، وصنف بين الوثنيين أولئك الذين اكده . فليس للعقل شيء مشترك مع نطاق الايمان . إن قواعد الايمان ، كما كتب فيما بعد . «ليست ضد الحقيقة الجدلية (أي منطق ارسطو) وانما خارج ، أو تحت ، وفوق ، وحول وما وراء»^(٥٤) .

ويعود لوثر ايضاً على النعمة الاساسية للتولوجيا - التبرير بالايمان - راداً على الانتقادات المصاغة من قبل ايراسموس في كتابه حرية التحكم De libro Arbitrin . إن المواجهة بين هذين العقليين الكبيرين هي ذات دلالة محزنة ونموذجية معا . فقد هاجم ايراسموس (١٤٦٩-١٥٣٦) منذ زمن طويل اساءات الاستعمال ، وفساد الكنيسة مصراً على ضرورة الاصلاحات الملحة . وما هو اكثر من ذلك ، كان قد عارض بلطف البيانات الأولى للوثر^(٥٥) . ولكنه ، كمسيحي طيب وانساني مخلص ، فإن ايراسموس رفض المساهمة في تفجير الجماعة المسيحية ، فقد شجب الحرب ، والعنف الكلامي وعدم التسامح الديني ، وقد طالب باصلاح جنري للمسيحية الغربية ، وان يكون ذلك ليس ضد صكوك الغفران وعدم احترام الكهنة والكرادلة ودجل الرهبان فحسب ، وانما ايضاً ضد الطريقة السكولاستيكية وغموض اللاهوتيين . وقد اعتقد ايراسموس بضرورة التعليم الأكثر عقلانية واعاد التذكير بدون توقف بالفائدة الكبرى التي يمكن

للمسيحية ان تستخلصها في تمثلها للثقافة الكلاسيكية^(٥٦) . وكان مثله الأعلى السلام كما بشر به المسيح : فهو وحده يستطيع أن يضمن المساعدة بين الشعوب الأوروبية .

وفي ٣١ آب ١٥٢٣ كتب ايراسمس إلى اورليش زوينجلي : «اعتقد انني علمت تقريباً كل ما علمه لوثر ، ولكن بدون قسوة ، وانني امتنع عن بعض التناقضات المملغة»^(٥٧) . ومع انه لم يقبل بعض افكار لوثر ، فقد كتب رسائل في مدحه ، مع علمه أن هذه الرسائل سوف تشهر^(٥٨) . وعندما اعلنت اطروحات لوثر بأنها هرطقية ، احتج ايراسمس معتبراً أن الخطأ ليس هو بالضرورة هرطقة^(٥٩) . وطلب إلى اللاهوتيين الكاثوليك الرد على تفسيرات لوثر بدلاً من ادانته وبما أن ايراسمس اعلن ضرورة الحوار فهو قد اتهم - بدنياً من قبل لوثر ، وبالتالي من روما - بالحيادية ، لا بل بفقدان الشجاعة ، وهو اتهم قد يكون صحيحاً عشية حرب دينية ضروس وجديدة ، في حين ان الازعان لقسم من الايمان كان يوحى علنا بالاستشهاد . ولكن المثل الأعلى لا يراسمس - التسامح المتبادل والحوار بهدف التعارف وايجاد مصدر مسيحي مشترك . يعاود اكتساب فعلية شبه عاطفية في الحركة المسكونية لهذا الربع الأخير من القرن العشرين .

وبعد العديد من المراوغات خضع ايراسمس لضغوط روما وقبل ان يتنقد لوثر . ومن جهة اخرى ، شعر بنفسه متبعداً أكثر فأكثر عن اللاهوتية الجديدة لويتينبرغ . ومع ذلك لم يظهر نفسه مستعجلاً جداً . ولم يرسل إلى المطبعة كتابه حرية التحكم De libro arbleitro المنجز في عام ١٥٢٣ إلا في شهر اب ١٥٢٤ (نشرت النسخ الأولى في ايلول) . وكان النقد في اكثره معتدلاً ، وقد ركز ايراسمس على تأكيد لوثر بأن التحكم الحر هو في الواقع وهم . وعليه ، فإن لوثر قد كتب ، مدافعاً عن اطروحاته ضد أمر الكنيسة بالحرمان : «لقد عبرت بشكل سيء عندما قلت بأن الارادة قبل حصولها على العناية هي اسم فارغ فقط . فقد كان يجب القول بالأحرى صراحة بأن الارادة الحرة هي في الحقيقة خيال أو اسم دون حقيقة . لأنه ليس في مكتة الانسان اتمام الشر أو الخير . وكما تفسر بحق مقالة ويكيلف المدانة في كونستانس : كل شيء له مكانه بضرورة مطلقة»^(٦٠) .

ويحدد ايراسمس وضعه بوضوح : «باختيار حر نعرف قوة الارادة البشرية التي بها يستطيع انسان المثابرة على الاشياء التي تقود لخلاص ابدي ، أو (يستطيع) الانحراف عنها»^(٦٣) .

وبالنسبة لايراسمس كانت حرية الاختيار بين الخير والشر الشرط الواجب Sinequanon للمسؤولية البشرية «إذا كانت الارادة غير حرة ، فإن الائم لا يمكن له ان يعزى (للانسان) ، لأن الائم لا يوجد اذا لم يكن ارادياً»^(٦٢) . وما هو اكثر من ذلك : اذا لم يكن الانسان حراً في اختياره ، فإن الآله سيكون مسؤولاً عن الافعال السيئة كما هو مسؤول عن الافعال الخيرة»^(٦٣) . وقد اصر ايراسمس في علد من المناسبات على الأهمية الحاسمة للعناية الالهية . إن الانسان لا يساعد في خلاصه ، وانما تماماً كطفل مساعد من قبل والده ، يتعلم المشي ، كذلك المؤمن يتعلم أن يختار الخير ويتجنب الشر .

ويرد لوثر في كتابه استخدام التحكم Deservo.arbitrio سنة ١٥٢٥ ، وهو مؤلف حفظ له طيلة حياته حباً كبيراً . إنه اعترف منذ البدء «بالقرف ، والغضب والاحتقار» الذي أوحى به كتيب ايراسمس^(٦٤) . والجواب ، الأطول باربع مرات من كتاب حرية التحكم ، قد كتب بحماس وحمية ، وهو يتجاوز لاهوتيا افق ايراسمس . فينعي عليه لوثر انشغاله بالسلام العالمي . «أتريد كصانع للسلام ان تضع نهاية لمعركتنا» . الا انه بالنسبة للوثر يتعلق بـ «حقيقة جدية ، حيوية ، ابدية ، ومهما توجب ان تكون اساسية مدعومة ومدافع عنها بثمر الحياة نفسها ، حتى ولو أن العالم برمته غير ملقى في الفوضى والصراع فحسب ، وانما كان ايضاً مقطوع الأوصال ومردود للفناء»^(٦٥) . وبعدئذ يعاود بسرعة كبرى ، الدفاع عن لاهوته ، ولكن بدعابة وسخرية .

وقد اجابه ايراسمس في كتاب كبير Hyperaspites حيث لم يخف شراسته وشعوره . ولكن المصلح لا يعير الاهتمام عن رفضه . ولم يخطيء نفسه : فالضجة ازدادت حوله ؛ وفي الواقع كانت الحروب الدينية قد بدأت .

٣٠٩ - زوينغلي - كالفان - والاصلاح الكاثوليكي .

في ١١ تشرين الاول ١٥٣١ سقط المصلح السويسري اولريش زوينغلي^(٦٧) ، إلى جانب العديد من رفاقه ، في معركة كابل Kappel . ومنذ بضع سنوات ، كان قد غرس الاصلاح في زوريخ ومدن أخرى . وبفضل زوينكلي تمتعت زوريخ باحترام مساوٍ لوتتبرغ . ولكن الكانتونات الكاثوليكية المهلدة بالعزلة التامة تجمعت في حملة ضد أهالي زوريخ ؛ وقد ضمن لهم النصر علدهم وتفوقهم العسكري . وقد اوقف موت زوينغلي توسع الاصلاح في سويسرا وثبت ، حتى بداية القرن التاسع عشر ، الحدود الطائفية للبلاد . ومع ذلك استمر عمل زوينكلي وتدعم بفضل خليفته هنري بولينجر . وقد كان زوينكلي ألف عدة رسالات من بينها حول العناية الالهية providence والتعميد وسر القربان المقدس ، وان تفسير هذا الكتاب الاخير خاصة هو الذي يظهر أصولية الاصلاح السويسري . وبسبب هذا التفسير أيضاً لم يمكن له أن يحقق الاتحاد مع حركة لوثر^(٦٧) .

إن زوينكلي يصر على الحضور الروحي للمسيح في قلب المؤمن المتلقي للتقديس . وبدون الايمان لا قيمة للقربان المقدس مطلقاً . إن العبارة : «هذا هو جسدي» يجب لها ان تفهم رمزياً ، كما لو انها تذكير بتضحية المسيح التي قوت الايمان بالخلاص .

وكان لوثر قد غبط بحق الحريات السياسية في سويسرا . ومع ذلك ، ففي سويسرا ايضاً توجب للاصلاح الديني أن يأخذ حذره من السلطة السياسية . وقد اعتبر زوينكلي بحق ، اكثر راديكالية من لوثر . إلا أن الحرية الدينية ، في زوريخ كما في واينبرغ ، شجعت الاتجاهات الراديكالية المتطرفة . وبالنسبة لزوينكلي ، فإن المواجهة الأكثر قسوة والأكثر مدعاة للشفقة كانت مع كونراد غريبيل مؤسس الحركة المساة (من قبل خصومها) ضد التعميد . فغريبيل كان قد انكر قيمة التعميد للأطفال^(٦٨) . وحسب رأيه ، ان هذا التقديس لا يمكن له ان يدار سوى للبالغين ، وبدقة اكثر ، لأولئك الذين اختاروا بحرية اعتداء حياة المسيح . وبالنسبة فإنه كان على المهتدين ان

يعاد تعميدهم^(٦٩) . وقد هاجم زوينكلي هذا المذهب في رسالات اربعة ، ولكن بدون نجاح كبير . إن أول اعادة تعميد حصلت في ٢١ يناير سنة ١٥٢٨ ، وفي اذار ، منعت السلطات المدنية هذه المهرطقة ، وقد اعدم اربعة من غير المتعمدين . وفي سنة ١٥٢٦ مات غرييل بعد ان كان تم توقيفه قبل سنة .

وبالرغم من التعذيات والاضطهادات^(٧٠) فإن عدم التعميد انتشر بشكل واسع في سويسرا والمانيا الجنوبية بعد ١٥٣٠ . ومع الزمن ، انقسم هذا «الاصلاح الجندري» إلى عدة مجموعات ، من بينها «الروحانيون» امثال الباراسيلز وسيباستيان فرانك وفالتين ويجل .

وكلوثر وزوينكلي كان على جان كالفان ان يدافع عن لاهوته ضد انصار عدم التعميد^(٧١) . لقد ولد في ١٥٠٩ في نويون Noyon ودرس في باريس في كلية مونتيجو (١٥٢٣-٥٨) وألف أول كتاب له في ١٥٣٢ (تعليق على Declémentis لسينيكا) . وبعد ان عرف كتابات لوتر ، أدخل حبه للحركة الانسانية المكان للتولوجيا . وعلى الأرجح ان كالفان اهتمدى في ١٥٣٣ ، وفي ١٥٣٦ التجأ لجنيف . وسمي راعي ابرشية وانضم بحماس لتنظيم الاصلاح .

ومع ذلك ، فبعد عامين ، طرد من قبل مجلس المدينة . فاستقر عندئذ في ستراسبورغ ، حيث دعاه الانساني واللاهوتي الكبير مارتان بوسر (١٤٩١-١٥٥١) . وفي ستراسبورغ عرف كالفان افضل فترة من حياته . فقد تعلم كثيراً ، بفضل صداقته مع بوسر ونشر في ١٥٣٩ طبعة معادة من دستور الديانة المسيحية^(٧٢) . l'institution dela

relegion echreétienne^(٧٣) . وفي ١٥٢٠ تعليقا على رسالة إلى الرومان . وفي سنة ١٥٤٠ ايضا ، تزوج ايدليت دي بور ارملة غير متعملة مهتدية . ومع ذلك فقد تقاوم الوضع في جنيف ، ورجاه المجلس الاقليمي ان يعود ، وبعد عشرة اشهر من التردد ، قبل كالفان ان يعود في ايلول سنة ١٥٤١ وبقي فيها حتى موته في ايار ١٥٦٤ .

وبالرغم من بعض المقاومة ، نجح كالفان في فرض مفهومه عن الاصلاح ، في جنيف : الكتاب المقدس هو السلطة الوحيدة التي تقرر في كل مسائل الايمان وتنظيم

الكنيسة . ومع ان الانتاج الادبي لكالفان يتضمن بشكل ثابت تناقضات سياسية ،
وكنسية وتيولوجية ، فإنه انتاج عجيب . وهو قد حرر رسائل معتبرة تتضمن تعليقات
حول العهد القديم والعهد الجديد ، وعدداً كبيراً من الرسائل والكتيبات ذات العلاقة مع
مختلف مظاهر الاصلاح ، ومواعظ حول رسائل القديس بولس الخ . . . ويبقى أهم
اعماله دستور الديانة المسيحية وهو مميز بكماله الادبي . وظهرت الطبعة النهائية للنص
اللاتيني منه في ١٥٥٩ (٧٣) .

إن تيولوجيا كالفان لا تشكل منهجاً أبداً . إنها على الاكثر مجمل تعليق على
الفكر التوراتي . فكالفان يتحرى ويتأمل العهدين ، المقروئين والمفهومين مراراً على ضوء
القديس اوغسطين . ويتعرف كذلك على تأثير (لوثر) ، مع ان هذا لم يذكر . ويناقش
كالفان في ترتيب شخصي ، المسائل الاساسية للاهوته : معرفة الله بصفته خالقاً ورباً ،
والوصايا العشر والايمان (حسب رمز الرسل) ، التبرير بالايمان ومزايا الأعمال ، وسبق
التقدير العناية الالهية ، والتقديستين الصحيحتين (التعميد وسر القربان المقدس) ولكن
الصلاة ايضاً ، وسلطات الكنيسة والحكومة المدنية . والانسان ، بالنسبة لكالفان ، لا
يتوقف مطلقاً عن ان يكون مخطئاً ، فأعماله الجيدة تصبح ممكنة القبول بالنعمة الالهية
فقط . ان المسافة بين الله المتصاعد (المفارق) والمخلوق يمكن الغاؤها بالوحي المحفوظ في
الكتب المقدسة . مع ذلك ، لا يستطيع الانسان معرفة الله بذاته وانما فقط بصفته ان الله
مظهر ذاته للبشرية . والتقديستان تشكلان الوسيلة التي يتصل بها المسيح بالمؤمن .

لقد اتفق على اعتبار كالفان كالأقل أصالة بين كبار لاهوتيي الاصلاح . لأنه
سبق ، منذ التصلب العقائدي لآخرهم لوثر ، ان اضعفت الابداعية اللاهوتية اولويتها
في الكنائس المعاد اصلاحها . وان ما يهم هو تنظيم الحرية الفردية واصلاح المؤسسات
الاجتماعية ، بدءاً بالتعليم العام . ولقد كشف لوثر - وأوضح هذا المبدأ في حياته
الخاصة - أهمية الفرد المبدع . وبأكثر من «كرامة الانسان» الممجدة من قبل الحركة
الانسانية ، فإن حرية الفرد برفض كل سلطة اخرى خارج الله جعلت ممكنة - بعملية
بطيئة من ابطال صفة القداسة - «العالم الحديث» كما بدا في عصر الأنوار وتؤكد مع الثورة
الفرنسية وانتصار العلم والتكنولوجيا .

أما بالنسبة لكالفان، فإنه لم يساهم فحسب، أكثر من لوثر، بالتقدم الاجتماعي والسياسي للكنيسة، ولكنه أوضح بمثاله الوظيفة والأهمية اللاهوتيتين للنشاط السياسي. وفي الواقع، لقد تقدم سلسلة التولوجيات السياسية الطائفة في النصف الثاني من القرن العشرين: تيولوجيا العمل، تيولوجيا التحرير، التولوجيا المضادة للاستعمار الخ.. وفي هذا المنظور، يتكامل التاريخ الديني في أوروبا الغربية بعد القرن السادس عشر بالأولوية في التاريخ السياسي والاجتماعي، والاقتصادي والثقافي للقارة.

إن الإصلاح الأخير الهام، ذلك الذي حصل في مجمع ترانت (١٥٤٥-١٥٦٣)^(٧٤) معقد جداً. وإصلاح ترانت هذا بدأ متأخراً ومعاقلاً بانتشار الحركات الانجيلية، وهو يتطور تحت ضغط التاريخ المعاصر ويتابع بصورة خاصة تدعيم السلطة السياسية للمقر المقدس، ومع ذلك، فإن عدداً من اللاهوتيين والأعضاء الأعلين في الراتبية كانوا طالبوا منذ فترة سابقة، بإصلاحات حقيقية، وبدئاً بتجديد سلطات البابا وأحياء سلطة الاساقفة. وقبل بضعة سنوات من افتتاح مجمع ترانت، وتحت الحاح الامبراطور شارلكان، كان هنالك مجال في ريجنسبورغ، في نيسان ١٥٤١، لمناقشات بين اللاهوتيين البروتستانت (من بينهم بوسر وميلانكتون) واللاهوتيين الكاثوليك (جون ايك وغروبر الخ...). وفي بضعة اسابيع، اتفق الطرفان على بعض المسائل الاساسية (على سبيل المثال، طبيعة الانقاذ بصفته «تبريراً مزدوجاً»).

ومما يؤسف له ان المجمع جعل مثل هذا التقارب غير مجدٍ. فقد كان البابا ومستشاروه الجزويت مشغولين بإصلاحات من شأنها أن تحول، في البلدان الكاثوليكية، دون ظهور لوثر وزوينكلي وكالفان جلد. وكان دستور المجمع يقوم على ان اطروحات البابا وحده هي التي كان من الممكن قبولها. وكما كان متظراً، فإن الاتجاه الرجعي قد انتصر. مع ذلك، فإن المجمع أعاد قيام سلطة الاساقفة «على شرط السكني في اسقفياتهم» وعارض بحماس ضد لأخلاقية وخذانة الكهنة، واتخذ مقررات هامة، فيما يتعلق بالتعليم اللاهوتي لرجال الدين الخ.. وإضافة إلى ذلك، فإن المجمع شجع ترميمات النظام الطقوسي المؤهل لارضاء حاجة اللايك بحياة دينية أكثر رسمية.

وان ما يدعى بالكاثوليكية الما قبل الثلثية هي في جزء منها النتيجة لمثل هذه الاجراءات التطهيرية ولكنها ايضاً من عمل بعض كبار الصوفيين والرسول . ان تقليد صوفية القرون الوسطى والورع الحديث عرف انطلاقة جديدة مع القديسة تريزا دافिला (١٥٤٢-٨٢) والقديس يوحنا الصليبي (١٥٤٢-٩١) . وان التجربة الصوفية الموحدة المعلنه من قبل القديسة تريزا بعبارة الزواج بين الروح ويسوع ، حصلت على تقدير استثنائي^(٧٥) . رغم شكوك التفتيش ، ولكن اغناطيوس دي ليولا (١٤٣١-١٥٩٦) مؤسس رهبانية اليسوعيين ، الذي أسهم في النجاح - الخلقي والديني والسياسي - ضد الاصلاح .^(٧٦) . فمع انه كان يوجد تجارب صوفية ، التي تكلم عنها ، فتلك كانت الرسالة «التأمل في العمل» ، حسب عبارة شهيرة ، كان قد اختارها اغناس دي ليولا . وانه بدئياً بالنسبة لأعماله - ملاجئ ايتام - مأوى لقدامى العاهرات ، مدارس ثانوية ومعاهد ، ارساليات إلى القارات الثلاث الخ . . . كان قد نظر إليه باعجاب .

ويمكن تلخيص مذهب دي ليولا كما يلي : طاعة مطلقة لله ، وبالتالي لمثله على الأرض ، الجسر الأعظم والرئيس العام للرهبانية ، واليقين بأن الصلوات ، والتأمل والقدرة على التمييز التي تنتج من ذلك ، يمكن لها ان تغير الشرط البشري ، والثقة بأن الله يشجع كل جهد باهداء البشر ، وكذلك اذن الجهد بهدف التحسن الذاتي ، والتأكيد بأن صالح الاعمال وبصورة خاصة اعمال المشاريع لمساعدة المحتاجين هي مرضي عنها من قبل الرب .

وبمقارنة تيولوجيا اغناس بتيولوجيات لوثر وكالفان تبدو الأولى متفائلة ، الأمر الذي أمكن له ان يفسر بالتجارب الصوفية لايفغناس ، تجارب وجهت ايضاً طريقته بالتأمل مما للوظيفة وللقيمة الموجهتين للعمل . فالطاعة العمياء لمثل الله على الأرض تخالف أصلها الصوفي ؛ ويمكن مقارنتها بتمجيد الامام (ف ٢٧٣ع) والمعلم الروحي في الهندوسية ؛ فهناك ايضاً برر هذا التمجيد بتيولوجيا صوفية .

إن العبقرية الدينية لايفغناس دي ليولا تفسر بخاصة في تمارينه الروحية ، رسالة قصيرة بدأ تأليفها بعد تبصره الصوفي الأول، في مانيز بالقرب من مونتسيررا. وهي تتعلق بموجز عملي ، يدل يوماً فيوماً ، على الصلوات والتأملات المفيدة لذلك (ليس من

الضرورة ، عضوا من الرهبانية) الذي يمارس اعتزالاً لأربعة اسابيع . وهذا المؤلف يحتوي ويحدد تقليداً تأملياً قديماً ومسيحياً . حتى الممارسة الشهيرة للأسبوع الأول ، والجهد للتخيل ليؤلف بطريقة ملموسة وحيّة منظراً أو مشهداً تاريخياً ، له مقدمات في القرن الثاني عشر . ولكن اغناس يطور الطريقة لهذا التصور مع دقة تذكر ببعض الصياغات التأملية الهندية . ان المعتزل يتعلم اصفاء القداسة على الحيز الذي يوجد فيه ، بالقائه له بقوة التخيل في الفضاء حيث يجري في الحاضر التاريخ المقدس . ويتوجب عليه رؤية اورشليم القديمة ليسوع المسيح ويتابع ببصره العذراء ويوسف في الطريق نحو بيت لحم وهكذا دواليك . حتى عندما يأكل ، يستطيع ان يرى بأنه يأكل مع الرسل .

وما تتوجب الاشارة إليه ، هو الدقة والصرامة في الممارسات الروحية ، فكل اندفاع تعبدي مراقب بعناية . والتطهير المتزايد للمعتزل لا يبيء ابداً وحدة صوفية . والهدف من الاعتزال هو تكوين رياضات athlètes روحية - وارسالها في العالم .

٣١٠ - انسانية ، افلاطونية - محدثة وهرمسية طيلة عصر النهضة .

عهد كوزمودي ميديتشي إلى الانساني الفلورنسي الكبير مارسيليو فيسينو (١٤٣٣-١٤٩٩) ترجمة مخطوطات افلاطون وافلوطين التي كان جمعها خلال العديد من السنوات . مع ذلك ، وحوالي سنة ١٤٦١ ، اشترى كوزمو مخطوطاً للمجموع الهرمسي وطلب إلى فيسينو ليقدم له مباشرة ترجمة لاتينية . في هذه الاثناء ، لم يكن بعد فيسينو قد بدأ بترجمته لافلاطون ، فوضع المحاورات جانباً وكرس نفسه بكل سرعة لترجمة الرسائل الهرمسية . وفي ١٤٦٣ ، لسنة ، قبل موت كوزمو تمت هذه الترجمات . وهكذا كان المجموع الهرمسي Corpus hermeticum أول نص اغريقي ترجم ونشر من قبل مارسيل فيسين^(٧٧) الأمر الذي يظهر الاحترام لهرمس مثلث الحكمة Hermès Trismégiste المعتبر كمؤلف للرسائل الهرمسية (ف ٢٠٩ع) .

لقد لعبت الترجمات اللاتينية لفيسين ، وبخاصة المجموع الهرمسي ، وافلاطون وافلوطين - دوراً هاماً في التاريخ الديني لعصر النهضة : فهي قد حققت انتصاراً

للافلاطونية المحدثثة في فلورنسا، واثارت فائدة مولعة بالهرمسية في كل اوروباتقربيا . وكان الانسانيون الايطاليون الأول - من بيتراك (١٣٠٤-١٣٧٤) إلى لورنزو فاللا (١٤٠٥-١٤٥٧) قد افتحوا آنفا توجهها دينياً جديداً . برفض التيولوجيا السكولاستيكية والرجوع إلى آباء الكنيسة . وقدر الانسانيون أنهم بصفتهم مسيحيين لا ييك وكلاسيكيين ممتازين يستطيعون الدراسة والمقارنة بشكل أفضل من رجال الدين للعلاقات بين المسيحية من جهة والمفاهيم الما قبل المسيحية المتعلقة بالألوهة والطبيعة البشرية من جهة أخرى . وكما لاحظ شارل ترينكوس فإن هذا التقييم الجديد للانسان المتصر ليس هو بالضرورة من أصل وثني ؛ إنه بالأولى ملهم بالتقليد الوطني (٧٨) .

ومع الافلاطونية المحدثثة المطروحة على الشعب من قبل فيسين وديكو ديلاميرا ندولا (١٤٦٣-١٤٩١) وإيميدو دي فيستروبا (١٤٦٩-١٥٣٢) كسب تمجيد الشرط الانساني بعداً جديداً ، وانما بدون التنازل مطلقاً عن النصوص المسيحية . فالله في خلقه للعالم ، أعطى للانسان السيادة على الأرض ، وكان ذلك «عبر أعمال الانسان بصفته الها على الأرض وان العمل الخلاق للتاريخ والحضارة يجب لها ان تنجز» (٧٩) . ولكن تعظيم الانسان ، اتجه مميز للانسانين ، مستوحى منذئذ أكثر فأكثر من الافلاطونية المحدثثة الما قبل المسيحية ومن الهرمسية .

وبكل وضوح ، ان فيسين ويك دولاميراندولا لم يكن لديهما شك بالنسبة لأصولية إيمانها . وقد سبق في القرن الثاني ، ان المنافع عن الدين (لاكناس) كان قد اعتبر هرمس مثلث الحكمة ، حكماً ملهماً من قبل الله ، وانه فسر بعض النبؤات الهرمسية كما لو أنها أكملت بولادة يسوع المسيح ، وقد عاد مارسيل فيسين وأكد هذه النعمة بين الهرمسية والسحر الهرمسي من جهة والمسيحية من جهة ثانية . واعتبر (بيك) ان ماجيا وقابالا أقرتا الوهية المسيح (٨١) . وان العقيدة العالمية في لاهوت قديم محترم prisculteologia وفي «اللاهوتين القدامى المشهورين» - زرادشت ، وموسى ، وهرمس مثلث الحكمة ، وداوود ، واورفيه ، وفيتاغورس ، وافلاطون - عرفت الآن طوفانا استثنائيا .

ويمكن ان نتبين في هذه الظاهرة عدم الرضى العميق المتخلف من قبل السكولاستيك والمفاهيم القروسطية للانسان والعالم ، وردة ضد ما يمكن تسميته مسيحية

(اقليمية provincial) ، أي غريبة صرفة ، كذلك الالهام بديانة عالمية عبر التاريخ وبديئة . وقد كان ييك تعلم العبرية لكي يتعلم أصول القبالة ، كشف هو في رأيه يسبق ويفسر العهد القديم ، وقد أمر البابا الكسندر السادس برسم لوحة جدارية fresque في الفاتيكان غنية بصور ورموز هرمية اي (مصرية) . فمصر القديمة ، وبلاد فارس ، والاسطورة الزرادشتية ، و(المذهب السري الأورفية ، كلها تكشف (اسراراً) تتجاوز حدود اليهودية - المسيحية والعالم الكلاسيكي المعاد اكتشافه حديثاً من قبل الانسانيين .) وهو يتعلق ، في الواقع ، باليقين بإمكانية إعادة وجود الكشوفات الأولية لمصر وآسيا والتي يمكن اظهار تضامنها ومصدرها الوحيد . (يصادف ذات الحماس وذات الأمل ، مع انه في علاقات اكثر تواضعاً ، في القرن التاسع عشر ، بعد اكتشاف السنسكريتية وأولية الفيدا . والايوانيشاد) .

لقد لازمت الهرمسية ، خلال ما يقرب من عشرين ، مالا يحصى من اللاهوتيين والفلاسفة ، سواء مؤمنين أو غير مؤمنين . واذا كان جوردانو بردنو (١٥٤٨-١٦٠٠) قد استقبل بحماس بالغ اكتشافات كوبرنيك ، فذلك لأنه فكر بأن المركزية الشمسية l'héliocentrisme كان لها دلالة دينية عميقة وسحرية . وفي حين وجوده في انجلترا تنبأ برونو برجوع عاجل للدين السحري لقدامى المصريين كما كان موصوفاً في الاسكليبيوس Asclepius . وكان جوردا نوبرونو قد شعر بنفسه اسمى من كوبرنيك لأنه في حين ان هذا الأخير لم يفهم نظريته الخاصة الا بصفته رياضياً ، فإن برونو استطاع تفسير المخطط الكوبرينيكي كأنه الكتابة الهيروغليفية للاسرار الالهية^(٨٣) .

غير ان جوردانو برونو تابع هدفاً مختلفاً : فقد طابق هرمس مع الديانة المصرية ، معتبرا كأنه الاكثر قدماً وبالتيجـة كان بنى عالميته الدينية على دور السحر المصري ، وعلى العكس فإن عدداً من المؤلفين في القرن السادس عشر ترددوا في اللجوء إلى السحر الهرمسي ، الذي كان معتبراً آنئذ هرطقة . وتلك كانت حالة لوفيفر ديمتابلس (١٤٦٠-١٥٣٧) ، الذي ادخل الهرمسية إلى فرنسا : فقد فصل الكثيراً من المجموعة الهرمسية عن رسالة اسكليبيوس Asclepius . والافلاطوني المحدث سمفوريان شاميه (١٤٧٢-١٥٣٩) حاول أن يظهر ان كاتب المقاطع السحرية من الاسكليبيوس لم يكن هرمز وانما أبوليه Apulée^(٨٤) ، وفي القرن السادس عشر في فرنسا كما هو الأمر في أي

مكان من أوروبا ، أخذت القيمة المثالية للهرمسية ، بدنيا ، وبخاصة لعالميتها الدينية ، القابلة لانعاش السلام والوفاق ، ويحث الكاتب البروتستانتى فيليب دي مورني في الهرمسية عن وسيلة للخلاص من أهوال الحروب الدينية . وفي كتابه عن حقيقة الدين المسيحى (١٥٨١) يذكر مورني بأن هرمس يرى «ان الله واحد [...] وله وحده يتسمى اسم الأب والابن [...] وحده وله يتسمى الكل ؛ بدون اسم ، وأفضل كل الاسماء»^(٨٥) .

وكما كتب ج - واجن «هذا التأثير للهرمسية قد مَسَّ البروتستانت والكاثوليك ؛ مفضلا لدى البعض والبعض الآخر ، الاتجاهات الأكثر سلمية *iréniques*»^(٨٦) . إن الديانة المحترمة المكتشفة من قبل هرمس والمقسمة في البدء بين البشرية بكاملها ، استطاعت ، حتى يومنا إعادة اقامة السلام العالمى والاتفاق بين مختلف الطوائف . وفي مركز هذا الكشف توجد (الوهية) الانسان ، الكون الأصغر *microcosme* الذى هو تخليق كل الخليقة . «الكون الأصغر هو الهدف الغائى للكون الاكبر *macrocosme* في حين ان الكون الاكبر هو مقر الأصغر [...] . الأكبر والأصغر هما مرتبطان تماما فيما بينهما بحيث ان أحدهما هو دوما حاضرا في الآخر»^(٨٧) .

ان العلاقة ، الاكبر - الأصغر كانت معلومة في الصين وفي الهند القديمة واليونان . ولكنها وجدت لدى بارسيلز وتلامذته بصورة خاصة حيوية جديدة^(٨٨) . فقد جعل الانسان من الممكن الاتصال بين الاقاليم السماوية والعالم الأعلى من العالم القمري . وفي القرن السادس عشر تمثل الفائدة بالنسبة للسحر الطبيعى جهداً جديداً بهدف تقريب الطبيعة من الديانة . ان دراسة الطبيعة شكلت في الواقع بحثاً لفهم الله بشكل أفضل وسرى التطور العظيم لهذا المفهوم .

٣١١ - تقييمات جديدة للكيمياء : من باراسيلز لنيوتن

كما سبق وذكرنا ، فإن الترجمات اللاتينية للمؤلفات الكيميائية المحفوظة أو المؤلفة في اللغة العربية ترجع في تاريخها إلى القرن السابع . ومن بين الأكثر شهرة منها التابو

لا سمارقدينا Tabule Smaragdina المنسوبة لهرمس ، المتمتعة بتقدير بارز ، ففي هذا الكتاب توجد الصيغة الشهيرة التي توضح التضامن بين الهرمسية والكيمياء : «كل ما هو في الأعلى هو مثل كل ما في الأدنى ، وكل ما هو في الأدنى هو مثل كل ما هو في الأعلى بهدف اكمال اعجوبة الوحدة» .

ولقد اتبع الكيميائيون الغربيون السيناريو ،! المعروف سابقاً في العصر الهلنستي (ف ٢١١ع) للمظاهر الاربعة لعملية التحول ، أي للحصول على حجر الفلسفة .

ان المظهر الأول (النغريدو la nigredo) - الارتداد لحالة الميوعة للمادة - يناسب «الموت» للكيمياء . وحسب باراسيلز ، «ان من يريد الدخول للموت الله يجب أولاً الدخول مع جسده في أمه ويموت هنالك» . الأم هي المادة الأولى ، الكتلة المختلطة ، الأبيسوس^(٨٩) . la prima materia, la massa confusa l'abyssus . وبعض النصوص تشير إلى التزامن synchronisme بين القطع الكيميائي l'opus alchymicum والتجربة الصحيحة للمريد l'adepte . «الاشياء ترجع تامة بأمثالها ، ولأجل هذا فإن على الصانع ان يساهم في العملية»^(٩٠) . «تحولوا انتم من حجارة ميتة إلى حجارة فلسفية حية» ذلك ما كتبه دورن Dorn . وحسب جيشتل Gichtel «لا نتلقى ابداً روحاً جديدة فحسب مع هذا التجديد ، وانما ايضاً جسداً جديداً . هذا الجسد مستخرج من كلمة الهية أو من الحكمة السماوية» . إنه لا يتعلق ابداً بعمليات مخبر فقط ، فهذا قد ثبت بالتأكيد على فضائل وصفات الكيميائي : فهذا يجب ان يكون طاهراً ، متواضعاً ، صبوراً ، نقياً ، ويجب ان تكون لديه الروح الحرة والمنسجمة مع العمل ؛ ويجب عليه في آن واحد ان يعمل وان يفكر ويتأمل الخ ...

وفي موضوعنا ، سيكون من غير المفيد ، تلخيص المظاهر الأخرى للكتلة l'opus . ولنلاحظ مع ذلك ، الصفة المتناقضة للمادة الأولى وحجر الفلسفة . وحسب الكيميائيين ان الأولى والأخرى توجدان في كل مكان وتحت كل الاشكال ، وهي معينة بمئات المصطلحات . ولكي لا نذكر سوى نص واحد لعام ١٥٢٦ ، فإن الحجر «مألوف

لكل الناس شبابا وشيوخا ، انه يوجد في البرية ، والقرية ، والمدينة وفي كل الاشياء والمخلوقة من قبل الله ؛ ومع ذلك فهي موضع ازدراء من قبل الجميع . الاغنياء والفقراء يستعملونها كل يوم . انها ملقاة في الشارع من قبل الخدم . والاطفال يلعبون بها . ومع ذلك لا أحد يتفحصها ، مع انها بعد الروح الانسانية ، الشيء الاكثر عجبا والاكثر قيمة ثمينة على الأرض . واحتمالا ان هذا يتعلق «بلغة سرية» التي هي في آن واحد التعبير عن التجارب الغير ممكن نقلها من جهة اخرى بترجمة اللغة اليومية ، واتصال سري بمعنى خفي للرموز .

فالحجر يجعل من الممكن تطابق الاضداد^(٩١) ، وهي تطهر و«تكمل» المعادن . والكيميائيون العرب هم الذين اصفوا على الحجر الفضائل العلاجية ، وبواسطة الكيمياء العربية وصل مفهوم الاكسير الحيوي إلى الغرب . وقد تكلم روجيه باكون عن «معالجة تزيل عدم نقاوة وكل شوائب المعدن الخسيس» والذي يمكنه تحديد العمر البشري لعدة قرون . وحسب ارنولد دي فيلانوفا ، فإن الحجر يشفى كل الأمراض ويعيد إلى الشيوخ شبابهم .

وفيا يتعلق بالتحول وانتقال المعادن إلى ذهب ، المؤكدة فيما سلف في الكيمياء الصينية (ف ١٣٤ع) فإنه يعجل بالايقاع الزمني ويسهم اذن في عمل الطبيعة ، وكما جاء في كتاب «المجموع الكامل la Summa perfectionis» وهو كتاب كيميائي من القرن الرابع عشر «مالا تستطيع الطبيعة ان تتمه في حقبة طويلة من الزمن ، نستطيع اكماله في قليل من الوقت بفننا» .

ان ذات الفكرة معروضة من قبل بن جونسون في مسرحيته الكيميائي (فصل ٢ مشهد ٢) اذ يؤكد الكيميائي ان «الرصاص وغيره من المعادن ، ستكون من الذهب اذا توفر لها الوقت لتصبح ذلك» وتضيف شخصية أخرى : «وان هذا ما يحققه فننا» . وبعبارات أخرى ، ان الكيميائي يبدل بالزمن ...^(٩٤) .

إن مبادئ الكيمياء التقليدية ، بمعنى نمو التعدين وتحول المعادن ، والاكسير والالتزام بالسر ، لم تعارض في عصر النهضة والاصلاح^(٩٥) . ومع ذلك فإن افق

الكيمياء القروسطية تغير تحت صدمة الافلاطونية المحدثه والهرمسية . وقد نال اليقين بقدرة الكيمياء على مضاعفة عمل الطبيعة دلالة مسيحية . وقد أكد الكيميائيون آنذ بأنه تماماً كما ان المسيح افتدى الانسانية بموته واضطهاده فإن الكتلة الكيميائية يمكنها ضمان الخلاص للطبيعة . وقد شابه أحد مشاهير الهرمسية من القرن السادس عشر (هنريش كونراث) حجر الفلاسفة مع يسوع المسيح «الابن الاكبر le fils macroseme» ، وفكر اضافة إلى ذلك بأن اكتشاف الحجر سيرفع القناع عن حقيقة طبيعة الكون الأكبر ، كذلك فإن المسيح قد منح الطوبى الروحية للانسان أي الكون الاصغر . وان الاعتقاد الراسخ يمكنه الكيمياء انقاذ الانسان والطبيعة معا مدد والحنين لتجديد جذري ، وهو حين لازم المسيحية الغربية منذ جيوشام دي فلور .

وكان جون دي (المولود سنة ١٥٢٧) والكيميائي الشهير، والرياضي والموسوعي ، قد اقنع الامبراطور رودولف الثاني بأنه امتلك سر التحول ، وكان يقدر ان اصلاً روحانيا للانفراج العالمي يمكن اتمامه بفضل قوى مطلقة بواسطة (العمليات السرية) وفي المكان الأول منها العمليات الكيميائية^(٩٦) . كذلك فإن الكيميائي الانكليزي الياس اشمول قد رأى في الكيمياء علم التنجيم وسحر الطبيعة «المخلص» لكل العلوم .

وفي الواقع ، وبالنسبة لانصار بارسيلز وفان هيلموت ، فإنه يمكن فهم الطبيعة بدراسة «الفلسفة الكيميائية» أي «الكيمياء الجديدة» أو العلاج الحقيقي^(٩٧) . وقد كانت الكيمياء وليس التنجيم ، هي التي شكلت المفتاح المؤهل لحل مغاليق الاسرار في السماء والأرض . وبما ان الخلق كان مفسراً كعملية كيميائية ، فإن الظواهر الساوية والأرضية يمكن لها ان تفسر بعبارات كيميائية . ومع الأخذ في الحسبان علاقات الأكبر - الاصغر ، فإن «الفيلسوف - الكيميائي» يستطيع ان يضبط appréhender أسرار الأرض وكذلك الاجرام الساوية . وهكذا قدم روبرت فلودوصفا كيميائيا لدورة الدم مقتفية الحركة الدورية للشمس^(٩٨) .

وكالعديد من معاصريهم ، فإن الهرمسين و«الفلاسفة الكيميائيين» انتظروا - والبعض من بينهم اعدله بحماس كبير - اصلاً عاماً وجذريا لكل المؤسسات الدينية والاجتماعية والثقافية . وقد كانت المحطة الأولى التي لا مندوحة عنها لهذا التجديد

العالمي هي اصلاح العلم . وقد أوجب كتاب صغير مجهول Fama Fraternitatis منشور في ١٦١٢ نموذجاً جديداً للتعليم . وكشف هذا المؤلف وجود جمعية سرية هي «الصليب الوردي» ، ومؤسسها الاسطوري كرستيان روزن كروت كان اتقن «الاسرار الحقيقية للطب» وانطلاقاً من ذلك كل العلوم الاخرى : وكتب فيها بعد عدداً من الكتب ، غير ان هذه المؤلفات كانت مقبولة حصراً لاعضاء التنظيم الروزيكروسياني Rosicrucien^(٩٩) . وقد كان مؤلف فاما فراتر نيتانيس المشار إليه توجه الى كل علماء اوروبا طالبا إليهم الانضمام إلى الأخوة لاكمال اصلاح المعرفة ؛ وبعبارات أخرى لكي يُسرّعوا في تجديد العالم الغربي . وقد كان لهذه الدعوة صداها المنقطع النظير . فبأقل من عشر سنوات نوقش المنهاج الموضوع من قبل الجمعية السرية للصليب الوردي في مئات متعددة من الكتب والكراريس .

ونشر جوهان فالتان اندرياس المعتبر من بعض المؤرخين كمؤلف لكتاب فامافراترنيتاتيس في ١٦١٩ كتاباً اسمه المدينة المسيحية (كريستيان بوليس) المؤلف الموحى ، على الأرجح ، لباكون بكتابه ، اطلانطيس الجديدة^(١٠٠) . وقد اقترح اندرياس ادستوراً لجماعة العلماء ، بهدف احياء طريقة جديدة للتعليم مبنية على «الفلسفة الكيميائية» . وفي يتوبيا المدينة المسيحية ، كان مركز الدراسات هو المخبر : هنالك «تزوجت السماء والارض» و«اكتشفت الاسرار الالهية التي طبعت وجه البلاد»^(١٠١) ومن بين كبار المعجبين باصلاح المعرفة المطلوبة بالفاما فراترنيتيس وجد روبرت فلود عضو الكلية الملكية للفيزيائيين ، وكان هذا ايضاً تلميذاً متحمساً للكيمياء السرية . وقد اعتمد فلود بأن من غير الممكن تطويع الفلسفة الطبيعية بدون دراسة معمقة للعلوم السرية . وبالنسبة لفلود فإن «الطب الحقيقي» كان الأساس حتى للفلسفة الطبيعية . ان معرفة الكون الاصغر أي الجسم البشري - تكشف لنا بنية العالم وتنتهي لتوصلنا لقرب الخالق . وازضافة لذلك ، بمقدار ما نعرف العالم اكثر ، بمقدار ما نتقدم اكثر في معرفة الذات^(١٠٢) .

وحتى وقت قصير ، لم يكن يشك ابداً بلور نيوتن في هذه الحركة العامة المهادفة لتجديد الدين والثقافة الأوروبيتين ، بواسطة تركيب جريء للتقاليد السرية والعلوم الطبيعية ، صحيح ان نيوتن لم يعلن أبداً نتائج تجاربه الكيميائية ، مع انه أعلن ان

بعضها قد كلل بالنجاح . وقد اتيح لمخطوطاته الكيميائية الغديلة المجهولة حتى عام ١٩٤٠ أن تحلل بدقة من قبل البروفيسور بيتي تيتير دويوس في كتابه اساس الكيمياء النيوتونية (١٩٧٥) . وقد أكد البروفيسور دويوس ان نيوتون جرب في مخبره العمليات الموصوفة بما لا يخص من المؤلفات الكيميائية «في مقياس لم يدرك لا قبله ولا بعده» . وقد أمل نيوتن ، بمعونة الكيمياء ، اكتشاف بنية الميكرو . الشامل micro-Univer بهدف ان يقارن بمنظومته الكوزمولوجية . ولم يرضه بما فيه الكفاية اكتشاف مركز الثقل ، أي القوة التي تمسك الاجرام في مداراتها . ولكنه بمقدار ما تابع بدون كلل التجارب من ١٦٦٩-١٦٩٦ ، فهو لم ينجح لمضاهاة القوى التي حكمت الجسيمات . وعلى كل حال ، عندما بدأ في ١٦٧٩-١٦٨٠ دراسة ديناميكا الحركة الفلكية ، طبق على الكون مفاهيمه «الكيميائية» للجاذبية^(١٠٣) .

وكما عرض ميغوير وراتانسي ، فقد كان نيوتن مقتنعا انه ، في البدء ، «أوصل الله لبعض المتميزين اسرار الفلسفة الطبيعية والدين . وقد ضاعت هذه المعرفة فيما بعد ، واعيد استردادها بعدئذ ، وعندئذ تجسدت في خرافات وصيغ اسطورية ، حيث بقيت مستترة لغير متلقي الاسرار . غير ان هذه المعارف يمكن ان تكتشف في زمننا بالتجربة وبطريقة اكثر دقة»^(١٠٢) . ولهذا السبب ، فإن نيوتن تفحص بصورة خاصة الأقسام الأكثر باطنية للأدب الكيميائية ، آملاً ان هذه الأقسام كانت تحتوي على الحقائق السرية . وبما له دلالة ان مؤسس الميكانيك الحديث لم يرفض التقليد لكشف بدئي وسري ، كذلك لم يرفض مبدأ التحول . وكما كتب في (الضوء Opticko) ١٧٠٤ «ان تغير الاجسام إلى نور والنور إلى جسم ، يتوافق تماماً مع قانون الطبيعة ، لأن الطبيعة تبدو مشحونة .. بالتحول ..» وحسب دويوس «فإن الفكر الكيميائي لنيوتن كان مؤسساً بقوة بحيث لم ينكر ابدأ صحته العامة . وفي معنى آخر ، كل مجرى حياة نيوتن بعد سنة ١٦٧٥ يمكن تفسيره كجهد طويل بهدف تكامل الكيمياء والفلسفة الميكانيكية» .

وبعد نشر المبادئ des principia كان الخصوم قد حرصوا بأن (les forces) (القوى) لنيوتن كانت في الحقيقة «نوعيات سرية» . وقد اعترف البروفيسور «دويس» ، بأن لهذه الانتقادات سببها ولها منطقها : «قوى نيوتن كانت تشبه كثيراً التجازبات

والتنافرات المستورة ، التي تكلم عنها الأدب ، السري لعصر النهضة» . مع ذلك اعطى نيوتن للقوى نظاما انطولوجياً معادلاً لنظام المادة والحركة . ويفضل هذا التشابه المدعم بتحديد كمية الأصول ، سمح للفلسفة الميكانيكية ان ترتفع فوق مستوى التصور . وتحليل المفهوم النيوتوني للقوة توصل ريتشارد ويستغول إلى نتيجة ان العلم الحديث هو النتيجة لزواج التقليد الهرمسي والفلسفة الميكانيكية^(١٠٥) .

إن العلم الحديث في انطلاقه الاستعراضي تجاهل تراث الهرمسية . وبعبارة أخرى ، ان انتصار ميكانيك نيوتن انتهى بالغاء مثله الأعلى العلمي الخاص . وفي الواقع ان نيوتن ومعاصريه انتظروا نموذجاً مختلفاً جداً من الثورة العلمية . ويتمديد وتطوير الآمال والاهداف للكيميائيين - الجدد لعصر النهضة - وفي المكان الأول الغفران للطبيعة ، فإن عقولاً مختلفة عن باراسليز ، وجولادي كومينيوس وج.ف. - اندريا وفلود ونيوتن رأت في الكيمياء المثال لمشروع ليس أقل طموحاً ، وبخاصة كمال الانسان بطريقة جديدة من المعرفة . وفي منظورهم ان مثل هذه الطريقة يجب ان تتكامل في مسيحية غير طائفية ، التقليد الهرمسي والعلوم الطبيعية ، أي الطب والفلك والميكانيك . وهذا التركيب شكل في الواقع ابداعاً مسيحياً جديداً ، قابلاً للمقارنة بالنتائج المثيرة المتحصلة بالتكامل السابق للافلاطونية والارسططالية والافلاطونية المحدثه . وهذا النسق من المعرفة المحلم به والمعلن والمقام جزئياً في القرن الثامن عشر ، يمثل المشروع الأخير المجرب في أوروبا المسيحية بهدف الحصول على «المعرفة الشاملة» .

حواشي الفصل الثامن والثلاثون

- ١ - خاصة ، في تاريخ الاديان فصل ٧ ، ٨ - ٩
- ٢ - ح. س لاسون - الفولكلور الحديث في اليونان والدين الاغريقي القديم
- ٣-٤ الطقوس الشعبية في تراقيا - روميو .
- ٥ - هومر والملحمة الشعبية الرومانية س. بوغهير
- ٦ - شميلت ...
- ٧ - تستعمل بخاصة الوثائق الفولكلورية الرومانية وانما مع الفوارق ، ويوجد ذات السيناريو في كل مكان من اوروبا الشرقية - الياد - تاريخ الاديان - شعبية متتانية
- ٨ - اسطورة الرجوع الابلدي - الياد .
- ٩ - يسمون عهد الاوكرانيين (الخدم الصغار لله)
- ١٠ - ١١ - حول هذه القاعلة الفولكلورية - انظر من زالموسكي لجنكيز خان - الياد .
- ١٢ - ١٣ - في بعض الروايات الأخرى ان الشجرة الكونية هي في وسط البحر أو على الشاطئ المقابل .
- ١٤ - يضاف الى ذلك انه تحت ادارة امرأة عجوز ، يجتمع المجمع الاحتفالي من الصبايا دوريا ويتلقى التعليم التقليدي المتعلق بالجنسية ، الزواج الشعائر الجنائزية ، اسرار النبات الطبي (مونيك) براتوسكو .
- ١٥ - ١٦ - اساء المراجع
- ١٧ - يضيف الأمير دومتري كونتمير بعض المعلومات ذات الدلالة والتي لم يصادق على بعضها الا في القرن التاسع عشر وحسب المؤلف فإن الكالوساري يتكلمون بصوت نسائي ويغنون وجوههم بقمماش ناعم من الكتان لكي لا يعرفهم أحد ، ويعرفون اكثر من ١٠٠ رقصة مختلفة ، بعضها عجيب بحيث ان الراقصين يظهرون وكأنهم لا يمسون الأرض «كما لو انهم

يطيرون في الاجواء» ان الكالوزاري ينامون فقط في الكنائس ، لكي لا يعذبون من قبل الجنيات . Zin

١٨ - يعالج المريض بالاعشاب وينثر الثوم على وجهه ويكسر قنينة ماء ويضحي بدجاجا سوداء .

١٩ - انظر (ملاحظات حول الكالوزاري ، وتاريخ الاديان الشعبية)

٢٠ - ٢٢ - اسماء المراجع المعتمدة الكثيرة .

٢٣ - ٢٤ - لأجل ، استخراج ومنهم الظاهر ، جرى تحليل بعض الامثلة والوثائق الفولكلورية الرومانية كثيرة

٢٥ - ٢٩ - اسماء المراجع - المعتمدة

٣٠ - ليس الا في ١٥٣٢ ان بعض اتباع ديانا اقروا تحت التعذيب ، بأنهم دنسوا الصليب والمقدسات - انظر الوثائق التي ذكرها جميز بنورح

٣١ - ٣٣ - ذات المرجع

٣٤ - ذات المراجع ومع ذلك وفي فترة متأخرة في ١٦٦١ فإن البيندانتي كانت لديهم الشجاعة ليعلموا بأنهم قاتلوا من أجل الدين المسيحي ضد الستريغوني .. وقد وجد ج. ب روسيل في ميلان بعض الآثار لمعتقدات مشابهة للبيندانتي .

٣٥ - ٣٦ - جيزنسرع .

٣٧ - حول الستريغوا انظر الوثائق الفنية المجمعة من قبل اوفيد بيرليا - بوخارست . وأقل شيوعاً هي العقيدة التي كان الستريغوا الموتى يدهنون بدهان خاص ويذهبون بالمدخنة فيما مكانوا يتقاربون فيما بينهم بذات السلاح مع الاحياء .. وكما في الكثير من المعتقدات الشعبية الاخرى في اوروبا فإن القوم يعتبر كأحسن دفاع ضد الستريغوا الاحياء والموتى .. وفي كتاب الكوركوتور لبوشارد من القرن الثاني دفاع من الاعتقاد بأن بعض النسوة يدعين انهن خرجن في الليل من الابواب المغلقة وطرن للغيوم للقتال .. ولكنه لا يعرف ضد من قاتلت هؤلاء النسوة

٣٨ - الاسم لجماعة خاصة من الجن .. وهو مشتق على الأرجح من اللاتينية حان وتاديان ..

وهي جنيات يقطن اسمهن للعيد الهام للقديس يوحنا المعمدان .

٣٩ - في تحليل أخير ، ان السيناريو المحدث بواسطة الكالوزاري يقتضي ازالة الافكار والتقنيات السحر - دينية ، المتعارضة والمتكاملة معا . ان الاثبات المدهش لهذا السيناريو القديم تفسيره الأقرب احتمالاً في الواقعة التي قربها وسهلتها المباني المتعارضة (مرض) موت صحة (خصب) وهي مشخصة في اكثر العبادات تمجيداً للالهة الأولية الانثى والذكر : الجنية والبطل المقتول على حصانه .

٤١ - أج ديكنز - يقول «لأول مرة في التاريخ حاكم عدد من القراء قيمة الافكار الثورية

عبر جماعة وسيطة استعملت اللغة الوطنية متلاصقة مع فن الجرائد والكاريكاتير .

٤٢ - ٤٣ - اساء المراجع

٤٤ - حول الشيطان - انظر مقاطع من تعليق على رسالة القديس بولس لأهل غلاطة ، اعيدت كتابتها في الأنطولوجيا - (دأرس - كورس . وادوارد بيتر . وقال لوثر «لن يوجد لدي اية شفقة على هؤلاء السحرة ، سأحرقهم جميعاً» أما بالنسبة للكيمياء ، كان لوثر قد اعترف بأنها ترضيه جداً «انها تسرني ليس فحسب من أجل امكانيات الاستعمال المتعددة الموجودة في تطويع المعادن ، وفي التقطير وفي تصعيد تكرير الاعشاب والسوائل ، وانما ايضا بسبب من الرموز دلالاتها السرية المبهرة جداً في موضوع قيامة الموتى في اليوم الآخر . لأنه كذلك كما في القرن ، فإن النار تستخرج وتفصل من مادة الاجزاء الاخرى ، وترفع النفس والحياة والنسغ والقوة في حين ان المواد غير النقية ، الثفل ، تبقى في القعر كجسد ميت ودون قيمة كذلك الله ويوم الدينونة ، سيفصل كل الاشياء ، بالنار العادلون مع الظالمين» .

٤٥ - طباعة هذا المؤلف المغفل الجارية في المانيا حوالي ١٣٥٠ كانت من جهة أخرى ، أول كتاب مطبوع له .

٤٦ - كانت الكنيسة تستطيع اعطاء صكوك غفران المستخلصة في خزينة المزايا المجمعة من قبل المسيح والعذراء والقديس . واصبحت الممارسة شعبية بدءاً من أول الصليبية عندما في ١٠٩٥ اعلن الباب اوربان ان الصليبيين سيستفيدون من التزليل الموقت لأثامهم ، ولكن خاصة في زمن لوثر ان بعض الكنسيين اساءوا استعمال هذه الممارسة جاعلين الناس يعتقدون ان مع هذه الصكوك كان يشتري الرخصة بارتكاب الذنب .

٤٧ - سبق لانوسفت الثالث ان جرب بعشرة ابطال هذه الممارسة ولكن بي Pie هو الذي وضع نهاية في ١٥٦٧ لسوء استعمال الصكوك .

٤٨ - اثناء هذه الإقامة ترجم الى الالمانية - العهد الجديد (والترجمة الكاملة للكتاب المقدس انتهت في ١٥٣٤) وحول الزور الرهبانية ، دعا إلى زواج الكهنة للرهبان وتحريرهم من نذورهم .

٤٩ - اوزمان - عصر الاصلاح ص ٢١٨ .

٥٠ - الجاكيري قمعت بقسوة متناهية من قبل تحالف الامراء .

٥١ - يذكر ورك - ان (الأنالوثر كانت في رأيه المركز الذي يجب ان تركز حوله كل البشرية ولقد جعل نفسه الانسان العالمي ، الذي يجب ان توجد فيه نموذجها) .

٥٢ - بين ١٥٠٩-١٥١٧ درس عن قرب اريسطو ، القديس اوغسطين ، الآباء واعمال كبار اللاهوتيين للقرون الوسطى .

٥٣ - ٥٦ - المراجع .

٥٧ - Ferrish - (الالفار) كانت التأكيدات الشهيرة للوثر ، والتي تسمى إليها أعمال القديسين على محيط الاسم ، بأن حرية الاختيار هو اسم فارغ ، ويستطيع الانسان البراءة بالايمان .

٥٨ - ٦٥ - ايراسمس ادخل مقاطع تعكس بعض انتقاداته للوثر في الطبقات الجديدة من العهد الجديد . وانظر المراجع المذكورة . . .

٦٦ - ولد زويكلي بالقرب من زوريخ سنة ١٤٨٩ ودرس في بال وفيينا قبل أن يكرس كاهناً في ١٥٠٦ وقد اكبر باعجاب لوثر ، ولكنه لم يعتبر كلوثرى ، لأنه توجه باصلاح اكثر راديكالية في ١٥٢٤ . وقد تزوج خفية أرملة اعطته اربعة اولاد . وفي السنة التالية نشر فويكلي اطروحاته السبعة معلناً الانجيل المصدر الوحيد الصحيح لاهوتيا وفي ١٥٢٥ ظهر المنشور الأول المحتج (تعليق على الدين الصحيح والخطأ) . مجمع زوريخ قبل الاصلاح : الصلاة اللاتينية ابدلت بخدمة القربان المقدس في المانيا ، أزلت الصور من الكنائس ، والاديرة أصبحت دينوية .

٦٧ - اساء المراجع .

٦٨ - من جهة أخرى هذا التعميد لم يكن مؤكداً عليه في الانجيل وعليه فإن احترام السلطة الوحيد والمطلق للكتاب المقدس كان الآن عاماً في الجماعات المصلحة .

٦٩ - من هنا العبارة anafractse ، من جهة غير سليمة ، لأن المهتدين لم يعترفوا بالقيمة التقديسية لأول تعميد .

٧٠ - قدر المؤرخون ان عدد غير المتعدين ما بين ٨٥٠-٥٠٠٠ قد اعدموا منذ ١٥٢٥-٦١٨ = وقد احرقوا أو قطعت رؤوسهم أو اغرقوا .

٧١ - لأول مرة ، كل الدلائل جمعت حللت من قبل (بالك) .

٧٢ - اكملت في فرنسا في ١٥٣٥ واستمرت المؤسسة يعاد النظر فيها وتزايد من قبل كالفن في الطبقات المتأخرة .

٧٣ - ان مشهداً معقد مزعجاً كان الاعداء ، ففي سنة ١٥٥٣ انتقد ميشيل سيرفيه الطبيب الاسباني القدير كالفان «وبالنسبة للكثيرين ان دور كالفان في موت سيرفيه اوصل خصومه رجعية للبروتستانت ، تماماً كما في معاملة غاليلية من قبل التفتيش الصقت بالكنيسة الكاثوليكية

٧١ - التوقيف الاول من ١٥٤٥

٧٤ - التوقيف الأول دام من اذار ١٥٤٥ لشتاء ١٥٤٧ والثاني من ١٥٥١ ايار الى ايار

١٥٥٢ والآخر من نيسان ١٥٦١ لكانون اول ١٥٦٣

٧٥ - سترجع إلى هذه المسائل في فصل نهائي مكرس للمورفولوجيا والمقارنات للتجارب الصوفية القديمة الشرقية والغربية .

٧٦ - ولد اغناس دي ليولا في ١٤٩١ في ليولا ، وكان في شبابه روما نتيكيا ومغامراً ، وقد جرح اثناء الحرب الفرنسية الاسبانية ١٥٢١ جرحاً بالغاً ، وقرأ بعض الكتب الدينية من بينها تقليد يسوع المسيح والسيرة الذاتية للقديس فرانسوا والقديس دومينيك وقرر الاقتداء بها ،

وبمناسبة اول حج له لموتشيرا في اذار ١٥٢٢ ، عقد نذراً على مذبح العذراء بأن يكرس نفسه لخدمة الرب ومنذئذ عاش اغناس حياة متقشفة بقسوة صائماً أحياناً اسبوعاً بكامله مسافراً دوماً على رجله في ثياب ممزقة ، ومكرساً سبع ساعات في اليوم للصلاة . وبعد ان تعلم اللاتينية في مدرسة اولية في برشلونة ، وصل إلى باريس في شباط ١٥٢٨ وتسجل في كوريم متيجو وأصبح مجازاً في ١٥٣٢ . حصل اغناس على انشاء مع تسعة رفاق له نظاماً جديداً تمت الموافقة عليه من قبل المحكمة في ١٥٤٠ . وحدد بدنياً بستين رهبانية يسوعية ، وحين وفاة اغناس بلغ عددها في ١٥٥٦ اكثر من الف عضو .

٧٧- جوردانو بروتود الهرمسية - فرنسيس . أ . - وحتى ذلك الحين رسالة هرمسية

واحدة .

٧٨- شارل ترسكو . . انظر المراجع . . ان التحقيق الكامل للشخصية لا يقتضي أبداً دوماً مثلاً مستعاراً من الوثنية ، انه يفسر بصورة خاصة بالتجديد ليتولوجيا النعمة .

٧٩- ٨٢- اساء المراجع .

٨٣- جوردانو بروتود . . ان مثقفا هرمسيا اسحق كازويون ، ظهر في ١٦١٢ بأن المجموع الهرمسي كان مجموعة نصوص متأخرة - لا تسبق القرن الثاني أو الثالث (ف ٢٠٩ع) ولكن التدوير الاسطوري (للاسرار المصرية) يستمر في مداعبة خيال الانتلجنسيا الأوروبية تحت شكل جديد (سر الهيروغليف)

٨٤- حول هرمسية القرن السادس عشر انظر ايضا - التولوجيا القديمة - فصل ٣ -

يورث .

٨٥- الكاثوليكي فرانسييسكو باتريدي كان يعتقد ان دراسة المجموع الهرمسي يمكن لها اقناع البروتستانت الالمان بالرجوع الى الكنيسة .

٨٦- ٨٨- اساء المراجع .

٨٩- حدادون وكيميائيون ص ١٣٢ - بعض الاشارات (من التحريم الفلسفي ، الزخرفة ، المنشأة من قبل باسيل قالتين . مع عبارة فيتريال تشير للضرورة الغير ممكنة التطبيق (زر ادنى الارض وبالتطهير ستجد الحجر السري) .

٩٠- Liber Platonis quartorum (التي أصلها العربي لا يمكن ان يكون متأخراً عن القرن

العاشر) . . ويوجد ذات المبدأ عند الكيميائيين الصينيين .

٩١- حسب بازيل قالتين (الشر يجب ان يصبح ذات الشيء كالخير) - وستاركلي يصف الحفر كأنه (الموافقة للاضداد ، محققاً للصدقة بين الاعداء) . .

٩٢- موزلوف - أصل الكيمياء . .

٩٣- ٩٥- حدادون وكيميائيون - م . الياد . . وحتى في القرن الثامن عشر لم يضع

العجاء موضع التساؤل نحو التعدين . لقد تساءلوا مع ذلك اذا كانت الكيمياء تستطيع مساعدة الطبيعة في هذا التطور وبخاصة اذا كان اولئك المدعون بفعل ذلك كانوا شرفاء ، أغبياء او غيلان . وهرمان بوارصان (١٦٦٤-١٧٣٩) المعتبر كأكبر كيميائي (عقلاني) في زمنه الشهير بتجاربه حصراً ، كان يعتقد ايضاً بتحول المعادن . وسنرى الأهمية للكيمياء في الثورة العلمية المكتملة بنيوتون .

ح ٩٦ - ٩٨ - اسماء المراجع المعتمدة .

٩٩ - انظر - احلام كيميائي عصر النهضة (دوبوس) . . ولنلاحظ انه في بداية القرن الساب عشر ، يوجد السيناريوهات الثرة في النصوص الصينية والهللنسيية : ان كشفاً بدئياً ، اعيد اكتشافه حديثاً وانما حفظ خاصة للمتلقى الاسرار
١٠٠ - ١٠٥ - اسماء المراجع المعتمدة . . والمتعددة . .

الفصل التاسع والثلاثون

الديانات التيبّية

٣١٢ - ديانة الرجال .

تماماً كالديانات الهندية والمسيحية القديمة والقروسطية ، فإن الديانة التيبّية ، تمثل في أوجها تركيباً مميزاً ، نتيجة عملية طويلة من التمثل والتوفيقية . ولما قبل بضع عشرات من السنين ، فسر العلماء الغربيون ، متبعين في ذلك المؤلفين التيبّيين ، التاريخ الديني للتيبت وكأنه نزاع بين الدين المحلي البون le Bon والبوذية الهندية ، التي انتصرت في الأخير تحت شكل اللامية Lamaisme . وقد كشفت بحوث حديثة ، وفي المحل الأول منها ، تحليل الوثائق التي وجدت في مغارة توان - هوانغ (Touen-houang) (القرن ٨ - ١٠) وضعاً أكثر تعقيداً . فمن جهة ، أصبح يؤخذ في الحسبان الآن أهمية اندماج الدين المحلي ، الذي سبق البون والانتشار الأول للبوذية ، وعليه ، فإن هذا الدين التقليدي (المسمى «دين الرجال») مر بصمت من قبل مؤلفي بون كما من قبل البوذيين .

ومن جهة أخرى ، فقد بُدِءَ بمعرفة افضل للخاصية الدخيلة والتوفيقية للبون وبخاصة منابعه الايرانية والهندية . بالتأكيد ان الوثائق التي نحوذها متأخرة (الأحرف الهجائية التيبية اخترعت في القرن السابع) وتعكس النتائج مجادلات واستعارات متبادلة بين البوذية والبون ومع ذلك تحت غطاء لامي أو بون يمكن فك رموز الخطوط المميزة للديانة التقليدية . ويميز المؤرخون التيبيون ديانة الآلهة (ها - شوز lha-chos) عن ديانة الرجال (مي - شوز mi-chos) ، فقد دل الأول بالتابع تارة على البون وتارة البوذية ، ودل الثاني على الديانة التقليدية .

إن مصدر هاماً لمعرفة «دين الرجال» - المسمى جكك Gcug (أو شوز «عرف») - قد تكون بواسطة «الحكايات» ، أي بالاساطير النشكونية والمتعلقة بشجرات الانساب ، وهذه الحكايات كانت تروى طقوسياً بمناسبة الزيجات ، واعياد السنة الجديدة ، وفي المباريات المختلفة على شرف آلهة الأرض الخ . . وكما في كثير من الديانات القديمة ، فإن تلاوة اسطورة الأصل لجمعية ، ولؤسسة أو لطقس ، يعيد تحيين الاستمرارية مع الزمن الاسطوري «للبدائيات» واستطراداً ، كان يضمن نجاح عملية مشروع^(١) . ان القصة الصحيحة لاساطير الأصول كانت «عملاً دينياً ضروريا لدعم النظام للعالم وللمجتمع»^(٢) .

وكما في أي مكان آخر ، فإن اساطير الأصول تبتيء بالتذكير بالنشكونية . فالعالم خلق من قبل الآلهة السباوية فيفا phyva ، متخيلة كما لو انها جبال السماء . (سنعود فيما بعد على الأهمية الدينية والرمزية للجبال) . فالبعض من هذه الآلهة - الجبال نزل على الأرض ، جالباً معه الحيوانات والنباتات ، وعلى الأرجح البشر الأول . وهذه الفترة الفردوسية ، عندما كان البشر يعيشون بالقرب من الارباب ، كان لها ان تدوم عشرة آلاف سنة . ولكن شيطاناً ، مستكناً تحت الطابق التاسع تحت الأرض نجح في الافلات ونشر الشر على الأرض . فانسحبت الارباب للسماء ، واستمر العالم بالتدهور خلال مئات الألوف من السنين . ومع ذلك ، فإن بعض الرجال طبقوا ايضا الجكك Gcug مستظرين «عصر الكفرة» الذي سيظهر على إثره عالم جديد ، وستعود الآلهة إلى الأرض وستبعث الأموات .

ويرتعلق بالتأكيد ، باسطورة معروفة جداً «لكمال البدايات» متبوعاً بالانحطاط المتنامي والشامل. غير أنه يفترض كذلك وجود تأثيرات هندية (الدورات الكونية المتضمنة مئات الألوف من السنوات) وتأثيرات إيرانية (الشیطان الذي يفسد الخلیقة) .

إن للعالم بنية ثلاثية : تسكن الآلهة فيفا في العلی ، والآلهة المائية وتحت الأرض كلو Klu تقطن في الأسفل ، والبشر في الوسط . وكان أول ملك إلها نازلاً من السماء توحد مع الوهة - جبل ، وهكذا أحيأ النموذج من الالساد الاسطورية السبعة التي تتبع . وتتکلم الأساطیر حول أصل المقر المسکون - انواع مختلفة لأسطورة نشکونية - إما عن شیطان مقهور أو حیوان مقطوع ، واما عن زواج مختلط بین إله (جبل ، صخرة أو شجرة) وربة (بحيرة نبع أو نهـر) . وهذا الزواج الالهی مخلوط أحياناً مع اقارب مما فوق الطبیعة للملك أو بطل . «كل جماعة ساكنة مقراً معیناً تتعارف هكذا في جدها وفي مكانه المقدس»^(٣) .

وفي الديانة التقليدية ، كان دور الملك اساسياً^(٤) . وكانت الطبیعة الالهية للسید تظهر بتألقه وبقدراته السحرية . ولم یبق الملوك الأولى على الأرض الا في النهار ، ثم عادوا إلى السماء لیلاً . انهم لم یعرفوا الموت بمعنی الكلمة ، ولكنهم لفترة معينة صعدوا نهائياً إلى السماء على حبلهم السحري ، مو mu أو دمو dmu وتقول مجموعة اخبار بونوبو bonopo ان هؤلاء الملوك الأول «كان لهم في قمة رأسهم جبل mu من نور ، جبل متباعد أو (مشدود) بلون اصفر فاقع (أو اغبر) . وفي اثناء موتهم كانوا يتحللون (كقوس قزح) بدءاً من اقدامهم ویندوبون في الحبل mu من يافوخ الرأس . والحبل مو من نور . كان ینوب بدوره في السماء»^(٥) . وهذا هو السبب الذي من أجله لم یکن یوجد قبور ملكية قبل آخر ملك من أصل إلهي دیغون Digun ، فقد كان هذا متعجرفاً وسريع الغضب ، وبمناسبة محزنة ، قطع بدون انتباه حبله الخاص مو . عندئذ أخذت جثث الملوك تدفن في الأرض ؛ لقد اکشفت قبورهم وعرفت بعض الحفلات المطبقة اثناء جنازاتهم^(٦) . ومع ذلك فإن بعض الكائنات المتمیزة ، القديسون والسحرة في المكان الأول - مازالوا ینجحون ایضاً في الصعود إلى السماء بفضل حبلهم /مو/ .

إن اسطورة الجبل /مو/ المقطوع من قبل ديجون تستعيد في نص آخر ، تاريخ فصل البشر والآلهة فيفا على اثر اقحام الشر في العالم . غير أن أهميتها بالنسبة لتاريخ الفكر الديني التيتي هي اكبر بكثير . لأن الجبل مو يشغل وظيفة كوزمولوجية ، من جهة : اذ انه يوصل الأرض بالسما كقطب للعالم aximundi ، ومن جهة أخرى ، يلعب دوراً مركزياً في نموذج التشابه ، كوزموس - مسكن - جسم بشري . واخيراً ، وبدءاً من احدى الفترات ، التي يصعب تحققها ، يوجد الجبل مو في الفيزيولوجيا البارعة وفي الطقوس التي تضمن التحرير والتصاعد السماوي لروح الميت .

وبالتأكيد ، ان التأثيرات الهندية في البون هي واضحة . ولكن الصفة الأصلية لهذه العقدة الاسطورية - الشعائرية ورمزيتها لا يمكن لها ان تكون موضع شك . ان التشابه كون - بيت جسم بشري هو مفهوم قديم جداً ، سائد في انتشاره في اسيا . ومع ان البوذية قد عرفت هذه المشابهة فهي لم تعطيها قيمة انقاذية (ف ١٦٠ع) .

إن الجبال تمثلت بالسلم أو الجبل مو للجد الأول النازل على الأرض . وقبور الملوك تسمى «جبال»^(٧) . ومن جهة اخرى ، فإن الجبال المقدسة - (الآلهة الحقيقية للبلاد) أو «أسياد المكان» - هي معتبرة «كأعمدة للسما» أو «مسامير الأرض» وان «ذات الوظيفة يمكن تسمنها بالأعمدة المقامة بالقرب من القبور أو المعابد»^(٨) . وان اله ارضية البيت ، هو ايضاً ، مشار إليه «كعمود السماء» أو «مسار تثبيت الارض» . والسماء والعالم تحت الأرض تشابه طوابق المرور إليها بواسطة «باب للسما» و«باب للأرض» . ويوصل في المنزل . بين الطوابق بواسطة سلم مصنوع من جذع شجرة . و«لباب السماء» يناسب ثقب السقف الذي يدخل منه النور ويخرج الدخان ؛ و«لباب الأرض» تناسب الموقدة^(٩) .

وتماما كالجبل المقدس - «رب البلاد» - يندمج بالسلم مو الذي يوصل السماء بالأرض ، وفي الجسم البشري واحد من الآلهة الحامية ، وبدقة المسماة «اله البلاد» ،

توجد على قمة الرأس حيث يخرج الحبل مو (على الأكتاف يستقر «الاله المحارب» و«اله الانسان»). والسلم مو هو كذلك يسمى «سلم الريح» .

والريح هو مبدأ الحياة مشابه للبرانا Pṛana لدى الهنود «انه ، في وقت واحد الهواء الذي يستنشق وهو سائل رقيق في الجسد»^(١٠) . «التنامي نحو الأعلى» ينجز بالحبل مو . ومن المرجح جداً ، ان هذه المفاهيم قد أعدت بالتوفيقية اللامية . وعلى كل حال فإن الاجراء المتخذ من قبل اللامات les lamas للخلاص النهائي للروح يذكر بحالة الملوك الاسطوريين من الذوبان في الحبل مو^(١١) . وبعبارات أخرى ، ان القديس مؤهل ، في حين وفاته ، لأن يردد ، روحيا ، ما أنجزه الملوك الاسطوريون ماديا inconcreto قبل الحادثة المؤسفة لديغون Digun (مفهوم يذكر بالاساطير من الشمال الاسيوي حول انحطاط الشامانية الحالية : الشامانيون الأوائل صعدوا للسماء بلحمهم وعظمهم) (ف٢٤٦ع) .

سنعود لدور النور في التقاليد الدينية التيبية ، ونضيف هنا ، ان الديانة التقليدية ، إلى جانب التماثل - كون - بيت - جسد بشري الذي تكلمنا عنه ، تقتضي اضافة إلى ذلك بعض التناسق بين البشر والآلهة Iha ، وأحياناً لا تتميز «الأرواح» bla عن «الآلهة» Iha ، الملفوظتان بذات الطريقة ، وغالباً ما يخلط التيبون بين العبارتين . وتعرف «ارواح» أو «حيوات» عدة خارجية ، تستقر في الأشجار والصخور أو الموضوعات المسكونة بالآلهة^(١٢) . وقد رأينا من جهة أخرى «آلهة البلاد» والآلهة المحاربة تسكن ايضا في مستقرات طبيعية كما تسكن في الجسد البشري .

وبعبارات اخرى ، ان الانسان بصفته كائنا روحانيا ، يشاطر في شرط إلهي ، وبخاصة ، الوظيفة والمصير للآلهة ذات البنية الكونية . الأمر الذي يفسر الأهمية إلى مالا يحصى من المباريات الشعائرية ، منذ سباقات الخيول ، والالعب الرياضية والمصارعات المختلفة ، حتى مسابقات الجمال ، والرمي عن القوس ، واحتلاب الابقار والمناظرات الخطابية ، ويكون حصول المباريات خاصة بمناسبة العام الجديد . وتشكل القاعدة الاساسية لسيناريو العام الجديد بالمصارعة بين آلهة السماء والشياطين مصورة بجيلين . وكما في سيناريوهات مشابهة أخرى ، فإن انتصار الآلهة كان يضمن نصر الحياة الجديدة

للسنة الجديدة التي ابتدأت . «تحضر الآلهة في الاستعراض وتضحك بالاشتراك مع البشر . المباراة بالالغاز وتلاوة القصص مثل قصص الملاحم ، لها اثر على المحصول وعلى القطيع . وباعتبار ان الآلهة والبشر مجتمعون بمناسبة الأعياد الكبرى ، فإن العقبات الاجتماعية تتأكد ، ولكنها تهدأ في ذات الوقت . وان الجمع المرتبط بما فيه (أصل العالم والأجداد) وبموضع سكناه (جبال واجداد مقدسة) يشعر بنفسه نشيطاً»^(١٣) .

وتبدو التأثيرات الايرانية في الاحتفال التيبتي للعام الجديد واضحة ، غير ان السيناريو الاسطوري - الشعائري قديم جداً : يوجد في العديد من الاديان التقليدية . وبعبارة اخرى ، انه يتعلق بمفهوم مؤكد بشكل واسع في العالم^(١٤) . وبحسب هذا المفهوم ؛ إن الكوزموس والحياة ، كوظيفة الآلهة والشرط البشري ، محكومة كلها بذات الايقاع الدوري ، المشكل من قطيئات متناوبة ومتكاملة مطبقة بالتناوب ، ولكنها تحل نفسها دوريا في وحدة شمولية من نوع توافق الاضداد *Coincidentia appositaria* ويمكن مقارنة المفهوم التيبتي بتعارض اليانغ الين واعادة تكاملها الايقاعي في التاو (ف١٣٢ع) . وعلى كل حال فإن الديانة التقليدية التي صادفها البوذيون الأول في التبت لم تكن «خليطاً لمفاهيم سحرية - دينية فوضوية ومشتهة [. . .] وانما كانت ديانة لها تطبيقاتها وشعائرها المتجذرة في نسق بنيوي ، مؤسس على مفاهيم ذات قاعدة معارضة جذريا لتلك التي ساندت البوذية»^(١٥) .

٣١٤ - البون : مواجهات وتوفيقية

يرد التساؤل بحق «عن الاسباب التي أوصلت المؤرخين (التيبتين) المتأخرين لطمس الديانة القديمة ، التي انقرضت حتى باسمها ذاته جكك Grug وابدالها بديانة (البون le Bon) والتي بتكوينها كديانة مشككة يجب ردها للقرن الحادي عشر : ومن جانب (المختصون بالمقدس) البون - بو des bon-po فإن الشيء قابل للفهم : كانوا بلا ريب مهيين لتصنع لهم ترجمة تزيد في رفعة تقديرهم ، باضفاء صفة الأقدمية العريقة عليهم»^(١٥) . أما بالنسبة للمؤرخين البوذيين ، فإن الأوصاحي الدموية والمفاهيم الأخروية للديانة المحلية قد أضحت موضع اشمئزازهم ، وبالنسبة تمثلوها بالمعتقدات والتطبيقات «السحرية» بون .

ومن العسير وصف البون قبل إظهار انتشار البوذية في التبت . فقد اصطدمت هاتان الديانتان منذ البدء ، مع تأثيرهما المتبادل ببعضهما ، وأخيراً ، وبدءاً من القرن التاسع استعار البون المحرور aggas-Bon المبدأ ، والألفاظ والمؤسسات اللامية . ومع ذلك ، فمن المتيقن أن الطقوسيين ، والمتألهين و«السحرة» بون - بو bon-po كانوا يعملون في التبت قبل تدخل المبشرين البوذيين . ومن جهة أخرى ، فإن إظهار البون لهذه النقطة من موضوعنا يسمح بالتحقق من تعددية وأهمية العناصر الغريبة التي ساهمت في تركيبة التدين التيبتي . وفي الواقع ، وعلى الأقل فإن بعض اصناف البون - بو يشهد بأصلها الدخيل . وحسب التقليد ان «البون الاجنبي» قد ادخل من زهانجشون Zhangshung (جنوب - غرب التبت) أو من تاريخ Tozig (ايران) . الأمر الذي يفسر ، من جهة أخرى العناصر الايرانية القابلة للكشف عنها في بعض مفاهيم بون ، ومن جهة أخرى ، تجعل محتملاً ، وجود التأثيرات الهندية (وبخاصة الشيقية Shinaites) قبل تدخل البوذية .

إن اقدم الوثائق تظهر من مختلف الطبقات من بون - بو : اصحاب شعائر ، مضحون ، متنبئون ، طاردوا الأرواح الشريرة ، سحرة الخ . . وليس هنالك مسألة ، قبل القرن الحادي عشر ، لتنظيم موحد ، مصاغ بشكل جيد من كل هؤلاء «المختصين بالقدس» . ومن بين ادواتهم الطقوسية ، نذكر المنصات المعينة لأسر الشياطين وبخاصة ، الطلبة من نوع شاماني لأنها كانت تسمح للسحرة بالصعود للسماء . وعمامة الصوف ، العلامة المميزة للبون - بو كانت استخدمت حسب التقليد ، لاختفاء اذني حمار المؤسس الخرافي للبون ، شيزاب ني بو (تفصيل ثمين لأنه تنكر لأصله الغربي ، وهو يتعلق ، في الواقع ، بنغم لميداس midas)^(١٧) . وإلى جانب مختصين آخرين بالقدس ، فإن البون - بو كانوا يحمون الملوك ورؤساء القبائل . انهم كانوا يتمتعون بدور هام في الجنائز (في الدرجة الأولى الجنائز الملكية) التي كانت تقود ارواح الموتى للآخرة ، وكانت مشهورة بأنها قادرة لاستدعاء الأموات وللتعزيز عليهم .

وثمة وثائق أخرى ، متأخرة أكثر ، تمثل اضافة إلى ذلك نشكوبات مختلفة وتيولوجيات ، لا بل ارشادات ما وراثية منهجة قليلاً أو كثيراً . هذا وان التأثيرات الهندية وبخاصة منها البوذية هي تأثيرات بارزة ، الأمر الذي لا يقتضي ابداً الوجود المسبق لكل

نظرية ، ومن الراجح جداً ان البون - بو (العلمانيين) (علماء انساب ، مسجلوا اساطير لاهوتيون ، قد تواجدوا منذ زمن طويل مع الطقوسيين والسحرة) .

وقد روى المؤلفون البون - بو المتأخرون «تاريخهم المقدس» كما يلي : مؤسس البون سيكون شيزاب - في - بو («الرجل - الكاهن - شين «الممتاز») . إن ولادته وسيرته الذاتية هما على نموذج ولادة وسيرة ساكيا موني وبادماسامهافا Sakyamuni et de Padmasamhava (سنشير إلى هذا الأخير فيما سيأتي) . لقد قرر شيزاب أن يولد في بلاد غربية (زهان - شانغ او ايران) . دخل شعاع من نور ابيض ، تحت شكل سهم (صورة مني رجولي) ، في الطاقة الجمجمية للأب ، في حين ان شعاعاً من نور أحمر (مثلاً العنصر النسوي ، الدم) دخل في رأس الأم . وفي ترجمة أخرى ، اكثر قدماً ، ان شيزاب ذاته هو الذي نزل من قصر سماوي تحت شكل خمسة ألوان (اي مثل قوس قزح) . وممسوخاً في عصفور ، تعلق على رأس أمه المقبلة وشعاغان ، أحدهما ابيض ، والآخر أحمر ، صادران من اجزائه الجنسية دخلا عن طريق الجمجمة جسد المرأة^(١٨) . وفي إحدى المرات على الأرض ، واجه شيزاب أمير الشياطين . فلحق به وطوّع بقدراته السحرية الشياطين التي صادفها . ولضمان خضوعها ، قدمت له هذه اشياء وصيغ محتوية على جوهر قدراتها ، وهكذا أصبحت الشياطين الحارسة لمذهب ولتقنيات البون^(١٩) . الأمر الذي يعني بأن شيزاب كشف للمختصين بالمقدس بون - بو الصلوات التي توجب عليهم رفعها للآلهة والوسائل السحرية لطرد الشياطين . وبعد ان أقام البون في التيبب وفي الصين انسحب شيزاب من العالم ، ومارس التنسك ، وكالبوذا ادرك النيرفانا . ولكنه ترك إنا هو الذي نشر مجمل المذهب خلال ثلاث سنوات .

ومن المتفق عليه اعتبار الشخصية الاسطورية المتخفية تحت اسم شيزاب كخالق للنظام المذهبي بون ، بالمعنى الذي جمعه ونظمه كتلة كبيرة ومتضادة من عادات وشعائر وتقاليد ميتولوجية ، ومن التعزيمات والعبارات السحرية - «ليست البتة نصوصاً ادبية ، لأن هذه ، قبل زمنها ، لم توجد الا بعدد صغير»^(٢٠) . إن القانون بون يتكون بدءاً من القرن التاسع ، بتجميع النصوص المفروض فيها ان تكون باطنية اثناء اضطهادات الملوك البوذيين ، والتي توجد فيما بعد^(٢١) . ويرجع شكلها النهائي ، في تاريخه ، إلى القرن

الخامس عشر ، عندما جمعت النصوص المنسوبة لشيزاب (مترجمة من لغة ذهانج - شونج) في الـ ٧٥ جزءاً من كانجور Kanjur ، وشروحها في الـ ١٣١ جزءاً من تانجور Tanjur . هذا وان تصنيف وعناوين هذه المؤلفات مستعارة بوضوح من القانون اللامي . ويتبع المذهب عن قرب مذهب البوذية «قانون عدم الثبات ، وتشابك الأعمال التي تحتوي دورة السمسارا (التناسخ) . وبالنسبة لبون ايضاً ، فإن الهدف المنشود هو التيقظ ، وحالة بوذا ، أو بالأحرى شكل الماهايانيك mahayunique والخواء» (٢٢) .

وكما هو الأمر لدى الرهبان البوذيين «القدامى» أي تلامذة بادماسامبها (ر.ف ٣١٥ع) فإن المذهب بون صيغ بتسعة «عربات» (أو «طرق») . والثلاث عربات الأخيرة متشابهة في الديانتين ، والستة الأولى تقدم كثيراً من العناصر المشتركة ، غير انها لدى البون - بو (المختصين بالمقدسات) تتضمن اضافة لذلك العديد من المعتقدات والممارسات السحرية المميزة (٢٣) .

وقد تأكدت عدة نشكونيات في الكتابات (بون) . ومن بين اكثرها أهمية ، نذكر الخلق بدنياً من بيضة أولية ، أو اعضاء عملاق له هيئة بشرية ، من نموذج بيروشا (قصة محفوظة في ملحمة جيزار l'epopéede Gesare) أو في النهاية ، كالعمل الغير مباشر لاله مفارق deus Othiosus انبثق منه مبدأن متعارضان جذريا . ويبدو التأثير الهندي واضحاً في النشكونيتين الأوليتين ، وحسب الثالثة ، لم يكن يوجد في البدء سوى امكانية صرفة بين كائن ولا كائن ، الذي غالبا ما يعطي لنفسه اسم «مخلوق ، معلم الكائن» . ومن هذا «المعلم» يصدر نوران ، ابيض واسود ، ينسلان «إنسانين» deushommes احدهما أبيض والآخر اسود . هذا الأخير «جهنم السوداء l'Enfer noir ، الشبيه برمح ، هو التجسيد لغير كائن ، مبدأ النفي أو السلب ، صانع كل الشرور وكل المصائب . والانسان الأبيض ، الذي أعلن نفسه «معلماً يحب الوجود» ، هو تجسد الكائن ومبدأ كل ما هو خير وخالق في العالم . بفضل عبدة الآلهة من قبل البشر وحاربت الشياطين ومثلي الشر (٢٤) . وهذا المفهوم يعيد إلى الذاكرة اللاهوت الذرفاني (ف ٢١٣ع) المنقولة على الأرجح من قبل ما نوي آسيا الوسطى .

ويشار ايضاً للخاصية التوفيقية للبون ، وبأنها تقليدية اكثر مما هي محورة . وكما

سنرى فإن اللامية ، قد اخذت وطورت ذات العملية . وتبدو التوفيقية مميزة للابداعية الدينية وللعقيرة التيبية في العصر التاريخي .

٣١٥ - تكوين وتطور اللامية

حسب التقليد ، اقيمت البوذية في التيب من قبل الملك سرونغ - باستان - سغام - بو (٦٢٠ - ٦٤١) المعتبرة فيما بعد كصدور عن بوذا اقالو كيتز هفارا . غير ان المساهمة العرضية لهذا الملك في نشر الشريعة من الصعب التأكد منها بدقة . ومعلوم أنه اتبع على الأقل ، في جزء منها ، الممارسات الدينية القديمة . ومن جهة أخرى ، يبدو مؤكداً أن الرسالة البوذية كانت معلومة في بعض أقاليم التيب قبل القرن السابع .

وبصفاتها ديانة دولة ، تأكدت البوذية لأول مرة في الوثائق الرسمية تحت حكم الملك كريستون ايد - بكان (٧٥٥-٧٩٧ ؟) . فهذا الملك ، المعلن انبثاقاً عن مانجوسري manjusri ، دعا كبار العلماء الهنود سانتاركشيتا ، وكامالاشيلا وياداماسامبهافا ، إلى التيب^(٢٥) . وقد تنازع حماية الملك اتجاهان : «المدرسية الهندية» معلمة طريقاً تدرجية للخلاص ، و«المدرسة الصينية» التي عرضت تقنيات تهدف للتنوير المؤقت (شانغ ، وفي اليابانية زين) . وبعد ان شهد تقديم ودفاع كل مدرسة عن طرائقها على التوالي ما بين (٧٩٢-٧٩٤) ، اختار الملك الاطروحة الهندية . وقد جرت هذه المقارنة الشهيرة في دير بزام - ياز المؤسس من قبل خري - ستون Khris-ston في بداية حكمه ، وقد كان هذا الأول في سلسلة طويلة من الأبنية الرهبانية التي ستشاد خلال عدد من القرون . وخريستون هو الذي الحق دوما الملكيات بالاديرة ، مفتحاً بذلك العملية التي ستوصل إلى الشيوعية اللامية .

وقد دعم خلفاءه البوذية بصفقتها ديناً رسمياً ، وتمتع الرهبان في القرن التاسع بوضع متميز في التراتبية السياسية ونالوا ملكيات متزايدة الأهمية بصورة دائمة ، وقد أثار الملك رال - با - كان (٨١٥-٨٣٨) بحماسة المتطرف لصالح الرهبان ، مقاومة النبلاء ، ثم انه اغتيل ، ففجر شقيقه الذي خلفه (٨٣٨-٨٢٢) اضطهاداً عنيفاً ضد البوذيين :

حسب الروايات الاخبارية المتأخرة ، ان هذا قد دعم بقوة البون ، الا انه قد اغتيل ايضا ، وبعد ذلك تجزأت البلاد في مقاطعات متناحرة باستمرار ، وغرقت في الفوضى . وحرمت البوذية خلال اكثر من قرن . فدنست المعابد ، وهدد الرهبان بالموت ، مكرهين على الزواج أو اعتناق البون . وانهارت المؤسسات الكنسية ودمرت المكتبات ، ومع ذلك فإن عدداً من الرهبان المنعزلين استمر بالوجود ، وبخاصة في المقاطعات الهامشية . وقد اوجدت هذه الفترة من الاضطهاد والفوضى المناخ المفضل لانتشار السحر والممارسات التانترية من نموذج تهتيكي .

وحوالي سنة ٩٧٠ أرسل ملك بوذي يي - سي - أود من التبت الغربية ، رين سن بزان بو (٩٥٨-١٠٥٥) إلى كشمير للبحث عن معلمين هنود . ومع هذا بدأ الانتشار الثاني للبوذية . ونظم رين مدرسة كما عمد إلى ترجمة النصوص القانونية ومراجعة الترجمات القديمة^(٢٦) . وفي سنة ١٠٤٢ وصل معلم تان تري كبير يدعى آتيسا إلى التبت الغربية فلحق رين سن ، الذي أصبح مسلماً ، كما لقن تلامذته ؛ ومن بين هؤلاء الاخيرين (بردم - ستون) الذي أصبح الممثل المعتمد بالتقاليد التي علمها آتيسا . وتتعلق هذه باصلاح حقيقي ، هادف لحياء تكوينات أصولية للبوذية : سلوك اخلاقي دقيق للرهبان ، والعزوية والتسك ، والطرق التقليدية للتأمل الخ ...

وقد نال دور الجورو guru في اللاما التيبية (بلاما - bla.ma) أهمية ملحوظة . ويطرح اصلاح آتيسا وخلفائه. الأسس لما سيصبح فيما بعد مدرسة «الفضلاء» دجيلكوبا Dge-lug-pa ، غير ان عدداً من المتدينين ، المعلمين عن انفسهم باداماسامبها فالم يقبلوا ابداً هذا الاصلاح . ومع الزمن سيتهون «كالقدماء» نينينغما با (رين - ما - با) .

وما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر تدخلت مجموعة من كبار المعلمين الروحانيين ، المنشئين لمدارس جديدة والمؤسسين لرهبانيات أصبحت شهيرة . وسافر الرهبان التيبتيون إلى الهند، وكشمير ونيبال للبحث عن (الغورو) guru المعلمين المشهورين ، بأمل ان يلقنهم بأسرار الخلاص (وبخاصة التترية) . وقد كان هذا العصر عصر مشاهير اليوجيين ، والصوفيين والسحرة ، ناروبا ، وماربا ، وميلاريا . فاستلهموا ونظموا مختلف (المدارس) التي سينقسم بعضها ، مع الزمن ، إلى عدة

فروع . وإذا كان من غير المجدي تعدادها ، فإنه يكفي التذكير باسم تزونغ - كها - با (١٣٥-١٤١٩) ، المصلح الناشط في خط آتيسا ومؤسس المدرسة ذات المستقبل الكبير ، والتي تلقى تلامذتها اسم (الجدد) أو الفاضلون (جيلوغبا) . وقد اتخذ الخليفة الثالث لتسونغ - كها - بالقب الدالاي لاما سنة ١٥٧٨ ، وقد نجح (الفاضلون الفيلوبا تحت حكم خامس دالاي لا ١٦١٧-١٦٨٢ نهائيا بتحقيق انتصارهم . ومنذئذ وحتى وقتنا ، يعرف الدالاي لاما بأنه الرئيس الديني والسياسي الوحيد للبلاد . وقد ضمنت مصادر ثروة الأديرة والعدد الكبير من الرهبان ، القراء والقادة الروحيون معاً ، القوة والاستقرار للثيوقراطية اللامية .

أما بالنسبة للقدامى ، نينينغابا ، فقد تميزوا علاوة على النقل الشفهي الغير منقطع للمذهب ، وبالكشوفات المتحصلة بالاستلهام الوجداني لمتدين بارز ، أو المحفوظة في الكتب المشهور أنها «أخفيت» اثناء الاضطهادات و«اكتشفت» فيما بعد . وكما هو الأمر لدى البيون - بو ، فإن العهد الكبير للمكتشفات من النصوص يمتد . لدى (القدامى) من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر . ونظم راهب موهوب جداً ، ومتعلم من القرن الرابع عشر يدعى (كلونشن) مجموعة التقاليد نينغابا في نظام نظري مصاغ بشكل جيد . ومع المفارقة ، فإن الاعتراف الحقيقي (بالقدامى) بدء اعتباراً من القرن السابع عشر . ومع ذلك ، وبالرغم من مختلف الأنظمة الفلسفية ، وبخاصة تنوع الطقوس ، لم يوجد انقطاع حقيقي بين «القدامى» و«الجدد» . وفي القرن التاسع عشر ، تحققت حركة من نوع كنسي ، تابعت تكامل كل «المدارس» البوذية التقليدية .

٣١٦ - مذاهب وممارسات لامية .

لا يعتبر التيبتيون كمجديدين فيما يتعلق بالمذهب ، الا انه يجب أن يؤخذ في الحسبان واقعة انه «في حين ان البوذية قد تلاشت في الهند في بداية القرن الثالث عشر ، غير مخلقة وراءها سوى نصوص ، فهي قد استمرت بالتفتح في التبت في تقليد حي»^(٢٧) . وقد وصل المبعوثون البوذيون الأوائل بعد الانتصار في الهند إلى العربية الكبيرة Grand véhicule (ماهايانا . رف ١٨٧ع) .

وقد كانت المدارس السائدة المادهياميكا ، «الطريق الوسط» المؤسسة من قبل ناجارجونا (القرن الثالث) ، واليوغاكارا أو فيجنانافادا المنشأة من قبل آذنجا (القرن ٤-٥) ، واخيراً التانترا أو فاجرايانا («عربة الالماس») . وخلال القرون الخمسة التالية ، ارسلت كل هذه المدارس ممثليها إلى التبت ، وسارعت في تكوين اللامية .

ويمكن القول ، باختصار ، ان «الاصلاحات» (جيلوغبا) تبعت تعليم ناغارجوننا ، مستعملة المنطق والجدل كوسيلة لتحقيق الخواء Vacuité وانطلاقاً منه ، الحصول على الخلاص (ر. جزء ٢) ، في حين ان (القدامي) اتبعوا في المكان الأول التقليد المؤسس من قبل آذنجا ، الذي أعطى أهمية حاسمة للصياغات الوجيهة من التأمل .

ونؤكد مع ذلك بدقة على ان هذا التمييز لا يقتضي الازدراء بالجدل لدى (القدامي) ، ولا غياب اليوجا في تعليم «الاصلاحيين» . أما بالنسبة للشعائر التانترية فمع انها مطبقة بخاصة من قبل النينغامبا فهي لم تكن مجهولة من قبل الجيلوغبا . وباختصار ، كان للمتدينين الخيار بين طريق مباشر وطريق تدريجي . ولكن الأول كالأخر يفترضان ان المطلق (= الخواء) لا يمكن ادراكه الا بحذف الثنائيات : ذات (مفكرة) - موضوع (فكرة) ، عالم ظاهري - حقيقة كلية ، سمسارا - نيرفانا . وحسب ناجارجونا ، يوجد نوعان من الحقائق : الحقيقة النسبية ، الاتفاقية (سامفرتي) والحقيقة المطلقة (بارامانثا) . ففي المنظور الأول ، ان العالم الظاهري ، مع انه اونطولوجيا غير حقيقي ، يوجد بطريقة مقنعة تماماً في تجربة الانسان العادية . وفي منظور الحقيقة المطلقة ، تكشف الروح عدم حقيقة كل ما يظهر موجوداً ، ولكن هذا الكشف لا يمكن التعبير عنه بالكلام ، ومثل هذا التمييز بين الحقيقتين - اتفاقية ومطلقة - يسمح بالحفاظ على قيمة السلوك الخلقي والنشاط الديني للمؤمنين اللايك .

ان النوعين من الحقيقة هما على علاقة مع مختلف اصناف الكائنات البشرية . وبالتأكيد ، ان كل واحد يمتلك ، في حالة الكمون ، طبيعة البودا ، ولكن تحقيق البوذية يرتبط بمعادلة كارمية Karmique لكل فرد ، نتيجة وجوداته السابقة التي لا حصر لها . المؤمنون اللايك ، المحكومون بالحقيقة الاتفاقية ، يبذلون جهدهم في تجميع المزايا باعطيات إلى الرهبان والفقراء ، ويعدد من الطقوس وبالحج ، ويتلاوة صيغة (اوم ماني

بادم هوم om mani padme hum) . فبالنسبة لهم «الايان هو خاصة ، العمل الذي يعد في التلاوة ، ايمان يسمح بنوع من التركيز ويمحو الذات»^(٢٨) . أما بالنسبة للمتدينين ، فإن وضعهم يختلف حسب درجة كمالهم الروحي . وان عدداً من الرهبان يشاطرون أيضاً في منظور الحقيقة الاتفاقية . بعضهم ، باختيارهم الطريقة السريعة من التنوير ، يجهد لتحقيق تماهي النسبي والمطلق ، والسمسارا والنرفانا ، أي الإدراك بطريقة تجريبية ، للحقيقة الكلية ، الخواء Vacuité . وبعضهم يعلن بسلوكه المنحرف ، بل الضال ، انهم فارقوا «الثنائيات» المخادعة من الحقيقة الاتفاقية .

وكما في الهند (ف ٣٣٢ع) ، فإن المدارس المختلفة للتائرية هي التي طبقت ، بصورة خاصة ، ومع التزامها بأكبر سرية ، تقنيات التأمل والشعائر الهادفة لتحقيق توافق المتضادات la coïncidentia apposerum على كافة المستويات من الوجود . ولكن كل المدارس التيبية قبلت المفاهيم الأساسية للبوذية (ماهايانا) ، وفي المقام الأول منها ان العلم الأرفع (براجنا) مبدأ اثروي وسلي ، مرتبط صميمياً بالممارسة ، أو «وسيلة» (أوبايا) ، ومبدأ مذكر وإيجابي ، وانه بفضل «الممارسة» تستطيع «الحكمة sapience» ان تظهر نفسها . وان اتحادهما ، المتحصل من قبل الراهب على اثر شعائر وتأملات معينة ، يمنح السعادة الكبرى (ماهاسوكها) .

وهناك ، خط مميز للامية وهو الأهمية الرئيسة للغورو (معلم) guru . وبالتأكيد ، انه في الهند البراهمانية والهندوسية ، كما في البوذية الدائية ، كان المعلم معتبراً كأب روحي للتلميذ ، ولكن البوذية التيبية رفعت الغورو لمرتبة شبه الهية : فهو الذي يمنح المسارة للتلميذ ، ويشرح له المعنى الباطني للنصوص ، ويوصل إليه مانترا un mantra سرية وكلية القدرة . ويبحث المعلم بدنياً عن ماهية «الميل السائد» عند التلميذ ، لكي يكشف الوهية الحارسة ، وانطلاقاً منها ، نوع التانترا الذي يناسبه .

أما بالنسبة للتلميذ ، فإن الايمان بمعلمه (غورو) يجب ان يكون مطلقاً . «تكريم شعرة واحدة من المعلم هي مزية اكبر من تمجيد كل البوذات في كل الازمنة (الماضي والحاضر والمستقبل)^(٢٩) . واثناء التأمل يتماهى التلميذ بمعلمه ، الذي هو بذاته متوحد مع الآلهة العليا . ويخضع المعلم لتلميذه للعديد من التجارب ، بهدف اكتشاف صفة

وحدود ايمانه . ماربا يدفع بتلميذه ميلاريا إلى حد اليأس ، باذلاله ، ويشتمه ويضربه ، ولكنه لم ينجح ابداً في زعزعة من ايمانه وتأثير ماربا ، الغاضب ، الظالم والقاسي ، جداً بإيمان تلميذه الذي غالباً ما ييكي في الخفاء . (٣٠)

ويتكون النشاط الديني للرهبان ، اساسا ، في سلسلة من التمارين الروحية من نموذج يوجي - شعائري ، وحيث ان اكثر التمارين أهمية هو التأمل (٣١) . ويمكن للمتدين ان يستعمل بعض الموضوعات الخارجية لدعم التأمل : صور للآلهة ماندالا الخ . . ولكنه كما في الهند ، وبخاصة في التانترية (ف ٣٣٣ع) ، يجب أن تدخل الآلهة الممثلة ، أي «مخلوقة» ومعروضة كما لو على شاشة من قبل الراهب . ويحصل (الفراغ) بدئياً ، حيث تنبثق الآلهة بدءاً من مقطع صوفي . وفي الحال يتوحد الراهب مع هذه الآلهة . «فيكون هنالك آنذ جسد اهي ، مشع وفارغ ، وبامتزاجه دون ذوبان في الألوهة يساهم - بواسطتها بالفراغ» . وفي هذه اللحظة تكون الألوهة حاضرة فعلاً . «يحكى ، على سبيل المثال ، لتأكيدا ، انه بعد مثل هذا الاستحضار بواسطة التأمل ، ان الآلهة الممثلة على الصورة خرجت منها ، واجرت دورة وعادت للدخول إليها : وعندئذ امكن ملاحظة ان الثياب والملحقات كانت في حالة عدم انتظام على الصورة . وقد كان تأمل المعلم بودهيساتف في ساماي كثيفاً جعل الآلهة «إيجايا» حاضرة على مشهد من كل الناس : فقد خرجت التماثيل من المعبد واجرت الدورة وعاودت الدخول لمحلها» (٣٢) .

ان بعض التأملات تتطلب مهارة تقنيات هاتايوغا (ف ١٤٣) ؛ وعلى سبيل المثال ، انتاج الحرارة (غتوم - مو gtum-mo) ، الذي يسمح للناسك ان يجففوا على اجسادهم العارية وفي وضوح الثلج ، اثناء ليلة شتاء . علداً كبيراً من الشراف المبللة (٣٣) . وتستتبع بعض تأملات أخرى للناسك ، الحصول على قوى يوجية (سيدهي) (ف ١٩٥ع) من نوع فقيري Fakirique ؛ وعلى سبيل المثال ، نقل (روحه) في جسد أحد الأموات ، وبعبارة أخرى إحياء الجثة . واكثر التأمل ربعا ، «القطع» gead كود ، ويتكون في تقديم لحمه الخاص لئيفترس للشياطين . «ان قوة التأمل ، تبعث ربة سيفاً من نور ؛ انها تقفر لرأس الذي يقدم الاضحية ، فتقطع رأسه وتقطعه ، وحيث تسارع الشياطي والحيوانات الكاسرة على هذه البقايا الخافقة فتفترس اللحم

وتشرب الدم . وتقيم الكلمات الملفظة لبعض الجاتكاس jatkas ، التي تروى كيف ان البوذا ، في مرحلة تجسد سابق قدم لحمه للحيوانات الجائعة والشياطين أكلة لحوم البشر» (٣٤) .

وهذا التأمل يذكر بالتقطيع لمساري لشامان المستقبل من قبل الشياطين وأرواح الاسلاف . ومن جهة أخرى فليس هذا ، هو المثل الوحيد لادخال المعتقدات والتقنيات الشامانية ، في اللامية lamaisme . فبعض اللاميين السحرة تصارعوا فيما بينهم بوسائل سحرية ، تماما كما يفعل الشامانيون السييريون . واللامات les lamas يوجهون الأوامر للفضاء تماما كالشامانيين ، ويطيرون في الأجواء ، الخ ... (٣٥) . ومع ذلك ، وبالرغم من بنيتهم الشامانية ، فإن التأملات المرعبة للنساك التيبتيين مزودة بدلالات وقيم روحية من مستوى آخر. «ان التأمل لهيكله العظمي الخاص» هو تمرين شاماني مميز ، يهدف ، في اللامية ، لتجربة وجدية بانعدام حقيقة العالم والذات . ونقتصر على مثال الراهب الذي يجب عليه رؤية نفسه «كهيكل عظمي ابيض ، مشع ، وضخم تخرج منه شعلات كبيرة تملأ فراغ العالم» (٣٦) .

٣١٧ - انطولوجيا وفيزيولوجيا صوفية للنور

إن هذه القدرة على التمثل وعلى اعادة تقييم مختلف التقاليد سواء أكانت محلية وقديمة ، أو أجنبية وحديثة ، تميز العبقرية الدينية التيبتيية . وتلاحظ النتائج لمثل هذه التوفيقية بتفحص بعض المفاهيم والشعائر المتعلقة بالنور . وقد لاحظنا سابقاً دور النور باظهار اسطورة الحبل مو وبعض النشكوبيات المحلية أو بون . ويقدر جوزيب توسي الأهمية المعطاة للنور («سواء أكان هذا كمبدأ مولد ، أو كرمز للحقيقة العليا ، أو ككشف منظور مميز لهذا النور ، الذي يأتي منه كل شيء والذي هو حاضري ذاتنا») (٣٧) . كميز اساسي للتجربة الدينية التيبتيية . وبالنسبة لكل المدارس اللامية ، فإن الروح هي نور ، وبهذه الهوية تشكل الاساس للذهب الخلاص التيبتي (٣٨) .

مع ذلك نعيد التذكير ، بأن النور كان معتبرا في الهند وكأنه تجلى للروح والطاقة الخلاقة على كافة المستويات الكونية ، وذلك منذ زمن الريغ - فيدا (ف ٨٢) . ان المطابقة الوهية نفس ، نور ، مني رجولي مصاغة بوضوح في البراهمانا وفي الاوبانيشاد^(٣٩) . وان ظهور الآلهة ، وكذلك ولادة أو اشراقه مخلص (بوذا - ماهافيرا) ، تظهر بافراط من نور مما وراء الطبيعة وبالنسبة لبوذية ماهايانا ، فإن الروح = (الفكرة) هي «منورة طبيعياً» . ويعرف من جهة أخرى ، دور النور في التولوجيات الايرانية (ف ٢٦٥ ع) فيمكن الافتراض اذن بأن الهوية روح - نور ، ذات الأهمية في اللامية ، ستكون النتيجة لأفكار وافدة من الهند ، وبصورة غير مباشرة من ايران . ومع ذلك يحسن تفحص عملية اعادة التفسير واعادة التقييم داخل اللامية ، لاسطورة مما قبل البوذية حول أصل الانسان بدءاً من النور .

فحسب تقليد قديم ، ولد النور الأبيض بيضة ، خرج منها الانسان الأول . وتحكي رواية اخرى ان الكائن الأول تولد من الفراغ وانه كان يشع بالنور . وفي النهاية يفسر تقليد آخر كيف حصر العبور من الانسان - النور إلى الكائنات البشرية الحالية . ففي البدء كان البشر لا جنس لهم ، وبدون شهوات جنسية ، وكان النور عندهم في ذاتهم ، وكانوا يشعونه . ولم يكن هنالك بعد لا شمس ولا قمر . وعندما استيقظت الغريزة الجنسية ، أخذت الاعضاء تظهر ، وعندئذ ظهرت الشمس وظهر القمر في السماء في البدء ، وقد كان البشر يتكاثرون بالطريقة التالية : دخل النور الذي انبثق من جسد الذكر في رحم الانثى فأناره ولقحه . واشبعت الغريزة الجنسية بالنظر فقط . ولكن البشر انحطوا وبدأوا يتلامسون بالايدي ، واخيراً اكتشفوا القران الجنسي^(٤٠) .

والنور والجنس ، حسب هذه المعتقدات ، مبدآن متضادان . عندما يسود واحد من بينهما . لا يستطيع الآخر ان يظهر وبالعكس . وهذا ما يعيد القول بأن النور محتوي او (بالأولى : مأسور) في المنى الذكوري ، وكما كنا ذكرنا سابقاً فإن وحدة الجوهر Consubstantialité للروح (الالهية) ، للنور وللمنى الذكوري هو مفهوم هندو - ايراني . ولكن أهمية النور في الميتولوجيا والتولوجيا التيبية (الحبل مو الخ) ، توحى بأصل محلي لهذه النعمة الاناسية النورية . وهذا ما لا يستثنى ابداً معاودة تفسيرها المتأخر على اثر ، تأثيرات مانوية ، على ما هو راجح .

وفي الواقع ، وبحسب المانوية ، فإن الانسان الأول ، المشكل من خمسة أنوار ، قد غلب وافترس من قبل شياطين الظلمات . ومنذئذ ، توجد الانوار الخمسة اسيرة في البشر ، الخلائق الشيطانية ، وبخاصة في المنى (ف ٢٣٣) ويصادف النور الخماسي في تفسير هندو- تيبتي للميزونا maithuna قران طقوسي يحتدي «اللعبة» ، الالهية ، لأنه لا يجب ان يكتمل بقذف منوي (ف ٣٣٤ع) . ويؤكد كل من كاندرا كيرتي وتزون كايا في شرحهما للجوهياساماجا تانترا على هذا التفصيل : اثناء الميزونا ، حصل قران بنظام صوفي ، وعلى اثره حصل الزوجان على الشعور النيرفاني . هذا الشعور النيرفاني ، عند الرجل ، والمسمى بودهيسيتا «فكرة التيقظ» يظهر نفسه - وينوع ما هو مشابه الى - نقطة (bindu بندو) ، تنزل من قمة الرأس وتملأ الاعضاء الجنسية بدفقة من نور خمسي . ويقرر كاندراكيرتي : «اثناء القران ، يجب التأمل حول عضو التذكير (vagra) والرحم بادما Padma كما لو أنهما ممتلئان ، في الداخل ، بالنور الخماسي»^(٤١) . ويبدو التأثير المانوي واضحاً في صورة النور الخماسي ويلاحظ مشابهة أخرى (ولكنها لا تقتضي بالضرورة الاستعارة) بين التواصل التان تري بعدم قذف المنى والدفاع المانوي لجعل المرأة حاملاً .

في حالة الموت ، تطير روح القديسين واليوجيين من قمة الرأس كسهم من نور وتغيب عن طريق «نقب الدخان للسما»^(٤٢) . وبالنسبة لعموم الفانين ، فإن اللاما يفتح فوهة في رأس الميت لتسهيل (طيران الروح) في المظهر النهائي لسكرة الموت (الاحتضار) وخلال بضعة أيام من الموت ، يقرأ أحد اللامات لتنبية المتوفي كتاب البارود تودول Bardo Thodol (= كتاب تيبتي للموت) . ويتوقع له اللاما بأنه سيستيقظ فجأة بواسطة نور باهر : وهذا هو اللقاء مع ذاته الخاصة التي هي في ذات الوقت الحقيقة الكلية . ويضيف النص الموجه إلى الميت : «لا تخف ، لا ترتعب ، ان هذا هو ألق طبيعتك الخاصة» ويكمل النص ايضا ، ان أصوات الرعد وغير ذلك من المظاهر المربعة «غير قادرة على إلحاق الضرر بك» . أنت غير مؤهل للموت . ويكفي ان تعرف ان هذه الظهورات هي اشكالك الخاصة من الفكر . اعرف كل هذا كما لو كان البارود le bardo (اي الحالة المتوسطة)^(٤٣) . ولكن الميت المشروط بوضعه الكارمي لا يعرف ، تطبيق هذه النصائح . ومع انه تلقى تباعاً انواراً نقية - مثلة للخلاص . وللتماهي مع

جوهر البوذا - فإن المتوفي يتقاد منجذبا بالانوار غير النقية ، مرمزة لشكل ما من وجود -
تالٍ ويعبارة أخرى العودة للأرض^(٤٤) .

ان كل انسان له خطة بالحصول على التحرر في لحظة موته : يكفيه ان يعرف
نفسه في ضوء النور الذي يجربه في هذه اللحظة . والقراءة بصوت عال لكتاب الموت
يشكل دعوة شاملة ؛ ولكن الميت هو دائما المقرر لمصيره . انه هو الذي يتوجب عليه ان
تكون لديه ارادة باختيار ضوء النور والقوة على مقاومة مغريات الوجود - التالي . ويعبارة
أخرى ، ان الموت يقدم امكانية جديدة لأن يتلقن ، ولكن هذه المسارة تقتضي كاية
مسارة أخرى ، سلسلة من التجارب التي يلزم التلميذ الجديد بمواجهتها والتغلب
عليها . ان تجربة النور لموت تال تشكل آخر ، وربما أصعب تجربة مسارية .

٣١٨ - تحيين بعض الابداعات الدينية التيبتيّة .

إن البارد وتودول ، هو بالتأكيد النص الديني التيبتي الأكثر شهرة في العالم
الغربي . وقد ترجم ونشر بالانكليزية في عام ١٩٢٨ ، وأصبح بعد عام ١٩٦٠ لحد ما
الكتاب المفضل ، وبخاصة لعدد كبير من الشباب . وهذه الظاهرة لها دلالتها بالنسبة
لتاريخ الروحانية الغربية المعاصرة . انه يتعلق بنص عميق وصعب ، لا مثيل له في أي
أدب ديني آخر . وان الفائدة التي يثيرها ، ليس بين علماء النفس والمؤرخين والفنانين
فحسب ، وانما أيضاً ، وبخاصة لدى الشباب ، فهي ذات مغزى عرضي
symptomatique : انه في وقت واحد ، يدل على ابطال صفة القداسة الشبه تامة
للموت في المجتمعات الغربية المعاصرة ، وعلى الرغبة اللاهنة لاعادة التقييم -
دينيا وفلسفياً - للعمل الذي يتم ، ويضع الوجود البشري موضع التساؤل^(٤٥) .

وينسب اكثر تواضعا ، ولكنها ذات دلالة ايضاً تلك الشعبية المتزايدة للشامبالا
shambala ، بلاد غامضة ، والتي حسب التقليد ، حافظت على نصوص
الكالاكاركا^(٤٦) .

ويوجد عدد من الادلاء نحو شامبالا ، مؤلفة من قبل اللامات ، ولكنها بالأحرى تتعلق بجغرافيا اسطورية ، وفي الواقع ، ان الصعوبات الموصوفة في الأدلة (جبال ، انهر ، بحيرات ، صحاري ، غيلان مختلفة) تذكر بخطوط السير les itinéraires البلدان الخرافية التي تكلم عنها العديد من الميثولوجيات والفولكلورات . وما هو أكثر من ذلك ان بعض المؤلفين التيبتيين يؤكدون بإمكانية الوصول للشامبالا على اثر سفر منجز في الحلم او في حالة انشاء^(٤٧) . وفي هذه المرة ايضا ، ان تخيل الاسطورة القديمة لبلاد فردوسية ، وبالتالي واقعية يكشف حنياً مميزاً للمجتمعات الغربية المتزوعة عنها صفة القداسة . ويحسن التذكر للظفر الاستعراضي للقصة القصيرة الافق المفقود Horizonperdu وبخاصة ، للفيلم المستوحى منها .

وبعد البارودودول ، فإن المؤلف التيبتي الوحيد الذي لاقى بعض النجاح في الغرب كان حياة ميلاريا la vie de milarepa ، المحرر نحو نهاية القرن الثاني عشر والمترجم للفرنسية من قبل ج. باكو (١٩٢٥) وللأنكليزية من قبل ايوان - دانتر (١٩٣٨) . ومن المؤسف ، ان المؤلف الشاعر ميلاريا (١٠٥٢ - ١١٣٠) بالكاد قد بدأ يعرف . إن حياة ، وكذلك مؤلف ميلاريا تمثل فائدة استثنائية . فهذا الساحر الصوفي ، والشاعر ، قد كشف بشكل يدعو للعجب عن العبقرية الدينية التيبسية فماليربا بدأ بتطويع السحر بهدف التآر لنفسه ضد عمه ، ويعد طول تدريب قاس عند ماربا ، اعتزل في مغارة ، مدركاً القداسة ، وعرف غبطات «ناج في الحياة» . وفي قصائده - التي ستصبح شهيرة عندما سترجم من قبل الشعراء - ، ان يحدد تقنية الاغاني (دوها doha) للتنتارين الهنود بتبنيه للأغاني الوطنية . «هذا ما فعله بتذوق ، وانما أيضاً ضمن الفكرة بجعل الفكر البوذي عامياً ، وبأن يجعله مألوفاً ، بادخاله ضمن الأغاني الشعبية»^(٤٩) .

وأخيراً ، من الراجح ، أن «ملحمة جيزار» ستكون مكتشفة قريباً ، ليس من قبل المتخصصين بالمقارنة فحسب ، وانما أيضاً من قبل جمهور المثقفين . ومع ان التحرير النهائي يبدو حاصلاً حوالي القرن الرابع عشر ، فإن الدور الأكثر قدماً للملحمة تأكد قبل ثلاثة قرون . والنغم المركزي شكل بتحول البطل . فعبير العديد من التجارب ،

يصبح الولد البشع والشقي محارباً لا يقهر وأخيراً يصبح الملك المعظم جيزار قاهر
الشياطين والملوك في اقطار العالم الاربعة (٥٠) .

واذا تذكرنا الاصداء في الغرب لبعض الابداعات التيبتيية ، فذلك لأن عدداً من
الرهبان والمثقفين التيبتيين قد وجدوا ، على اثر الاحتلال الصيني ، مشتتين في كل
مكان تقريبا في العالم . وهذه الدياسبورا (الشتات) أمكن لها مع الزمن ، أن تحور
جندياً ، أو حتى ان تمحي ، التقليد الديني التيبتي . غير ان التعليم الشفاهي للامينين
من جهة اخرى ، يمكن له ان يحصل ، في الغرب نتيجة قابلة للمقارنة مع خروج العلماء
البيزنطيين المثقلين بمخطوطات ثمينة ، بعد سقوط القسطنطينية .

ويمثل التركيب الديني التيبتي بعض المشابهة مع الهندوسية المتوسطة ومع
المسيحية . وفي الحالات الثلاثة ، يتعلق الأمر بقاء بين ديانة تقليدية (أي قداسة ذات
بنية كونية) وديانة للخلاص (البوذية ، الرسالة المسيحية ، الفشنوية) وتقليد باطني
(تانتريسم ، غنوصية ، تفنيات سحرية) . وهذه الصلة اكثر وقعا بين الغرب القروسطي
المسود بالكنيسة الرومانية والثيوقراطية اللامية .

٩٨٥/١١/٢٢-٥

حواشي الفصل التاسع والثلاثين

- ١ - مظاهر الاساطير . م الياد
- ٢ - أ. - ستين - حضارة التيت «لكي توثق علاقة الجماعة مع الآلهة والاجداد من الضروري الصعود في كل قصة للأصل لهذه المؤسسة وتلك هي القصة التي يجب ان تكون رسمية وحقيقية ، وذلك هي مسألة الشعائر ذاتها للامية التي تذكر دوماً بالأصل السابق الاسطوري الذي يبرر هذه القيمة» .
- ٣ - ٦ - اسماء المراجع المعتمدة .
- ٧ - القبور والقصور للملوك القدامى كانت مبنية على طريقة مو حتى بعد قطع الجبل من قبل ديجون .
- ٨ - الجبال المقدسة هي كذلك آلهة حروب ، تهدي رؤساء أو ملوك وهي مرتبطة بأهل نسب القبيلة .
- ٩ - على سقف المنزل توجه (آلهة القمة) المثلة بمذبحين من حجارة وراية . وطقسهم مضاهي لذلك المتجز على الجبال .
- ١٠ - سبق تأكيد التوفيقية في القرن الحادي عشر - ميلاريا تكلم عن قطع الجبل ، والتسلق للتحريير .
- ١١ - ١٥ - اسماء المراجع المعتمدة .
- ١٦ - يقول بلونلو (ديانات التيت . في الواقع ان البوذية (لم يمكن لها قبول الاضاحي الحيوانية ، وبالأولى البشرية . ولكنها وبصورة خاصة ، ان مفهوم الملك - الاله الذي يقيم نظام العالم ، والايمان بالخلود ، وفي حياة سعيلة بعد الموت ، مفهومة على صورة الحياة الارضية ومقيمة هذه الاخيرة اذن . ولم تترك اي محل للمبادئ الاساسية للبوذية : استمرارية كل وجود ، بما في ذلك ، وجود الكون ، والألم المرتبط بالوجود ، التناسخ samaseura وتبعية الأعمال المحتمة في هذه الحياة أو الآخرة ومن جهة اخرى

Kamman المثل الأعلى المثل بـ البوغ كمثال للعدالة الاجتماعية ، لسعادة البشرية وليس الكمال الخلفي .

١٧ - ستين - بحوث حول الملحمة (البارد) في التيب

١٨ - ستين - يقول : حسب التيبين ، في فترة الانسان ، تدخل روح الطفل بواسطة ثقب في رأس الأم ، وبواسطة هذا الثقب تترك الجسد في لحظة الموت .

١٩ - ٢٠ - اسماء المراجع المعتمدة

٢١ - نغم اسطوري تأكد على فترات في الشرق الأدنى والعالم الاغريقي - الروماني في العصر الهلنستي ، وفي الهند والصين . الأمر الذي لا يستثنى من جهة سوى ان عدداً قليلاً من النصوص قد استمرت حقيقة واعيد ايجادها بعد الاضطهادات .

٢٢ - أ.م. بلونلو - اضافة الى ذلك يستعيد البون نظرية البوذية ونظرية الاجساد الثلاثة لبوذا . في البانتيون بالرغم من اختلاف الاسماء (عدد من اصناف الالهة والشياطين مشتركة في الديانتين) .

٢٣ - ٢٤ - اسماء المراجع .

٢٥ - حول هذا الأخير اقيمت ميتولوجيا كاملة منذ اسند إليه ايمان التيب ، واعتبره بعضهم كأنه البوذا الأول .

٢٦ - لقد عرض هكذا عن الامس لمجموع كبير : المائة جزء من كانجور (مستكملة على خطابات بوذا والـ ٢٢٥ جزءاً من تانجور ترجمات الشروح والرسائل النظامية المؤلفة من قبل المؤلفين الهنود) .

٢٧ - اسم المرجع

٢٨ - بفضل المزايا المجمع اثناء هذه الحياة ، يأمل اللايك باعادة التجسيد في حالة أعلى

٢٩ - نصوص ذكرها ستين - ديانة التيب .

٣٠ - كل دير موصول بترانات خاصة من أجل العزلة والتأمل للربان

٣١ - ٣٢ - اسماء المراجع المعتمدة .

٣٣ - يتعلق بتقنية قديمة مؤكدة سابقاً في الهند القديمة (نابا ٧٨ع) وميزة للشامانيين - م الياد حول الشامانية .

٣٤ - ر . بليشيمر - الكنيسة الصفراء يقول «ان ممارسة good لا يمكن لها ان تكون سوى نتيجة لتحضير طويل روحاني . انها محفوظة للتلميذ القوي بخاصة ، المتكلم روحانيا وان لم يكن ، رازها لملوسات اثارها بذاته ، فهو سيضيع العقل . ورغم الاحتياطات المتخذة من قبل المعلمين ، فإنه قد يحصل احيانا على ما يبدو»

٣٥ - ٣٦ - اسماء المراجع المعتمدة

- ٣٧ - ٤٠ - اسماء المراجع المعتمدة
- ٤١ - نص ذكره توكسي . . ونذكر انه بالنسبة للماهايانا فإن العناصر الكونية السكلزها والداهو موحدة مع التاتاغاتا . وعليه فإن الحقيقة الكلية للتاتاغاتا هي النور الملون بألوان مختلفة . وكل التاتاغاتات هي الانوار الخمسة) كما يكتب كاندرا كيرتي
- ٤٢ - هذه الشعيرة اطلاق الروح من يافوخ الرأس تسمى ايضا (فتحة باب السماء)
- ٤٣ - ايفان ديتز (كتاب الموت)
- ٤٤ - بعد الانوار الابيض والأزرق يرى النور الأصفر والاحمر والاخضر واخيرا كل الانوار مجتمعة
- ٤٥ - تقصد النجاح في عالم الغرب المعاصرة قورن بالانتشار السريع للرفض الهيكلية *squelettes* الذي هو حسب (لوفر) من أصل تيتي .
- ٤٦ - هذه المدرسة التانترية قد درست بشكل غير كاف بدءاً من اسيا الوسطى والبنغال وكشمير وبعدئذ ادخلت في التيت مع نموذج مميز من قياس الزمن وتطبيقاته الفلكية .
- ٤٧ - ٥٠ - اسماء المراجع المعتمدة .

فهرست موضوعات الجزء الثالث

الفصل الواحد والثلاثون

- ٣١- ديانات اوراسيا القديمة - تركو- منغول- وفينو- اوغريان ، وبالطور سلاف .
٢٤١- صيادون رحل ، محاربون ٢٤٢- تانجري ، (الاله السماوي) ٢٤٣- بنية العالم . ٢٤٤-
طواري الخليقة . ٢٤٥- الشامان والمسارة الشامانية . ٢٤٦- اساطير وشعائر شامانية ٢٤٧- دلالة وأهمية
الشامانية . ٢٤٨- ديانات الازيات الشماليين والفنلنديين والاورغرين ٢٤٩- ديانة البابليين . ٢٥٠-
وثنية السلاف - ٢٥١- طقوس ، اساطير ، ومعتقدات السلاف القدامى .

الفصل الثاني والثلاثون

- الكنائس المسيحية حتى الازمة الايقونية (من القرن ٨-٩) ٢٥٢- روما لن تتلف . ٢٥٣-
اوغسطين : من تاغاست إلى هيون . ٢٥٤- كبار متقدمي اوغسطين : اوريجين . ٢٥٥- الأوضاع
الجدلية لأوغسطين . مذهبه بالنعمة وسبق التقدير . ٢٥٦- عبادة القديسين : الشهادة ، الرفات ،
الحج . ٢٥٧- الكنيسة الشرقية ونهضة والتولوجيا البيزنطية . ٢٥٨- تمجيد الايقونات وغير الايقونيين .

الفصل الثالث والثلاثون .

- محمد ونهضة الاسلام .
٢٥٩- الله ، اله محاميد للعرب . ٢٦٠- محمد (رسول الله) ٢٦١- السفر الوجودي للسماء
والكتاب المقدس . ٢٦٢- الهجرة للمدينة . ٢٦٣- من الهجرة للنصر . ٢٦٤- رسالة القرآن . ٢٦٥-
انتشار الاسلام في البحر المتوسط الشرق الادنى

الفصل الرابع والثلاثون

الكاثوليكية الغربية من شارلمان حتى جواشيم دي فلور
٢٦٦ - المسيحية اثناء القرون الوسطى العليا . . ٢٦٧ . تمثل وتفسير التقاليد الما قبل المسيحية -
الى الملكية المقدسة . ٢٦٨ - الصليبيون - اخروية وسياسة . ٢٦٩ - دلالة دينية لفن القصة والحب
الغزلي
٢٦٩ - ٢٧٠ - باطنية وابداعات ادبية : لتروبادور - انصار الحب . دورة الغرال ٢٧١ - جواشيم
دي فلور : لاهوت جديد للتنازع

الفصل الخامس والثلاثين

لاهوتيات وصوفيات اسلامية
٢٧٢ - تأسيسات اللاهوت الأعلى . ٢٧٣ - الشيعة والتأويل الباطني . ٢٧٤ - الاسماعيلية
وتمجيد الامام : البعث الكبير ، المهدي ٢٧٥ - صوفية باطنية وتجارب صوفية . ٢٧٦ - بعض معلمي
الصوفية - من ذي النون إلى الترمذي . ٢٧٧ - الخلاج ، صوفي وشهيد . ٢٧٨ - الغزالي والمصالحة بين
علم الكلام والصوفية . ٢٧٩ - أول المينافيزيقيين ابن سينا ، الفلسفة في اسبانيا الاسلامية . ٢٨٠ -
اخر واكبر مفكري الاندلس : ابن رشد وابن عربي . ٢٨١ - السهروردي وصوفية الانوار . ٢٨٢ -
جلال الدين الرومي : موسيقى شعر ورقص مقدس ٢٨٣ - ظفر الصوفية وردة اللاهوتيين : الكيمياء .

الفصل السادس والثلاثون

اليهودية والتمرد لباركوبا حتى الحصريين
٢٨٤ - تقييش الميشنا ٢٨٥ - التلمود . الردة ضد الرينية - القرايط . ٢٨٦ - لاهوتيون وفلاسفة
يهود في القرون الوسطى . ٢٨٧ - ابن ميمون بين اريسطو والتوراة ٢٨٨ - أو تعبيرات الصوفية اليهودية -
٢٨٩ - القبالة القروسطية ٢٩٠ - اسحق لوريا والقبالة الجديدة . ٢٩١ - الغادي المرتد . ٢٩٢ -
الحصيدة

الفصل السابع والثلاثون

حركات دينية في اوروا : من القرون الوسطى الأولى لعشبة الاصلاح
٢٩٣ - الهرطقة الثنائية في الامبراطورية البيزنطية . . البوغومولية ٢٩٤ - البوغومولية في الغرب :

الكاتار ٢٩٥ - القديس فرنسوا الاسيزي . ٢٩٦ - القديس بونافانتورا واللاهوت الصوفي . ٢٩٧ - توما الاكويني والسكولاستيك ٢٩٨ - المعلم ايكهارت : من الاله للتأله . ٢٩٩ - الشفقة الشعبية ومخاطرة الورع . ٣٠٠ - مصائب وكوارث السواخون حتى الورع الحديث . ٣٠١ - نيقولا دي كوز وغروب القرون الوسطى . ٣٠٢ - بيزانطة وروما . مسألة الفيلوك . ٣٠٣ - الرهبان - الهيريشاسك . القديس غريغور بالاماس .

٣٠٤ - استمرار حياة التقاليد الدينية الى قبل المسيحية

٣٠٥ - رموز وشعائر لرفض تطهيري .

٣٠٧ - مارتان لوثر والاصلاح في المانيا - ٣٠٨ لاهوت لوثر - جدانه مع الراعي

٣١٠ - انسانية - افلاطونية - محدثة وهرمسية طيلة عصر النهضة .

٣١١ - تقييحات جديدة للكيمياء - من بار اسليتر - لينوتن .

٣١٢ - الديانات التيبية - ديانة الرجال .

٣١٣ - المفاهيم التقليدية - الكوزموس - البشر - الآلهة .

٣١٤ - اليون . مواجهات وتوفيقية .

٣١٥ - تطور وتكوين اللامية .

٣١٦ - ممارسات ومذاهب لامية .

٣١٧ - انطولوجيا وفيزيولوجيا صوتية للنور .

٣١٨ - تحيين بعض الابداعات الدينية التيبين .

ديانات أوراسيا القديمة - الناس المسيحية حتى الآن - الأيقونية - نخضة - الإسلام - الكاثوليكية الغربية
صوفيات إسلامية - اليهودية - وثودا - كروبا - حركات دينية في أوروبا - القرون الوسطى - الإسلام - ديانة البيت